



الى اعتاب سمو الجناب العالي الخديوي عباس باشا حلمي الثاني المعظّم

« مولاي »

ما برح السودان مطمحاً لابصار ملوك مصر وغرضاً ترمي اليهِ سهامهم فما قام ملكٌ عظيم على مصر الأَجرَّد على السودان جيوشهُ ودوَّخهُ بغزواتهِ وفتوحاتهِ حتى وفّقهُ الله بمولاي الامير وبمن تقدمهُ من امرآء عائلتهِ العلوية الفخيمة فمدُّوا فتوحاتهم الى حد لم يصل اليهِ ملكٌ قبلهم ونشروا فيهِ من اعلام المدنية والعمران ما خلد لهم الفخر وحسن الذكر على مر الايام

وقد كان من عادة ملوك مصر القدماء ان ينقشوا اخبار فتوحاتهم على جدران هياكلهم ومدافنهم الفخيمة تخليداً لتلك الفتوحات وافتخاراً بما اظهروا في تلك الاقطار من الصولة والاقتدار حتى اننا قلما علمنا شيئاً عن تاريخ السودان القديم وما كان بينهُ وبين مصر من العلائق والفتوحات الاّ من تلك الآثار والكتابات

ولقد اسعدني الحظ يا مولاي بالدخول في خدمة جيشكم المظفر في قلم المخابرات الحربية فرافقتهُ في كثير من الفتوحات الحديثة واطلعت بالبحث المدقق على مآثر الملوك المصريين في السودان فاذا بمآثر مولاي الامير واسرتهِ الكريمة فيهِ احق بالفخر والتخليد من مآثر سائر الملوك الذين تقدموهم ٠ فمددت يدي الى اكتساب هذا الشرف باقامة هذا التاريخ اثراً كتابياً عربياً يبقى الى ما شآء الله فيعرب للاجيال الحاضرة والمقبلة عما لمولاي الامير ولاسرتهِ الكريمة من الايادي البيضاء في بلاد السود كما يعرب عن مآثر الملوك الذين تقدموهم جاعلاً مآثر كل من العصرين في جزء على حدته ليظهر الفضل بالمقابلة ٠ وقد جعلت للتاريخ جغرافية وافية في جزء ثالث ليسهل حفظهُ وتحسن مطالعتهُ

وانا الآن استميح بأن ارفع هذه النسخة منهُ قبل نشرهِ الى مقام مولاي الامير مصدرة برسمهِ الكريم على انهُ خدمة عامل امين قائم بالواجب معترف بالفضل ٠ ولي كل الامل انهُ يكون لسموكم دليلاً صادقاً ومعجماً وافياً شاملاً لكل ما ترام معرفتهُ وتلذ مطالعتهُ من احوال السودان

وغاية رجائي ان تحل تقدمتي هذه لدى جنابكم الرفيع محل القبول وترمق بعين الرضى العالي وذلك حسبي ٠ والله اسأل ان يطيل بقآء سموكم مؤيداً بالنصر رافلاً بحلل الفخر مع سمو ولي العهد المعظم وسائر الانجال الكرام ما توالى الجديدان ٠ وتعاقب النيران

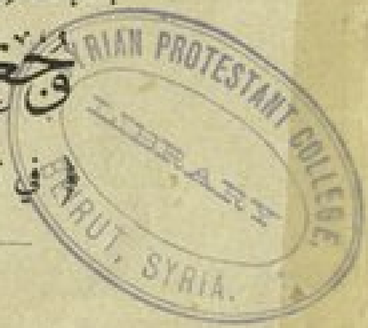
عبده

تاريخ السودان

القديم والحديث

وجغرافيته

(في ثلاثة اجزاء)



لمؤلفه

نعوم بك شقير

« رئيس قلم » وكالة حكومة السودان بمصر

THE

HISTORY & GEOGRAPHY OF THE SUDAN

(IN THREE VOLUMES)

BY

NAUM SHOUCAIR BEY B. A.

Chef-de-Bureau, Agent General's office S.G. Cairo

مطبعة المعارف ✲ بشارع الفجالة بمصر

تقدمة الكتاب

باذن خاص

الى عطوفة الماجور جنرال (الفريق) السر فرنسيس رجينلد ونجت باشا

حامل نيشان الحمام ونيشان القديسين ميخائيل وجورج ونيشان الامتياز الخ

سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام

(اعجاباً)

بمآثره الحسان في استرجاع السودان وقد كللت بنصرته على الخليفة عبد الله تلك النصرة الباهرة التي ضربت الضربة الاخيرة القاضية على المهدية ورجالها واعدّت البلاد الرائعة الآن في حكمه السعيد لمستقبل سام مجيد

(واشعاراً)

بجميل عنايته التي شمل بها مؤلف هذا الكتاب

مصر في ٢٧ اوكتوبر سنة ١٩٠٣ «نعوم شقير»

THIS WORK IS

DEDICATED

(by permission)

to

Major-General (El-Ferik) Sir Francis Reginald Wingate Pasha,

K. C. B., K. C. M. G., D. S. O., &c &c,

Sirdar of the Egyptian army and Governor General of the Sudan

in token

of admiration of the heroic feats achieved by him in the recovery of the Sudan, crowned by his brilliant victory over the Khalifa Abdulla which dealt the last decisive blow to Mahdism and prepared the country, now under His Excellency's happy rule, for a glorious and prosperous future.

and

of deep gratitude for his unfailing kindness to the author.

Cairo 27th October 1903. NAUM SHOUCAIR

اما التاريخ القديم فقد اقتطفتهُ نبذة نبذة او جملة جملة من كتب المؤرخين القدماء والمحدثين الذين اعتمدوا في ما كتبوهُ على الآثار القديمة . ما عدا تاريخ دارفور القديم فاني اخذتهُ برمّته عن بعض ثقاتها . واما التاريخ الحديث والجغرافية فقد اعتمدت في معظم ما كتبت على محفوظاتي الخاصة واستقصائي الشخصي من ثقات يعدون بالمئات . وكنت اذا اختلف الرواة في امرٍ ما اجمعهم في مكان واحد واستقصي الحقيقة منهم جميعاً وكثيراً ما اجتمع عندي لحادثة واحدة بعضة عشر رجلاً من رواتها حتى اذا ما قضوا اياماً متوالية في المحاورة والمذاكرة تدبّرت ما اجمعوا عليه فاذا لم يتفق مع ما ثبت لي من الحقائق او لم يطابق احكام العقل والعادة استأنفت البحث مع جماعة آخرين حتى اظفر بالحقيقة فاثبتها . وقد تحدّيت هذه الخطة منذ عقدت النيّة على اصدار هذا الكتاب قبيل حملة دنقلة سنة ١٨٩٦ . واتفق اني بعد ان عانيت المشاق في تحرّي الحقائق على النمط المشار اليه ظفرت « بسيرة المهدي » للشيخ اسماعيل عبدالقادر الذي تحرّى الوقائع في السودان كما تحريتها في مصر . ثم شهدت واقعة ام درمان وفزت بكتب المهدي والخليفة وامرائهما فتصفحتها كتاباً كتاباً فاذا هي والسيرة مصدقتان لما اثبتهُ من حقائق الثورة كل التصديق . وفي ذيل هذه الديباجة بيان في اشهر المستندات واعظم الثقات الذين اخذت عنهم

‹ اسلوبهُ ولغتهُ › وقد وضعت الكتاب على اسلوب مجمل سهل العبارة جزلها تفهمهُ العامة وترضى بهِ الخاصة وضمنتهُ الكثير من النوادر واللطائف التاريخية والتقليدية لتحسن مطالعتهُ ويسهل حفظهُ

‹ الرسوم والخرط والاختام › وحليتهُ برسوم المشاهير من اهل السودان وغيرهم ممن لهم علاقة بالسودان . مع اختام بعضهم . وصور بعض الوقائع والامكنة الشهيرة . وخارطة عامة شاملة لاهمّ البلاد المذكورة في التاريخ والجغرافية مع ما حولها من البلاد المجاورة لها كالحبشة وبلاد العرب وسورية والعراق وودّاي وولاية الكونغو الحرّة

‹ فهارسهُ › وجعلت للكتاب فهرسين فهرساً في اوله ذكرت فيه المواضيع والوقائع حسب ابوابها وفصولها مع ذيل في اسماء الخرط والرسوم والاختام . وفهرساً

في آخره ذكرت فيه المواضيع والوقائع والاعلام على ترتيب حروف الهجاء.

﴿ اسمهُ ﴾ وبعد ان تم على هذا المنوال سميتهُ باسم موضوعهِ اي: ﴿ تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ﴾ فجاء بعونهِ تعالى كتاباً عاماً ومعجماً وافياً فيهِ كل ما تلذ مطالعتهُ وتهم معرفتهُ عن احوال السودان من تاريخ وجغرافية وآداب وفكاهة ورياضة مما يناسب الخاصة والعامة المدارس والجمهور

﴿ مغزاهُ ﴾ وقد جاء في تاريخهِ من المواعظ والعبر للامة والافراد ما يرى في تاريخ كل بلاد اشتهر امرها وقدم عهدها وهو: ان الجهل وتفرق الكلمة من اكبر دواعي الضعف والانحلال . وان العدل قوام الملك ولن يثبت ملك مؤسس على الظلم والفساد . وان الباطل لا يدوم مع الزمان ولا يدوم مع الزمان الا الحق ٭ بل ترى فيهِ هذه المواعظ والعبر بابلغ معانيها واعظم صورها ولا سيما في الثورة المهدية

﴿ تقدمتهُ ﴾ هذا ولما كان الفضل الاعظم في حصولي على الكثير من حقائق هذا الكتاب عائداً الى قلم مخابرات الجيش المصري في عهد مديره السابق الماجور ونجت وهو الماجور جنرال الفريق السر رجينلد ونجت باشا سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام الحالي وكان لهذا النابغة المآثر الحسان في استرجاع السودان ولهُ فيهِ الآراء السديدة والتآليف العديدة وقد شملني بعنايتهِ الشريفة فسهّل عليَّ عناء التأليف — رأيت ان اجعل كتابي هذا تقدمة لهُ اشعاراً بجميل عنايتهِ واعجاباً بحسن مآثره فاستأذنتهُ في ذلك فتكرم بقبول التقدمة بعبارة هذه ترجمتها:

« يسرُّني جداً ان اقبل تقدمة هذا الكتاب الذي لا اشك في انهُ سيكون تحفة سنية للمعارف السودانية » ٭ فعسى انهُ يحقق ظنهُ الكريم بهِ ويقع لدى جميع اهل الادب ومحبي الحقيقة موقع القبول

﴿ ختام ورجاء ﴾ وفي الختام اسأل حضرات المطلعين عليهِ الكرام ان ينبهوني الى اي خطاءٍ يرونهُ فيهِ لاصلحهُ في طبعة ثانية فاني لست اضمن نفسي من الخطاء ولو اني بذلت في ضبطهِ وتصحيح روايتهِ جهدي فان العصمة لله وحدهُ وهو المتفرد بالعلم والكمال

مصر القاهرة في ٢٧ اكتوبر سنة ١٩٠٣ « نعوم شقير »

ديباجة الكتاب

(سبب تأليفهِ) قدَّر الله سبحانهُ لي السفر الى هذا القطر السعيد بعد انطفاء الثورة العرابية فيهِ واشتعال الثورة المهدية في السودان في اواخر سنة ١٨٨٤ . وكان الانكليز قد جرَّدوا حملة بقيادة اللورد ولسلي لانقاذ الجنرال غوردن من حصار الخرطوم . وكنت قد اتممت دروسي العلمية في المدرسة الكلية الانجيلية السورية في بيروت وانا اذ ذاك في عنفوان الشباب ويلذُّ لي اقتحام الاخطار فانتظمت في قلم المخابرات ورافقت الحملة الى كورتي وآبار الجكدول وعدت الى مصر بمعية اللورد ولسلي في اوائل سنة ١٨٨٥ . ثم دُعيت الى مكتب قومندانية الجيش الانكليزي في اسوان فقضيت فيهِ سنتين ورجعت عند رجوع هذا الجيش من الحدود سنة ١٨٨٧ . وبقيت الى ان دخلت قلم مخابرات الجيش المصري بالقاهرة سنة ١٨٨٩ فصحبتهُ لاسترجاع طوكر سنة ١٨٩١ . ثم لاسترجاع دنقلة سنة ١٨٩٦ . ثم لاسترجاع الخرطوم سنة ١٨٩٨ وشهدت معهُ جميع الوقائع التي حصلت في هذه الفتوحات كما بينتهُ في مواضعهِ

فشوقني ذلك كلهُ الى معرفة تاريخ السودان وجغرافيتهِ معرفة وافية فتصفحت كتب التاريخ والسياحات التي تبحث في السودان صريحاً او عرَضاً من قديمة وحديثة افرنجية وعربية مطبوعة وغير مطبوعة . ومازجت الاهلين على اختلاف طبقاتهم واجناسهم في مصر والسودان فاختبرت عاداتهم واخلاقهم واخذت عن ثقاتهم ما علموهُ من تاريخ بلادهم مما خبروهُ بانفسهم او حفظوهُ عن آبائهم حتى انهُ لم يكد يبقى اثر عن السودان في ذاكرة اهلهِ او في الكتب الا اطلعت عليهِ واثبتهُ في محفوظاتي الخاصة . فاجتمع عندي مطول ضخمٌ جامع كل ما ترام معرفتهُ عن احوال السودان مما لا يوجد في كتاب واحد من الكتب العربية او الافرنجية بل ليس منهُ في العربية الا رسائل متفرقة او نبذ خاصة من مباحث التاريخ او الجغرافية

هذا ولما كان للسودان العلاقة الشديدة بمصر وكان له معها شأن في كل دور

من ادوار التاريخ حتى انهُ لا يتم تاريخ مصر الا باتمام تاريخ السودان. وقد دخل السودان الآن في طور جديد تخفق فوقهُ الرايتان الانكليزية والمصرية وتتولاهُ حكومة منظمة قوية باسم «السودان الانكليزي المصري» . واهتم الكثير من سكان هـذا القطر وغيرهِ للوقوف على حقيقة حال السودان بقصد المهاجرة اليهِ او المتاجرة فيهِ . وكان لادباء السودان ولع شديد في حفظ آثارهم والوقوف على تاريخ بلادهم ولم يتسنَّ لاحد منهم ادراك هذه الامنية — لذلك كلهِ رأيت ان الخّص مما جمعتهُ كتاباً وافياً في تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته مما تهمّ الجمهور معرفتهُ ويجمل بالمدارس اقتناؤهُ

﴿ اجزاؤهُ ﴾ فاغتنمت فرص الفراغ الثمينة ووضعت هذا الكتاب في ٣ اجزاء :

﴿ الجزء الاول ﴾ في جغرافية السودان الطبيعية. والادارية. والمدنية. مع ذكر عادات اهلهِ واخلاقهم وخرافاتهم. كل موضوع في باب

﴿ الجزء الثاني ﴾ في تاريخ السودان القديم ويشمل تاريخ ايثيوبيا . والنوبة. والبجة . وسنار . ودارفور . كل تاريخ في باب

﴿ الجزء الثالث ﴾ في تاريخ السودان الحديث ويشمل تاريخ الفتح المصري . والثورة المهدية . واسترجاع السودان . كل تاريخ في باب (اما الحبشة فقد افردت لها مؤلفاً برأسهِ)

وقد جعلت تحت كل باب فصولاً وتحت كل فصل بنوداً وعنيت عناية تامة بترتيب الابواب والفصول والبنود وتنسيق الوقائع والمواضيع فيها على نسق خاص وافٍ حتى انهُ لم يبق مطلب من مطالب التاريخ والجغرافية الا اتيت على ذكرهِ في محلهِ اجمالاً او تفصيلاً حسبما اقتضاهُ المقام . واما وقائع التاريخ فقد اتيت على ذكرها عصراً عصراً في حلقات متصلة كانها سلسلة واحدة من اول عهد التاريخ الى اليوم

﴿ مستنداتهُ ﴾ وقد بذلت اقصى الجهد في تحرّي الحقيقة وتقرير الواقع في كل ما كتبت فلم اثبت خبراً او امراً الا كنت قد شهدتهُ بعيني او خبرتهُ بنفسي او اخذتهُ عن اثر او تاريخ من الآثار والتواريخ المشهورة او عن ثقة او اكثر من الثقات المعروفين من اهل السودان او ممن عاشوا في السودان زماناً طويلاً

﴿ سيرة السر صموئيل باكر ، بالانكليزية ﴾ وقد كتب سيرتهُ صديقان لهُ ١٨٩٥م
﴿ الزبير رحمت باشا ﴾ فاتح بحر الغزال ودارفور وقد اخذت عنهُ سيرتهُ بنفسي ١٩٠٠م

مستندات تاريخ دارفور القديم : الجزء الثاني الباب الخامس

﴿ تاريخ دارفور ، بالافرنسية ﴾ للدكتور برون المطبوع سنة ١٨٣٢ م عن تاريخ الشيخ محمد عمر التونسي الذي زار دارفور سنة ١٢١٨هـ ١٨٠٤ واقام فيها ٨ سنوات
﴿ الشيخ محمد الطيب ﴾ ابن الشيخ الامام محمد بن التنبكتي الملاوي من اعيان دارفور الذين أُتي بهم الى مصر بعد الفتح سنة ١٩٠٣
﴿ علي بك الخبير ﴾ من اعيان تجار دارفور ، وقد عاصر بعض سلاطين الفور المتأخرين

مستندات تاريخ الثورة المهدية : الجزء الثالث الباب الثاني

﴿ تاريخ الحملة النيلية ، بالانكليزية ﴾ للكولونل كولفل الذي رافق الحملة النيلية والف فيها كتاباً بمجلدين طبع سنة ١٨٨٩ م
﴿ تاريخ مصر الحديث ﴾ لمؤلفهِ المؤرخ العصري جورج افندي زيدان صاحب مجلة الهلال الذي رافق الحملة النيلية الى المتمة وشهد واقعة ابي طليح ونشر تاريخهُ ١٨٨٩
﴿ تاريخ الحملة السودانية ﴾ لمؤلفهِ النبيل جبرائيل بك حداد وفيهِ تاريخ الثورة السودانية الى واقعة طوشكي سنة ١٨٨٩
﴿ تاريخ المهدية والسودان المصري ، بالانكليزية ﴾ سنة ١٨٩١ للماجور ونجت مدير قلم المخابرات (سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام الآن) وهو تاريخ نفيس استند مؤلفهُ فيه الى المحررات الرسمية واختبارهِ الشخصي لانهُ حضر جميع الوقائع التي جرت بين الجيش المصري والدراويش ووصفها وصفاً حربياً دقيقاً
﴿ كتاب أسر عشر سنين في معسكر المهدي ﴾ وهو سيرة الاب اوهرولدر من خيار المرسلين النمساويين في السودان وحبرها بالانكليزية الماجور ونجت المنوَّه بهِ سنة ١٨٩٢
﴿ كتاب النار والسيف في السودان ﴾ وهو سيرة السر رودلف سلاطين باشا الشهير في السودان ، دبّجها بالانكليزية الماجور ونجت المشار اليهِ سنة ١٨٩٦
﴿ كتاب المستهدي الى سيرة الامام المهدي ، خط ﴾ للشيخ اسماعيل عبد القادر

الكردوفاني وقد ذكرت السيرة ومؤلفها في موضعها من الكتاب وهي من انفس السيَر
﴿ كتب الخليفة والمهدي ﴾ التي ظفرت بها في أم درمان بعد فتحها سنة ١٨٩٨
﴿ كتاب السودان بين يدي غوردن وكتشنر ﴾ سنة ١٩٠٢ لابراهيم باشا فوزي
﴿ عبد القادر باشا حلمي ﴾ الشهير وهو الثالث والعشرون من ولاة الفتح الاول
﴿ محمد نصحي باشا المصري ﴾ من كبار ضباط حصار الخرطوم سنة ٤ : ١٨٨٥
﴿ خشم الموس باشا الشايقي ﴾ من رجال حصار الخرطوم الباشبوزق سنة ٤ : ١٨٨٥
﴿ محمد بك السيد الشايقي ﴾ الذي اشتهر في حصار القلابات سنة ٤ : ١٨٨٥
﴿ عثمان بك لطيف ﴾ وكيل خط الاستواء الذي حضر الى مصر مع ستنلي ١٨٨٩
﴿ البكباشي احمد افندي سليمان ﴾ من رجال جيش دنقله الذين خدموا في الحملة النيلية
﴿ محمود افندي المحلاوي ﴾ جعفري من بلاد اسنا لجأ الى السودان فرارًا من العسكرية ثم لحق بأولاد الملك نمر على حدود الحبشة ثم بالنهاضة في كردوفان وبقي الى ان سمي ناظرًا لمنع الرقيق في بحر الغزال حيث وقع في اسر الدراويش وأتى الى الخرطوم ففرَّ منها الى مصر سنة ١٨٩١ وتوفي في دنقله سنة ١٨٩٧
﴿ الشيخ محمد شريف باشا ﴾ استاذ المهدي وقد قابلتهُ مرتين بعد الفتح الاخير
﴿ الشيخ المضوي عبد الرحمن ﴾ من ذرية الشيخ ادريس ومن تلامذة الازهر النابغين وقد كان في جملة من حصر غوردن في الخرطوم ثم نجا بنفسه الى مصر ١٨٨٩
﴿ الشيخ محمد خدام ﴾ شيخ الحمر من اسراء واقعة طوشكي سنة ١٨٨٩
﴿ السيد اسماعيل الازهري ﴾ نجل السيد احمد الازهري الكردوفاني سنة ١٨٩٨ ٭ ومئات غيرهم من الثقات من اهل السودان أو ممن عاشوا فيه زمانًا طويلاً

مستندات الجغرافية : الجزء الاول

﴿ جغرافية محمد امين فكري بك . بالعربية ﴾ وهي جغرافية نفيسة للقطر المصري . طبعت في مصر سنة ١٢٩٦ هـ ١٨٧٩ م
﴿ جغرافية ركلي . بالافرنسية ﴾ وهو من اشهر جغرافيي هذا العصر وقد طبعت جغرافيتهُ سنة ١٨٨٥ م ٭ ومئات من ثقات اهل السودان اهمهم من ذكرنا قبل ٭


مستندات الكتاب


مستندات تاريخ اثيوبيا : الجزء الثاني الباب الاول

﴿ التوراة ﴾ واقدم اسفارها اسفار موسى الخمسة التي كتبت في القرن الـ ١٥ ق ٠ م

﴿ تاريخ هيرودوتس ﴾ المؤرخ اليوناني الشهير الذي عاش في القرن الخامس ق ٠ م

﴿ تاريخ ديودورس الصقلي ﴾ من اهالي سيسيليا الذي زار مصر سنة ٥٧ ق ٠ م

﴿ مؤلف سترابو الروماني ﴾ وهو اشهر علماء الجغرافية الاقدمين ٠ ولد سنة ٥٤ ق ٠ م وتوفي سنة ٢٤ ب ٠ م

﴿ تاريخ يوسيفوس ﴾ المؤرخ اليوناني المعروف الذي ظهر سنة ٧٤ ب ٠ م

﴿ الدكتور ريتشارد لبسيوس ﴾ السائح الالماني الذي ارسلهُ الملك فردريك الرابع سنة ١٨٤٢ ب ٠ م في ارسالية علمية في النيل فمد سفرتهُ الى ما وراء سنار

﴿ التاريخ العام ٠ بالانكليزية ﴾ الّفتهُ لجنة من العلماء سنة ١٧٤٩ معتمدة في مصادرها على المؤرخين القدماء مثل هيرودوتس وسترابو وبليني وبروكوبيوس وغيرهم

﴿ تاريخ مصر ٠ بالانكليزية ﴾ سنة ١٨٥٩ للمؤرخ الانكليزي المدقق المستر صموئيل شارب وقد اعتمد في كتاباتهِ على المؤرخين القدماء والآثار المصرية

﴿ العقد الثمين ٠ بالعربية ﴾ سنة ١٣٠٠هـ ١٨٨٢ م للاديب احمد بك كمال سكرتير الانتيكخانة الخديوية وقد اعتمد فيما كتبهُ على الآثار المصرية واشهر مؤلفي العصر

﴿ فجر العمران ﴾ سنة ١٨٩٤ للموسيو مسبرو الاثري الفرنساوي الشهير وقد اعتمد في كل ما كتبهُ على الآثار المصرية

﴿ دليل مصر ٠ بالانكليزية ﴾ سنة ١٨٩٦ للمستر مري السائح المصري الانكليزي

﴿ الانسكلوبيذيا البريطانية ﴾ الحديثة

مستندات تاريخ النوبة والبجة : الجزء الثاني الباب الثاني والثالث

﴿ تاريخ المسعودي ﴾ هو ابو الحسن علي بن حسين المسعودي توفي سنة ٣٤٦ هـ ٩٥٨ م ٠ كان مقامهُ ببغداد واقام بمصر زمناً

﴿ تاريخ بديع الزمان الهمذاني ﴾ المشهور توفي سنة ٣٩٩ هـ ١٠٠٩ م

﴿ تاريخ ابن الاثير ﴾ المؤرخ العربي الشهير الذي ولد سنة ٥٥٥ هـ بجزيرة ابن عمر بالعراق وتوفي سنة ٦٣٠ هـ ١٢٣٣م بالموصل واسم تاريخهِ الكامل

﴿ تاريخ ابي الفداء ﴾ صاحب حماه ولد سنة ٦٧٢ هـ وتوفي سنة ٧٢٣ هـ ١٣٢٤م

﴿ تاريخ ابن خلدون ﴾ المشهور ولد ٧٣٢ هـ وتوفي في تونس ٨٠٨ هـ ١٤٠٦م

﴿ تاريخ المقريزي ﴾ لاحمد بن عبد الصمد تقي الدين المقريزي ولد سنة ٧٦٦ هـ وتوفي سنة ٨٤٥ هـ ١٤٤٢م وهو بعلبكي الاصل واسم كتابهِ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار في مصر القاهرة والنيل وقد نقل اكثر اخبارهِ في النوبة والبجة عن كتاب المؤرخ عبدالله بن سليم الاسواني المفقود

﴿ تاريخ مصر لابن اياس ﴾ وهو العلامة المؤرخ محمد بن احمد بن اياس الحنفي المصري وقد وصل في تاريخهِ المشهور « بدائع الزهور في تاريخ الدهور » الى سنة ٩٢٨ هـ ١٥٢٢م وتوفي سنة ٩٣٠ هـ تقريباً

﴿ مستندات تاريخ سنار القديم والفتح المصري : الجزء الثاني الباب الرابع ﴾
﴿ والجزء الثالث الباب الاول ﴾

﴿ تاريخ عبد الدافع . خط ﴾ ويشمل تاريخ سنار القديم والفتح المصري ومؤلفهُ ابراهيم عبد الدافع من الفتيحاب الجعليين توفي في حصار الخرطوم سنة ١٨٨٤ وعاش مئة سنة واكثر . وقد عاصر آخر ملوك سنار وكتب عن اختبار

﴿ تاريخ الزبير ودضوه . خط ﴾ ويشمل تاريخ سنار القديم والفتح المصري والمؤلف من اهل الخرطوم وقد ألف كتابهُ بعد اطلاعهِ على تاريخ عبد الدافع واهتديت على النسخة الاصلية بعد فتح ام درمان سنة ١٨٩٨

﴿ رحلة بورخارت . الطبعة الانكليزية ﴾ هو السائح الالماني المشهور الذي ساح في بلاد النوبة وسنار سنة ١٨١٣ : ١٨١٤ م

﴿ رحلة الموسيو كايو . بالافرنسية ﴾ هو السائح الفرنساوي الذي رافق اسماعيل باشا لفتح سنار سنة ١٢٣٦ هـ ١٨٢١م

الجزء الأول

في

جغرافية السودان

﴿ وفيهِ اربعة ابواب ﴾

VOLUME I

THE GEOGRAPHY OF THE SUDAN

(IN FOUR PARTS)

الباب الأول

في

جغرافية السودان الطبيعية



الفصل الاول

في

حدود السودان

السودان في اللغة السود ويطلق ايضاً على بلاد السود . وقد اطلقهُ العرب بعد الاسلام على الممالك الافريقية الاسلامية الواقعة في المنطقة المتوسطة التي الى جنوب الصحراء الكبرى وصحراء نوبيا فيما بين الحبشة وسنغمبيا . وتشمل ممالك سنار ودارفور ووداي وباجرمي وكانم وبرنو وسوكوتو وملّي من الشرق الى الغرب

اما السودان الذي فيهِ كلامنا فهو السودان المصري المعروف الآن بالسودان الانكليزي المصري ٥ وحدهُ من الشمال خط ٢٢° من خطوط العرض الشمالي الى الشمال من حلفا . ومن الجنوب بلاد اوغندا التابعة لانكلترا على خط ٥° من خطوط العرض الشمالي تقريباً . ومن الشرق البحر الاحمر وبلاد الإرتريا وبلاد الحبشة . ومن الغرب والجنوب الغربي الصحراء الكبرى وبلاد وداي والجبال المتوسطة بين نهر الكونغو وبحر الغزال . وهو على شكل غير منتظم طولهُ من الشمال الى الجنوب نحو ١٢٠٠ ميل ومعظم عرضهِ من الشرق الى الغرب نحو ١٠٠٠ ميل

الفصل الثاني

في

﴿ نيلها ﴾

﴿ النيل الابيض ﴾ ويخترق هذه البلاد من الجنوب الى الشمال نهر النيل العظيم ولهُ مصادر كثيرة أهمها مصدران النيل الابيض والنيل الازرق . اما النيل الابيض فيخرج من بحيرات ثلاث في لواسط القارة اكبرها بحيرة فكتوريا نيانزا عند خط الاستواء. فيخرج منها نهرٌ ويجري الى الشمال الغربي متعرّجاً نحو ٢٩٠ ميلاً فيصب في بحيرة ألبرت نيانزا في شماليها . ويصب في جنوبيها نهرٌ آخر آتٍ من بحيرة ألبرت ادوارد نيانزا طولهُ ١٨٠ ميلاً . ثم يخرج النيـل من بحيرة ألبرت نيانزا ويجري شمالاً في بلاد خط الاستواء باسم بحر الجبل أو بحر الرّجاف مسافة ٤٧٠ ميلاً فيتفرَّع منهُ بحرٌ يُعرَف ببحر الزراف ويسير البحران شمالاً منفرجين الى ان يبلغا عرض ٩° ويكون الرّجاف على نحو ٢٠٠ ميلٍ من نقطة انفراج الزراف عنهُ فيلتقي ببحر الغزال وهو بحرٌ كبيرٌ آتٍ من الجنوب الغربي مؤلفٌ من عدّة ابحرٍ اشهرها بحر العرب ؛ ثم يسير النيل شرقاً مسافة ٤٥ ميلاً فيقترن ببحر الزراف ويسير ٢٥ ميلاً اخرى فيقترن ببحر سُبَت الآتي من الجنوب الشرقي . ثم يجري النيل الابيض شمالاً ٥٠٠ ميل ونيف من مصب نهر سُبَت و١٥٣٠ ميلاً او حواليها من مخرجهِ الاول من بحيرة فكتوريا فيلتقي بالنيل الازرق عند مدينة الخرطوم

﴿ النيل الازرق ﴾ اما النيل الازرق فيخرج من بحيرة تسانا في وسط الحبشة ويجري منها الى الجنوب حتى يكون على عرض ٤٠َ ٩° فينقلب نحو الشمال الغربي الى ان يدخل بلاد سنار ويكون على ١٦٠ ميلاً من الخرطوم فيصب فيهِ نهر الدّندر . ثم يسير ٢٠ ميـلاً فيصبّ فيهِ نهر الرَّهد . وكلاهما يأتيانهِ من جبال غربي الحبشة ويجفَّان في الصيف . ويسير النيل الازرق الى ان يلتقي بالنيل الابيض عند الخرطوم بعد مسيرة ٨٤٦ ميلاً من بحيرة تسانا التي خرج منها

﴿ النيل الكبير ﴾ ثم يسير النيل الكبير الى ان ينتهي الى قرية الدامر على ١٨٠ ميلاً من الخرطوم فيلتقي بنهر الاتبرا وهو نهرٌ غزير سريع الجري مؤلفٌ من عدة نهيرات آتيةٍ من جبال الحبشة الشمالية ويجفّ بهبوط النيل مدة ستة اشهر . ومن هناك يجري النيل شمالاً في بلادٍ لا يصيبها المطر الاّ نادرًا فلا يصادف نهرًا أو جدولاً معروفاً الى ان يصب في البحر المتوسط . وعند وصولهِ الى بلدة ابي حمد بعد مسيرة ١٤٠ ميلاً او نحوها من مصب الاتبرا ينعطف نحو الجنوب الغربي الى جهة مخرجهِ كأنهُ يحنُّ الى اصلهِ ويسير كذلك متعرّجاً مسافة نحو ١٩٤ ميلاً فيصل بلدة الدبّة . ثم يستأنف السير شمالاً على تعرُّجهِ مسافة ٥٨٥ ميلاً من الدبّة ويدخل مصر عند مدينة اسوان

﴿ الدلتا ﴾ ويجري النيل في ارض مصر حتى ينتهي الى مكان يقال لهُ بطن البقرة على بعد ١٥ ميلاً من القاهرة و ٦٠٥ اميال من اسوان فينقسم شطرين احدهما يميل نحو الشرق فيصب في البحر المتوسط بقرب مدينة دمياط والآخر يميل نحو الغرب فيصب فيهِ عند مدينة رشيد . ويتكوَّن من هذين الشطرين مع البحر مثلث سماهُ اليونان الدلتا لمشابهتهِ لحرف الدال عندهم وسماهُ العرب روضة البحرين لكثرة خصبهِ . وطول قاعدة هذا المثلث نحو ٨٥ ميلاً وعلوهُ ٩٠ ميلاً وطول احد شطريهِ نحو ٩٩ ميلاً ه فيكون طول النيل على وجه التقريب من مصدرهِ من بحيرة فكتوريا نيانزا الى مصبهِ في البحر المتوسط ٣٣٣٣ ميلاً وهو اطول انهار الدنيا الاّ نهر امازون في امريكا الجنوبية فانهُ اطول من النيل بنحو ٦٦٧ ميلاً الاّ ان النيل الذّ تاريخاً واقدم آثارًا واعظم شأناً من نهر امازون بل من جميع انهار الدنيا

﴿ فيضان النيل ﴾ ويفيض النيل ثم يهبط ثم يعود الى الفيض كل سنة في اوقات معلومة . وسبب فيضهِ نزول الامطار الغزيرة على الجبال المجاورة لمصادرهِ . ويبدأ النيل الابيض بالفيض قبل النيل الازرق فيظهر الفيض فيهِ عند الخرطوم في اواخر مايو ولكن لا يبلغ معظمهُ الاّ في اوائل سبتمبر . واما النيل الازرق

فيظهر الفيض فيه عند الخرطوم في اواخر يونيو وكذلك الاتبرا ويبلغ معظم الفيض في اواخر اوغسطوس . واما النيل الكبير فيظهر الفيض فيه عند حلفا في اوائل يونيو ويصل الى معظم الفيض في اوائل سبتمبر ثم يعود الى النقصان فينقص تدريجاً كما ارتفع الى اوائل يونيو فيعود الى الزيادة وهكذا على توالي السنين . ومعدل زيادة النيل في السنة نحو ٢٦ قدماً فاذا زاد عن ذلك الى ٢٨ قدماً سبَّب غرقاً واذا قصَّر عنهُ الى ٢٢ قدماً سبب جوعاً . وعند آخر حدّهِ في النقصان يخضرّ ماؤهُ ويتغير طعمهُ فيقرب من طعم الماء المستنقع . وقد قدَّروا ان الباقي فيهِ من الماء اذ ذاك لا يزيد على ١/٣٠ مما يكون فيهِ عند معظم الفيض

﴿ مقاييس النيل ﴾ وقد جعلوا للنيل منذ القديم مقاييس في اماكن خاصة في مجراهُ لمعرفة مقدار الزيادة والنقصان فيهِ على مدار السنة . واشهر هذه المقاييس :

«مقياس الروضة» في جزيرة الروضة تجاه مصر القديمة وهو مقياس قديم من عهد الخلفاء الامويين وانما رُمم في هذا العهد

«ومقياس اسوان» في الجانب الشرقي من جزيرة أَلِفَنْتِين تجاه مدينة اسوان وهو قديم العهد ايضاً وينسب الى زمن البطالسة اي منذ الف سنة ونيف هُجر مدة من الزمان ثم جُدّد سنة ١٢٧٨ هـ (١٨٧٠ م) في ايام المغفور لهُ اسماعيل باشا الخديوي الاسبق بهمة المرحوم محمود باشا الفلكي . وقد رأيت هناك اياتاً منقوشة على حجرٍ في الحائط تدل على تاريخ هذا العمل وهي :

حقٌّ على اسوان تبدي شكرها — لمليك مصر الداوري اسماعيلِ
أحيا بها المقياس بعد ذهابهِ — بتجدُّد التقسيم والتفصيلِ
من بعد الفٍ وهو في حجب الثرى — أبدى معالمهُ بخير دليلِ
الماهر الفلكيّ محمود الذي — جلت معارفهُ عن التمثيلِ
أبقى التقاسيم التي وجدت بهِ — وبغيرها حلاهُ للتعديلِ
قالت لهُ اسوان في تاريخها — أرقيت بالمقياسِ بحر النيلِ

«ومقياس حلفا» على شاطئ النيل الشرقي في معسكر حلفا وهو حديث النشأة

بناهُ ودهوس باشا اذ كان محافظاً للحدود سنة ١٨٨٩ م بارشاد من المستر ولكوكس من رجال الري بمصر . وقد رأيتهُ حديثاً فاذا هو عبارة عن سلّم عادي قائم بين حائطين من الحجارة المنحوتة وفي رأس السلم حجر من الرخام منقوش عليهِ تاريخ انشاء المقياس واسم منشئهِ ٥ وبعد الفتح الاخير للسودان انشأت الحكومة عدة مقاييس وقتية في جهات مختلفة على النيل الكبير والنيلين الابيض والازرق اهمها :

«مقياس بربر» على النيل الكبير . «ومقياس ام درمان» على النيل الابيض .

«ومقياس الخرطوم» تحت سراي الخرطوم على النيل الازرق . ولا بد من ابدال هذه المقاييس بمقاييس ثابتة قريباً لشدَّة لزومها

﴿ سرعة النيل ﴾ اما سرعة مجرى النيل فتختلف فيهِ وفي فرعيهِ بالنسبة الى درجة الفيض . فهو يزداد سرعة كلما ازداد فيضاناً . ففي الساعة الواحدة يجري النيل الازرق ٣ اميال في زمن التحاريق وستة اميال أو اكثر في زمن الفيض . والنيل الابيض ميلاً واحداً أو اقل في التحاريق وميلين ونصف ميل في الفيض. والنيل الكبير ميلاً ونصف ميل في التحاريق و٣ اميال أو اكثر في الفيض . فيكون النيل الازرق اسرع جرياً من النيل الابيض والنيل الكبير لان بحيرة تسانا التي يخرج منها النيل الازرق تعلو ٥٨٠٠ قدم عن سطح البحر مع ان أعلى بحيرات النيل الابيض التي هي بحيرة فكتوريا نيانزا لا يزيد علوها عن ٣٩٠٠ قدم عن سطح البحر . والنيل الازرق يجرف في طريقهِ التراب الذي تتكون منهُ ارض مصر

﴿ اتساع النيل ﴾ واما اتساع النيل في معظم الفيض فيختلف باختلاف الاماكن فمتوسط اتساع النيل الازرق ٥٥٠ يرداً ولا يزيد عن ٧٧٠ يرداً في أي مكان كان . ومتوسط اتساع النيل الابيض ١٨٦٠ يرداً وهو في اماكن كثيرة ٣٨٠٠ يرد ونيف فتراهُ أشبه بالبحيرة منهُ بالنهر . اما النيل الكبير فيختلف اتساعهُ من ٥٠٠ يرد (وهو اتساعه عند كوبري قصر النيل) الى ١٠٠٠ يرد بل قد يضيق في بعض الاماكن حتى لا يزيد اتساعه عن ٢٠٠ يرد

﴿ ضفتا النيل ﴾ واما ضفتا النيل الازرق فمتوسط ارتفاعهما من ٣٠ : ٣٥ قدماً

عن سطح الماء في ابان التحاريق . والفرق بينهُ وهو في أعلى ارتفاعه و بينهُ وهو في اشد انخفاضهُ نحو ٢٢ قدماً حتى لقد يصبح في زمن التحاريق سلسلة من البرك متصلة بعضها ببعض بماء ضحضاح لا تكاد أصغر المراكب تمرُّ عليها . واما ضفتا النيل الابيض ولاسيا الغربية منهما فعلى غاية الانخفاض اذ لا يزيد متوسط ارتفاعهما على مترين ونصف متر الى ٣ امتار عن سطح الماء في ابان التحاريق ولذلك فماؤهُ في زمن الفيض يغمر ضفتيهِ الى مسافة بعيدة يميناً وشمالاً في البرّ ولا يمكن ادناء السفن من ضفتيهِ والنزول عليهما الاَّ في اماكن معلومة تعرف بالمشارع لأن الماء ضحضاح فيهما والفرق بينهُ وهو في أعلى ارتفاعه و بينهُ وهو في أشد انخفاضه ٦ اقدام . واما ضفتا النيل الكبير من الخرطوم الى اسوان فمرتفعتان فلا يعلوهما النيل مهما اشتد فيضه الاَّ في بعض المواضع في بلاد بربر ودنقلا. لذلك لا يحتاج اهله الى عمل السدود كما في مصر

﴿ ماء النيل ﴾ وقاس لينان مقدار ما ينصب من مياه النيل عند الخرطوم في الثانية فوجد انهُ ينصب من مياه النيل الازرق ١٥٩ متراً مكعباً في ايام تحاريقه و ١٦٠٤ امتار مكعبة في أيام فيضانه . وينصب من مياه النيل الابيض ٢٧٩ متراً مكعباً في ايام تحاريقه و ٥٩٠٧ امتار مكعبة في ايام فيضانه . وعليهِ تكون مياه النيل الابيض أغزر في التحاريق وأقل في الفيضان من مياه النيل الازرق وتكون اكثر مياه النيل الكبير من النيل الابيض كما ان اكثر تربتهِ التي تتكون منها ارض مصر هي من النيل الازرق . هذا ولون ماء النيل قبل اقترانه بنهر سُبت اخضر مائل الى السمرة . ثم يقترن بماء سُبت الاصفر اللون فيصبح لونهُ من سُبت فنازلاً أبيض ضارب الى الصفرة ولذلك سموهُ النيل الابيض . واما ماء النيل الازرق فهو اسمر خمري في زمن الفيض وازرق سماوي في زمن التحاريق فلذلك سمي النيل الازرق . ثم ان ماء النيل الابيض غير صالح للشرب كماء النيل الازرق بالنسبة لما فيهِ من المواد النباتيـة المستنقعة التي تسبب الديزنتاريا والحميات . ولذلك فان اهل النيل الابيض قلما يشربون منهُ فهم يحفرون الابار و يشربون منها

﴿ شلالات النيل ﴾ ويمرّ النيل في سيرهِ من الجنوب الى اسوان بعدّة جنادل تُعرف بالشلاّلات وهي مجتمع صخور كبيرة وجزر صغيرة تعترض مجراهُ . والشلالات نوعان امّا صغيرة يغمرها النيل عند فيضهِ فتسير السفن من فوقها مدة الفيض حتى اذا ما نزل النيل وانكشفت الشلالات مرّت السفن من مضايق معلومةٍ فيها تُعرَف بالابواب . واما كبيرة لا يغمرها النيل كلها مهما اشتدّ فيضهُ فتمرّ السفن في ابوابها وذلك في ايام معدودة في معظم الفيض فاذا انقضت تلك الايام انحصرت السفن بين الشلاّلات . والشلالات الكبيرة من اصوان الى الخرطوم ستة بينها عدة شلالات صغيرة وهي :

الاول «شلاّل اسوان» عند مدينة اسوان طولهُ ستة اميال وربع ميل

الثاني «شلاّل حلفا» عند قرية حلفا على نحو ٢٢٦ ميلاً من الشلاّل الاول . طولهُ ١٤ ميلاً وهو اصعب شلاّلات النيل

الثالث «شلاّل حنك» عند قرية حنك وعلى بعد ٢٤١ ميلاً من الشلال الثاني وطولهُ ٣ اميال . و بين الشلاّل الثاني والثالث عدة شلالات صغيرة وهي من الشمال الى الجنوب معتوقه وسمنه وامبقول وتنجور وعكه وعكاشه ودال وعماره وخيبر . طول الواحد منها من ميل الى اربعة اميال والبعد بينها من ١٠ اميال الى ٦٠ ميلاً

الرابع «شلاّل الادرميّة» في بلاد الشايقية على بعد ٢٥٠ ميلاً من الشلال الثالث

الخامس «شلاّل وادي الحمار» الواقع على بعد ١٦٧ ميلا من الشلال الرابع قيل سُمي شلاّل وادي الحمار لان في شرقيهِ وادياً ينتابهُ حمار الوحش . و بين الشلال الرابع والخامس عدة شلاّلات صغيرة صعبة أهمها شلالات كعب العبد والمسحاني وأم حبّوبة والرّخمة في آخر بلاد الشايقية . ورقبة الجمل وابو سيّال في بلاد المناصير . ومقرات وابو هشيم والباقير في بلاد الرباطاب .

السادس «شلال السبلوقة» بين شندي والخرطوم على بعد ١٩٤ ميلاً من الشلال الخامس وطولهُ عشرة اميال وهو متحدّر للغاية واتساع النيل عند مدخلهِ

٢٠٠ يرد وينحدر الماء منهُ انحدارًا ظاهرًا كانحداره من ميزاب كبير ومن ذلك اسمه اذ السبلوقة في لفظ عرب السودان بمعنى الميزاب

ثم ان في النيل الازرق شلالاً كبيرًا يُعرَف « بشلال الرصيرص » أو بالشلال السابع يبدأ عند قرية الرصيرص على ٤٢٦ ميلاً من الخرطوم ويمتدّ جنوبًا نحو ٤٠ ميلاً ٠ وفي اعالي النيل الابيض في بحر الرجّاف سلسلة من الشلالات تمتدّ من بلدة الرجاف الى الجنوب نحو ١٠٠ ميل أصعبها شلالٌ في آخرها يُعرَف « بشلال الفوله » أو بالشلال الثامن ويبعد نحو ١١٠٠ ميل من الخرطوم

﴿ جزائر النيل ﴾ وفي نيل السودان جزائر شتى متفاوتة في الكبر منها ما يغمرها النيل عند الفيض ومنها ما لايغمرها مهما اشتدّ فيضهُ وكلها صالحةٌ للزراعة وتأتي بغلال كثيرة . واشهر هذه الجزائر :

« جزيرة أبا » في النيل الابيض على ١٥٠ ميلاً من الخرطوم طولها ٢٨ ميلاً وقد اشتهرت بظهور محمد احمد المتمهدي فيها كما سيجي٠

« وجزيرة توتي » تجاه الخرطوم وهي مشهورة بجودة تربتها وطيب هوائها

« وجزيرة مقرات » تجاه ابي حمد وهي جزيرة كبيرة تخترقها عدة تلال صخرية

« وجزيرة ارقو » الى جنوبي شلال حنك وطولها ٢٠ ميلاً وهي اشهر جزائر النيل وفيها خرائب من زمن مملكة ايثيوبيا تدلّ على قدمها وعظم اهميتها . وفي ايام نزول النيل تجفّ ذراعهُ اليمنى فتتصل الجزيرة بالبرّ الشرقي وربما لم تكن اكبر من جزيرة مقرات لكنها اخصب منها

« وجزيرة ساي » وهي ثاني جزيرة ارقو في الاتساع والشهرة وفيها خرائب طابية قديمة من ايام السلطان سليم الفاتح

« وجزيرة الفنتين » عند الشلال الاول تجاه اصوان وهي شهيرة في تاريخ مصر

﴿ السفر في النيل ﴾ وهذه الجزر والشلالات مع ما يتكون في مجرى النيل من وقتٍ الى آخر من « الدبور » الرملية تقف عوائق في وجه السفن وتزيد السفر في النيل مشقةً وخطرًا بخلاف نيل مصر من اصوان فنازلاً شمالاً فان الشلالات والجزر

تنقطع منهُ ويسهل السفر فيهِ بالسفن الشراعية والبخارية من اقصى البلاد الى اقصاها . وهذا الذي جعل مصر منذ القديم بلادًا واحدة حدُّها الطبيعي اسوان . وآخر حد السفن في النيل الازرق شلال الرصيرص وفي النيل الابيض شلال الفوله. وفي بحر الغزال مشرع الريك على نحو ١٣٠ ميلاً من مصبهِ بالنيل الابيض و ٧٢٥ ميلاً من الخرطوم . وفي بحر سُبت نقطة الناصر على ١٧٠ ميلاً من مصبهِ بالنيل الابيض. ثم ان النيل الازرق لا يصلح للملاحة الا في زمن الفيض فاذا جاء زمن التحاريق قلّ ماؤهُ وانقطع سير السفن فيهِ بخلاف النيل الابيض فانهُ صالحٌ لسير السفن على مدار السنة

﴿السد في النيل الابيض﴾ الاّ ان في النيل الابيض عائقًا آخر للسفن وهو السدّ . وذلك ان النيل الابيض من نقطة افتراق بحر الزراف عن بحر الجبل الى مصب نهر سُبت يسير سيرًا بطيئًا جدًّا ويتسع مجراهُ حتى لا يرى المسافر احيانًا الا الماء من كل الجهات ولا سيما عند ملتقى بحر الرّجاف ببحر الغزال اذ يتكوَّن من التقائهما بحيرة واسعة تُعرَف ببحيرة «نو» فيتكوَّن في مجراهُ سدود نباتية عظيمة تطفو على وجه الماء والنيل يسير من تحتها . ونباتات هذه السدود على ثلاثة انواع نوعٌ تبلغ جذورهُ الارض وغالبهُ من البُرديّ والعَنْبج ونوعٌ لا تبلغ جذورهُ الارض بل تبق منتشرةً في الماء ونوعٌ يطفو كلهُ على وجه الماء والسد الحقيقي مؤلف من هذه الانواع الثلاثة . فالاول ينبت في الرَّقارق حتى اذا غزر الماء وعلا عليهِ كثيرًا اقتلعهُ من جذورهِ وجرى بهِ الى ان يصل الى رقارق آخر او الى منعطف في النهر فيقف وتصل اليهِ النباتات التي من النوع الثاني والثالث فتلتحم الانواع الثلاثة معًا ويتكوَّن من مجموعها سدٌّ متين يعترض النيل من الشاطئ الواحد الى الشاطئ الآخر ويزيد طولاً باضافة نباتات جديدة اليهِ حتى يصير طولهُ عدة اميال وهو يسمك ويمتن حتى يُعبر عليهِ بالرجل فيبلغ سمكهُ الى متر ونصف متر او اكثر وتعلو نباتاتهُ من ٥ اقدام الى ٣٠ قدماً فيحبس السفن عن السير . وقد طالما منعت السدود المسافرين عن السير اياماً او اشهرًا الى ان يفتحوا طريقهم

بالفؤوس . ولا تتكوّن السدود من مصب نهر سُبت فنازلاً شمالاً لان هذا النهر سريع الجري جدًّا فيندفع ماؤهُ بقوَّة في النيل الابيض ويصدُّ النباتات الآتية من الجنوب الى يساره

﴿ اكتشاف مصادر النيل ﴾ وهذه الصعوبات في سفر النيل مع بُعدهِ السحيق والاخطار الجمة في الطريق من الغرق والجوع والحرّ والبرد والامراض ومن الشعوب المعادية الهمجية والحيوانات المفترسة والمفاوز البعيدة والصحارى المحرقة عن جانبي النيل هذه الصعوبات والاخطار كلها وقفت في سبيل العالم المتمدن فصدَّتهُ عن الوصول الى مصادر النيل مدة الفي سنة مع انهُ لم تبقَ دولة من الدول التي ملكت مصر في تلك المدة الاّ اهتمّ ملوكها وعلماؤها باكتشاف تلك المصادر ومعرفة اسباب الفيض فجرّدوا حملات عديدة وأمدّوها بالمعدَّات القوية فذهبت اتعابهم سدًى وعادت الحملات كلها بالعجز والتقصير حتى لقد يئس الاقدمون من النجاح وقالوا في المجاز « ان الآلهة تريد اخفاء هذه المصادر عن اعين الناس لغرض في نفسها » وقال هوميروس الشاعر اليوناني المشهور « النيل سيل نازل من السماء » اما المصريون القدماء فقد رفعوهُ الى مقام الآلهة كما هو مشهور في تاريخهم

واشهر من كتب من العلماء الاقدمين في النيل نقلاً عن الرواة فاقترب من الحقيقة هيبرخس الفلكي اليوناني الذي عاش سنة ١٠٠ ق م فقال « النيل ينبع من ثلاث بحيرات في شمال خط الاستواء » . وجاء بعدهُ بطليموس الكبير الذي عاش سنة ١٥٠ ب م فجعل منابع النيل في جبال القمر في جنوب خط الاستواء . ثم بعد ذلك بالف سنة ونيف اي سنة ١١٥٤ ب م قام الادريسي أشهر جغرافيي العرب فجعل منابع النيل في جبال القمر في أواسط القارة وقال ان مياه الينابيع تجري من تلك الجبال الى بحيرتين واسعتين تصبان في بحيرة ثالثة منها ينبع النيل وهو كلام يقرب جدًّا من الحقيقة . ولكن علماء الافرنج لم يعتمدوا كلام الادريسي بل لم يكتفوا به فما زالوا يجدُّون وراء الحقيقة ويجودون بالنفوس والاموال الى ان فازوا بالغرض المقصود .

اما النيل الازرق فقد اكتشف مصادرهُ السائح بروس الانكليزي سنه ١٧٧٢م

ووصفها وصفاً دقيقاً وكان قد سبقهُ الى هذا الاكتشاف راهبان برتوغاليان وهما بايز ولوبو سنة ١٦١٨ م ولكنهما لم يوضحا الحقيقة كما اوضحها بروس فتفرد وحدهُ بالشهرة * واما النيل الابيض فلم تُعلَم مصادرهُ الاَّ منذ عهد قريب جدًّا وذلك بمساعي الجمعيـة الجغرافية الانكليزية وهمة السياح الانكليز . اما فكتوريا نيانزا فقد اكتشفها الرحالتان الانكليزيان سبيك وغرانت فانهما سارا عن طريق زنجبار على نفقة الجمعية المذكورة فشاهدا النيل خارجاً من شماليها في ٢٨ يوليو سنة ١٨٦٢ وسمياها فكتوريا باسم ملكتهما . واما ألبرت نيانزا فقد اكتشفها السرصمويل باكر الانكليزي فانهُ سار اليها عن طريق الخرطوم فوصلها في ١٤ مارس سنة ١٨٦٤ وسماها ألبرت نيانزا باسم زوج ملكتهِ . واما ألبرت أدوارد نيانزا فقد اكتشفها الرحالة ستنلي الانكليزي سنة ١٨٧٦ وسماها ألبرت ادوارد باسم ولي عهد انكلترا في ذلك العهد وهو ملكها الحالي . وعليهِ فالفضل الاعظم في اكتشاف منابع النيل للانكليز وقد شاركهم في هذا الفضل خديويّو مصر العظام الذين فتحوا البلاد ومهدوا للسير صموئيل باكر وغيرهِ سبل الاكتشاف

﴿ اسماك النيل ﴾ وفي النيل انواع شتى من السمك الاَّ انها تفهة الطعم وأشهرها أو أعجبها «التمساح» و«فرس البحر» . اما التمساح فهو حيوان بهيئة السمك الاَّ انهُ هائل الجثة قبيح المنظر وجلد ظهرهِ شديد الصلابة لا يكاد يخرقهُ الرصاص وهو يعيش في الهواء فتبيض اناثهُ وتفرخ في جزر النهر فتطمر البيض في الرمل وتحرسه الى ان تنقف فتحضنهُ وتنزل بهِ الى النهر ويبلغ عدد بيضها بضع عشرة بيضة وحجم الواحدة منها بقدر حجم البرتقالة وقد يبلغ طول التمساح عشرة اذرع او اكثر ويُعرَف عندهم اذ ذاك بالعُشاري * واما فرس البحر او جاموس البحر فهو في الخلقة بين الجاموس والخنزير فان جسمهُ كجسم الجاموس الاَّ ان رأسهُ وذيلهُ كرأس الخنزير وذيلهِ واما خفهُ فكخفّ الجمل . وهو يعيش في الهواء كالتمساح فيخرج الى شاطئ النهر ويمرح في الزرع فيأكل منهُ ويعيث فيهِ ثم يعود الى الماء ويُعرَف عندهم باسم العَيْسِنْت * وكان التمساح وفرس البحر كثيرَين

في نيل مصر كما في نيل السودان الى عهد غير بعيد الاّ ان العمارة في مصر وكثرة خوض السفن في نيلها نفرتهما الى السودان . اما فرس البحر فقد انقطع من مصر منذ القرن الثالث عشر للمسيح ولم يعد يُرَى الاّ في أعالي النيل ويكثر جدًّا في بلاد خط الاستواء . واما التمساح فلا يُرَى الآن في مصر الاّ نادرًا واما في نيل السودان فلا يزال كثيرًا في كل جهة

واهل السودان يصطادون التمساح وفرس البحر للانتفاع بهما . فالتمساح لاجل مِسكهِ وجلدهِ ولحمهِ اذ في كل تمساح اربع كتل مسكية كتلتان في اربيتيهِ الواحدة بقدر بيضة الدجاجة وكتلتان في ابطيهِ اصغر منهما ومسك التمساح اجود المسك واما جلدهُ فيصنعون منهُ نوعاً من الدَّرق او التروس ولحمهُ تفه جدًّا لا ياكلهُ الاّ الصيادون * واما فرس البحر فيصاد لاجل لحمهِ وجلدهِ فهم ياكلون لحمهُ ويصنعون من جلدهِ السياط . ويصطادونهُ بالبنادق وبنوعٍ من الحراب يُسمى عندهم بادَيقه وهي حربة ماضية في رأسها شوكة على هيئة السنارة حتى اذا رشقت في الجسم تنشب فيهِ فاذا اريد اخراجها منهُ لا تخرج الاّ اذا مزقتهُ ويربطون في الحربة حبلاً متيناً وفي رأس الحبل قارورة من القرع الاصمّ او العنبج حتى اذا غاص فرس البحر في الماء بعد نشب الحربة فيهِ تدلّ عليهِ القارورة التي تعوم على وجه الماء فيتبعهُ الصيادون بمراكبهم ويجذبونهُ بالحبل على قدر جهدهم وهو يجرُّهم في النهر الى ان يكلّ فيدنون منهُ ويرشقونهُ بالحراب حتى يقضوا عليهِ بعد جهادٍ طويل * وهم يصطادون التمساح ايضاً بهذه الآلة كما يصطادونهُ بالبنادق . على ان التمساح يصطاد الناس كما يصطادونهُ بل هو في صيدهم أبرع منهم في صيدهِ فهو ينتاب موارد الناس ويترقب انساناً حتى يرى منهُ غفلةً فيثب عليهِ ويدفعهُ بذيلهِ الى الماء ثم يحملهُ في فيهِ الى جهة بعيدة عن الناس فيخرج بهِ الى الشاطئ ويمزقهُ بأنيابه اربًا ويبتلعهُ . وكثيرًا ما يرى الصيادون اساور وحجولاً وغيرها من حلى النساء في جوف التماسيح التي اصطادوها . وقد طالما سمعت في اثناء الحملات النيلية بافتراس التمساح للعساكر والتُّبع . هذا ما لزمت الاشارة اليهِ في النيل

الفصل الثالث
في
« اراضيها »

﴿ وادي النيل ﴾ ويجري النيل في وادٍ ضيق لا يزيد عرضهُ عن اربعة اميال وقد يضيق في بعض الامكنة حتى لا يكون الاّ مضيقاً بين جبلين يمرُّ فيهِ النيل . الاّ ان هذا الوادي على ضيقهِ خصب كوادي نيل مصر او اخصب ويزرع على السواقي والشواديف

﴿ الجزيرة ﴾ وتُعرَف البلاد الواقعة بين النيل الابيض والنيل الازرق بالجزيرة على الاطلاق . وتُعرَف ايضاً بجزيرة سنار وجزيرة الخرطوم نسبة الى سنار والخرطوم اللتين اشتهرتا فيها . واما تسميتها بالجزيرة ففيهِ تساهل لانها في الواقع شبه جزيرة وهي بلاد خصبة للغاية وتزرع على النيل والامطار واكثر غلال السودان يأتي منها

﴿ البُطانة ﴾ وعُرفت البلاد الواقعة بين النيل والاتبرا قديماً بجزيرة مروي لانهُ قام فيها مملكة اشتهرت في التاريخ بمملكة مروي كما سيجيء . واما الآن فتعرف بالبُطانة ويُعرَف القسم الجنوبي منها ببلاد القضارف وهذه البلاد مشهورة بالجودة والخصب حتى لقد سماها بعضهم أهراء السودان . وهي تزرع على الامطار

﴿ صحاريها وجبالها ﴾ ويكتنف وادي النيل من الخرطوم سلسلتان من الجبال القاحلة ترافقانهِ الى مصر الواحدة الى الشرق وتليها الصحراء الشرقية التي تمتد الى البحر الاحمر والاخرى الى الغرب وتليها الصحراء الكبرى وصحراء كردوفان ودارفور . والصحارى الشمالية من خط بربر فنازلاً شمالاً رملية مجدبة لا نبت فيها ولا شجر الاّ ما ندر بل اكثرها مفازات طويلة لاماء فيها تُعرَف « بالعقبات » واما الصحارى الجنوبية فقابلة للزراعة ويكثر فيها النبات والاشجار حتى يكون منها في بعض الجهات غابات عظيمة . وسبب ذلك ان الصحارى الشمالية لا يقع فيها

مطر الاّ قليلاً او نادرًا بخلاف الجنوبية التي هي في منطقة الامطار فانهُ يقع فيها مطر غزير . ويتخلل تلك الصحارى جبال او تلال متفرقة لا ماء فيها ولا نبت ما عدا جبل مرة في وسط دارفور وبعض جبال النوبة في جنوبي كردوفان فان فيها الينابيع والاشجار

﴿ خيرانها ﴾ ويجري من جبالها الجنوبية في زمن الامطار سيولٌ عَرِمة تغور في الرمال او تصب في النيل او البحر الاحمر تُعرَف عندهم بالخيران وأشهرها :

« خور بركة » يأتيها من جبال شمالي الحبشة ويصب في البحر الاحمر بعد ان يروي بلاد طوكر كلها فيزرع اهلها على ريّهِ

« وخور القاش » فانهُ يأتي ايضاً من شمالي الحبشة ويجري في بلاد كسلا فيرويها ويغور في الرمال قبل ان يصل نهر الاتبرا

« وخور ابي حبل » يأتي من جبال النوبة الشمالية ويجري شرقاً مسافة ١٩٠ ميلاً فيغور في الرمال قريباً من النيل او يصل النيل عند جزيرة أبا

« وخور تندلتي » وهو يخرج من جبال دارفور الشمالية ويجري جنوباً فيخترق مدينة الفاشر وتصدُّهُ تلالٌ رملية في جنوبيها عن الجري فيغور تدريجاً

﴿ آبارها ﴾ وفي الصيف تجفّ هذه الخيران فيحفر في ارضها آبار صالحة للشرب على عمق قامة او اكثر ويصبح اعتماد اهل البادية في الشمال والجنوب على الآبار . واشهر هذه الآبار :

« آبار أُحيمر وأُنقات والطّرفاوي والنّجيم » في الطريق التي بين اسوان وبربر

« وآبار المُرّات » في طريق الصحراء التي بين ابي حمد وكورسكو . وهي آبار نبع اذا نزح الماء منها وتركت نحو ساعة عادت فامتلأت . وماؤها صالح للشرب الاّ انهُ مسهل لغير المتعود عليهِ لاحتوائهِ على املاح المانيزه وهو مرٌّ الطعم قليلاً ولذلك سميت الآبار بالمرّات

« وآبار هندوب واوتاو وهمبوك ودسّابل وهراتري وكوكريب واورياب والباك » في الطريق التي بين سواكن وبربر وفي هذه الآبار آثار تدلّ على قدمها

«وآبار مغاغه والجكدول وابي طليح» في الطريق التي بين كورتي والمتمة

«وآبار البيوضة» بين امبقول والشلال السادس وتبلغ سبعين بئرًا وماؤها قريب من سطح الارض. وتسمى الصحراء بين ام درمان والدبّة وابي حمد باسمها

«وآبار جبره» وتبلغ نحو المئة بئر بين الدبّة وام درمان على ٥٠ ميلاً من ام درمان و ٢٠٠ ميل من الدبة وماؤها غزير

«وآبار كجمر والصافية والضباعي والشُّطَير ومهتول» في الطريق بين الأُبيِّض والدبة

«وآبار ام بدر وعين حامد» وغيرها في الطريق التي بين الفاشر ودنقله

«وبئر النطرون» في شمالي دارفور «وواحة سِليمه» تجاه عكاشه في طريق الاربعين

وبر السودان كبر مصر في غاية الانبساط والاستواء ولا يزيد ارتفاعهُ على ٦٥٠ قدماً عن سطح البحر ما عدا صحراء كردوفان ودارفور وبعض سواحل البحر الاحمر فانها ترتفع الى ١٦٤٠ قدماً عن سطح البحر . ولذلك فان آبار هذه الجهات اعمق جدًّا من آبار غيرها حتى لقد يبلغ عمق البئر في صحراء كردوفان نحو ٣٠ قامة

الفصل الرابع

في

« معادنها »

واشهر معادن السودان : «الذهب» وهو يوجد تبرًا في جبال بني شنقول الى جنوبي سنَّار ويُعرَف بالذهب السنَّاري . ويوجد على قلة في بعض جبال النوبة كجبل تيرا وجبل شيبون في غرب جبل قدير ويقال ان الذهب الشيبوني أفخر الذهب . وذكر المؤرخون القدماء وجود الذهب في وادي العلاَّقي بين كورسكو والبحر والاحمر ولكن انقطع ورودهُ من هذه الجهة منذ زمانٍ طويل

«والزمرُّد» وقد ذكر المقريزي وجودهُ في الصحراء الشرقيـة «في مكان يعرف بالخربة على سبعة ايام من قفط وقوص وغيرهما من صعيد مصر»

«والنحاس» ومعدنهُ في حفرة النحاس الشهيرة في الشمال الغربي من بحر الغزال . ويظن وجودهُ ايضاً في جبال سَواكن على طريق بربر

«والحديد» وهو كثير في كردوفان ودارفور و بحر الغزال و يوجد قطعاً في الرمال وهم يستخرجونهُ بجمع الرمال التي تشتمل عليهِ ووضعها في سُوَيبات من طين يوقدون تحتها النار حتى يظهر الحديد فيصفّونهُ

«والرصاص» ويوجد في جبل الكُتُم مسيرة يوم الى الشمال من كوبي بدارفور ولكن يقال ان الحصول عليهِ صعب

«والنطرون» وهو يستخرج من بئر النطرون المشار اليهِ أنفاً على طريق الاربعين

«والملح» ويوجد ممزوجاً بالتراب السَّبخ في جميع الجهات واكثرهُ في جهات الاتبرة والدامر والبويضه وفي مكان يعرف باسم شرشار شمالي باره و يوجد قطعاً تحت الرمال في واحة سليمة وفي وادي الكعب غربيّ دنقله

«وملح البارود» و يستخرج اكثرهُ في جهات الخرطوم والفاشر وضواحيهما

«والشبّ» ويستخرج من واحة الشبّ في غرب حلفا على ثلاثة ايام منها

«والتُّربة» وهي نوع من التراب يحتوي على كثير من المواد الملحية توجد في محلات معلومة في السودان واكثرها في جهات بربر و يستعملونها دواء للزهري والحمى

«والانتيمون» او الكحل و يوجد كثيراً في جبل مرّة

وفي جبالها «الحجر الرملي والغرانيت» وفي بعض جهاتها وعلى الخصوص في الضفة الغربية للنيل الازرق «حجارة كلسية» تحرق جيراً . وقد رأيت في جهة الدبّة وغيرها من الجهات القريبة من النيل قطعاً كثيرة من «الاشجار المتحجرة»

ومعلوم ان اراضي السودان لم تكشف بعد حق الاكتشاف فاذا استخدمت فيها معدات هذا العصر فلا يبعد ان تظهر فيها معادن لم تُعرف بعد . وقد سنت حكومة السودان الجديدة قانوناً للبحث عن المعادن ونشرتهُ سنة ١٨٩٩ و باشرت الشركات الاوربية البحث عن المعادن في اكثر انحاء السودان ولا سيا في الصحراء الشرقية والامل بنجاحها كثير ان شاء الله

الفصل الخامس
في
﴿ هوائها ﴾

﴿ فصولها ﴾ اما هواؤها فيختلف باختلاف الجهات ولكنهُ بالاجمال جاف شديد الحرّ . وفي السودان ثلاثة فصول في كل فصل اربعة اشهر وهي :

« فصل الخريف » — من يوليو الى اكتوبر — وهو فصل الامطار وفيهِ يفيض النيل وتورق الاشجار ويزهر النبات وتُزرَع الاراضي البعيدة عن النيل على المطر وفيهِ تتسلط الريح الجنوبية فيبطل سير المراكب الشراعية في النيل لاجتماع التيار والريح ضدّها. واول هذا الفصل اي عند اول نزول الامطار يُعرَف عندهم « بالرشاش » ثم عند اخضرار الارض بالنبات يعرف « بالربيع » وآخرهُ اي عند ما يأخذ الزرع في النضج يعرف « بالدَّرَت » وفيهِ يشتدّ الحرّ وتكثر الحميات والامراض

« وفصل الشتاء » — من نوفمبر الى فبراير — وهو فصل البرد ولاينزل فيهِ مطر كما في مصر والشام الاّ انهُ اطيب فصول السودان واصحُّها هواء وفيهِ تهب الريح الشمالية فتعود المراكب الشراعية الى سيرها صُعُدًا في النيل ويتلطَّف الهواء فيشتدّ البرد في الصبح والمساء وفيـهِ ينضج زرع الخريف ويُزرَع غيرهُ على ماء النيل . وهو اهم الفصول الزراعية الآتي بيانها

« وفصل الصيف » — من مارس الى يونيو — وهو فصل الحرّ وفيهِ تهبّ ريح السموم ويثور الغبار كما في ايام الخماسين في مصر وتُزرَع ارض السواقي والجروف

﴿ امطارها ﴾ هذه هي فصول السودان في المنطقة المتوسطة او المنطقة الواقعة بين بربر وفاشودا اما المنطقة الشمالية والمنطقة الجنوبية فتختلف فصولها عن فصول المنطقة المتوسطة بسبب الامطار فحدّ المطر المنطقي الشمالي في السودان خط ١٥° من العرض الشمالي الاّ ان المطر يمتدّ شمالاً الى بربر او حواليها فالمنطقة الشمالية من بربر فنازلاً شمالاً قلما يقع فيها مطر ولذلك ليس فيها الاّ فصلان الصيف والشتاء وامّا

المنطقة الجنوبية وهي منطقة بلاد فاشودا فيبدأ فيها المطر في مايو ويدوم نحو ستة اشهر الى اكتوبر فيكون فيها فصلان الصيف والخريف . ثم كلما صعدت جنوباً الى جهة خط الاستواء يمتدّ فصل الامطار ويبكر حتى يتعاقب المطر والصحو أو الصيف والخريف عند خط الاستواء كل ايام السنة . واما متوسط ما ينزل من المطر في السنة :

ففي المنطقة الشمالية من عرض اسوان الى عرض بربر اقل من ١٠ قراريط
وفي المنطقة المتوسطة من عرض بربر الى عرض فاشودا من ١٠ : ٢٠ قيراطاً
وفي المنطقة الجنوبيـة من فاشودا الى خط الاستواء من ٢٠ : ٤٠ قيراطاً

وتنصبُّ الامطار في السودان صبًّا كأنها من افواه القِرَب فلا يرافقها بردٌ لحرارة البلاد وانما يرافقها بروق خاطفة ورعود قاصفة تسبقها رياحٌ شديدة وقد تنقضّ الصواعق فتقتل وتتلف كل ما تصيبهُ

﴿ رياحها ﴾ وتُعرَف الرياح في السودان « بالهبوب » وهي تهبّ في الصيف بعنفٍ وشدَّةٍ فتثير الغبار والحصى وترمي بها الوجوه فتلذعها كأنها شرارٌ من نار وتزيد حرّ الصيف ضنكاً وشدَّةً . ويتولَّد من الهبوب اعاصير شديدة تدور على نفسها وهي تزحف حاملةً التراب على شكل اسطوانة هائلة ذاهبة في الجوّ ولا تزال تشتدّ في الزحف وهي تدور على نفسها حتى تضمحلّ فيأتي غيرها وتسمى عندهم « بالعُصار » . وفي آخر الصيف واول الخريف اي في زمن الرشاش تهبُّ الرياح اللواقح فتثير الغبـار امامها بهيئة هائلة فيظهر من بعيد كالسحاب المطبق عليهِ حمرة او سواد حتى اذا حلّت السحابة في مكان حوَّلت نورهُ الى ظلام واضطرت الذين داخل المنازل ان يقفلوا الابواب والنوافذ وينيروا المصابيح ولو في رائعة النهار حتى تنقشع عنهم . وتثور هذه الريح بشدَّةٍ وعنفٍ فتقتلع كل ما تمرُّ عليهِ من الاشجار الشامخة والابنية الواهنة واذا هبت على النيل أغرقت ما تصادفهُ فيهِ من المراكب والوابورات ولذلك يتحوَّط لها النوتية فاذا رأوا عجاجهـا من بعيد أسرعوا بسفنهم الى الشاطئ وربطوها حتى تمرّ وقد لا تمهلهم ان يتحوَّطوا لها فتغرّقهم وسفنَهم في النيل . وتعرف هذه العواصف عند البحرية « بالتلاقيح » وعند اهل البرّ « بالهبايب »

﴿ حرارتها ﴾ وقد تبلغ درجة الحرارة في الخرطوم في اول الصيف فوق ١٠٠° ف في الظل . وتهبط في اول الخريف الى نحو ٦٠° ف . فيكون متوسط الحرارة السنوي فيها على التقريب ٨٠° ف . وهو يزيد في الجنوب ويقلّ في الشمال ¤ اما اسباب ارتفاع الحرارة في السودان فأهمها مجاورتها لخط الاستواء واستواء ارضها وقلة ارتفاعها عن سطح البحر مع قلة جبالها وكثرة صحاريها

﴿ امراضها ﴾ ومع ذلك فهوا. السودان لا بأس بهِ ومن مزاياهُ عدا انهُ جافّ ان القرَع والرَّمد نادران فيه وامراضهُ قليلة بخلاف المشهور عنها واهمها:

«الحمى الملارية» وتعرف عندهم بالورْدة وهي تتفشّى في الغالب في زمن الدَّرَت الذي هو آخر الخريف ويعالجونها بمنقوع القرَظ ممزوجاً بشراب العسل او بمنقوع التمر الهندي او تمر التبلدي

«والديزنتاريا» ويسمونها العِسْرة ويعالجونها باللبن الرائب ممزوجاً بالحلبة او بمسحوق عروق السنط او بأقراص النبق

«والزُّهري» ويُعرَف عندهم بالحلَق أو الجُقيل ويعالجونهُ بالعشبة المعروفة او بالتُّربة المتقدم ذكرها ويمنعون العليل عن اكل اللحم والملح الى ان يشفى

«والسَّيلان المَجري» ويُعرَف بالبَجَل ويعالجونهُ بالعشب المعروف عندهم بالرَّبع يدقّون عروقهُ اليابسة ويمزجونها بالبوزة التي يستخرجونها من الذرة ويسقون العليل منها بدلاً من الماء الى ان يشفى. وانفع من ذلك شرب السمن البقري منقوعاً بهِ الحنظل

«والدودة الوحيدة» ويعالجونها بشرب الحشيشة الحبشية ممزوجة باللبن

«والجدري» وقد يصير وبائياً فيعمّ البلاد كلها وهو أفتك بالسود منهُ بالعرب ويعالجون المصاب بهِ بطعام البلح واللبن والبصل مع الذرة ويدهنون عينيهِ بماء البصل ويمنعون عنهُ اللحم والاطعمة الحارة ويبعدون عنهُ الروائح الطيبة وربما دهنوا انفهُ بالقطران ليضعفوا فيهِ حاسة الشمّ

«والفَرَنْتيت» وهو من الامراض الخاصة بالسودان ولا سيما في دارفور وكردوفان وهو دودة معروفة عند الاطباء بدودة غينيا وهي تكوّن خراجاً تحت

الجلد وتظهر غالباً في ساق الرجل ويسبقها اكلانٌ في الجسم كلهِ يدوم ساعة او اكثر فاذا شُقَّ الخراج ظهر في وسطهِ عرقٌ رفيع مرن صدفيّ اللون وهو الدودة فلا يشفى المصاب الاّ اذا خرج هذا العرق من اصلهِ . وسبب هذا المرض على ما رواهُ الاطباء حشرة ميكروسكوبية تتولد في فصل الامطار او بعدهُ وتدخل في الجسم فتقيم تحت الجلد وتولد الفرنتيت والارجح انها تدخل الجلد من خوض الماء لا من شربهِ ويقال ان النظافة التامة تقي منها

«والكَرُو» ويُعرَف بقرحة اليَمَن وهو آفة غنغرينية تحدث غالباً من خدش أو جرح في الساق فتلتهب وتتورَّم ويظهر في وسط الالتهاب نقطة سوداء فيعالجونها بلبخ الذرة الفتريتة أو التمر الهندي حتى تزول فيظهر غورٌ قليل ويبدو اللحم الاحمر ثم يتعاظم الغور حتى يصير كراحة اليد فيشعر المصاب بآلام شديدة لا تطاق ولا ينفكون عن معالجته باللبخ الى ان يلتئم الغور ويشفى . وقد لا تزول النقطة السوداء باللبخ بل تبقى حتى ينخر العظم وتخرج منهُ شظايا وفي هذه الحالة ينتهي الامر غالباً بموت العليل وقد رأيت كثيرين ممن اصيبوا بهذه القرحة فقالوا ان الجرح الذي اصابهم اولاً انما كان من عود نباتٍ سامّ

«ومرض الدم» وهو مرض الالتهاب السحائي الشوكي الدماغي أعراضهُ الخارجية القيء وارتفاع حرارة الجسم وتصلب في العنق مع انحناء الرأس الى الوراء وألم في المخيخ والسلسلة الفقارية وقد يشتدُّ الالم فيمنع المريض عن النوم اياماً ويعتريهِ هذيان تختلف مدتهُ من يوم الى ثلاثة وقد يمتد الالتهاب الى مراكز البصر والشم والنطق فيعطلها تعطيلاً كلياً او جزئياً وفي الغالب ينتهي الحال بموت العليل . وفتكهُ بالسود اشد من فتكهِ بالبيض وهو في الصيف اشدّ وطأةً منهُ في باقي الفصول . وقد انتشر هذا المرض في ام درمان بعد الفتح الاخير فمات بهِ خلقٌ كثير . وفيهِ مات محمد احمد المتمهدي السوداني

«والجرَب» وهم يحكّون المصاب بهِ يوماً بعد آخر بقطعةٍ من الفخار حتى يسيل منهُ الدم فيغسلونهُ بالماء ولا يعرفون لهُ علاجاً

«والبرَص» وهو شائعٌ بين السود والعرب على السواء وهم لا يعالجونهُ بشيء «والكوليرا» ويسمونها الشوطة والقدّاف وهي تأتي السودان من الهند عن طريق الحجاز فتفتك باهلهِ فتكاً ذريعاً لانهم لا يتحوطون لها ولا يعتنون بالنظافة

هذه هي اشهر العلل في السودان واكثرها عامٌ في كل البلدان كما ترى * واهمّ ما يصاب بهِ الاجنبي : الحمى والديزنتاريا وضربة الشمس ووجع المعدة والكبد والاضراس . واشهر اسبابها شدّة الحرّ والغبار وكثرة التغيرات الجوية وتعاقب الحرّ والبرد في فصل الشتاء مع كثرة المستنقعات وعدم مراعاة شروط النظافة في المأكل والمشرب والملبس . واهمّ التحوطات التي يجب على الاجنبي اتخاذها للوقاية من هذه العلل ان يلفّ حول معدتهِ حزام صوف لا ينزعهُ عنها ليلاً ولا نهارًا وان يرتب معيشتهُ ويراعي شرائط الصحة التي اهمها النظافة والنوم الباكر والقيام الباكر مع تجنب المسكرات والافراط في الشهوات فاذا فعل ذلك وبدّل هواء البلاد صيفاً بعد آخر حتى يعتادهُ وجد السودان موطناً طيباً ومهجرًا رحيباً كثير الخيرات وافر البركات لاسيما بعد ما صار اليهِ الآن من حسن الحال وانتظام الاحكام

الفصل السادس

في

« نباتاتها »

« اشجارها » اشهرها : «النخيل» وهي تكثر في بلاد النوبة بين الشلاّل الاول والرابع وتقلّ في جنوبي الشلاّل الرابع . واجودها نخيل سكّوت بين الشلال الثاني وجبل دوشه ثم نخيل المحس بين جبل دوشه والشلال الثالث ثم نخيل الشايقيّة في جنوبي دنقلة ٥ والبلح انواعٌ اشهرها البتّموده وهو افخرها ويؤكل رُطباً وتمرًا ويحفظ للهدايا . ثم القربانة ولا يؤكل الاّ رُطباً . والسلطاني وهو مشهور بكبر حجمهِ وحسن منظرهِ لا بحلاوة طعمهِ . والدُّقنه ويؤكل رُطباً وتمرًا ويباع للتداوي اذ يُظنّ انهُ نافعٌ للرماتزم . ثم القنديله

والبركاوي وهما يؤكلان تمرًا ويدخلان في التجره وهم يستخرجون من البلح النبيذ والعرق والخل والعسل وذلك بالغلي على النار والتصفية على نحو ما يستخرجونها من العنب. ويصنعون منهُ بالتخمير مشروبًا غير مسكر يسمونهُ الشربوت ومشروبًا مسكرًا يسمونهُ الدكاي . ويسقفون بيوتهم بجذوع النخل وسعفهِ ويصنعون من سعفهِ أسرَّة للنوم ومن ليفهِ الحبال ومن ورقهِ البروش والمقاطف وغيرهما من آنية البيت

«والدَّوم» وهو من اخصّ اشجار السودان ويغزر من حدّ الشلال الرابع فصاعدًا جنوبًا كما يغزر النخيل من هذا الشلال فنازلاً شمالاً . وللدوم شبهٌ بالنخيل ولثمرهِ شبهٌ بالكُمَّثري وهم يجففون ثمرهُ ويدقونهُ ويستعملونهُ غذاء ويسمونهُ العكا ويستخرجون منهُ عسلاً طيباً بالغلي على النار والتصفية . ويسقفون بيوتهم بجذوعهِ ويعملون من خوصهِ حصرًا وآنيةً لمنازلهم كما من النخيل

«والدُّلَيب» ويشبه الدوم الاَّ انهُ أملس ساقًا وأكثر ارتفاعًا حتى لقد يبلغ ارتفاعهُ مئة قدم او اكثر وساقهُ صلبة اذا شُقت وجُوّفت تستعمل قناةً للماء ولهُ ثمر كثمر جوز الهند يؤكل وهو ذو رائحة طيبة

«والعرَديب» وهو شجر التمر الهندي ويُجنى في فصل الخريف فيوضع في حياضٍ ويُهرَس ثم يُترَك مدَّةً ويُجعل اقراصاً مثقوبةً او كتلاً ويدخل في التجر ويُستعمل في جميع انحاء السودان مشروبًا ملطفًا في الحميات والامراض الالتهابية

«والسِّدر» وهو شجر النبق يكثر في كل الجهات الاَّ في دنقلة فهو قليل وهم يصنعون من ثمرهِ اقراصاً كاقراص التمر الهندي يتناولونها غذاء ويدخلونها في التجر . وخشبهُ متين لا يسطو عليهِ النمل الابيض ويصنعون منهُ المراكب الصغيرة والاسرَّة ويسقفون المنازل بفروعهِ لمرونتها وصلابتها

«والتَّبلدي» ويسمونهُ الحُمَر أيضاً وهو شجر هشّ عظيم الحجم يبلغ محيط جذعهِ من ٢٠ الى ٢٦ قدماً . ولهُ ثمر بيضيّ الشكل كثمر جوز الهند يسمى «القُنقُليس» وهم يتناولونهُ غذاء ومشروبًا ملطفًا بوضعهِ في الماء او اللبن وهو مسهل مروٍ للظماء ومبرّد في الحرّ والحميات والامراض الالتهابية . ويكثر هذا الشجر في

جهات كردوفان والبحر الازرق وفي كردوفان يجوّفونهُ ويخزنون فيهِ ماء المطر فيكون عندهم اشبه بصهاريج يشربون منها في الصيف . وتُعرَف الشجرة المجوَّفة لهذه الغاية بالقَلْتة (ج قَلَتْ) . وفي لحائها ألياف جيدة جدًّا تصنع منها الحبال المتينة . وحدّ التبلدي الشمالي خط ١٥° من العرض الشمالي وهو حدّ العرديب ايضاً

«والجوغان» ولهُ ثمر كالنَّبق اصفر اللون لذيذ الطعم يقرب من طعم الزبيب وخشبهُ احمر متين لين كالخيزران يصنعون منهُ خشب الاسلحة النارية وأقفاصاً للاسود وأسرّة للنوم وقد يصنعون منهُ المراكب

«والقُضَيم» ولهُ زهر ابيض جميل وثمر يؤكل وهم يقدّدونهُ ويدخلونهُ في المشروبات المبرّدة ويزعمون انهُ نافع لمرض الدم

«والطُّندُب» وهو نجم يشبه البلأن في هيئتهِ الاّ انهُ يعظم حتى يكون محيطهُ عشرين مترًا او اكثر ترعاهُ الجمال ولهُ ثمر يؤكل وهو احمر اللون في حجم العنب يسمى الحُنْبق وفروعهُ مستقيمة او معوجة فيصنعون من المستقيمة الغلايين ويدخلونها في التجر واما المعوجة فلا تصلح الاّ للوقود ولا تقوَّم ولو كانت طرية ومن ذلك قولهم «فلان عَوَج الطندب» اي انهُ لا يُقوَّم

«والإهليلج» ويسمونهُ الهجليج وثمرهُ اللالوب وهو بهيئة ثمر النخل الاّ انهُ مغلَّف بقشرة وطعمهُ حلو مرّ كطعم خيار الشنبر واهل السودان يأكلونهُ ويستعملونهُ مسهلاً بنقعهِ في الماء وشربهُ على الريق وهو كثير جدًّا في جميع انحاء السودان الجنوبية ويعظم حجمهُ في بلاد كردوفان حتى لقد يبلغ محيط الشجرة الواحدة منهُ ثماني اقدام ويستظلُّ بظلها مئة شخص او اكثر وخشبهُ متين لا ينخرهُ النمل الابيض

«والحَميض» وهو شجر عظيم الحجم كشجر الاهليلج وثمرهُ يشبه البرقوق وله بزر كقلب اللوز يصنعون من خشبهِ سروجاً للدواب واقداحاً للطعام والواحاً للكتابة لكنهُ لا يقيم طويلاً

«والجميز» وهو قليل وهم يأكلون ثمرهُ ويصنعون منهُ القوارب والآنية للبيوت ولكن خشبهُ لين قريب الفناء

«وشجر اللاّستك» وهو كثير في جهات خط الاستواء وبحر الغزال وفي جنوبي كردوفان وهو شجر كبير كشجر الجميز ولهُ حبٌّ صغير لا يؤكل تُجرح اغصانهُ الكبيرة بفاس فيخرج منها عصير لزج اذا تُرِكَ لليوم التالي جفَّ وهو اللاّستك ويدخل في التجر

«والهَشاب» وهو من اشجار الصمغ ويكثر جدًّا في بادية كردوفان وصمغهُ اجود انواع الصمغ وخشبهُ يقيم طويلاً لاينخرهُ النمل الابيض ويستخرج من لحائهِ ألياف متينة تُصنع منها الحبال

«واللُّبان» ينمو في اعالي النيل الازرق ويخرج منهُ صمغ كاللبان (البخور)

«والسَّنط» وهو مشهور بمتانة خشبهِ وصلابتهِ وثقلهِ فمنهُ تصنع المراكب الكبيرة وآلات السواقي وهو الخشب الوحيد الذي يصلح لعمل المراكب الكبيرة ويثبت على الزمان . وفي شجر السنط بزر يُعرَف بالقَرَظ يستعملونهُ للدباغ ويخلطونهُ باللبن الرائب فيتخذونهُ لمنع الاسهال او يخلطونهُ بالعجين المخمر ويدهنون بهِ جسد المحموم لتخفيف الحرارة . وينبت في اصل الشجرة عروق تسمى الطرطوس يدقّونها ويستعملونها دواء لمنع الاسهال وينقعون بها الاباريق الجلدية المعروفة عندهم بالركاوي (مفردها ركوة) لتقوية الجلد ووقايتهِ من التشقق

«والسَّلَم» وهم يدبغون بقشرهِ ويتخذون فروعهُ عصيًا

«والكِتر» وفي لحائهِ ألياف جيدة تصنع منها الحبال

«والسَّيال» وهو والكتر والسلم والسنط من اشجار الصمغ ايضاً ولكن صمغها قليل رديء ولا يدخل في المتجر الاّ بقصد الغشّ

«والحَرَاز» يشبه السنط وله ثمر كثمر الخرنوب لكنهُ تفه الطعم يصلح علفًا للحيوانات وهم يصنعون من خشبهِ المراكب الصغيرة واقداح الطعام ولكنهُ سريع الزوال

«والعَرَد» ولهُ زهر طيب الرائحة وقشر يُدبغ بهِ

«والمُدُس» وهو شجر كبير يتكوَّن منهُ غابات عظيمة يؤخذ من قشرهِ احسن الدّباغ وأحسن الجلود هي الجلود المدبوغة بقشر المدُس

«والأبنوس» وهو من أخصّ اشجار السودان ويكثر على النيل الازرق وخور ابي حبل وهم يصنعون من خشبهِ العصيّ والكراسي والموائد والوسائد والصناديق والسُّبَح ويدخلونهُ في المتجر ويستخرجون منهُ القطران فيداوون بهِ البواسير ويقولون انهُ انجع دواءٍ لهذا الداء.

«والكاكموت» وهو شجر شامخ مستقيم الجذع شبه السرو تسقف بهِ المنازل الفاخرة وخشبهُ صلب تصنع منهُ الآنية وغيرها واذا جفّ طفا على وجه الماء.

«والاندِراب» وهو شجر عظيم الحجم شبيه بالسنط ترعى ورقهُ الجمال ويُصنع من خشبهِ الابواب والشبابيك ومن فروعهِ عصيُّ الحراب وعصيُّ الحمل وخشبهُ جيد متين خفيف سهل النشر واذا جفّ يطفو على وجه الماء.

«والجبيل» وهم يستعملون خشبهُ في البناء ويصنعون منهُ قوائم الاسرَّة والكراسي وعيدان الفؤوس. والنساء تتبخر بهِ لطيب رائحتهِ

«والبَشَم» وهو شجر البَشام ساقهُ صقيلة ولون خشبهِ ابيض مصفرّ يصنعون من غليظ فروعهِ انصبة للسكاكين ومن رفيعها النبال وعصيّ الحراب وعصياً للحمل معقوفة كالصولجان كثيرة الاستعمال في السودان

«والعُشَر» المعروف وهم يدخلون قشرهُ في مواد البارود ويصنعون من خشبهِ اسرجة للحمير والواحاً للكتابة وقوارب صغيرة وخشبهُ متين خفيف. وفي سوقهِ ليف يصنعون منهُ الشباك وفي قشر ثمرهِ زَغب حريري يحشون بهِ الوسائد

«والاراك» المعروف يتسوّكون بفروعهِ طرية او يابسة ويأكلون ثمرهُ المعروف عندهم بالشاو ٠ ويؤتى من الحبشة بعشبة تُعرَف بشاو الحبش تستعمل مسهلاً للدودة الوحيدة

«واللعوت» يشبه شجر الليمون وشوكهُ حادّ تتخذ اغصانهُ سوكاً وأليافهُ حبالاً

«والصُّباغ» واكثرهُ في بلاد كردوفان والنيل الازرق وهو مستقيم الساق مخروطيّ الشكل كقالب السكر تسقف بهِ البيوت ومتى كبر تفرع منهُ فروع مستقيمة ايضاً يسقف بها وخشبهُ يُعرَف بالشاف وهو افضل ما تتبخر به النساء

«والكُلَيت» وهو شجر كبير كالسنط تتبخر النساء بخشبهِ كالشاف ولكنهُ بعد الشاف في الجودة

«وشجرة اللولو» وهي من اشجار بحر الغزال تشبه شجر الجوز ولها ثمر في داخله نواة قدر الكستنا يدقونها ويغلونها على النار مع الماء فيستخرجون منها دهناً لطيفاً يستخدمونهُ في اطعمتهم بدل السمن

«وشجرة الخمرة» وهي ايضاً من اشجار بحر الغزال وتشبه شجرة الجميز تُجرَح فروعها بفأسٍ فيخرج منها عصير اذا تُرِك الى اليوم التالي صار خمراً يشربونها

«والرُّوم» ويكثر في بحر الغزال وخط الاستواء وهو شجر كبير يحمل ثمراً كسنابل الذرة فيهِ مادة ناعمة بيضاء كالحرير يستعملونها حشواً للوسائد

«والسنَّا» ويُعرَف ايضاً بالسنا المكي وهو كثيرٌ في جهات البحر الازرق والصحراء الشرقية يستعملون ورقهُ مسهلاً وحدهُ او ممزوجاً بالتمر الهندي ويدخلونهُ في المتجر

«والحناء» المعروف وهو كثير ويدخل في المتجر

«والخروع» وهم يستخرجون منهُ زيتاً ويدهنون به رؤوسهم واجسادهم

«والحسكنيت» وهو نباتٌ وبريٌّ برّيٌّ يكثر جداً في كردوفان ولهُ حبٌّ كحبّ الرشاد يُعرَف بالكوريب يأكلونهُ في ايام المجاعات ممزوجاً بالذرة او مجرداً عنها

«والهيكَيت» ويكثر في الجنوب وهو نجمٌ شائك معترش يقال انهُ يسمُّ الجمال

«والحنظل» وهو معروف ويستخرجون منهُ زيتاً يدخلونهُ في عمل القطران

«وشجر السمّ» وهو نجم كشجر الصبّير تُغرَز فيهِ السهام وهي محمية فيسمُّها

«والسلعلع» من النباتات اللافة السامّة المربعة الساق اذا التفّ على شجرة أيبسها . ومن امثالهم (فلان عرق سلعلع) اي انهُ شؤم على صاحبهِ

«والمرْخ» وهو نجم ينبسط ويرتفع في الجوّ حتى يُستظلّ بهِ وليس لهُ ورق ولا شوك وقضبانهُ دقيقة خضراء كاغصان البان وهو من شجر النار سريع الوري تأكلهُ الجمال وينبت في الصحاري الرملية .ويستخرج منهُ أَلياف دقيقة متينة جداً تُصنع منها الشباك وقد يمكن استخراج أَلياف منهُ صالحة للنسج فليُتنبَّه لذلك

«والحمريب» وهو نبت الإذخر طيب الرائحة يستعملونهُ لبناء الاكواخ ويغلون قشهُ مع البلح فيستعملونهُ طباً

«والحلفاء» من اشهر نباتات السودان تأكلهُ الجمال والدواب وهم يجففونهُ ويجدلونهُ حبالاً متينة يشدُّون بها السواقي والاسرَّة

«والنُّجَيلة والدِفْرة والسِعْدة والحُمْرَة» وهي من اجود الاعشاب التي ترعاها البهائم وافضلها النجيلة

«والطرفاء» يكثر على النيل الازرق وخشبهُ جيد يصنعون منهُ القوارب واسرجةً للحمير ويستخدمونهُ في عمل البارود ولهُ عفص يستعمل في الصباغة

«والصفصاف» وهو ينبت على ضفاف النيل فيغمرهُ الماء غالباً وقت الفيضان وهم يدخلونهُ في مواد البارود ويصنعون من اغصانهِ السلال ومن ورقهِ صباغاً يصبغون بهِ خوص النخل الذي تُصنع منهُ الحصر

«والقنا» وهو قصب مصمت الساق يكثر في اعالي النيل الازرق وهم يأخذون منهُ عصيَّ الحراب والدَّرق ويسقفون بهِ ويصنعون منهُ مغازل القطن

«وقصب البُردي» المعروف بالبيروس وقد كان قديماً منتشراً في جميع وادي النيل وكان المصريون القدماء يستعملونهُ ورقاً للكتابة كما هو مشهور ولكنهُ انقطع الآن من وادي النيل ولم يبقَ منهُ الاَّ في اعالي النيل الابيض من فاشودا فصاعداً جنوباً

«والعَنْبَج» نبات كالقصب الاَّ انهُ اخفّ من الفلين وهو يكثر في جهات خط الاستواء وبحر الغزال ويصنعون من سوقهِ أطوافاً يسمونها الطرور ويستعملونها لشحن الحبوب على اسلوب بسيط جدًّا فانهم بعد شحنها يدفعونها في وسط التيار فتسير بقوَّتهِ حتى تصل الى المكان المقصود فيوقفونها وهي آمن من المراكب

واكثر اشجار السودان واعظمها في المنطقة الجنوبية التي هي منطقة الامطار ففيها غاباتٌ عظيمة واحراجٌ متسعة غاصة بالحيوان والطير واخصّ اشجارها الهشاب والطلح والسنط والسلم والكتر والتبلدي والابنوس والسدر والعرديب والاندراب والمدُس والكاكوت والطرفاء والقنا وغيرها من الاشجار المتقدم ذكرها

﴿ مزروعاتها ﴾ واهمُّ مزروعات اهل السودان :

« الذرة » (واكثر زراعتها في بلاد النيل والسودان الشرقي وهي عندهم انواع اشهرها الفتريته وتزرع في الجزيرة على المطر .) والكرقي ويزرع في السودان الشرقي ، وام قرَظ والصفرا وتزرعان على النيل الأبيض . والمقد ويسمى عيش الجزائر لانهُ يزرع فيها وهو من اجود انواع الذرة ولا يقتنيهِ الا المتنعمون ، وعيش الريف وهو المعروف في مصر بالذرة الشامي وزرعهم لهُ قليل وهم يزرعونهُ على السواقي . وعيش الطيف وهو اعزّ انواع الذرة ولهُ فريك يُعرف بالشمشم وهو لا يخصب الا في القضارف واهلها يخزنونهُ ويرسلون منهُ هدايا الى كل جهات السودان

« والدُّخن » (وهو اصغر حبًّا من الذرة ويُزرَع في الاراضي الرملية واكثر زرعهِ في كردوفان ودارفور حيث يزرع على المطر وعليهِ اعتماد اهلهما)

ويستخرج من الذرة والدخن نوع من المسكر يسمونهُ البوزة او الماريسة وهو مشروبهم الخاص ويصنعون منهما نوعاً من الخبز الرقيق يسمونهُ الابريه يبلونهُ بالماء مع السكر ويستعملونهُ شراباً

« والتيلبون » وهو اصغر حبًّا من الدخن يُزرَع في بحر الغزال وخط الاستواء

« والقمح » (ويُزرَع على قلة لان اكلهم لهُ قليل

« والشعير » (ويُزرَع على قلة ايضاً لانهم يعلفون خيلهم الدخن او الذرة ولا يعلفونها شعيرًا الا في دنقلة)

« والسمسم » ويُزرَع بكثرة واكثر زرعهِ على المطر في الجزيرة والقضارف وكردوفان وهم يستخرجون منهُ الزيت المعروف بالسيرج ويستعملونهُ غذاء ودهاناً

« والقطن » (وهو يجود فيها . ويزرعون قطناً يسمونهُ قطن ممتاز نسبةً الى ممتاز باشا الذي ادخل زراعتهُ الى السودان ايام كان والياً عليها مدة الفتح الاول وبعد الفتح الاخير ادخل « السر رجينولد ونجت باشا والي السودان الحالي » زراعة القطن الاشموني والميت عفيفي من مصر فلم تمضِ عليهِ مدة التجربة بعد . وهم يحلجون القطن بآلة تعرف بالنوغاية شبيهة بدولاب الحلاجة في مصر ويحوكون

منهُ قماشاً خشناً شبيهاً بالخام يُعرَف بالدمُّور وهو لبس عامتهم وقماشاً ارقّ منهُ يُعرَف بالقنجة وهو لبس خاصتهم

«والدخان» ويسمونهُ التنباك وهو خشن رديء ولكن في الفتح الاول دخل بلاد القضارف نوع منهُ عُرِف بالتنباك السوري فجاد حتى كان افخر من دخان مصر . وهم يشربون الدخان بالغليون المعروف عندهم بالكدوس وفي مصر بالشُّبُك ولكن غالبهم يمضغونهُ مضغاً باضافة قليل من النطرون اليهِ وهو المعروف عندهم بالسفَّه ، او يسحقون ورق الدخان ويضيفون اليهِ قليلاً من النطرون او الجردَقه (نوع من التراب) فيستعملونه نشوقاً

ويزرعون من انواع «القطاني» الفول العادي» والفول الكردوفاني المعروف في مصر بالفول السوداني ومنبتهُ كردوفان وهم يدخلونهُ في الحلويات بدل اللوز ويستخرجون منهُ زيتاً ياكلونهُ ويدَّهنون بهِ . والحمص ويسمونهُ كبكبيك . والعدس . والماش ويسمونهُ لوبيا عدس . والبازلاّ . والترمس

ويزرعون من «الخضراوات» : الباميا وقد تنبت لنفسها فتعرف عندهم بالويكه . واللوبيا ويسمونها في دنقلة كشرنقيق واكثر مأكولهم من هذين الصنفين . والقرع ويصنعون منهُ آنية للشرب . والكوسى . والباذنجان . والطماطم . والملوخية . والسلق . والرجلة . والكرنب . واللفت . والجزر . والكزبرة . والبقدونس . والشُّمره . والفجل . والتوم . والبصل الاّ ان البصل غير معروف في بلاد السود . والحلبة وهم يمزجون دقيقها بدقيق القمح واللبن والسمن ويتخذونها مقويًّا ويمزجون حبها باللبن ويستعملونها مضاداً للاسهال . والبطاطا وهي تنبت لنفسها في السودان الجنوبي . والشطة وهي نوع من الفلفل الاحمر وأجود التوابل عندهم

ويزرعون من انواع «الفاكهة» : البطيخ ويعظم هناك حجمهُ جدًّا ولكنهُ لا يكون حلوًا كبطيخ يافا وفي بعض جهات كردوفان حيث تقلُّ المياه في الصيف يستعيضون باكلهِ عن شرب الماء . والجرُم وهو نوعٌ من البطيخ ياكلونهُ مسلوقاً ومشويًّا وياكلون بزرهُ محمصاً بالملح . والشمام . والخيار . والقثا . والعجُّور .

وقصب السكر ويستخرجون منهُ في بعض الجهات عسلاً . والعنكوليب وهو نوعٌ من قصب السكر الاَّ انهُ اقلّ حلاوةً منهُ ويكثر في بلاد التاكا والتضارف وهم يستخرجون منهُ عسلاً ايضاً . والموز وهو كثير في فروع النيل الابيض خصوصاً في خط الاستواء وبحر الغزال ويكبر ثمرهُ حتى تبلغ الموزة الواحدة قدر الساعد وهم يصنعون منهُ مشروبات روحية * وترى في مدن السودان جنائن فيها من انواع الفاكهة البرتقال . والليمون . والرمان . والعنب . والتين . والقشطة وغيرها

الفصل السابع

في

« حيواناتها »

« حيواناتها البرية » وفي السودان كثير من الحيوانات البرّية والاليفة لكن البرّية اكثر جدًّا من الاليفة لكثرة الصحاري والغابات واشهرها :

« الاسد » ويسمونهُ الدابي ودود الخلا ويصطادونهُ صغيرًا ويربّونهُ او يصطادونهُ كبيرًا فيجعلهُ ملوكهم على ابواب منازلهم ليزيدوها مهابةً ووقارًا

« والفيل » وهم يصطادونهُ لاجل سنهِ وجلدهِ فيدخلون سنهُ في التجر ويصنعون منهُ اساور ومكاحل واغطيةً للركاوي وكراسي للوسائد الخشبية ومقابض للمراوح والعصيّ . ويعملون من جلدهِ الدَّرَق . ولكنهم لايدجنونهُ كما في الهند . وقد قدَّر الباحثون ان الفيل ينقطع من افريقية بعد ١٥٠ الى ٢٠٠ سنة

« ووحيد القرن » او الكركدّن ويسمونهُ العَنَزَة ام قرن ويصطادونهُ لاجل قرنهِ المعروف بالخرتيت فيصنعون منهُ كاسات وفناجين وانصبةً للسكاكين

« والزرافة » وهم يصنعون من جلدها نعالاً ودرقاً ومن ذيلها منشات ويستمرئون لحمها جدًّا ويقدّدونهُ كما يقدّدون لحم البقر

« والجاموس البرّي . و بقر الوحش » وهم يصطادونهما ويصنعون من جلودهما الدَّرق .

«وحمار الوحش» (ويسمونهُ حمار الخلا او حمار الوادي) واكثرهُ في الصحراء الشرقية وهم يصطادونهُ ويدجّنونهُ

«والزبيره» (وتعرف خطاء عندهم بحمار الوحش)

«والضبع» (وتُعرَف عندهم بالمرعفيب أو المرفعين وهي كثيرة جدًا حتى لقد تدخل البلاد العامرة وتسطو على المواشي والاولاد)

(«والذئب . والنمر . والفهد . والنمس . والقنفذ . والثعلب» ويسمونهُ البعشوم

«والخنزير البرّي» ويسمونهُ الحلُّوف وهم يأكلون لحمهُ

«وابو اظلاف» وهو شبه الحلوف لكن لهُ اظلافًا كاظلاف الغنم يحفر بها وجارهُ ويعيش تحت الارض كالخلد ٥ «والهرّ البرّي» ويسمونهُ كديس الخلا

«وهرّ الزباد» ويسمونه كديس الزباد ويصطادونهُ لاجل زبادهِ ويتجرون بهِ

«والتَّيتل» وهم يصنعون من قرونهِ عصيًّا لطيفة

«والغزال» وهوانواع شتى تسرح في صحاريها اسرابًا

وفي غاباتها كثيرٌ من انواع «القرود» بينها : الاوران اوتان وهو اشبهها بالانسان ويُعرَف عندهم بالبعام

(وهم يصطادون الكواسر بالبنادق والخيل والشراك). وابسط شراكهم حفرة يحفرونها في طريق الكواسر على عمق خمسة امتار او اكثر ويغرزون في قعرها اوتادًا متينة محدَّدة الرؤوس ويسقفونها بالعيدان والبروش (الحصر) ثم يحثون فوقها التراب ويجعلونها كالارض التي حولها حتى لا يبقى ما يدلُّ عليها اذ الكواسر ولا سيما الافيال شديدة النكر تتحرز من اقل شيء يوجب الاشتباه فاذا مرَّ الكاسر بالشرك هوى بهِ فيحاول التخلص فتهشمهُ الاوتاد تهشيماً ويموت قهرًا في وسط الحفرة ٥ ومن شراكهم شرك الماعز وذلك انهم يربطون ماعزًا الى وتد ويحفرون حولهُ خندقًا مستديرًا بحيث يبقى الماعز قائماً على اسطوانة من الارض حول الخندق ثم يوارون الخندق بالعيدان والتراب على نحو ما تقدم فيأتي الكاسر لاختطاف الماعز فيهوي في الشرك ويبقى الى ان يأتي الصياد فيرميهِ بالحراب حتى يقتلهُ ٥

ومنها شرك الحبل وذلك انهم يربطون بطرف حبل خشبة كبيرة يطمرونها في طريق الكواسر ويحفرون بجانبها حفرة يعقدون فوقها الطرف الآخر من الحبل على شكل حِبالة ويغطونها فاذا مرَّ الكاسر بها نشبت الحبالة في رجلهِ فيحاول الفرار منها فيتعثر بالخشبة التي في الطرف الآخر من الحبل ويصير كلما ركض يتعثر بها حتى تخور قواهُ فيأتي الصيـاد ويرميهِ بالحراب حتى يقضي عليهِ

﴿ حيواناتها الاليفة ﴾ واما الحيوانات الاليفة فهي الابل . والخيل . والحمير والبغال . والبقر . والضان . والمعزى . والكلاب . والهررة

اما «الابل» فهي كثيرة في جميعُ بوادي السودان وأهلها يؤجرونها لتجار الحضر ويقتاتون بلحومها وألبانها وينتفعون بجلودها ويصنعون بعض خيامهم من اوبارها . وهي اما للحمل او للركوب . واشهر ابل الحمل ابل الهدندوة فانها اصبر على الجوع والعطش من سائر الابل ويهون على الهدندوي بيع كل عزيز لديهِ الاَّ جملهُ . واما ابل الركوب او الهجن فاشهرهـا ابل البشاريه فهي اسرع جريًا واخفّ حركةً وألين ظهرًا من سائر الابل والابل اسهل مركبًا من الخيل وغيرها من الدواب ولا سيما في الاسفار الطويلة والمفـاوز البعيدة . وهم يجعلون لها خزامًا في انفها فيكون لها كالشكيمة للفرس

واما «الخيل» في السودان فثلاثة اجناس اعزها الدُّنقلاوية وهي رشيقة القدّ طويلة الشعر ممشوقة القوائم ظريفة الرأس سريعة الجري الا انها قبيحة الكَفَل . ومنها اصل من خيل جزيرة ارقو يعرف باصل (دونا) لهم فيهِ خرافة لطيفة قالوا : خرج من النيل الى هذه الجزيرة حصان من خيل البحر فعلا فرسًا لملك الجزيرة فولدت منهُ اصل دونا وهو عزيز جدًّا في دنقله ولايقتنيهِ الا كبرآئهم ٭ ثم الغرباوية اي خيل الغرب في كردوفان ودارفور وهي ليست ممشوقة كالخيل الدنقلاوية الاَّ انها اصبر منها على التعب والعطش ٭ ثم المكادية اي خيل الحبشة وهي أردأ خيل السـودان وتأتيها بطريق القلابات ولكن يأتي من بلاد القالاَّ اصل كريم من الخيل يُعرَف باصل (جنا فنجان) وهو عزيز عندهم ولايقتنيـهِ الاَّ ملوكهم ٭ واهل السـودان

يتفاخرون باقتناء الخيل ولا يعنون بشيء كعنايتهم بها فهم لا يستعملونها الا للركوب ولا يسقونها الماء الاّ بعد ترشيحهِ ويعلفونها الشعير والذرة وفي الخريف يعلفونها النجيلة وقد يسقونها بعد العلف اللبن ممزوجاً بالسكر لتقويتها وتسمينها ولكنهم لا ينعلونها ولا يقصون شعرها . ولهم معرفة في طبها واعتبارات شتى من حيث كرامتها وقوتها وسعدها ونحسها كاهل مصر والشام الاّ ان هؤلاء اوسع بها خبرةً

واما «الحمير» فمنها بلدي ويعرف عندهم بالعربي ويستعمل لحمل الاثقال ومنها مجلوب من مصر او مولّد ويستعمل للركوب * واما «البغال» فغير مألوفة عندهم ولا يوجد منها الاّ القليل المجلوب من الحبشة

ومن الغريب ان الابل والخيل لم تكن معروفة عند المصريين القدماء. ولم يسمع عن الخيل في مصر قبل القرن الثالث عشر قبل المسيح وسمع عن الابل بعد ذلك واما الآن فحدُّ الابل في السودان عند خط ١٣° من العرض الشمالي تقريباً فالى جنوبي هذا الخط لا تعيش الابل ولا الخيل ولا الحمير اذ تتسلط عليها ذبابة سامّة تُعرَف بالسَّرُوت فتقتلها

واما «البقر» فكثيرة في جميع جهات السودان الجنوبية وتدخل جلودها في المتجر لكثرتها . وكانت الحكومة في الفتح الاول تجلب قطعاناً منها الى مصر كل سنة عن طريق دنقلة . وعرب السودان يستخدمون الثيران للركوب وحمل الاثقال فيجعلون لها سروجاً من قش واخزمة كاخزمة الابل ولكن غالب بقر السودان صغيرة الابدان دقيقة الاعضاء طويلة القرون لا تصلح للعمل الشاق . وينتاب البقر وباء يفتك بها فتكاً ذريعاً كما حدث في السنين الفائتة

واما «الغنم» فجماء طويلة الذيل والقوائم «والمعزى» صغيرة الجسم نحيفتهُ

واما «الكلاب» فافضلها جنسٌ يعرف بالسلوقي وهو من كلاب الصيد المشهورة وقد رأيت كلباً منها في بريّة دنقلة يطارد ارنباً فلم يلبث ان قبض عليهِ واتى بهِ الى صاحبهِ . والارنب كثيرٌ في صحاري السودان وهم يأكلون لحمهُ ولكن قلَّ من يدجّنهُ

«طيورها» وفي السودان اجناس شتى من الطير بريّة وأليفة * اما «الاليفة»

فهي الدجاج البلدي ويقولون لهُ الجداد وهو كثير جدًّا ولاسيما في الجهات الجنوبية. والدجاج الرومي . والبط . والاوز . والحمام على انواعهِ

واما «البرّية» فاشهرها «النعام» وهو كثير في جميع بوادي السودان ويصطادونهُ لاجل ريشهِ الذي هو من اهم المواد التجارية عندهم وياكلون لحمهُ وقد يربونهُ في زرائب خاصة للانتفاع بهِ واشهر من ربّى النعام عربان حمر في غرب كردوفان ٭ ويصاد النعام بالبنادق والخيل اما صيدهُ بالخيل فكما رواهُ لي بعض صياديهِ ان الفارس يطارد النعام في فلاتهِ فلا يوليهِ النعام ظهرهُ كما قد يتبادر الى الذهن بل يوليهِ جنبهُ ويعدو في دائرة متسعة فيتصدّى لهُ الفارس محاولاً قطع طريقهِ في دائرةٍ اضيق منها حتى يكلّ النعام فيدركهُ الفارس ويضربهُ بالسوط على رأسهِ فيجندلهُ ويرجع بهِ غانماً

ومن الطيور البرّية : «النسر . والعقاب . والصقر . والحداة . والرّخم والقطا . والسماني . والحجل . والقمري . والهدهد . والدجاج البري او «جداد الوادي» ومنها «الدوري» الذي لا تخلو بلاد منه

«والحباري» وهي شبه النعام وهم يصطادونها ويستمرئون لحمها

«والببغاء» ويسمونهُ الخضاري ويجلب منهُ كثير الى مصر

«والغراب» وهو دليل الشؤم . «والبوم» وهو اشأم منهُ

«وابو منجل» (Ibis) سمي بذلك لان هيئة عنقهِ ومنقارهِ تشبه المنجل وهو الطائر الذي كان المصريون القدماء يجلونهُ ويحترمونهُ احتراماً يقرب من العبادة

ومنها «البلبل . والهزار . والكروان» وغيرها من الطيور الجميلة المنظر الحسنة الصوت ٭ ومن هذه الطيور طائر يقال لهُ «اب تكّو» يشبه الببغاء في لونهِ وحجمهِ الاّ انهُ اطول منقارًا واقصر ساقًا وهو مشهور بغيرتهِ على انثاهُ قيل انهُ لا يفارقها ليلاً ولا نهارًا حتى تأتي ايام حضانتها فيسدّ عليها العش بالطين ويترك لهُ ثقبًا صغيرًا يناولها منهُ الغذاء وتبقى كذلك الى ان تفرخ فيفتح لها الباب ويلازمها . ومن امثالهم «فلان حكمه حكم اب تكو على امرأته»

واما «الطيور المائية» التي تعيش على الاسماك والنبات فاشهرها : جمل البحر . وابو سعن . وابو مغازل . والغطاس البحري . والبط . والاوز . والسُّقدة وهو يشبه الحمام . واللقلق ويسمونهُ السيمبريّة . والرَّهوُ وهو الكُرْكيّ وهم يصطادونهُ ويستمرئون لحمهُ . والغرنوق وهو ألطف الطيور المائية

﴿ زحافاتها وهوامها ﴾ وفيها من الزحافات : «السلحفاة» وهم يأكلون لحمها وبيضها ويصنعون من محارها الدَّرق . «والورل والحرباء . والوزَغة»

وفيها انواع شتى من «الثعابين» السامة وغير السامة أشهرها «الأصلة» وهي من الثعابين غير السامة الاَّ انها هائلة الحجم تبلغ من الطول اربعة امتار او اكثر وجسمها كجسم الطفل مغطى بقشور سميكة يكثر وجودها في الغابات فتسكن تجاويف الاشجار وتعيش على الحيوانات فتبتلعها ابتلاعاً ثم تهضمها هضماً تدريجياً. وهم يصطادونها لاجل جلدها فانهم يعملون منهُ أحزمة واحجبة وفي خرافاتهم ان الحامل اذا تمنطقت بحزامٍ مصنوع من جلد الأصلة أمنت كل ضرر وان الحجاب الملفوف بجلد الاصلة يقي حاملهُ فعل الرصاص والعين . واما كيفية صيدها فهي انهم يزربون لها في المكان الذي تنتابهُ زرْباً متيناً ويجعلون داخلهُ حيواناً ضخماً فتأتي الاصلة وتبتلعهُ فتزدحم في مكانها فيوقدون النار اذ ذاك في الزَرْب فتموت حرقاً واذا نجت قتلت من تجدهُ في طريقها شرَّ قتلة لا باللدغ لانها غير سامة كما مرَّ بل بالتفافها عليهِ وضغطها لهُ ضغطاً شديداً يزهق روحهُ

وفيها «العقرب» وهي سامّةٌ جداً

«وابو شبت» وهو شبه الرتيلاء الاَّ انهُ سامٌّ كالعقرب

وانجع علاجٍ عندهم للدغ الحيات والعقارب الكيُّ بالنار وشرب التمر الهندي مع الملح ونشارة الخرتيت مغلية بالماء

«والجراد» وهو يتكوَّن فيها او تقذفهُ الرياح من الحبشة او الحجاز ويجيء اسراباً كثيفة حتى اذا طار حجب عين الشمس أو حلَّ غطى وجه الارض وحيث حلَّ لايبقي ولايذر فيتلف المزروعات والاشجار اتلافاً تاماً ويعمُّ بسببهِ الجوع. وقد يبيض

وينقف فيشتدّ بلاؤهُ وهو شرُّ الآفات على السودان من خط الاستواء الى سواكن

«والفار» وقد يكثر جدًّا في بعض الجهات فيعيث في الزرع ويعظم شرّهُ

«والأرضة» وهي نوعٌ من الذباب شبيهة بالنمل عظيمة الضرر تكره النور فتكمن في التراب تحت وجه الارض حتى اذا وُضع عليهِ متاع من خشب او جلد او نسيج علقت بهِ في الحال وقرضتهُ من اسفلهِ وهرأتهُ هرءًا. لذلك لايترك اهلُ البلاد امتعتهم على الارض بل يعلقونها في السقوف أو يضعونها على حجارةٍ صلدة فانها لا تتسلق عليها الاّ بعد حين اذ تبني على نفسها أزجًا من التراب شبه دهليز تستتر بهِ وتدبّ الى المتاع فتنشب فيهِ وتتلفهُ . وهي تكثر في بلاد دنقلة وتقلُّ في بربر

«والسَّرُوت» وهي ذبابةٌ سامة قدر النحلة لها حُمةٌ حادّة تلدغ الانسان والحيوان وتقتل من الحيوان الابل والخيل والحمير وتوجد في اعالي النيلين الابيض والازرق وتكثر في زمن الامطار

«والذباب العادي» وهو كثير جدًّا وشديد الوطأة

«والبعوض» او الناموس واكثرهُ في اعالي النيلين الابيض والازرق ومنهُ نوع مشهور بنقل جراثيم الحمى الملارية وغيرها من الحميات

«والبقّ» ويسمونهُ المرقوت او المرقون ٭ «والقمل» ويكثر في عامتهم فيملأ ثيابهم وفرشهم لكثرة اوساخهم ٭ واما البرغوث فغير معروف عندهم

«والنحل» وهو كثير في كل جهة ولكنهم قلما يعنون بتربيتهِ بل يجنون الشهد من خلاياهُ التي يصنعها في الجبال والغابات

«والفراش» ويكثر جدًّا في زمن الامطار حتى يكون كالجراد المنتشر

«والنامتّه» وهو نوعٌ صغيرٌ جدًّا من الهوام يكثر بعد الغروب حتى يكاد يطفئ الانوار من شدّة تهافتهِ عليها

هذا وفي السودان غير ما ذُكر كثيرٌ من الطير والحيوان مما لا يُعرَف لهُ اسمٌ عندهم او مما تختلف اسماؤهُ باختلاف البلدان . وقد وضعت حكومة السودان الجديدة قانونًا منعت فيهِ صيد بعض الحيوان والطير وسمحت بصيد البعض الآخر برسم معلوم



(رجال الشلك)

الفصل الثامن
في
﴿ سكانها ﴾

« اصولهم . وقبائلهم . ومواطنهم »

اما سكان السودان فمن شعوب مختلفة وقبائل شتى تجمعهم خمسة اصول كبار وهي السود . وشبه السود . والبجه . والنوبة . والعرب . ما عدا الاجانب والمولدين

﴿ السود ﴾ اما السود ويُعرَفون ايضاً بالزنج والعبيد فهم سكان افريقيا الاصليون ومن اصلٍ قديم قبل التاريخ وهم في عُرف علماء الطبيعة من السلالة الثالثة التي هي ادنى السلائل البشرية. وقد انحصروا الآن في افريقيا الجنوبية وفي اعالي النيلين الابيض والازرق من بلاد السودان وهم منقسمون فيها الى قبائل شتى لكل قبيلة منهم لغةٌ خاصة ومذهب خاصٌ من الديانة الفتشية او الطبيعية وعليها رئيسٌ ديني وملكٌ من جنسها . وكلهم حضرٌ لا بادية فيهم ولكنهم ما زالوا على الفطرة الاصلية عراة الابدان لا مدنية لهم ولا علم ولا صناعة . ودأبهم الزراعة قدر كفايتهم وصيد السمك في النيل والحيوان في البرّ وغزو بعضهم لبعض . وهم يقتنون البقر والضان والمعزى والدجاج والكلاب ويعنون بتربية الابقار عناية تقرب من العبادة . واشهر قبائل السود في اعالي النيل الابيض :

«الشلك» وبلادهم غربي النيل الابيض بين جزيرة أبا وبحيرة نو وهي سلسلة من القرى متصلة بعضها ببعض على كل قرية شيخ وكل مجموع من القرى ناظر وعلى الكل ملك يقيم في فاشوده . وهم من اقوى قبائل السود واطولها قامة

«والدنكا» ويسكنون شرقيَّ النيل الابيض تجاه الشلك وشمالي خط الاستواء. وهم اشدّ قبائل السود سواداً ومن اجملها شكلاً

«والنُّوير» وهم بين بحر سُبت وبحر الغزال وفي بلادهم يتسع النيل وتكثر

السدود والمستنقعات حتى ان بعضهم يسكنون الجزر فيعيشون على الاسماك والنباتات كالطيور المائية .   «والبور . والشير » في شمالي خط الاستواء

«والباري» وهم افرس قبائل السود واحسنهم خلقاً وابهاهم طلعةً واشهر محلاتهم كوندوكرو و باري

«والمادي» في جنوبيهم وهم يشبهونهم في الهيئة والاخلاق والعادات

«والشُلي» في رأس بحر الجبل شمالي بحيرة نيانزا و بين لغتهم ولغة الشلك مشابهة كلية حتى ظنَّ بعضهم انهم والشلك من اصلٍ واحد

«واللاتوكا» في شرق بحر الجبل وهم لا يشبهون جيرانهم السود في شيء ويختلفون عنهم في الهيئة والاخلاق والعادات كما يختلفون عنهم في اللغة وقد اجمع السياح الذين اجتابوا بلادهم انهم هم والقالاَّ الذين في جنوبي الحبشة من اصلٍ واحد . وهم في حروبٍ مستمرَّة بعضهم ضدَّ بعض ولولا ذلك لكانوا اقوى امم افريقيا

«والمكارك» وبلادهم غربي بحر الجبل في جوار المادي وهم فروعٌ من النيام نيام ويمتازون عن الامم المحيطة بهم بان انوفهم اقل فطساً وخدودهم اقلَّ بروزاً وزاوية وجوههم اكثر انفراجاً وشعورهم اطول واسبط . وهذه القبائل الخمس الاخيرة واقعة وراء الحدّ الجنوبي للسودان الحالي

«والجانق» وهم فرعٌ عظيم من الدنكا واكبر قبائل بحر الغزال واشدّهم بأساً واطولهم قامةً وسكناهم السهول الواطئة الشمالية

«والبنقو » ويسكنون السهول المرتفعة جنوبيهم وهم أرقى قبائل بحر الغزال بل هم في رأي شوينفرث السائح الالماني الشهير أرقى عقلاً من سائر قبائل السود ويمتازون عنهم بالوداعة ولين الجانب وحب العمل . والفرق بينهم و بين جيرانهم الدنكا في اللون كنسبة الفرق بين تربة القبيلة الواحدة وتربة الاخرى فتربة البنقو حمراء قاتمة لما فيها من الحديد وتربة الدنكا سوداء اذ لاحديد فيها ولذلك ترى لون الدنكا اسود حالكاً ولون البنقو احمر قاتمًا وهم يستخرجون الحديد و يشتغلون به

«والقولو » وهم في غرب البنقو ويشبهونهم في هيئاتهم واخلاقهم وعاداتهم

«والجور» وبلادهم بين الدنكا والبنقو وهم يرجعون في انسابهم الى الشلك ويتكلمون لغتهم ولا يعنون باقتناء الابقار كغيرهم من السود بل يعنون بالزراعة ويشتغلون بالحديد ولهم معرفة بحفر الخشب وعمل التماثيل

«والأجار» على نهر الرول من فروع بحر الغزال وهم فرع من الدنكا وقد اشتهروا بالغدر والخيانة « «والمورو» على نهر ياي في جوار الأجار

«والديور» في غرب الدنكا وهم فرع من الشلك

«والشيري» وهم مجاورون للنيام نيام في اقصى بحر الغزال وقد اشتهروا بالقوّة والنظافة والترتيب وحبّ العمل وسماحة الخلق مع القدرة على تحمل التعب والصبر على الجوع . وليس عندهم من الحيوانات والطيور الاليفة الاّ الدجاج

«والنيام نيام» الداخل بعضهم في كلامنا وقد اشتهروا باكل لحوم البشر

«والفراتيت» في شمال بحر الغزال الغربي وجنوبي دارفور وهم قبائل شتى يدخل منها في كلامنا سبع وهي دنقو اهل حفرة النحاس . وكارا . وفُنقرُو . وبِنه . وبايه . وقَرُوق . وشالا

«والنوبة» ويسكنون الجبال التي الى جنوبي كردوفان المنسوبة اليهم وهم من انبه قبائل السود واقلها سوادًا قاماتهم متوسطة واجسامهم ممتلئة واخلاقهم رضيّة . ويرتاد العرب بلادهم في زمن الصيف طلبًا الماء والكلإ ولذلك ترى الكثيرين منهم يتكلمون العربية . وقد قُدّر عددهم قبل الثورة المهدية بنحو ٥٠٠٠٠ مقاتل ولكن الثورة المهدية اضعفتهم حتى لم يبقَ منهم الآن نصف هذا العدد

واشهر قبائل السود في اعالي النيل الازرق في اقصى بلاد سنار وفازوغلي :

«البُرون» ويسكنون الجبال التي الى جنوب خور الدليب في اقصى جزيرة سنار وهم في غاية الهمجية « «والجبلاويون» وهم سكان فامكه عاصمة فازوغلي

«والقمز» في شرق فامكه «واللانْقَسنه» في غربيها وهم لصوص قطاع طرق

«والبرته» وهم سكان بني شنقول الى جنوب فامكه التابعة الآن للحبشة

هذه هي اشهر قبائل السود في بلاد السودان وقد كان العرب يغزونهم

فيأتون منهم بالرقيق فيأخذون منهُ كفايتهم ويرسلون ما فضل عنهم الى الجهات للاتجار بهِ ولكن الحكومة منعت ذلك منعاً قطعياً كما سيجيء.

﴿ شبه السود ﴾ واما شبه السود (Negroid) فهم من اقدم الاصول في البلاد بعد السود ويُظنُّ انهم اولاد كوش بن حام الذين هاجروا الى السودان بعد الطوفان وسكنوا الحضر. ومنهم معظم سكان دارفور من بلاد السودان المصري ومعظم سكان وداي وكانم و باجرمي وبرنو وسوكوتو وملي من السودان الغربي. وهم اقلّ سواداً واوفر عقلاً وارقى حضارةً من السود بل هم في الملامح والحضارة اقرب الى العرب منهم الى السود . وقد كانوا على الديانة الفتشية كالسود فهاجر اليهم العرب بعد الاسلام وعلموهم الاسلام ففاقوهم في الائتمار بهِ والتمسك بفرائضه. وهم يقتنون البقر والضان والمعزى والخيل والحمير ويشتغلون بالزراعة وصناعة الدَّرق وحياكة الدمُّور ويحبون العلم ويتقسمون الى قبائل مختلفة لكل قبيلة منهم لغة خاصة وملك من جنسها اشهرها :

«الفور» ومركزهم جبل مرَّة وقد اختلط العرب بهم فأسسوا معهم مملكة قوية في دارفور دامت من سنة ٨٤٨ ﻫ الى سنة ١٢٩١ ﻫ كما سيجيء في التاريخ . ومن فصائلهم الكُنجارة وهم ملوكهم الاولون ويدَّعون النسبة الى بني العباس . والمسبَّعات وقد حكموا في كردوفان . والتُّنجر ومركزهم جبل حُريز على يومين الى الشرق من جبل مرَّة وشارتهم العمامة السوداء قيل انهم كانوا يملكون البلاد قبل الكنجارة فاغتصب هؤلاء الملك منهم فلبسوا العمامة السوداء من ذلك الحين حداداً عليهِ . والجبلاويون سكان جبل مُول في غربي البلاد .

«والبِرقد» ومركزهم جبل مُسكو بين جبل حريز وجبل مرَّة قيل ان عندهم الى الآن صنماً يعبدونهُ سرًّا . ومنهم فصيلة تُعرَف باب درق تعرَّبت ونسيت لغتها

«والميمة» ومركزهم فافا ومنهم فصيلة في كردوفان تعرَّبت ونسيت لغتها

«والمراريت» ومركزهم جلّي بين كَبكَبيَّة وكَلكل وهم ايضاً تعرَّبوا ونسوا لغتهم

«والعوزَه» وهم مجاورون للمراريت . «وكُبقه» الى الشمال الغربي من جبل مرة

«وكاجه البدو» وبلادهم الى الشمال الشرقي من ام شنقه سموا بذلك تمييزاً لهم عن كاجه كتول في ارض كردوفان وقد اشتهروا جميعاً بصيد الزراف وصناعة الدَّرَق

«والداجو» ومركزهم جبل داجو مسيرة يومين الى الغرب من داره قيل انهم ملكوا البلاد قبل التنجر وعندهم صنم من حجر يعبدونهُ سرًّا ويسمونهُ كَنَفره

«ورُنق» الى الجنوب الغربي من الداجو ٭ «والبيقو» الى الجنوب من داره

«والقِمِر» وتُعرَف بلادهم بدار قِمر ومركزهم ابو عُشَر مسيرة ثلاثة ايام الى الشمال من كلكل وملوكهم مصاهرون لسلاطين الفور

«وتامه» وهم مجاورون للقمر من جهة الغرب واضدادٌ لهم

«والمساليت» وهم مجاورون للقمر من جهة الجنوب

«وسِمْيار» ومركزهم سميار في جوار المساليت . قيل ولغات القمر والمساليت وسميار تقرب جدًّا بعضها من بعض حتى كأنها لغةٌ واحدة بثلاث لهجات

«والزغاوة» وهم فريقان زغاوة كُبا في شرق دار قمر وعندهم كثير من الخيل والحمير وزغاوة الدُّور مسيرة اربعة ايام الى الشمال من الفاشر . ومنهم فرعٌ يقال لهم الكَمَلْت في بلاد دارا تعلموا اللغة العربية ونسوا لغتهم

«والبِرْتي» وهم يتكلمون العربية مع لغتهم ومركزهم جبل تقابو مسيرة ثلاثة ايام الى الشمال من الفاشر وهم قبيلة جسيمة ٭ «وأَسَمور» في اقصى الشمال الغربي

«والمَيدوب» مركزهم جبل ميدوب على ٣ ايام الي الشمال الشرقي من تقابو وقنيتهم الابل والخيل والضأن وهم في طريق الاربعين

«والبدَيات» في غرب آبار النطرون وهم أهل بادية ولا زالوا على الفتشية ويعبدون الشجر مع أنهم محاطون بالمسلمين من كل جهة

﴿ البِجَة ﴾ واما البجة ويقال لهم البجاة والبيجة فهم بادية الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الاحمر ومن بقايا الشعوب التي تألفت منها مملكة ايثيوبيا القديمة ويُظنُّ انهم من سلالة اولاد كوش بن حام الذين هاجروا الى السودان بعد الطوفان كما ظُنَّ في شبه السود وسواءٌ صحَّ هذا الظنُّ في هذين الشعبين او لم يصحَّ فمن

الثابت المقطوع بهِ والمؤيد بالقرائن التاريخيـة والطبيعية انهما من سلالة غير سلالة السود وانهما اقدم الشعوب في افريقيا بعد السود ولم ينشأا فيها بل هاجرا اليها من آسيا عن طريق مصر او البحر الاحمر من عهدٍ بعيد . وبقي البجة على الوثنية الى ان كان الاسلام في جزيرة العرب وهاجر اليهم العرب المسلمون في القرن الاول للهجرة فعلموهم الاسلام فانتحلوهُ على ضعفٍ لكنهم ما زالوا على لغتهم البيجاوية وحالهم الاولى من البداوة والهمجية وهم يشبهون عرب البادية في الملامح والعادات الا انهم اشـدّ سمرةً واشكس اخلاقاً . وقنيتهم الابل والغنم والمعزى . وهم منقسمون الى عدة قبائل جسيمة في كل قبيلة عدة عمائر وبطون وافخاذ وفصائل وهي :

«العبابدة» وينقسمون الى اربع عمائر تعرف بالبدَنات وهي العشّاباب وهم منتشرون في الصحراء بين قنا وكورسكو ومركز شيخهم اصوان ومن آبارهم الشهيرة أُحَيمِر وأُنقات وأُبرق . والمليكاب بين دراو وبربر واشهر آبارهم آبار المرّات ومركز شيخهم دراو شمالي اصوان . والفقراء وهم متفرقون في شرقي النيل وغربيهِ بين قنا وكورسكو ومركز شيخهم الرمادي قرب ادفو . والعبّودين مع الشناتير شرقي النيل بين قنا وكورسكو ومركز شيخهم السيّالة شمالي كورسكو. واكثرهم تابع لمصر وهم يخالطون الحضر على النيل فيأتون اسوان على الخصوص بما عندهم من الابل والفحم والسنا وغيرها ويرجعون الى صحرائهم بالغلال والبضائع . وفي تقاليدهم انهم قوم الزبير بن العوام وهو احد القواد الاربعة الذين ارسلهم عمر ابن الخطاب نجدة لعمرو بن العاص اذ كان محاصرًا للمقوقس على جبل المقطم بمصر وارسل معهم كتاباً يقول فيهِ « اني قد أنفذت اليك اربعـة آلاف على كل الفٍ منهم رجلٌ بمقام الف» . ولعل قوم الزبير بن العوام اختلطوا بهم فكانوا رؤوسهم

«والبشارين» او البشارية وهم ثلاث فرق فرقة على البحر الاحمر من القصير فصاعدًا جنوباً الى حدود سواكن وفرقة على الاتبره وفرقة في جزيرة عتباي بينهما وفي كل فرقة عدة بدنات مشهورة

«والأَمَرْأَر» وهم قبيلة جسيمة في طريق بربر بين سواكن وبئر أرياب

وينقسمون الى بدنات شتى اهمها الموسياب وهم شيوخ القبيلة ومركزهم أرياب

«والهدندوه» وهم اقوى قبائل البجه واوفرهم عددًا قيل انهم يبلغون نصف مليون نفس او اكثر ويسكنون الصحراء الواقعة بين خور بركة والاتبرة وطريق بربر وسواكن وينقسمون الى بدنات شتى ذكروا لي منها ٣٠ بدنة اهمها الويل الياب وهم شيوخ القبيلة ومركزهم فِلّك الى الشمال من كسلا قيل ان اسمهم مشتقٌ من هدا بمعنى اسود واندوه بمعنى القبيلة ومعناهُ القبيلة السوداء ومنهم من فسرهُ بغير ذلك

«والحلانقه» ومركزهم كسلا وهم اضداد الهدندوة وموالون للحكومة

«وبنو عامر» وهم في شرق خور بركه من عقيق الى سنهيت وقد قامت فيهم قديمًا مملكة خضعت لسنار وهم اميل الى السكينة من كل قبائل البجه . وتمتاز ابلهم بطول سنامها حتى ان سنام البعير منها يبلغ طولهُ مترًا او نحوهُ . وهم منقسمون الى ١٦ بدنة او اكثر اشهرها النابتاب وهم رؤوسهم وينتسبون للجعليين . ومنهم فصيلة تعرَف بالبجه اي باسم الجنس كلهِ واخرى تعرف بالخاسة وهما محتقرتان عند عرب السودان ومن امثالهم «البجه والخاس ارخص الناس»

« والحَباب » وهم في شرق بني عامر ويمتدون من رأس قصَّار الى مصوع وهم وبنو عامر مشترَكون الآن بين حكومة السودان وحكومة الإرِتْريا

﴿ النوبة ﴾ واما النوبة وهم المعروفون في مصر « بالبرابرة» فقد انحصروا في وادي النيل بين الشلال الاول والرابع وهم خليطٌ من ثلاثة اجناس : النوبة الاصليون والعرب والاتراك . اما النوبة فهم كالبجه من بقايا الشعوب التي تألفت منها المملكة الاثيوبية القديمة وقد أختلف في اصلهم فمنهم من قال انهم والبجه من اصل واحد ومنهم من ألحقهم بالنوبة السود الذين الى جنوبي كردوفان ولكل من الفريقين اقوالٌ تخمينية لا محل لذكرها هنا وهم الآن نفرٌ قليل لا يزيد عددهم عن اربعمائة رجل . واما العرب فهم الذين استوطنوا البلاد بعد الاسلام وهم القسم الاكبر . واما الاتراك فهم الذين استوطنوها بعد ان فتحها السلطان سليم الفاتح سنة ١٥٢٠ م وهم اقلّ من العرب واكثر من النوبة ٥ وقد كان النوبة الاصليون قديمًا على

الوثنية كالبجه فلما انتشرت النصرانية في مصر امتدت اليهم فاعتنقوها سنة ٥٤٥ م وبقوا الى ان تغلب العرب المسلمون سنة ١٣١٨ م فاعتنقوا الاسلام مضطرين ولكنهم بقوا محافظين على لغتهم واتخذ العرب الفاتحون لغة النوبة ونسوا لغتهم وكذلك فعل الاتراك . ولم يزالوا جميعهم يتكلمون لغة النوبة بلهجتين مختلفتين فلاهل المحس وسكوت لهجة ولاهل دنقلة في جنوبيهم والكنوز في شماليهم لهجة اخرى . ومن مخالطتهم العرب ترى اكثرهم يتكلمون العربية لكن رطانة الاعجمية ظاهرة في كلامهم ٭ وكل من هذه الاجناس الثلاثة محافظٌ على جنسيتهِ ويفتخر بالانتماءِ اليها واما في داخلية السودان فهم يعرفون باسماء بلادهم اي :

« الدناقلة » وهم سكان النيل بين الشلال الثالث والرابع وهم قبائل مختلفة اشهرها قبيلة الاشراف التي تدَّعي النسبة الى آل البيت ومنهم محمد احمد المتمهدي المشهور . وقام منهم قديماً ملوكٌ في الدفار ودنقلة العجوز والخندق وجزيرة ارقو ولا تزال ذريتهم فيها الى اليوم

« والمَحَس » وبلادهم بين الشلال الثالث وجبل دوشه وهم يدَّعون النسبة الى عبيد بن كعب العباسي ويقولون انهم كانوا عند مجيئهم الى دار المحس سبعين الفاً . وقد كان لهم قبل الفتوح المصري ملكٌ في جبل ساسي لا تزال ذريتهُ مقيمةً هناك الى اليوم

« واهل سكُّوت » ويسكنون بين جبل دوشه والشلال الثاني عند حلفا

« واهل حلفا والدر » وهم بين حلفا والسبوع واكثرهم من ذرية الاتراك

« والكنوز » قيل جاؤا من نجد والعراق وسكنوا بين السبوع والشلال الاول وقد يطلق عليهم جميعاً اسم الدناقلة . وهم في بلادهم يتعاطون الزراعة وحياكة الدمور ويقتنون البقر والضان والخيل فاذا خرجوا منها الى مصر كان صغارهم مساحي احذية وكبارهم بوَّابين وخدماً وسيَّاساً واذا ذهبوا الى داخل السودان كانوا تجاراً وكتبةً وفقهاء ونجارين يبنون المراكب . وقد اشتهروا في مصر بالنظافة وفي السودان بالمكر والخديعة ومن امثال عرب السودان « الدنقلاوي شيطان مجلد بجلد انسان »

﴿العرب﴾ واما العرب فهم معظم سكان السودان واكرمهم اصلاً واوفرهم عقلاً وارقاهم حضارةً وقد هاجروا اليها بعد الاسلام عن طريق مصر او البحر الاحمر فاستولوا عليها تدريجاً وسكنوا اطيب بلادها واسسوا فيها عدَّة ممالك سيأتي ذكرها. وهم اما حضر او بادية اما الحضر فاكثرهم على النيل الكبير والنيلين الازرق والابيض وفي الجزيرة بينهما وهم يقتنون الخيل والبقر والحمير والضان والمعزى والطيور الاليفة ويشتغلون بالزراعة والصناعة والتجارة والعلم على ما سنبينهُ بالتفصيل . واما البادية فاكثرهم في البُطانة وصحاري البيُّوضة وكردوفان ودارفور وهم يقتنون الابل او البقر ومعها الخيل والحمير والضان والمعزى ودأبهم الصيد والقنص ورعي المواشي وارتياد مواقع الغيث ومنابت الكلإِ والغزو بعضهم لبعض شأن بادية العرب في كل مكان. واسم العرب في السودان انما يُطلق على بادية العرب فقط واما حضرهم فيعرفون باسماء قبائلهم او باسماءِ البلاد التي يسكنونها . وهم يرجعون في انسابهم الى الصحابة وآل البيت وغيرهم من الاصول الشريفة كما سيجيء.

واشهر قبائل العرب على النيل الكبير :

«الشايقية» وهم حضر وبادية وينقسمون الى عدة بدنات اشهرها: العادلاناب والسَّواراب والحَنَّكاب والعُماراب وقد اشتهر لهم في ايام سلطنة الفونج مملكة قوية وحاربوا اسماعيل باشا وهو سائر لفتح سنار فغلبهم وجند نفرًا منهم في جيشهِ وهم موصوفون بالشجاعة والكرم والضيافة وحب العلم والفقها، وفقهاؤهم فريقان الدُّويحية والعونية اما الدويحية فمن ذرية عبد الرحمن ودحاج الذي جاء اليهم من مكة واشتهر بالصلاح والتقوى ولهُ قبة في الدويم تُزار بقرب مروي. واما العونية فكبيرهم الآن محمد بك السيد سر سواري عساكر القلابات سابقًا ومعاون اول بمديرية الخرطوم في الوقت الحاضر

«والمناصير» وهم يسكنون بين الشلاَّل الرابع وابي حمد . قيل ان اجدادهم قتلوا رجلاً في المنصورة بمصر ففرُّوا الى هذه البلاد وذلك من عهد غير بعيد وهم ينقسمون الى خمس بدنات وهي الوهاباب والكَبَّانه والسُلَيمانيه والكجوباب والخبراء

« والرباطاب » في جنوبي المناصير وهم ثلاث بدنات وهي البديرية والفرانيب والضعيفاب وقد اشتهروا بسرعة الخاطر والجواب المفحم وهم في عُرف اهل السودان اصحاب كَكَر وطاقية اي اصحاب ملك اذ الكَكَر عندهم الكرسي الذي يجلس عليها ملوكهم والطاقية عبارة عن التاج وهي لباس للرأس لها قرنان

« والميرفاب » الى جنوبيهم ومركزهم بربر وينقسمون الى اربع بدنات وهي الصيَّام والمُصطفياب واللَّيباب والرَحماب وهم اهل كَكَر وطاقية

« والجعليون » الى جنوبيهم وهم اشهر قبائل العرب في السودان وقد عُرِفوا منذ اول عهدهم بالشجاعة واقتحام الاخطار وحب الاسفار فتراهم منتشرين في جميع اقطار السودان والحبشة وحيث يذهبون يستوطنون ويتوالدون وينشئون حلةً تنسب اليهم . وهم اهل كَكَر وطاقية وقد كان بينهم وبين الفونج وقائع ممدودة وكانوا في حروبٍ مستمرَّة مع الشايقية واهل البادية المجاورين لهم كالشكرية والكواهلة . وقد انقسموا الى اكثر من ثلاثين بدنةً اوخشم بيت منهم العمراب والمجاذيب والعبابسة والزازقية وهم فقهاؤهم . والسعداب وهم ملوكهم ومنهم الملك نمر الذي غدر باسماعيل باشا فاتح السودان فحرقهُ حياً والملك سعد اخوهُ الذي دفن ابن اخيهِ حياً في التراب لانهُ اغتصب بنتاً من الاحرار . والعوَضية واليهم ينتسب الهمج وزراء الفونج . والنفيعاب ومنهم علي ود سعد وعبدالله ود سعد والياس باشا ام برير الذين اشتهروا في تاريخ المهدية . والنافعاب ومنهم ود النجومي المشهور . والمكابراب وقد اشتهروا باللصوصية . والانقرياب وهم ينتسبون الى العابدلاب الآتي ذكرهم وكبيرهم الآن ابرهيم ود حمزة الذي اشتهر في حملة ام درمان الاخيرة . وقد اطلق اسم الجعليين في مصر على جميع سكان النيل بين ابي احمد والخرطوم ولكنهم في الواقع بين الدامر وعقبة قري

« والجميعاب » وهم يسكنون النيل بين عقبة قرّي والشيخ الطيِّب . ومنهم الزبير باشا الذي اشتهر بحروبهِ في بحر الغزال ودارفور وهو اعظم رجل قام في السودان الى اليوم . وسيأتي تفصيل خبرهِ

«والسروراب» الى جنوبي الجميعاب بين الشيخ الطيب وكرري شمالي ام درمان
«والعابدلاّب» ومركزهم الحلفاية تجاه الخرطوم وهم فرعٌ من القواسمة الآتي ذكرهم وقد سموا بالعابدلاّب نسبةً الى كبيرهم عبد الله جماع الذي اسس مملكة سنار مع الفونج وقاسمهم اياها فاتخذ مركزهُ قرّي ولقب بالشيخ . ثم نقل خلفاؤهُ المشيخة الى الحلفاية فبقيت الى الفتوح المصري وسيأتي تفصيل اخبارهم في التاريخ . واما لفظ اب الذي ينتهي بهِ اسم العابدلاب وغيرهم من القبائل العربية فهو مأخوذٌ من البيجاوية ومعناهُ عائلة او قبيلة

واشهر قبائل العرب على النيلين الابيض والازرق والجزيرة بينهما :
«الجموعية» وهم يسكنون غربي النيل الابيض بين ام درمان والترعة الخضراء وهم اهل ككر وطاقية ومن فروعهم الفتيحاب سكان ام درمان والخرطوم الاصليون

هذا ويقول عرب الجموعيــة والسروراب والجميعاب والجعليين والميرفاب والرباطاب والشايقية المتقدم ذكرهم ان جدَّهم واحد وهو ابو مرخة المتصل نسبهُ بالعباس ولهم في ذلك رواية خرافية قالوا : حضر والد ابي مرخة وعمهُ الى السودان في زمن مهاجرة العباسيين اليها وكان ابو مرخة وحيدًا لابيهِ ولعمهِ سبع بنات وكان اهل السودان في ذلك الوقت من النــوبة او البجه فلم يكن فيهم من هو اهلٌ لبنات عمهِ فتزوَّجهنَّ الواحدة بعد الاخرى وولد من كل منهنَّ ولدًا اصبح جَدًّا لكل من القبائل السبع المذكورة

«والحُسَّنَات» في جنوبي الجموعية شرقي النيل وغربيهِ ومركزهم القطينة
«ودُغيم» ومنهم علي ود حلو ثاني خلفاء محمد احمد المتمهدي
«وكنانة» ابناء عم دُغيم ومركزهم جمعان . وكلاهما في جهة جزيرة ابا شرقي النيــل الابيض وغربيهُ * «وسُليم» في جنوبيهم
«والرفاعيون» ومركزهم الكاملين على النيل الازرق وهم ينتسبون الى جهينة
«والمسلَّمية» ومركزهم الحلة المعروفة باسمهم على النيل الازرق ومنهم الشيخ العُبيد الذي اشتهر في بدء الثورة المهدية وكان مركزهُ ام ضبَّان في صحراء المسلمية

«والحلاويون» ومركزهم في ظاهر المسلمية بالجزيرة وهم ينتسبون الى جهينة

«والمدنيون» ومركزهم ود مدني المسماة باسم جدهم المدفون هناك ولهُ مقام يُزار الى اليوم

«والعراكيون» في بلاد ابي حراز وعُبود وودمدني وهم يدّعون النسبة الى جعفر الطيار من آل البيت

«والخوالدة» واكثرهم في جهة عبود في باطن الجزيرة وهم ينتسبون الى جهينة

«والكواهلة» في جهتي عبود وود مدني وينتسبون الى الزبير بن العوام . ومنهم بادية يسكنون غربي الرهد مع الحمدة الآتي ذكرهم . ومن فروعهم الشهيرة الحسنات المار ذكرهم والشنابلة وهم مشهورون بالغنى والتجارة وقد كان منهم مشيخة في زمن الفونج ومركزهم المسلمية

«والشامباته» ومركزهم شمباته بين ود العباس وسنار واكثرهم تجار

«واليعقوباب» قيل يتصل نسبهم بالجعليين وهم يسكنون جنوبي سنار

«وبقّاره محارب» وهم منتشرون في الجزيرة بين سنار وجبلي سقدي ومويه

«والعقَليون» واكثرهم بادية ويسكنون بين الدندر والنيل الازرق

«والحَمَدة» وهم حضر وبادية ويقيمون بين الدندر والرهد ولهم مشيختان مشيخة في دَبَرْكي على الدندر ومشيخة في دُنكُر في آخر حدود سنار من جهة الحبشة

«والقواسمه» وهم اشهر قبائل سنار ويسكنون شمالي سنار في شرقي النيل وغربيهِ وباديتهم تسكن غابة التَرَيره جنوبي سنار . ومنهم العابدلاب المتقدم ذكرهم والكماتير ويسكنون شرقي النيل الازرق بين رُفَـه والرصيرص ومركزهم كركوج وقد قام منهم في زمن الفونج مشيخة كبيرة

«والمَحَويون» واكثرهم بادية يسكنون في شرق النيل الابيض بين الكوّه والجبلَين ويمتدون في داخل الجزيرة الى جبلي سقدي ومويه

«وبنو حسين» ويقال لهم اولاد ابو روف ومعظمهم بادية يمتدُّون من جبلي سقدي ومويه الى خور الدُّلَيب آخر حدود سنار في الجزيرة . واشهر مراكزهم

ابو حجار قرب سَيرو على النيل الازرق والمرقوم في باطن الجزيرة وهم قبيلة جسيمة

«والعلاطيون» واكثرهم بادية يسكنون غرب النيل الازرق من الحُدَيبات الى مشرع تَوْله ٠ هذا وجميع القبائل الست الاخيرة تنسب الى جهينة ويقال لحمدة والعقليين رفاعة الشرق او جهينة الشرق وللقواسمة والمحوبين وبني حسين والعلاطيين رفاعة الهُوْي او جهينة الغرب ويعنون بالهوْي شبه جزيرة سنار واما رفاعه فهي اسم بلدة شهيرة على النيل الازرق

«والزبالعة» ويسكنون جزيرة سنار والبلاد التي بين الرَّهد والدِّندر ويبلغون نحو تسعة آلاف رجل وهم كسائر العرب في اخلاقهم وعاداتهم الاَّ انهم يمتازون عنهم بكونهم شيعةً خاصةً عُرِفت في السودان بالملة الخامسة وعندهم ان مؤسس شيعتهم المسمى ابا جريد هو رسول الله فلا يعرفون نبياً آخر سواهُ وقد اقاموا رمزًا الى قبرهِ في حلة بُنزُقا شرقي النيل الازرق بين كركوج والرصيرص حيث يجتمعون للاذكار مساء كل احدٍ وثلاثاء ويردّدون قولهم « لا اله الاّ الله ابو جريد نبيّ الله» وفي شهر صفر من كل سنة يعتزل مشائخهم الى الخلوات للرياضة فيقيم كل منهم في خلوة ويجعل عليها الحراس لكي لا يدخل عليهِ احد مدة سبعة ايام فاذا انتهت خرج من الخلوة ودعى رهطهُ من الرجال والنساء واقام حلقةً للذكر . قيل انهم يستبيحون العرض في هذه الاجتماعات فانهم بعد نهاية الذكر يقبلون يد الشيخ رجالاً ونساء فيختار الشيخ امرأةً لنفسهِ ثم يحذو كلٌّ منهم حذوهُ وينصرفون . ونساء الزبالعة من اجمل نساءِ السودان قيل ولون الكثيرات منهنَّ ابيض مشربٌ حُمرة . وكلهم اصحاب تنعم ورفاهة فترى الرجال يدهنون اجسادهم ويتطيبون بالروائح العطرية كالنساء . وهم يتجنبون مصاهرة العرب كما ان العرب يتجنبون مصاهرتهم ولكن العرب يستطبّون منهم ويعتقدون فيهم السحر

«والفونج» وهم الذين اسسوا مملكة سنار القديمة مع العابدلاب وكان لهم اعظم الشأن في السودان كما مرَّ . وقد اختلف في اصلهم فمنهم من قال انهم عرب ومنهم انهم سود وقد تعرَّبوا وهو الارجح اما هم فيدَّعون النسبة الى بني امية الذين

نجوا من اضطهاد بني العباس كما سيجيء في تاريخهم . وفي اقصى جنوب الجزيرة جبال تعرف باسمهم ومنهم بقية الآن تسكن رقة من اعمال سنار ودبة دنقلة

«والهَمَج» وهم وزراء الفونج ايام دولتهم في سنار ويدَّعون النسبة الى العوضية الجعليين كما مرَّ والارجح انهم سود متعرّبون وقد عُرِفت جبال الفونج المارّ ذكرها باسمهم ايضاً لانهم حكموها بعد الفتوح المصري وكان اول من حكمها منهم الشيخ ادريس ولذلك سميت الجبال ايضاً بجبال ادريس ومركزهم جبل قلي على ثلاثة ايام الى الجنوب من كركوج

واشهر قبائل العرب البادية في البطانة :

«الشكريّة» وهم قبيلة جسيمة من اكبر القبائل واقواها وفيها تسعون عميرة ونيف تنتسب الى جهينة وقد كان بينهم وبين الفونج وقائع مشهورة في التاريخ فلما كان الفتح المصري خضعوا لحكومة مصر واخلصوا لها . ثم كانت الثورة المهدية فلم يتلقوها كما شاء زعماؤها فنكلوا بهم تنكيلاً شديداً قيل كان عددهم قبل الثورة نحو نصف مليون نسمة واما الآن فلا يبلغون ربع ذلك . ومن مراكزهم الشهيرة رفاعه على النيل الازرق والفاشر على الاتبرا والقضارف والقلعة ارانج وبير ريره وشق الواليه وابو دُليق في البطانة . وهم اضداد الهدندوه والكواهلة

«والبطاحين» وهم الى شمال الشكرية وخصوم لهم وينتسبون الى الجعليين

«والضباينة» وهم ينتسبون الى جهينة وينقسمون الى سبع عمائر كبيرة وقد كانوا في زمن الفونج في حربٍ دائمة مع الحَمَدَة فلما جاءت الحكومة المصرية انقطعت تلك الحرب وازدادت القبيلة عزةً ومناعةً حتى بلغ عدد رجالها قبل الثورة نحو ٥٠ الفاً ولكن جارت المهدية عليها فسحقتها سحقاً . وهم ينزلون في الصيف بين بحر ستيت و باسلام من فروع الاتبرا وفي الخريف ينزحون الى البطانة . ومن اماكنهم الشهيرة التومات على الاتبرا والجيرة على بحر ستيت ودوكه في البطانة

«والحُمْران» وهم قليلو العدد لكنهم من افرس قبائل العرب واعزهم شأناً واعظمهم جرأةً واقداماً . ونساؤهم من اجمل نساء السودان وأشدهنَّ تحصناً وعفافاً

* خبر تاجوج ومحلّق * ومنهنَّ تاجوج بنت الشيخ أُوكُدْ شيخ الحمران التي ظهرت في اواسط القرن الماضي وكانت ابرع نساءِ السودان قاطبةً في الحسن والجمال حتى كان الناس يفدون من كل صوبٍ للتفرُّج على جمالها . وقد تزوَّجها اولاً ابن عمٍّ لها يسمى محلقاً وكان يحبها محبةً شديدةً تقرب من العبادة فطلب اليها ذات يومٍ ان تمشي امامهُ متجرّدةً فأبت فألحَّ عليها فتكدَّرت من الحاحهِ وقالت اذا اجبت الى طلبك فماذا تفعل قال كل ما تريدين قالت اقسم لي انك تبرُّ بقولك فأقسم لها فتجرَّدت ومشت امامهُ ذهاباً واياباً الى ان قال كفى ثم قال فاطلبي الآن ما تريدين قالت «ان تطلقني في الحال» فطار صوابهُ من هـذا الطلب ووقع على قدميها يقبلها و يسألها العفو ولما اصرَّت لم يرَ بدًّا من البرّ بقسمهِ فطلقها وهام على وجههِ ينشد في حبها الاشعار يحاكي فيها مجنون ليلى ومن اقوالهِ المشهورة فيها

انا الجَنَب التعيس سوّيت بايدي   في كلمة مزاح قلّيت غميضي
فواطر ام قَبِيل ملح الرشيدي   تاجوج ما اتلفت يا حملهِ زيدي

الجنب المشوم. وسوّيت بايدي جنيت على نفسي. والفواطر الثنايا. وام قبيل الجميلة. والحمله الهم. والمعنى ظاهر

ومنهُ: امسى الليـل وانجمع الشمل   وتلملم الحيوان حتى النمـل
راقد رقاد الديك فوق الحبل   يوم بلا تاجوج مـا ينحمل

وقال: بعد الدّلكه مثـل المَلَجه   وبعد العنقريب أب عَلجه
قل لنسيبـتي ام فَلجه   راقد فوق برش في الدّلجَه

الملجه الملسة الناعمة. والعنقريب السرير. وأب علجه المفروش بالحرير. والدلجه الارض

ثم ان تاجوج بعد ما طلقها محلق تزوَّجها شاب من وجهاءِ قبيلتها وكان محلق افرس منهُ فأخذ يتأثرهُ وكان حيث يجدهُ يسلبهُ مالهُ ثم يرجعهُ اليهِ اكراماً لتاجوج . وبقي يتغنّى بذكرها ويتأسف على فقدها الى ان مات . قالوا ولما اشتدَّ عليهِ المرض اكثر من ذكر تاجوج والحَّ على اهلهِ ان يمكنوهُ من رؤيتها قبل موتهِ فذهبوا الى تاجوج واخبروها بما صار اليهِ محلق فرقَّت لهُ وجاءت معهم وكان المكان غاصًّا بالنساء اللواتي كنَّ يندّدنَ بها ليصرفنَ قلب محلق عنها فلما أطلّت لم يسعهنَّ الاَّ الوقوف

احتراماً لها واعجاباً بجمالها واجلسنها الى جانب سرير محلق فلما رأتهُ على تلك الحال وقد هزلهُ المرض وأضناهُ الوجد تنهدت وقالت « ألى هذه الحال صرت ياعشاي وانا لا ادري » ثم وضعت رأسهُ على ركبتها وكان قد اغمي عليهِ فأفاق من اغمائهِ وشخص اليها وانشد

أتابي يا ام قَبيل الغيّ عباده مسوحك بالعطر والناس مراضه
حسيسك في الضمير قاطع الكباده تقتلي الزول سريع قبل الشهاده

اتابي حقاً . والغي العشق . والحسيس الحب . والزول الرجل .

ثم شهق شهقةً واسلم الروح فأخذت تاجوج والنساء حولها يبكينَ ويذرينَ التراب على رؤوسهنَّ ويندبنهُ الى ان دُفن * وقد انشد بعضهم معرّضاً بموتهِ جوًى قال

اديّتــه (الهجين) علَّق كيت له عيش مو مسلَّق
على شان القَنَص طلاّبه حلَّق حسارکم من قديم قاتل محلَّق

مو مسلق اي بلا كيل . والقنص يكنى به عن المحبوب . وطلابه حلق حوموا عليه . والحسار الجوى .

قيل وبعد موتهِ غزا الهدندوة عرب الحمران فوقعت تاجوج اسيرةً بين ايديهم فاختلفوا فيها اختلافاً كاد يفضي الى سفك الدماء اذ كل فريق منهم اراد ان تكون تاجوج نصيبهُ فنهض احد مشايخهم ونادى تاجوج من خباها فلما اطلت طعنها بحربةٍ في صدرها فقتلها وحسم النزاع وماتت تاجوج مأسوفاً عليها من الجميع قالوا فدفنت في مكان يقال لهُ رأس الفيل بين قوز رجب وكسلا وقبرها ظاهر يُزار . ولا يزال اهل السودان يضربون المثل بجمالها وعشق محلق لها وينشدون اشعاره الى اليوم

هذه هي قبائل العرب في البطانة واما الصحراء الشرقية المعروفة ايضاً بصحراء البجه فليس فيها من بادية العرب الآ « الرّشايدة » وهم قريبو عهد بها وقد هاجروا اليها من الحجاز سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م لقتالٍ وقع بينهم وبين بعض القبائل هناك فعبروا البحر الاحمر من جدّة ونزلوا في ارض الحبَاب وكانوا نحو الف رجل ومعهم اسلحتهم واولادهم وابلهم فاعترضهم الحباب وجرت بين الفريقين وقائع ادّت الى سفك الدماء . وهم الآن فريقان احدهما تابع لحكومة السودان والآخر لحكومة الارثريا

واشهر قبائل العرب في صحراء البيوضة :

٦٠
٦٠

«الحسانية» ومركزهم جبل الجلف في صحراء الجكدول وينتسبون الى الكواهلة

«والهواوير» قيل ان اصلهم من عرب الهوارة بصعيد مصر ويسكنون صحراء جبره

«والخواوير» وهم مجاورون للحسانية والهواوير

واشهر قبائل العرب في بلاد كردوفان :

«الجوامعه» وهم فريقان الحمران ومركزهم بارة والجُميعية واكثرهم في الطيارة

«والبُدَيريه» ومن اماكنهم خورسي والطيّاره قيل وفيهم نسب للجعليين

«والشُّمام» وهم يسكنون مع البديرية « «والغُدَيّات» وأهم مراكزهم البركه

وهذه القبائل الاربع حضر وبقية سكان كردوفان بادية وهؤلاء امّا أبّالة وقنيتهم الابل وهم في الشمال واما بقارة وقنيتهم البقر وهم في الجنوب فالأبّالة :

«الكبابيش» وهم اقوى بادية كردوفان وابلهم اشهر الابل ومن مراكزهم آبار الصافية وكجمر وعين حامد وقد انقسموا الى عدة عمائر وافخاذ قيل كان يبلغ عددهم نحو ربع مليون نفس فجاءت الثورة المهدية فنكلت بهم حتى لم يبقَ ربع هذا العدد

«ودارحامد» وهم مجاورون للكبابيش واعداء لهم واهم مراكزهم باره وينقسمون الى عدة عمائر اشهرها الجُلَيدات والجانين والمساعيد والمرامرة والنواهية والعُرَيفية

«وبنو جرّار» شرقي كردوفان وفي بلادهم يكثر النعام والغزلان

«وحَمَر» غربي كردوفان ومن مراكزهم ابو حراز والنهود . وفي بلادهم يكثر شجر التبلدي المار ذكرهُ وهم يخزنون الماء فيهِ ويبيعونهُ للمسافرين بين كردوفان ودارفور

والبقاره : «الحوازمة» جنوبي كردوفان واهم مراكزهم البركةَ وفي زمن الصيف يذهبون بماشيتهم الى جبال النوبة لارتياد الماءِ والكلإِ حتى اذا جاء اوان المطر تركوا تلك الجبال فرارًا من ذباب السروت وعادوا الى بلادهم

«والجمع» في الجنوب الشرقي ومركزهم شركيله قيل سموا بالجمع لانهم ليسوا ابناء رجل واحد بل هم اخلاط من قبائل شتى واكثرهم من الجعليين

«والهَبّانية» بين الحوازمة والجمع واهم مراكزهم شركيله ويكثر في بلادهم السباع والفيلة . ومنهم الادلاء لجبال النوبة لانهم اعرف العرب بطرق تلك الجبال

«واولاد حميد» وهم مجاورون للهبانية واضدادهم . «والاحامدة» وهم في جوار الجمع «والحُمُر» ومركزهم الأُضية بين البركة وشكا «والمسيرية» في جوارهم

واشهر قبائل العرب في دارفور من الأبالة :

«الزيّاديّة» ومركزهم مليّط وهم يتجرون في النطرون والملح وينتسبون الى ابي زيد الهلالي من عرب نجد

«والماهرية» ومركزهم الدُّور قيل هم ينتسبون الى مهرة في جنوب اليمن وقيل هم والرزيقات قبيلة واحدة فسكنوا هم في الشمال واقتنوا الابل وسكن الرزيقات في الجنوب فاقتنوا البقر وهم حلفاء المحاميد واعداء الزيادية والبديّات

«والعُطيفات» ومركزهم انكا بالقرب من مليط بين الزيادية والماهرية

«والمعاليه» واكثرهم حضر ومن مراكزهم كركود شمالي الطويشه وقوز المعاليه المنسوب اليهم . حلفاؤهم الرزيقات واخصامهم الحمر

«والعُرَيقات» مركزهم كُتُم ويُظنُّ ان اصلهم من العليقات القاطنين على النيل في فم وادي العلاقي شمالي كوروسكو

ومن البقارة : «الرُّزَيقات» وهم اكبر قبائل دارفور ويسمون تراب الهين (اي ملء الكفين) لكثرتهم ومركزهم شكا وهم ثلاث عمائر الماهرية وام احمد والمحاميد واقواهم المحاميد وحلفاؤهم الهبانية والمعالية وقد قاوموا سلاطين الفور ولم يخضعوا لهم الخضوع التام ووقع لهم مع الزبير وقائع مشهورة وفيهم حضر قليل

«والهَبّانية» من اهم بادية دارفور ومركزهم الكالكة ومنهم في كردوفان كما مرّ

«والمسَيرية» وقد ذكروا في كردوفان وهم اشدّاء مشهورون بالفروسية خصماؤهم بنو هلبه وحلفاؤهم «بنو منصور» الذين هم في رأي البعض فرع منهم

«والتعايشه» الذين منهم عبدالله التعايشي خليفة المتمهدي الاول ومركزهم مندوّة قرب الكالكة وبلادهم مجاورة لبلاد الفراتيت وكان اكثر اشتغالهم في خطف الرقيق

ثم ان التعايشة والهبانية واولاد حُميد وسُليم هم اولاد حماد بن جنيد . والحوازمة والحُمُر والمسيرية والرُّزَيقات هم اولاد اخيه عطيه . والكل ينتسبون الى جهينة

«وبنو هلبه» ومركزهم بُلبل غرب داره وهم قبيلة جسيمة وقد اشتهروا بالمراوغة والتقلب واتّباع الغالب ولذلك لم تضرّهم المهدية بشيء وكانوا اذا ضيقت عليهم رحلوا الى دار سُلا . حلفاؤهم الهبانية والرُّزيقات واضدادهم المسيرية وهم يدّعون النسبة الى جهينة عن غير جنيد وقيل انهم من الهوّارة بمصر

«وعرب البشير» ومركزهم عُرَيدة وهم قبيلة جسيمة لكن المهدية اضعفتهم

«وبنو فضل» وهم اهل زراعة وينتسبون للزيادية . ومن مراكزهم ساني كرو على يومين الى الجنوب الشرقي من الفاشر

«وبنوحسين والتَّرجم وخُزام والمهاري» وهم مجاورون للمساليت

«والكروبات» في شرق كبكبية واكثرهم تجار وفيهم علماء اجلاء

«والحوتية» في غرب كبكبية » «والبرّياب» ومركزهم تولو واكثرهم تجار

«والخوابير» ومركزهم وَدْعه وقنيتهم الابل والبقر والخيل وهم حضر وبادية

هذه هي اشهر قبائل العرب في السودان من حضر وبادية وقد تبين مما تقدم ان اهمّ الاصول التي يرجعون اليها في انسابهم هي : بنو اميه وبنو العباس وجهينة والزبير ابن العوّام وجعفر الطيار وان معُظمهم ينتسب الى جهينة وبني العباس الاّ ان المنتسبين الى جهينة اكثر . والمشهور في نسب جهينة أنهم بطن من قضاعة وقيل في قضاعة أنهم لعدنان وقيل لحمير وهو الارجح . واسم جهينة مأخوذ من الجهن وهو غلظ الوجه . الا ان انتساب العرب الى هذه الاصول لاثبت لهُ عندهم الاّ ما حفظوه او لفقوهُ من القصص التقليدية او الخرافية

﴿ الاجانب ﴾ اما الاجانب فيراد بهم الاقوام الذين هاجروا الى السودان من مصر وغيرها من زمان غير بعيد ولم يفقدوا جنسياتهم ولغاتهم بعد واهمهم :

« الحضور » وهم نفر قليل من المصريين الذين هاجروا مصر قبل الفتح الاول فسكنوا الخندق وشندي والمسلمية وغيرها من مدن النيل واشتغلوا بالتجارة فاشتهروا في السودان بالوداعة ولين الجانب وحب السلام

« واولاد الريف » ويكنى بهم عن البيض عموماً من مصريين واتراك

ومغاربة وشوام واوربيين وغيرهم وهم الذين دخلوا البلاد بعد الفتح الاول وقد اطلق عليهم هذا الاسم لان اكثرهم او كلهم دخلوا السودان من ريف مصر

« والمكادة » وهم الاحباش النصارى « والجبرته » وهم الاحباش المسلمون

« والتكارنة » وهم في التخصيص مهاجرو بلاد التكرور التي الى جنوبي برنو المعروفة الآن بالكتكو وفي التعميم يشملون سائر مهاجري السودان الغربي من فلاته وبرنو وباجرمي وغيرهم وهم متفرقون في جميع جهات السودان ولا سيا في دارفور وكردوفان وسنار وكسلا واكثرهم في القلابات من اعمال كسلا حيث كان يجتمع منهم في الرجيبة نحو ٤٥٠٠٠ نسمة . وفي كردوفان في جهة ابي حراز حلال معروف بحلال الفلاته اتخذ اهلها العربية لغة لهم ونسوا لغتهم وتخلقوا باخلاق العرب وعاداتهم

« والحلبة » وهم المعروفون في مصر بالغجر وفي الشام بالنور وهم في السودان كما في مصر والشام قومٌ رُحّل يشتغل رجالهم بالحدادة والعاب القرود ونساؤهم بالوشم وتبصير البخت وخفض البنات وكلهم يتعاطون الشحاذة

﴿ المولَّدون ﴾ اما المولدون فاعني بهم الفروع الخلاسية التي تولدت من اختلاط هذه الاصول بعضها ببعض وهذا الاختلاط كثير جداً في السودان لا سيا بين العرب والسود. ومما هو جدير بالاعتبار ان اكثر الممالك التي قامت في السودان كان ملوكها من المولدين فملوك الفونج ووزراءهم الهمج وسلاطين الفور المتقدم ذكرهم والوطاويط حكام البرته في فازغلي في الوقت الحاضر كلهم من مولدي العرب والسود. اما اسم المولدين في السودان فلا يشمل الأ المولدين في هذا الجيل . واما المولدون قبل هذا الجيل فيندرجون تحت اسماء القبائل التي تولدوا منها

وقد قُدّر عدد سكان السودان قبل الثورة المهدية في سنة ١٨٨١ بنحو عشرة ملايين نسمة واما الآن فلا يزيدون عن اربعة ملايين نسمة لما قاسوه من الحروب والمجاعات والامراض والمظالم في اثناء الثورة المهدية . والجنس الغالب فيهم العرب ثم السود ثم شبه السود ثم البجه ثم النوبة ٥ هذا ما اقتضى المقام ذكره من اصول السكان وقبائلهم ومواطنهم وسنأتي على ذكر حضارتهم وعاداتهم ان شاء الله

الباب الثاني

في

جغرافية السودان الادارية

الفصل الاول

في

﴿ مديريات السودان ومحافظاتها ومأمورياتها ﴾

« تمهيد تاريخي »

﴿ ايثيوبيا ﴾ اول مملكة قامت في هذه البلاد هي مملكة ايثيوبيا امتدَّت من الشلاَّل الاول عند اسوان الى اقاصي الحبشة شمالاً وجنوباً واقسمت قسمين: ايثيوبيا العليا المعروفة الان بالحبشة وايثيوبيا السفلى في شماليها وعليها كلامنا . واشتهر لايثيوبيا السفلى عاصمتان : نَبَته عند جبل البرْقل قرب الشلاَّل الرابع ومرَوي عند البجراوية في رأس جزيرة مروي قرب شندي ٥ وكانت ايثيوبيا معاصرة للفراعنة والفرس والبطالسة والرومان الذين ملكوا مصر على التوالي و بقيت الى آخر عهد الرومان في مصر سنة ٦٤٠ ب . م فدالت دولتها

﴿ النوبة والبجه ﴾ وقام مكانها مملكتان مملكة النوبة على النيل بين الشلال الاول والحبشة ومملكة البجه في الصحراء الشرقية . وكان النوبة والبجه كما كان اهل ايثيوبيا وثنيين وديانتهم كديانة المصريين القدماء حتى ظهرت النصرانية في مصر فانتحلها النوبة في القرن السادس للمسيح و بقي البجه على الوثنية الى ان كان الاسلام في جزيرة العرب وفتح العرب مصر سنة ١٨ ﻫ ٦٤٠ م فخالطوا البجه وعلموهم الاسلام فاعتنقوهُ على ضعفٍ كما مرَّ ٥ واشتهر للنوبة في النصرانية مملكتان : النوبة السفلى امتدَّت من الشلاَّل الاول الى الشلاَّل الرابع وعاصمتها دنقلة العجوز والنوبة العليا وتسمى ايضاً مملكة علوه امتدَّت من الشلاَّل الرابع الى

اعالي جزيرة سنار وعاصمتها سوبه عن يمين النيل الازرق على ١٥ ميلاً من الخرطوم

﴿ مملكة سنار ﴾ وما زال العرب المسلمون في مصر يوالون غزواتهم على النوبة السفلى حتى فتحوها سنة ٧١٧ هـ ١٣١٨م . وهاجر العرب افواجاً من مصر والحجاز فاتحدوا مع الفونج في جنوبي سنار ففتحوا النوبة العليا سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٥م وأدخلوا اهلها في دين الاسلام واسسوا مملكةً في سنار امتدَّت شوكتها من الشلاَّل الثالث الى جبال فازوغلي شمالاً وجنوباً ومن سواكن ومصوع على البحر الاحمر الى النيل الابيض شرقاً وغرباً

﴿ مملكة دارفور ﴾ واختلط العرب بالفور فاسسوا مملكةً في دارفور امتدَّت من بئر النترون في الصحراء الكبرى الى بحر الغزال شمالاً وجنوباً ومن النيل الابيض الى ترجة برقو شرقاً وغرباً

﴿ الكشّاف والدولة العلية ﴾ ثم ان السلطان سليم الفاتح لما فتح مصر أرسل سريّة من العساكر التركية الى النوبة السفلى سنة ١٥٢٠ م فاسسوا حاميات في اسوان وابريم وجزيرة ساي وحكموا البلاد الى الشلاَّل الثالث وعُرِفوا بالكشاف . ومدَّ السلطان سليم فتوحاتهِ في البحر الاحمر فاحتلّ سواكن ومصوَّع وزيلع وبربره وجعلها تحت حكم الحجاز . فاصبح في السودان الذي عليهِ كلامنا مملكتان قويتان مملكة دارفور ومملكة سنار ومعهما حكم الكشاف الاتراك في النوبة السفلى ثم حُكم الدولة العلية في سواكن ومصوع وزيلع وبربره

﴿ الفتوح المصري ﴾ وبقيت هذه القوَّات سائدة في السودان الى ان تولّى مصر البطل الهمام الطيب الذكر المغفور لهُ محمد علي باشا جدّ العائلة الخديوية الكريمة فارسل ابنهُ اسماعيل باشا بجيش جرّار الى السودان سنة ١٨٢٠ م ففتح النوبة الشمالية من الكشاف ومملكة سنار (وتشمل بلاد دنقلة وبربر والخرطوم وسنار وفازوغلي) من الفونج وارسل صهرهُ الدفتردار الى كردوفان ففتحها وسلخها عن سلطنة دارفور سنة ١٨٢١ م . ثم أتمَّ خلفاؤهُ الفتح ففتحوا التاكا سنة ١٢٥٦ هـ ١٨٤٠ م ودارفور سنة ١٢٩١ هـ ١٨٧٤ م . ومدُّوا فتوحاتهم الى بلاد السود ففتحوا فاشودة سنة ١٨٦٥ م وخط الاستواء سنة ١٨٧١ م وبحر الغزال سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ م

واخذوا بلاد هرر بعد ان كان يحكمها عائلة من اهلها سنة ١٨٧٤ م . وكان الباب العالي قد تنازل عن سواكن ومصوع سنة ١٨٦٦م وتنازل عن زيلع و بربره سنة ١٨٧٥ م مقابل زيادة على ضريبة مصر السنوية . وبذلك امتدَّت البلاد من الشلال الاول عند اسوان الى بحيرة فكتوريا نيانزا شمالاً وجنوباً ومن البحر الاحمر الى حدود وداي شرقاً وغرباً واقسمت الى عشر مديريات وهي دنقلة وبربر والخرطوم وسنار (وتشمل فازوغلي) وفاشوده وخط الاستواء وبحر الغزال ودارفور وكردوفان وكسلا وثلاث محافظات وهي سواكن ومصوع وهرر . واطلق عليها اسم « السودان المصري » وجعلت عاصمتها الخرطوم وحدّها الشمالي خورموسى باشا عند الشلال الثاني لا اسوان عند الشلال الاول كما كان قبل الفتح . واما البلاد بين الشلال الاول والثاني فقد ضُمت الى مديرية اسنا آخر مديريات مصر الجنوبية

﴿ الثورة المهديّة ﴾ . وبقيت مصر سائدةً على السودان الى ان كانت الثورة المهدية المشهورة سنة ١٨٨١ م فاضطرت ان تتقهقر سنة ١٨٨٥ الى حدّها الشمالي عند الشلال الثاني وسقطت البلاد كلها بيد المهدي ثم بيد خليفته من بعدهِ الاَّ « هرر » فانها اعيدت سنة ١٨٨٤ الى العائلة التي كانت تملكها قبل الفتح فأخذها الاحباش منها عنوةً سنة ١٨٨٥ « وزيلع وبربره » فانهما سُلمتا للانكليز في تلك السنة « ومحافظة مصوع » فانها سلمت للتليان سنة ١٨٨٦ « وسواكن » فان الثورة لم تقوَ عليها . وقسم الخليفة السودان الى عمالات بدل المديريات وجعل عاصمتهُ ام درمان بدل الخرطوم وجعل مديريات الخرطوم وسنار وفاشوده عمالة واحدة تحت اسم عمالة الجزيرة وقسم كسلا الى عمالتين القلابات (او القضارف) وكسلا وجعل عمالة في طوكر فكانت عمالاتهُ تسعاً وهي دنقلة وبربر وام درمان والجزيرة والقلابات ودارفور وكردوفان وبحر الغزال وخط الاستواء .

﴿ استرجاع السودان ﴾ وبقيت البلاد في يدهِ الى ان عادت مصر فاسترجعتها بلاداً بعد بلادٍ برأي الانكليز ومعونتهم فبدأت بفتح طوكر في ١٩ فبراير سنة ١٨٩١ م وانتهت بقتل الخليفة في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩

﴿ السودان الانكليزي المصري ﴾ وانتقل السودان المصري بعد الفتح الاخير الى طور جديد فرُفعت فوقهُ الراية الانكليزية بجانب الراية المصرية وفُصل عن مصر فجعل لهُ حكومة جديدة باسم «السودان الانكليزي المصري» يتولاّهُ والٍ يختارهُ الانكليز ويؤيدهُ الجناب العالي الخديوي * وهو يشمل جميع بلاد السودان المصري الاّ ما تركتهُ مصر بسبب الثورة المهدية (وقد تقدَّم ذكرهُ) «وبني شنقول» من اعمال فازوغلي التي آلت الى الحبشة في آخر حكم التعايشي «والقسم الجنوبي من مديرية خط الاستواء» الذي الحق باوغندا التابعة للانكليز ومنهُ مقاطعة اللادو التي اعطيت لملك البلجيك مدة حياتهِ على ان تعود للانكليز بعدها فاصبح الحدُّ الجنوبي للسودان الجديد فامكه على النيل الازرق بدل فداسي. ومنجالا على النيل الابيض عند خط ٥° من خطوط العرض تقريباً بدل بحيرة فكتوريا نيانزا

﴿ مديرية اسوان والحد الفاصل بين مصر والسودان ﴾ وكانت مصر عند رجوعها الى الحدود سنة ١٨٨٥ قد فصلت البلاد التي بين اسوان وحلفا عن مديرية اسنا وجعلتها محافظةً قائمةً بذاتها تحت الاحكام العسكرية وسمتها محافظة الحدود. ثم الغيت مديرية اسنا وضمت الى مديرية قنا فمدَّت محافظة الحدود الى السباعية على ٨ اميال شمالي ادفو. وبعد فتح دنقلة سنة ١٨٩٦ بقيت هذه المحافظة على حدودها واحكامها ولكن بُدّل اسمها فسميت محافظة النوبة تساهلاً. ثم بعد فتح ام درمان وفصل السودان عن مصر في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ جُعل الحدُّ الفاصل بين القطرين خط ٢٢° من خطوط العرض الشمالي وجعل الحد على النيل بربة فَرَص غرباً وبربة أدِندان شرقاً بحيث صارت فرص تابعة للسودان وادندان لمصر ووضع عند كل بربة علامة مكتوبٌ على وجهها الشمالية مصر والجنوبية السودان وسميت البلاد التي بين ادندان والسباعية بمديرية اسوان واصبحت وسطاً بين مصر والسودان فكانت تابعةً للحربية في ادارة شؤونها واحكامها وللداخلية في ماليتها الى يوم ٩ سبتمبر سنة ١٩٠٠ فالحقت بالداخلية. ومع ذلك فهي تدخل في كلامنا بالنظر الى علاقتها الماضية بالسودان وسنأتي على ذكر مدنها وآثارها الشهيرة في الفصل التالي

وقسمت بلاد السودان الجديدة الى مديريات ومحافظات كما كانت في الفتح الاول مع بعض التحوير الذي اوجبتهُ الاحوال في الحدود والعواصم والمأموريات والمراكز اهمهُ قسمة كل من مديريتي دنقلة والخرطوم الى مديريتين . وهذه هي :

﴿ مديريات ﴾

﴿ السودان الانكليزي المصري ﴾

﴿ ومحافظاتها وعواصمها وحدودها ومأمورياتها ومراكزها الآن ﴾

اسم المديرية او المحافظة	عاصمتها	حدودها	مأمورياتها	مراكز المأموريات
محافظة حلفا	حلفا	تمتد على النيل من برية فرص قرب خط ٢٢° من العرض الشمالى الفاصل بين مصر والسودان الى عكاشه . ويحدها من الشرق طريق الصحراء التي بين كورسكو والمرات ومن الغرب طريق الاربعين وهي مشهورة بنخيلها والشلال الثاني المنسوب اليها وسكة الحديد المتفرعة عنها وجميع سكانها من النوبة وقد احصي عددهم بعد الفتح الاخير فبلغ نحو ١٤ الف نسمة	حلفا	حلفا
مديرية دنقلة	دنقلة الاوردي	تمتد على النيل من عكاشه الي حلة برتي عند الشلال الرابع . ويحدها من الشرق خط ممتد من حلة برتي الي آبار جبرة مار بآبار الجكدول ومن الجنوب خط يصل آبار جبرة بآبار عين حامد وهي مشهورة بكثرة نخيلها وخصب ارضها وهي المديرية الوحيدة في السودان الآن التي تزيد ايراداتها على مصروفاتها . وسكانها من النوبة والعرب وقد قدر عددهم قبل الثورة بنحو ٧٥ الف نسمة وبلغ بعد الفتح الاخير ٦٣ الف نسمة	سكوت والمحس ارقو دنقلة الخندق الدبّة كورتي مروي	دلقو ارقو دنقلة الخندق الدبّة كورتي صنم

اسم المديرية او المحافظة	عاصمتها	حدودها	مأمورياتها	مراكز المأموريات
مديرية بربر	بربر	تمتد على النيل من حنة برقي الى حجر العسل في رأس الشلال السادس ويحدها شمالاً في الصحراء عرض ٢٢° وشرقاً آبار كوكريب في طريق سواكن وبربر وجنوباً ميتاتيب على الاتبرا وابو دليق في البطانة وغرباً دنقلة · وهي تمتاز بكثرة الدوم وعدد سكانها نحو ٥٠ الفا من عرب وعجة	الرباطاب بربر الذيداب شندي	ابو حمد بربر الدامر شندي
مديرية مدينة الخرطوم	الخرطوم	وهي مدن الخرطوم وام درمان والحلفاية تحيط بها دائرة نصف قطرها ١٠ اميال وهي مركز ادارة السودان وتجارتها . وسكانها عرب واخلاط من جميع الاجناس	الخرطوم ام درمان الحلفاية	الخرطوم ام درمان الحلفاية
مديرية جزيرة الخرطوم	الكاملين	وهي بالتقريب مديرية الخرطوم القديمة ما عدا مديرية مدينة الخرطوم المتقدم ذكرها وتمتد على النيل الكبير من حجر العسل الى الحلفاية وعلى النيل الازرق من الخرطوم الى ابي حراز عند ملتقى الرهد بالنيل الازرق وعلى النيل الابيض من ام درمان الى الجبلين · وتمتد شرقاً في البطانة الى ابي دليق وغرباً الى جيرة وهي اهم مديريات السودان واخصبها تربة · وسكانها عرب من حضر وبادية وبلغ عددهم بعد الفتح الاخير نحو ٢٠٠ الف نفساً	الكاملين المسلمية عُبُود ابو حراز رفاعه الكوّه قوز ابوجمعه ابو دُليق	الكاملين المسلمية عُبُود ابو حراز رفاعه الكوّه قوز ابوجمعه ابو دُليق
مديرية سنّار	ود مدَني	وهي تمتد على النيل الازرق من مصب الرهد الى ما وراء فامكه على حدود الحبشة ويحدها من الشرق نهر الرهد والحبشة ومن الغرب جبل سجدي وجبل قلي وسكانها عرب من حضر وبادية وبينهم قليل من السود وقد احصي عددهم بعد الفتح الاخير فكانوا نحو ١٤٠ الف نسمة واهم معادنها الذهب · واهم تجارتها الصمغ والريش والسن والذهب	ود مدَني ود العباس سنّار كركوج الرصيرص دار الفونج	ود مدَني ود العباس سنّار كركوج الرصيرص جبل قُلي

مراكز المأموريات	مأموريتها	حدودها	عاصمتها	اسم المديرية او المحافظة
فشودة (بوليس) التوفيقية الناصر سُبَت	فشودة (مراكز التوفيقية الناصر سُبت	وهي تمتد على النيل الابيض من الجبلين الى بحيرة نو ومنها على بحر الجبل الى قرب اللادو على خط ٥° من العرض الشمالي تقريباً . ويحدها من الشرق مديرية سنار والحبشة ومن الجنوب اوغندا ومن الغرب كردوفان وبحر الغزال وهي بلاد خصبة الى الغاية واهم حاصلاتها الذرة والسن والريش . ومعظم سكانها سود	فاشوده	محافظة فاشوده
		وهي البلاد التي يرويها بحر الغزال وفروعه وحدها من الشمال بحر العرب وبحر الغزال الفاصلان بينها وبين دارفور وكردوفان ومن الشرق بحر الجبل الفاصل بينها وبين فشوده ومن الجنوب ولاية الكونغو الحرة ومن الغرب الجبال الفاصلة بينها وبين الكونغو الفرنساوية وهي تنقسم قسمين شمالي وهو سهول خصبة صالحة للزراعة تكثر فيها الغابات والحراج وجنوبي وهو قليل الخصب يرتفع تدريجاً حتى ينتهي الى الجبال الفاصلة بينها وبين نهر الكونغو وجميع سكانها من السود . وزراعتها الذرة والدخان والتيلبون والموز . واهم معادنها النحاس والحديد . ومحصولاتها التي تدخل في المتجر السن والخرتيت والريش واللستك والعسل والشمع والتمر الهندي والنحاس واهم ما يروج عندهم الخرز الملون وهم يتعاملون به وبالنحاس والحديد	واو	بحر الغزال
كسلا القضارف القلابات	كسلا القضارف القلابات	يحدها من الشمال خور اللانقيب وبئر تندرا ومن الجنوب حدود الحبشة بقرب القلابات ومن الشرق الارتريا والحبشة ومن الغرب مديرية الجزيرة وسنار وسكانها نحو ٤٣ الف من عرب وبجه	كسلا	مديرية كسلا

اسم المديرية او المحافظة	عاصمتها	حدودها	مأمورياتها	مراكز المأموريات
محافظة سواكن	سواكن	وهي تمتد على البحر الاحمر من راس علبه عند خط ٢٢ من العرض الشمالي الى رأس قصار . ويحدها من الجنوب الارتريا ومديرية كسلا ومن الغرب مديرية بربر وقد قدر سكانها بعد الفتح الاخير بنحو ١١٩ الف نسمة وكلهم من اصل البجه	سواكن طوكر	سواكن طوكر
مديرية كردوفان	الأبيض	يحدها من الشمال خط يمتد من جبره الى وادي الملح بقرب عين حامد ومن الجنوب بحر الغزال وبحر العرب ومن الشرق مديريتا الجزيرة وفاشودة ومن الغرب دارفور واهم حاصلاتها التجارية صمغ الهشاب والسن والريش والجلود وقد بلغ الوارد منها الى مصر سنة ١٨٧٨ نحو ١٣٢ الف وخمسمئة جنيه من الصمغ والريش والجلود غير المدبوغة * وسكانها عرب من حضر وبادية أبالة وبقارة وقد قدر عددهم سنة ١٨٧٥ بنحو ٢٨٠ الف نسمة واما الآن فالارجح انهم لايبلغون نصف ذلك واهم زراعتها الدخن يزرع على الامطار . ومن معادنها الحديد والذهب	الأبيض بارة الطيّارة خورسي الدويم كدارو الشنوط	الأبيض بارة الطيّارة خورسي الدويم كدارو الشنوط
دارفور	الفاشر	يحدها من الشمال بئر النترون في طريق الاربعين ومن الجنوب بحر العرب ومن الشرق كردوفان ومن الغرب وداي وهذه البلاد لم تدخل بعد تحت التقسيم الاداري الجديد والقائم بأمرها الآن الامير علي دينار بن الامير زكريا بن السلطان محمد الفضل على جزية يدفعها لحكومة السودان وسكانها ثلاثة اجناس السود وشبه السود والعرب من حضر وبادية. وقد قدر عددهم سنة ١٨٨١ بنحو مليون ومئة وخمسين الف نسمة النصف من السود وشبه السود والثلث من العرب والباقي من التكارنة وغيرهم واهم تجارتها السن والريش والجلود وزراعتها الدخن . ومن معادنها الرصاص		

الفصل الثاني

في

﴿ مدن السودان وآثارها ﴾

﴿ مدن مديرية اسوان «التابعة الآن لمصر» وآثارها ﴾

«اسوان» (ش) هي عاصمة المديرية واسمها في القبطية سُوان فزاد العرب الالف عليها لعدم الابتداء بالساكن وهي واقعة في رأس الشلاّل الاول على ٥٩٠ ميلاً من القاهرة وفيها آثار كثيرة تدلُّ على قدمها وعظم اهميتها منها خرائب هيكل من ايام البطالسة . وذكر المؤرّخون ان قد كان فيها بئرٌ عجيبة تقع فيها اشعة الشمس عموديةً في المنقلب الصيفي حتى تضيء جميع جوانبها من الداخل ولكن لم يُهتدَ الى مكان هذه البئر بعد . والى الجنوب الشرقي من اسوان مقلع الغرانيت الصافي المشهور الذي أُخذت منهُ مسلاّت الاقصر والمطرية والاسكندرية وبعض الحجارة الكبيرة في بعلبك وتدمر وجهاتٍ اخرى في الشرق ولا يزال فيهِ مسلة ضخمة غير مفصولة عن الطبقة الاصلية كأن لم يعد لاصحابها فرصةٌ لقلعها الى المكان المعدّ لها فبقيت بعدهم تنادي بلسان حالها :

ما درى الناحتون من قبل نحتي ... قلَّ من نال في الحياة مرامه
انَّ قصر الحياة يثنيهِ عنهُ ... وعلى قصرها بقيت علامه

وطول هذه المسلة نحو ٩٥ قدماً وعرضها يزيد عن ١١ قدماً . وبين هذا المقلع واسوان مقبرة كبيرة فيها اضرحة مشايخ واولياء من المسلمين عليها كتابة بالقلم الكوفي ٥ وقد اقامت الحكومة حامية حصينة في اسوان مدة الثورة المهدية فزهت لازدحام الناس فيها من ذلك الوقت . وشيد لها العساكر رصيفاً متيناً سنة ١٨٨٧ فبنى عليهِ اهلها الابنية الفاخرة وفي جملتها نزل كبير للسياح بناهُ المرحوم بطرس بك سركيس من كبار تجارها الاقباط . وقد كانت اسوان ولا تزال مركزاً مهماً

للتجارة مع السودان ولها طريقٌ مشهور منذ القديم في الصحراء الشرقية الى بربر طوله ٤٧٣ ميلاً ٠ وبينها وبين قدم الشلاّل سكة حديد طولها ٩ اميال مُدَّت سنة ١٨٧٤ ٠ وقد كان يمرُّ باسوان من البضائع في السنة قبل الثورة المهدية ما تقدَّر قيمتهُ بنحو ٢٠٠٠ ٠٠٠ جنيه

وعدد سكان اسوان الآن نحو ٩٠٠٠ نسمة وهم اخلاطٌ من اجناسٍ مختلفة من السود والنوبة والقبط والمصريين والاتراك (المتخلفين من عساكر السلطان سليم) وبينهم تجارٌ من الاروام والشوام وغيرهم ويظهر انها كانت قديماً اكبر كثيرًا مما هي الآن فقد ذكر مؤرّخو العرب انها رُزئت في بعض السنين بالطاعون فمات من اهلها ٢٠ ٠٠٠ نفس ٠ وقد ظهر في هذه المدينة العالم المؤرّخ الشهير سليم الاسواني صاحب تاريخ النوبة والبجه الذي نقل عنهُ المقريزي معظم اخباره عن النوبة والبجه وقد بحثتُ عن هذا التاريخ بحثاً دقيقاً فلم اقف لهُ على اثر ويقول بورخارت السائح الالماني الشهير انهُ بحث عنهُ في مكاتب مصر كلها فلم يجدهُ ٠ ونبغ من اسوان في هذا العصر العالم الفاضل والشاعر المطبوع الشيخ احمد الجدّاوي الازهري الذي تولّى بعض مراكز القضاء في السودان ومصر فنال فيها شهرة طيبة وقد ألّف ارجوزة في الميراث طالعتها عليهِ فاذا هي اسهل ارجوزة رأيتها في هذا الباب ولهُ قصائد تاريخية شهيرة في مدح الحضرة الخديوية تشهد لهُ بتوقّد الذكاء وسلامة الذوق وكانت وفاتهُ في شهر ابريل سنة ١٩٠٢ تغمّدهُ الله برحمته ورضوانه واسكنه فسيح جنانه

وتجاه اسوان في البرّ الغربي اكمة مرتفعة على رأسها قبة غير بعيدة العهد تعرَف «بقبة الهواء» ولعلّها مدفن احد النساك ٠ وتحت هذه القبة اطلال «دير» للاقباط على شكل قلعة من بقايا القرن السادس او السابع للميلاد ٠ وبجانبها في صدر الاكمة «مدافن قديمة» منقورة في الصخر من عهد الدولة السادسة والدولة الثانية عشرة المصرية وقد كانت مطمورة بالرمال التي تنسفها الرياح من الصحراء فكشفها السر فرنسيس غرنفيل باشا السردار الاسبق سنة ١٨٨٧ بهمة وهداية مصطفى بك شاكر وكيل قنصلاتو انكلترا في ذلك الحين واخرج منها مومياتٍ وتحفاً شتى

وتجاه اسوان في النيل جزيرة «الفنتين» المار ذكرها اتخذها ملوك الدولة الخامسة المصرية كرسياً لهم وبنى فيها الملك امنوفيس الثالث هيكلاً لا تزال آثارهُ ظاهرة الى الآن. وفيها المقياس الذي تقدم ذكرهُ في الكلام على النيل وآثار اخرى قديمة العهد

وفي منتصف الشلال الاول الواقع في جنوبيها جزيرة صغيرة تعرف «بجزيرة سُهيل» وُجد فيها سنة ١٨٨٩ حجرٌ قديم مكتوبٌ عليهِ بالهيروغليفية ان قد حصل جوع شديد في مصر في ايام ملك من ملوك الدولة الثالثة المصرية دام سبع سنين

وقد باشرت الحكومة المصرية منذ ثلاث سنين ونيف بناء «خزَّان» كبير عند منتصف هذا الشلال شبه القناطر الخيرية شمالي مصر والقصد منهُ خزنُ بعض مياه الفيض للأمن من الشَّرَق وتوسيع نطاق الريّ في البلاد ولاسيما في الوجه القبلي. والبناء الآن على وشك الانتهاء. وهو اعظم عملٍ أُنشئ في عصر خديوينا الحالي المعظم بل هو من اعظم الاعمال التي أُنشئت في وادي النيل من اول عهد التاريخ الى اليوم. والفضل الاعظم فيهِ كما في غيره من الاعمال الجليلة التي قامت في مصر منذ عشرين سنة الى الآن عائدٌ الى دولة الوزير الخطير رجل الاصلاح الشهير الفيكونت كرومر وكيل انكلترا السياسي وقنصلها الجنرال في مصر الذي يجدر بمصر ان تشكر لهُ هذه المآثر الغرآء ابد الدهر. اما واضع مشروع الخزان فهو المستر ويلكوكس من رجال الريّ العظام

وينتهي الشلال الاول عند جزيرة «فِيلي» وهو الاسم الذي اطلقهُ عليها اليونان والرومان واما المصريون القدماء فقد سموها بما ترجمتهُ «الحدود» وذلك لوقوعها في الطرف الجنوبي للشلال وهو الحدُّ الطبيعي بين مصر والسودان. واهمّ ما في هذه الجزيرة الآن آثار هيكل جميل الصنعة من بناء البطالسة والرومان يسمى قصر انس الوجود اقاموهُ لعبادة الاله أيسس. وكان المصريون القدماء والاثيوبيون يحترمون هذه الجزيرة ويعدُّونها من اقدس محلاتهم حتى انهم لم يسمحوا لاحدٍ ان يسكنها الاّ الكهنة لانهُ يقال انها احدى مدافن الاله اوسيرس الذي لم يجسر احدٌ ان يحلف باسمهِ باطلاً وقد استمرَّت عبادة هذا الاله في الجزيرة الى سنة ٤٥٣ م وذلك بعد منشور ثيودوسيوس (الذي اصدرهُ ضد الديانة الوثنية) بسبعين سنة.

ولما زارها سترابو وجد سكانها من ايثيوبيين ومصريين يعبدون الصقر قال «ولكن الصقر الذي يعبدونهُ اكبر من صقر بلادنا وصقر مصر ويختلف عنهما في لون ريشهِ وقد قيل لنا انهُ ايثيوبي وانهُ عند موتهِ او قبل موتهِ بقليل يؤتى بغيرهِ من ايثيوبيا والصقر الذي شاهدناهُ كان مريضاً في حالة النزع» . وفي هذه الجزيرة مقياس قديم للنيل كالذي في جزيرة الفنتين . وفي الطرف الشمالي منها آثار كنيسة للاقباط الاقدمين

اما البلاد التي من جنوبي الشلال الاول الى حلفا فليس فيها الآن ما يستحق الذكر سوى آثارها واشهر هذه البلاد :

«دَبود» (غ) على بعد ½ ١٠ ميل من جزيرة فيلي وهي قرية صغيرة فيها خرائب هيكل للملك اذخرآمن من ملوك ايثيوبيا الذي حكم في اواسط القرن الثالث قبل المسيح ويُظنُّ انها كانت في بعض العصور الحدَّ الفاصل بين مصر وايثيوبيا . والى الغرب من دبود على يومين منها واحة «كُرْكُر» وهي واحة صغيرة فيها نخيل وآبار ولكنها غير مسكونة

«وكلابشه» (غ) على بعد ¾ ٢٨ ميل من دبود وهي بلدة صغيرة واقعة على خط السرطان تماماً وفيها هيكلان قديمان احدهما اكبر الهياكل في بلاد النوبة أسسهُ طوطمس الثالث سنة ١٦٠٠ ق . م فتهدَّم فبنى فوقهُ البطالسة والرومان الهيكل الباقية آثارهُ الى الآن . ولما انتحل النوبيون الديانة النصرانية طلوا جدرانهُ بالطين وحوَّلوهُ كنيسة لهم والهيكل الآخر من آثار رعمسيس الثاني ثاني ملوك الدولة التاسعة عشرة المصرية نحتهُ في الصخر وجعلهُ تذكاراً لنصرتهِ على الايثيوبيين وسيأتي ذكرهُ

«ودكَّا» (غ) على بعد ½ ٣٢ ميل من كلابشه وفيها هيكل اسسهُ ارجمانس احد ملوك ايثيوبيا واتمهُ وزخرفهُ البطالسة والقياصرة

«وكوبان» تجاه دكَّا في رأس وادي العلاقي وفيها آثار قلعة حصينة قيل ان رعمسيس الثاني بناها لحماية الطريق المؤدية الى معادن الذهب والزمرد في الصحراء الشرقية

«والمحرَّقة» (غ) على بعد ¼ ٧ ميل من دكا وقد كانت آخر حدّ اليونان والرومان الجنوبي في بلاد النوبة . وهناك هيكل من آثار البطالسة والقياصرة حوَّلهُ

النصارى الاوَّلون الى كنيسةٍ كغيرهِ من هياكل النوبة كما هو ظاهر الى الآن

«والسُّبوع» (غ) على ٢٠ ميلاً من المحرقة وفيها هيكل جميل من بناء رعمسيس الثاني وسيأتي ذكرهُ في تاريخ ايثيوبيا . قيل سميت الحلة بالسبوع لان الداخل الى هيكلها كان يمشي بين صفين من تماثيل السباع الرابضة التي لا يزال بعضها باقياً الى اليوم

«وكورسكو» (ش) وهي بلدة صغيرة على ١٢ ½ ميل من السبوع وهي اقرب نقطة في نيل مصر الى ابي حمد وبينهما طريق تجارية شهيرة طولها نحو ٢٤٠ ميلاً تمرُّ بآبار المرّات المار ذكرها . وقد اتخذت الحكومة هذه البلدة مركزًا من المراكز العسكرية في الحدود مدة الثورة المهدية وبنت فيها ثكنات للعساكر فزهت ولكن فقدت اهميتها الآن لا سيما بعد انشاء سكة الحديد من حلفا الى ابي حمد واصبحت مخزن فحم للوابورات التي بين اسوان وحلفا

«عَمَدة» (غ) على ٧ ½ ميل من كورسكو وفيها هيكل صغير من عهد الدولة الثانية عشرة المصرية وهو اقدم هياكل النوبة وأجملها

«الدرّ» (ش) على ٤ اميال من عمده وفيها هيكل صغير منحوت في الصخر أقامهُ رعمسيس الثاني لعبادة آمن رع وكان اسمها في القديم ما ترجمتهُ مدينة هيكل الشمس . وكانت مركز الكشاف الذين حكموا النوبة منذ ايام السلطان سليم وبقيت كذلك الى الفتح المصري سنة ١٨٢٠ فدخلت في حوزة مصر ولا يزيد عدد سكانها الآن عن الالف نسمة واكثرهم من سلالة الكشاف

«ابريم» (ش) على بعد ١٣ ميلاً من الدر وهي قرية صغيرة في مكان بريمس القديمة وفيها آثار من ايام الدولة الحادية عشرة المصرية فما بعدها ومنها آثار قلعة من عهد الرومان مبنية بحجارة اقدم من ذلك العهد وعلى احد تلك الحجارة اسم طهراق الذي ملك ايثيوبيا ومصر سنة ٧٠٠ ق م . وهي احدى الحاميات الثلاث التي اقامها السلطان سليم في بلاد النوبة وبقيت ذرية عساكر السلطان سليم فيها الى ان طردهم الغزّ (المماليك) منها سنة ١٨١١ وهم فارُّون من وجه محمد علي باشا الى سنار

« وابوسمبل » (غ) على ٣٤ ميلاً من ابريم وفيها هيكل منحوت في الصخر في منحدر تلةٍ تطلُّ على النيل من بناء رعمسيس الثاني وهو اعظم الهياكل في بلاد النوبة واجملها وسيأتي وصفهُ في تاريخ اثيوبيا

« وفرّيج » (ش) تجاه ابي سمبل وفيها هيكل صغير منحوت في الصخر لامخوتب الثالث اتخذهُ نصارى النوبة كنيسةً لهم في اول عهد النصرانية عندهم وفيهِ الى الآن صورة للمسيح وهناك كتابة ١٤ سطرًا بأحرف قبطية ولغة غير مفهومة سماها بعضهم اللغة الاثيوبية المسيحية . وفي التلة القائمة عليها قلعة ابريم حجرٌ عليهِ كتابة بهذه اللغة

« وطوشكي » (غ) وقد اشتهرت حديثًا للواقعة التي حصلت فيها سنة ١٨٨٩ بين الجيش المصري بقيادة غرنفيل باشا السردار الاسبق وجيش الدراويش بقيادة عبد الرحمن النجومي المشهور وقد اقيم في مكان الواقعة حجرٌ تذكارًا لها

مدن محافظة حلفا وآثارها

« فرَص » وهي اول محافظة حلفا وحد السودان الشمالي على النيل كما مرَّ وفيها اطلال مدينة قديمة يظن انها من عهد الرومان وخرائب اقدم من هذا العهد وفي الشلال التي الى غربيها ثلاثة اضرحة قديمة منحوتة في الصخر حوَّل نصارى النوبة احدها الى كنيسة وغشُّوا جدرانها بكتابات قبطية بينها كثير من آيات التوراة والمواعظ . وتجاه فرص في الشرق « برية ادندن » التي هي آخر حد مصر الجنوبي

« وحلفا » (ش) وهي قرية صغيرة على ٢٢٦ ميلاً من الشلال الاول وفي عرض شمالي ٥٥َ ٢١ْ وطول شرقي ١٩َ ٣١ْ . والى جانبها قشلاق حصين اقام فيهِ الجيش المصري ايام الثورة المهدية محافظًا على الحدود و بنى فيهِ اسبيتالية عسكرية وسجنًا حربيًا . ومنهُ تبتدئ السكة الحديد فتتفرع فرعين فرعًا يحاذي النيل الى الكرمة وفرعًا يقطع الصحراء الى ابي حمد والخرطوم وسيأتي الكلام عليهما . وفيهِ معمل لصبّ الحديد والنحاس على شبه عنابر بولاق ومخازن لادوات سكة الحديد ووابورات النيل . وفيهِ مركز المحافظة والقومندانية وجامع قديم

والى شماليهِ على نحو ميلين منهُ بلدة « التوفيقية » التي كانت تعرف قديمًا بدَبروسه

فبنى فيها المغفور لهُ توفيق باشا الخديوي السابق جامعاً فسميت باسمهِ وقد اجتمع اليها التجار فاقاموا فيها بندرًا من اهم البنادر التجاريه في الحدود

وبين التوفيقية وفرص آثار جمَّة من عهد الفراعنة والرومان ونصارى النوبة

وتجاه حلفا في البرّ الغربي بقايا هيكلين قديمين احدهما من بناءِ اوسرتسن الاول من ملوك الدولة الثانية عشرة المصرية وقد وُجد في احدى غرفهِ المعروفة بقدس الاقداس حجرٌ عليهِ صورتهُ وصُوَر رؤوس القبائل التي تغلب عليها فنقل الحجر الى فلورنسا بايطاليا . وثانيهما من بناء طوطمس الثاني والثالث من ملوك الدولة الثامنة عشرة المصرية وفيهِ اخبار انتصار طوطمس الثالث على الليبيين والفينيقيين وغيرهما واسماء بعض امراء كوش من ايام الدولة التاسعة عشرة والعشرين

والى الجنوب من حلفا على بعد ميلين منها يبتدئ الشلال الثاني المنسوب اليها

والى الجانب الغربي منهُ على بُعد خمسة اميال من حلفا حجر عظيم مشرف على الشلال يعرف « بحجر ابي صير » يقصده السياح للتفرج على الشلال من اعلاه وقد اعتادوا ان ينقشوا اسماءهم عليهِ تذكارًا لزيارتهم الشلال فحبذا هذه العادة لو اقتصرت على مثل هذا الحجر فان نقش الاسماء على حجر « غشيم » اثر تاريخي جميل لكنك قلما تزور اثرًا من الآثار البديعة التي تركها لنا الاولون الاَّ وتجد جدرانه مشوهة باسماء السياح والزوار الذين ينتابونه وقد ترى في بعض الآثار كتابة تاريخية أو نقشاً بديعاً من اجمل ما صنعتهُ يد انسان وبجانب تلك الكتابة أو النقش أو في وسطهما اسم شخص منقوش اقبح نقش بأحرف كبيرة كأنَّ صاحبه يريد ان نعتاض اسم جنابه عن زخرف ذلك الأثر المفيد وبهائهِ . ولله في خلقه آيات

وتجاه ابي صير في البر الشرقي خور موسى باشا الذي تقدم انهُ كان الحد بين مصر والسودان مدة الفتح المصري الاول . اما موسى باشا المنتسب اليهِ هذا الخور فهو احد ولاة السودان الذي تولّى سنة ١٢٨١ هـ ١٨٧٩ م وفي ايامه تمرد جماعة من عساكر الارناؤط وفرُّوا من الخرطوم وهو اذ ذاك في مصر فخرج للقائهم ببعض الجند فالتقاهم وقهرهم عند هذا الخور فسمي باسمه

«وقلعة معتوقة» (غ) على بُعد ٣ اميال من أبي صير وهي مبنية بناء متينا بالطوب النيّ والى جنوبيها هيكل صغير وكلاهما من بناء اوسرتسن الثالث خامس ملوك الدولة الثانية عشرة المصرية. وهناك خرائب مدينة قديمة

«وسمنه» (ش) وهي حلة صغيرة على ١٣ ميلاً من سرس جعلها اوسرتسن الثالث الحد الفاصل بين مصر السودان و بجانبها الشلال المنسوب اليها

«وسرس» (ش) وهي قرية صغيرة على بُعد ٣٣ ميلاً من حلفا وقد مُدّت اليها سكة الحديد من حلفا في الفتح الاول واشتهرت في الثورة السودانية اذ اتخذها الدراويش النقطة الامامية لهم في حملتهم المشهورة على مصر فطردهم الجيش المصري منها و بنى طابية على راس رابية هناك وعزّزها بالمدافع والعساكر و بقيت الحامية الى ان كانت الحملة لفتوح دنقلة سنة ١٨٩٦ فهجرت

«وعُكاشه» (ش) وهي بلدة صغيرة على ٣٩ ميلاً من سمنه بطريق النيل وفيها قبة تزار للشيخ عكاشه الذي تسمّت البلدة باسمه واهل هذه الجهة يعتقدون انهُ عكاشه الصحابي ولهم فيهِ رواية تقليدية لطيفة قالوا انهُ جاء مع جيش المسلمين في ايام عمرو ابن العاص لغزو دنقلة وفيما هو راجع التقاه اهل سكّوت وكانوا اذ ذاك على النصرانية فحاربوه وقتلوه ثم قطعوا رأسهُ ورموهُ في النيل فطاف الرأس على وجه الماء حتى وصل تجاه هذه البلدة فصعد من نفسه الى البر الشرقي وحلّ على صخرة هناك فخرج منهُ نور رآهُ اهل الشرق والغرب فاجتمعوا حوله متعجبين منهُ واراد اهل كل جهة ان يأخذوهُ اليهم للتبرك بهِ واشتد اللجاج بينهم حتى كاد يفضي الى سفك الدماء. وفيما هم كذلك اذا بالصخرة قد انشقت واندفن الرأس فيها فبنوا فوقهُ قبةً تزار الى اليوم . على ان مؤرخي الاسلام يثبتون ان عكاشة الصحابي قتل في حرب اليمامة يوم قتل مسيلمة الكذّاب في خلافة ابي بكر الصديق وعليهِ فاما ان تكون هذه القبة مجرد مقام لعكاشه الصحابي أو ان تكون قبة شيخ آخر سُمي بهذا الاسم

وتجاه عكاشه في الغرب بانحراف قليل الى الشمال نبع ماء حار قريب من النيل يستحمُّ بهِ اهل البلاد و يعتقدون انهُ نافع للأمراض الجلدية والباطنية

« فَرْكه » (ش) وهي قرية صغيرة بينها وبين عكاشه عقبة طولها نحو ١٥ ميلاً وقد اتخذها الدراويش مركزًا لهم في حملتهم على مصر ووقفوا فيها لصد الجيش المصري عن التقدم الى دنقلة في ٧ يونيو سنة ١٨٩٦ فكانت هناك واقعة شهيرة عرفت بواقعة فركة ٥ وتعرف البلاد التي بينها وبين حلفا ببلاد بطن الحجر لكثرة العقبات في برها والشلالات والجزُر في نيلها

« وكوشه » (ش) وتبعد نحو ٧ اميال عن فركة وقد اتخذها الجيش مركزًا لهُ في حملتهِ على دنقلة سنة ١٨٩٦ وهناك طابية من عهد الحملة النيلية

« وجِنِس » (ش) على نحو ٣ اميال من كوشه اشتهرت في الثورة المهدية بواقعة جرت فيها بين الدراويش والجيش الانكليزي المصري سنة ١٨٨٥ ونسبت اليها

« وعَمارة (ش) جنوبي جِنس وبجانبها هيكل قديم من آثار الايثيوبيين

« وعَبْري » (ش) جنوبي عماره على نحو ٥ اميال منها وقد كانت مركز بلاد سكوت مدة الفتح الاول وتجاهها في الغرب « ساقية العبد » وهي واقعة في فم مفازة طولها ٥٨ ميلاً تؤدي الى « واحة سليمه »

« وكويكّه » (ش) على ٧ اميال من عبري وفيها قبة تزار للشيخ ادريس محجوب جد الشيخ ادريس محجوب كبير الطريقة المرغنية في بلاد سكوت الان وتجاه كويكه في النيل « جزيرة ساي » المار ذكرها وهناك خرائب قلعة قديمة من عهد السلطان سليم الفاتح أو من قبلهِ

« وسواردة » (ش) على ٨ اميال من كويكه اتخذها الدراويش النقطة الامامية لهم بعد ما طردهم الجيش من سرس فبقوا حتى اخرجهم منها ايضاً بعد واقعة فركة

« وقبة سليم » (غ) تجاه سواردة وهي قبة تُزَار لولي من اوليائهم يعرف بهذا الاسم • ومما يُروى عن كراماتهِ انهُ اخذ بيده رمحًا طويلاً ونزل في قارب الى وسط النيل تجاه القبة فركز الرمح في قعرهِ وقال فليكن جزيرة فكانت « جزيرة قبة سليم » الى اليوم • وبجانب القبة بلدة صغيرة تعرف باسمها ٥ والى جنوبيها جبل

دوشه وهو آخر حدود بلاد سكوت . ويليهِ بلاد المحس الممتدة الى شلال حنك كما مرَّ

« وصُلب » (غ) وهي حلة كبيرة على نحو ٨ اميال من قبة سليم . وبقربها آثار هيكل فخيم من بناء الايثيوبيين ٭ « وكويه » (غ) على ١٢ ميلاً منها

« وتِنرة » (ش) على نحو ٦ اميال من كويه وهي حلة كبيرة وفيها آثار قديمة

« وابو صاري » (ش) على نحو ٥ اميال من تنرة وبينها وبين كوشه مفازة طولها ٣٦ ميلاً تعرف بعقَبة ابي صاري

« ودلقو » (ش) على نحو ١٦ ميلاً من ابي صاري وهي مركز المحس الآن . وقد رأيت فيها اطلال قلعة قديمة لها برج يصعد اليهِ بسلّم لولبي ويحيط بها سور متين عرضهُ من اسفله نحو ٨ اقدام ٭ وتجاهها « جبل ساسي » الذي كان عاصمة ملوك المحس قبل الفتح المصري وعلى رأسهِ الآن كرسي من حجر كانوا يجلسون عليهِ عند تتويجهم

« وكوكيّ » (غ) جنوبي جبل ساسي وقد كانت مركز المحس مدة الفتح المصري

« وكدّين » (ش) وهي واقعة في رأس شلاّل خيبر وفيها خرائب قلعة قديمة

« وفرّيج » (ش) وهي بلدة طويلة عامرة على ١٨ ميلاً من دلقو

« وجزيرة اردوان » وهي جزيرة كبيرة يخترقها تلال صخرية . وفيها نخيل واشجار . وبينها وبين كويه مفازة تعرف بعقبة كويه طولها نحو ٣٦ ميلاً

« وقبة ابي فاطمة » (ش) وهي قبة تزار لشيخ معروف بهذا الاسم واقعة في قدم شلاّل حنك وفي فم عقبة تؤدي الى فريج طولها نحو ٢٠ ميلاً

وتجاه القبة في النيل « جزيرة طُنْبُس » من جزائر شلال حنك التي اشتهرت في تاريخ ايثيوبيا . وفيها آثار قديمة من ذلك العهد وقصر كبير للملك محمد ودطنبل من ملوك ارقو السابقين وهو مدفون فيهِ ٭ واما بلدة حنك التي ينسب اليها الشلال الثالث فهي بلدة كبيرة في رأس هذا الشلال غرب النيل

« والكرمة » (ش) جنوبي ابي فاطمة وعندها ينتهي خط سكة الحديد الممتد من حلفا وطوله ٢٠٣ اميال ٭ والنيل منها فصاعداً الى الشلال الرابع لا شلال فيهِ يصلح لسير السفن كل ايام السنة ٭ وعلى ٦ اميال منها الى الجنوب جزيرة

ارقو المار ذكرها وقد كانت قبل الفتح المصري مركز مملكة من اشهر ممالك دنقلة

«والحفير» (غ) تجاه الكرمة وقد تحصن بها الدراويش ايام زحف الجيش لفتح دنقلة سنة ١٨٩٦ وجرت فيها واقعة عرفت باسمها

«ودنقلة» (غ) وهي عاصمة مديرية دنقلة على ٢٥٩ ميلاً من حلفا وفي طول ٢٩ً ٣٠ْ وعرض ١٠ً ١٩ْ ويقال لها دنقلة الجديدة تمييزًا لها عن دنقلة العجوز التي كانت عاصمة النوبة السفلى وتسمى ايضاً الاوردي أو العرضي لان اسماعيل باشا بعد فتح السودان اختارها عاصمة للبلاد بدل دنقلة العجوز فوضع فيها اورديًا (أي فيلقاً من العساكر) فاطلق عليها اسم الاوردي وحُرّف الى العرضي . وقد كان عدد سكانها في بدء الثورة المهدية نحو خمسة آلاف نسمة وكان فيها ديوان للمديرية وثكنة للعساكر ومكتب للتلغراف فاخلتها الحكومة المصرية بسبب الثورة في سنة ١٨٨٥ فسقطت بيد الدراويش فخربوها وعمروا «ديمًا» على بعد ٦ اميال منها وجعلوهُ مركز المديرية الى ان عادت الحكومة فاسترجعتها من الدراويش عنوة في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٦ وخرّبتهُ وعمّرت المدينة ثانية في مكانها الاول . ومن دنقلة طريق تجارية الى الفاشر وطريق الى الابيّض . وفي شماليها «حلة مرّاغة» وهي من بناء المماليك الذين فرّوا من وجه محمد علي باشا كما سيجيء

«والخنّاق» (غ) وهي حلة صغيرة على ١٢ ميلاً من دنقلة وقد كانت قديمًا مركز مملكة من ممالك دنقلة التي اشتهرت قبل الفتح المصري وبقربها آثار قصر جميل يقال لهُ قصر الملك ود نمير وهو احد ملوكها الاقدمين وبجانبها قبب للاشراف الدناقلة

«وحلة الصحابة» (غ) على ٣ اميال من الخناق وهي حلة كبيرة في ظاهرها قبب قديمة قيل انها مدافن الصحابة الذين رافقوا جيش المسلمين لفتح دنقله ولكن مؤرخي الاسلام لا يعتمدون ذلك

«وحلة ساقي بشير» (غ) على نحو ٦ اميال منها وفيها قبة تزار لشيخ معروف بهذا الاسم . وتجاهها في النيل مجموع جزائر ثلاث تسمى جزائر الاشراف اشهرها جزيرة ضِرار التي ولد فيها محمد احمد المتمهدي

« والخندق » (غ) وتبعد ٤٤ ميلاً عن دنقله الاوردي وهي بلدة عامرة مبنية على مرتفع يشرف على النيل وفيها ٣ جوامع احدها قائم على آثار هيكل قديم من عهد الايثيوبين وقد كانت بعد الفتح الاسلامي للنوبة كرسي مملكة من ممالك دنقله وهي الآن مركز مأمورية وفي وسطها قلعة قديمة مبنية بالآجر

وفي الصحراء الغربية على محاذاة البلاد التي بين دنقله الجديدة والخندق وادٍ رمليٌّ طولهُ نحو ٦٣ ميلاً وعرضهُ نحو خمسة اميال يُسمى «وادي الكمب» يسكنهُ فصيلة من عرب الكبابيش وفيهِ نخيل وآبار كثيرة اشهرها بئر السواني على ٢٤ ميلاً من دنقله وبئر المرقوم على ٢١ ميلاً من الخندق . وهو طيب الهواء والماء واهل البلاد يقصدونهُ افواجاً في كل صيف في شهر مسرى للتعلل بهوائهِ والاستحمام برمالهِ وذلك ان الواحد منهم يحفر حفرة في الرمال على قدرهِ ويضطجع فيها ثم يحثو الرمال فوقهُ الى الرقبة ويجعل لهُ خيمة من الجريد تظللهُ من الشمس ويبقى كذلك من نصف ساعة الى ساعة حتى يسيل العرق منهُ صبيباً فيخرج من الحفرة كأنهُ قد غسل بحمام ماء حارّ وهم يعتقدون انهُ نافع للامراض العصبية والباطنية والحميَّات

« وناوي » (ش) على نحو ٢٢ ميلاً من الخندق وفي جوارها ترب قديمة وقبب تزار قيل انها قبور الصحابة

« ودنقله العجوز » (ش) قائمة فوق تلة على شاطئ النيل الشرقي على نحو ٢٢ ميلاً من ناوي و ٨٨ ميلاً من دنقله الجديدة وقد كانت قديماً كرسي مملكة النوبة السفلى في زمن النصرانية وبقيت بيدهم الى ان فتحها المسلمون سنة ٧١٧ هـ كما مرّ ثم دخلت في حكم ملوك سنار وهاجمها الشايقية في اواسط القرن الثامن عشر للمسيح فخربوها وقتلوا اهلها فانحطت اهميتها من ذلك الوقت . وهي الآن حلة صغيرة وفيها جامعان احدهما قائم على اطلال كنيسة قديمة للنصارى كان في صدرهِ حجر منقوش عليهِ تاريخ الفتح الاسلامي لدنقله . وفيها مقامات قيل انها للصحابة وان منها مقاماً لعبد الرحمن ابن ابي بكر الصديق . وفي طرف البلدة خرائب قلعة قديمة تدل آثارها على انها كانت حصينة جدًّا اه وفي جنوبيها جزيرة شهيرة تعرف بجزيرة « حمّور » وهي في غاية الخصب

« وابو قسٍّ » (غ) على ٤٢ ميلاً من الخندق وهي بلدة صغيرة فيها سوق عامة تفتح كل يوم خميس . ومنها طريق تجارية للابيض طولها ٣٥٠ ميلاً وطريق للفاشر طولها ٥٩٢ ميلاً . وفي جوارها قبة حاج سالا وهي قبة تزار

« والدَّبه » (ش) على نحو ١٦ ميلاً من ابي قسٍّ و ١٠٤ اميال من دنقله وهي حلة صغيرة قائمة على تلة صغيرة في رأس كوع النيل واقرب نقطة الى ام درمان بينهما طريق شهيرة في الصحراء مارة بآبار جبرة طولها ٢١٤ ميلاً ومنها طريق تجارية الى الابيض والفاشر وسوقها يوما الاثنين والجمعة وقد جرت فيها في بدء الثورة المهدية واقعة شهيرة . وفيها بقايا طابية حصينة تسع نحو الف رجل . وفي اراضيها كثير من الاخشاب المتحجِّرة . والى شماليها على بعد ميل منها بلدة تعرف بالكُرد عسكر فيها الانكليز مدة الحملة النيلية وبنوا فيها منازل من طوب باقية الى اليوم

« ودبة الفقراء » على نحو ٤ اميال من الدَّبة وفيها قبب تزار للدواليب الدناقلة وفي جنوبيها « جزيرة تَنْقَسي » يسكنها بقية من الفونج الذين اتوا من سنار

« وابو دوم قشابي » وهي بلدة كبيرة في اول بلاد الشايقية التي تمتد الى الشلال الرابع وتبعد نحو ٨ اميال من ابي دوم قشابي

« والدفَّار » عن يمين النيل وتبعد نحو ٩ اميال عن ابي دوم قشابي ويزعم اهل دنقله انها بلدة نمرود ابن كنعان وان الملك موسى سكنها بعد الاسلام واسس فيها مملكة دامت الى ما قبل الفتح المصري فخرَّبها الشايقية على ما سيجيء وهي الآن حلة صغيرة وفيها قلعة خربة قائمة على صخرة كبيرة . وبقربها جزيرة عامرة تسمى قانتي يسكنها ذرية ملوك الدفار مع الشايقية وفيها آثار قديمة وجامعان ومسجدان

« والحتَّاني » على $3\frac{1}{2}$ ميل من الدفَّار وهي حلة صغيرة نزل في جوارها العساكر الانكليزية مدة الحملة النيلية وبنوا منازل من الطوب لا تزال قائمة الى اليوم . وبقربها خرائب قلعة قديمة متينة تنسب اليها وهي قائمة على صخرة بينها وبين النيل طريق حرجة الى الغاية . وبين الدفار والحتاني قبة تزار لاحمد ودبلي من فقهاء العونية الشايقية المتقدم ذكرهم . وهناك خرائب بناء قديم بعيد عن النيل يعرف

«مجوش بابا» بناه بشاره قيله جدّ اسماعيل الولي الكردوفاني المشهور قيل انهُ كان ذا غنى فاحش فاستخدم في بنائهِ البنات الابكار وانفق عليهِ مالاً لا يحصى

« وامبقول » عن يسار النيل على ٣٢ ميلاً من الدبة ومنها طريق تمر بآبار البيوضة الى وادي بشاره طولها ١٥٣ ميلاً وطريق تمر بآبار الجكدول الى المتمة طولها ١٧٦ ميلاً

« وكورتي » عن يسار النيل على بعد ٣ ½ من امبقول وهي حلة صغيرة اشتهرت في الفتح المصري لواقعة جرت في جوارها بين اسماعيل باشا والشايقية في بدء الفتح الاول وواقعة أخرى بين مصطفى باشا مدير دنقله والدراويش في بدء الثورة المهدية . وقد جعلها اللورد ولسلي قائد الحملة النيلية سنة ١٨٨٤ و ١٨٨٥ مركز اركان حربه . ومنها طريق الى المتمة تمرُّ بالجكدول طولها ١٧٦ ميلاً

« وحَنَك » وهي بلدة كبيرة عن يمين النيل تبعد ٢٠ ميلاً عن كورتي وهي مركز ملوك الشايقية الحنيكاب والآن مركز مأمورية تعرف باسمها . وبين حنك وكورتي جزيرة مساوي وهي جزيرة عامرة سكن فيها المرحوم محمد عثمان المرغني الشهير فولد فيها ابنهُ السيد علي المرغني الآتي ذكرهُ

« وتنقاسي » عن يسار النيل وتبعد ٤ اميال عن حنك وهي بلدة كبيرة عامرة وفيها سوق من اشهر اسواق دنقله تفتح يوم الثلاثاء من كل اسبوع وتأتيها التجار من دنقله وبربر والخرطوم ببضائع السودان ومصر . وهي في رأس عقبة تُعرف بعقبة العريان فيها محل خرب يسمى الحوش الابيض قيل كان مركز ملوك الشايقية في اول سلطنة الفونج فجرت فيهِ بين الحنيكاب والسوَّراب وقائع دموية فخرب

« ومَرَوي » وهي من اشهر قرى دنقله واكبرها واقعة عن يمين النيل على ١١ ميلاً من حنك وهي مركز ملوك الشايقية العادلاناب . ومنها طريق في صحراء النوبة الى دنقله الاوردي وهي معطشة وعرة طولها ١٠٣ اميال

« وصَنَم » تجاهها عن يسار النيل وهي حلة كبيرة وفيها آثار تدل على قدمها واهميتها ومنها طريق الى بربر تمر بآبار السواني طولها نحو ١٦٠ ميلاً وطريق الى

المتمة تمر بآبار الجكدول طولها نحو ١٨٠ ميلاً ٭ وعلى مسافة ٧ اميال منها في الصحراء بئر شهيرة معروفة ببئر الغزالي ماؤها عذب لا ينقطع . وهناك خرائب دير من عهد النصرانية في النوبة . وبقربه آثار مدافن عليها كتابات باليونانية والقبطية .

وكانت صنم في الفتح الاول مركزاً للتلغراف الذي يصلها ببربر بطريق الصحراء وبنى الانكليز فيها سنة ١٨٨٥ طابية تهدمت . وامر التعايشي بعدهم ببناء جامع فيها فبني وترك بلا سقف ثم اتخذها السردار سنة ١٨٩٧ مركزاً للحملة على بربر

« والدويم » على ٣ اميال من صنم وفيها قبة كبيرة تزار للشيخ عبد الرحمن ودحاج كبير الدويحية المار ذكرهُ وهي القبة الوحيدة المبيضة في السودان ولذلك تسمى بالقبة البيضاء . وفيها جامع كبير ومسجد لتعليم القرآن تأتيهِ الطلبة من جهات بعيدة

« والبرْقَل » وهي حلة عامرة عن يمين النيل على بعد ½ ٧ ميل من مروي وهي في مكان نبته القديمة عاصمة اثيوبيا وبجانبها جبل البرقل المشهور وفيهِ آثار جليلة من الهياكل والاهرام الآتي ذكرها في تاريخ اثيوبيا

« ونُوري » تجاه البرقل وهي حلة كبيرة وبجانبها ١١ هرماً من اهرام نبته

« والبلَل » وهي حلة كبيرة عامرة بقرب نوري وبينهما مقام للنبي عُزَير على تلة فوق النيل يزورهُ اهل البلاد للتبرك بهِ . قيل ولم يكن نبياً بل كان وليّاً صالحاً

« والدُّقايات » عن يسار النيل على نحو ٨ اميال من البرقل وهي حلة طويلة وفيها طريق شهيرة الى بربر تمرّ بآبار السواني طولها ١٤٦ ميلاً . وتكثر جدّاً الجزر والشلالات في النيل من البلل فصاعداً الى ابي حمد فقد عدُّوا الجزُر منها الى الدقايات فقط فكانت نحواً من ٩٠ جزيرة ٭ وعلى نحو ٢٠ ميلاً منها الشلال الرابع

مدن مديرية بربر وآثارها

« حلة برْتي » على نحو ١٩ ميلاً من الشلال الرابع وهي حلة طويلة عن يسار النيل في اول حدود بربر النيلية

« وحلة كربكان » على ١٦ ميلاً من برتي وقد اشتهرت للواقعة التي جرت فيها بين الجيش الانكليزي والدراويش في الحملة النيلية سنة ١٨٨٥

« والسلامات » على ١٩ ميلاً من كربكان وهي مركز بلاد المناصير . وعمار هذه البلاد كلهُ عن يسار النيل واما عن يمين النيل فخراب لا يسكنهُ الاّ بعض العرب المتبدّية . وفيها قلعة الكرمل وهي في ظن الموسيو كايُّو انها القلعة التي التجأت اليها كنداكة عند فرارها من وجه بطليموس سنة ٢٣ ق . م

« وحلة ابي حمد » وهي حلة صغيرة واقعة عن يمين النيل في رأس كوع لهُ في عرض شمالي ٣١ َ ١٩ ° وطول شرقي ٢١ َ ٣٣ ° وعلى ٥٥ ميلاً من السلامات و ١٣١ ميلاً من بربر وقد اشتهرت لوقوعها في اول الطريق التجارية المؤدية الى كورسكو المتقدم ذكرها وهي منسوبة الى شيخ مدفون فيها وقبرهُ يزار . وقد اعتاد التجار ان يودعوهُ ما لا يحتاجونهُ من امتعتهم في سفر الصحراء . قالوا فتبقى هناك بحماية الشيخ لا يمسها احد حتى يعودوا من السفر . وقد اشتهرت ابو حمد مدة الثورة المهدية فاتخذها الدراويش حامية لهم وعززوها بالطوابي والمدافع وبقوا الى ان اخرجهم الجيش المصري منها سنة ١٨٩٧ بعد واقعة عنيفة عرفت باسمها . وتجاهها جزيرة مقرات المار ذكرها

« وبربر » وهي عاصمة مديرية بربر على ٤٣٧ ميلاً من دنقله الاوردي و ١٩٦ ميلاً من الخرطوم في عرض ١ َ ١٨ ° وطول شرقي ٤ َ ٣٤ ° . قيل سميت بربر لانهُ كان يحكمها في القديم امرأة تسمى بربرة . وتسمى المخيرف ايضاً قالوا وهي مشتقة من الخريف لانها من اطيب بلاد السودان هواء . . وقد كانت بربر في عهد مملكة سنار كرسي مملكة الميرفاب وسلمت لاسماعيل باشا فاتح السودان بلا قتال وزادت شهرتها بعد الفتح المصري حتى فاقت شهرة شندي واخذت مركزها في التجارة فصارت ترد اليها البضائع من مصر والحجاز والهند عن طريق النيل والبحر الاحمر واشهر طرقها التجارية : طريق الى اسوان طولها ٤٧٣ ميلاً وقد مرَّ ذكرها وطريق الى كورسكو تمر بابي حمد طولها ٣٦٦ ميلاً وطريق الى سواكن طولها ٢٤٥ ميلاً وطريق الى مصوع تمر بكسلة طولها ٥٤٣ ميلاً . ووقعت بربر بيد الدراويش في سنة ١٨٨٤ فخربوها وبنوا دماً في شماليها فلما عادت الحكومة اليها بعد الفتح الاخير سنة ١٨٩٧ جعلت هذا الدمم مركزاً موقتاً لها ولكنها ستعود قريباً الى المركز القديم .

وفي بربر قبة تزار للشيخ زين العابدين المنتسب الى بني أمية قيل انهُ جاءها من شنقيط بلاد المغرب وتوفي فيها سنة ١٢٨٣هـ وكان على الطريقة الجيلانية الكتبية؟ ٥ وبين بربر وابي حمد عدة بلاد للميرفاب والرباطاب منها « الفريخة » على ١٢ ميلاً من بربر قيل سميت بذلك لانهُ كان يحكمها فريخة او جارية صغيرة تحت يد بربرة التي حكمت بربر . وبجانبها اطلال بلدة قديمة تعرف الآن بالداقيل .« والعبيدية » على ١٨ ميلاً من بربر وقد اتخذها الجيش مركزًا لهُ في واقعة الاتبرة و بنى فيها ثلاث بواخر حربية . « والباوقة » في شمالي العبيدية غربي النيل وقد كانت مركز ملك من ملوك الميرفاب

« والغبُش » (غ) تجاه بربر وقد كان فيها عند فتح اسماعيل باشا لسنار مدرسة شهيرة لتعليم القرآن وآداب العربية وهي المدرسة التي تفقَّه فيها محمد احمد المتمهدي قبل ادعائهِ المهدية . والى جنوبي الغبش على نحو ٣ اميال منها جبل شاهق بنى عليهِ محوبك احد ولاة السودان قصرًا فخرب

« والدامر » (ش) وهي بلدة عامرة على ٧ اميال من مصب الاتبرة بالنيل و ٣١ ميلاً من بربر وهي مركز المجاذيب فقهاء الجعليين المار ذكرهم ولهم فيها مدرسة قديمة مشهورة لتعليم القرآن . وسوقها يوم الجمعة

« والبجراوية » (ش) وهي حلة صغيرة على ٤٨ ميلاً من مصب الاتبرة قائمة على اطلال مدينة مروي القديمة . وعلى التلال المجاورة لها مجموعان من الاهرام في احدهما ١١ هرمًا وفي الآخر ثلاث اهرام . والى شماليها جبل صغير يعرف « بجبيل ام علي » سمي بذلك نسبة الى امرأة دفنت في رأسه تعرف بهذا الاسم وقد صعدت الى اعلى الجبل فلم أجد للقبر اثرًا سوى حجرين قيل انها دفنت هناك بحسب وصيتها . وبجانب الجبل حلة صغيرة فيها اربع قبب للشيخ حامد ابو عصاية من العمراب الجعليين؟ واولادهِ . وتجاهُ في النيل جزيرة الشبيلية وهي من اكبر جزر النيل

« وشندي » (ش) على نحو ٢٣ ميلاً من البجراوية ١٠٤ اميال من الخرطوم وقد كانت مركز مملكة الجعليين في عهد مملكة سنار وكانت اذ ذاك لمن اهم

مراكز التجارة في السودان فخربها الدفتردار في بدء الفتح الاول لغدر ملكها الملك نمر باسماعيل باشا ثم عمرت ولكنها لم تعد الى اهميتها التجارية بعد وسوقها يومي الاثنين والخميس « والمتمة » (غ) تجاه شندى وقد اشتهرت في آخر مملكة سنار والثورة المهدية وخربها الامير محمود احد امراء التعايشي في ١ يوليو سنة ١٨٩٧ تخريباً تاماً ولكنها عادت بعد الفتح الاخير فعمرت . وقد كانت مشهورة قديماً في حياكة الدَّمُّور ولا سيما النوع المعروف بالمرقَّعات وهو نسيج « رفيع » لهُ حاشية من حرير ملوَّن تلبسهُ النساء . والى جنوبيها حلة صغيرة تسمى « ابا خروق » باسم شيخ مدفون هناك منذ عهد مملكة سنار ولهُ مقام يزار وقد عسكر فيها الانكليز مدة الحملة النيلية سنة ١٨٨٥ كما سيجيء

مدن مديرية الخرطوم وآثارها

« الخرطوم » هي عاصمة المديرية المنسوبة اليها وعاصمة السودان عموماً وهي واقعة على يسار النيل الازرق عند التقائهِ بالنيل الابيض في عرض شمالي ١٥°٣٦َ٣٨ً وطول شرقي ٣٢°٣١َ٤٠ً وعلى بعد ١٠٧٥ ميلاً من اسوان بطريق النيل وعلو ١٢٧٠ قدماً عن سطح البحر . وقد سميت بالخرطوم لانها واقعة على لسان داخل بين النيلين يشبه خرطوم الفيل . وكانت قبل الفتح المصري حلة صغيرة فاتخذها عثمان بك اول ولاة الفتح الاول مركزاً عاماً للسودان لحسن موقعها فنمت حتى بلغ عدد سكانها سنة ١٨٨٢ نحو ٧٠٠٠٠ نسمة من جميع اجناس السودان والاجانب من افرنج ومصريين وسوريين واحباش ويهود وغيرهم . وكان فيها ابنية عظيمة مبنية بالحجر أو بالطوب المشوي أو النيّ واهمها سراي حكمدار السودان اسَّسها ممتاز باشا تاسع عشر ولاة السودان في الفتح الاول ودار الحكومة واسبتالية واشوان ووكالات وزوايا وقبب ومقامات تزار وجامع بمأذنة عظيمة ومدرسة لتعليم القرآن والعلوم العربية وكنيسة فخيمة متينة البناء للرسالة الكاثوليكية النمساوية وترسانة لاصلاح الوابورات وبناء المراكب يتخللها حدائق غناء من النخيل واشجار الفاكهة . وكانت مركز تجارة السودان وفي اسواقها جميع اصناف البضائع السودانية والافرنجية والحجازية والهندية والمصرية حتى جرى على ألسنتهم قولهم

«ايش معدوم في سوق الخرطوم» الا ان اثمان الملبوسات والمفروشات كانت اضعاف اثمانها في مصر. وكان فيها من قناصل الدول قنصل لدولة انكلترا وقنصل لدولة النمسا وقنصل لدولة اليونان . وبقيت الى ان كانت الثورة المهدية فسقطت بيد المهدي في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ فخربها هو وخليفته من بعده تخريباً تامًا وبنيا بأخشابها مدينة ام درمان ولم يبقيا فيها قائمًا الا ترسانتها وجناينها . وما زالت الى ان استرجعها السر هربرت كتشنر باشا سردار الجيوش المصرية والانكليزية في ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ بعد واقعة عنيفة في البرّ والبحر فشرع في بنائها توًّا بعد الفتح وما كان الا قليلاً حتى ندبته حكومته الى حرب الترنسفال وخلفهُ في مركزهُ سردارًا على الجيش وحاكمًا عامًا على السودان «الفريق السر رجينولد ونجت باشا» فشرع بهمته العالية المعهودة في تنظيم المدينة وتوسيع نطاقها فسارت في اقل من سنتين شوطًا لم يكن ينتظر لها في عدة سنين . ولما ذهبت الى الخرطوم ايام تشريف الجناب العالي الخديوي لها في الشتاء الغابر دُهشت اذ رأيت في مكان تلك الاطلال الدارسة التي شهدتها بعد واقعة ام درمان قصورًا شامخة وأبنية فخيمة وثكنات حصينة وشوارع متسعة وحدائق غناء واسواقًا تجارية غنية بجميع اصناف البضائع والمأكولات . وأهم ما رأيت فيها سراي الحاكم العام التي تضاهي اجمل السرايات في مصر وهي قائمة على اطلال السراي القديمة مع زيادة في بنائها وتحسين في زخرفها. ودار الحكومة بجانب السراي وفيها جميع اقلام الحكومة السودانية ورئاسة الجيش . ومدرسة غوردون وهي بناء عظيم في الطرف الشرقي من البلدة اقامها المحسنون الانكليز تذكارًا لغوردون باشا الذي قتل في سقوط الخرطوم وسيأتي ذكرها. وجامع فخيم جميل البناء في وسط المدينة. ولوكندة للسياح في غربيها . واما شوارعها الكبرى فسمي احدها باسم فكتوريا وآخر باسم محمد علي وآخر باسم الخديوي وآخر باسم السردار. وقد شرعت الحكومة حديثًا في بناء رصيف متسع متين على النيل فزاد في بهاء المدينة ورونقها . والبناء الآن قائم فيها على قدم وساق . وموقعها الطبيعي الجميل يساعد على انمائها وقد انتهت اليها سكة الحديد من حلفا في اول يناير سنة ١٩٠٠ فنمت تجارتها نموًّا

سريعاً وبلغ عدد سكانها الآن نحو ٧٠٠٠ نسمة ما عدا العساكر ولكن هذا العدد في ازدياد كل يوم والدلائل كثيرة على انهُ لا يطول الوقت حتى تعود الى عزّها القديم قبل الثورة ثم تتدرج في سلم الارتقاء حتى تصبح جنة من جنان الارض ان شاء الله

«وام درمان» تجاه الخرطوم وغرب النيل الابيض في عرض شمالي ٣٨َ ١٥° وطول شرقي ٢٩َ ٣٢° وقد كانت قبلاً حلة صغيرة قائمة في سهل فسيح رملي لا شجر فيهِ وكانت محطاً لرحال تجار الغرب قبل دخولهم الخرطوم فبنت الحكومة فيها مدة الثورة المهدية طابية استولى عليها المهدي في ٥ يناير سنة ١٨٨٥ واحتل البلدة بانصاره الى ان مات فدفن فيها فبنى خليفتهُ التعايشي قبة عظيمة فوق قبره جعلها مزاراً وجعل ام درمان عاصمة لملكهِ وسماها بقعة المهدي وفرض على كل امير من امرائهِ وكل وجيهٍ من وجهاء السودان بناء منزل فيها فاتسعت اتساعاً عظيماً حتى اصبح طولها ستة اميال أو اكثر وعرضها ميلاً الى ٣ اميال . وبلغ عدد سكانها نحو اربع مئة الف نسمة من جميع شعوب السودان وقبائلها وفيهم جيش الخليفة الذي بلغ خمسين الف رجل . وابنية المدينة بالطوب النيّ أو بالحجارة الغشيمة والطين وبعضها بالطوب الاحمر وجميع دورها طبقة واحدة الا منزل الخليفة الذي بجوار قبة المهدي فان فيهِ عليّة فوق احدى غرفهِ . والابنية اما مربعة مستوية السطوح أو مستديرة مخروطية السقوف . وآبار المدينة تختلف في العمق من ٣٠ : ٩٠ قدماً وهي اصلح للشرب من ماء النيل الابيض . واكثر شوارعها ضيقة قذرة ولكن فتح التعايشي فيها اربعة شوارع متسعة شارعاً ينتهي الى ساحة العرضة في غرب المدينة وشارعاً الى الهجرة الشمالية وشارعاً الى الهجرة الجنوبية وشارعاً الى المشرع الذي يُعبر منهُ الى الخرطوم . وفتح سوقاً عظيمة بقرب القبة حيث كانت تباع جميع البضائع الاوربية والمصرية والهندية والحجازية التي كانت تأتيها عن طريق اسوان وسواكن ومصوع . واقام بجانب منزله الى جهة الغرب جامعاً للصلاة وهو «حوش» كبير محاط بسور مربع مستطيل من الطوب الاحمر طوله ٤٦٠ يرداً وعرضهُ ٣٥٠ يرداً ولهُ اربعة ابواب ومحراب يحيط بهِ درابزون من الحديد ويليهِ صف من «الرواكيب» (المظالّ)

قائمة على عمد من خشب ومسقوفة بالحصر وباقي ارض الجامع مكشوف غير مسقوف . وبنى في وسط المدينة سورًا عظيماً منيعاً احاط بهِ منزلهُ ومنازل عساكرهِ الجهادية والسجن . وجعل الطابية القديمة ثكنة لعساكر الحكومة السود الذين وقعوا في اسرهِ وسماها الكاره . وجعل ذخائرهُ الحربية في بيت كبير بقرب منزلهِ احاطهُ بسور من الحجر سماهُ بيت الامانة . وبنى بناء كبيرًا غير مسوَّر لبيت المال على شاطئ النيل جعل فيهِ مخازن للذرة والصمغ والسن واماكن للضربخانة ومطبعة الحجر والعاديَّات والدفاتر والاوراق . ومدَّ خط التلغراف بينها وبين الخرطوم للمخابرة مع عمال الترسانة . وبقي حتى كانت واقعة ام درمان ففرَّ جنوبًا فاحتلها الجيش موقتاً وجعل فيها مركز حكومة السودان ثم نقلهُ الى الخرطوم . ورجع الكثير من سكان ام درمان الى اوطانهم وقتل منهم جمٌّ غفير في الواقعة فلم يبقَ فيها الآن سوى ٢٥٠٠٠ نسمة . اما قبة المهدي فقد هدمتها القنابل في اثناء الواقعة وبعدها

وبين الخرطوم وام درمان « جزيرة توتي » المار ذكرها في الكلام على النيل وهي جزيرة كبيرة جيدة التربة حسنة الهواء يحيط بها النيـل الازرق من الجنوب والشرق جعل فيها غودرون ايام حصار الخرطوم حامية وجعلها التعايشي مخزنًا للبارود

وتجاه توتي والخرطوم عن يمين النيل الازرق « قبة الشيخ خوجلي » وهي قبة تزار لفقيه من فقها المحس هجر بلادهُ في اوائل القرن الماضي وسكن جزيرة توتي حيث اشتهر بالصلاح والتقوى ومات في الجزيرة فنقل الى البر الشرقي ودفن هناك . وبقربها قبة اخرى للشيخ حمد ود ام مريوم

« والحلفاية » على نحو ٧ اميال من قبة الشيخ خوجلي وهي مركز مشايخ العبدلاَّب الذين اشتهروا في مملكة سنار وكان لهم المقام الاول بعد ملوك الفونج وقد انتقلوا اليها من جبل قَريّ في شماليها وهو جبل مشهور وفيهِ ضريح عبد الله ودعجيب المانجلك مؤسس هذه المشيخة يزورهُ الهمج وغيرهم ويقدمون لهُ النذور

وفي البطانة على ٦٠ ميلاً شرق الحلفاية قبة تزار « للشيخ حسن ود حسونة » الذي ظهر في ايام الملك عبد القادر سابع ملوك سنار وسيأتي ذكرهُ . والى شمالي

الحلفاية « قبة الشيخ ابراهيم الكباشي » قيل وهو من الاولياء الصالحين وليس من الكبابيش كما يستفاد من اسمه بل هو من المحس توفي سنة ١٢٨٢ هـ م وكان على الطريقة السمانية القادرية ٥ والى شمالي هذه القبة « التمانيات » وفيها ابعدية للحكومة زرعت في الفتح الاول بالنيلة فنجحت زراعتها ٥ وتجاه التمانيات في غرب النيل « قبة الشيخ الطيب » مؤسس الطريقة السمانية في السودان وهي قبة تزار واقعة في سفح جبل صغير يعرف بجبل ام مرّحي الملقب بجبل السلطان نسبة اليه ٥ والى شمالي التمانيات « حلة الجايلي » وفيها منزل فخيم للزبير بناه بعد الفتح الاخير ٥ والى شمالي هذه الحلة جزيرة واوسّي وهي مسقط رأس الزبير

مدن مديرية الجزيرة وآثارها

« حلة سوبه » (ش) وهي حلة صغيرة على ١٥ ميلاً من الخرطوم وفي جوارها اطلال سوبه القديمة عاصمة مملكة علوه المار ذكرها وقد كان فيها قصور شاهقة وكنائس فخيمة و بساتين زاهرة ٠ وهم يزعمون انها من بنا سبا ابن نوح

« والعيلفون » (ش) وهي حلة عامرة على ٦ اميال من سوبه ٠ وفيها قبة تزار « للشيخ ادريس » الذي ظهر في ايام الملك عدلان ود آيه ثامن ملوك سنار وسيأتي ذكرهُ والى الجنوب منها « حلة مسجد ود عيسى » وفي مسجدها تلقى محمد احمد المتمهدي بعض دروسه

« والكاملين » (غ) وهي حلة كبيرة على نحو ٤٠ ميلاً من العيلفون وقد جرت فيها زراعة النيلة سابقاً فنجحت ولا يزال فيها آثار حياض النيلة الى اليوم ٠ واكثر سكان المدينة اخلاط من الدناقلة والجلعيين ٠ وفي النية الآن جعلها مركزاً لمديرية الجزيرة

و بينها و بين العيلفون في الجزيرة قبة تزار « للشيخ حمد ود الترابي » الذي ظهر في ايام الملك بادي الثالث وهو الثالث عشر من ملوك سنار وسيأتي تفصيل خبره

« ورفاعة » (ش) بلدة كبيرة على نحو ٣٥ ميلاً من الكاملين ولاهلها زراعة واسعة

« والمسلمية » (غ) على ١١ ميلاً من رفاعة و ٣ اميال من ضفة النيل الى داخل الجزيرة ٠ وعدد سكانها نحو ٨٠٠٠ نسمة واراضيها الزراعية واسعة تمتد الى قرب النيل الابيض ٥ ومنها طريق الى الكوة على النيل الابيض تمرّ « بعبود ومعتوق » وهما

اهم مدن الجزيرة • والى شماليها خرائب « أربجي » الشهيرة التي خربت في عهد الملك عدلان الثاني تاسع عشر ملوك سنار كما سيجيء • والى جنوبيها « حلة فداسي » التي حوصر فيها صالح الملك الشايقي في بدء الثورة المهدية

« وابو حراز » (ش) وهي بلدة كبيرة على ١٤ ميلاً من المسلمية وفي جنوبيها يصب نهر الرهد بالنيل الازرق • ومنها طريق شهيرة تؤدي الى القضارف والقلابات وكسلة • ولهذه المديرية مدن على النيل الابيض يأتي ذكرها بعد الفراغ من النيل الازرق

(مدن مديرية سنار وآثارها)

« ود مدني » (غ) على نحو ٣ اميال من ابي حراز و ١٢٤ ميلاً من الخرطوم قائمة على هضبة عالية من الرمل والحصى تحتها صخور جيرية وهي اصح مدن الجزيرة هواءً وقد اتخذها اسماعيل باشا فاتح سنار مركزاً لعساكره بعد سنار و بنى فيها طابية منيعة لا تزال آثارها الى اليوم • وهي الآن مركز مديرية سنار واكبر مدن النيل الازرق وعدد سكانها نحو ٢٠ الفاً اكثرهم من المدنيين والكواهلة و بينهم اخلاط من الجعليين والشايقية والدناقلة والمصريين وغيرهم • وسوقها يومي الاثنين والخميس يتقاطر اليها الناس من كل صوب و يباع فيها انواع الحبوب والخضر والصمغ والمنسوجات القطنية من وارد منشستر والسكر والتبغ والخرز وادوات القطع • و يصنع فيها الصابون والسيرج ولاهلها مهارة في صناعة الجلد • والى شماليها خرائب جامع بناهُ باني المدينة وخربهُ المهدي

« وسنار » (غ) على ٨٣ ميلاً من ود مدني و ٢٠٧ اميال من الخرطوم وهي من اشهر مدن السودان واقدمها اسسها الفونج سنة ٩١٠ هـ واقاموا فيها مملكة دامت الى سنة ١٢٣٦ هـ فاستولت عليها مصر كما مرَّ وجعلتها مركزاً لمديرية سنار و بنت فيها ديواناً للمديرية وثكنة للعساكر وجامعاً للصلاة • وقد بلغ عدد سكانها سنة ١٨٨٢ نحو ٧٠٠٠ نسمة من اخلاط العرب والفونج والهمج وغيرهم • وكانت مركز تجارة الجزيرة وفازوغلي وسوقها يومي الاثنين والخميس • وقد جعلتها حكومة مصر في بدء الفتح الاول منفى • واليها نفى ابرهيم باشا سنة ١٨٤٠ م سبعة وار بعين رجلاً من امراء لبنان ومشائخهِ ووجهائهِ من النصارى والدروز الذين حافظوا على ولاء الدولة العلية عند دخوله

سوريا منهم ٤ من الامراء الشهابيين و ٤ من الامراء اللمعيين و ٣ من المشايخ النكديين والشيخ نقولا من المشايخ الخازنيين والباقون من وجهاء البلاد بينهم اربعة من وجهاء الشويفات وهم : « حنا الخوري » جدّ الشاعر المشهور خليل افندي الخوري مدير الامور الاجنبية في ولاية سوريا « ولحود شقير » جدّ النابغة الشهير اسبر افندي شقير كنشلير قنصلاتو انكلترا الجنرالية في بيروت « ومغامس شقير » ابو الشاعر الالمعي فارس بك شقير قائمقام قضا الكورة بجبل لبنان « وعوكر شقير » ابو سعاده افندي شقير. فطلبت الدولة الانكليزية ارجاعهم في الحال ورست عمارتها في الاسكندرية تنتظرهم الى ان رجعوا من سنار فأوصلتهم الى بلادهم وكانت مدة اقامتهم في سنار ثلاثة اشهر

وبقيت سنار بيد مصر الى ان كانت الثورة المهدية فسقطت بيد الدراويش سنة ١٨٨٥ بعد حصار شديد دام عدة شهور فأمر التعايشي فخربت خراباً تاماً وهجرت الى ان عاد الجيش اليها بعد الفتح الاخير سنة ١٨٩٨ فلم يجد فيها قائماً الا مأذنة جامعها وقد كتب على الخشبة التي فوق بابهِ هذه العبارة : « بسم الله الرحمن الرحيم نصرٌ من الله وفتحٌ قريب وبشر المؤمنين يا محمد بالجنة. باني هذا الجامع خورشيد بك بأمر حضرة الحاج محمد علي باشا والي مصر تاريخ عام سنة ١٢٥٠ » فجدّدت الحكومة السودانية بناءها وجعلتها مركزاً لمديرية سنار مدة ثم رأت ما رآهُ اسماعيل باشا فاتحها الاول ان هواء ود مدني اصحّ من هوائها فنقلت مركز المديرية الى ود مدني

ومن سنار الى النيل الابيض طريقان مشهورتان طريق الى مشرع ابي زيد في جنوبي جزيرة أبا وطريق الى الكوّه طولها ١٠٠ ميل تمر بجبلي سجدي ومويه وهما جبلان مشهوران بالغرانيت الجيد بل الغرانيت الاحمر في جبل سجدي هو من اجمل انواع الغرانيت واجود من حجر اسوان. ويبعد جبل مويه ٢٣ ميلاً عن سنار ويعلو ١٢٠٠ قدماً عن سطح الارض التي حولهُ واما جبل سجدي فأقل منهُ علوًّا ويبعد ٣٨ ميلاً عن سنار. وفي سنار قبب ومقامات كثيرة للذين اشتهروا بالصلاح والتقوى منها الى الشمال قبة ود العباس ومقام هجو ومقام عابدين

«ورُنقه» (ش) على نحو ٤٠ ميلاً من سنار وهي حلة الملك تاي الدين من بقية الفونج وقد قتل في حصار سنار سنة ١٨٨٥ • وسِنجه (غ) جنوبيها وفيها مَجرة للمراكب

«وكركوج» (غ) على ٦٩ ميلاً من سنار وهي مركز تجاري بعد سنار في الاهمية • والى غربيها على نهر الدندر «حلة دَبَركي» مركز الحمدة • ومن كركوج فصاعدًا يكثر ذباب السَّروت وتقوم الحمير والبقر مقام الابل والخيل

«والرُّصَيرص» (ش) على ١٠٤ اميال من كركوج في رأس شلال الرصيرص • والى غربي البلاد التي بين كركوج والرصيرص «جبال الفونج» المار ذكرها وهي تشمل جبال البُرون التي اشتهرت في تاريخ سنار

«وفامَكه» (غ) على ٥٥ ميلاً من الرصيرص و ٤٣٥ ميلاً من الخرطوم بناها محمد علي باشا سنة ١٨٤٠ وجعلها عاصمة ادارة فازوغلي • وبنى على نحو خمسة اميال منها جنوبًا قصرًا جميلاً ومعملاً لاستخراج الذهب مازالت اثارها باقية الى الآن • وسكان فامكه الجبلاويون من افضل السود خلقًا واشهرهم في النظافة والطبخ

وفازوغلي بلاد جبلية قيل ان فيها ٩٩ جبلاً اشهرها:

«جبل فازوغلي» على ضفة النيل الغربية تجاه فامكه وهو يعلو ٢٦٥٩ قدمًا عن سطح النيل • وفي سفحه حلة منسوبة اليهِ كانت عاصمة البلاد قبل الفتح المصري وعليها الآن ملك من ذرية ملوكها الاقدمين • «وجبل تابي» غربيها وهو موطن اللنقسنة

«وجبل قبا» شرقي فامكه ولاهلهِ القُمز مهارة في صنع الاسرة والكراسي وأساور العاج وعليهم ملك يدعي النسبة الى الفونج

«وجبل ابو رمله» شماليهُ وعليهِ ملك يدعي هذه النسبة واهله همج وعرب وعبيد

«وجبال بني شنقول» على ٧٥ ميلاً من جبل تابي وفيها الذهب وهي جبال البرتة والوطاويط المار ذكرهم وقد استقلوا بها مدة الثورة المهدية الى ما قبل الفتح الاخير بقليل فآلت الى الاحباش ولا تزال بيدهم الى الآن • وفي اقصى هذه الجبال «جبل فداسي» المشهور • وفي سفحه بلدة تجارية تسمى باسمه تباع فيها بضائع السودان والحبشة وقد كانت آخر حد السودان المصري الجنوبي على النيل الازرق كما مر

﴿ مدن النيل الابيض التابعة الى مديرية الجزيرة ﴾

« قيزان الملك ابرهيم » (غ) على نحو ١٨ ميلاً من الخرطوم وهي مركز مملكة الجموعية التي اشتهرت في زمن الفونج

« وود جار النبي » (ش) على ٢٥ ميلاً من الخرطوم ٠ والى شماليها على اربعة اميال منها « جبل أولي » المشهور ٠ والى جنوبيها على مثل ذلك « حلة المحمودية » احد مراكز الاستاذ محمد شريف ابن الشيخ الطيب استاذ المهدي

« والقُطينة » (ش) وهي بلدة حسنة الموقع قائمة على تلة مرتفعة على ٢٤ ميلاً من ود جار النبي وهي اكبر بلاد النيل الابيض وفيها مسجد ومرسى للسفن واتساع النيل عندها ٦٠٠ يردًا فقط

« وود شلعي » (ش) على ١٨ ميلاً من القطينة وهي مرسى جيد للسفن

« والدويم » (غ) على ٤٣ ميلاً من ود شلعي وفيها احسن مرسى للسفن ٠ ومنها الى الابيّض طريقان شهيرتان طريق تمر ببارة وهي معطشة طولها ١٧٦ ميلاً وطريق تمر بخور ابي حبل طولها ٢٦١ ميلاً وهي الطريق التي سلكها هكس باشا في حملتهِ على المهدي في كردوفان ٠ وقد كان فيها مدة الفتح الاول شونة كبيرة ٠ واكثر سكانها جعافرة ومصريون وحسانية

والى شماليها الترعة الخضراء ٠ والى غربيها على نحو ١٥ ميلاً منهل شات وهو مركز مهم لتجارة الصمغ والريش والجلود ٠ على ان شات والدويم تابعتان الآن في ادارتهما لكردوفان

﴿ مدن محافظة فاشودة وآثارها ﴾

« الكوّة » (غ) وهي حلة كبيرة على ٣١ ميلاً من الدويم وسكانها اخلاط من الحسانية والجعليين والدناقلة وفيها طابية من ايام الثورة المهدية ٠ والى جنوبيها على بضعة اميال منها تبتدئ جزيرة أبا المار ذكرها ٠ وجنوبي هذه الجزيرة على ١٧٥ ميلاً من الخرطوم « قوز ابو جمعه » وهي الآن مركز مأمورية في مديرية الجزيرة ٠ والى ١٤ ميلاً منها مخاضة ابي زيد وهي المخاضة الوحيدة التي يُعبر بها النيل الابيض خوضًا بالرجل في زمن التحاريق ٠ ومنها تبتدئ بلاد الشلك ويُرى قصب البابيروس

وتبدو الاعشاب الآتية من السدّ طافية على وجه الماء وتكثر الاجام والمستنقعات على ضفتي النيل فيصعب النزول الى البر بسببها

« والجبلين » (ش) على ٩١ ميلاً من الكوه . وهناك جبلان متجاوران يطلان على النيل شبه قلعة ومنهما اسمها . ومنها فصاعدًا يظهر ذباب السروت ويكثر البعوض حتى لا يكاد يطاق

« وحلة الرّنق » (ش) على نحو ٥٩ ميلاً من الجبلين و٣ اميال من ضفة النيل

« وجبل احمد اغا » (ش) وهو اكمة كسنام البعير على ٥٩ ميلاً من الرنق علوهُ ٤٠٠ قدم وهو منسوب الى احمد اغا العنتبلي من مشاهير الفتح الاول

«وكاكا» (غ) وهي مجموع من قرى الشلك على ٥٦ ميلاً من جبل احمد اغا

« وفاشوده » (غ) عاصمة ملك الشلك ومركز المديرية على ٧٣ ميلاً من كاكا و ٤٦٩ ميلاً من الخرطوم وفي عرض شمالي ٢٠ً ٥٥َ ٩° وطول شرقي ٦َ ٣٢° احتلتها مصر رسميًا سنة ١٨٧١ م فأقامت فيها طابية بأربعة ابراج وعززتها بالعساكر والمدافع وبقيت الى سنة ١٨٨٣ اذ اضطرت ان تخرج منها بسبب الثورة المهدية فعادت الى ملوكها الاصليين فاستقلوا على جزية يدفعونها للدراويش او لا يدفعونها . وسنة ١٨٩٨ جاءها مرشان عن طريق الكونغو وبحر الغزال فعقد مع ملكها محالفة وقتية وبنى فيها طابية حصينة فهاجمهُ الدراويش فيها فردّهم خاسرين وبقي حتى اقبل السردار بفصيلة من جيشه بعد فتح ام درمان فخرج منها بأمر دولته سنة ١٨٩٩

«والتوفيقية» (غ) قرب مصب نهر سُبت بالنيل الابيض على ١٦ ميلاً من فاشوده وهي نقطة عسكرية انشاها غوردون باشا لمقاومة تجار الرقيق

« وسُبَت » نقطة على ضفة نهر سُبَت الغربية عند مصبه في النيل الابيض

«والناصر» (ش) على ١٧٠ ميلاً من مصب نهر سبت وهي آخر نقطة تصل اليها السفن . وفي كل من النقط الثلاث الاخيرة نفر من البوليس لحفظ النظام ٠ ومن سُبَت فصاعدًا جنوبًا يبدأ السد فيمتد الى مفرق بحر الزراف عن بحر الجبل كما مرّ وليس هناك ما يستحق الذكر سوى بعض المرافئ التي ترسو فيها السفن لجمع الوقود

«وشامبي» على بحر الجبل وهي مرفأ حسن للسفن على ٢٣٠ ميلاً من بحيرة نو و ٨٤٢ ميلاً من الخرطوم * «وبور» على ١٣٠ ميلاً من شامبي * «والكنيسة» بينهما بناها المرسلون الكاثوليك النمساويون في اواسط القرن الماضي وهي الآن خراب

«ومنجالا» (ش) وهي آخر حد السودان الجديد الجنوبي كما مرّ وعلى نحو ١٠٥٧ ميلاً من الخرطوم * هذا ومن بلاد خط الاستواء التي كانت تابعة قبلاً للسودان المصري فألحقت بمقاطعتي اللادو واوغنده :

«اللادو» (غ) على ١٠٧٢ ميلاً من الخرطوم وهي مركز مقاطعة اللادو التابعة لملك البلجيك وقد كانت مركز حكومة خط الاستواء قبل الثورة المهدية

«وكوندوكرو» (ش) على ٩ اميال من اللادو اسسها السر صموبل باكر سنة ١٨٧١ وسماها بالاسماعيلية على اسم الخديوي الاسبق وجعلها عاصمة البلاد

«وجبل الرجّاف» (غ) على ١٠ اميال من كوندوكرو و ١٠٩١ ميلاً من الخرطوم . وفي سفحه مدينة كانت مركز حكومة خط الاستواء مدة الفتح الاول واتخذها الدراويش مركز حكومتهم مدة احتلالهم لتلك البلاد وبقوا الى ان طردهم البلجيك منها في ١٧ فبراير سنة ١٨٩٧ . قيل وقد سمي الجبل بالرجاف لان قمتهُ ترتجف احياناً ولعلّ سبب ارتجافهُ الزلازل التي تحدث في تلك الجهات ومنهُ يسمى النيل الذي يجري في خط الاستواء بحر الرجاف وبحر الجبل * ومن تلك البلاد : بادين وكيري وموجي واللابوريه . والدفّلاي وودلاي ومهاجي الواقعة على بحيرة البرت نيانزا وفي جميعها آثار طواب وغيرها من عهد الاحتلال المصري

مدن بحر الغزال وآثارها

«واو» على نحو ١١٤ ميلاً من مشرع الريك وهي عاصمة البلاد بعد الفتح الاخير

«وديم الزبير» أو ديم سليمان على نحو ١٠٠ ميل من واو وهي عاصمة البلاد في الفتح الاول وقد كانت مركز الزبير باشا في عهد استيلاءهُ على بحر الغزال ثم مركز ابنهُ سليمان من بعده ولذلك سميت باسمها . ومن اماكن بحر الغزال الشهيرة : لفيّ الذي فيه حفرة النحاس وبكّو وقَنْده وجور غطّاس وجوق الحسن وصبي وفوّه

مدن مديرية كسله وآثارها

« كَسَلَه » عاصمة المديرية وهي شرقي خور القاش في طول شرقي ٢٤َ ٣٦ْ وعرض شمالي ٢٨َ ١٥ْ وفي سفح جبال الحبشة الشمالية الداخلة الآن في الارثريا ومنها يمتد السهل شمالاً وغرباً الى مسافة بعيدة ولذلك فهي من أهم مراكز السودان الحربية. وقد احتلتها حكومة مصر سنة ١٨٤٠ م كما مرَّ واقامت فيها حامية قوية احاطتها بخندق وسور عظيمين فاجتمع اليها التجار والمتسببون من كل الجهات وزهت حتى صارت من اشهر مدن السودان واكبرها وبلغ عدد سكانها سنة ١٨٨٣ نحو ٢٠٠٠٠ نسمة من الجعليين والدناقلة والتكارنة وغيرهم وبينهم نفر من تجار الافرنج والشوام والمصريين والهنود والحجازيين . وفي سنة ١٨٨٥ سلمت للدراويش بعد حصار شديد فخربوها تخريباً وكان في شرقيها محلجة قطن بخارية لتاجر ارناؤطي يسمى عُمر أغا فاتخذوها « ديماً » لهم واقاموا فيهِ الى ان اخرجهم التليان منهُ واحتلوهُ بعدهم سنة ١٨٩٤ فسوَّروهُ وحصنوهُ بالطوابي وبقوا فيـهِ حتى سلموهُ لحكومة السودان سنة ١٨٩٧ فشرعت في تعمير المدينة داخل السور القديم فبنت فيهِ داراً للمديرية ومنازل للمدير والمفتشين واسبتالية ملكية. والبناء قائم هناك الان على قدم وساق داخل السور وخارجه وقد اجتمع اليها اهلها الاولون وغيرهم فبلغ عدد سكانها الان نحو ١٠٠٠٠ نسمة

والى الجنوب الشرقي من كسله جبل شهير منسوب اليها يعلو ٢٣٠٠ قدماً عنها و ٣٩٦٠ قدماً عن سطح البحر. وفي سفحه « حلة الختمية » وهي حلة السيد حسن المرغني كبير الطريقة المرغنية في السودان وقد مات ودفن فيها سنة ١٢٨٦ هـ فبني فوق قبره قبة هدمها الدراويش. وبعد الفتح الاخير شرع في ترميمها حفيده السيدعلي المرغني كبير المرغنية في السودان الآن وبنى لنفسه منزلاً في كسله ومنزلاً في الخرطوم

ولكسله عدة طرق شهيرة منها : طريق تجارية الى مصوع تمرُّ بسبدرات واغوردت وسنهيت طولها ٢٣٧ ميلاً وهي طريق سهلة متوفر فيها الماء . وطريق الى سواكن تمرّ بفلّك وخور بركة وطوكر طولها ٢٧٤ ميلاً . وطريق الى بربر تمرّ

بقوز رجب وأدَرْأمه طولها ٢٧٢ ميلاً . وطريق الى الخرطوم تمر بقوز رجب وآبار زيره وابو دُليق وود حسونة طولها ٣٨٠ ميلاً

« والقضارف » وتطلق على القسم الشمالي من البلاد التي بين الرَّهد والاتبرا وهي مشهورة بالخصب وجودة الحاصلات كما مرّ ومركزها « سوق ابي سن » على نحو ١٤٦ ميلاً من ابي حراز و ١٤٢ من كسله و ٩٤ ميلاً من القلابات وتعرف ايضاً بالقضارف اي باسم البلاد كلها وفيها سوق من اشهر اسواق السودان تأوي اليها التجار من اهل السودان ومصر والحجاز والهند والحبشة واوربا ويباع فيها جميع اصناف الحبوب والماشية والصمغ والريش. وابو سن المنسبة اليهِ السوق هو كبير الشكرية في اوائل القرن الماضي . وقد كانت القضارف في الفتح الاول تابعة للخرطوم فاستولى عليها الدراويش في بدء الثورة المهدية فكانت من اهم مراكزهم في السودان الشرقي وبقوا الى ان اخرجهم الجيش منها عنوة سنة ١٨٩٨ ومن مراكز القضارف الشهيرة القلعة ارانج على ٤٠ ميلاً الى الشمال الغربي من سوق ابي سن . وحلة الشيخ شريف قرب النيل الازرق

« والقلابات » وهي القسم الجنوبي من البلاد التي بين الرهد والاتبرا ومركزها « المتمة » المعروفة ايضاً بالقلابات وهي قائمة على خور ابي نخيرة في سفح جبال الحبشة الشمالية الشرقية ولذلك فهي بوغاز مهم على حدود الحبشة . واول من سكن هذه البلاد الكنجارة وهم العبيد الآبقون من اسيادهم . ثم سكنها التكارنة ومعظمهم من متخلفيّ حجاج الغرب وقد تكاثروا فيها حتى بلغوا ٤٥٠٠٠ نسمة . واحتلت مصر القلابات رسميًّا سنة ١٨٦٢ثم اضطرت الى اخلاءها سنة ١٨٨٥ بسبب الثورة المهدية فسقطت بيد الدراويش فأقاموا فيها حامية كبيرة وكان بينهم وبين الاحباش وقائع مشهورة قتل في احداها النجاشي يوحنا سنة ١٨٨٩ وظلت بيد الدراويش الى ان ان استرجعتها مصر بعد فتح ام درمان سنة ١٨٩٨. وفيها الآن كما كان قبل الفتح سوق شهيرة تفتح يومي الثلثاء والاربعاء وتعرض فيها جميع بضائع السودان والحبشة ٭ ومن اماكن القلابات المشهورة : قَدَبي وَصرَف عرديبه ومريود ودوكه وزُرْقه

مدن محافظة سواكن وآثارها

« سواكن » عاصمة المحافظة وهي واقعة على البحر الاحمر في عرض شمالي ٧َ ١٩ْ وطول شرقي ٢٠َ ٣٧ْ وعلى نحو ٧٢٠ ميلاً من السويس و ٢٨٥ ميلاً من مصوع و ٢٠٠ ميلاً من جدَّة ببر الحجاز ٭ وهي عبارة عن جزيرة محيطها ميل ونصف ميل و بندر امامها يقال لهُ القيف بينهما في البحر مسافة ٤٠ مترًا كان الناس يجتازونها بالزوارق حتى جاء غوردون باشا سنة ١٨٧٩ فوصل بينهما بجسر (كوبري) عرضهُ نحو ٨ امتار و بنى عند طرفهِ مما يلي الجزيرة قنطرة حسنة ٭ وابنية المدينة من الحجر المرجاني الكلسي المستخرج من قعر البحر وهي مبنية على الاسلوب الشرقي المشهور برُ تج وشُرَف خشبية واكثرها ذو طبقتين أو ثلاث بخلاف الابنية في داخلية السودان كما سيجيءُ ٭ وفي الجزيرة دار للمحافظة وجمرك ومحكمة شرعية ومكتب للتلغراف وجامعان ٭ وفي القيف جامعان آخران ومدرسة اميرية وسجن ومحل للضابطة وافران كافران مصر ٭ وهي محاطة بسور منيع معزَّز بالطوابي من عهد الثورة المهدية ٭ وميناؤها امين للسفن لكنهُ ضيق قليل الغور وستشرع حكومة السودان قريباً في توسيعه ٭ وفي مياه هذا الميناء مواد فصفورية وفيهِ انواع من السمك تفهة الطعم ومنها نوع يقال لهُ الإرش يصطادون صغيرهُ واما كبيرهُ فيصطادهم ٭ وهواء سواكن حار في الصيف ورطب في الشتاء وظُهرها قبل ظهر مصر بعشرين دقيقة ٭ ويطل عليها من بعيد جبال سنكات واركويت التي تعلو ٤٠٠٠ قدم عن سطح البحر ٭ وليس في سواكن نبع ولا نهر وانما يشرب اهلها ماء المطر ٭ وقد كانوا قديماً يخزنونهُ في صهريج كبير في مكان جنوبي القيف يعرف بالفوله فبنى لهم ممتاز باشا سدًّا من التراب على ميل من القيف لحبس مياه الامطار من الجبال المطلة على سواكن فاستغنوا بهِ عن الفوله وعُرف مكان السدّ بالشاطه ٭ ولما كثرت العساكر في سواكن مدة الثورة المهدية لم تعد مياه الشاطه تكفيهم فأتت حكومتها بآلة بخارية لتقطير مياه البحر تعرف بالكندنسة وجعلت توزع منها الماء على الجيش والاهالي حتى انتهت الثورة المهدية وبرح الجيش سواكن فابطلتها واقتصر الاهالي على الاستقاء من الشاطه ٭ وكانت

الكندنسة موضوعة في شبه جزيرة شمالي سواكن تعرف بجزيرة الشيخ عبد الله وهو من اولياء سواكن المدفونين فيها ولهُ قبة تزار. وفي هذه الجزيرة مستشفى يديره من عهد طويل الحاذق النشيط الدكتور يوسف بك شدياق ٥ والى شماليها مقام شهير للشيخ برغوت اعتاد البحارة كلما مرُّوا بمقامهِ ان يلقوا دلوًا من مائهم في البحر «سلامًا» لهُ واذا لم يفعلوا ذلك تشاءموا من سفر البحر

وسواكن مدينة تجارية قديمة العهد فهي تربط السوادن بالحجاز والهند ومصر ويربطها بالسودان طريق بربر المار ذكرها . وعما قليل تشرع الحكومة في مدّ خط حديدي منها الى بربر فتنمو بذلك تجارتها نموًّا عظيماً . وفيها الآن سوق تجارية كبيرة تباع فيها جميع بضائع السودان ومصر والحجاز والهند واوربا . ومما يزيدها اهمية انها في طريق الحجاج المسلمين من جميع بلاد السودان الى مكة وقد شرعت الحكومة حديثًا في بناء محجر صحي فيها ليلجأ اليهِ الحجاج السودانيون اذا دهمهم الوباء بدل ذهابهم الى محجر الطور المنحرف جدًّا عن طريقهم كما هي الحال الآن

ولاهل سواكن خرافة في اصل تأسيسها قالوا : كان لبعض ملوك الحبشة الاقدمين مودّة واتصال باحد قياصرة الرومان فأرسل اليهِ سبعاً من الابكار الحسان هدية فأقلعنَ في زورق وجئنَ الى سواكن وكان فيها سبعة من الجن فتصدوا لهنَّ ومنعوهنَّ عن السفر ثم تزوجوا بهنَّ واولدوهنَّ اولادًا عمرت بهم المدينة فسميت سبع جن ثم حُرفت الى سواجن ثم الى سواكن . وفي الواقع لا يعلم زمن تأسيسها ولكن التاريخ يدلنا انها كانت مركزًا تجاريًّا مهمًّا منذ عهد البطالسة على مصر وان بطليموس فيلادلفوس جعلها مخزنًا لسن الفيل . وقد ذكرها ابو الحسن المسعودي في تاريخه قال «وجزيرة سواكن اقل من ميل في ميل وبينها وبين البر الحبشي بحر قصير يخاض واهلها طائفة من البجة تسمى الخاسة وهم مسلمون ولهم بها ملك»

وافتتح السلطان سليم العثماني سواكن سنة ١٥٢٠م فظلت تابعة للدولة العلية يتولاها حكام من قبل والي الحجاز الى ان تنازل الباب العالي عنها لمصر سنة ١٨٦٦ كما مرَّ وفي اثناء الثورة المهدية خرج رجل من اهلها يسمى عثمان دقنه وانضم الى المهدي

فكان نصيرهُ في السودان الشرقي وكان لهُ مع الجيوش المصرية والانكليزية من الشان ما سنذكرهُ بالتفصيل ان شاء الله

اما سكان سواكن فيلغون الآن نحو ٥٠٠٠ نسمة الربع من اهل البلاد الاصليين والباقون من الاجانب . والسكان الاصليون اخلاط من البجة الخاسة والارتيقة والاشراف واقوامهم الارتيقة وقد كانوا الى عهد غير بعيد امراء المدينة واسيادها ولا تضرب النقارة (الطبل) لفرح أو لاحتفال الاَّ بأمرهم وكبيرهم الآن الشيخ محمود بك ارتيقة وهو من خيار الرجال . وكلهم يتكلمون البيجاوية في منازلهم ومجالسهم الخاصة ولكنهم في المجالس العامة يتكلمون العربية * واما الاجانب فاكثرهم من الاتراك الذين تخلفوا فيها بعد الفتح العثماني ثم من المصريين والهنود والحجازيين الذين دخلوا البلاد بقصد الاتجار . والهنود فريقان مسلمون ووثنيون وهؤلاء من طائفة مشهورة في الهند يقال لها البنيان ولهم اعتقادات وثنية حسنة منها انهم يحرّمون اكل اللحوم وقتل اية نفس حية فاذا رأوا احدًا يذبح طائرًا اسرعوا اليهِ وبذلوا الجهد في تخليصه ولو بفدية باهظة . وهم يلبسون مئزرًا يشدونهُ حول احقائهم وهو كل ما يلبسونهُ رجالاً ونساء ونساءهم يتزيّنَّ بالاساور والخلاخل الضخمة والاقراط من الذهب والفضة * ومن اماكن سواكن الشهيرة على البحر الاحمر :

« نطقة حلايب » عند حد السودان الشمالي على البحر الاحمر

« ونقطة محمد قول » على نحو ١٣٠ ميلاً شمالي سواكن . وبقربها ملاحة شهيرة تعرف بملاحة رواية ويظن انها في مكان عيذاب المشهورة في تواريخ العرب

« ومأمورية عقيق » على نحو ٨٥ ميلاً من سواكن وهي تمتد جنوبًا الى رأس قصَّار الفاصل بين سواكن ومصوع واكثر اهلها من الخاسة التابعين لبني عامر . والغرض من هذه النقط ضم كلمة البادية ومنع تهريب الرقيق من داخلية البلاد الى الحجاز

« ومأمورية طوكر » ومركزها طوكر على ٥٦ ميلاً الى الجنوب من سواكن وميناؤها الترنكتات بين سواكن وعقيق . وقد بنت الحكومة قديمًا في طوكر دارًا للمأمورية بطبقتين فسقطت بيد الدراويش سنة ١٨٨٤ فهدموها الى الارض وعمروا

ديماً على ٧ اميال جنوبيها عرف بديم عفافيت ثم استرجعتها الحكومة بعد واقعة شديدة في ١٩ فبراير سنة ١٨٩١ واحتلت عفافيت فسمتها طوكر وبنت فيها طابية حصينة

وبين طوكر وترنكتات « آبار التيب » التي اشتهرت في الثورة السودانية لما حصل فيها من المعارك الشديدة بين الدراويش والجيوش المصرية والانكليزية

والى غربي سواكن على ٤٠ ميلاً منها بلاد سنكات وقدكانت في الفتح الاول مركز مأمورية وكان فيها حديقة زاهية واما الآن فقد هجرت وانصرفت العناية الى تعمير جبال اركويت التي جُعلت مصيفاً لمركز المحافظة العام

﴿ محافظة مصوَّع ﴾ واما محافظة مصوَّع التي كانت قبلاً تابعة للسودان واصبحت الآن بيد التليان فقد امتدت على البحر الاحمر من رأس قصار حيث تنتهي محافظة سواكن الى حلة رهيطة عند بوغاز باب المندب وامتدت غرباً في البرّ الى سنهيت. وقد سميت الآن « بالارثريا » وامتدت غرباً الى سبدرات قرب كسله. ومركزها مصوع في عرض شمالي ٣٧َ ١٥° وطول شرقي ٢٧َ ٣٩° وهي جزيرة في البحر طولها نحو ميل وعرضها زهاء ٤٠٠ يرد. وبينها وبين البرّ جزيرة صغيرة تعرف بطالوت كان الناس يعبرون منها الى البرّ بالزوارق الى سنة ١٢٩٠هـ فشيد لهم مونسنجر باشا جسراً ضيقاً من خشب اقامهُ على عمد من حجر جاعلاً طالوت وصلة فيهِ

وقرب مصوع « جزائر دَهلك » التي يستخرج منها اللؤلؤ والصدف والظفر وفيها آثار قديمة عليها كتابة قيل انها من عهد الفرس . وتجاه مصوع في البرّ ثلاث قرى صغيرة حرقيقو وحُطملو وام كُلو وهي لها كالقيف لسواكن . ومنها طريق تجارية الى عدوه في الحبشة وطريق الى كسله في السودان وقد مرّ ذكرها . والى جنوبيها مينازولا المشهور قديماً باسم أدولس وفيهِ آثار من عهد البطالسة . ويقال في هواء مصوع ومياهها وابنيتها وميناٰئها وتجارتها ما قيل في سواكن. وقد اقام التليان فيها ابنية فاخرة فزهت حتى صارت من افخر مدن البحر الاحمر

﴿ محافظة هرر ﴾ واما محافظة هرر التي انسلخت ايضاً عن السودان فآلت عاصمتها هرر الى الاحباش وفرضتاها زيلع وبربره الى الانكليز فسيأتي الكلام عليها في تاريخ الحبشة

مدن مديرية كردوفان واثارها

« الأَبيّض » عاصمة المديرية ومن اشهر مدن السودان التجارية واقدمها وهي واقعة في سهل فسيح على ٢٩٢ ميلاً من الخرطوم و ٤٤٦ ميلاً من الفاشر وعلو ١٩٢٠ قدماً عن سطح البحر . وقد كانت زاهية في عهد سلطنة الفور فزادت بعد الفتح المصري زهاء و بنت الحكومة فيها داراً للمديرية وثكنة للعساكر وشونة ومستشفى وكان فيها جامع ومدرسة ابتدائية وسوق تجارية شهيرة تباع فيها جميع اصناف البضائع التي تباع في السودان . وقد بلغ عدد سكانها قبل الثورة نحو ٥٠٠٠٠ نسمة بينهم كثير من تجار الجعليين والدناقلة والبعض من تجار الشام ومصر والحجاز والهند واوربا . وسقطت يد المهدي في ١٩ يناير سنة ١٨٨٣ بعد حصار طويل فخرّبها وبنى « ديمًا » بجانبها وبقيت الى ان عادت الحكومة اليها بعد واقعة أم درمان فشرعت في تجديد بنائها وستعود الى سابق عزّها عن قريب ان شاء الله

« وباره » على ٤٠ ميلاً الى الشمال من الابيّض وهي بلدة حسنة البناء جيدة التربة غزيرة المياه وفيها نبع ماء لا ينقطع يسمى العاديك يخرج منهُ العلَق . وكان فيها حدائق غناء تضاهي حدائق مصر زاهية بانواع الفاكهة . وقد سقطت يد المهدي قبل الابيض بقليل وعادت الحكومة اليها عند عودها الى الابيض وهي الآن تتدرج في النماء كغيرها من مدن السودان

« والطيّاره » على ٣٥ ميلاً الى الشرق من الابيّض وهي من اهم المراكز التي يجمع فيها الصمغ ولها سوق عظيمة يباع فيها الصمغ والدخن . واكثر اهلها جوامعة

« وابو حراز » على ٣٠ ميلاً الى الجنوب الغربي من الابيض وهي بلدة متسعة قائمة على خور عظيم تحفر فيهِ الابار في زمن الصيف . وفي فلواتها كثير من النعام

« وخورسي » الى الشمال الغربي من الابيّض مسيرة يوم منها وفي بعض جهاتها فلاة يقال لها العطاش ينقطع منها الماء في الصيف ولكن يكثر البطيخ فمن مائه يشربون ويسقون غنمهم فتراهم في تلك المدة هزلى ضعافاً كأنهم قريبو عهد بمرض ولكنهم انما يقيمون على هذا الضيق ابتغاء جمع الهشاب الذي يكثر هناك عند انحباس المطر

« والسنوط » وهي حلة صغيرة في طريق الطويشه من اعمال دارفور اتخذتها حكومة السودان مركزًا لمأمورية في اقصى غرب الابيض

﴿جبال النوبة﴾ هي عدة جبال الى جنوبي كردوفان قيل ان عددها ٩٩ جبلاً وهي تمتد جنوبًا وشرقًا الى النيل الابيض وغربًا الى دارفور وفي كثير منها ينابيع واشجار يتخللها سهول خصيبة تقوم فيها الغابات من اشجار السنط والعرديب والتبلدي وغيرها. وسكانها قبائل شتى من النوبة وفي الصيف يرتاد سهولها كثير من بادية العرب كما مرّ وعلى كل جبل أو مجموع جبال منها ملك. ومن هذه الجبال ما دخل في طاعة مصر في الفتح الاول ومنها ما لم يدخل واشهر الجبال التي دخلت في الطاعة :

« جبل الداير » أو جبل الضباب وهو جبل حصين شامخ كثير الاشجار والينابيع مسيرة يومين من الابيض. وقد عصى المهدي وكانت بينهُ وبين رجالهِ وقائع مشهورة

« وجبل كدارو » الى الجنوب الغربي من الدائر وعلى مسيرة يوم منه وقد اتخذتهُ الحكومة الجديدة مركزًا لمأمورية جبال النوبة

« وجبل الدلن » وهو جبل صغير مسيرة ثلاثة ايام من الابيض اشتهر في الفتح الاول وكان فيهِ للرسالة النمساوية الكاثوليكية مدرسة علمية صناعية بادارة الورع النبيل الاب اوهرولدر المشهور الذي وقع في اسر المهدي كما سيجيء

« وجبال تَقَلي » وهي مجموع جبال منيعة يحكمها عائلة تدعي النسبة الى ملوك الفونج ومن ملوكها الملك ناصر الذي اشتهر في الفتح الاول وكان مركزهُ جبل طاسين. والملك آدم ود ام دباله الذي اشتهر في زمن المهدية وكان مركزهُ جبل كرايه. ومن تلك الجبال جبل الدُّوري وهو مركز قبيلة الشّمام

« وجبل قدير » على نحو ١٦٠ ميلاً من الابيض و ٨٠ ميلاً من فاشوده وهو الجبل الذي هاجر اليهِ محمد احمد المتمهدي من جزيرة أبا عند اول ظهورهُ بالمهدية. قيل وبلصقهُ جبل صغير يسمى جبل ماسه ولعلّ محمد احمد اطلق عليهِ هذا الاسم ليتم لهُ ما قيل في بعض الاحاديث من ان المهدي يخرج من جبل ماسه بالغرب

وقد اختلف المحققون في اصل تسمية تلك الجبال بجبال النوبة فمن قائل انهُ

اسمها القديم وان النوبة الذين يسكنونها هم اصل للنوبة الذين على نيل دنقلة بدليل ما وجدوهُ من التشابه بين لغة القومين وعدم اشتقاق لغة النوبة الذين على النيل من لغات الساميين الذين هاجروا الى افريقية من اسياء. ومن قائل انها سميت كذلك لان النوبة الذين على النيـل ملكوها وادخلوا اليها لغتهم كما جرى لاهل النوبة العليا مع المسلمين . ورأى البعض الآخر انها سميت باسم النوبة الذين فرُّوا اليها من دنقلا وسوبه بعد خرابهما كما مر . وقد حدثني تاجر من الاقباط الذين كانوا يترددون الى جبال النوبة قال ان اهل تلك الجبال اذا ولد لهم ولد وكان عمرهُ اربعين يوماً اخذتهُ أمه الى الكجور وهو رئيس ديانتهم وسألتهُ ان يخرج منهُ الارواح النجسة فيغطسهُ بالماء ويدفعهُ الى امه قال وذلك من التقاليد المحفوظة عن النصرانية والله اعلم

مدن دارفور وآثارها

«الفاشر» بلدة متسعة قائمة على تلين عظيمين يعلوان ٢٣٥٠ قدماً عن سطح البحر ويخترقها خور تندلتي المار ذكرهُ . اسسها السلطان عبد الرحمن الذي تولى دارفور سنة ١٢٠١ : ١٢١٥ هـ وجعلها عاصمة ملكه فصارت كرسي سلطنة الفور الى اليوم . وقد دخلت في حوزة الحكومة المصرية عن يد الزبير سنة ١٢٩١ هـ فبنت فيها داراً للمديرية واستحكاماً منيعاً للعساكر ثم سقطت بيد الدراويش سنة ١٨٨٤م وبقيت الى ان كانت واقعة ام درمان سنة ١٨٩٨ فرجع اليها من الواقعة الامير علي دينار من سلالة سلاطين الفور فتولاها على جزية يدفعها لحكومة السودان

«وجبل مرَّة» في وسط دارفور وهو جبل مرتفع حصين طولهُ من الشمال الى الجنوب نحو ١٠٠ ميل وعرضهُ من الشرق الى الغرب نحو ٦٠ ميلاً وارتفاع أعلى قممهُ نحو ١٥٠٠ قدم عن الارض المجاورة لهُ ونحو ٦٠٠٠ قدم عن سطح البحر وهو وافر الخصب والينابيع وفيهِ كثير من اشجار الفاكهة والحبوب مما ليس في غيره من اعمال دارفور . ومن اشهر قممهِ «جبل طرَّه» الذي كان مركز سلاطين الفور قبل انتقالهم الى الفاشر وفيهِ مدفن السلاطين الخاص وجامع كبير قديم

ومن جبال دارفور الشهيرة الميدوب وتقابو وحُريز المار ذكرها . ومن مدنها :

« داره » وقد كانت مركز دار الصعيد وهي ثانية الفاشر في الاهمية وفيها استحكام منيع من عهد الفتح الاول . وقد اضطرت ان تسلم الى المهدويين سنة ١٨٨٤ بعد كفاح شديد وحرب عوان اثارها عليهم الشهم الهمام السر رودلف سلاطين باشا حكمدار دارفور في ذلك الحين والمفتش العام للسودان الآن

« وكوبى » وهي اشهر مراكزها التجارية ومنها تقوم القوافل في طريق الاربعين الى مصر . وهي موطن محمد امام الخبير سر تجار دارفور سابقاً وعلي بك الخبير المشهور

« ومنواشي » وهي بعد كوبى في اهميتها التجارية وقد اشتهرت للواقعة التي كانت بين الزبير باشا والسلطان ابرهيم آخر سلاطين الفور فانجلت عن قتل السلطان ابرهيم ودخول سلطنة الفور في حوزة الحكومة المصرية

« وام شنقة » وهي في طريق القوافل الآتية من كردوفان ودنقلة

« والطويشة » وهي في ملتقى الطرق بين شكا والفاشر وداره والابيض

« وشكا » وقد كانت قبلاً من اهم مراكز تجارة الرقيق

« وتولو » وهي مركز تجارة البرياب « وكريو » وقد كانت قديماً مركز دار الصباح

« ومليط » وقد كانت قديماً مركز دار الريح « الشمال » وفيها نخيل كثير

« وكُلكل » وقد كانت مركز ادارة في الفتح الاول « وكبكيه » بينها و بين الفاشر وقد كانت مركز الادارة قبلها « وأب بشر » من مراكز المسيرية

« وودعه وبلبل وكتُم والدور وفافا والكلكة » وقد مر ذكرها

« وجمعان » من مراكز البديرية « وراس الفيل وشعيرية » بين داره والفاشر

هذا ولا بدَّ من تنبيه القارئ الكريم الى ان المسافات التي اتينا عليها في هذا الفصل والفصول التي تقدمته اكثرها تقريبية لا يمكن القطع بصحتها الآن اذ البلاد لم تمسح كلها مسحاً علمياً صحيحاً بعد وربما استغرق مسحها هذا عدة سنين نظراً لاتساعها ووعورة مسالكها وطول مفازاتها وقد تولى هذا العمل الخطير الآن الشريف الكولونل تلبوت من مهندسي الانكليز العظام وعلمائهم الاجلا . فشرع في عمل خريطة عامة صحيحة للبلاد وهو باذل الجهد في انجازها بأقرب وقت ممكن وفقهُ الله

الباب الثالث

في

﴿ حضارة السودان ﴾

الفصل الاول

في

﴿ لغات اهل السودان ﴾

﴿ اللغة العربية ﴾ يعلم القارئ مما تقدم ان في السودان لغات شتى اشهرها العربية وهي اللغة الغالبة وليس في السودان لغة تكتب غيرها وهم يتكلمونها بلهجة حسنة تختلف قليلاً عن لهجتي مصر والشام ولكنهم يلفظون احرفهم كأهل الشام فيلفظون الجيم خفيفة والذال زاياً والثاء تاء او سيناً الا القاف فانهم يلفظونها كالجيم المصرية. ثم ان لكل قبيلة من العرب لهجة خاصة افصحها لهجات الحضر على النيل فلهجات البادية في جنوبي السودان الشرقي فلهجات البقارة في جنوبي السودان الغربي

ولعرب السودان الفاظ كثيرة غير مألوفة عند اهل مصر والشام وبعضها مأخوذ عن الاعاجم المجاورين لهم كالنوبة والبجة والسود وشبه السود والحبشة ففي «اسماء الجهات» يسمون الشمال بالسافل او الرّيح والجنوب بالصعيد والشرق بالصباح أو الشرق ٠ واما اسماء «الشهور القمرية» فهي عندهم هكذا على الترتيب: الضحية العقابية ٠ الوحيد ٠ الكرامة الاولانية ٠ الكرامة الثانية ٠ الكرامة الثالثة ٠ سابق الكرامات ٠ رجب ٠ قُصيّر ٠ رمضان ٠ الفطر الاول ٠ الفطر الثاني ٠ الضحية الاولانية ٠ وهذه بعض الالفاظ الكثيرة الدوران في السنتهم :

العربي السوداني	العربي الفصيح	العربي السوداني	العربي الفصيح
اسمك منو	ما اسمك	سمح بالحيل	طيب جداً
ارجاني	انتظرني	شال المكان	ذهب اليه
الأضينه	الجبان	الصريف	مكان مسور بالحوص
البقعه	العاصمة	الطرايل	الاهرام
البكا	المأتم	العتمور . المفازه ه	العدّ ـ البئر
بري	حاشا	العوين	الاولاد
البوغاز	الثغر	العنكريب	السرير
التُكل	الكوخ	العرضه . الطرّ	الاستعراض
تدورشنو	ماذا تريد	القلعة	الهضبة
الجلاّبة	التجار . القافلة	الكفريّات	العاديات
جت براها	جاءت من نفسها	الكاره	الشكنة
جنّب ساكت	استرح	كعب	بطال
الجنى	الولد	كورك	رفع صوته
الحلة	القرية	كيفنّك	كيف انت
الحوش	المكان المسور بحجر وطين	الملقة	مسيرة ساعة
الحبوبة	الجدّة	المشرع	المرفأ
حبابك عشره	مرحبا بك	متين عرّست	متى تزوجت
الدبّة	التلة	ما بخبر	لا اعلم
الديم	المعسكر	نضّم	تكلم
الزول	الرجل	هسّع	هذه الساعة
الزريبة	المكان المسوّر بشوك	الموي	شبه جزيرة
السرَف	نبع ماء جارٍ	هوي . اداة نداء ه	ود ـ ابن
سوط المطر	قوس القزح	الوطا	الارض

ومما يحسن ذكرهُ مثالاً للغة العامية السودانية كتاب ارسلهُ عبد الله التعايشي الى الامير عبد الرؤوف من امراء الجانقي بتاريخ ٣ ذي العقدة سنة ١٣٠٤ ﻫ يدعوهُ فيهِ الى ام درمان وهذه صورتهُ :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآلهِ مع التسليم . وبعد فمن عبد ربهِ خليفة المهدي عليهِ السلام الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق الى الامير عبد الرؤوف ولد يوق هداهُ الله آمين بعد السلام عليك كان انت حضرت عند المهدي وعندنا في الرهد بقيت سمح بالحيل . بعدين كتبنا الورقه اليك تمشى تجيب جانقي ووليداتك وتجي قوَّام لي بكان المهدي السمح وتمشي في الجنة بكان الهدوم السمحات والحرير والراحة والاكل السمح الحلو . انا بسأل منك كثير انت ما جبت الكلام الليلك واما سمح اسمع الكلام الليل الورقه دي احضر قوَّام مع اهلك ووليداتك ونسوانك ما تقعد في دارجانقي القعاد بطال كثير . الكلام الليل العرب ما تسمعهُ بلباصين يسووك اراج ما تقعد في الدار انت طيب . الكلام الليل محمد الهاشمي أسمعهُ أحضر قوَّام ما تقعد تبقوا من اهل النار بكان ابليس والشيطان والكفار . النار حارّه بالحيل التعب فيها كثير الجنزير كثير القيد كثير الجوع والعطش كثير . ان حضرت عندنا بعدين وكت تموت تمشي بكان النبي بكان المهدي أخيرليك تجي ما تقعد في الدار القعاد وكعب . اسمع كلامي تعال قوَّام قوَّام . تحشية جانقي ان كان جيتوا سمعتوا الكلام الّيلنا تمشوا الجنة بكان الخير الكثير واللباس كثير والنسوان السمحات كثار أخير من نسوانكم ديل هدومهنَّ سمحات الاكل كثير العسل كثير اللبن كثير العطش ما فيش الجوع ما فيش الورْده ما فيش الموت ما فيش البيوت كبار سمحات أحضروا قوَّام قوَّام أخير لكم »

ومن ذلك ما كتبهُ التعايشي للملك الجبوري احد ملوك النوبة يحثهُ على الجهاد « الزول اكَّان شاف الشغل الـ في الآخرة يوم واحد ما يخلي الجهاد في شان الله والرسول والمهدي . الزول اكَّان جنَّب في البيت ساكت يموت ساكت مثل موت العوين . واما اكَّان مات في الجهاد الله يرضى عليه والرسول والمهدي ويلقى الخير الكثير »

﴿ الامثال ﴾ وعند عرب السودان امثال حسنة اكثرها مرادف لامثال مصر والشام منها :

الابره ما بتشيل خيطين والقلب ما يسع اثنين
احترام النسب عند اللئام اربعين سنه وعند الكرام الى يوم القيامه
الاخ واحد من اليدين
اخذ الثار ينفي العار
اربط اصبعك صحيح لا يدمي ولا يقيح
ارقد دافي تقوم متعافي
الاصبع الواحد ما يغطي الوجه
اصل الجود جهينه واصل الملك سنّار واصل العزّ جعَل
اعمل معروف وادّيه البحر
اللي تقوم ذقنه قبل شواربه شاور المره ولا تشاوره
اللي عنده الدقيق ما يعدم النار
اللي ما فيها شَقّ ما بتقول طَقّ
اللي ما يبلع ريق على ريق ما يمسك رفيق
اللي ما يجيب ثاره الحمار خاله
اللي ما يستحمل الشرّ ما يستحمل الخير
اللي وراه المشي اخير له الجري
امسك في الكذب لما يوصلك الصحّ
ان شاء الله ما يجينا من الريف الاّ القماش
ان كثرت عليك الهموم ارقد نُوم
ان لقيت راجل رخيص اشتريه يمكن بعدين ما تلقاه
ايد الميري طويلة
بيت الشوُره ما خرب
بيت عِمال ولا بيت مال
البيت يشيل مئة راجل ما يشيل امرأتين
بركة الكلام في قلته
بعد امك وابوك الاهل جيران
البلد ما يقتلها الاّ ولدها
تاجران لا يربحان تاجر الهف (الحنطة) وتاجر الكف (الرقيق)
تربي هزيل الجمال ينفعك تربي هزيل الرجال يقلعك
تزوجوا فقرا يغنيكم الله وسافروا مرضى يشفيكم الله
الحتّه العفنه في اللحم تعفّنه كله
الحسنات في الرجال قَرض
الحق مرّه الحمار شكروه رقد
خصام الرجل الدّكر ولا صحبة الرجل الاضينه
الخيل ظهورها عزّ وبطونها كنز
الدّين ولو درهمين يسوّد الخدّين

رفيق اثنين كذاب وركاَّب سرجين وقاَّع
وماسك در بين دهَّاب
القمر ان ضوَّى لا فايده في النجوم
كثرة الطلَّه ترخص اعزّ خلق الله
زي الحمار اللي مات في السمسم ان تركوهُ
عفّن وان جرّوه كسر
كل وسط ونم طرف
الكاب لما يسعر اول ما يعضّ اهل بيته
شراب الماء على الريق يقصر العمر الوثيق
الماء ما بتروب والفاجره ما بتتوب
السوق شاكره رابحه
ماية صاحب ولا عدو واحد
صاحبك ان اباك قلّل عليهِ الحوم · وباطنك
ان وجعك كثّر عليهِ الصوم
مثيلك من الريف ياتي لك
المجنون يضحك على طبيبه
ضاعت قوم لا سفيه فيها
المره مكسوره جناح
الطبع جبل لا يتحوّل
المرض ما يقتل يقتل الاجل
الطول فاقه والقصر عاقه
مر عفيين قتلوا الاسد
ظلم البهايم حرام
المريض يكره دواه
العثره تسمّح المشي
من جرّب المجرَّب حاطت بهِ الندامه
الغايب ورا شجره · الغرض مرض
لمن خلص دَينهُ نامت عينهُ
عصاية العزّ لا تضرب بها تنكسر
ناسب احسن منك وعاشر احسن منك
الغنى في القناعة والحرب صبر ساعة
الميته ولا شماتة الاعدا
الفاس ما بتقطع عودها
وجوه الرجال خناجر
فكّة الريق اخير من راس رقيق
لاقيني ولا تغديني
فنجان قهوه يقضّي الشهوه
يا حافر حفرة السوء وسّع مراقدها
القلب يرى قبل العين
يد الحرّ ميزان

ومن اقوالهم «اطلب الشيء بثلاثة: باللين فاذا لم تظفر بهِ فبالمال · فاذا لم تفلح فبالحرب · فاذا لم تستطع الحرب وعدمت المال فعد الى اللين فانهُ ميسور لكل انسان · فاذا لم تنجح فدع ما انت طالبه»

ومن اراد المزيد من امثالهم فعليهِ بكتابنا «امثال العوام في مصر والسودان والشام»

﴿ الاحاجي والالغاز ﴾ هذا وفي كلامهم من الاحاجي والالغاز ما في كلام اهل مصر والشام منها :

ازرق كحيل راكب على ثلاثة خيل	ج	القِدر (موضوعة على ثلاث اثافي)
ترَن ترَن عند البحر حرَن	ج	الحذآء (فانهُ يُخلع قبل الخوض في الماء)
دخل في القشّ ما قال كشّ	ج	الظل
سوط الملك وقع مين يشيله	ج	الثعبان
ضله في بطنه	ج	الحفرة
ظريف وطفَيلي	ج	ظل الانسان
عنيزته ماسكها من دنيبها وهي ترعى	ج	الموسى
في البلاد خضراء وفي البيت حمراء	ج	البطيخ
فيلاً ميّت في الخلا ميّت	ج	البيت
مطمورة ابو زيد ملانه بيض	ج	الفم والاسنان
ممسحه بلا مسوح وتمشي بلا روح	ج	السفينه
هو بارِك وفي السماء يعارك	ج	المدخنه

﴿ الشعر والغناء ﴾ اما الشعر عندهم فهو «كالمعنّى» عند اهل لبنان «والزجل» عند اهل مصر الّا انهُ دونهما فصاحة ولا ينظمونهُ الا للغناء . والغناء عندهم انواع وهي :

« غناء النمّ » وهو غناؤهم على ظهور الإبل واكثرهُ تشبيب بالنساء وحداء للابل لانها تحمل المحب الى حبيبتهُ . وقد تعوَّدت ابل السودان هذا الحداء حتى صار يروق لها ويحسن بِهِ سيرها . من ذلك ما قالهُ عبد الله ابو سن احد كبار الشكرية في محبوبته « نجوم » :

اسم ام شلخ نجوم نزّلتهُ في اليوميه	نحصن بهِ في الاوقات صباح وعشيّه
كل من جاب سلامك يلقى عندي هدية	لكون الجمال عند الله له مزيّه
معدومة النظير في الدنيا بالكلية	بيتك لي جنّه وحضرتك حوريّه
الستات بلاكِ يا مُهرة العونيّه	بقيا لي مساخ ما عندي فيهن نيّه

ومنهُ: دردرني الفقر وحماني قط ماالعيش　　وَخلاني مثل جَفر الجمال طمّيش
اهلي مايفقدوني ان بقيت مافيش　　أخير مني الرَّخمة غزيرة الريش

ومنهُ: ال بريدك ما جفاك　　ان اكلت ما بقول كفاك
بالزينة يرقع في قفاك　　يا اخواني اصل الريده هاك

« وغناء المُطرَق » سمي بذلك لان المغني بهِ ويُعرف بالليب أو الغنايـ يضرب الارض بالمطرَق (اي بعصا صغيرة) وهو يغني وقد خصَّ هذا الغناء بمدح الملوك واكابر القوم أو رثائهم .ولكل رجل شهير في السودان لبيب ينظم لهُ القول في المدح والفخر والحماسة

ومن هذا الغناء ما قالتهُ بنت مُسيمس المسلّمية في مدح الزبير باشا :

العيال يجالسوا المعزى معزى الدرا　　وانت تجالس بقر الليوث في الخلا
وقت الشوف يشوف ما هو الاضينة جرى　　يحرن في العقاب ويشيل النبا

ومنهُ ما قالتهُ في محمد المقدم ابن احمد شرفي احد رجال المهدية :

محمد المقدم حافره قط ماجكّ　　الفارس المقيَّم بالالف واللكّ
وقت الشوف يشوف والحديث ينلكّ　　دوَّر خشمهُ كك ومقبوضه ما ينفكّ

ومنهُ لبعض العبابدة :

ما يطارد كلام الزلّة　　وفوق البشاوات هو معلّى
يأمر بالشنق والحلّة　　وما شوف كيفه حاشاوكلاّ

« وغناء الدلّوكه » وهو خاصٌّ بالنساء يغنينهُ على آلة شبه الدربكة (يأتي وصفها) مدحاً للرجال بالشجاعة والفروسية والكرم وما اشبه ووصفاً للنساء بالجمال والصيانة وكرم الاصل وعلو الحسب . ومن هذا الغناء :

لبيكن ديما حاس بحساس　　يالصافيات تبر مو نحاس
اذاي ال في الضلع غوَّاص　　دواي غلب الحكيم يا ناس

ومنهُ : الله ليه الهرّد كلانا　　بالحسار والشوق شوانا
يا ام ضمير النوم جفانا　　دُرْنا شوف العين كفانا

« وغناء الجردقَه » وهو خاص بالبقارة ويغنونهُ على ظهور الخيل وكله اغاني حماسيَّه ومنهُ :

اكلنـا بليـله ورقادنـا قشّ من خشّش لخشش لمن الفقر ينقشّ

« وغناء الطنبورة » وهي من اشهر آلاتهم الموسيقية وسيأتي وصفها . ومن هذا الغناء :

الحكيم عاين لي وراح قال لي يازول ما فيك جِراح
آفتك التلتينه شلاّخ مِسكة الكتّن مع الباح

« وغناء الربابة » المعروفة وهو خاصّ ببلاد النوبة

« وغناء الطار » ويقال لهُ ايضاً « غناء المديح » اما نسبتهُ الى الطار (الدفّ) فلأنهُ يغنَّى بهِ على الطار واما نسبتهُ الى المديح فلأنهُ في مدح النبي (صلعم) . ففي السودان شعراء يُعرَفون بالمدّاحين ينظمون القصائد في مدح النبي ويعلمونها لتلامذتهم المعروفين بالزّمال فيطوفون في البلاد اثنين اثنين أو اكثر وبأيديهم الطارات ينشدون تلك القصائد في الافراح وبيوت الكبراء . فيجتمع الناس حولهم حلقة فيأخذ احدهم طاراً يُعرَف بالام وآخر طاراً اصغر منهُ يعرف بالشّتم ويشرع حامل الام بالغناء مبتدأ بالشيله (اللازمة) فيعيدها الجمهور بعدهُ وهو يكررها لهم حتى يحفظوها ثم يشرع في القصيدة فيلقيها هو وحامل الشتم بيتاً بيتاً على ضرب الطار والحضور يعيدون الشيلة بعد كل بيت وهكذا الى ان تنتهي القصيدة . واهل السودان يكرمون هؤلاء المدّاح اكراماً للممدوح ويذبحون لهم الذبائح ويجزلون لهم العطاء . ولا ينخرط في هذا السلك الاّ اصحاب الصوت الجميل وهم في الغالب حسان الصورة نظيفو الثياب . ومن هذا الغناء ما قالهُ المادح ود تميم من اهل الجزيرة :

الشيلة : قبراً بُناهُ في المدينه لامتين اراهُ (متى اراه)

ومنهُ الشيلة : شاشيت (اشتقت) لنور الله الساد (الذي ساد) رسل الله

القصيده : ياليلى ست الجنّـه من الجحيم الجُنَّه (الستر)

مشغوفك حنَّ وجنّ وعوديه ليلك جنّ (اظلم)

ومنهُ ماقالهُ في رثاء المتمهدي شاعرهُ احمد ود التويم من الجعليين العوضيه :

يا الطاهر دمك انا برجز نمَّك يا مهدي الله دوب لي قول فمَّك
عبدك يتهمَّك مشغول بهمَّك قال يا سيد عمك متى ألمَّك
يا الدّ ما بتعوّق انا ليك متشوق جاهك يحوّق نعمة المتطوّق
قول من ال علقوا فيك من يوم خلقوا دربك لا يطلقوا بري من ال زلقوا
سريرتك صافيه مع رب العافيه بطنك مي جافيه للحسد نافيه
يا طيّب الاسما ويا سمح البسمه في العمل ابو وسمه لا تكون لي قسمه
صلِّ يا خالقنا على أبْ جبَّا حارقنا سيد عثمان دقنا الدّ عليهِ اشتقنا
عبدك عافيه من علله ال فيه ابن تويم اشفيه لا تهمل فيه

هذا واكثر اغاني المديح والمطرق والدلوكة والطنبورة على النيل بين الشايقية والجعليين. واكثر غناء النم في البادية الشرقية والجزيرة بين الشكرية ورفاعه الهوي

ومن لغات السودان المشهورة :

« لغة النوبة » أو لغة البرابرة في بلاد دنقلة واسوان

« ولغة البجة » وهي لغة بادية الصحراء الشرقية

« ولغات السود» في فاشودة وبحر الغزال « ولغات شبه السود» في دارفور وقد سبقت الاشارة اليها كلها . وبحث علماء الافرنج في كثير منها والف بعضهم كتباً في صرفها ونحوها ومفرداتها فمن اراد التوسع فليطالعها

هذا والكثير من النوبة والبجة والسود وشبه السود الممتزجين بالعرب يتكلمون العربية على لحن ظاهر في رطانتهم كما ان العرب الممتزجين بهؤلاءِ الاجناس يتكلمون لغاتهم على لحن ايضاً

ولاهل كل لغة من هذه اللغات اغانيُّ كالعرب . وقد سمعت بعض اهالي النوبة يغني اغنية بلحن شجي مزعج فسألتهُ عما يقول فترجمهُ لي هكذا :

هلا هيلا انتِ لا تخرجي من البيت هلا هيلا انتِ لا تذهبي الاوردي
هلا هيلا اسهر الليل كله على شانك هلا هيلا وانتِ لا تخرجي من البيت

الفصل الثاني

في

﴿ اديانهــم ﴾

﴿ الاسلام ﴾

تقدم ان جميع اهل السودان على اختلاف اجناسهم يدينون بالاسلام ما عدا السود فانهم يدينون بالفتشية. وقد كان للاسلام الشأن الاعظم في السودان حتى انهُ يتعذَّر فهم تاريخ هذه البلاد فهماً صحيحاً الا بفهم الاسلام نفسه. ولذلك رأيت ان آتي هنا على مجمل سهل جليّ في ماهية الاسلام ومذاهب المسلمين وعقائدهم واعيادهم وحكوماتهم وفيما عليه اهل السودان من ذلك كله ليكون تمهيداً لما سيجيْ في تاريخ السودان بعد الاسلام وعلى الخصوص في تاريخ المهدية فأقول:

﴿ الاسلام والايمان ﴾ الدين عند المسلمين الاسلام والايمان اما « الاسلام » فأركانهُ خمسة وهي شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله واقامة الصلاة (وهي الصلوات الخمس اليومية في اوقاتها فذّاً أو جماعةً) وايتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت من استطاع اليهِ سبيلاً

واما « الايمان » فهو ان تؤمن بالله وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ واليوم الآخر والقدر خيرهِ وشرهِ. فمن انكر شيئاً منها فهو كافر ومن استجمعها وانكر غيرها كانكاره للمهدية مثلاً لم يعدكافراً ومن اظهر الاسلام واخفى الكفر فهو منافق

﴿ الشيعة واهل السنة ﴾ ثم ان المسلمين من حيث المذهب طائفتان كبيرتان الشيعة واهل السنة. اما «الشيعة» فهم القائلون بأن الامام علياً هو وصيُّ النبي على لامة وهو الاولى بالخلافة بعـدهُ مباشرة ولذلك فهم يرفضون الخلفاء الثلثة الذين تقدموهُ وهم ابو بكر الصديق وعمر ابن الخطاب وعثمان ابن عفان ويعتبرونهم متعدّين على حقوق علي في الخلافة ويعتقدون ان الامام علياً وان لم يكن الخليفة ظاهراً فهو الخليفة باطناً منذ وفاة النبي وهم يعتبرون هذه الخلافة الباطنية في ذريتهِ

من بعدهِ الى الامام الثاني عشر الذي يزعمون انهُ لا يزال حيًّا وانهُ المهدي المنتظر على ما سيجيء • وهم مذاهب شتى لا حاجة بنا الى تفصيلها لان ليس لهم اثرٌ في السودان الذي اصل كلامنا فيهِ وانما معظمهم في بلاد العجم ومنهم قليل في الهند وفي شمالي سوريا • واما « اهل السُنَّة » وهم السواد الاعظم من المسلمين فيقولون ان ترتيب الخلافة الذي حصل هو الصواب وعندهم ان الخلفاء خمسة لان النبي (صلعم) قال « الخلافة بعدي ثلاثون ثم تصير ملكاً عضوداً » فالذين حكموا في الثلاثين سنة بعد وفاته هم : ابو بكر الصديق • وعُمر بن الخطاب ويلقب بالفاروق وعثمان بن عفان ويلقب بذي النورين • وعلي بن أبي طالب ويلقب بالكرَّار • والحسن ابنهُ قبل تنازلهِ لمعاوية

المهدية في الاسلام

واعلم ان المشهور بين الكافة من اهل الاسلام على ممرّ الاعصار انهُ لا بدّ في آخر الزمان من ظهور رجل من اهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعهُ المسلمون ويستولى على الممالك الاسلامية ويسمى بالمهدي ويكون خروج الدجال (وما بعدهُ من اشراط الساعة الثابتة في الصحيح) على أثره وان عيسى ينزل بعده فيقتل الدجال أو ينزل معهُ فيساعدهُ على قتله ويأتمّ بالمهدي في صلاته (اه عن ابن خلدون)

﴿مهدي اهل السنة﴾ ويحتج اهل السنَّة في الباب بأحاديث خرَّجها بعض أئمتهم منهم الترمزي وابو داود والبزار وابن ماجه • واسندوها الى جماعة من الصحابة مثل علي وابن عباس وابن عمرو وطلحة وابن مسعود وابي هريرة وأنس وأبي سعد الخدري وابي جعفر وام سلمة وغيرهم

فمن ذلك ما جاء في كتاب الامام القرطبي : وفي حديث ابي داود «لو لم يبق من الدنيا الاَّ يوم واحد لطول الله تعالى ذلك اليوم حتى يبعث الله تعالى فيهِ رجلاً مني أو من اهل بيتي يواطئ اسمهُ اسمي واسم ابيهِ اسم ابي • وفي رواية لهُ ايضاً لو لم يبقَ من الدنيا الاَّ يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يليهم رجل من اهل

بيتي تكون الملائكة بين يديهِ ويظهر الاسلام ويكثر فيهِ المال ويأتيهِ الرجل فيقول يا مهدي اعطني فيحثي لهُ في ثوبه ما استطاع ان يحملهُ » ٭ وعن ابي سعد الخدري « ان رسول الله (صلعم) قال ليصيبنَّ هذه الأمة بلاء حتى لا يجد الرجل ملجأً يلجأ اليهِ من الظلم فيبعث الله تعالى رجلاً من عترتي (اهل بيتي) يملأ الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت جورًا وظلماً يرضى عنهُ ساكن السماء وساكن الارض لا تدع السماء من قطرها شيئاً الاَّ صبَّتهُ مدرارًا ولا تدع الارض من نباتها شيئاً الاَّ اخرجتهُ حتى يتمنى الاحياء العيش ٠ يمكث على ذلك سبع سنين أو ثماني سنين أو تسع سنين » ٭ ورُوي انهُ يخرج من اقصى المغرب يمشي النصر بين يديهِ اربعين ميلاً راياتهُ بيض وصفر فيها رقوم وفيها اسم الله الاعظم مكتوب فيها فلا تهزم لهُ راية ٠ وقيام هذه الرايات وانبعاثها من ساحل البحر بموضع يقال لهُ ماسه من جبل المغرب فيبعث هذه الرايات مع قوم قد اخذ الله تعالى لهم ميثاق النصر والظفر

وقال صاحب «نور الابصار»: ان السنة من سني المهدي مقدار عشر سنين ثم لاخير في العيش بعدهُ ٠ وقال ان سلطانهُ يبلغ المشرق والمغرب وتظهر لهُ الكنوز ولايبقى في الارض خراب الاَّ عمرهُ ٠ وهذه علامات قيام القائم مرويّة عن أبي جعفر (رضهُ) قال: اذا تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال وركبت النساء السروج وأمات الناس الصلوات واتبعوا الشهوات واستخفوا بالدماء وتعاملوا بالربا وتظاهروا بالزنا وشيدوا البناء واستحلوا الكذب واخذوا الرُّشى واتبعوا الهوى وباعوا الدين بالدنيا وقطعوا الارحام وضنوا بالطعام وكان الحلم ضعفاً والظلم فخرًا والامراء فجرة والوزراء كذبة والامناء خونة والاعوان ظلمة والقرَّاء فسقة وظهر الجور وكثر الطلاق وبدا الفجور وقبلت شهادة الزور وشرب الخمور واتخذ الفيء مغنماً والصدقة مغرماً واتقي الاشرار مخافة ألسنتهم وخرج السفياني من الشام واليماني من اليمن وخسف بالبيداء بين مكة والمدينة وقتل غلام من آل محمد (صلعم) بين الركن والمقام وصاح صائح من السماء بأن الحق معهُ ومع اتباعهِ قال فاذا خرج اسند ظهرهُ الى الكعبة واجتمع اليهِ ثلثماية وثلاثة عشر رجلاً من اتباعهِ فأول ما ينطق بهِ هذه الآية « بقية الله خيرٌ لكم

ان كنتم مؤمنين ، ثم يقول انا بقية الله وخليفتهُ وحجتهُ عليكم فلا يسلم عليهِ احد الا قال السلام عليك يابقية الله في الارض فاذا اجتمع عندهُ العقد عشرة الاف رجل فلا يبقى يهودي ولا نصراني ولا احد ممن يعبد غير الله تعالى الاَّ آمن بهِ وصدقهُ وتكون الملة واحدةً ملة الاسلام وكل من كان في الارض من معبود سوى الله تعالى تنزل عليهِ نار من السماء فتحرقهُ والله اعلم اه

هذه هي بعض احاديث القائلين بالمهدية من السنة وعندهم ان المهدي يجيء من بني فاطمة (قلت ولذلك يعرف ايضاً في كتبهم بالفاطمي) وانهُ يولد بالمدينة المنوَّرة لانهُ من اهلها . وقالوا في صفتهِ انهُ شاب افرق الثنايا واسع الجبهة اكحل العينين أزج الحاجبين اقنى الأنف كث اللحية على خدهِ الأيمن خال . وجههُ كالكوكب الدري اللون لون عربي والجسم جسم اسرائيلي (اي طويل)

﴿ مهدي الشيعة ﴾ واما الشيعة من المسلمين فيعتقدون ان المهدي قد ظهر في اواخر القرن الثالث للهجرة في شخص محمد بن الحسن الخالص بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب وهو آخر أئمتهم الاثني عشر . وكنيتهُ ابو القاسم ولقبهُ الامامية بالحجَّة والمهدي والخلَف الصالح والقائم والمنتظر وصاحب الزمان واشهرها المهدي . قالوا وكان شاباً مرفوع القامة حسن الوجه والشعر . يسيل شعرهُ على منكبيهِ اقنى الانف أجلى الجبهة

وفي تاريخ ابن الوردي : ولد محمد بن الحسن الخالص سنة خمسٍ وخمسين ومايتين . وتزعم الشيعة انهُ دخل السرداب في دار ابيهِ « بسرَّ من رأى » وأمهُ تنظر اليهِ فلم يعد اليها وكان عمرهُ تسع سنين وذلك في سنة مئتين وخمسٍ وستين على خلاف فيهِ . وهم يعتقدون انهُ لايزال حيًّا وانهُ لابدَّ من ظهورهِ بعلامات خاصة في آخر الزمان . وكان على هذا المذهب السيد الحميري ولهُ من ابيات :

امامَ الهدى قل لي متى أنت آيبٌ　　فمُنَّ علينا يا امامُ برجعةٍ
مللنا وطال الانتظارُ فجُد لنا　　بحقك يا قطبَ الوجود بزورةِ

فأنت لهذا الامر قدماً معين " كذلك قال الله انت خليفتي اه

ويظهر ان الشيعة كلهم متفقون على الاعتقاد بالمهدي واما اهل السنّة فعلماؤهم على خلاف في شأنهِ وذلك لان الاحاديث التي خرّجها علماؤهم والتي تقدم لنا ذكر بعضها على شهرتها وكثرتها لم يرد منها شيء في الصحيحين . (اي صحيح الامام البخاري الذي ولد في بخارى سنة ١٩٤ ﻫ وتوفي في بغداد سنة ٢٥٦ ﻫ . وصحيح الامام مسلم الذي توفي في نيسابور سنة ٢٦١ ﻫ) . والمعلوم ان الصحيحين عند اهل السنة مقدمان على سائر كتب الاحاديث فكلما جاء فيهما لزمهم قبولهُ والعمل بهِ بخلاف الاحاديث التي لم ترد فيهما فانهُ لا يلزمهم قبولها بل هم مخيرون بين القبول والرد لذلك ولما كانت جميع الاحاديث المروية بشأن المهدي مرويّة في غير الصحيحين اختلف علماء السنة فيهِ فمنهم من اعتمد تلك الاحاديث فانتظر ظهور المهدي ومنهم من لم يعتمد ذلك فلم ينتظر ظهورهُ . وفي هذا الباب بحث طويل في مقدمة ابن خلدون في كلامهِ عن الفاطمي وما يذهب اليهِ الناس فمن اراد الاسهاب فليراجعهُ هناك

على ان هذا الخلاف بين علماء السنة لم يؤثر شيئاً في اعتقاد الجمهور في ظهور المهدي وقد ظهر بين المسلمين من اهل السنة والشيعة في كل العصور رجال ادعوا المهدية فحامت حولهم الانصار فمنهم من ساعدتهم الاقدار والاحوال فأسسوا دولاً عظيمة دامت زماناً طويلاً ومنهم وهم الاكثر لم يكادوا يظهرون بدعواهم حتى طوى الزمان ذكرهم لان الاحوال لم تكن معدة لنجاحهم

﴿مدعو المهدية في الاسلام﴾ واشهر الذين ادعوا المهدية من اول الاسلام الى الآن:

«محمد بن عبد الله» الملقب بالنفس الزكية ظهر في المدينة سنة ١٤٥ﻫ في عهد الخليفة المنصور ثاني الخلفاء العباسيين فدعا الناس اليهِ وكان لهُ اخ اسمهُ ابرهيم فنصرهُ ففتح البصرة والاهواز وفارس ومكة والمدينة وبعث عمالهُ الى اليمن وغيرها وكان ذلك في زمن الامام مالك فأفتى لهُ وشد ازرهُ فكثرت دعاتهُ حتى كاد يذهب بالدولة العباسية لولم يستدرك المنصور امرهُ ويتغلب عليهِ ويقتلهُ

«وعبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق» مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب التي فتحت في الديار المصرية في اواسط القرن الرابع للهجرة وبنت مدينة القاهرة على يد القائد جوهر وقد اتسعت دولة الفاطميين وامتدت سلطتهم وطالت ايام حكمهم كما هو مشهور

« ومحمد بن عبد الله بن تومرت » المعروف بالمهدي الهرعي ويكنى أبا عبد الله اصله من جبل السوس في اقصى بلاد المغرب رحل الى المشرق حتى انتهى الى العراق واجتمع بأبي حامد الغزالي وغيره فأخذ العلم عنهم واشتهر بالصلاح والتقوى وساح في الحجاز وجاء مصر ثم سار الى الغرب واقام بمراكش وغيرها وتأسست على يده دولة عظيمة في اوائل القرن السادس للهجرة هي دولة بني عبد المؤمن

« والعباس الفاطمي » ظهر بالمغرب في آخر المائة السابعة للهجرة وادعى المهدية فتكاثف الناس حولهُ وعظمت شوكتهُ حتى دخل مدينة فاس عنوة واحرق اسواقها وبعث العمال الى الانحاء لكنهُ قتل غيلة فانقضى اجلهُ وسقطت دعوتهُ

« والسيد احمد » ظهر في اوائل القرن التاسع عشر للميلاد في جهات الهند وحارب الاسياخ على حدود بنجاب الشمالية الغربية سنة ١٨٢٦ م ولم تقم لهُ قائمة

« ومحمد احمد الدنقلاوي » الذي ظهر في سنة ١٨٨١ م واضطر الحكومة المصرية الى الخروج من السودان كما هو مشهور عند جميع القراء وسنأتي على تاريخهِ واسباب ظهوره بالتفصيل ان شاء الله

«ومهدي السومال» المعروف بالملاَّ المفتون الذي قام بعد محمد احمد في بلاد السومال فجرَّد عليهِ الانكليز الحملة بعد الحملة حتى مزَّقوا شملهُ وفلُّوا شوكتهُ وهم الآن يطاردونهُ في المفاوز والقفار ولا يرجعون عنهُ حتى يقضوا عليهِ وعهد ذلك قريب

ومن اراد التوسع في هذا البحث أو في ايّ بحث من ابحاث التاريخ الاسلامي فعليهِ بالكاتب المتفنّن والمؤرّخ الذكي «جورج افندي زيدان» صاحب تاريخ مصر الحديث ومجلة الهلال الغراء وتاريخ التمدن الاسلامي فانهُ يعدّ للطبع كتاباً وافياً في «تاريخ الاسلام العام» على اسلوب جديد جلي قريب المأخذ سهل المنال

﴿محمد المهدي السنوسي﴾ ومنهم من يعدّ محمد المهدي السنوسي الذي يحارب الفرنساويين الآن في بلاد كانم في مصاف المدعين المهدية ولهذا الرجل صيت واسع في الشرق والغرب وقد كان لهُ شأن في تاريخ المهدية ويُتوقع ان يكون لهُ شأن عظيم في مستقبل الايام لذلك رأيت ان آتي على تاريخهِ ببعض الاسهاب فأقول:

« ان محمدًا المهدي السنوسي هذا هو نجل الاستاذ الشهير محمد بن علي السنوسي من ذرية الحسن بن الامام علي بن أبي طالب (رضهُ) ولد ابوهُ سنة اربع أو خمس بعد المئتين والالف بصحراء مستغانم من اعمال الجزائر ونشأ فيها وطلب العلم بمدينة فاس واشتغل بالطريقة الدرقاوية . ثم رحل الى مكة المشرَّفة فلقي بها الاستاذ احمد بن ادريس الشريف الفاسي المشهور بالعلم والصلاح واخذ عنهُ الطريقة الصوفية من فرع الشاذلية فبرع فيها فأحبهُ استاذهُ المذكور وخلّفهُ واذن لهُ في اعطاء العهود وتلقين الذكر فبنى زاوية بجبل أبي قبيس بمكة . ثم رحل الى الجبل الاخضر من ارض طرابلس الغرب سنة ١٢٥٥ هـ وبنى في تلك الجهات عدة زوايا واقام حتى رزق ولديهِ السيد محمدًا المهدي الذي فيهِ كلامنا سنة ١٢٦١ هـ والسيد محمدًا الشريف سنة ١٢٦٣هـ . وفي تلك السنة عاد الى جبل أبي قبيس بمكة فأقام فيهِ نحو سبع سنين مشتغلاً باقراء الحديث والفقه فشاع صيتهُ وهرع اليهِ الناس للتلقي عنهُ . وتوفي الاستاذ السيد احمد بن ادريس في اليمن ولهُ هناك قبة تزار وكان السنوسي قد صحبهُ الى اليمن فعاد بعد وفاته الى مكة . وحدث في تلك الاثناء ان الشريف عبد المطلب شريف مكة عصى الدولة فاتهم السنوسي بمشايعتهِ على ذلك سرًّا فخاف من الاقامة بمكة بعد هذه التهمة فرحل منها عائدًا الى الجبل الاخضر عن طريق مصر وكان على مصر المغفور لهُ عباس باشا فاكرم وفادتهُ وبنى لهُ زاوية بخارج القاهرة عند الشيخ القللي بجهة باب الحديد فلم ينزل بها وانما نزل في ناحية كرداسة بالجيزة فهرع الناس لزيارته والتبرك بهِ . ثم سار الى الجبل الاخضر فنزل بمحل عرف بالغزيات وهو قصر قديم فرممهُ واصلحهُ وسماهُ العزيات واقام بهِ سنتين يبث طريقته فلما كثر مريدوهُ في صحراء ليبيا اراد ان يسكن بينهم ويعتزل عن

مواطن الحكومات فسألهم عن مكان فيهِ ماء فدلوهُ على الجغبوب وهي على مسافة عشرة ايام من العزيات وثلاثة ايام من سيوه فرحل اليها سنة ١٢٧٣ ﻫ وبني زاوية واقام فيها ينشر طريقته بين عرب البادية الى ان توفي في ٩ صفر سنة ١٢٧٦ ﻫ ودفن هناك . ولهُ مؤلفات كثيرة منها ايقاظ الوسنان في العمل بالسنة والقرآن . والسلسبيل المعين في الطريق الاربعين . والمنهل الرائق في الاسانيد والطرائق . والشموس الشارقة في سماء مشايخ المغاربة والمشارقة

وقام بعده بنشر طريقته وتربية مريديهِ ولدهُ وخليفتهُ « الاستاذ السيد محمد المهدي السنوسي » الذي فيهِ كلامنا يعضدهُ اخوهُ السيد محمد الشريف السنوسي فازداد عدد المريدين للسنوسية في عهدهِ اضعافاً كثيرة وزادت طريقتهُ انتشارًا في الصحراء الكبرى وامتدت الى بلاد وداي وكانم و باجرمي ودارفور . ولهُ الآن في تلك البلاد كلها وفي مصر والحجاز نحو ٣٠٠ زاوية وفي كل زاوية خليفة من قبلهِ يدير شؤونها ويبايع الناس فيها بدلاً عنهُ ومدرسة لتعليم القرآن ومبادي العلوم . وكل خليفة ينشئ لهُ زرعاً بمساعدة السالكين عنهُ الطريق ويقتني الماشية فينفق من ريعها على الزواية وما فضل يرسلهُ الى شيخهِ السنوسي حتى أصبح السنوسي اشبه بملك يُجبى اليهِ الخراج ومقامه عند اهل طريقته اعظم من مقام الملوك واهل الصحراء الكبرى لا يعرفون حاكماً غيرهُ ولا يخضعون للحكام الاَّ بواسطته بل هم يعتقدون انهُ المهدي المنتظر وقد قاموا معهُ في الحرب الحاضرة على الفرنساويين حاسبين ان هذا وقت ظهوره وانهم الآن يجاهدون في سبيل الله ومهديهِ

ولما قام محمد احمد بدعوى المهدية في السودان بعث الى السنوسي بكتاب يدعوهُ فيهِ ان يكون خليفته الثالث أي في مقام الخليفة عثمان بن عفَّان فرفض الدعوة باحتقار ولم يرد الكتاب وقيل انهُ قال للرسل اخبروا محمد احمد اننا لا نساوي التراب الذي كان يطأهُ عثمان . وقد اوعز الى ملك وداي ان لا يحرك ساكناً مع محمد احمد فلا ينصرهُ ولايحاربهُ الاَّ اذا جاءهُ محارباً فليحاربهُ » قيل وقد ارادت الدولة العلية منذ بضع سنين ان تستدعي السنوسي الى الاستانة ليقيم في حماها فلما شعر بذلك رحل

من جغبوب ونزل في واحة الكفرة وبنى لهُ هناك زاوية سماها زاوية التاج فاجتمع اليهِ الطلبة من تونس ومصر والشام وبادية الغرب . ثم ارتحل منها الى قرو وهي واحة بين الكفرة وعاصمة وداي ولم يزل مقيماً فيها يدير الحرب التي اشهرها قريباً على الفرنساويين لانهم دخلوا البلاد التي يعدها ضمن سلطانه . والمشهور عنهُ انهُ يريد تقويم الدين الاسلامي واعادته الى اصلهِ القديم ومقاومة كل ما جدَّ من زخرف الملك وزينة الدنيا . ومن عادتهِ ان لا يكاتب احدًا من غير طريقته ولا يجاوب احدًا على خطابهِ الاَّ اذا كان الخطاب من مسند رسمي فانهُ يجيب عليهِ جوابًا رسميًا وهو لا يحب ان يداخل احد من الاجانب في شأنه ولا يسمح للنصارى ان يطأوا زاويتهُ بل يكره تجولهم في الصحراء بين زواياهُ . ولهُ الآن بين الحجاز وواحة قرو مراكز للبريد في جده والسويس وكرداسه وسيوه وجغبوب والكفره ولهُ في كل مركز وكيل مسئول عن ايصال الكتب من مركزه الى المركز الذي يليهِ وهو يوصي مريديهِ بالمبالغة في حفظ الاسرار وضم الكلمة . هذا ما وصل الينا من امر السنوسي والله اعلم

﴿ أئمة المسلمين ﴾

ثم ان ائمة الدين عند اهل السنَّة ثلاث فرق وهي :

﴿ ائمة علم التوحيد ﴾ وهم الذين بحثوا عن وجود الحق جل جلاله وصفاتهِ وأسمائه وافعالهِ وعن ملائكتهِ وانبيائهِ وكتبهِ ورسلهِ واليوم الآخر وهم كثيرون وانما الذين اشتهر مذهبهم واستمر الى الآن اثنان وهما الامام ابو الحسن الاشعري والامام ابو منصور الماتريدي وبينهما اختلاف طفيف في مسائل منها مسألة عدد صفات الله وحدوث صفات الافعال أو قدمها فالامام الاشعري يعتبر صفات الله سبحانهُ سبعاً وهي القدرة والارادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام . والامام الماتريدي يعتبرها ثمانياً بزيادة صفة التكوين . واما من قبيل صفات الافعال مثل الخلق والرزق والاحياء والامانة ونحو ذلك فالذي عليهِ الاشعري انها حادثة عند حدوث متعلقها المخلوق . واما الماتريدي فيقول انها قديمة لانها تفاصيل الصفة القديمة عندهُ التي هي التكوين فانقسم المسلمون بهذين الامامين في عقائدهم

التوحيدية الى قسمين قسم اتبع الماتريدي وهم الحنفية والباقون على مذهب الأشعري

﴿ وأيمة الفقه ﴾ وهم يبحثون في الاحكام الشرعية التي تتعلق بالمعاملات كالبيع والشراء والعبادات البدنية كالصلاة والزكاة والحج . ومأخذ هذه الاحكام عندهم اربعة هي اصول الفقه وهي الكتاب والسنة والاجماع والقياس المستنبط منها. وذلك أنهم كانوا اذا وقعت لهم حادثة شرعية من حلال أو حرام فزعوا الى الاجتهاد وابتدأوا بالكتاب فان وجدوا فيهِ نصًا تمسكوا بهِ والاَّ فزعوا الى السنة أي الحديث فان رأوا في ذلك خبرًا نزلوا على حكمهِ والا فزعوا الى اجماع الصحابة لانهم راشدون فلا يجتمعون على ضلال فان عثروا على ما يناسب مطلوبهم حكموا بالحادثة على مقتضاهُ والاَّ فزعوا الى القياس لان الحوادث والوقائع غير متناهية والنصوص متناهية فلايتطابقان فقالوا قطعًا ان القياس واجب الاعتبار ليكون بصدد كل حادثة شرعية اجتهاد قياسي فالاجتهاد عندهم هو استنباط الاحكام الفرعية من الاصول الاربعة المتقدم ذكرها.وكان الائمة المجتهدون في صدر الاسلام كثارًا ولكن الذين تدونت مذاهبهم و بقيت الى الآن فقفل بعدهم باب الاجتهاد اربعة وهم :

« الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت » ولد بالكوفة سنة ٨٠ ﻫ وتوفي ببغداد سنة ١٥٠ ﻫ على الاصح

« الامام ابو عبد الله مالك ابن أنس ابن مالك » ولد بالمدينة سنة ٩٥ ﻫ وتوفي فيها سنة ١٩٧ ﻫ تقريبًا

« الامام أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي » ولد بغزة سنة ١٥٠ ﻫ وتوفي في مصر سنة ٢٠٤ ﻫ

« الامام ابو عبد الله احمد بن حنبل » ولد في بغداد في الارج سنة ١٦٤ ﻫ وتوفي فيها سنة ٢٤١ ﻫ

فانقسم المسلمون بهؤلاء الائمة الى اربعة مذاهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي فتغلب الحنفي في سوريا والعراق والشافعي في مصر والمالكي في المغرب والسودان والحنبلي في الكوفة ونجد وهو اقلها انتشارًا

وأساس الاختلاف بين هؤلاء الائمة هو اختلافهم في النظر الى اصول الفقه الاربعة والاخذ عنها . فالامام أبو حنيفة شديد التمسك بالقياس وربما يقدم القياس الجلي على اخبار الاحاد . اما الائمة مالك والشافعي وابن حنبل فانهم لا يرجعون الى القياس الجلي أو الخفي ما وجدوا خبرًا أو امرًا حتى لقد سمى الشهرستاني الحنفية بأصحاب الرأي وسمى المذاهب الاخرى بأصحاب الحديث . ثم ان الشافعي أشد تمسكاً بالحديث الصحيح من الجميع وقد قال « ما صح من الحديث فهو مذهبي » . وأما مالك فانهُ شديد التمسك بعمل اهل المدينة لان اهل المدينة رأوا النبي واعماله في آخر عمرهِ وهم مقلدون فأعمالهم مؤسسة على رؤية وهي عنــدهُ مقدمة على خبر الواحد . ثم ان احد هؤلاءِ الائمة قد يصح عندهُ من الاحاديث ما لا يصح عند الآخر فيحكم بهِ فيخالف غيره . وفوق ذلك فان العربية لغة الكتاب والسنة قابلة التأويل في ألفاظها فكان كل منهم يحملها على ما يراهُ اولى عندهُ ومن ذلك كلهِ حصل الخلاف . وكلهم يبحثون في افعال المكلفين واقوالهم وقد قسموها الى خمسة اقسام وهي :

« الواجب » وهو الذي يثاب على فعله ويعاقب على تركه كالصلاة

« والحرام » وهو الذي يعاقب على فعله ويثاب على تركه كالسرقة

« والمندوب » وهو الذي يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه كالصيام في غير رمضان

« والمكروه » وهو الذي يثاب على تركه ولا يعــاقب على فعلهِ

« والمباح » وهو الذي لا يثاب على فعله ولا يعــاقب على تركهِ

﴿ وأيمة الصوفية ﴾ وهم يشتغلون بالتخلي عن العالم الدنيوي والاشتغال بما يقرب من الحق عزّ وجلّ ويؤدي الى مشاهدتهِ ولذا قيل التصوف هو الجد في السلوك الى ملك الملوك وان يكون العبد في كل وقت مشغولاً بما هو اولى في الوقت . وأساس طريقتهم ستة امور : تقليل الطعام وتقليل الكلام وتقليل المنام واعتزال الانام والذكر المدام والفكر التام أي التفكر في مصنوعات الله تعالى بصفاء قلب . وعندهم ان ذلك يؤدي الى نفي مساوئ الاخلاق والتحلي بمكارمها وانجلاء الظلمات الدنيوية عن القلب وتجلي الحق فيهِ

﴿ الذكر ﴾ والمراد بالذكر المدام ترديد اسم من اسماء الله تعالى مرارًا عديدة بحصر أو بلا حصر حتى يستولي معنى الاسم على ضمير الذاكر وهواجسهِ بحيث لا يكون لهُ شعور بالعالم الحسي. وهم يستعينون على العدّ بالمسابح المعروفة. وقد حدد الصوفية درجة الكثرة في الذكر المشار اليها بالآية « واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون » فقالوا ان تكرار الاسم ٣٠٠ مرة هو أول حد الكثرة . واسماء الله سبحانهُ كثيرة وجاء في الحديث ان لله تسعة وتسعين اسماً من احصاها دخل الجنة . ثم ان الذكر عند اهل الطرائق على نوعين فاما ان يردد الذاكر اسماً من اسماء الله تعالى وحدهُ سرًّا أو جهرًا أو ان يردده كذلك مع جمهور من الناس في مجلس خاص يسمى حلقة الذكر. هذا ولكل حلقة شيخ يرئسها أو نقيب يفتتح الذكر فيفتتح النقيب الذكر بكلمة التوحيد وهي لا اله الا الله فيكرر الجمهور معهُ هذه الكلمة مرارًا معلومة حتى لقد يقتصرون عليها في الجلسة أو ينتقلون منها الى اسم من اسماء الله كقولهم الله حي قيوم أو غير ذلك . ومما جرت بهِ العادة عند اهل الطرائق ان يكون للحلقة منشد ايضاً يسمعهم من كلام الصوفية ما ينشطهم فيلقي المنشد والناس يذكرون مقاطيع منها قول الشيخ علي وفا عن لسان الحق عزّ وجلّ يخاطب السالك (المريد)

اطع امرنا نرفع لأجلك حجبنا ... فانَّا خصصنا بالرضى من احبنا
وسلم الينا الأمر في كل ما جرى ... فما القرب والابعاد الاَّ بأمرنا
ولا تعترضنا في الامور فكل من ... اردناهُ أحببناهُ حتى احبنا
وسر نحونا لا تخشَ في الليل وحشةً ... وكن ذاكرًا فالانس في طيب ذكرنا
وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغل ... ولا تنسنا واقصد بفعلك وجهنا
ولا تنسى ميثاقًا اخذناهُ اولاً ... عليك باقرار كتبناهُ عندنا

وللذكر المشروع عند اهل الطرائق شروط اهمها ان يكون بخشية وحضور أي ان يعبد الله كأ نهُ يراهُ وان لا يأتي بحركة في حالة الذكر الا ان يهز رأسه هزًّا لطيفاً . واما ما نراهُ من فعل بعض المتصوفين في حلقات الذكر من الرقص والتصفيق وهز

الرأس والعنق فانهُ مخالف للصوفية وينكرهُ جميع علماء المسلمين وقد قال الاخضري في منظومتهِ في آداب الذكر يندد على المتطفلين على الصوفية:

والرقص والصراخ والتصفيقُ　　عمدًا بذكر الله لا يليقُ

﴿ الراتب ﴾ ثم ان لكل طريقة ادعية مأخوذة من الاحاديث أو من كلام بعض الاولياء تتضمن الاستعاذة من كل شر والسؤال لكل خير وقد يكون مع تلك الادعية بعض آيات قرآنية واذكار في التسبيح والتحميد والتهليل والصلوة على النبي والاستغفار تجمع في كتاب خاص يسمّونهُ « الراتب » وذلك لان شيخ الطريقة يرتب قراءتهُ على تلامذتهُ صبحًا ومساء على انفراد أو اجتماع . والعادة عندهم بعد قراءة هذا الراتب في الاجتماع انهم يقرأون الفاتحة ويهدون ثوابها للنبي (صلعم) ومشايخ طريقتهم على الترتيب فيقول النقيب بعد الفراغ من الراتب الفاتحة لروح النبي ويرفع كفيهِ ونظرهُ الى السماءِ فيقرأ الفاتحة ويقرأ الجلوس معهُ ثم يقول الفاتحة لشيخ الطريقة الاكبر ثم من بعدهِ على الترتيب الاكبر فالاكبر ثم يتصالحون وينصرفون

ولمشائخ الطرق اعتبار عند مريديهم يقرب من العبادة وكلما اشتهر شيخ طريقة في جهة واستقل من هذه الدنيا بنوالهُ قبة ومزارًا وزاروهُ في المواسم والاعياد تبركاً وقرأوا الفاتحة لروحهِ واهدوهُ ثوابها

واما «ائمة الصوفية» فكثيرون لا عدَّ لهم والمشهور منهم سبعة وهم :

«الامام عبد القادر الجيلاني» ولد سنة ٤٧٠ﻫ وتوفي ٥٦١ ﻫ ولهُ مقام في بغداد

«والسيد احمد الرفاعي» توفي سنة ٥٧٨ ﻫ ولهُ مقام في ام عبيدة بالعراق

«والسيد ابراهيم الدسوقي» ولد ٦٣٣ﻫ وتوفي ٦٧٦ ﻫ ولهُ مقام في دسوق بمصر

«والسيد احمد البدوي» ولد ٥٩٦ﻫ وتوفي ٦٧٥ ﻫ ولهُ مقام مشهور في طنطا بمصر

«والشيخ ابوحسن الشاذلي» توفي سنة ٦٥٦ ﻫ ولهُ مقام بصحراء عيذاب

« والشيخ محمد الخلوتي » ٠ «والشيخ عبد الله النقشبندي» ولهُ مقام في الهند

ورئيسهم الاعظم « الامام الجنيد البغدادي » توفي سنة ٢٩٧ ﻫ ولهُ مقام في بغداد

فأشهر الطرق المنتشرة الآن في العالم الاسلامي تنتسب الى هؤلاء الرؤوس

اما الى واحد منهم أو الى اكثر من واحد. ولكل شيخ طريقة خرقة أو عمامة خاصة يعرف بها هو وخلفاؤهُ يلبسونها على الرأس وهذه الخرق هي بحسب الوانها اربع :

«الخضراء» وهي خرقة الشيخ عبد القادر الجيلاني

«والسوداء» وهي خرقة السيد احمد الرفاعي

«والصفراء» وهي خرقة السيد ابراهيم الدسوقي

«والحمراء» وهي خرقة السيد احمد البدوي

ولكل منهم راية من لون الخرقة واما اصحاب الطرق الاخرى فهم مقلدون هؤلاء في لون الخرق والرايات. ويكتبون على الراية هكذا : «لا اله الا الله محمد رسول الله» وهذه الجملة لا بدّ منها على كل راية ثم تزيد كل طريقة عليها ما يحسن لها من آية قرآنية أو شيء من الحديث أو اسم شيخ الطريقة ونحو ذلك

وقد اختلف الباحثون في اصل الصوفية فمنهم من قال انها مأخوذة عن نساك الهند ومنهم من قال انها عن نساك اليونان والمشهور انها مأثورة عن رئيسهم الاعظم الامام الجنيد البغدادي الذي اخذها عن خالهِ السري السقطي عن معروف الكرخي عن داود بن نصير الطائي عن حبيب العجمي عن الحسن البصري عن علي بن أبي طالب عن النبي (صلعم)

واختلفوا في سبب تسميتهم بالصوفية فقال بعضهم سموا بذلك للبسهم الصوف وقيل لصفاء قلوبهم. وقيل لان اول من ظهر بمثل حالهم هم اهل الصفَّة وهي بناء في آخريات المسجد النبوي بالمدينة كان يسكنهُ الزهاد من المسلمين للعبادة. وقيل هي مأخوذة من صوفية باليونانية ومعناها الحكمة والله اعلم

اعياد المسلمين ومواسمهم

وأما أعياد المسلمين فهي :

«عيد رمضان» يعيدونهُ بعد صيام رمضان ويسمونهُ عيد الفطر وهو اليوم الاول من شهر شوال وفي صبيحتهِ يخرج الناس زكاة الفطر ويصلون صلاة العيد. وقد جرت العادة على جعل هذا العيد ثلاثة ايام

« وعيد الضحية » وهو يبدأ من عاشر الحجة من كل سنة ويدوم اربعة ايام ويسمونهُ عيد النحر وعيد الحج . أما تسميتهُ بعيد الحج فلانهُ يكون في موسم الحج وأما تسميتهُ بعيد النحر فلأنهم ينحرون فيهِ الضحايا . وقد يسمونهُ العيد الكبير ويسمون عيد رمضان العيد الصغير وليس للمسلمين الاّ هذان العيدان . وأما مواسمهم التي اعتادوها بعد الصدر الاول في الاسلام وليست مما اوجبهُ الشرع فهي :

« يوم عاشوراء » وهو اليوم العاشر من شهر محرم من كل سنة . قيل هو اليوم الذي استوت فيهِ السفينة على جبل الجودي بالهند

« ومولد النبي » ليلة ١٢ ربيع اول وهي الليلة التي ولد فيها النبي (صلعم) على المشهور وهم يحتفلون بها احتفالاً عامًا ويتخذونها عيدًا ويجتمعون لقراءة المولد الشريف

« وليلة المعراج » وهي ليلة السابع والعشرين من شهر رجب في الارجح كان فيها الاسراء بالنبي من مكة الى المسجد الاقصى وهو بيت المقدس والمعراج الى السماء وفيها يحتفلون بالاجتماع في المساجد الشهيرة لقراءة قصة المعراج

« وليلة نصف شعبان » وهي الليلة التي يحتفلون فيها بالاجتماع في المساجد للعبادة كالدعاء وقراءة القرآن ويصومون نهارها

« وليلة القدر » وهي في المشهور ليلة ٢٧ رمضان وتعرف عندهم أيضاً بالليلة المباركة وهم يحيونها بقراءة الادعية الى الصباح املاً بأن يتجلى لهم الحق سبحانهُ وتعالى ويجيب دعاءهم . ومما جاء في فضل هذه الليلة في القرآن الكريم « ليلة القدر خيرٌ من الف شهر »

« ويوم الجمعة » عندهم كيوم الاحد عند النصارى والسبت عند اليهود لكن الشغل فيهِ غير محظور عليهم الاّ مدة الصلوة وهذا نص الآية القرآنية في هذا اليوم :

« يا أيها الذين آمنوا اذا نوديَ للصلوة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خيرٌ لكم ان كنتم تعلمون فاذا قضيت الصلوة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون »

وللرجل ان يتزوَّج بواحدة أو اثنتين أو ثلاث أو اربع من النساء «وان خاف ان لا يعدل فواحدةً» . ولهُ ان يطلق زوجتهُ فان طلقها وهو كاره لها لزمهُ المهر كاملاً ان دخل بها وان لم يدخل بها فنصفهُ يدفعهُ لها أو لوليها . وان كانت الكراهة من المرأة وارادت فراقهُ فلها ان تفتدي منهُ بمال ترضيهِ بهِ ويوضع الطلاق على ذلك ويسمى في الشرع خلعا . وان طلق امرأتهُ ثلاثاً لا تحل لهُ حتى تنكح زوجاً غيرهُ

وعقد النكاح المستوفي المشروط يكون بولي وصداق (أي مهر) وشاهدَي عدل . فالولي من قبل الزوجة وهو من لهُ ولاية عليها بملك أو ابوَّة او ايصاء أو تعصيبٍ أو كفالةٍ أو سلطنة أو اسلام . واما الصداق فأدناهُ ربع دينار من الذهب أو ثلاثة دارهم من الفضة أو ما هو قيمة احدهما من العروض واكثرهُ لا حدَّ لهُ فلا يصح النكاح شرعاً بدونه لان هذا القدر عندهم حق لله تعالى وللادمي فلا بدَّ منهُ وما زاد على ذلك حق للمرأة فلها ان ترضى باسقاطهِ

وشرط الرجل ان يكون مسلماً ذكرًا مميزًا عاقلاً . وشرط المرأة ان تكون خلية من الموانع التي تقتضي تحريمها من نسب وصهارة ورضاع وهذا نصَّ الآية «حرّمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وامهاتكم اللاتي ارضعنكم واخواتكم من الرّضاعة وامهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهنَّ فان لم تكونوا دخلتم بهنَّ فلا جُناح عليكم وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم وان تجمعوا بين الاختين الاَّ ما قد سلف ان الله كان غفورًا رحيماً»

ولا يجوز نكاح المعتدَّة الا ان تستوفي ايام العدة وعدَّة الطلاق لذات الحيض ثلاثة قُروء وللآيسة ثلاثة اشهر وللحامل وضع حملها . وعدَّة الوفاة اربعة اشهر وعشرة ايام

﴿ الميراث ﴾ ومما جاء في الميراث : «ان امرء هلك وليس لهُ ولد ولهُ اخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وان كانوا اخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين» الآية

﴿ الوظائف الدينية ﴾ والحكومة الاسلامية في زمن الخلفاء الراشدين هي الخلافة عن النبي (صلعم) فيلقبون ابا بكر بخليفة رسول الله ويقتدون بهِ في جميع شعائرهم الاسلامية ويأخذون عنهُ احكامهم الدينية فهو الامام والمفتي والقاضي والمنفذ للاحكام وكذلك عمر وهو اول من لُقب بأمير المؤمنين ثم عثمان ثم علي وانتهت الخلافة بتنازل الحسن السبط لمعاوية فصارت ملكاً عضوداً وتقلب الملك في بني امية فالعباسيين فالفاطميين فالسلاطين حتى انتهى الى سلاطين آل عثمان منذ القرن الثالث عشر للمسيح . ويلقب السلطان بخليفة رسول الله وأمير المؤمنين فهو الحاكم السياسي الديني فيتولى بنفسهِ الاحكام السياسية والادارية وينتدب العلماء الصالحين للنيابة عنهُ في النظر في القضايا الدينية فيولي عالماً يفصل القضايا بين المسلمين في المحاكم الشرعية ويسمى « قاضي الاسلام » . وعالماً يستفتى في مسائلهم الحالية فيفتي حسبما تدوّن في كتبهم الشرعية ويسمى « مفتي الاسلام » . وعالماً يراعي شأن العلماء بحسب درجاتهم واستحقاقهم ولياقتهم وينظر في جميع المسائل المتعلقة بهم كالعزل والتولية والايقاف ويسمى « شيخ الاسلام » . وعالماً يراعي مشائخ الطرق الصوفية بحسب درجاتهم واستحقاقهم ولياقتهم وغير ذلك من الامور المتعلقة بهم كالعزل والتولية والايقاف ويسمى « شيخ مشائخ الطرق » أو شيخ السجادات . وعالماً شريفاً يراعي شأن الاشراف المتصل نسبهم بآل البيت من جهة اثبات نسبهم أو نفيهِ ويسمى « نقيب الاشراف » . ويشترط في هذا ان يكون شريفاً من ذرية فاطمة بنت النبي (صلعم) أو من ذرية عمَّيهِ الحمزة والعباس وفي الحديث « الشرف لي ولعمي الحمزة والعباس » .

والآن في كل حكومة اسلامية منظمة قاضٍ ومفتٍ وشيخ للاسلام وشيخ للطرق ونقيب للاشراف عام أو خاص . ويشترط في الجميع اللياقة والاهلية والمعرفة والتفطن لدقائق الامور شرعاً وسياسة . وأهم هذه الوظائف القضاء والافتاء وهما لا يجتمعان في رجل واحد اذ لا يجوز الافتاء سياسة للقاضي ولا القضاء للمفتي

﴿ الزكاة ﴾ ويؤخذ من المسلمين بحسب الشرع زكاة الاموال عيناً أو حرثاً

أو ماشية اذا بلغت النصاب • اما « نصاب العين » فذهباً عشرون ديناراً وفضة مئتا درهم
واما « نصاب الحرث » فهو العشر اذا زرع على المطر ونصف العشر اذا زرع بآلة
واما « نصاب الماشية » فأولهُ في الابل خمس وعليهِ شاة وتمامهُ خمس وعشرون
وتمامهُ في البقر ثلاثون وفي الغنم اربعون • وكذلك زكاة الابدان وهي زكاة الفطر
التي تؤخذ بعد صيام رمضان واما غير المسلمين فتؤخذ منهم الجزية

﴿ بيت المال ﴾ وكان جميع ما يحصل من الزكاة والجزية يجمع في بيت مال المسلمين فينفق منهُ على الجند والفقراء واحتياجات المسلمين كافة

﴿ الغنيمة ﴾ ثم ما يؤخذ في الحرب من الغنائم فخمسهُ لاهل بيت النبي والباقي يوزع على المحاربين بدليل قوله « واعلموا انما غنمتم من شيءٍ فان لله خمسهُ وللرسول » الآية

﴿ الفيء ﴾ واما الفيء فهو ما كسبوهُ من اموال من خالفهم في الدين بلا قتال اما بالجلاء أو بالمصالحة على جزية أو غيرها وهذا نصّ الآية بشأنهِ: « وما افاء الله على رسولهِ من اهل القرى فللهِ وللرسولِ ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياءِ منكم وما اتاكم الرسول فخذوهُ وما نهاكم عنهُ فانتهوا »

﴿ العقوبات ﴾ ومما جاء في عقاب السارق « والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله » الآية • وفي عقاب الزاني « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » الآية هذا اذا كان عزباً واما المتزوج فعقابهُ الرجم • وعقاب كلٍّ من القاذف وشارب الخمرة ثمانون جلدة • واما عقاب القاتل فالقتل • و « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسولهُ ويسعون في الارض فساداً ان يُقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع ايديهم وارجلهم من خلاف أو يُنفوا من الارض » الآية

ولكل من زكاة الاموال وزكاة الابدان والجزية من غير المسلمين والغنائم والفيء والعقوبات باب في كتب الفقه مفصلٌ فيهِ شروطها وكيفيتها ومقدارها فلتراجع

هذا الذي كان عليهِ اهل الاسلام في مبدأ امرهم وهو لا يزال متبعاً في الممالك الاسلامية التي لم يتسع فيها نطاق الحضارة بعد • اما ممالك الدولة العلية التي اتسع فيها نطاق الحضارة فقد تركت مادة الزكاة لاربابها يؤدونها حسبما تقتضيهِ ذمتهم

وسنت قانوناً للضرائب تجمعها من الرعية لحفظ الجند وحماية البلاد وقانوناً للتجارة وقانوناً للمعاملات وغيرها من القوانين التي استلزمها تغير الزمان والاحوال وهي مؤسسة على كتب الفقه الاربعة وموافقة لها في الكليات والمبادئ واساسها كلها العدل

هذه هي خلاصة مذاهب المسلمين وعقائدهم وأئمتهم وطرايقهم واعيادهم وحكومتهم لخصتها عن اشهر كتبهم واجلّ علمائهم وعرضتها على سيادة الاستاذ الاعظم والعلامة الشهم « الشيخ محمد عبده » مفتي افندي الديار المصرية فصدّقها

فأهل السودان المسلمون عموماً من سواكن ومصوع على سواحل البحر الاحمر الى سنيغال على شطوط الاوقيانوس الاتلانتيكي هم في المذهب سنّيون وفي العقائد التوحيدية على مذهب الامام الاشعري • وفي الفقه على مذهب الامام مالك • وهم يشتركون مع العالم الاسلامي في الاعتقاد بالمهدية بل لم يقم بينهم شيخ اشتهر بالعبادة والتقوى الا ظنوهُ المهدي المنتظر • واما في الصوفية فلهم طرق مختلفة اشهرها :

﴿ الطريقة القادرية أو الجيلانية ﴾ وهي أول طريقة اشتهرت في السودان علمها تاج الدين البهاري في اوائل سلطنة الفونج فسلك على يده الكثير من الوجهاء وعمّت جميع بلاد سنار • وممن اشتهر من مشائخ هذه الطريقة قديماً الشيخ ادريس ود أرباب في العيلفون والشيخ عبد الله العركي في أبي حراز واشتهر حديثاً في اواخر الفتح المصري الشيخ العبيد ود بدر في أم ضبّان (ذبان) والشيخ المضوي عبد الرحمن من ذريّة الشيخ ادريس وكلهم على النيل الازرق

﴿ والطريقة القادرية السمانية ﴾ وهي الطريقة الجيلانية القادرية عن فرع الشيخ محمد السماني المدفون بالمدينة وقد دخلت بلاد سنار في آخر سلطنة الفونج عن يد السيد احمد الطيب ود البشير من اهل المدينة المنوّرة الذي توفي في ٢٧ رجب سنة ١٢٣٩ ﻫ ودفن في سفح جبل امّ مَرِح كما مرّ • فصارت القادرية الجيلانية في السودان فرعين فرعاً ينتسب الى عبد القادر الجيلاني بواسطة تاج الدين البهاري المتقدم ذكرهُ وفرعاً ينتسب اليهِ بواسطة السماني • وكان محمد احمد المتمهدي على هذه الطريقة وقد أخذها عن الاستاذ محمد شريف نور الدائم ابن الشيخ الطيب المذكور كما سيجيء

﴿ والطريقة الشاذلية ﴾ دخلت بعد الطريقة القادرية فاشتهرت عند المجاذيب الجعليين في بربر . وكبيرها الشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين بن الشيخ احمد بن لمجذوب الذي توفي ودفن بالدامر سنة ١٢٤٧ هـ

﴿ والطريقة المرغنية ﴾ وهي مأخوذة عن النقشبندية والشاذلية معاً وقد دخلت السودان في آخر سلطنة الفونج على يد السيد محمد عثمان المرغني فاشتهرت في التاكا بين الحلانقة و بني عامر والحباب وفي دنقلة بين البرابرة والشايقية و بعض الكبابيش والبشارين والعبابدة . وكان منها في كل بلاد في السودان نفر قليل . اما مؤسس هذه الطريقة فقد ولد ودفن في مكة ولهُ فيها قبة تزار وهو يرجع في نسبهِ الى النبي

﴿ والطريقة الاسماعيلية ﴾ وهي فرع من الطريقة المرغنية وقد انتشرت في كردوفان على يد مؤسسها الشيخ اسماعيل الولي ابن عبد الله الكردوفاني حفيد الغرباوي صاحب الحوش الذي ذكرناهُ بدنقلة وقد جاء أبوهُ عبد الله بتجارة الى كردوفان فتوطن فيها فرزق ابنهُ اسماعيل هناك فنشأ مشتغلاً بالديانة فدرس القرآن صغيراً قبل البلوغ وتلقى العلوم الاسلامية وأخذ يعلمها لاولاد المسلمين الى ان حضر السيد محمد عثمان المرغني بكردوفان فأخذ عنهُ الطريق فصار من اكابر الاولياء وتفرد منها بفرع خاص عرف بالطريقة الاسماعيلية وهو لا يختلف عن الطريقة الاصلية بشيء الاّ باختصار بعض الاذكار وتطويل بعضها . قيل وقد دوّن الشيخ اسماعيل نحو خمسة واربعين كتاباً في فنون الشريعة والحقيقة اودعها علوماً جليلة لم يسبقهُ اليها احد وقد نوّه بذلك قاضي مديرية كردوفان في قصيدة مدحهُ بها فقال :

فاذا سطوت فلا معارض ينتمي　　　واذا رحمت فأنت اسماعيلُ

«ابديت ما لم يبدهِ من قد مضى»　　　يا من يزين لكفك التقبيلُ

وتوفي بالابيّض في ١٦ رجب سنة ١٢٨٠ هـ فدفن بمسجدهِ هناك و بني فوق قبرهِ قبة تزار الى الآن .

﴿ والطريقة التيجانية ﴾ وهي فرع من الخلوتية ومؤسسها الشيخ احمد التيجاني المشهور المدفون بفاس من اعمال مراكش وطريقتهُ ممتدة في وداي و برنو وغيرها

من غرب السودان الاقصى وقد دخلت سودان النيـل في اواخر الفتح المصري ومن خلفائها الشيخ عبد الماجد ابن اخ محمد الخير المقيم الآن في بربر

﴿والطريقة الاحمدية والطريقة الرفاعية﴾ وهما حديثتان في السودان واتباعهما قليلون

ولاهل السودان في الديانة كثير من الاوهام الفاسدة والاعتقادات البـاطلة كالتكهُّن والتطير والعزائم السحرية والطلاسم ونحو ذلك مما لا ينطبق على الكتاب والسنة ولا يسلم بهِ المسلمون الاحرار وسيأتي الكلام عليهِ في خرافاتهم

الفصل الثالث

في

﴿ معارفهم ﴾

اما المعـارف في السودان فقليلة جدًّا ويندر وجود المدارس في غير المدن والقرى الكبيرة. والمدارس اما اهلية او اميرية والاهلية نوعان : مدارس القرآن ومدارس العلم

اما « مدارس القرآن » فيدرَّس فيها القرآن فقط وهي اما ان ينشئها رجل من حفظة القرآن في بيتهِ فيدرّس فيها بنفسهِ وينفق عليهِ من عندهِ لوجه الله تعالى. واما ان ينشئها رجل من اهل اليسار في بيته فيؤجر فقيهاً براتب معلوم وينفق عليهِ وعلى التلامذة . واما ان يشترك في انشآئها والانفاق عليها اهل البلدة جميعاً فيجعلون المدرسة اذ ذاك في غرفة بلصق الجامع . ويسمى المدرّس في مدارس القرآن " الفكي " (تحريف فقيه) والتلميذ حوارًا (ج . حيران) والمدرسة خلوة . ويدرّس الفقيه القرآن بأن يكتبهُ لتلامذتهِ اجزآء على الواح من خشب العُشر وغيرهِ حتى اذا استظهروا جزءا محاهُ وكتب لهم غيرهُ مما يليهِ . وهو يقسم القرآن اقساماً فكلما اتقن التلميذ قسماً زوّق لوحهُ وكتب عليهِ الآية الاولى من القسم الثاني فيحملهُ التلميذ الى اهله دلالةً على انهُ حفظ قسماً من القرآن فيرسلون معهُ الى الفقيه هدية تسمى « حق الشرافة » . وفي كل اربعاء يأتي كل تلميذ بقليل من الذرة فيسلقونها بالمآء ويأكلونها مع الفقيه

ويأخذون شيئاً منها الى بيوتهم تبركاً وتسمى كرامة الاربعاء . وهم ينقطعون عن المدرسة يومي الخميس والجمعة بأجازة من الفقيه تعرف بالمسامحة ولهم في كل عيد أو موسم مسامحة يدعوهم العريف قبل ابتدائها ويطلب «حق المسامحة» للفقيه فيأتي كل منهم بشيء من الدراهم على قدر طاقته ودرجته في حفظ القرآن . وهم يحفظون القرآن ويرتلونهُ على القراءة المشهورة بالوَرْش في دنقله والسودان الغربي وعلى رواية أبي عمر في باقي السودان . ومتى ختم التلميذ القرآن صنع لهُ اهلهُ في الخلوة حِذاقاً أي وليمة سروراً بهِ واعطوا الفقيه كساء من الدمور أو الدبلان وجانباً من النقود

ويبدأ التدريس عندهم من الثلث الاخير من الليل فيدرس التلامذة على نار الحطب الى ما بعد الضحى ثم ينصرفون الى بيوتهم للغداء ويرجعون عند الظهر فيدرسون الى ما بعد العصر فينصرفون للعشاء ويعودون الى الخلوة فيدرسون على نار الحطب الى العشاء ثم ينامون الى الثلث الأخير من الليل فيعودون الى الدرس وهكذا . واما الحطب فهم يأتون بهِ من بيوتهم أو يخرجون يوماً كل اسبوع فيحتطبون كفايتهم ويسمونهُ يوم الفزعة

واما « مدارس العلم » فتنشأ كمدارس القرآن ولا تكون الاّ في المدن الكبيرة فيعلم فيها اجلّ علمائهم العلوم العربية كمبادي الصرف والنحو وعلم التوحيد وعلم التفسير وعلم الفقه على مذهب الامام مالك وشيء من علم التصوف

ولاهل السودان رغبة شديدة في تحصيل العلوم العربية حتى لقد يقصد بعضهم الازهر الشريف في مصر ويقضي السنين الطوال في تحصيلها وقد أنشئ لهم رواق في الازهر منذ عهد طويل يعرف برواق السنار بين واشهر من تخرج منهم في الازهر: الشيخ احمد ود عيسى صاحب مسجد ود عيسى المشهور بالجزيرة . والسيد احمد الازهري بن الشيخ اسماعيل الولي الكردفاني المار ذكرهُ . والشيخ اسماعيل القادر بن اختهِ . والشيخ عبد الرحمن المضوي . والشيخ الحسين ابراهيم الزهراء من اهل الجزيرة

وكلهم عادوا الى السودان فانشأوا فيها مدارس للعلم . وعاد السيد احمد الازهري سنة ١٢٨٩ هـ الى الابيض وبنى فيها جامعاً ومنازل لطلبة العلم وخلوة

للقرآن فوفد اليهِ الطلبة من كل الاقطار فتخرَّج على يدهِ عدة تلامذة انتشروا في السودان يبثون ما تلقوهُ عليهِ من العلوم وهذه هي العلوم التي علمها تلامذتهُ على الترتيب: النحو والصرف فالتلخيص فجمع الجوامع فمفردات اللغة فالمعاني والبيان والبديع فالعروض والقوافي بمتن الكافي والخزرجية فالمنطق فعلم التوحيد فعلم التفسير والحديث فعلم الفقه فعلم التصوف فعلم الجبر والمقابلة ٥ ومن تلامذتهِ الذين تلقوا عليهِ هذه العلوم كلها ابنهُ السيد اسماعيل وقد حضر الى مصر سنة ١٩٠٠م واطلع شيخ الازهر على معارفهِ فشهد لهُ بغزارة التحصيل واجازهُ بالفتوى والتعليم لاحكام الشرع وقد عينتهُ حكومة السودان الجديدة قاضياً على كردوفان فكان من اجلّ قضاتها

هذا واهل السودان يهتمون بنسخ الكتب العربية لعدم وجود المطابع عندهم فاكثر كتبهم خطيّة وخطهم جميل نظيف. وهم يكتبون بمداد من «السجم» (الكتن) والصمغ في دويات من فخار واقلام من البوص

هذا بشأن المدارس الاهلية في السودان واما المدارس الاميرية فسيأتي الكلام عليها

الفصل الرابع
في
﴿ زراعتهم ﴾

﴿ الاراضي الزراعية ﴾ تقدم لنا في باب الجغرافية الوصفية ذكر انواع المزروعات في السودان وغرضنا الآن الكلام على الاراضي الزراعية وكيفية زرعها. اما الاراضي الزراعية فنوعان مطريّة وبحرية

اما «المطريّة» فهي الاراضي التي ترويها الامطار وتشمل جزيرة سنار والقضارف وكردوفان ودارفور واكثر اعتماد اهل السودان في زراعتهم عليها اذ فيها يزرع الدخن والذرة الكرجي والذرة الفتريته والسمسم والعنكوليب والقطن والتبغ وهي اشهر مزورعات السودان. وعليهِ فالسنة التي يقل فيها المطر تكون سنة جدب وغلاء.

واما «البحرية» فهي الاراضي التي يرويها النيل وهي اربعة انواع:

« ارض السواقي » وهي البرّ الثابت عن ضفتي النيل والجزائر التي لا يغمرها النيل مهما اشتد فيضهُ وهي تسقى بالسواقي والشواديف

« وارض الجروف » وهي جروف الجزائر وجرفا النيل شرقاً وغرباً

« وارض الكرَوة » وهي منخفضات في البرّ الثابت اشبه بترع يغمرها النيل عند اشتداد فيضه . وارض الكرَوة وارض الجروف لا تحتاجان الى سقي وتزرعان بالسلوكة الآتي بيانها

« وارض المترَة » وهي الارض التي تسقى بماء المترَة وهي حفرة واسعة تحفر بعيداً عن النيل فيرشح اليها ماؤهُ وتركب عليها السواقي فتروى بها الارض التي حولها ولكن هذه الامتار لا تحفر الا في بلادي دنقله وبربر حيث يقل نزول الامطار

﴿ الفصول الزراعية ﴾ اما الفصول الزراعية فالاراضي المطرية ليس لها الا فصل واحد وهو فصل الامطار . واما البحرية فلها ثلاثة فصول تحسب بالاشهر القبطية وهي:

« الدميرة » وهو فصل الفيض ويبدأ من اواسط بؤنه ويدوم ٣ اشهر وتزرع فيهِ ارض السواقي فقط ومن زراعتهِ الذرة الشامي والذرة المقُد والقطن والعنكوليب

« والشتوي » وهو فصل نزول النيل فيبدأ من اواسط توت ويدوم ستة اشهر وهو اهم الفصول الزراعية وفيهِ تزرع ارض السواقي بعد حصد زراعة الدميرة وتزرع الجروف والجزائر التي يغمرها النيل وارض الكروه وارض الامتار . ومن مزروعاتهِ الذرة الشامي والمقُد والعنكوليب وقصب السكر والدخن والفول السوداني والقمح والترمس وجميع انواع الخضر والفاكهة المتقدم ذكرها

« والصيفي » وهو فصل التحاريق ومدتهُ ثلاثة اشهر من اواسط برمهات الى اواسط بؤنة وتزرع فيهِ ارض السواقي والجروف ببعض انواع الخضر والفاكهة وبالذرة ايضاً ولكنها تحصد قبل اوانها فيجعلونها علفاً للبهائم وذلك لكي يعدُّوا الارض لزراعة الدميرة

ثم ان لكل نوع من الزرع ارضاً يجود فيها فالدخن يجود في الارض الرملية والذرة في الارض التي يكثر فيها الماء والبطيخ في ارض الجروف الرملية والخضر في ارض الجروف غير الرملية

﴿ الآلات الزراعية ﴾ اما الآلات الزراعية عندهم فبسيطة جدًّا وقليلة وهي :

« السواقي والشواديف » وهي كما في صعيد مصر الاَّ انها اضخم حجماً وابطأ حركة . وقد استعملوا بعد الفتح الاخير السواقي الحديدية الجديدة من اختراع الذكي النشيط الخواجه اسكندر نصره فنجحت نجاحاً عظيماً

« والمحراث » واستعماله قليل بل لم يكن معروفاً عندهم قبل الفتح المصري

« والطوريّة » وهي كالطورية المصرية وهم يستعملونها لقلب الارض التي تسقى بالسواقي والشواديف

« والسلُوكة » وهي آلة خاصة بالسودان وتزرع بها الحبوب في الاراضي اللينة اي في الجروف والاراضي الرملية وهي عصا طويلة معقوفة كالصولجان ولها رأس عريض محدد فيه وتد طوله نحو شبر . واما كيفية استعمالها فهي ان الزارع يغرزها في الارض ويدوس برجله على الوتد ثم يرفعها فيصنع بها صفوفاً من الحفر الصغيرة بعضها بجانب بعض ويتبعهُ آخر فيبذر الحب المعروف عندهم بالتيراب وفي مصر بالتقاوي . وفي السودان الغربي آلة تشبه السلوكة تعرف بالكدنقه

« والواسوق » وهي عصا طويلة في رأسها لوح عريض مثقوب من طرفيهِ وفي كل ثقب حبل تستخدم لشق الاتلام والجداول بعد حرث الارض ويعمل بها رجلان او ثلاثة معاً فرجل يغرز اللوح في الارض وواحد او اثنان يشدان بالحبلين تجاههُ

« والملودة » وهي عصا معقوفة لها في رأسها حديدة كحديدة الفاس تستعمل للحرث في جهات خط الاستواء . هذه هي آلات الزراعة واما آلات الحصاد فهي:

« النورج » وهو كالنورج المصري المعروف

« والمنجل » وهو مسنن كالمنشار يستعمل لقطع سنابل الذرة وغيرها

« والمنباب» وهي آلة كالفاس الا ان حديدها داخل في النصاب وليس النصاب داخل في الحديد كما في الفاس وهي تستعمل لحصد سوق الذرة بعد قطف سنابله

« والحشَّاشة» وهي تشبه الفاس ايضاً الاَّ ان حديدها مركب في رأسها عاموديًّا لا افقيًّا كما في الفاس وهي من آلات السودان الغربي وتستعمل للحش ذهاباً واياباً

﴿ مخازن الحبوب ﴾ وهم يخزنون الذرة أو الدخن في ازيار كبيرة مصنوعة من طين تعرف بالسوبيات أو في مطامير تحت الارض وهي حفر واسعة يفرشون ارضها وجوانبها بالتبن ويملأونها حبوباً ثم يحثون التراب فوقها على شكل قبة حتى اذا اصابتها الامطار سالت عن جوانبها ولم تنفذ اليها وهي شبيهة بالآبار التي تخزن فيها الغلال في بلاد حوران وشمالي سورية

﴿ مسح الاراضي ﴾ وفي السودان لا تقاس الاطيان بالفدان كما في مصر بل بالسواقي والجدعات. اما الساقية فهي عبارة عن ثمانية افدنة في الجزر وعشرة في البرّ الثابت . واما الجدعة فسيأتي بيانها

﴿ تربية المواشي ﴾ وهم يربون الخيل والابل والبقر والغنم والمعزى كما قدمنا وينتفعون بنتاجها وسمنها وصوفها وجلودها ويدخلونها في التجر

الفصل الخامس
في
﴿ صنائعهم ﴾

وعند اهل السودان من الصنائع ما يكفي لسد حاجاتهم الضرورية فمن صنّاعهم :

﴿ الحدّادون ﴾ وهم يستخرجون الحديد من الارض ويصنعون منهُ الحراب والسكاكين والفؤوس والآلات الزراعية. واما سيوفهم و بنادقهم ورصاصهم فيجلبونها من الخارج وسيأتي الكلام عليها

﴿ والصاغة ﴾ وهم يصوغون الحلى والآنية من الذهب والفضة على الطراز المعروف بالشفتشي والسناري واشهر ما يصنعونهُ من الحلى الاقراط والخزائم والاساور والحجول ومن الآنية الصواني والمباخر وظروف الفناجين . ومنهم من يحسن خرط العاج والخرتيت فيصنع منهما الاسورة والفناجين ومن الخرتيت الاقداح التي يعتقدون ان الشرب بها نافع للمسمومين

﴿ والحاكة ﴾ ويعرفون بالنساجين أو القزّازين وهم يحوكون نسيجاً ثخيناً من

القطن يشبه الخام يسمونهُ «الدمُّور» وهو لباس عامتهم ويصنعون منهُ ايضاً نسيجاً دقيقاً لهُ حاشية حرير ملوّنة تلبسهُ النساء ويعرف بالمرقّعات . والحياكة خاصة بالرجال اما الغزل فعمل النساء وقد يشاركهنَّ فيهِ الرجال وذلك من اقبح علامات الكسل . وهم يحوكون من الصوف شملات طول الواحدة منها خمس اذرع الى ست وعرضها ثلاث اذرع الى اربع يتدثرون بها ولا سيما عند التدخين وهي عادة يأتي ذكرها . ويصنع النساء العراقي والمناديل المطرزة . وبعد الفتح المصري تعلمنَ التطريز على المنسج بالحرير والقصب . ويصنع الجواري والنساء المعوزات البروش والاطباق والمقاطف والمكبّات وغيرها من آنية البيت ملوّنة أو غير ملوّنة يصنعنها من سعف الدوم والنخيل وسوق القمح

﴿ والدباغون ﴾ وهم يدبغون جلود البقر والغنم والابل لصنع الاحذية والاجربة وغيرها . واحسن الجلود عندهم المدبوغة بالمدُس والعرَد

﴿ والبناؤون ﴾ وهم يبنون المنازل من طوب أو حجر وطين ولهم معرفة بصنع الجير وعمل الطوب الاحمر ولكنهم قلما يستعملونهما في سوى المدن الكبيرة

﴿ والنجارون ﴾ وهم يصنعون الابواب والشبابيك والكراسي الضخمة وخشب سروج الحمير والابل والخيل والاسرة المعروفة بالعنكريبات واقداح الطعام والسواقي . ولبعضهم مهارة في بناء المراكب وعندهم اخشاب كثيرة تصلح لعمل المراكب اصلحها كلها خشب السنط كما مرَّ . ومراكبهم ثلاثة انواع : النقورة (م نقَر) وهي اكبرها ويستخدمونها لنقل الغــلال والبضائع . والمعدّيات وهي أصغرها . والقيّاسات (م . قيّاسة) وهي وسط بين النقورة والمعديات وتستعمل لنقل البضائع عند نزول النيل . وبعد الفتح المصري تعلموا صنع الذهبيات . هذا ومراكب السودان أضخم من مراكب مصر الأ انها اشدّ وأمتن وقد رأيت في بلاد النوبة مراكب لهــا شُرُع مستطيلة الشكل لامثلثةً كما في مصر والسودان الجنوبي فسألتهم عن ذلك فقالوا انها هكذا اصلح للسير بين الشلالات من السفن المثلثة الشرع

﴿ والسكافون ﴾ وهم يصنعون الاحذية على قوالب تشبه القوالب المصرية الأ

انها معقوفة الرؤوس كذنب العقرب . ويجلّدون اغماد السيوف والسكاكين وسروج الحمير والابل والخيل ويصنعون الدرق من جلود الجاموس والزرافة وفرس البحر والفيل والسياط من جلد فرس البحر . ويصنعون من لحى الشجر الحبال والشباك والقفاف « اللحاوي » التي تستعمل لنقل الصمغ

﴿ والخزّافون ﴾ وهم يصنعون الازيار والقلل والبرام وهي قدور للطبخ ونقل الماء والدوكات (على شكل الصيجان) للخبز . وفي اكثر المدن يستخرجون الشيرج من السمسم بمعاصر كمعاصر اهل الشام ومصر . وبعد الفتح المصري تعلموا عمل الصابون فصنعوهُ على ضعف . ولهم معرفة بصنع الفحم والبارود

هؤلاء هم صنّاع السودان وهذا كل ما يصنعونهُ . واما النجارون والحدادون والمهندسون وغيرهم من الصناع الذين تحتاج اليهم حكومة السودان الآن لاشغالها الخاصة فتأتي بهم من مصر أو من بلاد الانكليز

الفصل السادس

في

﴿ تجارتهم ﴾

﴿ الوارد من السودان ﴾ اهمّ ما في السودان تجارتها واهم ما يرد منها :

« الصمغ » وهو انواع اجودهُ صمغ الهشاب واكثرهُ من كردوفان وصمغ الطلح واكثرهُ من الجزيرة

« وسن الفيل » واكثر ورودهِ من بحر الغزال وخط الاستواء . وهو يختلف في الجودة بحسب كبرهِ وسلامتهِ من التشقق . وسن الانثى اطرى واجود من سن الذكر

« وريش النعام » واكثرهُ من اواسط السودان وهو انواع اجودها الريش الابيض ثم الاسود وكلاهما ريش الذكر ثم الربده ولونهُ رمادي وهو ريش الانثى

« والبلح » يأتي من مديرية دنقلة من بلاد سكوت والمحس والشايقية

« والتمر الهندي » ويسمونهُ العرديب واكثرهُ من دارفور وكردوفان

« والسنّا » واكثرهُ من جزيرة سنار . « والحرتيت » واكثرهُ من بحر الغزال « واللاستك » ويرد من بحر الغزال وخط الاستواء . « وجلود البقر » واكثر ورودها من كردوفان . « وجلود فرس البحر » التي تصنع منها السياط . « والسياط » « والذهب السناري » « والابنوس والنعام الحي والقرود والببغاء » ووارداها قليل « والشّشم » ويعرف هناك بالحبة السوداء أو حبة العين وهو بقدر حب العدس وشكلهِ . ولونهُ أسود لامع يرد من دارفور فيسحقونهُ ويستعملونهُ كحلاً للرمد « والعسل والشمع » ويُؤتى بهما من خلايا النحل البريّة

وكان « الرقيق » من أهم واردات السودان فمنعت الحكومة تجارتهُ قطعيًا منذ الفتح الاول ولكن النخّاسين لا يزالون يهربونهُ (على قلة) بطريق سواحل البحر الاحمر رغمًا عن التحوطات الشديدة التي تتخذها الحكومة لمنعهِ

﴿ الصادر الى السودان ﴾ ويصدر الى السودان كثير من بضائع اوربا ومصر والحجاز والهند والشام عن طريق النيل وسواكن ومصوع

فمن « اوربا » الدبلان الابيض والمصبوغ اسود وازرق . والخام الابيض والمصبوغ اسود وازرق . والشاش الابيض والاحمر . والشيت والغزل . والصوف المحلول الاحمر والاسود لصنع حواشي المنسوجات . والحرير والقيطان . والشمسيات . وورق السكاير . والابر . والمبارد . والصفيح . والزجاج . والفناجين . والنشادر والقصدير والقلفونية . وانواع الخرز والسوميت والمرجان والكهرمان . وورق الكتابة واكثرهُ من المعروف « بأبو شباك » وهو الثخين الاسمر يستعملونهُ لنسخ الكتب . وسلك النحاس الاصفر الثخين . والكحل . واساور النحاس والاقراط . والسنبل وارد ترياسته ترش بهِ اكفان الموتى ويتخذ ايضاً للدهان . والاجراس الصغيرة تعلق في ارسنة الابل والبقر والخيل . والمرايا الصغيرة المربعة والمستديرة . وزيت النفط يغشّون بهِ العطور . وازرار الصدف وقد تتخذهُ النساء حُلى . والريال النمساوي

ومن « الهند » عنكريات صاج . وثياب سرتي . وقرون خمري حرير . والجلاد (صرّة المسك) وعطر الصندل . وعطر فتنة محلبية المعروف بعطر شاه بيضاء .

وعطر فتنه سرّتيه احمر • وعطر قرنفل ويسمى مجموع • والقرنفل • والظفر وهو نوع من الصدف يدق ويُجعل في الروائح العطرية • والمحلب • وخشب الصندل

ومن « الحجاز » وغيرها من بلاد تركيا في اسيا : عناكريب حُق • واللبان (البخور) • واحقاق للروائح العطرية • والمحلب الاسلامبولي • والشيبة الازميرية • والمرسين وهو حب الآس يستعمل في الطبخ والدلكة • وجلود «المرعز» وارد الاناضول يستعمله الخاصة فراء لحميرهم وجمالهم • وسبح الصدف من القدس • وسبح الكوك من الاستانة • وسبح اليسر من جدة تتحلى بها النساء • والشاي • والسجاجيد من بلاد العجم • والطرابيش الافرنجية تقليد المغربي والطرابيش الاسلامبولية

ومن « مصر » المسمار البلدي اللازم لبناء المراكب والسواقي • وقرون فوط عاده خيط وسبح بقس وبرصه ملاية حرير والسكر والصابون على اجناسه والعدس والنحاس والسيوف والبنادق ٭ ومن وارد الشام عن طريق مصر قمر الدين واللوز والبندق والجوز والتين والخروب والزبيب والزيتون

﴿ الاسواق التجارية ﴾ ثم ان لكل بلدة شهيرة في السودان سوقاً تجارية عامة تفتح في يوم معين من الاسبوع فيجتمع اليها التجار والمتسببون لبيع ما عندهم من السلع والمواشي والحبوب وشراء ما يحتاجون اليه وذلك على مثال الاسواق في مصر والشام والمعارض في اوربا واميركا • واشهر اسواق السودان التجارية : اسواق الاوردي وابي قسّ والدبه وتنقاسي وبربر وشندي والخرطوم والمسلمية وود مدني وسنار والابيّض وباره والفاشر والقلابات والقضارف وكسلة وسواكن

﴿ الاسواق العادية ﴾ واما اسواق البلاد العادية فيباع فيها : لحم البقر والابل وقليل من لحم الغنم • واللبن الحليب والرائب والزبدة والسمن والشيرج • وانواع القطاني كالذرة والحمص والفول والترمس • والخضر كالباميا الخضراء والمقدّدة والملوخية والبصل • والفاكهة كالدوم والبلح والنبق والقراصه والعرديب (التمر الهندي) واللالوب (ثمر الاهليلج) والعكا (تمر الدوم مدقوقاً) • والبهارات كالشطة والفلفل الاحمر والقرفة • والروائح العطرية • والنطرون والملح والحنة والششم والتربية والنعال والجربان وغيرها

﴿ الدوّارون ﴾ ومن المتسببين من يحمل بضاعتهُ من عطور وبهارات وغيرها في خرج كبير على حمار ويطوف بها في القرى والدساكر متنقلاً من سوق الى سوق. وبعض النساء يحملن الثمار والبقول وغيرها من المأكولات في مقاطف على رؤوسهنَّ ويطفن على البيوت وهنَّ ينادين الى شرائها بتكرار اسمها هكذا : «الدوم يا شاري الدوم» «الملوخية يا شاري الملوخية»

وتباع الاشياء في السودان كما في مصر والشام بالمساومة الا ان البائع في السودان قلما يعيّن ثمناً لسلعتهِ بل يقول للشاري عند سؤالهِ عن الثمن «تكلم» فاذا دفع لهُ ثمناً لم يعجبهُ قال لهُ «يفتح الله» ولا يزال يكرر قولهُ هذا حتى يرضيهِ الثمن المدفوع فيقول «مبارك»

﴿ الطرق التجارية ﴾ وللسودان طرق تجارية داخلية وخارجية اما الخارجية فاشهرها:

طريق بربر الى سواكن ٢٤٥ ميلاً . وطريق كسله الى مصوع ٢٣٧ ميلاً وطريق بربر الى اسوان ٤٧٣ ميلاً . وطريق ابي حمد الى كورسكو ٢٣٠ ميلاً وطريق الفاشر الى اسيوط المعروفة بطريق الاربعين لانها مسيرة اربعين يوماً وقد تقدم ذكرها مع ذكر الطرق الداخلية في الكلام على المدن والعواصم فلتراجع

اما «طريق النيل» فقلما استعملت في التجارة الخارجية لطولها وكثرة نفقاتها . والتجارة بالطبع تتخيّر اخصر الطرق واقلها نفقةً

﴿ ادلاء الطرق ﴾ وللنيل منذ القديم ادلاء يقودون السفن فيهِ للنجاة من اخطارهِ التي اهمها الجزر والدبور الرمليـة والشلالات والعواصف . واكثرهم من البرابرة وكذلك لكل طريق من طرق البرّ ادلاء لا تسير القوافل الاّ بهم وقد كان لبعضهم عادة غريبة مع المسافرين يقتضون بها الجعالة فوق الاجرة المعتادة وذلك انهم كانوا اذا وصلوا الى معطشة اوقفوا القافلة وشرعوا في البكاء منادين «الدائم الله في امر الله في سبيل الله» كأنهم يندبون ميتاً ويوعزون الى رئيس القافلة ان يعطيهم الجعالة المعروفة عندهم «بالعادة» فان أبى رسموا لهُ قبرًا في الرمل وبكوا فوقهُ الى ان يدفعها لهم . روى بورخارت انهُ لما كان مسافرًا في عقبة البنات في بلاد سكوت طلب دليلهُ منهُ العادة فدفعها ثم اتى الى عقبة اخرى فطلبها منهُ فأبى فرسم لهُ قبرًا

واخذ يبكي عليهِ هو ورفاقه فنزل بورخارت اذ ذاك عن دابته ورسم قبرًا للدليل وطفق يبكي عليهِ فضحك الجميع وعادوا الى المسير • وكان شيخ الطرق بين بربر والنيل في الفتح الاول حسين باشا خليفة كبير العابدة المليكاب

﴿ وسائط النقل ﴾ اما وسائط النقل « في البرّ » فهي الابل والحمير والبقر ولكن لا يستعمل منها في التجارة الاّ الابل أو الحمير مع الابل • وحمل الجمل المعتاد ٣٦٠ رطلاً مصريًّا يحزم في عدلَين وسيرهُ في اليوم من ١٢ : ١٨ ساعة بحسب كثرة المياه أو قلتها في الطريق • واكثر سير القوافل ليلاً فهي تقوم في الغالب في الثلث الاخير من الليل فتسير الى الضحى وتقف للمقيل الى العصر ثم تستطرد المسير الى العشا فتقف للمبيت وهكذا تُكفى شدة الحر والعطش

واما وسائط النقل « في البحر » فهي المراكب الشراعية والاطواف المصنوعة من العنبج المتقدم وصفها • ومن وسائط عبور النيل عندهم القِرَب المنفوخة والقرع اليابس وجذوع النخل والدوم والارماث الشبيهة بأرماث المصريين القدماء ونحو ذلك

ومن وسائل النقل المستحدثة «السفن البخارية» وقد دخلت السودان منذ الفتح الاول • «والسكك الحديدية» التي انشئت في الفتح الاخير فأبطلت اكثر طرق الصحراء القديمة • وسيأتي الكلام عليها بالتفصيل

﴿ النقود ﴾ واهم اصناف النقود الرائجة في السودان الآن :

« ريال ابو طيره » وهو ريال ماريا تاريسا النمساوي المشهور وقد سمي بذلك لان على احد وجهيهِ صورة نسرين • ويقال لهُ القوشلي ايضاً وهي لفظة تركية بمعنى ابو طيره • ويسمى ابو نقطة لان على وجههِ الثاني نجمة • وهو رائج في جميع بلاد السودان الشرقي والحبشة • وقد دخل السودان قبل الفتح المصري

« والريال المجيدي » وهو رائج في السودان الغربي منذ الفتح المصري

« والمقاطع » وهي قطع من الخام طول الواحدة منها ٢٤ يردًا ووزنها رطلان مصريان وقد دخلت بلاد دارفور بعد الفتح المصري فاستعملت مع قطع الدمور التي كانت رائجة قبلاً في جميع بلاد السودان كما سيجيء

« واسلاك النحاس والخرز الملوّن والاجراس » وهي رائجة في بلاد العبيد « والنقود المصرية الجديدة » التي دخلت بعد الفتح الاخير فراجت في جميع بلاد النيل والمدن الكبيرة وستعم بلاد السودان كلها . هذا وفي الفتح الاول راجت العملة المصرية القديمة . وفي زمن المهدية راجت النقود التي ضربها المهدي وخليفتهُ وكان اكثرها مزيفاً فأبطلت هذه وتلك كلها

﴿ التاريخ ﴾ واما التاريخ المستعمل في التجارة منذ القديم فهو التاريخ القمري الهجري ثم استعمل بعد الفتح الاول التاريخ الشمسي المسيحي . وهاك معادلة بسيطة تحوَّل بها سنو التاريخ الهجري الى المسيحي و بالعكس :

م = هـ − هـ/٣٣ + ٦٢٢   هـ = م − ٦٢٢ + (م−٦٢٢)/٣٢

وهم يعينون الظهر بوقوع الشمس فوق سمت الرأس . والعصر بوقوعها تجاه الجبهة اذ يكون ظل الانسان بطول قامتهِ . والعِشا بغياب الشفق الاحمر

﴿ المقاييس والمكاييل والاوزان ﴾ واما المقاييس والمكاييل والاوزان المستعملة في السودان الآن فهي المقاييس والمكاييل والاوزان المصرية بعينها

اما « المقاييس القديمة » فهي الذراع . والقبضة . والعمامة وهي القبضة برفع الابهام ويقال لها قبضة وشنب . والخبطة وهي الساعد من رأس السبابة الى الكوع . والعود وهو ٣ خبطات . والحبل وهو ٣ اذرع وقبضة وعمامة . والجدعة المشار اليها آنفاً وهي ثلاثة حبال ونصف حبل وهم يستعملونهــا في قياس الاراضي الزراعية

واما « المكاييل القديمة » فهي : السلقة وهي ملء الكف الواحدة . والهين وهو الحُفنة . والطاسة وهي سلقتان . والمد وهو اربع طاسات . والربع أو البرمه وهو اربعة امداد . والويبة وهي ربعان أو برمتان . والاردب وهو اربع ويبات ونصف . والرَّحل وهو حمل جمل أو نحو اردبين

واما « الاوزان القديمة » فأوزان الذهب : الاوقية . ونصفها . والمثقال وهو ربعها . والقسمة وهي نصف المثقال . والقيراط وهو نصف القسمة . والحبة وهي جزء من عشرين جزء من القيراط . والعتيسة وهي نصف الحبة . والخرُّوبة وهي نصف العتيسة

﴿ تجار السودان ﴾ واشهر تجار السودان الآن في « سواكن » :

عوض الكريم بك شناوي (حجازي) سر تجار * ومحمد افندي الكابلي (سوداني)

وعبد الله افندي مسلّم («)	والشيخ عبد العزيز احمد يحيى (حجازي)
وعلي افندي جاويش («)	والسيد محمد دين (وطني)
ومصطفى افندي جيلاني («)	والخواجه لوسن (هندي بنياني)

وفي « اسوان » :

مصطفى بك منصور حماده سر تجار	والخواجه خليل كفوري (لبناني)
والشيخ عبد السلام الشامي	والشيخ علي شنكو
ومحمد بك خليل	ومدني افندي بن احمد بك جلاّب
والخواجه اراكيل سركيس (قبطي)	اخو المرحوم بطرس بك سركيس

وفي « حلفا » :

عمر افندي فخري سر تجار	والخواجا جرجي حكيم (حلبي)
والشيخ علي الشامي	والخواجا جرجي حبري (حلبي)
والسيد خالد باشات	والخواجا لويزو ولهُ لوكندة جميلة للسياح

وفي « بربر » :

السيد محمود علي الضوي سر تجار وحسن افندي السليني

وفي « الخرطوم » :

محمد بك حسن سر تجار (مصري)	وعلي بك الخبير وهو تاجر قديم شهير
والحاج احمد الدابي * ويوسف كورتي	ورضوان الحاج عثمان الطوبجي
والحاج محمد مكينة * ومحمد صالح البغدادي	وعبد الرحمن منصور واخوه محمد
وسيد احمد سوار الدهب	و بشير عامر * والسيد عُمر الصافي
وعبد الله جبلي * والبلاّل ود الاسيدة	والخواجا عزيز كفوري
والخواجا خضر داود	والخواجا قمحي

وجرجي بك بغدادي * وابراهيم بك خليل وبولس بك صليب * وعثمان بك مكوار

والخواجا جرجس استمبوليه (حلبي) والخواجا سوريال سعد واخوه انطونيوس
والخواجا نعوم عججي والخواجا اسكندر يغمور
والخواجات لويزو . وكباتو . وكفادياس . وجريقا . ولوقا . وسنجر . ونظارت .
وكسترو . وجلبنج خنيان . وناتان وهم من التجار الافرنج العظام

ومن تجار « الخرطوم » السابقين المشهورين :
المرحوم الجزولي بك بن الحاج محمد التلب (من المسلمية) والمرحوم اخوه حمد بك
والشيخ سليمان بك الدّراوي الذي عين سر تجار الخرطوم في حصار الخرطوم
والمرحوم محمد باشا حسن الذي عين مأمورًا لمالية السودان في حصار الخرطوم
والمرحوم النخيلي فخري (مصري) والمرحوم سليمان عويس (مصري)
وقناوي بك ابو عموري (مصري) وحسن بك عبد المنعم (مصري)
المرحوم عبد المسيح حبشي ومحمد ابو حسان (جعفري)
والخواجا عبد المسيح جرجس سعد ومحجوب البصيلي
ومحمد عبد الرحمن البشير والمرحوم ابو بكر الجركوك
وزنوبة المنياوية والخواجا بطرس بولس

وفي « الخرطوم » الآن فرع من البنك المصري وفرع من البنك الاهلي

وفي « الابيض » :
الشيخ تقي احمد سر تجار والخواجا حسيب ادلبي (لبناني)

ومن اشهر تجار « الابيض » السابقين :
المرحوم الياس باشا ام برير (جعلي) والمرحوم محمد ين ود العريق (جعلي)
والمرحوم محمد الحاج بان النقادو محمد (رازقي) المرحوم احمد بك دفع الله (جعلي)

وفي « ود مدني » : وفي « كسله » :
عثمان الزين سر تجار الشيخ فتح الرحمن محمد عثمان سر تجار

هذا وفي مصر الآن تجار كثيرون يتجرون مع السودان وقد اسسوا فيه محلات تجارية واشهرهم :

الخواجا جرجس براهمشا	(حلبي)	والخواجا الياس دباس	(سوري)
والخواجا شمعون اريب	(اسرائيلي)	والخواجا الياس عجوري	(حلبي)
والحاج ابرهيم بك وفا	(شامي)	والخواجات اخوان باحكيم	(حضارمة)
والحاج عبد المجيد حسن غريب		والخواجات اخوان يغمور	(حلبي)
والسيد محمد زين	(جعلي)	وسوريال افندي سعد	(قبطي)

والسيد عبد الله الكحال (شامي) ولهُ ايضاً تجارة واسعة مع ودَّاي والسودان الغربي

ومن تجار مصر الذين لهم محلات مشهورة في بيروت ويتجرون مع السودان :

الخواجات فرعون وعيسى وشركاهم والخواجات صهيون ومنسى وشركاهم

والخواجا حسيب غبريل وشركاه

هذا وممن اشتهر من تجار مصر في الفتح الاول بالتجارة مع السودان وكان لاكثرهم « مشارع » في بحر الغزال

الخواجا حبيب لطف الله من اعيان تجار بيروت وكبير طائفة الروم الارثوذكس في مصر

والمرحوم فرج الله الموصلي	(حلبي)	والمرحوم رزق الله الجدّ	(حلبي)
والخواجا نعوم سكر	(«)	والخواجا جرجي الجويجاتي	(«)
والخواجات سياهو عدس	(«)	والخواجات كبريت وغاصين	(«)
والمرحوم السيد محمد باشات	(حمصي)	والسيد عبد القادر طه	(شامي)
والمرحوم الحاج سعد الله حلاّبه	(شامي)	والسيد رضوان القربي	(حلبي)
والحاج عمر وعثمان اغا الارناؤط		والحاج محمد الجابي	(مغربي)
والحاج محمد الحلو	(مغربي)	والمرحوم السيد عبد الغني التازي	(مغربي)

والمرحومون السيد محمود السيوفي واخواه محمد باشا واحمد باشا السيوفي (مصريون)

والمرحوم السيد موسى العقاد وهو اقدم التجار المصريين الذين اتجروا مع السودان

والسيد حسن موسى العقاد ابنهُ ٥ والمرحوم السيد احمد العقاد شريكهُ في الخرطوم

وهذه هي قيمة الصادر الى السودان والوارد منهُ من سنة ١٨٩٢ الى غاية ١٨٩٩ :

الصادر ٨٩٦ ٤٧٧ ج ٠ م والوارد ٤٥١ ٣٩٧ ج ٠ م

الفصل السابع

في

﴿ حكومة السودان ﴾

قبل الفتح الاول

كانت حكومة السودان في عهد مملكتي سنار ودارفور على مثال الحكومات الاسلامية في صدر الاسلام

حكومتها في الفتح الاول

ثم كان الفتح المصري فأصبحت حكومتها في يد ولاة الامور في مصر وكثيرًا ما غيروا تقسيمها الاداري فجعلوها تارة حكمدارية واحدة وتارة اقاليم كلٌّ منها تابع مباشرة لمصر حتى اتفقوا اخيرًا على جعلها حكمدارية واحدة تحت حاكم عام يرجع في احكامه الى نظارة الداخلية بمصر ويقيم في الخرطوم حيث بنوا لهُ قصرًا جميلاً خاصًّا بهِ

وقد جعلوا في كل مديرية مديرًا يحكمها تحت ادارة الحاكم العام وكان الحكام والمديرون يرسلون اليها من مصر فيديرون احكامها على منوال ادارة الحكومة المصرية . وقد جعلوا مع كل مدير وكيلاً لهُ وعدة معاونين وكتاب وقاضيًا ووكيل قاض ومفتيًا ومجلسًا اهليًا وضابطة . وجعلوا في كل قسم ناظرًا ومعاون ناظر وكاتبين وصرافًا . وعهدوا في تحصيل الضرائب الى النظار ومشايخ البلاد والجند . وكان في كل مديرية حامية عسكرية . وكان الجند على نوعين جهادية و باشبوزق . اما الجهادية فهم العساكر المنظمة من البيادة والطوبجية فالبيادة مصريون وسود والطوبجية مصريون فقط . واما الباشبوزق فهم العساكر غير المنظمة وهم اما مشاة أو فرسان يركبون الخيل أو الهجن واكثرهم من الشايقية من اهل البلاد والاتراك والمغاربة أو مواليدهم .

وكان دَخل السودان في اواخر الفتح الاول نحو ٧٠ الف كيس ونفقاتهُ مثل ذلك أو ازيد . وكان اكثر دَخلهِ من الضرائب والجمارك والملاحات التي على البحر الاحمر وابار النطرون والويركو على التجار وارباب الصنائع والعقب على المراكب .

اما الضرائب فعلى العرب البادية بحسب عدد ماشيتهم من الابل والبقر والغنم وعلى الحضر بحسب عدد سواقيهم ونخيلهم • واما الجمارك البحرية فعلى حسب العهود الدوليَّة

حكومتها في المهدية

ثم لما سقطت البلاد بيد المتمهدي ويد خليفتهِ التعايشي من بعدهِ جعلا حكومتها على مثال الحكومة الاسلامية في صدر الاسلام فألغيا الضرائب وجمعا الزكاة والفطرة واقاما بيت مال المسلمين ولما انتهى الحكم الى التعايشي حكمها حكماً عسكريًّا فقسمها الى عمالات كما مرّ واقام على كل عمالة عاملاً فوّض اليهِ السلطة العسكرية والادارية وجعل معهُ وكيلاً لهُ وقاضياً ونائب قاضٍ وكتّاباً • وجعل ام درمان عاصمة ملكهِ ولكنهُ اساء الادارة وخلط بين الملك والخلافة فطغى وبغى وظلم الرعية وعظمت منهُ البلية

حكومة السودان الحاضرة

فنهضت مصر برأي الانكليز ومعونتهم واسترجعت البلاد منهُ مديرية بعد مديرية وكانت كلما استرجعت مديرية ولّت عليها مديرًا عسكريًّا الى ان كانت واقعة ام درمان واصبح السودان كلهُ في قبضة يدها فعقدت وفاقاً مع الحكومة الانكليزية في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ هذا نصهُ :

وفاق

بين حكومة جلالة ملكة الانكليز وحكومة الجناب العالي خديو مصر بشأن ادارة السودان في المستقبل

حيث ان بعض اقاليم السودان التي خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد صار افتتاحها بالوسائل الحربية والمالية التي بذلتها بالاتحاد حكومتا جلالة ملكة الانكليز والجناب العالي الخديوي * وحيث قد اصبح من الضروري وضع نظام مخصوص لاجل ادارة الاقاليم المفتتحة المذكورة وسنّ القوانين اللازمة لها بمراعاة ما هو عليهِ الجانب العظيم من تلك الاقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال الى الآن وما تستلزمهُ حالة كل جهة من الاحتياجات المتنوّعة * وحيث انهُ من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على ما لها من حق الفتح وذلك بأن

تشترك في وضع النظام الاداري والقانوني الآنف ذكرهُ وفي اجراء تنفيذ مفعولهِ وتوسيع نطاقهِ في المستقبل * وحيث انهُ تراءى من جملة وجوه أصوبية الحاق وادي حلفا وسواكن اداريًا بالاقاليم المفتتحة المجاورة لهما * فلذلك قد صار الاتفاق والاقرار فيما بين الموقعين على هذا بما لهما من التفويض اللازم بهذا الشأن على ما يأتي وهو :

(المادة الاولى) تطلق لفظة السودان في هذا الوفاق على جميع الاراضي الكائنة الى جنوبي الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهي :

اولاً الاراضي التي لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢ أو

ثانيًا الاراضي التي كانت تحت ادارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الاخيرة وفقدت منها وقتيًا ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد أو

ثالثًا الاراضي التي قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعدًا

(المادة الثانية) يستعمل العلم البريطاني والعلم المصري معًا في البرّ والبحر بجميع انحاء السودان ما عدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها الا العلم المصري فقط

(المادية الثالثة) تفوّض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية في السودان الى موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينهُ بأمر عال خديوي بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ولا يفصل عن وظيفتهِ الا بأمر عال خديوي يصدر برضاء الحكومة البريطانية

(المادة الرابعة) القوانين وكافة الاوامر واللوائح التي يكون لها قوّة القانون المعمول بهِ والتي من شأنها تحسين ادارة حكومة السودان أو تقرير حقوق الملكية فيهِ بجميع انواعها وكيفية أيلولتها والتصرف فيها يجوز سنها أو تحويرها أو نسخها من وقت الى آخر بمنشور من الحاكم العام وهذه القوانين والاوامر واللوائح يجوز ان يسري مفعولها على جميع انحاء السودان أو على جزء معلوم منهُ ويجوز أن يترتب عليها صراحة أوضمنًا تحوير أو نسخ أي قانون أو اية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التي يصدرها من هذا

القبيل الى وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانية بالقاهرة والى رئيس مجلس نظار الجناب العالي الخديوي

(المادة الخامسة) لا يسري على السودان أو على جزء منهُ شيء ما من القوانين أو الاوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التي تصدر من الآن فصاعداً الا ما يصدر باجرائهِ منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها

(المادة السادسة) المنشور الذي يصدر من حاكم عموم السودان ببيان الشروط التي بموجبها يصرح للاوروبيين من أية جنسية كانت بحرية المتاجرة أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدودهِ لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أو دول

(المادة السابعة) لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الاراضي المصرية حين دخولها الى السودان ولكنهُ يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الاراضي المصرية الا أنهُ في حالة ما اذا كانت تلك البضائع آتية الى السودان عن طريق سواكن أو أية مينا أخرى من مواني ساحل البحر الاحمر لا يجوز أن تزيد الرسوم التي تحصل عليها عن القيمة الجاري تحصيلها حينئذٍ على مثلها من البضائع الواردة الى البلاد المصرية من الخارج . ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التي تخرج من السودان بحسب ما يقدرهُ الحاكم العام من وقت الى آخر بالمنشورات التي يصدرها بهذا الشأن

(المادة الثامنة) فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها فيهِ بوجه من الوجوه

(المادة التاسعة) يعتبر السودان بأجمعهِ ما عدا مدينة سواكن تحت الاحكام العرفية ويبقى كذلك الى ان يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام

(المادة العاشرة) لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأموري قنصلاتات بالسودان ولا يصرح لهم بالاقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية

(المادة الحادية عشرة) ممنوع منعاً مطلقاً ادخال الرقيق الى السودان أو تصديرهُ

منهُ وسيصدر منشور بالاجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن

(المادة الثانية عشرة) قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليه سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بادخال الاسلحة النارية والذخائر الحربية والاشربة المقطرة أو الروحية وبيعها أو تشغيلها

تحريرًا بالقاهرة في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

الامضاءات (كرومر) (بطرس غالي)

وفي يوم تاريخ هذا الوفاق عُين اللورد كتشنر اوف خرطوم سردار الجيش المصري حاكمًا عامًا للسودان مع بقاء وظيفة السردارية في يده واعلن فتح السودان للتجارة في ١٢ ديسمبر سنة ١٨٩٩ ولم يكن الا ايام معدودة حتى ندب لحرب الترنسفال

ولاية

الفريق السر رجينلد ونجت باشا

ياور جلالة الملك

﴿ سردارًا على الجيش المصري وحاكمًا عامًا على السودان ﴾

وفي ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٩٩ عُهِد في وظيفة سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام الى رب السيف والقلم « الفريق السر رجينلد ونجت باشا » الذي ضرب الضربة الاخيرة القاضية على التعايشي والمهدية وقد كان من قبل مديرًا عامًا لقلم مخابرات الجيش المصري ثم ادجوتانت جنرال وكان لهُ اليد الطولى في استرجاع السودان فاستبشر الجيش المصري واهل السودان كافة بهذا التعيين الذي لقي اهلهُ وحلّ محلهُ لانهم عرفوا في حاكمهم الجديد همة شماء لا تعرف الملل وقلبًا كبيرًا محبًا لايعرف الاذى وعقلاً نيرًا ورأيًا صائبًا ولطفًا ودعةً وايناسًا . وأمل الجميع انهُ لايطول الزمان حتى تصبح حكومة السودان من اصلح حكومات الدنيا وارقاها ويرتع اهلها في بحبوحة الامن والراحة والسلام الى ما شاء الله

وكان فاتحة اعماله في السودان انهُ اذاع المنشور الآتي معربًا فيهِ عن سياستهِ وشدة رغبتهِ في خير العباد واصلاح البلاد

﴿ منشور ﴾

« لخاصة السودان وعامتهم »

الحمد لله المحيط علمًا بكل شيء و بعد فان سمو الامير خديوي مصر « عباس باشا حلمي الثاني » حرسهُ الله قد اختارني لان اكون سردارًا لجيشهِ وحاكمًا عامًا للاقطار السودانية بعد اتفاقهِ مع دولة بريطانيا العظمى على ذلك فعهد اليَّ في رئاسة الجيش وادارة شؤون السودان وساكنيهِ فلبيت الدعوة الشريفة وحمدت الله على حسن عنايتهِ والامير على حسن ظنهِ وجميل ثقتهِ وعاهدت الخالق الذي بيدهِ نفسي ونفوسكم ان اراقبهُ فيكم وانصح في خدمة الامير ولا اترك بابًا يأتيكم منهُ الخير الا فتحتهُ ولا منفذًا يأتيكم منهُ الشرّ الاَّ سددتهُ وان اشيد بيدي اركان العدل بينكم وانشر لواء الانصاف فوق رؤوسكم واسأل الله ان يلهمني الصواب في اعمالي ويعصمني من الخطإ والزلل و يرشدني الى انتقاء الامناء من العمال والحكام لتتم رغائبي في الاصلاح ورغائبكم في النجاح

ولما كان من الفروض الاولية ان ابلغكم ارادتي وانشر بينكم رغبتي عمدت الى اذاعة هذا المنشور فجعلتـهُ باكورة اعمالي لتعلموا منهُ الغرض الذي ارمي اليهِ والطريق التي اريد ان تسلكوا فيها

اعلموا ان اساس الملك هو العدل ولهذا لم تقم للسودان قائمة لان ملكهُ تأسس على الجور والاعتساف واغتصاب الحقوق وظلم الرعية وانحراف الحكام عن جادة العدل واتباعهم طرق الغواية والضلال وعدم مراقبة الله وترك الرفق بالعمل

فأراد الله ان يسبغ عليكم رحمتهُ بعد ذلك العذاب فأزال اولئك الظلاَّم ومحا اثرهم وقرض ملكهم فأصبحوا لا ترى الا مساكنهم وخلّف بعدهم رجالاً ملأ قلوبهم رفقًا وعدلاً وهم حكامكم الآن . فأخلصوا لهم الطاعة يخلصوا لكم العمل وتيقنوا انكم كالجسد وهم كالرأس فلا يصلح الجسد الا بصلاح الرأس ولا يصلح الرأس الا بصلاح الجسد

ولقد صرفت عنايتي الى انتخاب الحكام الأكفاء. وامرتهم بالرفق وتنفيذ الاوامر العادلة التي اصدرها لخيركم وخير بلادكم فعليكم بطاعتهم لأنَّ طاعتهم هي طاعتي ومن عصاهم فقد عصاني ومن عصاني فقد عصى اولي الامر ومن فعل ذلك فقد اغضب الله

واني اشهد الله ان من رأيت بهِ اعوجاجاً من هؤلاء الحكام قومتهُ بسيف العدل كما اني اشهد الله ان من رأيتهُ منكم مخالفاً أو مخاصماً من غير حق رميت بهِ الى اقصى درجات العقاب ليصلح الرأس والجسد معاً

ولقد بدأت بتشييد مساجدكم واقامة شعائر دينكم المقدسة وتسهيل طريق الحج الى بيت الله الحرام بعدان حال بينكم و بينهُ اولئك الطغاة العصاة الذين استأصل الله شأفتهم

فاذا تم ذلك عمدت الى التجارة فأوسعت لكم ميدانها واجريت لكم سيول خيراتها وارضعتكم لبان ربحها وفعلت كل ما تسمح بهِ حالة الحكومة من تعديل ضرائبها وضرائب الاطيان واجر النقل في السكك الحديدية والمراسلات البريدية والتلغرافية هذا مع السعي في توسيع نطاق ثروتكم لترتعوا في بحبوحة الراحة والامن وتذوقوا حلاوة العدل وتنسوا مرارة الظلم السابق

فاياكم ومخالفتي ومخالفة حكامكم واعلموا اني بقدر ما اكون شفوقاً ليناً مع ذي الاستقامة منكم اكون صارماً شديداً على من يخالف اوامري ويعمل على ابطالها

فطهروا قلوبكم واخلصوا سرائركم وضعوا ثقتكم بي و بالحكام الذين وليتهم عليكم وانزعوا من نفوسكم الغل والضغائن وانبذوا كل من كان مفسداً للعقائد عاملاً على خراب البلاد مثيراً للفتن مسبباً للقلاقل فلقد بينت لكم طريق الهدى

والله المسؤول ان يكون لي عوناً على تنفيذ ارادة سمو الخديوي المعظم وان يمتعكم بالراحة والامن والسعادة في ظل سموهِ . هذا وقد صفحت الحكومتان المصرية والانكليزية وصفح سموهُ وصفحتُ عن سالف اعمالكم فلا نؤاخذكم بما فات ولي الامل الوطيد ان لا يفرط منكم بعد ما فرط من قبل والسلام

الختم (ونجت)

تحريراً في أم درمان في ٢٨ فبراير سنة ١٩٠٠

الموافق ٢٨ شوال سنة ١٣١٧

سردار الجيش المصري

وحاكم السودان العام

﴿ الادارة المركزية ﴾ ثم شرع في تنظيم حكومة البلاد وسن قونينها فجعل مركز حكومة الخرطوم كما كان في الفتح الاول وعهد برئاسة مصالحها الى كبار رجاله العسكريين الانكليز فعين رئيساً للادارة العمومية وسماهُ « السكرتير الملكي » ورئيساً للادارة المالية وسماه « السكرتير المالي » ورئيساً للادارة القضائية وسماه « السكرتير القضائي » . ورئيساً لكل من مصالح المساحة وسكة الحديد والتلغراف والبوسطة والوابورات والمخازن والمعارف والسجون والغابات وصيد الحيوانات . وهذه هي مصالح الادارة المركزية واسماء رؤسائها الحاليين ١٩٠٢ مجردين عن الالقاب الا الالقاب العسكرية :

حاكم السودان العام	« الفريق السر ف . رجينلد ونجت باشا السردار »
السكرتير الملكي	اللوا ف . ج . ناسون باشا
مساعد السكرتير الملكي	الشريف البكباشي ث . جيمس
« «	البكباشي ا . س . باركر
السكرتير المالي	الميرالاي ا . ا . برنارد بك
مساعد السكرتير المالي	القائمقام و . س . ر . ماي بك
مفتش في المالية	المستر و . درمندهاي
السكرتير القضائي	المستر ا . بونهام كارتر
قاضٍ مدني	المستر ج . ف . كارشو
«	المستر و يسي ستاري
مدير المساحة	الشريف اللوا . ح تلبوت باشا
مساعده	القائمقام ث . و . جوين بك
مدير السكة الحديد	الميرالاي ج . ب مكولي بك
مساعدوه :	القائمقام ا . ك . مدونتر بك
البكباشي و . ا . لونجفيلد «	البكباشي م . ا م سوربي
« س . ف . نيوكومب «	« ب . ث . لورد
مدير التلغراف والبوسطة	القائمقام ج . س . لِدل بك

مساعد مدير التلغراف والبوسطة	البكباشي ا • ج • ميرك
ملاحظ التلغراف والبوسطة	الصاغ و • ا • دال
مدير الوابورات والمراكب	القائمقام ا • ا • بوند بك
مراقب المخازن	الميرالاي و • ه • دريج بك
مساعده	البكباشي م • كوتس
مدير المعارف	المستر جيمس كري
مدير الاحراش والغابات	المستر ا • س • بتلر

« المديريات » وجعل في كل مديرية مديراً عسكرياً انكليزياً ومفتشاً او اكثر من الانكليز العسكرية او الملكية ومأمورين من الظباط المصريين الاكفاء وقضاة وكتاباً وضابطة من المصريين • وهؤلاء هم المديرون والمحافظون الحاليون في السودان

محافظ حلفا	القائمقام هايس سدلر بك
مدير دنقله	اللوا جاكسون باشا
مدير بربر	الميرالاي مكرّل بك
مدير الخرطوم	الميرالاي ستانتون بك
مدير الجزيرة	الميرالاي بلوت بك
مدير سنار	الميرالاي جورنج بك
محافظ فاشوده	القائمقام ماثيوس بك
مدير كسله	اللوا هنري باشا
محافظ سواكن	القائمقام بلايفير بك
مدير كردوفان	اللوا ماهون باشا
قومندان قوة احتلال بحر الغزال	اللوا سباركس باشا

« مفتش السودان العام » وجعل على المفتشين الملكيين والعسكريين مفتشاً عسكرياً عاماً وهو السر رودلف سلاطين باشا الشهير

وكلهم من خيرة الرجال المشهود لهم بحسن الادارة وحب العدل والحرية

وقد وفقوا الى نخبة من الموظفين المصريين والسوريين الذين خدموا الجيش في السلم والحرب قبل انتقالهم الى حكومة السودان خدمات جليلة اخص بالذكر منهم :

« سعيد بك شقير »	مدير حسابات السودان (حامل المتمايزة)
وشاهين بك جرجس	سكرتير عربي سعادة افندم السردار وحاكم السودان العام
وطنوس بك شحاده	كبير موظفي ادارة المخابرات في الخرطوم
وابرهيم افندي ديمتري	سكرتير عربي مفتش السودان العام
وروفائيل افندي خليل	باشكاتب مراقب المخازن في الخرطوم
وامين افندي حداد	« مديرية الخرطوم
وفرج افندي شحاده	« مديرية سنار
ووليم افندي زازل	« مديرية دنقلة

ومنهم : حسين بك رفعت ٭ ونخله افندي تادرس ٭ وواصف افندي جرجس ٭ وسليم افندي شميل من موظفي السكرتير المالي ٭ واحمد افندي توفيق من موظفي وكالة حكومة السودان بمصر

ومن موظفي الادارة المركزية الذين دخلوا الخدمة حديثاً فامتازوا فيها :

الشيخ محمد شاكر	قاضي قضاة السودان
والشيخ محمد هارون	مفتش المحاكم الشرعية في السودان
واحمد افندي هدايت	سكرتير مدير المعارف في الخرطوم
ونسيب افندي فيليبدس	سكرتير السكرتير القضائي في الخرطوم
ويعقوب افندي بلانتر	باشكاتب مصلحتي البوسطة والتلغراف
ونسيب افندي بدر	باشكاتب مديرية حلفا
ونجيب افندي كاتبة	سكرتير مدير السكة الحديد السودانية
وسليم افندي مشعلاني	باشمفتش سكة الحديد
وصموئيل افندي عطية	من موظفي المخابرات

《 وكالة حكومة السودان 》 هذا وقد جعل لحكومة السودان في مصر وكالة عامة وكل ادارتها الى حضرة الامير الخطير صاحب الشرف الباذخ والمجد الاثيل الكولونل الكونت جلايخن من سلالة العائلة الملوكية الانكليزية . وقد وكل معها ادارة المخابرات في مصر والسودان وعين لمساعدته ضابطين من اجل الضباط الانكليز علماً واعلاهم شأناً وهما :

الكبتن هـ . هـ . س . مورانت	في مخابرات الخرطوم
والكبتن هـ . ف . س . امري	في مخابرات مصر

《 الجيش المصري 》 هذا وقد نظم الجيش المصري ووزعه على مصر والسودان حسبما اقتضته حالة البلادين فجعل مركز رئاسته مصر القاهرة وقسم البلادين الى اقسام عسكرية جعل في كل قسم منها حامية او اكثر وجعل في مدينة الخرطوم حامية من العساكر الانكليزية ايضاً وهذه هي الاقسام: المحروسة وحلفا ودنقله و بر بر والخرطوم وسنار وكسله وسواكن وكردوفان

واما اقسام الجيش نفسه ومصالحه ورؤساؤه في الوقت الحاضر فكما يأتي :

《 الحضرة الفخيمة الخديوية 》

سر ياور الحضرة الفخيمة الخديوية	الفريق احمد باشا زكي
ياور اول خديوي	اللوا يوسف باشا ضيا
ياور خديوي	الميرالاي حسين بك محرم
« «	القائمقام السيد بك ماجد
« «	« حسن بك صادق
رئيس اركان حرب المعية السنية	الميرالاي حسين بك رمزي
اركان حرب	القائمقام محمد بك ياور
قومندان الحرس الخديوي والموسيقى الخديوية	الميرالاي ابراهيم بك رفعت



﴿ الكونت كليخن ﴾

نظارة الحربية

عطوفتلو ناظر الحربية	محمد باشا العباني
ياور	الصاغقول اغاسي محمد افندي خسرو
سعادة وكيل الحربية	اللوا السير ادوارد زهراب باشا

اركان حرب رئاسة الجيش

السردار

« الفريق السير ف . رجينلد ونجت باشا . حاكم السودان العام »

ياوران	البكباشي ر . ا . ماركهام اليوزباشي حسين افندي وهبي اليوزباشي امين افندي همين
كاتم اسرار حربية	الميرالاي اللورد ا . ه . سسل بك
ادجوتانت جنرال	اللوا ش . فرغوسن باشا
مساعدو ادجوتانت جنرال	اللوا محمد باشا زهري الميرالاي ج . ج . أسر بك القائمقام ج . ك . وطسن بك « ب . ر . فيس بك « ل . ا . فتزم . ستاك بك
نوّاب مساعدي ادجوتانت جنرال	القائمقام احمد بك زكي البكباشي و . ا . بلي . وهوايضاً السكرتير الخاص لحاكم السودان العام « ا . س . جاكسون

اورط الجيش

قومندان السواري	الميرالاي و • ه • برسي بك
قومندان ومدير الطوبجية	الميرالاي م • يك بك
« الهجانة	القائمقام ا • ب • ولكنسون بك
« الاورطة الاولى	« ج • ت • بيكوك بك
« « الثانية	« ب • ر • وود بك
« « الثالثة	« ه • روس جونسون بك
« « الرابعة	« ك • نوربري بك
« « الخامسة	« محمد بك عاطف
« « السادسة	« ابراهيم بك صبري
« « السابعة	« محمد بك رأفت
« « الثامنة	« محمود بك حسني
« « التاسعة	« ا • س • هربرت بك
« « العاشرة	« س • ج • هوكر بك
« « الحادية عشرة	« ه • د • بالمر بك
« « الثانية عشرة	« ا • ا • ديكنسن بك
« « الثالثة عشرة	« ا • ب • ستركلند بك
« « الخامسة عشرة	« السير ه • ب • هل بارونت بك
« « السادسة عشرة	الميرالاي ه • ف • ريفنسكرونت بك

مصالح الجيش

السكرتير المالي	القائمقام ب • ج • الجود بك
مساعد السكرتير المالي	البكباشي ث • س • ه • ويموث
حكيمباشي الجيش	الميرالاي ر • ه • بنتون بك
اقدم اطباء الجيش	« سليم بك موصلي

حكيمباشي يطري الجيش	الميرالاي ج . ر . جرفث بك
مدير الاشغال والمهمات	« ل . ب . فرند بك
مدير التعيينات	« ك . ا . ج . بلنت بك
ناظر المدرسة الحربية	اللوا اسماعيل باشا سرهنك
قومندان المدرسة الحربية	الميرالاي ر . ج . منشت بك
القرعة العسكرية	الميرالاي ابرهيم بك فتحي قومندان الاورطة السابعة سابقاً
رئيس المجلس العسكري المستديم	الميرالاي عبد الغني بك فؤاد قومندان الاورطة الثامنة سابقاً
قومندان شبه جزيرة سينا	القائمقام حامد بك مختار اركان حرب الطوبجية سابقاً

ومجموع الجيش الآن ٧٦٣ ظابطاً و١٧٦٠٩ جنود اشتهر كثيرون منهم بوقائع الثورة المهدية والفتح الاخير على ما سيجيء . وفيه نحو ٤٠٠ موظف ملكي امتاز فريق منهم بالخدم الجليلة في السلم والحرب اخصُّ بالذكر :

« ملحم بك شكور »	سكرتير عربي سعادة السردار
مارك بك يالوبس	ناظر ادارة السكرتير المالي
عبد الله بك عازوري	سكرتير عطوفة ناظر الحربية
سليمان بك ناصيف	رئيس قلم في مكتب الادجوتانت جنرال
سيزار بك روزنسوايك	وكيل قلم في مكتب سكرتير مالي الحربية
يوسف بك حسب الله	باشكاتب ادارة التعيينات
حسن بك فخري	باشكاتب قسم رابع في مكتب الادجوتانت
محمد بك مصطفى	وكيل قلم في ادارة المهمات
عبد العال افندي حلمي	سكرتير حكيمباشي الجيش
جورج افندي مشعلاني	ناظر ورش الحربية بالقلعة

﴿ قوانين حكومة السودان ﴾

ثم وجَّه اهتمامهُ الى القضاء وسنّ القوانين فعين لكل مديرية قاضياً عاماً شرعياً وعين الشيخ محمد شاكر من متخرجي الازهر النابغين قاضياً لقضاة السودان والشيخ محمد هارون من نوابغ الازهر ايضاً مفتشاً عاماً للمحاكم الشرعية والشيخ الطيب الهاشمي مفتياً للسودان وامرهم بان يحكموا في المسائل الشرعية بما يقضي بهِ الشرع الشريف. وشرع في سن القوانين المدنية والجنائية والتجارية الملائمة لحال البلاد مستعيناً بسكرتيره القضائي الاصوليّ المستر بونهام كارتر فتمّ من القوانين الى الآن ما يأتي :

قانون حجج الاراضي سنة ١٨٩٩م

قانون ضرائب الاراضي سنة ١٨٩٩ ويناير سنة ١٩٠١

« عوائد الصمغ والريش والعاج واللاستك سنة ١٨٩٩ و ١٩٠١

« حمل الاسلحة النارية سنة ١٨٩٩

« رخص المشروبات الروحية سنة ١٨٩٩

« عوائد الاملاك سنة ١٨٩٩

« عوائد الابنية سنة ١٨٩٩

« عوائد المراكب سنة ١٨٩٩

« رخص الدلاّلين والدوّارين سنة ١٨٩٩

القانون العام لوادي حلفا وسواكن سنة ١٨٩٩

قانون رخص البحث عن المعادن سنة ١٨٩٩

« العقوبات السوداني اوكتوبر سنة ١٨٩٩ وفبراير سنة ١٩٠١

« السودان المدني ابريل سنة ١٩٠٠ وفبراير سنة ١٩٠١

قانون وقاية الحيوانات البرية ويلغي قانونين صدرا قبلهُ سنة ١٩٠٠ و ١٩٠١

« المعدّيات العمومية سنة ١٩٠٠ ويلغي قانون سنة ١٨٩٩

« اراضي مدن الخرطوم وبربر ودنقله سنة ١٩٠١ ويلغي قانون سنة ١٨٩٩

مشروع القانون المتعلق بتنفيذ الاحكام المصرية في السودان سنة ١٩٠١

قانون الجزية (على القبائل) سنة ١٩٠١

« عوائد الحيوانات سنة ١٩٠١ ويلغي قانون عوائد القطعان سنة ١٨٩٩

« الاحراش والغابات سنة ١٩٠١

« القضاة المدنيين سنة ١٩٠١

« تلافي الطاعون البقري سنة ١٩٠١

« المجالس البلدية في السودان سنة ١٩٠١

« البضائع المهربة الى السودان سنة ١٩٠١

« المحاكم الشرعية السودانية سنة ١٩٠٢

وقد عُرضت هذه القوانين كلها على جناب الفيكونت كرومر وكيل دولة بريطانيا العظمى وقنصلها الجنرال في مصر وعلى مجلس نظار الجناب العالي الخديوي بموجب الوفاق العام المار ذكرهُ فصدقوها ونشرت تباعاً في الغازيته السودانية فأصبحت قوانين نافذة مرعية الاجراء يتولى تنفيذها قضاة عسكريون وملكيون من الانكليز والمصريين ٥ وهناك لجنة من العلماء برئاسة الشيخ محمد البدوي عيَّنها الحاكم العام للنظر فيما يُعرَض عليها من المسائل الاجتماعية الاهلية

المدارس الاميرية في السودان

﴿ المدارس الاميرية القديمة ﴾ اهتمت الحكومة المصرية مدة الفتح الاول بنشر المعارف في السودان فانشأت مدرسة ابتدائية في الخرطوم برئاسة رفاعه بك وذلك في ايام عبد اللطيف باشا فدامت الى ان قامت الثورة المهدية فتعطلت وامر المهدي فاقفلت مدارس العلم كلها واحرقت جميع الكتب الأ القرآن وجمع خليفتهُ التعايشي العلماء في ام درمان فحظر عليهم تدريس العلم فلم يبقَ في السودان الاخلوات القرآن. وكان في الخرطوم مطبعة حجر للحكومة فاستخدمها المهدي لطبع مناشيرهِ ثم استخدمها خليفتهُ من بعدهِ لهذه الغاية وبقيت حتى استرجعتها الحكومة بفتح أم درمان

﴿ كلية غوردون ﴾ ولما عاد اللورد كتشنر اوف خرطوم من الفتح الاخير الى بلاد الانكليز اقترح على قومهِ انشاء مدرسة كلية في الخرطوم باسم غوردون تعلَّم فيها العلوم واللغة العربية تخليداً لذكر غوردون في السودان وفتح اكتتاباً لجمع المال اللازم لبناء المدرسة والقيام بنفقاتها فتلقى الشعب الانكليزي هذا الاقتراح بمزيد الارتياح واقبلوا على الاكتتاب فيهِ من جميع اطراف الممالك البريطانية من انكلترا واوستراليا وكندا ونيوزيلند وراس الرجا الصالح ومصر والهند فجُمع الى الآن ١٢٣ الف جنيه ونيف . واقترح اللورد كرومر ان يُقرَن اسم الكولونل ستيورت باسم غوردون لانهُ رفيقهُ في حصار الخرطوم وذلك بان يجعل في المدرسة تلمذة خاصة باسم ستيورت فأُجيب اقتراحهُ وجمع الى الآن ٥٠٠ جنيه لهذه الغاية . وقد وُضع الحجر الاساسي لكلية غوردون في ٥ يناير سنة ١٨٩٩ باحتفال باهر حضرهُ اللورد كتشنر وجمهور

كبير من اعيان السودان ورأسهُ اللورد كرومر فصرَّح بمبدإ المدرسة فقال « ستكون هذه المدرسة مدرسة عمومية اصلاحية غير مختصة بطائفة دون اخرى ويكون التدريس فيها على قدر الامكان باللغة العربية » . والمدرسة الآن على وشك الانتهاء ، ويؤمل ان يبدأ التدريس فيها اواخر سنة ١٩٠٣ . وتقدر نفقات بنائها وفرشها بنحو ٣٠ الف جنيه . وقد اهدي اليها معملٌ كيماوي ومرصدٌ فلكيٌّ وادوات فاخرة متنوعة لتعليم الصنائع اليدوية ٭ هذا وقد ألف لها لجنة من كبار الانكليز واعيانهم لادارة شؤونها العامّة ومراقبة حساباتها وهم :

الشريف اللورد كتشنر اوف خرطوم
الفريق السر رجينلد ونجت باشا
حاكم السودان العام
المستر اوغسطوس بريفوست
مدير البنك الانكليزي
الشريف اللورد كرومر
الشريف اللورد روتشيلد
الشريف اللورد هلندون
الشريف اللورد فلستوك
السر ارنست كسل
المستر هغ كولن سمث
المستر هنري ت . نرتون مستشار شرف
المستر جيرار فان ده لند وابنهُ
مراقبا شرف للحسابات

﴿ المدارس الاميرية الجديدة ﴾ ولما تولى الفريق السير رجينلد ونجت باشا منصَّة الاحكام في السودان سنة ١٨٩٩ وجَّه الكثير من عنايتهِ الى المعارف فعين المستر جيمس كري من فضلاء الانكليز مديرًا عامًا للمعارف في السودان ورئيسًا لكلية غوردون فشرع في الاعمال بما يُعهد فيهِ من الدربة والنشاط فأتمّ في سنتين ما لم يكن يؤمل اتمامهُ في عدة سنين وانشأ عدة مدارس منها اعدادية لمدرسة غوردون ومنها لحساب حكومة السودان وهي هذه :

مدرسة ابتدائية في الخرطوم وهي اعدادية لمدرسة غوردون وفيها ١٠٠ تلميذ
« ابتدائية في أم درمان وفيها ٢٠٠ تلميذ
« في أم درمان للمعلمين المراد تمرينهم على التعليم وفيها ١٤ تلميذًا
« صناعية في أم درمان اعدادية لمدرسة غوردون فيها ٦٠ تلميذًا

مدرسة ابتدائية في حلفا فيها ٨٠ تلميذاً ٠ ومدرسة ابتدائية في سواكن فيها ٥٠ تلميذاً

« وطنية في دنقله ٠ ومدرسة وطنية في بربر

اما مدرستا حلفا وسواكن فقد انشأتهما نظارة المعارف المصرية في زمن الثورة المهدية وانتقلتا الى ادارة معارف السودان في بدء هذه السنة ٠ وستنشأ الحكومة مدارس وطنية في كسله والقضارف والابيّض وفاشوده وغيرها من المدن الكبيرة اذ النية منعقدة على تعميم المعارف في السودان كله لتنوير اذهان الشبان في مبادي العلوم والصنائع واعدادهم الى وظائف الحكومة الابتدائية

وفي أم درمان والخرطوم غير المدارس الاميرية : مدرسة صبيان و بنات للاقباط ٠ ومدرسة صبيان و بنات للمرسلين النمساويين ٠ ومدرسة صبيان للانجيليين الامريكان

وابورات السودان

في السودان الآن عشرون وابورًا بعضها من عهد الفتح الاول و بعضها بُني في الخرطوم في اثناء الحصار سنة ١٨٨٤ والباقي جدٌ في الحملة النيلية سنة ١٨٨٥ والفتح الاخير سنة ١٨٩٦ — ١٨٩٨ ٠ وهي من حيث بناؤها ومحمولها وسرعتها على انواع :

١ « السلطان ٠ والملك ٠ والشيخ » وهي مدرعات قوية بنيت في اثناء الحملة على الخرطوم سنة ١٨٩٨ ٠ ومتوسط سيرها نحو ستة اميال في الساعة وتعوم على قدمين من الماء

٢ « الظافر ٠ والناصر ٠ والفاتح » وهي المدرعات التي بنيت في اثناء الحملة على دنقلة سنة ١٨٩٦ ومتوسط سيرها عشرة اميال في الساعة

٣ « طماي ٠ والحفير ٠ وابو طليح ٠ والمتمة » وهي على شكل وابورات النوع الثاني الاَّ انها اصغر حجماً وتسير ٨ اميال في الساعة وهي من عهد الحملة النيلية

٤ « دال ٠ وخيبر ٠ وعكمة ٠ وعمارة » وهي من النوع الثالث الا انها اصغر حجماً واقل سرعة

٥ « الجديد » وهو وابور صغير بُني بعد الفتح الاخير وسرعته ٦ اميال في الساعة

٦ « بوردين ٠ والصافية » وهما من الطرز القديم جدًّا من عهد الفتح الاول وسرعتهما نحو ٦ اميال في الساعة

٧ « ألفن » والطاهرة » والتوفيقية » وهي وابورات صغيرة » اما الطاهرة فقد بناهُ غوردون في حصار الخرطوم وسماهُ الزبير فركب فيهِ المتمهدي بعد فتح المدينة وسماهُ الطاهرة » واما التوفيقية فمن عهد الفتح الاول اخذهُ الى الخرطوم عبد الحليم باشا عند ذهابهِ الى السودان سنة ١٣٧١ هـ » واما ألفن فانهُ من وابورات الفتح الاول ولكنهُ رمم بعد الفتح الاخير

هذا ومن الوابورات المشهورة التي دخلت في الفتح الاول فتعطلت أو غرقت :

« تل حوين » غرق في شلال السبلوكة مع السر تشارلس ولسن في اثناء الحملة النيلية

« وشبين » والمسلمية » تعطلا في عهد الدراويش لقدمهما وعدم الاعتناء بهما

« وامبابة » غرق في شلال السبلوكة قبل ظهور المتمهدي بقليل

« والمنصورة » ارسلهُ غوردون مع نصحي باشا لملاقاة الانكليز الآتين لانقاذه من حصار الخرطوم فغرق في المسكتاب شمالي شندي

« والقاشر » وسماهُ الدراويش المنصورة غرق معهم في السدّ

« والاسماعيلية » غرق معهم في خور شمبات قبـل فتح ام درمان بثلاثة ايام

« ونيانزة » غرق في بحر الجبل في اثناء الثورة المهدية

« والخديوي » وهو وابور صغير غرق في بحيرة البرت نيانزة في اثناء الثورة المهدية

« والجيزة » دخل في الحملة النيلية فغرق في شلال تنجور

ومن الوابورات التي بنيت في الخرطوم من الحصار فتعطلت أو غرقت :

« عباس » غرق مع ستيورت باشا في ود قمر وهو يحاول الوصول الى مصر في اثناء حصار الخرطوم

« وحسن زهران » أو الحسنية غرقهُ الدراويش بقنابلهم اثناء محاصرتهم للخرطوم

« ومحمد علي » وقد سمي كاكاو بالنسبة الى صوتهِ غرق مع الدراويش في السدّ

هذا والحكومة السودانية ساعية الآن في زيادة عدد الوابورات وتوسيع نطاق الملاحة في النيل ما امكن » ولها في ام درمان ورشة عظيمة لبناء الوابورات والمراكب واصلاح ما تعطل منها » وعندها عدا الوابورات المار ذكرها عدة نقورة وقياسات

ومراكب . وقد اصبحت مصلحة الوابورات والمراكب في السودان بهمة مديرها الحاذق القائمقام بوند بك من أهم المصالح وافضلها انتظاماً فانهُ اصلح شؤونها ورتب اعمالها ووزّع الوابورات بين الشلالات فجعل بعضها في حلفا بين الشلال الاول والثاني و بعضها في دنقلة بين الشلال الثالث والرابع والباقي في الخرطوم للاشتغال في النيلين الابيض والازرق وهو يستخدمها لنقل الركاب والبوسطة وشحن البضائع والمهمات. وفي عهدته ايضاً وابور « مخبر » في البحر الاحمر بين السويس وسواكن

سكة الحديد في السودان

ان صعوبات النقل واخطارهُ براً و بحراً كما بيناها في الفصل السابق حملت الحكومة المصرية منذ الفتح الاول على الاهتمام بانشاء سكة حديدية الى داخل السودان لتسهيل طرق المواصلات بينها و بين مصر وانماء تجارتها . وكان اول من اهتم في ذلك المغفور لهُ سعيد باشا ولكنهُ ما درس المشروع حتى عدل عنهُ لكثرة نفقاتهِ . واهتم بذلك بعدهُ اسماعيل باشا وارسل المهندسين فراوا البلاد من اسوان الى الخرطوم سنة ١٨٦٥ ثم في سنة ١٨٧١ ارسل مهندسين آخرين فدرسوا الطريق من حلفا الى شندي فالخرطوم ولكن لم تنتج هذه الاهتمامات كلها الا سكة حديد من اسوان الى قدم الشلال الاول سنة ١٨٧٤ م طولها ٩ اميال . وسكة حديد اخرى من حلفا الى سرس طولها ٣٣ ميلاً

هذا وفي اثناء الحملة النيلية مدَّ الجيش الانكليزي خط حلفا وسرس الى عكاشه فخربهُ الدراويش بعد اخلاء السودان وبقي طريق الصحراء هو المعول عليهِ

وكانت الحربية المصرية قد باشرت مد خط حديدي من كورسكو الى المرات سنة ١٨٩٥ وذلك قبل تصميم الحكومة على استرجاع السودان فلما صممت على استرجاعهِ اوقفت العمل في هذا الجهة وشرع الجيش في مد خط من سرس جنوباً الى الكرمة فأتمهُ في سنة ١٨٩٧ وكان طوله ٢٠٣ اميال وهذه هي محطاتهُ الرئيسية: حلفا . سرس . عكاشة . كوشه . ابي صاري . دلقو . الكرمة

وقبل ان يتم هذا الخط بدأ الجيش بمد خط حديدي يخترق الصحراء من حلفا

الى ابي حمد ثم مدهُ على محاذاة النيل الى الاتبره فبني عليهِ جسرًا من حديد على يد شركة امريكية كان افتتاحهُ في ٢٦ اوغسطوس سنة ١٨٩٩ . ثم مدّ الخط جنوبًا فوصل الخرطوم في ١ يناير سنة ١٩٠٠ وكان طولهُ ٥٧٥ ميلاً وهذه هي محطاتهُ الرئيسية : حلفا . نمرة ٦ . ابو حمد . العبيدية . بربر . الاتبره . الدامر . الديداب . الكبوشية . شندي . ود رملي . الحلفاية

هذا وكان خط سكة الحديد من اسيوط الى اسوان قد تمّ قبل ذلك بقليل فأصبحت سكة الحديد ممتدة من الاسكندرية الى الخرطوم بلا فاصل الاَّ بين اسوان وحلفا . وقد صممت حكومة السودان الحاضرة على انشاء خط حديدي من بربر الى سواكن وستشرع فيهِ قريباً . وهي تفكر الآن في انشاء خط بين الدويم والابيض وخط بين الخرطوم والقضارف عن طريق ابي حراز . وقد ولّجت ادارة السكك الحديدية كلها الى رجلها الهمام القائمقام مكولي بك واعوانه الاكفاء والامل بالنجاح على يدهم وطيد

تلغراف السودان

مدت خطوط التلغراف في السودان المصري في الفتح الاول كما يأتي :

١ مصر . دنقلة . بربر . الخرطوم
٢ الخرطوم . ابو قراد . الابيض . فوجه
٣ الخرطوم . ابو حراز . المسلمية . سنار . فازوغلي
٤ المسلمية . الكوَّة
٥ ابو حراز . القضارف . كسله . سنهيت . مصوع
٦ كسلة . قوز رجب . بربر ٧ سواكن . كسله
٨ القضارف . دوكه . القلابات
٩ القضارف . الجيرة على نهر ستيت

ومركزها العام الخرطوم . فعطلت الثورة المهدية هذه الخطوط كلها ولم يبقَ الا خط اقامهُ التعايشي بين ام درمان والخرطوم كما مرَّ

ثم لما بدئ باسترجاع السودان بوشر مد تلغراف مع الحملة وكان كلما تقدمت الحملة يتقدم معها حتى وصل الى الخرطوم بعد فتحها بقليل ثم مدّ جنوبًا على النيل الابيض الى الدويم فالرنق ومن الدويم الى الابيّض ومد على النيل الازرق الى الرصيرص وسيمد على النيل الازرق الى فامكه وعلى النيل الابيض الى آخر حدود السودان

وهذه هي خطوط التلغراف التي مدّت الى الان :

١ حلفا. كوشه. الكرمة. دنقلة. الدّبة. مروي
٢ حلفا. ابو حمد (بطريق الصحراء)
العبيدية. بربر. شندي. الحلفايه.
الخرطوم. ام درمان
٣ بربر. سواكن. طوكر. كسله.
القضارف. ود مدني
٤ الخرطوم. ود مدني. سنار. سنجه.
الرصيرص
٥ أم درمان. الدويم. الابيّض
٦ سنار. قوز ابوجمعه (بطريق الجزيرة)
الرنق

ومركزها العام الخرطوم والاساس حلفا

وكان الطليان بعد فتح كسله قد مدوا الخط اليها من مصوع فلم يزل هذا الخط باقياً الى الآن

بريد السودان

كان في السودان مدة الفتح الاول بريد منظم يحمل على الهجن ومركزهُ الخرطوم فيرسل مرة في الاسبوع الى مصر وجميع المديريات. وكان لهُ في كل طريق محطات معلومة لراحة الهجن أو ابدالها

وعلى نحو ذلك كان نظام البريد في زمن الدراويش وكان التعايشي يهتم كثيراً بسرعتهِ وانتظام سيرهِ وقد انتقى جماعة من امنائهِ الاخصاء فجعلهم رسلاً للبريد بينهُ وبين امرائهِ في الجهات وكان يقاص من يتعرَّض لهم بسوء أو يعوقهم عن الميعاد بقطع يدهِ ورجلهِ من خلاف ولكنهُ حصر البريد في نفسهِ فلم يجعل للرعية فيهِ اقل نصيب

اما الحكومة الحاضرة فقد نظَّمت للبريد مصلحة عامة تحاكي في انتظامها بُرُد اوربا وجعلت مركزها العام الحلفاية ثم الخرطوم وفتحت لهُ مكاتب في جميع العواصم والمدن الشهيرة وهي الآن هكذا :

« على النيل الكبير » : حلفا. سرس. كوشه. دلقو. الكرمة. دنقلة. الدّبة. كورتي. مروي. ابو حمد. بربر. الدامر. شندي

« وعلى النيل الازرق » : الخرطوم • رفاعه • ود مدني • سنار • كركوج • سنجه • الرصيرص

« وعلى النيل الابيض » : ام درمان • القطينة • الدويم • قوز ابو جمعه • الكوّه الرنق • فاشوده • سُبَت

« وفي السودان الشرقي » : سواكن • طوكر • كسله • قوز رجب على الاتبره

« وفي السودان الغربي » : الابيّض • بارة

واكثر هذه المكاتب تقبل الاجوبة والرزم والدراهم مسجلة الى اية جهة في السودان وخارجهِ بل المكاتب التي في العواصم تقبل الدراهم وترسلها حوالات تلغرافية

ويُحمَل البريد الآن على الوابورات في جميع بلاد النيل واما في السودان الشرقي والغربي فلا يزال يحمل على الهجن الى ان يتمّ ما عقدت النية عليهِ من انشاء خطوط السكك الحديدية في جميع انحاء السودان • ويحمل البريد بين سواكن والسويس في وابورات الشركة الخديوية مرة في كل اسبوعين كما كان قبل الفتح

وقد اتخذت هذه المصلحة في بدء الفتح طوابع البريد المصرية مبصوماً عليها كلمة « السودان » فاستعملتها الى اول مارس سنة ١٨٩٨ ثم ابدلتها بأوراق خاصة اكبر منها وعليها صورة هجان راكباً هجيناً في الصحراء • على ان في النية ابدالها بصورة اخرى ألطف منها

هذا وقد جعلت الحكومة السودانية مصلحتي التلغراف والبريد مصلحة واحدة ووكلتها الى رجلها الهمام القائمقام لِدل بك الذي لا يزال يدأب في تحسينها وتوسيع نطاقها الى الحد المقصود

مالية السودان

اما مالية السودان فلا تزال تشكو العجز ومالية مصر تحملهُ حتى يقوى السودان على سدهِ • على ان السودان لم يكن في عصر من عصور التاريخ قادراً على القيام بأود حكومة منظمة مرتقية مثل الحكومة الحاضرة وربما كان عصر المهدية الاخير اشأم عصر مرّ عليهِ فجرَّعهُ كؤوس المظالم واثقل كاهلهُ بأرزاء الحروب فاستنزف منابع ثروته

وأودى بنحو ثلثي اهلهِ وصيّر اراضيهُ قفارًا ودياره بلاقع . وعلى هذه الحالة المشومة والازمة المحزنة دخلت الحكومة الحاضرة . لذلك كان أهم ما وجّه اليهِ الحاكم العام اهتمامهُ اصلاح حالة البلاد العمومية بتقليل ضرائبها وتكثير منابع ثروتها وتوطيد اركان العدل والامن في جميع انحائها حتى اذا ما نهضت من عسرها المالي واصبحت كفوءًا للقيام بأود حكومتها تدرَّج بها في معارج التقدم والنجاح الى الحد المستطاع

وهذه هي غاية جميع رجالهِ ورؤساء مصالحهِ وعلى الخصوص سكرتيرهُ المالي الهمام «الميرالاي برنارد بك» الذي يشاطرهُ المسؤولية في ماليتها ويدأب الليل والنهار في تعديل دخلها وخرجها حتى لاينفق درهمًا الآ كان انفاقهُ لازمًا مفيدًا ولا يفوتهُ درهم كان من الممكن اقتصادهُ او اكتسابهُ الآ اقتصدهُ أو اكتسبهُ

وقد وفّق الى رجال اكفاء اولي دربة وذكاء يقاسمونهُ السعي وراء هذه الغاية الجميلة وفي مقدمتهم مساعدهُ الشهم النبيل «القائمقام ماي بك» . والحاذق النشيط «المستر درموندهاي» نجل السياسي المحنك المستر درموندهاي قنصل انكلترا الجنرال في سوريا الذي تمرّن على التجارة النظرية والعملية في اشهر بيوت مرسيليا التجارية ثم دخل قنصلاتو انكلترا فيها فعين نائب قنصل وتدرب على الاشغال السياسية والادارية

وعندهُ الشاب الاديب المتوقد الذهن الذكي الفؤاد «سعيد بك شقير» من نوابغ المدرسة الكلية السورية في بيروت ومن افراد اللبنانيين المعدودين في مصر وقد مارس الاشغال المالية والادارية في سواكن حيث قضى تسع سنين متوالية سكرتيرًا للمحافظة اظهر فيها من الدربة والنشاط وحسن الادارة ما استوجب اجمل الثناء من جميع المحافظين الذين حكموا سواكن في عهدهِ . لذلك لما ارادت حكومة السودان تشكيل قلم الحسابات لماليتها لم ترَ بدًّا من نقلهِ من سواكن والقاء عهدة القلم اليهِ فأظهر فيهِ من التفنن والبراعة والهمة ما كان يؤمل منهُ وازيد وقد رقي الى رتبة المتمايز ولقب «بمدير حسابات السودان» . وبذلك كلهِ تمكن السكرتير المالي على حداثة عهد الفتح واضطراب احوال الدَّخل والخَرج من عمل ميزانية تضاهي في نظامها وترتيبها ميزانية مصر . وهاك خلاصتها عن سنة ١٩٠١ كما نشرت بالامس :

المصروفات (الخرج)	مليم	جنيه مصري
المصلحة الملكية	١٧٦	١٧٨٦٠
المصلحة المالية	٣٠٣	٨٧٤٥
المصلحة القضائية	٦٤٠	٥٧٧٩
قلم مراقب المخازن	٠٠٠	١٣٦٥٢
مصلحة المعارف العمومية	٤٠٣	١٤٢١
مصلحة الغابات والاحراش	٥٧١	١١٨١
السجون	٢٥٥	١٠٨٩٧
الاسبتاليات	٥٠٧	٥١٧٥
مصلحة وقاية الحيوانات البرية	٩٧١	٨٦٠
المديريات (مراكز الرئاسة) والمأموريات	٠٥٩	٥١٤٩٧
البوليس	٣٦٩	١٩٤٦٨
الوابورات والمراكب	٩٨٥	٣٩٩٥
الجمارك	٠٠٠	١١١٩
تعيينات وعلائق	٥٣٤	١٠١١٤
الاشغال العمومية في الخرطوم والمديريات	٩٥٩	٢٦٩٤٦
بدل سفرية ونقليات ومعاشات ومكافآت	٤٠٥	٤٠٧٧
مصروفات الجوامع	٢٥٢	٣٢١
مصروفات صحية وملافاة وبأ المواشي	٩٢٦	٥٠٢٠
مصروفات لجان الاراضي	٩٩٣	١٩٩
مصروفات المطبعة الاميرية	٣٢٦	٦٨٤
مصروفات مصلحة المساحة	٠٤٢	٣٢٧٦
مصرفات اسرى الدراويش ونقط الصحراء	١٠١	٤٣٨٦
مصروفات نثرية وسرية ومهاجرين	٢١٢	٣٨١٠١
البوستة	٨٦٦	٨٥٨٦
التلغرافات	٧٤٠	١٥٩٦٤
السكة الحديد	٠٠٠	١٤٨٫٠٠٠
الجملة	٥٩٤	٤٠٧٣٣٤
زيادة في الايرادات عن الوارد بالميزانية	١٤٧	٢٩٥١٩
المجموع العمومي	٧٤١	٤٣٦٨٥٣

بأمر الحاكم العام

مصر في ٢١ ابريل سنة ١٩٠٢ — الامضا ا ٠ ا ٠ برنارد – ميرالاي

سكرتير مالي حكومة السودان

الايرادات (الدخل)

	مليم	جنيه مصري
اموال اطيان	٨٣١	٢٨٢٨٧
عوائد نخيل	٠٧٥	١٣٨٥٤
عوائد ابنية	٧٣٦	٣٧٢
عوائد مراكب	١٢٢	٩٣٣
عوائد حيوانات	٩٤٨	٦٤٣١
جزية من القبائل	٥٩١	٥١٦٣
دخوليات الصمغ	٦٠٠	٣٢٧٦٣
« الريش	١٣٣	١٧٥٤
« العاج (سن الفيل)	٥٨٠	١٩٩٥
« الاصناف الاخرى	٣٦٣	٢٢٩١
جمارك	١٧٠	٦١٠١
بيع املاك واراض اميرية وخلافها وايرادات مختلفة	٣٢٣	١٥٩٨٧
ايرادات المحاكم الشرعية	٤٤٥	١٦٩٩
ايراد المعديات	٨٧١	٣٧١٦
« صيد الاسماك	١١٣	٦١٢
« ورق التمغة	٠٠٣	١٧٠٧
تصاريح المشروبات الروحية والاسلحة النارية والدلالة والمتسببين والصيد والبحث عن المعادن	٥٦٦	٣٧٨٢
عوائد السلخانات والاسواق	٣٣٦	٥٩٨٨
رسوم مجالس وتسجيل اراض وغرامات	٩٢٦	٢٦٠٩
ايرادات الاسبتاليات	٧٧٦	٣٢٤
ايرادات الوابورات والمراكب الاميرية	٩٥٠	٧٥
ايجارات اطيان الحكومة	٥٢٣	٩٧٥
ايرادات الحوالات التلغرافية	٤٩٣	٢٥٢
مستقطع لاجل المعاش	١١٦	١٢١١
عشور نقدية	٨٨٠	١٥٤٩٢
مبيع طوابع بوستة ورسوم حوالات	٧١٤	٤٣٢٩
مبيع طوابع تلغراف	٨٣٢	٤٦٨٤
سكة الحديد	٧٢٥	٧٥٨٠٨
مجموع الايرادات	٧٤١	٢٤٢٣٠٨
اعتماد الحكومة المصرية لسد عجز السودان	٠٠٠	١٩٤٥٤٥
المجموع العمومي	٧٤١	٤٣٦٨٥٣

وهاك بيان مصروفات هذه السنة أي سنة ١٩٠١ وايراداتها على صورة اخرى :

المصروفات	مليم	جنيه مصري	الايرادات	مليم	جنيه مصري
الخرطوم	٩٩٣	٢٣٥٩٧	الخرطوم	٥٩	٥٣٣٥٩
بربر	١٤	١٢٨١٩	بربر	٢٧٩	١١٧٠١
دنقله	٢٣٤	١٤٥٦٥	دنقله	٣٤٠	٢٩٦٤٦
سنار	٩٧	١٢١٠٣	سنار	١٧٢	١١٠٤٠
كسلا	٩٦	٩٩٦٤	كسلا	٤٧٧	٥٢١٧
سواكن	٣١٤	١٤٥٢٢	سواكن	٨٩٨	١١٣٤١
حلفا	٤٠٦	١٦٨٢	حلفا	٩٨٨	٥١٧٧
فشوده	٧٨٩	٣٣٨٥	فشوده	٣٢٤	٢٤٥
كردوفان	٨٦٤	٩٨١٣	كردوفان	١٧	١٩٢٠
الادارة العمومية	١٨١	٩٨٦٧٧	الادارة العمومية	٣٣٥	١٧٢٦٤
المخازن	٠٠٠	١٣٦٥٢	المخازن	١٧٣	٨٩٩٠
البوسته	٨٦٦	٨٥٨٦	البوسته	٥٢٣	٥١٣١
التلغرافات	٧٤٠	١٥٩٦٤	التلغرافات	٦٧	٤٧٦٨
سكة الحديد	٠٠٠	١٤٨٠٠٠	سكة الحديد	٨٩	٧٦٥٠٥
الاشغال العمومية	٠٠٠	٢٠٠٠٠			
جملة المصروفات	٥٩٤	٤٠٧٣٣٤	جملة الايرادات	٧٤١	٢٤٢٣٠٨
زيادة في الايراد عن الوارد في الميزانية	١٤٧	٢٩٥١٩	اعتماد الحكومة المصرية لسد عجز السودان		١٩٤٥٤٥
المجموع العمومي	٧٤١	٤٣٦٨٥٣	المجموع العمومي	٧٤١	٤٣٦٨٥٣

بأمر الحاكم العام (الامضا) ا · ا · برنارد — ميرالاي

مصر في ٢١ ابريل سنة ١٩٠٢ سكرتير مالي حكومة السودان

استعمار السودان

هذا والحكومة السودانية الآن باذلة الجهد في استعمار السودان وتسهيل طرق الاستيطان لجميع الناس على اختلاف طبقاتهم واجناسهم وحرفهم · وقد بدأت بالرفق بالسودانيين الذين هجروا البلاد بسبب الثورة فأرجعتهم الى اوطانهم مجاناً واعانتهم على زراعة ارضهم وتعمير بلادهم

ورفق سعادة السردار وحاكم السودان العام الجديد برجال الفتح الاول الذين كانوا في اسر الدراويش من ملكيين وعسكريين سودانيين ومصريين فسعى لهم لدى الحكومة المصرية فوزعت عليهم ٢٥ الف جنيه · واوصى بالبعض الذين امتازوا

في الخدمة واشتهروا بالولاء. فأجرت لهم معاشات تنقدهم اياها شهرياً مدى الحيوة

ورفق بالموظفين الملكيين فجعل رواتبهم في السودان ارقى منها في مصر بدرجة كاملة فالكاتب في مصر من الدرجة الثانية مثلاً يُنقد في السودان راتب كاتب من الدرجة الاولى وهكذا. ولم يحرم رجال العسكرية هذا الالتفات بل رقّى ايضاً رواتبهم بنسبة عادلة. وجدّد زيادة معلومة سماها «بدل مناخ» تمنح في الصيف لمن يخدم في جهات السودان البعيدة كفاشودة وبحر الغزال وكردوفان وكسله وسنار. وبذلك هوّن الخدمة في السودان حتى صار الكثيرون ولاسيما العزّاب يفضلونها على الخدمة في مصر *

وقد انتق العساكر الذين لم تعد القوانين العسكرية تسمح ببقائهم في الجيش فأقطعهم اراضي على النيل الازرق جنوبي سنار وعلى النيل الابيض جنوبي الجبلين واعطاهم ادوات وتقاوي للزراعة فاسسوا عدة مستعمرات جميلة وعاشوا فيها بأرغد عيش وانعم بال

واهم ما تعنى به الحكومة الآن تنشيط اهل الزراعة من مصر وغيرها الى الاستيطان في السودان فانها تنقلهم على نفقتها الخاصة وتعطيهم الارض مجاناً أو بثمن بخس جدًّا وتساعدهم على نقل ادواتهم الزراعية مجاناً أو بأجرة زهيدة وقد تعطيهم التقاوي لزرع الارض في بادىء الرأي. ولكنها انما تخصُّ بهذه العناية من وثقت بكفاءتهِ وحسن اخلاقهِ وصدق عزمهِ على الاستيطان * وطالب الزراعة في السودان يجد من فقراء السكان والعبيد الآبقين من اسيادهم من يساعدهُ على الزرع ولكن لا بدّ لهُ من ان يأتي بمن يعتمد عليهِ في الاعمال الزراعية لان فلاحي السودان قليلو الخبرة جدًّا بها كما مرّ

هذا ويجد التجار والصناع وارباب المشروعات مجالاً واسعاً في السودان لتقدم اشغالهم اذ البلاد في اشد الحاجة اليهم والحكومة مستعدة لتنشيطهم وتسهيل طرق الرزق لهم واذا ارادوا البناء اعطتهم الارض بثمن زهيد على ان يعمروها لا ان يتجروا بها

وبذلك اصبحت السودان من اهمّ البلاد التي يجدر بطالبي الرزق والساعين وراء المستقبل ان يحلوها محل النظر والاعتبار. وقد تقدم لنا ان هواءها لا بأس بهِ والعيش فيها ميسور قليل النفقة والسفر اليها اصبح الآن بعد انشاء سكة الحديد وانتظام مصلحة الوابورات من اسهل الامور وايسرها. وهذه هي أجر النقل من شلال اسوان الى

الكرمة والخرطوم وآخر حدّ النيلين الازرق والابيض حسب التعريفة الحاضرة :

الطريق		المسافة بالاميال	درجة اولى غ . ص	درجة ثانية غ . ص	درجة ثالثة غ . ص
من الشلال الى حلفا	بالنيل	٢٢٦	٤٠٠	٢٠٠	٤٠
من حلفا الى الكرمة	بسكة الحديد	٢٠٣		١٠٢	٤١
من حلفا الى الخرطوم	بسكة الحديد	٥٧٥		٢٨٨	١١٥
من الخرطوم الى الرصيرص	بالنيل الازرق	٣٨٠	١٠٢٦	٥٣٢	١٢٦
من الخرطوم الى مشرع الريك	ببحر الغزال	٧٤٠	١٩٩٨	١٠٣٦	٢٤٦
من الخرطوم الى كوندوكرو	ببحر الجبل	١٠٨١	٢٩١٨	١٥١٣	٣٦٠

وفي فصل السياح الذي هو فصل الشتاء تضيف مصلحة سكة الحديد عربات خاصة الى قطاراتها للنوم وتجعل الاجرة على الشخص الواحد من حلفا الى الخرطوم ١٦ جنيهاً ذهاباً واياباً ماعدا الأكل وبين اسوان وحلفا ١٧ جنيهاً ذهاباً واياباً مع الاكل ٭ ويجد المسافرون في كل من مدن اسوان وحلفا والخرطوم لوكندة جميلة للأكل والمنام ٭ ومن رام السفر في شرقي السودان وغربيهِ يجد قدر ما يشاء من الإبل والحمير الجمل بأجرة ثمانية الى اثنى عشر غرشاً والحمار بخمسة غروش في اليوم • ويجد المسافر الى سواكن محلاً على وابورات الشركة الخديوية التي تسافر من السويس مرّتين في الشهر اي في الاول والخامس عشر وتعود في نحو العاشر والرابع والعشرين من كل شهر بالاجرة الآتية : ٨ جنيهات و ٢٥٠ مليماً في الدرجة الاولى و ٦ جنيهات و ٢٥٠ مليماً من الدرجة الثانية و ٣ جنيهات بلا طعام في الدرجة الثالثة

ويمكن استئجار السفن الشراعية لوسق البضائع التجارية في النيل على نسبة خمسة جنيهات في الشهر لكل سفينة وسقها تسعة طنّات • واما السفن البخارية فكلها للحكومة كما مرّ ولا تنقل البضائع التجارية الاّ اذا سمحت حالة البضائع والذخائر الاميرية

واما بشأن سفر السودانيين الى خارج مصر والسودان فقد تقرر انهُ اذا كان السفر من احد موانى السودان فعلى المسافر ان يأخذ جوازاً من الحكومة المحلية واذا كان من احد الموانى المصرية فالحكومة المصرية لا تعطيهِ جواز السفر الا اذا كان مصحوباً بجواز من المديرية أو المحافظة التابع لها أو من مخابرات مصر أو الخرطوم

الباب الرابع

في

﴿ اخلاق اهل السودان وعاداتهم وخرافاتهم ﴾

الفصل الاول

في

﴿ اخلاق السود وعاداتهم وخرافاتهم ﴾

تقدم ان الاصول التي يتألف منها اهل السودان تنحصر في خمسة وهي السود وشبه السود والنوبة أو البرابرة والبجة والعرب • وغرضنا الآن الكلام على اخلاق كل شعب وعاداته مبتدئين بأقدمهم وهم السود

﴿ اوصافهم الخلقية ﴾ يختصّ السود بسواد اللون وقطط الشعر وفطس الانف وضخم خِنَّابتيهِ واتساع الشدق وبرطمة الشفتين وبروز الفك وضيق القحف وصلابة عظامهِ وطول اليدين بالنسبة اليهما في البيض واعوجاج الساقين وقلة لحمها • وهم في الغالب طوال القامة ولكن قد يوجد بينهم اقزام كقبيلة قَرقرو في الجنوب الغربي من بلاد خط الاستواء • واما قواهم العقلية فقاصرة جدًّا وترقيهم محدود وهيئتهم تؤذن بالهمجية • ولا قدرة لهم على تحمل المرض فاذا مرض احدهم رزح تحت مرضهِ الى ان يموت واكثر امراضهم الحمى والجدري والجذام والزهري

هذا وليس في بلادهم حيوان للحمل اذ الابل والخيل والبغال والحمير لاتعيش فيها بسبب ذباب السروت كما مرّ وبقرهم عزيزة جدًّا لديهم فلا يهينونها بحمل الاثقال وافيالهم كلها بريّة فلا يدجنونها كما في الهند ولذلك فحمل الاثقال كلهُ منوط بالرجال ويحمل الواحد منهم من ٤٥ : ٥٥ أقة يحملها على رأسهِ فيسير ١٤ ميلاً في اليوم أو ميلين الى ثلاثة اميال في الساعة

﴿ اخلاقهم ﴾ واسوأ ما في اخلاقهم العناد وجفاء الطبع وقلة التدبّر والحزم ٠ وافضل ما فيها حب الطرب والحرية و بساطة القلب وعدم حب الذات ٠ وهم اصلح البشر للجندية لما فيهم من ثبات الجأش وعدم المبالاة بالموت ٠ وقد ادركت مصر ذلك منذ القديم فلم يمرّ عليها عصر من ايام الفراعنة الى اليوم الا جنّدت بعضهم في جيشها ٠ وفي الجيش المصري الآن عدة اورط منهم اي من الاورطة التاسعة فصاعدًا واكثرهم من النوبة والشلك والدنكا ٠ وهم ينضمون تحت كل لواء ويصدقونهُ ما دام يحسن سياستهم ويراعي اميالهم اذ هم شديدو الشهوات الجسدية ومولعون جدًّا بالنساء وشرب الخمرة وليس لهم صبر على الجوع فأيُّ سلطان اجرى لهم الزاد واطلق حرية الزواج وشرب الخمرة انضموا تحت لوائهِ وحاربوا لهُ فاذا انكسر ووقعوا في أسر عدوهِ فأحسن العدو سياستهم صدقوهُ وحاربوا سلطانهم الاول

﴿ رقيقهم ﴾ هذا بشأن السود الاحرار واما الرقيق فقد اشتهر رقيق الدنكا بالصدق والولاء وتحمل التعب ورقيق الفور بالكذب والسرقة والنهم ورقيق النوبة بالغدر والخيانة والحقد مع تحمل المشاق ورقيق الشلك بالكسل والتواني وضعف الهمة فهو لذلك احطّ اجناس الرقيق واعلاها رقيق الحبشة الذي لا يدخل في كلامنا هنا ٠ ويسوس العرب الرقيق بالقسوة والشدَّة لزعمهم انهُ لا يصلح الاَّ بهما ومن اقوالهم : «لا تأمن العبد اضربهُ واطعمهُ ترى الحاجة مقضيةً» ٠ «والعبد اشقهِ واملا كرشه يطلع خيره» ٠ ومنهُ قول المتنبي :

لا تشترِ العبدَ الاَّ والعصا معهُ ان العبيد لانجاسٌ مناكيدُ

﴿ ملابسهم ﴾ والسود في بلادهم عراة الابدان أو يسترون عوراتهم بمئزر من ورق الشجر أو جلد الحيوان ويتزينون بعقود من الخرز الملوّن أو الصدف واساور وحجول من النحاس والعاج والحديد رجالاً ونساء ٠ ومن خصائصهم ان رجالهم يحبون التزين اكثر من نسائهم ٠ ولبعض السود لا سيما الشلك تفنن غريب في لبس الشعر وضفرهِ على اشكال شتى تشبه قنبرة الديك أو البرنيطة الافرنجية أو المروحة أو الاكليل وهم يعالجونهُ بطلاء من الرماد وروث البقر وبولهِ ممزوجاً بالغراء

ويزينونهُ بالخرز والريش • ويدهنون اجسادهم بالشحم والزيت ويشرّطون جباههم واجسادهم ويلوّنونها ببعض الالوان قصد الزينة • وبعض النساء يثقبن الشفة السفلى أو الانف ويدخلنَ في الثقب خشبة يكبرنها تدريجاً حتى لقد تبلغ حجم الجنيه أو تزيد وذلك من انواع الزين عندهم • وقد امتاز الشلك وبعض الدنكا بهتم اسنانهم السفلى • والشلي والشيري بتحديد ثناياهم بمبرد حتى تشبه المنشار • وبعض السود يبرد الثنيتين حتى يشبهان رقم السبعة الهندي • وامتاز المكارك بالختان ولذلك فالعرب المسلمون يفضلونهم على جميع السود

﴿ سلاحهم ﴾ ولا يخرج السود من منازلهم في الحرب أو في السلم الاّ مسلحين • وسلاحهم الحراب والسكاكين والفؤوس والنبابيت والقسي والدرق • ودرقهم اما مربعة الشكل مستطيلةُ كدرق المومبوتو أو بيضويةُ كدرق المكارك

﴿ مساكنهم ﴾ وهم يسكنون القرى في طقلات أو اكواخ اسطوانية من الطين عليها قبب مخروطية من القصب والقش ويمتّنونها للغاية بحيث تتحمل المطر الشديد الذي يكثر وقوعهُ في بلادهم • ولكل قبيلة منهم شكل خاص تبنى عليهِ اكواخها • وفي بعض الجهات يرفعون الاكواخ عن الارض بشُعب متينة لمنع الرطوبة وتوقي الفيران والزحافات • وهم يبلطون ارضها بتراب اذا عولج بالماء وروث البقر وعصير بعض الشجر اصبح كالحجر • ويفرشونها بجلود البقر أو الصيد ويصغرون ابوابها حتى لا يزيد علوها على قدمين ونصف قدم الاّ نادرًا ولا يمكن الدخول منها الاّ زحفاً • ويتألف المنزل الواحد من طقل واحد أو عدة طقلات محاطة بزرب متين • وفي بعض الجهات يحيطون القرية كلها بسور مرتفع ويضيقون شوارعها جدًّا بحيث لا تسع الاّ شخصاً واحدًا يمرّ فيها في وقت واحد • ولكنهم يجعلون في وسطها ساحة كبيرة يجتمعون اليها للرقص والغناء

﴿ أثاثهم ﴾ واشهر اثاثهم : مخدات صغيرة من خشب على شكل هلال قائم على قاعدة • وقصع للطعام من خشب كالقصع المصرية • وآنية للشرب من القرع • وآلة لطحن الحب مؤلفة من حجرين احدهما اكبر من الآخر تعرف بالمرحاكة

وسيأتي وصفها . وأوعية خزفية للطبخ . وغلايين لشرب الدخان . وسلال ومقاطف

﴿ طعامهم ﴾ وطعامهم الذرة أو التيلبون يأكلونها مسلوقة أو يطحنونها بالمرحاكة ويصنعون من دقيقها عصيدة على النار ثم يجعلونها في قدح ويضعون فوقها الادام من اللبن أو المرق واللحم ويجلسون القرفصاء حول القدح نساء ورجالاً ويأكلون بأصابعهم . وهم يقدّدون اللحم ويخزنونهُ ويصطادون السمك من النيل في الصيف ويقدّدونهُ للشتاء . ويجمعون العسل من خلايا النحل الكثير جدًّا في بلادهم . ومن مآكلهم الفول السوداني والبامية واللوبيا والملوخية والبطاطا الحلوة والاهليلج . ومنهم من يأكل الضفادع والحيات والعقارب . وكلهم يفضلون لحم القرود والكلاب على لحم الضأن فاذا ضافهم شخص وارادوا اكرامهُ ذبحوا لهُ قردًا أو كلباً ولاتباعهِ رأساً من الضأن أو الماعز . وهم يعتاضون الرماد عن الملح لعدم وجود الملح في بلادهم

﴿ شرابهم ﴾ وشرابهم البوزة مستخرجة من الذرة وهم مولعون بها ولعًا شديدًا حتى لقد تراهم في غالب الاحيان سكارى . ويشربون الدخان بغلايين كبيرة شبه « الجوزة » وقد يخلطون الدخان برماد زبل البقر ويمضغونهُ مضغاً

﴿ افراحهم ﴾ وسن الزواج عندهم من ١٥ سنة فصاعدًا مع ان سن البلوغ قبل ذلك . ويتزوج الرجل قدر ما يشاء من النساء أو قدر ما تسمح لهُ حالهُ المالية . ولا بدَّ لهُ اولاً من استرضاء الفتاة التي يقع اختيارهُ عليها فاذا رضيت نقد اباها مهرًا من البقر والحراب والخرز على قدر طاقتهِ واخذها . واذا رفض الاب اختطفها وفرَّ بها الى بلاد بعيدة . وعند بعض القبائل يسكن العريس مع عروسهِ في بيت ابيها فلا يأتي بها الى بيتهِ الاَّ اذا ولدت واذا لم تحمل منهُ في مدة سنة حق لهُ ان يطلقها ويسترد المهر . والعروس قبل ان تلد تتمتع براحة تامة ويقوم كل من في البيت بخدمتها فمتى ولدت بطل كل ذلك واصبحت كالامة تسعى في جلب الماء والحطب وتقوم بتدبير المنزل والفلاحة والحصاد . وهي ترضع طفلها سنتين في الغالب اذا لم تغل وتصنع لهُ ارجوحة تعلقها بمنكبيها فاذا ذهبت لعملها علقتها في شجرة

وبعض السود ولا سيما الموررو يكرمون نساءهم ويشركوهنَّ في الرأي ويعنون بتربية اولادهم فلا يسمحون للولد ان يتكلم في حضرة من هو اكبر منهُ أو ان يجلس امامهُ بغير احترام. ويعلمونهم الرقص واستعمال الاسلحة منذ الصغر وقد يأخذ الاب ابنهُ الى غابة ويتركهُ فيها وحدهُ ليهتدي الى البيت من نفسهِ. ويرث الرجل نساء ابيهِ كما يرث امتعتهُ واملاكهُ بل لهُ ان يتخذهنَّ زوجات اذا شاء.

﴿آلاتهم الموسيقية﴾ واشهر آلاتهم الموسيقية :

« الطنبورة » وهي قدح يضوي من خشب مغشّى بجلد غزال لهُ خمسة اوتار تضرب بعود فتُوقَّع بها الحان بسيطة جدًّا وهم يعلقون بها اشياء شتى من الخرز والودع وحوافر الغنم ونحوها بقصد الزينة . ومن آلاتهم الموسيقية الخاصة بملوكهم :

« النقّارة » وهي طبل الحرب والرقص بل هي طبلان الواحد اصغر من الآخر يصنعان من قطع مجوفة من الشجر على شكل مخروطي مقطوع ويُجلدان من الطرفين بجلد بقر فينقرهما رجل واحد بقضيبين في يديهِ

« والامباية » وهي سن فيل صغير طولها نحو متر تثقب ثقبًا واحدًا من رأسها وتضرب للدلالة على خروج الملك من منزله لغزو أو لحرب أو نحوهما

« والقرن » وهو قرن الوعل مثقوبًا ثقبًا واحدًا من رأسهِ كالامباية يضرب في زمن الحرب والرقص ولهُ صوت مزعج قوي

« والمندكولة » وهي جرسان من النحاس أو الحديد يُقرعان امام الجنود في ساحة القتال على ألحان يتحمس لها السود كثيرًا

« والبيدي » وهي قطعة مجوفة من الشجر ومجلدة من الطرفين كأصغر طبلي النقارة تعلق بحبل في العنق وتضرب بالكفين من الجانبين

« والبُخسة » وهي قرعة يابسة توضع فيها الحصى وتضرب بهزها رواحًا ومجيئًا

« والصفّارة » وهي قرن الوعل مثقوبًا خمسة ثقوب ثقب في رأسهِ واربعة في اسفلهِ يُصفَر بها كالفلوت مع البيدي والبخسة. ومن اربع صفارات وبخسة وبيدي يتألف « طاقم » كامل يضرب في زمن الحرب أو الافراح بأمر الملك

﴿ رقصهم ﴾ وهم مولعون بالرقص ولعاً شديداً ولكل قبيلة منهم رقصة خاصة ترقصها الرجال والنساء على اصوات الآلات الموسيقية ٠ وقد رأيت جماعة من رجال الشلك يرقصون رقصة حربية في الخرطوم ايام تشريف الجناب العالي الخديوي لها وقد لبسوا شعورهم على اشكال غريبة شتى كما تقدم الوصف وزينوها بالريش والخرز وصبغوا جفونهم بصباغ ابيض مشرب حمرة ولبسوا اساور العاج والنحاس في ايديهم والجلود أو الخرق في اصلابهم وحملوا الحراب والنبابيت ٠ فمثلوا في رقصهم واقعة حربية وقفوا فيها صفين يهاجم احدهما الآخر وكانوا يقفزون كالقرود ويصيحون كالذئاب وهم يهزون رماحهم ونبابيتهم فوق رؤوسهم ويغنون اغاني لا تلحين فيها ويصوتون بالقرون اصواتاً مزعجة تصم لها الآذان ٠ وبالاجمال لم يكن في رقصهم شيء من الطرب بل دلّ على تمام الهمجية ومنتهى الخشونة

﴿ مآتمهم ﴾ ولمآتمهم ضجة عظيمة واحتفالات تدوم عدة اسابيع يذبحون فيها الذبائح ويشربون الخمرة ويرقصون حول القبر نساء ورجالاً رقصاً محزناً ٠ قيل ان بعضهم كالنوبة والجانق والباري والشلي يدفنون الميت امام منزلهِ وهو قاعد القرفصاء ويداهُ مطبقتان ومضمومتان الى صدرهِ ويدفنون معهُ غليونهُ ودرقتهُ وحرابهُ ويدلون على قبره بحجر فوق رأسهِ ٠ وبعضهم كالجور والبنقو يدفنون الميت وهو واقف على خشبة بين فخذيهِ ويرفعون ابطيهِ بخشبتين اخريين تحت كل ابط خشبة وكلهم يصنعون طعاماً على ايام معدودة ويضعونهُ عند القبر ليأكلهُ الطير أو المارّة

﴿ سلامهم ﴾ وسلامهم المصافحة باليد ولكن بعضهم كالاجار والدنكا يسلمون بدفع اليد مبسوطة في وجه المسلَّم عليهِ ٠ وبعضهم كالشلي يظهرون ودّهم لضيفهم بالبصق في كفهِ أو بعمل اشارة البصق

﴿ جلوسهم ﴾ وقد اعتادوا كلهم جلوس القرفصاء كما اعتاد العرب الاحتباء والتربيع ٠ وبعضهم كالباري لا يجلسون الاّ على كراسي صغيرة خشبية واطئة جداً ٠ ومن عادة الدنكا في الوقوف ان يتكئ الواحد على حربتهِ ويقف على رجلهِ اليسرى واضعاً عليها اليمنى وضعاً افقياً

﴿ عهودهم ﴾ واشهر علائم التعهد عندهم مص الدم فاذا تعاهد اثنان على أمرٍ فصد كل منهما يده ومص من دم رفيقهِ · وبعض السود كالجانقي يحلفون بوضع ايديهم فوق النار · وبعضهم بلحس حربتهِ · وبعضهم بأخذ شيء من تراب الارض ووضعهِ في فيهِ أو مسهِ بلسانهِ · وبعضهم بضرب فخذهِ بكفهِ وقولهِ وحياة كراعي لأفعلنَّ كذا وهو من اعظم الاقسام عندهم

﴿ ملكهم ﴾ وملكهم وراثي الاَّ اذا كان الوارث ضعيفاً غير كفوء للاحكام فيملك الاقوى من رجال العائلة المالكة · ولكل ملك منهم نقارة يضربها وقت الحرب أو الرقص فاذا فاجأهُ عدوٌّ ضربها وأوقد النيران على رؤوس التلال وارسل الرسل الى قومهِ بسرعة البرق · وفي بعض البلاد يقيمون في العاصمة برجاً تحرسهُ الحرّاس للانذار اذا فاجأهم العدو

ويتخذ الملك شارة الملك بين قومه بريشة يجعلها في رأسه ويجعل في يده ترساً وعلى منكبيهِ جلد نمر وفي ساقيهِ وذراعيهِ عدة اسورة من النحاس والعاج ولا يدنو احد منهُ الا حثوًا على الركب ولا يكلمهُ الاَّ وهو مطرق · وهو مطلق التصرف في قومه يحكمهم بالعرف والعادة · ومن احكامهم في قصاص السارق والزاني والقاتل القتل أو طلب الدية من القاتل من بقر وسن ونحوهما

﴿ قيودهم ﴾ واشهر انواع القيود المستعملة عندهم : الشعبة والمكية والعصا

اما «الشعبة» فهي عود طويل لهُ في احد طرفيهِ شعبتان يوضع عنق الجاني بينهما بحيث تبرزان من مؤخر العنق ثم يوصل بين طرفيهما بحبل متين فيصبح العنق محصورًا في الوسط وعصا الشعبة على ثقلها بارزة امام وجههِ · وقد يربطون يدهُ اليمنى بها لزيادة التحفظ عليهِ · وهذا القيد انما يثقل بهِ الجاني عند نقلهِ من مكان الى آخر

واما «المكية» فهي ساق من حديد طولها نحو شبر ونصف شبر ولها في كل طرف حلقة تقيد بهما الرجلان وذلك بأن تفتح الحلقتان فتوضع كل رجل في حلقة بحيث تكون ساق القيد بين الرجلين ثم تقفل الحلقتان فلا يمكن المقيد المشي الاَّ بكل صعوبة وبطء وقد يقيدون الجاني بمكيتين أو اكثر لتعذيبهِ وزيادة التحفظ عليهِ

﴿ خرافاتهم واديانهم ﴾ تقدم ان السود لا دين لهم أو يدينون بالفتشية فيتقربون الى بعض انواع الحيوان أو الشجر أو الجماد أو الظواهر الجوّية التي تُتخذ رمزًا الى القوة أو العظمة أو الحكمة أو غير ذلك من الصفات التي نخص بها الخالق جل جلالهُ ويحترمونها بذاتها الى درجة العبادة على نحو ما كان عليهِ عامة المصريين القدماء . فالدنكا مثلاً يتخذون البقر رمزًا الى القوّة والغنى ويعدونها اقدس المخلوقات فيعنون بها عناية تقرب من العبادة ويفضلونها على نسائهم واولادهم ولا يذبحونها الا نادرًا وهم يأتون بها الى ساحات الرقص فيعلقون بقرونها واعناقها الاجراس ويرقصونها معهم . وترى الرجل يلقب بالثور والمرأة بالبقرة (قلت وقد كان الثور اعظم لقب لملوك مصر وايثيوبيا الاقدمين) واكثر حديثهم وغنائهم يدور على ذكر البقر وافضل مقيل لهم مرابضها واذكى الروائح رائحة ارواثها وهم يجففونها ويحرقونها في المرابض لطرد البعوض ويتمرغون برمادها ويزعمون ان لها قوّة سحريّة على شفاء الجروح . واما بولها فيفضلونهُ على الماء الزلال وبهِ يغتسلون ويغسلون آنيتهم ويعطرون سمنهم * قيل والباري يتعبدون للحية ويقدمون لها القرابين من لبن واطعمة ويعدون قتلها جريمة كبيرة وهم يربونها في منازلهم ويسمونها باسماء تعرف كما نربي القطط في بلادنا ويعتقدون ان اجدادهم كانوا يصعدون الى السماء بحبل معقود بالنجوم واما الآن فقد انقطع الحبل لكثرة الشر في العالم * وقد سمعت بعض السود من اهل بحر الغزال القاطنين مصر يغني اغنية شجية محزنة فسألتهُ عما يغنيهِ فدلَّ من الترجمة ان قومهُ يتعبدون للرعد ويشكرون لهُ انزال المطر في بلادهم واحياء مزروعاتهم وهم في حيرة وغمّ لانهم لا يعلمون من اين يجيء * ويظهر ان الشلك يقدسون النيل ويتوسلون اليهِ قيل ولا يتكلمون عن ارواح الموتى الاّ بكل خوف ويعتقدون انها متطايرة في الهواء فتسكن تجاويف الاشجار وتتقمص اجسام الحيوانات * ويعتقد البنقو ان ارواح الفواجر تنتقل الى الضباع ولذلك لا يقتلونها خوفًا من ان تكون فيها ارواح قرائبهم وهم يصنعون حول مقابرهم تماثيل خشبية تشبه آلهة جزائر اوستراليا قيل وهي ليست بآلهة بل هي رموز عن الموتى قائمين من قبورهم

ولكل قبيلة رئيس ديني كما مرّ يعرف عند النوبة « بالكجور » وعند الشلك والدنكا « بنيوكاما » ولهذا الرئيس احترام عظيم عندهم حتى ان الملك لا يقدم على حرب أو يحجم عنها الاّ بمشورتهِ ورأيهِ وهم يعتقدون فيهِ السحر والقدرة على انزال المطر أو حبسهِ حسب مقتضيات احوالهم ويدعي هؤلاء الرؤساء ان السلاح لا يؤثر في اجسامهم وانهم يرقون الواحد حتى لا يؤثر السلاح في جسمهِ . وهم يتعاطون علم الرمل فيتنبؤون بهِ عن المستقبل ويستخدمونهُ لكشف المخبآت ومعرفة ما يصيب الانسان من خير أو شر . ولبعضهم مهارة في الجراحة وطب الاعشاب

هذا ما اقتضى المقام ذكره من اخلاق السود وعاداتهم وخرافاتهم على وجه الاجمال ومن اراد التفصيل فعليهِ بكتب سياح الافرنج الذين جابوا بلادهم وخبروا احوالهم وكتبوا عنهم المجلدات الكبار واهمهم السائحان الالمانيان شوينفرت وينكر

الفصل الثاني

في

﴿ اخلاق شبه السود وعاداتهم وخرافاتهم ﴾

﴿ اخلاقهم ﴾ اما شبه السود فلا يشبهون السود الا في اللون وفيما سوى ذلك فهم اقرب الى العرب البدو منهم الى السود . واشهر ما في اخلاقهم التدين أو التعصب في الدين

﴿ ملابسهم ﴾ وهم يلبسون قميصاً واسع الاردان مقفول الصدر على سراويل ضيق قصير ويلبسون نعالاً في ارجلهم وطواقي على رؤوسهم أو يمشون حفاة عراة الرأس وهم يحلقون شعور رؤوسهم ويرخون لحاهم وشواربهم ويختمون بخواتم من النحاس أو الفضة بفصوص من العقيق أو الفيروز . وتلبس النساء « القرباب » (لباس للحقوين) تحت « شقة » من الدمور يشتملنَ بها اشتمال الصماء فيجللنَ الاكتاف والابدان . وهنَّ يمشطنَ شعورهنَّ جدائل دقيقة جدًّا على اشكال شتى اذ لنساء كل قبيلة جدلة خاصة ويتحلينَ بالاساور والحجول والاقراط والاحزمة والخواتم من النحاس والفضة والذهب والحديد

﴿ سلاحهم ﴾ وسلاحهم الحراب والسيوف المستقيمة والنؤوس والسكاكين والنبابيت والدرق ودرقهم اما مستديرة أو بيضوية كدرق السود · وسلاح فارسهم في الحرب « السيف » يعلقهُ في مقدم السرج تحت فخذه اليسرى بحيث تكون قبضتهُ على عنق الفرس « والفرّارة » (الفأس) في مقدم السرج الى الجانب الايمن « والكبس » (حربة كبيرة) يحملهُ بيدهِ اليمنى ويلقيهِ على كتفهِ « والتركاش » (الجعبة) وفيهِ الطبائق (الحراب) من ٣ : ١٢ حربة في مؤخر السرج · وسلاح راجلهم الطبائق في التركاش يعلقهُ في رقبته فيتدلّى من تحت ابطهِ الايسر والدرقة في يدهِ اليسرى وكبس أو فرّار أو نبوت في يدهِ اليمنى ومنهم من يحمل القوس والنشاب بدل الحراب يجعل النشاب في الجعبة ويحمل القوس باليد اليمنى مع الكبس أو يعلقهُ في عنقهِ

﴿ مساكنهم ﴾ وهم يسكنون في اكواخ هرمية كاكواخ السود أو في اخصاص كظهر الثور يبنونهـا بالبوص واغصان الشجر · وفي بعض المدن يبنون بيوتاً مربعة السقوف من الطوب النيّ أو المحرق

﴿ طعامهم ﴾ وطعامهم الدخن يطحنونهُ بالمرحاكة ويعملون منهُ العصيدة ويجعلون عليها الإدام من اللبن أو السمسم بالسمن أو البامية باللحم المقدد أو الطري ونحو ذلك · وهم يصطادون الارانب والغزلان والدجاج البرّي ويستمرئون لحمها

﴿ شرابهم ﴾ وشرابهم ماء الآبار أو ماء الينابيع وهم مولعون بشرب البوزة كالسود الاَّ ان فقهاءهم يحرمونها تحريماً شديداً فيمتنع الكثيرون منهم عن شربها تديناً

﴿ افراحهم ﴾ وهم يحبون الزواج الباكر ويتزوجون امرأة الى اربع نساء على حدّ الشرع · قيل ومن عادة بعض القبائل المتطرفة في غرب دارفور كالقمر والتامة والمساليت الذي لم يتمكنوا من الاسلام ان يسرح شبانهم وشاباتهم بمواشيهم في الخلا فيبنون قرى صغيرة ويعيشون بها ازواجاً سنة أو حواليها فمن حملت زوجتهُ منهُ كتبوا عليها كتابهُ والاَّ فصلوها عنهُ ليقترن بغيرها في سنة تالية · ومما ذكرهُ سلاطين باشا في كتابهِ « السيف والنار في السودان » عن عادات البديّات الذين لا يزالون على الفتشية ويعبدون الشجر انهُ عند موت والدٍ فيهم يحملهُ اولادهُ

واهلهُ الى المقبرة خارج البلدة وبعد دفنهِ يقف اولادهُ صفًّا ثم تعطى لهم اشارة فينطلقون نحو البيت عدوًا فمن وصلهُ وغرز رمحهُ فيهِ اولاً ورث والدهُ واستولى على جميع اموالهِ حتى على نسائهِ . واذا ارادوا الحلف اتوا برمح وسرج فرس ونار في وعاء فيتقدم صاحب القسم ويرفع يدهُ فوقها ويقول لا تمس فخذي السرج العمر كلهُ ويُطعن جسمي بالحراب واحرق بالنار ان حنثتُ بحلفي هذا اه . وهم يحتفلون بالافراح بذبح الذبائح وشرب البوزة والغناء والرقص على الآلات الموسيقية

﴿ آلاتهم الموسيقية ﴾ اما آلاتهم الموسيقية فهي آلات السود بعينها

﴿ رقصهم ﴾ ولكل قبيلة منهم رقصة خاصة وللبرقد رقصة تسمى «التنديقة» يشترك فيها النساء والرجال على مثال رقص الافرنج فيرقصون زوجًا زوجًا شابًا وشابة فيطوّق الشاب ظهر الشابة بيدهِ اليسرى ويأخذ في يدهِ اليمنى سيفًا يلعب بهِ وتطوّق الشابة ظهر الشاب بيدها اليمنى وتطلق يدها اليسرى ويسير الاثنان رويدًا وهما يرقصان على صوت الطبل الى ان يتعبا فينضمان الى حلقة المتفرجين وقد رأيت هذا الرقص في الخرطوم فوجدتهُ رقصًا لا بأس بهِ بل وجدتهُ اوفر حشمة من كثير من انواع الرقص في البلاد المتمدنة

﴿ مآتمهم ﴾ ولمآتمهم جلبة عظيمة لا سيما عند النساء فانهنَّ يحثثنَ التراب على رؤوسهنَّ ويسودنَ وجوههنَّ « بالسجم » والرماد ويندبنَ الميت بالصراخ ولطم الخدود . واذا كان الميت فارسًا تركب احدى جواريهِ فرسهُ وتتقلد عدة حربهِ ويركب معها بعض الجواري فتجتمع النساء حولهنَّ ويطفنَ البلدة بالزراغيت والندب . وتدوم مآتمهم من ثلاثة ايام الى اربعين يومًا وحدادهم سنة كاملة يمتنعون فيها عن التطيب ولبس فاخر الثياب والحلى . وملوكهم تحكمهم بالعرف والعادة كما سيجيء في التاريخ

﴿ سلامهم ﴾ وسلامهم المصافحة باليد . وهم يركبون الابل والحمير والثيران ويحملونها الاثقال واما الخيل فلا يستعملونها الاَّ للركوب كما مرَّ

﴿ حلفهم ﴾ وحلفهم على المصحف الشريف وهم يحفظونهُ غيبًا مع انهم اعاجم

﴿ خرافاتهم ﴾ وهم يعتقدون السحر وبلادهم مملوءة بالدجالين وخرافاتهم شتى

الفصل الثالث
في
﴿ اخلاق البرابرة وعاداتهم وخرافاتهم ﴾

﴿ اوصافهم الخلقية ﴾ تقدم ان البرابرة القاطنين بين الشلال الاول والرابع هم خليط من ثلاثة اجناس وهي النوبة الاصليون والعرب والاتراك. اما النوبة الاصليون فهم مربوعو القامة شديدو السمرة جداً واما العرب فهم اطول قامة واقل سمرة واما الاتراك فهم اطول قامة واقل سمرة من الجميع

﴿ اخلاقهم ﴾ وهم يختلفون في الاخلاق اختلافهم في الاصول ولكنهم فقدوا اجل الصفات التي امتازت بها اصولهم فما ترى فيهم شجاعة النوبي ولا مروءة العربي ولاشهامة التركي بل هم من الجبن والكذب والكسل والجهل وشكاسة الاخلاق على جانب عظيم . واذا اجتمعوا للحديث قامت لهم جلبة عظيمة حتى ضرب بهم المثل : « عشرة يتكلمون وواحد يسمع » . وقد قيل ان البرابرة الذين اخذهم ابرهيم باشا في جيشهِ الى سوريا لما احسوا بالبرد احرقوا اخشاب بنادقهم وتدفأوا بها . على ان البرابرة لم يزالوا حافظين من اخلاقهم الاصلية حب الضيافة وصيانة العرض . وقد اشتهر الذين اتوا منهم للخدمة في مصر بالنظافة والامانة واما الذين توغلوا في السودان فقد اشتهروا بالمكر والخديعة كما مرَّ . وهم امهر سكان السودان في ملاحة النيل وخبرة الشلالات ومنهم معظم رؤساء المراكب والوابورات في مصر والسودان

﴿ ملابسهم ﴾ وهم ينسجون الدمور ويتخذون منهُ سراويل «وشقة» يرتدون بها فوقهُ ويمشون حفاة عراة الرأس الا كبارهم فانهم يلبسون طواقي من الدمور واحذية من جلد البقر ويحلقون شعور رؤوسهم ويرخون لحاهم وعوارضهم . ويشتمل نساؤهم بشقة من الدمور ويجدلنَ الشعر ضفائر دقيقة جداً يرخينها الى الوراء وعلى الاصداغ ونساء البلاد بين الشلال الاول والثاني يرخينَ الجدائل ايضاً على الجباه ويدهنَّ اطرافها واطراف الجدائل المرخية على الاصداغ

بمجون احمر فاتح كالدلغان فتظهر كان قد عُلق فيها مواسير من القصب الدقيق

﴿ سلاحهم ﴾ وسلاحهم القديم الحراب والسيوف والنبابيت والقسيّ واما الآن فقد تركوا الحراب والقسيّ واعتاضوا عنها الاسلحة النارية

﴿ مساكنهم ﴾ وهم يسكنون في بيوت حقيرة من الطوب النيّ أو الحجر والطين ويسقفونها بخشب النخل وكانوا قديماً يضيقون ابوابها جدًّا ولا يجعلون لها شبابيك اما الآن فقد وسعوا ابوابها وجعلوا لها الشبابيك وكل منازلهم طبقة واحدة

﴿ طعامهم ﴾ وطعامهم الذرة يطحنونها « بالجاروش » المعروف أو المرحاكة ويخبزونها على «الدوكة» وهي شبه الصاج فيصنعون منها اقراصاً من الخبز رقيقة أو سميكة • وعندهم من الخضر البامية واللوبيا والبصل يطبخونها بلحم البقر أو الماعز في قدور من الفخار ويجعلونها في اقداح من الخشب ويأكلون بأصابعهم

﴿ شربهم ﴾ وشربهم ماء النيل بلا تقطير فاذا قُطّر لا يستعذبونهُ • وهم مولعون بشرب البوزة ويصنعونها من الذرة والقمح ويصنعون من البلح النبيذ والعرق والدكاي المار ذكرهُ

﴿ افراحهم ﴾ وهم يحبون الزواج الباكر ولا بدَّ للشاب من رؤية الفتاة التي يروم خطبتها واسترضاء امها قبل ان يخطبها من أبيها فاذا تمَّ الاتفاق على الصداق أو المهر دعى اهل العريس والعروس اقاربهم ومن راموا حضوره من اهل البلدة فيحضر المدعوون فرساناً ومشاة رجالاً ونساء ويزفون العريس الى بيت العروس راكباً فرساً فيسير الفرسان امامهُ والنساء وراءهُ وهنَّ يزرغتنَ ويغنين حتى يصل الموكب الى بيت العروس فيولم لهم اهلها وليمة ويكتبون الكتاب • ثم يأتون بالعريس الى غرفة العروس فيجد الباب مقفلاً وامامهُ رجل ممسك بقفلهِ فلا يدعهُ يدخل حتى ينقدهُ شيئاً من المال (قلت وقد رأيت مثل ذلك في بعض افراح القاهرة) وعند فتح الباب يدخل العريس ورفاقه فترشهم امرأة من اهل العروسة بقرعة ماء • ويصلي العريس ركعتين ثم يتقدم الى العروس فيلمس جبهتها بيده ويقبل يده ويجلس بجانبها نحو ربع ساعة • ثم تأخذ النساء العروس الى غرفة اخرى ويبيت العريس وحدهُ الى الفجر

فينزل الى النيل مصبحاً اياهُ ويعود ومعهُ غصن اخضر من الذرة أو نحوها فيدخل الى غرفة العروس ويضربها بهِ ثم يرجع الى غرفتهِ حيث يجتمع اليهِ بعض اقاربهِ من نساء ورجال ويستمر على ذلك سبعة ايام الاَّ انهُ بعد الليلة الثانية يستدعي بعض اقارب العروس فيأتون بها الى غرفتهِ ليلاً ثم يرجعونها الى غرفتها حتى تنتهي السبعة ايام فيولم اهل العروس وليمة لاهل البلدة ثم يزفون العروس ويأتون بها رسمياً الى غرفة العريس وعند وصولها يناولها العريس شيئاً من الفضة أو الذهب في يدها وهو مما يسمى « فتح اليد » ثم يأتون بشيء من الحب فيضعونهُ في كف احدهما فيضعهُ في كف الآخر وهكذا يتناوبان اعطاءهُ احدهما للآخر سبع مرَّات فمن حازهُ في يده آخر مرة رمى بهِ وجه الآخر وهم في الغالب يعطونهُ العروس اولاً حتى ينتهي اخيرًا الى يدها فتضرب بهِ العريس . هذا في جهة سكوت والمحس واما في جهة حلفا فانهُ بعد دخول العريس الى غرفة العروس يمكث معها نحو ثلاث ساعات ثم يذهبان مع اهلهما الى النيل فيغسلان وجهيهما ثم يرش احدهما الآخر بالماء ويرجعان الى البيت . ويبقى العريس في بيت عروستهِ شهرًا او اكثر حسب الاتفاق ثم يسعى في الذهاب مع عروستهِ الى بيتهِ . والزوجة لا تنطق باسم زوجها الى ان تموت . وهم يختنون صبيانهم الختان المشروع بهِ في الاسلام ويحتفلون بهِ احتفالهم بالاعراس . ويختنون بناتهم ختان فرعون وهو من افظع العادات البربرية وسيأتي الكلام عليهِ

﴿ آلاتهم الموسيقية ﴾ واشهر آلاتهم الموسيقية :

« الرّبابة » وهي تشبه طنبورة السود الاَّ ان قدح ربابتهم مستدير الشكل وتحرّك اوتارها بقدة من جلد . « والطبلة » وهي طبل صغير تضربهُ النساء واما الربابة فتضربها الرجال والنساء ولكل من الطبلة والربابة رقص معلوم

﴿ رقصهم ﴾ والرقص عندهم خاص بالنساء الفتيات فاذا برزن للرقص وقف الشبان حولهنّ حلقة يصفقون لهنَّ ويضربون الارض بأرجلهم على ضرب الربابة أو الطبلة واما كبارهم وشيوخهم فقد يحضرون حفلات الرقص ولكنهم لا يشاركون الشبان فيهِ لان ذلك عار عندهم

﴿ مآتمهم ﴾ ولمآتمهم ضجة عظيمة فاذا مات احدهم دعوا اهل بلدتهِ والبلاد المجاورة لها وأقاموا المآتم بالبكاء والصراخ والرقص المحزن ثم يجهزون الميت ويدفنونهُ ويرجعون الى منزلهِ فيجددون الندب والبكاء ويقيمون على ذلك اربعين يوماً فيأتيهم المعزون من جهات بعيدة فمنهم من يعود في الحال ومنهم من يقيم يوماً أو اكثر بحسب درجة القرابة ويقوم اهل بلدة الميت بتقديم الطعام للمعزين حتى ينتهي المآتم ويحد أقارب الميت سنة يمتنعون فيها عن الافراح والتطيب ولبس فاخر الثياب والحلى

﴿ سلامهم ﴾ واما سلامهم فالرجال يتعانقون ثم يتصافحون والنساء يتصافحون بالوجه ثم باليد واما سلام النساء على الرجال فبالمصافحة باليد واذا سلمت المرأة على قريب لها دون البلوغ قبَّلتهُ في جبهتهِ

﴿ خرافاتهم ﴾ واما خرافاتهم فكثيرة لا طائل تحتها وعندهم السحرة والدجالون

الفصل الرابع

في

﴿ اخلاق البجة وعاداتهم وخرافاتهم ﴾

﴿ اخلاقهم ﴾ اما البجة فلونهم بنيّ قاتم ويشبهون بدو العرب جدًّا في الملامح والاخلاق الا انهم اشكس اخلاقاً وافظ طباعاً وهم في قتال دائم بعضهم مع بعض ومع العرب المجاورين لهم بل المرأة في خصام مستمر مع رجلها وجاراتها . ولكن روى العارفون عنهم اخبارًا تدل على كرم الاخلاق وطيب النفس منها : ان رجلاً من الهدندوة من بدنة الباشكاب يدعى محمدًا عبد الله جاء الى بدنة القلابنيب الهدندوة يسألهم الصفح عن قتيل قتلهُ اهلهُ من رجالها فطعنهُ واحد منهم بحربة في جنبهِ ليمنعهُ التوسط في الصلح فلم يلتفت الى الطاعن بل لم يزل يرجو العفو والكف عن طلب الثار والدم يسيل من جنبهِ فلما رأى القلابنيب انهُ صابر على الضيم الى هذا الحد حباً بحقن الدماء تنازلوا عن ثارهم اكراماً لهُ واحلوهُ عندهم اياماً على الرحب والسعة . وامثال ذلك كثيرة

وكلهم بادية لا حضر فيهم لكن بعضهم يخالطون الحضر فيأتون سواكن ومصوع وكسله وبربر بالبقر والغنم والابل والسمن واللبن والجلود والدوم والسنا ويعودون بالذرة والدمور والدبلان والانسجة المصرية والهندية للبسهم ولبس نسائهم

﴿ ملابسهم ﴾ ولبسهم شقة من الدمور او الدبلان يرتدون بها بلا سراويل وهم ارشق من العرب في لبسها واكثر تشميرًا والذين لم يزالوا على الحال الفطرية يلبسون الفراء في اصلابهم ويمشون حفاة او يلبسون نعالاً وكلهم عراة الرأس ولكنهم يتركون « كشة » في اعلاهُ على هيئة الطاقية ويدهنونها بالشحم او زيت الخروع ويمشطونها بمسواك من السن او الخشب فاذا فرغوا من التمشيط غرزوهُ في الكشة . وكلهم يرخون لحاهم وبعضهم لا سيما البشارين يحلقون عوارضهم وعثانينهم . وهم يختمون بخواتم من الفضة او الذهب بفصوص من « حجارة الدم » او العقيق او الفيروز. ونساؤهم يلبسنَ الشقة وحدها او مع « القرباب » او يلبسنَ الفراء في اصلابهنَّ . ويجدلنَ شعورهنَّ جدائل دقيقة جداً او يرخينها على الصدغين والعنق ويتحلين بالاخزمة والاسورة والحجول والخلاخل والعقود والاقراس من الفضة والذهب كسائر نساء السودان

﴿ سلاحهم ﴾ ولا يخرج الواحد منهم الا وفي يدهِ قطعة او اكثر من السلاح. وسلاحهم الحراب والسيوف المستقيمة والسكاكين المنجلية ذات الحدين والدرق المستديرة . وسلاح فارسهم السيف يعلقهُ في مقدم السرج ويجعلهُ تحت فخذهِ اليسرى . وسلاح راجلهم الحربة والسيف والدرقة والسكين يعلقها في وسطهِ بسير من جلد

﴿ مساكنهم ﴾ وهم يسكنون خياماً يصنعونها من البروش (الحصر) على هيئة ظهر الثور والبروش تصنعها نساؤهم من سعف الدوم الكثير جدًا في بلادهم . وهم يقتنون الاسرة وهي شعب قصيرة تغرَز في الارض على شكل مربع مستطيل وتوصل بقضبان دقيقة متقاربة وتفرش بحصر غليظة من ورق الدوم وتستعمل للجلوس والمنام. وهم يقسمون خيامهم قسمين بستُر من الصوف تنسجها نساؤهم على مثال نسج الحصر في مصر فيضعون السرير في قسم منها ويجعلونهُ خباء ويجعلون القسم الثاني لاستقبال الضيوف وجلوس الرجال

﴿ طعامهم ﴾ وطعامهم الذرة يطحنونها بالمرحاكة ويعجنونها بها ويصنعون منها عصيدة بقدور من الفخار فيأكلونها باللبن الحليب أو الرائب ويأكلون اللحم مسلوقاً أو مشوياً والدوم طرياً أو ناشفاً مدقوقاً وهذا جلّ طعامهم واما مشايخهم الذين يخالطون الحضر فيصنعون اطعمة كأطعمة الحضر

﴿ شرابهم ﴾ وشرابهم ماء الآبار أو الخيران . والبوزة يصنعونها من الذرة . والدخان يشربونهُ في غلايين صغيرة من الطين وهم يتكلمون ويبصقون والغلايين في افواههم

﴿ افراحهم ﴾ وعادة البجة كعادة بعض السود في ان العريس يسكن مع اهل عروسهِ حتى تلد فيأتي بها الى اهلهِ . ومن عاداتهم ان يخصّ ابو العريس ابنهُ بشيء من مالهِ فيخص ابو العروس بنتهُ بمثلهِ على الاقل . والمرأة تنسج الحصر وتحوك شملات الصوف وترعى الابل ولكن يعاب عليها غسل الثياب ولا سيا ثياب زوجها فالزوج يغسل ثيابهُ وثياب زوجتهِ أو يستأجر من يغسلها لهُ . وهم انما يقيمون النساء احياناً على رعاية الابل قصد حمايتها لان الغزاة لا يهاجونها ما دامت في عهدة النساء خوفاً من التعيير

﴿ آلاتهم الموسيقية ﴾ ولكل قبيلة منهم نقارة تضرب في الافراح والمآتم كما تضرب في وقت الحرب وليس عندهم من الآلات الموسيقية الا « الربابة » ولكن لكل قبيلة نغمة خاصة توقعها عليها وتتحمس لها وعندهم الشعراء ينظمون لهم القصائد في مدح النساء والرجال فيغنونها على الربابة أو على ظهور الابل

﴿ مآتمهم ﴾ ولمآتمهم جلبة عظيمة الا ان رجالهم لا يستسلمون للعواطف استسلام النساء بل يضع الرجل طرف ثوبهِ في فيهِ ويعدّد الميت بما ترجمتهُ : واخلاي . واتعبي بعدك . واوحدتي . واخلو ظهري . الليلة يا ضويتي . الليلة يا جملي . الليلة يا ذخرينا يا خريفنا يا ظلنا يا حبيب قسانا ونحو ذلك . ومآتمهم تدوم من ٣ : ٤٠ يوماً وحدادهم سنة كاملة يمتنعون فيها عن التطيب ولبس الحلى

﴿ سلامهم ﴾ وسلامهم المصافحة باليد ه «وخرافاتهم» شتى

الفصل الخامس

في

﴿ اخلاق عرب السودان وعاداتهم وخرافاتهم ﴾

﴿ اوصافهم الخلقية ﴾ لعرب السودان الاوصاف الخلقية المشهورة للعرب في كل زمان ومكان الاّ انهم اشد سمرة واقسى شعرًا من عرب الشام ومصر لشدة حرارة بلادهم وكثرة تسرّيهم من النوبة والسود . واما نساؤهم فيغلب فيهن اللون القمحي أو اللون الضارب الى الصفرة كلون تمثال الملكة « آمن ريتس » الايثيوبية في متحف الآثار المصرية بالجيزة

﴿ التشليخ ﴾ ثم ان الشايقية والجعليين والعابدلاب من حضر العرب يشلخون وجوههم بقصد الزينة ولكل قبيلة منهم شلوخ معلومة فللشايقية ثلاثة شلوخ افقية على كل خد وللجعليين ثلاثة شلوخ عمودية على كل خد وللعابدلاّب على كل خد ثلاثة شلوخ عمودية تحتها شلخ افقي يسمى بالعارض . ومن كان وجههُ عريضاً جعلوا لهُ على كل خد اربعة شلوخ بدل الثلاثة والمرأة التي لا يعيش لها اولاد تشلخ وجناتهم ايضاً شلوخاً دقيقة كرجل الطير . ومن القبائل التي تتبع هذه العادة فتقلد بها القبائل الثلاثة المذكورة : النوبة البرابرة واهل بربر من الحضر والشكرية والضبانية والكبابيش من البادية . اما زمن التشليخ فهو زمن الطفولية للذكور والاناث غير ان الذكور قد لا تُشلَّخ وجوههم واما الاناث فلا بدّ من تشليخ وجوههنّ اذ الشلوخ في الوجه والوشم في الفم معدودان عندهم من الجمال

« فالشاب الجميل » في عرفهم هو من كان مربوع القامة قمحي اللون واسع الصدر مجدول الخصر والذراعين طويل العنق منخفض الكتفين مشلخ الخدّين صقيل الانف افلج الثنايا ادعج العينين مفتوح الحاجبين باسم الثغر نير الوجه شريف الخصال

« والمرأة الجميلة » هي من كانت مربوعة القامة مع الميل الى الطول صفراء اللون طويلة الشعر غزيرتهُ واسعة الجبين زجّاء الحاجبين دعجاء العينين سادلة


جمال السودان


حلى السودان

الاهداب قنياء الانف مع الميل الى التحدب لا كبيرة الفم ولا صغيرتهُ عريضة الشفة السفلى موشومتها وموشومة اللثة مفلجة الاسنان بيضاءها مشلخة الخدين محفوصة الذقن طويلة العنق منخفضة الكتفين واسعة الصدر ناهدة الثديين رقيقة الخصر قصيرة الظهر مجدولة الساعد والساق رقيقة الاصابع بارزة الردفين مجموعتهما صغيرة القدم رشيقة الحركة لينة الاعطاف اذا رقصت انثنت الى الوراء حتى يصل رأسها الى قدميها واذا مشت تمايلت كالغصن اذا حركهُ النسيم خفيفة الروح باسمة الثغر طلقة المحيا مصونة الحجاب جميلة الحركة اقبلت أو ادبرت

واجمل نساء السودان نساء الجزيرة روى لي بعض الادباء ان فقيهاً من اهل كردوفان يسمى عبد العزيز سمع بكرم الزبير في بحر الغزال فقصدهُ يريد منهُ نوالاً فأمر لهُ الزبير بجارية فلم تعجبهُ وقال « اني قصدتك لجارية عنقها طويل وردفها ثقيل وشعرها غزير و بطنها ضمير وسنّها كالجير وعينها كتبّ الغدير اذا مشت كأنها امير واذا وقفت تعجب هذا الفقير » واشار الى نفسهِ . فقال لهُ الزبير « عليَّ الطلاق ان هذه الصفات لا توجد حتى في بنات الجزيرة » ثم نادى احد غلمانهِ وقال ائتوهُ بزيتونة فأتوهُ بها وكانت جارية جميلة فأعجبتهُ فقال « قبلت زيتونة الصادقة المامونة اللهمَّ اجعلها كرليخة المفتونة » فقال الزبير خذها وخذ الاولى جارية لها فازداد عبد العزيز طمعاً بكرم الزبير وكان بيدهِ ركوة (ابريق ماء من جلد) فقال وهذه الركوة من يحملها لي فدعا الزبير احد عبيدهِ وقال احمل هذه الركوة لسيدك فحملها وذهب الفقيه بالثلاثة شاكرًا مسرورًا

﴿ اخلاقهم ﴾ اما اخلاق عرب السودان فهي ايضاً الاخلاق المشهورة للعرب في كل زمان ومكان وهي حب الضيافة والكرم والمروءة والشهامة وحب الغزو والنجدة والاخذ بالثار ومراعاة الجار واحترام العرض والافتخار بالنسب ولكنهم اكتسبوا من جيرانهم السود العناد واحتقار الموت والصبر على مضض الايام مع شيء من بلادة الطبع

ومن غريب اخلاقهم : انهُ اذا اتى الجدب واشتد الجوع اغلق الواحد منهم بابهُ على نفسهِ واولادهِ وانتظر الموت جوعاً ولم يسأل احدًا خوفاً من التعيير بذل

السؤال . والمريض مهما اشتدّ المهُ لا ينطق بكلمة تدل على تألّمهِ . وكذلك المضروب لا يبدي أقل توجع مهما اشتد عليهِ الضرب . والمسوق الى القتل لا يبدي اقل جزع أو خوف . واذا اظهر المريض اقل تألم أو المضروب اقل توجع أو المسوق الى القتل اقل جزع أو خوف عيّروهُ وعيروا اولادهُ من بعدهِ الى منتهى الذريّة . ومن هذا القبيل انهُ اذا كان احدهم سائرًا في الطريق وحدثت خلفهُ غوغاء فلا يلتفت برأسه الى الوراء كمن ذُعر ليرى ما الخبر بل يتحول بجميع جسمهِ دفعة واحدة واذا تعرّض لهُ كلب فنهشهُ من الوراء فلا يردهُ عن نفسهِ بل يصبر على نهشهِ حتى تراهُ المارَّة فتردهُ عنهُ

ومن اكبر العيوب عندهم الفرار من القتل فاذا ارتكب احدهم جناية تستوجب القتل وقف في مكانهِ ينتظرهُ بالتسليم وكامل الصبر . من ذلك ما روي ان رجلاً من الضباينة يدعى عبد الرسول كان متزوجًا بامرأة يحبها جدًا وهي تكره احد اخوالهِ فأوغرت صدرهُ عليه فأخذ خنجرهُ وقصد خالهُ فوجدهُ يحلب بقرتهُ فشرع في طعنهِ بالخنجر حتى قتلهُ فامسك برجلهِ اذ ذاك ومكث ينتظر القتل فحضر اخوة القتيل وبكوهُ ولم يتعرضوا لابن اختهم اذ من العار عندهم ان يثأر الرجل من ابن اختهِ أو يمسهُ بسوء . فلما حضرت اختهم والدة عبد الرسول صاحت وولولت وحثت التراب على رأسها حزنًا على اخيها ونادت بابنها قائلةً ان كنت ابني وابن ابيك فلا تعش بعد قتل خالك فقال عبد الرسول لاخوالهِ اقتلوني بثار اخيكم ولما أبوا اخذ خنجرهُ وطعن بهِ نفسه فوقع ميتًا الى جانب خالهِ فهزّت امهُ يدها فوقهُ ارتياحًا وقالت حقًا انك ابني وابن ابيك ثم حملوا القتيلين ودفنوهما في حفرة واحدة . قلت وهذا الخلق اي عدم الفرار من القتل مرويٌّ عن الايثيوبيين القدماء كما سيجيءُ في التاريخ

هذا ومن المعايب عندهم الفرار من ساحة القتال جبنًا أو خوفًا فاذا دخل فارسهم ساحة القتال فقتل فرسهُ وانكسر قومهُ فهو لا يقاتل مستقتلاً كمن وقع في فشل أو ذعر من الخوف بل يفترش فروتهُ ويجلس عليها الى ان يأتي العدو فيقتلهُ أو يأسرهُ . وهذا الخلق انما نراهُ في عرب النيل وشرق السودان وامثلتهُ في

التاريخ كثيرة اما عرب غربي السودان ففارسهم يقاتل حتى يقتل أو يفر

ومما هو مشهور من اخلاقهم فيدل على النجدة واحترام العرض انهُ اذا قصدت امرأة سيدًا منهم فكشفت عن رأسها وتشفعت لهُ بأمرٍ وجب عليهِ قضاء ذلك الامر أو بذل اقصى الجهد في قضائهِ مهما كلفهُ ذلك من المشقة والعناء

ومما يدلُّ على حبهم للضيافة ان لهم في كل بلدة منزلاً خاصاً بالضيوف يسمونهُ «الخلوة» فاذا نزل فيها ضيوف طبخت كل ربة بيت طعاماً وارسلتهُ اليهم وذهب الرجال للترحيب بهم وتناول الطعام معهم. ذلك في الجزيرة وشرق السودان واما في غرب السودان فكل منزل معدٌّ لقبول الضيوف واقرائهم من طعامهِ الخاص كثروا أو قلوا

وهم يتبارون في افراحهم على الخيل أو الهجن وبرفع السيف بالاصابع الثلاث الاولى وذلك بوضع قبضتهِ بين السبابة والوسطى والضغط على رأسها بالابهام ورفع السيف افقيًّا. وترى لهم في ساحة كل بلد حجرًا يعرف بحجر الصبيان يتناظر الشبان في رفعهِ بكلتي اليدين الى الصدر أو الكتف أو فوق الرأس ونحو ذلك من المناظرات الرائجة في مصر والشام

﴿ البُطان ﴾ ومن اشهر عاداتهم التي اصبحت خلقًا لهم عادة «البطان» وهي من نوع الدوالو عند الافرنج فاذا تنافر شابان لسبب من الاسباب طلب احدهما الآخر للبطان فان أبى عدَّ جباناً ورفضت البنات زواجهُ واذا رضي اخذ كل منهما سوطاً وعمدا الى عنقريب (سرير) جعلوهُ بينهما ووقف الواحد تجاه الآخر ثم خلع كل منهما ثوبه وتجرَّد الى وسطهِ واجتمع الناس للشهادة فيبدأ احدهما بجلد الآخر سوطاً على ظهره ثم يصبر فيجلدهُ رفيقهُ سوطاً وهكذا يتناوبان ضرب السياط وهما لا يتحركان من مكانيهما بل لا يحركان كتفاً أو جفناً الى ان يقع احدهما من شدة الضرب فيحملهُ اقاربهُ الى بيتهِ فيزورهُ مصارعهُ ويصالحهُ . وهي من عوائد العامة فلا تشترك فيها الخاصة ثم هي محصورة في اولاد ابي مرخة دون غيرهم من عرب السودان ولكن تناول رقيقهم هذه العادة فناقهم فيها . واهمُّ اسبابها النساء فاذا احب شاب فتاة فزاحمهُ آخر عليها طلبهُ للبطان واخذها الغالب

وقد يكون البطان لمجرد المباهاة بالقوة والجلد على الضرب فيدخل فيهِ اذ ذاك اكثر من اثنين ويكون على ضرب الدلوكة فكل من اراد البطان يأتي الى النساء اللواتي يضربنَ الدلوكة فيهز سوطهُ فوق رؤوسهنَّ ويقول « ابشرنَ بالخير انا اخو البنات عشرة » ويقف الكل صفًّا واحدًا ثم يبرز احدهم فيضرب كل من في الصف سوطًا ويرمي السوط ويعود الى الصف فيبرز آخر فيتناول السوط ويفعل فعل الاول وهكذا حتى يأخذ كل منهم نصيبهُ ضاربًا ومضروبًا

واذا اعجبت فتاة بشاب من الحضور ووقع حبهُ في قلبها نزعت من معصمها سوارًا وألبستهُ اياهُ فيأخذ الشاب اذ ذاك سوطهُ ويهزهُ فوق رأسها ويقول « ابشري بالخير انا اخو البنات عشرة » فاذا كان لهُ بين الحضور مناظر في حب الفتاة ورأى سوارها في يدهِ انبرى لهُ وطلب مبارزتهُ فيقف لهُ حامل السوار واضعًا يدهُ اليمنى فوق رأسهِ فيجلدهُ بسوطهِ الى ان يكلَّ فيرمي السوط فيجلدهُ حامل السوار في نوبتهِ بما اعطي من القوَّة ويقف المضروب في حالة الضرب جامدًا لا يتحرَّك ولا يطرف لهُ جفن كأنهُ صخر اصمّ ومن بدت عليهِ ظواهر التألم بل من بدت منهُ اقل حركة كهز الكتف أو طرف الجفن لبس العار ولم يعد لهُ من البنات نصيب

واذا احب شاب فتاة ولحظ من احد الحضور ميلاً اليها تأخذهُ الغيرة فيستل سكينهُ من ذراعهِ ويأتي الى حبيبتهِ ويهز السكين فوق رأسها وينادي « ابشري بالخير انا اخو البنات عشرة » ثم يشرع في تشريط ساعدهِ وصدرهِ الى ان يلطخ رأسها وثيابها بالدم فيأتي احد الحضور ويمنعهُ من ذلك ويأخذ النساء من دمهِ فيلطخنَ بهِ جبين حبيبتهِ وهي تتمايل تيهًا ودلالاً معجبة باستهلاك حبيبها في حبها فتصدقهُ الحب ولا تعود تلتفت الى احد سواه . وقد رأيت الكثيرين من الشبان مجرحي السواعد والصدور بسبب هذا الحب البربري * قيل وعشاق البادية لا يأكلون لحم الغزلان لانهم يشبهون حبيباتهم بها فلا يطيقون ذبحها أو تعذيبها واذا رأوا غزالة في يد صياد افتدوها بالمال واطلقوا سراحها . وفارسهم يتكنَّى باسم حبيبتهِ ويتباهى بحبها وعند اللقاء في الحرب يقتحم غمرات الموت بجوادهِ وسيفهُ مسلول في يده وهو

ينادي « لعيني فلانة » على ما هو مشهور عند اهل بادية الشام

وعرب السودان شجعان في الحرب اشداء لا يهابون الموت ولكن شجاعتهم همجية قلَّ فيها التدبر والحكمة كاسلافهم الايثيوبيين . ومن جملة اغانيهم التي تدلّ على شجاعتهم واحتقارهم الموت :

غنيّ شكّريه يا جدي بوحات بلال ود علي اسد الخلا القنَّات
وقت الموت يجيء ال فوق السريرموات مرحوم ال يموت فوق كوكب الدرقات

ومن قول بعض نسائهم :

والله ان شردتوا يا رفاقتنا ادُّونا الدَّرق وهاكم رهاطتنا

هذه هي اشهر اخلاق العرب في السودان وقد اثرت فيهم المظالم التي قاسوها في زمن المهدية وقبلهِ فتخلق الكثير منهم بالمكر والخداع والتمليق والكذب والنميمة والغدر والخيانة والانشقاق وغيرها من الصفات المشينة التي لا بد من تركها الآن في حكم العدالة والشرع . هذا والعرب والسود متضادّان في الطباع لايمتزجان كالخل والزيت . وقد اشتهر عن العرب الخُلَّص احتقار الصناعة والزراعة وعن السود عدم العمل الاّ عند الاضطرار وعن الخلاسيين المولّدين بينهما الكسل وكره العمل

《 ملابسهم 》 وهم يلبسون سراويل ضيقاً ويشتملون فوقهُ بثوب من الدمور او الدبلان اشتمال الصماء او يلبسون قميصاً طويل الاكمام يعرف بالعري . وفي الافراح والاعياد يلبس كبارهم القفاطين والجبب كاهل مصر . وهم يحلقون شعور رؤوسهم ويدورون لحاهم ويخففون شعور عوارضهم ويتعممون بعمامة بيضاء فوق طاقية من الدبلان او يلبسون الطاقية بلا عمامة واما كبارهم فيلفون العمامة على طربوش مغربي او مكاوية . ويلبسون احذية من جلد اسود او احمر على قالب خاص شبيه بالقالب المصري كما مرّ . ويتختمون بخواتم من الفضة او الذهب بفصوص من العقيق او الفيروز او « حجر الدم » ويفضلون العقيق على الفيروز لانهم يعتقدون انه يقطع الرعاف ولبسهم للذهب نادر . وقلما يخرج الواحد منهم الا وفي يدهِ عصاً وسكين واشهر عصيهم عصيّ قصيرة دقيقة معكوفة كالصولجان تؤخذ من السلم او البشم

او غيرهما كما مرَّ وقد تُثقب من طرفها المستقيم وتعلَّق باليد اليمنى • واما سكاكينهم فهي قصيرة مستقيمة ذات حدين تعلَّق في الساعد بسير من جلد

هذا لبس الحضر واما اهل البادية فبادية الشرق عموماً يلبسون الثوب بسراويل من تحتهِ او بلا سراويل وهو الاغلب ويلبسون نعالاً في ارجلهم او يمشون حفاةً عراة الرأس ولا يحلقون شعور رؤوسهم بل يجدلونها ضفائر ثخينة ويرمونها الى الوراء ويتركون شعر الناصية منفوشاً كالكشة فيغرزون فيها عوداً من العاج او الخشب لاجل مشطها وحك الرأس • ويدهنون شعور رؤوسهم بالشحم والزيت ويحملون العصيَّ في ايديهم والسكاكين في اوساطهم وسكاكينهم معقوفة من وسطها كالمنجل • واما بادية الغرب فالبقارة يلبسون اقمصة واسعة الأكمام جدًّا مقفلة الصدر بلا سراويلات ويتحزمون بسيور من جلدٍ ويمشون حفاة عراة الرأس او يلبسون نعالا في ارجلهم ويجدلون شعور رؤوسهم ضفائر كضفائر النساء الا انها اثخن ولا يتركون كشة كبادية الشرق لكنهم يدهنون شعور رؤوسهم بالشحم والزيت مثلهم • ولا يخرج الواحد منهم الّا وفي يدهِ حربة كبيرة تسمى كبساً او أم كريشة يلقيها على كتفهِ وقد يحمل معها بعض الحراب الصغيرة المعروفة « بالطبايق » يضعها في كيس من جلد يسمى « بالتركاش » ويعلقها في كتفهِ • واما الأبالة فيلبسون الثوب بسراويل أو بلا سراويل ويلبس مشائخهم القمصان الواسعة الّا ان قمصانهم اقل اتساعاً من قمصان البقارة وانظف • وهم يجدلون شعور رؤوسهم ضفيرتين فقط ولا يتركون لها كشة في الناصية • اما مشائخ البادية الذين يخالطون الحضر في الشرق والغرب فانهم يحلقون شعور رؤوسهم ويلبسون القفاطين والجبب والعمائم ويتختمون بخواتم من الفضة بفصوص من العقيق أو الفيروز او « حجر الدم »

هذا لبس الرجال واما الاطفال ذكوراً واناثاً فانهم يبقون عرايا لا يسترهم شيء الى نحو سن الخمسة فتستر البنت اذ ذاك نفسها « بالرهط » • وهو سير من جلد يعقد حول الحصر تتدلّى منهُ قدد دقيقة الى ما فوق الركبتين • وقد تلبس فوقهُ « شقة » من الدمور أو تبقى عارية لا يسترها الا الرهط الى ان تتزوج فتخلعهُ

وتلبس بدلا منهُ فوطة كفوطة الحمام تعرف « بالقرباب » وفوقها شقة اكبر منها قليلاً بحواشٍ من حرير تعرف « بالقرن » وفوقهما « ثوب » من الدمور أو الدبلان أو الشاش تشتمل بهِ اشتمال الصماء وتستر رأسها حتى لا يظهر منها الاّ عيناها . والمقتدرات منهنَّ يلبسنَ فوق الثوب « فركة » أو « برصة » من الحرير الملوّن

ونساء العرب من حضر وبادية يضفرن الشعر ضفائر دقيقة ترخى على الصدغين والعنق كسائر نساء السودان ولكن للفتيات المتبرجات من نساء الحضر عادة في لبس الشعر تُعرف « بالرشّة » وذلك بأن يرسلنَ اطراف الضفائر ويدهنَّها بالصمغ والشحم ويتركنها الى ان تجف فتقف حول روؤسهنَّ « كالكشة » وهنَّ يعدنَ لبسها في كل شهر . والنساء القصيرات الشعر يلبسنَ شعرًا مستعارًا من شعر الماعز أو غيرهِ

ويلبس النساء الاحذية والنعال كالرجال الاّ ان نعال النساء ادق واجمل ومنها نعال تسمى بالمُدُس أو المجبوكة وقد سميت بالمدس لانها تصبغ بقشرهِ وهي عبارة عن سبع نعال مطرزة الحواشي مرصوفة بعضها فوق بعض ولها سيور من جلد منقوشة نقشاً جميلاً تشدُّ بها

واشهر حلى النساء : الخواتم والاساور والحجول والعقود والاقراص والخزائم والعصائب والاقراط من الذهب والفضة والخرز . اما خواتمهنَّ فاكثرها من الذهب أو الفضة بحبوب عدسية أو مخروطية واما اساورهنَّ فمن الفضة أو العاج أو المرجان أو السوميت والاساور الفضية أو العاجية عريضة جدًا وعليها نقوش بسيطة ولبعض الفضية منها حبوب مخروطية الشكل تزيد في ضخامتها . واما حجولهنَّ فاكثرها من المرجان أو الفضة اما الفضية فضخمة للغاية وهي اما مجوفة توضع فيها الحصى ليسمع لها رنين عند المشي أو مصمتة وقد يبلغ وزن الواحدة منها نحو ٢٠ ريال فضة أو اكثر . وزي اساورهنَّ وحجولهنَّ كزي الاساور والحجول في تمثال الملكة « آمن ريتس » الاثيوبية في متحف الآثار المصرية بالجيزة بل هنَّ في لبس الشعر بزي الرشة ولبس الحجول والاساور ونعال المدس على ما تقدم وصفها يمثلنَ لبس نساء المصريين

القدماء تمام التمثيل • واما عقودهنَّ فمن الذهب وحده تصاغ من قطع مربعة صغيرة أو من السوميت والذهب أو من الخرز الملوّن أو اليسر أو المرجان • واقراصهنَّ طاسات صغيرة من الذهب تلبس في قمة الرأس وتتدلى منها خيوط ذهبية على الصدغين • وخزائمهنَّ حلقات كبيرة من الذهب يلبسنها في الخنابة اليمنى وقد يجعلنَ لها أزمّة من الذهب تشدُّ الى الاذن لرفع ثقل الخزامة عن الانف • واما عصائبهنَّ وهي حلى الجباه فأشهرها نوعان الشريفي والارملي • اما الشريفي فهو عبارة عن ست قطع مستديرة محببة من الذهب الواحدة منها في حجم الجنيه الافرنجي منظومة في سلك وفي وسطها « ودعة » من الذهب بهيئة رجل الطائر تتدلى بين الحاجبين • واما الارملي فهو سلسلة من خيوط ذهبية في وسطها قطعة محببة من الذهب كالتي في الشريفي • واما اقراطهنَّ فمن الذهب والفضة ومنها نوع يعرف بالسكسكي مؤلف من حلقة كبيرة واربع حلقات صغيرة

ومن حلى النساء : « الحقو » وهو سير دقيق من جلد منظوم فيهِ خرز من الكهرباء والعقيق الاحمر والسوميت يلبس تحت القرباب حول الحقوين وفي كل حقو كرتان مجوفتان من الفضة أو الذهب توضع فيهما حصى صغيرة ليسمع لهما رنين عند الحركة وهو الغرض الاول من لبس الحقو الذي لا بدَّ منهُ لكل امرأة متنعمة « والحجاب » وهو عود مجوف من العُشَر يوضع فيـهِ حجاب ويشد من طرفيهِ بسير من جلد ويعلق في الرقبة فيتدلى الى ما فوق الركبتين • ونساء الخاصة يحلينهُ بالذهب والفضة ويجعلنَ لهُ سلسلة من فضة فيسمى اذ ذاك بالحجاب الهيكلي • والغرض الاصلي منهُ منع الثوب من الالتصاق بالجسم اذا هبت الريح • واما تعليق الاحجبة فيهِ فللتبرك ودرء العين • ونساء الجزيرة يستغنين عن عود العشر فيعلقنَ في رقابهنَّ مجموعة من الاحجبة شبه العنقود تسمى الرَّبجة تتدلّى الى ما فوق الركبتين • هذا ويحظر على البنـات لبس الاخزمة ووشم الشفاه حتى يتزوّجنَ

﴿ الروائح العطرية ﴾ وعرب السودان عموماً نساء ورجالاً حضرًا وبادية يدهنون رؤوسهم واجسادهم بالشحم والسيرج لتخفيف وطأة الحرّ ويتطيبون بالروائح

العطرية واشهر هذه الروائح عندهم : المسك والزباد والجلاد والمحلب والظفر والسنبل والقرنفل والصندل . واحب المركبات العطرية اليهم مركب سائل يسمى الخُمرة مؤلف من مقادير معينة من المسك والجلاد والزباد والقرنفل تذاب بماء خشب الصندل وتخمر وتحفظ في احقاق هندية محكمة الغطاء . اما الصابون فقلَّ من يستعملهُ ولا سيما من اهل البادية فان اهل البادية الشرقية يغسلون ثيابهم ببول البقر واهل البادية الغربية يغسلونها بقشر الاهليلج

﴿ الدلكة ﴾ ومن اشهر عاداتهم « الدلكة » وهي بمثابة الدلك في الحمامات التركية فهم يأخذون شيئاً من عجين الذرة فيدوفونهُ بالماء حتى يصير كالعصيدة ويجمدونهُ قليلاً بوضعهِ على الدوكة فوق النار ثم يجعلونهُ في قدر ويوقدون ناراً من خشب الطلح والشاف والكايت في قدر آخر ويكفأون القدر التي فيها العصيدة على القدر الموقدة فيها النار حتى تجف العصيدة وتتدخن برائحة الاخشاب المذكورة فيعجنونها بمعجون الدلكة ثم يقرصونها كتلاً صغيرة ويدلكون بها . اما معجون الدلكة فمؤلف من دقيق القرنفل والمحلب وخشب الصندل والظفر ويعرف بالمربوع ويضيفون اليهِ اللبان أو السنبل فيسمى بالمخموس . ويضيف الخاصة اليهِ الجلاد والزباد والمسك ويعرف بمعجون الخاصة . وهم يدلكون اجسادهم في كل صبح ومساء قبل النوم وبعدهُ ثم يتطيبون « بالخمرة »

وذكر بعض الاطباء عدة فوائد صحية للدلكة منها انها تقوي الاعصاب وتقلل الافراز الجلدي وتزيل شعر الجسم وتكسبهُ ملاسة وبالنتيجة ترطبهُ وتخفف حرارتهُ لان الاجسام السوداء شديدة القابلية لامتصاص الحرارة فمتى ملست عكست اشعة الشمس وقلت قابليتها لامتصاص الحرارة

ومن قبيل الدلكة « التعصير » وهو غمز الجسم باليدين بلا دلك فهو مختصر الدلكة . اما عمل الدلك والتعصير للنساء والرجال فمنوط بالجواري

﴿ التدخين ﴾ ومما اختص بالنساء دون الرجال « التدخين » وهو بمثابة الحمام لهنَّ وهذا الحمام عبارة عن غرفة كثيرة النوافذ في وسطها حفرة صغيرة والى احد جوانبها

دكَّة عالية فاذا ارادت المرأة التدخين اوقدت في الحفرة نارًا من خشب الطلح او الشاف أو الكليت أو غيره من الاخشاب الطيبة الرائحة وسدَّت نوافذ الغرفة الا نافذة واحدة لخروج الدخان ثم تتجرد من ثيابها وتمسح جسمها بالسيرج وتشتمل بشملة من الصوف وتجلس على حافة الحفرة ورجلاها ممدودتان على عود فوق الحفرة وتبقى على ذلك الى ان تنطفي النار فيحمى جسمها ويتحلب العرق منهُ صبيباً فتقوم وهي لا تزال مشتملة بشملتها فتستلقي على الدكة وتفتح النوافذ واحدة بعد الاخرى حتى يخرج الدخان ويجفّ العرق تدريجاً فتأتي احدى الجواري وتدلكها وتطيبها بالخمرة · ومن خصائص التدخين انهُ يكسب المتدخنة لونًا اصفر ورائحة عطرية مستحبين جدًّا عند عرب السودان وهو نافع بنوع خاص لمرض المفاصل والامراض العصبية

﴿ سلاحهم ﴾ وسلاحهم السيوف والحراب والفؤوس والدرق و بعض انواع الاسلحة النارية · اما سيوفهم فمستقيمة ذات حدين وكلها جلب من الخارج وعلى بعضها ابيات من الشعر اكثرها من البردة · وقد ظفرت في واقعة ام درمان بسيفين جميلين مكتوب على احدهما البيت الآتي :

وقاية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عالٍ من الاطمِ

وعلى الآخر هذان البيتان :

طارت قلوب العدا من بأسهم فرقًا ... فما تفرّق بين الهم والبُهمِ
ومن تكُ برسول الله نصرتهُ ... ان تلقهُ الاسد في آجامها تجمِ

اما تاريخ السيف الاول فهو سنة ١٣٠٣ ﻫ وعليهِ اسم احمد حسين الفيل واما تاريخ الثاني فظاهر الكتابة يدل على انهُ سنة ١٢٣ ﻫ ولكن الارجح انهُ سنة ١٢٠٣ ﻫ على ان في السودان سيوفًا كثيرة يدعي اصحابها انها من ايام الصحابة أو اقدم ومنها سيف للملك آدم احد ملوك جبال تقلي الاقدمين ادّعى انهُ سيف الزبير ابن العوام · وعند اولاد حمور من اهالي دنقلة العجوز سيف ادعوا انهُ من زمن المسيح . وقد رأيت بين غنائم الجيش في فركة سنة ١٨٩٧م سيفًا مكتوبًا عليهِ هذان البيتان :

دهر ذميم الحالتين فما بهِ   حرٌّ سوى هذا بن بادي محمدُ
دفع الخطوب عن الانام بعزمهِ   ورعى العباد بمقلة لا ترقدُ

وتاريخهُ سنة ١٢٠٥ هـ واما بادي المذكور فهو احد ملوك سنار الاقدمين الذي ملك في سنة ١٢٠٥ هـ كما سيجيء

اما « حرابهم » فهي عصي طويلة من خشب القنا أو السلم أو الاندراب أو البشم ذات نصال حادة تصنع في جميع البنادر على اشكال شتى يجمعها شكلان المسطح البيضوي والمستدير المسنن ومنها الكبير ويسمى الكبس والصغير ويسمى الطبائق وهي تحمل في جعبة تسمى التركاش وكلها من سلاح البادية

« ودرقهم » اما مستديرة وتستعمل في السودان الشرقي أو بيضوية وتستعمل في السودان الغربي وهي تصنع من جلد فرس البحر أو جلد الفيل أو الزراف أو الجاموس البرّي

واما « الاسلحة النارية » فلم يكن منها في السودان قبل الفتح المصري الاّ القليل واكثرهُ من الطرز القديم « بزناد وشطفة » المعروف بالارشليك . وبعد الفتح المصري اقتنى العرب البنادق « البيادة » من طرز بنادق ابرهيم باشا . والبنادق « الخشخان » الكبيرة التي عرفت عندهم برفع مدفع وقد استخدموها لصيد الافيال . وفي الثورة المهدية وقع في يدهم كثير من المدافع والسواريخ والبنادق الرمنتون وبعض بنادق مرتين ولكن الحكومة الجديدة استرجعتها منهم

اما « القسي والنبال » فلا يستعملها العرب لكنهم يصنعونها في بنادرهم للاتجار بها فيصنعون القسي من خشب الزان أو الحديد المرن والنبال من اغصان السلم أو البشم لصلابتها ومرونتها ويجعلون لها نصالاً يسمّونها بعصير بعض النباتات السامة المار ذكرها

وهم في الحرب يركبونُ الخيل والهجن بسروج تختلف عن سروج الخيل والهجن في مصر والشام وسيأتي وصفها . وسلاح هجانهم السيف يعلقهُ في مقدم السرج عن الشمال والدرقة عن اليمين . وسلاح فارسهم السيف يعلقهُ في مقدم السرج عن الشمال والفرّار عن اليمين والكبس يلقيه على كتفهِ والطبائق في التركاش يعلقها في

مؤخر السرج ويلبس درعاً أو قميصاً من الزرد المنضّد فوق اثوابهِ وفوقهُ « شاية » أي « مضرّبية » محشوة قطناً وخوذة من الحديد على رأسهِ لها « تلي » اي عذَبة من الوراء تستر العنق « وسن » من الامام يقي الوجه • وجريدتين (قفازين) من الجلد والزرد يلبسهما بيديهِ ويُلبس فرسهُ اللّبوس وهو مضربية محشوة قطناً تسترهُ من رأسهِ الى ركبهِ حتى لا يظهر من وجهه الا عيناهُ ومن قوائمهِ الا ما بين الركب والحوافر • وسلاح راجلهم السيف والدّرقة في الحضر والحراب والدرقة في البادية

﴿ مساكنهم ﴾ واكثر ابنية الحضر بالطوب النيّ أو بالطين المعروف عندهم بالجالوس وقل من يبني بالطوب المحرق وغالب بيوتهم مربعة الشكل مسطحة السقوف يسقفونها بخشب النخل أو الدوم أو السنط أو الطرفا أو الصباغ ويجعلون فوقها شبكة من حبال الشعر أو الحبال المصنوعة من دقيق الدوم مصبوغة اسود ثم يغطونها بالبروش ويضعون فوقها «المطارق» اي العصي واليبيس ثم الطين المصنوع من الزبل والتراب على نسبة الثلثين من الزبل والثلث من التراب يوضع فيهِ الماء عدة ايام حتى يخمر فيطينون بهِ السقف والجدران الاربعة لمنع الوكف ووقايتهِ من الامطار • وفي دنقلة حيث يقل وقوع المطر لا يطينون السقوف ولا الجدران ولكنهم يرفعون السقوف برمتها على حجارة نحو شبر لوقايتها من الارضة • وكلهم يطينون اراضي منازلهم بالطين والرمل أو لا يطينونها ويبيضون جدرانها أو لا يبيضونها وهو الغالب • وجميع منازلهم سفلية فلا يبنون دورًا عالية ولا مآذن لجوامعهم الا في النادر ولا يتخذون كنفاً الا في المدن الكبيرة • ولكنهم يحيطون بيوتهم في الغالب بجدار من شوك فيسمونهُ زريبة أو من خوص فيسمونهُ صريفاً أو من طين أو طوب نيّ فيسمونهُ حوشاً والحوش لا يكون الا مربعاً أو مربعاً مستطيلاً • فاذا اراد احدهم من ذوي اليسار ان يبني منزلاً تامًّا لنفسهِ يعمد الى قطعة مربعة من الارض فيحيطها بحوش علوهُ نحو قامة ويجعل لهُ باباً واحدًا ثم يقيم في وسطهِ حائطاً فيجعلهُ حوشين حوشاً للنساء وهو الحوش الداخلي وحوشاً للرجال وهو الحوش الخارجي ويفتح في الحائط باباً صغيرًا يُدخل منهُ لحوش النساء حيث يبني منازل لنسائهِ وجواريهِ

واسطبلاً لركائبهِ ومخزناً للحبوب ومطبخاً وبيت خلاء ويبني عند الباب غرفة لجلوس الخصيان تسمى بالدهليز الدخلاني وغرفة بالقرب منها لجلوسهِ مع نسائهِ . ويبني في حوش الرجال عند الباب غرفة لجلوس العبيد الخدم تسمى بالدهليز البراني وفي صدر الحوش ديواناً لجلوسه مع زائريهِ لهُ دكة من طين يفرشها بالبرش والسجَّاد وعن جانبي الديوان غرفاً يضع فيها بضائعهُ ان كان تاجرًا ويجعل امام الديوان « راكوبة » لجلوسهِ مع زائريهِ في الصيف وعلى جوانب الحوش من داخل منازل للضيوف وبيت خلاء وعلى دائرهِ من الخارج غرفاً لعبيده . وقد يبني صفاً من الغرف بقرب المنزل فيجعلها خلوة للضيوف . وهذا غاية ما يبلغهُ منزل الحضري العربي في السودان

هذا بشأن المنازل المربعة السقوف المبنية من طوب أو من حجر وطين وكلها على النيل الكبير واما اهل النيل الاعلى ومعظم اهل السودان الشرقي والغربي فان اكثر منازلهم اكواخ مخروطية الشكل كاكواخ السود لانها هكذا امتن واقدر على تحمل المطر الذي يكثر وقوعهُ في بلادهم وهم يصنعونها من البيس والطين فمنها ما دائرهُ من طين وقبتهُ من بيس وهو الدُرْدُر ومنها ما دائرهُ من بيس وقبتهُ من بيس وهو القطيَّة ومنها ما يستخدم للطبخ ويسمى طقل وقد يطلق الطقل على كل كوخ . ومن اكواخهم ما يسمى ظهر الثور أو الكرنك يبنونهُ من البيس والبروش على شبه ظهر الثور أو القبوة . ومنها ما يسمى الراكوبة وهي بناء مربع مستطيل من البيس والخطب لهُ سقف مسطح وثلاثة حيطان . اما البيس الذي يستعملونهُ للبناء فهو بيس الذرة والحمريب والحلفا المتقدم ذكرها . والنال وهو شبه الحمريب الا انهُ اشد بياضاً ولا رائحة لهُ . والثُمام والتَّبس وهما يشبهان سوق القمح . والصميمة وهي تشبه الحلفا

هذا كلهُ في مساكن الحضر واما اهل البادية فانهم يسكنون خياماً من الشعر والبروش اكثرها على هيئة ظهر الثور

﴿ اثاثهم ﴾ اما اثاثهم فأشهرهُ :

« العنكريبات » مفردها عنكريب وهي اسرَّة من خشب مشدودة قوائمها

الاربع بسيور من جلد البقر أو بحبال من سعف النخل أو الدوم تفرش بالسجاد أو البروش وتستعمل للجلوس والمنام وقد يصنع لها كلة من نسيج الحوص لاتقاء البعوض تعرف « بالكُجرة »

« والبنابر » مفردها بنبر وهي كراسي صغيرة واطئة تشبه الكراسي المستعملة في قهاوي مصر والشام

« والكراسي » وهي بنابر بمسندين لليدين ومسند للظهر على نحو الكراسي الافرنجية تصنع من خشب الجوغان أو السنط

« والككر » وهو الكرسي الذي يجلس عليه ملوكهم اخذوهُ عن السود وهو عبارة عن قطعة من جذع شجرة متينة الخشب محفورة من أعلى ومن اسفل بحيث يكون لها مسندان لليدين من اعلى وقاعدتان من اسفل

« والاجربة » من جلود الماعز والضأن والابقار والغزلان تحفظ فيها الحبوب ولا سيما في الاسفار ويعرف الجراب الصغير بالقفل ويستعمل للثياب والدراهم

« والقرب » من جلود الماعز تستعمل لنقل الماء كما في مصر . وقد تصنع من جلود البقر وتعرف بالسقا أو الراوية اما القربة الصغيرة فتعرف بالسّعن

« والرحاية » وهي رحى اليد ولكنها قلما تستعمل في غير بلاد دنقلة

« والمرحاكة » وهي آلة للطحن خاصة بالسودان وقد تقدمت الاشارة اليها وهي حجر اسود مسطح طولهُ نحو ذراع وعرضهُ نصف ذلك ومعهُ حجران يضاويا الشكل يقال للواحد الجرّاش وللآخر الردّاد طول الواحد منها نحو شبر اما الردّاد فثخنهُ بثخن الساعد والجرّاش اثخن منهُ قليلاً . واما كيفية الطحن بها فهي ان يوضع الحجر الكبير على سطح مائل وفي اسفله قدح فتركع الجارية عند طرفه الاعلى وعن يمينها الحب المراد طحنهُ وفي يدها الجرّاش فتأخذ من الحب شيئاً فشيئاً وتلقيه على الحجر الكبير وتسحقهُ بالجراش صعداً ونزلاً فيسقط في القدح دقيقاً فتبلهُ بالماء وتعود فتطحنهُ بالردّاد الى ان ينعم جيداً فتجعلهُ على النار وتعملهُ عصيدة كما سيجيء

« والدوكة » وهي آلة للخبز شبه الصاج تصنع من حجر الهمر الكثير الوجود في السودان وهو حجر هش كالخفان يسحقونهُ دقيقاً ثم يعجنونهُ بالماء ويجعلون منهُ اقراصاً مستديرة شبه الصاج ويتركونها حتى تجف ثم يجعلون في كل قرص قطعة من الدهن ويضعونهُ على النار نحو ساعة حتى يتشرب الدهن كلهُ فيتركونهُ ببرد ثم يعيدون ذلك ثلاث مرات فيمتن الحجر ويملس ويصبح صالحاً للخبز فيخبز عليهِ كما يخبز على الصاج

« والاقداح » الخشبيَّة وهي آنية للطعام والعجن ونحوهما وقد تقدم ذكرها

« والمكبَّات » وهي اغطية الاقداح تصنع من سوق القمح على شكل مخروطي وتلوَّن وتزين بالجلود المدبوغة

« والاطباق » تصنع من سعف الدوم ويوضع عليها الخبز والوان الاطعمة

« والبروش » تصنع من سعف النخل والدوم وتستعمل بدل الحصر عندنا

« والفُنْدق » وهو هاون كبير من خشب بيدٍ من خشب تدق بهِ الحبوب لاخراج نخالتها . « وحجر الرائحة » أو « حجر الدلكة » وهو هاون صغير من حجر بيدٍ من حجر تدق بهِ الروائح العطرية ومركبات الدلكة . « والمدَقّ » وهو هاون من خشب بيدٍ من حجر يدقّ بهِ البن

« والجبنَة » وهي ابريق من فخار تغلى بهِ القهوة « والشرَعرع » وهو فنجان مربع من خشب يرافق الجبنة لهُ يد يمسك بها وفم تصب منهُ القهوة

اما قهوة الجبنة فتصنع هكذا : يحمص البن بتحريكهِ في قدح مع الجمر ويُدقّ في هاون الى ان ينعم وفي اثناء ذلك يغلى الماء في الجبنة فيوضع البن فيها الى ان يفور فيسكب في الشرعرع ثم يعاد اليها ويوضع على النار مع قليل من الماء حتى يفور ثانية وهكذا على ثلاث مرَّات فتسكب في فناجين كبيرة تعرف بالبيشة وهي من ألذّ انواع القهوة

« والكبايات والفناجين » من قرن الخرتيت وهم يزعمون ان الفنجان المصنوع منهُ كاشف للسم فاذا سكبت القهوة فيهِ طفى السم على وجههِ

« والقرع اليابس » تقطع القرعة فلقتين بعد قطع عنقها فتجعل كل فلقة منها اناء للشرب . أو تترك على حالها ويثقب عنقها من اعلاهُ فتستعمل آنية للسمن أو اللبن وتسمى « البُخسة »

« والبرم » مفردها بُرمة وتشبه البلاّص المصري الاّ ان فمها اوسع

« والكنتوش » أو دوكة الملاح وهو قدر من فخار للطبخ وهم يستعملون ايضاً قدور النحاس المصرية

« والجرُّ » وهو الزير ومنهُ نوع كبير يخزن فيهِ الذرة يسمى « القوسيبة »

« وغلايين الدخان » وقد تكون كلها من حجر أو تصنع رؤوسها من حجر وعيدانها من فروع بعض الشجر

« والسروج » اي سروج الخيل والابل والحمير وهي تختلف قليلاً عن السروج المصرية والشامية . اما سروج الحمير فلكل منها قربوسان عريضان أو مسندان في شكل واحد يوضع على وسادة من بيس النال مما يلي ظهر الدابة وتشد اليهِ وسادة من قطن وفوقها فروة من جلد الضأن . واما سروج الخيل فتصنع من خشب الجوغان أو الاندراب ويجعل لها قربوس من امام ومسند من وراء وتلبّس بجلد العرد وتزين بالفضة والذهب وتجعل لها رُكُب ضيقة حتى لا يدخل فيها الاّ ابهام الرّجل وسبابتها . واما سروج الابل فسروج الحمل منها كالسروج المصرية واما سروج الركوب فيعرف واحدها بالمخلوفة ولهُ مقعد مقعَّر من خشب الجوغان أو الاندراب وقربوسان في مقدمهِ ومؤخرهِ ولهُ وسادتان مما يلي ظهر الجمل وفروة من جلد الضأن توضع عليهِ عند الركوب . اما سروج الثيران فهي عبارة عن اكياس محشوة بالبيس مصنوعة على هيئة السرج

﴿ طعامهم ﴾ وطعامهم الذرة والدخن وقلما يأكلون الرز والقمح اما الدخن فهو طعام اهل السودان الغربي واما الذرة فالفتريته طعام اهل الجزيرة والكرجي طعام اهل السودان الشرقي والمُقُد أو عيش السواقي طعام اهل بربر وكل قوم يطعمون بهائمهم الحب الذي يأكلونهُ الاّ في دنقلة فانهم يأكلون القمح ويطعمون خيلهم الشعير

وهم يطحنون الحبوب بالمرحاكة أو يبلونها ويعجنونها بها ويصنعون من دقيقها « العصيدة » ومن عجينها « اللقمة » هكذا : يغلون الماء في قدر على النار ويلقون الدقيق فيهِ شيئاً فشيئاً ويحركونهُ بسواط حتى ينضج فيكون منهُ العصيدة. ويدوفون العجين بالماء ويصبونهُ في الدوكة فوق النار ويحركونهُ حتى يجمد فيكون منهُ اللقمة. أو يدقون الحبوب بالفندق ويلقونها في الماء فتطفو النخالة ويرسب الدقيق فيعملون منهُ عصيدة على النار تعرف « باللقمة الجيريّة »

وهم يخبزون عجين المرحاكة على الدوكة ارغفة سميكة تعرف « بالقرّاصة » وقد يطمرونها في الرماد بعد خبزها فتعرف « بالمطّالة » . وفي الاسفار والافراح يخبزون ارغفة كبيرة يقال لها « الرُّضاف » : يجعلون مقداراً كبيراً من الدقيق في قدح ويسكبون عليهِ الماء شيئاً فشيئاً وهم يدوفونهُ بسواط حتى « يخرج عرقهُ » ثم يوقدون حطباً كثيراً في بقعة رملية ويتركونهُ حتى يصير جمراً فيفصلون بين الجمر والرماد ويضعون العجين في الوسط ثم يغطونهُ بالرماد ويغطون الرماد بالجمر ويتركونهُ قليلاً فيخرج رغيفاً نظيفاً يستمرئون اكلهُ وهم يكبرونهُ أو يصغرونهُ حسب المطلوب وقد يكفي الرغيف الواحد من الرُّضاف مئة نفس أو اكثر . وهم يصنعون الشعيرية من عجين المرحاكة فيجيدون صنعها جداً و يستعملونها بدل الرز

واكثر اكلهم من الخضر البامية والويكة واللوبيا والبصل والملوخية ومن اللحم لحم البقر ثم لحم الابل واكلهم للحم الضأن قليل ومنهم من يأكل لحم الهررة ويعتقد انهُ يبطل عمل السحر. وهم يشرّحون اللحم شرائح طويلة رقيقة ويقددونها ويخزنونها للطبخ ويسمونها « الشرموط » . ويستخدمون للطبخ السمن والسيرج أو زيت السمسم. ويأكلون اللحم نيئاً ومشوياً واشهر ما فيهِ عندهم الكبد ولا سيما كبد الابل. قال موسى باشا احد ولاة السودان السابقين « فواكه السودان ثلاث : الدلكة والعصيدة الجيرية وكبد الابل »

واشهر بهاراتهم واشهاها اليهم « الشطة » وهي قرون صغيرة حمراء تشبه قرون الفليفلة الحمراء في اللون والطعم وتزرع في كل جهات السودان . والشيبة وهي نبات

الافسنتين يؤتى بها من بلاد الهند والحجاز ممزوجة بورق كورق الريحان يعرف بالمرسين • ومن بهاراتهم الكمون والكزبرة والشمر وهي تزرع عندهم والفلفل والقرفة والزنجبيل وجوز الطيب والخولنجان وكلها جلب من الخارج • وعندهم مركب من البهارات كثير الاستعمال يعرف بالدوا مؤلف من الشيبة والمرسين والكمون والكزبرة

واشهر انواع الادام عندهم : « ملاح التقلية » أو « ملاح أم دقوقة » وهو طعام من لحم طري أو مقدّد وبامية مقددة وبصل مقلية بالسمن أو السيرج

«وملاح الشرموط» وهو طعام من لحم مقدد وبامية مقددة وبصل مقلية بالدهن

« والسلات » وهي لحمة محمرة على الدوكة بالملح والشطة والدوا على شبه الكباب المصري وهي من اشهى الاطعمة اليهم ولا سيما الى شاربي الخمرة

«وطبيخ البامية أو اللوبيا أو البصل» وهو لحمة طرية بالبامية أو اللوبيا أو البصل مقلية بالسمن • ومن ادامهم اللبن حليباً أو رائباً والسمن وحده أو ممزوجاً بالسكر

وهم يجعلون العصيدة أو اللقمة أو الكسرة أو القراصة في قدح من خشب ويسكبون فوقها نوعاً من الادام ويضعون القدح على برش في الارض ويجلسون حولهُ القرفصاء أو مربعين أو على ركبة واحدة ويأكلون بالاصابع الثلث الاولى ويدعون المارة في الطريق الى الطعام اذ يعاب على الرجل ان يأكل طعامهُ وحدهُ كما يعاب على من يأكل في الشارع أو في السوق

ووجبات الاكل عندهم ثلاث : «الفطور» يتناولونهُ عند شروق الشمس «والغداء» من الضحى الاعلى الى الظهر «والعشاء» عند الغروب • وأهم ما يتناولونهُ في الفطور العصيدة أو اللقمة عليها اللبن حليباً أو رائباً أو السمن والعسل أو السمن والسكر أو الشعيرية مطبوخة بالحليب أو بالسمن والسكر ومنهم من لا يتناول في الصبح الاّ طعاماً لم تمسهُ النار كالبلح والحليب ومن اقوالهم « من فطر طعاماً بلا نار كفاهُ الله شرّ ذاك النهار » على ان غالبهم لا يعتني بأكل الصبح بل يأكل في الضحى الاعلى ثم في الغروب • وأهم ما يتناولونهُ في الغدا العصيدة أو اللقمة أو الكسرة أو القراصة وعليها الادام • وفي العشاء الكسرة مع الادام

وهم يقدحون النار بحك خشبة على خشبة اخرى أو بضرب قطعة من الفولاذ على حجر أو بضرب حجر عليها ويتلقونهـا في الاحوال الثلاث بقطعة من الصوفان أو لب الخوص أو خرقة ملوَّثة بالرماد أو البارود

﴿ شرابهم ﴾ وهم يشربون ماء النيل والآبار كما هي بلا تصفية ويشربون الشاي والقهوة وافضلها قهوة الجبنة المتقدم وصفها

ويشربون الدخان بغلايين طويلة أو قصيرة أو يمضغونهُ مضغاً بعد اضافة قليل من النطرون اليهِ وهو المعروف عندهم «بالسَفَّة» فيضع الواحد منهم سفة تحت لسانهِ ويشرع في البصاق حتى يملأ الارض من حولهِ . ويسحقون ورق الدخان ويضيفون اليهِ شيئاً من النطرون أو الجردقة ويستعملونهُ نشوقاً

وهم كسائر اهل السودان مغرمون بشرب الخمرة الأَّ ان الكثير منهم يمتنع من شربها تديناً . وهي تستخرج من البلح والذرة والدخن وتخمَّر بواسطة الزرَّاع . اما الزرَّاع فهو الذرة تُنشر على برش في الشمس وترش بالماء حتى يعلو نبتها عن الارض نحو شبر فيمنع عنهُ الماء الى ان يجف فيطحنونهُ بالمرحاكة ويدخلونهُ في جميع المشروبات التي اشهرها أم بلبل والمريسة أو البوزة والابرية والسورج والحلومرّ والحُسُوَّة . اما أم بلبل فهي عصيدة مائعة من دقيق الذرّاع . واما البوزة أو المريسة فهي عصيدة من الذرة يضاف اليها شيء من الزرَّاع وتوضع في زير نحو يومين حتى تخمر وهي اشهر مشروباتهم واشهاها اليهم وتعرف في بربر ودنقلة بالبوزة وفي بلاد النيل الازرق بالمريسة . واهم الاطعمة التي تؤكل مع البوزة الكبد والكرشة والفشة والبصل تُغمس بدقيق الشطة والملح مذاباً بالليمون الحامض . اما الابرية فهو خبز رهيف من دقيق الذرة يبلُّ بالماء او بمذوب السكر وهو شراب لطيف مبرّد الى الغاية . وكيفية عملهِ ان يذاب جزء من دقيق الذرة المنخول في جزئين من الماء ويضاف الى المزيج قليـل من الكمون والزرَّاع ويترك يوماً كاملاً الى ان يختمر فيخبز رقاقاً على الدوكة ويفتَّت ويخزن لوقت الحاجة واكثر استعمالهِ في زمن الحرّ والاسفار

واهمُّ المشروبات المستخرجة من البلح : العرَق يستخرجونهُ بالانبيق كما

يستخرج العرَق من العنب في بلادنا • والنبيذ ويستخرجونهُ هكذا : يبلون البلح في اناء من فخار ويصفونهُ ويضيفون اليهِ مزيجاً من بهارات الفلفل والزنجبيل والقرفة والحمريب وحب الهان ويطمرونهُ في الارض من ٢٠ : ٢٥ يوماً حتى يختمر فيشربونهُ نبيذاً ولا يعمل الاَّ في بلاد ود قمر والرباطاب • والشربوت وهو النبيذ مخمرًا بزرَّاع الذرة وهو شراب مسكر الاَّ انهُ من ألذّ مشروباتهم

ثم ان الخاصة من اهل السودان يستخرجون مشروباً لطيفاً من الرُّز يسمونهُ «شراب السوبية» وذلك بأن يغلى دقيق الرُّز أو القمح ويمزج بمنقوع التمر الهندي على نسبة معلومة ثم يصفى ويذاب فيهِ السكر أو عسل النحل ويحفظ في آنية من فخار وهو شراب لذيذ مبرّد الى الغاية

ولعرب السودان صبر على الجوع والعطش فقد يسير العربي مسافة يوم في الصحراء على حفنة من الذرة وجرعة من الماء واذا جاع ولم يجد طعاماً شدَّ حزامهُ على وسطهِ ووضع حجرًا على معدتهِ واحتمل الجوع بصبر غريب لكنهُ اذا وجد الاكل اكل ما يكفي ثلاثة رجال • وهم في السفر يأكلون التمر والذرة مسلوقة أو نيئة والابرية غذاء ومشروباً يضعونها في اجربة ويحملونها على الجمال أو الحمير • ولهم عناية خصوصية بنظافة اسنانهم نساء ورجالاً فهم يحملون في جيوبهم عيداناً من الاراك أو من اللعوت أو جريد النخل للاستياك بها وذلك من أحسن خصالهم التي تدلُّ على نظافتهم

﴿ افراحهم ﴾ وسن الزواج عندهم من الخمس عشرة سنة فما فوق للرجال ومن العشر سنين فما فوق للنساء • ولا بدَّ للطالب من رؤية البنت التي يروم خطبتها ولو بالحيلة فاذا حسنت في عينيهِ سعى في استرضاء اهلها خصوصاً والدتها وعقد الخطبة بالقول • ثم يذهب اقاربهُ الى بيت ابيها في يوم معين لكتب الكتاب وتعيين المهر وهم في الغالب يغلون المهر حتى لقد يبلغ خمسمائة ريال وعشر ابقار وعشرة جمال وار بعين رأساً من الغنم يقدّمهُ الخطيب الثلثين على الفور والثلث الباقي اقساطاً بعد الزواج • وهم على عادة البجة في ان ابا البنت لا بدَّ لهُ ان يخصها بشيء من مالهِ والاَّ عيرت

بهِ وربما خصها بما يساوي مهر الخطيب أو اكثر ولذلك ترى الكثير من النساء يتركنَ عذارى لعدم اقتدار الرجال على صداقهنَّ. وقد سعى بعض ولاة الفتح الاول مثل احمد باشا ابو ودان وخورشيد باشا وعبد اللطيف باشا في تخفيض مهر البنات فجعلوهُ من ٧٥ : ١٥٠ غرشاً وحضوا على الزواج وكذلك فعل محمد احمد المتمهدي فجعل مهر الثيب خمسة ريالات ومهر البكر عشرة ولكن الاهالي ما لبثوا ان عادوا الى عادتهم القديمة وعاد البنات الى الكساد . وعرب السودان يحترمون النسب جداً وينزلونهُ المنزلة الاولى في تزويج بناتهم فلقد يزوجون رجلاً ذا نسب لا يملك شيئاً ولا يزوجون رجلاً مثرياً لا نسب لهُ. واذا حلَّ بأرضهم رجل شريف يرجع بنسبهِ الى النبي (صلعم) أو الصحابة بالغوا في اكرامهِ وزوجوهُ بناتهم بلا مهر رغبة في التقرب منهُ . وهم ايضاً يتبركون برجال العلم والصلاح ويزوجونهم بلا مهر

هذا وعند اتفاق الفريقين على المهر يكتبون الكتاب ويعينون الدخلة في يوم يتفاءلون بهِ. وقد جمع الشيخ زرُّوق ايام السعد والنحس عند العرب في بيتين وهما :

محبكَ يرعى هواكَ فهل تُعدُّ ليالٍ بضدِّ الأمل
فذو النقط منها بدا نحسهُ ومهملهُ فاجرٍ فيهِ العمل

وقبل حلول اليوم المعين بأسبوع يعدُّ العريس الذبائح وشيئاً من الذرة والروائح العطرية والكحل والحناء والاكسية للعروس وماشطتها ووزيرتيها ولكل من اقاربها الاخصاء ويدعو بنات البلدة فيحملنها على رؤوسهنَّ في اطباق مغطاة بالمكبات ويسرنَ وامامهنَّ النساء يضربنَ الدفوف ويرقصنَ ويغنينَ ووراءهنَّ الشبان يرقصون ويتباطنون بالسياط الى ان يبلغوا بيت العروس فيستقبلهم اهلها بالترحيب ويقدمون لهم الطعام والشراب فيأكلون ويشربون ثم ينصرفون

ومن ثمَّ يشرع اهل العروس في الاستعداد للفرح فيعزلون العروس الى مكان منفرد مع بعض قريباتها ويسلمونها الى الماشطة فتمشط شعرها وتضفرهُ بزي الرشَّة وتطيبهُ وتلبسها أغلى الثياب من وسطها فنازلاً واما صدرها ورأسها فلايسترهما الا الحلى . اما العريس فيلبس ثوباً بسيطاً بحاشية من حرير يعرف بطرف السماء ويلبس

في يده سوارًا من الحرير فيه خرزة خضراء تسمى الحرشاية وسوارًا عريضاً من الفضة أو الذهب يسمى جَبيرة وفي عنقهِ طوقاً من السوميت والذهب وهو اللابس المعروف عندهم بالجرتك يلبسهُ على يد امرأة حظيظة ذات حشم ومال واولاد ويبقى عليه سبعة ايام الى اربعين يوماً بعد الزواج وذلك لمنع الاصابة بالعين

وفي اليوم المعين للدخلة يجتمع اهل العريس وخلانهُ نساء ورجالاً في منزلهِ فيزفونهُ على فرس الى بيت العروس فيقود الفرس بنتان بنت عن اليمين وبنت عن الشمال وتسير النساء امامهُ يغنين وينقرن الدفوف والطبول والرجال وراءهُ يتباطنون والبنات يرقصن الرقص المعروف عندهم بالشكلي وهو الرقص بخفة ورشاقة والعريس يهزُّ سوطهُ في الهواء استحساناً للراقصات والمغنيات . ويسير الموكب الهوينا الى ان يصل الى بيت العروس فيستقبلهم اهلها بالترحيب والاكرام ويقدمون لهم الطعام والشراب. ثم يزفون العروس في منزلها وهو الغالب او يزفونها في شوارع البلدة تحفُّ بها البنات وبأيديهن الشموع ثم يعدنَ بها الى المنزل فيجلسنها على عنكريب في مكان اعدَّ لها ويجلس حولها البنات والنساء والماشطة ووزيرتاها

وبعد العشاء يدخل العريس عليهن ومعهُ شابان من اصحابهِ يعرفان بالوزيرين فيصفقن لهُ النساء ترحيباً بهِ ويجلسنهُ مع وزيريهِ على عنكريب اعدَّ لهم. ثم يقوم العريس فيتحف الماشطة والوزيرتين بهدية من المال ويأتي الى عروسهِ فيقطع رهطها ويلبسها القرباب وهو « قرن علج » ثم يشرع في مداعبتها وترقيصها رقصاً يعرف عندهم بالجَلَع او الدَّلع وذلك بان يغمز خنصرها ويخز خاصرتيها بظفر يريهِ ويحددهُ لهذه الغاية فتتلوى العروس اذ ذاك وتتحرك حركات خفيفة رشقية بحيث انها اذا كانت مواجهة لهُ ووخزها بظفره تنقلب بخفة ورشاقة فتوليهِ ظهرها وتصيح صياحاً عالياً قائلة واي واي متبعةً ذلك بأنَّاتٍ رخيمة وشهيق مستعذب. وفي اثناء ذلك تغني النساء غناء يسمى البنينة يصفنَ فيه العريس بالسخاء والمروءة والعروس بالجمال ورفعة النسب. ويبقى اهل العريس في بيت العروس من ثلاثة ايام الى سبعة واما العريس فيبقى مع عروسهِ في بيت ابيها الى ان تلد فيذهب بها الى اهله

هذا وفي اثناء الاربعين يوماً الاولى لا تكلم العروس عريسها ولا تجيبهُ على خطاب بل اذا حسن كلامهُ في عينيها اجابته باتبسامة واشارة في الرأس واذا لم يكتفِ بذلك وأحب الجواب باللسان نقدها شيئاً من الدراهم فأجابتهُ بما قلَّ ودلَّ ويسمى ذلك عندهم « كروة الكلام »

وبعد تمام الاربعين يوماً يخرج العريس الى السوق ويرسل الى عروسهِ الخر ما يجدهُ فيهِ من اللحوم والخضرة والفاكهة فتدعو العروس صديقاتها وتولم لهنَّ وليمة من هدايا العريس ويعرف هذا اليوم عندهم « يوم البشة » ومن اقوالهم « العريس يعرف من بشته » أي يعرف كرمهُ وذوقهُ من نوع هداياهُ ومقدارها يوم البشة

ومتى مضت سبعة اشهر على العروس وهي حامل يولم العريس وليمة للاهل والخلان لنجاة العروس والجنين من الخطر . وهم يفرحون للصبي ويتكدرون للبنت ويطلقون على الولد اسماً في الاسبوع الاول من ولادتهِ فيختارون في الغالب الاسماء الاسلامية مثل محمد واحمد وعلي وبكر وعثمان وعمر ومصطفى وعبد الله ولكن لهم اسماء خاصة بهم منها عند الجعليين : الزبير والريّح والعاقب ومدّثر ومزمّل ومساعد ومردس . وعند الشايقية : خشم الموس وطنبل وعقُود وشقلبان والكندو . وعند البقارة : حلة وبليلة وكتنوش وملاح وشطة وجمّاع ورباح والنيل ومزمار والزاكي والدكيم .

وقد يصدّرون اسمائهم بمحمد تبركاً فمن كان اسمهُ حسن دعوهُ محمد حسن ومن كان اسمهُ احمد دعوهُ محمد احمد وهكذا . واما ارقاؤهم فيلقبونهم في الغالب بألقاب جميلة يقصد بها اسيادهم منها للذكور : مرّ الجواب وعبد الاسد ودكّام (شجاع) وعجب سيده ومفتاح الخير وصباح الخير والله جابه وشطة وعبد الرجال وسعيد وسعد الله وبخيت وهلال وألماظ وفيروز وسوميت . وللاناث : تاج الملوك والصبر جميل وسمح جبيه ودربه قاسية وثقيل ميزانه وبحر النيل وبيت الامان ولمن دامت وفوق قلوبهم والعزّ وهاط وتام النفايل والحي يشوف والله معانا والله وكيل وجنّه ويمامه وبخيته ومن قدره والساتر الله وكعب الغزال وكي الحاسد

ويكنى الاب والام باسم ابنهما البكر كما في مصر والشام فاذا لم يكن لهما ابن

كنيًا باسم بنتهما البكر كقولهم ابو سعيدة وأم كلثومة وابو النيَّة وهم يكنون الاماكن بأب وام على السواء فيقولون بئر ابو طليح أو بئر أم طليح

وعندهم كما في مصر والشام كُنًى معلومة لاسماء معلومة حملاً على كُناها القديمة المشهورة في التاريخ فكنية ابرهيم ابو خليل وحسن ابو علي واسماعيل ابو السباع ومصطفى ابو درويش وعلي ابو سرحان وداود ابو سليمان وعثمان ابو عفان

وهم مولعون بالالقاب يلقبون بها بعضهم بعضاً لقصد المدح أو الذم فمن ألقاب المدح صقر الجو وتور الجاموس وكرَّار وحقَّار ورحل الكحل ودود بنقه اي اسد الخلا وبولاد الحديد وتمساح وجمل المحامل والعنزة أم قرن وكاسر قيده. ومن ألقاب الذم الأضينة والفارغ والتعيس والضبعة والرخمة وسجم الرماد والهوين

هذا ومتى بلغ الطفل سن السنة حلقوا شعرهُ بموسى وتصدقوا بوزنهِ ذهباً أو فضة وأولموا وليمة للفقراء ثم ضفروا شعرهُ ضفيرة واحدة وعلقوها بعنقهِ عدة ايام ثم نزعوها عنهُ وخبأوها

وهم يطهرون اولادهم ذكورًا واناثاً ولكنهم لايحبون الطهور الباكر فقلما يطهرونهم قبل السنة السابعة. اما تطهير البنات فعلى نوعين تطهير فرعون وعليهِ عرب النيل من دنقلة الى سنار وتطهير سنَّة وعليهِ بادية اهل الغرب. اما تطهير فرعون فمن افظع العادات البربرية المتخلفة عن عصور الجهل والخشونة وهي تقضي على البنات بالعذاب المرّ وقت الطهور والزواج وكل ولادة. وقد اجتهد عبد اللطيف باشا احد ولاة الفتح الاول ان يبطل هذه العادة البربرية وقاص كثيرًا من النساء اللواتي يتولين امرها ولكنهُ لم يفلح

ويجوز لمن توفيت امرأته ان يتزوَّج أختها بمهرها ولكن لا بدَّ لهُ من اخذ القول في ذلك من ابيهــا قبل دفنها فهو يمسك قائمة النعش الذي تحمل عليهِ امرأتهُ ويلحّ على ابيها بأن يعطيهِ اختها عوضاً فيجيبهُ ابوها الى ذلك خصوصاً اذا كان لهُ اولاد. حكي ان رجلاً من الرباطاب تزوَّج بنتاً من بنات اهلهِ فعاشت معهُ عامين وماتت فلما حملوها الى الدفن امسك بقائمة النعش وشرع في البكاء وهو يطلب اختها عوضاً فزوَّجوهُ بها فلم تمضِ على هذه اربع سنوات حتى ماتت ففعل زوجها

أشد مما فعل في المرة الاولى من البكاء . والنحيب وهو يطلب ان يعوّض عليه باختها فشفق الجمهور عليهِ وأتوا يتشفعون فيهِ الى ابيها فصاح ابوها وقال دعوني من هذا الرجل فلقد كاد يؤدي ببناتي فمن كان يشفق عليهِ فليزوّجهُ بابنتهِ اما انا فقد كفاني ما نابني منهُ

وعرب السودان يرفهون نساءهم ويدللوهنّ الى الغاية فقلما تخدم المرأة في بيتها فالطحن والخبز والطبخ والغسل كلهُ منوط بالجواري وعلى الخصوص الغسل فان من اكبر المصائب على المرأة ان تضطرها الحال الى غسل الثياب ولا سيما ثياب رجلها واذا دخل رجلها وكانت جالسة أو مضطجعة لا تتحرك من مكانها واذا اعوزتهُ حاجة قضاها بنفسهِ أو طلبها من الخدم وبذلك تعوَّد نساء السودان الترف والرفاهة حتى صرنَ اذا مشينَ تهادينَ في مشيهنَّ على حدّ قول الشاعر :

قلتُ اذ اقبلت كزُهرٍ تهادى كنعاج الفلا تعسّفنَ رملا

وقد تسير المرأة ساعة فلا تقطع منهُ خطوة ولا يتغبر نعلاها . وهي تحلف برأس ابيها لا برأس زوجها ولا تنطق باسم زوجها ولا تدعوهُ بهِ بل تكنيهِ باسم ولدهِ البكر بأن تقول يا أبا فلان أو يا ابا فلانة واذا لم يكن لهُ ولد كنتهُ باسم ابيهِ بقولها ياود فلان . وهي قلما تقابل حماها أو تكلمهُ الاّ بعد الولادة كما ان الزوج لا يقابل حماتهُ ولا يكلمها الاّ بعد الزواج ببرهة وذلك من باب الحياء . والمرأة لا تأكلُ طعاماً على مائدة مع زوجها حياء كما ان الزوج لا يأكل مع حميهِ أو حماتهِ احتراماً وهو لا يجلس في حضرة حميهِ على كرسي أو سرير بل يجلس على الارض احتراماً . واما حماته ويسمونها بالنسيبة فاحترامهُ لها فوق كل احترام واعظم حلف عنده الحلف بحماتهِ فاذا قالوا لرجل ونسيبتك تقضي لي حاجتي وجب عليهِ بذل كل ما في وسعهِ لقضائها وكذلك اذا قالوا للمرأة ونسيبتك تفعلين كذا وجب عليها بذل الجهد في اجابة الطلب احتراماً للقسم . والذنب الذي لا يغفر للرجل عند المرأة ان يسب اباها أو امها أو يذكرهما بسوء وقد تندفع الى ضربهِ بالنعال وتذهب الى بيت أبيها ويندر بعد ذلك ان تعود اليهِ

وكما ان الرجل يحترم حميهُ وحماتهُ كذلك الحمو والحماة يحبان صهرهما ويعاملانهِ كأحد ابنائهما و يبالغان في مداراتهِ فلا يسيئان اليهِ مهما كان شأنهُ معهما. ومن امثالهم: « النسيب واحد من اليدين والنسيبة قشة في العين » . وابن الاخت عندهم عزيز كالولد فالخال يعتني بابن اختهِ ويربيهِ كما يربي اولادهُ حتى لقد يزوجهُ على نفقتهِ

هذا وعرب السودان كعرب مصر والشام يحترمون العرض فوق كل احترام وليس للزانية عندهم من قصاص سوى القتل . ولكن عند عرب البقارة في غرب السودان عادة تعرف « بالحضن » وهي ان المرأة تسمح لمن اعجبها من الرجال ان يحضنها اي ان ينام معها على طهارة حتى يتزوجها أو تتزوج لغيره واهل المرأة لا يعترضونها الا اذا وطئها فترذل هي ومعشوقها . ويقال ان للجوامعة عادة ذميمة جدًّا وهي ان البنت لا تتزوج الا اذا ولدت سفاحاً فتعطي اخاها الولد لاعانته و يعرف « بعانة خاله »

وقد رمى بعضهم الجعليين وأهل الجزيرة باقتناء الجواري للفحشاء والانتفاع بكسبهنَّ وتعليل ذلك ان بعض حضر النيل كانوا اذا زاد عبيدهم وجواريهم عن خدمتهم ارسلوهم لطلب الرزق في اي عمل شاؤوا وفرضوا على كل منهم جعلاً معلوماً يقتضونهُ كل يوم كأن يفرضوا على العبد مثلاً من غرش واحد الى ثلاثة غروش والجارية من غرشين الى خمسة غروش في اليوم فيشتغل الجواري بما هو من شأنهنَّ كالطحن والخبز والطبخ في السوق ولكن يتغلب على بعضهنَّ الكسل ودناءة الطبع فيتعاطين الفحشاء ويدفعنَ لاسيادهنَّ من كسبهنَّ الجعل المفروض

﴿ آلاتهم الموسيقية ﴾ واشهر آلاتهم الموسيقية :

« النقارة » وهي طبل الحرب الخاص بملوكهم ومشائخهم تصنع من خشب متين كنقاقير السود أو تصنع من نحاس فتسمى « بالنحاس » ولم يكن يقتني النحاس الا الملوك أو من سمح لهم الملوك باقتنائهِ من كبار المشائخ ثم اصبح كبار المشائخ يسمحون للمشائخ الذين دونهم رتبة باقتنائهِ . والنقارة والنحاس يضربان في المآتم والافراح كما يضربان في زمن الحرب

« والدلوكة » وهي آلة الرقص عند جميع الحضر على شبه الدربكة الا انها زوج

كالنقارة اي امّ وشتَم يضرب كلا منهما امرأة بقضيب أو باليد على نغم معلوم

« والدربكة » وتعرف عندهم بالدُهلة ولكن لا يستعملها الاَّ المولدون

« والزمّارة » على شبه الزمارة المصرية تصنع من قصب وقلما تستعمل في غير البادية

« والطار » وهو الطار المصري المعروف الا انهُ في السودان يستعمل زوجاً كما مرَّ

« وأم فصيل » وهي آلة تشبه الطنبورة الاَّ انها اصغر منها وتضرب بقوسٍ صغيرٍ لهُ وتر من شعر على نحو قوس الكمنجة

« والطنبل » وهو طبل صغير من خشب على هيئة الطست مجلد بجلد ماعز ولهُ مقبض من جلد يُمسك بالشمال ويضرب باليمين وهو خاصٌ بالتكارنة الذين يأتون للحج من السودان الغربي يضربونهُ للشحاذة بهِ فيتبعهم صبيان العرب قائلين: الطنبل طنبل جدنا . كيلو لنامدنا . يعشينا و يغدينا . محاكين بهذه السجعات صوت الطنبل

﴿ رقصهم ﴾ وهم مولعون بالرقص والطرب كسائر اهل السودان ويجتمعون للرقص رجالاً ونساء الاَّ ان ارقص خاص بالنساء . ولا يرقص الرجال الاَّ اتماماً لرقصهنَّ والرقص عندهم انواع اشهرها :

« رقص النقارة » وهو الرقص على ضرب النقارة وخاص بعرب البادية وفيهِ تضرب امرأتان النقارة وتغنيان وامرأة ترقص وقد يرقص معها رجل وباقي الحضور يصفقون

« ورقص الدلوكة » وهو الرقص على ضرب الدلوكة وفيهِ تضرب امرأتان الدلوكة وتغنيان وامرأة ترقص وقد يرقص معها رجل . وهذا الرقص شائع في جميع حضر السودان وهو ارشق واعمّ من رقص النقارة

« ورقص الطنبورة » وهو الرقص على صوت الطنبورة وخاص بعرب الشايقية والرباطاب . والطنبورة عند هؤلاء كالدلوكة عند سائر حضر السودان . وضارب الطنبورة هو الذي يغني

« ورقص الطنبور » وهو الرقص على غناء الطنبوز اما غناء الطنبور فهو اصوات

كسجع القمري يخرجها الرجال من حلوقهم وصدورهم والرقص عليهِ خاص بعلية القوم وتشترك فيهِ المخدرات من النساء . وفيهِ تجتمع النساء والرجال حلقة فيبدأ احدهم بانشاد الاشعار فيقول الشيلة « اللازمة » فيكررها بعدهُ جماعة منهم ثم يشرع آخرون في غناء الطنبور والكل يصفقون بأصابعهم ويضربون الارض بأرجلهم وعند توقيع النشيد والطنبور وفرقعة الاصابع وضرب الارجل على نغم واحد تبرز احدى المخدرات الى وسط الحلقة فترقص على هذا النغم رقصاً لطيفاً فتهز رأسها الى كل جهة وتحني جسمها الى الوراء احياناً حتى تمس الارض بجبهتها وهي في كل آونة واخرى تقرب من الحلقة فترمي احد الشبان « بشبّالها » اي بضفائرها تحيا واذا ارادت الانصراف رمت بشبالها احدى النساء دلالةً على انها تدعوها الى الرقص . وقد يرقص اثنتان أو ثلاث من النساء معاً . ويعرف هذا الرقص عند اهل النيل ايضاً بالزوزي وعند اهل كردوفان بالجرّاري

ومن انواع الرقص عندهم « رقص الجلَع ورقص الشكلي » وقد تقدم ذكرهما . ومنها رقص الدُهلَة وهو الرقص على ضرب الدهلة ويسمى رقص أم صُليب لان الراقصة تهز صلبها وهي ترقص وهذا الرقص مأخوذ عن مصر ولا يعرفهُ الاّ المولدون

﴿ سلامهم ﴾ وسلامهم المصافحة باليد . واذا اجتمع صاحبان بعد فراق طويل تعانقا بالاكتاف وذلك بأن يجعل كل منهما يديه على كتف الآخر ويضمهُ الى صدرهِ وينقل رأسهُ من كتف الى كتف مرتين أو اكثر ثم يأخذ يد رفيقهِ ويقبلها . واذا كان احدهما قد فقد حبيباً في اثناء فراقهما فعند اللقاء يبسط كل منهما يديهِ رافعاً اياهما نحو السماء ويقرأ الفاتحة بصوت منخفض ثم يتصافحان . هذا في سلام الرجال اما النساء فسلامهنَّ التقبيل في الوجه كنساء مصر والشام واما سلام النساء على الرجال فبين الاقارب تحني المرأة رأسها للرجل فيقبلهُ وهي تقبل يدهُ واذا كانت المرأة مسنَّة قبّلت رأسهُ وهو لا يقبلها . ومن كلامهم في اللقاء : كيف حالك — الله يبارك فيك . طيبين مك طيب — طيبين الحمد لله الله يسلمك . كيف انكم — تري

الحيّ يتدردر يقع ويقوم • الحمد لله بالسلامة — الله يقبل حمدك • العويلة والبهيمات كيف حالهم لعل ما عندهم عَوَجه — الحمد لله تراهم هسَّع الله يكفيهم شر المن هنا وجاي • زريعاتكم كيف انهن — والله عاد نحمد الله ان ختينَ اي سلمنَ من الدودة والجراد ما عندهم عَوَجه • الدنيا كيف انها معاكم — الحمد لله السنة دي زينين • وعند الوداع يقول الواحد للآخر سلم على اللي قدامك

﴿ مجالسهم ﴾ وغالب مجالسهم في فنا، منازلهم في ظل الاشجار يجلسون على عنكريبات مربعين أو يجلسون القرفصاء او مربعين على ابراش في الارض وقلما يجلسون على الكراسي • ولجلوسهم مع ملوكهم آداب يأتي ذكرها في باب التاريخ • والمقام الاول عندهم بعد مقام الملوك للعلماء ثم للشيوخ فاذا حضر العامة مجالس هؤلاء جلسوا في الارض على ركبهم تأدبًا لهم • ولا يتكلم الشاب في حضرة ابيهِ او اخيه الاكبر ولو كان افصح منهُ لسانًا واجلى بيانًا • وحكم الجماعة عندهم مرعي كحكم الشرع •

هذا والمخدرات من النساء لا يجلسنَ مع الرجال الاَّ اذا كان الرجال من اقاربهن الادنين واذا ندبت امرأة الى مجلس رجال تلثمت بثوبها حتى لا يظهر من وجهها الاَّ عيناها وجلست مطرقة في الارض وتكلمت بصوت منخفض واذا زارها رجل في منزلها كلمتهُ من وراء جدار. واذا مرت بمجلس رجال خلعت نعليها وسترت وجهها اما الجارية فتخلع نعليها وتكشف رأسها. واذا جلس الرجال على جانبي الطريق فهي لا تمر في الوسط بل تنتظر حتى يقوم فريق منهم الى الجانب الآخر او ترجع . واذا كانت راكبة ترجلت عن دابتها ومرت ماشية. ونساء السودان يركبن وجنبهنَّ الايمن نحو راس الدابة على نحو ركوب نساء الافرنج

ومن آداب الشارع عندهم عدم الاستعجال في المشي والامتناع عن الاكل والصفير والضحك بصوت عالٍ والغناء والمشاجرة والبول الى جانب الطريق وعدم المطالبة بدين فالدائن لا يطالب بدينه في الشارع كما لا يطالبهُ عند الفجر او بعد الغروب

﴿ عهودهم ﴾ واذا أراد اثنان المعاهدة على امر هام جعلا المصحف الشريف بينهما مفتوحًا على سورة برا ووضع كل منهما يدهُ اليمنى عليهِ وبعد قراءة الفاتحة

والصلاة على النبي ينطق كل منهما بهذا القسم : « بالله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة المنتقم الجبار وحق هذا المصحف الشريف اني اكون صادقاً في عهدي » واهل البادية الغربية يقولون : « كتاب الله في عيني في بيتي في اهلي كتاب الله يطمسني طمسة القرد اذا نكثت بعهـدي هذا » واذا ضاع لهم شيء عزيز حملوا المصحف على عود طويل وطافوا به الجهات منادين : « كتاب الله جاكم من رأى الشيء الفلاني يرجعه لصاحبه » . هذا وتحلف الام بحياة ولدها والاخت بحياة اخيها وبحياة الله والنبي والاولياء وحياة كل عزيز . ومن اقسامهم قولهم « حرّم الكلام دا صحيح » اي عليَّ الطلاق هذا الكلام صحيح

وعندهم الرتيمة للذكرى وهم في الغالب يعقدون معصم اليد بخيط او منديل او يضعون خاتماً في احد اصابعهم ونحو ذلك

﴿ طبهم ﴾ وطبهم عرفيّ يتوارثهُ الخلف عن السلف فاذا مرض احدهم زارهُ اهلهُ وجيرانهُ ووصف لهُ كل منهم علاجاً فيتخذ المريض العلاج الذي يظنهُ انفعلهُ وقد تقدم لنا ذكر اشهر الامراض الخاصة بالسودان وطرق معالجتها عندهم ونذكر تحت هذا الباب : « علاجهم للجروح » وذلك انهم يصبون عليها السمن مغلّى ثم يغمسون قطنة في السمن البارد ويضعونها عليهِ ويربطونها ويكررون ذلك كل يوم مع مراعاة النظافة التامة الى ان تبرأ . هذا في الجروح البليغة واما الجروح الخفيفة فيعالجونها برشها بالملح او البارود او البن ثم بالقطنة والسمن البارد . وتشفى الجروح في السودان بسرعة لا تكاد تصدق ◦ واذا شكى عليلهم ثقلاً في رأسهِ وعينيهِ طلب الحجام فحجمهُ في نقرتهِ وفي قمـة رأسـهِ ◦ واهم شرباتهم : شربة السمن وهي مقدار رطل مصري من السمن يسخن ويشرب على الريق ومنهم من يكرر ذلك خمسة ايام متوالية ولا يشربون ماء بارداً معها لئلاً تولد زحيراً . وشربة السنامكي يشرب منقوعهـا مع منقوع التمر الهندي والسكر ◦ وفي جزيرة مغرات تراب معدني يعرف بالجردقة يعالجون بمنقوعهِ المغص ووجع المعدة والامعاء . ويمزجون التربية بالبوزة والمقويات ويعالجون بهـا داء الزهري ◦ واشهر مقوياتهم مزيج

مركب من العسل والسمن والثوم والبلح على هذه الصورة : تغلى ثلاثة ارطال عسلاً الى ان ترغو فيضاف اليها ثلاثة ارطال سمناً بقريّاً ويغلى المزيج ثم يجعل فيهِ نصف رطل ثوماً بعد تقشيرهِ ويغلى الى ان يحمرّ الثوم فيخرج منهُ ويعوض عنهُ بنحو ١٥٠ بلحة من البلح الابريمي بعد نزع نواهُ ويؤكل منهُ كل يوم على الريق وقبل النوم ولا يؤكل معهُ المغلظات ولا اللحم البقري فيكون منهُ عافية وقوة . وهم يعالجون السل والبواسير بهـذا المركب : رطل فلفل اسود وابيض ونصف رطل زنجبيلاً وربع رطل خولنجان وسدس رطل قرفة ورطلان سكرًا تدقّ جميعاً وتنخل وتؤخذ مع الشاي او تؤخذ سفوفاً على الريق . ويعالجون السل بالشطة وحدها بأخذها مع كل طعام بدل الفلفل . ويعالجون الخنازيري (التهاب الغدد الليمفاوية) بشقها وذرّ الزرنيخ على الجرح

وعندهم كثير من الدجالين يعالجونهم بالتعزيم وكتابة الاحجبة فهي علاج لكل داء عياء وقلما تجد احدًا من اهل السودان ولاسيما النساء الاحاملاً حجابًا او اكثر . ومن علاجاتهم ان يكتبوا سورًا من القرآن على لوح ثم يغسلون الكتابة بماء ويشربون الماء للاستشفاء بهِ

ويهتمّ بالمريض امهُ وزوجتهُ واختهُ وعمتهُ وخالتهُ . وفي سؤالهم عنهُ يقولون عسى طيب النهار دا . المولى يعفو عنهُ ان شاء الله . وعند تفشي امراض وبائية يذبحون الذبائح ويوزعونها على الفقراء والمساكين رجاء رفع الاوبئة عنهم والذين لا قدرة لهم على ذبح الذبائح يسلقون الذرة ويوزعونها ويعتقدون ان الوباء يذهب مع البخار الذي يتصاعد منها ولا يسلقونها الا عند طلوع الشمس وغروبها . وبعد اكل الذرة يطوف الاولاد في الشوارع منادين : « يا لطيف لم تزل ألطف بنا فيما نزل » او ينادون « يا خالقنا نحن ضقنا »

ومن عادتهم عند رؤية الهلال ان يقولوا « اللهم اعطنا خيرهُ واكفنا شرهُ » ثم يوقدون النار امام منازلهم ويهنئون بعضهم بعضاً فيقول الواحد « الشهر مبارك عليكم » فيجيبهُ الآخر « علينا وعليكم » ثم يقول الاول « اعفوا عنا » فيجيبهُ الثاني « عافين عنكم »

وهذه عاداتهم في ايام المواسم والاعياد وهي من اجلّ عاداتهم

وقد اقتبسوا عادة الاحتفال « بشم النسيم » من المصريين وتقلدوهم في سحق رؤوس البصل وصبغ البيض والاستحمام في النيل والخروج للتنزّه في البساتين

ومن عاداتهم في الحروب انهم يأخذون كبار قتلى اعدائهم فيقطعون رؤوسهم ويعلقونها في الشوارع العمومية اشهاراً للنصر . واما السود فيقطعون ايدي قتلى الاعداء ويضربون بها النقارة الى ان تنتن فيرمونها

ومن قتل وحشاً مفترساً جرّدوهُ من ثيابهِ وألبسوهُ ثياب النساء وحلاهنّ من عقود الخرز وغيرها وضفروا شعرهُ ضفائر دقيقة كضفائر النساء وحبسوهُ في بيت مظلم سبعة ايام ثم اخرجوهُ الى النيل للاستحمام بهِ ووسموهُ في جبهتهِ اوكتفهِ علامة لقتلهِ الوحش المفترس وتغييرًا لسحنتهِ ثم اولموا وليمة فاخرة فرحاً بسلامتهِ

« وقيودهم » الشعبة والمكية اخذوهما عن السود والزنجير المعروف والقيد وهو على صورة المكية الا انهُ اخف منها ولا يقفل بمفتاح

« والعابهم » الخاصة بهم : السيجة وهي تشبه الداما والطاب وغيرهما وعندهم من العابنا الداما والمنقلة والنرد (الطاولة) والدومنو والورق

﴿ مآتمهم ﴾ ولمآتمهم ضجة عظيمة وجلبة كسائر اهل السودان . فاذا أُحتُضر عليلهم اجتمع اهلهُ الرجال فابعدوا عنهُ النساء وأحاطوا بهِ يعللونهُ حتى تفارقهُ الروح فيضعونهُ على عنكريب ويغطونهُ بثوب نظيف ثم يرفعون اصوات البكاء والتعديد فتعلم النساء انهُ فارق الروح فيصحنَ وينتحبنَ ويحثينَ التراب على رؤوسهنَّ ويلطخنَ وجوههنَّ « بالسجَم » والرماد ثم يدخلنَ غرفة الميت ويجلسنَ حولهُ للبكاء والنحيب ويخرج الرجال فينعونهُ الى البلاد المجاورة ويجلسون في فناء المنزل لاستقبال المعزين . وعند مجيء الجيران يخرج النساء بالميت الى حوش الدار لعمل المناحة وتأخذ النادبات النحاس للضرب عليهِ او يأخذنَ قرعة يابسة فيضعنها في طست فيهِ ماء وبجانبهِ طست آخر لاماء فيهِ فيضربنَ على الطستين ضرباً محزناً ويشرعنَ في ندب الميت وتعديد مناقبـهِ واذا حضر المأتم نساء حديثات عهد بالحزن ندب النادبات موتاهنَّ ايضاً

وعدّدن مناقبهم كعادة النادبات في مصر والشام • وفي اثناء ذلك ترقص الحزانى بالسيوف والعصي ويصحنَ صيحات مزعجة تفتت الأكباد

ومن اقوالهنَّ في التعديد : وا سجماه • وا حزناه • وا مصيتاه • يا حليلك هاي • يا شديد الحيل • يا جمل الشيل • يا مقنع الكاشفات • يا التفرّج الضيقات • يا راجل الحكام • يا اب فهم كثير في المجالس ونحو ذلك ◦ ومن اقوال النادبات في المناحة :

دَقر (ثعبان) الهيشة حارقه السم   بقطع بجُر السمّ
ديما خصيمه لاغي الدم   من ابواته هو مقدّم

ومنها : دفّوا لك السنين (السيف)   شدوا لك الهجين
يا الخير ميتك هجيمة (مصيبة)   اخوي خواجه مو مسكين

اما الرجال فبعد استقرارهم في فناء المنزل يشرعون في التهليل وهو قولهم « لا اله الا الله محمد رسول الله » فيكرره كل منهم على السبحة مرارًا معلومة حتى يكون مجموع تهليل الكل ٧٠ الف مرة • أو يقرأون سورة الاخلاص وهي « قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لهُ كفوًا احد » مئة الف مرة

وفي اثناء ذلك يغسلون الميت ويكفنونهُ ويحملونهُ بالمناوبة على الأكتاف الى التربة وتتبعهم النساء كاشفات الرؤوس لا يسترها الا التراب أو الرماد وبينهنَّ قريبات المتوفى واحدة متقلدة سيفهُ واخرى ثوبهُ واخرى جبتهُ أو عمامتهُ وبعضهنَّ يلبسنَ الفراء في اصلابهنَّ ويتحزّمنَ بالحبال السود وهنَّ يندبنَ ويبكين حتى يصلنَ التربة فيجتمعنَ حلقة كما كنَّ في حوش المنزل ويجددن الندب والبكاء والرقص على اصوات التصفيق بدل النحاس وهو المعروف عند سكان النيل « بالمدَى »

اما التربة فهي حفرة واسعة في جنبها حفرة ضيقة فيدفنون الميت في الحفرة الضيقة بوضعهِ على جنبهِ الايمن متجهًا نحو مكة المشرّفة ثم يسقفونها بطوب وطين ويأخذ كل من الحضور شيئًا من التراب فيرميها بهِ ثم يردمون الحفرة الكبرى ردمًا محدَّبًا كسنام البعير • ويدلون على القبر بحجر فوق رأس الميت وحجر فوق قدميهِ وطبقة من الحصى الغرانيتية بينهما • ويضعون عند القبر طعامًا في قدر وماء في قدر

أخرى تصدقاً عن روح الميت ويكرّرون ذلك في كل قليل من الايام. وربما وضع بعضهم في اليوم الاول قليلاً من الذرة في قدر مبلولاً بالماء فينبت ثم يذبل ويجف فيمثلون بذلك حيوة الانسان على الارض . واذا كان المتوفى فقيهاً أو عالماً أو شريفاً نصبوا عند قبره راية بيضاء أو ملوّنة تنويهاً به واذا كان من الاولياء الصالحين بنوا فوق قبره كوخاً من حجر وطين أو بنوا قبةً ومزاراً وزاروهُ في المواسم والاعياد

وبعد الدفن يعود اهل المأتم الى منزل الميت فتعود النساء الى الندب والبكاء ويجلس الرجال لاستقبال المعزين الذين يأتون من الجهات البعيدة افواجاً رجالاً ونساء مشاة وركباناً ومعهم زادهم من الذبائح والذرة والسمن ونحاسهم محمولٌ على جمل وعند وصولهم البلدة يضربون النحاس وتزغرد النساء زغاريد الحزن فيخرج اهل الميت رجالاً ونساء لاستقبالهم فيصطف الفريقان صفين خارج البلدة النساء قبالة النساء والرجال قبالة الرجال ثم يشرعون في البكاء فيضع الرجل ثوبهُ على فمه ويبكي بكاء عالياً وهم يسيرون الهوينا حتى يلتقي الصفان فيشتد البكاء ثم يقوم اهل الميت مقام المعزين في تعزيتهم وتهوين المصاب عليهم بقولهم : « هذا امر الله وارد على الجميع والمصيبة واحدة وعظم الله اجرنا واجركم » ثم يقولون استغفروا ويدخلون البلدة لتجديد المأتم * وعند الجعليين عادة تعرف « بالشوقار » وذلك انهم عند التقاء الصفين خارج البلدة يتسابق الفرسان على خيولهم أو هجنهم ويتصارع المشاة بالسيف والدرق وترقص النساء بالسيوف الى ان يكلّ الجميع فيذهبون الى منزل الفقيد لتناول طعام الظهر ثم يعودون الى «العرضة» عند العصر ويبقون على ذلك ثلاثة ايام ثم ينصرفون الى بلادهم . واما اهل البلدة فانهم يبقون مع اهل الميت يشاركونهم في النوم على الارض الى نهاية السبعة الايام الاولى . واما اقارب الفقيد فانهم يشاركون اهلهُ الاخصاء في النوم على الارض الى نهاية الاربعين يوماً . وفي أثناء ذلك يرسل اهل البلدة الطعام من بيوتهم للمأتم مساعدةً لاهل الميت . ثم في مدة السبعة الايام الاولى يتصدق اهل الميت عن روح فقيدهم فيخرجون الطعام للمساكين كل يوم صباحاً ومساء ويقرأون القرآن كل ليلة . وفي اليوم السابع يخرجون الى التربة

فيقرأون القرآن ويتصدقون عن روح الفقيد ثم يفعلون ذلك كل جمعة الى نهاية الاربعين يوماً فيعملون صدقة تسمى صدقة الاربعين وهي خاتمة المأتم . وبعد ذلك يعود اهل الفقيد الى النوم على الاسرة وتغسل النساء ثيابهن لنزع المسوح والرماد. وحدادهم سنة كاملة يمتنعون فيها عن التطيب ولبس فاخر الثياب والحلى رجالاً ونساء . واما زوجة المتوفى واخواته فانهن يقصصن شعورهن حداداً عليهِ وتقضي الزوجة عدة الوفاة لا تخرج من منزلها . ويركب الرجال الدواب بفراء مقلوبة واما الشايقية فيلبسون طرابيشهم بلا ازرار علامة للحداد

﴿ خرافاتهم ﴾ واما خرافاتهم فعلى نحو خرافات العرب في مصر والشام الاَّ انهم اشد تمسكاً بالخرافات من العرب في كل زمان ومكان . فعندهم السحرة والدجالون والمشعوذون من الرجال والنساء . ومن معتقداتهم السحر والزار والمندل والرمل وضرب الودع والعقدة وكشف الدفائن وتفسير الاحلام والخيرة وكتابة الاحجبة والاصابة بالعين والتشاؤم والتفاؤل ووجود الجن والعفاريت ونحو ذلك من الترهات التي لا طائل تحتها

اما الزار فقد دخل السودان من مصر وكثر استعمالهُ في بلاد سواكن و بربر والخرطوم . واكثر اعتمادهم في تفسير الاحلام على كتاب ابن سيرين . وفي الخيرة على كتاب محي الدين ابن العربي . واما الرمل والمندل وضرب الودع وكشف الدفائن وعلم التنجيم فاكثر المشتغلين فيهِ هم السحرة والمشعوذون من التكارنة وغيرهم

واما العقدة فيشتغل بها فرع من بشاري الاتبرة يعرف بالقرب فاذا ارادوا عقد انسان في مكان عزَّموا عليهِ فيبقى في مكانهِ لا يبرحهُ حتى يحلوهُ واذا وضع امامهُ طعام وعقدوهُ لم يستطع ان يمدَّ الى الطعام يداً . قيل واذا سخر لهم جمل عقدوهُ فيبرك ولا يقوم

اما سحرتهم فتدَّعي القدرة على مسخ الاجسام اي مسخ الانسان حيواناً والذكر انثى وبالعكس . وقد اكد لي بعضهم انهُ رأى بعينهِ الباصرة خروفين صارا ثعلبين ورجلاً تحوَّل مرعفياً واختطف ولداً . قالوا وانما تتمكن السحرة من مثل هذه الافعال

السحرية باستعمال عروق نباتية تعرف « بعروق السحر » وكثيرًا ما يشكو احدهم من ألم في الامعاء فيقول اهلهُ ان ساحرًا خرج وفي فمهِ عرق من عروق السحر فسحرهُ أو ادخل فيهِ جنًّا أو عفريتًا فسحب امعاءهُ فيستدعون شيخ السحرة فيعزّم لهُ ويسقيهِ ماء عرقٍ من عروقهِ النباتية فيخرج العفريت منهُ ويبرأ

ومن هذا القبيل اعتقادهم بشجرة الاكسير قالوا هي شجرة ذات فرعين في كل فرع ورقتان فاذا وضع منها شيء على قصدير صيَّرهُ فضة أو على فضة صيرها ذهبًا الاّ انها مجهولة المكان فمن عثر عليها جمع غنى الدهر وقد تعثر الغنم عليها في مرعاها فيدرّ لبنها فمن شرب منهُ انفتح ذهنهُ

ومن انواع الجن التي يخوّفون بها اولادهم : الشكلوتة والدودو وأم بعلُّو فالدودو وأم بعلو بمثابة البعبع عندنا والشكلوتة بمثابة الغول وهي في عرفهم حيوان ناطق بعين واحدة ورجل واحدة ويد واحدة تعرف اسم كل شخص فتدعوهُ باسمهِ ولها اظافر حادّة فاذا هاجمت انسانًا هشمت وجههُ لانها تكره الخلقة البشرية . واما الغول فهو معروف في حكاياتهم بأنهُ جنّ بسبعة رؤوس وشوشة كبيرة ينام سنة ويستيقظ سنة ولانثاهُ ثديان كبيران تردّي اعلى جسمها بثدي واسفلهُ بآخر وتعرف بالسعلوّة . وهم لا يتركون الطفل وحدهُ حتى يصير عمرهُ فوق السنة خوفًا عليهِ من « القرينة » فاذا حصل لهُ تشنج عصبي مما يحصل للاطفال ولم يسلم منهُ قالوا قرينتهُ قتلتهُ ويعرف هذا التشنج عندهم « بأم الصبيان أو حبوبة العيال »

واذا شكى طفل لهم من وجع على حين غفلة ولم يروا السبب قالوا أصيب بالعين. ولمعرفة المصيب يسلون قطعة من الشب مع قليل من الملح والقرض والكمون على النار ويبخرون بها المصاب ثم يرشون الماء عليه فيجمد ويتكيّف بصورة يستدلون بها على المصيب فاذا اشتبهوا باحد أخذوا قطعة من ثوبهِ واحرقوها وبخّروا بها الطفل ثم رموا الشب من وراء ظهورهم في قارعة الطريق . قالوا وفي سنار بيس يبخرون بهِ المصاب فينطق باسم من اصابهُ

وهم يكثرون من لبس الاحجبة يجعلونها في علب صغيرة من الذهب او الفضة

او الجلد او الحرير ويلبسونها في زنودهم او يعلقونها في رقابهم فيدلونها الى ما تحت الآباط او الركب وبعض النساء يعلقنها بشعر الرأس او بالحجاب الهيكلي كما مرَّ وذلك لدرء العين والجن والرصاص والامراض وبالاجمال لجلب كل نافع ودفع كل ضارّ . بل هم يعلقون حرزًا لكل شيء يخافون عليهِ من العين فترى في كل منزل جديد فوق عتبة الدار صحنًا من الصيني وفي كل بستان زاهر تمثالاً من الخشب او هيكلاً من العظام . وفي عنق كل دابة سمينة حذاء صغيرًا او خرزة زرقاء لدرء العين

وهم يتشاءمون من الأعور والأعرج وكل ذي عاهة . ومن تناول الصابون بباطن الكف خوفًا من انهُ يورث البغضة فيتناولونها بظاهر الكف . ومن رش الماء على شخص فانهُ دليل على فراقهِ . ومن مسح اليد بثوب آخر أو سكب ماء على يد آخر من وعاء مفتوح كالقرعة أو شرب اثنين في فنجان واحد أو مسح اثنين يديهما في منديل واحد فانها ادلّة على البغض . ومن عواءِ الكلب من صدرهِ فانهُ دليل على موت واحد من الاهل . ومن لبس الرجل اللباس وهو واقف فانهُ دليل على الفقر فلا بد من لبسه جالسًا ور بطهِ واقفًا . ومن استعمال المقص ليلاً فانهُ مجلب للشقاق . ومن استعمال الابرة ليلاً فانهُ مجلبة للعمى . ومن الكناسة ليلاً فانها مجلبة للموت فاذا اضطروا الى الكنس احرقوا طرف المكنسة وكنسوا بها . ومن صباح الاجرد فانهُ دليل على الفشل ومن امثالهم «صباح القرود ولا صباح الاجرود» . ومن ضرب الكلب أو القط ليلاً خوفًا من شلل اليد . ومن هز الرجل عند الجلوس فانهُ دليل على الفقر . ومن الصفير ليلاً فانهُ مجلب للآفات والحيات . ومن العطاس فوق رأس المريض خوفًا من موتهِ أو ازدياد مرضهِ فاذا عُطِس فوق مريض اخذوا عودًا وقطعوهُ نصفين ورموا قطعة الى جنبهِ الايمن وقطعة الى جنبهِ الايسر . ومن كنس الدار يوم الخميس خوفًا من طرد الخير اذ الخير في اعتقادهم يجيء يوم الخميس . ومن رؤية الغراب والبومة والارنب فانها دليل على الخراب . ومن الخيل اذا كانت « جبراس » فان راكبها لا ينجح كيف سار . ومن خياطة الثوب وهو ملبوس خوفًا من الفقر . ومن رؤية الوعاء الفارغ فانهُ دليل على الفشل فمن خرج لقضاء حاجةٍ

فالتقى بانسان حامل اناء فارغاً تشاءم منهُ وقد يقف في مكانه حتى يعود حاملهُ به ملآناً وهم يتفاءلون بفلج الاسنان ورؤية طائر الحباري . واذا سافر لهم حبيب اخذوا تراباً من اثر قدمه اليمنى وجعلوهُ في كيس وحفظوهُ الى حين رجوعه وقد يكتبون على يد المسافر « لا اله الاّ الله » وعلى يد المقيم « محمد رسول الله » تفاؤلاً بالاجتماع . واذا خرجوا للغزو وصاح « طائر الخير » (وهو طائر صغير شبه الحمامه) فان كان عن يمينهم تفاءلوا به خيرًا وان كان عن شمالهم تشاءموا منهُ ورجعوا عن الغزو وان كان امامهم استدلوا على انهُ سيكون قتال شديد بينهم وبين اعدائهم وان كان وراءهم علموا ان العدو يطاردهم من خلف . وعندهم طنين الاذن اليمنى شؤم وطنين الاذن اليسرى فأل . واختلاج الجفن الاسفل شؤم واختلاج الجفن الاعلى فأل . واندفاق الماء من وعاء في الارض شؤم واندفاق القهوة في الارض فأل . وحوم الفراش الاسود على السراج شؤم وحوم الفراش الابيض على السراج فأل . وغسل الثياب يوم السبت شؤم وأكل اللبن يوم السبت او اكل البصل والسمك يوم الاربعاء فأل . ومن امثالهم « من سبَّت بلبن سرَّ بمثله »

واذا اقبل عليهم شخص يكرهون محضرهُ كرّروا قولهم « ستة في ستة ستة وثلاثون » وكرّروهُ ايضاً اذا تأخر رسولهم وتوقعوا من تأخيره شرًّا . واذا فارقهم رجل ثقيل رموا وراءه عودًا وقالوا « جدعناك بعود ان شاءَ الله ما تعود » . واذا تعددت أسباب انبساطهم توقعوا شرًّا كما انهم اذا تراكمت عليهم المصائب توسموا فرجاً على حد قول الشاعر

ضاقت ولما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت اظنها لا تفرج

ومن شرق بريقه قال احد الناس يغتابني . ومن سقطت اللقمة من يده وهو يأكل كان احد اقاربه يذكرهُ فاذا سقطت على صدره كان لهُ حبيب جائع . ومن اصابهُ فواق اتهموهُ بسرقة أو فاجأوهُ بخبر يروعهُ فيذهب الفُواق عنهُ . واذا نطق احدهم بكلام سبق به فكر من يخاطبهُ قال لهُ « عمرك اطول من عمري » . واذا عطس بجانبه اتخذ العطاس مصداقاً لكلامه ومن اقوالهم « ان اصدق الحديث ما عُطس فيه » .

واذا لعبت القطة بيديها في الحصير انتظروا قدوم ضيوف . واذا وقع وعاء من خزف فانكسر قالوا « انكسر الشر » . واذا وقعت شرارة من النار على ثوب جديد فاحرقتهُ حرقاً مستديرًا قالوا « خير ان شآء الله » . واذا وقع للولد سن وهو يبدل اسنانهُ جمع اليه فحمة وسبع حبات من الذرة ورمى بها الشمس وقال « ياعين الشمس خذي سن الحمار واعطني سن الغزال » . واذا خسف القمر عمدوا الى النحاس وضربوه بالعصي الى ان ينجلي الخسوف . واذا رأوا الشهب في السماء لم يكلّموا بعضهم بعضاً بل كبَّر كل منهم وقال لنفسه « وجعلناها رُجوماً للشياطين » واذا فقدوا شيئاً فتشوا عنهُ وهم يكررون قولهم « يابليس يابليس لك الكيس ولي كيس ابليس اديني وأديك اذبح لك دجاجة وديك » . واذا رأوا حب الذرة منثورًا في الطريق التقطوا منه سبع حبات واكلوها احتراماً « للعيش » واذا رأوا لقمة التقطوها وقبلوها واكلوها وهم يعتقدون انها تضيء في الجوف كالشمعة ومن امثالهم « لقمة الفناتورث الغنى »

وقد رأيت البعض يعقدون الى اكياسهم قطعة من النقود القديمة لكي تبقى بركة فيها لانهم يتشآءمون من فراغها . واذا كانت الدجاجة تبيض في غير قنها شكوا في أنفها ريشة لتبيض في قنها . واذا مر على شجرة سنة ولم تحمل ثمرًا اخذ صاحبها فاساً وشرع يلاوصها فيأتيهِ صاحب لهُ فيمنعهُ عن قطعها ويعدهُ بأنها تحمل ثمرًا في السنة المقبلة وبذلك تثمر الشجرة ان شآء الله . ومن اقوالهم « خذوا فالكم من صغاركم » ولذلك فاذا اجتمع الاولاد للعب فاخذوا طبلة يضربون بها وحملوا سيوفاً من جريد وخيولاً من قصب قالوا ان حرباً آتية عليهم . واذا رأوا طائرًا محلقاً في الجو فوق بلدة تشآءموا وخافوا موت شيخ اوحاكم أو رجل عظيم . وهم لا يسمحون للحائض ان تعلو شجرة لئلا تيبسها ولا ان تركب دابة لئلا تميتها ولا ان تمرَّ فوق طفل لئلا تمنع نموه فاذا فعلت اخذوا الولد واجازوهُ فوقها سبع مرات ليدفعوا عنهُ الضرر . وزوج الحامل لايذبح طائرًا ولا يضرب حيواناً واذا كان جزّارًا استأجر من يذبح له . ومن لم يعش لها اولاد سمتهم باسماء الارقاء وشحذت لهم الاكسية والبستهم اياها . والنوم على جلد الضبع يمنع وجع الظهر . والركوب على جلد النمر يمنع البواسير . وعندهم ان الثعلب قاضٍ للحيوان

والايام في اعتقادهم اما نَحِسة او سعيدة فهم يعدون ايام الاشهر على الاصابع فالايام التي ينتهي عددها بالاصبع الوسطى نَحِسة والباقية سعيدة وعليه تكون ايام النحس الـ ٣ و ٨ و١٣ و١٨ و٢٣ و ٢٨ من كل شهر فلا يتزوجون فيها ولا يسافرون ولا يزرعون ولا يبنون ولا يفصلون ثياباً. وقد مرَّ ضابط ايام النحس والسعد في شعر زروق * واما ايام الاسبوع فعندهم السبت للصيد والاحد للبناء والاثنين للسفر والثلثاء للحجامة والاربعاء للشراب والخميس لقضاء الحاجات والجمعة للزواج

﴿ القيافة ﴾ هذا ولاهل البادية نباهة طبيعية عجيبة في «القيافة» وهي قص الاثر أو الاستدلال بالاقدام والحوافر فاذا هرب منهم هارب أو دخل عليهم سارق أو طرقهم طارق تتبعوا آثار قدمهِ اوقدم دابتهِ حتى يظفروا بهِ. ومن العجيب انهم يعرفون قدم الشيخ من الشاب والمرأة من الرجل والبكر من الثيب والغريب من المستوطن والحر من العبد والحامل من غير الحامل والاعور من السليم والاسود من الابيض بل لو عرفوا ناقة ورأوا أثر ولدها في مكان عرفوهُ انهُ ولدها وذلك منتهى النباهة.

﴿ العرب في الغزو ﴾ واذا اراد عرب السودان الغزو تزوَّدوا دقيق الذرة والابرية والسورج والبلح واللحم الناشف المدقوق والباميا الناشفة والبهارات والملح فوضعوها في أجربة ووضعوا الماءَ في القرب وحملوها كلها على الجمال والحمير وساروا مشاة وركباناً تصحبهم الجواري ومعهنَّ الصيجان والحلل للخبز والطبخ * فاذا ارادوا الهجوم تركوا الحملة والنساء بعيداً عن مرمى الرصاص وعليها الخفراء. ووقفوا صفاً واحداً كل ربع على حدتهِ في مقدمتهم البنداقة وفي ساقتهم القائد العام مع المدد والفرسان في الجناحين وهاجموا العدو بقلب لايهاب الموت وهم يهللون ويكبرون حتى اذا ما رأوا العدو بدأ البنداقة برمي الرصاص فاذا امتلأ الجوّ دخاناً اقتحم الحرابة النيران تتقدمهم امراؤهم على الخيل فاختاروا جهة قلَّ فيها الرصاص واخترقوا صفوف الاعداء واعملوا فيهم السيف والحربة واقتفى الفرسان أثر المنهزمين فقتلوا واسروا

واذا ارادوا الدفاع حفروا للبنداقة خندقاً جعلوا من ترابهِ متراساً بالمزاغيل ووقفوا وراءهم ارباعاً والفرسان من الجناحين والقائد العام في الوراء في قلعة من المدد

هذا ما تسنى لنا جمعهُ عن اخلاق اهل السودان وعاداتهم وخرافاتهم * ويقال بالاجمال في جميع اجناس السودان ان لونهم اسود او مائل الى السواد . وسكنهم في اكواخ مستديرة هرمية الرؤوس في الجنوب ومربعة مسطحة السقوف في الشمال . وأكلهم الذرة والدخن والعصيدة بادام من اللبن او اللحم في قصاع من خشب . وشربهم البوزة . وهم يتفقون على عدم لبس المخيط او لبسهُ في الشمال على قلة . وعلى ضفر النساء شعورهنَّ ضفائر دقيقة جدًّا ودهن الرأس بالشحم والزيت . وعدم خروج الرجال من منازلهم بلا سلاح وحبهم الغزو والحرب والقيد بالشعبة والمكية واستعمال النقارة والحراب . واحترام العرض . والضجة في المآتم . وحب الرقص والطرب والضرب على الربابة . والسلام باليد . واعتقاد السحر والخرافات

وقد زار بعض الشعراء الخرطوم في الفتح الاول مارًّا بشلال « دال » وقاسى في سفرهِ المشاق فنظم قصيدة مجونية بالغ بها في ذم السودان واهلهِ قال فيها :

اقضي الليالي بالسهر ... والقلب ذاب من الفكر
والصدر ضاق من الفرا ... ق ومن مشقات السفر
سفر الى السودان وال ... خرطوم لم يكُ منتظر
شاهدت اهوالاً بهِ ... ووجدت في « دال » العبر
تلك البلاد بأسرها ... كجهنم ذات الشرر
أمراضها قتالة ... وهوآؤها يعمي البصر
فكأنما ريح السمو ... م تهب فيها من سقر
ريح تهب بلا انقطا ... ع في المساء وفي السحر
الوانهم كصخورهم ... سود كالوان الحبر
ومن العجائب لم تجد ... فيها اللحوم ولا الخضر
حتى ولا من مونس ... يشفي العليل اذا حضر
فيها الافاعي والعقا ... رب مثل تعداد الشجر
وجميع انواع الوحو ... ش الضاريات لها أثر

وبها البعوض مع التما   سيح التي منها الحذر
من كل تمساح ترى   بالاغتيال له خبر
ما حلَّ في ساحاتها   من سائح الأ انذعر
فأقمت فيها مدَّة   وانا أبيت على خطر
لما رأيت الحال طا   ل ولم يعد لي مصطبر
فارقتها متهللاً   وأتيت مصر على الأثر

ولو ذهب هذا الشاعر اليوم الى الخرطوم ورأي ما فيها وفي الطريق اليها من دلائل الاصلاح لبدّل شعره بما هو أليق بالسودان واهله وتمنى عيشة الخرطوم



عادات السود

انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثاني

الجزء الثاني

في

تاريخ السودان القديم



﴿ وفيهِ خمسة ابواب ﴾

VOLUME II

THE ANCIENT HISTORY OF THE SUDAN

(IN FIVE PARTS)

الباب الأوّل

في

تاريخ ايثيوبيا

« وهو تاريخ البلاد منذ عهد الدولة المصرية السادسة سنة ٣٧٠٣ ق م الى دخول النصرانية لبلاد النوبة سنة ٥٤٥ ب م »

الفصل الاول

في

تاريخ ايثيوبيا قبل انتظام ملكها

« وذلك منذ عهد الدولة المصرية السادسة سنة ٣٧٠٣ ق . م الى بدء الدولة الثامنة عشرة سنة ١٦٠٠ ق . م »

﴿ حدودها ﴾ امتدَّت مملكة ايثيوبيا قديماً من الشلال الاول عند اسوان الى اقاصي الحبشة شمالاً وجنوباً ومن سواكن ومصوع على البحر الاحمر الى صحراء ليبيا شرقاً وغرباً وهي تشمل بلاد الحبشة ومعظم بلاد السودان

﴿ اسمها ﴾ وقد عرفت ايثيوبيا في الآثار المصرية كما عرفت في التوراة باسم « كوش » . اما ايثيوبيا فهو الاسم الذي اطلقهُ اليونان على جميع بلاد السود والشديدي السمرة ومعناهُ الوجه الاسود أو المحرَق فهو على اطلاقهِ يشمل بلاد السودان والحبشة والعرب الاَّ انهُ خُصَّ بالبلاد التي فيها كلامنا

﴿ سكانها ﴾ وأول من سكن هذه البلاد فيما نعلم «السود» وقد اختلف العلماء في اصلهم فمن قائل انهم نشأوا في القارة وتشعبوا فيها قبائل شتى على ما نراهم اليوم ومن قائل انهم هاجروا اليها من اسيا عن طريق البحر الاحمر قالوا وما كانوا سوداً بل كانوا بيضاً فسوَّدتهم حرارة الشمس وطبيعة القارة على توالي الاجيال كما قال ابن سينا في ارجوزتهِ الطبية :

في الزنج حرٌّ غيّر الاجسادا   حتى كسا جلودها سوادا
والصقلب اكتسبت البياضا   حتى غدت جلودها بضاضا

واصحاب هذا الرأي لا يعيّنون تاريخ مهاجرة السود الى افريقية أو ربما اضطروا الى القول بمهاجرتهم اليها من عهد بعيد قبل التاريخ لانهم يختلفون في اصلهم اختلافاً كلياً عن جميع السكان الذين هاجروا الى افريقية بعد التاريخ

ثم أن اولاد «كوش» بن حام هاجروا الى افريقية بعد الطوفان فاستولوا عليها فسميت باسمهم كما مرّ • ومهما يكن من اصل الايثيوبيين الاولين فالثابت المقطوع بهِ في التاريخ أن سكان البلاد التي جنوبي الشلال الاول كانوا منذ اول عهد التاريخ كما هم اليوم مختلفي الاجناس عن سكان البلاد التي الى شماليهِ

وكان الايثيوبيون في اول امرهم قبائل شتى لا تجمعهم كلمة ولا تربطهم جامعة دأبهم الانشقاق وشن الغارات بعضهم على بعض كبادية هذه الايام • ومن هذه القبائل المدوَّنة اسماؤها على الآثار المصرية :

«الأوايو» «Uauaiu» وقد سكنوا الصحراء الشرقية حيث العبابدة الآن

«والمازايو» «Mazaiu» وقد سكنوا جنوبيهم الى طريق بربر فسواكن

«والبوانيت» «Puanit» وقد اقاموا بين طريق بربر فسواكن وجبال الحبشة

«والدنقس» «Dangas» وهم اقوام الى جنوبي البوانيت وقد سميت بلادهم ببر الاظلال «Land of the Shades» التي عُدّت حينئذٍ آخر المعمور حيث الاحياء تلامس الانفس المفارقة الاجسام وهي البلاد المعروفة الآن باسم «نجباي» بين الحبشة وزنجبار وقد كانوا في حرب دائمة مع الاحباش ولا يزالون كذلك الى اليوم

هذا ويستدل من الآثار ان قبائل الصحراء المجاورة لمصر كانوا كما هم في هذا العهد يخالطون الحضر على النيل فيأتون من صحرائهم بالمواشي وخشب السنط والفحم والصمغ والصيد وجلود الحيوانات والحجارة الكريمة ويقايضون منها الاقوات والانسجة. وكان المصريون يسالمونهم لمنع تعدياتهم والانتفاع بتجارتهم ويجعلون لمشايخهم جعلاً معلوماً يجرونهُ عليهم في كل سنة فيتعهدون بحماية الطرق وحفظ الامن ولكنهم

ما كانوا يقيمون طويلاً على العهد اذ كان خصب وادي النيل يغريهم فيغزونهُ من وقت الى آخر فينهبون ويسلبون ويعودون بالنهب والاسلاب الى صحرائهم . وكان المصريون ايضاً كلما فرغوا من حروبهم في الشمال يبعثون بالسرايا الى تلك الصحراء وغيرها من بلاد ايثيوبيا فيسبون ويغنمون من خيراتها ومعادنها ويعودون الى مصر فيدوّنون أخبار غزواتهم على جدران هياكلهم ومدافنهم كما يشاهد في الآثار المصرية الباقية الى الآن

﴿ بدء تاريخها ﴾ وأول من غزا ايثيوبيا فيما نعلم الملك ببي الاول ثاني ملوك الدولة المصرية السادسة (سنة ٣٧٠٣ : ٣٥٠٠ ق٠م) فانهُ أرسل قائدهُ أونا «Una» الى جهات كورسكو ليجمع بعض انواع الخشب فساعدتهُ قبائل تلك الجهات على جمعهِ وأقروا للملك ببي بالطاعة

وارسل الملك متوسوفيس وهو الملك الثاني عشر من ملوك هذه الدولة القائد هرخف لغزو بلاد البوانيت فعاد بغنائم البخور والابنوس والعاج والجلود حملها على ٣٠٠ حمار واحضر معهُ قزماً من الدنقس اتى بهِ من بر الاظلال وكان الملوك المصريون يُسرُّون بقنية الاقزام في قصورهم لانهم كانوا على زعمهم يحسنون رقص الآلهة فلما وصل هرخف بالقزم الى ارض مصر كان الملك متوسوفيس قد مات وخلفهُ اخوهُ ببي الثاني فسر بخبر القزم وكتب الى هرخف يأمرهُ باحضارهِ الى ممفيس وهذا نصّ الكتاب : « واصحب معك في المركب بعض الخفراء لحراستهِ لئلا يقع في الماء أو يفلت في الليل لأني أسرُّ برؤية القزم اكثر من سائر الغنائم التي اتيتَ بها من بلاد البوانيت » . فحفر هرخف هذا الكتاب مع خبر غزوتهِ على واجهة قبرهِ في جزيرة الفنتين تجاه اسوان

ثم لا نعلم شيئاً يذكر بين مصر وايثيوبيا الى ايام الدولة المصرية الثانية عشرة (٣٠٦٤ : ٢٨٥١ ق ٠ م) اذ نرى اوسرتسن الاول ثاني ملوك هذه الدولة قد عقد لقائده هونو « Huno » وارسلهُ الى بلاد البوانيت بطريق قفط والقصير لجمع الجزية من امراء تلك البلاد . فعند وصولهِ الى القصير بنى مراكب كبيرة وسار بها

في البحر الاحمر حتى وصل بلاد البوانيت فجمع الجزية من البخور وغيرهِ من محاصيل تلك البلاد وعاد الى مصر

وجرّد هذا الملك حملة على ايثيوبيا بطريق النيل فمدّ حدود مصر جنوباً الى الشلال الثاني. وقد وُجد حجر في هيكل تجاه حلفا نُقل الى فلورنسا بايطاليا وعليهِ صورة هذا الملك وبجانبها صور مشايخ القبائل الثمانية الذين تغلب عليهم في هذه الحملة ومشايخ السود الذين تغلب عليهم في بداءة ملكهِ

ثم جاء اوسرتسن الثالث خامس ملوك هذه الدولة فمدّ حدود مصر جنوباً الى شلال سمنه وبنى عنده هيكلاً لا تزال آثارهُ باقية الى اليوم . وقد وُجد هناك حجران جُعلا الحد الجنوبي لمصر مكتوباً على الواحد منهما ما نصّهُ : «هذا حد مصر الجنوبي الذين عُيّن في السنة الثامنة من حكم الملك اوسرتسن الثالث المخلد الذكر فلا يجوز لاحد من السود ان يتعداهُ الا في سفن تقلُّ البقر والمعزى والحمير من بلادهِ» وعلى الحجر الثاني ما يفهم منهُ ان الملك المذكور وضع هذا الحجر في السنة السادسة عشرة من ملكهِ فجعلهُ حدًّا فاصلاً بين مصر وايثيوبيا وانهُ امر ان ينصب تمثاله في تلك الجهة فكان كما أمر . وترى في معتوقه في جنوب الشلال الثاني طاية من آثارهِ

وفي جزيرة ارقو تماثيل وخرائب من ايام الدولة المصرية الثالثة عشرة (سنة ٢٨٥١ : سنة ٢٣٩٨ ق . م)

واما الدولة الرابعة عشرة (سنة ٢٣٩٨ : ٢٢١٤ ق . م) فلا نعلم شيئاً من امر ايثيوبيا في ايامها

وفي بدء الدولة الخامسة عشرة هاجم مصر الرعاة العمالقة من اسيا الجنوبية فتغلبوا عليها وملكوها ستماية سنة ونيفاً فكان منهم الدول المصرية ١٥ و ١٦ و ١٧ (٢٢١٤ : ١٦٠٠ ق . م) وكان المصريون يكرهونهم لانهم غرباء فلم ينفك ابناء الملوك القدماء عن اثارة الفتن عليهم فشغلوهم عن ايثيوبيا . وهاجر في عهدهم كثير من المصريين الى ايثيوبيا فراراً من ظلمهم فاسّسوا عدة مهاجر اهمها مهجر ارقو الذي لا تزال آثارهُ ظاهرة الى اليوم

الفصل الثاني

في

﴿ مملكة نبته ﴾

« وهو تاريخ ايثيوبيا منذ بدء الدولة الثامنة عشرة سنة ١٦٠٠ ق٠م الى نهاية الدولة الخامسة والعشرين من الدول المصرية سنة ٦٦٤ ق ٠ م »

ثم ان هؤلاء المصريين الذين هاجروا الى ايثيوبيا اخذوا معهم من جميع أنواع الفنون والصنائع المصرية فحسن بذلك حال الايثيوبيين وتدرجوا في سلم المدنية والعمران حتى انهُ لم تكن الدولة المصرية الثامنة عشرة (١٦٠٠ : ١٣٨٠ ق ٠ م) الا رأيناهم مملكة منظمة وعليهم ملك منهم بل لم يتم الملك لاحمس اول ملوك الدولة الثامنة عشرة المذكورة الا بمعونة ملك ايثيوبيا الذي زوجهُ ابنتهُ وظافرهُ على طرد الرعاة من مصر واعادة الاستقلال اليها ٠ ويظهر ان هذا الملك الذي انتظم للايثيوبيين كانت عاصمتهُ منذ نشأتهِ مدينة نبته عند جبل البرقل بقرب مروى المعروف في الهيروغليف بالجبل المقدس

ودامت العلاقات الودية بين مصر وايثيوبيا الى حكم تحوتمس الاول ثالث ملوك هذه الدولة فانهُ غزا الايثيوبيين وانتصر عليهم وولى على البلاد التي فتحها أمراء مصريين لادارة شؤونها وضبط أحكامها ولقب كلاً منهم بأمير ايثيوبيا الملوكي وقد دون خبر انتصارهِ هذا على صخرة في جزيرة طنبس عند الشلال الثاني

وخرج السود في شاطىء النيل الاعلى على تحوتمس الثالث (سادس ملوك هذه الدولة) فحمل عليهم بجيشه ففرَّ اكثرهم الى الجبال فأمر بنهب مواشيهم واموالهم من ذهب وآنية معدنية وريش نعام وغير ذلك وهدم مساكنهم واحرقها وعاد بالغنائم الى مصر ٠ ولهذا الملك هيكل قائم الى الآن تجاه حلفا نقش على جدرانهِ تاريخ انتصاراتهِ على الليبيين والفينقيين وغيرهم ٠ وكان قد شرع في بناء هيكل بعمدة فأتمهُ خلفهُ امنحتب الثاني ولا تزال آثارهُ الى اليوم وعليهِ كتابة تدل

على ان هذا الملك أسر سبعة من ملوك الامور بين في تاخيس « Takis » من بلاد الشام فأرسلهم في الذهبية الملوكية الى ثيبة (الاقصر) فعلق ستة منهم على سور المدينة وارسل السابع الى نبته عاصمة ايثيوبيا فعلقهُ هناك ليوقع الرعب في قلوب قبائل السود كافة . وهذا اول عهدنا بمدينة نبته

وغزا امنحتب الثالث (المعروف ايضاً بأمنوفيس الثالث تاسع ملوك هذه الدولة) ايثيوبيا في السنة الخامسة من ملكهِ فانتصر عليها انتصارًا عظيماً ودوَّن ذلك على صخرة بقرب جزيرة فيلي في جنوب الشلال الاول المعروفة الآن بجزيرة أنس الوجود. وعلى بعض الصخور بسمنه كتابة تدل على انهُ توغل بجيوشهِ في ايثيوبيا وأسر من أهلها ٧٤٠ نفساً من ذكورٍ واناث وأطفال وقطع ٣١٢ يدًا أحضرها معهُ بعد الغزوة. وبنى هيكلاً في عاصمة نبته وضع امام بابهِ صفين من الكباش الرابضة على هيئة أبي الهول . وفي صُلب آثار هيكل من بناء هذا الملك وخلفهِ الملك امنحتب الرابع

وغزا حورمحب آخر ملوك هذه الدولة الايثيوبيين فانتصر عليهم ورجع بالغنائم والاسرى ودوَّن خبر انتصارهِ على الغار الكبير في جبل السلسلة شمالي اسوان حيث ترى صورتهُ على شكل مقاتل حاملٍ على كتفهِ فاساً كأنهُ يلتمس من الاله «آمن رع» دوام حياتهِ وتأييد نصرتهِ على أهل الجنوب وكأنَّ « آمن رع » قد أجاب دعوتهُ فانتصر وعاد من غزوتهِ راكبًا هودجاً نفيساً ومعهُ بعض رجالهِ وامامهُ الخدم يمهدون لهُ الطريق وخلفهُ الفرسان يقودون الاسارى ويليهم العساكر حاملين التروس والموسيق العسكرية تصدح امامهم ثم يأتي بعدهم جم غفير من الكهنة وأرباب المناصب الملكية لاستقبال الملك قائلين في مدحه « لقد قَدُم المقدَّس الفاضل بعد ان قهر كبار الامم اجمع وقوسهُ تلمع في يدهِ فحبذا هذا الملك القادر الفخيم الذي جاء برؤساء ايثيوبيا الاذلاء الادنياء الاصل وجلب الغنائم بقوتهِ العالية كما امرهُ آمن رع فنعمت هذه النصرة الباهرة » وترى الاسارى يصيحون قائلين « يا ملك مصر وجّه نظرك الينا وأعنّا فأنت شمس الشعوب التسعة وقد اشتهر اسمك وبلغ اقصى ايثيوبيا فزع حربك وملأ قلوب الامم رعبك وأنت في مكانك مقيم فانك شمسنا »

وكان هذا الملك يأخذ الجزية من السود من فضة وذهب وأبنوس كما تشهد بذلك نقوش مقبرة الكرنك . هذا ما كان من العائلة الثامنة عشرة المصرية مع ايثيوبيا

وقد رأيت في بعض التواريخ القديمة ان الايثيوبيين غزوا مصر في ايام موسى النبي واكتسحوا البلاد الى ممفيس فاستشار المصريون آلهتهم في شأن الايثيوبيين فأوحت اليهم ان يجندوا جيشًا ويعقدوا لواءهُ لرجل من العبرانيين فاختاروا موسى قائدًا على جيشهم وأطلقوا لهُ الحرية ليفعل ما يشاء لردع الايثيوبيين فزحف موسى بالجيش على عاصمة ايثيوبيا ولم يتخذ طريق النيل كما انتظر الايثيوبيون بل سار بطريق الصحراء . قيل وكان في طريقهِ أرض تموج بالحيات فأخذ معهُ في اقفاص من البيبروس عددًا من طيور « أبي منجل » المصرية التي تصيد الحيات فلما وصل الى تلك الارض افلتها من الاقفاص فأهلكت جميع الحيات وفتحت الطريق للجيش فأطبق موسى على الايثيوبيين مفاجئًا لهم فانهزموا شر انهزام الى عاصمتهم الحصينة فحصرهم فيها وكانوا يخرجون اليهِ ويناجزونهُ فيردهم على أعقابهم خاسرين وكانت ابنة ملك ايثيوبيا في قصرها تشاهد القتال فأعجبتها بسالة موسى فوقع حبهُ في قلبها وعشقتهُ فأسرَّت بذلك الى بعض رجالها الذين كانت تثق بهم وقالت لهم اذهبوا الى موسى واخبروهُ بأني اسلمهُ المدينة بشرط انهُ يتخذني زوجةً لهُ فأجاب موسى الى طلبها ودخل المدينة وتزوج بها . قلت وهذه من القصص التقليدية الخرافية التي لا دليل على صحتها

ثم كانت الدولة المصرية التاسعة عشرة (سنة ١٣٨٠ : ١٢٣٠ ق . م) فكان لها من الشأن مع ايثيوبيا ما كان للعائلة التي قبلها واعظم فغزا ملوكها ايثيوبيا وتغلبوا عليها واقاموا الحكام لادارتها وبنوا فيها الهياكل التي لا تزال شاهدة بسطوتهم الى اليوم

وأشهر ملوك هذه الدولة الذي كان لهُ أعظم الشأن مع ايثيوبيا رعمسيس الثاني ثاني ملوكها (١٣٤٨ : ١٢٨١ ق . م) فانهُ غزا الايثيوبيين وانتصر عليهم وأقام في تلمس (كلابشة) هيكلاً صغيرًا نادر المثال حفرهُ في الصخر تذكارًا لنصرتهِ ولا يزال باقيًا الى اليوم ويعرف عند اهل كلابشة ببيت الولي وهو من أثمن الآثار القديمة في مصر وايثيوبيا

وعلى جدرانهِ نقوش صور وكتابات من أبدع صنع فترى فيها رعمسيس الثاني راكباً عربةً تجرها جياد الخيل وهي تنهب الارض نهباً وهو يطلق سهامهُ على جيوش العدو غير المنظمة فينهزمون امامهُ الى الغابات • ثم ترى رئيساً من الايثيوبيين مجروحاً يحملهُ رجالهُ الى بيتهِ وواحداً من اولادهِ يحثو التراب على رأسهِ حزناً عليهِ وآخر يركض ليخبر والدتهُ وهي تطبخ على نار موقدة في الارض • ثم ترى رعمسيس جالساً تحت مظلتهِ الملوكية والايثيوبيين الذين تغلب عليهم وفي مقدمتهم امير كوش (المسمى امينمابت) يقدمون لهُ الهدايا من خواتم واكياس الذهب وجلود الفهد وعروش فخيمة ومرواح وسن الفيل وبيض النعام وغيرها • ثم يتقدم وفد من الايثيوبيين ومعهم أسد وثيران وغزلان ثم نرى جماعة من الرؤساء المصريين يتبعهم أمير كوش وبعض الايثيوبيين آتين بهدايا من النبات والجلود والقرود وظريف المعاني (Camel Opard) وغيرها من الحيوانات

ولرعمسيس الثاني هيكل آخر منحوت في صخرٍ في الدر اقامهُ لعبادة الاله آمن رع ذكر فيهِ أيضاً انتصارهُ على الايثيوبيين • ولهُ هيكل من الحجر الرملي الصلب في السبوع وعليهِ صورتهُ يقدم البخور للاله آمن وهو يقول لهُ « لك اعطي كل القوة واعطيك العالم بسلام » وفي اسفل جدران بعض الغرف اسماء اولاد رعمسيس وعددهم ١٧٨ نفساً • ومن اعمالهِ انهُ جدد استخراج الذهب والزمرد من معدنيهما في وادي العلاقي المعروف قديماً باسم اكيتا Akita الذي ينتهي عند النيل بكوبان تجاه دكا • وهناك آثار قلعة يظن انها من عهد رعمسيس الثاني وان القدماء كانوا يذهبون منها الى ذلك الوادي

ومن بناء رعمسيس الثاني هيكل « ابو سمبل » على ١٧٠ ميلاً من الشلال الاول وهو هيكل عظيم منحوت في الصخر في منحدر اكمة مرتفعة فوق النيل اقامهُ تذكاراً لانتصارهِ على الحثيين في الشمال الشرقي من سورية وهو اعظم الهياكل في ايثيوبيا الشمالية واجملها بل في صنعهِ ونحتهِ من العظمة مع البساطة ما لا يوجد في غيرهِ من هياكل وادي النيل كلها • وفي واجهتهِ ثلاثة تماثيل هائلة لرعمسيس الثاني

تمثلهُ جالساً ويداهُ على ركبتيهِ والتاج على رأسهِ وعلوُّ الواحد منها ٦٦ قدماً وطول قدمهِ ١٥ قدماً وطول اذنهِ ٣ اقدام و ٥ قراريط وكلها منحوتة في الصخر . وفي داخل الهيكل أعمدة من الصخر نفسهِ علو الواحد منها ١٧ قدماً . وفي صدرهِ مذبح فيهِ تمثال هرمخيس « Son God » ورعمسيس الثاني امامهُ يقدم لهُ الطاعة وهناك صورة آمن رع وثوث وغيرهما من الالهة وأسماء اولاد رعمسيس . وعلى جدران الغرف كتابات بالهيروغليفة تبين تاريخ انتصارهِ على الحثيين والكوشيين أي الاثيوبيين وهناك صور الامم الافريقية والآسية التي تغلب عليها وأمير كوش واقف امامهُ . ولرعمسيس الثاني هيكل في نبتة باقية اثاره الى الآن وهو اقدم هياكل تلك المدينة

هذا وفي جزيرة ساي خرائب من عهد هذه الدولة والدولة التي تقدمتها

ودامت سلطة مصر على اثيوبيا الى عهد الدولة العشرين (١٢٣٠ : ١١١٠ ق . م) فقد وجد ماريوت سنة ١٨٧٦ حجرًا في شونة الزيب بالعرابة المدفونة بمصر مكتوبًا عليهِ ما نصهُ : « ان الملك رعمسيس الثاني عشر (وهو آخر ملوك هذه الدولة) اصدر أمره الى « بيانخاس » حاكم الاثيوبيا ورئيس الامم الاجنبية التابعة للدولة المصرية يقول لهُ فيهِ « انفذت اليك مستشاري الرئيس ياني بكتاب ضمّنتهُ اوامري فعند وصولهِ اليك ساعدهُ على انجازها بالحسنى لانهُ هو المكلف باتمامها وعليك ان تلاحظ توابيت « المعبودة » وتضعها في سفينة وتأتي بهامعهُ الى المكان الذي أُعدَّ لها واحضر معك الحجارة النفيسة للصناع وأحذر من التأخير في انجاز هذه الاوامر والاَّ خلعتك وعاملتك بحسب ما يصل اليَّ من اخبارك ».

و بعد هذا العهد اشتغلت مصر عن اثيوبيا بالفتن الداخلية والحروب مع اسيا . وحدث أن احد ملوك الدولة الحادية والعشرين (١١١٠ : ٩٨٠ ق . م) المسمى سمنتوميامون نفى بعض الكهنة المصريين الى اثيوبيا فأدخلوا عبادة الاله « آمن » الى نبته وقووا الاثيوبيين فخرجوا عن طاعة مصر واستقلوا تحت حكم كاهن منهم . ومن ذلك الوقت أخذ نجم اثيوبيا في الظهور والارتفاع حتى علا على نجم مصر . في آخر ايام الدولة الثانية والعشرين (٩٨٠ : ٨١٠ ق . م) هاجم الاثيوبيون مصر

وفي آخر ايام الدولة الثالثة والعشرين (٨١٠ : ٧٢١ ق ٠ م) استولوا على صعيدها

وكانت مصر في هذه الاثناء قد انقسمت الى عشرين ولاية بعضها مستقل عن بعض وعلى كل ولاية أمير فتغلب الملك تفنخت أول ملوك العائلة الرابعة والعشرين (٧٢١ : ٧١٥ ق ٠ م) عليها كلها وجعلها مملكة واحدة وزحف على الوجه القبلي يحاول استرجاعهُ من الايثيوبيين حتى وصل الى اهناس الجنوبية

﴿ الملك بعنخى ﴾ وكان على الايثيوبيين في ذلك العهد ملك قادر يسمى بعنخى مقيمٌ في نبته عاصمة ايثيوبيا فجرد عليهِ جيشاً جراراً وقاتلهُ في عدة وقائع حتى انتصر عليهِ ونقش خبر نصرتهِ هذه على حجر وجد في نبته ونقل منها الى متحف الجيزة بمصر وهذا ملخص ترجمتهِ عن العقد الفريد عن ده روجه ببعض التصرُّف :

«في غرة توت من السنة الحادية والعشرين من حكم ملك الوجه القبلي والبحري « بعنخى ميامون » خلد ذكرهُ صدر امرهُ بما نصهُ : اسمعوا ما فعلتهُ زيادة عن اجدادي انا الملك الخارج من سلالة مقدسة النائب عن المعبود « توم » المميز بشارة الملك منذ الصغر انا المقدس الطيب حبيب المعبودات ابن الشمس « بعنخى ميامون » بلغني ان الامير تفنخت استولى على مدينة منف وغيرها من المدن المصرية الشمالية وسار نحو الجنوب بجيش جرار فاطاعتهُ الامراء واعيان البلاد وصاروا تحت رجليهِ اذلة كالكلاب حتى وصل الى اهناس الجنوبية فحصرها حصاراً شديداً ومنع اهلها من الدخول والخروج ودام على قتالها حتى فتحها ٠ وكان الامراء يبعثون اليَّ بالرسل يسألون عن سبب قعودي عن تفنخت وعدم المدافعة عن الوجه القبلي وقالوا ان النمروذ رئيس الاشمونيين هدم حصون نفروس ودمرها مخافة ان يأخذها تفنخت والتجأ الى مدينة اخرى فاقتفى تفنخت اثرهُ فاضطر الى الخروج عن حزبي والانضمام اليهِ فغمرهُ بانعامهِ واعطاهُ اهناس الجنوبية ٠ فعند ذلك ارسلت الى قوادي الذين في ثيبة وغيرها من بلاد مصر ان يستعدوا لقتالهِ ويسلبوا مواشيهُ وسفنهُ التي في النيل ويمنعوا العمال من الخروج الى الحقول ويحاصروا مدينة ارمنت ففعلوا وامددتهم بالجيوش وقلت لهم لا تهاجموهُ ليلاً هجوم الخادعين بل هاجموهُ متى رأيتم انهُ اعدَّ

جيوشهُ وخيولهُ وسار لقتالكم واذا قيل لكم انهُ يجمع مشاتهُ وفرسانهُ في مدينة اخرى ويستعد للهجوم عليكم فاثبتوا في مكانكم الى ان يأتيكم فحاربوهُ مستبسلين واعلموا ان المعبود «آمن» هو الذي ارسلنا اليهم ولا بدّ ان ينصرنا عليهم. واذا وصلتم الى ثيبة فانزلوا في النيل وطهروا انفسكم بمائهِ والبسوا ملابس الاعياد وضعوا عنكم القسي والسهام ولا يتعرّض احد منكم «لآمن» صاحب الحَول والطَّول اذ بدونهِ لا يكون لفارسكم قوّة وهو يجبر العظم الكسير ويفني العدد الكثير وينصر الواحد على الالف فاغتسلوا بماء معابدهِ واسجدوا لهُ وقولوا ثبت افئدتنا على الحق لنحارب في ظل سيفك لان المقاتلين الذين ترسلهم يبددون الالوف. فعند ذلك خروا قائلين اسمك سيفنا وعلمك مرشد لجيوشنا وخبزك في اجسامنا ومشروباتك تطفئ ظمأنا وشجاعتك سلاحنا والنصر مقرون باسمك وما يثبت جيش رئيسهُ معتدٍ باغٍ فمن يشابهك ايها الملك المنصور الفعال الآمر بالحرب. ثم انحدروا في النيل الى ان وصلوا ثيبة ففعلوا ما امرهم بهِ ملكهم. واستأنفوا السير في النيل فقابلتهم سفن حربية مشحونة بالملاحين والجنود والضباط الماهرين المدرَّبين وقد جاءت من الوجه البحري لمحاربتهم فانتشب القتال بين الفريقين وكان النصر لجنود الملك بعنخي فقتلوا من الاعداء واسروا وارسلوا اسراهم احياء الى بعنخي . ثم زحفوا على مدينة اهناس الجنوبية فاجتمع اعيان الاقسام الغربية والشرقية والبلاد الوسطى وحكامها واتفقوا على محاربتهم فاطبق عليهم رجال بعنخي واوقعوا بهم واخذوا سفنهم واكرهوا من سلم منهم على الفرار فعبروا النيل الى الغرب فأقاموا في محل يدعى «بايك». وفي صباح اليوم الثاني اجتاز رجال بعنخي النهر مقتفين اثرهم فادركوهم واختلطوا بهم وقتلوا كثيرًا من رجالهم وخيولهم ووقع الرعب فيمن بقي ففروا الى الوجه البحري منهزمين شر هزيمة. ثم زحف جيش بعنخي على ارمنت فلما بلغ النمروذ خبرهم جمع رجاله وخيوله وسبقهم اليها فحصروه فيها من الجهات الاربع ومنعوا اهلها من الدخول والخروج وارسلوا كتابًا الى الملك بعنخي يعلموه بما كان فلما قرأ كتابهم اغتاظ وتلوّن كالنمر وقال لئن ابقى جنودي على بقية جيوش الوجه البحري او مكّنوا

احدًا منهم من الفرار ولم يفنوهم على بكرة ابيهم فبحياتي وبحق المعبود « رع » وبحق ابي « آمن » لاقاتلنَّ بنفسي واهدمنَّ جميع حصونهم وأجرمنَّهم القتال ولكن يلزمني قبل ذلك ان احتفل بموسم رأس السنة في جبل البرقل واقدم القربان لابي « آمن » يوم تجلّيه في ذلك العيد ثم اتوجه الى ثيبة لاشاهده هناك في موسمهِ العظيم وبعد ذلك اتفرغ للوجه البحري فاذيقهُ طعم سطوتي . ولما بلغ جنوده الذين في مصر انهُ لم يكتفِ بما فعلوا تقدموا الى مدينة « واب » وافتتحوها وارسلوا يخبرونهُ فلم يسكن غضبهُ . ثم هاجموا « تهني » وكانت مدينة حصينة غاصة برجال الوجه البحري فاقاموا المتاريس حولها وهدموا اسوارها واوقعوا بأهلها وكان في جملة القتلى ابن تفنخت امير المشواشيين فارسلوا يخبرون ملكهم بذلك فلم يسكن غضبهُ . فهجموا على « حينو » وفتحوها عنوةً وارسلوا يبشرونهُ بذلك فلم يسكن غضبهُ

ولما كان اليوم التاسع من شهر توت وصل بعنخى بجيوشهِ الى ثيبة واحتفل فيها بموسم « آمن » السنوي ثم توجه توًّا الى ارمنت التي كانت لا تزال تحت الحصار وخرج من سفينتهِ فوضع النير على خيولهِ وركب عرباتهِ فانتشر الفزع في قلوب الناس الى اقصى بلاد آسيا ! ثم برز كالاسد وهجم على الاعداء وقال لهم اذا أقمتم على القتال اخرت اوامري بالعفو عنكم فيما بعد واذقتكم مرارة سطوتي فلم يسمعوا لهُ فوضع معسكره في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة وشدّد عليها الحصار واقام متاريس من تراب لتقيهُ مقذوفات اسوارها ونصب سلالم للارتقاء اليها وصوَّب رجالهُ عليها السهام ورموها بحجارة المجانق ووالى الهجوم عليها ثلاثة ايام حتى افسد هواؤها وحرم اهلها استنشاق الهواء النقي فسلمت فأرسل النمروذ رسلهُ حاملين الذهب والحجارة النفيسة والانسجة الفاخرة وقائلين لقد ظهر الملك وتاج الثعبان على رأسهِ وغيظهُ مكتوم ولم نلبث حتى اطعنا تاجهُ ثم ارسل النمروذ امرأتهُ لترجو حرم الملك بعنخى وجواريهُ وبناتهِ واخواتهِ في العفو عنهم فسجدت امام حرم الملك في القصر قائلة ايتها النساء الكريمات حرم الملك وبناتهُ واخواتهُ اغثنني وسكّنَّ غضب الملك صاحب القصر فما اشدّ سطوتهُ واعظم عدالتهُ ... ولما مثل النمروذ بين يدي الملك

بعنخي قال لهُ الملك لقد سددت طريق الحيوة عن نفسك فقال النمروذ لو صعدتُ الى السماء كالسهم لادركتني كيف لا وقد اخضعتَ بلاد الجنوب واطاعتك بلاد الشمال فهل لنا ان نستظل بظلك فقد افنى بأسك جميع رجالنا فلا أبٌ يرى مع ابنهِ وامتلأت بلادنا بالاطفال ثم خرَّ ساجدًا امام جلالة الملك وقال انا احد عبيدك الذي يدفعون الجزية لخزينتك فاحسب ما تجمع من عبيدك كلهم وخذ مني جزية تزيد على مجموع جزيتهم ثم شرع في تقديم جزيتهِ فكانت شيئًا وافرًا من الفضة والذهب واللازورد والزبرجد والحديد والاحجار النفيسة حتى ملأ خزينة الملك وجاء بحصان في يدهِ اليمنى وآلة موسيقية تشبه « الربابة » مصوغة من الذهب واللازورد في يدهِ اليسرى وقدمهما للملك • فخرج الملك اذ ذاك من قصرهِ وتوجه الى معبد «هرمس» اله ارمنت فقابلهُ عساكرها بالفرح وقال لهُ الكهنة ما اعظم الملك بعنخي سلالة الشمس لقد جئت الى مدينتك يا حامي حمى ارمنت فاعمل لنا عيدًا لقدومك • ثم جاء المدينة ودخل قصر النمروذ وطاف في غرفهِ وشاهد جميع خزائنهِ وامر باحضار زوجاتهِ وبناتهِ فأتينَ خاضعات لجلالتهِ فلم يلتفت اليهنَّ • وبعد ذلك تفقد اصطبلات القصر فوجد الخيول بلا علف فأقسم بحياتهِ وبالاله «رع» وقال ان اجاعة خيولي هي اقبح ذنب جنيتهُ ايها النمروذ فقال النمروذ لا تغير قلبك بالغضب ايها الملك فاني سأخبر سيد الخدم بغضبك واعدُّ العلف لخيولك • هذا وقد اهدى الملك بعنخي اموال ارمنت كلها الى خزينة آمن رع ساكن ثيبة

وجاءهُ ملك اهناس بهدايا من ذهب وفضة وحجارة كريمة وجياد من خيوله وسجد امامهُ وقال السلام عليك ايها الملك الحاكم المنصور الثور الذي يبطش بالثيران لقد كنتُ في اعمق هاوية محاطًا بالظلمة فأخرجتني من الهاوية وقشعتَ عني الظلام انا عبدك ولك جميع ما أملك وها هي جزية اهل اهناس التي يقدمونها لملكهم فقبلها منهُ

ثم سار بجنودهِ شمالاً وكان كلما مرَّ بمدينة وقد اقفلت دونهُ ابوابها يدعوها للتسليم فتسلم لهُ فيدخلها ويأخذ منها الجزية ولا يقتل من اهلها احدًا حتى اشرف على مدينة منف (تجاه القاهرة) فأرسل الى اهلها يقول لا تقفلوا ابوابكم دوني ولا تحاربوني

فاني سأدخل مدينتكم واخرج ولا اسيء الى احد منكم بل اقدم القرابين الى « بتاح » ومعبودات منف كلها واقيم في معبد « شيتي » الصلوة الى « سوكاري » فاعتبروا بأهل الوجه القبلي فاني لم اعاقب منهم الاّ من طغى ولم اقتل الاّ من اغضب المعبود فلم يسمعوا لقولهِ واغلقوا دونهُ ابوابهم • وجاء تفنخت من « صا الحجر » ليلاً الى منف وقال لقواده وجنوده البرية والبحرية وكانوا ٨٠٠،٠٠٠ رجل ان منف غاصّة بأعظم جنود الوجه البحري واشوانها ملأى بالقمح والشعير وانواع الحبوب وفيها جميع العُدَد وسورها متين وطابيتها متسعة حصينة مبنية حسب قواعد الدفاع والنهر محيط بشرقي المدينة فلا يجد العدو مكاناً يهاجمكم منهُ وانتم تعلمون ان مراعينا غاصة بالمواشي وخزانتي ملآنة من الفضة والذهب والنحاس والملبوسات والعطور والعسل فسأذهب واعطي جميع ذلك لامراء الوجه البحري فاثبتوا في حاميتكم ودافعوا عن انفسكم الى ان اعود اليكم ولما أتمّ كلامهُ ركب حصانهُ لانهُ اسرع من عربتهِ وقفل راجعاً الى الوجه البحري خوفاً من الملك بعنخي • وفي صباح اليوم الثاني اقترب الملك بعنخي من منف بقصد كشفها فوجد الماء مرتفعاً الى اسوارها وسفنها راسية على شاطئها وتأملها فرآها حصينة منيعة لها استحكامٌ قوي وسور مرتفع حديث البناء ولم يجد فيها موضعاً يهاجمها منهُ فاستشار رجاله في شأنها فقالوا نجمع كثباناً من التراب مساوية لسورها وننصب عليها سلالم ونقيم المتاريس من حولها فلما سمع الملك بعنخي هذا الرأي تلوَّن كالنمر وقال وحياتي وحياة المعبود « رع » وابي « آمن » لاهاجمنَّ هذه المدينة في الحال واخذنّها كريح عاصف ثم أمر قواده فادنوا السفن والارماث ومراكب النقل من الشاطئ فلم يشعر بهم احد وامر رجالهُ فاحدقوا بسورها ودخلوها من جهة النهر وكان قد اوصاهم قائلاً اذا تسوَّر احدكم السور فلا يقف في مكانهِ واذا سلم لكم احد الرؤساء فلا تقتلوه لان هذا مذموم فعملوا بوصيتهِ و بذلك دخل المدينة وقتل من اهلها خلقاً كثيرًا واحصى اسراها بين يديهِ • وفي ثاني يوم الواقعة ارسل جماعة من رجالهِ للمحافظة على المعابد ثم توجه بنفسه الى هيكل معبودات منف وقدم لها قرباناً من المشروبات وطهر المدينة بالنطرون والبخور وارجع

الكهنة الى اماكنهم ثم توجه الى معبد « بتاح » وتطهر في بابه ولما دخلهُ قدَّم لابيه « بتاح رسبتيف » قرباناً عظيماً من ثيران وعجول واوزّ وغير ذلك من الاشياء النفيسة . ثم دخل قصرها الملوكي فاتاه بعض رؤوساء الوجه البحري بجزيتهم راجين ان يأذن لهم في مشاهدة انوار وجهه فقبل منهم الجزية . وأهدى جميع خزائن منف واشوانها الى هياكل « آمن » و « بتاح » وباقي معبودات « حكا بتاح » . وفي اليوم التالي عبر النيل الى الشرق وتقرب الى « توم » ومعبودات مدينة « أماح » بقربان من ثيران وعجول واوزّ راجياً ان يمنحوه السعادة . ثم توجه نحو المطرية فمرّ بمدينة « مرتى » وقدم قرباناً لمعبوداتها وتطهر في المنبع الرطب . وغسل وجهه بماء « نو » حيثما تغسل الشمس وجهها . ثم قصد « شيوكامان » وتقرب للشمس وقت شروقها بقربان من ثيران بيض ولبن وعطور وغير ذلك من الاخشاب ذات الرائحة الذكية . ثم دخل معبد الشمس (في المطرية) وصلى مرتين وطلب له كبير الكهنة من المعبود ان يهزم اعداءه وبعد ذلك صلى الملك صلاة الباب وهي صلاة خصوصية عندهم وكسا الضريح وتبخر بالبخور وتقرب للمعبود بالمشروب وازهار « الجبنْبن » وهي من ازهار المعبد العطرية . ثم صعد في السلم الى الطاق الكبير فرأى الشمس في ضريحها وعظَّم السفينة المقدسة المعلقة في مقام « رع » و « توم » ثم أقفل الابواب وطينها بالابليز وختمها بالختم الملوكي وقال للكهنة لا يُسمح لاحد ان يفك ختمي ويدخل هذا المحل فخرّ الكهنة امامهُ ساجدين وقالوا سيبقى هذا الختم محفوظاً مباركاً ولا يصيبهُ اقل ضرر ايها الملك القادر المعظم محب المطرية . ثم دخل معبد « توم » وصلى فيهِ

وفي اليوم التالي عاد الى الشاطئ الذي فيهِ سفنهُ وسار الى مدن كهاني واتريب وكامور وغيرها من مدن الوجه البحري فقدم القرابين لالهتها واتاهُ ملوكها ورؤساؤها واعيانها الممتازون بوضع الريش والمظلات فوق رؤوسهم فسلموا لهُ وقدموا الجزية من الذهب والفضة والحجارة الكريمة والخيول والعطور والنفائس

فلما بلغت هذه الاخبار مسامع الملك تفنخت امير المشواشيين ارسل الى بعنخى رسولاً يقول لهُ : اكظم غيظك ايها الملك الظافر فاني وَجل من رؤيتك ولا طاقة

لي على حربك وقد امتلأ قلبي رعباً منك لانك كمعبود الجنوب « نبتا » وكمعبود الشمال « مونت » وأنت الموصوف بالثور المنصور ان اردت شيئاً لا يعارضك فيهِ احد وقد بلغتُ الآن جزائر البحر وأقمتُ في حمى المعبودة « نيت » فرارًا من سطوتك وخشية من تعنيفك الموجع وتوبيخك المؤلم فانا الخادم وانت السيد أفلا يعفو السيد عن خادمهِ . خذ لخزائنك كل ما املكهُ من ذهب وحجارة نفيسة وخذ اجود ما عنـدي من الخيول والسروج وابعث برسول من قبلك ليزيل الرعب من قلبي فاذهب معهُ الى المعبود واحلف يمين الطاعة امامهُ . فأرسل الملك اليهِ الكاهن الاعظم ورئيس الجيوش فأعطاهما تفنخت فضة وذهباً وملابس وحجارة نفيسة متنوعة ثم ذهب معهما الى المعبود وتاب اليهِ وحلف يميناً مقدسة بانهُ لا يخالف للملك امرًا ولا يتعدَّى لهُ قولاً ولا يسيء الى احد من الرؤساء بغير رضاه فقبل الملك توبتهُ واخذ الجزية منهُ وعفى عنهُ

ولما كان صباح اليوم الثاني اتى ملكا الوجه القبلي وملكا الوجه البحري ليقدموا تحيتهم للملك بعنخى ويتشرفوا بالمثول لديهِ وكانت فرائصهم ترتعد كفرائص النساء. فلم يأذن لهم في الدخول عليهِ لانهم كانوا مدنسين بالسمك المحرم اكلهُ في قصور الملوك ولكنهُ اذن للنمروذ في الدخول عليهِ لانهُ كان طاهرًا ولم يأكل السمك المنهي عنهُ ولبث الباقون واقفين خارجاً على ارجلهم

وبعد ذلك اراد الملك بعنخى الرجوع الى بلاده فشحن سفنهُ بما اهدى اليهِ من الذهب والنحاس والملابس والخيرات الواردة من الوجه البحري وبلاد الشام والعرب وسار في النيل وقلبهُ مفعم سرورًا واهل مملكتهِ في الشرق والغرب يستقبلونهُ بمزيد التجلة والتعظيم وكلما حلّ ببلاد رفع اهلها هتاف الفرح قائلين ايها الملك المنصور بعنخى لقد اتيت وحكمت الوجه البحري وصيرت رجالهُ اذلةً كالنساء وحل الفرح في قلب امك التي ولدتك فصرت شهماً واعطاك « آمن » جوهرهُ فبشرى لكِ ايتها البقرة التي ولدتِ ثورًا كان لهُ على ممر الادهار ذكر مخلـد وملك مؤبد الا وهو الملك بعنخى الملك المحب لقسم ثيبة اه «

ولما تمت للملك بعنخى الغلبة على مصر ألحقها ببلاده وابقى لامرائها الامتياز الذي كان لهم من قبل وجعل تفنخت ملكاً بالنيابة عنهُ فأقام في تانيس (صا الحجر) مركز حكومته القديم وعاد بعنخى الى نبته فجعلها تخت الملك لمصر وايثيوبيا

﴿ الملك كاشتا ﴾ ولكن لم يلبث ان مات وخلفهُ الملك كاشتا أو كاشتا ولم يكن من عائلة ملوكية بل كان متزوجاً بابنة كاهن مصري فنقض عليه تفنخت المذكور واضطرهُ الى اخراج جنوده من مصر ثم توفي تفنخت فخلفهُ ابنهُ باكوريس وكان قوي الادراك فقيهاً عادلاً فاتخذ خطة والده وشرع في نزع مصر الوسطى والوجه البحري من الامراء فنجح في ذلك وجعل مصر كلها تحت سلطانهِ

﴿ الملك سباقون ﴾ وفي اثناء ذلك مات كاشتا ملك الايثيوبيين عن ولدين فخلفهُ احدهما المسمى سباقون وتوجه الى مصر لقتال باكوريس واستعان عليهِ بامرائها الذين كانوا يكرهونهُ لنزعهِ الملك منهم فوقع باكوريس في قبضتهِ بمدينة تانيس فألقاهُ حيًّا في النار واستقل بأيثيوبيا ومصر وكان رأس دولة عرفت في تاريخ مصر بالدولة الخامسة والعشرين الايثيوبية (سنة ٧١٥ : ٦٦٤ ق ٠ م) ٠ وكان سباقون رجلاً عادلاً فخورًا محبًّا للتقدم والاصلاح فلما تولى سرير الملك تلقب بألقاب الفراعنة وشرع في تنظيم مصر وضبط ادارتها فأبقى كل رئيس على اقليمهِ مع حفظ نفوذهِ على الرؤساء بمراقبة أمراء ايثيوبيين وجعل شقيقتهُ آمن ريتس ملكةً على الوجه القبلي في ثيبة ٠ ولهذه الملكة في متحف الجيزة تمثال من حجر الغرانيت الاصفر بقد أهيف وقوام رشيق ووجه صبوح جميل يزينهُ التاج على رأسها والاساور العريضة في معصميها والحجول الكبيرة في رسغيها على مثال أساور السودانيات وحجولهنَّ في هذه الايام والتمثال قائم على قاعدة من الغرانيت الاسود منقوش عليها اسمها واسم اخيها سباقون وابيها كاشتا

وشاد سباقون في مصر الجسور واحتفر الترع حرصاً على البلاد من ان يمسها غرق أو شرق ورمم كثيرًا من المعابد واستبدل عقوبة القتل بالاشغال الشاقة واشتهر بحسن التدبير وجودة السياسة فتمتعت مصر في اوَّل ايامهِ بالراحة ولكن لم تدم لها

لان مملكة اشور كانت في ذلك العهد في معظم سطوتها وقدكدرت صفاء الفينيقيين والاسرائيليين والفلسطينيين فأجمعوا على ان يستنصروا ملك مصر لينقذهم من جورها فأرسل « هوشع » ملك اسرائيل هدايا فاخرة الى سباقون (وفي التوراة سوا) وسأله التحالف معهم على شلمنصر ملك اشور فأجابهم سباقون الى ذلك آملاً انهُ بتعاهده معهم يتذرَّع الى اخذ ممالكهم واضافتها الى ملكهِ كما اضافها اسلافهُ الفراعنة فقبل الهدايا واعتبرها جزية كما اعتبر مساعدتهُ لهم من قبيل مساعدة الرئيس للمرؤوس وقد بالغ في هذا الاعتبار حتى انهُ نقش على حائط هيكل الكرنك (بالاقصر) أنهُ اخذ الجزية من بلاد الشام كما اخذها مشاهير ملوك مصر الذين تقدموهُ • فلما شاع خبر هذه المعاهدة وبلغ مسامع شلمنصر سار الى « هوشع » ملك اسرائيل فأسرهُ وأخضع قومهُ ثم سار الى مدينة السامرة وحصرها فمات قبل افتتاحها وكان آخر ابناء العائلة الملوكية الاشورية فخلفهُ رئيس قوادهِ اسرحدون فسار على خطتهِ وفتح السامرة ثم تقدم الى فلسطين وقتل الملك «يهويد» أحد المتحالفين مع سباقون فخاف سباقون على بلادهِ وذهب بجنودهِ الى الشام فانضم الى حانون ملك غزه أحد المتحالفين وسار الملكان معاً لقتال الاشوريين فالتقيا بهم في مدينة رافيا وانتشبت الحرب بين الفريقين وانجلت عن انهزام الجيوش المصرية والشامية ووقع حانون أسيرًا في يد سرجون ونجا سباقون فضلَّ في الصحراء الى أن دلّهُ راعٍ من فلسطين على طريق مصر • وبعد رجوعهِ ثار عليهِ سكان الوجه البحري تحت رئاسة اسطيفانيس أحد اقرباء الملك باكوريس المتقدم الذكر فانهزم سباقون الى الصعيد

﴿ الملك سبيخون ﴾ وبعد قليل مات سباقون وترك حكم الايثيوبيين وصعيد مصر لابنهِ سبيخون وبقي الوجه البحري تتنازعهُ فئتان من المصريين فاغتنم سبيخون فرصة الانشقاق وحارب الوجه البحري واسترجعهُ الى ايثيوبيا

﴿ الملك طهراق ﴾ ولكن ما ثبتت قدمهُ حتى نقض عليهِ طهراق احد الامراء الايثيوبيين فقتلهُ وتولى مكانهُ وكان اسطيفانيس لا يزال محاصرًا في مدينة منف فزحف عليهِ ونزع المدينة منهُ وطهر مصر من العصاة ثم دعا أمهُ من ايثيوبيا

ولقبها بحاكمة الوجه البحري والقبلي وسيدة الامم وكتب على جدران هيكل جبل البرقل اسم مصر بين أسماء البلاد التي خضعت لصولتهِ وبقي متنعماً في مصر الى ان جاءهُ « اشور اخي الدين » ملك اشور فاتحاً فعجز عن ردّهِ فتقهقر مع جيشهِ الى مدينة نبته واستولى ملك اشور على منف وثيبة ونهب أمتعة هيا كلهما وارسلها الى بلادهِ فوضعها في المعابد تذكاراً لنصرتهِ • ثم اشتغل في تنظيم ادارة مصر فأرجع الحكم لأمرائها العشرين واقام كل امير على اقليمهِ وضرب عليهم الجزية وعاد الى نينوى تاركاً بعض جنودهِ حامية في قلاع مصر خوفاً من غائلة الايثيوبيين وقدمرَّ في طريقهِ بنهر الكلب عند مدينة بيروت فنقش على حجر هناك بقرب الحجر الذي نصبهُ رعمسيس الثاني نقوشاً كبيرة بين فيها فتكهُ بالمصريين والايثيوبيين وادَّعى السيادة عليهم

وفي سنة ٦٦٩ ق • م مرض اشور اخي الدين فاغتنم طهراق الفرصة وزحف على الاشوريين في منف فهزمهم منها واستولى عليها بعد محاصرتها حصاراً شديداً فلما علم اشور اخي الدين بذلك ورأى عجزهُ عن الدفاع تنازل عن الملك لابنهِ الاكبر اشور بانبال فتقدم بجنوده الى مصر فنكل بالايثيوبيين واخرجهم منها وأرجع الحكم الى امراء مصر العشرين مرّة ثانية وعاد الى بلادهِ ظانّاً ان الايثيوبيين لا يعودون الى مصر فما وصل الى نينوى حتى عاد طهراق فاسترجع مدينة ثيبة وأبطل عبادة العجل «ابيس» منها ثم عاد الى بلادهِ لرؤيا رآها في المنام وكانت مدة حكمهِ على مصر عشرين سنة وعلى ايثيوبيا خمسين سنة • وفي المتحف المصري في الجيزة رأس تمثال من الحجر الغرانيت الاسود قالوا انهُ رأس طهراق لمشابهتهِ لصورهِ المرسومة على الآثار وهو مستدير الوجه واسع العينين ممتلئ الخدين بارز الشفتين مع انقلاب خفيف فيهما وفطس قليل في الانف وبالجملة فان ملامحهُ تحاكي ملامح النوبة الحاليين

﴿ الملك اورد أمن ﴾ وخلفهُ على عرش ايثيوبيا صهرهُ أورد أمن وكانت مصر بعد ذهاب طهراق منها قد عادت للاشوريين واعادوا الحكم الى أمرائها العشرين مرة ثالثة وبقيت تابعة لمملكة اشور الى ان رأى اشور بانبال ان في حكمها عناء ومشقة بالنظر الى بعدها عن بلادهِ فأغضى عنها وبقيت تحت حكم امرائها العشرين

﴿ الملك نوات ميامون ﴾ وفي اثناء ذلك توفي أورد أمن ملك ايثيوبيا وخلفهُ « نوات ميامون » فرأى في الحلم انهُ سيملك الوجه القبلي والبحري فاستبشر بهذه الرؤيا وغزا الوجه القبلي وكان فيهِ طائفة من الايثيوبيين قد أسسوا حزبًا قويًا في ثيبة وضواحيها وأقاموا فيها زمانًا حائزين لرتبة الكهانة في معبد آمن رع فلما رأوا « نوات ميامون » وهو من جنسهم طامعًا بمصر ساعدوهُ على عزمهِ فاستولى على الوجه القبلي بلا قتال ثم اخذ في فتح الوجه البحري فعارضهُ امراؤهُ فردهم القهقرى فتحصنوا في قلاعهم ولم يبرزوا لقتالهِ فملَّ من الانتظار وعاد الى منف متحيرًا في امرهِ ولكن اجتمع الامراء برئاسة واحد منهم يسمى بكرور للنظر فيما يفعلونهُ فأشار عليهم بالطاعة لنوات ميامون فوافقوهُ واتوا الى منف مقدمين لهُ الطاعة فانشرح صدرهُ لاتمام حلمهِ في السيادة على مصر ونقش هذه القصة في حجر وجدهُ ماريوت باشا في اطلال مدينة نبته بجبل البرقل سنة ١٨٦٣م وهو محفوظ الآن بمتحف الجيزة وهذا ما جاء فيهِ ملخصًا عن العقد الفريد ببعض التصرف :

« على الملك العظيم المنصور والحكيم القاهر نوات ميامون ملك الوجه القبلي والبحري بيكارع سلالة الشمس محبوب « آمن » ساكن نبته ... سلام

في احدى الليالي رأى الملك في الحلم ثعبانين الواحد عن يمينهِ والآخر عن يسارهِ فلما استيقظ ولم يرهما دعى المفسرين وسألهم تفسير هذا الحلم فقالوا لهُ انك ستملك الوجهين القبلي والبحري من ارض مصر ويضيء تاجاهما على رأسك ويكون « آمن » مساعدًا لك على الامر . في تلك السنة ارتقى الى عرش الملك وخرج من مكانهِ كالباشق اذا انطلق من أجمتهِ فصحبهُ خلق كثير وتوجه الى نبته عاصمة ايثيوبيا فتمتع بمشاهدة معبودها « آمن » في الجبل المقدس واهدى اليهِ الازهار ثم اخرجهُ من معبدهِ وقدَّم لهُ القرابين وهي ٣٦ ثورًا و٤٠ كاسًا من المشروبات ومعها ١٠٠ حمار . ثم سار نحو مصر فلما اقترب من جزيرة اسوان عبر النيل اليها ودخل هيكل « خنوم رع » معبود الشلالات واخرج تمثالهُ من مكانهِ وقدم لهُ القرابين ثم توجَّه الى ثيبة (الاقصر) ودخل هيكل معبودها « آمن رع » فرحَّب بهِ الكهنة والخدم وكالوهُ

بالازهار فأخرج تمثال « آمن رع » من مقدسهِ وعمل لهُ موسماً كبيرًا في ارجاء المدينة • ثم ركب النيل وسار نحو الوجه البحري فكان السكان عن الشاطئين الشرقي والغربي يرحبون بهِ ويهتفون سر مصحوبًا بالسلامة والامن ورمم الهياكل التي دمرت وانصب تماثيل المعبودات وثبت الكهنة في وظائفهم واقم شعائر الدين • وبقي سائرًا بلا معارض حتى وصل الى منف فخرج اليهِ اهلها محاربين فحاربهم حربًا شديدًا وقتل منهم خلقاً كثيرًا ودخل منف عنوة فزار معبد « بتاح رستيف » وتقرب الى « بتاح سوكر » والمعبودة « سوخت » آلهة المحبة وانشرح فؤادهِ من مساعدة المعبودات لهُ اكراماً لمعبودهِ « آمن » ساكن نبته • وامر بتوسيع معبد « بتاح » وانشأ فيهِ ايوانًا جديدًا ابناهُ بالحجر وكساهُ بخشب السنط وطلاهُ بالذهب وملأهُ بالبخور العربي وجعل لهُ ابوابًا من النحاس بأطار من الحديد وبنى وراءهُ حظيرة لحيوانات المعبد وكانت ١١٦ رأساً من المعزى وكثير من البقر • ثم تقدم لمحاربة امراء الوجه البحري فالتجأوا الى اسوارهم وتركوا لهُ البلاد فحصرهم وانتظر لعلهم يخرجون لقتالهِ فلم يفعلوا فعاد الى منف واقام بقصرهِ وعزم على ان يرسل اليهم فرسانهُ ليرقبوا حركاتهم وقبل قيامهم جاء الحجاب واخبروهُ ان الامراء وقوف بالباب فقال اسألوهم هل اتوا محاربين أو طائعين فقالوا اتينا طائعين لمولانا الملك فقال الملك وجب عليَّ شكر « آمن » معبود ثيبة العظيم الذي حقق لي الآن ما أرانيهِ في الحلم ثم خرج من قصره لمشاهدة الامراء وكانوا من عبدة الشمس فلما رأوهُ خروا على جباهم احترامًا لهيبته فقال لقد تأكدت ان الشمس المعبودة تحبني وان « آمن » جعلني مباركاً فسأفعل كل ما يأمرني بهِ فقال الامراء نسأل هذا المعبود ان يرشدك الى الخير ويؤيدك بالنصر فأنت ملكنا ومولانا • ثم قام بكرور امير مدينة بسانبو وقال مخاطباً الملك انت تميت من تشاء وتحيي من تشاء ولا يلومك أحد وقال بقية الامراء اتينا ايها الملك لنستنشق منك روح المحبة فنحن نريد ان نخدم « آمن » ونكون في جملة اتباعك فهل لك ان تقبل رجاءنا فانشرح صدر الملك من كلامهم وامر لهم بالخبز والشراب وابقاهم عندهُ اياماً كثيرة وهو يغمرهم بالعطايا والاحسان على كثرتهم ثم

استأذنوهُ في الرجوع الى بلادهم للقيام بواجب رعاياهم فأذن لهم. ثم اتاهُ وجوه البلاد القبلية والبحرية مقدمين لهُ الجزية والهدايا فاطمأن بذلك قلب الملك بيكارع سلالة الشمس نوات ميامون دام بصحة وعافية وعيشة راضية ودام لهُ الملك ابد الدهر »

وفي آخر ايام هذا الملك اعتصب وجهاء بلاد مصر واعيانها وثاروا على الايثيوبيين فطردوهم من الوجه البحري وتقاسموا الملك فيما بينهم وكانوا اثنى عشر حاكماً فسميت حكومتهم بالمقاسمة الاثني عشرية وداموا على ذلك ١٥ سنة الى ان قام احدهم بساميتيك من سلالة العائلة الصاوية فطمع بالاستقلال واستعان بعساكر يونانية متطوعة فتغلب عليهم واستبدّ بالملك. ثم سار الى الوجه القبلي ففتحهُ من الايثيوبيين واعاد الحدود المصرية الى اسوان . وهكذا انتهى حكم الايثيوبيين على مصر بعد ان حكموها ٤٩ سنة وكان حكمهم عادلاً ومع ذلك لم يكن مقبولاً لانهم غرباء

الفصل الثالث

في

﴿ مملكة مروى ﴾

« وهو تاريخ ايثيوبيا منذ بدء الدولة المصرية السادسة والعشرين سنة ٦٤٤ ق . م الى دخول الديانة المسيحية لبلاد النوبة سنة ٥٤٥ ب . م »

١ . تاريخ مروى في عهد الفرس واخر عهد الفراعنة على مصر
(٦٤٤ : ٣٣٢ ق . م)

ما انقضت الدولة المصرية الخامسة والعشرون حتى انقضت معها مملكة نبته في ايثيوبيا وقام في مكانها مملكة مروى فنالت في التاريخ شهرة لم تنلها نبته وامتدت من الشلال الاول الى اعالي النيل الازرق وكانت عاصمتها مدينة مروى على النيل الكبير في مكان يعرف الآن بالبجراوية على ٢٣ ميلاً شمالي شندي

واول من ذكر مروى في التاريخ هيرودوتس المؤرخ اليوناني الشهير الذي عاش في القرن الخامس للمسيح قال : « وفوق جزيرة الفنتين تبتدئ بلاد الايثيوبيا فيتعذر السفر بالمراكب مسيرة اربعين يوماً بسبب كثرة الصخور في طريق النيل وبعد ذلك

تركب قارباً وتسافر مسيرة اثني عشر يوماً فتصل الى «مدينة كبيرة اسمها مروى قيل انها عاصمة ايثيوبيا» . ثم ذكرها كثيرون غيره من مؤرخي اليونان والرومان

﴿ فرار العساكر المصرية الى ايثيوبيا ﴾ وأهم ما ذكره هيرودوتس من اخبارها فرار العساكر المصرية اليها في عهد الملك بسامتيك المارّ ذكرهُ الذي اسس الدولة المصرية السادسة والعشرين (٦٤٤ : ٥٢٥ ق . م) قال : « ان بسامتيك لما تولى الملك كانت مصر تئنُّ عجزًا وضعفًا مما قاستهُ من الحروب مع اشور في عهد الايثيوبيين فأخذ في تقويتها واحياء ربوع العلم والصناعة فيها . ثم التفت الى مناعتها فجعل حامية في دفنة البلوسية المعروفة الآن بالفرَمه بقرب بورت سعيد ليدفعوا غارات العرب والسوريين . وحامية في ماريه أي بحيرة مريوط لوقايتها من الليبيين . وحامية عند جزيرة الفنتين لحمايتها من الايثيوبيين وكانت عساكر هذه الحاميات من المصريين

وكان لبسامتيك جيش قوي من اليونان حارب بهِ حربًا طويلة في سورية وفتح مدينة اشدود وكان يعزهُ ويكرمهُ فأغاظ ذلك المصريين المقيمين في الحاميات المذكورة وكانوا قد قضوا فيها مدة الثلاثة سنوات المفروضة عليهم فسألوهُ أن يبدلهم بغيرهم فرفض ففروا الى ايثيوبيا وكانوا نحوًا من ٢٤ الفاً (والاقرب الى التصديق ان الذين فرُّوا الى ايثيوبيا هم رجال حامية الفنتين فقط وهو رأي المؤرخ شارب الانكليزي) فلما بلغ الخبر بسامتيك تبعهم حتى أدركهم فتوسل اليهم كثيرًا أن يعدلوا عن هجر آلهة بلادهم وترك نسائهم وأولادهم فما صغوا لهُ واجابوهُ بما معناهُ :

تلقى بكل بلاد ان حللتَ بها   أهلاً بأهلٍ واخوانًا باخوانِ

ولما وصلوا الى ايثيوبيا قدموا انفسهم الى ملكها فرحَّب بهم ووهبهم بلاد اعداء لهُ من الايثيوبيين وقال لهم اطردوهم من بلادهم واسكنوها ففعلوا فازداد الايثيوبيون تمدنًا باستيطان هؤلاء العساكر بينهم وتعلموا اداب المصريين . وقد نشأ من ذريتهم في ايثيوبيا طائفة كبيرة عرفت بطائفة الاسماخ أي الجالسون عن يسار الملك اه » .
هذا وقد سماهم هيرودوتس «الاتومولي» فعرفوا بهذا الاسم الى القرن الاول للميلاد . واختلف المؤرخون في تعيين البلاد التي سكنوها فذهب البعض انهم سكنوا بلاد

الجزيرة بين النيل الازرق والنيل الابيض وذهب البعض الآخر انهم سكنوا جنوبي جزيرة مروى بين النيل الكبير والاتبرة ولعلّ الاقرب الى الصواب ان ملك مروى انتقى اشدهم وضمهم الى جيشه وارسل الباقي لقهر اعدائهِ كما مرَّ

وتوالت ملوك الدولة السادسة والعشرين على مصر ولم يكن بينهم و بين ايثيوبيا ما يذكر سوى ان بسامتيك الثاني ثالث ملوك هذه الدولة ثار عليهِ اهل ايثيوبيافتوجه لقتالهم سنة ٥٩١ ق ٠ م ومات بعد رجوعه بقليل

﴿ خبر كمبيز مع ايثيوبيا ﴾ وفي آخر مدة هذه الدولة كان الفرس قد صاروا في عزّ ومنعة وعليهم الملك كمبيز فطمع في مصر فجرّد لها وفتحها عنوة وأسس الدولة السابعة والعشرين (سنة ٥٢٥ : ٤١٥ ق ٠ م) ثم طمع في ايثيوبيا وحاول فتحها فلم يفلح ٠ وقد روى هيرودوتس الذي زار مصر في عهد خلف كمبيز اخبارًا لطيفة عما كان لكمبيز مع ايثيوبيا قال :

« قرّ رأي كمبيز على غزو الايثيوبيين فرأى أن يرسل لهم الجواسيس أولاً ليستطلعوا طالعهم ويحققوا خبر مائدة الشمس التي كان يسمع بها في بلادهم فأحضر جماعة من جزيرة الفنتين يحسنون لغة الايثيوبيين وارسلهم الى ملك ايثيوبيا بهدايا فاخرة وهي ثوب من الارجوان وطوق من الذهب واساور وصندوقٌ من الرخام مملوء اطيابًا و برميلٌ من نبيذ البلح وعلمهم ما يقولونهُ للملك ٠ قيل وكان الايثيوبيون الذين ارسل اليهم كمبيز هذه الرسالة أطول الناس قامةً واكملهم خلقاً وكان لهم عادات تختلف عن عادات سائر الامم أشهرها انهم يولون الملك لمن كان لهُ اكبر جثة وكانت لهُ قوة عظيمة بنسبة جثتهِ ٠ فلما وصل رسل كمبيز الى ملك هذا الشعب قدموا لهُ الهدايا وقالوا « ان كمبيز ملك الفرس أراد ان يكون بينك و بينهُ مودة واخاء فأرسلنا اليك بهذه الهدايا التي هو نفسهُ يسر بها كثيرًا » ٠ ولكن لم يخفَ على الملك قصد كمبيز فقال لهم ليس حب المحالفة هو الذي حمل ملك الفرس على ارسالكم اليَّ بهذه الهدايا ولا انتم تقولون الحق ولكن الصحيح انهُ طمع في بلادي فأرسلكم لتتجسسوا اخبارها فهو ليس بعادل ولو عدل لما طمع في غير بلادهِ ولا حاول استعباد امة لم تسيء اليهِ بشيء

ثم تناول قوساً كبيرة ووترها وقال خذوا هذه القوس الى ملككم وقولوا لهُ ان ملك الايثيوبيين ينصح لملك الفرس بأنهُ متى صار الفرس قادرين على وتر قوس هذا حجمها بهذه السهولة فليأتِ لحرب الايثيوبيين المكروبيين ولكن بجيوش اعظم عدداً من جيوشهم وفي اثناء ذلك فليقدم الشكر للآلهة لانها لم تلهم الايثيوبيين الرغبة في توسيع نطاق بلادهم بفتوحات جديدة. ولما قال هذا حلَّ القوس ودفعها الى الرسل ثم أخذ الثوب الارجواني بيدهِ وسألهم ما هو وكيف يصنع فلما اجابوهُ قال هؤلاء الناس خداعون وأثوابهم خدَّاعة . ثم سألهم عن الطوق والاساور فأجابوا انها حُلى وأوضحوا لهُ كيفية لبسها فضحك وظن أنها سلاسل وقال عندنا سلاسل أقوى منها . ثم سألهم عن الطيوب ولما اعلموهُ بتركيبها وكيفية استعمالها أبدى الملاحظة التي أبداها عند كلامهِ عن الثوب الارجواني . ثم سألهم عن الخمر وكيفية استخراجها وسرَّ بشربها سروراً عظيماً . وسأل عن الاطعمة التي يأكلها الملك وعن اطول حيوة عند الفرس فأجابهُ الرسل ان طعام الملك الخبز واوضحوا لهُ ماهية الحنطة وقالوا ان اطول حيوة عند الفرس ثمانون سنة فقال الملك اذاً لا عجب من اناس طعامهم الزبل ان تكون سني حياتهم قليلة ثم قال مشيراً الى الخمر وبهذا الشراب يمتاز الفرس على الايثيوبيين ولولاهُ لما عاشوا كل هذه المدة

ثم أن الرسل سألوا الملك في نوبتهم عن حيوة الايثيوبيين وطعامهم فأجابهم أن اكثرهم يدرك سن المئة والعشرين و بعضهم يفوق هذا السن وان طعامهم اللحم المسلوق وشرابهم اللبن . ولما أظهر الرسل دهشتهم من طول حيوة الايثيوبيين أتى بهم الى نبع ماء عجيب اذا اغتسل بهِ احد اصبح جلدهُ ناعماً لامعاً كأنهُ مُرخ بالزيت وفاحت منهُ رائحة كرائحة البنفسج وقال الرسل ان ماء تلك العين كان خفيفاً جداً حتى لا يطفو عليهِ شيء لا الخشب ولا ما هو أخف منهُ بل كل ما يلقى فيهِ يغرق الى قعرهِ (قال هيرودتس) فان كان هذا الماء كما قالوا لم يبعد أن يكون طول حياتهم من كثرة استعمالهم اياهُ . ثم سار الملك بالرسل الى السجن فرأوا المسجونين مقيدين بقيود ذهبية لان النحاس عند هؤلاء الايثيوبيين كان أندر المعادن وأثمنها . ثم أتى

بهم الى ما يسمونهُ « مائدة الشمس » وهي مرج في ظاهر المدينـة يملأ ليلاً بأنواع الاطعمة من لحوم الحيوانات ذوات الاربع التي يرسلها كبراء المدينة لاغراض في انفسهم فيأتي من شاء نهارًا ويتناول غذاءهُ منها وهم يعتقدون أن الارض نفسها تنبت لهم هذه اللحوم من وقت الى آخر

واخيرًا زاروا قبور الايثيوبيين وهي مصنوعة من البلور على الطريقة الآتيـة : يجففون الجسد أولاً على طريقة المصريين أو طريقة أخرى ثم يطلونهُ بالجصّ (Gypsum) ويدهنونهُ حتى يشبه منظرهُ الحي ما امكن ثم يضعونهُ في اسطوانة مجوَّفة من البلور الذي يصنعون منهُ كثيرًا بسهولة وبذلك يُرى الميت ولا تنبعث منهُ رائحة كريهـة فيحفظ أدنى اقارب الميت هذه الاسطوانة في بيوتهم مدة سنة فيقدمون لها الذبائح وباكورة كل شيء وفي نهاية السنة يخرجونها خارجاً ويضعونها في مكان قرب المدينة

ولما رأى الجواسيس كل شيء عادوا الى بلادهم وقصوا على الملك كمبيز جميع ما رأوهُ وسمعوهُ فغضب من كلام ملك ايثيوبيا غضباً شديدًا وأمر جيشهُ بالزحف على الايثيوبيين في الحال ولكنهُ لم يدبّر لهُ الاقوات ولا قدَّر انهُ غازٍ بلادًا بعيدة في أقصى المعمور بل سلك مسلك النزق والحمق كمن أضاع رشدهُ وزحف بجميع جيوشهِ البريّة فلم يبقَ في مصر الا اليونانيين ولما وصل ثيبة أرسل نحو خمسين الفًا الى الامونيين (واحة سيوه) وامرهم باستعبادهم وحرق هيكل جوبيتر بالنار فذهبوا ولم يعودوا ولا عاد منهم مخبر ويظن انهُ ثارت عليهم عاصفة من الرمال في الطريق فأهلكتهم • وسار هو بباقي جيوشهِ الى الايثيوبيين ولكنهُ لم يقطع خمس الطريق حتى نفدت منـهُ الاقوات فشرع العساكر في أكل حيوانات الحمل حتى نفدت • فلو عدل كمبيز عن عزمهِ اذ ذاك وعاد بجيشهِ لعدّ حكيماً وغفرت زلتهُ الاولى ولكنهُ بقي مستمرًّا في السير حتى صارت العساكر تأكل العشب فلما وصلوا الى الرمال اضطرّهم الجوع الى اعمال فظيعة فصاروا يجتمعون عشرة عشرة ويلقون القرعة فمن اصابتهُ اكلوهُ فلما رأى كمبيز ما حلّ بجيشهِ عدل مرغوماً عن غزو الايثيوبيين وقفل راجعاً الى ثيبة بعد أن

فقد جانباً عظيماً من جيشهِ ثم أتى الى منف وسمح لليونانيين بالرجوع بحرًا الى بلادهم وهكذا انتهت غزوة كمبيز للايثيوبيين » اه ٠ ومن ملوك ايثيوبيا الذين عاصروا كمبيز فاشتهروا بالسطوة والاقتدار ودانت لهم كل قبائل ايثيوبيا شرقاً وغرباً حورسياتف ونستوسنن

ثم نرى المصريين قد استقلوا عن الفرس وقام منهم الدول الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون والثلاثون (سنة ٤١٥ : ٣٤٠ ق ٠ م)٠ولكن لم يكفَّ الفرس عن مناوأتهم كل هذه المدة فشغلوهم عن ايثيوبيا ودامت الحرب سجالاً بين الفريقين حتى فاز الفرس وكانت مصر اذ ذاك بيد الملك نكتانيس فانهزم الى ايثيوبيا السفلى وملك الفرس مصر المرّة الثانية فأسسوا الدولة الحادية والثلاثين (سنة ٤٣٠ : سنة ٣٣٢ ق ٠ م) ٠ وكان آخر ملوكها الملك دارا الثالث الذي كان معاصرًا لاسكندر المكدوني الشهير

٢ ٠ تاريخ مروي في عهد اليونان على مصر (٣٣٢ : ٣٠ ق٠م)

وفي ايام الملك دارا اخذت دولة الفرس تتقهقر وبدا نجم اليونان في الارتقاع فشرع الاسكندر في مدّ فتوحاتهِ وتوسيع نطاق مملكة ابيهِ ففتح الهند وفارس ثم التفت الى مصر فأخذها من الفرس وبنى الاسكندرية فجعلها عاصمة البلاد ٠ وتولاها بعد وفاتهِ (سنة ٣٢٣ ق ٠ م) البطالسة اليونان فمدُّوا حدودهم في ايثيوبيا الى المحرَّقة على نحو ثمانين ميلاً من الشلال الاول حيث بنوا هيكلاً لا تزال آثارهُ باقية الى الآن٠ ومن آثارهم هياكل كلابشة والدكة وغيرهما من بلاد ايثيوبيا السفلى وهيكل جزيرة فيلي المعروف الآن « بقصر أنس الوجود » شرع في بنائهِ بطليموس فيلادلفوس وهو بطليموس الثاني (سنة ٢٨٥ : سنة ٢٤٧ ق ٠ م) ثم اشتغل فيهِ كل من جاء بعدهُ من البطالسة حتى أتموهُ فاذا هو من أجمل الهياكل التي بناها القدماء والباقي منهُ الى الآن يدل على انهُ كان من الجمال وحسن الهندام على جانب عظيم

﴿ الملك ارجمنس ﴾ وقام على ايثيوبيا في أيام بطليموس الثاني المتقدم الذكر « الملك ارجمنس » وكان للكهنة الايثيوبيين الى أيامهِ سلطة عجيبة على الشعب

والملك معاً حتى كان من عادة كهنة مروى أنهم اذا غضبوا على ملك أرسلوا اليهِ رسلاً يأمرونهُ بقتل نفسهِ بحجة ان ذلك يسر الالهة. قيل وكان الامر يسحرهُ فيخضع لهُ صاغرًا حتى قام ارجمينس هذا وكان ملكاً جريئاً متثقفاً بآداب اليونان وعلومهم وكان يكره الكهنة ولا يطيق غطرستهم فأرسلوا اليهِ امرًا ليقتل نفسهُ فهاجهُ الامر وحمل عليهم في الهيكل الذهبي الذي كانوا يقيمون فيهِ وقتلهم عن آخرهم • وسنَّ قوانين جديدة لمملكتهِ وحوَّر كثيرًا في ديانة الايثيوبيين • ومن آثارهِ الباقية الى الآن هيكل في دكا المعروفة قديماً باسم سلقيس بناهُ على اطلال هيكل من بناء الدولة المصرية الثانية عشرة

﴿ الملك ازخرآمن ﴾ وقام بعدهُ على ايثيوبيا الملك ازخرآمن فبنى هيكلاً في دبود المعروفة قديماً باسم تاهت ولا تزال آثارهُ ظاهرة الى اليوم. ولم يشتهر من ملوك مروى في عهد البطالسة على مصر غير هذين الملكين

﴿ مملكة اكسوم. ومملكة سوبه ﴾ ومن ممالك ايثيوبيا التي اشتهرت في هذا العهد مملكة اكسوم في شمالي الحبشة على بضعة اميال من عدوه • ومملكة سوبه على النيل الازرق على ١٥ ميلاً من الخرطوم. وقد ذكر المؤرخون ان بطليموس يورجيتس الثاني ثامن البطالسة (سنة ١٤٦ : ١١٧ ق. م) زحف على مملكة مروى ففتحها ثم سار جنوباً ففتح مدينة اكسوم ودون خبر فتوحاتهِ باللغة اليونانية على حجر من الرخام في ميناءِ ادولس المعروفة الآن بميناءِ زولا على عشرين ميلاً الى الجنوب من مصوع وهي ميناء اكسوم. وقد وصف المؤرخون ايثيوبيي تلك الايام بالشجاعة الوحشية وعدم النظام كاهل السودان في هذه الايام. اما جيش بطليموس فكان على اتم النظام وكان معهُ في هذه الغزوة خمسماية فارس من اليونانيين فألبس مئة فارس منهم نسيجاً ثخيناً من الكتان وألبس خيلهم ايضاً من هذا النسيج لكي لا تؤثر فيهم سهام الايثيوبيين. ولم يسبق أن ملكاً من ملوك مصر مدَّ فتوحاتهِ جنوباً الى الحد الذي وصل اليهِ بطليموس ولكنهُ لم يستطع حفظ سلطتهِ على البلاد التي فتحها فعادت لاهلها كما كانت وعادت حدود اليونان الى المحرّقة

٣٠ تاريخ مروى في عهد الرومان على مصر (٣٠ ق٠م : ٦٤٠ ب٠م)

وكان آخر من ملك مصر من البطالسة كليوبترا ابنة بطليموس اوليتس و بعد وفاتها آل ملك مصر الى الرومان في عهد الامبراطور اوغسطوس قيصر فجعلها ولاية من ولاياته يتولاها والٍ أو نائب روماني ويحكمها بموجب الشرائع الرومانية٠ وكان اول من تولاّها من الرومان « كرنيليوس جالوس » وقد ظهر من كتابةٍ على بعض الآثار أن « الملك تويا كوتاس خوانوس » (ويظن انهُ ملك سوبه) أرسل رسلاً في ايام هذا الوالي الى فيلي ودخل في حماية الرومان

﴿ الملكة كنداكة ﴾ وفي سنة ٢٣ ق ٠ م اخرج الامبراطور اوغسطوس قيصر معظم عساكرهِ من مصر لغزو بلاد العرب وكان على مروى حينئذٍ ملكة تلقب بكنداكة تحب الحرب والفتوح فاغتنمت الفرصة وسارت بجيش مؤلف من ٣٠ الف مقاتل الى مصر تريد افتتاحها ففتحت حامية فيلي وحامية اصوان اللتين على حدود مصر ودخلت مصر العليا وكان النائب الروماني اذ ذاك رجلاً شديد البأس يسمى بترونيوس فحمل على كنداكة بجيش منظم مؤلف من عشرة آلاف راجل وثمانماية فارس فلما سمعت كنداكة باستعدادهِ رجعت الى ايثيوبيا السفلى فتأثرها حتى ادركها بقرب سلقيس (دكا) وطلب منها رد الاسرى والغنائم التي أخذتها من مصر ولما لم تجبهُ جواباً مرضيًا حمل عليها وكان معظم جيشها غير منظَّم ولا سلاح لهُ الاّ الفؤوس والنبابيت فانتصر عليها انتصارًا عظيماً وشتت جيشها كل مشتت ثم تقدم الى ابريم وكان فيها حامية قوية للايثيوبيين فاستولى عليها ثم سار الى نبته فخرَّبها ٠ وفرت الملكة كنداكة من وجههِ فامتنعت في قلعة في الشلال الرابع ولما رأت أن لا طاقة لها على حربهِ بعثت اليهِ في طلب الصلح وكان بترونيوس قد نفد منهُ الزاد واضنى جيشهُ الحرّ فاضطر ان يرجع الى الاسكندرية قبل نهاية الصلح وفي طريقهِ أقام حامية في أبريم مؤلفة من ٤٠٠ رجل وحامية في دكّا٠ فلما رأت كنداكة ان بترونيوس رجع عنها مضطرًا جمعت شتات جيشها وسارت حتى وصلت ابريم فحصرتها ولكنها لم تلبث ان رأت عجزها عن استمرار الحصار فرفعتهُ وأرسلت سفراءها المرَّة الثانية الى بترونيوس

في طلب الصلح فأرسل بترونيوس السفراء الى الامبراطور اوغسطوس قيصر وكان اذ ذاك في جزيرة ساموس في الارخبيل الرومي فصالحهم على الشروط التي قدمتها كنداكة • ولهذا الامبراطور هيكل قائم الى الآن في دندور على ٥٢ ميلاً من الشلال

ثم لم يكن بين الرومان وايثيوبيا ما يذكر الى ايام الامبراطور نيرون وهو الامبراطور الخامس من امبراطرة الرومان على مصر فانهُ في سنة ٦٠ ب • م ارسل حملة الى ايثيوبيا بقصد اكتشاف منابع النيل فكان من اخبارها انها سارت فيه حتى وصلت الى مستنقع لا يمكن سلوكهُ فعادت بالخيبة الى مصر ولعلّ هذا المستنقع هو « السدّ » • قالوا وكان الحاكم على مروى في عهد هذه الرسالة ملكة تلقب بكنداكة • وهذا آخر عهدنا بمملكة مروى

اما « مملكة اكسوم » فيؤخذ مما كتبهُ المؤرخون عن هذا العهد انهُ كان بينها وبين الرومان علائق تجارية دامت طويلاً وان الرومان لم يسمحوا لاهلها ببناء المراكب أو الملاحة في البحر الاحمر • ثم كانت النصرانية فاعتنقتها مملكة اكسوم في القرن الرابع وعرفت البلاد بعد ذلك باسم الحبشة ولا تزال تعرف بهذا الاسم الى اليوم وقد افردنا للحبشة تاريخاً خاصّاً قائماً بذاته

اما « مملكة سوبه » فلم يحفظ لنا التاريخ شيئاً من اخبارها في الجاهلية الا ان آثارها الباقية الى الآن تدلُّ على انها كانت على درجة سامية من الحضارة والعمران • ويظن البعض انها كرسي مملكة سبا التي جاءت تختبر حكمة سليمان • و بقيت سوبه على الوثنية الى ان امتدت النصرانية اليها من مصر فقامت فيها مملكة نصرانية عرفت عند مؤرخي الاسلام بمملكة علوة وسنأتي على ذكر تاريخها

﴿ النوبة والبجة ﴾ هذا وقد ذكر استرابو (٥٤ ق • م : ٢٤ ب • م) ان الايثيوبيين فوق اصوان كانوا في ايامه اربع قبائل مختلفة : التروقلوديته • والبلامس (والمشهور انهم البجة) • والنوبة • والمقَباري • فسكن البلامس والمقباري في الصحراء الشرقية شمالي مروى الى جهة حدود مصر في مكان الأوابو والمازابو المتقدم ذكرهم وكانوا تحت حكم الايثيوبيين • وسكن التروقلوديته في الصحراء الشرقية فكان حدهم

الشمالي بيرينيس (راس بناس) والغربي النيل وظن بعضهم انهم هاجروا الى هذه الجهة من جزيرة العرب بعد افتتاح بطليموس يورجيتس لايثيوبيا • وسكن النوبة على النيل • وذكر غير استرابو من المؤرخين وجود قبيلة الاشتيفاجي على شطوط البحر الاحمر

ولكن لم يشتهر في تاريخ ايثيوبيا بعد ان دالت دولة مروى الا النوبة والبجة الذين ما زالوا الى الآن مقيمين في الاماكن المارّ ذكرها

وقد انتظم للنوبة ملك في تلمس (كلابشة) وكان بينهم وبين البجة وقائع معدودة فترى على جدران هيكل كلابشة المتقدم الذكر كتابة باليونانية مفادها : أن الملك سلكو ملك النوبة وكل الايثيوبيين انتصر على البجة في عدة وقائع • وذكر فوبسكوس أن بروبس النائب الروماني الذي تولى مصر من سنة ٢٧٦ : سنة ٢٨٤ ب • م غزا البجة في صحراء ثيبة فقهرهم وأرسل منهم اسرى الى رومية • وذكر بعض المؤرخين ان البجة ما زالوا يغزون الحدود المصرية كلما سنحت لهم الفرصة

هذا وكانت المحرَّقة آخر حدود مصر الجنوبية في ايام الرومان كما كانت في ايام اليونان • فرأى الامبراطور ديوقليشيان (٢٨٤ : ٣٢٣ ب • م) ان خراج البلاد التي بين المحرَّقة واصوان لا يفي بنفقات العساكر اللازمة لجمعه فلا فائدة من حفظها فاقطعها للنوبة واعاد الحدود المصرية الى اصوان فقوَّى حامية الفنتين وعقد مع النوبة معاهدة جديدة وجعل للنوبة وللبجة جعلاً معلوماً من المال يدفع لهم كل سنة على شرط ان البجة يكفُّون عن غزو الحدود المصرية وانهم اذا لم يمتنعوا عنه من انفسهم منعتهم النوبة بالقوة • وقد اسكن بعضهم في جزيرة الفنتين وسمح لهم بالصلاة في الهياكل مع الرومانيين وسمح لكهنتهم بالاقامة في الهياكل مع كهنة الرومانيين فوفوا بالعهود الى ايام الامبراطور مارشيان ثم نكثوا بها وغزوا بلاد مصر العليا فغنموا واسروا وعادوا الى بلادهم فهاجمهم الجنرال مكسيمينوس الروماني قائد ثيبة فقهرهم جميعاً اي النوبة والبجة معاً وذلك سنة ٤٥١ ب م فطلبوا الصلح على ان لا يدخلوا مصر ما دام هذا القائد على ثيبة اما مكسيمنوس فلم يرضَ ان يكون

بينهُ وبينهم صلح حتى يرجعوا الاسرى ويدفعوا قيمة ما غنموهُ من مصر ويجعلوا بعض كبارهم رهناً ففعلوا فعقد معهم صلحاً لمئة سنة

وكان من عادة النوبيين منذ القديم أن يذهبوا كل سنة الى هيكل أيسس في جزيرة الفتين ويأخذوا احد التماثيل الى بلادهم فيستخيرونهُ في شؤونهم ثم يرجعونهُ الى الهيكل فلما فرض عليهم في هذا الصلح أن لا يدخلوا مصر سألوا مكسيمينوس أن يأذن لهم في زيارة الهيكل كل سنة لئلاّ يعترضهم خفراء الرومان فأذن لهم وكتبت المعاهدة على ورق البيبروس وعُلقت في هذا الهيكل ولكن لم يكن الا القليل حتى مات مكسيمينوس فنقض النوبيون المعاهدة ودخلوا بلاد ثيبة فاكتسحوها واسترجعوا رهائنهم بالقوة واعادوا عبادة ايسس وسرابيس الى بلاد ثيبة وذلك بعد ان بطلت عبادة الاوثان تماماً من تلك البلاد بأمر ثيودوسيوس الاول بسبعين سنة وما زالت مصر تعاملهم بالرفق الى ان قام الامبراطور جوستينيان (سنة ٥٢٧ : سنة ٥٦٦ ب ٠ م) فأغلظ معاملتهم وأمر نرفس قائد حامية فيلي فخرب هياكلهم وسجن كهنتهم وارسل تماثيل آلهتهم الى البيزانتيوم (الاستانة) وكان هذا آخر عهد الوثنية في بلاد مصر

﴿ النصرانية في مصر وايثيوبيا ﴾ اما تاريخ دخول النصرانية الى مصر فقد كان في عهد الامبراطور نيرون (سنة ٤٥ : ٦٨ ب ٠ م) وفي المشهور أنها دخلتها عن يد القديس مرقس فلاقت اضطهادات شديدة من امبراطرة الرومان وكان أشدهم اضطهاداً لها ديوقليشان (سنة ٢٨٤ : ٣٢٣ ب ٠ م) فانهُ نكل بالمسيحيين وقتل في يوم ١٣ يونيو سنة ٢٨٤ ب ٠ م ما يعد بالآلاف فصار المسيحيون يؤرخون سنيهم من هذا اليوم وهو تاريخ الاقباط المعروف بتاريخ الشهداء الى هذا العهد ٠ ولكن اضطهاد ديوقليشان لم يضعف النصرانية بل زادها قوة وانتشاراً حتى اعتنقها الامبراطور قسطنطين الكبير (سنة ٣٢٣ : ٣٣٧ ب ٠ م) الذي جعل سرير ملكهِ في القسطنطينية وجعل الديانة المسيحية ديانة مملكتهِ في أوربا وأسيا ومصر ٠ ومع ذلك لم تبطل الوثنية بل بقيت متبعة في وادي النيل وبقي لها أنصار الى أيام الامبراطور

ثيودوسيوس الاول (سنة ٣٧٩ : ٣٩٤ ب ٠ م) الذي نهى المصريين عن عبادة الاصنام في اول سنة من حكمهِ وأمرهم باتباع الديانة المسيحية وانفاذاً لامرهِ أسرع فهدم الهياكل وازال الانصاب وأبطل جميع التقاليد التي كان المصريون يعتبرونها من ضروريات التديُّن وساعدهُ على ذلك ثيوفيلس بطريك الاسكندرية الاَّ ان الديانة الوثنية لم تنتفِ من جزيرة فيلي حتى اواسط القرن السادس كما مرَّ

ومن هذا العهد (سنة ٥٤٥م) اخذت النصرانية تمتد جنوباً في وادي النيل حتى عمت كل بلاد النوبة ٠ وقد تقدم لنا ان الحبشة اعتنقوا النصرانية في القرن الرابع فأصبحت بلاد ايثيوبيا كلها تدين بالنصرانية الاَّ البجة في الصحراء الشرقية فانهم بقوا على الوثنية

ثم لم تكد النصرانية تنتشر في بلاد ايثيوبيا حتى كان الاسلام في جزيرة العرب وافتتح المسلمون مصر سنة ١٨ ﻫ ٠ ٦٤٠ م واحتاطوا ايثيوبيا من الشمال والشرق فكان لهم مع نصارى الحبشة والنوبة ووثنيي البجة من الشان ما سنبينهُ في محلهِ ان شاء الله

الفصل الرابع

في

« آثار ايثيوبيا ولغاتها وديانتها وتمدنها وحكومتها وشرائعها وأخلاق اهلها وعاداتهم »

« آثار نبته » واما آثار ايثيوبيا الباقية الى الآن فتدل انها كانت على جانب عظيم من المدنية والعمران ٠ واشهر هذه الآثار واقدمها آثار نبته عند جبل البرقل وهي خرائب هياكل واهرام ٠ اما الهياكل فمن عهد الملك رعمسيس الكبير المصري ومن بنائهِ أو من بناء طهراق الايثيوبي وخلفائهِ واما الاهرام فكلها من بناء طهراق وخلفائهِ ٠ وقد رأيت هذه الاهرام من النيل سنة ١٨٩٦ ولم اوفق الى زيارتها ولكن الذين زاروها قالوا ان في جبل البرقل ١٣ هرماً وفي بلدة نوري تجاههُ ٢٥ هرماً وكلها مبنية بالحجر الرملي على شكل اهرام مصر الاَّ انها تختلف عن هذه في كونها اصغر وفي واجهة كل هرم منها ايوان كايوانات الهياكل المصرية ٠ واما مدينة نبته نفسها فقد تخربت تخرُّباً تامًّا ولم يبقَ ما يدل عليها سوى اطلال بالية قرب جبل البرقل

﴿ آثار مروى ﴾ ويلي آثار نبته في القدم والاهمية آثار مروي ومعظمها قائم حيث كانت عاصمتها بقرب جبل أم علي على ٢٦ ميلاً الى الشمال الشرقي من شندي و بضعة اميال من النيل وهي خرائب هياكل (بينها هيكل امون) واهرام تبلغ الثمانين هرماً في ثلاثة مجاميع • وقد رأيت هذه الاهرام سنة ١٨٩٨ فاذا هي قائمة في مرتفعات على مسافة ساعة أو اكثر من النيل وقد وصفها الذين زاروها فقالوا ان اضلاع قاعدتها تختلف من ١٢ : ٦٠ قدماً وارتفاع اعلاها ١٦٠ قدماً وهي على شبه اهرام مصر الاّ ان نسبة قاعدة الهرم الى علوهِ فيها أعظم منها في اهرام مصر ، هذا وفي جزيرة مروى على نحو ٣٢ ميلاً الى الجنوب الشرقي من شندي بركة تجتمع اليها مياه الامطار تعرف بالنقع حولها آثار هياكل فخيمة • وبين النقع وشندي جدران وأعمدة هيكل يبلغ محيطهُ الف يرد • وقد ذكر الباحثون أن في نبته نفسها آثار لملوك مروى وأن الهيكل القائم الآن في بلدة عمارة على ١٠٠ ميل من الشلال الثاني هو من بناء ملوك مروى • وقال بعض المؤرخين أن مروى كانت تجهز للحرب جيشاً مؤلفاً من ٢٥٠ الف مقاتل وكان فيها ٤٠٠ الف من أرباب الصنائع وان قد حكمها ٤٥ ملكاً وملكة اكثرهم من الملكات وترى على الآثار رسوم بعض هذه الملكات يقدّمنَ القرابين للآلهة أو يمثلنَ ابطالاً منتصرين وقد لُقب الملكات بكنداكة كما لُقب ملوك مصر بالفراعنة والفرس بالقياصرة

ومما هو جدير بالذكر ان اسم مروى غير معروف في الجزيرة الآن بل البلدة المعروفة بهذا الاسم واقعة قرب البرقل عند موقع مدينة نبته و بين مروي هذه ومروى القديمة قرب شندي طريق في الصحراء تمر بآبار الجكدول طولها نحو ١٨٠ ميلاً

وقد اختلف العلماء في مؤسسي مروى والذي عليهِ البعض انهم الكهنة الذين طردوا من ثيبة سنة ٩٠٠ ق • م

﴿ آثار اكسوم ﴾ ثم يلي آثار مروى في الشهرة والقدم آثار اكسوم وسيأتي ذكرها

﴿ آثار سوبه ﴾ اما سوبه فلم يبقَ من آثارها الى الآن الاّ خرائب قديمة • وكان قد بقي فيها الى زمن الفتوح المصري بعض التماثيل والانصبة فنقلت منها

﴿آثار ايثيوبيا السفلى﴾ هذا في آثار ايثيوبيا العليا وهي مصرية ايثيوبية أي أنها من بناء المصريين. اما آثار ايثيوبيا السفلى المتقدم ذكرها في فيلي ودبود ودندور وكلابشة ودكا والمحرَّقة وكوبان والسبوع وعمدَة والدرّ وابريم وأبو سمبل وحلفا وسمنه وطنبس وارقو فكلها او اكثرها مصرية أي من بناء الملوك المصريين

﴿لغات ايثيوبيا﴾ اما لغة الآثار في ايثيوبيا فهي اللغة الهيروغليفية المصرية بعينها لكن الهيروغليف الذي على آثار ايثيوبيا غير متقن الصنع كالهيروغليف الذي على آثار مصر . هذا ونرى على الآثار أيضاً بعض كتابات باللغة اليونانية من زمن البطالسة وباللغة اللاتينية من زمن الرومان وباللغة القبطية من عهد النصرانية . وعلى بعض الهياكل كتابة احرفها قبطية ولكن رموزها لم تحلّ بعد وقد سميت باللغة الايثيوبية المسيحية

واما لغات الايثيوبيين أنفسهم فمعلوم أنها كانت تختلف عن لغة المصريين والباقي منها الى الآن : لغة النوبة وهي لغة سكان النوبة السفلى وقد قال فيها بعض علماء اللغات أنها من اصل افريقي لانها لا توافق اللغات السامية وقد تقدم الكلام عليها. ولغة البجة وهي من اللغات الحامية ويظن لبسيوس أنها لغة مروى القديمة واما الدكتور هيس الالماني المقيم في مصر لدرس لغة النوبة فيقول أن هذه اللغة هي لغة مروى القديمة بدليل ان بعض كلماتها الاساسية كالماء والنار والارض تشابه ما ورد من الاسماء في تاريخ مروى . ولغة الجيز وهي لغة اكسوم القديمة وما زالت لغة بلاد التيغري الى هذا اليوم وسيأتي ذكرها في تاريخ الحبشة

﴿ديانة الايثيوبيين﴾ اما ديانة الايثيوبيين فعلى مثال ديانة المصريين القدماء وكان أعظم معبود لهم جوبيتر آمون . ومن معبوداتهم الرئيسية ايسس والصقر (Hauk) والتمساح الذي كانوا يعبدونهُ باسم سبق (Sebek)

﴿تمدن ايثيوبيا﴾ هذا وقد اختلف علماء الآثار أي تمدن اقدم تمدن ايثيوبيا أم تمدن مصر وايُّ البلادين أخذت تمدنها عن الاخرى والرأي الاظهر أن تمدن مصر هو الاقدم وان ايثيوبيا أخذت الصنايع والفنون بل الديانة وشرائعها عن مصر

بدليل ان النصب والهياكل بما عليها من الرسوم والهيروغليف تراها كأنها نسخ عاطلة عن الاصل القديم المصري ٠ وقد كان بين مصر وايثيوبيا اتصال دايم وطرق الاتصال عدا النيل : طريق المرات بين كورسكو وأبي حمد ٠ وطريق قفط الى القصير ثم في البحر الاحمر الى بلاد البوانيت ٠ وطريق قفط الى بيرنيس (راس بناس) مسيرة ١٢ يوماً ٠ واول من فتح بيرنيس بطليموس فيلادلفوس وسماها باسم اختهِ وفي آخر طريقها جبل الزمرُّد المعروف الآن باسم جبل زبارة ٠ قيل وجنوب هذا الميناء قرب سواكن معادن ذهب ٠ هذا وفي الطرق الداخلية التي بين شندي وكلٍّ من سواكن ومروي وسوبه والتي بين الدبة وأم درمان آبار قديمة العهد تدل صريحاً على أنها كانت مطروقة منذ عهد بعيد

﴿ حكومتها وشرائعها ﴾ اما حكومة ايثيوبيا فكانت من النوع الملكي المطلق وكانت البلاد على ما رواهُ بليني مقسومة الى ٤٥ مملكة أقواها وأزهاها مملكة مروى الا ان بليني لم يذكر أمستقلة كانت هذه الممالك بعضها عن بعض أم تحت سلطان واحد ولا يبعد انها كانت في ذلك العصر على نحو ما كانت عليهِ مملكة سنار قبيل الفتح المصري ٠ ويفهم مما كتبهُ ديودروس الصقلي ان بعض ممالك ايثيوبيا كانت انتخابية وملوكها ينتخبون من الكهنة ويؤلهون بعد تمليكهم لذلك كان حكمهم من النوع المطلق ولكن كان لا بدَّ لهم من مراعاة شرائع البلاد وعرفها وعاداتها في اكثر احكامهم ٠ وقد كان من قوانين الخلافة عند بعض القبائل انه بعد موت ملكهم يخلفهُ ابن أختهِ فاذا لم يكن لاخواتهِ ذرية ملكوا عليهم رجلاً من أجمل رجال العائلة المالكة وأقواهم ٠ واذا أصيب الملك بجرح أو تعطلت وظيفة عضو من أعضاء جسدهِ اضطر رجال حاشيتهِ ان يجرحوا أنفسهم مثل جرحهِ أو يعطلوا في جسمهم نظير العضو المعطَّل في جسمهِ ٠ واذا مات الملك اضطر جميع خدمهِ اتباعاً لقانون أو عادة مستحكمة فيهم ان يقتلوا أنفسهم وكانوا يعدون ذلك اقوى شاهد على تمام اخلاصهم لهُ

وكانت هذه الشرايع مرعية في جزيرة مروى والبلاد التي الى شماليها واما البلاد التي الى جنوبيها على شاطئ النيل فقد كان بعضهم يملكون عليهم راعياً من اشد

ارعاة اقداماً واجتهاداً و بعضهم يملكون أغنى رجل فيهم لاعتقادهم ان الاغنياء هم أقدر الناس على ادارة البلاد وسدّ حاجات العباد

﴿ اخلاق الايثيوبيين وعاداتهم ﴾ اما سكان ايثيوبيا فظاهر من رسومهم التي على الآثار أنهم من أصلين كبيرين وهما السود وبنو كوش ثم نشأ عن اختلاط بعضهما ببعض جنس ثالث سميناهُ شبه السود كما مرّ وقد رأيت انهُ هاجر الى ايثيوبيا الكثير من المصريين في مدّات مختلفة فسكنوا مع الايثيوبيين وتجنسوا بهم فنتج من هذا الاختلاط قبائل شتى تختلف في الهيئات والعادات كما تختلف في اللغات والاحكام

وذكر المؤرخون القدماء نتفاً من عادات الايثيوبيين واخلاقهم فاذا هي متأصلة في عادات اهل السودان وأخلاقهم اليوم على بعد العهد وتغير الاحوال. فقد وُصف الايثيوبيون بحب الحرب والشجاعة الوحشية واشتهر بعضهم بالكرم والوداعة وحب العدل والصفح عن الزلات. وكان اكبر العيوب على من ارتكب ذنباً يستحق القتل أن يفرّ من وجه القصاص الى بلاد أجنبية قال ديودورس وكان اذا صدر امر الملك بقتل رجل فخيل لهُ الفرار من ايثيوبيا قيدتهُ أمهُ نفسها بوثاق متين ومنعتهُ من الفرار ولم يبدي أقل مقاومة لها والاَّ جلب على نفسهِ وعلى أهلهِ وذريتهِ من بعدهِ عاراً لا يمحى. وكان التروقلوديته يحترمون المسنَّات من النساء كلَّ الاحترام حتى انهم اذا كانوا في أشد قتالهم ودخلت بينهم امرأةٌ مسنة تركوا سلاحهم وكفُّوا عن القتال وكان من عادتهم ان يدفنوا موتاهم على رؤوس التلال ويغطوا قبورهم بالحجارة ويجعلوا فوق كل قبر قرن ماعز علامة عليهِ. وكان بعض قبائل ايثيوبيا يدفنون موتاهم قرب هياكلهم في توابيت من خزف و بعضهم يرمونهم في النيل ويحسبون ذلك افضل انواع الدفن

وقد وصف هيرودتس الرجال الايثيوبيين بأنهم كبار الابدان حسان الصور ويعمرون طويلاً واما نساء الايثيوبيين فيظهر من تمثال الملكة آمن ريتس السالف ذكرها ان المخدرات منهن كنَّ صفر الالوان كمخدرات العرب في هذه الايام وكان الايثيوبيون يلبسون ثياباً من جلد النمر والاسد. ومن اسلحتهم القوس

والنشاب والحراب والنبابيت والدرق . قال هيرودتس ولهم قسيٌّ طويلة من جريد النخل طول الواحدة أربع اذرع على الاقل وسهامهم قصيرة وهي من القنا وفي رؤوسها حجارة محددة يجعلون فيها السمّ ويستخدمونها لحفر أختامهم وكان لهم حراب برؤوس من قرون الغزلان ودبابيس كثيرة العجر ومتى ساروا الى الحرب فركوا نصف أبدانهم بالجصّ والنصف الآخر بالزنجفر

وكان العساكر يعقدون نبالهم حول رؤوسهم فيشكون أطرافها في الشعر حتى تبرز رؤوسها فوق جباهم كالاشعة ويكون منها اكليل . وكان للايثيوبيين ولاسيما سكان الصحراء الشرقية مهارة في رمي النبال فقلما كانوا يخطأون الغرض وكانوا يمرنون أولادهم منذ الصغر على ذلك حتى كانوا لا يسمحون لهم بتناول الطعام الاّ اذا اصابوا الغرض . وكانوا اذا اصطفوا للقتال اظلم الجو من كثرة السهام . وذكر استرابو أن نساء الايثيوبيين كنَّ يحملنَ السلاح . وكانوا يكرهون الفيران كرهاً شديداً ويربّون الكلاب للصيد ويصطادون الافيال والنعام بطرق مختلفة ويأكلون لحومها . وكان غالب طعامهم اللحم المقدّد وشرابهم اللبن والذين سكنوا سواحل البحر الاحمر كان اكثر قوتهم السمك . ومنهم قبيلة تعرف باسم انتريبوفاجي تأكل لحوم البشر كالنيام نيام في هذه الايام . وكان للاكريدوفاجي وادٍ عميق طولهُ عدة غلوات فكانوا يملئونهُ حطباً وينتظرون الريح الجنوبية حتى تقذف رِجل الجراد الى ذلك الوادي فيشعلون النار بالحطب فيختنق الجراد ويقع الى الارض فيغطيها على بعد غلوات فيجمعونهُ ويقدّدونهُ ويخزنونهُ للتقوّت به . وكان هؤلاء القوم في أسوء حال من العيش ولذلك لم يكن فيهم من يزيد عمرهُ على الاربعين سنة . وكان أثمن المعادن عند الايثيوبيين النحاس فكانوا يفضلونهُ على الذهب الذي كان عندهم بمقام الحديد عندنا حتى كانوا يجعلون منهُ سلاسل للمجرمين . وكانوا يمارسون الختان كالمصريين الاّ أن هيرودتس لم يستطع الحكم في أي الفريقين اخذهُ عن الآخر

هذا ما كان من اخبار ايثيوبيا أو السودان في الجاهلية فلنتقدّم الآن الى ما صارت اليهِ في النصرانية ثم في الاسلام

الباب الثاني

في

تاريخ النوبة في عهد النصرانية

١ · تمهيد جغرافي

تقدم انهُ بعد ان دالت دولة مروى لم يشتهر في ايثيوبيا الا امتان : النوبة على النيل والبجة في الصحراء الشرقية وان النوبة اعتنقوا النصرانية في القرن السادس للمسيح وبقي البجة على الوثنية · ثم كان الاسلام ففتحوا مصر وكان لهم مع النوبة والبجة ما نبينهُ هنا نقلاً عن مؤرخي الاسلام الذين كتبوا عن هذا العهد دون غيرهم من المؤرخين · ويؤخذ مما كتبوهُ انهُ كان للنوبة في عهد النصرانية مملكتان قويتان : مملكة النوبة السفلى امتدت من الشلال الاول الى الشلال الرابع وكانت عاصمتها دنقلة العجوز · ومملكة النوبة العليا وعرفت ايضاً بمملكة علوة امتدت من الشلال الرابع الى اعالي جزيرة سنار وكانت عاصمتها سوبه عن يمين النيل الازرق على ١٥ ميلاً من الخرطوم

قال المسعودي « واما النوبة فافترقت فرقتين فرقة في شرق النيل وغربهِ واناخت على شاطئهِ فاتصلت ديارها بديار القبط من ارض مصر والصعيد من بلاد اسوان وغيرها · واتسعت مساكن النوبة على شاطئ النيل مصعدة ولحقوا بقريب من اعاليهِ وبنوا دار مملكة عظيمة تدعى دنقلة · والفريق الآخر من النوبة يقال لهم علوة وبنوا مدينة عظيمة وسموها سوبه» ٥ وقال عن ابن دأب «ثم سألني الهادي (الذي عاش في اواسط القرن الثاني للهجرة) عن مدينة دنقلة وهي دار مملكة النوبة كم المسافة بينها وبين اسوان قلت قد قيل اربعون يوماً على شاطئ النيل عمائر متصلة» ٥ وقال ابو الفدا عن ابن سعيد «ومن امم السودان النوبة وهم يجاورون

الحبشة من جهة الشمال والغرب • والنوبة في جنوب حدود مصر وكثيرًا ما يغزوهم عسكر مصر • ويقال ان لقمان الحكيم الذي كان مع داود النبي عليهِ السلام من النوبة وانهُ ولد بأيله • ومنهم ذو النون المصري وبلال بن حمامة • وهم نصارى • وقال المقريزي نقلاً عن كتاب « أخبار النوبة والمقرة وعلوه والبجة والنيل لعبد الله ابن احمد بن سليم الاسواني » : كان يسكن في بلاد النوبة (السفلى) قوم يقال لهم المقرة وأول ارض المقرة قرية تعرف بنافة على مرحلة من اسوان ومدينة ملكهم يقال لها نجراش على اقل من عشر مراحل من اسوان ويقال ان موسى صلوات الله عليهِ غزاهم قبل مبعثهِ في ايام فرعون فاخرب نافة • فالنوبة والمقرة جنسان بلسانين كلاهما على النيل فالنوبة هم المجاورون لأرض الاسلام و بين اول بلدهم و بين اسوان خمسة أميال ويقال ان سلها جدّ النوبة ومقرى جد المقرة من اليمن وقيل النوبة والمقرة من حمير وا كثر اهل الانساب على انهم جميعاً من ولد حام ابن نوح • وكان بين النوبة والمقرة حروب قبل النصرانية وكانوا صابئة يعبدون الكواكب وينصبون التماثيل لها ثم تنصروا جميعاً النوبة والمقرة • ومدينة دنقلة هي دار مملكتهم

وقال المقريزي في علوه نقلاً عن كتاب عبد الله الاسواني السالف الذكر « قال بلغني ان بعض متملكي بلد علوه سار فيها يريد اقصاها فلم يأتِ عليهِ بعد سنين وان في طرفها القبلي جنساً يسكنون ودوابهم في بيوت تحت الارض مثل السراديب بالنهار من شدة حر الشمس ويسرحون في الليل وفيهم قوم عراة • قال وسوبة مدينة العلوي شرقي الجزيرة الكبرى التي بين البحرين الابيض والاخضر المعروف الآن بالازرق الطرف الشمالي منها عند مجتمعهما وشرقيها النهر الذي يجف ويسكن بطنهُ (ويشير الى نهر أتبرة) وفيها أبنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب وبساتين ولها رباط فيهِ جماعة من المسلمين ومتملك علوة اكثر مالاً من متملك المقرة وأعظم جيشاً وعندهُ من الخيل ما ليس عند المقري وبلدهُ أخصب وأوسع والنخل والكرم عندهم يسير واكثر حبوبهم الذرة البيضاء التي مثل الارز منها خبزهم ومزرهم • واللحم عندهم كثير لكثرة المواشي والمروج الواسعة حتى انهُ لايوصل الى الجبل الا في ايام •

وعندهم خيل عتاق وجمال صهب عراب • ودينهم النصرانية يعاقبة• وأساقفتهم من قبل صاحب الاسكندرية كالنوبة • وكتبهم بالرومية (اليونانية) يفسرونها بلسانهم وهم أقل فهماً من النوبة وملكهم يسترق من شاء من رعيتهِ بجرم وبغير جرم ولا ينكرون ذلك عليهِ يسجدون لهُ ولا يعصون أمرهُ على المكروه الواقع بهم وينادون الملك يعيش فليكن امرهُ وهو يتتوج بالذهب والذهب كثير في بلدهِ

• ومما في بلدهِ من العجائب ان في الجزيرة الكبرى التي بين البحرين جنساً يعرف بالكرما أو القرَنا لهم أرض واسعة مزروعة من النيل والمطر فاذا كان وقت الزرع خرج كل واحد منهم بما عندهُ من البذر واختط على مقدار ما معهُ وزرع في أربعة اركان الخطَّة يسيرًا وجعل البذر في وسط الخطة وشيئاً من المزر وانصرف عنهُ فاذا اصبح وجد ما اختط قد زرع وشرب المزر فاذا كان وقت الحصاد حصد يسيرًا منهُ ووضعهُ في موضع ارادهُ ومعهُ مزر وينصرف فيجد الزرع قد حُصد بأسره وجُرّن• فاذا أراد دراسهُ وتذريتهُ فعل بهِ كذلك• وربما أراد احدهم ان ينقي زرعهُ من الحشيش فيلفظ بقلع شيء من الزرع فيصبح وقد قُلع جميع الزرع • وهذه الناحية التي فيها ما ذكرتهُ بلدان واسعة مسيرة شهرين في شهرين يزرع جميعها في وقت واحد • وميرة بلد علوة ومتملكهم من هذه الناحية فيوجهون المراكب فتوسق وربما وقع بينهم حرب • قال وهذه الحكاية صحيحة معروفة مشهورة عند جميع النوبة والعلوة وكل من يطرق ذلك البلد من تجار المسلمين لا يشكُّون فيهِ ولا يرتابون بهِ ولولا ان اشتهارهُ وانتشارهُ مما لا يجوز التواطؤ على مثلهِ لما ذكرت شيئاً من شناعتهِ فاما اهل الناحية فيزعمون ان الجن تفعل ذلك وأنها تظهر لبعضهم وتخدمهم بحجارة ينطاعون لهم بها وتعمل لهم عجائب وان السحاب يطيعهم قال ومن عجائب ما حدثني بهِ متملك المقرة للنوبة انهم يمطرون في الجبال ويلتقطون منهُ للوقت سمكاً على وجه الارض وسألتهم عن جنسهِ فذكروا انهُ صغير القدر بأذناب حمر

• قال وقد رأيت جماعة وأجناساً ممن تقدم ذكر اكثرهم يعترفون بالباري سبحانهُ وتعالى ويتقرّبون اليهِ بالشمس والقمر والكواكب ومنهم من لا يعرف الباري

ويعبد الشمس والنار ومنهم من يعبد كل ما استحسنهُ من شجرة أو بهيمة وذكر أنهُ رأى رجلاً في مجلس عظيم المقرة سألهُ عن بلدهِ فقال مسافتهُ الى النيل ثلاثة أهلة وسألهُ عن دينهِ فقال ربي وربك الله ورب الملك ورب الناس كلهم واحد وانهُ قال لهُ فأين يكون قال في السماء وحدهُ . وقال انهُ اذا أبطأ عنهم المطر أو اصابهم الوباء أو وقع بدوابهم آفة صعدوا الجبل ودعوا الله فيجابون للوقت وتقضى حاجتهم قبل ان ينزلوا . وسألهُ هل ارسل فيكم رسول قال لا فذكر لهُ بعثة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامهُ وما ابدوا من المعجزات فقال اذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا ثم قال قد صدقتهم ان كانوا فعلوا اه »

الفصل الاول

في

﴿ تاريخ النوبة السفلى ﴾

﴿ منذ دخول النصرانية اليها سنة ٥٤٥ م الى انقراضها منها سنة ١٣١٨ م ﴾

ان جلَّ ما نعلمهُ عن دخول النصرانية الى بلاد النوبة ان قد جاءها رسل من الاسكندرية سنة ٥٤٥ م فبشروا اهلها بالنصرانية فاعتنقوها وتركوا عبادة الاوثان . ثم لا نعلم شيئاً من اخبارهم حتى كان الاسلام وافتتح المسلمون مصر سنة ١٨ هـ ٦٤٠ م قال ابن الاثير « فغزا المسلمون النوبة فرجعوا بالجراحات وذهاب الحدق لجودة رميهم فسموهم رماة الحدق »

وقال المقريزي « وفي سنة ٢١ هـ بعث عمرو ابن العاص عبد الله بن سعد ابن أبي سرح في عشرين الف الى النوبة فمكث بها عبد الله بن سعد زماناً وصالحهم وقرَّر عليهم شيئاً معلوماً من المال . ثم ان عمرو بن العاص كتب الى عبد الله بن سعد يأمرهُ بالرجوع اليهِ فرجع . وسنة ٢٣ هـ ٦٤٤ م قُتل الامام عمر بن الخطاب وتولّى بعدهُ عثمان وكان عبد الله بن سعد من أقاربهِ فعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولّى عليها عبد الله بن سعد . وفي أول ولايتهِ نقض النوبة الصلح

الذي جرى بينهم و بينهُ وأرسلوا سراياهم الى صعيد مصر فأخربوا وأفسدوا فغزاهم مرة ثانية عبد الله بن سعد ابن أبي السرح المذكور وهو على أمارة مصر في خلافة عثمان (رضه) سنة ٣١ ﻫ ٦٥٢ م وحاصرهم بمدينة دنقلا حصارًا شديدًا ورماهم بالمنجنيق ولم تكن النوبة تعرفهُ وخسف بهم كنيستهم بحجر فبهرهم ذلك وطلب ملكهم قليدوروون الصلح وخرج الى عبد الله وأبدى ضعفًا ومسكنة وتواضعاً فتلقاهُ عبد الله ورفعهُ وقرّبهُ ثم قرّر الصلح معهُ على ثلثمائة وستين رأساً من الرقيق في كل سنة ووعدهُ عبد الله بحبوب يهديها اليهِ لما شكا لهُ قلة الطعام ببلادهِ وكتب لهم كتاباً نسختهُ بعد البسملة :

« عهد من الامير عبد الله بن سعد ابن أبي السرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكتهِ • عهد عقدهُ على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض اسوان الى حد أرض علوة • ان عبد الله بن سعد جعل لهم اماناً وصدقة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاوروهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة انكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسولهِ محمد النبي (صلعم) أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ولا نغزوكم ما اقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم على ان تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيهِ وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه • وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو بطرفهِ من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم وان عليكم ردّ كل آبق خرج اليكم من عبيد المسلمين حتى تردوهُ الى أرض الاسلام ولا تستولوا عليهِ ولا تمنعوا منهُ ولا تتعرضوا لمسلم قصدهُ وجاورهُ الى أن ينصرف عنهُ • وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناهُ المسلمون بفناء مدينتكم ولا تمنعوا منهُ مصلياً • وعليكم كنسهُ واسراجهُ وتكريمهُ • وعليكم في كل سنة ثلثمائة وستون رأساً تدفعونها الى امام المسلمين من أوسط رقيق بلدكم غير المعيب يكون فيها ذكران وأناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم تدفعون ذلك الى والي اسوان • وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعهُ عنكم من حد ارض علوة الى ارض اسوان • فان أنتم أويتم عبد المسلم أو قتلتم مسلماً أو معاهدًا أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناهُ المسلمون بفناء مدينتكم بهدم

أو منعتم شيئاً من الثلثمائة رأس والستين رأساً فقد برئت منكم هذه الهدنة والامان وعدنا نحن وانتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين • بذلك عهد الله وميثاقهُ وذمتهُ وذمة رسوله محمد (صلعم) ولنا عليكم بذلك اعظم ما تدينون بهِ من ذمة المسيح وذمّة الحوار يين وذمة من تعظمونهُ من أهل دينكم وملتكم الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك كتبهُ عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة ٣١ هـ اه » • وهذه الجزية التي تدفعها النوبة تسمى بقطاً

« وكانت النوبة رفعت الى عمرو بن العاص ما صولحوا عليهِ من البقط قبل نكث عهدهم وأهدوا الى عمرو اربعين رأساً من الرقيق فلم يقبلها ورد الهدية الى كبير البقط ويقال لهُ سمقوس فاشترى لهُ بذلك جهازاً وخمرًا ووجههُ اليهِ وبعث اليهم عبد الله بن سعد ما وعدهم بهِ من الحبوب قمحاً وشعيرًا وعدساً وثياباً وخيلاً ثم تطاول الرسم على ذلك فصار رسماً يأخذونهُ عند دفع البقط في كل سنة وصارت الاربعون رأساً التي أهديت الى عمرو يأخذها والي مصر• وعن أبي خليفة حميد بن هشام البحتري أن الذي صولح عليهِ النوبة ثلثمائة وستون رأساً لفيء المسلمين ولصاحب مصر أربعون رأساً ويدفع اليهم ألف أردب قمحاً ولرسلهِ ثلثمائة أردب ومن الشعير كذلك ومن الخمر ألف اقنيز للمتملك ولرسلهِ ثلاثمائة اقنيز وفرسين من نتاج خيل الامارة ومن أصناف الثياب مائة ثوب ومن القباطي اربعة أثواب للمتملك ولرسلهِ ثلاثة ومن البقطرية ثمانية أثواب ومن المعلمة خمسة اثواب وجبة مجملة للملك ومن قمص أبي بقطر عشرة اثواب ومن احاص عشرة اثواب وهذه ثياب غلاظ ••• »

قال ابن وصيف شاه لما انتقلت الخلافة الى بني العباس وولي عبد الله السفاح سنة ١٣٢هـ ٧٥٠م توجه عبدالله بن علي العباسي الى الشام في طلب من بقي من بني أمية ثم ارسل بالقبض على الامير عبيدالله بن مروان الحمار أمير مصر فلما أن بلغ الامير عبيدالله ذلك دخل الى خزائن امواله وأخذ منها عشرة آلاف دينار ذهباً ثم احضر اثني عشر بغلاً وحملها ذلك المال وشيئاً من القماش والفرش وغير ذلك وأخذ معهُ جماعة من العبيد والغلمان ثم شد على وسطهِ خريطة فيها جواهر فاخرة مثمنة وخرج من

مصر هارباً فتوجه الى نحو بلاد النوبة . فلما وصل هناك وجد مدائن خراباً وبها قصور محكمة البناء فنزل في بعض تلك القصور وامر غلمانهُ بكنسها فكنست وفرش فيها ما كان معهُ من تلك الفرش الفاخرة ثم قال لبعض غلمانهِ وكان ممن يثق بعقلهِ أمضِ الى ملك النوبة وخذ لي منهُ أماناً على نفسي من القتل فخرج الغلام وتوجه الى ملك النوبة فغاب ساعة ثم عاد ومعهُ قاصد من عند ملك النوبة فلما دخل عليهِ قال لهُ ان الملك يقرئك السلام ويقول لك أمحارباً جئت اليهِ أم مستجيراً فقال لهُ الامير عبيد الله ردّ عليـهِ مني السلام وقل لهُ قد جآء اليك ليستجير بك من عدوّ يريد قتلهُ فمضى ذلك القاصد بالجواب فغاب ساعة ورجع وقال لهُ ان الملك قادم عليك في هذه الساعة فقال عبيد الله لغلمانهِ افرشوا ما معنا من الفرش الفاخرة وجعل مرتبة في صدر المكان برسم ملك النوبة وجلس يرتقب مجيئهُ فبينما هو على ذلك اذ دخل عليهِ غلامهُ وقال لهُ ان ملك النوبة قد أقبل فقام الامير عبيد الله وصعد على أعلى القصر ونظر الى ملك النوبة فاذا هو رجل اسود طويل القامة نحيف الجسم وعليهِ بردان قد ائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ومعهُ عشرة من السودان حولهُ ومعهم حراب بأسنة تلمع فلما رآهُ عبيد الله استصغر امرهُ واحتقرهُ فلما قرب من المكان الذي فيهِ عبيد الله أتاهُ من عسكرهِ نحو عشرة آلاف رجل من السودان في ايديهم الحراب فلما وصل ملك النوبة على عبيد الله واحاط ذلك العسكر بالمكان الذي فيهِ عبيد الله ووقعت عين ملك النوبة على الامير عبيد الله بادر الى يد الامير عبيد الله وقبلها فأشار اليهِ عبيد الله بأن يجلس على تلك المرتبة التي وضعها اليهِ فأبى وصار يدفع تلك الفرش الفاخرة برجلهِ فقال عبيد الله للترجمان لِمَ لا يقعد الملك على تلك المرتبة التي وضعناها لهُ فقال لهُ الترجمان في ذلك فقال ملك النوبة قل للامير كل ملك لا يكون متواضعاً لله فهو جبار عنيد متكبر ثم انهُ جلس بين يدي الامير عبيد الله وجعل ينكت في الارض بأصبعهِ طويلاً ثم انهُ رفع رأسهُ الى الامير عبيد الله وقال لهُ كيف سلبتم ملككم وأخذ منكم وأنتم أقرب الناس الى نبيكم فقال لهُ عبيد الله ان الذي سلبنا ملكنا أقرب الى نبينا منا فقال لهُ ملك النوبة

فكيف أنتم تلوذون الى نبيكم بقرابة وأنتم تشربون ما حُرِّم عليكم من الخمور وتلبسون الديباج وهو محرَّم عليكم وتركبون في سروج الذهب والفضة وهي محرَّمة عليكم ولم يفعل نبيكم شيئاً من هذا وبلغنا انك لما وليت على مصر كنت تخرج الى الصعيد وتكلف اهل القرى ما لا يطيقون وتفسد الزرع على الناس وتروم الهدايا والتقادم من اهل القرى وكل هذا لاجل كركي تصيده قيمته سبعة انصاف أو ثمانية فصار ملك النوبة يعدد على الامير عبيد الله جملة ذنوب والامير عبيد الله ساكت لا يتكلم بحرف واحد ثم قال له ملك النوبة فلما استحللتم ما حرَّمهُ الله عليكم سلبتم ملككم وأخذ منكم واوقع الله بكم نقمة لم تبلغ غايتها منكم وانا اخاف على نفسي ان أنزلتك عندي ان تحل بي تلك النقمة التي حلت بكم والبلاء عام والرحمة مخصوصة ثم قال لهُ ارحل من ارضي بعد ثلاثة ايام والا أخذت جميع ما معك وقتلتك شر قتلة فلما سمع الامير عبيد الله ذلك خرج من ارض النوبة من يومهِ ورجع الى مصر فقبض عليه عمال الخليفة المنصور العباسي وبعثوا بهِ الى بغداد فسجنهُ المنصور حتى مات في السجن اه عن ابن أياس

وذكر القزويني هذه القصة فعزاها الى محمد بن مروان قال «وجرى ذكر ملك النوبة في مجلس المهدي (محمد بن ابي جعفر المنصور العباسي سنة ١٥٨ ه : ١٦٩ ه اي سنة ٧٧٥ م : ٧٨٥ م) فقال بعض الحاضرين ان لهُ مع محمد بن مروان قصة عجيبة فأمر المهدي باحضار محمد بن مروان وسألهُ عما جرى بينهُ وبين ملك النوبة فقال لما التقينا ابا مسلم بمصر وانهزمنا وتشتت جمعنا وقعت بأرض النوبة فأحببت أن يمكنني ملكهم من المقام عندهم زماناً فجاءني زائراً وهو رجل طويل اسود اللون فخرجت اليهِ من قبتي وسألتهُ ان يدخلها فأبى ان يجلس الا خارج القبة على التراب فسألتهُ عن ذلك فقال ان الله تعالى اعطاني الملك فحقٌ عليَّ ان اقابلهُ بالتواضع ثم قال لي ما بالكم تشربون النبيذ وانها محرَّمة في ملتكم قلت نحن ما نفعل ذلك وانما يفعلهُ بعض فسّاق اهل ملتنا فقال كيف لبست الديباج ولبسهُ حرام في ملتكم قلت ان الملوك الذين كانوا قبلنا وهم الاكاسرة كانوا يلبسون الديباج فتشبهنا بهم لئلا تنقص

هيبتنا في عين الرعايا فقال كيف تستحلون اخذ اموال الرعايا من غير استحقاق قلت هذا شيء لا نفعلهُ ولا نرضى بهِ وانما يفعلهُ بعض عمَّالنا السوء فأطرق وجعل يردد مع نفسه « يفعلهُ بعض عمالنا السوء » ثم رفع رأسه وقال ان الله تعالى جعل فيكم نقمة ما بلغت غايتها اخرج من ارضي حتى لا يدركني شومك ثم قام ووكل بي حتى ارتحلت من ارضهِ والله تعالى الموفق اه

وقال القزويني « بلاد النوبة ارض واسعة في جنوبي مصر وشرقي النيل وغربيهِ واهلها امة عظيمة نصارى يعاقبة ولهم ملك اسمه كابيل يزعمون انهُ من نسل ملوك حمير قال (صلعم) خير سبيكم النوبة وقال ايضاً من لم يكن لهُ اخ فليتخذ اخاً نوبيًّا . ومن عاداتهم تعظيم الملك الذي اسمهُ كابيل وهو يوهم انه لا يأكل ويدخل الطعام عليه سرًّا فان عرف ذلك احد من الرعية قتلوهُ لوقتهِ ويشرب شراباً من الذرة مقوى بالعسل ولبسهُ الثياب الرفيعة من الصوف والخز والديباج وحكمهُ نافذ في رعيتهِ ويدهُ مطلقة يسترق من شاء ويتصرف في اموالهم وهم يعتقدون انه يحيي ويميت ويصح ويمرض

وقال البلاذري في كتاب الفتوحات في كلامهِ عن البقط « ان المقرَّر على النوبة اربعمائة رأس يأخذون بها طعاماً أي غلة وألزمهم امير المؤمنين المهدي محمد بن ابي جعفر المنصور (العباسي المارّ ذكره) ثلثمائة وستين رأساً وزرافة اه »

وقال الليث بن سعد وهو من الثقات في اخبار النوبة ولم يزل النوبة يؤدون البقط في كل سنة ويدفع اليهم ما تقدم ذكرهُ الى ايام أمير المؤمنين المعتصم بالله أبي اسحاق بن الرشيد العباسي (سنة ٢١٨ هـ : ٢٢٧ هـ — ٨٣٣ م : ٨٤٢ م) وكبير النوبة يومئذٍ زكرياء بن بحنس وكانت النوبة ربما عجزت عن دفع البقط فشنَّ الغارة عليهم ولاة المسلمين القريبون من بلادهم ومنعوا اخراج الجهاز اليهم فانكر فيرقي ولد كبيرهم زكريا على ابيهِ ذلَّ الطاعة لغيرهِ واستعجزهُ فيما يدفع فقال لهُ ابوهُ فما تشاء قال عصيانهم ومحاربتهم قال ابوهُ هذا شيء رآهُ السلف من آبائنا صواباً واخشى ان يفضي هذا الامر اليك فتقدم على محاربة المسلمين غير أني اوجهك الى ملكهم رسولاً

فأنت ترى حالنا وحالهم فان رأيت لنا بهم طاقة حاربناهم على خبرة والا سألتهُ الاحسان الينا فشخص فيرقى الى بغداد وكانت البلدان تزين لهُ وهو يسير على المدن وانحدر بانحداره رئيس البجة ولقيا المعتصم فنظرا الى ما بهرهما من حال العراق في كثرة الجيوش وعظم العمارة مع ما شاهداهُ في طريقهما فقرّب المعتصم فيرقى وادناهُ وأحسن اليهِ احساناً تاماً وقبل هديتهُ وكافأهُ بأضعافها وقال لهُ تمنَّ ما شئت فسألهُ في اطلاق المحبوسين فأجابهُ الى ذلك وكبر في عين المعتصم ووهب لهُ الدار التي نزلها بالعراق وامر أن يشترى لهُ في كل منزل من طريقهِ دار تكون لرسلهم فانهُ امتنع من دخول دار لاحدٍ في طريقهِ فأخذ لهُ بمصر دار بالجيزة وأخرى ببني وائل واجرى لهم في ديوان مصر سبعمائة دينار وفرساً وسرجاً ولجاماً وسيفاً محلى وثوباً مثقلاً وعمامة من الخز وقيص شرب ورداء شرب وثياباً لرسلهِ غير محدودة عند وصول البقط الى مصر ولهم حملان • وخلع على المتولي قبض البقط وعليهم رسوم معلومة لقابض البقط والمتصرفين معهُ وما يهدى اليهم بعد ذلك فغير محدود وهو عندهم هدية يجازون عليها • ونظر المعتصم الى ما كان يدفعهُ المسلمون فوجدهُ اكثر من البقط وانكر عطية الخمر واجرى الحبوب والثياب التي تقدم ذكرها وقرّر دفع البقط بعد انقضاء كل ثلاث سنين وكتب لهم كتاباً بذلك بقي بيد النوبة • وطلب ملك النوبة من المعتصم ازالة المسلحة المعروفة بالقصر عن موضعها الى الحد الذي بينهم وبين المسلمين لان المسلحة على ارضهم فلم يجبهُ الى ذلك • ولم يزل الرسم اجارياً بدفع البقط على هذا التقرير ويدفع اليهم ما اجراهُ المعتصم الى ان قدمت الدولة الفاطمية الى مصر اه عن المقريزي

وقال المسعودي في كلامهِ عن البقط «وعدد ذلك ثلاثمائة رأس وخمسة وستون رأساً واراهُ رسم على عدد ايام السنة هذا لبيت مال المسلمين بشرط الهدنة بينهم وبين النوبة وللامير في مصر غير ما ذكرنا من عدد السبي اربعون رأساً ولخليفتهِ المقيم في بلاد اسوان المجاورة لارض النوبة وهو المتولي لقبض هذا البقط وهو السبي عشرون رأساً غير الاربعين وللحاكم المقيم في اسوان الذي يحضر مع امير اسوان

لقبض البقط خمسة رؤوس غير العشرين التي يقبضها الامير وللاثني عشر شاهدًا عدولاً من اهل اسوان يحضرون مع الحاكم حين قبض البقط اثنا عشر رأساً من السبي على حسب ما جرى به الرسم في صدر الاسلام في بدء ايقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة . والموضع الذي يتسلم فيهِ هذا البقط ويحضرهُ من سميناهُ وغيرهم من النوبة من ثقات الملك يعرف بالقصر وهو على ستة اميـال من مدينة اسوان بالقرب من جزيرة بلاق اه »

وقال (المسعودي) عند كلامهِ عن اسوان « ومدينة اسوان يسكنها خلق كثير من العرب من قحطان ونزار بن معدّ من ربيعة ومضر وخلق من قريش واكثرهم ناقلة من الحجاز وغيرهِ . والبلد كثير النخل خصيب كثير الخير . تودع النواة الارض فتنبت نخلة ويؤكل من ثمرها بعد سنتين . ولمن باسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة يؤدون خراجها الى ملك النوبة وابتيعت هذه الضياع من النوبة في صدر الزمان في دولة بني أمية وبني العباس . وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم بوفد اوفدهم الى الفسطاط ذكروا عنهُ ان ناساً من اهل مملكتهِ وعبيدهِ باعوا ضياعاً من ضياعهم ممن جاورهم من اهل اسوان وانها ضياعهُ والقوم عبيد لا املاك لهم وانما تملككهم على هذه الضياع تملك العبيد العاملين فيها فرد المأمون امرهم الى الحاكم بمدينة اسوان ومن بها من اهل العلم والشيوخ وعلم من ابتاع هذه الضياع من اهل اسوان انها ستنزع من ايديهم فاحتالوا على ملك النوبة بأن تقدموا الى من ابتيع منهم من اهل النوبة انهم اذا حضروا حضرة الحاكم ان لا يقرُّوا لملوكهم بالعبودية وان يقولوا سبيلنا معاشر المسلمين سبيلكم مع ملككم تجب علينا طاعتهُ وترك مخالفتهِ فان كنتم انتم عبيدًا لملككم واموالكم لهُ فنحن كذلك ولما جمع الحاكم بينهم وبين صاحب الملك اتوا بهذا الكلام للحاكم ونحوهِ مما اوقفوا عليهِ من هذا المعنى فمضى البيع لعدم اقرارهم بالرق لملكهم الى هذا الوقت وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس المجاورة لاسوان . وصار النوبة اهل مملكة هذا الملك نوعين نوعاً من وصفنا احرارًا غير عبيد والنوع الآخر من اهل مملكتهِ عبيد وهم

من سكن من النوبة في غير بلاد مريس اه كلام المسعودي ملخصاً

وفي سنة ٢٥٥ هـ ٨٧٠ م ذهب ابو عبد الرحمن ابن عبد الله بن عبد الحميد العمري الى محاربة النوبة (ورجع غانمًا) اه عن المقريزي

وقال المسعودي « وانتهيت في تصنيفي الى هذا الموضع من كتابنا هذا في شهر ربيع الآخر سنة ٣٣٢ هـ ٩٤٤ م فأخبرت أن الملك في مدينة دنقلا الى النوبة ليرني بن سدر وهو ملك ابن ملك ابن ملك فصاعدًا وملكهُ يحتوي على ام قرية وعلوة

وفي ذي الحجة سنة ٣٤٤ هـ ٩٥٦ م أغار ملك النوبة على اسوان وقتل جمعاً من المسلمين فخرج اليهِ محمد بن عبد الله الخازن على عسكر مصر من قبل أنوجور بن الاخشيد في محرم سنة ٣٤٥ هـ ٩٥٧ م فساروا في البر والبحر و بعثوا بعدة من النوبة أسروهم فضربت أعناقهم بعد ما أوقع بملك النوبة. وسار الخازن حتى فتح مدينة ابريم وسبى اهلها وقدم الى مصر في نصف جمادي الاولى سنة ٣٤٥ هـ بمائة وخمسين أسيرًا وعدة رؤوس اه عن المقريزي » وقال المتنبي من قصيدة مشهورة يمدح بها كافور الاخشيدي الذي تولى مصر من سنة ٣٥٥ هـ : ٣٥٧ هـ — ٩٦٦ : ٩٦٨ م

« يصرّفُ الامرَ من مصر الى عدنٍ الى الحجازِ فأرضِ الزنجِ فالنوبِ »

وهو يدل على اتساع ملك مصر في ذلك الزمان وخضوع النوبة لها

وقال ابن الاثير « وفي سنة ٣٩٧ هـ ١٠٠٧ م سار ابو ركوة الى بلد النوبة فلما بلغ الى حصن يعرف بحصن الجبل للنوبة اظهر انهُ رسول من « الحاكم » الى ملكهم فقال لهُ صاحب الحصن الملك عليل ولا بد من استخراج امره في مسيرك اليهِ و بلغ الفضل الخبر فأرسل الى صاحب القلعة بالخبر على حقيقتهِ فوكل بهِ من يحفظهُ وارسل الى الملك بالحال وكان ملك النوبة قد توفي وملك ولده فأمر ان يسلم الى نائب الحاكم فتسلمهُ رسول الفضل وسار بهِ فلقيهُ الفضل واكرمهُ وانزلهُ في مضاربهِ وحملهُ الى مصر فأشهر بها وطيف بهِ . وكتب ابو ركوة الى « الحاكم » رقعة يقول فيها يا مولانا ذنوبي عظيمة واعظم منها عفوك والدماء حرام ما لم يحللها سخطك وقد احسنتَ واسأتُ وما ظلمتُ الاّ نفسي وسوء عملي أوبقني واقول :

فررت فلم يغنِ الفرار ومن يكن ... مع الله لم يعجزهُ في الارض هاربُ
ووالله ما كان الفرار لحاجةٍ ... سوى فزع الموت الذي انا شارب
وقد قادني جرمي اليك برمّتي ... كما خرَّ ميتٌ في رحا الموت ساربُ
وأجمع كل الناس انك قاتلي ... فيا رُبَّ ظنٍّ ربه فيك كاذبُ
وما هو الاّ الانتقام وينتهي ... واخذك منهُ واجباً لك واجب

ولما طيف بهِ ألبس طرطورًا وجُعل خلفهُ قرد يصفعهُ كان معلماً بذلك ثم حمل الى ظاهر القاهرة ليقتل ويصلب فتوفي قبل وصولهِ فقطع رأسهُ وصلب . وبالغ الحاكم في اكرام الفضل الى حد انهُ عادهُ في مرضةٍ مرضها دفعتين فاستعظم الناس ذلك ثم انهُ عمل في قتل الفضل لما عوفي فقتلهُ

«وفي جمادى الاولى سنة ٥٦٨ هـ ١١٧٣م سار شمس الدولة ثوران شاه ابن ايوب اخو صلاح الدين الاكبر من مصر الى بلد النوبة فوصل الى اوَّل بلادهم ليتغلب عليهِ ويملكهُ وكان سبب ذلك ان صلاح الدين واهلهُ كانوا يعلمون ان نور الدين كان على عزم الدخول الى مصر فاستقر الرأي بينهم انهم يتملكون اما بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى اذا وصل اليهم نور الدين لقوهُ وصدوهُ عن البلاد فان قووا على منعهِ اقاموا بمصر وان عجزوا عن منعهِ ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التي قد افتتحوها فجهز شمس الدولة وسار الى اسوان ومنها الى بلد النوبة فنازل قلعة اسمها ابريم فحصرها وقاتلهُ اهلها فلم يكن لهم طاقة بقتال العسكر الاسلامي لانهم ليس لهم جنة تقيهم السهام وغيرها من آلة الحرب فسلموها فملكها واقام بها ولم يرَ للبلاد دخلاً يُرغب فيهِ وتحتمل المشقة لاجلهِ وقوتهم الذرة فلما رأى عدم الحاصل وقشف العيش مع مباشرة الحروب ومعاناة التعب والمشقة تركها وعاد الى مصر بما غنم وكان عامة غنيمتهم العبيد والجواري »

وقال المقريزي في كلامه عن ثوران شاه هذا « وأعطاهُ صلاح الدين قوص واسوان وعيذاب وجعلها لهُ اقطاعاً فكانت عبرتها في تلك السنة مائتي ألف وستة وستين ألف دينار . ثم خرج الى غزو بلاد النوبة في سنة ٥٦٩ هـ ١١٧٤ م

وفتح قلعة ابريم وسبى وغنم ثم عاد بعد ما اقطع ابريم بعض أصحابه »

« وقد غلب اولاد كنز الدولة على النوبة وملكوها من سنة ٠٠٠٠٠ وبنى بدنقلا جامع يأوى اليهِ الغرباء »

« وفي سنة ٦٧٤ هـ ١٢٧٦م كثر خبث داود متملك النوبة وأقبل الى ان قرب من مدينة اسوان وحرق عدة سواقٍ بعد ما افسد بعيذاب فمضى اليهِ والي قوص فلم يدركهُ وقبض على صاحب الخيل في عدة من النوبة وحملهم الى السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقاري بقلعة الجبل فوسَّطهم (أي قطعهم بالسيف من الوسط)

وقدم سكندة ابن اخت متملك النوبة متظلماً من خالهِ داود فجرَّد السلطان الملك الظاهر معهُ الامير شمس الدين آق سنقر الفارقاني استاذ دارهِ والامير عز الدين ايبك الافرم امير جاندار في جماعة كثيرة من العسكر ومن أجناد الولايات عربان الوجه القبلي والزرَّاقين والرماة ورجال الحراريق فساروا في أول شعبان سنة ٦٧٤ هـ من القاهرة حتى وصلوا الى ارض النوبة فخرجوا الى لقائهم على النجب (الابل) بأيديهم الحراب وعليهم دكادك سود فاقتتل الفريقان قتلاً كبيراً انهزم فيهِ النوبة واغار الافرم على قلعة الدر وقتل وسبي وأوغل الفارقاني ومعهُ الافرم في ارض النوبة برًا وبحرًا يقتل ويأسر فحاز من المواشي ما لا يعد ونزل بجزيرة ميكائيل برأس الجنادل ونفر المراكب من الجنادل ففر النوبة الى الجزاير . وكتب الفارقاني لقمر الدولة نائب داود متملك النوبة أماناً فحلف قمر الدولة لسكندة على الطاعة وأحضر رجال المريس ومن فر . وخاض الافرم الى برج في الماء وكان فيهِ داود واسرتهُ وحصرهُ حتى أخذهُ وقتل بهِ مائتين وأسر أخا لداود فهرب داود والعسكر في أثره مدة ثلاثة أيام وهم يقتلون ويأسرون حتى اذعن القوم وأسرت أم داود وأختهُ ولم يقدر على داود لانهُ تخلص الى النوبة العليا فلقيهُ هناك ملكها فقاتلهُ وهزمهُ واسرهُ وبعث بهِ مقيدًا الى السلطان بمصر فاعتقل بالقلعة الى ان مات وتقرَّر سكندة عوضهُ وقرَّر على نفسهِ القطيعة في كل سنة ثلاث فيلة وثلاث زرافات وخمس فهود من أناثها ومائة نجيب أصهب واربعمائة رأس من البقر المنتجة على ان تكون

بلاد النوبة نصفين نصفها للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ما خلا بلاد الجنادل فانها كلها للسلطان لقربها من اسوان وهي نحو الربع من بلاد النوبة وأن يحمل ما بها من التمر والقطن والحقوق الجارية بها العادة من قديم الزمان وان يقوموا بالجزية ما بقوا على النصرانية فيدفع كل بالغ منهم في السنة دينارًا عينًا . وكتب نسخة يمين بذلك حلف عليها الملك سكندة ونسخة يمين أخرى حلفت عليها الرعية . وخرّب الاميران كنائس النوبة وأخذا ما فيها وقبضا على نحو عشرين أميرًا من امراء النوبة وأفرجا عمن كان بأيدي النوبة من اهل اسوان وعيذاب من المسلمين في أسرهم وألبسا سكندة تاج الملك واقعداهُ على سرير المملكة بعد ما حلف والتزم ان يحمل جميع ما لداود ولكل من قتل وأسر من مال ودواب الى السلطان مع البقط القديم وهو اربعماية رأس من الرقيق وزرافة في كل سنة من ذلك ما كان للخليفة ثلثماية وستون رأسًا ولنائبهِ بمصر أربعون رأسًا على ان يطلق لهم اذا وصلوا بالبقط تامًا من القمح الف أردب لمتملكهم وثلثماية أردب لرسلهِ اه عن المقريزي . وقال ابن خلدون :

« ثم مات الظاهر بيبرس وانقرضت دولتهُ ودولة بنيهِ وانتقل الملك الى المنصور قلاون فبعث سنة ٦٨٦ هـ ١٢٨٨ م العساكر الى النوبة مع علم الدين سنجر الخياط وعز الدين الكوراني وسار معهم نائب قوص عز الدين ايدمر السيفي بعد ان استنفر العربان اولاد ابي بكر واولاد عمر وأولاد شريف واولاد شيبان واولاد كنز الدولة وجماعة من الغرب ... وبني هلال وساروا على العدوة الغربية والشرقية الى دنقلا وملكهم في ذلك الحين بيت مأمون هكذا سماهُ النووي واظنهُ أخا مرتشكين (سكندة) و برزوا للعساكر فهزمتهم واتبعتهم خمسة عشر يومًا وراء دنقلا ورُتب ابن اخت بيت مأمون في الملك ورجعت العساكر فرجع بيت مأمون الى دنقلا فاستولى على البلاد ولحق ابن اختهِ بمصر صريخًا بالسلطان فبعث معهُ عز الدين ايبك الافرم في العساكر ومعه ثلاثة من الامراء وعز الدين نائب قوص وذلك سنة ٦٨٨ هـ و بعثوا المراكب في البحر بالازودة والسلاح ومات ملك النوبة (ابن اخت بيت مأمون) المستنجد بهم بأسوان ودفن بها وجاء نائبهُ جريس (اي نائب ابن اخت بيت مأمون)

صريحاً الى السلطان فبعث معه داود ابن اخي مرتشكين الذي كان أسيراً بالقلعة وتقدم جريس بين يدي العساكر حتى وصلوا الى دنقلا فهرب بيت مأمون وامتنع بجزيرة وسط النيل على خمسة عشر مرحلة وراء دنقلا ووقفت العساكر على ساحل البحر وتعذر وصول المراكب الى الجزيرة من كثرة الحجر وخرج بيت مأمون منها فلحق بالابواب (اي النوبة العليا) ورجع عن اصحابهِ (اي اصحاب بيت مأمون) ورجعت العساكر الى دنقلا فملكوا داود ابن اخي مرتشكين المتقدم الذكر ورجعوا الى مصر سنة ٦٨٩ هـ ١٢٩١ م لتسعة اشهر من مسيرهم بعد ان تركوا أميراً منهم مع الملك داود ورجعوا الى مصر ورجع بيت مأمون الى دنقلا وقتل داود وبعث الامير الذي كان معهُ الى السلطان وحملهُ رغبة في الصلح على ان يؤدي الضريبة المعلومة فاسعف لذلك واستقر في ملكهِ »

وقال ابن اياس « ثم دخلت سنة ٧٠٤ هـ ١٣٠٥ م وفيها حضر الى الابواب الشريفة صاحب دنقلا من اعمال الصعيد وكان صحبتهُ هدايا جميلة من رقيق وجمال وابقار حبشية وغير ذلك فخلع عليهِ السلطان خلعة وأنزلهُ بدار الضيافة »

وقال ابن خلدون في اخبار النوبة واسلامهم : « قد تقدم لنا غزو الترك الى النوبة ايام الظاهر بيبرس والمنصور قلاون لما كان عليهم من الجزية التي فرضها عمرو بن العاص عليهم وقررها الملوك بعد ذلك وربما كانوا يماطلون بها أو يمتنعون من إدائها فتغزوهم عساكر المسلمين من مصر حتى يستقيموا وكان ملكهم بدنقلا ايام سارت العساكر من عند قلاون اليها سنة ٦٨٠ هـ ١٢٨٢م واسمهُ بيت مامون ثم كان ملكهم لهذا العهد اسمهُ آي لا أدري أكان معاقباً لبيت مامون أو توسط بينهما متوسط وتوفي آي سنة ٧١٦ هـ ١٣١٧م وملك بعدهُ في دنقلا أخوهُ كربيس ثم نزع من بيت ملوكهم رجل الى مصر اسمهُ نشلي وأسلم فحسن اسلامهُ وأجرى لهُ السلطان الناصر بن قلاون رزقاً وأقام عندهُ فلما كانت سنة ٧١٦ هـ امتنع كربيس من اداء الجزية فجهز السلطان اليهِ العساكر وبعث معها عبد الله نشلي المهاجر الى الاسلام من بيت ملكهم فخام كربيس عن لقائهم وفرَّ الى بلاد الابواب ورجعت العساكر الى مصر واستقر

نشلي في ملك النوبة على حالهِ من الاسلام وبعث السلطان الى ملك الابواب في كريبس فبعث بهِ وأقام بباب السلطان. ثم ان اهل النوبة اجتمعوا على نشلي وقتلوهُ بممالأة جماعة من العرب سنة ٧١٩ هـ وبعثوا الى كريبس ببلد الابواب فألفوهُ بمصر وبلغ الخبر الى السلطان فبعثهُ الى النوبة فملكها وكان قد اعتنق الاسلام فأسلمت جميع رعيتهِ وانقطعت الجزية بأسلامهم اه كلام ابن خلدون

وقال لبسيوس « وفي دنقلا العجوز جامع قائم على خرائب كنيسة كبيرة وفي واجهة الجامع حجر من الرخام مكتوب عليهِ بالعربية ما معناهُ : كان افتتاح دنقلا العجوز التي هي كرسي النوبة في ٢٠ ربيع اول سنة ٧١٧ هـ — ٩ يونيو سنة ١٣١٨م وذلك عن يد سيف الدين عبد الله الناصر اه » قلتُ وقد رأيت من رأى الحجر في الفتح الاول واخبرني بهِ قبل اطلاعي على رحلة لبسيوس

وقال ابن خلدون « ثم انتشر احياء العرب من جهينة في بلاد النوبة واستوطنوها وملكوها وملأوها عيثاً وفساداً وذهب ملوك النوبة الى مدافعتهم (العرب) فعجزوا ثم صاروا الى مصانعتهم بالصهر فافترق ملكهم وصار لبعض أبناء جهينة من امهاتهم (لأن امهاتهم من بنات ملوك النوبة) على عادة الاعاجم في تمليك الأخت وابن الأخت فتمزَّق ملكهم واستولى اعراب جهينة على بلادهم وليس في طريقة استيلائهم شيء من السياسة الملوكية للآفة التي تمنع من انقياد بعضهم الى بعض فصاروا شيعاً لهذا العهد » اي الى اواخر القرن الثامن للهجرة

وبقوا كذلك شيعاً على كل شيعة منهم رئيس أو ملك الى ان قام الفونج في سنار سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٥ م فملكوها الى الشلال الثالث . ثم كان الفتح العثماني لمصر بيد السلطان سليم الفاتح سنة ١٥٢٠ م فأرسل سرية من عساكرهِ الى النوبة السفلى فملكوها من اسوان الى الشلال الثالث وعرفوا بالغزّ وعُرف حكامهم بالكشاف . وهكذا انقسمت بلاد النوبة السفلى بين ملوك الفونج والكشاف الى ان كان الفتح المصري للسودان سنة ١٢٣٦ هـ ١٨٢٠ م فخضعت لمصر كما سيجيء مفصلاً في تاريخ سنار

الفصل الثاني

في

﴿ تاريخ النوبة العليا ﴾

منذ دخول النصرانية اليها في القرن السادس للمسيح الى انقراضها منها وخراب سوبة سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٥ م

اما النوبة العليا المعروفة عند مؤرخي الاسلام بمملكة علوة وفي السودان بمملكة العنَج فظاهر ان النصرانية امتدت اليها من النوبة السفلى ولكن لم يحفظ لنا التاريخ شيئاً من اخبارها في النصرانية غير ما تقدم ذكره عن المقريزي عن كتاب ابن سليم الاسواني

وقد اخذ العرب المسلمون بعد فتح مصر يهاجرون الى السودان من مصر وبلاد العرب اما فراراً من الحكام أو طلباً للرزق فلما فتحت النوبة السفلى زاد عدد المهاجرين منهم الى بلاد النوبة العليا حتى ملأوها وكان اكثرهم من جهينة وبني العباس وتغلب العنصر العربي على النوبة ومع ذلك بقوا خاضعين لحكم العنج حتى قام الفونج في جزيرة سنار فاتحدوا مع العرب وهاجموا العنج فقتلوهم شر قتلة وخربوا سوبه خرباً تامًّا حتى صاروا يضربون المثل في خرابها فيقولون «فلان خرب خراب سوبه» . ثم ساروا الى قرّي عند جبل الرويان شمالي الخرطوم فقتلوا ملكها واستولوا عليها واسسوا مملكة في سنار اقام فيها الفونج ومشيخة في قرّي اقام فيها كبير العرب على ما سيجيء بالتفصيل

وقد انقرض النوبة من تلك البلاد وانقرضت لغتهم ولم يبقَ منهم الاَّ نفر قليل في نواحي شندي وجريف ود قمر بقرب سوبه فاعتنقوا الاسلام واتخذوا لغة العرب لغة لهم ولم يزالوا مميزين عن العرب في الملامح والاخلاق تميزاً لا يراهُ الاَّ الوطني . وهم على اسلامهم محتقرون واسم نوباوي من الفاظ الشتم عندهم والعرب تأنف من مصاهرتهم الاَّ انهم قد يتزوجون الجميلة من نسائهم ويزوجون كبارهم غير الجميلة من نساء العرب

﴿ آثار النصرانية في بلاد النوبة ﴾ وهكذا انقضت النصرانية من بلاد النوبة العليا كما انقضت من بلاد النوبة السفلى ولم يبقَ هناك ما يدلّ عليها سوى آثار بعض الاديرة والكنائس . ففي جزيرة فيلي آثار كنيسة جميلة . وفي الدقّار آثار كنيسة أخرى . وفي بئر الغزالي قرب اهرام نوري خرائب دير وبجانبهِ حجارة مدافن عليها كتابات باليونانية والقبطية . واما كنائس دنقلة العجوز وسوبه فقد خربت خراباً تامّاً كما مرّ . وقد تقدم ان النوبة حوّلوا أكثر الهياكل الوثنية الى كنائس فطلوا النقوش الهيروغليفية والصور القديمة بالطين وصوروا على الطلاء صور المسيح و بعض القديسين وقد رأيت سنة ١٨٨٤م صورة بولس الرسول في هيكل السبوع وصورة المسيح في هيكل فريج . وفي هذا الهيكل كتابة ١٤ سطرًا من عهد النصرانية مكتوبة بأحرف قبطية ولغة غير مفهومة سميت باللغة الايثيوبية المسيحية . وعلى حجر في التلة القائمة عليها قلعة ابريم كتابة بهذه اللغة ايضاً . وترى على جدران قدس الاقداس في هيكل دندور قرب كلابشة كتابة باللغة القبطية مفادها ان الراهب « ابراهيم » غرس الصليب هناك في عهد الملك ار بنومي ملك النوبة وكان « يوسف » نائبًا في تلمس (كلابشة) « وثيودروس » مطرانًا في فيلي (سنة ٥٧٧ م) . وفي سقف عمدة كتابة باللغة القبطية بشأن حجاج نصارى في اول عهد النصرانية

وكانت مطارنة النوبة تُرسل اليها من قِبل بطريرك الاقباط الى ان زالت النصرانية منها . وقال المقريزي في كلامهِ عن اليعاقبة في مصر في خلافة هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٥ : ١٢٥ هـ ٧٢٤ : ٧٤٣م) « وبعث اليهم اهل النوبة في طلب اساقفة فبعثوا اليهم من اساقفة اليعاقبة فصارت النوبة من ذلك العهد يعاقبة »

ويظهر ان لغة كنائس النوبة كانت القبطية واليونانية كما كانت لغة كنائس الاقباط في مصر . اما لغة النوبة انفسهم فقد انقرضت من بلاد النوبة العليا بانقراض اهلها وحلت العربية محلها ولكنها ثبتت في بلاد النوبة السفلى حتى الآن . والظاهر ان العرب الذين بقوا في النوبة السفلى بعد فتحها كانوا قليلين فاضطروا ان يتعلموا لغة النوبة وكلما هاجر اليهم جماعة من العرب تعلموا لغة النوبة ونسوا لغتهم . وهكذا فعل الاتراك

الباب الثاني

في

﴿ تاريخ البجة في صدر الاسلام ﴾

تمهيد جغرافي

تقدم لنا ان البجة سكان الصحراء الشرقية هم في المشهور بادية بني كوش بن حام وانهم عرفوا عند كتاب الرومان باسم البلامس . وقد ظنّ البعض انهم البُقه (BUKA) المدونون على الآثار المصرية أو البقيته (BUGAITÆ) المدونون على آثار اكسوم . واما البجة (أو البجا أو البيجة أو البجاة) فهو الاسم الذي عُرفوا بهِ عند مؤرخي العرب في صدر الاسلام . ولهؤلاء المؤرخين كلام طويل في شأنهم : قال ابو الفدا في جغرافيتهِ « وبلاد البجة بين بحر القلزم و بين بحر النيل و بينهم و بين النوبة جبال منيعة . وقال في تاريخهِ عن ابن سعيد « من امم السودان البجة وهم شديدو السواد عراة الابدان و يعبدون الاوثان وهم اهل امانة وحسن مرافقة للتجار وفي بلادهم الذهب وهم فوق الحبشة الى جهة الجنوب على النيل » وقال القزويني في كتاب اخبار البلاد « البجة بلاد متصلة بأعلى عيذاب في غرب منهُ . اهلها صنف من الحبش وبها معدن الزمرد الاخضر السلقي الكثير المائية يُسقى المسموم منهُ بهرأ فاذا نظرت الافعى اليهِ سالت حدقتها » وقال ابن الوردي « البجة شديدو السواد عراة الابدان يعبدون الاوثان ولهم عدة ممالك وهم أهل أنس وحسن وتلطف مع التجارِ وفي بلادهم معدن الذهب وليس بأرضهم قرى ولا خصب وانما هي بادية جدبة تصعد التجار منها الى وادي العلاقي وهو وادٍ فيهِ خلق كثير كالبلد الجامع وفيهِ ابار عذبة

وقال المقريزي « البجة بادية يتبعون الكلأ حيثما كان الرعي بأخبية من جلود وشعر وليس لهم مدن ولا قرى ولا مزارع الا ما سيأتي ذكرهُ ومعيشتهم مما يُنقل اليهم من أرض الحبشة وأرض مصر والنوبة . وقيل في اصلهم انهم قبيلة

من الحبشة الاّ انهم اشد سوادًا من هؤلاء . ويتزيون بزيّ العرب . وهم كالعرب قبائل وافخاذ لكل فخذ رئيس . وكان لهم قديمًا رئيس يرجع جميع رؤسائهم الى حكمه يسكن قرية تعرف بهَجَر هي اقصى جزيرة البجة . وفي اوديتهم شجر المقل والاهليلج والاذخر والشيح والسنا والحنظل وشجر البان وغير ذلك . وبأقصى بلدهم النخل وشجر الكرم والرياحين وغير ذلك مما لم يزرعهُ احد . وبها سائر الوحش من السباع والفيلة والنمور والفهود والقردة وعناق الارض وقط الزباد ودابة تشبهُ الغزال حسنة المنظر لها قرنان على لون الذهب قليلة البقاء اذا صيدت . ومن الطيور البيغاء والنقيط والنوبي والقمري أو دجاج الحبش وحمام بازين وغير ذلك . وتعظم الحيَّات ببلدهم وتكثر أصنافها ورئيت حية في غدير ماء قد أخرجت ذنبها والتفت على امرأة وردت فقتلتها من شدة الضغطة . وبها حية ليس لها رأس وطرفاها سواء منقشة ليست بالكبيرة اذا مشى الانسان على أثرها مات . واذا قتلت وامسك القاتل ما قتلها بهِ من عود أو حربة في يده ولم يلقهِ من ساعته مات . وقتلت حية منها بخشبة فانشقت الخشبة . واذا تأمل هذه الحية أحد وهي ميتة أو حية أصابهُ ضررها ! وأول بلد البجة في قرية تعرف بالخربة معدن الزمرُّد في صحراء قوص . وبين هذا الموضع وبين قوص نحو من ثلاث مراحل . والزمرد في هذا الموضع في مغائر بعيدة مظلمة يدخل اليها بالمصابيح وبحبال يستدل بها على الرجوع خوف الضلال ويحفر عليهِ بالمعاول فيوجد في وسط الحجارة وحولهُ غشيم دونهُ في الصبغ والجوهر . وفيها عدا عن الزمرُّد السالف الذكر الذهب في وادي العلاقي وكلما تصاعدت كان أجود ذهبًا واكثر . وفيها معادن الفضة والنحاس والحديد والرصاص وحجر المغنطيس والمرقشيتا والجمست وحجارة شطبا . فاذا بُلت الشطبة منها بزيت واشتعلت وُقدت مثل الفتيلة وغير ذلك مما شغلهم طلب معادن الذهب عما سواه . والبجة لا تتعرض لعمل شيء من هذه المعادن

« وكانت فراعنة مصر تغزوهم وتوادعهم احيانًا لحاجتهم الى المعادن وكذلك الروم لما أن ملكوا مصر . ولهم في المعادن أثار مشهورة وكان اصحابهم بها وقد فتحت مصر .

ثم لما جآء المسلمون الى مصر سمعوا بخبر هذه المعادن فكثرت سراياهم الى الصحراء وانتفعوا بها انتفاعاً عظيماً على ما سيجيء

«وانساب البجة من جهة النساء. وهم يورثون ابن البنت وابن الاخت دون ولد الصلب ويقولون أن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح فانهُ ان كان من زوجها أو من غيرهِ فهو ولدها على كل حال

«وهم اصحاب ذمة فاذا غدر احدهم رفع المغدور بهِ ثوباً على حربة وقال هذا عرش فلان يعني ابا الغادر فتصير سيئة عليهِ الى ان يترضاه. وهم يبالغون في الضيافة فاذا طرق احدهم الضيف ذبح لهُ . فاذا تجاوز ثلاثة نفر نحر لهم من اقرب الانعام اليهِ سواء كانت لهُ او لغيرهِ وان لم يكن شيء نحر راحلة الضيف وعوّضهُ ما هو خير منها . وهم يركبون النجب الصهب وتنتج عندهم . وكذلك الجمال العربية كثيرة عندهم ايضاً . والمواشي من البقر والغنم والضان غاية في الكثرة عندهم وبقرهم حسان ملمعة بقرون عظام ومنها جمّ . وكباشهم كذلك مثمرة ولها ألبان وغذاؤهم اللحم وشرب اللبن وأكلهم للجبن قليل وفيهم من يأكلهُ . ويشربون دم الضان سخناً ويأكلون مخ الجمال نياً وابدانهم صحاح وبطونهم خماص والوانهم مشرقة الصفرة وتقاطيعهم غليظة ووجوههم طويلة عريضة وانوفهم بارزة قليلاً وشعورهم فلفلية غير متلبدة وذلك دليل اختلاط وسحنتهم غاية الشناعة ولهم سرعة في الجري يباينون بها الناس وكذلك جمالهم شديدة العدو صبورة عليهِ وعلى العطش يسابقون عليها الخيل ويقاتلون عليها وتدور بهم كما يشتهون ويقطعون عليها من البلاد ما يتفاوت ذكرهُ ويتطاردون عليها في الحرب فيرمي الواحد منهم الحربة فان وقعت في الرمية طار اليها الجمل فأخذها صاحبها وان وقعت في الارض ضرب الجمل بجرانهِ الارض فاخذها صاحبها. وسلاحهم الحراب السباعية مقدار طول الحديدة ثلاثة اذرع والعود أربعة أذرع ومن ذلك اسمها والحديدة في عرض السيف لا يخرجونها من ايديهم الا في بعض الاوقات لأن في آخر العود شيئاً شبيهاً بالفلكة يمنع خروجها من أيديهم . وصنّاع هذه الحراب نساء في موضع لا يختلط بهنّ رجل الا المشتري منهنّ فاذا

ولدت احداهنّ من الطارقين لهنّ جارية استحيتها وان ولدت غلاماً قتلتهُ ويقلنَ ان الرجال بلاء وحرب • ودرقهم من جلود البقر مشعرة ودرق مقلوبة تعرف بالاكسومة من جلود الجواميس • وكذلك الدهلكية من دابة في البحر • وقسيهم عربية كبار غلاظ من السدر والشوحط يرمون عليها بنبل مسموم وهذا السم يعمل من عروق شجر الغلف يطبخ على النار حتى يصير مثل الغراء فاذا ارادوا تجربتهُ شرط احدهم جسده وسيل الدم ثم شممهُ هذا السم فاذا تراجع الدم علم انهُ جيد ومسح الدم لئلا يرجع الى جسمهِ فيقتلهُ فاذا اصاب الانسان قتل لوقتهِ ولو مثل شرط الحجام وليس لهُ عمل في غير الجرح والدم وان شرب منهُ لم يضر • وفي البجة جنس يقطعون ثناياهم ويقولون لا نتشبه بالحمير • وفيهم جنس آخر في آخر بلاد البجة على نهر اتبرة يقال لهم البازة تسمى نساؤهم باسم واحد وكذلك الرجال فطرقهم في وقت رجل مسلم لهُ جمال فدعا بعضهم بعضاً وقالوا هذا الله قد نزل من السماء فجعلوا ينظرون اليهِ من بعد • واشتهر عن البجة ختان النساء (ختان فرعون)

• وكان البجة قبل دخول الاسلام الى أرض مصر صائبة يعبدون الاصنام وكان لكل بطن كاهن يضرب لهُ قبة من أدم معبدهم فيها فاذا رأوا استخبارهُ عما يحتاجون اليهِ تعرّى ودخل القبة مستدبرًا ويخرج اليهم وبهِ أثر جنون وصرع يقول الشيطان يقرئكم السلام ويقول لكم ارحلوا عن هذه الحلة فان الرهط الفلاني يقع بكم وسألتم عن الغزو الى بلد كذا فسيروا فانكم تظفرون وتغنمون كذا وكذا والجمال التي تأخذونها من موضع كذا هي لي والجارية الفلانية التي تجدونها في الخباء الفلاني والغنم التي من صنفها كذا ونحو هذا القول فيزعمون أنهُ يصدقهم في اكثر من ذلك فاذا غنموا أخرجوا من الغنيمة ما ذكر ودفعوه الى الكاهن يتموّلهُ • ويحرمون البان نوقها على من لم يقبل فاذا ارادوا الرحيل حمل الكاهن هذه القبة على جمل مفرد فيزعمون ان ذلك الجمل لا يثور الا بجهد وكذلك سيرهُ ويتصبب عرقاً والخيمة فارغة لا شيء فيها اه» وقال ابن الوردي في تاريخهِ «وبين البجة والنوبة قوم يقال لهم البليون أهل عزم وشجاعة يهابهم كل من حولهم من الامم ويهادونهم وهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية»

الفصل الاول

في

﴿ تاريخ البجة ﴾

قال المقريزي : « قال عبد الرحمن ابن عبد الله بن عبد الحكم وتجمع لعبد الله بن سعد بن أبي سرح في انصرافهِ من النوبة على شاطئ النيل البجة فسألهم عن شأنهم فأخبر ان ليس لهم ملك يرجعون اليهِ فهان عليهِ أمرهم وتركهم فلم يكن لهم عقد ولا صلح وكان أول من هادنهم عبيدالله بن الحبحاب السلوليّ في اواخر القرن الاول للهجرة ويذكر انهُ وجد في كتاب بن الحبحاب لهم ثلثماية بكر في كل عام حين ينزلون الريف مجتازين تجارًا غير مقيمين على ان لا يقتلوا مسلماً ولا ذمياً فان قتلوهُ فلا عهد لهم وان لا يؤوا عبيد المسلمين وأن يردوا آبقيهم اذا وقعوا اليهم ويقال انهم كانوا يؤاخذون بهذا و بكل شاة أخذها البيجاوي فعليهِ اربعة دنانير وللبقرة عشرة وكان وكيلهم مقيماً بالريف رهينة بيد المسلمين

« ثم كثرت أذيتهم على المسلمين وكان ولاة اسوان من العراق فرفع الى امير المؤمنين المأمون خبرهم فأخرج اليهم عبدالله بن الجهم سنة ٢١٦ ﻫ ٨٣١ م فكانت لهُ معهم وقايع ثم وادعهم وكتب بينهُ وبين كنون رئيسهم الكبير الذي يكون بقريتهم هجر (المارّ ذكرها) كتاباً نسختهُ : « هذا الكتاب كتبهُ عبد الله بن الجهم مولى امير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الامير ابن اسحق ابن امير المؤمنين الرشيد أبقاهُ الله في شهر ربيع الاول سنة ست عشرة ومايتين لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان انك سألتني وطلبت اليّ أن أومّنك وأهل بلدك من البجة وأعقد لك ولهم امانًا عليّ وعلى جميع المسلمين فأجبتك الى ان عقدت لك وعلى جميع المسلمين امانًا ما استقمت واستقاموا على ما اعطيتني وشرطت لي في كتابي هذا وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد اسوان من أرض مصر الى حد ما بين دهلك وباضع ملكاً للمأمون عبد الله بن هرون أمير المؤمنين أعزهُ الله

تعالى وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لامير المؤمنين الا انك تكون في بلدك ملكاً على ما أنت عليه في البجة. وعلى ان تؤدي اليهِ الخراج في كل عام على ما كان عليهِ سلف البجة وذلك ماية من الابل او ثلثماية دينار وازنة داخلة في بيت المال والخيار في ذلك لامير المؤمنين ولولاتهِ وليس لك ان تخرم شيئاً عليك من الخراج. وعلى ان كل أحد منكم ان ذكر محمدًا رسول الله (صلعم) وكتاب الله أو دينهُ بما لا ينبغي ان يذكرهُ بهِ أو قتل احدًا من المسلمين حرًّا او عبدًا فقد برئت منهُ الذمة ذمة الله وذمة رسولهِ (صلعم) وذمة أمير المؤمنين أعزّهُ الله وذمة جماعة المسلمين وحلّ دمهُ كما يحلّ دم أهل الحرب وذراريهم. وعلى أن احدًا منكم ان اعان المحاربين على اهل الاسلام بمال او دلهُ على عورة من عوارت المسلمين أو اثر لعزتهم فقد نقض ذمة عهدهِ وحلّ دمهُ. وعلى ان أحدًا منكم ان قتل احدًا من المسلمين عمدًا أو سهوًا او خطأ حرًّا أو عبدًا او احدًا من ذمة المسلمين او اصاب لاحد من المسلمين او اهل ذمتهم مالاً ببلد البجة او ببلاد الاسلام او ببلاد النوبة او من شيء من البلدان برًّا او بحرًا فعليهِ في قتل المسلم عشر ديّات وفي قتل العبد المسلم عشر قيمّ وفي قتل الذمي عشر ديّات من دياتهم وفي كل مال اصبتموهُ للمسلمين واهل الذمة عشرة اضعاف. وان دخل احد من المسلمين بلاد البجة تاجرًا او مقيماً او مجتازًا او حاجاً فهو آمن فيكم كاحدكم حتى يخرج من بلادكم ولا تؤوا احدًا من آبق المسلمين فان اتاكم آتٍ فعليكم ان تردوهُ الى المسلمين. وعلى ان تردوا اموال المسلمين اذا صارت في بلادكم بلا مؤنة تلزمهم في ذلك. وعلى انكم اذا نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة او مجتازين لا تظهرون سلاحاً ولا تدخلون المداين والقرى بحال ولا تمنعوا احدًا من المسلمين الدخول في بلادكم والتجارة فيها برًّا ولا بحرًا ولا تخيفوا السبيل ولا تقطعوا الطريق على احد من المسلمين ولا اهل الذمة ولا تسرقوا لمسلم ولا ذمي مالاً. وعلى ان لا تهدموا شيئاً من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولاً وعرضاً فان فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة. وعلى ان كنون بن عبد العزيز يقيم بريف صعيد مصر وكيلاً يفي للمسلمين بما شرط

للمسلمين من دفع الخراج ورد ما اصابهُ البجة للمسلمين من دم ومال • وعلى ان احدًا من البجة لا يعترض حد القصر الى قرية يقال لها قبان من النوبة حدًا لاعمدة • عقد عبد الله بن الجهم مولى امير المؤمنين لكنون بن عبد العزيز كبير البجة الامان على ما سمينا وشرطنا في كتابنا هذا وعلى ان يوافي امير المؤمنين فان زاغ كنون او عاث فلا عهد لهُ ولا ذمة•وعلى كنون ان يدخل عمال امير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من اسلم من البجة•وعلى كنون الوفاء بما شرط لعبد الله بن الجهم واخذ بذلك عهد الله عليهِ بأعظم ما اخذ على خلقهِ من الوفاء والميثاق • ولكنون بن عبد العزيز ولجميع البجة عهدالله وميثاقهُ وذمة أمير المؤمنين وذمة الامير أبي اسحق بن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله ابن الجهم وذمة المسلمين بريئة منهم •وترجم جميع ما فيهذا الكتاب حرفًا حرفًا زكريا ابن صالح المخزومي من سكان جده وعبد الله ابن اسماعيل القرشي ثم نسق جماعة من شهود اسوان

« فأقام البجة على ذلك برهة ثم عادوا الى غزو الريف من صعيد مصر وقتلوا من وجدوهُ بالمعدن من المسلمين وكان ذلك في أيام جعفر المتوكل على الله بن المعتصم (سنة ٢٣٢ : ٢٤٧ هـ — ٨٤٧ : ٨٦١م) فكتب لهُ صاحب البريد بمصر بخبرهم فأنكر المتوكل ذلك وشاور الناس في غزوهم فأخبروه أنهم أهل بادية أصحاب ابل وماشية وان الوصول الى بلادهم صعبٌ لأنها مفاوز وان بين بلادهم و بلاد المسلمين مسيرة شهر في ارض قفر وجبال وعرة وأن كل من يدخلها من الجيوش يحتاج ان يتزود لمدة يتوهم ان يقيمها الى ان يخرج الى بلاد الاسلام فان جاوز تلك المدة هلك وأخذتهم البجة باليد فأمسك المتوكل عنهم فطمعوا وزاد شرهم حتى خاف أهل الصعيد على أنفسهم منهم فولى المتوكل محمد بن عبد الله القمي على اسوان وقفط والاقصر واسنا وارمنت وأمرهُ بحرب البجة وكتب الى عنبسة بن اسحق الضبي عامل مصر بتجهيز العساكر معهُ واعطائهِ من الجند ما يحتاج اليه ففعل ذلك وسار محمد الى أرض البجة في عشرين الفًا بين فارس وراجل و بينهم من المتطوعة وممن كان يعمل بالمعادن عالم كثير ووجه الى القلزم (البحر الاحمر) سبعة مراكب موقورة بالدقيق

والزيت والتمر والشعير والسويق وأمر أصحابها أن يوافوهُ بها الى ساحل البحر مما يلي بلاد البجة وسار حتى جاوز المعادن التي يعمل فيها الذهب فانتهى الى حصونهم وقلاعهم فخرج اليهِ ملكهم واسمهُ علي بابا في اضعاف جيشهِ وكانت البجة على ابل فُرهٍ تشبه المهارى فتحاربوا أياماً ولم يصدقهم علي البابا القتال لتطول الايام وتفنى أزواد المسلمين وعلوفاتهم فيأخذهم بغير حرب فجاءت المراكب التي فيها الاقوات في البحر ففرّق القمي ما كان فيها على أصحابهِ فناجزهم البجة الحرب اذ ذاك وصدقوا في القتال وكانت ابلهم نفورة فأمر القمي جندهُ باتخاذ الاجراس بخيلهم ثم حملوا عليهم فنفرت ابلهم لأصوات الاجراس فحملتهم على الجبال والاودية وتبعهم المسلمون قتلاً وأسراً حتى ادركهم الليل وقد قتل من جيش البجة في تلك الوقعة عدد لا يحصى وكان ذلك سنة ٢٤١ هـ — ٨٥٦ م . ثم ان ملكهم علي بابا طلب الأمان من القمي فأمّنهُ على اداء الخراج لما سلف وهي أربع سنين كان قد منعها ولما يأتي وعلى ان يطأ بساط المتوكل في بغداد ولا يمنع المسلمين من العمل في المعدن وسار معهُ الى المتوكل بعد ان استخلف على مملكة ابنهِ فيعس سنة ٢٤١ هـ فرحب المتوكل بهِ وخلع عليهِ وعلى اصحابهِ وكسا جملهُ رحلاً مليحاً وجلال ديباج وولى المتوكل البجة طريق ما بين مصر ومكّة وولى عليهم سعد الايتاخي الخادم فولى سعد محمداً القمي فرجع اليها ومعهُ علي بابا وهو على دينهِ وكان معهُ صنمٌ من حجارة كهيئة الصبي يسجد لهُ . واقام القمي بأصوان مدة وترك في خزانتها ما كان معهُ من السلاح وآلة الغزو فلم تزل الولاة تأخذ منهُ حتى لم يبقوا منهُ شيئاً

• ولما كثر المسلمون في المعدن واختلطوا بالبجة قل شرهم وظهر التبر لكثرة طلابهِ وتسامع الناس بهِ فوفدوا من البلدان

• وفي سنة ٢٥٥ هـ ٨٦٩ م قدم عليهم أبو عبد الرحمن ابن عبد الله بن عبد الحميد العمري بعد محاربتهِ النوبة ومعهُ ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب فكثرت بهم العمارة في البجة حتى صارت الرواحل التي تحمل الميرة اليهم من اسوان ستين الف راحلة غير الجلاّب التي تحمل من القلزم الى عيذاب (راس رواية) . ومالت البجة

الى ربيعة وتزوجوا منهم . وقيل ان كهان البجة قبل اسلام من أسلم منهم ذكرت عن معبودهم الطاعة لربيعة ولكنون معاً فهم على ذلك ؛ فلما قتل العمري واستولت ربيعة على الجزائر والاهم البجة على ذلك وأخرجوا من خالفهم من العرب وتصاهروا الى رؤساء البجة وبذلك كف ضررهم عن المسلمين

« وفي سنة ٢٥٩ هـ ٨٧٣ م يوم العيد اقبل البجاة فنهبوا وعادوا غانمين وفعلوا ذلك مرّات وكان على مصر اذ ذاك عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فخرج غضباً لله وللمسلمين وكمن لهم في طريقهم فلما عادوا خرج عليهم وقتل مقدمهم ومن معهُ ودخل بلادهم فنهبها وقتل فيهم فأكثر ونهب وسبى مالايحصى وتابع عليهم الغارات حتى ادّوا اليهِ الجزية ولم يفعلوها قبل ذلك اه ملخصاً

وقال ابو حسن المسعودي « وقد كانت النوبة أشد من البجة الى أن قوي الاسلام وظهر وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب و بلاد العلاقي وعيذاب وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان فاشتدت شوكتهم وتزوجوا من البجة فقويت البجة بمن صاهرها من ربيعة وقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم من مُضر بن نزار ممن سكن تلك الديار . وصاحب المعدن في وقتنا هذا وهو سنة ٣٣٢ هـ ٩٤٤ م بشر بن مروان بن اسحاق وهو من ربيعة يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة واحلافها من مُضر واليمن وثلاثين ألف حراب على النجب من البجة بالجحف البجاوية وهم الحدارب وهم مسلمون من بين سائر البجة والداخلة من البجة كفّار يعبدون صنما لهم اه »

قال المقريزي « ثم كثر المسلمون في المعدن فخالطوهم وتزوجوا فيهم واسلم كثير من الجنس المعروف بالحدارب اسلاماً ضعيفاً وهم شوكة القوم ووجوههم وهم مما يلي مصر من أول حدهم الى العلاقيّ وعيذاب المعبر منهُ الى جدة وما وراء ذلك ومنهم جنس آخر يعرفون بالزنافج هم اكثر عدداً من الحدارب غير أنهم تبع لهم وخفراؤهم يحمونهم ويحبونهم المواشي ولكل رئيس من الحدارب قوم من الزنافج في حملتهِ منهم كالعبيد يتوارثونهم بعد ان كانت الزنافج قديماً أظهر عليهم » اه . وقيل اسلموا قبل

ذلك في امارة عبد الله بن ابي سرح ولما كثرت اذيتهم على المسلمين ارسل اليهم المأمون عبد الله بن الجهم

وما زال الاسلام يمتد حتى عم صحراء البجة كلها وأزال منها عبادة الاوثان

ويظهر ان اول من خالط البجة من العرب عرب بلي فانك اذا سألت البجاوي الآن أتعرف العربية يجيبك « بلويّة كاكا » أي لا اعرف العربية . وقال ابن خلدون في كلامهِ عن مواطن جهينة « هي ما بين الينبع ويثرب الى الآن في متسع من برية الحجاز وفي شماليهم الى عقبة ايلة مواطن بلي وكلاهما على العدوة الشرقية من بحر القلزم . واجتاز منهم أمم الى العدوة الغربية وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة فأرهقوهم الى هذا العهد اه » أي اواخر القرن الثامن للهجرة

وقد انقسم البجة الآن الى عدة قبائل جسيمة وهم العبابدة والبشارين والامارار والهدندوة والحلانقة والحباب وبني عامر وكلهم يدينون بالاسلام ويدعون النسبة الى العرب وما هم بعرب بل ربما كان في بعض خاصتهم دم عربيٌّ واما عامتهم فلا مشاحة في انهم بجة وكلهم يتكلمون اللغة البجاوية ولا يعرفون لغة غيرها الاَّ مشايخهم والذين يخالطون العرب منهم على النيل فانهم يتكلمون العربية ايضاً

هذا ولم يبقَ الآن في الصحراء الشرقية من يتسمى باسم البجة الاَّ طائفة صغيرة في قبيلة بني عامر وهم محتقرون . ومن امثال اهل السودان « البجة والخاس أرخص الناس »

اما الخاس المشار اليهم في هذا المثل فهم ايضاً طائفة صغيرة منتمية الى بني عامر على حدود الحبشة

قال ابو الفداء في جغرافيتهِ المسماة تقويم البلدان « وفي شمالي بلاد سحرته (سهاتي) من النيل الى البحر الخاس وهم مذمومون بين اجناس الحبشة وقد اشتهر عنهم انهم يخصون من يقع في أيديهم ويفتخرون بذلك » اه . قلت وما زالت هذه العادة جارية في الحبشة الى اليوم

الفصل الثاني
في
﴿ مدن البجة ﴾

﴿ عيذاب ﴾ اشتهر للبجة في الاسلام مدينتان على ساحل البحر الاحمر وهما عيذاب وسواكن . اما عيذاب فيؤخذ من اجمال ما ذكرهُ المؤرخون العرب أنها في المكان المعروف الآن برأس رواية . قال ابن خلكان « عيذاب بليدة على شاطئ بحر جدَّة يعدّي منها الركب المصري المتوجه الى الحجاز على طريق قوص في ليلة واحدة في اغلب الاوقات فيصل الى جدَّة » . وقال ياقوت في معجم البلدان « عيذاب بليدة على ضفة بحر القلزم هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن الى الصعيد » وقال ابن خلدون « وفي وسط الحجاز مكة شرفها الله وفي ساحلها مدينة جدَّة تقابل بلد عيذاب في العدوة الغربية من هذا البحر » وقال ابن الوردي في تاريخهِ « عيذاب مدينة حسنة وهي مجمع التجار برًّا وبحرًا واهلها يتعاملون بالدراهم عددًا ولا يعرفون الوزن وبها والٍ من قبل البجة ووالٍ من قبل سلطان مصر يقسمان جباياتها نصفين وعلى عامل مصر القيام بطلب الارزاق وعلى عامل البجة حمايتها من الحبشة واللبن والعسل والسمن بها كثير وبينها وبين الحجاز عرض البحر

وقال ابو الفداءِ في جغرافيتهِ « قد اختلف في عيذاب فبعضهم يحد ديار مصر على وجهٍ تدخل فيهِ وهو الاشبه لان الولاية فيها من مصر وهي من اعمال مصر حقيقة وبعضهم يجعلها من بلاد البجة وبعضهم يجعلها من بلاد الحبشة وهي فرضة لتجار اليمن وللحجاج الذين يتوجهون من مصر في البحر فيركبون من عيذاب الى جدَّة . قال بن سعيد وعرض البحر بين عيذاب وجدَّة درجتان وهي أشبه بالضيعة منها بالمدن

وقال المقريزي « عيذاب مدينة على ساحل بحر جدَّة وهي غير مسوَّرة واكثر بيوتها أخصاص وكانت من أعظم مراسي الدنيا بسبب ان مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة . واهل عيذاب الساكنون بها طائفة من البجاة ولهم سلطان من انفسهم يسكن معهم في الجبال

المتصلة بها وربما جاء في بعض الاحيان وقابل الوالي من جانب الغز اظهارًا للطاعة ، وطائفة البجاة أضل من الانعام سبيلاً واقل عقولاً لا دين لهم سوى كلمة التوحيد ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة ما لا ينحصر وهم عراة يسترون عوراتهم بخرق . وعيش اهل عيذاب عيش البهائم وهم أقرب الى الوحش في اخلاقهم منهم الى الانس

« وكان الحجاج من مصر والمغرب لا يتوجهون الى مكة المشرفة الا من صحراء عيذاب يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط الى قوص ثم يركبون الابل من قوص و يعبرون هذه الصحراء الى عيذاب ثم يركبون البحر في الجلاب (قوارب) الى جدّة ساحل مكة . وكذلك تجار الهند واليمن والحبشة يردون في البحر الى عيذاب ثم يسلكون هذه الصحراء الى قوص ومنها يردون مدينة مصر ومسافة هذه الصحراء من قوص الى عيذاب ١٧ يوماً ويفقد فيها الماء ثلاثة ايام متوالية وتارة يفقد اربعة ايام فكانت هذه الصحراء لا تزال عامرة اهلة بما يصدر أو يرد من قوافل التجار والحجاج حتى انهُ كانت احمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك لتوجد ملقاة بها والقفول صاعدة وهابطة لا يتعرض لها احد الى ان يأخذها صاحبها

« وعيذاب في صحراء لا نبات فيها وكل ما يؤكل بها مجلوب اليها حتى الماء . وكان لهم من الحجاج والتجار فوائد لا تحصى وكان لهم على كل حمل يحملونهُ للحجاج ضريبة مقررة وكانوا يكارون الحجاج الجلاب التي تحملهم في البحر الى جدّة ومنها الى عيذاب فتجمع لهم من ذلك مال عظيم ولم يكن في اهل عيذاب الا من لهُ جلبة فاكثر على قدر يساره وجلاب هذا البحر لا يستعمل بها مسمار البتة انما هي مخيطة بامراس من قشر جوز الهند المسمى بالنرجيل ويخللونها بدُسُر من عود النخل فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع و بدهن القرش وهو احسنها . والقرش حوت عظيم في البحر يبتلع الغرقى . وانما يدهنون الجلاب لتليين عددها وترطيبها لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر . واخشاب هذه الجلاب مجلوبة من الهند واليمن وشراعها حصر منسوجة من خوص شجر المقل

« ولاهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت فانهم يبالغون في شحن الجلبة

بالناس حتى يبقى بعضهم فوق بعض حرصاً على الاجرة ولا يبالون بما يصيب الناس في البحر بل يقولون دائماً علينا بالالواح وعلى الحجاج بالارواح وكان الحجاج يجدون في ركوبهم الجلاب على البحر اهوالاً عظيمة لان الرياح تلقيهم في الغالب بمراسٍ في صحارى بعيدة مما يلي الجنوب فينزل اليهم التجار من جبالهم فيكارونهم الجمال ويسلكون بهم على غير ماء فربما هلك اكثرهم عطشاً واخذ التجار مما كان معهم ومنهم من يضل ويهلك عطشاً والذي يسلم منهم يدخل الى عيذاب كانهُ نُشر من كفن قد استحالت هيئاتهم وتغيرت صفاتهم ومنهم من يساعدهُ الريح فتحطهُ بمرسى عيذاب وهو الاقل

«ولم تزل عيذاب مسلكاً للحجاج من اهل مصر والجنوب في ذهابهم وايابهم زيادة على مئتين سنة من اعوام بضع سنة ٤٥٠ هـ ١٠٥٩ م الى اعوام بضع سنة ٦٦٠ هـ ١٢٦٢ م وذلك في ايام الخليفة المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر وانقطع الحج في البر الى ان كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقاري الكعبة وعمل لها مفتاحاً ثم اخرج قفلة الحجاج من البر في سنة ٦٦٦ هـ ١٢٦٨م فقلّ سلوك الحجاج لهذه الصحراء . واستمرت بضائع التجار تحمل من عيذاب الى قوص حتى بطل ذلك بعد سنة ٧٦٦ هـ ١٣٦٥م وتلاشى امر قوص من حينئذٍ . ولما انقطع ورود مراكب الهند واليمن اليها صارت المرسى العظيمة عدن من بلاد اليمن الى ان كانت اعوام بضع وعشرين وثمانماية فصارت جدّة اعظم مراسي الدنيا » اه

﴿ سواكن ﴾ اما سواكن فقد قال فيها أبو الحسن المسعودي « وجزيرة سواكن أقل من ميل في ميل وبينها وبين البحر الحبشي بحر قصير يُخاض وأهلها طائفة من البجا تسمى الخاسة وهم مسلمون ولهم بها ملك . وقال أبو الفداء في جغرافيتهِ « قال ابن سعيد وصاحب سواكن من البجا المسلمين ولهُ ضرائب على التجار وسواكن صغيرة جدّاً . او بين سواكن وبين عيذاب نحو سبع مراحل وحكى لي بعض المسافرين اليها قال وسواكن بقدر ضيعة صغيرة في جزيرة صغيرة قريبة من الساحل ويخاض اليها من البر وهي وما حولها للبجا . واما ما وراء سواكن والى المندب فهو لجنس من السودان يقال لهم دَنكل ومن وراءات المندب لزيلع

الباب الرابع

في

تاريخ مملكة سنار

منذ خراب سوبه سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٥م الى الفتح المصري لسنار
سنة ١٢٣٦ هـ ١٨٢٠ م

﴿ تمهيد ﴾

يؤخذ من التواريخ التقليدية ان جزيرة سنار الواقعة بين النيل الابيض والنيل الازرق هي بلاد المكروبين الذين ذكرهم هيرودوتس انهم في اقصى جنوب ايثيوبيا. وقد تقدم لنا حملاً على الظن ان الجنود المصريين الذين فرّوا الى السودان في ايام الملك بسامتيك سنة ٦٤٤ ق . م اقاموا في جزيرة سنار. وارتأى البعض ان الملك الذي طمع كمبيز ببلادهِ فعجز عن الوصول اليهِ سنة ٥٢٥ ق.م كما مرّ هو ملك هذه الجزيرة . وفي بعض التقاليد القديمة انهُ قام في هذه الجزيرة بعد كمبيز ١٢ ملكة و ١٠ ملوك . وقد رأينا انهُ قام في شرقيها مملكة عرفت بمملكة علوة أو مملكة العنج وذلك من قبل النصرانية و بقيت على النصرانية نحو الف سنة حتى قام الفونج فاتحدوا مع العرب فخربوها واسسوا مملكة سنار سنة ١٥٠٥ م في مكانها

اما الفونج فقد اختلف المؤرخون في اصلهم فمن قائل انهم فرع من الشلك ومن قائل انهم من سكان دارفور الاصليين . والذي عليهِ التقاليد السودانية وتدعيه سلالتهم انهم من بني امية قالوا : ان العباسيين لما تغلبوا على الامويين في الشام ونزعوا الملك من ايديهم سنة ١٣٢ هـ ٧٥٠م اخذ من بقي من الامويين ومن والاهم بالفرار فتفرقوا في انحاء العالم فذهبت جماعة منهم الى اسبانيا فأسسوا مملكة الاندلس على ما هو مشهور وذهب آخرون الى السودان فأسسوا مملكة سنار قيل لجأوا اولاً الى الحبشة فعلم بنو العباس بهم فأرسلوا الى النجاشي يريدون منهُ تسليمهم والاّ اقاموا عليهِ حرباً عواناً

واخذوهم عنوة فحار النجاشي في امره لانهُ لم يشأ ان يسلّم قوماً دخلوا في حماهُ الى اعدائهم ولا ان يتحمل عناء حرب طويلة لاجلهم فارسل هدية فاخرة الى العباسيين وامر الامويين فخرجوا من بلادهِ وسكنوا الجبال التي في اعالي جزيرة سنار وكان سكانها من السود (وبينهم الفونج) فملكوهم بالسهل نظراً لما تعودوهُ من السلطة والنفوذ في سورية والعراق وكثر تسريهم منهم فغيّر ذلك من لونهم ولكنهُ لم يضع اصلهم فهم لم يزالوا عرباً ممتازين

هذه هي رواية القائلين ان الفونج من بني أمية وفي جملتهم الشيخ عبد الدافع صاحب تاريخ الفونج ولكن ما من قبيلة اشتهرت في السودان الاّ ادَّعت لنفسها نسباً يتصل بآل البيت ولعلّ الفونج لم يخرجوا عن هذا الحكم والاقرب الى الصواب انهم قوم خلاسيون اي خليط من كبراء العرب وملوك الفونج السود

قال الشيخ عبد الدافع : « وانتقل الفونج من جبال الجنوب الى جبل مويه المجاور لجبل سجدي على مقربة من سنار وكان كبيرهم عمارة ود دنقس وفي جوارهم قبيلة من عرب جهينة تعرف بالقواسمة وعليها شيخ شديد البأس يقال لهُ عبد الله جماع فاتحد عمارة وعبد الله المذكوران على ضم كلمة المسلمين ومحاربة النوبة ونزع الملك من ايدي العنج فحشدا الجيوش وهاجما العنج في سوبه فقتلوهم شرّ قتلة واخربا سوبه ثم سارا الى قرّي فقتلا ملكها واستوليا على البلاد كلها وذلك سنة ٩١٠ھ ١٥٠٥م كما مرّ. قيل وقد ساعدهما على النصر نشوب فتن داخلية في النوبة ادَّت الى سفك الدماء.

ولما تمّ النصر لعمارة وعبد الله على النوبة اتفق رأيهما بأن يكون عمارة هو الملك الاعظم في مكان ملك سوبه لانهُ الكبير والمقدَّم ويكون عبد الله بعدهُ في مكان ملك قرّي ويلقب شيخاً فجلس عبد الله في قرّي وذهب عمارة فاختط مدينة سنار وجعلها كرسي مملكتهِ. قيل وكان هناك جارية تسمى سنار فسميت المدينة باسمها. وكان عمارة وعبد الله كالاخوين الاّ ان رتبة عمارة أعلى من رتبة عبد الله فكانا اذا حضرا معاً يتقدم عمارة على عبد الله واذا غاب عمارة قام عبد الله مقامهُ ولم تزل هذه العادة متبعة في اسلافهما الى انقضاء المملكة اه

وقد امتدت مملكة سنار من الشلال الثالث الى اقصى جبال فازوغلي شمالاً وجنوباً ومن سواكن على البحر الاحمر الى النيل الابيض شرقاً وغرباً . وكان الحدّ بين مملكة سنار ومشيخة قرّي مدينة اربجي بقرب المسلمية التي قيل انها اختطت قبل سنار بثلاثين سنة اختطها رجل يسمى حجازي . فمن اربجي فصاعداً جنوباً كان تابعاً لملوك الفونج رأساً لا دخل لمشايخ قرّي فيهِ ومنها شمالاً الى الشلال الثالث كان تابعاً لادارة مشيخة قرّي تحت سيادة ملوك الفونج . وقد كانت المملكة منقسمة الى عدة ممالك ومشيخات من سود ونوبة وعرب حضر و بادية وكان كل ملك أو شيخ يدفع الجزية لملك سنار الاّ ان لهُ نوعاً من الاستقلال واما البلاد الواقعة بين الشلال الثالث والشلال الاول فقد كانت بيد الكشاف الاتراك كما أشرنا آنفاً . وسنأتي على تاريخ هذه الممالك كلها مبتدئين بتاريخ الفونج ملخصاً عن تاريخ الشيخ عبد الدافع وتاريخ الزبير ودضوّه من علماء الخرطوم السابقين وعن بعض كبارها الحاليين :

الفصل الاول

في

﴿ تاريخ ملوك الفونج في سنار ﴾

من سنة ٩١٠ : ١٢٣٦ هـ — ١٥٠٥ : ١٨٢١ م

﴿ ١ الملك عماره دُنقس ملك من سنة ٩١٠ : ٩٤٠هـ ١٥٠٥ : ١٥٣٤ م ﴾

هو راس سلسلة ملوك الفونج وقد تقدم لنا ذكر قيامهِ وتأسيسهِ المملكة في سنار . قيل وفي ايامهِ قدم السلطان سليم الى سواكن ومصوع فامتلكهما ودخل الحبشة بقصد الزحف على سنار فخاطب ملكها يدعوهُ الى الطاعة فأجابهُ بما مفادهُ « اني لا اعلم ما الذي يحملك على حربي وامتلاك بلادي فان كان لاجل تأييد دين الاسلام فاني انا واهل مملكتي عرب مسلمون ندين بدين رسول الله وان كان لغرض مادّي فاعلم ان اكثر اهل مملكتي عرب بادية وقد هاجروا الى هذه البلاد في طلب الرزق ولا شيء عندهم تجمع منهُ جزية سنوية » . وأرسل لهُ مع الكتاب كتاب

انساب قبائل العرب الذين في مملكتهِ جمعهُ لهُ الامام السمرقندي احد علماء سنار فلما وصل الكتابان الى السلطان سليم أعجبهُ ما فيهما وعدل عن حرب سنار . قيل واخذ كتاب الانساب معهُ الى الاستانة وهو لا يزال في خزانة كتبها الى اليوم . قلتُ وقد طالما سمعت عن هذا الكتاب وعن وجودهُ في السودان قبل الفتح الاخير فلما فتح السودان بذلت الجهد في التفتيش عنهُ فلم أقف لهُ على أثر

﴿ ٢ . الملك عبد القادر ابنهُ سنة ٩٤٠ : ٩٥٠ هـ — ١٥٣٤ : ١٥٤٤ م ﴾

﴿ ٣ . الملك نائل اخوهُ سنة ٩٥٠ : ٩٦٢ هـ — ١٥٤٤ : ١٥٥٥ م ﴾

﴿ ٤ . الملك عمارة ابو سكاكين اخوهُ سنة ٩٦٢ : ٩٧٠ هـ — ١٥٥٥ : ١٥٦٣ م ﴾

وفي ايامهِ توفي عبد الله جماع شيخ قرّي المتقدم الذكر فعهد بالمشيخة الى ابنهِ الشيخ عجيب كافوت

﴿ ٥ . الملك دكين ابن نائل الملقب بالعادل سنة ٩٧٠ : ٩٨٥ هـ — ١٥٦٣ : ١٥٧٨ م ﴾

قيل لقب بالعادل لانهُ كان محباً للعدل وقد رتّب دواوين حكومتهِ أحسن ترتيب ونظم البلاد فأقام على كل جهة رئيساً وضرب عليهِ جعلاً معلوماً وجعل دخول الرؤساء عليهِ حسب رتبهم الأعلى فالأعلى

﴿ ٦ . الملك طبل سنة ٩٨٥ : ٩٩٧ هـ — ١٥٧٨ : ١٥٨٩ م ﴾

﴿ ٧ . الملك أُنسه سنة ٩٩٧ : ١٠٠٧ هـ — ١٥٨٩ : ١٥٩٩ م ﴾

﴿ ٨ . الملك عبد القادر الثاني سنة ١٠٠٧ : ١٠١٣ هـ — ١٥٩٩ : ١٦٠٥ م ﴾

﴿ ٩ . الملك عدلان ابن أبه سنة ١٠١٣ : ١٠٢٠ هـ — ١٦٠٥ : ١٦١٢ م ﴾

وفي ايامهِ خرج الشيخ عجيب شيخ قرّي المتقدم الذكر عن طاعتهِ فأرسل عليهِ عساكر بكثرة والتقى العسكران بالقرب من كلكول بين العيلفون والخرطوم فقتل الشيخ عجيب وفرَّ أولادهُ الى دنقلا فأرسل لهم الملك عدلان اماناً مع الشيخ ادريس بن محمد الارباب فرجعوا معهُ الى الملك فبالغ في اكرامهم وولّى أحدهم العجيل مشيخة قرّي

اما الشيخ ادريس المشار اليهِ فهو من رجال الدين الذين اشتهروا في السودان بالصلاح والتقوى وقد لقب بسلطان الاولياء وكان لهُ ولذريتهِ من بعدهِ مكانة رفيعة

عند ملوك سنار فكانوا يصلحون بينهم وبين كبار رعيتهم اذا اختصموا ويتشفعون عندهم في الامور الخطيرة بل كانوا اذا طارد ملك أحد الرعية فلجأ الى حماهم رجع الملك عنهُ . وقيل في نسب الشيخ ادريس ان أباهُ قرشي تميمي وأمهُ من نسل الحسين بن علي ابن أبي طالب هاجر جدّهُ من الشام فأقام مدة في بلاد المحس ثم بلغهُ ان في الحلفاية شريفاً من نسل الحسين يسمى الشريف حمدًا فرحل اليه وكان لهُ ابن فزوّجهُ بابنة الشريف فوُلد لهُ الشيخ ادريس المذكور وذلك سنة ٩١٣ هـ فعمّر الى سنة ١٠٦٠ هـ ودفن في العيلفون جنوبي الخرطوم وبني فوق قبره قبة تزار وما زالت ذريتهُ في العيلفون الى اليوم . وقد اخذ الصوفية على الطريقة الجيلانية عن الشيخ تاج الدين البهاري الذي قدم الى سنار من بغداد وعنها اشتهرت هذه الطريقة فعمت جميع بلاد سنار وهي اول الطرق الصوفية في السودان

ويروى عن الشيخ ادريس كرامات كثيرة منها انهُ ظهر في جنوب النيل الازرق يد بشرية مرفوعة فوق الماء وهي تسير مع التيار وأصابعها الخمس مفتوحة ولم يُرَ معها شخص فحار الناس في امرها وتشوّقوا الى معرفة سرّها فلما وصلت تجاه العيلفون خرج الشيخ ادريس من مسجده فرفع لها أصبعين فغاصت للحال في الماء ولم تعد ترى فسألهُ الناس في ذلك فقال هذه اليد تدلّ على ان الاتفاق قوّة وانهُ اذا كان خمسة من الناس بقلب واحد لم يقدر عليهم أحد فرفعتُ لها أصبعين مشيرًا الى انهُ اذا كان اثنان فقط بقلب واحد فلا يقدر عليهما احد فانصرفت خجلاً

هذا ومن عادة بائعات المريسة في العيلفون ان ترفع كل منهنَّ راية فوق منزلها وتجلس عندها تنادي بأعلى صوتها « يا شيخ ادريس يا راجل الفدَّة والمدَّة تلحقنا وتفزعنا وتبيع لي مريستي » فيجتمع الناس عندها فتخرج من المريسة ملء قدر فتسقيهم اياهُ مجاناً تصدقاً عن روح الشيخ ادريس ثم تشرع في بيع الباقي بالثمن

واشتهر بعد الشيخ ادريس بالصلاح والتقوى في سنار « الشيخ حسن ود حسونة » جاء أبوهُ من الأندلس وسكن كركوج فولد الشيخ حسن المذكور فيها فسلك طريق القوم وحجّ الى بيت الله الحرام وساح الى مصر والشام وغيرهما

وكانت مدة سياحته نحو ١٢ عاماً ثم رجع الى البلاد واشتهر صلاحهُ فسكن البادية واكثر فيها من المواشي والخيل والعبيد. وكان مع كثرة غناهُ يتقشف في اكلهِ ولبسهِ ويطعم الناس لذيذ الاطعمة وكان بينهُ وبين الشيخ ادريس محبة عظيمة الاَّ انهُ لم يشتهر الاَّ بعد وفاة الشيخ ادريس ولم يخلّف ذرية وتوفي سنة ١٠٥٩ هـ ١٦٤٩ م فعاش احدى وتسعين سنة ودفن في قبتهِ التي بناها قبل وفاتهِ في وسط البطانة بين النيل والاتبرة واصبحت مزارًا يجتمع فيها في كل خريف خلق كثير

وفي ايام الملك عدلان قدم الى سنار الشيخ ابراهيم ابن جابر البولادي من مصر وهو أول من درَّس مختصر الشيخ خليل المالكي في بلاد الفونج فنفع الله بهِ خلقاً كثيرًا. وقدم ايضاً رجل مغربي تلمساني على الشيخ محمد عيسى سوار الذهب فأخذ عنهُ طريق القوم ودرس عليهِ علوماً كثيرة

وفي نحو هذا العهد قدم الشيخ محمود العركي من مصر وعلّم الناس بعض اركان الشريعة وبنى لهُ رباطاً على البحر الابيض بين أليس والحسانية وبهِ مدفنه الآن. وكان قبلهُ في بلاد سنار اولاد ضيف الله المعروفة مقابرهم في أبي حليمة شرق النيل الازرق. قيل وكان اول دخول الاسلام الى بلاد سنار في خلافة هارون الرشيد سنة ٧٨٦ م

﴿ ١٠. الملك بادي المعروف بسيد القوم سنة ١٠٢٠ : ١٠٢٣ هـ — ١٦١٢ : ١٦١٥ م ﴾

﴿ ١١. الملك رباط ابنهُ سنة ١٠٢٣ : ١٠٥٢ هـ — ١٦١٥ : ١٦٤٣ م ﴾

﴿ ١٢. الملك بادي ابو دقن سنة ١٠٥٢ : ١٠٨٨ هـ — ١٦٤٣ : ١٦٧٨ م ﴾

ومن اعمالهِ انهُ غزا الشلك وفتك بهم. ثم غزا جبال تقَلي فدوَّخها. قيل والسبب في غزوهِ تلك الجبال ان احد اصدقائهِ ذهب اليها بتجارة فسلبهُ ملكها جميع ما كان معهُ وطردهُ فقيل للملك ان هذا الرجل صديق لملك سنار فقال وماذا يهمني ملك سنار فان قصدني وجاوز باجة (غابة) أم لمَّاع فليفعل ما يشاء. وباجة أم لماع مفازة صعبة لا ماء فيها بين النيل الابيض وجبال تقَلي. فأتى التاجر الى ملك سنار وأخبرهُ بما جرى لهُ مع ملك تقلي فجهز عساكرهُ وسار قاصدًا جبال تقلي وقال لصاحبهِ اذا وصلنا الى غابة أم لماع فأخبرني فلما وصلوا اليها أخبرهُ فنزل الملك عن جوادهِ

وأمر عساكرهُ فنزلوا عن ركائبهم واجتازوا الغـابة ماشين على الاقدام اراد بذلك احتقار العقبة التي ظن ملك تقلي انها تعجزهُ ولما اجتازها ركب وركبت عساكرهُ وساروا في جبال النوبة يقتلون ويأسرون ويسبون حتى وصلوا الى جبال تقلي فحاصروها فتمنع ملكها بالحصون قيل وكان يقاتل عساكر ملك سنار نهاراً ويرسل اليهم «الضيافة» ليلاً . فلما رأى ملك سنار مكارم أخلاقهِ صالحهُ على جُعل معلوم يدفعهُ لهُ في كل عام ورجع الى سنار ومعهُ سبايا النوبة وتقلي فجعل لكل جنس منهم حلة معلومة حول سنار واسكنهم بها وصاروا من جملة جنودهِ وقد تناسلوا بتلك الحلل فسميت كل حلة باسم الجنس الذي سكنها مثـل تقلي والكدرو والكنك والكاركو وغيرها وبقيت ذراريهم بها الى انقضاء دولة الفونج

وقد اشتهر هذا الملك بالشجاعة والكرم والعفة والتعبد وكان معظماً لاهل العلم والدين مكرماً لهم . وكان بينهُ وبين علماء مصر اتصال حسن فكان يرسل اليهم الهدايا مع خبيرهِ احمد علوان وقد اشتهرت مناقبهُ عندهم حتى انهم مدحوهُ بقصائد عديدة منها قصيدة للشيخ عمر المغربي قال فيها :

أيا راكبًا يسري على متن ضامرٍ ... الى صاحب العلياء والجود والبرِّ
ويطوي اليهِ شقة البعد والنوى ... ويقتحم الاوعار في المهمهِ القفرِ
وينهض من مصرٍ وشاطىءِ نيلها ... وأزهرها المعمورِ بالعلم والذكرِ
لك الخيرُ ان وافيت سنار قِف بها ... وقوفَ محبٍّ وانتهز فرصة الدهرِ
وألقِ عصا التسيار في صرح أنسها ... تجد كل ما تهوى النفوس من البشرِ
وأهدِ سلامًا عطَّر الكون نشرهُ ... ألذَّ من الماءِ المسلسل والقطرِ
وأحلى وأهنا من وصالٍ بلا جفا ... وأعلى وأغلى من عقود من الدرِّ
الى حضرة السلطان والملك الذي ... حمى بيضة الاسلام بالبيض والسمرِ
هو الملك المنصور «بادي» الذي لهُ ... مدائح قد جلت عن العدّ والحصرِ
حمى حرمة الدين الحنيفيّ بالقنا ... وعزَّز فيهِ راية الفتح والنصرِ
وجرَّد للاسلام والملك صارمًا ... أباد بهِ اهل الغواية والكفرِ

لهُ في صميم الملك مجد موثَّلٌ تلقَّاهُ عن أسلافهِ السادة الغرِّ
ملوكٌ تساموا للعلى وخلائف أولو العزم في أزمانهم وأولو الأمرِ
هم العقد من ابهى اللآلىء نظمهُ مناقبهم كالمسك طيبة النشرِ
وفيهم مولانا المليك فريدة لذا العقد ربُّ العز والمجد والفخرِ
هو البرّ والبحر المحيط حقيقةً فناهيك من برّ وناهيك من بحرِ
عمادٌ يلوذ المسلمون بظلهِ وسدٌّ منيع للانام من الضرِّ
سليل ملوك الفونج والسادة الاولى علا مجدهم فوق السماكين والنسرِ
محا اثر الفجار بالسيف فاغتدت بهم حوزة الاسلام سامية القدرِ
أيادٍ لهُ بالنصر كاسرة العدى ولكنها بالجود جابرة الكسرِ
بهِ أصبحت سنار في الأنس والصفا وتاهت على البلدان حتى على مصرِ
تبارك من أنشاهُ للخلق رحمةً وزان بهِ الازمان كالعقد في النحرِ
وصيَّر أمري في يديهِ فان يشأ أزال برغم الدهر ما بي من الضرِّ
فاني فقير والفضائل حرفتي وفي مصر أرباب الفضائل في فقرِ
وقد جاءني منكم كتابٌ معظَّم وفي سلكهِ نظم الجواهر والدرِّ
فقبَّلتهُ الفا وحقًّا جعلتهُ على الرأس تعظيماً وأودعتهُ صدري
تسلمت عبدًا واحدًا من صلاتكم ونلت بهِ فخرًا وناهيك من فخرِ
فخذها من العبد الفقير قصيدةً منظمة كالدرّ في خالص التبرِ
هو المغربي المالكي وانهُ يسمَّى ابن خطاب ومثلك من يدري
فمنوا عليها بالقبول وأنعموا عليهِ بما ينجيهِ من غصص الدهرِ
فلا زلتَ في أوج السعادة رافلاً وراجيك «بادٍ» عن عطاءٍ وعن شكرِ

وهو الملك الذي بنى الجامع بسنار وجعل في نوافذه شباكاً من نحاس وبنى قصرًا لحكومته فجعلهُ خمس طبقات بعضها فوق بعض وبنى مخازن للاسلحة والذخائر وديوانًا لجلوسهِ وديوانين آخرين أحدهما خارج القصر والآخر داخلهُ وأحاط جميع ذلك بسور لهُ تسعة أبواب جعل ثمانية منها لامراء دولتهِ لكل أمير بابًا يدخل

منهُ الى ديوانهِ الخاص للنظر في الشؤون المتعلقة بهِ وجعل الباب التاسع لهُ ولولد عجيب شيخ مشيخة قرّي . وهذه الابواب التسعة تفتح في حائط واحد وامام كلٍ منها رواق لهُ دكة عالية تعرف «بدكة من ناداك» قيل سميت بذلك لانها ملجأ للمتظلمين فيأتيها الناس من انفسهم بدون أن يناديهم أحد . واذا اراد أحد كبراء الدولة الدخول الى ديوان الملك لزمهُ ان يدخل وحدهُ . ولما تضعضع حال الفونج وتغلب الهمج على ما سيجيء تهدَّم كثير من تلك البيوت وتداعى القصر الكبير ولكن بقيت آثارهُ الى الفتوح المصري

﴿ ١٣ . الملك أنسه الثاني ابن اخيهِ سنة ١٠٨٨ : ١١٠٠ هـ — ١٦٧٨ : ١٦٨٩ م ﴾

وفي ايامه سنة ١٠٩٥ هـ وقيل ١٠٨٩ هـ حصل غلاء شديد واشتد الجوع حتى أكلت الناس الكلاب فسميت هذه السنة بسنة أم لحم . وفيها تفشَّى مرض الجدري ومات منهُ ومن الجوع خلق كثير

﴿ ١٤ . الملك بادي الاحمر ابنهُ سنة ١١٠٠ : ١١٢٧ هـ — ١٦٨٩ : ١٧١٥ م ﴾

وقد خرج أهلُ الفونج عن طاعتهِ ونصرهم الشيخ ارداب ولد عجيب شيخ قرّي فأقاموا عليهم ملكاً اسمهُ «أوكل» وجمعوا لمحاربتهِ نحو الف فارس ولم يكن مع الملك بادي الاَّ خمسة وار بعون فارساً فقاتلهم ونصرهُ الله عليهم فقتل الشيخ ارداب وطرد الباقين الى محل يقال لهُ العطشان ورجع سالماً منصوراً

وفي ايامهِ ظهر الولي الشيخ حمد ولد الترابي من عرب رفاعه الهوي فاشتهر في السودان بالصلاح والتقوى ودُفن في جزيرة سنار بين الكاملين ومسجد ود عيسى وبني فوق قبرهِ قبة تزار الى اليوم

﴿ ١٥ . الملك أنسه الثالث سنة ١١٢٧ : ١١٣٠ هـ — ١٧١٥ : ١٧١٨ م ﴾

وقد انهمك باللهو واللعب وارتكاب الفحشاء حتى بلغت أخبارهُ الفونج بالصعيد وهم جنود « لولو » فصمموا على عزلهِ لانهم هم الذين يعزلون و يولّون من يريدون من الملوك فجاؤا الى حلال الكبوش قرب سنار وعينوا ملكاً وأرسلوا للملك أنسه قائلين ان قتلت وزيرك نقرُّك على الملك ولا نتعرض لك فاغتر بكلامهم وقتل وزيرهُ بعد

تردُّد ثم أرسل لهم الخطيب و بعض عمد سنار ليوفوا لهُ بشرطهم فلم يسمعوا لهُ بل لم يزالوا مصممين على عزلهِ فلما يئس منهم استأمنهم على نفسه وعائلتهِ فأمنوهُ وخرج من محل الملك وذلك في سنة ١١٣٠ هـ ١٧١٨ م وكان هو آخر من تولّى من نسل عمارة دنقس وولّى الفونج بعده:

﴿ ١٦ . الملك نول سنة ١١٣٠ : ١١٣٦هـ — ١٧١٨ : ١٧٢٤ م ﴾

وكان لهُ نسب من جهة الرحم يتصل بسلسلة الملوك المتقدمين وقد اتفقوا على توليتهِ لانهُ كان رجلاً عاقلاً حسناً في الاسلام فحكم في الرعية بالعدل وحسن التدبير فارتاحوا الى حكمهِ وسموهُ بالنوم لشدة عدلهِ

﴿ ١٧ . الملك بادي ابو شلوخ ابنهُ سنة ١١٣٦ : ١١٧٥هـ — ١٧٢٤ : ١٧٦٢ م ﴾

وهو أشهر ملوك سنار وقد امتاز بالشهرة لحربهِ مع الحبشة وانتصارهِ على ملكها ياسو . وقد ذكر بعضهم سبباً لهذه الحرب قال : أن لويس الرابع عشر ملك فرنسا أرسل سنة ١٧٠٣م هدايا فاخرة الى ياسو ملك الحبشة مع الموسيو لانوار دي رول (M. le noir du Roule) فقام رول من مصر في ١٩ يوليو سنة ١٧٠٤ م وسار قاصداً الحبشة بطريق النيل فوصل سنار في آخر مايو سنة ١٧٠٥ ومعهُ سبعة أتباع وخادم ومترجم وستون جملاً محملة هدايا فاخرة لملك الحبشة فقابلهُ ملك سنار بالترحاب وكان المسيو رول قد أحضر لهُ هدية فسرّ الملك بها وأهدى لهُ هدية نفيسة عوضها ولكن لم يمضِ الاّ القليل حتى ورد على ملك سنار رسائل من مصر اوغرت صدرهُ على الموسيو رول وقيل أن الرسائل التي جاءتهُ حذّرتهُ من الموسيو رول وانذرتهُ بأنهُ ذاهب الى الحبشة لتحويل مجرى النيل الازرق عن سنار وتعليم الاحباش صناعة الحرب وتقويتهم بالمدافع عليهِ فلما كان آخر شهر اوغسطس سنة ١٧٠٥ م استأذن الموسيو رول الملك في استئناف السفر الى الحبشة فاذن لهُ ولكن ما سار عن سنار بضعة اميال حتى ادركهُ ٣٠٠ رجل من قِبل الملك فقتلوهُ هو واتباعهُ واخذوا جميع ما كان معهُ من الهدايا والامتعة وانقلبوا راجعين الى سنار . فلما بلغ ياسو ملك الحبشة ما كان من الملك بادي جرّد جيشاً جراراً عدتهُ ٣٠ الفاً وقيل ١٠٠ الف

وسار في طليعتهِ قاصداً سنار. فجمع الملك بادي جيوشهُ من المشاة والفرسان وجعل عليها الامين ود مسمار ود عجيب شيخ مشيخة قرّي قائداً عاماً وجعل على الفرسان خاصة الشيخ محمداً أبا اللكيلك كبير الهمج (والهمج قوم خلاسيون من النوبة والعرب وقيل هم فرع من العوضية الجعليين) وقد تسلح المشاة بالسيوف والحراب ولبس الفرسان دروع الزرد وألبسوا خيلهم «اللبوس» واجتازوا النيل فاجتمعوا على خميس امير فور؟ وانضموا جيشاً واحداً وساروا لملاقاة جيش الحبشة فالتقوا به في محل يقال لهُ الزكيّات شرق الدندر واقتتلوا قتالاً شديداً قتل فيهِ من الجيشين خلق كثير وكان النصر لجيش سنار فغنم غنائم عظيمة من اسلحة ومدافع وخيام وخيول وغير ذلك ونالت سنار بهذا النصر شهرة طبقت الافاق حتى بلغت مصر والشام والحجاز والاستانة وتونس والهند فتقاطر الناس اليها افواجاً من كل الجهات وأقاموا فيها . قيل وكان تاريخ هذه الواقعة صفر الخير سنة ١١٤٧ هـ يوليو ١٧٣٥م. قلت وهو لا ينطبق على تاريخ الرواية المتقدم ذكرها في بيان سبب الحرب

وقويت شوكة الملك بادي بعد حرب الحبشة وطمعت نفسهُ بامتداد ملكهِ غرباً فأرسل جيشاً لفتح كردوفان وولّى عليهِ ود تومه ومعهُ الشيخ عبد الله ود عجيب شيخ قرّي واخوهُ تمام والشيخ محمد أبو الكيلك كبير الهمج وكان على كردوفان طائفة المسبّعات اقرباء سلاطين الفور الآتي ذكرهم فالتقوهم في مكان يقال لهُ قحيف وهزموهم وقتلوا قائدهم ود تومه والشيخ عبد الله ود عجيب فجمع الشيخ محمد أبو اللكيلك العساكر ثانية وأعاد الكرّة على المسبعات فاقتتلوا في مكان يقال لهُ شمقتّه من اعمال الطيارة بكردوفان فقتل الشيخ تمام ود عجيب والعجيل ابنهُ

وبلغ ملك سنار خبر القتال الاول والثاني وما اظهرهُ الشيخ محمد ابو اللكيلك من البسالة وحسن التدبير فأرسل اليهِ يعينهُ قائداً عاماً على الجيش في مكان ود تومه فسرّ بهذا الالتفات واعاد الكرّة بعزم جديد على المسبعات فانتصر عليهم وأخرجهم من كردوفان وكان ذلك في سنة ١١٦٠ هـ ١٧٤٧ م فأقام فيها الى سنة ١١٧٤ هـ ١٧٦١ م . ثم اخلاها للمسبعات وعاد الى سنار لعزل الملك بادي وسبب ذلك ان

الملك بادي كان لهُ وزير صاحب عزم وتدبير وهو الذي قام بتدبير المملكة واكسبها تلك الشهرة فمات الوزير واستبد الملك بادي برأيهِ فغير كثيرًا من النظامات والقوانين واستعان بالنوبة الذين أُتي بهم من جبال كردوفان فجعلهم رؤساء بدلاً عن رؤساء البلاد أصحاب الرتب القديمة. وفي سنة ١١٧٠ ﻫ قتل الخطيب عبد اللطيف البغدادي من مشاهير علماء السودان . وكان لهُ أولاد كبار فتطاولوا على الرعية وبغوا وأفسدوا ولم ينههم فنفرت منهُ قلوب رعيتهِ. وكان مع الشيخ محمد ابي اللكيلك في كردوفان جماعة من اكابر الفونج فأساء الملك الى اتباعهم في سنار فاغتاظوا منهُ واتفقوا مع الشيخ محمد أبي اللكيلك على عزلهِ وتولية ابنهِ ناصر في مكانهِ فخرجوا من كردوفان وعبروا النيل الابيض ونزلوا بأليس فأرسلوا الى ناصر واخبروهُ بنفور قلوب الناس من ابيهِ وعزمهم على توليتهِ ملكاً عوضاً عنهُ فخرج من سنار متنكرًا واجتمع بالشيخ محمد واكابر الفونج في أليس فأخذوا عليهِ العهود والمواثيق وساروا بهِ قاصدين سنار ثم أرسلوا الى الملك بادي يقولون لهُ ان خرجت فلك الامان فخرج في قلة وذلة واجتاز البحر وذهب الى سواكن ومات فيها وكانت مدة حكمهِ ٣٩ سنة. وهو آخر من تمتع بعز الملك من ملوك الفونج فانهم بعد ذلك صاروا يتولونهُ رسماً لا حقيقة واصبحت السلطة الحقيقية وتولية ملوك الفونج وعزلهم بيد وزرائهم الهمج الذين اوّلهم «الشيخ محمد ابو اللكيلك» المتقدم الذكر

﴿ ١٨ . الملك ناصر سنة ١١٧٥ : ١١٨٢ ﻫ — ١٧٦٢ : ١٧٦٩ م ﴾

حكم ٧ سنين ثم انقلب عليهِ الشيخ محمد فنفاهُ الى حلة البقرة قرب سنار فأخذ يسعى بالعود الى كرسي الملك والفتك بالشيخ محمد فبعث الشيخ محمد ابن أخيهِ بادي بن رجب بجانب من عساكره فدخلوا عليهِ في منزلهِ وقتلوهُ وكان المصحف الشريف عن يمينهِ والموطأ (وهو كتاب للامام مالك) عن شمالهِ لانهُ كان من اهل العلم ولهُ خط جميل . وولّى الشيخ محمد أخاهُ

﴿ ١٩ . الملك اسماعيل سنة ١١٨٢ : ١١٩١ ﻫ — ١٧٦٩ : ١٧٧٨ م ﴾

وكان رجلاً ديّناً عدلاً أزال المظالم واحسن الى الفقراء والفقهاء. وفي اول

سنة من ملكهِ اي سنة ١١٨٢ﻫ حصل غلاء شديد ٠ وفي سنة ١١٨٥ ﻫ زاد النيل زيادة عظيمة ٠ وزاد ايضاً زيادة فاحشة في السنة التي تليها ٠ وفي سنة ١١٩٠ ﻫ ١٧٧٧ م توفي الشيخ عدلان ود صباحي شيخ خشم البحر وكان بينهُ وبين الشيخ محمد مودة عظيمة وكان رجلاً نزيهاً عفيفاً صاحب كرم وديانة

وفيها توفي الوزير «١٠ الشيخ محمد ابو الكلكيلك» وكان لهُ سبعة اولاد وهم رجب وناصر وادريس وعدلان وابراهيم وعلي وحسين ولكن لم يكن بينهم مرشد يخلفهُ فخلفهُ ابن أخيهِ « ٢٠ الشيخ بادي ابن رجب » ٠ فاجتمع الفونج عند الملك اسماعيل يريدون خلعهُ والتخلص من سطوة الهمج فعلم الشيخ بادي بذلك فعزل الملك اسماعيل ونفاهُ الى سواكن وولّى بدلهُ :

﴿ ٢٠ ٠ الملك عدلان الثاني سنة ١١٩١ : ١٢٠٣ ﻫ — ١٧٧٨ : ١٧٨٩ م ﴾

واستقامت للشيخ بادي الوزارة وعدل في الرعية وقهر جميع خصومهِ وفاق على عمهِ الشيخ محمد في الشجاعة والقهر وقوّة البطش ٠ وفي ايامهِ خرج الشكرية عن طاعتهِ فخرج بعساكره من سنار ونزل بحلة رفاعة الشرق وأرسل جيوشهُ على الشكرية في البطانة فواقعوهم عدة وقائع وقتلوا شيخهم الشيخ أبا علي واجبروهم على الطاعة ولكنهم بقوا على نوع من الاستقلال الى ان دخلت الحكومة المصرية بلاد السودان فخضعوا لها٠ وأرسل بادي الشيخ عجيب ود عبدالله وعيساوي والشيخ قنديلاوي الى التاكه لمحاربة الحلانقة فحاربوهم فقتل الشيخ عجيب وعيساوي ورجع قنديلاوي فاعترضهُ في الطريق فارس من فرسان الشكرية يسمى عبد الله القطيني وقتلهُ قيل انهُ القاهُ عن جوادهِ الى الارض ثم جثا على صدرهِ واستل الخنجر ليذبحهُ فقال لهُ عبد الله لا تحسب ان تحتك بقرة فأحسن الذبح ولا تملء تلي الخوذة دماً فذبحهُ كما طلب وكان ذلك سنة ١١٩٣ﻫ ١٧٨٠ م

وفي اثناء اقامة الشيخ بادي في رفاعه عزل الشيخ محمد الامين من مشيخة قرّي وارسلهُ الى القربين ٠ وعزل الشيخ محمد ود علي شيخ ديار خشم البحر وولّى «صباحي ود عدلان» مكانهُ ٠ وضرب ناصر ابن اخيهِ الشيخ محمد أبي الكلكيلك ضرباً مبرحاً لذنب

أتاهُ فاستاء اخوتهُ من ذلك جدًّا وحملوهُ الى سنار واخذوا في تهييج الاحزاب المضادة لعمهم وضم كلمتهم لمحاربتهِ فوافقهم على ذلك الملك عدلان وبعض كبراء الفونج والشيخ محمد الامين شيخ قرّي والشيخ محمد ود علي شيخ ديار خشم البحر المعزولين فجمعوا جيوشهم وساروا لقتالهِ في رفاعه وكان الشيخ بادي عند سماعهِ بعزم اولاد اخيهِ على محاربتهِ لم يهتم للخبر ولكنهُ لما سمع ان الشيخ محمد الامين شيخ قرّي وافقهم على ذلك قال « الآن تحققت وقوع محاربة صحيحة » قال ذلك لان الشيخ محمد الامين كان من الفرسان المعدودين فقام لساعتهِ واجتاز النيل الى الجزيرة وسار نحو سنار فالتقاهُ جموع اعدائهِ في الطريق فقاتلهم قتالاً شديدًا وصار كلما مرّ بفارس يسألهُ من أنت فيقول لهُ فلان فيتركهُ ويأبى محاربتهُ حتى قابلهُ الشيخ محمد الامين فسألهُ من أنت فقال «محمد الامين» فضربهُ بالسيف ثلاث ضربات فلم تؤثر فيهِ لان درعهُ كان حصيناً ولان ضرب الشيخ بادي كان طائشاً ممزوجاً بالغضب. ثم ان الشيخ الامين ضربهُ ضربةً أثخنتهُ فوقع على الارض مجندلاً فطلب اولاد اخيهِ ليوصيهم فقال لهُ الشيخ احمد ود علي شيخ خشم البحر المعزول أأنت في قيد الحياة بعد وضربهُ بالسيف على فمهِ فقضى عليهِ وكان ذلك سنة ١١٩٤ هـ ١٧٨٠ م فلما حضر اولاد أخيهِ وعلموا بضرب الشيخ احمد لهُ وهو على الارض غضبوا ومن ذلك الحين تأسست العداوة بينهم وبين الشيخ احمد وأولادهِ

وخلف الشيخ بادي في الوزارة «٣٠. الشيخ رجب» اكبر اولاد اخيهِ الشيخ محمد ابي الكيلك فلما استقامت الاحوال بسنار جعل اخاهُ ابرهيم وكيلاً عنهُ مع الملك عدلان وتوجه بعساكره الى كردوفان فأقام فيها محاصرًا للجبال وفيما هو هناك اشهر محمد الامين شيخ قرّي المعزول العداء للهمج فأرسل من كردوفان اخاهُ ناصر الى الجزيرة ومعهُ نحو ٧٠٠ فارس لمحاربة الشيخ الامين الذي كان مقيماً بالهلالية شرق النيل الازرق بين رفاعه والكاملين ولم يكن مع الشيخ الامين حين مقابلتهم لهُ الا ١٦ فارساً من اولادهِ وعبيدهِ فهزمهُ ناصر وولى أخاهُ «بادي بن مسمار» مشيخة قري بدلهُ وذلك سنة ١١٩٨ هـ ١٧٨٤ م . وكان أهالي اربجي هم الذين سعوا في تشيخ بادي

فاضمر لهم الشيخ الامين السوء. فاتفق مع الشكرية وهجم على مدينة أربجي فخربها وشتت شمل اهلها وتركها قاعاً صفصفاً ولم تزل كذلك الى الآن. وكانت مدينة حسنة البنيان كثيرة العمارة ولاهلها تأنق عظيم في تحسين الاطعمة وكان بها مدارس للعلم والقرآن. قيل وقبل خرابها كان فيها رجل يتلو الآية «وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون»

ثم ان الملك عدلان تفكر في ما فعلهُ الهمج في ابيهِ الملك اسماعيل وجدّهِ الملك بادي فلما جاهر الشيخ الامين بعداوة الهمج كتب يدعوهُ اليهِ ودعى اليهِ ايضاً بعض مشايخ البلاد الذين كانوا من حزبهِ فاتفقت كلمتهم على الفتك بالهمج فقبضوا على ابرهيم وكيل الشيخ رجب الوزير وقتلوهُ في السوق واخرج الملك عدلان بنات الشيخ محمد ابي اللكيلك واسترقهنَّ وفرقهنَّ على روءساء عساكرهِ وذلك سنة ١١٩٩هـ ١٧٨٥م. وكان في سنار في ذلك الوقت شاعر مشهور يعرف بالنعسان فاراد الملك قتلهُ بسبب ميلهِ لاولاد ابي اللكيلك ففرّ هارباً الى الشيخ رجب ولما دخل عليهِ بكى وانتحب وارتجل مراثي محزنة أشار فيها الى قتل ابراهيم واسترقاق بنات محمد فقام الشيخ رجب لساعتهِ الى سنار وكان معهُ الملك سعد بن الملك ادريس ود الفحل من ملوك الجعلين بشندي الآتي ذكرهم والحاج محمود المجذوب من الاولياء الصالحين اصحاب الكرامات وجد المجاذيب الذين في الدامر قيل وكان في اثناء المسير يقول «يا سنار جاءك النار» واحياناً يقول «النار اطفاها السيل». ثم لما قربوا من سنار كان يقول «انا وانت» يعرض بقتلهِ وقتل الشيخ رجب فقابلهم الملك عدلان بجيوشهِ في مكان يقال لهُ الترس شمالي سنار واقتتلوا قتالاً شديداً قتل فيهِ الشيخ رجب والحاج محمود وذلك سنة ١٢٠٢ هـ ١٧٨٨م. وكان للحاج محمود ابن يسمى الفقيه علي فنقلهُ الى حلة الدبة شمالي الحلفاية ودفنهُ وقبرهُ ظاهر يزار الى اليوم. قيل انهُ بعد دفنهِ كان يُسمع الآذان عند قبرهِ كل ليلة لانهُ كان موءذناً في حياتهِ!

وانهزمت عساكر الهمج ولحقوا بعبُّود في وسط الجزيرة وهمُّوا بالتفرق في الجهات

فارسل اليهم الفقيه حجازي ابن ابي زيد من ذرية الشيخ ادريس ود الارباب المتقدم ذكرهُ وأمرهم بالثبات وبشرهم بالنصر فاطمأنوا وثبتوا وجعلوا الشيخ ناصر أخا رجب المقتول شيخاً عليهم • فجهز عليهِ الملك عدلان جيشاً وعقد لواءهُ للامين رحمه ود كتفاوي ومعهُ محمد ود خميس أبو ريده ونفر من كبار الفونج وسيرهم لقتالهِ فالتقاهم بمحل يسمى « انطرحنا » فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل علي أخو الشيخ ناصر وكان فارساً وكثر القتل في عسكر الملك وانهزموا فغرق بعضهم في البحر وتبعتهم عساكر الشيخ ناصر قتلاً حتى أدخلوهم سنار وتأسف الملك لعدم خروجهِ للحرب بنفسه فمات قهراً • وزحف الشيخ ناصر على سنار وحاصر عساكر الملك حصاراً شديداً حتى ضاقت نفوسهم فخرجوا اليهِ واصطفوا لقتالهِ ولكنهم انهزموا بلا قتال ودخل ناصر سنار بعساكرهِ فأفسدوا فيها وذلك سنة ١٢٠٣ هـ ١٧٨٩ م ومن ذلك الوقت انكسرت شوكة الفونج ولم تقم لهم قائمة بعد • وولّى الشيخ ناصر:

﴿ ٢٠ • الملك أوكل سنة ١٢٠٣ هـ — ١٧٨٩ م ﴾ فملك بضعة اشهر ثم هرب ليلاً فولّى ناصر في مكانهِ :

﴿ ٢١ • الملك طبل سنة ١٢٠٣ هـ — ١٧٨٩ م ﴾ وكان الشيخ محمد الامين شيخ قرّي المعزول ومحمد ود خميس أبو ريده المار ذكرهما قد وليا على سنار « الملك رُباط » فذهب ناصر ومعهُ الملك طبل لقتالهما فالتقوا في الحلفاية وقيل في محل قرب شندي وهناك اشتعلت الحرب فقتل الملك طبل وانهزم الشيخ ناصر شر هزيمة فسمّى ملكاً على سنار :

﴿ ٢٢ • الملك بادي الخامس سنة ١٢٠٣ هـ — ١٧٨٩ م ﴾ وسار بهِ لاستئناف الحرب ضد الشيخ محمد الامين فقتل الملك بادي والملك رباط معاً فولّى ناصر على سنار :

﴿ ٢٣ • الملك حسب ربه سنة ١٢٠٤ هـ — ١٧٩٠ ﴾ فمات ايضاً ورجع الشيخ ناصر الى سنار • وفي سنة ١٢٠٥ هـ ١٧٩١ حدث ان الشيخ محمد الامين ود مسمار ضرب الشيخ عبدالله ابن عجيب (ابن عمه) لذنب أتاهُ فالتجأ الشيخ عبد الله الى محمد خميس أبي ريده وذهبا بمن معهما من الرجال الى الشيخ محمد الامين بمحلة بان النقا بين قرّي

وشندي فوجدوهُ في منزلهِ وحدهُ فاحتالوا الى ان صعدوا على سطح البيت وأزالوا سقفهُ وصاروا يرجمونهُ بالحجارة من بعيد حتى قتلوهُ . وتولى المشيخة بعدهُ « عبد الله ود عجيب » وولى الشيخ ناصر على سنار :

﴿ ٢٤ . الملك نوّار سنة ١٢٠٤ : ١٢٠٥هـ — ١٨٩٠ : ١٨٩١م ﴾ وكان صاحب شهامة وسطوة فلما ظهرت صفاتهُ للشيخ ناصر قتلهُ وولى مكانهُ :

﴿ الملك بادي السادس بن طبل سنة ١٢٠٥ : ١٢٣٦ هـ — ١٧٩١ : ١٨٢١م ﴾

وكان لايزال فتى فاستمر ملكهُ الى الفتح المصري وتقلب عليهِ عدة وزراء من الهمج اولهم « ٤ . الشيخ ناصر » الذي فيه كلامنا وهو الوزير الرابع

وفي ايامهِ توفي الفقيه حجازي في سجنهِ عطشاً . وتوفي ايضاً الفقيه عبد الرحمن ود ابو زيد العالم العامل الولي الصالح . والعالم الفقيه محمد نور صبر . وقتل جماعة من الحضارمة على يد اخيهِ حسين

وفي سنة ١٢١١ هـ ١٧٩٧ م اجتاز ناصر البحر بعساكرهِ ومعهُ اخوهُ عدلان وحارب ابا ريده وقتلهُ ونهب اموالهُ . واتحد عليهِ هاشم بن الملك عيساوي واولاد الشيخ الامين ومعهم فزاره وبنو جرّار ودخلوا الجزيرة فخرج في طلبهم فلحقهم بنواحي سيرو وهناك اصطلحوا ورجعوا الى سنار ما عدا بني جرّار فانهم رجعوا من حيث اتوا بعد ان اكرمهم الشيخ ناصر وخلع علي كبرائهم

وكان في الشرق في هذا العصر اربعة ملوك اشتهروا بالكرم وهم : الشيخ ناصر في سنار والسلطان عبدالرحمن في دارفور ومرادبك في مصر واحمد باشا الجزّار في الشام

ومما يحكي من نوادر كرم الشيخ ناصر ان رجلاً كان قاصداً الحجاز فدخل عليهِ يلتمس منهُ صدقة وكان على مقربة منهُ اناء مملوء ذهباً فملأ كفيهِ مريداً ان يبسط الرجل طرف ثوبهِ ليملأهُ لهُ فمدّ الرجل يديهِ فاعطاهُ ما في كفيهِ من الذهب ولم يزدهُ

وكان الشيخ ناصر يحب الالعاب والمطربات فلما راقت لهُ الاحوال فوّض تدبير المملكة الى وزيره الارباب دفع الله ابن احمد المشهور بود الزّقلوته من الجعليين واشتغل باللهو والطرب وأعجب بعبيدهِ فاشتدت أيديهم على الظلم ولم يمنعهم لانهم كانوا

عضده ُ. وأمر اخوته ُ وكبراء دولته ِ ان لا يدخل عليهِ أحد منهم الا بعد الاستئذان من وزيره ِ دفع الله فنفرت نفوسهم منه ُ وخرجوا عن طاعته ِ واجتمعوا في عبود في باطن الجزيرة لمحاربته ِ ووافقهم على ذلك كل من له ُ غرض في ازالة دولة ناصر فلما بلغهُ خبرهم خرج الى حلة السبيل وأرسل اليهم كبار الفقهاء يترضُّونهم ثم أرسل اليهم اخوانهم وبنات الشيخ محمد أبي اللكيلك فأبوا الا الحرب أو يتنازل لهم عن الوزارة فلما يئس من رجوعهم الى الطاعة عاد الى سنار . فخرج اخوته ُ من عبود ونزلوا في حلة البقرة قرب سنار وباتوا على حربهِ فأخذ ما يحتاج اليهِ وفرَّ الى الجنوب ليلاً مع وزيره ِ دفع الله فنزل في دبركي على الدندر فدخل اخوته ُ سنار وتولى احدهم « ٥٠ ادريس » كرسي الوزارة في مكانه

وبقي ناصر في دبركي زماناً ثم ارتحل شمالاً فاحتمى بالشيخ عبد الله بن عجيب شيخ مشيخة قرّي مدة ثم رحل عنه ُ واتى الى عبود ولما علم بهِ ادريس خرج من سنار ببعض عساكره ِ ونزل في ابي حراز وارسل لمحاربته ِ اخاه ُ عدلان وعبيده ُ وبعضاً من العساكر ولم يرسل احدًا من الهمج ولا من الفونج خشية من الخيانة ولما ادركه ُ عدلان وتراءى العسكران خرج الوزير دفع الله ود ارباب من جيش ناصر ورمى الخودة عن رأسهِ ودخل في عساكر عدلان طالباً الامان لنفسهِ فانهزم ناصر وعساكره ُ فتبعهم عدلان وقبض على ناصر أسيرًا وأتى بهِ الى ادريس في ابي حراز فسلمه ُ الى حياص ابن الملك بادي فقتله ُ بثار ابيهِ ودفن قريباً من الشيخ دفع الله العركي وكان ذلك في آخر سنة ١٢١٢ هـ وقيل أوائل سنة ١٢١٣ هـ

اما الشيخ دفع الله العركي المشار اليه فقد كان من رجال الدين الصالحين وهو تلميذ الشيخ ادريس ود الارباب المار ذكره ُ وكان مقيماً في أبي حراز ولم تزل ذريته ُ مقيمة فيها الى اليوم . وكان مقامهم مكرم عند ملوك الفونج كمقام ذرية الشيخ ادريس

وتفرد « ٥٠ الشيخ ادريس » بالوزارة وكان رجلاً مهاباً عادلاً اكره شيء لديهِ السرقة فتعقب اللصوص في كل مكان وعاقبهم بكل صرامة حتى انه ُ لم يبقَ سارق ولا لصٌّ في كل بلاد سنار . وشدَّد الوطأة على العرب الرحَّالة فكفى اهل القرى شرهم

وكان لهُ من الاعوان عدا اخيهِ عدلان الارباب القرشي والارباب زين العابدين ود السيد والفقيه عبد الجليل ود عامر والفقيه الامين ود العشا ولم يفوّض اليهم تدبير مملكتهِ كما فوّض اخوهُ الشيخ ناصر الى وزيرهِ الارباب دفع الله بل كان يتولّى أمور مملكتهِ بنفسهِ وبذلك استقامت لهُ الاحوال • ثم بدا من الملك بادي ما ساءهُ فاتفق مع الشيخ كمتور شيخ خشم البحر وعزلهُ وولّى مكانهُ :

﴿ ٢٧ • الملك رانفي ﴾ فحكم بضع سنين ثم عاد المُلك الى الملك بادي • وفي ايام رانفي أتى الشيخ عبدالله بن عجيب بما أغضب الشيخ ادريس فجرّد عليهِ جيوشهُ وكان العابدلاب قد نقلوا مركز المشيخة من قرّي الى الحلفاية فانتشب القتال في الحلفاية في اول محرم سنة ١٢١٥هـ ٢٤ مايو ١٨٠١ فقتل الشيخ عبد الله وانهزمت جيوشهُ فأمنهم الشيخ ادريس وولّى عليهم «الشيخ ناصر الامين» الذي بقي في المشيخة الى الفتح المصري

وكان الشيخ عبدالله المذكور عادلاً متديناً مولعاً بسماع القرآن محباً للرعية وقد أمر بتقليل مهر النساء فكثر بذلك زواجهنّ وازداد النسل وأمر اهل السوق بحضور الصلاة في المساجد وقطع دابر اللصوص وأمّن السابلة وكانت مدتهُ ثلاث سنوات

واقام الشيخ ادريس في الحلفاية وأرسل اخاهُ عدلان بجانب من العساكر الى شندي كرسي مملكة الجعليين وكان ملكها الملك سعد قد توفي فلما وصل عدلان الى حلة بان النقا كتب الى الملك محمد ود نمر يعدهُ قصد مخادعتهِ بأن يقرهُ ملكاً على الجعليين فاغترّ بوعدهِ وحضر اليهِ مع نفر من أهلهِ وابنهِ ادريس وكان اذ ذاك فتى واما اخواهُ الملك نمر والملك سعد فقد أبيا الحضور لانهما لم يصدقاهُ فلما وصل الملك محمد ومن معهُ أمر عدلان بسجنهم وغلّهم فمات الملك محمد من ثقل الاغلال واما ابنهُ ادريس فقد افتدتهُ أمهُ بثلثماية أوقية من الذهب • ثم ان عدلان حاصر الملك نمر وضيّق عليهِ فلما جنّ الليل فرّ بمن معهُ فولّى المساعد ملكاً على شندي ورجع بالاسارى الى اخيهِ الشيخ ادريس في الحلفاية فعادا معاً الى سنار وهناك ضربت رقاب اولاد الملك نمر • قيل كان الواحد منهم يأخذ رأسهُ بين يديهِ حتى اذا قطع جذبهُ الى عبّه لئلاّ يسقط الى الارض فيندلع لسانهُ

وفي سنة ١٢١٦ هـ ١٨٠٢ م انتشب قتال عرف بقتال العواليب بين الملك نمر والملك مساعد الذي ولاَّهُ عدلان فانتصر الملك نمر وأخرج المساعد من شندي ولما كان المساعد لا يزال قويًّا سعى رؤساء الجعليين بالصلح بينهما فتصالحا على ان يكون نمر ملكاً في شندي والمساعد ملكاً في المتمة تجاهها و بقيا كذلك الى الفتح المصري

وفي تلك السنة اي سنة ١٢١٦ هـ توجه عدلان اخ الوزير ادريس الى جهة الغرب وقاتل الملك عيساوي فانتصر عليهِ وأتى بهِ أسيرًا الى سنار فمات فيها

وفي سنة ١٢١٧ هـ ١٨٠٣ م حصلت حرب بين البطاحين والشكرية فقتل الشيخ عوض الكريم ابو سن شيخ الشكرية. وفي النصف الاخير من جمادي الثانية سنة ١٢١٨ هـ اوائل اكتوبر ١٨٠٤ م توفي الشيخ ادريس وتولّى الوزارة اخوهُ « ٦ . عدلان » فاشتغل بالملاهي والملذات وأهمل أمور المملكة وكان محمد بن أخيهِ رجب صاحب دهاء وتدبير فاتفق مع الفونج والشيخ كتور شيخ خشم البحر والملك رانفي على الفتك بعدلان . وكان في حلة الكُبر جنوبي سنار رجل شديد البأس يسمى محمد ود ناصر المشهور بأبي ريش وهو من خاصة رجال عدلان فاتفق مع المتآمرين على الفتك بهِ وسبب ذلك ان عدلان سم اخاهُ علياً فمات فاجتمع المتآمرون بسنار وكان الشيخ عدلان ليلة اتفاقهم عريساً على بنت خارج سنار فقصدهُ ابو ريش مع جماعة من رجالهِ ليلاً . قيل وكان عندهُ رجل عاقل علم بالمكيدة فانشد للشيخ عدلان هذين البيتين :

يا راقد الليل مسرورًا بأوّلهِ ان المكاره قد يطرقنَ اسحارا
لا تفرحنّ بليلٍ طاب أوّلهُ فربّ آخر ليلٍ أجّج النارا

فما شعر عدلان الاّ والاعداء قد اطبقوا عليهِ من كل جانب فأسرع الى جوادهِ فامتطاهُ وفرّ هاربًا نحو سنار فرماهُ احدهم بحربة ادمتهُ ولكنهُ لم يزل مجدًّا على جوادهِ حتى دخل سنار فوقع على الارض ميتاً وكان ذلك في ١٦ رمضان ١٢١٨هـ ٢٩ ديسمبر ١٨٠٤م . وفي هذه السنة تُوفي العالم الربّاني الفقيه علي بقاري المشهور

وتولّى الوزارة بعد عدلان «٧ . محمد بن اخيهِ رجب» المتقدم الذكر لكن بقيت

الكلمة لمحمد أبي ريش . وبمض شهر رمضان حتى وقع الخلاف بين الشيخ كمتور نصير الملك وبين محمد ابي ريش نصير الوزير فأدّى الخلاف الى القتال وكان مقدم رجال أبي ريش فارساً مشهورًا يسمى فاما فبرز الى الكماتير فابتدرهُ الشيخ كمتور بضربة سيف اطاحت رأسهُ وانهزم أبو ريش مصاباً بجرح بليغ في يده فنزل في حلة الكبر ووقع محمد ود رجب الوزير أسيرًا في يد الشيخ كمتور فأودعهُ السجن واراد الشيخ كمتور ان يخرج من سنار ويتحصن من أبي ريش فلم يوافقهُ رجالهُ على ذلك بل أقاموا في سنار وأطلقوا أيديهم في سلب أموال الناس . فلما شفيت جراح ابي ريش جمع عساكره ونزل بطيبة حلة ولد قندلاوي واقام بها يتأهب لقتال الشيخ كمتور الى ان انقضت سنة ١٢١٨ ﻫ فتوسط العلماء والاعيان في الصلح بينهما على ان الشيخ كمتور يرد جميع ما سلبهُ ويطلق سبيل الوزير فأظهر ابو ريش الرضى بذلك وأضمر الغدر فلما رد الشيخ كمتور ما سلبهُ واطلق سبيل الوزير ود رجب زحف ابو ريش برجاله عليهِ فالتقاهُ في أم صويبينه قرب سنار وانتشب بينهما قتال شديد قتل فيهِ ١٢ اخاً للشيخ كمتور وجماعة من كبار الفونج وانهزم الملك رانفي فدخل قصره واجتاز الشيخ كمتور النيل الى بلادهِ . وكان تاريخ هذه الواقعة محرم سنة ١٢١٩ﻫ ابريل ١٨٠٥ م وقد ذهبت في السودان مثلاً للتحذير من الخداع فمن امثالهم: « يبين لك اللي بان للكماتير في أم صويبينه »

(عود الى ٢٦. الملك بادي) ثم ان محمدًا أبا ريش دخل سنار فقتل رانفي وأعاد الملك بادي بن طبل المعزول الى منصبه وفي سنة ١٢٢٠ﻫ ١٨٠٦م لحق بالشيخ كمتور الذي كان قد جاء الى أم درمان فتوسط اهلها والناس الصالحون في الصلح حقناً للدماء فقبلا وساطتهم وعاد الشيخ كمتور الى مركزهِ في رتقه . ونزل محمد ود رجب في ود مدني وابو ريش في كساب بين رتقه وسنار

وفي سنة ١٢٢١ ﻫ ١٨٠٧ م وقع الخلاف بين محمد أبي ريش ومحمد رجب فتقاتلا في مكان يدعى المهراية فانهزم محمد رجب الى العيلفون والتجأ الى أولاد الشيخ ادريس وأخذ يراسل الشيخ كمتور والشنابلة مشائخ ود مدني واولاد سليمان السعداب

ملوك شندي فاجتمعوا على محاربة ابي ريش وجعلوا عليهم ملكاً يسمى « عجبان » من بقية ملوك الفونج وجاءوا الى عبود متهيئين للقتال كل ذلك وابو ريش لاهٍ عنهم الى ان اتاهُ هادم اللذات في نصف تلك السنة فتوفي مع أخ لهُ في ليلةٍ واحدة وترك ابناً صغيرًا دون البلوغ فوقع عساكرهُ في حيرة ودهشة . وطمع عبيد الوزير عدلان المقتول في تولية ابنهِ محمد فحاربهم عبيد ابي ريش واخذوا محمد بن عدلان اسيرًا وهزموهم فانضموا الى محمد رجب وخلفائهِ في عبود وساروا كلهم لقتال عبيد ابي ريش في طيبة فاقتتلوا قتالاً شديدًا كان النصر فيهِ لعبيد ابي ريش والهزيمة لمحمد رجب والشيخ كمتور فالتجأ الاول الى اولاد الشيخ ادريس في العيلفون والثاني الى العراكيين في ابي حراز فرجع عبيد ابي ريش عنهم لاحترامهم مقام اولاد الشيخ ادريس والعراكيين كما مرَّ واقاموا في كساب فجعلوا تيغره ود ابي ريش رئيساً عليهم في مكان ابيهِ وكان معهم محمد ود ابرهيم بن محمد ابو الكيلك فلم يرق لهُ تعيين تيغره رئيساً فانفصل عنهم واتحد مع فزاره وتقدم بهم الى الخرطوم فنهبوا ما ارادوا وقتلوا ابرهيم ابن الفقيه محمد علي خليفة الفقيه أرباب ونزلوا في عبود. اما الفقيه ارباب المشار اليهِ فهو غير أرباب والد الشيخ ادريس ويعرف بأرباب العقائد لانهُ ألف كتاباً في عقائد التوحيد ولهُ ضريح يزار في البشاقرة في جنوبي ألتي في باطن الجزيرة

وبقي عبيد ابي ريش وعليهم تيغره بكساب يعيثون في البلاد والحل والعقد في ايديهم مدة ثمانية اشهر اسروا في خلالها اولاد رجب وكان محمد ولد ابراهيم لاينفك عن حشد الرجال في عبود حتى قويت كلمتهُ فزحف على كساب فقتل عبيد ابي ريش واسر تيغره فابقى عليه لانه كان أديباً عاقلاً ولما انتظم لهُ الامر قام في طيبة حلة قندلاوي مدة ثم انتقل منها الى حلة ام ضريبه

وفي اثناء ذلك خرج « محمد رجب » من العيلفون على عربان الفادنية في البطانة فنهب اموالهم فاتاهُ العراكيون واخبروهُ بان هذه الاموال اموالهم فردها لهم فلم يكتفوا بذلك بل اغلظوا لهُ في الكلام حتى احرجوهُ الى القتال فقاتلوهُ وهزموه فاستنجد بالشيخ كمتور فلم ينجدهُ بل قبض عليهِ وارسلهُ الى محمد ود ابرهيم

فأرسلهُ الى محمد ود عدلان في حلة برقو فقتلهُ اخذاً بثار ابيهِ وهكذا كانت نهاية « محمد رجب » سابع وزراء الهمج

ثم اخذ محمد ود عدلان يسعى سرًّا في محاربة محمد ود ابرهيم وتولي الوزارة مكانهُ فلما نمي الخبر الى محمد ود ابراهيم بعث في طلب محمد ود عدلان الى حلة ولد بهاء الدين فحضر فادخلهُ في خلوة بهاء الدين واخذ في توبيخهِ وشتمهِ بافظع الالفاظ ومحمد عدلان يعتذر ويتلطف لهُ في الرد وهو لا يقبل عذرًا ثم امر بذبحهِ فسمع بذلك بعض انصار ود عدلان الواقفين خارج الخلوة فنادوا محمدًا ابراهيم يطلبون اليه اطلاق سبيل محمد عدلان والا اشعلوا النار في الخلوة فأخلى سبيلهُ فخرج وهو مهلوع الفؤاد فالتفت اليهِ احد عبيده المسمى ابا سليمة ودلهُ على جواد محمد ود ابراهيم الذي كان مسرجاً بجانبهِ وقال لهُ « ما هذه الدهشة التي اعترتك فذهبت بك اركب هذا الجواد وحكّم السيف في رقاب هؤلاء الكلاب الذين ارادوا قتلك » فتحمس ود عدلان من كلام عبدهِ وركب الجواد واستل السيف فاجتمع عليهِ «عبيد ناصر» فاشتد ظهرهُ واخرج ابراهيم من الخلوة عنوةً فقبض عليهِ وأخذهُ الى سنار فحبسهُ مدة في حوش عمتهِ مهيره ثم قتلهُ . وكان ذلك في آخر جمادى الاخرى سنة ١٢٢٣ هـ ١٨٠٩م . ومن ذلك الوقت انتظم الامر «لمحمد عدلان» فكان الوزير الثامن والاخير من وزراء الهمج وقد قبض على جميع اعدائهِ في البلاد فقتلهم وفي جملتهم أولاد رجب ولم يترك منهم سوى حسن ولما استتب لهُ الامر وخلا بالهُ من المتاعب انتقل الى ود مدني فأقام فيها مدة

وفي ايامهِ سنة ١٢٢٤ هـ ١٨١٠م انتشرت الحمى الصفراء المعروفة عندهم بالكك فمات فيها خلق كثير . وممن مات بها العالم الفاضل محمد نور بن الفقيه ضيف الله بالحلفاية وهو صاحب كتاب طبقات الاولياء بالسودان وقد رثاهُ الشيخ ابراهيم عبد الدافع المفتي صاحب تاريخ سنار بابيات منها :

دع العين تبكي دهرها بتوجُّد … على غيض بحر كان بالعلم مزبدا
هو الحبر نجل الحبر ضيف الهنا … لقد حاز فخرًا في الانام وسؤددا

وفي اواخر سنة ١٢٢٥ ﻫ ١٨١١ م فعل « الشيخ ناصر ود الامين » شيخ الحلفاية ما اغضب محمد ود عدلان فسار ومعهُ الملك بادي لمحاربتهِ ففر من وجههِ الى شندي فاقام محمد عدلان بالحلفاية مدة ثم عاد الى سنار بدون حرب وعاد ود الامين الى الحلفاية

وفي سنة ١٢٢٦ ﻫ ١٨١٢ م نشب قتال بين السعداب والجيعاب قتل فيهِ الارباب بان النقا وكان رجلاً شجاعاً عفيفاً تقياً وقتل معهُ جماعة من بني عمهِ وانتصر الجيعاب وقويت شوكتهم فارتفعت رؤوسهم على ملوك الجموعية واولاد عجيب مشايخ الحلفاية وانشد بعض شعرائهم يقول :

« يا جعل وقعت عليكم قضيَّة • وفي ادريس ود سعد و بان النقا أب عرضيَّة • وفي حدبة السيال رقدت عيال مشربّة » وكلهم من السعداب

وفي سنة ١٢٢٧ ﻫ ١٨١٣ م توجه ود عدلان لجمع الجزية من عربان رفاعة بنواحي جبل مويه فجمع الجزية وهرب منهم الليبح فارسل خلفهُ العباس فأدركوه وقتلوا بعضاً من جماعتهِ ونهبوا منهم اموالاً كثيرة • وفي سنة ١٢٢٨ ﻫ انتقل الى الطرفاية فجاءه الشيخ خليفة ومعهُ رجل يلقب بالافندي ؟ وفي هذه السنة ظهر نجم ذو ذنب وحصل غلاء شديد فسميت سنة حيص

وفي سنة ١٢٢٩ ﻫ ١٨١٤ م خرج الملك بادي من سنار واتفق مع الكماتير على محاربة ود عدلان وكان ود عدلان اذ ذاك مقيماً في عبود يتأهب للزحف على الشيخ ناصر ولد الامين فلما بلغهُ خروج الملك بادي عليهِ رجع عن عزمهِ واقام بجزيرة ام راكوبه واقام الملك والكماتير بحلة الكبر فحاصرهم فيها ثم اصطلحوا وعاد الملك بادي الى سنار • وفي هذه السنة توفي الورع الحاج دفع الله ود ضيف الله بالحلفاية

وفي سنة ١٢٣٠ ﻫ ١٨١٥ م توفي الفاضل الشيخ حسن بن الشيخ عبدالرحمن ودبان النقا وكان عنده خزانة كتب ضاعت كلها في فتنة الملك نمر بعد الفتوح المصري

وفي سنة ١٢٣١ ﻫ ١٨١٦ م زحف ود عدلان بعساكرهِ على الحلفاية لقتال « الشيخ ناصر ود عجيب » ففرّ الشيخ ناصر الى شندي واقام بها الى ان رجع

ود عدلان الى سنار فعاد الى الحلفاية وبقي فيها الى الفتوح المصري كما سيجيءُ

وفي سنة ١٢٣٢ هـ ١٨١٧ م حضر الى سنار الشريف السيد محمد عثمان المرغني مؤسس الطريقة المرغنيّة في السودان وقابل حكامها ودعا الناس الى اخذ الطريق فلم يأخذها عنهُ الا القليل . وارسل حكام سنار الى الفقيه ابراهيم ابن بقادي ليناظر السيد المذكور ويختبرهُ فمرض حال وصولهِ الى سنار وتوفي فيها قبل ان يجتمع بهِ ثم خرج السيد المرغني من سنار وكان عمرهُ اذ ذاك ٢٥ سنة

وفي آخر سنة ١٢٣٣ هـ ١٨١٨ م زاد النيل زيادة عظيمة حتى هدم حلة البشاقرة شرق سنار وعُرف ذلك النيل بنيل ود ابي سن لان احمد ود الشيخ عوض الكريم ابي سن قتل في تلك السنة قتلهُ البطاحين وانحازوا الى الملك نمر فجمع الشكرية رجالهم بقيادة محمد ابي سن وقصدوا محاربة البطاحين والملك نمر معاً فتوسط العلماء ومشايخ السجاجيد بينهم ومنعوهم من المحاربة فرجعوا الى بلادهم

وسنة ١٢٣٤ هـ ١٨١٩ م قتل الارباب محمد دفع الله ود سليمان غيلة قيل كان قتلهُ بدسيسة من محمد ود عدلان ليتزوج بزوجتهِ لانها كانت بارعة في الجمال

وفي سنة ١٢٣٥ هـ ١٨٢٠ م ارسل الشيخ محمد كتور عساكرهُ لقتال التكارنة الذين في القلابات على حدود الحبشة وبقي في قلة من العساكر فاغتنم محمد ود عدلان الفرصة فسار اليهِ وقتلهُ اخذاً بثار ابيه وكان الشيخ كتور حليماً بعيد الغضب لا يتكلم بالسفه ولا يشتم احداً واذا اشتد غضبهُ يلعن الشيطان وقتل معهُ العالم المحقق الشهير الفقيه احمد ابن الطيب عبد السلام ونهبت كتبهُ النفيسة ورجع ود عدلان الى سنار فرحاً مسروراً باخذ ثارهِ لانهُ قتل كل من سعى بقتل ابيهِ . ثم ان الكتاتير جعلوا عليهم « ضراراً » اخا محمد كتور شيخاً وزحفوا لمحاربة محمد ود عدلان اخذاً للثار فوجدوهُ متغيباً عند عرب البادية بالزرابة جنوبي سنار فلحقوا بهِ ولم يكن لهُ علم بهم فدهموهُ ليلاً على حين غفلة في منزلهِ فتصدى لهم نفر من العساكر الملازمة لركابهِ وقاتلوهم قتالاً شديداً الى ان قتل رئيسهم تيغره ففروا هاربين واما ود عدلان فانهُ لما شاهد ماحل بقومهِ ثغر حائط منزلهِ وفرّ هارباً هو ونساؤهُ ومعهُ الهادي ود عجيب .

ثم ان الشيخ ضرارًا لما رأى شدة بأس عساكر ود عدلان فرّ هاربًا بجريدة من الفرسان ولم يبق من الفئتين الا القليل فلما اصبح الصباح وتراءى الجمعان قام بقية عساكر ود عدلان على بقية عساكر الكماتير فهزموهم وقتلوا رؤوسهم وارسلوا البشرى بالنصر الى محمد ود عدلان فلم يحفل بها لانهُ خجل من انهزامه فقال لهُ الارباب دفع الله وهو احد المتخلفين الذين اتوا بالنصر : « لم يكن قتال يا مولاي غير الذي كان بحضورك ولم ينهزم الاعداء الا بهيبتك » فزال عنهُ الغم وعاد بالعساكر الى سنار . وبقي فيها مع الملك بادي ملك الفونج الى ان قدم اسماعيل باشا فاتحًا لسنار على ما سيجيء في الفتوح المصري

هذا ما كان من تاريخ ملوك الفونج نقلاً عن عبد الدافع والزبير ودضوّه ولكن يظهر ان ودضوه اختصر تاريخ عبد الدافع واضاف اليهِ بعض الحواشي .

ثم ان الموسيو كايو السائح الفرنساوي الشهير الذي رافق حملة اسماعيل باشا لفتح سنار جاء في تاريخهِ على سلسلة ملوك الفونج قال انهُ اخذها عن اهلها وعلق عليها بعض الحواشي فخالف فيها عبد الدافع في بعض المواضع واشهر ما خالفهُ فيهِ :

اولاً . ان الفونج هم طائفة من الزنج جاءوا بلاد سنار من غرب النيل الابيض ولا نسب لهم ببني أمية كما ذكر عبد الدافع

ثانيًا . ان الفونج أتوا اولاً الى أربجي وكانت مدينة عامرة وعليها ملك من اهلها فتصدى لهم ملكها وناجزهم الحرب فحدثت واقعة عظيمة كان النصر فيها لهم فقتلوا الملك وخربوا اربجي وملكوا البلاد واستقلوا بها لا كما قال عبد الدافع من أن اربجي خربت في ايام « ٢٠ . الملك عدلان الثاني »

ثالثًا . أن بداءة ملوك الفونج هي سنة ٨٩٠ هـ لا سنة ٩١٠ هـ كما ذكر عبد الدافع

رابعًا . ان ملوك الفونج هم ٢٨ ملكاً لا ٢٧ ملكاً كما جعلهم عبد الدافع والزبير ود ضوّه وقد خالفهما كايو ايضاً في ترتيب سلسلة الملوك ومدد ملكهم

وهذه هي سلسلة ملوك الفونج ومدد ملكهم حسب رواية كلٍّ من عبد الدافع وكايّو مع ذكر الحواشي التي علّقها عليها الموسيو كايّو :

سلسلة ملوك الفونج

حسب رواية الشيخ عبد الدافع		حسب رواية الموسيو كايو		
اسماء الملوك بداية ملكهم سنة ٩١٠هـ ١٥٠٥م	مدة ملكهم	اسماء الملوك بداية ملكهم سنة ٨٩٠هـ ١٤٨٦م	مدة ملكهم	حواشي كايو
١ عماره دنقس	٣٠	١ عمارة دنقس	٤٢	
٢ عبد القادر ابنه	١٠	٢ نايل	١٢	
٣ نايل اخوه	١٢	٣ عبد القادر	١٠	
٤ عماره ابو سكاكين اخوه	٨	٤ عماره الثاني اخوه	٨	الملقب بأبي سكاكين
٥ دكين بن نايل	١٥	٥ دكين صاحب العادة	١٧	
٦ طبل الاول	١٢	٦ ضرار ابنه	٨	
٧ انسه الاول	١٠	٧ . طبل ابن عبد القادر	٤	قتله اولاد ملك شندي
٨ عبد القادر الثاني	٦	٨ انسه ابنه	١٢	امه بنت عجيب
٩ عدلان بن أبه	٧	٩ عبد القادر الثاني	٣	طرد من الملك
١٠ بادي سيد القوم	٣	١٠ عدلان اخوه	٤	قتله الشيخ عجيب
١١ رباط ابنه	٢٩	١١ بادي ابو رباط	٧	
١٢ بادي ابو ذقن	٣٦	١٢ رباط ابنه	٢٧	
١٣ انسه الثاني ابن اخيه	١٢	١٣ بادي الثاني ابو ذقن	٣٧	مد ملكه الى فازوغلي
١٤ بادي الاحمر ابنه	٢٧	١٤ اونسه الثاني بن ناصر	١٢	لم يعد راحة للفونج بعده
١٥ انسه الثالث	٣	١٥ بادي الثالث الاحمر ابنه	٢٧	
١٦ نول	٦	١٦ اونسه الثالث ابنه	٣	مات في سنار بالجدري
١٧ بادي ابو شلوخ	٣٩	١٧ نول	٤	
١٨ ناصر	٧	١٨ بادي الرابع ابنه	٤٠	مات في سواكن
١٩ اسماعيل اخوه	٩	١٩ ناصر ابنه	٨	قتله بادي في البقرة
٢٠ عدلان الثاني	١٢	٢٠ اسماعيل اخوه	٧	مات في سواكن
٢١ اوكل		٢١ عدلان الثاني	١٢	
٢٢ طبل الثاني		٢٢ رباط ابنه	٣٠	قتله ناصر في سنار
٢٣ بادي الخامس		٢٣ اوكل ابن اونسه	١	قتله ناصر في الدامر
٢٤ حسب ربه	١	٢٤ طبل	٢	قتله اولاد عجيب
٢٥ نوار	١	٢٥ بادي الخامس ابن دكين	١	
٢٦ بادي بن طبل (مدته الاولى)		٢٦ نوار	١	قتله عدلان في سنار
٢٧ رانقي		٢٧ بادي السادس ابن طبل	٦	مدته الاولى
٢٦ بادي بن طبل (مدته الثانية)	٣١	٢٨ رانقي	٥	قتله محمد رجب في سنار
		٢٧ [بادي السادس بن طبل]	١٦	مدته الثانية نهايتها
مجموع ملكهم	٣٤٦		؟	١٢٣٦هـ ١٨٢١م

قيل وكان ملوك سنار يجهزون في ايام عزهم جيشاً لا يقل عن ٢٥ الف مقاتل مسلحين بالحراب والسيوف والدرق وفيهم من اربعة آلاف الى خمسة آلاف فارس من العبيد والفونج وكانوا يقيمون في بلاد البرون الى الجنوب ولهم ثلث الغنائم التي يغنمونها من فازوغلي وجنوبيها . ولكن لما جاءهم اسماعيل باشا فاتحاً لم يجد في سنار من الفرسان الا نفراً قليلاً لان الفونج كانوا قد فقدوا عزهم من زمان

وقد اشتهرت سنار بالثروة والغنى وكان التجار يأتونها بالبضائع من مصر والحجاز والهند عن طريق النيل والبحر الاحمر وكان يرد اليها من دنقلة التمر . ومن كردوفان التبر والحديد والعبيد . ومن فازوغلي والصعيد الذهب والعسل والجلود والنعال والسياط والريش والسمسم . ومن سوق رأس الفيل من بلاد الحبشة على اربعة ايام من سنار الذهب والخيل والعبيد والبن والزباد والعسل وأساور العاج وغيرها من حلي النساء

وكان اهم صادراتها التجارية الذهب والعبيد وسن الفيل والخرتيت والزباد والعسل والسياط والابنوس والجلود والقصاع والنعال والابل . وكانوا يتعاملون بقطع من الدمور على نحو ما هو جارٍ اليوم في دار ودّاي

وكان اهم صناعها الصاغة لصياغة الشفتشي المعروف في مصر بالسناري والحاكة لحياكة الدمور وغيره من المنسوجات القطنية . واهمّ ما اشتهر بهِ ملوك سنار الكرم وكان الشعراء والمداح يقصدونهم من كل فج لمدحهم واستدرار جودهم قيل انهم لم يردوا سائلاً لا سيما اذا جاءهم من بلاد بعيدة وكانوا يعطون الذهب بالمكيال والرقيق بالجنزير اي بالجماعات لان الارقاء في اثناء السير تُربط كل جماعة منهم بجنزير

وكان ملوكها يجمعون الزكاة والفطرة والعشور على نحو ما يفرضهُ الشرع الاسلامي وكثير من اهالي الجزيرة الآن يملكون الارض بحجج من ايام الفونج

قيل وكانت اختامهم اكبر اختام ملوك السودان قاطبة وهي مستديرة الشكل ومنقوشة سطوراً بين كل سطر وسطر خط تقرأ هكذا : « ومن تكن برسول الله نصرتهُ . ان تلقهُ الاسد في آجامها تجم . ملك ملوك السودان » والعبارة الاخيرة تشير الى كثرة الممالك والمشيخات التي خضعت لسلطانهم أولها :



الفصل الثاني

في

﴿ مشيخة العابدلاب ﴾

العابدلاب هم ذرية الشيخ عبد الله جماع الذي تقدم انهُ اقتسم المملكة مع الفونج وقد اتخذ مركزهُ قرّي فعرفت كرسيهُ بمشيخة قري ثم انتقلت الى الحلفاية فعرفت بمشيخة الحلفاية . اما المشيخة نفسها فقد امتدت من حجر العسل الى سوبه ولكن كان لها السيادة على جميع البلاد من اربجي الى الشلال الثالث كما مرّ . وقد تقدم لنا في تاريخ الفونج ذكر اشهر مشايخ العابدلاب نقلاً عن عبد الدافع وذكر كاتبو سلسلة للعابدلاب اتى فيها على البعض الذين لم يذكرهم عبد الدافع وفاتهُ ذكر البعض الآخر فكان من مجموع سلسلتيهما ما يأتي :

﴿ ١ . عبد الله جماع ﴾ مؤسس المشيخة الذين دام حكمهُ الى ايام الملك عماره رابع ملوك الفونج وخلفهُ ابنهُ :

﴿ ٢ . الشيخ عجيب ﴾ الملقب بالمانجلوك اي مانجلُ الآك ومنهُ لقب «مانجل» الذي يخاطب بهِ شيوخ العابدلاب الى اليوم . وقد عرف العابدلاب باولاد عجيب ايضاً نسبة اليهِ . وكان رجلاً صالحاً ديناً وقد حج الى بيت الله الحرام . قيل وهو الذي بني بالمدينة المنازل المعروفة برواق السنار بين بناها باذن السلطنة العثمانية فجعلها وقفاً للحجاج من اهل سنار وهي لا تزال مأوى حجاج السودان الى هذا العهد

﴿ ٣ . العجيل ﴾ ﴿ ٤ . حمد السميح ﴾ ﴿ ٥ . عثمان ابنهُ ﴾

﴿ ٦ . عبد الله الثاني ابن العجيل ﴾ ﴿ ٧ . مسمار ابن عبد الله ﴾

﴿ ٨ . دياب — ارادب ود عجيب ﴾ الذي قتلهُ « ١٤ . الملك بادي الاحمر

﴿ ٩ . الامين ود مسمار ﴾ الذي عاش في ايام « ١٧ . الملك بادي ابي شلوخ »

﴿ ١٠ . عجيب ابن عبد الله ﴾

﴿ ١١ . عبد الله الثالث ود عجيب ﴾ الذي قتل في حرب المسبعات في ايام

« ١٧ . الملك بادي ابي شلوخ » ﴿ ١٢ . عمر اخو عجيب ﴾

﴿ ١٣ . محمد الامين ابن مسمار ﴾ الذي عزلهُ الشيخ ناصر في ايام « ٢٠ . الملك عدلان الثاني » وولّيَ مكانهُ اخاهُ ﴿ ١٤ . بادي ابن مسمار ﴾

﴿ ١٥ . عبد الله الرابع ود عجيب ﴾ الذي قتلهُ الشيخ ادريس في ايام ٢٦ . الملك بادي سنة ١٢١٥ هـ

﴿ ١٦ . ناصر ود الامين ﴾ الذي ذهب الوزير محمد عدلان لقتالهِ سنة ١٢٢٥هـ

﴿ ١٧ . امين الثاني ابن ناصر ﴾

﴿ ١٨ . ناصر ود عجيب ﴾ الذي عزلهُ اسماعيل باشا في مايو سنة ١٨٢١ م

وقد كان للعابدلاب المقام الاول عند ملوك الفونج كما تقدم وكانوا اذا اراد احدهم الدخول على ملك الفونج يستأذنهُ اولاً في ذلك فاذا أذن لهُ تمنطق بثوبهِ ورمى سلاحهُ عند الباب ودخل عليهِ وقال أنا فلان فيعيد الملك اسمهُ ثم يقول الشيخ مخاطباً الملك « طويل العمر » وهو لقب ملوك الفونج فيقف الملك ويأخذ يدهُ ويقول « مرحباً بالبان بايدهِ تنين سيده » اي مرحباً بالذي بان بفعل يدهِ أو بسيفهِ فهو ثانٍ لسيدهِ ثم يأمرهُ الملك بالجلوس فيجلس في الارض . وهكذا كان يتأدب لهم المشائخ والملوك الذين هم دونهم لكن اللقب الذي كانوا يخاطبونهم بهِ هو « مانجل » وكان اذا زار احدهم فقيه او عالم يدخل عليهِ باسطاً يديهِ للدعاء فيقول الفاتحة ثم يتقدم ويقبل يد الشيخ ويرجع القهقرى فيأمرهُ الشيخ بالجلوس فيجلس على فراش فوق الارض احتراماً للدين . وكان النساء اذا التقين باحد مشايخ العابدلاب في الطريق كشفنَ عن رؤوسهنَّ وخلعنَ نعالهنَّ الى ان ينصرف

وكانوا اذا توفي شيخهم اختاروا شيخاً آخر وأخذوهُ الى ملك سنار فيؤيدهُ لهم كما كان مشايخ العابدلاب يؤيدون المشايخ والملوك الذين هم دونهم وتحت سيادتهم وذلك انهُ كان اذا مات لهؤلاء ملك اجتمع اهل قبيلتهِ واختاروا لهم ملكاً يولونهُ عليهم واتوا بهِ الى الشيخ فيحلق الشيخ رأسهُ ويلبسهُ « طاقية » ذات قرنين محشوة قطناً ويجلسهُ على كرسي يسمى « بالككر » ثم يخاطبهُ بلقب مك اي ملك

ويقول لهُ « مبارك عليك » فيقبل الملك يدهُ ويدعو لهُ بخير فيأمر الشيخ بضرب النحاس اشهارًا لتأييدهِ ملكاً على اهلهِ وعند ذلك يتقدم اهلهُ فيسلمون عليهِ بالاحترام الذي سلم بهِ على الشيخ ويخاطبونهُ بلقب « ارباب » ثم يقولون «جعلك الله مباركاً علينا ولتعمر البلاد بك وتكثر الخيرات على يدك » فيقول لهم « الله يعمركم ويخليكم أنا بكم مش بلاكم» ثم يعود الى قومهِ بالطاقية والككر اللذين انعم بهما الشيخ عليهِ حتى اذا ما خرج للحكم لبس الطاقية وجلس على الككر وبذلك يقال للقوم الذين يرأسهم ملك بانهم « اهل ككر وطاقية »

هذا ولم يكن ناموس الوراثة للاكبر متبعاً على اضطراد في مملكة سنار بل كان الفونج يولون على القبائل من كان اكثر موافقة لسلطانهم واقدر على جمع الزكاة وتقديم الهبات



الفصل الثالث

في

﴿ الممالك والمشيخات التي خضعت رأساً لملوك الفونج ﴾

﴿ مشيخة خشم البحر ﴾ قامت على شرق النيل الازرق بين رنقه والرصيرص ومركزها رنقه وقد عرفت ببلاد خشم البحر أو فم البحر لان بحر النيل لا يصلح للسفر منها جنوباً بسبب شلال الرصيرص • قيل ولمشايخها نسبة من جهة الرحم مع الفونج وهم في الاصل قواسمة • وقد مرّ بنا ذكر اربعة منهم في تاريخ الفونج وهم :

﴿ ١ • احمد ود علي ﴾ وهو جد مشايخ خشم البحر ولذلك يعرفون ايضاً باولاد احمد كما عرف الهمج بأولاد محمد

﴿ ٢ • صباحي ود عدلان ﴾ وكلاهما عاشا في ايام «٢٠» الملك عدلان الثاني

﴿ ٣ • الشيخ محمد كنتور ﴾ وقد سميت هذه المشيخة ايضاً بالكناتير نسبة اليهِ

﴿ ٤ • الشيخ ضرار اخوهُ ﴾ وهو الذي قتلهُ محمد عدلان آخر وزراء الهمج

﴿ مملكة فازوغلي ﴾ قامت في جنوبي مشيخة خشم البحر وامتدت من الرصيرص

الى فداسي وعاصمتها فازوغلي. قال كايو : «كان طولها ٣٠ غلوة ومن بلادها المشهورة بلدة فداسي على نهر يابوس من فروع النيل الازرق يأتيها من الحبشة الخيل والحديد والسكاكين والفؤوس والفهود والعسل والبهارات ويأتيها من دار البرتات التبر . ودين اهلها الاسلام ولغتهم العربية الا انهُ كان يسكن بينهم الكثير من سكان دار البرتات وعبدة الاوثان وقد تولى هذه المملكة عائلة من سلالة الفونج وكان لباسهم كلباس ملوك الفونج وما كان يركب الخيل الا هم . وهذه هي سلسلة ملوكها كما اخذتها عن ملكها الاخير الملك حسن عند تسليمهِ لاسماعيل باشا يناير سنة ١٨٢٢:»

سلسلة ملوك فازوغلي

اسماء الملوك	مدة ملكه	اسماء الملوك	مدة ملكه	حواشي كايو
١ كلأح	٥٠	١٠ ادرلا	١٥	
٢ يمني	٤٠	١١ مطر ابنهُ	١٦	
٣ ادريس ابنهُ	٣٠	١٢ فنقرو ابنهُ	١٦	
٤ جابر	١٥	١٣ قلبوس ابنهُ	١	قتلهُ اخوهُ
٥ جابر الثاني ابنهُ	٢	١٤ قبو اخوهُ	٢	
٦ زنقر ؟	١	١٥ قبار	٥	
٧ رويا	٢	١٦ اموشت اخوهُ	١	قتلهُ عدلان
٨ امبدي ابنهُ	٤	١٧ حسن ابن مطر	١٢	عزلهُ اسماعيل
٩ اتورو ابن جابر الثاني	٣	مجموع ملكهم	٢١٥	

﴿ مشيخة الحمدة ﴾ قامت على الدندر شرق مشيخة الكماتير ومركزها دبركي على الدندر وكان مشايخها يخاطبون بلفظ « مانجل » كمشايخ العابدلاب

﴿ مملكة بني عامر ﴾ قامت في الصحراء الشرقية بين البحر الاحمر وخور بركة شرقاً وغرباً و بين عقيق على البحر الاحمر و بلاد الحبشة شمالاً وجنوباً . وهي مؤلفة من اربع قبائل مختلفة وهي : البجة والحاس و بنو عامر والنابتاب . قيل ان بني عامر جاؤا من الحجاز فملكوا البجة والحاس ثم جاء النابتاب اولاد نابت من الجعليين

وملكوهم جميعاً فاتخذوا شياخة القبيلة ثم اعطاهم ملك سنار ككر وطاقية فسموا ملوكاً ولغتهم العربية ولكنهم يعرفون رطانة البجة والحاس ورجال قبيلتهم يلقبونهم بلقب «دقلل» وهو بمثابة أرباب عند ملوك العرب. وقدكانوا يمهرون نساءهم من قبائل البجة والحاس فقسمت اكثر بدناتهم باسماء مشايخ النابتاب واما الذين لا شيخ لهم من النابتاب فقد حفظ فيهم اسم البجة. وكان يمتاز ملوك النابتاب عن رعاياهم بلبس اقراط من الذهب في الاذن اليمنى وزن كلٍّ منها نصف أوقية لا ينزعونها الا يوم الوفاة

﴿ مملكة الحلانقة ﴾ الحلانقة قبيلة من البجة كما مرّ واما هم فيدعون أنهم من ذرية احمد الحلاق من قبيلة بني سعد مزين البني (صلعم) ولغتهم البيجاوية ومركزهم جبل كسلة على القاش وكان بينهم و بين الهدندوة و بني عامر منذ القديم حروب وغزوات . وقد كان كبير الحلانقة يلقب شيخاً ككبير الهدندوة الى ايام الشيخ «عوض مسمار» الذي تزوج ببنت من العابدلاب (أو الفونج) فألبسهُ ملك سنار طاقية الملك لتعزيز مقامهِ فبقي ملكاً الى الفتح المصري للتاكا سنة ١٨٤٠ م

الفصل الرابع

في

﴿ الممالك والمشيخات التي خضعت للفونج بواسطة العابدلاب ﴾

﴿ مشيخة الشنابلة ﴾ قامت على النيل الازرق شمالي سنار ومركزها المسلمية واشهر مشايخها الشيخ شنبول الذي قتل في ايام « ٢٠. الملك عدلان الثاني » كما مرّ

﴿ مملكة الجموعية ﴾ امتدت في غرب النيل الكبير والنيل الابيض من عقبة قري الى الترعة الخضراء، ومركزها القيزان المنسوبة الى اولاد الملك الحينة . وكان اهمّ فروعها الجيعاب والسروراب والفتيحاب واقواهم الجيعاب

﴿ مملكة الجعليين ﴾ قامت في شمالي مشيخة العابدلاب على انقاض مملكة مروى القديمة بين حجر العسل والدامر ومركزها شندي وكانت مملكة قوية تولاّها فرع من الجعليين يعرف بالسعداب فكان منهم على رواية كايو ١٦ ملكاً حكموا ٢٣٥ سنة :

ملوك الجعليين في شندي حسب رواية كايو

اسماء الملوك	سني حكمه	اسماء الملوك	سني حكمه	حواشي كايو
١ سعداب دبوس	٢٠	٩ بشاره	٧	
٢ سليمان العداد	٧	١٠ سليمان ابن سالم	١٥	
٣ ادريس ابن سليمان	٣٥	١١ سعد اخوهُ	٢	
٤ عبد السلام	١	١٢ ادريس الثالث	٢٠	٤ • قتلهُ فونج سنار
٥ النحل ابن عبد السلام	١٥	١٣ سعد الثاني ابنهُ	٤٠	٥ • قتلهُ الجعليون
٦ ادريس الثاني اخوهُ	٦	١٤ مساعد ابنهُ	١٣	٦و١٢ • قتلهُ الكواهلة
٧ دياب اخوهُ	١٢	١٥ محمد الملك	١٣	
٨ قنبلاوي	٣	١٦ نمر ابنهُ	١٧	١٦ عزلهُ اسماعيل
		جملة ملكهم	٢٣٥	

قيل وكان الملك ادريس الثالث اقوى فرسان زمانهِ وما بارز فارساً الاّ غلبهُ . وقد ولد لهُ ولدان محمد وسعد فبعد وفاتهِ اقتسما الدار بينهما فملك محمد البر الشرقي في شندي وملك سعد البر الغربي في المتمة وولد لمحمد ولد سماهُ نمرًا ولسعد ولد سماهُ مساعدًا فملك بعدهما نمر في شندي ومساعد في المتمة ودام ملكهما الى الفتح المصري

وكانت شندي قبيل الفتح المصري من اهم مراكز التجارة في السودان وفيها سوق للرقيق يأتيهِ التجار من الحبشة وسنار وكردوفان ودارفور والدنكا وفرتيت . وقد وصفها كايو بانها بلدة عامرة فيها نحو ٩٠٠ بيت و٧٠٠٠ نسمة وبيوتها مربعة الشكل وكلها طبقة واحدة الا بيت الملك فانهُ كان طبقتين ومطليًا بالجير . وكان عند الملك نمر نحو ٣٠٠ فارس واربعين عبدًا مسلحين بالبنادق وهم رجالهُ الاخصاء ولكن كان اذا هاجمهُ عدوّ قام الجعليون كلهم لنصرتهِ

وقد اشتهر الجعليون في السودان بالفروسية واقتحام الاخطار ولهم وقائع معدودة مع الفونج والشايقية. وقبائل البادية المجاورين لهم كالشكرية والكواهلة والبطاحين

حكي ان الشكرية لما حشدوا جيوشهم لمحاربة الجعليين في زمن الملك نمر كما مرّ اجتمع شيوخ الجعليين من سن ستين فصاعداً وقالوا للشبان نحن نقاتلهم عنكم لانهُ لم يبق لنا في الحياة مطمع فان غلبناهم ارحناكم من شرهم وان غلبونا فخذوا انتم بثارنا . قيل فلما جاء الشكرية ورأوا الجعليين كلهم شيوخاً مسنين ادركوا الحيلة وتوسط العلماء في الصلح فصالحوهم وزوجوا الملك نمر بأخت ابي سن حباً بمصاهرتهم

وكان من عادة الجعليين في ذلك الحين انهُ اذا وقع قتل في بلدةٍ اجتمع سبع قبائل منهم بمشايخهم وفقهائهم ومعهم القاتل وأهلهُ واهل المقتول ووقف اهل القاتل في صف واهل المقتول في صف تجاههم على بعد مئة متر منهم ووقف القاتل وحدهُ بين الصفين ثم ينظر المشايخ والفقهاء في اسباب القتل ويحكمون على القاتل بالعفو او القصاص فان كان العفو حكموا عليهِ بالرحيل من البلدة حتى لا يراهُ اهل المقتول وحكموا على اهلهِ بدفع الدّية وهي الف ثوب من الدمور أو ٣٠٠ الى ٤٠٠ ريال « ابو نقطة » يدفعونها لاهل المقتول اقساطاً ربما دامت سنين

﴿ مملكة الميرفاب ﴾ في شمالي الجعليين بين المقرن ووادي السنقير ومركزهم بربر ولهم ككر وطاقية وقد اشتهر الميرفاب بالكرم والنباهة كما اشتهروا بالشجاعة . وكان آخر ملوكهم الملك نصر الدين الذي حج الى بيت الله الحرام . قيل ان الهمج اساؤوا اليهِ فذهب الى مصر وحرّض محمد علي باشا على فتح سنار انتقاماً لنفسهِ منهم

﴿ مملكة الرباطاب ﴾ امتدت من وادي السنقير الى الشامخية فيما وراء ابي حمد وكان لهم ككر وطاقية وكانوا في حرب دائمة مع الميرفاب الى ان كان الفتوح المصري

﴿ مشيخة المناصير ﴾ امتدت من الشامخية الى الشلال الرابع ومركزها السلامات

﴿ مملكة الشايقيه ﴾ قامت على اطلال مملكة نَبَته القديمة وامتدت من الشلال الرابع الى ابي دوم قشابي ومركزها مروي وهي مملكة عربية محضة . وقام في شماليها مملكة الدفار ودنقلة والخندق وارقو وهي ممالك نوبية او عربية متنوبة . وقد اشتهر الشايقية في السودان بالشجاعة وحب الغزو كما اشتهروا بالضيافة والكرم وكانوا في حرب دائمة مع ملوك النوبة

وفي اواسط القرن الثامن عشر للمسيح تجمعوا بخيلهم ورجلهم وهاجوا ممالك النوبة فتغلبوا عليهم جميعاً وخربوا دنقلة العجوز وقتلوا الكثير من اهلها وتشتت من سلم منهم في الجهات فسكنوا بربر وشندي وفرّ بعضهم الى كردوفان فاستوطنوها وصالحهم ملوك الدناقلة على جزية سنوية تساوي نصف دخل بلادهم . وكانوا هم يدفعون الجزية لملوك سنار حتى قويت شوكتهم واخضعوا دنقلا فامتنعوا عن ادائها

﴿ المماليك ﴾ وفي اوائل القرن التاسع عشر قدم المماليك من مصر فارين من وجه محمد علي باشا فنشبت بين الفريقين حرب دامت الى الفتح المصري . وتفصيل ذلك ان محمد علي باشا بعد ان نكل بالمماليك في قلعة القاهرة على ما هو مشهور في تاريخ مصر فرّ من بقي منهم في البلاد الى الصعيد وتحصنوا بجبال اسنا فتبعهم ابراهيم باشا اليها فانهزموا امامهُ الى السودان فمنهم من ذهب بطريق الصحراء الى شندي وسنار وهم القليل وذهب اكثرهم بطريق النيل وابراهيم باشا يطاردهم حتى وصلوا الى كشتمنه فصمدوا لهُ وحاربوهُ فهزمهم الى ابريم فتحصنوا في قلعتها فشدد عليهم الحصار فخرجوا منها واستطردوا انهزامهم جنوباً حتى اتوا جزيرة ارقو وكان عددهم نحو ٣٠٠ نفر ومعهم ٣٠٠ عبد بسلاحهم فرأوا محمود العادلاناب من رؤساء الشايقية مقيماً في ارقو لجمع الجزية فقالوا لهُ انهم سائرون الى ملك سنار فأضافهم واكرم مثواهم مدة شهر ثم اتفقوا مع رجل من عائلة الزبير المالكة في ارقو وغدروا بمحمود وقتلوهُ وقتلوا الكثير من حاشيته وانتشروا في البلاد يجمعون ما كان مجعولاً للشايقية من الاموال وكان ذلك سنة ١٨١٢ م

وفي يناير سنة ١٨١٣ تجهزوا وساروا لغزو الشايقية في مروي فلما علم الشايقية بذلك ارسلوا فرقة من رجالهم بطريق الصحراء فأتوا المماليك من وراء فقتلوا من بقي من اتباعهم في الخندق وارقو واضطروهم الى الرجوع عن الغزو فنزلوا في مراغة وبقوا فيها الى ان جاء اسماعيل باشا فاتحاً فمنهم من سلّم لهُ في الحال ومنهم من فرّ من وجهه الى شندي فسلم هناك وسيأتي ذكرهم بعد



محمد بك الملك

من سلالة ملوك ارقو

﴿ مملكة الدفار ﴾ قامت في حلة الدفّار المارّ ذكرها ودامت الى ما قبل الفتح المصري بقليل اذ خربها الشايقية وطردوا اهلها منها الى جزيرة قانتي حيث لا يزال ذريتهم الى اليوم . وفي الدفّار اثار قلعة قديمة وكنيسة من بقايا نصارى النوبة

﴿ مملكه دنقلا العجوز ﴾ قامت على انقاض مملكة نصارى النوبة منذ اوائل القرن الرابع عشر للمسيح فاستمرت الى ان خرّبها الشايقية قبيل الفتح المصري ومن اثار الاسلام جامع قائم فوق كنيسة قديمة لنصارى النوبة وفي واجهتهِ حجر مكتوب عليهِ اسم فاتح دنقله وتاريخ افتتاحها وقد مرّ ذكرهُ . قيل ان مؤسسها هو جدّ مرغني ود سوار الذهب الذي اشتهر في تاريخ الثورة المهدية

﴿ مملكة الخندق ﴾ قامت في حلة الخندق ومن اثارها جامع قائم على انقاض جامع آخر بني على انقاض كنيسة من عهد نصارى النوبة

﴿ مملكة الخنّاق ﴾ مركزها حلة الخناق وبقربها الآن اثار قصر فخيم لاحد ملوكها المدعو ود نمير قيل وكان ملوكها من ذرية الفونج

﴿ مملكة أرقو ﴾ قامت في جزيرة ارقو على انقاض مملكةٍ قديمة من زمن الجاهلية فحكم فيها عائلة عرفت بعائلة الزبير لا تزال ذريتها باقية الى الآن واكبرهم في هذا العهد الملك طنبل والملك محمد ود الملك اللذان اشتهرا في الثورة المهدية

ومملكة ارقو هي اقصى الممالك التي خضعت للفونج من جهة الشمال اما البلاد بينها وبين الشلال الاول فقد تولاها الكشاف الاتراك على ما سيجيء

واشهر ما في البلاد الآن من اثار مملكة سنار «القبب» فقد عدَّ لي بعضهم ستين قبة قامت على مدافن الاولياء الصالحين واكثرها تزار الى اليوم وقد ذكرنا الكثير منها فيما مر . اما قصر الملك بادي في سنار فلم يبق لهُ من اثر

وقد عرفت مملكة سنار في السودان بالسلطنة الزرقاء تمييزاً لها عن السلطنة الحمراء وهي حكومة مصر

ملحق
في
﴿ تاريخ الكشاف الاتراك ﴾

في سكوت والمحس

تقدم ان السلطان سليماً الفاتح بعد ان فتح مصر أرسل سرية من العساكر الى بلاد النوبة سنة ١٥٢٠م فملكوها الى الشلال الثالث . وقد مرَّ بنا عن ابن خلدون ان احياء العرب من جهينة بعد الفتوح الاسلامي للنوبة السفلى سنة ١٣١٨م انتشروا فيها فكانوا شيعاً. ويظهر انهُ سكن بين الشلال الاول والثاني عرب الجوابرة من ذرية جابر الانصاري والغربية وهم فرع من الزناتية والكنوز جاؤا من نجد والعراق فسكنوا بين الشلال الاول والسبوع ولذلك عرفت هذه البلاد ببلاد الكنوز الى اليوم. وسكن في بلاد سكوت بين الشلال الثاني وجبل دوشة بعض الاشراف . وفي المحس بين جبل دوشه والشلال الثالث قوم ينتسبون الى عرب قريش وقد اسسوا مملكة في جبل سامي دامت الى الفتوح المصري كما مرَّ. وكان ملك المحس في ايام الفتح المصري الملك صبير جد الملك صبير كبير المحس في هذه الايام

وقالوا في سبب دخول العساكر التركية الى النوبة ان الجوابرة استقووا على الغربية فارسل هؤلاء رسلاً الى السلطان سليم فبعث معهم سنة ١٥٢٠ سرية من عساكر بوسنيه تحت قيادة حسن قوسى فطردوا الجوابرة الى دنقلة حتى لم يبق منهم الا القليل في حلفا والدر فرمموا القلاع القديمة في اسوان وابريم وساي واقاموا فيها

ولما كانت البلاد لجدب ارضها لا تخرج من الاقوات ما يكفي العساكر فقد منحهم السلطان سليم هم وذريتهم من بعدهم عدة امتيازات منها انهُ اعفاهم من دفع الضرائب على اطيانهم ومنح كل حامية صرَّة تجري عليها في كل سنة من خزينة السلطان بمصر فكانت صرة ابريم وحدها اربعة اكياس اي نحو ١٠٠ جنيه

وكان قوسى حسن قومنداناً للعساكر وحاكماً مستقلاً على النوبة الا انهُ كان

يرسل الجزية الى حاكم مصر وقد ضرب على كل ساقية ٢٤ مدًا نوبيًا من الحبوب و ١٢ ثوبًا من نسج النوبة المسمى قونجي . ومات حسن قوسى فتولت ذريتهُ حكم النوبة من بعدهِ وجعلوا عاصمتهم الدر فعرفوا بالكشاف الغزّ

ثم ان الفونج بعد ان اخضعوا النوبة العليا سنة ١٥٠٥ م طمعوا بالنوبة السفلى ففتحوها الى الشلال الثالث وأرادوا التقدم شمالاً قيل وكان الحاكم من الغزّ في ذلك الزمان ابن جنبلان فلما سمع بقدوم جيش الفونج الى بلادهِ جهز جيشاً عرمرماً ووقف لهم على الحدود قرب حنك فالتقى الجيشان وحدثت مقتلة عظيمة انتصر فيها جيش الغزّ انتصارًا عظيماً فردُّوا جيش الفونج على اعقابهم خاسرين بعد ان ملاوا الارض من قتلاهم . قيل واجتمع الدم في بركة هناك فسمي المكان بحوض الدم وبنوا فوقهُ قبة فجعلوها حدًا بينهم وبين الفونج . وهذه القصة مشهورة عند عموم اهالي دنقلا والمحس

هذا وما زالت ذرية حسن قوسى حكاماً للنوبة مستقلين عن مصر في ما عدا الجزية التي كانوا يدفعونها الى حاكم مصر وقلما دفعوها الى المماليك ولكنهم دفعوها الى محمد علي باشا الذي كان يحاسب بها الباب العالي

وكان على النوبة عند قدوم اسماعيل باشا لفتح سنار حسين ابن سليمان كاشف فاراد ان يجمع رجالهُ ويصدهُ عن التقدم فلم يوافقهُ اخوهُ حسن في هذا الرأي ففرّ حسين بعبيدهِ (وكانوا نحو ٣٠٠ عبد) الى كردوفان ولجأ الى المقدوم مسلم وحارب معهُ عند قدوم الدفتردار فاتحاً ولما قتل المقدوم مسلّم فرّ حسين ومعهُ حرم المقدوم وخزينتهُ الى سلطان دارفور فتزوج بابنة السلطان ولا تزال ذريتهُ هناك الى اليوم

وولّى اسماعيل باشا حسناً على البلاد من اسوان الى حلفا وانعم عليهِ ب ٢٩٣ فدانًا و ٦ اكياس دراهم . وكان الكاشف قبل الفتح المصري يتزوج من بنات النوبة قدر ما شاء . فمنع اسماعيل باشا ذلك ووضع على كل ساقية ٥٠ غرشاً ما عدا الـ ٢٤ مدًا نوبيًا التي أبقاها للكاشف وكان كبير كل قبيلة من الكشاف مسؤولاً عما يطلب

للحكومة من ابناء جنسهِ والنوبة . وبقوا على ذلك الى ان قامت الثورة المهدية في السودان وصارت البلاد تحت الحكم العسكري فتوقف النوبة عن تقديم الـ ٢٤ مدًا نوبيًا للكشاف فبطل نفوذهم

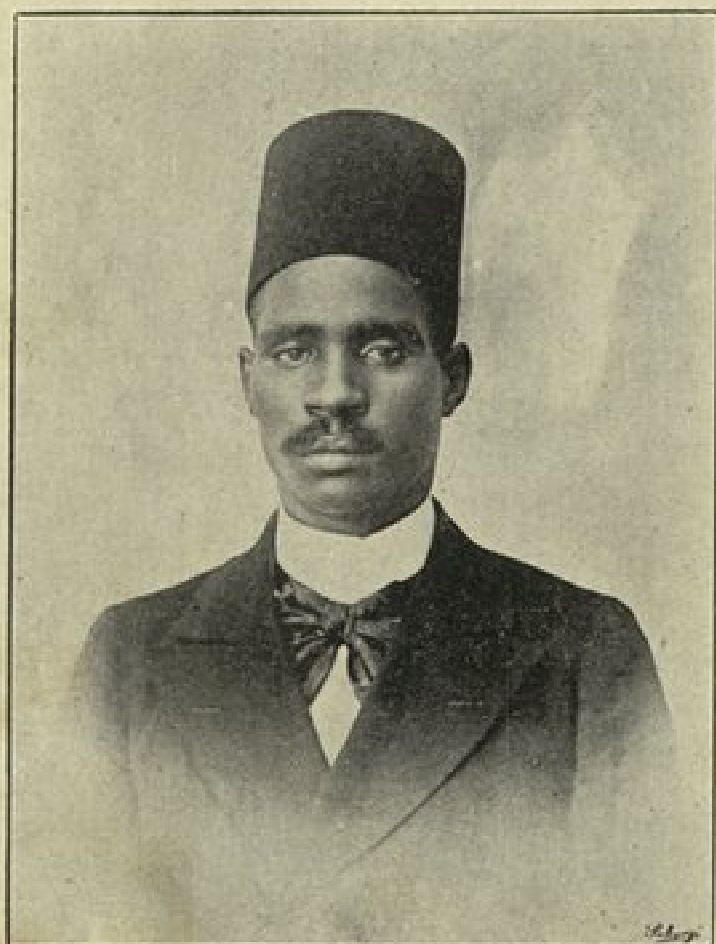
وبعد وفاة حسن كاشف تعين ابنهُ سليمان ناظر القسم وخلفهُ أخوهُ محمد ولم تزل الاراضي التي وهبهم اياها اسماعيل باشا بيد كبير ذريتهم محمد ابن سليمان كاشف الى هذا العهد

هذا في حسن قوسى وذريتهِ اما عساكرهُ فلم تزل ذريتهم مقيمة في اسوان وابريم وسايـے وقد اختلطوا بعرب الجوابرة والغربية فتزوجوا منهم وتعلموا لغة النوبة ونسوا لغتهم ولكنهم ما زالوا متميزين عن النوبة الاصليين في الهيئات والاخلاق الى اليوم

واهم ما في بلاد سكوت والمحس من آثار هذا العهد قلاع متهدمة من الطوب النيِّ والحجر الخام قائمة على تلال مرتفعة في جزر النيل او على شاطئيهِ وبعض هذه القلاع عبارة عن حوش كبير محاط بسور منيع ارتفاعهُ نحو خمس عشرة ذراعًا وعرض اساسهِ نحو ثلاث اذرع وللسور اربعة ابراج في كل ركن برج علوهُ نحو خمسين ذراعًا يصعد الى اعلاهُ بسلم . وقد شاهدت بعض هذه القلاع في الحملات النيلية فسألت شيوخ اهل البلاد عنهم فقالوا كان الاهلون قبل الفتح المصري في انشقاق دائم ودأبهم شن الغارة بعضهم على بعض فكانت كل قبيلة تبني قلعة تعرف باسم دفي حتى اذا ما اغارت عليها قبيلة اخرى جمعت نساءها واولادها وبهائمها واموالها وحبوبها الى حوش القلعة وصعد الرجال الى الابراج ورموا العدو بالمقلاع والنشاب أو خرجوا لهُ وقاتلوهُ بالنبابيت والحراب والسكاكين وخرج معهم النساء يحملنَ لهم الزاد ويحمسنهم على القتال فلما كان الفتح المصري عمَّ الامن البلاد فلم يعد لهذه القلاع من داعٍ فأهملت وادركها الخراب

وقبل التقدم الى الفتح المصري نأتي على تاريخ دارفور القديم فنقول :





الامير عبد الحميد

نجل السلطان ابرهيم سلطان دارفور الاخير

الباب الخامس

في

تاريخ سلطنة دارفور

منذ اول نشأتها الى الفتوح المصري أي منذ سنة ٨٤٨ : ١٢٩١هـ — ١٤٤٥ : ١٨٧٥م

﴿ تمهيد في اصل سلطنة الفور ﴾

لقد اجمعت التقاليد السودانية على ان سلطنة الفور هي من اصل عربي والذي عليهِ البعض وتدَّعيهِ سلالتهم الى اليوم انهم من بني العباس ۰ ولهم في ذلك رواية لطيفة تختلف في التفصيل بحسب الرواة وتتفق في المغزى۰ وأشهر ما رووهُ ان الامراء العباسيين بعد انقراض دولتهم ببغداد سنة ٨٢٣ هـ ١٤٢١م تفرّقوا في بلاد المشرق فذهب منهم شقيقان الى تونس الغرب ومعهما نفر من الاعراب وكان اسم اكبرهما عليًّا وأصغرهما احمد سفيان وكان علي متزوجاً بامرأة ذات جمال واحمد سفيان عازباً ولكنهُ كان آية في الجمال فأحبتهُ امرأة اخيهِ حبًّا لم يسعها معـهُ الكتمان فكاشفتهُ بحبها فانكر عليها ذلك وعذلها ولكنهُ وعدها ان يكتم سرّها اما هي فاشتملت غيظاً من إبائهِ وعزمت على الانتقام منهُ فأتت زوجها ذات يوم وقالت اني جئتك بأمرٍ جلل لا يحسن كشفهُ فأقسم لي انك لا تبوح بهِ لاحد فأقسم لها فقالت ان شقيقك احمد يراودني عن نفسي وانا انتهرهُ وازجرهُ وهو لا ينزجر فعظم هذا الخبر جدًّا على عليّ واغتمّ لاجلهِ غمًّا شديدًا ولكنهُ لم يصدق ما قالتهُ لهُ امرأتهُ على علاّتهِ لانهُ كان يحب أخاهُ محبة فائقة ويثق بعفافهِ وشهامتهِ فبقي مرتاباً في الامر۰ وكان احمد لما رأى ان امرأة اخيهِ استاءت منهُ جعل يتلطف لها ويترضّاها فرأى اخوهُ منهُ ذلك فقوي الريب فيهِ وصدّق ما قالتهُ لهُ زوجتهُ فاسودّت الدنيا في عينيهِ وكرِه اخاهُ وزوجتهُ والارض التي كان نازلاً فيها فأمر ان تقوّض خيامهم ورحلوا من تلك

الارض وتأخر في الطريق مع اخيهِ وهو يفكر بالذي يفعلهُ فأبت نفسهُ ان يكاشفهُ بسرّ زوجتهِ ولم يطاوعهُ قلبهُ على قتلهِ فقرّ رأيهُ ان يعقرهُ برجلهِ فيسمهُ بوسم يؤنبهُ ما دام حيًّا فاستلّ سيفهُ وفاجأهُ بضربة في رجلهِ اليمنى فعرقبهُ وتركهُ يسيل منهُ الدم ولحق بقومهِ • وادرك احمد سفيان سبب غدر أخيهِ بهِ ولكنهُ كان من الانفة على جانب عظيم فلم يفه ببنت شفة بل صبر على الضيم وجلس ينتظر الموت والدم ينزف من عقر رجلهِ ولهذا سمي احمد سفيان المعقور • ثم علم بهِ عبيدهُ وخاصتهُ فاجتمعوا حولهُ وعالجوهُ حتى برئ جرحهُ فسار بهم بطريق الصحراء مهاجرًا بلاد تونس حتى أتى جبل مرَّة من اعمال دارفور

وكان في ذلك الجبل أمة من شبه السود يقال لهم « الفور » عليهم ملك منهم يسمى شاو دورشيت فكان هذا الملك عريقًا في الهمجية ولكنهُ كان كريم الطبع حسن النقد فلما علم بقدوم احمد أحضرهُ لديهِ فأعجبهُ عقلهُ وادبهُ فعهد اليهِ في تدبير منزلهِ وسياسة مملكتهِ فأحسن احمد السياسة وعلّم رجال حاشية الملك آداب السلوك ثم التفت الى المملكة فنظم احوالها وأصلح امورها فأحبهُ الملك حبًّا شديدًا ولم يكن لهُ الاّ بنت واحدة فزوَّجهُ بها فولدت لهُ ولدًا سماهُ سليمان فشبّ ثاقب الفكر سديد الرأي حسن السياسة محبًّا للخير والاحسان فأحبهُ اهل الجبل والفور • وتوفي ابوهُ احمد سفيان في حياة جدهِ السلطان شاو دورشيت ثم توفي جدهُ فنادى بهِ اهل الحلّ والعقد باجتماع الكلمة سلطانًا عليهم وبايعوهُ على السمع والطاعة وكان ذلك سنة ٨٤٨ هـ ١٤٤٥م فأقام في عاصمة جدهِ في جبل مرَّة وكان اول سلالة السلاطين العربية الذين تولوا دارفور نحو ٤٤٣ سنة الى ان دخلت في حوزة الحكومة المصرية الخديوية عن يد الزبير رحمت باشا كما سيجيء

هذه هي رواية اهل السودان في أصل سلطنة الفور وهي لا تخرج عن حد الروايات الموضوعة التي يكثر امثالها في السودان فانهُ ما من قبيلة أو مملكة عربية اشتهرت في السودان الاّ رجعت في نسبتها الى النبي أو الصحابة أو من اتصل بهم • وفي المشهور ان دارفور كانت في ذلك الزمن سلطنات متفرّقة من السود وشبه

السود وفي جملتها سلطنة الفور في جبل مرّة وكان العرب المسلمون قد هاجروا اليها من مصر أو تونس أو الحجاز أو منها جميعاً وملأوا مدنها وبواديها ولم يكن لهم سلطان واحد يرجعون اليهِ بل كانوا قبائل شتى تحت حكم سلاطين البلاد الاصليين فلا يبعد ان يكون سلطان الفور في ذلك الحين قد أعجب بنجابة شاب من شبان العرب العريقين في النسب فزوّجهُ بابنتهِ فولدت منهُ سليمان فأسس السلطنة التي فيها كلامنا. على ان عامة اهل دارفور يرجعون في انسابهم الى ابي زيد الهلالي الذي اشتهر في تونس

الفصل الاول

في

﴿ تاريخ سلاطين الفور ﴾

﴿ ١ . السلطان سليمان الاول سنة ٨٤٨ : ٨٨٠ هـ — ١٤٤٥ : ١٤٧٦ م ﴾

هو رأس سلاطين الفور المار ذكرهُ . قيل انهُ لما تولّى السلطنة لم يكن في جبل مرة مساجد للعبادة فبنى المساجد واقام صلاة الجمعة والجماعة ثم شرع في ضم كلمة المسلمين واستعان بعرب البادية المنتشرين في البلاد فأخضع ملوك شبه السود المحيطة بجبل مرة الى سلطانهِ وعلمهم دين الاسلام . واخضع بعض ملوك السود البعيدين عن جبل مرّة فبقوا على الوثنية . فأصبحت دارفور كلها سلطنة واحدة لمن يتولاها من ذرية السلطان سليمان الى يوم انقضائها

وكان جملة الذين خضعوا للسلطان سليمان وبقوا الى عهد خراب السلطنة ٢٧ ملكاً سبعة مجوس من السود والباقون مسلمون من شبه السود

أما سلاطين المجوس فهم سلاطين كاره ودنقو وفنقرو وبنه وبايه وفرُوقى وشالا وكلهم في بلاد فرتيت الى الجنوب الغربي من دارفور

واما ملوك المسلمين فهم : البرقد والتنجر وكبْقه والميمه والمسبعات في الشرق من جبل مرة . والمراريت والعورة وسميار والمساليت والقِمر وتامه والجبلاويين

واب درق وجوجه وأسمور في الغرب والشمال الغربي • وزغاوه كبا والميـدوب في الشمال والشمال الشرقي • والبيقو والداجو ورنقا في الجنوب والجنوب الغربي

ذلك ما عدا القبائل العربية الذين جمع كلمتهم واستنصر بهم واهمهم : الهبانية والرزيقات والمسيرية والتعايشة وبنو هلبه والمعالية في الجنوب • والحُمر في الشرق• والزيّادية في الشمال • والماهرية والحاميد وبنو حسين في الغرب

وكانت مدة السلطان سليمان ٣٢ سنة ﻫ وجاء بعدهُ من سلالته :

﴿٢ • السلطان عمـر ٨٨٠ : ٨٩٧ ﻫ — ١٤٧٦ : ١٤٩٢ م ﴾

﴿٣ • السلطان عبد الرحمن٨٩٧ : ٩١٦ ﻫ — ١٤٩٢ : ١٥١١ م ﴾

﴿٤ • السلطان محمـود ٩١٦ : ٩٣٢ ﻫ — ١٥١١ : ١٥٢٦ م ﴾

﴿٥ • السلطان محمد صول ٩٣٢ : ٩٥٧ ﻫ — ١٥٢٦ : ١٥٥١ م ﴾

﴿٦ • السلطان دليـل ٩٥٧ : ٩٦٧ ﻫ — ١٥٥١ : ١٥٦٠ م ﴾

﴿٧ • السلطان شرف ٩٦٧ : ٩٩١ ﻫ — ١٥٦٠ : ١٥٨٤ م ﴾

﴿٨ • السلطان احمـد ٩٩١ : ١٠٠١ ﻫ — ١٥٨٤ : ١٥٩٣ م ﴾

﴿٩ • السلطان ادريس١٠٠١ : ١٠١٣ ﻫ — ١٥٩٣ : ١٦٠٥ م ﴾

﴿١٠ • السلطان صالح ١٠١٣ : ١٠٣٥ ﻫ — ١٦٠٥ : ١٦٢٢ م ﴾

﴿١١ • السلطان منصور ١٠٣٥ : ١٠٤٨ ﻫ — ١٦٢٢ : ١٦٣٩ م ﴾

﴿١٢ • السلطان شوش ١٠٤٨ : ١٠٦٨ ﻫ — ١٦٣٩ : ١٦٥٨ م ﴾

﴿١٣ • السلطان ناصر ١٠٦٨ : ١٠٨٠ ﻫ — ١٦٥٨ : ١٦٧٠ م ﴾

﴿١٤ • السلطان تـوم ١٠٨٠ : ١٠٩٤ ﻫ — ١٦٧٠ : ١٦٨٣ م ﴾

﴿١٥ • السلطان كورو ١٠٩٤ : ١١٠٦ ﻫ — ١٦٨٣ : ١٦٩٥ م ﴾

﴿١٦ • السلطان سليمان الثاني ١١٠٦:١١٢٦ﻫ — ١٦٩٥ : ١٧١٥ م ﴾

ومن الرواة من لا يعترف بالسلاطين السابقين لهذا السلطان ويؤكدون انهُ هو اول سلاطين الفور بعد ان سرى الدم العربي فيهم ويلقبونهُ بسليمان صولون أي العربي وينسبون اليهِ كل مانسب الى السلطان سليمان الاول ويجعلون «١٥ • السلطان

كورو » في مكان شاو دورشيت ويؤيدون قولهم بأختام سلاطين الفور المتأخرين كختم السلطان ابراهيم الاخير والسلطان حسين من قبلهِ فان نسبتهم في اختامهم تنتهي الى السلطان سليمان الثاني هذا كما سترى . ولكن الامام الذي أخذنا عنهُ سلسلة سلاطين الفور ومعظم تاريخهم يؤكد ان اختام السلاطين الأول ترجع نسبتهم في اختامهم الى ما وراء السلطان سليمان الثاني وان لقب صولون هو لسليمان الاول وقد نسبوهُ الى سليمان الثاني جهلاً

﴿ ١٧ . السلطان موسى ابنهُ ١١٢٦ : ١١٣٨ هـ — ١٧١٥ : ١٧٢٦ م ﴾

وكان على مثال أبيهِ في العدل والاحسان

﴿ ١٨ . السلطان احمد بكر ابنهُ ١١٣٨ : ١١٥٨ هـ — ١٧٢٦:١٧٤٦ م ﴾

وقد اشتهر بكثرة الاولاد قيل كان لهُ نحو مئة ولد

﴿ ١٩ . السلطان محمد دَوْرَه ابنهُ ١١٥٨:١١٧٠ هـ — ١٧٤٦:١٧٥٧م ﴾

ولم يكن اكبر اخوتهِ بل كان ثانيهم فقتل اخاهُ الاكبر ليخلو لهُ الملك فلما ملك شرع في قتل باقي اخوتهِ ليخلو الملك لاولادهِ من بعدهِ قيل فلما رأى نساء أبيهِ انهُ شرع في قتل اخوتهِ جعلنَ لاولادهنَّ الذكور « كنافيس » وألبسنهم لبس البنات ليحجبنهم عن عينهِ ومع ذلك فقد قتل منهم نحو الخمسين

﴿ ٢٠. السلطان عمر الثاني ابنهُ ١١٧٠ : ١١٧٧ هـ — ١٧٥٧ : ١٧٦٤م ﴾

وكان من أعدل سلاطين الفور وأشدهم محافظة على الكتاب والسنة . ومما يروى عن عدلهِ انهُ بعد تولّيهِ الملك بثلاثة ايام خرج الى مجلس خاصتهِ وسألهم أن يولّوا أحد أعمامهِ في مكانهِ قال لان طاقية الملك يعني بها مسؤلية الملك ثقيلة فرفضوا ذلك بتاتاً وأبوا الا ان يكون هو السلطان فقال لهم اذاً انتظروني اسبوعاً فأخبركم بما أريد فخلا أسبوعاً في منزلهِ ثم خرج ومعهُ قرون من الخشب تمثل قرون الغنم والبقر وقال لهم أريد ان يعم الامن ويبطل التعدي حتى تسلم ماشية أضعف النساء وتنمو قرونها فتصير مثل هذه القرون . ثم التفت الى الحكام وقال أريد ان تعدلوا في الرعية لكي لا يجيء أحد منهم اليَّ بشكوى . فلم يمضِ الاَّ القليل حتى جاءتهُ

الشكاوي على ٣٠ عاملاً من المقاديم والشراتي والجنود فأحضرهم اليهِ ولما تحقق ظلمهم امر فذُبحوا عند بابَيْ دارهِ ١٥ منهم عند باب الحريم و ١٥ عند باب الرجال فوقعت الرهبة في قلوب الجميع وانقطع الظلم . قيل وقد بارك الله في البلاد بسببهِ حتى أتأمت الابل والبقر والحمير وغزرت الينابيع في جبل مرة وجرت الانهار فلقب بسرَف أي الماء الجاري

﴿ ٢١ . السلطان ابو القاسم عمهُ ١١٧٧ : ١١٨١ هـ — ١٧٦٤ : ١٧٦٨ م ﴾

قيل وفي ايامهِ خرج رجل عربيّ صالح من كردوفان يسمى عبد الكريم الى دار ودّاي وكانت اذ ذاك بيد التُنجر فاغتصبها منهم وكانوا قبلاً يدفعون الجزية الى سلاطين الفور فلما تولى عبد الكريم أبى دفع الجزية فجرّد السلطان ابو القاسم جيوشهُ عليهِ ووقعهُ واقعة شديدة ولكن اختلفت كلمة جيشهِ فنزل بنفسهِ الى ساحة القتال فجرح وانقلب راجعاً الى دارفور فمات في دار تامه فحملهُ رجالهُ ودفنوهُ في مدفن اجداده في جبل مرّة وخلفهُ :

﴿ ٢٢ . السلطان تيراب اخوهُ ١١٨١ : ١٢٠١ هـ — ١٧٦٨ : ١٧٨٧ م ﴾

وكان لهُ ثلاثون ولدًا ونيف من الذكور البالغين ما عدا الصبيان والبنات وقد أطلق لهم العنان فتفرقوا في البلاد يعيثون ويفسدون وما تركوا شيئاً نفيساً عند أحد الاّ اغتصبوهُ منهُ وكان أحدهم مساعد لا يتحرّك الاّ راكباً على ظهور الرجال فكان اذا أراد الانتقال من بلدة الى أخرى انتقى عددًا من رجالها الاشداء فحملوهُ بالتناوب الى المحل الذي يقصدهُ حتى ضاقت نفوس أهل دارفور منهم ورفعوا الشكوى الى أبيهم فما أصغى اليهم وقال اني لاعجب كيف ان رعيتي لا تصبر على اولادي فاذا أتوا أقل شيء لا يرضيهم شكوهم اليَّ ! فامتنع الناس عن الشكوى وسلموا أمرهم الى الله

وكان اسحق اكبر أولاده انجبهم وأحبهم اليهِ فأطلق عليهِ اسم الخليفة لانهُ اراد ان يرشحهُ للملك بعدهُ وجعل لهُ حاشية من الوزراء والاتباع مثل حاشيتهِ فجعل أبناء وزرائهِ وزراء لابنهِ وابناء اتباعه اتباعاً لابنهِ وكان لهُ زوجة يحبها ويراعيها ولها ابن منهُ يسمى احمد فطلبت اليهِ أن يرشح ابنها للسلطنة بدلاً من اسحق

فقال لها تيراب نمتحن الاثنين امامك فالذي نجدهُ افرس من أخيهِ نرشحهُ للسلطنة فرضيت أم احمد بذلك فبعث السلطان في طلب الاثنين الى غرفتهِ الخصوصية وكان للغرفة بابان باب للرجال وعليهِ اسدان مقيدان بالحديد في كل جانب اسد وباب للحريم ليس عليهِ شيء فلما اقترب الولدان من باب الرجال نظر أحمد الى الاسدين فتحوّل عنهما ودخل من باب الحريم واما اسحق فانهُ دخل من باب الرجال بين الاسدين وكان دخولهُ حبوًا على عادة الدخول الى السلطان فمزق الاسدان ثيابهُ وشرطا جسمهُ بأظافرهما وهما يلاعبانهِ كعادة الاسود الاليفة فلم يعبأ اسحق بهما ودخل على أبيهِ فسلم عليهِ وكذلك سلم عليهِ احمد فسألهما بعض الاسئلة ثم أمرهما بالانصراف فخرج كل منهما من الباب الذي دخل منهُ وكانت أم احمد جالسة مع السلطان تشاهد ذلك فالتفت اليها السلطان وقال من منهما يستحق الخلافة ويؤمن على الملك قالت « لا والله ابنك اسحق فانهُ رجل واما ابني فقد اخجلني »

وكان كرسي سلطنة الفور الى هذا العهد في جبل مرّة فنقلهُ السلطان تيراب الى بلدة شوبة قرب كبكبيّة حيث بنى منزلاً فاخرًا ومسجدًا فخيماً من الطوب الاحمر وأقام فيها آمنًا مطمئنًا حتى خرج عليهِ المسبعات في كردوفان فجهز لقتالهم

اما المسبعات فني المشهور انهم هم وسلاطين الفور من جدٍّ واحد قيل ان السلطان سليمان صولون المتقدم الذكر لما تولّى دارفور كان لهُ أخ يدعى مسبع فتولّى كردوفان وتعاهد الاثنان على ان يقنع كل منهما بملكهِ فلا يطمع بملك الآخر فعاشا بسلام وامان الى ان توفيا ودام هذا الحال في ابنائهما الى ايام السلطان تيراب. وكان من ذرية مسبع على كردوفان في ذلك الوقت السلطان هاشم وكان شجاعاً محبًا للحروب والغزوات فغزا السروج والعرب البادية الذين على حدود دارفور فقهرهم فسوّلت لهُ نفسهُ اخضاع دارفور فجمع جيشاً من السود مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل وجيشاً آخر من العرب الدناقلة والكبابيش والرزيقات وبدأ بشن الغارة على حدود دارفور فقتل وغنم وسبى فلما علم تيراب بذلك كتب اليهِ ما معناهُ :

« الى ابن العم المكرَّم السلطان هاشم سلطان كردوفان اعزّهُ الله

اما بعدُ فاني لا اعلم السبب الذي يحملك على غزو بلادي مع ما هنالك من صلاة القربى وعلاقات المودة التي تربطنا ولم يكن مني ما يكدّر صفاءها وأنت تعلم ان هؤلاء الذين تغزوهم هم مسلمون مثلك يعبدون الله ورسولهُ وما من عاقلٍ يفعل ما أنت فاعل فعند وصول كتابي هذا ارجو ان تكف عن العداء رفقاً بالرعية وتذكر ان الظالم ينال جزاء فعلهِ والسلام» . فلم يلتفت السلطان هاشم الى هذا الكتاب بل عاد الى ارسال السرايا لغزو الحدود فتيقن السلطان تيراب اذ ذاك انهُ لا يرجع الاّ بالسيف فجهز لقتالهِ بكل قوتهِ وآلة حربهِ ولم يشأ ان يخلي العاصمة من السكان فأعتق مئة عبد بنسائهم وأمر رجالهُ فأعتق كلٌّ منهم عبدًا أو اكثر بنسائهم وجعل اكبر عتقائهِ حاكماً على المدينة وعتيق امامهِ الحاج عبد الغني اماماً للمسجد ونهض بجميع جيوشهِ قاصدًا كردوفان فنزل بمحل يقال لهُ ريل في بلاد البرقد وبنى لهُ زريبة من شوك وبنى في داخلها منازل من الطين وشرع في الاستعداد للحرب

وجرى للسلطان تيراب وهو يتأهب للحرب في ريل حكاية مع احد البرقد تستحق الذكر قالوا خرجت جارية من جواري السلطان الى بئر قريبة من الزريبة لتستقي فرآها رجل من البرقد فهام بها وطلب حضانتها في منزلها على جاري عادة أهل تلك البلاد فقالت لهُ ومن أين لك ذلك وأنا في زريبة السلطان قال دليني على محلك في الزريبة وأنا اعلم كيف ادخل اليهِ فدلّتهُ ولما جنَّ الليل جاء الى الزريبة واقتلع الشوك من بعض جهاتها البعيدة عن الخفراء وذهب الى حيث دلّتهُ الجارية وجلس ينتظر قدومها فاتفق ان السلطان خرج في ذلك الوقت من مخدعهِ يتمشى في الزريبة فرأى الرجل امام باب الجواري فقال لهُ من انت ايها الرجل وما جاء بك الى هذا المكان فأخبرهُ بقصتهِ على التمام فطلب تيراب الجارية فحضرت وهي ترتعد خوفاً فأمّنها وسألها عن الحقيقة فأجابتهُ بما قالهُ الرجل فلما تحقق خبرهما سمح لهما بالمحاضنة . وفي الغد عقد مجلساً من كبار دولتهِ وقص عليهم خبر الرجل وطلب الحكم عليهِ فحكم البعض بقتلهِ والبعض بسجنهِ والبعض بجلدهِ فقال السلطان رأيي على الضدّ من رأيكم فان مثل هذا الرجل لا يُقتل كأنهُ نعامة أو دجاجة ولا

يهان بسجن أو بجلد بل يربى للحروب والقتال فانهُ لو لم يكن شجاعاً مقداماً لا يعرف الخوف ما أقدم على الدخول الى منزلي بهذه الجرأة وفي الحال امر لهُ بجواد وآلة حرب وعبدين وزوجهُ بالجارية وجعلهُ في مصاف فرسانه

وقد طالت اقامة السلطان تيراب في رَيل مصابرة للسلطان هاشم لعلهُ يرتدع عن شن الغارة فما زادهُ ذلك الاَّ تمادياً في غيّهِ فتحمس ثلاثة من فرسان السلطان تيراب فركبوا خيولهم وأتوا الى النحاس فضربوهُ وجمعوا الناس للحرب بلا استئذان السلطان وكان الوقت العصر فلبس السلطان عدة حربهِ وركب جوادهُ وجاء الى مكان النحاس فسأل الفرسان عن الخبر فقالوا ان نحاس السلطان هاشم أوقر آذاننا ونحاسنا ساكت فلم يعُد لنا صبر على هذه الحال فاما ان نسكت نحاس السلطان هاشم ونردعهُ عن البغي أو نموت في هذا السبيل فقال السلطان تيراب اتبعوني اذًا فتبعوهُ ولحق بهم الجيش فاستمر السلطان سائرًا والجيش يتبعهُ الليل كلهُ الى طلوع الشمس فتقدم احد الوزراء الى السلطان وقال لهُ يا مولاي ان الجيش انهكهُ التعب ولم يذق زادًا فلم يصغ السلطان اليهِ وواصل السير الى العصر فتقدم اليهِ وزير آخر وقال يا مولاي ان الجيش قصَّر عن السير حتى الفرسان فوضع يدهُ تحت فخذهِ واخرجها ملوّثة بالدم وقال انظر ما جرى لي ولم اتضجر وعاد الى متابعة السير فتقدم اليهِ إمامهُ الحاج عبد الغني وقال لهُ يا أمير المؤمنين فاتنا خمسة اوقات من الصلوات المفروضة علينا ديناً فان كنت لا تقف شفقة على نفسك والجيش فلا بدّ من وقوفك لاداء فرض ربك في الصلوة فوقف السلطان اذ ذاك وقال لقد أوقفتني بالرغم عني يا حضرة الامام . وكان على مقربة من بئر تولو فنزل عندها واستأنف الاستعداد للحملة على كردوفان فجمع عربان البادية القاطنين بلاد دارفور من ابّالة وبقارة وامرهم بمرافقة الجيش بما معهم من الابل والبقر لحمل الذخائر والمؤن فعهد الى الابّالة حمل الماء والحبوب والى البقارة حمل باقي المؤن من العسل والسمن

ولما أتمَّ استعدادهُ ترك ابنهُ اسحق وكيلاً عنهُ في ريل وسار هو لقتال السلطان هاشم بجيش كثيف بهيئة مربع هائل في طليعتهِ دادات السلطان حاملين الفؤوس

لقطع الاشواك والاشجار وتمهيد طريق الجيش • وفي ساقتهِ مقدوم الغرب • وفي ميمنتهِ مقدوم الصعيد • وفي ميسرته مقدوم الشمال • وفي القلب القوات الآتية على الترتيب : محافظ العاصمة ومعهُ الموظفون الملكيون من وراء دادات السلطان الذين في طليعة المربع • ثم قبيلة السروج حاملين الحراب والدرق • ثم قلعة السلطان من امامهِ حملة النبابيت ومن ورائهِ الياروان حاملين الحراب المكسوّة باكياس من الجوخ الملوّن وعن يمينهِ الوزراء والملوك وعن يسارهِ اولادهُ واولاد السلاطين السابقين • ثم حريم السلطان يحيط بهنّ الغفر من الاغوات وعليهم « أبو شيخ » مقدوم الشرق رسماً • ثم حريم كبار الجيش واغواتهنّ • ثم حملة العربان حاملين المؤن والذخائر امام مقدوم الغرب الذي في ساقة المربع

وكان السلطان هاشم قد علم بقدوم السلطان تيراب بجيش كثيف لا قبل لهُ بمحاربته وتفرّق عنهُ أكثر رجالهِ ففرّ بحاشيتهِ وعائلتهِ والتجأ الى ملك سنار • فسار السلطان تيراب في أثرهِ حتى وصل قرب أم درمان فقابلهُ جيش العابدلاب من قبل ملك سنار قاصدين منعهُ عن النزول الى النيل فأوقع بهم واقعة عنيفة وكسرهم شر كسرة فحملوا نحاسهم المسمى بالمنصورة وفرّوا بهِ طالبين النجاة فتبعهم جيش السلطان تيراب بقصد الاستيلاء على النحاس فدافع العابدلاب عنهُ بأنفسهم دفاع الابطال حتى قتل منهم سبعون رجلاً وفاز تيراب بنحاسهم فسرّ بهِ سروراً فائقاً حتى انهُ طلاهُ بالذهب من الداخل والخارج وعمل لهُ نهوداً من الذهب وحفظهُ الخلف عن السلف الى انقضاء ملكهم • وكانوا في كل سنة يجدّدون تجليدهُ بموكب حافل يجتمع فيهِ أهل دارفور خاصتهم وعامتهم من جميع الانحاء ودامو على ذلك الى ان سقطت دارفور بيد مصر فحُمل الى القاهرة

ثم ان السلطان تيراب بعد انتصارهِ على العابدلاب نزل في أم درمان واخذ يستعد للزحف على سنار فوجد النيل في طريقهِ وعرضهُ ٦٠٠ يرداً ونيف ولم يكن عندهُ المراكب والمعدّات اللازمة لاجتياز النيل فبقي هناك اشهراً يدبر الوسائط لاجتيازهِ فلم يفلح فسئمت نفوس رجالهِ من الانتظار واشتاقوا الى عيالهم في دارفور

فألحوا عليهِ بالرجوع فأقسم لهم ان لا يرجع الاَّ برأس هاشم فاغتاظوا منهُ واتفقوا مع علي ود برقو والد احدى زوجاتهِ على قتلهِ فاطلع تيراب على الدسيسة وقتل علي ود برقو وبقي في أم درمان الى ان مرض فحملوهُ وعادوا بهِ قاصدين دارفور فاشتد عليهِ المرض في الطريق ومات في باره فحنطوهُ وحملوهُ الى جبل مرّة ودفنوهُ في طرّه التي هي مدفن سلاطين الفور . وقد اتسعت مملكة دارفور في ايامهِ اتساعاً لم نرَ مثلهُ قبل ولا بعد فكان حدها من الشمال بئر النترون في الصحراء الكبرى ومن الجنوب بحر الغزال ومن الشرق بحر النيل ومن الغرب مضيق ترجه وهو مضيق بين جبلين فاصل بينها وبين ودّاي وكان طولها مسيرة ٣ اشهر على القوافل وعرضها مسيرة شهرين . وقد بنى السلطان تيراب سوراً من الطوب في أم درمان لا تزال آثارهُ ظاهرة هناك الى اليوم . ولم يخلفهُ على الملك ابنهُ اسحق كما دبّر من قبل بل خلفهُ

﴿ ٢٣ . السلطان عبد الرحمن اخوهُ ١٢٠١ : ١٢١٥ هـ — ١٧٨٧ : ١٨٠١ م ﴾

فلقب باليتيم والعادل والرشيد قيل لقب باليتيم لانهُ عند وفاة أبيهِ كان لا يزال رضيعاً وبالعادل لانهُ كان عادلاً وبالرشيد لانهُ ارسل الى « جلالة امير المؤمنين وسلطان السلاطين في الاستانة » هدية من العاج والريش فأرسل جلالتهُ كتاباً يشكر لهُ هديتهُ ويلقبهُ بالرشيد وهو اللقب الذي عرف بهِ في اختام سلاطين الفور . وقالوا في تفصيل ولايتهِ انهُ لما مرض أخوهُ تيراب كان يطلب العلم في بلدة كربو من اعمال دارفور وكان لهُ هناك صديق يسمى الشيخ مالكاً من الفلاتة فأشار عليهِ بالذهاب الى أخيهِ بحجة عيادتهِ فاذا توفي تسنَّت لهُ الفرصة للملك فسار عبد الرحمن برأي صديقهِ وأدرك اخاهُ في باره قيل فلما سمع تيراب بقدومهِ فرح بهِ وقال «احضروا اليَّ ابن والدي لاراهُ قبل موتي فانهُ سلطان فور بعدي» فأحضروهُ اليهِ فترحب بهِ وأمر لهُ بهدية نفيسة ولما توفي قام ابناء السلاطين المرافقين لجيش تيراب فادعى كل منهم الحق بالملك بعدهُ الاَّ عبد الرحمن فانهُ لم يقل شيئاً فعقد الاعيان ورؤساء الجيش مجلساً بحضرة العلماء وحلَّفوا ابناء السلاطين على الكتاب انهم يرضون بالذي يختارونهُ لهم فاختاروا عبد الرحمن باتفاق الآراء لانهُ كان رجلاً

عادلاً صالحاً محبوباً من الرعية فنادوهُ الى المجلس وولّوهُ سلطاناً على دارفور ثم نادوا الباقين واحداً واحداً وأخبروهم بولايتهِ سلطاناً عليهم فبايعوهُ مضطرين

وكان عبد الرحمن متزوجاً بجارية سوداء طيبة الاخلاق من قبيلة البيقو تسمى أم بوسه وكان يحبها محبــة شديدة وقد أحضرها معهُ الى باره قيل فلم يتم الأمراء مبايعتهم لهُ حتى حضر عبد من منزلهِ فقال ان سيدتي وضعت غلاماً هذه الساعة ففرح بهِ عبد الرحمن وقال فليكن اسمهُ محمد الفضل وهو الملك بعدي ان شاء الله. وكانت ولاية عبد الرحمن في رأس القرن الثالث عشر الهجري فقــال اللهمَّ اجعل هذا القرن لي ولذريتي من بعدي وكان كذلك

ثم ان السلطان عبد الرحمن قام بالجيش الى الابيض فوضع فيها مقدوماً يرجع باحكامهِ اليهِ واستطرد السير الى دارفور وكان عليها اسحق بن تيراب كما علمت فرفض الطاعة لهُ وحاربهُ في عدة وقائع كان النصر فيهــا للسلطان عبد الرحمن وفي الواقعة الاخيرة اصابتهُ رصاصة طائشة من رجال عبد الرحمن فأصابت منهُ مقتلاً ولكنهُ بقي يومين حيًّا فدخل عليهِ عبد الرحمن قصد عيادتهِ قيل فأغمض عينيهِ وقال لهُ لا أريد ان ارى وجهك الى يوم القيــامة وبقي مغمض العينين حتى خرج عبد الرحمن من الخيمــة ففتحهما ولم يمض الا القليل حتى مات فاستتب الملك لعبد الرحمن ونقل كرسي السلطنة الى الفاشر الواقعة على خور تندلتي على ٣٥ ميلاً من جبل مرّة فصارت الفاشر عاصمة دارفور من ذلك العهد وبقيت الى انقضاء السلطنة

وقد نال عبد الرحمن شهرة لم ينلها غيرهُ من سلاطين الفور الذين تقدموهُ وكان لهُ علاقة بمصر وفي ايامهِ انتشر العلم في دارفور واتسع نطاق التجارة وقويت شوكة الديانة الاسلامية لانهُ كان عالماً ورعاً. وفي سنة ١٧٩٣م زار السائح الانكليزي برون بلادَ دارفور من طريق الاربعين

ويظهر ان المماليك ضيقوا على القوافل التي كانت تأتي من دارفور وعطلوا التجارة بينها وبين مصر فلما دخل بونابرت مصر في اواخر القرن الثامن عشر ونكل بالمماليك كتب اليهِ السلطان عبد الرحمن يهنئهُ بفوزه عليهم وهذا هو فحوى الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين . من سلطان دارفور السلطان عبد الرحمن الرشيد . الى المعظم سلطان الجيوش الفرنساوية ألف سلام

« اما بعد فنعلمكم ان خبر انتصاراتكم على المماليك وصل الينا فتلقيناهُ بغاية السرور وقد اخبرنا احد الافرنج الذين اعتنقوا الاسلام بحسن معاملتكم للاجانب فأرسلنا كتابنا هذا مع خبير القافلة يوسف الجلاَّبي وكلفناهُ أن يؤكد لكم صدق مودتنا التي نسأل الله دوامها ونحن نوصيكم بالخبير خيرًا لتحموهُ هو واتباعهُ وعبيدهُ ولكم منا ألف تحية وسلام » اه . فكتب اليه بونابرت في الجواب ما معناهُ :

« ١٢ مسيدور من السنة السابعة للجمهورية الفرنساية سنة ١٧٩٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الاَّ الله . الى السلطان عبد الرحمن سلطان دارفور تناولت كتابكم وفهمت نحواهُ واعلموا ان قافلتكم قد وصلت في حين كنت متغيبًا في بلاد الشام أعاقب اعداءنا وأدمّرهم والآن طلبي اليكم ان ترسلوا اليَّ مع اول قافلة ألفي عبد من العبيد الاشداء المتجاوزين السنة السادسة عشرة من العمر اذ مرادي أن ابتاعهم لنفسي والامل ان توعزوا الى القافلة بسرعة القيام ومواصلة السير الحثيث وها انا امرت من يلزم بحمايتها ووقايتها حيث تكون »

(الامضا) « بونابرت القائد العام للجيش الفرنساوي »

﴿ ٢٤ . السلطان محمد الفضل ابنهُ ١٢١٥ : ١٢٥٤ هـ — ١٧٨٧ : ١٨٣٩ م ﴾

الملقب بقمر السلاطين وكان اول اعماله انهُ حرَّر قبيلة أمه أم بوسه البيقاوية ومنع اخذ الرقيق وبيعهُ منها . قيل انهُ عند توليه الملك كان خالهُ المسمى فزاري يرعى البقر في بلاده على ٥٠ ميلاً الى الجنوب الغربي من الفاشر فأرسلت أختهُ رسولاً تبشرهُ بتولية ابنها على الملك فسار الرسول بالخبر على جواد مطهَّم واطلق لهُ العنان فما وصل الى فزاري حتى نهك الجواد التعب فسقط في الارض ميتًا وتقدم الرسول الى فزاري وقال لهُ ابشر بالخير فان ابن أختك أم بوسه قد تولَّى عرش سلطنة دارفور منذ خمسة ايام وكان فزاري اذ ذاك يسقي البقر عند حوض الماء فطار فرحًا لهذا الخبر وضرب الحوض برجله ووزّع البقر على الحضور ثم أتى بعنكريب

ونام عليهِ وقال للذين حولهُ « احملوني » فحملوهُ حتى اوصلوهُ الى الفاشر فولاهُ محمد الفضل الوظيفة المعروفة بمملكة الحوال

وكان عمر محمد الفضل عند توليهِ الملك ١٤ سنة فوكلهُ أبوهُ الى رئيس خصيانهِ كرّة المعروف بلقب « ابو شيخ » وجعلهُ قيماً عليهِ لانهُ كان وزيرًا صادقاً لهُ وكان من الشجاعة وحسن الدراية على جانب عظيم فأقام كرّة في خدمة سيدهِ محمد الفضل بالامانة والاخلاص كما خدم أباهُ حتى حدث ما غيَّرهُ فانقلب عليهِ وذلك ان السلطان محمد الفضل أولم وليمة لكبراء دولتهِ فجلسوا على الموائد فئات حسب مقاماتهم كل فئة على مائدة وكان أبو شيخ كرّة في فئة الملوك فمر السلطان بالموائد لمؤانسة المدعوين على جاري العادة فلما مرّ بمائدة الملوك حيَّاهم بالسلام فردّ الملوك عليهِ السلام احسن ردّ اما ابو شيخ كرّة فانهُ كان قد اكثر من الخمر وفقد الواعز فالتفت الى السلطان مازحاً وقال لهُ « تفضل معنا » ولم يكن من عادة سلاطين الفور الاكل مع احد فاغتاظ السلطان من دالّة كرّة وتطاولهِ وكان بيدهِ عصى من الخيزران فضربهُ بها على أم رأسهِ ضرباً أليماً حتى كسّر العصى وطردهُ عن المائدة فانصرف كرّة الى منزلهِ من غير أن يفوه ببنت شفة ولكنهُ حقد على السلطان من ذلك العهد ولم يعد اليهِ حتى اجتمع الوزراء وترضوا السلطان فرضي عنهُ واعطاهُ هدية فاخرة فرجع ولكنهُ بقي حاقدًا عليهِ وأخذ يسعى في ثل عرشه وتولية اخيهِ باسي عوض الله مكانهُ فاغتال اكثر الملوك المخالفين لهُ ولم يبقَ منهم سوى الملك ابراهيم ود رماد ملك النحاس فدعاهُ يوماً الى منزلهِ ليقتلهُ فعلم بالمكيدة فاعتذر بعدم مقدرتهِ على الذهاب وسعى حتى دخل على السلطان وقال لهُ اعلم ان كرّة لا يزال حاقدًا عليك من يوم ضربتهُ على المائدة وهو يسعى في ثل عرشك وتولية اخيهِ باسي عوض الله مكانك وقد استمال اكثر رجال الجيش اليهِ وقتل الملوك غيلةً وهو يريد ان يقتلني لهذه الغاية فقال السلطان وما دليلك على ذلك قال نرسل احد الضباط بنفر من العساكر الى الآبار التي يستقي منها ليمنعوا عبيدهُ الورود فاذا جاءك شاكياً كان لا يزال على الولاء والاَّ فلا . فاستحسن السلطان هذا الرأي وارسل ضابطاً الى آبار كرّة فكان كلما وردها

احد من جماعة كرّة منعهُ الضابط وردّهُ خائباً فلما علم بذلك جمع عبيدهُ ورجال الجيش الذين من حزبهِ وجاء الى الآبار فقتل الضابط ومن معهُ وتقدم الى منزل السلطان فدخله محارباً وكان الملك ابراهيم قد اعدّ الجيوش لمصادمتهِ فاقتتل الفريقان الى ما بعد الغروب فنادى الملك ابراهيم ابا شيخ كرّة من وراء الجدار وقال له «حقاً انك امرأة لانك لو كنت رجلاً لم تطلب الحرب ليلاً بلا ميعاد» فقال كرّة «كنت قد نويت ان لا اخرج من هذا المكان حتى اقتلك واخلع سلطانك اما الآن وقد قلت اني فاجأتك ليلاً بلا ميعاد فلاقني صباح الغد الى ساحة القتال شرقي المدينة» قال ذلك وانصرف بعساكرهِ الى منزلهِ فأخذ كل فريق يجهز جيشهُ للغد

وكان في جيش السلطان محمد الفضل رجل كهل مشهور بالفروسية والاقدام يسمى احمد ود جراب الفيل وقد حضر عدة وقائع حربية من جملتها واقعة السلطان أبي القاسم مع ملك ودّاي فأبلى فيها بلاء الابطال وحضر الواقعة التي تقدم ذكرها فلم يُبدِ ما كان ينتظر منهُ بل كان كلما قابلتهُ كتيبة من الفرسان أعرض عنها فلما جمع الملك ابراهيم رؤساء العساكر للنظر في قتال الغد كان ود جراب الفيل حاضراً فقال لهُ الملك ما اصابك امس يا ود جراب الفيل حتى احجمت عن القتال أصحيح ما شاع ان كرّة اشتراك بمئة رأس من الرقيق فتركت القتال فقال ود جراب الفيل أمثلي يقال هذا الكلام يا ملك ابراهيم أأنا ابيع ود السلطان عبد الرحمن بمئة رأس رقيق ولكن قل لي بماذا أحارب أبسيفي وقد اخذوهُ مني ووضعوهُ في خزينة سلاح السلطان أم بحصاني هذا الضعيف النحيف الشبيه بالنعجة فان كنتم تحبون ان ترون مني حرب الرجال وتشاهدون بأعينكم ما اشتهر عني من البسالة والاقدام فأرجعوا لي سيفي وهاتوا لي فرساً يحمل الكر والفرّ فأريكم غداً ما يسركم فأمر السلطان باحضار سيفهِ فأحضر اليهِ ثم امر باحضار الخيول ليختار منها جواداً يعجبهُ قيل فكان ود جراب الفيل يقبض على ناصية الجواد ويجذبهُ بيدهِ وهو جالس في الارض فيخرّ الجواد على ركبتيهِ من شدة الجذبة الى ان قبض على ناصية جواد فجذبهُ كما فعل بما تقدمهُ فنفض الجواد رأسهُ ورفع ود جراب الفيل حتى اوقفهُ على قدميهِ فقال ود جراب

الفيل « هذا جوادي الذي اركبهُ » ثم ركبهُ واستل السيف وقبّلهُ والتفت الى أم السلطان وقال « اعلمي ان دارفور تكون بيد ولدك لا ينازعهُ فيها منازع قبل ظهر نهار غد ان شاء الله » ففرح الملك ابراهيم بذلك وكان لهُ ثلاثون ولدًا من صلبهِ راكبين الخيول كاملي العدّة فأحضرهم الى ود جراب الفيل وقال لهُ انت رئيس اولادي هؤلاء وأريد منكم اذا التقى الجمعان في الغد ان لا تقاتلوا احدًا غير كرّة فاقصدوهُ حيث يكون وقاتلوهُ حتى تقتلوهُ

فلما كان صباح الغد واصطف الفريقان للقتال برز ود جراب الفيل ومن معهُ من اولاد الملك ابراهيم قاصدين كرّة فاعترضهم اخوهُ بامي عوض الله فقتلوهُ وتقدموا الى كرّة فتلقاهم بقلب لا يهاب الموت وكان لابساً درعين من الحديد وعلى رأسهِ خوذة تغطيهِ وتغطي وجههُ حتى كان لا يرى منهُ الاّ عيناهُ فكانوا يضربونهُ بالسيوف فلم يتمكنوا منهُ وكان هو ايضاً يكرُّ عليهم ويهاجمهم مهاجمة الاسود فلم يصب منهم مقتلاً لانهم كانوا متدرعين مثلهُ فاحتال بعضهم عليهِ بأن ركب على فرسهِ من ورائهِ وجندلهُ فأطبق الفرسان عليهِ ونزعوا خوذتهُ ثم حزُّوا رأسهُ وحملوهُ الى السلطان فلما رأى جيش كرّة ماجرى لشيخهم ولّوا الادبار منهزمين فتبعهم جيش السلطان ونكل بهم

وكان من عادة كبار الخصيان في دارفور ان يقتنوا زوجات من الارامل اللواتي لهنَّ اولاد فيتبنون الاولاد لتنتفي عنهم مذلّة الخصي ولو ظاهرًا وكان لابي شيخ امرأة ولها ابن يسمى شيل فوت (أي خذ واذهب) وهو من الفرسان المعدودين وكان السلطان محمد الفضل يود ان يجعلهُ من اتباعهِ واعوانهِ فأوصى جيشهُ قائلاً اذا انهزم جيش كرّة وظفرتم بشيل فوت فلا تقتلوهُ بل ائتوني بهِ حيًّا فلما كان انهزام جيش كرّة ظفر بعض الفرسان بشيل فوت فتصدى لهم فأخبروهُ بوصية السلطان لهم ولما أمن جانبهم جاء معهم الى السلطان فأمّنهُ وعفا عنهُ . ثم التفت اليهِ الملك ابراهيم وقال لهُ يا شيلفوت « ألاجل فضلة الطعام تحارب مثل هذه الحرب » قال ذلك لان شيلفوت كان يأكل فضلة طعام كرّة على عادة الابن مع ابيهِ في السودان وكان من عادة الملك ابراهيم كملك النحاس ان يوزع طعام السلطان على الجيش فأجابهُ

شيلفوت على الفور «انت حاربت لاجل توزيع الطعام أفلا احارب انا لاجل اكلهِ»

واستتب الملك للسلطان محمد الفضل بعد قتل كرّة ولم يعد لهُ معارض فتفرغ لتأديب العرب الذين خرجوا عن طاعتهِ وهم بنو هلبه والعريقات والرزيقات اما بنو هلبه والعريقات فقد اخضعهم بالسهل اما الرزيقات فكانوا قبيلة قوية وقد طالما عصوا سلاطين الفور واستقلوا عنهم فصمم السلطان محمد الفضل على الايقاع بهم فجمع جيشاً عظيماً واحاط بلادهم احاطة السوار بالمعصم وحصرهم واثخن فيهم وقتل كل رجل فيهم ولم يستحي الاّ النساء والاولاد فقسمهم نصفين فأرسل النصف الواحد الى ارض العريقات واسكنهم اياها وأبقى النصف الآخر في ارضهم واعاد لهم قسماً من ماشيتهم فاعطى كل ارملة قتل زوجها بقرة حلاّبة وثورًا

وحكي عن السلطان محمد الفضل نادرتان احداهما مع احمد ود عدلان آخر وزراء الهمج بسنار تدل على كرمهِ والثانية مع السلطان آدم سلطان ودّاي تدل على شهامتهِ • اما نادرتهُ الاولى فهي ان جعليًا التقى بود عدلان في البرية خارجاً للقنص فقبض على لجام فرسهِ وقال لهُ ايها الملك اني رجل فقير وقد جاوزت سن الاربعين ولم أذق رائحة البخور يريد بذلك انهُ لم يتزوج بعد لعدم مقدرته على الزواج فقال لهُ الملك تعال معي الى سنار فأعطيك ما قسمهُ الله لك فقال لهُ الجعلي لا اتركك حتى تعطيني ما قسمهُ الله لي الآن لاني اذا ذهبت معك الى سنار دخلت منزلك وشغلت عني ولم يدخلني اليك احد• ولم يكن مع ود عدلان في ذلك الحين الاّ فروة من الجلاد مفروشة فوق سرج فرسهِ فأعطاهُ اياها وقال لهُ ادلك على واسطة تنال بها الغنى : تذهب بهذه الفروة الى السلطان محمد الفضل سلطان دارفور وتقص عليهِ قصتك وتعطيهُ الفروة فان كان الله قد اغناك فهو يغنيك فحمل الجعلي الفروة وسار حتى وصل دارفور واستأذن فدخل على السلطان محمد الفضل وقصّ عليهِ قصتهُ مع محمد عدلان واعطاهُ الفروة فنادى السلطان محمد الفضل احد وزرائهِ وقال لهُ خذ هذا الرجل الى منزلك واكرمهُ غاية الاكرام واتني بهِ في الغد ففعل الوزير كما امرهُ السلطان وفي الغد حضر الرجل بين يدي السلطان فسألهُ عما قالهُ لهُ

ود عدلان فقال « قال لي خذ هذه الفروة الى السلطان محمد الفضل فان كان الله قد اغناك فهو يغنيك » فأمر السلطان وزيرهُ بأن يعطيهُ اربع مئة رأس من الرقيق والابل والبقر والغنم من كل صنف مئة رأس ويأخذهُ الى منزلهِ فيكرمهُ ويعود بهِ اليهِ في اليوم الثاني ففعل الوزير كما امرهُ السلطان ولما مثل الجعلي امام السلطان في اليوم الثاني سألهُ ايضاً عما قالهُ لهُ ود عدلان فأعادهُ لهُ فأمر لهُ بأربع مئة رأس أخرى من الاصناف الاربعة المذكورة. وهكذا بقي الجعلي يتردد على السلطان والسلطان يأمر وزيرهُ ان يعطيهُ ما أمر لهُ في اليوم الاول على عشرة ايام حتى اجتمع عند الجعلي ٤٠٠٠ رأس من كل صنف الف فلما أتي بهِ في اليوم الحادي عشر وسألهُ السلطان عما قالهُ لهُ ود عدلان قال « اطال الله بقاء مولاي وايدهُ بالنصر على الاعداء اني قد اغتنيت غناء الابد وقد نسيت الذي قالهُ لي ود عدلان » فضحك السلطان لقولهِ وقال لوزيرهِ خذهُ الآن وسلمهُ ما وهبناهُ اياهُ وارسلهُ مع الحرس اللازم الى بلادهِ واما الاصناف التي اعطيناهُ اياها ولا يمكن نقلها الى بلدهِ كالبقر والغنم فبعها واعطهِ ثمنها ففعل الوزير ما امرهُ السلطان وخرج الجعلي بهداياهُ من ارض دارفور شاكراً حامداً وعاد الى وطنهِ فتزوج من اشتهاها من نساء بلدهِ وشم رائحة البخور!

اما نادرتهُ الثانية مع السلطان آدم سلطان ودّاي وهو السلطان الثامن بعد السلطان عبد الكريم فهي ان السلطان محمداً الفضل بلغهُ ان عند السلطان آدم فرساً سريع الجري مشهوراً بالسبق فأرسل اليهِ في طلبهِ فجمع السلطان آدم وزراءهُ وشاورهم في الامر فقالوا لهُ هذا « عشم فسل » اي هذا رجاء باطل يشفُّ عن احتقار واستخفاف فقال اذاً ما الرأي فقالوا الرأي عندنا ان تكتب لهُ وتقول اذا ازوجتني بأختك ارسلت اليك الفرس فكتب السلطان آدم هذا الجواب ودفعهُ الى الرسول فلما قُرئ الجواب للسلطان محمد الفضل طار صوابهُ من شدة الغضب قيل وكان بيدهِ اليسرى سيف فلما وصل القارئ الى قولهِ اذا ازوجتني بأختك جعل ينقر السيف بسبابة يده اليمنى حتى انكسر الظفر وسال منهُ الدم وهو لا يدري

وعزم على التنكيل بالسلطان آدم وارغام انفهِ فسأل الحاضرين أتعرفون احدًا هنا من اهل ودّاي ولو انهُ من عامتهم لنوليهُ على وداي بدل هذا السلطان فقال لهُ بعضهم عندنا يا مولاي في بلدة جديد رأس الفيل جزار من دار وداي يسمى محمد شريف وربما كان من العائلة المالكة مع انهُ جزار لان آدابهُ واخلاقهُ تدل على كرم اصلهِ وفي وجههِ اثر النعمة والعز فقال ائتوني بهِ في الحال فأتوهُ بهِ فقال لهُ السلطان من انت يا رجل وما أتى بك الى هذه البلاد قال يا مولاي « انا محمد شريف ابن السلطان صالح بن خريفين شقيق السلطان آدم سلطان برقو الحالي وقد فررت من وجه اخي السلطان آدم خوفًا على بصري لان من عادة سلاطيننا كما لا يخفى على مولاي انهُ اذا تولى احدهم الملك قلع عيون اخوتهِ وجميع اقاربهِ الذين يخاف شرهم حتى لا يبقى لهُ مزاحم على الملك ففررت الى هنا وفضلت ان اعيش جزارًا في بلاد الغربة وأنا ابصر على ان اعيش في بلادي أميرًا بلا بصر » . فقال السلطان محمد الفضل فهل لك ان تكون سلطانًا على بلادك بدلاً من اخيك فقال لهُ ومن اين لي ذلك يا مولاي قال لك ذلك مني ان شاء الله . ثم أمر فألبسوهُ حلة السلطنة وسيرهُ الى ودّاي بجيشٍ عرمرمٍ وعليهِ اثنان من وزرائهِ واربعة من اولادهِ ومنهم حسين الذي تولّى السلطنة بعدهُ فسار محمد شريف بالجيش حتى وصل حدود ودّاي فالتقاهُ السلطان آدم بجيوشهِ وحصل بين الجيشين عدة مواقع دموية قتل فيها خلق كثير من الفريقين ولكن غلب فيها جيش السلطان محمد الفضل واخذ السلطان آدم اسيرًا وغنم نحاسهُ وولّى محمد شريف سلطانًا على ودّاي وعاد الى دارفور ومعهُ السلطان آدم اسيرًا فبقي السلطان آدم في دارفور مدة ثم تمكن من الفرار الى ودّاي فأرسل السلطان محمد شريف عسكرًا وراءهُ فتعقبهُ وقتلهُ وبقي لا ينازعهُ احد الى ان مات . وتولّى بعدهُ على ودّاي السلطان علي ابنهُ ثم السلطان يوسف اخو علي فالسلطان ابراهيم بن يوسف فالسلطان احمد الغزالي ابن علي فالسلطان محمد دود مرّة اخو ابرهيم وهو السلطان الحالي

هذه رواية البعض في سبب الحرب بين السلطان محمد الفضل والسلطان آدم .

وقال بعضهم ان رواية الفرس لم تكن بين السلطان آدم والسلطان محمد الفضل بل كانت بين السلطان علي المذكور و بين معاصره من سلاطين برنو وان السلطان عليًا هو الذي طلب الفرس من سلطان برنو فأجابهُ سلطان برنو بما هو منسوب الى سلطان ودّاي قالوا واما سبب الحرب بين دارفور وودّاي فهو ان محمد شريف المذكور جاء الى السلطان محمد الفضل يستنصرهُ على اخيهِ فنصرهُ لانهُ كان اميل الى دارفور من اخيهِ السلطان آدم

وفي ايام السلطان محمد الفضل ارسل محمد علي باشا ابنهُ اسماعيل بجيش جرّار لفتح سنار وصهرهُ الدفتردار لفتح كردوفان وكان في كردوفان مقدومٌ من قبل السلطان محمد الفضل يقال لهُ المقدوم مسلّم فتغلب عليهِ الدفتردار وامتلك البلاد منهُ بعد واقعة شديدة على ما سيجيء بالتفصيل في الفتح المصري قيل وكان السلطان محمد الفضل واجدًا على المقدوم مسلّم فلم يشأ ان ينصرهُ فلما علم انهُ قُتل أرسل جيشًا تحت قيادة أبي الكيلك فخرج لهُ جيش الحكومة فالتقاهُ في سودره بين فوجه والابيّض وحدثت واقعة شديدة حارب بها جيش الفور حرب الرجال حتى قتل قائدهم فانهزموا راجعين الى الفاشر فخاف السلطان محمد الفضل على دارفور وأخذ من ذلك الوقت يحشد الرجال و يستكمل العدة محافظة على سلطتهِ . وقيل انهُ كتب « اسماء » على نية منع الحكومة المصرية من الدخول الى بلادهِ وجعلها في قماقم من نحاس ودفنها في الصحراء الشرقية والشمالية ولم يخف على سلطتهِ من الجنوب حيث دخل الزبير باشا كما سيجيء

وكان لمحمد الفضل أخ يكرههُ ويزاحمهُ على الملك يسمى أبا مَدْين ففرّ الى مصر واخذ يهوّن على محمد علي فتح دارفور فأرسلهُ محمد علي الى كردوفان للسعي مع مديرها في ذلك فبقي في الابيّض الى ان توفي

ولما كانت سنة ١٢٤٥ هـ ١٨٣٠ م ارسل محمد علي باشا كتابًا الى محمد الفضل يدعوهُ فيهِ الى التسليم فأجابهُ محمد الفضل بكتاب اخذنا صورتهُ عن نسخة بيد الزبير باشا بمصر وهذا نصّ الكتاب :

« الحمد لله الذي حكم بين عباده بالحق قطعاً سبحانهُ يجزي كل نفس بما تسعى واليهِ المعاد والرُّجعى وهو حسبي وكفى

« من حضرة من أمّن الله بهِ البلاد وجعل ملكهُ مسموعاً من كل احد وصيرهُ في قلوب الاعداء ناراً تستعر وجمراً يتوقد وجعل الله على يدهِ ضرب من طغى وتمرّد ومن ضلَّ وتعنَّد وهو شاب صغير السن ولو صار كهلاً لخضعت لهُ الانس والجن وقد اشتهر بالكرم والجود وحال بعوارضهِ أنجم السعود وان قامت الهيجاء بنفسهِ يجود ويصل الى الاعداء بقواطع الهنود وينتصر بعون الله على كل موجود ! ! ! هو مولانا السلطان محمد الفضل بن عبد الرحمن الرشيد اعزّهُ الله

« الى حضرة الكوكب العالي والنير المتلالي بهجة الانام وقدوة الليالي صاحب العزّ والافتخار اخينا العزيز محمد علي باشا سلمكم الله تعالى من المحذورات واستعملكم بالباقيات الصالحات بمنّهِ وكرمهِ

« اما بعد فسلام الله عليكم ورحمتهُ وبركاتهُ لديكم قد وصلنا جوابكم أوصلكم الله الى رضوانهِ وفهمنا خطابكم ومقتضى جوابكم وكل كلمة من المرقوم يستحق جوابها المفهوم ولكن يكفي من ذلك كلهِ كلام الحيّ القيوم حيث قال « لهُ دعوة الحق والذين يدعون من دونهِ لا يستجيبون لهم بشيءٍ الا كباسط كفيهِ الى الماء ليبلغ فاهُ وما هو ببالغهِ وما دعاء الكافرين الاّ في ضلال » . . . « فمن كان يرجو لقاء ربهِ فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربهِ احداً » . . . انكم طالبون دولتنا وطاعتنا وانقيادنا لكم هل بلغكم اننا كفار وجب لكم قتالنا وأبيح ضرب الجزية علينا أو غرّكم قتالكم مع ملوك سنار والشايقية فنحن السلاطين وهم الرعية . أورد لك دليل من الله تجد فيهِ ملكك أم ورد لك حديث من رسول الله تجد فيهِ تمليكك أم خطر لك خاطر من عقلك بأن لك ربّاً قوياً ولنا رب ضعيف الحمد لله نحن مسلمون وما نحن كافرون ولا مبتدعون ندين بكتاب الله وسنة رسول الله (صلعم) ونؤدي الفرائض ونترك المحرّمات ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر والذي لم يُصلّ نأمرهُ بالصلاة والذي لم يزكِّ نأخذ منهُ الزكاة ونضعها في بيت المال ولا

ندخرها ونردّ الامانات الى اهلها ونعطي كل ذي حقٍ حقهُ حتى دانت لنا القبائل العظام ومن أتى دولتنا يرجع مكرماً باذن الله تعالى ولو اشتدت بهِ الريح في يوم عاصف ألم تر الى قولهِ (صلعم) « لو بغى جبل على جبل لدكَّ الباغي » اما علمت ان دارفور محروسة محمية بسيوف قطع هندية وخيول جرد أدهمية وعليها كهولة وشبان يسرعون الى الهيجاء بكرةً وعشيَّة ! اما علمت ان عندنا العباد والزهاد والاقطاب والاولياء الصالحين من ظهرت لهم الكرامات في وقتنا هذا وهم بيننا يدفعون شر ناركم فتصير رماداً ويرجع الملك الى اهلهِ ويكفي من بعد ذلك والله يكفي شر الظالمين . كتبهُ الفقيه محمد ود عماري من متخرجي الازهر وكان مدرّساً للسلطان محمد الفضل واولادهِ بالفاشر اه »

وتوفي السلطان محمد الفضل سنة ١٨٣٨ وخلفهُ

﴿ ٢٥ . السلطان محمد حسين ابنهُ ١٢٥٤ : ١٢٩٠ هـ — ١٨٣٩ : ١٨٧٤ م ﴾

وكان معاصرًا للمغفور لهما سعيد باشا واسماعيل باشا فبادلهما الهدايا والمكاتبات فكان يهدي اليهما الحصيان والريش والسن وغير ذلك من تحف دارفور وهما يهديان اليهِ النفيس من تحف مصر . وقد ارسل لهُ سعيد باشا مركبة برأسين من جياد الخيل وخيماً وتحفاً كثيرة اما المركبة فانهُ لم يركبها قط بل امر سائقها عند وصولها بركوبها امامهُ فذهب بها السائق من بيت السلطان الى الجامع مسافة فرسخ وعاد بها الى بيت السلطان فأمر السلطان بوضعها في الاسطبل فبقيت الى الفتح المصري واما الخيل فقد قيل لهُ انها مسحورة فتركها للعلف نحو ٥ سنين ثم وهبها لبعض خاصتهِ . واهدى اليهِ اسماعيل باشا شالات كشمير وسروج ذهب وسبح كهرمان وخرز سوميت وغيرها من تحف مصر المستحسنة في دارفور . وكان السلطان حسين جواداً كريماً محبّاً للرعية . حدثني الشيخ علي بك الخبير من مشاهير التجار بدارفور وقد عاصرهُ قال : دخلت يوماً على السلطان حسين للسلام عليه واخذت لهُ معي هدية نفيسة من تحف مصر تساوي ألفي غرشٍ فأمر لي بمئتي بعير من اكرم الابل

ولما كانت سنة ١٨٥٦م كف بصرهُ فطلب التحفظ على ملكهِ فألف جيشاً ينيف على ١٠٠٠٠ مقاتل وسلحهم بالاسلحة النارية فكان هو اول من استعمل الاسلحة

النارية في جيش دارفور وقد كان اعتماد السلاطين قبلهُ على السيوف والحراب والدرق والسكاكين والنشاب • وكان للسلطان حسين أخت تسمى ايا باسي زمزم اشتهرت باتساع الثروة وكان لها نفوذ تام في السلطنة

وفي ايام السلطان حسين كانت «واقعة القرطاس» المشهورة بين عربان المعالية وعربان حمر وذلك ان عربان المعالية قطعوا الطريق على قافلة آتية من مصر الى دارفور وقتلوا تجاراً مشهورين بأهل زريبة عبد العزيز واخذوا اموالهم من سكر وانسجة ونحوها فغضب السلطان حسين من تعديهم وكان بينهم وبين عربان حمر عداوة قديمة فأرسل السلطان في طلب الشيخ مكي ود منعم شيخ عربان حمر وقال لهُ اني ابحت لك دماء المعالية واموالهم فجمع الشيخ مكي رجالهُ وحلفاءهُ وغزا عربان المعالية وكانوا مشهورين بالصبر والثبات في الحروب فحدث بين القبيلتين واقعة دموية شديدة كان النصر فيها لعربان حمر فقتلوا المعالية شرّ قتلة • قيل وقد سميت هذه الواقعة بواقعة القرطاس لان الصحارى امتلأت من قرطاس السكر والانسجة التي نهبها المعالية من التجار

﴿ ٢٦ • السلطان ابرهيم ١٢٩٠ : ١٢٩١ هـ — ١٨٧٤ : ١٨٧٥ م ﴾

وهو آخر سلاطين الفور وكانت مدة ملكه سنة وسبعة اشهر واربعة عشر يوماً • قيل لما مرض السلطان حسين وعلم بدنوّ أجلهِ اراد ان يضمن الملك من بعدهِ لابنهِ ابرهيم لانهُ كان يحبهُ اكثر من جميع اخوتهِ ولم يكن اكبرهم بل كان ابو البشر اكبرهم فانتدب اثنين من امنائهِ وهما الامين بخيت من قبيلة الميدوب ابن الوزير آدم بوش كبير الامناء والامين «خيرقريب» من عبيد الفرتيت امين الخزينة والاسلحة وأتى بالمصحف المسمى بسوار الذهب وحلفهما عليهِ بأن يوليا ابنهُ ابرهيم بعد وفاتهِ • وكان احمد شطة امير الصعيد المقيم في دارا يحب ان يولّي الامير ابا البشر لانهُ كان متزوجاً بشقيقتهِ وكان لهُ صديق في الفاشر يسمى الشيخ احمد الدردير فلما اشتدّ المرض على السلطان حسين ارسل الدردير يخبر الوزير احمد شطة فأتى الفاشر ونزل في منزل احمد الدردير واستأذن فدخل على السلطان وسلم عليهِ فقال لهُ

السلطان كيف تركت مركزك وجئت الى هنا بلا اذني قال بلغني يا مولاي خبر مرضك فأسرعت بالحضور لعيادتك فقال لهُ ارجع على الاثر ولا تبيتنّ هنا فقال سمعاً وطاعة ولكنهُ علم ان السلطان مائت قريباً فتربّص في الفاشر ليرى ما سيكون من الامر بعد وفاتهِ

وعلم الوزيران المار ذكرهما قصد احمد شطه فلما توفي السلطان اخفيا خبرهُ وارسلا الى احمد الدردير يقولان ان السلطان حسيناً يطلب حضورك لتكتب لهُ حجاباً فلما حضر قبضا عليهِ وقيداهُ بشعبة وخبآهُ في غرفة منفردة ثم ارسلا يطلبان الامير ابرهيم بن السلطان حسين فأجلساهُ على كرسي السلطنة وطلبا الوزير احمد شطه فحضر وسلم على السلطان ابرهيم وهو يظن انهُ السلطان حسين فأخبراهُ اذ ذاك بموت السلطان حسين ووصيتهِ لهما فما وسعهُ الا التسليم وقال: «ما استخدمنا السلطان حسين الاّ لننصرهُ وننصر من يحب وحيث ان السلطان ابرهيم هو ابن السلطان حسين وقد تولّى بارادة ابيه فسمعاً وطاعة لامره» فقال السلطان ابرهيم «اما وقد اظهرت الطاعة فقد ثبّتك على مركزك في داره تقيم فيهِ كما كنت في حياة أبي كل العمر» فدعا لهُ وحلف لهُ يمين الطاعة ثم ارسلوا الى الوزراء واحداً واحداً فحلفوا لهُ يمين الطاعة ودفنوا السلطان حسيناً في اليوم الثالث من وفاتهِ. واما الدرديري فان السلطان ابرهيم ارسلهُ الى كوبي وحبسهُ حبس عين بمنزل الحاج محمد صالح ثروة الجعلي المار ذكرهُ فبقي الى ان اطلقهُ الزبير باشا بعد فتح الفاشر

وقد اشتهر السلطان ابرهيم بالكرم كأبيهِ. حدثني علي بك الخبير السالف الذكر قال: كنت اعرف السلطان ابرهيم شخصياً قبل توليهِ الملك فلما تولّى كنت في مصر فأخذت لهُ هدية ودخلت للسلام عليهِ فوجدت عند بابه قطيعاً من الابل فيهِ خمسون بعيراً فقلت في نفسي ان كان هذا السلطان كأبيهِ في الكرم تكون هذه الابل لي اليوم وكان كذلك فاني لم انصرف من مجلسهِ حتى أمر لي بها فخرجت شاكراً حامداً

وبقي السلطان ابرهيم نافذ الامر والنهي في دارفور الى ان قتلهُ الزبير باشا في بلدة منواشي في ١٤ رمضان سنة ١٢٩١ هـ — ٢٤ اكتوبر ١٨٧٥ م في واقعة



الخبير علي

دموية شهيرة وكان في قتله زوال سلطنة الفور ودخولها في حوزة مصر على ما سيجيء

وبعد استيلاء الحكومة المصرية على دارفور ألقت القبض على عدة امراء من ذرية سلاطين الفور وارسلتهم مع بعض الاعيان الى مصر فأسكنتهم في الحيّ المعروف بسوق السلاح تحت القلعة واجرت لهم « المرتبات » فعاشوا براحة وسلام الى هذا اليوم . وبينهم الامير عبدالحميد ابن السلطان ابرهيم و١٩ آخرون من ابناء السلاطين

وكان في جملة الاعيان المرحوم الشيخ الطيب إمام جامع السلطان ابرهيم فتوفاهُ الله في مصر القاهرة في ٢١ اوغسطوس سنة ١٩٠٢ على نحو ستين سنة من العمر وكان رحمهُ الله رحمةً واسعة عالمًا صالحًا ذكيًّا طيب الخلق نقي القلب وقد حفظ في ذاكرتهِ تاريخ دارفور برمّتهِ فأخذت عنهُ معظم ما رويتهُ هنا عن تاريخ السلاطين وهو اقرب الى الرواية منهُ الى التاريخ ولكنهُ افضل ما روي عن سلطنة الفور الى اليوم ما عدا الذي رواهُ سلاطين باشا في كتابهِ « النار والسيف في السودان » ونقلهُ « المقتطف » الاغرّ الى العربية فانهُ يجعل السلطان كور اول سلاطين الفور . ثم يذكر بعدهُ السلطان احمد المعقور الذي لم يملك في روايتنا . ثم السلطان دالي الذي هو في روايتنا احد كبار الخصيان . ثم السلطان صولون . ومن هذا السلطان فنازلاً الى السلطان ابرهيم تتفق سلسلتنا مع سلسلتهِ ولكنها تختلف اختلافًا طفيفًا في تفصيل اخبار بعض السلاطين

هذا وقد ظلت بلاد دارفور في يد الحكومة المصرية الى ان كانت الثورة المهدية فدخلت في حوزة المهديين . ولكن قام في اثناء ذلك من ذرية السلاطين الذين بقوا في البلاد مَن ناصب الحكومة العداء ثم المهدية وحاولوا استرجاع السلطنة فخذلوا والذي قام منهم في عهد الفتح الاول :

﴿ الامير حسب الله ابن السلطان محمد الفضل ﴾ ﴿ الامير بوش اخوهُ ﴾

﴿ الامير هارون ابن الامير سيف الدين ابن السلطان محمد الفضل ﴾

﴿ الامير دود بنقا ابن الامير بكر بن السلطان محمد الفضل ﴾

واما الذين قاموا في عهد المهدية فهم :

﴿ الامير يوسف بن السلطان ابرهيم ﴾ ﴿ الامير ابو الخيرات اخوهُ ﴾

﴿ الامير علي دينار بن الامير زكريا بن السلطان محمد الفضل ﴾ وهو القائم الآن بأمر دارفور على جزية يدفعها للحكومة السودانية وقد جاءها بعد واقعة ام درمان وسيأتي ذكر هؤلاء الامراء وما كان من اخبارهم بالتفصيل في تاريخ السودان الحديث

الفصل الثاني

في

﴿ حكومة سلطنة الفور وبعض اخبارها ﴾

﴿ رجال السلطنة ﴾ اما حكومة سلطنة الفور فكانت من النوع الملكي المطلق . وكان السلطان سليمان الاول لما أخضع ملوك البلاد على ما مرّ قد خلعهم من مناصبهم وولّى على البلاد نوّابًا من اهلها وجعل مع كل نائب عدة شراتي أو مدراء ومع كل شرتاي عدة دمالج أو مأمورين ومع كل دملج عدة مشايخ بلد

وبقي هذا النظام معمولاً بهِ الى ايام السلطان موسى فرأى عدم الاخلاص من النواب الوطنيين فعين عليهم اربعة مقاديم من رجال حاشيتهِ الاخصاء في كل جهة من الجهات الاربع مقدوماً وجرّد النواب من السلطة الا انهُ ابقاهم في مراكزهم يحكمون بالاسم فقط واستمر هذا النظام الى انتهاء السلطنة

وكان تعيين المقدوم بفرمان خاص يقرأ على النواب والشراتي والدمالج ومشايخ البلاد والعربان واصحاب الحواكير وغيرهم . ولباس المقدوم كلباس السلطان واكرامهُ في ناحيتهِ كاكرام السلطان وحكمهُ نافذ في كل القضايا حتى في القتل الاّ في بعض الاحوال الخاصة فانهُ يرجع في حكمهِ الى السلطان

اما رجال حاشية السلطان الذين بيدهم سياسة البلاد المركزية فأهمهم :

« الوزير » وعليهِ ادارة شؤون البلاد سياسيًا وادرايًا وحربيًا

« وابو شيخ » وهو كبير الخصيان ومقامهُ اكبر مقام في السلطنة اذ هو المرجع الاعلى لقانون دالي الذي هو القانون العرفي للبلاد وسيأتي ذكرهُ . ولهُ الفصل في الخلاف الذي يقع في حرم السلطان وهو مقدوم الشرق رسماً والمحافظ على نحاس السلطنة

ومن رجال الادارة المركزية : ملك النحاس وملك دادات السلطان وملك خوال السلطان وملك الفاشر أو محافظها وملك الجباة وملك الحدادين . وكان لكل سلطان من سلاطين الفور وكيل رسمي من ذرية السلطان شاو دورشيت يسمى « الكامنة » . وفي دار السلطنة ممن بيدهم الحل والعقد الميارم اخوات السلطان والحبوبات جدّات السلطان . وفيها رهائن النواب المسلمين ورهائن ملوك المجوس السبعة المار ذكرهم وكان كلٌّ من هؤلاء الملوك يرسل وليّ عهده ليكون رهينة عند السلطان فيجعلهُ السلطان في خدمتهِ ويعودهُ على طاعتهِ ويعلمهُ القراءة والكتابة حتى اذا ما مات الملك اعطى السلطان وليّ عهده كسوة فاخرة وعكازاً مفضضاً وطاقية مقصبة بقرنين ونعلين ونقارة نحاس وولاّهُ بفرمان خاص على بلادهِ في مكان سلفهِ . وكان على كل ملك من هؤلاء الملوك جزية سنوية معلومة من الرقيق والسمن والعسل

﴿ الحواكير والعربان ﴾ وقد عمل « ١٧ . السلطان موسى » بالنظام المشهور في الشرق في ما يتعلق بملكية الاراضي فجعل البلاد كلها ملكاً للسلطان وقسم بلاد الحضر الى « حواكير » أو اقطاعات ووزعها على اهلهِ واخصائهِ وكبار قومهِ بحجج مختومة بختمهِ فعاشوا بريعها هم واهلها المزارعون . وكذلك قسم قبائل البادية فخص كل قبيلة بأمير من ابناء السلاطين او بعين من الاعيان تجبى لهُ زكاتها . وجمع السلطان نصيبهُ من الزكاة والفطرة والعشور حسبما يفرضهُ الشرع الاسلامي وكان المقاديم يجمعون الزكاة من البادية وملوك الجباة يجمعون الفطرة والعشور من الحضر وربما تنازل السلطان عن نصيبهِ في الحاكورة أو القبيلة فأعطى صاحبها « حجة بالجاه » فلا يقربهُ احد من الجباة أو المقاديم . وقد جرى على هذا النظام جميع السلاطين الذين اتوا بعد السلطان موسى الى انقضاء السلطنة

﴿ قانون دالي ﴾ وكان القضاء في درافور شرعياً وهو المشروع بالكتاب والسنة أو عرفياً وهو المشروع بالعرف وقد جمعت الاحكام العرفيـة كلها في كتاب واحد عرف « بقانون دالي » وهو بمثابة قانون الجزاء عندنا . وكان القائم بتنفيذهِ المقاديم ومن هم دونهم من الحكام بالاتحاد مع اصحاب الحواكير والقبائل . والقاضي الاعظم

الذي يُرجع اليهِ في هذا القانون هو كبير الخصيان الملقب بأبي شيخ كما مرّ . اما لفظ دالي فهو في لغة الفور بمعنى لسان ويراد بقانون دالي لسان السلطان أو اوامرهُ . على ان بعض الرواة يجعل دالي سلطانًا من سلاطين الفور المتقدمين كما سيجيء

ومن احكام هذا القانون : ان الملك يكون وراثيًا للابن الاكبر الاّ اذا كان الاكبر غير لائق للاحكام فيولون غيرهُ ممن فيهِ اللياقة من العائلة المالكة . وقصاص السارق غرامة ست بقرات أو ما هو بثمنها فاذا لم يقدمها حبس الى ان يفتديهِ اهلهُ . وقصاص القاتل القتل اذا كان القتل عمدًا والاّ فدفع الدية مئة بقرة اذا كان من البقارة أو مئة بعير اذا كان من الابالة . واما الزاني فان زنى بمحصنة فغرامتهُ ٦ بقرات أو بأيّم فبقرة واحدة أو ببكر فكل منهما يغرم بقرة . وقصاص الضارب فان كان في الضرب جرح فغرامة ثوب من الدمور وان لم يكن جرح فنصف ثوب وهكذا جزاء الشاتم . وقصاص شارب الخمرة الجلد ثمانين جلدة وكسر اواني الخمرة في بيتهِ ومع ذلك فهم لا ينقطعون عن تعاطي الخمرة لانهم مولعون بشربها . حكي ان رجلاً من اهل دارفور طاب لهُ شرب «المريسة» حتى لم يمكنهُ الانقطاع عنها مع تكرار وقوع الحدّ عليهِ فحفر لهُ غارًا تحت الارض وسقفهُ سقفًا متينًا وجعل لهُ بابًا ضيقًا وصار كلما احب شرب المريسة ينزل الى الغار فيشرب حتى يسكر ثم يصعد على سطح الارض وبقي على ذلك حتى سمع حاكم البلدة بهِ فباغتهُ في الغار وهو يشرب فقال الرجل لا حكم لكم عليّ هنا فان الحكم لكم على ظاهر الارض اما الحكم في باطن الارض فللّه . واذا حصل حريق في الصحراء في العشب الذي ترعاهُ المواشي غرّمت اقرب بلدة الى الحريقة على حساب بقرة لكل طول درقة وذلك سواء كانت الحريقة من اهل تلك البلدة أم من طارئ مفاجئ والمراد بتعميم هذه الغرامة منع الناس عن احراق الزرع وتحريضهم حتى اذا ما شبت حريقة في جوارهم اسرعوا الى اطفائها في الحال لئلا تتسع فيتسع الجزاء عليهم

وفي دارفور خرافة قديمة عند بعض العجائز مؤداها انهُ لا يخصب لهنّ زرع الاّ اذا قتلنَ شخصًا مسمومًا بسم حية ولكن قانون دالي يعاقب على هذه الجريمة

بأعظم عقاب وذلك بتصدير مال القاتلة الى خزينة السلطنة واحراق بيتها ثم لفها بحصير من شوك وضربها بالعصي الى ان تموت

اما محصول « الدالي » فنصفهُ للسلطان والنصف الباقي لاصحاب الحواكير والمقاديم والشراتي على نسبة معلومة

﴿ دخل السلطان وخرجهُ ﴾ اما دخل السلطان الذي كان ينفق منهُ على بيتهِ واخصائهِ وجنودهِ فالعشور والفطرة من الحضر . والزكاة من البادية . وعشور البضائع من التجار . ونصيبهُ من قانون دالي . والضرائب على التجار والحدادين « والنفوس » . ومن الهدايا التي كانت تأتيهِ من الحكام واصحاب الحواكير والتجار اذ لم يكن يدخل للسلام عليهِ احد من رعيتهِ من موظفين واعيان وتجار الآ بهدية نفيسة تعرف « بالسلام » من الرقيق والابل والخيل والبقر والغنم والتكاكي والطّرق والطاقات والذهب والفضة والعسل والسمن والسن والريش

اما دخل المقاديم والشراتي والدمالج فمن نصيبهم من محصول دالي والهدايا ومرتبات اصحاب الحواكير ومن حواكيرهم الخاصة

وكان سلاطين الفور يكرمون رجالهم الذين يصدقونهم الخدمة حتى كانوا يزوجونهم بناتهم ويمهرونهم الحواكير والعربان . وهذه هي صورة حجة حاكورة مهرها السلطان حسين لصهرهِ احمد بن عيسى من اعيان دارفور عند تزويجهِ بابنتهِ الميرم فاطمة أم دريس . ويليها حجة « عربان » مهرهم ايضاً لصهرهِ ثم حولها صهرهُ لزوجتهِ وابنتهِ :

« من حضرة أمير المؤمنين وخلاصة الاكرمين خادم الشريعة والدين الواثق برب العالمين سيدنا ومولانا السلطان محمد الحسين المهدي ابن السلطان محمد الفضل على ضريحهِ سحائب الخير والرضوان امين

« الى حضرة كل من يقف على هذه الوثيقة وينظر ما فيها من الحقيقة من الامراء والوزراء والملوك وابناء السلاطين والميارم والحبوبات والقضاة والجبايين والشراتي والمكاسين والدمالج وغيرهم من سائر اهل هذه الدولة من ذوي الشوكة اما بعد فالذي نصيرهُ بشرف علمكم من قبل حاكورة « نعمة » التي كانت سابقاً

يد الملك كرتكيله متاعاً ثم يد الملك عبد الله كرقاش متاعاً ثم يد المقدوم عبد العزيز متاعاً ثم يد جدّتنا المحبوبة والدة سيدنا المرحوم متاعاً اني الآن تفضلت واعطيت وأوهبت وصدقتها لصهرنا الحاج احمد بن عيسى برقيقها هبة مختارة وملكتها اياها ملكاً تاماً ثم وجهت لحيازتها ابراهيم المقام من طرف الامين صالح وأمرت المقدوم عبد العزيز ان يبعث لهُ من طرفهِ احدًا يذهب معهُ فبعث لهُ الملك هرون بن الفقيه عبد الله فذهبا لتلك الحاكورة وطافا بها من كل الجهات وحدداها.. فهذه الارض التي شملتها هذه الحدود اقطعتها لصهرنا الحاج احمد بن الحاج عيسى اقطاعاً ناجزًا وحوزتها حوزًا كاملاً وملكتها ملكاً تاماً هي والرقيق التي فيها وعدّتهُ خمسون يتصرف فيها وفي رقيقها تصرف المالك في ملكهِ بالزرع والتزريع والبيع والهدم والبنا والصدقة والشراء فهي لهُ ولذريتهِ من بعده فلا يغيرهُ ولا يبدلهُ سلطان بعدي. ثم اني تركت لها الفطرة والزكاة أعني بها الاحكام الشرعية وكذلك عفونا عن سبلها العادية من دم كبير أو صغير وفسق وهامل ونار وقواز ودرقه ولا يتعدى عليهم ملك ولا جباي ولا مقدوم ولا خدام من احد الخدامين وقد تركنا ذلك اعانة لها في دينها ودنياها والله على ما نقول وكيل وحسبنا الله ونعم حرر ذلك سنة ١٢٦٣هـ ١٨٤٧م

«من امير المؤمنين سيدنا ومولانا واعلانا السلطان محمد الحسين المهدي المنصور بالله تعالى امين. الى كل من يقف على هذه الوثيقة وينظر ما فيها من الحقيقة. اما بعد فان ابنتنا الميرم فاطمه أم دريس عرضت لنا مكتوب زوجها الامين الحاج احمد عيسى نظرتهُ بأنهُ اوهب لها حاكورتهُ «نعمة» التي سبقت فأعطيتهُ اياها فالآن هو اوهبها لزوجتهِ وانا اتممت لها هبة زوجها فصارت ملكاً وحوزًا لها تتصرف فيها في ذاتها وغلالها الشرعية والعادية لها ولذريتها من بعدها. هذا جوابي ومهري لمن يعرفهُ تحريرًا في ٧ شعبان سنة ١٢٦٩ هـ ١٥ مايو ١٨٥٣م» اه. وهذه حجة العربان:

«من حضرة سلطان المسلمين وخليفة سيد المرسلين سيدنا ومولانا السلطان محمد الحسين المهدي المنصور بالله تعالى امين الى كل من يقف على هذا الرسم من ولاة الامور والامراء والوزراء والملوك والشراتي والدماج وابناء السلاطين والميارم والجبايين

وملوك العربان والمشايخ والكراسي والخدامين ومقاديمهم وكافة اهل الدولة من الخدام.
اما بعد فاني سابقاً تفضلت واعطيت صهرنا الحاج احمد عيسى عرباً من الماهرية من جماعة الشيخ دلم واسماؤهم عبد النعيم ونعمان والداني واحمد وحسين وحامد وزرزار وطاهر وعجز واحمد هؤلاء الرجال المذكورون كسرت عظمهم واتبعتهم لصهرنا الحاج احمد عيسى وعفوت لهُ بجميع منافعهم وصاروا تبعاً لهُ ولذريتهِ والآن صهرنا المذكور اعطاهم لابنتهِ الميرم زهره ؟ في زيانة رأسها واعلمني بهِ فانا اتممتهُ لها وقابلتها بجميع منافعهم الشرعية والعادية من الزكاة والفطرة والدم والفسق والهامل وغير ذلك ليس عليهم شوبة ولا نوبة ولا خدمة جميع امرهم مقابل اتانيتنا (اي ابنة بنتنا) الميرم زهره لايتعرض لها فيهم معترض ولا ينازعها منازع بل صاروا عربالها ورعاتها لها ولذريتها من بعدها هذا جوابي ومشراطي ومهري لمن يعرفهُ تحريراً في عام ١٢٦٨هـ ١٨٥٢م

﴿ اختام السلاطين ﴾ وكان سلاطين الفور يختمون كتبهم من اعلاها بختم كبير على شكل دائرة قطرها نحو اربعة قراريط وهي منقوشة سطوراً مستوية بين كل سطر وسطر خط دقيق أو خطين يضع فيها اسمهُ واسماء البعض من اجدادهِ على قدر مايسع الختم الا انهُ لا بد من انهاء النسب بالسلطان سليمان جدّهم الاعلى ومؤسس سلطنتهم وقد يكون حول السطور سطراً في دائرة مكتوب فيهِ آية من القرآن

﴿ صرّة الحرمين ﴾ وكانت سلطنة الفور مستقلة عن دول الارض كلها لاتدفع جزية لاحدٍ ما عدا الحرمين الشريفين فانها كانت تخدمها بمحمل وصرّة كل سنة فكان موكب المحمل يأتي الى مصر ومعهُ الريش والسن والصمغ وغيرها من خيرات البلاد فيبيعها ويتم بثمنها نقود الصرّة ثم يستطرد الحج الى الحرمين مع الركب المصري

﴿ منزل السلطان ابرهيم ﴾ وكان منزل السلطان ابرهيم آخر سلاطين الفور قائماً على شاطئ خور تندلتي الشمالي وهو منزل متسع لهُ سور من الطوب الاحمر محيطهُ نحو ثلاثة اميال وعلوهُ نحو عشرين قدماً وحول السور على عشرة امتار منهُ زريبة من شوك . وللسور بابان كبيران باب للشمال وهو باب الرجال وباب للجنوب وهو باب الحريم ومنزل السلطان في الوسط . ومن كل باب منها الى منزل السلطان

سبعة ابواب تفتح شرقاً وغرباً اي انها على زاوية قائمة من البابين الكبيرين وهي عبارة عن شباك من العيدان تصل ما بين اطراف جدران متوازية مبنية داخل السور. وعند كل باب منازل للضباط بهيئة القطاطي أو الرواكيب. اما منازل السلطان فكلها مبنية بالطوب الاحمر غرفاً مستوية السطوح وغرف منامهِ وجلوسهِ مكسوة جدرانها وسقوفها بالجوخ الملوّن منها غرفة معدّة لجلوسهِ مع الخاصة تسمى «التيرمه» ولهُ غرفة معدّة لاستقبال العامة عند الباب الرابع من ابواب الرجال تسمى « كالا » وكان سلاطين الفور يقتنون من النساء عشرات اربع منهنّ شرعيات والباقيات محظيات

﴿ لباس السلطان ﴾ وكان لباس السلطان قميصاً مقصباً فوقهُ بُرنس مقصب يجللهُ شال من الكشمير وعلى رأسهِ تاج مزركش بالذهب تحفُّ بهِ سبع ريشات رهيفة من الذهب والفضة على شكل الامواس وفي رجليهِ حذاء من السختيان الاسلامبولي الاصفر أو الاحمر وعلى جنبهِ الايسر سيف محدّب محلى بالذهب

﴿ جلوس السلطان ﴾ وكان جلوسهُ في « التيرمه » على عنكريب أو سجادة في الارض وعن يمينهِ مخدّة من قطن. وفي الراكوبة «كالا» على دكة عالية من الطين مفروشة بالسجاد. واذا جلس على «الككر» أو كرسي السلطنة لمبايعة الناس لهُ حمل في يدهِ اليمنى صولجاناً وهو عصا طويلة ملبسة بالفضة المحلاّة بالذهب وفي يدهِ اليسرى سيف مستقيم وعلى جنبه الايسر سيف محدّب فيبايعهُ اهل الحل والعقد ليلاً وفي الصباح يبايعهُ العامة وهذه هي صورة المبايعة: «بايعتك على السمع والطاعة الامر امرك والنهي نهيك على السنة والكتاب »

﴿ مقابلة السلطان ﴾ وكان القاصدون باب السلطان يأتون باب الراكوبة «كالا» ويستأذنون في الدخول عليهِ فاما ان يدعوهم الى التيرمه أو يخرج فيقابلهم في الراكوبة «كالا» وكان الداخل عليهِ يخلع نعليهِ وطاقيتهُ وسلاحهُ خارج الباب ويتقدم حتى يكون على عشرين متراً منهُ فيلقي بنفسهِ الى الارض ويحبو على الركب والايدي كالسلحفاة الى ان يكون على بُعد اربعة امتار منهُ فيقف جاثياً على ركبتيهِ منكس الرأس ويدعو للسلطان وهو يمهد الارض بكفيهِ يميناً وشمالاً ويقول « اطال الله

بقاءك وسترك الله ونصرك على اعدائك ولا اراك سوءًا ولا مكروهًا ابد الدهر »
ثم يشرع في الكلام الذي جاء لاجلهِ . وكل من دخل على السلطان ولو انهُ اخوهُ
لزمهُ مثل ذلك الا العلماء وملوك الفراتيت فان لكل فريق منهم آداب خاصة

اما العلماء فان الداخل منهم على السلطان يحني رأسهُ الى ان يكون على
اربعة امتار منهُ فيجلس على الارض جلسة المصلي ثم يرفع كفيهِ فيرفع السلطان كفيهِ
ايضاً ويقرآن الفاتحة معاً ثم يأخذ العالم في الدعاء للسلطان وهو يصفق بكفيهِ
والسلطان يؤَمّن على دعائهِ الى ان يتم الدعاء . واما ملوك الفراتيت فالداخل منهم
على السلطان يلقي بنفسهِ الى الارض وهو على ٢٠ مترًا ثم يدنو منهُ متدحرجاً
كأنهُ جذع شجرة حتى يصير على اربعة امتار منهُ فيستوي جالساً ويدعو للسلطان
وهو يصفق بكفيهِ ثم يشرع في الكلام الذي جاء لاجلهِ

﴿ ركوب السلطان الى الجامع ﴾ وكان في الفاشر جامع فخيم على نحو فرسخ
من منزل السلطان والسلطان يخرج اليهِ بموكب حافل كل يوم جمعة لاداء صلاة الظهر
فكان الفرسان يجتمعون عند باب الزريبة صفوفاً عن جانبي الطريق وامامهم المشاة
حاملين البنادق ينتظرون خروج السلطان من منزلهِ . وقبل الظهر بساعتين يركب
السلطان جوادًا مزركش العدة عند باب التيرمه فترفع الامبايه صوتها اشعارًا للعساكر
بأن السلطان قد ركب فيتهيأون لاستقبالهِ . ثم يخرج اليهم وامامهُ العساكر الحاملة
الاسلحة النارية مشاةً ومن ورائهِ الخصيان راكبين الخيول وبينهُ وبين الخصيان
بعض الجياد بسروج الرهط كاملة العدة يقودها السياس خلفهم صفاً واحدًا وعن
جانبي السلطان نفر من المشاة يتناوبون حمل مظلة واسعة تظللهُ وتظلل جوادهُ وهي
مصنوعة من نسيج متين مطرز بالقصب ومبطنة بأطلس مختلف الالوان كل شقة
بلون تتدلّى من اطرافها شراريب قصب ولها يد طويلة من خشب متين مغشاة
بنسيج ملوّن كل شبر بلون . وعند خروج السلطان من الزريبة يحييهِ الفرسان بهزّ
سيوفهم فوق رؤوسهم فيرد تحيتهم بهز سبحة أو سوط أو منديل في يدهِ . ويسير
في موكبهِ هذا حتى يصل الجامع فيقف الموكب خارج السور ويدخل السلطان الى

غرفة معدة لهُ عند باب السور فيخلع ثياب الملك ويلبس لباس الصلاة وهو جبة بيضاء وعلى رأسهِ عمامة بيضاء فوق مكاوية من الحرير يغطيهما ثوب من الشاش الابيض الرقيق على هيئة الخطيب ثم يقف للصلاة في غرفة خاصة بهِ لها نافذة تشرف على الامام وبعد انتهاء الصلاة يرجع الى الغرفة التي عند باب السور فيخلع لباس الصلاة ويلبس لباس الملك ويعود بالموكب الى منزلهِ

« جيش السلطنة » هذا ولم يكن عند سلاطين الفور جيش منظم حتى كفَّ بصر السلطان حسين فنظم جيشاً من عبيدهِ وسلحهم بالبنادق المعروفة بأبي روحين وجعل عليهم عبداً يقال لهُ « خير قريب » قومنداناً وبقي هذا الجيش الى زمن السلطان ابرهيم فحارب بهِ الزبير باشا على ما تقدم • وكان سلاطين الفور الذين تقدموا السلطان حسيناً اذا ارادوا جمع الرجال للحرب اصدروا امرهم الى المقاديم فبعث هؤلاء بالامر الى الشراتي ومشايخ البادية فجمعوا عدداً معلوماً من الرجال على نسبة عدد بلادهم حتى اذا ما اجتمع العدد المطلوب ساقهم المقاديم بأنفسهم الى ساحة الحرب

« تجليد النحاس » وكان سلاطين الفور يجلدون النحاس « المنصورة » الذي غنموهُ من العابدلاب مرّة في كل سنة ويحتفلون بتجليدهِ احتفالاً عظيماً يجتمع اليهِ موظفو البلاد واعيانها فيأتون بثور وخروف ابلقين ينتقونهما من قطيع يربونهُ في جبل مرة لهذه الغاية ويذبحونهما ويجلدون بجلديهما النحاس المذكور

« اختبار اولاد السلاطين » ثم يأخذون فخذاً من الثور وفخذاً من الخروف ويتركونهما حتى ينتنا ثم يطبخونهما بشطة وملح كثير ويضعونهما في قدح في غرفة منفردة ثم يؤتى بأولاد السلاطين فيدخلون واحداً واحداً الى قدح الطعام الذي يحيط بهِ الحرس من عبيد السلطان وبيد كل منهم نبّوت كبير وكلما دخل واحد اكل لقمة من الطعام فاذا لم يسعل من شدة نتانة اللحم وكثرة بهاراتهِ لم يتعرَّض لهُ احد بسوء بل سألوهُ ان يغسل يديهِ وينصرف واذا سعل اتهم بأنهُ خائن متعمّد الغدر وأرسل في الحال الى جبل مرة حيث يبقى في السجن الى أن يعفى عنهُ أو يتولّى سلطان آخر فيخرجهُ من سجنه

﴿ كسر الضلع ﴾ ويأخذون ضلعاً من اضلاع الثور ويحكونها حتى تصير رخفة جدًّا قابلة للكسر فيأتي السلطان الى بيت النحاس بموكب خاص ماشياً على قدميهِ ووراءهُ كبيرة اخواتهِ ومن ورائها جمهور من الجواري اللابسات ابهى الحلي والحلل ومن خلفهنّ وعن جانبيهنّ الخصيان حاملين السياط والسلطان نفسهُ مكموم بقطعة شاش يمسك طرفيها من خلفهِ كبير امنائهِ ويمشي الهوينا . حتى يصل مكان النحاس فيأخذ الضلع التي اعدت لهُ ويضرب بها النحاس فاذا انكسرت عدوا انكسارها نصرًا وسلاماً وزغرد النساء . وضرب النحاس والا اوجس الكل شرًّا وخافوا سوء المصير

﴿ العرضة وموكب السلطان ﴾ وبعد كسر الضلع يخرج مناد من قبل السلطان للاستعداد للعرضة فيجتمع الكل مشاة وفرساناً حلقة كبيرة في ساحة السوق امام منزل السلطان ثم يخرج ملك النحاس بجندهِ محيطاً بنحاسات الفور السبع محمولة على سبعة جمال وفي مقدمتها « المنصورة » التي غنموها من العابدلاّب ثم « البيضاء » التي غنموها من آدم سلطان وداي ثم نحاسات فور الخمس القديمة فيخترق الحلقة بموكبهِ حتى ينصّفها فيقف متجهاً نحو الشرق * ثم يأتي السلطان بموكبه الخاص وهو راكب جواده ويقف مقابل ملك النحاس متجهاً نحو الغرب وبينهما فسحة كافية لعرض الجيش * وموكب السلطان الخاص مؤلف من اولادهِ ووزرائهِ واختهِ الكبرى والعلماء والقضاة فتقف اختهُ وراءهُ راكبة جوادًا ومن ورائها الجواري حاملات اباريق النحاس بلا ماء . وبينها وبين السلطان حملة الحراب المكسوة بالجوخ الملون ويقف اولاد السلطان عن يمينهِ ووزراؤهُ عن شمالهِ ويقف امام صفي الوزراء والامراء صفان من العلماء والقضاة وترفع فوق رأس السلطان مظلة واسعة جدًّا تظللهُ وجوادهُ ومن ورائهِ رجلان حاملان مروحتين كبيرتين يزين حواشيهما ريش النعام لحجب الشمس عن ظهرهِ . وعن كل من جانبيهِ مروحة يحملها رجل يروح بها عليهِ * ثم يبدأ الاستعراض فيخرج الناس من الحلقة فرقاً كل فرقة يتقدمها رئيسها راكباً على جواده فيحيي السلطان بهز سيفهِ فوق رأسهِ فيرد السلطان التحية بهز سوطهِ ثم يرجع هذا الرئيس برجالهِ الى مكانهِ من الحلقة فيعرض الرئيس الذي يليهِ وهكذا الى تمام الحلقة * ثم يتقدم السلطان وحدهِ

الى النحاس ويدور حول الجمال التي تحملهُ فيهز السيف فوق كل نحاس ثم يدور من داخل الحلقة لرؤية الجند ويعود الى موكبهِ فتستقبلهُ اختهُ وجواريها بالزراغيت ثم يأمر فينصرف النحاس ثم يتبعهم بموكبه الى ان يدخل منزله فيتفرق الجنود الى منازلهم . وبعد ايام ينادى الى مثل هذه العرضة وهكذا الى سبع عرضات ثم ينصرف كل الى بلاده * واما في زمن الحرب فيسير الجيش على الترتيب الذي مرّ ذكرهُ في الكلام عن السلطان تيراب . وكانت عادة سلاطين الفور ان يضربوا النحاس في يومي الاثنين والخميس في الصباح والمساء

﴿ العلم ﴾ وكان في دارفور مساجد جمة في كل بلدة مسجد او اكثر يعلّم بها الكتابة والقرآن وكان لكل عالم مسجد قرب منزلهِ يصلي بهِ الصلوات الخمس وفي لصقهِ خلوات للمجاورين يعلم بها العلوم الشرعية ولهُ «حاكورة» هبة من السلطان يعيش هو وتلامذتهُ من ريعها . وكان بعضهم يجيء الى مصر لتلقي العلوم في الازهر ولهم فيهِ رواق معروف برواق دارفور الى اليوم

﴿ الجوامع ﴾ اما الجوامع فكان لهم في كل بلدة شهيرة جامع الآ الفاشر ففيها جامعان جامع بناه السلطان عبد الرحمن عند بنائه الفاشر فحسنهُ السلاطين الذين خلفوهُ وهو في القسم الشمالي من البلدة مسيرة ساعة من بيت السلطان . وجامع بنتهُ اخت السلطان حسين في القسم الجنوبي من الفاشر * وكوبي ففيها ايضا جامعان جامع القاضي احمد ود طاها من اهل كوبي وجامع الفقيه سعد العالم من اهل الخبير علي

﴿ الزراعة والصناعة ﴾ واهم زراعة دارفور الدخن يزرع على المطر . وفيها من ارباب الصنائع الحدادون والنجارون والحاكة والدباغون لقضاء حاجاتها كما في بلاد سنار

﴿ التجارة ﴾ وكان لها تجارة مهمة مع كردوفان وبحر الغزال وودّاى ومصر وكان يرد منها الى مصر من ١٠ : ١٥ الف جمل تحمل الرقيق والسن والريش والصمغ والتمر الهندي والنحاس والنطرون وحبة العين والجلود والأقداح الخشبية والاطباق والعسل فتعود الى دارفور ومعها من الانسجة القطنية والحريرية الدبلان والشيت والخام والجوخ والاطلس والملايات الحجازية والبنادق والسيوف والسروج وانواع

الحلى الذهبية والفضة والمرجان والسوميت وغيره من انواع الخرز المطلوب عندهم

وكانت العملة الرائجة قطع مختلفة من الدمور ثم راج بعد الفتح المصري للسودان المقاطع المصرية من الخام المصبوغ المار ذكرها وراج في كردوفان ايضاً قطع دقيقة من الحديد على اشباه المسامير الكبيرة تسمى الحشاشات

﴿ الامير علي دينار ﴾ هذا ما تيسر لي استقصاؤهُ عن حال سلطنة الفور القديمة قبل دخولها في حوزة مصر تلقيت اكثرهُ عن الشيخ الطيب محمد بن المارّ ذكرهُ ٭ ويقال انها الآن تسير على مثال هذا النمط في عهد اميرها الحالي الامير علي دينار بن الامير زكريا ابن السلطان محمد الفضل الذي يحكمها على جزية سنوية يدفعها لحكومة السودان كما اشرنا آنفاً

﴿ منشور السلطان ابرهيم عند توليهِ الملك ﴾ وقد عثرت على كتاب ارسلهُ السلطان ابرهيم آخر سلاطين الفور الى الجهات يذيع فيهِ نعيّ ابيهِ السلطان حسين وتوليه الملك بعدهُ وهو :

نقش خاتمه في اعلى الكتاب

ملك أمير المؤمنين السلطان ابرهيم . ابن السلطان حسين . ابن السلطان محمد الفضل . ابن السلطان عبد الرحمن الرشيد . ابن السلطان احمد بكر . ابن السلطان موسى . ابن السلطان سليمان صاحب البر والاحسان . يوم الاحد اثنين وعشرين صفر الخير سنة ١٢٩٠ هـ

صورة الكتاب

من حضرة من انار بهِ البلاد وازال بهِ الفساد سيدنا ومولانا السلطان ابرهيم المعتصم بالله تعالى آمين ٭ الى حضرة محمود والامام احمد طه وكافة الجلاّبة تجار كوبي وحواليها . اما بعد فالذي نعرفكم بهِ اجرنا الله واياكم في مصيبة سيدكم والدنا المرحوم السلطان محمد الحسين توفي الى رحمة الله وانا توليت الملك بضحى الاحد اثنين وعشرين من شهر صفر سنة ١٢٩٠هـ تعلموا بهِ وربنا يلزمنا واياكم الصبر الجميل



ختم السلطان يوسف سلطان وداي



ختم السلطان حسين

اجناس الايثيوبيين على الآثار المصرية



انتهى الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث



محمد علي باشا

مؤسس العائلة الخديوية في مصر

الجزء الثالث

في

تاريخ السودان الحديث

(وفيه خمسة ابواب)



VOLUME III

THE MODERN HISTORY OF THE SUDAN

(IN FIVE PARTS)



الباب الأوّل

في

تاريخ الفتح المصري للسودان

« منذ فتح سنار الى قيام الثورة المهدية في السودان
سنة ١٢٣٦ : ١٢٩٨هـ — ١٨٢١ : ١٨٨١ م »

الفصل الاول

في

حملة اسماعيل باشا على سنار

سنة ١٨٢٠ : ١٨٢٣م

وفيها فتح دنقله وبربر والخرطوم وسنار وفازوغلي

« اسباب الفتح » تقدم لنا ذكر الفوضى التي صارت اليها مملكة سنار بشقاق ملوكها بعضهم لبعض واستفحال وزراء الهمج الذين استأثروا بالسلطة وخلعوا سلطة الفونج . وكانت مصر في هذه الاثناء قد آلت الى البطل العظيم المغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة الخديوية الفخيمة فبلغهُ خبر سنار من التجار المصريين المترددين اليها. وجاءهُ الملك نصر الدين ملك الميرفاب ببربر فشرح لهُ حال سنار وما صارت اليهِ من الضعف والانحلال وهوّن عليهِ امر افتتاحها. وجاءهُ ايضاً رجل من عائلة الزبير المالكة في ارقو واخبرهُ بحال دنقله وعيث المماليك فيها . وكان محمد علي باشا يود افتتاح سنار والاستيلاء عليها لاسباب جمة منها :

اولاً . الاستيلاء على مناجم الذهب في سنار التي طبقت شهرتها الآفاق وكثرت فيها الاقاويل والقصص الموضوعة ولا سيما في مدينة القاهرة

ثانياً . امداد جيشهِ برجال من السود الذين اشتهروا منذ ايام الفراعنة بصلاحيتهم للجندية وشدة بأسهم في الحروب

ثالثاً . استئصال شأفة المماليك الذين بقيت منهم بقيةٌ في دنقله كما مرّ

رابعاً . توسيع ابواب الرزق لانصاره الاتراك والارناؤط والمغاربة الذين قهر بهم المماليك في مصر والوهابية في بلاد العرب خصوصاً وقد اصبحوا بعد حرب الوهابية مصدر تعب لهُ لانهُ اراد ان ينظم جندهُ على مثال جند بونابارت فلم يوافقوهُ على ذلك واعتبروا عملهُ بدعة ولم يرد قهرهم لانهم هم الذين شدُّوا ازرهُ وساعدوهُ على تثبيت قدمهِ في مصر فأراد ان يرسل بهم الى سنار ليستريح من اتعابهم من جهة وينال بهم مطمعهُ بالفتح من جهة أخرى

خامساً . اكتشاف منابع النيل لنفع العلم والزراعة المصرية

سادساً . توسيع نطاق التجارة المصرية والانتفاع بموارد التجارة السودانية . وكانت علائق السودان بمصر في ذلك الحين ضعيفة جدًّا اذ لم يكن يقصدهُ من التجار الاَّ المخاطرون من اهل الصعيد من طرق دراو واسوان وكورسكو وكانوا في خطر دائم هم واموالهم لانهُ فضلاً عن مشقة هذه الطرق واخطارها الطبيعية كان الخبراء يحكمون بهم بحسب اهوائهم فربما اوصلوهم الى نصف الطريق وطلبوا حلواناً فوق الاجرة المتفق عليها فاذا لم يدفعوا لهم الحلوان تركوهم ليضلوا او يموتوا جوعاً او عطشاً . وكان التجار اذا وصلوا بلاد النيل سالمين نزلوا في حمى ملك من ملوك البلاد او شيخ من مشايخها وعرضوا عليه بضاعتهم فاذا اعجبتهُ وكان طالعهم سعيدًا رضي المضيف عنهم وعوضهم من تجارتهم شيئاً من الذهب وسن الفيل وريش النعام والاَّ استصدر تجارتهم وطردهم من بلاده او امر بسجنهم وتعذيبهم

فلهذه الاسباب كلها و بالنظر لما طبع عليهِ محمد علي باشا من حب الحرب والفتوح وشدة الرغبة في توسيع نطاق بلادهِ اقرّ على اغتنام الفرصة والاقدام على فتح سنار

﴿ وفد محمد علي باشا الى سنار ﴾ وتمهيدًا لذلك ارسل سنة ١٨١٢ م وفدًا الى ملك سنار وقصدهُ في الظاهر تحريض الملك على طرد المماليك الذي لجأوا اليه من مصر وفي الباطن الاستطلاع على احوال بلادهِ وما يلزم من الجيوش لفتحها . وقد ارسل اليهِ هدايا فاخرة قدرت قيمتها بنحو ٤ آلاف ريال من شالات كشمير

وانسجة حريرية واسلحة ونحوها . فارسل اليهِ ملك سنار اربع جوارٍ و بضعة جلود نمر وقط زباد وقردين واسدًا صغيرًا (مات في الطريق) وكلها لا تساوي في سنار ثمانين ريالاً . فلم يُسرّ محمد علي بالهدية ولكنهُ سرّ بتقرير الوفد الذي قوّى عزمهُ على فتح سنار

﴿ اكتشاف الصحراء الشرقية ﴾ وفي اثناء ذلك ارسل الموسيو فردريك كايّو العالم الفرنساوي الشهير الى الصحراء الشرقية لاكتشاف معادن الزمرد والذهب التي دلّت التواريخ العربية على وجودها فيها فقام الموسيو كايو من الرديسية من اعمال اسنا في ٢ نوفمبر سنة ١٨١٦ م وبعد مسيرة ستة ايام وصل الى جبل زبارة فوجد فيهِ كهوفًا قديمة وحفائر ودهاليز وآلات شتى وآثارًا تدل على استخراج المعادن من هذا الجبل وعلى انقطاع العمل فيه فجأةً فالتقط من هناك بعض قطع الزمرُّد فقويت بها آمال محمد علي فبعث بهِ ثانيًا الى ذلك الجبل واصحبهُ نفرًا من الاروام والارناؤط فقام من القاهرة في ٢ نوفمبر سنة ١٨١٧ م وعاد بعد قليل بلا فائدة ولكنهُ فصّل جغرافية تلك البلاد واخبار سكانها العبابدة وقد عثر على اطلال مدينة خاوية على عروشها وعين موقع مدينة بيرنيس القديمة المعروفة الآن برأس بناس

﴿ الحملة على سنار ﴾ ولما أتمّ محمد علي باشا استعداداتهِ جهز جيشًا مؤلفًا من ٤ آلاف مقاتل وعقد لواءهُ لابنهِ اسماعيل باشا وامرهُ بفتح سنار وهذا تفصيل الجيش : ١٢٠٠ فارس من الاتراك والارناؤط والمغاربة بقيادة عابدين بك والحاج عمر وعمر كاشف مع كل منهم ٤٠٠ فارس . و ٤٠٠ فارس و ٨٠٠ راجل من البدو والمغاربة . و ٦٠٠ راجل من الاتراك و ٣٠٠ راجل من الطوبجية ومعهم ٢٤ مدفعًا نمرة ٤ بقيادة محمد أغا . و ٧٠٠ راجل من العبابدة بقيادة خليل وداود كاشف انضموا اليهِ في اسوان . وصحب الجيش نحو ألفي نفر من التبع منهم ٢٠ مملوكًا حرس اسماعيل باشا الخصوصي مع ٣٠٠٠ جمل و ٣٠٠٠ مركب لحمل الزاد والمؤونة والذخائر . وصحب الجيش ايضًا ثلاثة من نخبة العلماء وهم : القاضي محمد الاسيوطي الحنفي والسيد احمد البقلي الشافعي والشيخ السلاوي المغربي المالكي ووهب كلا منهم خلعةً سنية

و ١٥ كيساً وأوصاهم أن يحثوا اهل البلاد على الطاعة بلا حرب بحجة انهم مسلمون وان الخضوع لجلالة السلطان امير المؤمنين وخليفة رسول المسلمين واجب ديني

﴿ فتح دنقله سنة ١٢٣٥هـ ١٨٢٠ ﴾

وسار الجيش من القاهرة بالبر الغربي والنيل في اوائل يوليو سنة ١٨٢٠م ولحق بهِ اسماعيل باشا مع اركان حربهِ في ٢٠ يوليو سنة ١٨٢٠ فأدركهُ في اسوان فأقاموا هناك برهة ريثما اجتازت المراكب الشلال الاول

ثم دخلوا بلاد النوبة وكان الحاكم عليها في الدرّ حسين كاشف فجمع رجالهُ بقصد مقاومة اسماعيل باشا فلم يوافقهُ اخوهُ حسن على ذلك ففر بعبيدهِ الى كردوفان فولّى اسماعيل باشا حسناً على البلاد التي بين اسوان وحلفا وتقدم الى حلفا فأقام فيها نحو ٢٠ يوماً حتى اجتازت المراكب الشلال الثاني

ثم استطرد السير جنوباً في بلاد سكوت وكان فيها الكاشف حسن وردي متحصناً في قلعة جزيرة ساي ومعهُ بضع مئة رجل من العبيد والاعوان مسلحين بالبنادق وبعض المدافع فجاء الى اسماعيل باشا مسلماً فأقرّهُ في مركزهِ ولكنهُ ما لبث ان عصي الناظر الذي أقيم في سكوت من قِبل اسماعيل باشا وقتل بعض رجالهِ فأرسلت الحكومة المصرية عسكرًا فحصروهُ في القلعة ثم لغموا القلعة بالبارود وقتلوهُ وشتتوا شمل رجالهِ ومن ذلك الوقت هدأت البلاد ولم يعد يسمع فيها صوت حرب حتى كانت المهدية سنة ١٨٨٥ م كما سيجيء

وتقدم اسماعيل باشا الى المحس فتلقاهُ حاكمها الملك صبير في دلقو طائعاً فأمّنهُ واقرّهُ في مكانهِ . ثم تقدم الى ارقو فوجد فيها الملك طنبلاً من عائلة الزبير حاكماً فأمّنهُ وثبّتهُ على كرسيهِ

وكان في مراغة الى جنوبي ارقو ثمانون رجلاً من المماليك فأتاهُ عشرون منهم مسلمين وفرّ الباقون الى شندي فسلموا هناك

﴿ واقعة الشايقية في ٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠ ﴾ وسار اسماعيل باشا في دنقله لا يعارضهُ معارض بل كان ملوك البلاد ومشايخها يتلقونهُ بالطاعة والامتثال وهو

يؤمنهم ويقرّهم على اماكنهم الى ان دخل بلاد الشايقية فرآهم قد تجمعوا لقتاله في كورتي مشاةً وركباناً . وكان على الشايقية اذ ذاك ثلاثة ملوك : الملك صبير كبير الحنيكاب وحدّهُ بين العفاض وحنّك ومركزهُ حنك حيث ابتنى لهُ قلعة متينة من الحجارة وجعل فيها المزاغل والملك جاويش كبير العادلاناب وحدّهُ من حنّك الى مروي ومركزهُ مروي ولهُ قلعة حصينة في كجبي والملك عمر كبير العمراب وحدّهُ من مروي الى بلاد المناصير واكبرهم الملك جاويش . ولم يكن مع اسماعيل باشا اذ ذاك الاّ فرقتان من الفرسان فيهما ٨٠٠ فارس مسلحين بالبنادق وهما فرقتا عابدين بك وعمر بك لان المراكب تأخرت في الشلالات فتأخر الجيش معها ولم تكن هذه القوّة كافية لان تكفل لهُ النصر ولكنهُ لم يعد يمكنهُ الرجوع فأرسل للشايقية رسلاً يدعوهم الى الطاعة ويقول ما مفادهُ : « ان أبي يرغب اليكم ان تسلموا سلاحكم وخيولكم وتتركوا الحرب وتؤدوا الجزية » فأجابهُ الشايقية : « اما الجزية فنؤديها بلا حرب واما خيولنا وسلاحنا فما نسلمها الاّ بالحرب لعلنا نفوز وتبقى لنا » فأقرّ اسماعيل باشا اذ ذاك على حربهم وارسل مئة فارس لكشف خبرهم فأحاط فرسان الشايقية بهم احاطة السوار بالمعصم وانقضوا عليهم انقضاض النسور فقتلوا منهم ٧٥ رجلاً وافلت الباقون وفيهم عشرون جريحاً الى اسماعيل باشا فلما رآهم طار صوابهُ ولم يعد لهُ صبر حتى يأتيهُ المدد من الوراء . ففي عصر ٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠ قاد فرسانهُ وقصد الشايقية فوجدهم قد تجمعوا في حلة قرب كورتي تعرف بأم بقر وفيهم نحو الف فارس و ٢٥٠٠ راجل بينهم بعض النوبة الذين ارغموا على الانضمام اليهم وكلهم مسلحون بالسيوف والحراب الاّ رؤوسهم فانهم كانوا متدرعين ومتسلحين بالبنادق والسيوف والدرق

وكان في جيش الشايقية مهيرة بنت الشيخ عبود شيخ بادية السواراب فلما رأت جيش اسماعيل باشا مقبلاً امتطت هجينها وصاحت بقومها « هيا بنا للدفاع عن استقلالنا وبلادنا » ثم زجرت هجينها ودفعتهُ في وجه عساكر الامير فكرّ الشايقية وراءها بقلب واحد مستقتلين فتلقاهم العساكر بنار حامية وجرى قتال شديد حارب

فيهِ الفريقان حرب الابطال مدة ٣ ساعات متوالية ولكن دارت الدائرة على الشايقية فكان مشاتهم يقتحمون النيران وهم يظنون انها لا تضرّ بهم لانهم لبسوا الاحجبة فقتل منهم ٨٠٠ رجل واما فرسانهم فقد انجتهم ظلمة الليل فلم يقتل منهم سوى ١٥ فارساً . واما عساكر الامير فقد قتل منهم ٣٠ رجلاً وجرح اثنان . وبعد الواقعة وزع اسماعيل باشا منشورًا في البلاد مآلهُ ان كل من يأتي مسلماً يسلم ومن لم يأتِ يعد عدوًّا ويحرق بيتهُ ثم تقدم الى كورتي فأحرقها ونزل فيها ينتظر المدد فأتاهُ مئتا رجل من مشاتهِ وفرسانهِ ومعهما مدفعان وكان الشايقية قد اجتازوا النيل الى البر الشرقي وتحصنوا في طابيتي حنك وكجبي فاجتاز اسماعيل باشا النيل وطردهم منهما فالتجأوا الى قلعة حصينة في جبل الدقر فتبعهم اليها ورماهم بقنابل المدافع فخرجوا منها منهزمين فتبعهم فرسانهُ قتلاً واسرًا قيل وكانوا كلما اسروا رجلاً قطعوا اذنيهِ تشويهاً لهُ واسروا بنتاً للملك صبير تسمى صفيَّة فاكرمها اسماعيل باشا وردَّها الى ابيها فلما رأى منهُ هذه المكرمة اتاهُ مسلماً طائعاً وسلم بعدهُ الملك عمر اما الملك جاويش ففرَّ بمئتي رجل الى المتمة فسلم هناك

فتح بربر سنة ١٢٣٦هـ ١٨٢١م

وبقي اسماعيل باشا في كورتي الى ان تكامل جيشهُ ودبَّر ما يلزمهُ من الجمال للنقل فقام في ٢١ فبراير سنة ١٨٢١ الى كربكان وهناك قسم جيشهُ الى ثلاث فرق فذهبت فرقة بالمراكب وفرقة بالبر مقابلها حماية لها وكان بين المراكب ١٢٠ مركباً لا يمكن عبورها لكبر حجمها فأبقاها في كورتي بحماية بعض العساكر المغاربة وسار هو بالفرقة الثالثة وهم السواري والطوبجية بطريق الصحراء فوصل النيل عند الباقير في ٢٨ فبراير سنة ١٨٢١ م ولم ينتظر الفرقتين الاخريين بل استطرد السير جنوباً فوصل القبش تجاه بربر في ٥ مارس سنة ١٨٢١ فقابلهُ ملكها نصر الدين ملك الميرفاب المار ذكرهُ بالترحاب وهنأهُ بالنصر على الشايقية فأقرهُ على بربر وأرجع عابدين بك ببعض العساكر الى دنقلا ليحكمها ويعجل في ترحيل المؤن والذخائر . وفي ٢٢ مارس سنة ١٨٢١ جاءهُ الملك نمر ملك شندي طائعاً فأمنهُ وكساهُ وأقرهُ

على بلاده . وجاءه ُ الكبابيش والحسانية والبشاريين من اهل البادية مقدمين الطاعة فسألهم تقديم الجمال للحملة ولما لم يجيبوهُ ارسل عساكره ُ فأخذوا الجمال منهم بالقوة. ثم سار الى المتمة فوصلها في ٩ مايو سنة ١٨٢١ فأتاه ُ الملك مساعد مسلماً. وفي ١٥ من الشهر المذكور اتاه ُ الملك جاويش مسلماً مع المتني رجل الذين فرَّ بهم من دار الشايقية وطلب اليهِ ان يرافقهُ برجالهِ الى سنار فقبلهُ اسماعيل باشا وكساهُ وعينهُ على ١٤٠ من رجالهِ وعين كلاً من الشيخ الازيرق والشيخ عبود شيخ بادية السواراب على خمسين رجلاً وربط لهم مرتبات معينة . وكان هذا اول دخول الشايقية الباشبوزق في جيش الحكومة المصرية بالسودان وقد بقوا فيهِ الى قيام الثورة المهدية كما سيجيُ . وفي اليوم الذي سلم بهِ الملك جاويش سار اسماعيل باشا بالجيش والشايقية وملكي السعداب الملك نمر والملك مساعد حتى وصل تجاه الحلفاية في ٢٥ مايو سنة ١٨٢١ فقابلهُ الشيخ ناصر ود الامين كبير العابدلاب مقدماً لهُ الطاعة فأمنهُ وكساهُ كسوةً فاخرة وتركهُ في بلدهِ لانهُ كان منحرف الصحة وأخذ ابنهُ الامين رهينة وتقدم بالجيش الى أم درمان

فتح الخرطوم سنة ١٢٣٦هـ ١٨٢١م

وفي ٢٨ مايو سنة ١٨٢١ شرع العساكر في اجتياز النيل الى الخرطوم ولم يكن لديهم الأ مراكب قليلة فبقوا في ذلك ثلاثة ايام وقد اجتاز الكثير منهم النيل سباحة ماسكين بأذناب الخيل وكان جملة الجيش الذي اجتاز من أم درمان ٥٥٠٠ رجل و ٣٠٠٠ جمل وجواد فغرق منهم ٣٠ رجلاً و ١٥٠ جملاً وجواداً . وفي الخرطوم قابلهُ الفقيه محمد علي خليفة الفقيه الارباب فأمنهُ واكرمهُ

فتح سنار سنة ١٢٣٦هـ ١٨٢١م

وقام من الخرطوم في ١ يونيو سنة ١٨٢١ قاصداً سنار وعليها اذ ذاك الملك بادي من الفونج اما القوة والسلطة فكانتا بيد وزيرهِ محمد عدلان من الهمج كما مرَّ

وكان اسماعيل باشا عند وصولهِ الى المتمة ارسل الى الملك بادي كتاباً يدعوهُ الى الطاعة فكتب اليهِ محمد عدلان في الجواب كتاباً مشهوراً يحفظ اهل سنار منهُ الى

اليوم هذه الجملة التي مرّ شبهها في كتاب السلطان محمد الفضل الى محمد علي باشاوهي: « لا يغرّنك انتصارك على الجعليين والشايقية فنحن الملوك وهم الرعية . أما بلغك أن سنار محروسة محمية بصوارم قواطع هندية وخيول جرد ادهمية ورجال صابرين على القتال بكرةً وعشية » . وقال الرسل ان عند ملك سنار من ٨ آلاف الى ١٠ آلاف مقاتل ما عدا سبعة مدافع من الطرز القديم نمرة ٤ ونمرة ٦ اتى بها المماليك من مصر

وكان محمد عدلان فارساً مقداماً ذا عزم وتدبير ولو بقي حيًّا لاتعب اسماعيل باشا ولم يمكنهُ من سنار بالسهل ولكن من سعد اسماعيل باشا حدث ما ذهب بحياة محمد عدلان قبل وصولهِ الى سنار بأيام قليلة وذلك ان محمد عدلان لما سمع بحملة اسماعيل باشا على سنار اخذ في جمع الاهبة لصدّهِ ومحاربتهِ . وكان من عادة ملوك سنار في حفظ الجيوش ان يخصصوا لكل رئيس من روءساء الجيش اراضي أو اقطاعات يكون منها معاشهُ ومعاش عساكرهُ ولم يكن لهم مرتبات معينة من الملك ففرّق محمد عدلان روءساء جنودهِ على الاقطاعات وأمرهم بجمع الغلال والتهيوء للقتال ولم يبقَ معهُ الاّ الارباب دفع الله ود احمد وقليل من العساكر . وكان لحسن ود رجب ثار على محمد عدلان لقتلهِ اخاهُ محمد رجب سابع وزراء الهمج كما رأيت في تاريخ سنار فاغتنم هذه الفرصة وأوعز الى اثنين من رجالهِ وهما عبد الله بخيت وادريس عقيد وجماعة من حزبهِ فدخلوا على محمد عدلان في منزلهِ ليلاً فخرج عليهم وحاربهم بنفسهِ راجلاً حرباً شديدة حتى كسرهم ثلاث مرات ولكنهم تغلبوا عليه اخيرًا بكثرة العدد فقتلوهُ وقطعوهُ ارباً ودفنوهُ في منزلهِ وكان ذلك في اواخر مايو سنة ١٨٢١م فهاج حزب محمـد عدلان فاجتمعوا في ١ يونيو سنة ١٨٢١ وحاربوا حسن رجب في حلة قندال على ٣ ساعات جنوبي سنار فكان النصر لحسن ود رجب ولكن هذا النصر لم يضمن لهُ الملك فلما سمع ان جيش اسماعيل اجتاز البحر الابيض فرّ من سنار بثلاثمائة رجل وبينهم قاتلا عدلان ولجأ الى جبال فرنيس في حدود الحبشة

اما اسماعيل باشا فانه زحف بجيشهِ حتي وصل ود مدني فقابلهُ رجب ود عدلان والارباب دفع الله احمد بالطاعة فأمّنهما واخذهما معهُ . ولما قرب من سنار خرج اليه

ملكها الملك بادي طائعاً وقدم لهُ اربعة رؤوس من جياد الحبشة فكساهُ كسوة فاخرة وهي جبة شرف وشالا كشمير وسيف وطبنجات وجوادان مكسوَّان احسن كسوة وقرَّرهُ ملكاً على اهلهِ واجرى لهُ ولعائلتهِ مرتباً من الدراهم والحبوب بقوا يتناولونهُ الى قيام الثورة المهدية في السودان . ودخل اسماعيل باشا سنار بالابهة العسكرية في ١٢ يونيو سنة ١٨٢١م فأطلق ٢١ مدفعاً احتفالاً بذلك . وهناك قابلهُ العلماء والاعيان وفي جملتهم الشيخ ضرار شيخ خشم البحر فتلقاهم بالبشر والايناس واجزل لهم العطاء ثم أمر المنادي فنادى في الناس بأن جميع القضايا التي سبقت دخولهُ سنار تعدّ ملغاةً لايسمع فيها شكوى وانما ينظر في القضايا التي تحدث بعد الفتح

وكان اول ما اهتم بهِ بعد فتح سنار القبض على حسن ود رجب في جبل فرنيس فجهز عليهِ الملك جاويش ورجالهُ الشايقية و ٤٠٠ فارس من المغاربة بقيادة ديوان افندي فتسلقوا الجبل المذكور واسروهُ واسروا معهُ قاتلي ود عدلان بعد ان نكّلوا برجالهِ وعادوا الى اسماعيل باشا في سنار فأمر بسجن حسن ود رجب وسلّم قاتلي عدلان الى ابنيهِ ادريس ورجب ليقتلاهما بثار ابيهما ففوّضا امر قتلهما اليهِ فأمر برفعهما على خازوق فراعهما القتل على هذه الصورة وطلبا سيفاً يقتلان بهِ نفسيهما فلم يُسمع لهما ولما قدما للقتل اظهر احدهما ادريس ود عقيد جزعاً وخوفاً فانتهرهُ رفيقهُ بخيت وقال لهُ « تشدد ومت موت الرجال » ثم أنفذ امر اسماعيل باشا فيهما وأشهرا في السوق يومين فكانا اول من رفع على خازوق في بلاد سنار . اما حسن ود رجب فانهُ بقي مسجوناً مدة ثم اطلق سراحهُ برضى ابني محمد عدلان اللذين سكنا جبال الفونج فملكها اكبرهما وذريتهُ الى هذا العهد

وكان اسماعيل باشا لما نزل في أم درمان على ما مرّ قد كتب الى الملك ادريس المحينه ملك الجموعية يدعوهُ الى الطاعة فلم يجبهُ ثم بعد فتح سنار بلغهُ ان الملك المذكور اطلق يدهُ في نهب اموال الناس فأرسل محمد سعيد افندي بجريدة من الفرسان ومعهم الشيخ رحمه ود دحالة فنزلوا عليهِ في منزلهِ وقتلوهُ ورجعوا الى سنار وبذلك تمهدت البلاد لاسماعيل باشا من اسوان الى سنار

وكان اول ما اجراهُ انهُ امر بكتابة المنازل « عال ووسط ودون » ثم أحصى عدد الرقيق والماشية ولكنهُ لم يقرّر عليها مالاً ولم يطلب من اهل البلاد سوى العلف لخيوله . وتأخرت المراكب التي كانت تحمل الزاد للعساكر فأرسل السرايا شرقاً وغرباً لجمع الزاد فلم يجمعوا كفايتهم فاشتد الجوع وبقوا مدة لا يأكلون الا الذرة وهم ينامون على الارض ومات عدد كثير من الخيل والجمال ولم تدفن فأثر ذلك كلهُ في صحة العساكر ففشت فيهم الحمى والديزنتاريا وامراض شتى ولم يكن معهم الا عدد قليل من الاطباء فمات منهم خلق كثير وقد بلغ عدد الوفيات فيهم يوم ١٦ اكتوبر سنة ١٨٢١ نحو ١٥٠٠ نفس وكان عدد المرضى مثل ذلك ولم يبقَ في الجيش كلهِ من لهُ قدرة على الخدمة سوى ٥٠٠ رجل فعلت شكوى العساكر وكثر تذمرهم فسكّن اسماعيل باشا روعهم وفي ٢٤ و٢٧ اكتوبر وصل ٢٦ مركباً من مراكب الزاد بعد ان غرق الكثير منها في الطريق فتعلّلوا بها

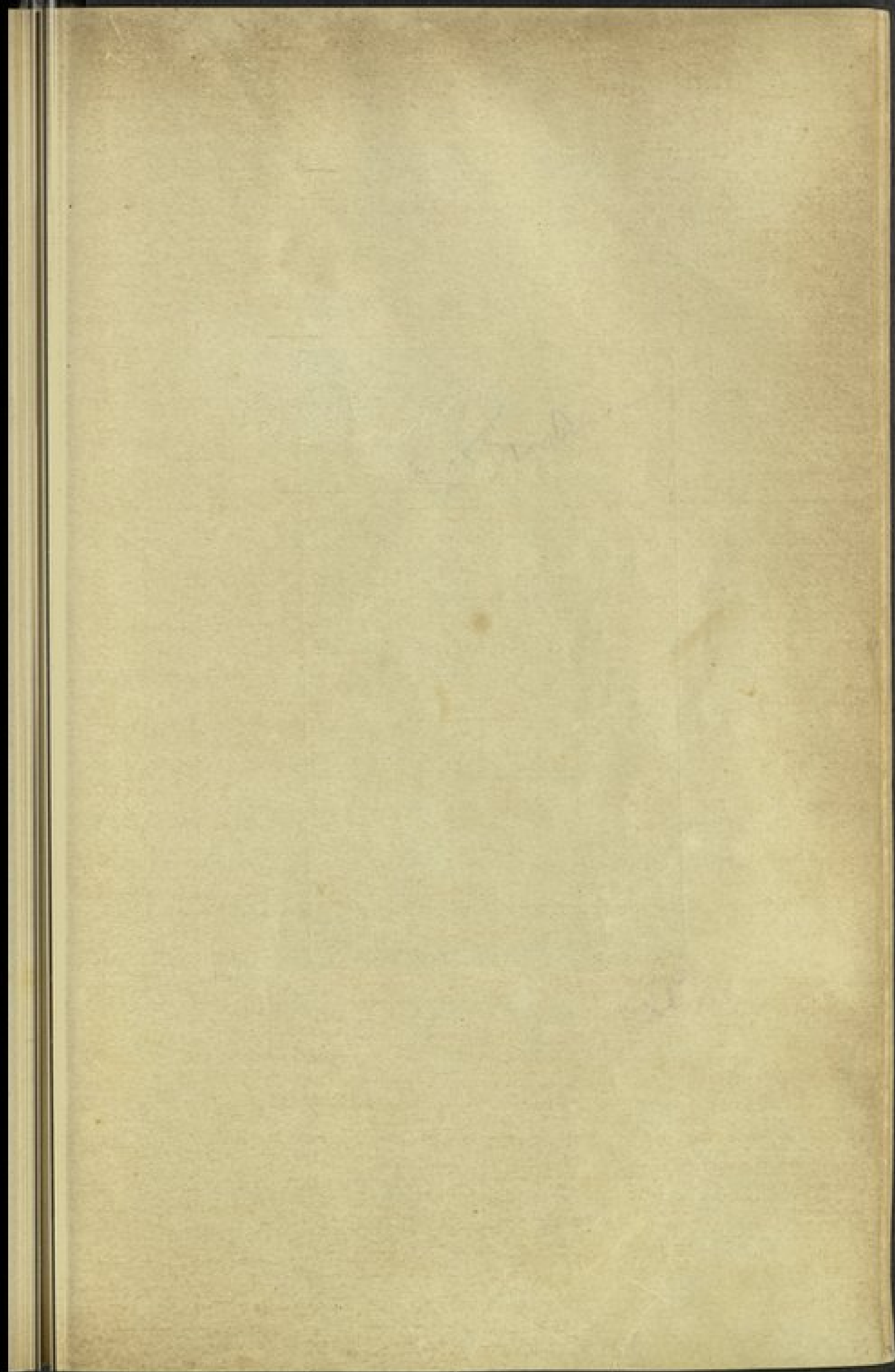
وفي اثناء ذلك وصل الخبر الى محمد علي باشا بفتح سنار فأرسل ابنهُ ابراهيم باشا لمساعدة اسماعيل باشا على تنظيم البلاد واكتشاف منابع النيل فوصل سنار في ٢٢ اكتوبر سنة ١٨٢١ م فأطلق لهُ ٢١ مدفعاً ترحيباً بهِ . ثم نظر الامير ان في ما يفعلانهِ فاتفق رأيهما على ان يقسما الجيش قسمين قسماً يتولى اسماعيل باشا قيادتهُ ويتألف من ١٥٠٠ مقاتل والملك جاويش والشيخ ضرار شيخ الكماتير فيمد فتوحاتهِ في طريق النيل الازرق ويستطلع مناجم الذهب في بلاد شنقول وآخر يتولى ابراهيم باشا قيادتهُ ويتألف من ١٢٠٠ مقاتل والملك بادي فيخترق جزيرة سنار الى بلاد الدنكا ثم يمدّ فتوحاتهِ في البحر الابيض الى اعاليهِ . فسار ابراهيم باشا في ٥ ديسمبر سنة ١٨٢١ م قاصداً بلاد الدنكا وسار اسماعيل باشا بعده بيومين قاصداً بلاد فازوغلي وبقي ديوان افندي محافظاً ببعض الجند في سنار

اما ابراهيم باشا فانه لم يصل جبل القربين في وسط الجزيرة حتى اصيب بالديزنتاريا فعاد الى سنار ومنها الى مصر وتولى سلاحداره طوسن بك قيادة جيشهِ فذهب الى الدنكا ثم الى جبل تابي فأخذ منهُ ٢٠٠ عبد وعاد الى سنار



﴿ ملك فازوغلي ﴾

سنة ١٨٢١



فتح فازوغلي ١ يناير سنة ١٨٢٢م

اما اسماعيل باشا فانهُ سار بالبر الغربي قاصدًا فازوغلي وبعث بخمسماية من رجاله فساروا تجاههُ بالبر الشرقي فقابلهُ في الطريق رسل من الملك حسن ملك فازوغلي وقالوا ان ملكهم مسلم لهُ فليس عليهِ الا ان يحارب المجوس وكان ذلك في ١٩ ديسمبر سنة ١٨٢١ . ولما كان يوم ١ يناير سنة ١٨٢٢ وكان اسماعيل باشا على بضعة اميال من فازوغلي قابلهُ ملكها الملك حسن ومعهُ مئة فارس من حرّاسهِ حاملين الحراب فلما رأوا اسماعيل باشا ترجلوا جميعًا وتقدم الملك حسن فسلم عليهِ وقدّم لهُ جوادين من جياد الحبشة واما حرّاسهُ فانتظموا في صف واحد ثم جثوا على ركبهم ونكسوا حرابهم علامة الخضوع . وضرب اسماعيل باشا على فازوغلي وجبالها جزية قدرها ألف اقة ذهب والفا عبد ذكر

﴿ مناجم الذهب ﴾ ولما تمّ لهُ هذا الفتح سار بجيشهِ الى بني شنقول لمشاهدة مناجم الذهب وتحقيق ما سمع عنهُ فوصل خور « أبو » في ارض الكاميل التي فيها الذهب في ٢٠ يناير سنة ١٨٢٢ ومعهُ العالم الفرنساوي الموسيو كايو المار ذكرهُ فحفر في عدة اماكن من الخور فلم يعثر الا على قطع صغيرة من التبر فخاب املهُ وقفل راجعًا الى سنار فدخلها في ٤ فبراير سنة ١٨٢٣م

وكان ديوان افندي سعيد في مدة غياب اسماعيل باشا في فازوغلي قد فرض الضرائب على الاهلين بمساعدة المعلم حنا المباشر والارباب دفع الله احمد فجعل على رأس الرقيق خمسة ريالات وعلى البقرة نصف ريال وعلى الشاة والحمار ربع ريال . فثقلت هذه الضرائب على الناس لانهم لم يتعودوها وفي اثناء ذلك شاع ان اسماعيل باشا قتل في الجبال وان جنودهُ قد تشتتت فتحرك اهل البلاد للثورة لاسيما وان اكثرهم سلموا لاسماعيل باشا خوفًا من بطشهِ فبلغ اسماعيل باشا خبرهم وهو في الطريق فاسرع الى سنار وهدّأ البلاد وعامل الاهلين بالحلم والعفو ولم يقتل احدًا سوى ود عجيلاوي . ثم لم يرضَ بما فرضهُ ديوان افندي والمباشر من الضرائب وطلب الدفاتر ليعدّ لها فوجد ان المباشر قد ارسلها الى مصر

فأرسل الشيخ سعد عبد الفتاح ليرجعها فلم يدركها فامر بالرفق في تحصيل الضرائب
ولما نزلت الامطار في سنار فشت الحمّى في العساكر فذكر ما فعلهُ في معسكره سنة الفتح وذكر نصيحة المسيو كايولهُ بالانتقال الى ودمدني لجودة هوائها فانتقل بعساكره اليها وبنى فيها قشلاقاً كبيراً من الطوب لم تزل آثارهُ باقية الى اليوم • ومات في ودمدني بعد انتقال العساكر اليها القاضي محمد الاسيوطي الحنفي المتقدم الذكر والشيخ كرار العبادي ومحمود اغا القسطنطيني احد سواري المغاربة وهرب حسن ودرجب المار ذكرهُ الى ابي شوكه

الفصل الثاني
في
﴿ حملة الدفتردار على كردوفان ﴾
وفيها فتح الابيض سنة ١٨٢١

وكان محمد علي باشا بعد أن أرسل ابنهُ اسماعيل لفتح سنار قد جهز جيشاً آخر وعقد لواءهُ لصهره محمد بك الدفتردار وأمرهُ بفتح كردوفان وكان جيش الدفتردار مؤلفاً من اربعة الاف مقاتل من المشاة والفرسان منهم الف مقاتل من البدو والمغاربة ومعهم عشرة مدافع نمرة ٤ فسار الدفتردار الى كردوفان بطريق دنقله وابي قس • وكان على كردوفان المقدوم مسلم من قبل سلطان درافور فلما بلغهُ قدوم الدفتردار خرج لقتاله من الابيّض فالتقاهُ في باره صباح ١٦ ابريل سنة ١٨٢١م وحدثت واقعة دموية قاتل فيها الفريقان قتال الابطال وكان الدفتردار والمقدوم مسلم في مقدمة رجالها يحمسانهم على الاستهلاك في الدفاع وكان رجال المقدوم مسلم مسلحين بالحراب وكثيرون منهم مسلحين بالبنادق فثبتوا امام الجيش المصري طويلاً واقتحموا نيرانهُ غير مبالين بالموت حتى انهم اخترقوا صفوفهُ وجرحوا كثيرين من عساكر الطوبجية فوق مدافعهم وما زالوا يكرُّون ويفرون حتى قتل قائدهم مسلم قتلهُ احد بادية الجهيماب فوقع فيهم الفشل وانهزموا امام جيش الدفتردار

فأوسعهم قتلاً وأسرًا الى ان دخل الابيض ومهد البلاد . قيل وكان في جيش الفور فارس يقال لهُ ابراهيم ود دير فدفع جوادهُ على مدفع في قلب الجيش المصري فأدركهُ وقتل بعض الطوبجية وضرب حديد المدفع بالسيف وكان السيف من الفولاذ الجيد فظهر أثر الضربة في المدفع وبقي يحارب في وسط الجيش الى ان قتل . قيل انهُ قبل هجومهِ قال للذين حولهُ « اني هاجم على هذا المدفع لاضربهُ بسيفي فان عشت كان قسمي وان متُّ كان وسمي » وقد كان الثاني فان هذا المدفع سمي بمدفع ود دير وبقي في الابيض الى ان وقع بيد الدراويش فحملوهُ الى ام درمان

ولما استولى الدفتردار على كردوفان اخذ في الاهبة للزحف على دارفور وكان على دارفور في ذلك الحين السلطان محمد الفضل فارسل جيشاً بقيادة ابي اللكيلك لمحاربة الدفتردار واسترجاع الابيض منهُ فالتقاهُ الدفتردار في « سودرة » وقهرهُ وردّهُ خائباً كما مرَّ في تاريخ الفور . وأبى الدفتردار ان يصحبهُ احد من الاوربيين في حملتهِ على كردوفان ليحرز الفخر كلهُ لنفسهِ وكتب عدة رسائل الى القاهرة في احوال البلاد وحاصلاتها وتجارتها ورسم خريطة لها فجاءت ساذجة بسيطة خالية من اتقان الصناعة اللازم في ايامنا . ولنرجع الان الى سير الحوادث في سنار

الفصل الثالث

في

﴿ غدر الملك نمر وقتل اسماعيل باشا ﴾

سنة ١٢٣٨هـ : ١٨٢٣م

تقدم ان اهل سنار تحركوا للثورة مدة غياب اسماعيل باشا في فازوغلي وان اسماعيل باشا اسرع الى سنار فأخمد الثورة ولكن بقيت تحت رماد وما زال بعض الرؤوس يترقبون الفرص ليضرموها وكان اول من حاول ذلك رجب ود عدلان واخوهُ عليّ فأرسل اسماعيل باشا بعض العساكر فقتلوا رجباً على فراشهِ واتوا اليهِ بعليّ اسيرًا فقتلهُ شنقاً

ثم بلغهُ ان الملك نمرًا ملك السعداب في شندي متحفز للقيام فجهز بعض العساكر وأرسلها في المراكب وذهب بنفسهِ في شهر صفر سنة ١٢٣٨هـ اوكتوبر سنة ١٨٢٣م قاصدًا شندي فوصلها في شهر دسمبر من السنة المذكورة. وحال وصولهِ امر باحضار الملك نمر فتهدده قيل وضرب عليهِ جزية قدرها الف اوقية ذهبًا والف جمل اصهب والف ناقة منتجة والف بقرة والف شاة والف عبد والف جارية فأظهر تمام الامتثال واضمر الغدر . ثم اولم وليمة فاخرة في منزلهِ ودعا اليها اسماعيل باشا وعساكرهُ فأكلوا واكثروا من شرب المريسة فسكروا وناموا فجمع الملك نمر عبيدهُ وذوي قرباهُ واخبرهم بمطاليب اسماعيل باشا وتهديدهِ فأجمعوا على قتلهِ هو وعساكره. ولما جن الليل احاطوا المنزل بالهشيم واشعلوا فيهِ النار فاحترقوا جميعًا واسماعيل باشا من الجملة قيل ان حاشية اسماعيل باشا لما التهبت النيران وقعوا عليهِ قصد وقايتهِ منها فماتوا فوقهُ حرقًا اما هو فلم تمسهُ النار فمات خنقًا. وانتشر خبر هذه الفعلة في اقطار السودان فنشط الكثير من الرؤوس للثورة وفرّ الارباب دفع الله المار ذكرهُ من ود مدني ونزل في حلة عبود فتجمعت عليهِ الجموع فشغل بهِ محمد سعيد افندي عن الملك نمر وارسل سرية من الفرسان لمطاردتهِ فخرجوا من ود مدني ليلاً وأصبحوا في عبود فوجدوا الارباب دفع الله قد فرَّ بجموعهِ فقتلوا الفقيه محمدًا ولد عبد العليم خليفة ولد عبود وخربوا الحلة ونهبوا اموالها وعادوا الى ود مدني . اما الارباب دفع الله فانهُ فرَّ الى ابي شوكة واجتمع على حسن ود رجب المار ذكرهُ فأرسل اليهما محمد افندي سعيد سرية من عساكر الدنانلية والشايقية برئاسة مصطفى كاشف فقاتلهما قتالاً شديدًا وقتل حسن ود رجب وعمهُ الشيخ حسينًا وابنهُ محمدًا وجماعة من رجالهِ وغنم منهما غنائم ثمينة ورجع الى ود مدني

وفي اثناء ذلك بلغ الدفتردار في كردوفان خبر اسماعيل باشا فخرج من فورهِ بمعظم العساكر وأتى الى المتمة فوجد اهلها قد اجتمعوا جمهورًا واحدًا طالبين الامان فأمنهم ثم وثب عليهِ رجل منهم فطعنهُ بحربة فاشتعل غيظًا وأمر بقتلهم جميعًا ولجأ بعضهم الى خلوة الفقيه احمد الريح فأمر باحراقهم فيها. ثم عبر النيل الى شندي فوجد

الملك نمرًا قد فرّ فأحرق المدينة وسار الى الحلفاية فوجدها خالية فأحرقها ايضاً واجتاز النيل الى جزيرة توتي فقتل فيها خلقاً كثيرًا . ثم ذهب الى العيلفون وكان اهلها قد تجمعوا لمصادمته فأحدث فيهما مجزرة عظيمة واحرق الحلة بالنار وسبى الكثير من العبيد والاحرار . ثم توجه الى ود مدني فبلغهُ هناك ان اهالي البحر الابيض قد شقوا العصا فأرسل حسين اغا الجوخدار فقتل وسبى ونزل على بيت الفقيه فضل الله من فريق التقاقير فوجد ٧٢ رجلاً من الجعليين قد التجأوا اليه فقطع ايديهم وساقهم الى الاسر فمات اكثرهم . ولما تمهدت بلاد النيل عاد الدفتردار الى كردوفان ولكن لم يكن الاّ القليل حتى بلغهُ ان الملك نمرًا عاد الى شندي فجاءها في عامهِ فلجأ الملك نمر ثانية الى الفرار ومعهُ الملك المساعد واقام بمحل في البطانة يقال لهُ النصوب فلحق به ومعهُ بعض العساكر التركية والشايقية فصمد لهُ الملك نمر فواقعهُ في واقعة شديدة وقتل من جيشهِ خلقاً كثيرًا وفيهم الملك المساعد واضطرهُ الى الفرار وعاد الدفتردار بالاسرى الى أم عروق جنوب ود مدني قيل وقد جمع الاسرى في زريبة من شوك وتركهم في الشمس لايظللهم شيء واجرى عليهم الماء بالجداول فمات اكثرهم من شدة الكرب ومنهم من افتداهُ اهلهُ بمال جزيل ومن بقي جعل لهم داغاً في اكفهم بين الابهام والسبابة وارسلهم الى محمد علي باشا في مصر فنظم العبيد منهم في جيشهِ واذن للاحرار في العودة الى بلادهم وقال « ان هذا فتح فلا غروَ اذا حصل فيهِ ما حصل من الجعليين » فعاد اكثرهم واقام الباقون في القاهرة في مكان تحت القلعة يعرف بحوش الجاموس وما زالت ذريتهم هناك الى هذا العهد

وكان الشيخ بشير ود عقيد الجعلي المسلمابي هو الذي دلّ الدفتردار على زعماء الثورة من الجعليين فقربهُ الدفتردار وجعلهُ رئيساً على الجعليين مكان الملك نمر

﴿ الملك نمر واولادهُ على حدود الحبشة ﴾ اما الملك نمر فانه بعد انكسارهِ في النصوب فرَّ بمن بقي معهُ من الاتباع قاصدًا الحبشة قيل فاشتد بهم العطش في الطريق ولم يكن معهم الا بضعة جمال للركوب فوقف الملك نمر وأرسل بعض رجالهِ بالجمال الى أقرب الآبار فأتوهُ بماء قليل فجمع اتباعهُ وقال الماء لا يكفي الجميع فنسقي

الآن الهرو اي الضعيف الهزيل ونترك النشيط الى ان نرد الماء فنشرب كلنا ثم ناداهم رجلاً رجلاً وسأل كلاً منهم عن حاله وجمع الهرو في صف والنشيط في صف أخر فأجتمع في صف النشيط نفر قليل فوزع الماء بين هولاء على التساوي وقال «ان الذي يصبر على العطش يصبر على الحرب وحاجتنا الآن الى مثل هولاء» وترك الهرو في الصحراء يموتون عطشاً وسار بالاشداء والماء قاصداً الحبشة . وكان على الحبشة في ذلك الحين الراس علي مقيماً في ولغايت فقص عليه قصته مع الحكومة المصرية واستأذنهُ في الاقامة في حدود بلاده فأذن لهُ فنزل برجاله في دار غبطه واجرى لهم الراس علي مرتباً يقتضونهُ من اهل الدار من غلال وخرفان وبقر وسمن وعسل على قدر حاجتهم واوعز الى مشايخ غبطه باكرامهم الى ان يتوطنوا فيعولوا انفسهم . وكان عدد الذين وصلوا مع الملك نمر ١٢٠ رجلاً ما عدا النساء والاولاد وفيهم تسعة من اولاده وهم محمد واحمد وعمر وعماره والحسن وخالد وسعد وابو بكر وعثمان . فاقام الملك نمر في غبطة سنتين ومات وخلفهُ ابنهُ عمر وسمع الجعليون وسكان النيل بتوطن السعداب في غبطة فاجتمع عليهم المتشردون وقطاع الطرق وكل من فرَّ من وجه الحكومة من ظلم وقع عليهِ أو ذنب جناهُ أو دين لاطاقة لهُ على ايفائهِ حتى كثر عددهم وضاقت بهم الدار فسألوا الراس عليا أن يأذن لهم في النزول في دار ميقبة على ست ساعات من غبطة لانها كانت داراً رحيبة وفيها أودية خصبة واراض زراعية متسعة فأجابهم الراس علي الى ذلك فانتقلوا الى ميقبه واقاموا فيها على سعة وصاروا على ازدياد حتى عظمت نفوسهم فأخذوا يغزون بلاد الحكومة مثل بني عامر والشكريه والضباينه والتكارنه كما سيجيء

هذا ما كان من الملك نمر واولادهِ واما الدفتردار فانهُ بقي في ام عروق يتعقب العصاة في كل الجهات وينكل بهم حتى جاءهُ الامر فنزل الى مصر ومعهُ السيد احمد السلاوي الحنفي المار ذكرهُ . وتتابع بعدهُ الولاة الآتي ذكرهم على السودان الى ان كانت الثورة المهدية

الفصل الرابع

في

﴿ ولاة السودان ﴾

﴿ ١ • عثمان بك سنة ١٢٤٠ : ١٢٤١ هـ — ١٨٢٥ : ١٨٢٦ م ﴾

ولما كانت سنة ١٢٤٠هـ ١٨٢٥ م سُمي الميرالاي عثمان بك واليًا على السودان فذهب اليهِ ومعهُ آلاي من الجنود المنظمة الذين عرفوا بالجهادية ونزلوا في الخرطوم فأتاهُ الشيخ شنبول من ود مدني فاكرمهُ وكساهُ وقلدهُ المشيخة على جميع البلاد من حجر العسل الى جبال الفونج • واتاهُ الشيخ عبد الله عمر فقتلهُ بقنبلة مدفع • ثم اقام عثمان أغا الخربوطلي وكيلاً عنهُ في الخرطوم وامرهُ بقتل الفقيه الارباب ود الكامل بقنبلة مدفع وتوجه هو الى ود مدني فقتل عدة رجال بقنابل المدافع فعظم ذلك على الاهلين ونفرت قلوبهم من الحكومة واخذوا يهاجرون الاوطان • وكان السيد احمد البقلي المفتي الشافعي لايزال في ود مدني فأرجعهُ الى مصر لعدم وجود شافعية في السودان

ثم انتقل الى الخرطوم ونقل اليها اقلام الحكومة ومستودع الفرسان والمخازن والاشوان وجعلها مركزًا لهُ فبقيت مركزًا للولاة وعاصمة للسودان وهي تنمو وتتقدم الى قيام الثورة المهدية • وضرب عثمان بك الضرائب على الاهلين وارسل الجنود في تحصيلها فعاثوا وافسدوا وضيقوا على الرعية فكثر عدد المهاجرين من اهل البلاد وهاجر بعضهم الى القضارف فأرسل خلفهم ابرهيم افندي فقتل منهم خلقًا كثيرًا • وفشا فوق ذلك مرض الجدري واشتد الغلاء حتى بلغ ثمن الرطل المصري من الذرة غرشًا واحدًا واكل الناس الكلاب والحمير فكانت مدة عثمان بك بلاء ذهب فيهِ نحو نصف السكان من المرض والمحط والقتل والظلم ولكن لم تطل مدتهُ فقد أصيب بداء السل وتوفي في منتصف شهر رمضان سنة ١٢٤١ هـ ٢٢ ابريل ١٨٢٦ م قبل تمام السنتين ودفن في الخرطوم

﴿ ٢ • محُّو بك سنة ١٢٤١ هـ : ١٨٢٦ م ﴾

وأرسل وكيلهُ الى محو بك في بربر يخبره بما حدث فحضر الى الخرطوم وتولّى زمام الاحكام فيها ثم رجع الى بربر واحضر الجنود منها فجعلهم في قبة خوجلي تجاه الخرطوم واقام هو في الخرطوم وكان رجلاً شفوقاً عاقلاً حسن التدبير فمنع تعدي الجنود عن الاهلين ودعا عمد البلاد واعيانها واستشارهم في ما يكون بهِ راحة الاهلين فأعجبهُ رأي الشيخ عبد القادر ود الزين وكان اذ ذاك شيخ خط فقلدهُ شياخة قسم الكوع وكساهُ كسوة فاخرة • ثم اخذهُ وذهب الى القضارف فأرسل الذرة منها الى بلاد الجزيرة التي كانت لم تزل تقاسي من الجوع وارتاح الناس الى حكمهِ كل الارتياح • الاَّ ان جنودهُ المعروفين بالبيرقية لم يقتدوا بهِ فخربوا حلة القبة التي نزلوا بها وخربوا ما حولها • وكانت مدتهُ بضعة اشهر • وفيها مات جماعة من الفقهاء بمرض الجدري و بينهم محمد نور خليفة خوجلي والفقيه السيد حماد والفقيه محمد زروق والشيخ ادريس الذي ولاهُ عثمان بك منصب القضاء وغيرهم • وقد بنى محُّو بك في الخرطوم بناية خاصة لاقلام الحكومة وحفر بئرًا قرب بربر عرفت باسمهِ وكان في جنوبي الخرطوم شجرة كبيرة عرفت باسمهِ ايضاً

﴿ ٣ • خورشيد باشا سنة ١٢٤١ : ١٢٥٤ هـ ـ ١٨٢٦ : ١٨٣٩ م ﴾

وفي غرة ذي القعدة سنة ١٢٤١ هـ ٦ يونيو ١٨٢٦ م حضر خورشيد باشا والياً على السودان فاستقبلهُ محو بك في ام درمان وخلا بهِ مدة ثم احضر الشيخ عبد القادر وقدمهُ اليهِ وقال « ان عمران البلاد بروؤسها اهل الرأي فخذ برأي هذا » ثم توجه الى المحروسة واجتاز خورشيد باشا النيل الى الخرطوم فعمل بوصية محو بك وقرَّب اليهِ الشيخ عبد القادر فهرع مشايخ البلاد واعيانها للسلام عليهِ فقابلهم بالبشر والايناس ووعدهم بالراحة واطلق سراح المسجونين من ايام عثمان بك وبعد حضورهِ بشهر اي في شهر الحجة هطلت امطار غزيرة فزرع الناس

وأمنوا شر القحط . وفي هذا الشهر غزا البحر الابيض فأصاب مغنماً كثيراً ثم توجه الى « دار الابواب » في النيل الكبير فقبض على الشيخ بشير ود عقيد المار ذكرهُ لكثرة ظلمهِ في الرعية واهانهُ وغرمهُ مالاً جزيلاً . وعاد منهُ الى البحر الازرق فغزا عربان العجبه بجهات سيرو وغنم منهم

ثم رجع الى الخرطوم وجمع مشايخ البلاد وسألهم ان يختاروا شيخاً لينوب عنهم لديهِ في تعديل الضرائب فاختاروا الشيخ عبد القادر فاستعان بهِ على تعديلها وقلدهُ المشيخة على جميع البلاد من حجر العسل الى جبال الفونج وخلع عليهِ كسوة فاخرة وسيفاً

وقد صحب خورشيد باشا من مصر السيد احمد افندي السلاوي المار ذكرهُ قاضياً عاماً للسودان وصحبهُ جماعة من المعاونين بينهم موسى كاشف وكلهم من اصحاب الرأي وراتب كل منهم سبعة اكياس وكان لا يقطع امرًا بلا مشورتهم ومشورة المباشر ميخائيل ابي عبيد

﴿ الشيخ ادريس وجبال الفونج ﴾ وفي محرم سنة ١٢٤٣هـ يوليو سنة١٨٢٨م غزا بلاد الدنكه وتوجه منها الى جبال الفونج وكان عليها الشيخ ادريس ود عدلان المار ذكرهُ فأقرَّهُ في مكانهِ وعاد الى الخرطوم . وقد اشتهر الشيخ ادريس في حب جارية تسمى تام زينه فكان لها سلطة عجيبة عليهِ . قيل انها كانت تكره ابا روف شيخ عربان رفاعه الهوي الذي تزوج باحدى بنات الهمج و بنى حول منزلهِ زريبة مثل زرائب الهمج فاستاءت تام زينه من ذلك وقالت للشيخ ادريس « اما كفى انك زوجت هذا البدوي من بنات عمك حتى سمحت لهُ ببناء زريبة مثل زريبتك » فأمر الشيخ ادريس ابا روف ففتح في زريبتهِ عدة ابواب لتتميز عن زرائب الهمج . على ان حب تام زينه للشيخ ادريس لم يكن اقل من حبهِ لها ومن نوادرها معهُ انها كانت اذا سألها العصر في رمضان هل غابت الشمس ياتام زينه فتجيب على الفور « شمسك غابت يا سيدي ولكن شمس الناس لم تغب » . وكان اذا خرج للتنزه خرجت معهُ تام زينه واحتاطهُ جماعة من جواريهِ فحملنَ اذيال ثوبهِ واذا جلس جلسنَ عن جانبيهِ يتلقين اوامرهُ

وكان للشيخ ادريس بنت تسمى نصره فزوجها رجلاً من حوش بان النقا فاقتنى السراري حسب عادة الاعيان في السودان فانكرت عليهِ ذلك وسألتهُ ان يترك جميع سراريهِ ويكتفي بها ولما لم يفعل اقتنت نفرًا من العبيد المرد وقالت لزوجها « ان طلقت سراريك طلقت عبيدي والاَّ فنحن في الحق سواء » فطلق سراريهُ • وخلف ادريس ود عدلان على الهمج ابنهُ رجب ثم محمد بن رجب الذي بقي الى ايام الثورة المهدية

وفي سنة ١٢٤٣ هـ ١٨٢٨م عصي الشيخ خليفة ابن الحاج العبادي ابوحسين باشا خليفة وهاجم الجنود في بربر فجهزَّ لهُ خورشيد باشا ولكنهُ لم يصل الى بربر حتى كان الجنود قد سكَّنوا الفتنة وقتلوا الشيخ خليفة المذكور فعاد الى الخرطوم •

وفي سنة ١٢٤٤ هـ ١٨٢٩م غزا جبال « ابو رملي » وعاد منها غانماً

وكان اعظم ما وجه اليهِ اهتمامهُ تعمير البلاد وردّ الاهالي الذين كانوا قد هجروا الاوطان في ايام الدفتردار وعثمان بك فاصدر منشوراً عاماً بالامان للمهاجرين الذين لجأوا الى دارفور وجبال النوبة والملك نمر ودار العطيش على حدود الحبشة • وكان في جملة اللاجئين الى دارفور محمد صالح ثروة الجعلي المار ذكرهُ فصادف هناك نجاحاً عظيماً وجمع ثروة طائلة حتى هان على الناس الرحيل عن الاوطان بسببهِ ومن ذلك قول بعض شعرائهم يتذمرّ من ظلم الحكام ويغبط ود ثروة :

ان كان الترك حوض رمله — حوض الرملة قط ما بيروى
شن بيناتنا من غير سروه — لمكان ما سكن ودثروه

فكان لمنشور خورشيد باشا تأثير حسن • واشار عليهِ الشيخ عبد القادر باعفاء الفقهاءِ والاعيان من الضرائب حثّاً لهم على المساعدة في تأمين الاهالي فعمل بمشورتهِ فعاد الكثير من المهاجرين الى اوطانهم

وفي سنة ١٢٤٥هـ ١٨٣٠م قدم الشيخ احمد الريح العركي من دار العطيش فاكرمهُ خورشيد باشا وكساهُ وارجعهُ الى دار العطيش لتأمين الفارين ثم ذهب بنفسهِ اليـهِ فجمع ١٢ الفاً وارسلهم بالحرس الى اوطانهم • وأمَّن عرب الجدة

﴿ احتلال القلابات ﴾ وتقدم خورشيد باشا الى القلابات فسلمت لهُ وكان اهلها التكارنة وهم متخلفو حجاج الغرب قد انتظم لهم مشيخة قائمة بذاتها واقتنوا نحاساً وصاروا يحتفلون بتجليدهِ كل سنة في عيد الرجبية ويكسرون الضلع على نحو ما وصفناهُ في تاريخ الفور . واول شيخ اشتهر لهم بعد الفتح المصري لسنار الشيخ عطرون فقتل في غزوة غزوا بها الحمدة في دار العطيش . وخلفهُ الشيخ امام ثم الشيخ ميري وهو الذي سلم لخورشيد باشا . وكان التكارنة يدفعون مالاً للحبشة لاجل تعمير سوقهم فوضع عليهم خورشيد باشا جزية سنوية فقبلوها . ورأى خورشيد باشا اهمية مركز القلابات الحربي فجعل فيها حامية عسكرية مؤلفة من مئة جندي من الباشبوزق الاتراك وعاد الى الخرطوم بعدان اخضع جبال قُلي . ومن ذلك الوقت اشتهر امر القلابات واتسعت سوقها التجارية وكان لها في تاريخ السودان والحبشة اعظم شأن كما سيجيء

وبعد رجوع خورشيد باشا الى الخرطوم شرع في بناء جامع وثكنة للجنود ومخزن لمهماتهم وأمر الناس بالبناء بالطوب لانهم كانوا يبنون بالبوص وجلود البقر وقد امدَّهم بالاخشاب والالواح ترغيباً لهم في العمارة

وفي سنة ١٢٤٥هـ ١٨٣٠م غزا الشلك بالمراكب غزوة كبيرة فقتل منهم مقتلة عظيمة لم يروا مثلها الاَّ في مدة الملك بادي رباط وعاد الى الخرطوم بغنائم وسبايا كثيرة . وفي تلك السنة توفي الفقيه عبد القادر ود ضيف الله . وزاد النيل زيادة عظيمة حتى خافوا على البلاد من الغرق

وفي سنة ١٢٤٧هـ ١٨٣٢م غزا قبائل سبدرات وحصرهم حصرًا شديدًا الى ان اذعنوا لهُ وطلبوا الامان فأمنهم ورجع عنهم . وفيها حصلت زلزلة عظيمة اهتزت لها الارض . وفيها توفي الفاضل الشيخ قمر الدين ابن الشيخ حمد ود المجذوب ودفن بالدامر وقد اشتهر بالصلاح والتقوى وهو صاحب طريقة المجاذيب المشهورة . وفيها توفي خربوطلي حسن كاشف حاكم اقليم الحلفايه والبحر الابيض ودفن في قبة خوجلي

وفي سنة ١٢٤٨هـ ١٨٣٣م توجه خورشيد باشا الى كردوفان فتفقد أحوالها ورجع

وفي سنة ١٢٤٩هـ ١٨٣٤م أنعم عليهِ برتبة اللواء وسمي حاكماً عاماً على السودان

وفيها احتفل بختان اولادهِ احتفالاً عظيماً لم يسبق لهُ مثيل في السودان فحضرهُ جميع المديرين ورؤساء العساكر ومشائخ البلاد واعيانها

وفي سنة ١٢٥٠هـ ١٨٣٥م بنى جامعاً في سنار بأمر محمد علي باشا. وذهب مرة ثانية الى كردوفان ورجع . وفيها عقد لجنة في شندي حضرها القاضي العام ونائب الشرع وجميع المديرين لفصل الدعاوي التي اقامها الجعليون على بشير احمد عقيد في الاطيان التي استولى عليها من ايام الدفتردار وبقيت اللجنة الى ختام ذي الحجة سنة ١٢٥٠هـ

وفي غرة محرم سنة ١٢٥١هـ ٢٨ ابريل ١٨٣٦ ذهب الى مصر بطريق دنقله فأقام فيها بضعة اشهر ثم عاد الى السودان وقد رقي الى رتبة ميرميران . وعند وصولهِ الى الخرطوم جمع الكشاف والمأمورين والمشائخ وخلا بالشيخ عبد القادر يومين فعرض عليهِ رأي تجنيد الاهالي فراجعهُ الشيخ عبد القادر في ذلك خشية تشتيت الاهالي وخراب البلاد فقر الرأي اخيرًا على تكليفهم تقديم العبيد للعسكرية فجعلوا على كل مديرية عددًا معلوماً من الرقيق فجمعوا عددًا كبيرًا

ثم غزا خورشيد باشا جبال الصعيد فأحضر منها رقيقاً كثيرًا أدخل بعضهُ في الجيش وفرّق البعض الاخر على المأمورين والجهات . وهاج الحبشة على الحدود فنزلوا ومعهم رجب ولد بشير الغول من شيوخ الحمدة الى دار العطيش وقتلوا الرجل الصالح ودعاروض وخلقاً كثيرًا فأرسل خورشيد باشا عليهم فرقة من العساكر الجهادية بقيادة محمد افندي فأسروا رجب ولد بشير واتوا بهِ الى خورشيد باشا في الرصيرص فقتلهُ وشيّخ على الحمدة احمد ابا جنّ واسكنهم على نهر الدندر ورجع الى الخرطوم

وفي تلك السنة رقي محمد افندي الى رتبة ميرالاي وأرسل بالعساكر السودانية الى الحجاز. وفيها كسفت الشمس بعد صلاة العصر نصف كسوف دام الى قرب الغروب

وفي صفر سنة ١٢٥٢هـ مايو ١٨٣٧ م هاجت ريح شديدة مدة يومين متواليين ففي اليوم الاول ثارت قرب العصر فحملت غبارًا احمر اللون اظلم منهُ الجو ثم انجلت بسرعة وفي اليوم الثاني هاجت واثارت غبارًا اسود اللون فاشتدت ظلمة الجو الى غروب الشمس فتشاءم الناس من ذلك وتوقعوا شرًّا عظيماً فحصل على الأثر

قحط شديد فأخرج خورشيد باشا مئة أردب ذرة وتصدق بها على الفقراء واخرج مئة أردب من شون الميري وأمر ببيعها في السوق رفقاً بالرعية واقام صلاة الاستسقاء

وقبل نهاية تلك السنة أصاب الناس الهوآء الاصفر فمات فيهِ خلق كثير وكان في جملة من مات من الاعيان : الفقيه السنوسي بن الفقيه بقادي . والفقيه النخلي مقرئ القرآن الشريف بحلة بقادي . والفقيه محمد الحاج الطيب امام جامع الخرطوم . والفقيه محمد علي ود العباس . والشيخ الطريفي بن الشيخ يوسف . والشيخ محمد بن الشيخ حسن خليفة ولد بان النقا . والشيخ سعد عبد الفتاح العبادي . والشيخ مصطفى خليفة الشيخ دفع الله العركي . ولما اشتد المرض في الخرطوم ذهب خورشيد باشا الى شندي فأقام فيها . ومن هناك أرسل رجب ابن بشير ودعقيد المتقدم الذكر الى الخرطوم فرُفع على خازوق . و بعد زوال الوبا، رجع الى الخرطوم فهدم الجامع الذي كان قد أنشاه سنة ١٢٤٥ﻫ لانهُ أصبح صغيراً لزيادة العمارة في الخرطوم وأنشأ جامعاً أوسع منهُ بقي الى ايام الثورة المهدية

وفي تلك السنة ظهر نجم كبير نصف النهار وخرج منهُ شرار ! وفيها أصابت الناس حمىً سميت أم سبعة هلك فيها خلق كثير ومات بها من الاعيان العوج الدرب بن الفقيه محمد بركات من ذرية الشيخ ادريس المشهور بالكرم والجود وقد سميت ام سبعة لان من أصابتهُ لم تمهلهُ سبعة أيام ومن تجاوزها سلم منها

وفي شهر رمضان من تلك السنة غزا احمد كاشف حاكم القضارف أطراف الحبشة فغنم وسبى وأرسل السبايا الى الخرطوم

وفي ٩ محرم سنة ١٢٥٣ﻫ ١٤ ابريل سنة ١٨٣٨م نزل الحبشة على القلابات وكانت حاميتها قد زيدت فقتلوا شيخها الشيخ ميري والشيخ احمد عبود أحد سواري الشايقية وخلقاً كثيراً من الجند والاهالي واسروا بكباشي الاورطة وعلي اغا الصهيب سنجق المغاربة والملك سعداً من سواري الشايقية وعادوا الى بلادهم وكانت الواقعة في كلنبو قرب راشد فعرفت بواقعة كلنبو . قيل ان الشيخ احمد عبود لما رأى انكسار العساكر ولم يرَ فائدة من الدفاع افترش فروتهُ فقتلوهُ عليها . فلما بلغ خورشيد باشا

خبر الواقعة جهز جيشاً وسار الى الحبشة لاخذ الثار تاركاً سليمان كاشف وكيلاً عنهُ في الخرطوم فدخل الحبشة فلم يقابلهُ جيش فرجع الى القلابات بلا قتال فحصنها وزاد في حاميتها وقفل راجعاً الى الخرطوم

وكان خورشيد باشا قد ارسل الى مصر في طلب المدد فلما كان ذو القعدة من تلك السنة حضر الى الخرطوم ميرميران «احمد باشا ابو ودان» ومعهُ الميرالاي فرهاد بك بجنود من مصر امداداً لهُ وأدركهُ فرهاد بك في الطريق فعادا معاً الى الخرطوم

وفي تلك السنة حضر الميرالاي مصطفى بك من كردوفان مديراً على عموم جزيرة سنار • وفيها خسف القمر نحو ساعتين واشتد ظلامهُ

﴿ ٤ احمد باشا ابو ودان سنة ١٢٥٤ : ١٢٥٩هـ - ١٨٣٩ : ١٨٤٤م ﴾

وفي ربيع الاول سنة ١٢٥٤هـ مايو ١٨٣٩م صدر الامر الى خورشيد باشا فنزل الى مصر واستلم احمد باشا ابو ودان زمام الحكمدارية مكانهُ فأسف الاهالي لفراقهِ لانهُ ضم شملهم بعد الشتات وعاملهم بالعدل والرفق وكان الشيخ عبد القادر اكثر الناس غماً على فراقهِ وقد أوصى بهِ احمد باشا فقرَّبهُ ولم يقطع أمراً يتعلق براحة الرعية الا بمشورتهِ وشرع في الاحكام بحسن سياسة وبُعد نظرٍ فنظم الدواوين والمديريات وحسن حال الكتبة والموظفين ثم التفت الى امر الضبط والربط فأبطل السخرة ومنع تعدي العساكر على الفلاحين ووطد الامن في البلاد حتى أمن المسافر والمقيم من حلفا الى اقصى حدود السودان وبذلك اطمأن الاهالي وزادت عمارتهم وخصبت ارضهم حتى صار أردب الذرة بخمسة قروش واوقع الله هيبتهُ في قلوب العباد مع انه لم يكن بذيء اللسان ولا سفاكاً للدماء بل كان وقوراً كثير الصمت وكانت اوامرهُ ونواهيهِ مقصورة على ما قل ودلَّ كقولهِ افعلوا أو لا تفعلوا ولم يجسر احد على مخالفتها • وسرت هيبتهُ الى جميع فروع الحكمدارية حتى قيل ان الموظفين والمأمورين في الجهات كانوا يتوهمون انهُ مقيم بينهم يسمع ويرى فيحذرون في ما يفعلون كل الحذر

﴿ زيارة محمد علي باشا للسودان ﴾ وفي ايامهِ توجه محمد علي باشا الى السودان لمشاهدة البلاد التي افتتحها وتفقد احوالها وكشف مناجم الذهب بنفسهِ فسار من القاهرة في ١٥ اكتوبر سنة ١٨٣٩ م فوصل الخرطوم في ٢٣ نوفبر وكان احمد باشا اذ ذاك متغيباً في ود مدني فقابلهُ وكيلهُ مقلي عبد القادر اغا ثم حضر واستاذن للقاضي والمفتي والعلماء في مقابلتهِ فأذن لهم فسروا من طلاقة وجههِ وحسن خطابهِ . وأقام ٢٢ يوماً في الخرطوم ثم سار الى جبال فازوغلي فوصلها في ١٨ يناير سنة ١٨٤٠ وفي معيتهِ احمد باشا الحكمدار . فاستقبلهُ الشيخ الزين والشيخ ادريس ودعدلان شيخ الهمج والشيخ احمد ابوسن شيخ الشكريه وسائر مشايخ العربان والحلاّلات فقابلهم بالبشر والايناس وامر لهم بالكُسى على حسب رتبهم . وقد بُني لهُ قصر جميل قرب فامكة فأقام فيهِ مدة يبحث في أمر المعدن فلم ترضهِ نتيجة البحث وقفل راجعاً الى الخرطوم فأقام فيها اياماً قليلة واستطرد السير عن طريق كورسكو فوصل مصر في ١٤ مارس سنة ١٨٤٠ م

وفي سنة ١٢٥٥ هـ ١٨٤٠ م توجه احمد باشا الى دنقله للنظر في احوالها فأقام فيها اياماً وفي رجوعهِ بلغهُ في شندي فرار حمد ولد الملك نمر فذهب خلفهُ بجريدة من الفرسان ومعهُ الملك كنبال فنجا حمد ولد الملك وقتل الملك كنبال وعاد احمد باشا الى الخرطوم . وفي رابع شوال من تلك السنة توفي العلامة البليدي المفتي

وفي سنة ١٢٥٦ هـ ١٨٤١ م زاد البحر زيادة عظيمة . وفيها فتحت بلاد كسله ودخلت رسمياً في حوزة الحكومة الخديوية وهاك تفصيل الفتح :

﴿ فتح التاكا سنة ١٢٥٦ هـ ١٨٤١ م ﴾

لما استتبَّ الامر لاحمد باشا في الخرطوم وضواحيها اهتم باحتلال السودان الشرقي وتمهيدهِ فقاد الجنود الى بربر وارسل يطلب مشايخ البجة فأتاهُ الشيخ محمد دين شيخ الهدندوة العام مظهراً التسليم اما عوض مسمار كبير الحلانقة المار ذكرهُ في تاريخ سنار فانهُ أبى الحضور . وكان بين الحلانقة والهدندوة عداوة قديمة وحروب متصلة فطلب محمد دين من احمد باشا ان يمدّهُ بنفر من الجنود فيخضع الحلانقة لهُ

ويكفيهِ موءونة تعبهم وهو انما اراد التنكيل بهم من جهة ومنع دخول الجيش الى بلادهِ من جهة أخرى فلم يجبهُ احمد باشا الى ذلك بل سار بنفسهِ مع الجيش قاصدًا الحلانقة فلما ذاع الخبر اجتمع الحلانقة وعينوا محمد إيله شيخًا عليهم فخرج مع بعض وجهاء قبيلتهِ لمقابلة احمد باشا والتسليم لهُ فلقيهُ في قوز رجب على الاتبرة وقدم لهُ الطاعة وسألهُ ان يجعل مركز الجيش في بلادهِ . وكان الحلانقة مقيمين على القاش قرب جبل كسله فلما رأى احمد باشا بلادهم أعجبهُ موقعها فبنى فيها استحكامات منيعة وجعلها مركزًا للجيش وحكومة السودان الشرقي وأقرّ محمد ايله على شياخة الحلانقة. اما عوض مسمار فانهُ فرّ الى الحجاز عن طريق سواكن ثم عاد الى كسله بأمان الحكومة فعين ابنهُ محمد شيخًا على القبيلة ومن ذلك الحين صار عائلتا عوض مسمار ومحمد ايله يتناوبان مشيخة الحلانقة الى اليوم

اما الهدندوة فانهم لما رأوا ان احمد باشا مال الى اضدادهم وجعل بلادهم مركزًا لحكومتهِ ارتدوا عنهُ وجمعوا جموعهم في غابتي وهياي والكتياب شمالي كسله فحوّل احمد باشا مجرى القاش ومنع عنهم الماء فعطشوا واخذوا في التفرق ثم لما يبس الشجر اطلق النار في الغابتين فذعروا منهما فلحق بهم وقتل منهم خلقًا كثيرًا واسر شيخهم محمد دين وزجّهُ في السجن الى ان مات بداء الجدري

وعاد احمد باشا الى الخرطوم بعد ان ولّى عمر بك كاشف مديرًا على كسله ثم عُزل عمر بك وسُمي فرحات بك مديرًا فعصاهُ الهدندوة فاستعان بالحلانقة عليهم وقاتلهم حتى اضطرهم الى الطاعة وشيّخ عليهم موسى ابرهيم ابن أخ محمد دين واخذ منهم الجزية . ثم ارسل البكباشي الياس افندي قومندان الجهادية الى بني عامر فقاتلهم في الدقا وارغمهم على الطاعة وضرب عليهم الجزية . وتوفي فرحات بك في كسله ودفن فيها

وبعد فتح التاكا رسمت خارطة السودان وقسمت الى سبع مديريات وهي : فازوغلي وسنار والخرطوم وكسله وبربر ودنقله وكردوفان فجعل قومندان الجنود في كل مديرية مديرًا عليها وجعلت الخرطوم مركز السودان ومقر الحاكم العام

وتوفي احمد باشا في رمضان سنة ١٢٥٩هـ اوكتوبر ١٨٤٤م في الخرطوم ودفن



ابراهيم باشا

فيها وكانت وفاتهُ بغتة حتى قيل انهم دسوا له السم ليتخلصوا منهُ لانهُ كان يحاول الاستقلال عن مصر . وبعد وفاتهِ تضعضع حال الحكمدارية واختل نظامها واستقل كل مدير بمديريتهِ وصار يفعل فيها ما شاء

﴿ ٥ . احمد باشا المنكلي سنة ١٢٥٩ : ١٢٦١هـ — ١٨٤٤ : ١٨٤٥ ﴾

وفي سنة ١٢٥٩هـ ١٨٤٤م سنة وفاة احمد باشا ابودان حضر احمد باشا المنكلي حاكماً عاماً للسودان ولم يمكث في الخرطوم الاَّ قليلاً حتى عاد اهل التاكه الى الثورة نظرًا لسوء ادارة الموظفين وعدم كفاءتهم فجرَّد جيشاً كبيرًا وسار لقتالهم ومعهُ الارباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر والشيخ احمد ابوسن كبير الشكرية فأسر رؤوس العصاة وعاد بهم الى الخرطوم فضرب رقابهم وبقي في الخرطوم الى اواخر سنة ١٢٦١هـ ١٨٤٥م ثم عاد الى مصر ومعهُ الارباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر الزين المار ذكرهما فانزلهما محمد علي باشا في المسافرخانة وامر باكرامهما وبعد ثلاثة ايام طلبهما وكلمهما بلا واسطة قيل فأعجب بذكاء الشيخ عبد القادر وفصاحتهِ وقال «ما كنت اظن ان بلادًا ليس فيها شيء من اسباب التمدن والتهذيب كبلاد السودان يخرج منها مثل هذا الرجل» وامر لهُ بنيشان وعين لضيفهِ ياورًا فطاف بهما في جميع دواوين الحكومة والاماكن الشهيرة في مصر والاسكندرية وسائر الجهات

﴿ ٦ . خالد باشا سنة ١٢٦٢ : ١٢٦٦هـ — ١٨٤٦ : ١٨٥٠م ﴾

وفي محرم سنة ١٢٦٢هـ يناير ١٨٤٦م حضر الى الخرطوم خالد باشا حكمدارًا للسودان ومعهُ الارباب دفع الله والشيخ عبد القادر المار ذكرهما والشيخ ابراهيم الهيتمي قاضياً عاماً للسودان فقضى اكثر مدتهِ في الاسفار فذهب الى التاكه وعاد منها الى جبال فازوغلي وكردفان في تطلب مناجم الذهب

وفي ايامهِ انحرفت صحة محمد علي باشا لما اصاب مصر من الاوبئة والمحن ولم يعد قادرًا على القيام بمهام مصر فتولاها ابنهُ الاكبر «ابراهيم باشا» في منتصف سنة ١٢٦٤هـ ١٨٤٨م . وكان ابراهيم باشا منحرف الصحة فاشتد عليهِ المرض بغتة

وفارق هذا العالم في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨م • وكان « عباس باشا » ابن طوسون باشا ابن محمد علي باشا ولي العهد غائبًا اذ ذاك في مكة فدُعي منها ووصل القاهرة في ٢٤ ديسمبر وتولّى زمام مصر • وفي ٢ اوغسطوس سنة ١٨٤٩م فاضت روح محمد علي باشا الى خالقها بعد ان ابقى في مصر والسودان من المآثر الحسان ما خلد لهُ الذكر الحسن والثناء الجميل مدى الزمان

﴿ ٧ عبد اللطيف باشا سنة ١٢٦٦هـ : ١٢٦٧ ـ ١٨٥٠ : ١٨٥١م ﴾

وفي ربيع الآخر سنة ١٢٦٦هـ فبراير ١٨٥٠م وصل عبد اللطيف باشا الخرطوم حاكمًا عامًا للسودان وكانت الاحكام قد اختلت كثيرًا في مدة سلفهِ فما دخل الخرطوم حتى انهالت عليهِ الشكاوي ضدهُ فصادرهُ وانزلهُ الى مصر ثم شرع في الاحكام فازال المظالم وبث روح العدل في البلاد

ومن مآثرهِ انهُ جدَّد ديوان الحكمدارية في الخرطوم فبقي الى الثورة المهدية • وانشأ مدرسة ابيرية في الخرطوم برئاسة رفاعه بك الذي حضر من مصر ومعهُ بيومي بك وكثير من الكتبة والمعلمين • وعزل الشيخ ادريس عدلان السالف الذكر من شياخة جبال الفونج وولّى ابن اخيهِ عدلان محمد مكانهُ • وضرب حسن مسمار ملتزم الجمارك وحبسهُ وصادرهُ • وعزل حسن خليفة العبادي ملتزم سكة عتمور ابي حمد من المشيخة وحبسهُ وصادرهُ ايضًا وقلد المشيخة اخاهُ حسين خليفة • وقلد الشيخ عبد القادر وظيفة معاون الحكمدارية مع مشيخة مشايخ عموم الجزيرة واحسن معاملة الشيخ احمد ابي سن وعاد الى مصر في اواخر سنة ١٢٦٧ هـ ١٨٥١م

﴿ غزوة تكارنة القلابات للملك عمر في ميقبة ﴾ وفي ايام عبد اللطيف باشا هاج تكارنة القلابات من تعديات الملك عمر على بلادهم فجيشوا جيشًا كبيرًا وساروا لقتالهِ في ميقبة واتفق في هذه الاثناء ان مدير كسله اخرج نفرًا من رجالهِ لغزو الجادين وكان احد انسباء الملك عمر في كسله فظن ان الغزوة على أهلهِ فأنفذ اليهم خبرًا ليكونوا على حذر فأخذوا عائلاتهم الى مضيق بين جبلين قرب ميقبة و بقواهم



عباس باشا الأول

في ميقبة متر بصين فاقترب التكارنة منهم ولما رأوهم مقبلين من الجنوب ظنوا انهم اصدقاء لهم سمعوا بغزوة الجند من الشمال فحضروا لنجدتهم فخرج ابو بكر اخو الملك عمر لاستقبالهم مع جريدة من الفرسان فما كان من التكارنة الا انهم بادروهم بالطعن بالحراب فعادوا الى ميقبة مذعورين فوجدوا الملك عمر جالساً في ديوانهِ فقالوا لهُ ان الذين تراهم هم تكارنة القلابات وقد جاءوا لحربنا فقم بنا الى مكان العائلة وكان التكارنة قد دخلوا ميقبة على أثر الفرسان فرأى الملك عمر ان فرارهُ من مكانهِ عار عليهِ فافترش فروتهُ وانتظر الموت فاجتمع عليهِ السعداب وقالوا لهُ اتعطي التكارنة فأل الجعليين فتمكنهم من نفسك ليكون لهم الفخر بقتلك ولك من ذلك مهرب فقم بنا نجمع شتاتنا ونعود الى طرد الاعداء من ديارنا « فان الرجال شرّاده ورّاده » ثم حملوهُ بالرغم عنهُ ووضعوهُ على بغلة وساروا يحاربون من خلفهِ حتى وصلوا الى المضيق الذي كانت فيهِ العائلة فلموا شعثهم ولبسوا دروعهم وتسلحوا بكامل السلاح ومكثوا ينتظرون باقي اخوانهم فلما طال انتظارهم التفت محمد ابن الملك عمر الى أبيهِ وقال على مَ هذا الانتظار والتكارنة يسلبون اموالنا أمام عيوننا وهم على بعد مئة خطوة منا قال ننتظر اولاد دياب قال محمد أليس فينا الكفاءة لطرد هولاء الخراف من ديارنا حتى ننتظر اولاد دياب قال لهُ ابوهُ دعنا من هذا الحمس الآن فاني أخاف اذا حمي الوطيس انك تأبى القتال وتلجأ الى الفرار فهاجت في محمد حمية الرجال وقال لابيهِ « أأبى القتال وأفرّ منهُ وجدّي الملك نمر وابي الملك عمر وأمي بنت دياب انت الذي تفر منهُ يا ابن البدوية » فدفع الملك عمر حصانهُ وقال لقومهِ « هيَّا بنا على ميقبة وانظروا اليوم قتال ابن البدوية » فكرّ رجالهُ وراءهُ فخرج التكارنة لقتالهم والتحم الفريقان فصار الفارس من السعداب يهاجم جمعاً من التكارنة فيفتك بهم فلما رأى التكارنة كثرة القتل فيهم فزعوا الى تل صغير قرب ميقبة وتحصنوا فيهِ فاحتاط بهم السعداب وكان معهم عشر بنادق فأخذوا يرمونهم بالرصاص حتى كثر القتل فيهم وعطشوا فصاروا ينزلون من التلة ثلة بعد ثلة والسعداب يقبضون عليهم قبض اليد ويسلمونهم الى النساء والنساء

يأخذنهم الى مكان بعيد عن نظر الباقين من اخوتهم على التلة ويقتلنهم بالعصي والنبابيت الى غروب الشمس حتى لم يبقَ على الراية احد فقتلوهم عن آخرهم وكان عددهم نحو ٦٠٠ نفس فغنموا خيولهم واسلحتهم وعادوا الى ميقبة فسكنوها آمنين .

وذهب الملك عمر الى الراس علي فأخبرهُ بما كان واعطاهُ عشر الغنايم على عادتهِ فاكرمهُ الراس علي واهدى اليهِ بعض الجياد . وانتشر خبر هذه الواقعة في جميع اقطار السودان واشتهر باس اولاد الملك نمر فزاد عدد المهاجرين اليهم

﴿ ٨ . رستم باشا سنة ١٢٦٧ : ١٢٦٨ هـ — ١٨٥١ : ١٨٥٢م ﴾

وفي سنة ١٢٦٧ هـ ١٨٥١ م سمّي رستم باشا حاكماً عاماً للسودان فذهب الى ود مدني وعاد منها مريضاً فتوفي في الخرطوم سنة ١٢٦٨هـ ١٨٥٢ م ودفن هناك . وفي مدتهِ حضرت لجنة من مصر للنظر في احوال السودان كان رئيسها ميري بك

﴿ ٩ . اسماعيل باشا ابو جبل سنة ١٢٦٨ : ١٢٦٩ هـ — ١٧٥٢ : ١٨٥٣م ﴾

وفي رمضان سنة ١٢٦٨هـ ١٨٥٢ م حضر الى الخرطوم اسماعيل باشا ابو جبل حكمدارًا على السودان فجال في الجهات الشرقية قليلاً ثم رجع الى الخرطوم وبقي فيها الى ان صدر الامر برجوعهِ الى مصر وكانت مدتهُ قصيرة

﴿ ١٠. سليم باشا سنة ١٢٦٩ : ١٢٧٠ هـ — ١٨٥٣ : ١٨٥٤ م ﴾

وفي شعبان سنة ١٢٦٩ هـ مايو ١٨٥٣ م عُين للسودان سليم باشا فذهب الى الخرطوم على غير ارادتهِ واقام فيها متمارضاً مدة قصيرة ثم ندب الى القاهرة

﴿ ١١. علي باشا سري سنة ١٢٧٠ : ١٢٧١ هـ — ١٨٥٤ : ١٧٤٥ م ﴾

وفي جمادى الاولى سنة ١٢٧٠هـ فبراير ١٨٥٤م وجهت حكمدارية السودان الى علي باشا سري الارناؤطي فذهب الى الخرطوم ولم يخرج منها الا الى سنار ثم عاد الى مصر بعد مدة قصيرة قيل وقد ملأ جيوبهُ من مال البلاد ولاسيما من جزيرة سنار

وفي شوال سنة ١٢٧٠هـ يوليو سنة ١٨٥٤م توفي «عباس باشا» الى رحمة ربهِ . وتولى بعدهُ على مصر « سعيد باشا » ابن محمد علي باشا

سعيد باشا

﴿ ٥١٢ علي باشا شركس سنة ١٢٧١ : ١٢٧٣ هـ — ١٨٥٥ : ١٨٥٧ م ﴾

وفي جمادى الثاني سنة ١٢٧١هـ فبراير ١٨٥٥م وصل الى الخرطوم علي باشا شركس حكمدارًا على السودان

﴿ زيارة عبد الحليم باشا للسودان ﴾ وفي اول مدتهِ ذهب الى السودان عبد الحليم باشا ابن محمد علي باشا زائرًا فأقام في الخرطوم اياماً وانتشر الهوآء الاصفر فامتد الى جميع اقطار السودان ومات بهِ خلق كثير

وممن مات فيهِ من الاعيان الشيخ عبد القادر ابن الشيخ الزين شيخ مشايخ الخرطوم وسنار المتقدم الذكر وكان رجلاً فاضلاً جليلاً سديد الرأي فحضر دفنهُ الحاكم العام ووكيلهُ وجميع وجوه البلاد ٠ وعُين ابنهُ الزبير مكانهُ فخدم في الخرطوم مدة ثم نزل الى مصر فعُين معاوناً في نظارة الداخلية ٠ وتوفي فيهِ الشيخ ياسين شيخ مشايخ مديرية كردفان وهو من الاكابر العظام والشيخ الطريفي ابن الشيخ احمد الريح العركي والفقيه عمر بقادي العالم المشهور وغيرهم

ولما اشتد المرض اشار الحكماء على عبد الحليم بترك الخرطوم فعاد الى مصر

﴿ زيارة سعيد باشا للسودان ﴾ وبعد زوال الوباء ذهب سعيد باشا والي مصر الى السودان لتفقد احوالهِ فوصل الخرطوم في ١٦ يناير سنة ١٨٥٧م فسأَهُ حالهُ واقرّ في بادي الرأي على اخلائهِ ولكن اعيان البلاد ومشايخها توسلوا اليهِ بالحاح ان يعدل عن رأيهِ وقالوا لهُ اذا اخليت البلاد عمت الفوضى لا محالة وربما لحق اذاها مصر فعدل عن رأيهِ وامر بعدة اصلاحات فجعل الخرطوم وجزيرة سنار مديرية واحدة وفصلها عن باقي المديريات وجعل كل مديرية مستقلة عن الاخرى ترجع في احكامها الى مصر ٠ ونظم البوستة بين الخرطوم ومصر فسيَّرها على الهجن بطريق كورسكو ٠ وخفض ضرائب الاطيان والسواقي ومنع الجند من جمعها فأناط ذلك بمشايخ البلاد وقرَّر جمعها بعد الحصاد لا قبلهُ ٠ وامر بعقد نادٍ من الاعيان في الخرطوم كل سنة للنظر في راحة البلاد ٠ وكان عند اول وصولهِ الى بربر اعلن ابطال

تجارة الرقيق التي كانت قد انتشرت في السودان على ما سيجيء ثم انشأ محطة عسكرية على نهر سُبت لمراقبة تجار الرقيق وقطع دابر النخاسين . وعاد الى مصر في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٢٧٣هـ ١٠ ديسمبر ١٨٧٥م . وقد رأى في سفرتهِ هذه شدة لزوم تقريب السودان من مصر وتخفيض مشقة السفر اليهِ فعند عودتهِ الى مصر كلف الموسيو مونجل المهندس الفرنساوي فرسم لهُ خريطة سكة حديد بين حلفا والخرطوم ولكن مالية مصر اذ ذاك لم تسمح باخراج هذا المشروع الى حيّز الفعل . وصحب سعيد باشا في هذه السفرة الدكتور اباته باشا فكتب فيها كتاباً نفيساً

﴿ ١٣ . اراكيل بك سنة ١٢٧٣ : ١٢٧٥ هـ — ١٨٥٧ : ١٨٥٩ م ﴾

وكان سعيد باشا قد استصحب معهُ الى السودان اراكيل بك الارمني الملقب بالفرنساوي فلما نظم المديريات على ما مرَّ عزل علي باشا شركس وعين اراكيل بك مديرًا على الخرطوم فمكث فيها الى ان توفاهُ الله في صفر سنة ١٢٧٥ هـ سبتمبر ١٨٥٩م وقد امتاز بحسن السياسة ولين العريكة قيل ان مشايخ الشكرية وغيرهم انكروا على سعيد باشا تعيينهُ حاكمًا عليهم وهو نصراني على غير دينهم فأبوا مقابلتهُ وجمعوا جموعهم للثورة فركب اراكيل بك هجينهُ وسار وحدهُ حتى اناخ بين ايديهم وقال « ان كنت انا السبب في عصيانكم فها انا الان بين ايديكم فافعلوا بي ما تشاؤون على ان تعودوا الى الولاء اذ يعز عليَّ ان تخرجوا عن طاعة وليّ امركم بسببي » فعجب زعماء الثورة من جرأتهِ وحسن اسلوبهِ وطابت نفوسهم ورجعوا عما عزموا عليهِ وصحبوهُ الى الخرطوم . وكتب اراكيل بك خبر الحادثة الى سعيد باشا في مصر فبعث في طلب زعماء الثورة فأرسل لهُ الشيخ احمد ابا سن شيخ الشكرية والفقيه ابراهيم عبد الدافع صاحب تاريخ سنار المتقدم الذكر فسجنهما بالاسكندرية مدة ثم افرج عنهما وارجعهما الى السودان بعد ان حلفا لهُ يمين الطاعة

﴿ ١٤ . حسن بك سلامه سنة ١٢٧٥ : ١٢٧٨هـ — ١٨٥٩ : ١٨٦٢م ﴾

وفي رجب سنة ١٢٧٥هـ ١٨٥٩م سمي حسن بك سلامه الشركسي مديرًا

على الخرطوم ولكن لم تطل مدتهُ قيل وكان فظ الاخلاق سيء الادارة قليل الخبرة في سياسة البلاد الاّ انهُ كان دَيّنًا كثير الصلوات حسن الاعتقاد عفيف النفس

﴿ ١٥ محمد بك راسخ سنة ١٢٧٨ : ١٢٧٩هـ — ١٨٦٢ : ١٨٦٣م ﴾

وفي محرم سنة ١٢٧٨ هـ يوليو ١٨٦٢م عُزل حسن بك وسُمّي محمد بك راسخ مدير التاكا مديرًا للخرطوم فحضر اليها في شهر صفر وكان يحب الطرب والغناء . ومن مآثره القصر المشهور باسمهِ تجاه سراي الخرطوم

وفي ايامهِ ألغى سعيد باشا النظام الذي سنّهُ عند زيارتهِ للسودان في استقلال المديريات عن الخرطوم ورجوعها في احكامها الى مصر واعاد النظام القديم في جعل الخرطوم مركزًا عامًا للسودان

﴿ ١٦ . موسى باشا حمدي سنة ١٢٧٩ : ١٢٨١هـ — ١٨٦٣ : ١٨٦٥م ﴾

وفي ٤ صفر سنة ١٢٧٩هـ ١ اوغسطوس ١٨٦٣م قدم موسى باشا حمدي حاكمًا عامًا للسودان فجعل مركزهُ الخرطوم وبقي محمد بك راسخ مديرًا فيها وكان لموسى باشا خدمات جمة في اكثر جهات السودان وقد اقمع عدة ثورات محلية في كردوفان وتقلي واسمهُ معروف في البلاد فقابلهُ اهلها بأحتفال عظيم فتلا عليهم الفرمان الناطق بتعيينهِ حاكمًا عامًا على السودان ثم أرسل الى المديرين ومشايخ البلاد واعيانها فعقد معهم مجلسًا وسن قوانين جديدة لجمع الضرائب فأعطى كل فلاح «سركيًا» بيدهِ ليدفع ما جُعل عليهِ من الضرائب على ثلاثة اقساط معينة في السنة وكلما دفع قسطًا قيّد لهُ في «السركي» الذي بيده كما قيد في يومية الصراف وجعل من الاهالي نظار اقسام ومعاونين وأمرهم فلبسوا الملابس العثمانية وبذلك حسنت الحال وسهل تحصيل الاموال

﴿ القلابات والحبشة ﴾ وفي ايامهِ كثر تعدي الاحباش على الحدود ودخل الوف من العربان وفيهم الشيخ احمد ابوجن شيخ عربان رفاعه الشرق في حمايتهم فجهز جيشًا كبيرًا من الجنود المصرية المنظمة والباشبوزق وسار في ٢ جمادى الاخرة سنة ١٢٧٩ هـ ٢٥ نوفمبر ١٨٦٢ م الى بلاد القلابات فأخذ بعض الجيش ودخل

الحبشة فأمتنع الحبش في الجبال فعاد الى القلابات ومعهُ العربان الذين كانوا قد هجروا البلاد فأمنهم وردَّهم ٠ الى بلادهم وشرع في تحصين القلابات فأقام فيها ٥ استحكامات ٥ منيعاً وحصَّنهُ بالمدافع واورطتين من الجهادية وجعل عليهِ آدم بك قومنداناً وضرب على القلابات جزية سنوية قدرها ٢٤٠٠٠ ريال ٠ ثم ارسل جيشاً الى اولاد الملك نمر فاكتسح بلادهم كما سيجيء ٠ وذهب الى التاكا فمكث فيها مدة ثم رجع الى الخرطوم في ٢٢ القعدة سنة ١٢٧٩هـ ١١ مايو ١٦٨٣ م

وكان على التكارنة اذ ذاك الشيخ جمعه ابو ذقن جاء بعد الشيخ احمد ابن الشيخ ميري المار ذكرهُ فقبل الجزية وامتنع عن ادائها الى ملك الحبشة ولكنهُ لم يزل يهدي اليهِ الانسجة والاردية والسروج والساعات والخيل الدنقلاوية بما قيمتهُ اربعة الاف ريال وكان ملك الحبشة يهدي اليهِ الخيل والبغال والبن وغيرها حباً بتعمير سوق القلابات وترويج التجارة بين السودان والحبشة ٠ وضرب الشيخ جمعه الجزية على جميع واردات الحبشة من رقيق وخيل وبقر وحمير وغنم وسن وذهب وشمع وزباد وبن وقمح وعدس وفول وحمص وشعير وسمن وزبدة كما ضرب ملك الحبشة الجزية على واردات السودان في سوق وهناي على ٤ ايام من القلابات

وخلف الشيخ ابو ذقن على التكارنة الشيخ صالح ادريس من مجاوري الازهر الذي كان اماماً لجامع القلابات وكان رجلاً شجاعاً صالحاً محبوباً وقد بقي على التكارنة الى ان كانت الثورة المهدية فكان لهُ مع زعمائها من الشأن ما سنبينهُ ان شاء الله

﴿عود الى اولاد الملك نمر في ميقبة﴾ تقدم ان اولاد الملك نمر ازدادت شهرتهم بعد انتصارهم على تكارنة القلابات وازداد عدد المهاجرين اليهم وكان في جملة هولاء رجل من قبيلة الهنادي القاطنة بمديرية الشرقية بمصر كان سنجقاً في عسكر بربر فعينهُ « ٩ ٠ اسماعيل باشا ابو جبل » على خمسين نفراً وارسلهُ لجمع الضرائب من عربان رفاعه الشرق فأقام على ذلك سنة ونصف سنةٍ الى ان قدم ١١٠ ٠ علي باشا سري » والياً على السودان فعزلهُ وارجعهُ الى بربر ثم لم يلبث ان طلبهُ الى الخرطوم فلبى الطلب ونزل في طريقهِ عند صديق لهُ في شندي يسمى بشير اغا

السنجق فقال لهُ صديقهُ جئت اليوم من الخرطوم فسمعت فيها ان الحكمدار عازم على استرداد المبلغ الذي استوليت عليهِ من الحكومة مدة خدمتك في رفاعه الشرق بحجة ان اسماعيل باشا ابا جبل قد استخدمك بلا وجه مالي اذ لم يكن لك محل في ميزانية السودان. وهذا الحكمدار على ما ظهر لي رجل عاتٍ مستبد لا همَّ لهُ الا جمع المال وانت رجل جليل القدر رفيع المقام فلا يجمل بك ان تعرض نفسك للاهانة والرأي عندي ان تعود الى بربر وتجمع لهُ من المال ما يرضيهِ والا زجك في السجن حتى تدفع الفلس الاخير. فلما سمع ابو رواش مقالة بشيراغا هالهُ الامر وعزم من ساعتهِ على الخروج من ارض الحكومة فرجع الى بربر وجهز رجالهُ وخيولهُ وامتعتهُ وفر الى اولاد الملك نمر في ميقبة ففرحوا بهِ وكان لهم اكبر نصير

وممن لجأ اليهم فرارًا من وجه الحكومة فتقووا بهِ «محمود المحلاوي» وهو تاجر من جعافرة اسنا كان في كسله يتجر في البضائع الاوربية فوقعت القرعة العسكرية عليهِ في مصر فجنَّدهُ مدير كسله والحقهُ بالجهادية ولما كانت سنة ١٢٧٦هـ ١٨٥٩م فرَّ هاربًا الى اولاد الملك نمر وتزوج بنت الشيخ ابي رواش واتحد معهم على الغزوه وقد وجهوا اكثر غزواتهم على الشكرية والضبانية حتى اضطر الشكرية ان يعاهدوهم على جزية سنوية يدفعونها لهم ليأمنوا شرهم ومع ذلك لم يزالوا على التعدي حتى قتل ابو رواش في غزوة غزوا بها سبدرات وبقي المحلاوي الى ان ارسل موسى باشا الغزوة التي مرَّ ذكرها فطلب الامان وعاد الى كسله فحضر ثورة الجهادية فيها كما سيجي.

هذا ويظهر ان الملك عمر واخوتهُ كانوا قد ملّوا عيشة الغزو قبل فرار الشيخ ابي رواش اليهم وحنوا الى وطنهم فبعثوا في طلب الامان من الحكومة للعودة الى السودان وكانت الحكومة تودُّ تأليفهم وحملهم على الطاعة فبعث اليهم المغفور لهُ سعيد باشا بالامان وهاك صورة ما ارسلهُ الى الملك عمر بتاريخ ١٧ محرم سنة ١٢٧١هـ ١٠ اوكتوبر سنة ١٨٥٤ م نمره ٩ سايره :

« قد صدر هذا الفرمان المبعوث بالتشريف والامان الى عمدة أمثالهِ المكرمين

الشيخ عمر ولد نمر اعلم انهُ قد طرق مسامعنا انهاء علي باشا حكمدار السودان انك في حنين الى وطنك وانك على مزيد الرغبة والاشتياق الى الرجعى الى ديارك انت ومن يليك من الاقارب والاتباع عاقدًا نيتك على حصول العمار في محالك و بذل عزيمة صداقتك في اداء الطلبات الميرية لتفوز بجميل التقرب بالمنن البهيـة وانك علقت انتقالك من الغربة الى الوطن على تحصيل هذا الفرمان لتتقلد بهِ شرفًا وتحظى بهِ بالطمان والامان فأقتضت ارادتنا اجابة مسؤلك باصدار هذا اليك ليتم بهِ مرادك وليطرق مسامعنا بعد هذا ثمرات صداقتك واجتهادك وتقابل من لدنا بما يليق بذلك فعليك بجميل السعي في احسن المسالك » اه

وهذه صورة أمر عال صادر الى « علي باشا شركس » الذي خلف « علي باشا سرّي » على السودان مورخ في ٢٩ ربيع اول سنة ١٢٧٢ ه ٩ ديسمبر سنة ١٨٥٥ نمرة ١٣ ومنهُ يعلم سير المفاوضة التي جرت بين اولاد الملك نمر وحكومة السودان بشأن العودة الى اوطانهم :

« قد عرض الينا افادة وردت من سلف حضرتكم رقم ٢٩ صفر سنة ١٢٧٢ نمرة ٥ ومعها مذاكرة أجراها مع الملك حسن وأخيـهِ الملك عماره اولاد الملك نمر بناء على الامان السابق اعطاؤهُ من لدنا اليهم والى أخيهم الملك عمر وأمرنا السابق صدورهُ الى الحكمدارية في ٢٥ ل سنة ١٢٧١ه وقد علم لدينا انهُ صار اعطاؤهم الراحة التامة ونيل ما قصدوه والطمان والامان وذلك انهُ سلم اليهم في اعطائهم كافة اطيانهم واملاكهم .... واما الشيخ الحسن فها هو ناظر على عموم مديرية بربر الان وكذا المتسحبين الذين كانوا معهما ومع أخيهما وسيحضرون شيئًا فشيئًا . وقد اختاروا الاقامة بالمحل المسمى الجيره بين الصوفي والحمران بمديرية الخرطوم لما رأوا ان ارضهُ طيبة للغاية وفي غاية الاتساع وليس لاحد فيهِ ملك وانهُ بنزول الامطار يزرعون بهِ وقد أقام بهِ نحو مائتي نفر ممن حضروا من الحبشة وسيحضر الباقون شيئًا فشيئًا مع أخيهم بجميع تعلقاتهم ويكون استكمال حضورهم واستيطانهم في ذلك المحل في ظرف سنة كاملة او أقل لسهولة تخليص علائقهم من هناك كما تعهدوا .....

واما الاربعماية خيال الراغب الملك عمر ترتيبها ليقيم بها تحت طلب الحكومة فمن كون لحد الان لم يتوطن بمحل اقامته ويجري راحة أهاليه وجماعته وينظر في امر اطيانه واملاكه وتظهر منهُ علامات الصداقة والعمارية فكيف الان يجري ترتيبها. وحيث تبين ان الانفار الذين معهُ نحو الستين حلة تقريباً من خمسة عشر الف نفر وما حضر منهم الا المايتا نفر الذين توطنوا بالجيره وقد تعلقت ارادتنا حصول الامن والامان الى اولاد الملك نمر جميعاً وقرارهم في اوطانهم في غاية الراحة حسبما جبلت عليه مراحمنا من الرأفة والشفقة على العباد واعطاء الرعية ما ينبغي لها وقد سرت عدالتنا باصدار تنبيهات من الحكمدارية برجوع املاكهم واطيانهم اليهم وبكف الحكام ومشايخ الجهات عن التعرض الى اتباعهم فقد اصدرنا هذا لحضرتكم لتباشروا ادخال البشر عليهم ليجمعوا اطرافهم ويستوطنوا بالمحل الذي تخيروهُ وطناً لانفسهم وجماعتهم ويبادروا باجراء ما فيهِ رضانا لينالوا ازدياد الراحة والسلام » اه

ولكن يظهر ان ابا روّاش ثنى عزمهم عن التسليم وتقووا بهِ فعادوا الى سابق بغيهم كما مرّ وبقوا الى ان نقض الراس طرزه أحد كبار الحبشة على الملك ثيودورس فسأل الملك عمر المساعدة بالاسلحة والجبخانة فتوقف عن اعانته خشية الملك ثيودورس فغضب منهُ واغار عليهِ في ميقبة فقتلهُ واكتسح بلادهُ وكان ذلك في اواسط جمادى الاولى سنة ١٢٨٢ هـ اوائل اكتوبر ١٨٦٦ م ففرّ من سلم من الدار وعدتهم نحو الف نفر الى القضارف طالبين العفو والامان من الحكومة فأمنتهم فحضر بعضهم بقيادة اكبرهم عماره الى شندي ومعهُ محمد ابن عمر وعينت الملك عمارة ناظرًا على الجعليين فمات في شندي وبقي البعض الآخر في الصوفي مع خالد ابن الملك عمر الى ان كانت الثورة المهدية فكان من اعزّ انصارها كما سيجي

السر صمويل باكر واكتشاف منابع النيل الابيض سنة ١٨٦٣ : ١٨٦٥م

وفي ايام موسى باشا قدم الى السودان السر صمويل باكر من كبار السياح الانكليز قاصدًا اكتشاف منابع النيل الابيض على نفقته الخاصة . وكانت الجمعية الجغرافية الانكليزية قد ارسلت الرحالتين سبيك وغرانت سنة ١٨٥٨م لاكتشافها

عن طريق زنجبار فاكتشفا بحيرة فكتوريا نيانزه في ٢٨ يوليو سنة ١٨٦٢ وسمياها على اسم ملكتهما كما مرّ في الكلام على النيل . وكان محمد علي باشا قد ارسل بعد فتح سنار عدّة حملات من الخرطوم لاكتشاف منابع النيل الابيض فوصلت آخر حملة سنة ١٨٤١م الى كوندوكرو ولم تتعدَّها بسبب الشلالات التي الى جنوبيها . فأراد السر صمويل باكر بعد سفر سبيك وغرانت عن طريق زنجبار ان يذهب عن طريق الخرطوم ويستطرد الاكتشاف من كوندوكرو بالبر على رجاء ان يلتقي بالرحالتين المذكورين فيكون نجدة لهما ويشاركهما في فخر الاكتشاف . فخرج من الخرطوم في ١٨ دسمبر سنة ١٨٦٢ م بمركبين كبيرين وذهبية ومعهُ ٤٥ رجلاً مسلحين بالبنادق و٥٠ من الخدم والبحارة و٢٩ من الجمال والخيل والحمير ومقدار كبير من الحبوب وبضعة صناديق من اساور النحاس والخرز الملوّن الرائجة هناك بدل العملة كما مرّ . فوصل كوندوكرو في ٢ فبراير سنة ١٨٦٣م وحط رحالهُ واخذ يتأهب للسفر برًّا واذا بالرحالتين سبيك وغرانت قد أقبلا في ١٥ منهُ فأخبراهُ باكتشاف بحيرة فكتوريا وانهُ لم يزل امامهُ بحيرة أخرى ليكتشفها قد اخبرهما الاهلون بها واعطياهُ خارطة سيرهما وجميع ما علماهُ عنها ثم استطردا السفر شمالاً الى اوربا وسار باكر جنوبًا في البر الشرقي بقصد اكتشاف تلك البحيرة حتى أتى عليها في ١٤ مارس سنة ١٨٦٤م بعد معاناة مشقات كثيرة واخطار جمّة ولاسيما بسبب تجار الرقيق الذين كانوا قد انتشروا في تلك البلاد يعيثون فيها كما سيجيء وقد اتاها اولاً من الجنوب ثم جال فيها بمراكب السود فأتى شماليها ورأى مصب النيل الآتي من بحيرة فكتوريا ومخرج النيل الابيض الذاهب شمالاً وسماها ادوارد نيانزه على اسم ولي عهد انكلترا في ذلك الحين . ثم عاد الى كوندوكرو وسار منها بذهبيته ومركبيه حتى وصل الخرطوم في ٣ مايو سنة ١٨٦٥ فأقام فيها الى ٣٠ يونيو وخرج منها في ذلك اليوم الى بربر فسواكن فبلاد الانكليز فوصلها في اوكتوبر سنة ١٨٦٥م

وقد صحبهُ في هذه السفرة امرأتهُ الهمامة الفاضلة فقاسمتهُ مشاقها واخطارها ولطفت محنها واتعابها واعانتهُ على حلّ المشاكل التي عرضت لهُ مع تجار الرقيق حتى



اسماعيل باشا الخديوي الاسبق

انها انجتهُ من خطر القتل مرتين ولولاها ما سلم ولا فاز بالمراد فحبذا المرأة امرأة باكر

وفي ٢٦ رجب سنة ١٢٧٩هـ ١٧ يناير سنة ١٨٦٣م توفي سعيد باشا الى رحمة ربهِ وتولى بعدهُ على مصر « اسماعيل باشا » ثاني انجال ابراهيم باشا فاهتم للسودان اهتماماً عظيماً وقد سرَّ من اعمال موسى باشا فيهِ فانعم عليهِ برتبة فريق فعمل مهرجاناً عظيماً زُينت لهُ البلاد . وفي ٢٣ محرم سنة ١٢٨٠هـ ١٠ يوليو سنة ١٨٦٣م ذهب الى مصر فأدَّى الشكر لاسماعيل باشا على انعامهِ واطلعهُ على حال البلاد وعاد الى الخرطوم فبقي فيها الى ان توفاهُ الله في ٨ شوال سنة ١٢٨١هـ ٦ مارس سنة ١٨٦٥م فدفن هناك . وقد سارت البلاد في ايامهِ على احسن نظام وكان فيها من الجند نحو ٣٠٠٠٠ من نظامية و باشبوزق

﴿ جبال تقلي ﴾ وكان على جبال تقلي في ايام موسى باشا ملك يسمى الملك ناصرًا اشتهر بالقسوة والصرامة في العقاب فكان اذا غضب من شخص وضعهُ عاريًا مكتوفًا على حجر محمى حتى يموت . وقد حكى لي بعض معارفهِ ما دلَّ على تناهيهِ في القسوة الوحشية قال : ان صائغًا من صاغة الابيّض سمع بقسوتهِ وكان يُذيب فضة على النار فلما سالت قال « حق هذا السائل ان يصبَّ في انف الملك ناصر جزاء قسوتهِ وظلمهِ فبلغ الخبر الملك ناصرًا فعزم على الايقاع بهِ واركن الى الحيلة فأرسل اليهِ اربع جوارٍ هدية وسألهُ ان يحضر مع الرسول الى الجبل ليصوغ بعض الحلى لنسائهِ ووعدهُ بمكافأة جليلة فذهب الصائغ فاعطاهُ بعض الفضة والذهب فصاغها لهُ ثم اعطاهُ فضة وسألهُ ان يُسيلها على النار ولما سالت قال لهُ اتذكر انك اشتهيت مرةً في الابيّض ان يصبَّ مثل هذا السائل في انفي فسكت الصائغ وأُلجم لسانهُ فامر بعض العبيد فقيدوهُ ثم اخذ الفضة وصبها في أنفهِ وهي محماة فتورم دماغهُ ومات لساعتهِ . وقد ارسل ولاة السودان الحملات عليهِ قصد اذلالهِ فقصروا عنهُ . وبقي على تمردهِ حتى وقع خلاف بينهُ وبين ابن عمهِ آدم دبالو وكان اهلهُ قد سئموهُ لكثرة ظلمهِ وقسوتهِ فنصروا ابن عمهِ عليهِ ففر بعائلتهِ الى موسى باشا في الخرطوم فأرسلهُ الى اسماعيل باشا بمصر ثم عاد الى السودان فقطن جزيرة معتوق

في بلاد سنار ومات هناك . واما الملك آدم دباله فانهُ بقي على جبال تقلي حتى كانت الثورة المهدية فكان لهُ فيها من الشأن ما نذكرهُ في محلهِ

﴿ حرب العقال ﴾ وفي هذه الاثناء وقع في بادية كردوفان حرب شديدة بين عربان حمر وقائدهم الشيخ مكي ود المنعم وبين عربان الكبابيش وقائدهم الشيخ فضل الله ودسالم اشتهرت بحرب العقال لان كلا الفريقين جمع رجالهُ واولادهُ الى ساحة الحرب وعقل الابل وعوَّل على النصر أو الموت وتقاتلا طويلاً مستقتلين فانتصر الحمر وغنموا نحاس الكبابيش واموالهم . وهذه الحرب بين حمر والكبابيش مع « قتلة القرطاس » بين حمر والمعاليه المار ذكرها في تاريخ دارفور هما اشهر الحروب التي جرت في بادية السودان الغربي الى الآن ولاهلها فيهما اغانٍ مشهورة في مدح الغالب وذم المغلوب

﴿ ١٧ . جعفر باشا صادق ١٢٧١ هـ ١٨٦٥ م ﴾ وكالة عمر فخري بك ﴾

وبعد وفاة موسى باشا قام عمر فخري بك بشؤون الاحكام الى ان حضر جعفر باشا صادق من مصر حكمدارًا للسودان

ثورة الجهادية السود في كسله سنة ١٨٦٥ م

وفي اثناء ذلك ثار الجهادية السود في كسله ثورة ادَّت الى سفك دماء كثيرة واستغرقت عدة اشهر وكان السبب فيها سوء ادارة القواد وتأخر الحكومة عن دفع مرتبات الجند . وتفصيل ذلك على ما رواهُ لي الثقات الذين شهدوا الثورة : انهُ كان في « استحكام » كسله في ذلك الحين الاي فيهِ نحو ٤٠٠٠ من الجهادية السود ومعهم نحو الف نفر من الباشبوزق الاتراك والشايقية وكان المدير على كسله ابراهيم بك ادهم . فلما كان شهر شوال سنة ١٢٨١ هـ مارس ١٨٦٥ م خطر للمدير ان يرسل غزوة على جبال البارية والبازه فأصدر امرهُ لاورطة من الجهادية وبعض الباشبوزق بالتأهب للغزوة وكان قد مضى على الجهادية ستة اشهر لم يقبضوا فيها رواتبهم فرفضوا الامر وقالوا « لا نسافر حتى نقبض المتأخر من رواتبنا » فلما بلغ خطاب افندي قومندان الاورطة قولهم غضب وقال « أ أصبح للعبيد شأن يعصون بهِ الامر فوالله لاسوقنهم

الى الغزوة بالسياط ، . فازداد السود تصلباً وعناداً ولما جاء الميعاد المضروب خرجوا من الاستحكام ووقفوا عند باب سبدرات طابوراً فجمعوا اسلحتهم امامهم كوماً وارسلوا يخبرون خطاب افندي انهم لا ينتقلون من مكانهم حتى يقبضوا رواتبهم بتمامها وان كان لم يزل ينوي تنفيذ امرهُ بالسياط كما قال فليفعل . فجاءهم خطاب افندي على جوادهِ ونادى بهم « سلاح آل » فهجموا عليهِ وأوسعوهُ شتماً وضرباً بالعصي وكان نساؤهم من ورائهم يشجعنهم ويزرغطن لهم فلجأ خطاب افندي الى الفرار واخبر المدير بما كان فاهتم للامر وخشي امتداد الثورة الى الالاي كلهِ وكانت الجبخانة (الذخيرة) بيد ملازم منهم فاخرجها من يدهِ وسلمها الى ضابط من ضباط الباشبوزق الاتراك وجمع التجار المغاربة وأهل البلد فسلحهم وضمهم الى الباشبوزق وفرقهم على ابراج السور

اما العصاة فانهم حملوا سلاحهم وساروا في وجوههم نحو سبدرات وكان خطاب افندي قد وجه اليها بعض العساكر الباشبوزق بمدفعين و٦٠ صندوق جبخانة محملة على ٣٠ جملاً ليتقدموا الغزوة فأدركهم العصاة على الطريق واستولوا على الجبخانة والمدفعين بعد ان فتكوا بالعساكر وضربوا قائدهم السرسواري سعيد اغا ابافلقة فأثخنوهُ وتركوهُ بين حي وميت ونزلوا في سبدرات . فعقد المدير نادياً من الضباط والتجار والاعيان للنظر في امر الاورطة فاقرُّوا على ان يرسلوا اليهم رواتبهم المتاخرة ومداركة الامر بالتي هي احسن حتى تطمئن نفوسهم اولاً ثم ينفذون فيهم رأيهم . وكان في خزينة كسله بعض نقود مودعة امانة فقر رأيهم على اعطائهم اياها حتى يتيسرَّ المال فتردُّ الى محلها . وكان في كسله اذ ذاك الاستاذ السيد الحسن ابن الاستاذ السيد محمد المرغني موسس الطريقة المرغنية في السودان فتكفل بالامر لهُ فحمل النقود وجاء الى سبدرات فوزعها على العصاة على التساوي فاصاب كلا منهم اربعة ريالات ثم عنفهم على مسلكهم وطلب اليهم ان يرجعوا الى كسله فرضوا على ان يكون غير خطاب افندي قومنداناً عليهم فعاد الاستاذ الى كسله وأخبر المدير بما كان فأرسل اليهم عثمان بك قائمقام العساكر ليقودهم ويغزو بهم الجبال فقابلوهُ بالطاعة وساروا معهُ في الغزوة فأقاموا فيها ثلاثة اشهر وعادوا الى كسله

وكان المدير في اثناء ذلك قد كتب الى اللواء حسن باشا في الخرطوم يخبرهُ بما حدث فأرسل حسن باشا الميرالاي علي بك ابو ودان لاستلام قيادة الالاي ثم حضر بنفسهِ على الاثر ومعهُ اسماعيل بك ايوب للنظر في الامر فوصل كسله قبل رجوع الاورطة بشهر . فلما حضرت عقد مجلساً سريًا للنظر في أمرها فاتفق رأيهم على ان يوزعوا العساكر على عربان الهدندوة بحجة جمع الضرائب ثم يأمروا العربان بالقبض عليهم فصدر الامر للاورطة فخرجت الى الميتكناب بقيادة الميرالاي علي بك ابو ودان . ولما كان يوم الاثنين ٧ صفر سنة ١٢٨٢هـ ٢٧ يونيو سنة ١٨٦٥ أمر علي بك ضباط الاورطة وكان اكثرهم من المصريين بالتفرق بين القبائل لجمع الضرائب فادرك العساكر ان في الامر دسيسة فرفضوا السفر ولما اغلظ لهم الضباط في الخطاب هجموا عليهم فقتلوا اكثرهم وانتشروا في البلدة فنهبوها واقبلوا راجعين الى كسله

اما علي بك ابو ودان فانهُ نجا منهم بكل مشقة وخفَّ الى كسله فوصلها قبلهم واخبر اللواء والمدير بما كان فخرجا من منازلهما التي كانت داخل قشلاق (ثكنة) الجهادية ودخلا ديوان المديرية بعائلاتهما واخذا يستعدان لملاقاة العصاة وكان السرسواري سعيد اغا قد شفيت جراحهُ فأمراهُ بالمحافظة على الذخيرة مع عساكرهِ وجمعا الاسلحة من الاورط الثلاثة الباقية في كسله وبدل ان يضعاها في خزينة السلاح وضعاها في القشلاق . وكان الشايقية الباشبوزق مقيمين خارج السور فادخلاهم داخل السور وضماهم الى المغاربة وغيرهم من سكان المدينة وفرقاهم على الابراج وأمراهم بضرب عساكر الاورطة عند وصولها واقاما في برج الحلانقة بين البابين الغربيين . وفي صباح الاربعاء ١٠ صفر سنة ١٢٨٢هـ ٥ يوليو سنة ١٨٦٥ حضرت الاورطة سائرة بالانتظام العسكري فلما شاهداها بهذا الانتظام أمرا بعدم التعرض لها ودخلا ديوان المديرية فتحصنا بهِ فلما اقترب العصاة من باب الجنائن اطلق عليهم البلوكباشي محمد اغا المردلي عيارًا ناريًا على خلاف الامر فقتل منهم شاويشاً وقال هذا ثار ابن عمي الذي قتل يوم الثورة عند سلب الجبخانة ثم اطلق عيارًا ناريًا آخر فقتل اومباشيًا فهاج عساكر الاورطة اذ ذاك ودخلوا القشلاق وكان

فيهِ الضباط المصريون وعدتهم ستة وعشرون فقتلوهم عن آخرهم اما خطاب افندي فبعد ان قتلوهُ وضعوا عليهِ ببيساً وأحرقوهُ بالنار ثم اجتمع عليهم الاورط الثلاثة الباقية وتعصبوا للجنسية ضد الاتراك والعرب وكسروا ابواب الغرف التي وضع فيهِ سلاحهم فاخذوهُ وتحصنوا في القشلاق وفتحوا فيهِ المزاغيل وقطعوا السابلة وانتشر اكثرهم في البيوت ينهبون ويسلبون • وكان السيد حسن المرغني قد ذهب الى سبدرات فأرسل اليهِ المدير يدعوهُ لحضر في ١١ صفر سنة ١٢٨٢ ١ يوليو سنة ١٨٦٥ الى حلة الحلانقة غربي الاستحكام وكتب الى العصاة يسألهم الكف عن الحرب وسلمَّ الكتاب الى احد خلفائهِ فرفعهُ على قصبة ودخل بهِ الاستحكام وهو ينادي جاءكم كتاب السيد الحسن فتلقاهُ العصاة بالقبول وكفوا عن الحرب • ثم دخل الاستاذ فهرعوا اليهِ يقبلون يديهِ وشكوا اليهِ امرهم فوعدهم بالراحة ثم ذهب الى اللوا والمدير وعقد مجلساً للنظر في تسكين الفتنة فقرَّ الرأي المرة الثانية على استخدام العربان للقبض عليهم فجمعوا جموعاً كثيرة من خيالة وقرَّابة من الهدندوة والحلانقة وعرب سبدرات والجادين و بني عامر ووضعوهم في الختمية • ثم ذهب السيد الحسن الى الجهادية وقال لهم قد اتفق الرأي على ان تخرجوا من الاستحكام بجميع امتعتكم وتذهبوا الى حيث تشاؤون فشعر الجهادية ان في الامر مكيدة كالتي كيدت لهم في الميتكناب فابوا ان يخرجوا الا اذا أعطي كل منهم ١٢ طلقة من الجبخانة ليحموا بها انفسهم اذا غُدر بهم فاتفق رأي الجميع على اجابة طلبهم الا سعيد اغا ابو فلقه الموكل في حفظ الجبخانة وصاحب الثار على العصاة كما مر فانهُ رفض هذا الرأي بتاتاً وقال «اني لا اعترف بسلطة احد منكم عليَّ واحسب نفسي مسؤولاً عن الجبخانة من افندينا رأساً» • فاجابهُ المدير واللواء اذا نحن لم نعطهم القدر القليل الذي طلبوهُ من الجبخانة فلا حيلة لنا في القبض عليهم بل نخشى ان يهاجموك فيقتلوك انت ورجالك ويستولون على الجبخانة كلها فبقي ان نختار اهون الشرين ونعطيهم ما سالوه ثم ننظر رأينا فيهم» • قال سعيد اغا «أ أهون الشرَّين تختارون في تسليمكم جبخانة الحكومة الى عصاة خونة تمردوا عليها وقتلوا الجم الغفير من رجالها أفي الدنيا شر اعظم من ان

يظهر رجال العسكرية الجبن امام العبيد اولاد الجواري فيسلموا لهم بمطاليب ما انزل الله بها من سلطان ويعطونهم الجبخانة ليستخدموها في حربهم اليس الاجدر بنا ان ندعوهم الى الطاعة فان أبوا حاربناهم حتى فزنا او متنا مشرفين . ومع ذلك فاختاروا انتم لانفسكم ما تشاؤون اما انا فقد اخترت الموت على التسليم بمطالب هولاء الاجلاف واذا هاجموني في محلي وعجزت عن صدهم فاني اركب برميلاً من البارود واشعل النار في الجبخانة كلها فاقتل نفسي ولا امكّنهم من طلقة واحدة منها »

و بلغ العصاة هـذا القول فتركوا السفر وانقسموا اربع فرق حسب اجناسهم الدنكه والفور والنوبة والمولّدين فتولّى كل فرقة رئيس منهم وانتشروا في البندر ينهبون و يسلبون ونزلت فرقة الدنكه على منزل الحاج احمد ود عجيب وكان فيـهِ مطمورة غلة فقتلوا الحاج احمد المذكور واخاهُ وتقدموا الى باب المطمورة لاخراج الغلة وكان للحاج احمد بنت تسمى آمنة فلما رأت اباها وعمها مقتولين هان عليها الموت فأخذت سيفاً ووقفت في البـاب فصدتهم عن الدخول وقتلت خمسة منهم فتسلقوا السقف ونقبوهُ ونزلوا اليها فقتلوها واخذوا الغلة

وكان المدير قد ارسل يطلب المدد من عمر فخري بك في الخرطوم ورفع فخري بك الخبر الى اسماعيل باشا بمصر فاهتم اسماعيل باشا بالامر حق الاهتمام و بعث بجعفر باشا صادق والياً على السودان فذهب اليهِ عن طريق كورسكو . وجعل جعفر باشا مظهر وكيلاً لهُ وارسلهُ بجيش ومدفعين الى كسله لاخماد الثورة فذهب اليها عن طريق سواكن . وبعث بالاوامر المشددة الى عمر فخري بك ليبادر الى ارسال النجدات من حاميات البلاد الى ان يصل مدد مصر

وكان اول من وصل كسله مدداً ، السرسواري علي كاشف الكردي ومعـهُ ٤٠٠ رجل من الباشبوزق جاءها من القضارف في اواخر يوليو سنة ١٨٦٥م ونزل في ديوان المديرية . وبعد وصولهِ ببضعة ايام خرج احد رجالهِ بجملهِ ليرعاهُ فلقيهُ جماعة من الجهادية السود فسلبوهُ جملهُ وسلاحهُ وجبخانتهُ فعاد الى علي كاشف شاكياً فغضب علي كاشف وضرب طبل الحرب وتهيأ للقتال . وكان السيد الحسن المرغني

لا يزال مقيماً داخل الاستحكام فأتى اليهِ وسكّن غضبهُ وتكفل لهُ بردّ الجمل والسلاح ثم ذهب الى الجهادية وتاطف لهم فردّوا الجمل والسلاح ولكنهم انكروا انهم اخذوا شيئاً من الجبخانة فصمم علي كاشف رأيهُ على استرجاع الجبخانة ولما لم يردوها خرج اليهم ليلاً في ضوء القمر واشعل فيهم النار فقابلوهُ بالمثل ولما ثقل عليهِ الرصاص عاد الى ديوان المديرية وتحصن بهِ . وفي اليوم التالي فتح الجهادية المزاغل في القشلاق والمنازل التي في جوارهِ وصاروا يرمون المارة بالرصاص فقطعوا السابلة وحبسوا الناس في منازلهم مدة ٢٦ يوماً حتى حضر آدم بك من ود مدني فالخرطوم فبربر بمدد من الجنود المنظمة والباشبوزق فكفوا عن الحرب

اما آدم بك فكان من اعظم ضباط الجيش المنظم وقد تربى في مصر ورافق ابرهيم باشا الى بر الشام فاشتهر بالبسالة والدربة وحسن السياسة وكان اسماعيل باشا يعرفه فلما بلغهُ انهُ ندب الى كسلا كتب اليهِ بالتركية بتاريخ غرة جمادى الاول سنة ١٢٨٢هـ ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٦٥م ما مفادهُ :

« عزتلو آدم بك

« ورد لنا في هذا البريد كتاب من عمر فخري بك وكيل الحكمدارية سابقاً بتاريخ ٤ ربيع اول سنة ١٢٨٢هـ ٢٨ يوليو سنة ١٨٦٥م انك وُجهت بنفر من العساكر النظامية والباشبوزق الى كسلا لاخماد الثورة وقد ارسلتُ منذ عشرين يوماً جنداً منظماً ومدفعين بقيادة جعفر باشا مظهر وكيل الحكمدارية لهذه الغاية عينها . على اني اومل انك تتمكن من اخماد الثورة قبل وصولهِ فان عجزت عنها وحدك فاني جازم انكما تقويان عليها معاً . وقد اتصل بي ان افراداً من العصاة يخرجون من الاستحكام الى البلاد يعيثون ويفسدون فتعقب مثل هولاء وجازهم اشد جزاء واذا خرج منهم جماعة كبيرة من مئة نفر الى مئة وخمسين فجرّد عليهم نخبة من فرسان الباشبوزق الذين استصحبتهم من الخرطوم ومن الجند المصرية المنظمة الذين اعتادوا هواء البلاد ليطاردوهم حتى يظفروا بهم قتلى او اسرى اما الاسرى فسلمهم الى جعفر باشا ليفعل فيهم رأيهُ . واني اعلم بسالتك وحسن سياستك منذ كنت مع

المرحوم والدنا في سوريا لحقق امالنا بك وعند انتهاء الثورة احضر الى مصر والسلام»

فلما وصل آدم بك الى كسله انزل جنده خارج السور تجاه الباب الشرقي واخذ بروجيه و بلطجيه وذهب رأساً الى القشلاق حيث اقام العصاة فامر البروجي فضرب « نوبة جمعية ضباط » ولما اجتمع الضباط عليه خاطبهم قائلاً: «يا أولادي ما هذا التمرد والعصيان اللذان جاهرتم بهما ألستم أولاد أفندينا الذي شرفكم بخدمته وأجرى لكم الرزق والخيرات السنين الطوال أيحسن بكم ان تعصوهُ وتنقضوا على حكومتهِ وهو قد عهد اليكم تأييد سلطتهِ في البلاد . نعم انكم مظلومون لعدم اخذكم رواتبكم في أوقاتها ولكم ان ترفعوا اصواتكم بالشكوى ولكنكم خرجتم عن حد الشكوى ووسعتم الخرق . ومع هذا فاني ارجو اصلاح الامر وأخذ العفو لكم من ولي النعم فاذا سألوكم بعد الان فقولوا انا لم نجد ضابطاً عظيماً من ابناء جنسنا نرفع له شكوانا ليبلغها الى وليّ نعمتنا فكان منا ما كان . واريد منكم الان ان تخرجوا خارج السور فتقيموا بين جبل مكرام وجبل كسله حتى يصل اليكم العفو ولا تغتروا بقوتكم وكثرة جموعكم فان « يد الميري طويلة » فها انا قد جئت بجيش من العساكر السود والباشبوزق وجاء قبلي جيش آخر والمدد آت في الطريق من كردوفان وسنار و بر بر ومصر فاذ تماديتم في العصيان فانهم يجتمعون عليكم و يقتلونكم شر قتلة فاقبلوا النصح وسلموا امركم اليّ وانا أدبركم بحكمي ومروتي » . وآدم بك عربي الجنس وابوهُ محمد ضو البيت شيخ عربان دار حامد بكردوفان ولكنهُ كان شديد السمرة جدًا وعارفاً باخلاق السود حتى كان يظن انهُ منهم فاستأنسوا بهِ واطمأنوا لكلامهِ خصوصاً لانه خاطبهم كأب فامتثلوا امرهُ وخرجوا من القشلاق الى المكان الذي عيّنهُ لهم خارج السور

و بعد وصول آدم بك بأربعة ايام حضر الصاري ششمه عبد الله باشا من الخرطوم و بربر ومعهُ ثلاثة ارادي من الباشبوزق فعسكر خارج السور . وعقد اللوا حسن باشا مجلساً في ديوان المديرية مع عبد الله باشا والمدير وآدم بك وسائر الضباط والسناجق للنظر في شأن العصاة فقر رأيهم على تجريدهم من السلاح ووجلوا الامر لآدم بك فسلموهُ سلاحهم عن رضى . ثم عقد الضباط مجلساً آخر للنظر فيما يفعلونهُ

بعد فكان رأي الاكثرية على قتلهم فانكر آدم بك هذا الرأي وقال اني حلفت لهم بشرفي انهُ لا يقع عليهم حكم الا اذا صدقهُ افندينا وعلى هذا سلموني سلاحهم فالان نرفع الامر الى افندينا والذي يأمر بهِ نفعلهُ . فأخذ المجلس برأيهِ ولكنهُ اقرَّ على شد وثاقهم الى ان يأتي الردّ بشأنهم من مصر فامروا عساكر الباشبوزق فركبوا خيولهم واحتاطوا بهم من كل جانب وأخذوا حبالاً من المخازن وشرعوا في تقييدهم وادخالهم في القشلاق جماعة بعد جماعة . وانهم لكذلك اذا يلوكباشي من الباشبوزق اختطف بنتا من يد شاويش من الالاي ليتمكن من تقييدهِ فبكت البنت فسالهُ ابوها ان يتركها وشانها فشتمهُ البلوكباشي ورفسهُ برجلهِ فاخرج سكيناً من كمهِ وطعن البلوكباشي فقتلهُ وهاج السود فامر عبدالله باشا الباشبوزق فاطلقوا الرصاص عليهم فقتلوا اكثرهم وقبضوا على الباقين قبض اليد وزجوهم في السجن

ثم لم يكن الا القليل حتى حضر جعفر باشا مظهر بجندهِ وحقق اسباب الثورة . وكان الصاغ محمد افندي ابا حظلك قد كشف حظهُ في الرمل فقيل لهُ انهُ اذا بقي مع المدير يموت شنقاً فانضم الى العصاة وذلك قبل مجي آدم بك من الخرطوم بيومين فأمر جعفر باشا بشنقهِ فشنق . ثم شنق بعدهُ اليوزباشي بشيراغا السوداني الذي اتحد مع الجهادية بعد رجوعهم من المتكناب . اما الجهادية العصاة الذين سلموا من القتل فقد جعلهم ثلاث فئات فجعل الذين بدأوا بالثورة مع خطاب افندي ثم عصوا في الميتكناب فئة اولى . والذين عصوا بعد رجوع الفئة الاولى من الميتكناب فئة ثانية . والذين كانوا متغيبين في الجهات خارج البندر او الذين كانوا فيهِ ولم يظهروا العصيان فئة ثالثة . فحكم على رجال الفئة الاولى بالاعدام فأوقفوهم وصفوهم على خندق حفروهُ لهم في سفح جبل مكرام وضربوهم بالرصاص فسقطوا في الخندق ثم ردموا الخندق فكان من الردم تل ظاهر . وحكم على رجال الفئة الثانية بالحبس المؤبد مع الاشغال الشاقة فاستخدموهم اولاً في بناء المنازل التي خرّبوها . واما رجال الفئة الثالثة فقد نظم منهم ٣ بلوكات وابقاهم في المديرية . اما ابرهيم بك ادهم المدير فقد توفي قبل وصول جعفر باشا الى كسله بايام قليلة

وكانت وفاتهُ بغتة حتى قيل انهُ شرب سماً ليتخلص من الاهانة والعقاب . وتوفي بعدهُ عبدالله باشا . ثم عثمان بك . وكان اللواء حسن باشا قد اصيب بالاسهال قبل وصول جعفر باشا الى كسله فتوفي بعد وصوله بايام قليلة

وهكذا انتهت ثورة الجهادية السود في كسله بعد ان جرَّت الخراب على اهلها وضاع فيها الكثير من النفوس والاموال . ولم تكتفِ بهذا بل جرَّت وراءها ذيلاً اي حمى وبائية نجمت عن فساد الهواء لكثرة القتلى فمات بها خلق كثير

﴿ ١٨ . جعفر باشا مظهر سنة ١٢٨٢ : ١٢٨٧ هـ — ١٨٦٦ : ١٨٧١ م ﴾

اما جعفر باشا مظهر فانهُ بعد ان هدأ الثورة في كسله اقام حسن بك مديرًا عليها وتوجه الى الخرطوم وذهب آدم بك الى مصر طوعاً للامر فأنعم عليهِ اسماعيل باشا برتبة اللوا و بالنيشان المجيدي الثاني وسمى جعفر باشا مظهر حاكماً عاماً للسودان فعاد جعفر باشا صادق مريضاً الى مصر ودخل مظهر باشا الخرطوم في ١٧ شوال سنة ١٢٨٢هـ ٥ مارس ١٨٦٦ وثاني يوم دخولهِ قري الفرمان العالي بحضور جمع حافل من العلماء وارباب المناصب والاعيان و بعد قراءتهِ دخل الناس للسلام عليهِ وكان هناك شاهين باشا الذي حضر بالنيابة عن اسماعيل باشا لتنظيم مالية السودان فعرَّفهُ بجميع الداخلين عليهِ فخلع على العلماء والوجهاء احسن الخلع . وجعل علي بك فضلي وكيلاً لهُ . ثم جمع العساكر السودانية من التاكا وود مدني وكردوفان وغيرها وارسلهم الى مصر وأتى بعساكر مصرية عوضاً عنهم

وكان عند قدومهِ الى الخرطوم قد حدث غلاء واشتد حتى هاج الناس فارسل بعض التجار بنقود من الخزينة الى الجهات فأتوا بالغلال فرخصت حتى صار ربع الذرة بغرش بعد ان كان بخمسة غروش

وفي اواخر سنة ١٨٦٦ م ذهب الى سنار وفازوغلي وكردوفان فاستطلع احوالها ثم عاد الى الخرطوم فطلب من مصر ردَّ العساكر السودانية الى السودان

وفي هذه السنة اي سنة ١٨٦٦م تخلت الدولة العلية عن سواكن ومصوع الى

الحكومة المصرية بزيادة « ١٦٠٠٠ جنيه مصري » على جزيتها السنوية

وفي ١٦ الحجة سنة ١٢٨٣هـ ٢١ ابريل سنة ١٨٦٧م ذهب جعفر باشا الى مصر بطلب من اسماعيل باشا فأرسل بمهمة الى جهة البحر الاحمر و بعد قضائها رجع الى مصر فوصلها في غرة رجب سنة ١٢٨٥هـ ١٨ اكتوبر سنة ١٨٦٨م وحال وصولهِ ارجع معظم العساكر المصرية الى مصر

وفي سنة ١٨٦٩م قام من الخرطوم رجل يسمى البلالي بحملة صغيرة لاحتلال بحر الغزال وحضر السر صموئيل باكر مكتشف بحيرة البرت نيانزه بحملة من مصر لاحتلال خط الاستواء وذلك لضم هذين البلادين الى حكومة السودان ومنع تجارة الرقيق التي كانت قد عمت تلك البلاد وسائر بلاد السودان وقبل الشروع في ذكر هذين الحملتين اذكر طرفاً من تاريخ تجارة الرقيق على سبيل التوطئة فاقول :

تجارة الرقيق في السودان

الاسترقاق قديم في الناس ظهر فيهم في كل زمان ومكان واصلهُ الفطرة التي جُبل عليها الاحياء من استعباد القوي للضعيف . واول ما ظهر استرقاق الناس في أسرى الحرب فكان الظافر يجعل اسراهُ في خدمتهِ حتى يُفتدوا بالمال والاَّ ابقاهم عبيدًا عندهُ الى الممات . وهذا في السود والبيض على حدّ سواء وكلامنا الآن في السود فقد مرّ بنا كيف كان الفراعنة من اول عهد التاريخ يغزونهم ويعودون منهم بالاسرى فينظمونهم في جيشهم او يدخلونهم في خدمة بيوتهم واقتفى اثرهم اليونان ثم الرومان ثم العرب المسلمون الذين ملكوا مصر على التوالي . ثم كان كلما هاجر قوم من مصر او اسيا الى السودان يزحزح السود عن اماكنهم جنوباً ليفسح لنفسهِ مكاناً طيباً يقيم فيهِ حتى اضطر السود الى الاعتصام بالجبال الصعبة ومستنقعات النيل الاعلى . ولما افتتح العرب المسلمون السودان واسسوا فيهِ الممالك اشتد الخطب على السود ولم يعد لهم في بلادهم راحة لان العرب لم ينفكّوا عن غزوهم وسبيهم كلما سنحت لهم فرصة وربما اركن بعضهم الى الحيلة والغدر فحالف ملكاً من ملوك السود وتعلم لغتهُ وتزوج من بناتهِ ثم تسنَّت لهُ الفرصة فاختطف النساء والاولاد وعاد الى بلادهِ .

وبذلك كثر السود عند عرب السودان حتى صار احقر العرب يملك رقيقاً وزاد الرقيق عن حاجتهم فصاروا يتجرون بهِ في مصر والحجاز وتفرع من هذين البلادين الى سورية وتركيا والفرس وسائر بلاد المشرق واصبح الاتجار بالرقيق في السودان مهنة من اعظم المهن

﴿ البحارة ﴾ وكان اهل السودان الى هذا العهد يحاربون بالحراب والسيوف والنشاب ولم يستعملوا البارود الاّ نادرًا فلما كان الفتح المصري ودخلت جنود مصر باسلحتها النارية الى السودان كثر استعمال البارود فيهِ وصار العربي الواحد يرهب ببندقيتهِ رهطاً من السود فسهل على العرب غزوهم بل اصبح غزو السود وصيدهم صناعة لكثيرين منهم يتعيشون بها ويجمعون منها الاموال الطائلة . وقد توغل صياد الرقيق في النيل الابيض حتى وصلوا الى اعاليهِ وملأوا بلاد بحر الغزال وخط الاستواء. قيل وكان اول من دخل بحر الغزال بعد الفتح المصري تاجر من الخرطوم يسمى الحبشي دخلها سنة ١٨٥٤م في قارب صغير ثم اقتفى اثرهُ الكثير من التجار واشهرهم السيد احمد العقاد من مصر وعلي ابو عموري من صعيد مصر ومحجوب البصيلي من اسنا وغطاس القبطي وكوشوك علي التركي وادريس ابتر الدنقلاوي وغيرهم . وكانوا في بادي الرأي يتجرون بالعاج والريش واللاستك ثم وجدوا ان الرقيق اربح لهم وصيدهُ سهل فانعكفوا عليهِ وجنَّدوا لهُ العصائب . وكان التاجر منهم يأتي بعصابتهِ بلدًا من بلاد السود فيحفر خندقاً يضع داخلهُ بضائعهُ واسلحتهُ ورجالهُ ويحيطهُ بزريبة من شوك ثم يشرع في جمع السن والريش مقايضة بالخرز والحراب والاساور وغيرها من الاشياء المرغوبة في تلك الجهات ويخزن ما يجمعهُ منها في زريبتهِ ويبقى على ذلك الى ان يلقى فرصة في ذلك البلد فيهاجم اهلهُ ببنادقهِ . وكان السود اذا سمعوا صوت البنادق فرُّوا كالانعام مملوئين رعباً وخوفاً فيغنم التاجر ويسبي ويعود الى زريبتهِ . ومما جرأ التجار على مثل هذه الفعال انشقاق ملوك السود بعضهم على بعض فكانوا اذا هاجموا ملكاً منهم لم يخشوا انتصار جيرانهِ لهُ بل ربما استنصروا جيرانهُ عليهِ . وكانوا يقيدون اسراهم بقيود من حديد ويسوقونهم الى زرائبهم سوق

الانعام حتى لقد يموت كثير منهم في الطريق وعند وصولهم الى الزرائب ينتقون اقواهم بدناً واخفهم حركة واثبتهم جناناً فيضمونهم الى عصابتهم ويدفعون الباقي مع السن والريش الى النخاسين . وقد عرف هولاء التجار « بالبحارة » لانهم كانوا يغزون في البحر الابيض

« النهاضة » واما الذين كانوا يغزون الجبال كجبال النوبة وجبال فازوغلي فقد عُرفوا بالنهاضة . حدثني بعض زعماء النهاضة في جبال النوبة عن كيفية غزوهم تلك الجبال قال : كنا لا ننهض للغزو الا في اوان الزرع اذ يترك السود جبالهم وينزلون الى السهول لزرع الحبوب فيستصحب كل منا نفراً من المشاة المسلحين بالبنادق وكتيبة من الفرسان البقارة المجاورين لتلك الجبال فيردف كل فارس معهُ رجلاً ويسير الفرسان في مقدمة المشاة حتى اذا ظفروا بجماعة من السود اغاروا عليهم بخيلهم ونزل الرّداف عن الخيل فشدوا وثاقهم وساقوهم امامهم وانقلب الكل راجعين فاذا فزع السود من الجبال تصدَّى لهم المشاة وفتحوا عليهم افواه البنادق وردوهم على اعقابهم خاسرين واقتسموا الرقيق فيما بينهم النصف للفرسان والنصف الباقي نصفهُ للزعيم ونصفهُ للمشاة ومصير الكل اسواق الرقيق

واشهر اسواق الرقيق في ذلك العهد اسواق الابيّض وفاشودة والقلابات التي كان يرد اليها الرقيق من دارفور وجبال النوبة وبحر الغزال وخط الاستواء والحبشة وكان النخاسون يشترونهم من هذه الاسواق ويبيعونهم في اسواق الخرطوم والمسلمية وود مدني وسنار والقضارف وكسله وبربر وشندي ويرسلون ما زاد عن حاجة البلاد الى الحجاز ومصر عن طريق النيل والبحر الاحمر

اما اثمان الرقيق فتختلف من الريال الواحد الى الخمسماية ريال وذلك باختلاف اجناسهم واعمارهم وبنيتهم وبعدهم عن منبعهم الاصلي . وثمن الانثى اعظم من ثمن الذكر . واعزّ الرقيق رقيق الحبشة ثم رقيق الدنكا ثم النوبة ثم الفور وادناها رقيق الشلك

وشرُّ ما انتجتهُ هذه التجارة المعيبة خصي العبيد الذكور بطريقة تقشعر لها الابدان وهم ينتقون للخصي اقوى الصبيان واصحهم بنية من سن ٦ : ١٢ فما يبلغ هؤلاء المساكين سن الرشد حتى يظهر تأثير تلك القسوة البربرية على وجوههم

فتغور عيونهم وترتفع عظام وجوههم ويجرّد منها اللحم ويضؤلون حتى يصيروا اشبه بالهياكل منهم بالناس

وقد تنبهت الدول الى هذه التجارة المعيبة منذ عهد بعيد وسعت في ابطالها وكانت الدولة الانكليزية اول من تنبه لها فألفت جمعية في مدينة لندن سنة ١٧٨٧ م ثم شاركتها باقي الدول دولة بعد دولة حتى تمَّ اتفاقها كلها على ذلك بصورة قطعية في مؤتمر بروكسل في ٢ يوليو سنة ١٨٩٠ م

اما مصر فانها لم تشارك الدول في ابطالها حتى توفقت الى حكم العائلة المحمدية العلوية فنادى محمد علي باشا بابطالها على رؤوس الاشهاد عند زيارتهِ السودان سنة ١٨٣٩م وكذلك فعل سعيد باشا عند زيارتهِ السودان سنة ١٨٥٨ م كما مرَّ . ولما تبوأ اسماعيل باشا الاريكة الخديوية سنة ١٨٦٣م اصدر اوامرهُ المشددة الى موسى باشا والى السودان فتعقب تجار الرقيق وفي تلك السنة عينها القى القبض على سبعين مركباً مشحونة بالارقاء بين كاكا وفاشوده وأتى بهم الى الخرطوم ثم احضر ملك الشلك من فاشوده فسلمهُ الرقيق الذي أخذ من بلادهِ وارجعهُ بالهدايا ووزع الباقين على التجار والموظفين لتربيتهم . واما التجار فانهُ زجهم في السجن ولم يخرجهم منهُ حتى تعهدوا بعدم العودة الى مثل هذه التجارة

احتلال فاشوده سنة ١٨٦٥م

وفي سنة ١٨٦٥م اي في ايام جعفر باشا صادق احتلت العساكر المصرية فاشوده احتلالاً رسمياً فسدت طريق النيل الابيض في وجه اصحاب الزرائب في بحر الغزال وخط الاستواء . وكان التجار الاوربيون قد باعوا زرائبهم الى وكلائهم العرب سنة ١٨٦٠م فوضع جعفر باشا الضرائب على الزرائب ثم احتكرها السيد احمد العقاد شريك السيد موسى العقاد من الحكومة بخمسة الاف جنيه في السنة على ان لا يتجر بالرقيق ولا يغزو بلاد العبيد ومع ذلك لم يزل رجالهُ يتجرون بالرقيق ويغزون العبيد وأصبحت بلاد خط الاستواء وبحر الغزال فوضى واهلها بغاية الضيق والشدة .



السر صموئيل باكر



اللادي باكر



السر صموئيل باكر بلباسهِ الرسمي

فرأت الحكومة انهُ لا يمكن اصلاح الحال وابطال تجارة الرقيق الا اذا ضمت بلاد بحر الغزال وخط الاستواء الى السودان فعوَّلت على ذلك وبادرت الى تنفيذه

فتح خط الاستواء • والسر صموئيل باكر سنة ١٨٦٩ : ١٨٧٣م

ولما كانت سنة ١٨٦٩ م انتدب اسماعيل باشا السر صموئيل باكر مكتشف بحيرة البرت نيانزة لفتح خط الاستواء فانعم عليهِ برتبة فريق مع لقب باشا وعقد لهُ على جيش مؤلف من ١٧٠٠ رجل هذا تفصيلهُ : ٧١٠ من المشاة المصريين و ٥٠٠ من المشاة السودانيين و ٢٠٠ من الباشبوزق و ٢٩٠ من الطوبجية المصريين ومعهم ٣ بطاريات مدافع جبلية و بطارية ساروخ وسماهُ حاكمًا على البلاد الاستوائية لمدة اربع سنين تبتدئ من ١ ابريل سنة ١٨٦٩ م براتب قدرهُ ١٠٠٠٠ جنيه في السنة واعطاهُ فرمانًا يولجهُ فيهِ افتتاح تلك البلاد وابطال تجارة الرقيق فيها وتأسيس نقط عسكرية قوية من كوندوكرو الى البحيرات وادخال السفن في نيلها وتنشيط زراعتها

فقام باكر ومعهُ امرأتهُ من السويس في ٥ ديسمبر سنة ١٨٦٩ وجاء الخرطوم عن طريق سواكن وبربر فوصلها بعد سفر ٣٢ يومًا وفي السابع من شهر فبراير سنة ١٨٧٠ قام بثلاثين مركبًا من الخرطوم قاصدًا بلاد خط الاستواء فمنعهُ السد عن استمرار السير فنزل قرب ملتقى نهر سيت بالنيل الابيض وبنى محطة دعاها بالتوفيقية على اسم ولي العهد واقام فيها سبعة اشهر ثم فتح طريقًا في بحر الزراف وسار الى كوندوكرو فوصلها في ٢١ ابريل سنة ١٨٧١ فوجد فيها كنيسة المرسلين النمساويين • وفي ٢٦ مايو سنة ١٨٧١ رفع عليها العلم المصري وسماها بالاسماعيلية على اسم الخديوي وجعلها مركزًا لحكومته

وكانت بلاد خط الاستواء لا تزال مأجورة للسيد احمد العقاد في الخرطوم فألحق بباكر باشا صهرهُ وابن اختهِ ابا السعود العقاد للنظر في صالح تجارتهِ فلم يتفق مع باكر وفي ٢٣ يناير سنة ١٨٧٢ سار باكر ببعض الجند من كوندوكرو جنوبًا فأسس

نقطة في الابراهيمية قرب الدّفلاي وظن انها تكون عاصمة البلاد فيما بعد . ونقطة في فاتيكو ونقطة في فوَيرة . ثم تقدم منها الى بلاد يونيورو فخلع ملكها كبريقه لانهُ لم يخضع لهُ وولّى بدلهُ مزاحماً لهُ يُدعى ريونجه . وفي ١٤ مايو سنة ١٨٧٢ أعلن ضم بلاد يونيورو الى الحكومة الخديوية رسمياً واسس نقطة عسكرية في عاصمتها مسندي وهي على ٥٠ ميلاً من البرت نيانزه . وعقد شروطاً ودّية مع متاسي ملك اوغنده وبذلك تدرَّج الى بسط نفوذ الحكومة المصرية من سبت الى بحيرة فكتوريا نيانزه . لكن هذا النفوذ لم يدم طويلاً في يونيورو فان كبريقه الذي خلعهُ باكر جمع جموعهُ وهاجمهُ في مسندي ولم يكن مع باكر الا مئة رجل فاخلاها مضطراً في ١٤ يونيو سنة ١٨٧٢ وعاد الى فاتيكو فوجد فيها ابا السعود ومعهُ ٢٧٠ رجلاً فطردهُ منها فعاد شاكياً الى الخرطوم ثم الى مصر

وعاد باكر باشا الى كوندوكرو فوصلها في ١ ابريل سنة ١٨٧٣ اي يوم نهاية مدتهِ على خط الاستواء. فترك رؤوف بك قومنداناً على العساكر في كوندوكرو وقام في ٢٦ مايو سنة ١٨٧٣ الى الخرطوم ومنها الى مصر فوصلها في ٢٤ اوغسطوس سنة ١٨٧٣ واستعفى من وظيفتهِ فقبل استعفاؤهُ

الكولونل غوردون في خط الاستواء سنة ١٨٧٤ : ١٨٧٦

وبعد استعفاء باكر باشا من خط الاستواء أوصى ولي عهد انكلترا اسماعيل باشا بأن يكون الكولونل غوردون في مكانهِ وكان اسماعيل باشا يودُّ بقاء تلك البلاد لمصر فأمر بتعيينهِ ولقد كان لغوردون اعظم الشان في السودان بل كانت منيتهُ فيهِ ولذلك نأتي على خلاصة تاريخهِ لهذا العهد فنقول : ولد غوردون في مدينة ولوتش ببلاد الانكليز سنة ١٨٣٣م وانتظم في سلك العسكرية سنة ١٨٥٢م وكان ميالاً بالطبع الى لقاء الاهوال والصبر على المكاره مما اتصل اليهِ بالارث من آبائهِ واجدادهِ فان ابا جدهِ اشتهر بالبسالة والبأس في الحروب الاسكوتلاندية . وشهد جدُّهُ مواقع عظيمة واخطار هائلة . وكان ابوهُ ضابطاً في الطوبجية الانكليزية فارتقى فيها الى رتبة فريق . وحضر غوردون حصار سيستبول سنة ١٨٥٥م فشهد لهُ

بالدربة والاقدام . وفي سنة ١٨٦٠م سافر الى الصين ودخل الجيش فواقع عدة وقائع دلت على شجاعتهِ وتمام براعتهِ في الفنون العسكرية فنال من سلطان الصين لقب صاري عسكر . وفي سنة ١٨٦٥م عاد الى الجيش الانكليزي فرُقي فيهِ الى رتبة كولونل وبقي في بلاد الانكليز الى ان سُمّي حاكمًا للبلاد الاستوائية سنة ١٨٧٤م كما مرَّ

وهذه هي صورة الفرمان الذي اصدرهُ لهُ اسماعيل باشا بتاريخ ٢ محرم سنة ١٢٩١هـ ١٩ فبراير سنة ١٨٧٤م نمرة ٩١ سايره :

« انهُ بحسب المشهور فيكم من اللياقة والاهلية قد عيناكم مأمورًا على جهات خط الاستواء التابعة الحكومة وصار فرز هذه الجهة من تبعية حكمدارية السودان وصارت قائمة بنفسها غير تابعة الحكمدارية انما كافة لوازماتها التي يقتضي الحال لتداركها من طرف الحكمدارية هذه يجري تداركها بمعرفة الحكمدار وصرف ثمنها من طرفهِ مقابلة محاسبة المالية بذلك كما امرنا الحكمدار المومى اليهِ بأمرنا الصادر لهُ في تاريخهِ ومرسول لكم طي هذا لتوصيله اليهِ عن يدكم . وبما ان امور التجارة في ذاك الطرف هي يد واحدة يقتضي ان الذي يتحصلوا عليهِ من تلك الجهات من انواع التجارة بعد صرف كفاية مرتبات العساكر والتعينات ترسلوه الى حكمدار السودان لقبولهِ من اصل ما يصرفهُ في أثمان اللوازمات التي تطلبوها منهُ وعند وصولكم الان لتلك الجهات واختباركم احوالها تجروا ترتيبها بحسبما يترآءى لكم وتستحسنوهُ سواء كان باجعال مديريتين أو اجعال اقسام او نحو ذلك مما يتوصل بهِ انتظام الجهات المذكورة واستعدادها مع معاملة أهاليها بالرفق ولين الجانب والتأليف والمراعاة لما فيهِ عماريتهم وترغيبهم وتشويقهم على العمارية ودخولهم في سلك الانسانية شيئًا فشيئًا وهكذا مما يلزم اجروه على حسب التعليمات التي اعطيت لكم بالفرنساوي وها هو موجود هناك رؤوف بك قومندان العساكر الموجودة بذاك الطرف وتحرر لهُ أمر من طرفنا ومرسول طيه لتوصيلهُ لهُ بمعرفتكم وأمرناهُ بهِ ان يكون هو والعساكر تحت امركم فيما يجب اجراهُ في صالح المصلحة ولو ان المومى اليهِ ومن معهُ

من العساكر صار لهم مدة زايدة في تلك الجهات ولذلك منظور في ارسال خلافهم من هذا الطرق لتغييرهم لكنهُ في مسافة ارسال البدل يكون المومى اليهِ والعساكر منقادين لاوامركم حسب اصول وقوانين الجهادية . وعلى هذا وما هو منظور لنا فيكم من حسن الغيرة والاهلية مؤملين الاستحصال على ما فيهِ عمارية جهات خط الاستواء المحكى عنها وراحة اهاليها وحسن توطينهم وتأليفهم على الدخول في سلك الانسانية شيئاً فشيئاً كما هو مطلوبنا

حاشية . انهُ بعد توجهكم ووصولكم ذلك الطرف تعملوا الترتيب اللازم عن مصاريف تلك الجهة بحسبما يلزم لها من الخدمة والعساكر وكلما يلزم تداركهُ وارسالهُ من جهات الحكمدارية على حسب الترتيب المذكور تطلبوهُ من الحكمدارية وتعينوا لهُ الاوقات والمواعيد اللازم تدارك وارسال اللوازمات المذكورة فيها بحيث اذا كانت الايرادات على فرض لا تكفي المصروفات فالحكمدار يرسل لكم كلما تطلبوه ويحاسب ديوان المالية بذلك يكون معلوم » اه

وسار غوردون من مصر القاهرة ومعهُ نفر من الموظفين والاتباع في ٢١ فبراير سنة ١٨٧٤ فأخذ من الخرطوم بعض الجند وفي جملتهم ابرهيم افندي فوزي (ابرهيم باشا فوزي الان) وتوجه الى خط الاستواء فوصل كوندوكرو في ١٥ ابريل سنة ١٨٧٤م فقابلهُ رؤوف بك بالاحتفاء فابقاهُ عندهُ بضعة اشهر ثم ارسلهُ الى مصر فسمي حاكماً على هرر كما سيجيء

وكان غوردون قد صادف ابا السعود في مصر فأخذهُ معهُ الى خط الاستواء وجعلهُ في خدمتهِ مع نفر من تجار الرقيق ليمنعهم عن الاتجار بالرقيق من جهةٍ ويستعين بهم على تعقب تجار الرقيق من جهة أخرى . فبعد وصولهِ الى كوندوكرو بشهرين اكتشف ثلاث زرائب لتجار الرقيق على بحر الزراف فهدم الزرائب وأعتق الارقاء الذين وجدهم فيها. ولكن اباالسعود وارفاقهُ لم يصدقوهُ الى النهاية فعزلهم جميعاً وكان اكثرهم جعليين ودناقلة . وفي ١١ سبتمبر سنة ١٨٧٤م جاءهُ ٢٥ رئيساً من رؤساء السود وقدموا لهُ الطاعة وشكروهُ على مطاردتهِ تجار الرقيق في بلادهم . وفي الشهر

التالي ضبط يوسف بك مدير فاشودة زمرة من النخاسين ومعهم ١٦٠٠ رقيق و١٩٠٠ راس بقر أتوا بهم من بحر الزراف

ورأى غوردون ان هواء كوندوكرو غير صحي فنقل مركز حكومتهِ الى اللادو وذلك في ٢١ نوفمبر سنة ١٨٧٤م ٠ وقد امتدت حكومتهُ من ملتقى نهر سُبَت بالنيل الابيض الى بحيرة فيكتوريا نيانزه ٠ وكان اهمّ ما اشتغل بهِ تأسيس نقط عسكرية قوية على النيل لاجل حماية البلاد من تجار الرقيق وحفظ النظام والامن فلم تأتِ سنة ١٨٧٤ حتى كان قد اسس عشر نقط وهي سُبت والناصر على نهر سبت وشامبه ومكركه وبور واللاتوكه واللادو والرجاف والدفلاي وفاتيكو وفويره على النيل الابيض وجعل فيها ٦٤٠ من العساكر السودانية و١٥٠ من العساكر المصرية و٦٥٠ من الباشبوزق الدناقلة والجعليين ٠ وبعد ذلك اسس نقطة في مرولي على نيل فكتوريا ونظم في جيشهِ عددًا كبيرًا من الارقاء الذين حررهم من الزرائب

وكان باكر باشا قد احضر وابورين قطعاً من مصر بقصد بنائهما وتنشيط الملاحة في البحيرات ولكن انقضت مدتهُ ولم يتمكن من بنائهما فلما تمّ لغوردون تأسيس النقط العسكرية حمل قطع الوابورين في البر الى جنوبي شلال الفوله قرب الدفلاي وبناهما هناك وسمى الكبير منهما الخديوي والصغير نيانزه فبقيا بين الدفلاي وبحيرة البرت نيانزة الى قيام الثورة المهدية كما سيجيء

وكان ممن صحبوا غوردون الى خط الاستواء او انضموا اليهِ بعد ذهابهِ : الكولونل لونغ من ضباط الاميركان العظام في الجيش المصري والدكتور امين وجسّي والكولونل بروت وعبد العزيز بك ابن لينان باشا

وكان للدكتور امين وجسي اكبر شأن في تاريخ خط الاستواء وبحر الغزال لذلك نقتطف هنا نتفاً من بدءِ سيرتهما قبل الشروع في ما كان من تاريخهما هناك ٠

اما الدكتور امين فاسمهُ الاصلي ادوارد شنيتزر وقد وُلد في ٢٨ مارس سنة ١٨٤٠م في مدينة اوبلن من اعمال سيليسيا ببروسيا وتلقى العلوم في فينا وباريس ونال شهادة دكتور في الطب ثم دخل في خدمة الدولة العلية في اسكودار وبقي الى ان

سمّي غوردون حاكماً على خط الاستواء . وكان الدكتور امين يعرفهُ فذهب الى الخرطوم واستأذنهُ في السفر اليهِ فأذن لهُ وحال وصولهِ اعطاهُ لقب بك وسماهُ حاكماً على اللادو

اما جسي فهو ضابط ايطالي شديد العارضة قوي الارادة وقد رافق الجيش الانكليزي الى حرب القرم بصفة مترجم ثم انضم الى غوردون باشا في خط الاستواء

وقد استعان غوردون بهؤلاء الضباط على درس البلاد وتمهيدها فانهُ عند وصولهِ الى كوندوكرو أرسل الكولونل لونغ الى ملك يونيورو لكشف خبرهِ فوجد جميع المتشردين من تجار الرقيق قد اجتمعوا اليهِ وهو لم يزل على العصيان فتركهُ وشأنهُ وذهب الى متاسي ملك اوغنده فوجدهُ لم يزل على الولاء . وعاد بالخبر الى غوردون فأرسل غوردون امين بك الى الملك متاسي للمحافظة على مودَّتهِ . وأرسل جسي الى بلاد بحر الغزال لكشف خبرها ولما عاد ارسلهُ بمركبين الى بحيرة البرت لاستطلاع حالها وحال القبائل المقيمين فيها وذلك في مارس سنة ١٨٧٦ فطاف البحيرة وقضى في طوافهِ تسعة ايام فوجد طولها ١٤٠ ميلاً وعرضها ٥٠ ميلاً ووجد القبائل القاطنة حولها معادية للحكومة

اما عبد العزيز بك لينان فانهُ قُتل في ثورة اثارها السود على العساكر وهم ينقلون قطع الوابورين المار ذكرهما الى الدفلاي فأخذ غوردون بثارهِ

وبقي غوردون مجدًّا في تنظيم البلاد واصلاح شؤونها بلا مساعدة مصر الى سنة ١٨٧٦م فاستعفى وعاد الى مصر ومنها الى بلاد الانكليز تاركاً الكولونل بروت من اركان حربهِ وكيلاً على خط الاستواء . ثم ذهب الكولونل بروت فناب عنهُ امين بك فبقي الى ايام الثورة المهدية على ما سيجي‌ء

وكان في جملة من شهد اعمال غوردون في خط الاستواء ابرهيم باشا فوزي الذي صحبهُ من الخرطوم كما مرَّ وعاد معهُ الى مصر وقد بين ذلك تفصيلاً في كتابهِ « السودان بين غوردون وكتشنر » الذي نشرهُ بعد نجاتهِ من أسر التعايشي

هذا ما كان من احتلال خط الاستواء وحكم السر صمويل باكر وغوردون باشا فيهِ وانرجع الآن الى ولاة الخرطوم وما كان في ايامهم من الحوادث

﴿ عود الى ولاية ١٨ · جعفر باشا مظهر ﴾

تركنا الخرطوم في ولاية جعفر باشا مظهر سنة ١٨٦٩ م ودام حكمهُ عليها محمودًا الى ٢ جمادى الاولى سنة ١٢٨٨هـ ٢٠ يوليو سنة ١٨٧١م فعزل · وكان رجلاً عفيفًا صادقًا شهمًا وكان كاتم اسراره التهامي بك من امهر الكتاب فقدم لهُ التهامي استعفاءهُ في بعض الايام فكتب اليهِ في الجواب هذه الكلمات: « حتى يلج الجمل في سم الخياط »

﴿ ١٩ · ممتاز باشا سنة ١٢٨٧ : ١٢٨٩هـ — ١٨٧١ : ١٨٧٣م ﴾

وتولى السودان بعدهُ ممتاز باشا فأدخل اليهِ زراعة القطن المصري وكان هذا هو الاثر الحميد الوحيد الذي تركهُ فيهِ لانهُ مدَّ يدهُ الى الرشوة واخذ من سنار وحدها على رواية بعض معاصريهِ مئة وخمسين الف ريال ونيفًا · وقد اكثر اهل السودان من التشكي عليهِ فأوقف عن الخدمة سنة ١٨٧٣م وسجن في الخرطوم لتحقيق تلك التشكيات فمات هناك سنة ١٨٧٥م

﴿ ٢٠ · اسماعيل باشا ايوب ١٢٨٩ : ١٢٩٣ هـ — ١٨٧٣ : ١٨٧٧ م ﴾

وجاء على السودان بعد عزلهِ اسماعيل باشا ايوب فجرت في عهدهِ حوادث جمة ذات بال · وكانت فاتحة اعمالهِ انهُ اشتغل في ازالة السدّ من النيل الابيض

وفي اول سنة من ولايتهِ اي سنة ١٨٧٣م قسمت البلاد الى مديريات وجعل كل مدير مسؤولاً عن مديريتهِ ومستقلاً عن والي الخرطوم وكان اذ ذاك يوسف بك مديرًا على فاشوده وحسين بك خليفة على بربر

وفي تلك السنة عاد باكر باشا من خط الاستواء ثم سمي غوردون باشا حاكمًا على خط الاستواء وعاد منها وهو اي اسماعيل باشا ايوب الوالي على الخرطوم كما مرّ

واعظم ما تمّ في السودان على ايامهِ فتح سلطنة دارفور وضمها الى املاك الحكومة المصرية عن يد الزبير رحمة باشا · وقد وُفقتُ الى تفصيل ذلك الفتح مع تفصيل سيرة الزبير وحركاتهِ في بحر الغزال من الزبير باشا نفسهِ وهاك خلاصتها :

سيرة الزبير باشا

وفيها فتح بحر الغزال ودارفور

﴿ نسبهُ ووطنـهُ ﴾ حدثني الزبير عن نفسهِ قال : أنا الزبير بن رحمة بن منصور بن علي بن محمد بن سليمان بن ناعم بن سليمان بن بكر بن شاهين بن جُميع بن جموع بن غانم العباسي . هاجر اجدادي العباسيون بغداد بعد هجوم التتر عليها سنة ٦٧٦هـ ١٢٧٨م فأتوا مصر فوجدوا فيها الفاطميين حكاماً فلم يطيقوا الاقامة معهم فنزحوا الى بلاد السودان فسكن بعضهم النيل و بعضهم بلاد دارفور ووداي وتشعبوا على النيل قبائل فكان في جملتها قبيلتنا المعروفة بالجميعاب نسبة الى جدّنا جُميع وقد اقامت على النيل الكبير بين جبل قرّي وجبل الشيخ الطيب واشتهرت بين قبائل السودان بالشجاعة وحماية الذمار . ولما حضر اسماعيل باشا الى السودان فاتحاً استقبلهُ أعياننا بالترحاب وعاهدوهُ على الولاء وفي جملتهم المرحوم أبي رحمة وأخوهُ الفيل فحفظوا العهد الى ان توفاهم الله وقمنا نحن فسرنا على مثالهم في الطاعة والولاء وما زلنا كذلك الى اليوم . أما أنا فقد ولدتُ في جزيرة وَاوسّي في ١٧ محرم سنة ١٢٤٦هـ ٨ يوليو ١٨٣١م ونشأت في حجر والدي الى أن بلغتُ السابعة من العمر فأدخلني مكتب الخرطوم فتعلمت القرآءة والكتابة وحفظت القرآن الشريف على رواية أبي عمر والبصري وتفقهت على مذهب الامام مالك ولما بلغت الخامسة والعشرين من العمر تزوَّجت بأبنة عمّ لي واشتغلت بالتجارة للتعيش بها

﴿ سفرهُ الى بحر الغزال سنة ١٢٧٣هـ ١٨٥٦م ﴾ و بعد ذلك بسنتين دخل ابن عمي المسمى محمد عبد القادر في خدمة علي ابي عموري من أهالي نجع حماده بصعيد مصر ومن التجار الكبار الذين كانوا يتجرون في بحر الغزال وسافر معهُ خلسةً فلما بلغني خبر سفرهِ أخذتني الشفقة عليهِ لان بلاد بحر الغزال كثيرة الاخطار بعيدة الشقة فلحقتهُ قصد ارجاعهِ فأدركتهُ في حلة ود شلعي على النيل الابيض مسيرة يوم



الزبير رحمت باشا العباسي في حلوان
سنة ١٣٢٠ هـ

من الخرطوم وأخذت اثبّط عزمهُ عن السفر فأقسم الا يعود الى الخرطوم قبل ان يتم سفرتهُ فشق عليَّ ذلك واقسمت لهُ بالطلاق انهُ اذا لم يرجع عن عزمهِ سافرت معهُ وقد عظَّمت القسم ظنًا انهُ لا يرضى بسفري معهُ فيرجع مضطرًا ولكنهُ لم يزل مصرًّا على السفر فسافرت معهُ برًّا بالقسم ودخلت معهُ في خدمة ابي عموري فسرنا من ود شلعي في ١٤ محرم سنة ١٢٧٣هـ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٥٦م قاصدين بحر الغزال وانا أستعيذ بالله من ذلك السفر الذي لم اكن اتوقع منهُ الا الشر والاخطار لكنهُ جاء بأحسن ما كنت أتمنى بل كان سبب نجاحي وشهرتي ورفع منزلتي الى مقام لم ينلهُ أحد في السودان قبلي وهيهات ان ينالهُ احد فيهِ بعدي « وعسى ان تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم »

هذا وما زلنا سائرين في النيل الابيض حتى وصلنا موردة بحر الغزال المعروفة بمشرع الرِّيك التي لا يمكن للمراكب ان تتعداها جنوبًا فنزلنا بأمتعتنا وبضائعنا الى البر في ٢ صفر من السنة المذكورة واخترقنا بلاد الجانقية الى بلاد الجور حيث كانت زريبة علي ابي عموري المعروفة باسم عاشور على اسم شيخ البلد فدخلناها في ١٧ من الشهر المذكور . وكان في بحر الغزال في ذلك الحين تجار كثيرون غير ابي عموري متفرقون في جميع انحاء البلاد . ولكل تاجر منهم زريبة من شوك يأوي اليها ويضع فيها تجارتهُ . واهمُّ الاصناف الرائجة في تلك البلاد الخرز على اختلاف انواعهِ والوانهِ والودع والقصدير وكلهُ مما يتزين بهِ الاهلون نساء ورجالاً ويفضلونهُ على الذهب والفضة فيأخذونهُ من التجار مقايضة بسن الفيل والخرتيت وريش النعام واللاستك والحديد والنحاس وغيرها من محصولات البلاد

﴿ اخمادهُ ثورة محلية سنة ١٢٧٤ هـ ١٨٥٧م ﴾ فأقمت مع صاحبي علي عموري مساعدًا لهُ على تجارتهِ ولكن ما لبثنا بضعة اشهر حتى هاج أهل البلاد على التجار طمعًا في اموالهم سنة ١٢٧٤ هـ ١٨٥٧ م فجمعوا جموعهم من كل الجهات وهاجموا الزرائب فقتلوا بعض التجار وسلبوا اموالهم وهاجموا زريبة صاحبي أبي عموري فقمت في رأس رجالهِ واشعلت فيهم النار وهزمتهم شر هزيمة بعد ان قتلت منهم خلقًا كثيرًا

فلما سمع التجار في الجهات بانتصاري عليهم جاؤوا اليَّ والتفوا حولي وهابني أهل البلاد فلم يعودوا يجسرون على مهاجمتي • وقد رأى صاحبي أبو عموري أن سلامتهُ كانت عن يدي فأحبَّني وجعل لي قسماً من ارباحهِ أي عشر السن ولما هدأت البلاد تركني في محلهِ وكيلاً عنهُ وسار الى الخرطوم فغاب ستة أشهر وعاد بالبضائع فوجد عندي من محصولات البلاد ما لم يكن يجمعهُ هو في سنين فزادت رغبتهُ فيَّ وعرض عليَّ الشركة بالنصف فأبيت وعزمت على انشاء محل تجاري لنفسي

﴿ ذهابهُ الى الخرطوم وعودتهُ الى بلاد قولو سنة ١٢٧٥ هـ ١٨٥٨م ﴾ وبهذا العزم رجعت الى الخرطوم فدخلتها في ٧ ربيع الاول سنة ١٢٧٥ هـ ١٥ اوكتوبر سنة ١٨٥٨م وكنت قد جمعت من تجارتي مع أبي عموري نحو الف جنيه فاشتريت بها بضائع وذهبية واكتريت بعض الانفار على عادة التجار وسلحتهم بالبنادق وسرت بهم والبضائع في الذهبية الى مشرع الريك فنزلنا فيهِ واستأجرت بعض السود فحملوا بضائعي وسرت برًّا في بحر الغزال وانا عازم على ان اطرق بلاداً جديدة لم يطرقها احد قبلي فقطعت بلاد الجانكاه والجور والبنقو وجئت الى بلاد قولو • وكان عليها ملك يقال لهُ كواكي فرحب بي واكرم مثواي فأخذت أتجر في بلاده حتى اجتمع عندي من سن الفيل وريش النعام وغيرهما من خيرات البلاد شيء كثير فأرسلتها مع ابن عم لي يدعى محمد احمد رحمة الى الخرطوم فباعها وعاد اليَّ بالبضائع في ١٧ ربيع اول سنة ١٢٧٦ هـ ١٤ اوكتوبر سنة ١٨٥٩ م

﴿ سفرهُ الى بلاد النيام نيام ١٢٧٦ هـ ١٨٥٩ ﴾ وفي اثناء اقامتي في بلاد قولو علمت ان بلاد النيام نيام الواقعة الى الجنوب الغربي منا بلاد واسعة الاطراف كثيرة الجواميس والافيال ولا قيمة لسن الفيل فيها لكثرتهِ وعليها سلطان عادل يسمى السلطان تكمه • فبعد رجوع ابن عمي بنحو شهر ونصف شهر حملت بضائعي وسرت بها خمسة وعشرين يوماً الى سلطان النيام نيام فقدمت لهُ هدية فاخرة واستأذنتهُ في الاتجار في بلاده فأذن لي • وكان النيام نيام لا يعرفون الحمير في بلادهم ولا الجمال ولا الخيل وكان معي حمار فأهديتهُ الى السلطان فاستغرب هيئتهُ وقد ظنهُ رجلاً ممسوخاً ولم يقبلهُ •

وكان لهذا السلطان نحو ٤٠٠ امرأة و٤٠٠ ولد من صبيان و بنات فزوجني بأكبر بناته رانبوه فعلا مقامي بهذه المصاهرة في عيون اهل البلاد وزادت تجارتي رواجاً وتحسيناً حتى اجتمع عندي في وقت قصير شيء كثير من سن الفيل والخرتيت وغيرهما

﴿ رجوعهُ الى الخرطوم مرّة ثانية وتيههُ في الطريق سنة ١٢٧٨ هـ ١٨٦٢م ﴾

فلما كان ١٧ رمضان سنة ١٢٧٨ هـ ١٨ مارس سنة ١٨٦٢م استأذنت السلطان تكمه وسرت بهذه السلع قاصداً الخرطوم فمررت بصاحبي علي عموري فوجدتهُ متأهباً للسفر بتجارتهِ الى الخرطوم فاتفقنا على الذهاب معاً وكانت زريبتهُ عاشور قرب نهر البنقو أحد فروع بحر الغزال الذي لم يسلكهُ أحد من قبلنا فأردنا فتحهُ للتخلص من مشقة نقل البضائع بالبر فبنينا مركبين ووسقنا فيهما بضائعنا ورجالنا البالغ عددهم ٢١٤ نفراً وسرنا قاصدين مشرع الريك ومعنا من الزاد ما يكفينا نحو شهرين فبعد ان سرنا ١٣ يوماً بلياليها اتسع مجرى النهر حتى صار اشبه ببحيرة واسعة منهُ بالنهر وخفي علينا المجرى الاصلي فتهنا في تلك البحيرة خمسة وسبعين يوماً لا نرى فيها الاّ السماء والماء وقد نفد منا الزاد فأكلنا ما كان معنا من الجلود واشتد بنا الجوع

وفيما نحن في هذا الكرب اذا بدخان لاح لنا من بعيد فاخترت انا وصديقي علي عموري تسعة انفار من رجالنا ونزلنا في قارب صغير أتينا بهِ معنا وسرنا قاصدين جهة الدخان فلم نبعد عن المركبين الاّ قليلاً حتى اختفى الدخان ثم غاب عنا المركبان فأصبحنا نسير على غير هدًى فتهنا وجعنا حتى اشرفنا على الهلاك ثم حانت منا التفاتة فرأينا شجرة قائمة على تل في وسط الماء ووجدنا تحتها تمساحاً كبيراً فاصطدناهُ بالرصاص وتزودنا بهِ فعاد لنا بعض نشاطنا واقبلنا راجعين نحو المركبين فالتقينا بهما بعد غيبة ٤ ايام فوجدنا رجالنا قد مات منهم ١٨ نفراً ولما علموا بخيبتنا مات منهم رجل في الحال وقد اكدوا لنا انهم كانوا يرون الدخان كل يوم في آخر النهار فأيقنت اذ ذاك بوجود بر قريب فانتقيت ١٢ رجلاً من اقوى رجالي وأنزلتهم في القارب وتوجهت ثانية الى جهة الدخان فلم تمرّ بضع ساعات حتى أشرفنا على جزيرة واسعة مأهولة بالناس وفيها من الابقار ما لا يحصى عددهُ فنزلنا الى البر فوجدنا ان الدخان

الذي كنا نراهُ هو دخان ارواث الابقار التي كان يحرقها الاهلون في عصر كل يوم ليتخذوا رمادها فراشاً لهم كما هي عادتهم • وكان يسكن تلك الجزيرة قوم من النوَير وعليهم ملك يسمى كرُيم فلما دخلنا الجزيرة اجتمع علينا اهلها وهم يتعجبون من زيّنا وملابسنا فسألونا وهم ينوون الغدر بنا من أين أتيتم من السماء أم من الارض أم من الماء وماذا ترومون من الدخول في جزيرتنا وكان معي مترجم يحسن لغة القوم ويعرف ملكهم فقلت اني اعرف ملككم كرُيم وأريد ان تأخذوني اليهِ فلما رأوني عارفاً لغتهم وسلطانهم فرحوا بي وأمنوني على حياتي وحياة رجالي وذبحوا لنا بقرة قصد الضيافة فأكلناها وقد أكل البعض منا بشرهٍ زايد فماتوا بعد الفراغ من الاكل ببضع دقائق • ثم اشتريت ثمانية أبقار وذبحتها وأرسلتها قطعاً في القارب الى بقية الرفاق في المركبين فأكلوا وجدُّوا السير حتى رسوا عند الجزيرة وذهبت لمقابلة الملك كرُيم ولما امتثلت بين يديهِ حييتهُ فردّ عليَّ التحية ثم أخذ يسألني عن أمري والسبب الذي أتي بي الى جزيرتهِ فأجبتهُ على جميع اسئلتهِ • ولما انتشر خبرنا في الجزيرة أخذ كبارها يفدون الى الملك أفواجاً طالبين قتلنا والاستيلاء على اموالنا فأذن لهم في ذلك بعد تردُّد بعد خروجنا من دارهِ وقد ادركنا غايتهم وبتنا تلك الليلة ونحن نحرس انفسنا بالمناوبة وجاءت نوبتي في الهجيع الاول من الليل فشاهدت أسدًا مقبلاً من بعيد فرميتهُ بالرصاص فخرَّ على الارض يخبط بدماهُ فاستيقظ الملك كريم من نومهِ ظانًّا ان رجالهُ جاؤوا لحربنا واستيقظ الكثير من سكان الجزيرة فلما رأوا الاسد مقتولاً فرحوا فرحاً شديدًا لان ذلك الاسد كان متسلطاً عليهم يفترس كل من يصادفهُ منهم حتى لم يعد يجسر احد على الخروج من بيتهِ ليلاً اما الملك كريم فقد عظم سرورهُ من قتلي للاسد حتى انهُ عقد لي على احدى بناتهِ ورغبني في الاقامة معهُ في جزيرتهِ فأقمت عندهُ شهرًا كاملاً حتى اشتريت جميع ما يلزمني من المؤن ثم احتلت عليهِ وخرجت من جزيرتهِ بالمركبين ولكن ما كدنا نغيب عن الجزيرة حتى تهنا ثانيةً في عرض تلك البحيرة وما زلنا تائهين حتى فرغ زادنا ومات جميع من في المركبين الا صديقي علي عموري وستة رجال واذ اشرفنا على الهلاك لاح لنا

مركب من بعيد فأطلقنا لهُ عياراً نارياً فأقبل علينا فاذا فيهِ عبد الرحمن ابو قرون من تجار بحر الغزال فلما رآنا على تلك الحال بكى وقدَّم لنا ما لزمنا من الزاد والكسوة . وكنا على خمسة ايام من مشرع الريك فسرنا اليهِ مجدين حتى أتيناهُ في ٢ صفر سنة ١٢٨٠هـ ١٩ يوليو سنة ١٨٦٣ فاجتمع الناس حولنا يهنئونا بالسلامة ويعزونا عمَّا فقدناهُ من الاموال والرجال ثم اقلعنا بالمراكب الى الخرطوم فدخلناها في ٢٧ ربيع الاول من تلك السنة ١١ سبتمبر سنة ١٨٦٣ فلبثت في الخرطوم بضعة أشهر ريثما بعت تجارتي واشتريت بثمنها تجارة اخرى مما يروج بتلك البلاد واسلحة وذخائر وزدت عدد رجالي

﴿ رجوعهُ الى بلاد النيام نيام سنة ١٢٨٠هـ ١٨٦٣م ﴾ وفي ٢٢ القعدة سنة ١٢٨٠هـ ٢٩ ابريل ١٨٦٣م برحت الخرطوم قاصداً بلاد النيام نيام فوصلتها في ٢٠ صفر سنة ١٢٨١هـ ٢٥ يوليو سنة ١٨٦٤م وقدمت هدايا نفيسة للملك تكة فسرَّ بها وأولم لي وليمة فاخرة ذبح فيها عدداً وافراً من الوحوش ومئة كلب من اسمن الكلاب المعدَّة لأكلهِ وعدت الى دار زوجتي رانبوه وشرعت في بيع البضائع . وقد جرت العادة في تلك البلاد ان يبيعوا في الاسواق أصحاب الجنايات كالسارق والزاني ويذبحونهم كالغنم ويبيعون لحومهم طعاماً فافتديت من هؤلاء من وجدتهُ اهلاً لحمل السلاح حتى اجتمع عندي نحو خمس مئة رجل فسلحتهم بالاسلحة النارية وعلمتهم حملها واستعمالها فأوجس الملك تكه شرًّا وخاف مني على مملكتهِ واستشار كهانهُ فأقرُّوا على قتلي فعلمت بذلك امرأتي رانبوه ابنة الملك واخبرتني بهِ سرًّا ونصحتني بالرحيل من بلاد أبيها

﴿ انتقالهُ الى بلاد الملك دويه سنة ١٢٨١هـ ١٨٦٤م ﴾ فاهتممت بالامر وتزلفت الى الملك تكه بالهدايا وقلت لهُ بلغني ان في بلاد الملك دويه سن فيل كثير فأريد ان اذهب برجالي وآتي بهِ فقال اذهب وأتِ بهِ وحدك ودع رجالك هنا فقلت بلغني ان تلك البلاد ليس فيهِ عدل واخاف ان اهلها اذا رأوا مني الضعف غدروا بي وقتلوني فلما رأى اصراري على اخذي رجالي وامتعتي معي أذن لي في السفر ظاهراً واوعز الى جيشهِ سرًّا ان يكمنوا لي في الطريق ويقتلوني انا ورجالي فما خرجت من بلادهِ حتى اعترضني جنودهُ الذين في الكمين فصليتهم ناراً حامية لم يطيقوها

فانهزموا امامي ودخلت بلاد الملك دويه وكان عدوًّا لملك النائم فلما علم بما جرى لي معهُ خرج لمقابلتي مسيرة اربع ساعات من عاصمتهِ وانزلني في جوارهِ على الرحب والسعة وبنى لي حصناً مربعاً منيعاً من الخشب وأمدَّني من الحبوب والمؤونة بما يكفي رجالي مدة طويلة . أما الملك تكه فانهُ لم يلبث ان أرسل جيشاً جرَّارًا بقيادة عمهِ مغبوه اهتزت لهُ بلاد الملك دويه واستولى الرعب عليهِ وعلى قومهِ ففرُّوا هاربين خلسةً تحت جنح الظلام

﴿ انتقالهُ من التجارة الى الملك سنة ١٢٩٢هـ ١٨٦٥م ﴾ ولما اصبح الصباح ورأيت ما كان من الملك دويه داخلني الخوف وصرت انظر في أمر النجاة وبينما انا في ذلك اذ وفد عليَّ رسل الملك تكة وقالوا ان حرمة المصاهرة وسابق المودة تمنعان الملك من محاربتك ولكنهُ يرغب اليك ان تخرج من جميع بلاد الملك دويه التي اصبحت تحت سلطانهِ وتذهب الى حيث تشاء ولك الامان. فأجبتهم الى ذلك وخرجت الى بلاد قولو حيث يقيم الملك عَدْوَه شكو فدخلتها اول محرم سنة ١٢٨٢هـ ٢٧ مايو سنة ١٨٦٥م وكان هذا الملك قد غدر بأخي منصور وقتلهُ هو ورفاقهُ الذين أرسلتهم للاتجار في بلادهِ واستولى على جميع مالهم فلم يشك في اني جئت للاخذ بثار اخي فلم يسمح لي بالبقاء في بلادهِ وتهدَّدني بالحرب فتزلفت اليهِ بالهدايا واكدت لهُ ان لا قصد لي سوى التجارة فرفض الهـدايا وأصرَّ على خروجي من بلاده في الحال وكان الفصل شتاء والبلاد مغمورة بالمياه فسألتهُ ان يمهلني الى ان ينقطع المطر وتفتح الطرق فأبى فناجزتهُ اذ ذاك الحرب وجرى بيني وبينهُ عدة وقائع دموية حتى قتل فخلفهُ ابنهُ فتغلبت عليهِ واخذتهُ اسيرًا وامتلكت بلادهُ وجميع البلاد المجاورة لها الى بحر العرب واتخذت عاصمتهُ بايه التي سميت بعد ذلك « بديم الزبير » مركزًا لي فصرت فيها ملكاً وصارت الناس تتقاطر اليَّ من كل الجهات للانتظام في خدمتي فجلبت الاسلحة وجمعت جيشاً قويًّا وحكمت البلاد بالكتاب والسنة وشرعت في تمدينها وعمارتها وتوسيع نطاق التجارة فيها

﴿ معاهدتهُ مع عربان الزريقات على فتح طريق شكا سنة ١٢٨٢هـ ١٨٦٦م ﴾

وكان اول ما سعيت اليهِ فتح طريق التجارة بين بحر الغزال وكردوفان لبعد طريق النيل وكثرة أخطارها ومشاقها. وفي شوال سنة ١٢٨٢ هـ مارس سنة ١٨٦٦ أوفدت رسلاً بهدايا الى مشايخ عربان الزريقات الواقعين في طريق التجار فجاءني ثمانون شيخاً منهم وعاهدوني على فتح الطريق وتأمين القوافل والتجار من مسلمين ومسيحيين وأقسم كل منهم خمسين قسماً على الكتاب بالمحافظة على هذا العهد وجعلت لهم مقابل ذلك جعلاً معلوماً يقتضونهُ من التجار فكثر ترداد الناس والتجار باصناف البضائع لقرب هذه الطريق وسهولتها وما زالوا في ازدياد حتى صار ازدحامهم عليَّ كازدحام العطاش على المنهل العذب

﴿ حملة البلالي على بحر الغزال وقتله سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٦٩ م ﴾ وفي سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٦٩ م (وهي السنة التي ذهب فيها السر صموئيل باكر لفتح خط الاستواء) قدم رجل من الخرطوم من متخلفي حجاج الغرب يقال لهُ الحاج محمد البلالي بقصد احتلال بحر الغزال ومعهُ سرية من العساكر مؤلفة من ٢٠٠ من العساكر المنظمة السودانية عليهم الصاغ محمد افندي منيب و ٤٠٠ من العساكر الباشبوزق عليهم السنجق كوشوك علي و ٦٠٠ من الخطريه . فطاف بلاد بحر الغزال ودخل زرائبها وقرأ لاصحابها فرمان الحكومة بتسميتهِ مديرًا على بحر الغزال فمنهم من طاع وسلم ومنهم من عصي فحارب أو فرَّ . ثم وجَّه حملتهُ عليَّ فجمعت جيوشي ومن لجأ اليَّ من اصحاب الزرائب المجاورة لي وكمنت لهُ في خور على الطريق . فلما اقترب من الكمين اشعلت النار في جيشهِ فقتلتهُ وقتلت بعض عسكرهِ وأسرت الباقي ولكنني أصبت في ذلك اليوم برصاصة في كراعي الأيمن ورجعت محمولاً الى مركزي . وكان الحاكم في الخرطوم اذ ذاك جعفر باشا مظهر فبعثت اليهِ بالخبر

وانتشر خبر انتصاري على البلالي في اقاصي السودان واشتهر ملكي بالعدل والانصاف فوفد اليَّ الناس من كل الجهات اما للانتظام في جيشي أو للاتجار في بلادي ولم يمضِ الا القليل حتى صرت ذا ملك عظيم . وكنت اميل في احكامي الى استعمال الشفقة على من وُليت الاَّ اني كنت اضطر في بعض الاحيان الى استعمال

الصرامة نظرًا لقساوة قلوب اهل البلاد فمن جملة ذلك اني كنت اعلق المحكوم عليهِ بالشنق برجليهِ ليتدلى رأسهُ الى اسفل وأتركهُ بلا اكل ولا شرب حتى يموت

﴿ امتلاكهُ بلاد النيام سنة ١٢٨٩ ﻫ ١٨٧٢ م ﴾ وهذا الملك الذي انتظم لي في بحر الغزال لم يرُق للسلطان تكه سلطان النيام وكانت ابنتهُ رانبوه لا تزال في عصمتي وكان يرسل اليها في كل سنة هدية من السن خمسين قنطارًا ومن العسل مائتي زقٍ ومن السمسم مئة أردب ومن الرقيق مئة فلما اشتهر ملكي في جوارهِ قطع الهدية ونصب لي العداء . وفي اوائل ١٢٨٩ﻫ ١٨٧٢م ارسل عمهُ مغبوه بجيش جرّار فأغار على أطراف مملكتي فبعثت اليهِ برسل أسألهُ عن ذلك فردّ الرسل مع ثلاثة رسل من عندهِ يقول انهُ لا يسمح لي بتأسيس ملك في جوار مملكتهِ فاما ان أنزع عن نفسي صفة الملك واعود تاجرًا كما كنت أو ان يحارب بني وينزع الملك عني بالقوة . فقلت للرسل اذهبوا الى ملككم وقولوا لهُ ما كنتُ لأتنازل عن ملك أسستهُ بسيفي لمجرد تهديد أو وعيد فان كان يستصغرني الى هذا الحد فليجرّب قوتهُ التي يتفاخر بها على ملوك المجوس . فجرّد الملك تكه جيوشًا لا يحصى لها عدٌّ وانتشبت بيننا حرب سنة كاملة جرت فيها عدت وقائع شديدة وفي آخرها قتل السلطان تكه وعمهُ مغبوه ودان لي ثمانية من كبار ملوك النيام الذين كانوا في حروب مستمرّة بعضهم ضدّ بعض بل كانوا يصيدون بعضهم البعض صيد الطير فلما توليتهم قبحت فعالهم وألفت بينهم و بسطت الامن على ربوعهم وصاروا يتعاملون بالبيع والشراء ويتصاهرون . وسمع من جاورهم من المجوس أخبار عدلي وما نال الذين دخلوا تحت طاعتي من الراحة والامن واتساع العيش فصاروا يأتون اليَّ من مسافات بعيدة مقدمين الطاعة وطالبين عمالاً من قبلي تقوم عليهم حكامًا فأجبتهم الى ذلك واتسع نطاق مملكتي اتساعًا عظيمًا الى الجهات الاربع

فتح دارفور سنة ١٢٩٠ : ١٢٩١ ﻫ — ١٨٧٣ : ١٨٧٤ م

﴿ حربه مع الرزيقات واستيلاؤهُ على بلاد شكا سنة ١٢٩٠ ﻫ ١٨٧٣ م ﴾ وكان الرزيقات في اثناء الحرب مع النيام قد نقضوا العهد وقطعوا الطريق وقتلوا

بعض التجار فلما انقضت الحرب أنفذت اليهم رسلاً أسألهم عن ذلك فأجابوا بالشتم والسباب واقسموا الاّ يدعوا مسافرًا يمرّ الي عن طريق بلادهم الاّ قتلوهُ وسلبوهُ ماله

وكان على دارفور اذ ذاك السلطان ابرهيم فأرسلت اليهِ كتابًا بتاريخ ١ جمادى الاولى سنة ١٢٩٠هـ ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٣م اخبرهُ بما أتاهُ الرزيقات من نكث العهد وقطع السابلة والتمست مساعدتهُ عليهم وهذا فحوى الكتاب :

« الى حضرة أمير الامراء الكرام مولانا السلطان ابراهيم ابن السلطان حسين صاحب العزة والاقتدار والهيبة والفخار ادام الله علاهُ آمين

« اما بعد فنحن عبيد افندينا وليّ النعم خديوي مصر المعظم أتينا منذ عام ١٢٧٠هـ لفتح بلاد العبيد فدانت لنا بلاد الفراتيت برمتها وفتحنا الطريق منها الى كردوفان عن طريق شكا فتعهد بحفظهِ مشايخ الرزيقات نظير جعل معلوم وضعناهُ لهم على التجار. ولكن لم يكن الاّ اليسير حتى نكث الرزيقات العهد وربطوا الطريق وأباحوا دماء المسلمين واموالهم بدون وجه شرعي وقد نهيناهم عن ذلك مرارًا فلم ينتهوا بل كانوا يتفاخرون بقوتهم وخيولهم العربية واسلحتهم النارية وقتلهم للمقدوم عبد العزيز أبي احمد شطه وآدم طربوش أبي الوزير بخيت وغيرهما من الفرسان التابعين لدولتكم الفوراوية فأوجب الله تعالى علينا حربهم بدليل قوله « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيئ الى أمر الله » ونحن نتقدم اليكم بهذا الكتاب واثقين انكم متى علمتم حال هؤلاء العربان الطغاة الذين خرجوا عن طاعة سلطنتكم منذ ثلاثين سنة ونيف تنجدوننا بسرية من جيشكم حتى اذا ما تمّ لنا اذلالهم نعود فنسوي الامر بيننا فاما ان نتركهم لنا لتحكمهم بالقسط والعدل واما ان نتركهم لكم فتفتحون الطريق وتقدمون لنا النفقات التي نبذلها على عساكرنا في الحملة عليهم والامل الافادة سريعًا في حفظ الله آمين »

فلم يجب السلطان على كتابي هذا ولا انتهى الرزيقات عن التعدي فاستخرت الله في حربهم وسقت جيشي الى بلادهم فتجمعوا لقتالي وجرت بيني وبينهم عدة وقائع كان النصر فيها كلها لي وكانت اول الوقائع في ١٤ جمادى الاولى سنة ١٢٩٠هـ ١٠ يوليو سنة ١٨٧٣ م وآخرها في ٤ رجب من السنة المذكورة ٢٨ اوغسطوس

١٨٧٣ ٠ وفي الوقعة الاخيرة انهزم الزريقات شر انهزام وقتل منهم خلق كثير واصبحت بلاد شكا كلها في يدي

﴿ خبر عبد الله التعايشي سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ م ﴾ وكان الزريقات قد استخدموا فقيهاً من فقهاء التعايشة يقال لهُ عبد الله ود محمد آدم تورشين ليقرأ لهم الاسماء في خلوتهِ لعلها تقبض على سلاحي فلا يطلق نارهُ في ساحة الحرب وقد تعهدوا لهُ ببقرة من كل مراح فوقع اسيرًا في يدي في حلة السروج بين شكا وداره فأمرت بقتلهِ ٠ وكان معي ١٢ عالمًا من علماء الشرع وقد حلّفتهم على القرآن الشريف أنهم اذا رأوا في احكامي اعوجاجاً عن الشرع ينبهوني اليهِ فلما امرت بقتلهِ اعترضني العلماء وقالوا ان الشرع لا يسمح لك بقتل اسير الحرب فضلاً عن ان السياسة تنكر عليك قتل رجل يعتقد الناس صلاحهُ لانك ان قتلتهُ نفرت القبائل منك وعدّتك رجلاً ظالمًا مخيفاً فامتنعتُ عن قتلهِ ويا ليتني لم امتنع لانهُ عاش ليكون من اعظم البلايا على السودان (كما سيجيء)

[والمشهور في نسب عبد الله هذا انهُ من قبيلة التعايشة من فرع الجاراب من بطن يقال لهُ ابو صرّة وقد دفن جدهُ في جهة هجليجة من اعمال شكا ولما تولى الخلافة في عهد المهدية أمر اصحابهُ بعمل قبة فوق ضريحهِ ودعا الناس لزيارتهِ كما يستفاد من كتابهِ الذي أرسلهُ الى محمد شيخ محمد كرقساوي عامل المهدية في شكا بتاريخ ٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٤ هـ ٢ مارس سنة ١٨٨٧ م وهذا هو بنصه :

«ثم نعرفك ان جوابك المؤرخ في ٦ جمادى الاولى الذاكر فيهِ انهُ منذ حضرت بشكا لم يبلغك ان جدنا آدم مدفون بجهة هجيليجه الآ عن قريب اذ اعلمك الحبيب عثمان آدم ووصف لك محلهُ وقصدك عمل تابوت فيهِ وترغب الرد الى آخر ما بهِ وصل وفهم ٠ والحال ياحبيبنا نعلمك ان لا قصد لنا في رفعة الدنيا وشهرتها بل كل قصدنا مصروف الى لزوم الخضوع في هذه الدار وعدم التمييز لننال عظيم الرفعة عند الله ولكن حيثما انك يا حبيب من الاصحاب الكرام وقد يقظك الله ونوّر بصيرتك الى فعل هذا الخير فمن باب اعانتك على نيل ثوابهِ العظيم اذنّاك في فعل ما تراهُ

في ذلك الضريح من عمل التابوت عليهِ ومداومة زيارتهِ أنت والاصحاب الذين معك ويكون لك من الثواب في ذلك ما لا يعلم بهِ الأ الله حيث ان هذا الجد مشهور خبره ُ وبركتهُ لدى كل من لهُ بهِ المام فبعد عمل التابوت الموافق عليـهِ بمقتضى حسن نيتك وعلو همتك واشهار ضريحه نبّه على كافة من معك من الاصحاب واهالي الجهة بزيارة ضريحهِ على نية البركة فانهُ من اهل الفوز عند الله. واعلم ان الجد المذكور اسمهُ علي الكرار لا آدم وهو ود الاب المبرور السيد محمد أبينا فعرف الاصحاب بذلك ليعلموهُ وليداوموا على زيارة ضريحهِ فان ذلك من السنَّة وجزاك الله ياحبيب خيرًا في انتباهك لهذا الامر فانه من نعم الله عليك والسلام »]

قال الزبير : والذي اتصل بي ان اصل جد عبـد الله هذا من بلاد الفتري بين وداي وبرنو سار من بلادهِ طالبًا الحجاز وهو لا يملك شيئًا كجميع الحجاج التكارنة فلما وصل بلاد التعايشة تزوَّج منهم وسكن بينهم فانتسب اليهم . اما ابوهُ محمد أدم فكان يلقب بتورشين اي تور قبيح لقبح منظرهِ وكان عالمًا بالرمل فنال حظوة كبيرة عند التعايشة واشتهر بعلم الغيب والتقوى وكان التعايشة يغزون بلاد السود جنوبيهم من وقت الى آخر فكان اذا بشرهم بالنصر انتصروا واذا حذَّرهم من الغزو ثم غزوا انكسروا حتى صاروا لا يغزون غزوة ولا يقدمون على عمل هام الا بمشورتهِ فجمع بذلك مالاً جزيلاً وتزوج باكثر من امرأة من نساء التعايشة فرُزق من واحدة ولدًا سماهُ يعقوب وهو اكبر من عبـد الله وتزوج بارملة كان لها ولد يسمى السنوسي فولدت لهُ عبدالله هذا وتزوج بجارية فولدت لهُ ولدًا سماهُ هارون فكان لعبدالله ثلاثة اخوة اشتهروا في تاريخ المهدية وهم : يعقوب اخوهُ من ابيهِ والسنوسي اخوهُ من امهِ وهارون محمد اخوهُ من الجارية . ثم لما كبر تورشين قام ابنهُ عبدالله مقامهُ في هذه الصناعة فدعاهُ عرب الرزيقات عنـد انتشاب الحرب بيني وبينهم الى قراءة الاسماء فوقع اسيرًا بيدي كما قدمت . وبعد فتح دارفور طلب مني ارضًا في قبيجة غرب الكلكة فأعطيتهُ اياها على ان يكف عما كان بهِ من التدجيل فرضي ولكن لم يمضِ الا القليل حتى أتاني منهُ كتاب وأنا في داره يقول فيه « رأيت

في الحلم انك المهدي المنتظر واني احد اتباعك فاخبرني ان كنت مهدي الزمان لاتبعك »
فكتبت لهُ في الجواب « استقم كما امرتك انا لست بالمهدي وانما انا جندي من جنود
الله أحارب من طغى وتمرّد » . وبقي في قبيحه الى ان كانت ثورة السلطان هارون
(الآتي ذكرها) وضاق الرزق في بلاد دارفور بسبب الثورة فرحل منها هو وأبوهُ
وتلامذتهُ قاصدين الحجاز وبقوا سائرين الى ان اتوا دار الجمع بكردوفان فنزلوا عند
شيخها عساكر ابي كلام في أبي ركبه فمات أبوهُ ودفن هناك وبقي هو في أبي ركبه
الى ان اشتهر أمر محمد احمد في جزيرة أبا فهاجر اليهِ وكان من أعز انصاره . وكان في
جملة تلامذة ابيهِ الذين رافقوهُ الى أبي ركبه فانتصروا معهُ للمهدية واشتهروا فيها
المساعد قيدوم الهباني وحامد ود علي واخوهُ احمد من التعايشة وفضل المولى صابون
أخ حمد ان أبي عنجه (وسيأتي ذكرهم جميعاً)

هذا ولما دخلت بلاد الرزيقات فرّ اثنان من مشايخهم وهما الشيخ مُنزَل والشيخ
عُليّان ولجأا الى السلطان ابرهيم في الفاشر فبعثت اليهِ بكتاب بتاريخ ١٥ رجب
سنة ١٢٩٠ هـ ٨ سبتمبر سنة ١٨٧٣ م أسألهُ تسليمهما اليَّ وهذا نصُّ الكتاب:

« من الزبير رحمه الجميعابي الى السلطان ابراهيم ابن السلطان حسين وعمهِ
الامير حسب الله بن السلطان محمد الفضل

« اما بعد فقد دخلنا بلاد شكا في يوم الاثنين المبارك الموافق غرة رجب سنة
١٢٩٠هـ ٢٥ اوغسطوس ١٨٧٣م للاسباب التي قدّمناها لكم في كتاب سابق ووقعت
بيننا و بين عربان الرزيقات معركة شديدة قتلنا فيها أعيانهم وفرسانهم وكثيراً من
أخلاطهم ونحن الان مقيمون في بلادهم وقد بلغنا ان الشيخ مُنزَل والشيخ عُليان من
اكبر طغاة الرزيقات قد التجأا اليكم وهما يحثانكم على حربنا فغاية ما نرجوهُ ان لا تسمعوا
لاقوالهما الفاسدة فتقعوا بحرب الدولة المصرية ذات السطوة الغالبة والمدد الغير
المنقطع ولا نقول ذلك على سبيل التهديد بل هو النصح نمحضهُ لكم لمنع الفتن بين
الدولتين وحقن دماء المسلمين لاسيا وانتم تعلمون ما كان بين والدكم السلطان حسين
وبين عزيز مصر الخديوي المعظم من المودّة والمعاملات التي لا تزال متصلة

بينكم وبين خديوي مصر الحالي لذلك نؤمل منكم الآن ان تأمروا بالقبض على منزل وعليان وترسلوهما الينا بالشعبة والحديد مع الحرس اللازم لنسترد منهما ما أخذاهُ من حقوق المسلمين بلا تمثيل فيهما ولا ظلم بل بما يكون فيهِ تأديب لهما وعبرة لغيرهما. هذا ما رأيناهُ والرأي مفوض وادام الله بقاكم آمين »

وكان السلطان ابراهيم واجدًا عليَّ لدخولي بلاد الرزيقات التي هي جزء من بلادهِ فلم يجبني على كتابي بل ارسل الى الشيخ مادبو بن علي وغيرهِ من مشايخ الرزيقات كتابًا مشحونًا شتمًا وسبابًا لي ويقول لهم لا تظنوا اني اترك البلاد لهذا الطاغية الجلابي وها انا اعدُّ الجيوش للزحف عليهِ وطردهِ من البلاد بالخزي والخسران «فعند اطلاعي على كتابهِ هذا ارسلت اليهِ كتابًا بتاريخ ٢١ رمضان سنة ١٢٩٠ﻫ ١٢ نوفمبر سنة ١٨٧٣م بهذا المعنى: «من الزبير رحمة الجميعابي الى السلطان ابرهيم»

«اما بعد فقد كتبت اليكم اولاً وثانيًا بشأن الرزيقات فلم احظَ بجواب منكم بل رأيت كتابًا مختومًا بختمكم الى الشيخ مادبو بن علي وغيرهِ من مشايخ الرزيقات تكثرون بهِ من الفاظ الشتم والسباب لي بقولكم اني جلاَّبي باغٍ وتقولون انكم تجرّدون الجيوش لطردي من البلاد مع اني سبقت فأخبرتكم بالسبب الذي من أجلهِ دخلت بلاد شكا وقلت اني ما جئت ثائرًا ولا باغيًا بل جئت لتأديب الرزيقات الذين سعوا في الارض فسادًا وخرجوا عن سلطانكم وقد استنجدتكم عليهم فلم تنجدوني وسألتكم تسليم مُنزل وعليان اللذين هما اصل الفساد فما سلمتوهما وصممتم على الحرب. وذلك ليس قصدي ولا مرادي فقد قال عليهِ الصلاة والسلام «الفتنة نائمة لعن الله من ايقظها». خصوصًا وانهُ لم يكن بيننا وبينكم ولا كان بين ابائنا وآبائكم حرب ولا عداء ولا امرتنا دولتنا بمحاربتكم. اما وقد اخترتم هذه السبيل فاعلموا يقينًا ان جميع ما يسفك من دماء الطائفتين من المسلمين انما انتم المسؤولون عنهُ بين يدي الله يوم القيامة اذ تجتمع الخصوم. وبعد هذا الانذار الجلي فاذا حاربتمونا فاعلموا اننا منصورون عليكم لاننا بجانب الحق والعدل وأنتم بجانب البغي والظلم فضلاً عن اننا ليوث حربية وصلة عباسية وسلالة هاشمية ولنا النصر من رسول الله كما قال عليهِ

الصلاة والسلام . اللهمَّ انصر العباس وابناءهُ » . اما ان كنتم تودُّون خروجنا من بلاد شكا لانكم تحسبونها قسماً من بلادكم فاعلموا ان خروجنا بعد الذي صرفناهُ على احتلالها بوجه شرعي لا يكون بالقوة والحرب وانما يكون بالتراضي والسلم بينكم و بين سمو وليّ نعمتنا الخديوي المعظم بأن تضمنوا لنا نفقات الحملة على الرزيقات التي بلغت ١٠ آلاف كيس ونيفاً فاذا اتفقتم مع سموهِ على ذلك وكتب لنا امراً لرفع يدنا من البلاد فنعود الى حيث كنا بجميع جيوشنا امتثالاً لامرهِ والاَّ فلا يخطر ببالكم خروجنا من هذه البلاد وفي هذا كفاية والامر اليكم فانظروا فيما تفعلون ادام الله اجلالكم آمين »

﴿ تعيين الزبير حاكماً على شكا و بحر الغزال سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ م ﴾

وفي اثناء ذلك كتبت الى حكمدار الخرطوم اسماعيل باشا ايوب اعلمهُ بحالي وانتصاري على الرزيقات واسألهُ ان يرسل من يتولى حكومة البلاد التي فتحتها في بحر الغزال ودارفور بالنيابة عن خديوي مصر وقلت في ختام كتابي « فاذا ما وصل الحاكم واستلم البلاد عدت الى تجارتي تاركاً كل ما انفقت من الاموال في الفتح هدية لحكومتي السنية وانتظرت مكافأتها الادبية حسبما تقتضيه عدالتها وكرمها »

فجاءني الجواب بتاريخ ١ شوال سنة ١٢٩٠ هـ ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٧٣ م بما مؤداهُ :

« عرضنا كتابكم على الجناب العالي الخديوي فشكر ولاءكم وامتدح رغبتكم في وضع البلاد التي فتحتموها بين يديهِ ليولّي عليها من يشاء وقد انعم عليكم بالرتبة الثانية مع لقب بك وولاكم امر البلاد على ان تدفعوا لخزينتهِ جزية سنوية قدرها ١٥٠٠٠ جنيه » . فقبلت الجزية وتوليت امر البلاد رسمياً وشرعت في تنظيمها وعمرانها . لكن السلطان ابراهيم لم يطق الصبر على بقائي في بلاد شكا فأصدر امرهُ الى احمد شطة مقدوم الجنوب في داره وسعد النور مقدوم الشرق فأخذا في حشد الجيوش وجمع العدَّة لاخراجي منها . وكنت اراقب حركات المقدومين وسكناتهما وابلغها اسماعيل باشا ايوب في الخرطوم فيرفعها الى اسماعيل باشا الخديوي في مصر فأقرَّ الخديوي على اغتنام الفرصة التي كانت تترقبها حكومتهُ منذ فتح كردوفان وأرسل اليَّ ٢٨٠ من العساكر المنظمة وثلاثة مدافع نجدة وامر اسماعيل باشا ايوب فجهز جيشاً مؤلفاً

من نحو ٣٦٠٠ مقاتل من الجنود السودانية والمصرية والباشبوزق الشايقية والاتراك والمغاربة والمتطوعة واربعة مدافع جبلية وساروخين على ان يزحف بها على دارفور من الشرق وانا ازحف عليها من الجنوب ونتمُّ الفتح . على ان الفتح كلهُ تمّ عن يدي بعون الله ولم يبقَ لجيش الشرق اقل عملٍ فيهِ

ولما اتمَّ احمد شطة وسعد النور استعداداتهما زحفا بجيش ينيف على ٣٠ الف مقاتل قاصدين شكا فجرت بيني و بينهما واقعتان كانت العاقبة لي في كلتيهما وفي الثانية قتلت احمد شطة وسعد النور وهزمت جيوشهما ثم تقدمت الى داره فاحتللتها و بنيت فيها استحكاماً منيعاً و بعثت الى السلطان ابراهيم بكتاب بتاريخ غرة محرم سنة ١٢٩١ هـ ١٨ فبراير ١٨٧٤ م هذا نصهُ :

« اما بعد فقد حرَّرنا لكم من قبل مرتين بشأن الرزيقات فما اجبتمونا ثم لما علمنا من جوابكم للشيخ مادبو وغيرهِ من مشايخ الرزيقات انكم تجهزون الجيوش لقتالنا حذرناكم من ذلك وابنَّا ان ليس لكم فيهِ وجه شرعي ولا سياسي فما همكم تحذيرنا وتقدم وزيركم أحمد شطه ومقدومكم سعد النور بمن معهما من الملوك والشراتي والجيوش الكثيرة المجندة فباجمانا دفعتين ففي الدفعة الاولى هاجما قسماً من عساكرنا الذين انفردوا منا لغزوة على بعض العربان العصاة وذلك في ٢٥ القعدة سنة ١٢٩٠هـ ١٤ يناير سنة ١٨٧٤ م ثم هاجمانا في مراكزنا فلم تمضِ ساعة واحدة حتى انهزما امامنا شرّ انهزام . اما المقدوم سعد النور جزاهُ الله كل خير فانهُ قاتل قتال الابطال ومات بين كرات المدافع « والفضل ما شهدت بهِ الاعداء » . واما وزيركم احمد شطه أمير الجيش فقد فرّ على قدميهِ حافياً يطلب النجاة حتى قتل مطروداً بمن معهُ من اخلاط الناس بعيداً عن محل الواقعة ولا بد ان الخوذة التي كان يلبسها على رأسهِ وصلتكم فأكدت لكم خبر موتهِ . و بعد الواقعة أمرنا بجمع جثث الوزير والمقدم ومن قتل معهما من اولاد السلاطين والملوك والشراتي فكفنّاهم بأفخر الانسجة وصلينا عليهم ودفناهم بتمام الاكرام ودخلنا داره في ٢٣ الحجة سنة ١٢٩٠ هـ ٤ فبراير ١٨٧٤ م ؛ واما الرجال الذين قتلوا فأنتم المسؤولون عن دمائهم بين يدي الله تعالى يوم القيامة

لانا أنذرناكم مقدماً بالكتاب والسنة واذا راجعتم كتبنا السابقة علمتم انا لم نترك وجهاً للنصيحة الاّ عرضناهُ عليكم وأنذرناكم بهِ فأعرضتم عن الانذار وخالفتم الشرائط الاسلامية واتبعتم هوى النفس الغضبية وتغرير العربان المفسدين في الارض . وحيث ان الله لا يغير بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فقد فوضت أمري الى الله تعالى وكفى بهِ شهيدًا بيننا والله المستعان »

وفي هذا التاريخ كتبت ايضاً الى اجلّ علماء دارفور وهم الفقيه سلامه ابن الفقيه مالك شيخ الموطأ والفقيه فخر الدين ابن الفقيه محمد سالم شيخ الشفا والبخاري والفقيه سالم شيخ العزية والامام الضو بن الامام المصري امام السلطان (عم الشيخ الطيب المار ذكرهُ) فبينت لهم السبب الذي جاء بي الى بلاد الرزيقات واعدت لهم ما كتبتهُ الى السلطان حبًا برفع الحرب وحقن دماء المسلمين ثم ختمتهُ بقولي « فالأمل من حضراتكم يا علماء الاسلام ان تفيدونا عما دعا سلطانكم الى محاربتنا وهلاك عساكر المسلمين منا ومنهُ فان كان لهُ وجه شرعي في ذلك ونحن المخالفون للشريعة فنحن نشكرهُ على ما اجراهُ ونطلب المغفرة منهُ وان كان هو المخالف فكفى بالله شهيدًا بيننا وبينهُ ولا حول ولا قوَّة الاّ بالله العليّ العظيم اه » . فلا هم اجابوا كتابي هذا ولا السلطان ولكنهم اخذوا في حشد جيش جديد لاخذ الثار

﴿ واقعة الشرتاي احمد نمر ﴾ ثم ان الشرتاي احمد نمر كبير البرقد جمع شتات جيش المقدوم احمد شطه وحصرنا في الاستحكام واخذ يشاغلنا حتى تصل الجيوش التي يعدها السلطان ابراهيم فصبرت عليهِ حتى علمت ان الجيوش آتية نجدة لهُ فأمرت احد قوادي رابحاً فخرج اليهِ بفرقة من الجيش فقتلهُ هو ومن معهُ وغنم ما عندهُ من خيول ودروع وخوذ ومواش

وفي ٣ رجب سنة ١٢٩١ هـ ١٦ اوغسطوس ١٨٧٤ م بعثت بكتاب الى السلطان ابرهيم ادعوهُ للتسليم هذا مؤداهُ : « اني سألتكم في بادئ الرأي ان تساعدوني على الرزيقات الذين سعوا في الارض فسادًا ثم سألتكم مرارًا تسليم مُنزَل وعُليان اللذين التجأا اليكم فرارًا من وجه العدل فما أجبتم بل أرسلتم الجيوش لمحاربتي فأوجب الله

تعالى علينا محاربتكم حتى تستقيموا أنتم ومن معكم من المفسدين في الارض وقد تلقينا جيوشكم ونصرنا الله عليهم ودخلنا مدينة داره وصار القصد الآن ادخالكم أنتم و بلادكم تحت طاعة الحكومة الخديوية . فيا حضرة الامير ان كنت تحسب نفسك عبدًا لله وموقنًا ان الارض لله يورثها من يشاء من عبادهِ فبادر اخلع الملك عن نفسك بالتسليم الى وليّ نعمتنا الخديوي المعظم حبًا بالسلام وحجبًا لدماءِ المسلمين واذا سلمت تَسلم وتترك لك خزائنك واموالك وتبقى مكرَّمًا مبجلاً عند الجميع والاّ فاننا لابدَّ ان ننال ما نروم بالرغم عنك وأنت المسؤول بين يدي الله عن دماء المسلمين والسلام »

﴿ واقعة الامير حسب الله ﴾ فلما وصلهُ هذا الكتاب طار صوابهُ وجهز جيشًا عرمرمًا ينيف على المئة الف مقاتل بينهم عدد كبير من الفرسان المدرعين والمشاة المسلحين بالبنادق وعقد لواءهُ لعمهِ الامير حسب الله ومعهُ من الرؤساء علي التاماوي رئيس دادات السلطان والمقدوم احمد قومو مقدوم الصعيد خلف الوزير احمد شطه والمقدوم حسن ود أبلي مقدوم الغرب وابن ابرهيم ود دير (المار ذكرهُ في فتح كردوفان) فوصلوا داره في ١٢ رجب سنة ١٢٩١ هـ ٢٥ اوغسطوس سنة ١٨٧٤م وحصرونا في الاستحكام من الجهات الاربع وكتبوا اليَّ كتابًا يقولون فيهِ « لقد دخلت بلادنا وقتلت وزيرنا احمد شطه ثم الشرتاي احمد نمر فأخرج الآن من بلادنا لنشيعك بالسلامة والامان ! » وارسلوا الكتاب مع ثلاثة رسل وفي جملتهم محمد خالد زقل الدنقلاوي (الآتي ذكرهُ بعد) فكتبت اليهم في الجواب « اني دخلت بلادكم عنوة ولست انوي الخروج منها الاّ بقدر من الله فان كنتم قد جئتم لحربٍ فتقدموا لها والاّ فعودوا من حيث أتيتم » . ورأى الرسل بعض عساكر النيام نيام الذين في جيشي قد اجتمعوا على جثة آدمي يقتسمونها فيما بينهم فأخذ بعضهم الرأس والكراع و بعضهم الفخذين و بعضهم الصدر وشرعوا يشوونها على النار و يأكلونها فاقشعرّت ابدانهم من هذا المشهد فعادوا واخبروا بما كان من عساكري ومن جوابي فاعتمدوا على الحرب ونزلوا ضمن دائرة مرمى الرصاص وصاروا يناوشوننا القتال كل يوم من قبل طلوع الشمس الى ما بعد نصف الليل وكان معي زهاء ١٢ الف مقاتل

مسلحين بالبنادق فصليتهم نارًا حامية صبروا عليهـا سبعة ايام فأهلكت منهم خلقًا كثيرًا وفي اليوم الثامن تقضوا خيامهم ونزلوا بعيدًا عن مرمى الرصاص ٠ ولكنهم لم يزالوا على حصرنا ومناوشتنا القتال الليل والنهار حتى كاد الزاد يفرغ منا واذ دخل علينا الملك احمد من معسكرهم طالبًا ابنتهُ التي اسرناها في واقعة احمد شطه وقدَّم لنا عشر أواقي ذهب فدية لها فأخذت اسألهُ عن قوَّة جيش الفور وحركاته فاذا بالحرس الذين وضعتهم في مأذنة جامع داره لمراقبة حركات العدو يشيرون اليَّ ان اصعد اليهم فرأيت الفور في حركة وجلبة فنزلت الى الملك وقلت لهُ ان كنت تذهب وتأتيني بالخبر فاني أسلمك ابنتك بلا مقابل فحلفني الكتاب على ذلك وحلف لي انهُ يعود بالخبر اليقين ورجع الى قومهِ وقال لهم ان الزبير طلب ٢٠ اوقية ذهب فداء ابنتي ولم يكن معي سوى ١٠ اواقي فقـالوا خذ هذه عشر أخرى وبادر احضر ابنتك لان الجيش يستعد للهجوم على السور غدًا من كل الجهـات فأخذ عشر أواقي الذهب وأتى بالخبر ليلة الخميس الموافق ١٨ رجب سنة ١٢٩١ هـ ٣١ اوغسطوس سنة ١٨٧٤م٠ وكان الفور في تلك الليلة قد شربوا الخمر واكلوا لحم الضأن والابل وناموا نوم الراحة فانتهزت هذه الفرصة الثمينة وخرجت اليهم بثمانيـة آلاف رجل بهيئة مربع وسرت في جنح الليـل حتى صرت على قيد ١٠٠ متر منهم فأمرت عساكري فصبوا عليهم الرصاص كالمطر الوابل فقاموا مذعورين الى سلاحهم وصوبوا علينا نيرانهم فأصابتني رصاصة طائشة في يدي اليمنى وجرحتني جرحًا بليغًا ولكني لم أعبأ بها بل بقيت اشدد قومي واصبُّ عليهم الرصاص فولّوا الادبار منهزمين وقد امتلأت الارض من قتلاهم وفيهم ٤٠ رجلاً من اولاد السلاطين فجمعت الغنائم فكان فيها نحو ألفي درع و ٢٧٠٠ خيمـة و ٨ مدافع قديمة مكتوب على بعضها اسم سعيد باشا وشيء كثير من الاسلحة والذخائر الحربية ومن الحبوب والزاد ما كفى الجيش أربعة اشهر وعدت الى السور ٠ وعاد الامير حسب الله فجمع شتات جيشهِ وهاجمني في السور في ٢٧ رجب سنة ١٢٩١هـ ٨ سبتمبر سنة ١٨٧٤م فدام القتال بيني وبينهُ ٤ ساعات متوالية حتى كثر القتلى في جيشهِ فانهزم شر هزيمة

﴿ غزوة السلطان ابرهيم الى دارة ﴾ فلما بلغ السلطان ابرهيم خبر انكسار عمهِ الامير حسب الله استعظم الامر جدًّا واستكبرهُ وصاح بقومهِ صيحة عامة فجرد منهم جيشًا كثيفًا بلغ عددهُ نحو ١٥٠ الفًا بينهم ٣٠ الف فارس وعدة رجال مسلحين بالبنادق و ٨ مدافع وعزم على الخروج الى الحرب فخلّف على الفاشر ابنهُ الاكبر محمد الفضل وطلب من رجال دولتهِ ان يجعل كلاًّ منهم ابنهُ الاكبر خليفة عنهُ مع ابنهِ محمد الفضل ففعلوا (وكان في جملتهم الشيخ الطيب المتقدم الذكر اماماً لجامع الفاشر خليفة لعمهِ الشيخ احمد الضو) وزحف بجيشهِ على داره فوصلها في ضحى ٥ رمضان سنة ١٢٩١ هـ ١٦ اوكتوبر سنة ١٨٧٤ م واحتاط السور من الجهات الاربع وهاجمني بجميع جيوشهِ هجمة واحدة فأمطرت عليهم نارًا حامية فثبتوا عليها حتى الساعة واحدة بعد الغروب وفي اليوم التالي اعادوا الكرّة على السور من قبل طلوع الشمس فما كانت الساعة الرابعة من النهار حتى رددتهم على أعقابهم فاستراحوا الى ما بعد الظهر ثم عادوا الى الهجوم بعزم صادق مستقتلين وثبتوا والرصاص يحصدهم حصد الزرع الى ان فصل بيننا الليل فرجعوا وقد قتل منهم في ذلك اليوم خلق كثير وفيهم البعض من اولاد السلطان ابرهيم وأولاد اخيهِ وأعمامهِ وعماتهِ ٠ وفي الليل أتاني كتاب من السلطان مملوءٌ شتماً وسباباً وتهديدًا وقد أقسم بالله العظيم انهُ لا بدّ من اعادة الكرّة عليّ في الصباح ودخولهِ الاستحكام عنوةً وتأدية صلاة الجمعة في مسجد داره ٠ وفي الساعة الخامسة من الليل اطلق على السور خمسة وأربعين مدفعاً فلم اجبهُ بل شرعت في الاستعداد للغد ٠ فلما أصبح الصباح وانكشف لي معسكرهم رأيتهُ خالياً من الجيوش فخرجت بنفر من رجالي لاستطلع خبرهم فوجدتهم قد هربوا بالفعل ولم يكن هناك خدعة لان رجال السلطان لم يعودوا يطيقون مهاجمة السور فهجروا السلطان فتبعهم ليجمع شتاتهم ويسير بهم الى جبل مرة فيمتنع فيهِ ٠ فجمعت ما خلفهُ في معسكرهِ وشرعت في الاستعداد للحوق بهِ

﴿ واقعة منواشي الاحد في ١٤ رمضان سنة ١٢٩١ هـ ٢٥ اوكتوبر ١٨٧٤ م ﴾ وفي ١٢ رمضان سنة ١٢٩١ هـ خرجت بالجيوش مقتفياً أثرهُ حتى ادركتهُ في بلدة

منواشي الواقعة على يومين الى الجنوب الشرقي من الفاشر وذلك في الساعة التاسعة من نهار السبت الواقع في ١٣ رمضان ومعهُ من العساكر نحو ٣٠ الفًا وثمانية مدافع فرتّب عساكرهُ ميمنة وميسرة وقلبًا وكان هو ومن معهُ من الابطال المعدودين من اقاربهِ وغيرهم مع المدافع في القلب. وما طلعت شمس الاحد الواقع في ١٤ رمضان سنة ١٢٩١ هـ ٢٥ اوكتوبر سنة ١٨٧٤ م حتى انتشبت الحرب فأطلقوا علينا احد عشر مدفعًا فما أجبناهم بل سرنا سيرًا حربيًّا منظمًا قاصدين القلب فهجمت علينا عساكر الميمنة والميسرة واشتد القتال فما مضى الّا خمس دقائق حتى انكشفوا عنا وتقهقروا الى الوراء وعند ذلك هاجم السلطان ومن معهُ في القلب فهزموا مقدمة جيوشنا ودخلوا القلعة واشتبك القتال بالسيوف والحراب وكنت ترى السلطان يجول في وسط المعمعة ويقاتل كأنهُ الاسد ولكن لم يكن الّا القليل حتى خرّ قتيلاً هو ومن معهُ من الفرسان والشجعان وفيهم الكثير من اولادهِ واكابر دولتهِ وانكشفت الحرب عن النصر المبين لنا فأخذت جثة السلطان فكفنتها بالانسجة الفاخرة ودفنتها في جامع منواشي باحتفال عظيم اجلالاً لمقامهِ واقرارًا ببسالتهِ ثم دفنت القتلى من اولادهِ واكابر دولتهِ وعفوت عن جميع الأسرى وسمحت لهم بالذهاب الى حيث شاؤوا وقد اغتنمت في هذه الواقعة ثمانية مدافع وسبعة وعشرين حمل جمل جبخانة ما عدا الاسلحة النارية وغيرها

﴿ دخولهُ الفاشر ﴾ وبعد ان استرحت ٤ ايام في بندر منواشي سرت بالعساكر الى الفاشر فدخلتها في ٢٣ رمضان سنة ١٢٩١ هـ ٣ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م قبل طلوع الشمس فوجدت عائلة السلطان واهلهُ الذين تركهم بالفاشر قد فرّوا منها فلم يبقَ فيها سوى التجار وبعض العلماء فأمّنتهم على اموالهم ودمائهم واحسنت معاملتهم فلما بلغ الاهالي ما عاملنا بهِ التجار وانتشر خبر عدلنا ووفائنا بالعهود أخذوا يفدون الينا ليلاً ونهارًا مقدمين الطاعة والامتثال ولم يكن الّا ايام قليلة حتى دانت لنا جميع اهالي السلطنة من اعاجم وعربان حضر وبادية

﴿ دخول اسماعيل باشا ايوب الفاشر ﴾ اما اسماعيل باشا ايوب المهاجم لدارفور من الشرق فانهُ ابطأ في سيرهِ جدًّا وعند وصولهِ الى فوجه كتب اليَّ وانا اذ ذاك

في داره يقول « اني جئتك بنجدة فتشدد » فبعثت اقول لهُ « اذ كنت قد جئتني بنجدة فلماذا هذا الابطاء في السير والعدو محدق بنا بجيوش لا عداد لها » فأجاب « ما انا امرتك بالتقدم الى داره ولا افدينا فان استطعت ان ترفع الحصار وتجو بجيشك الى هنا فافعل والاَّ فدبّر امركَ بما تراهُ صواباً »

و بقي في فوجه حتى انقضت الحرب ولم يعد لي به حاجة . و بعد دخولي الفاشر بعثت اليهِ بالخبر فلقيهُ الرسول في طريقهِ الى داره فاثنى اذ ذاك عنها ووجَّه الجيش الى الفاشر فدخلها في ١ شوال سنة ١٢٩١هـ ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٤م فاكرمت لقياهُ وأطلقت لهُ مئة مدفع ترحيباً بهِ فهنأني بالنصر وشكر لي ولائي وحسن خدمتي

﴿ ضبط الامير حسب الله ﴾ هذا وكان المتخلفون من جيش الفور لما تحققوا موت السلطان ابرهيم في منواشي ولّوا عمـهُ حسب الله سلطاناً عليهم وذهبوا الى جبل مرة فتحصنوا فيهِ . فلما حضر اسماعيل باشا ايوب الى الفاشر سلمتهُ ادارة البلاد وجهزت جيشاً مؤلفاً من ١٢ الف مقاتل فيهم ٤٠٠ من العساكر المنظمة و ٢٠٠ فارس من عساكر الحكومة وزحفت على جبل مرة فلما رأى الامير حسب الله قوَّتي سلم بلا قتال وكان معـهُ بعض اولاد السلطان ابرهيم وعمتهم الميرم عرَفه وغيرهم من اولاد السلاطين ونحو ١٢٠٠ رجل من اعيان البلاد وكبرائها فجئت بهم جميعاً الى الفاشر . وقد غبت في هذه المهمة ٩٦ يوماً

﴿ ارسال الامير حسب الله وسائر اولاد السلاطين الاسرى الى مصر والزبير الى دراه ﴾ وكان الامير حسب الله قد سألني بعد التسليم اليَّ في جبل مرّه ان اساعدهُ على توليهِ البلاد ليحكمها تحت طاعة الحكومة الخديوية فيدفع لها مئة الف جنيه جزية سنوية فأعجبني هذا الرأي ورأيتهُ الرأي الصواب الذي فيهِ راحة البلاد والحكومة معاً فعرضتهُ على الحكمدار واسندتهُ بكل قوَّتي فرفضهُ الحكمدار بتاتاً ووقع بيني وبينهُ جدال طويل افضى الى النزاع . وارسل الامير حسب الله والامير محمد الفضل خليفة السلطان ابرهيم وكثيرين غيرهما من اولاد السلاطين الى مصر القاهرة حيث لا يزال اكثرهم احياء الى اليوم (كما مرّ) . وامرني بالذهاب الى

داره والاقامة فيها بعساكري الى ان يصدر اليَّ امرًا آخر بالرجوع الى بحر الغزال

﴿ ثورة الامير بوش وقتلهُ ﴾ ولكن لم يمضِ شهر حتى ورد عليَّ كتاب منهُ يقول ان بوشًا اخا الامير حسب الله شق العصا فجمع بقية اولاد السلاطين في جبل مرة وملأ البلاد عيثًا وافسادًا وأمرني بالخروج عليهِ واخماد ثورتهِ فصدعت بالامر وجئت جبل مرّه في غرة رجب سنة ١٢٩٢ ﻫ ٣ اوغسطوس سنة ١٨٧٥ م وشهرت عليهِ حربًا عوانًا مدة ١٥ يومًا فترك الجبل واعتصم بالفرار فتركت ابني سليمان مع ١٢٠٠ جندي في الجبل وتتبعتهُ حتى ادركتهُ في صرف الجداد قرب كبكبية فأوقعت بهِ واقعة شديدة انتهت بقتلهِ وقتل اخيهِ سيف الدين و ٢٧ رجلاً من كبراء جيشهِ

﴿ دخولهُ دار وداي ورجوعهُ عنها ﴾ ثم توغلت بالجيش في بلادِ الغرب فدانت لي ديار تامه والمساليت وقمر وسلا حتى جئت الى الترجة الفاصلة بين دارفور ووداي فأقمت فيها اياماً للراحة بعزم الدخول في دار وداي واخضاعها للحكومة الخديوية وكان عليها اذ ذاك السلطان علي ابن السلطان محمد شريف فبعثت اليهِ بكتاب ادعوهُ الى الطاعة ثم دخلت بلادهُ وتوغلت فيها حتى صرت على مسيرة يومين من عاصمتهِ فورد عليَّ كتاب منهُ يدل على قبولهِ الدخول في طاعة الحكومة الخديوية وقد تعهد بدفع مبلغ معلوم جزية سنوية على ان يبقى السلطان على بلادهِ ووجَّه اليَّ احد وزرائهِ بهدايا كثيرة للمفاوضة معي في هذا الشأن ولكن قبل وصول الوزير ورد عليَّ كتاب من اسماعيل باشا ايوب بناء على ارادة سنية ملحًا عليَّ بالرجوع الى دار وداي في الحال فرجعت الى الفاشر متأسفًا على ما فات من فتح وداي فأخبرني الحكمدار ان سلطان ودّاي أرسل وزيرهُ احمد تنقه الى مصر عن طريق سيوه فتشكى للجناب الخديوي فأمر جنابهُ العالي برجوعي ولكنهُ أنعم عليَّ برتبة اللواء الرفيعة مع لقب باشا

هذا وكانت غزوة ودّاي آخر غزواتي التي زاد عددها على المئة والعشرين وقد نصرني الله فيها كلها فلم افشل الاَّ في ثلاث منها

﴿ تحصين الفاشر ﴾ وكان اسماعيل باشا ايوب بعد دخولهِ الفاشر شرع في بناء «استحكام» (حصن) منيع للعساكر على التلة الغربية من الفاشر فبنى سورًا مربعًا

متيناً من الطوب سمكهُ ٣ اقدام وطول الضلع الواحدة منهُ ٢٠٠ قدم واقام في اركانهِ الاربعة ابراجاً على كل ركن برجاً جعل فيهـا المدافع وحفر من وراء السور خندقاً بلغ عمقهُ ١٥ قدماً واحاط الخندق بزريبة من شوك وبنى من داخل السور ديواناً للحكومة ومنزلاً للحاكم وقشلاقاً (ثكنة) للعساكر المنظمة واما العساكر الغير المنظمة فقد اقرَّها خارج السور وهدم المنازل التي الى جوار السور فجعل الارض التي حولهُ في غاية الانكشاف الى مسافة بعيدة فجاء حصناً منيعاً جدًّا. ثم وزَّع منشورًا في كل البلاد ودعا الناس الى الفاشر لاخذ الامان فصارت الوفود تأتيهِ من الجهات الاربع فيؤمّنهم ويرجعهم الى بلادهم . ثم امر فعمرت سوق كبيرة في الفاشر وعاد الناس الى معاطاة اشغالهم كالعادة

و بعد ان تمهدت البلاد جعلها اربعة اقسام كما كانت قبل الفتح وهي مديريات الفاشر وداره وكلكل (أو كبكبية) وادارة أم شنقة واقام في كل من مركزي دارة وكلكل حصناً كالذي اقامهُ في الفاشر وجعل مرتب كل مديرية اورطتين من العساكر المنظمة وستة سناجق من الباشبوزق الشايقيـة والاتراك والمغاربة وبطارية بستة مدافع واما ادارة أم شنقة فقد جعل مرتبها بلوكين من العساكر المنظمة وسنجقاً واحدًا من الباشبوزق لقربها من الابيّض

﴿وضع الضرائب على الاهلين﴾ ثم لما دخلت سنة ١٢٩٢ هـ ١٨٧٥ م شرع في وضع الضرائب على الاهلين فجعـل على كل نفر خمسين غرشاً في السنة ما عدا اهل اليسار فانهُ جعل عليهم ضرائب اعظم على نسبة يسارهم. ولما كنت على يقين ان هذه الضرائب تثقل على الاهلين فلا يطيقونها نصحت للحكمدار ان يجعلها من غرشين الى عشرة غروش وقلت اني اخاف اذا ثقلنا الضرائب على الاهلين وهم غير متعودين عليها نفروا منا ونزعوا الى الثورة وكان كما قلت فانهم لم يلبثوا ان ولّوا الامير هارون حفيد السلطان محمد الفضل سلطاناً عليهم وثاروا معهُ على الحكومة فأتعبوها مدة طويلة (كما سيجيء) ولكن الحكمدار تكدر من نصحي لهُ وكلمني بحدة زائدة وقال انهُ ادرى بما يجب فعلهُ . فكتبت اليهِ اذ ذاك كتاباً رسمياً ثبتُّ فيهِ

رأيي ورفعت المسؤولية عني وألقيتها عليهِ فزادهُ هذا الكتاب غيظاً وحدَّة . واصدر امرهُ اليَّ بالرجوع الى بحر الغزال في الحال فصدعت بالامر وخرجت بعساكري قاصدًا داره فما وصلت اليها حتى ورد عليَّ تلغراف من سمو الخديوي اسماعيل باشا من مصر يأمرني بعدم التعرض للحكمدار في ادارة البلاد فعلمت من ذلك ان الحكمدار شكاني الى سموهِ وطعن في صداقتي واخلاصي لهُ وقيل انهُ اتهمني بارادة الاستقلال في البلاد (مجيء الزبير الى مصر وسيرتهُ فيها) فعزمت على المجيء الى مصر للتشرف بمقابلة الجناب العالي وعرض حقيقة الحال على سموهِ والنظر معهُ ومع رجال حكومتهِ في تنظيم البلاد التي تمَّ فتحها عن يدي والبلاد التي يمكن الحاقها بحكومتهِ في المستقبل فعرضت لهُ ذلك تلغرافياً فلم يكن الا يسيرًا حتى اجابني تلغرافياً بما نصهُ :

«سعادتلو زبير باشا : لقد كانت افكاري متعلقة بك لكن بالنظر لما بيني وبينك من بُعد المسافة ولما هو بالغ مسامعي عما أنت فيهِ من المشغوليات الجسيمة ظننت انهُ لا يتيسر حضورك فلما ورد تلغرافك بطلب مقابلتي بمصر صرت ممنونًا فبادر احضر الى مصر لاجل المداولة معك في تشكيل حكمدارية تكون مفوضة بك وتحت ارادتك وها قد تنبه على جميع طلباتك بغاية الاعزاز والاكرام» . فلما تلوت التلغراف شعرت في نفسي بأني ان ذهبت الى مصر فلا اعود الى السودان وبذلك شعر رجالي ايضاً وارادوا منعي عن الذهاب ولكن اخلاصي لحكومتي وشرف نفسي قضيا عليَّ بالمحافظة على قولي فجئت الى مصر عن طريق الابيض والخرطوم وبربر وأبي حمد وكورسكو في ٦ جمادى الاولى سنة ١٢٩٢ هـ ١٠ يونيو ١٨٧٥ م وتشرفت بمقابلة الجناب الخديوي بسراي الجيزة فرحَّب بي وهنأني بالسلامة وانزلني في احدى سرايات العباسية مع عائلتي واتباعي ورتّب لي كل ما احتاج اليهِ من اكسية ومؤونة

وكان في جملة ما احضرتهُ من السودان : ١٠٠٠ عسكري سوداني بالسلاح الكامل و ١٠٠ حصان من جياد خيل العرب و ١٦٥ قنطار سن فيل من الاسنان المتناهية في الكبر والجودة و ٤ اسود و ٤ نمورة و ١٦ ببغاء . فقدمتها لاسماعيل باشا عن يد مهردارهِ خيري باشا بكتاب خاصٍّ فأجابني المهردار بكتاب رقيق العبارة

يقول فيهِ « ان افندينا ممنون جدًّا من هديتكم » . وبقيت في السراي التي أعدت لي الى غرة رجب سنة ١٢٩٢هـ ٣ اوغسطوس سنة ١٨٧٥م اذ دعاني سمو الخديوي الى سراي الجيزة واصدر لي امره بالاستعداد للسفر قريبًا الى السودان وكان ذلك في حضور مهرداره خيري باشا فشكرت سموهُ وشرعت في الاستعداد للسفر فاشتريت ذهبيتين بألف وسبعماية جنيه وشحنتها من البضائع والتحف المصرية ما بلغت قيمتهُ ٤٠ الف جنيه

ومكثت انتظر صدور الامر بالسفر حتى كانت غاية رمضان سنة ١٢٩٣هـ ١٩ اوكتوبر ١٨٧٦م فدعاني سمو الخديوي الى مقابلتهِ وقال لي : « يا زبير باشا قد استصوبت بقاءك في القاهرة في ظل ساحتي حتى انظر في امرك » فأدركت اذ ذاك الغرض الذي دعيت لاجلهِ وتمَّ ما توقعت حدوثهُ ولكن لم يكن لي سوى الطاعة فقلت « امرك يا مولاي » وانصرفت والاسف ملء فؤادي على هذا المصير

ولما كانت الحرب بين الروس والدولة العلية سنة ١٢٩٤هـ ١٨٧٧م ندبت الى مرافقة النجدة المصرية فذهبت معها وعدت بعد انتهاء الحرب

هذا وكنت عند قيامي من داره تركت جيشي بقيادة ابني سليمان فاساءت الحكومة السودانية اليهِ فاضطر الى الخروج عن طاعتها فوشى بي بعض المنافقين بقولهم اني قبل قيامي من داره اوصيت ابني سليمان بالثورة اذا حجزت الحكومة عليَّ في مصر بل قالوا اني كتبت اليهِ من مصر احرضهُ على الثورة وكان على السودان اذ ذاك غوردون باشا فصدَّق الوشاية وامر بتصدير اموالي في السودان وارسل « جسي » في طلب ابني سليمان فحاربهُ في عدة وقائع . فكتبت الى سليمان بالتسليم الى الحكومة وترك الحرب فسلم الى جسي فقتلهُ غدرًا

فلما حضر غوردون الى مصر سنة ١٨٨٤م اجتمعت بهِ في بيت « السر افلن بارنج » (اللورد كرومر) بحضور السر افلن وود سردار الجيش المصري ونوبار باشا رئيس مجلس النظار فسألتهُ عن سبب تصدير اموالي وقتل ابني سليمان فوجدتهُ مقتنعًا بأني كتبت الى ابني كتابًا احرضهُ فيهِ على الثورة فقلت لهُ اذا ظهر هذا الكتاب وبان

انهُ مني فاني اقدم نفسي للقتل والا فاني اطالب بدم ابني ورد اموالي اليَّ». وبالطبع لم يظهر الكتاب لانهُ لم يوجد الا في مخيلة المفسدين اهل البغي ففضَّ المجلس ولم يكن شيء.

هذا وكانت الحكومة المصرية قد انتدبتني سنة ١٨٨٣ م لحشد آلاي من السود في مصر والذهاب الى سواكن لقمع عثمان دقنه فحشدت الآلاي وقمت بهِ فعلاً الى السويس وبعثت بالرسل الى عثمان دقنه ثم علمت هناك اني سأكون تحت اوامر باكر باشا فقلت اما ان اذهب وحدي لقضاء هذه المهمة أو لا اذهب فلم ترضَ الحكومة بالاول فعدت الى مصر

وعند ذهاب غوردون الى السودان قصد اخلائهِ سنة ١٨٨٤ م لم يلبث أن بعث الى الحكومة يستدعيني اليهِ لاساعدهُ على اخلاء البلاد واستلامها بعد ذهابهِ منها ولكن قيل لي ان جمعية ابطال الرقيق في لندن عارضت في ذلك

وفي سنة ١٨٨٥ م عاد المفسدون فوشوا بي بقولهم ان بيني وبين متمهدي السودان مفاوضات سرية فهجم رجال البوليس على بيتي ليلاً وفتشوهُ لعلهم يعثروا فيهِ على ما يؤيد تلك الوشاية فلم يجدوا شيئاً يلقي اقل تهمة عليَّ ومع ذلك فقد قبضوا عليَّ واخذوني الى جبل طارق فحبسوني ٣٠ شهرًا ثم لما تأكدوا براءتي اطلقوا سراحي وأرجعوني الى القاهرة في سبتمبر سنة ١٨٨٧م

ولما كنت في جبل طارق تذكرت عزّي في السودان وقابلتهُ بذل الحبس فقلت منشدًا :

« بعد الاهل والونسه — وبعد العز والحرسه
بعد انتظام العساكر المؤسسه — وبعد فرسان تفشّ المغصه
انقلب الدهر وانعكسا — بحبس الزبير في الاندلسه
يا رب ياخالق الكون يامؤسسه — عجل بالفرج قبل القسا
نرجع ونشوف عزًّا مؤسسا — من فضلك يا كريم لاينقصا»

وقلت : «يا ليل ماني هيّن ولاني هوّين — في الكفر والاسلام اسمي بيّن
وفي قومي هناك بيتي بيّن — للمسافر والمقيم قدحي ليّن
وللجار والعشير جانبي ليّن — للاقارب والارحام بعطي بهيّن

توفيقاً من المولى الكريم المهيمن وكل شيء منهُ والامر بين » اه

هذه هي سيرة الزبير باشا كما تلقيتها عنهُ سنة ١٩٠٠م . وقد سمح لهُ السردار الحالي بالرجوع الى بلاده واعاد اليهِ املاكهُ واكرمهُ فبقي في الخرطوم سنتين شاهد فيهما اهلهُ ودبر املاكهُ ثم عاد الى حلوان حيث ابتنى لنفسهِ منزلاً فخيماً للسكنى فيهِ ولهُ الآن اربع نساء شرعيات وعدة اولاد بينهم ولد في سن الشباب يسمى ميسره متأسلٌ اباهُ في خلقهِ واخلاقهِ

والزبير طويل القامة قوي البنية اسمر اللون عربي الملامح حسن الطلعة خفيف الشاربين واللحية حديد الصوت فصيح اللهجة ذكي الفؤاد عالي الهمة ابيّ النفس كريم الطبع سهل الحجاب قوي الارادة قريب الى الخير بعيد عن الشر محب للعلم واهل العلم والتقوى غيور على الاسلام والمسلمين مع مسالمة الذين على غير دينهِ وهو لم يزل في معيشتهِ البيتية من المآكل والمشرب والملبس على نحو ما كان عليهِ في السودان لكنهُ اذا خرج لبس الطربوش ولباس الافرنج

وقد وصفهُ بعض كتاب الافرنج بانهُ رجل « تجاري سياسي حربي » وقال بعضهم « انهُ خلق ليحكم الناس »

واظهر صفاتهِ الكرم والنجدة وحب الفخر والسلطة . وقد اشتهر كرمهُ منذ كان ملكاً في بحر الغزال فقصدهُ الكثيرون من اهل البيوتات في السودان الذين اخنى عليهم الدهر فازال كربتهم وفرَّج ضيقهم . وقد ذكر في بعض مجالسهِ المبالغ الكبيرة التي انجد بها قومهُ وهو في بحر الغزال فبلغ مجموعها نحو ٢٠ الف جنيه ولم تزل دارهُ الى الآن مقصداً لمن خانهُ الدهر من اهل السودان المصري والغربي

والزبير يطالب الحكومة الآن بمبلغ ينيف على المليون جنيه تعويضاً عما انفقهُ في السودان ومصر في خدمة الحكومة المصرية وعما فقدهُ هو وابنهُ سليمان من العساكر والامتعة والاموال بسببها . وقد رافع عنهُ السر ماريوت لدى حكومة انكلترا قصد تحصيل هذا المبلغ فلم يفلح ولكن الحكومة المصرية ربطت لهُ في ميزانيتها معاشاً قدرهُ ٢٨٩ جنيه في الشهر لكنهُ غير راض بهِ وهو لم يزل يطالب الحكومة

بالتعويض المتقدم ذكرهُ . وقد طالما سمعتهُ قبل العودة الى السودان يكرر هذين البيتين :

سلوا ام عمرٍو كيف بات اسيرها ☆ تفكُّ الاسارى دونهُ وهو موثقُ
فما هو مقتول ففي القتل راحة ☆ ولا هو ممنون عليهِ فيطلقُ

وما حضرت لهُ مجلساً الا قصَّ عليَّ شيئاً عن غزواتهِ في بحر الغزال ودارفور وشكا من ثلاثة امور : ١ . عدم اعطاء الحكومة التعويض الذي يطلبهُ منها ٢ . قتل ابنهِ سليمان غدرًا بعد التسليم ٣ . هجوم البوليس على منزلهِ وحبسهُ في جبل طارق . ولكنهُ يثني اطيب الثناء على الانكليز الذين ولوا امر حراستهِ هناك وقد قال لي مرة « ان الاكرام الذي لقيتهُ من الانكليز مدة اسري في جبل طارق انساني حبسهم لي بلا حق بل حمَّلني منَّةً لا انساها ابد الدهر ولاجلها اذا لقيت انكليزيًا في اقصى الارض وقد وقع في ضيق او خطر فديتهُ بنفسي »

وقد تغنَّى شعراء السودان في مدحهِ فمدحوهُ بالكرم والفروسية وعلو المقام من ذلك قصيدة الحاجة بنت مسيمس الشاعرة المشهورة التي نظمتها لهُ بعد نزولهِ الى مصر ومنها :

في الخرطوم نزل ادَّلى بالبابور	وفي بربر رسا بالقهوة غفره يدور
جابوا لهُ الجمال اتوجه العتمور	حلق الريف نزل قال لمصر دستور
في بلد النصارى كم سحت بالبابور	كل صبح جديد راكب على الحنتور
من قمت الجهل انت المتقديم منصور	أدوك الامان خايفين عليك الجور
في السودان قبيل ما يشبهوك الناس	وياجبل الذهب الصافي الماك نحاس
بارود النصارى عن قمزة الكباس	خليت المجوس ألين من القرطاس
عدَّى عصره زين في ديار بلادالناس	وفي دار الغروب دقيت للرجال اساس
كم قتل السلاطين خلَّى الديار ياس	ودرحمه الزبير تام الرجاله خلاص

﴿ عود الى ولاية ٢١ . اسماعيل باشا ايوب ﴾

اما اسماعيل باشا ايوب فانهُ بعد ان نظم البلاد على ما مرَّ في تاريخ الزبير ولى على الفاشر حسن باشا حلمي المشهور بالجويسر وعاد الى الخرطوم

وأرسل الجناب العالي الخديوي رسالتين علميتين الى دارفور لاجل كشفها ومعرفة محاصيلها ومعادنها فسارتا من مصر في ٥ دسمبر سنة ١٨٧٤ وذهبت احداهما بقيادة الكولونل بردي عن طريق الاربعين فدخلت دارفور من الشمال والاخرى بقيادة الكولونل كولستن فدخلتها من الشرق عن طريق كردوفان ولكن الكولونل كولستن مرض في الطريق وعاد الى مصر فترأس الرسالة الماجور بروت وقامت الرسالتان بما عهد اليهما حق القيام وعادتا الى مصر بتقارير علمية وافية عن سكان البلاد ومعادنها وتجارتها واجمال حالها

هذا ما كان في السودان الغربي في عهد اسماعيل باشا ايوب على الخرطوم فلننظر الآن الى ما كان في عهدهِ في السودان الشرقي :

احتلال سنهيت سنة ١٨٧٤ م

تقدم ان الدولة العلية تنازلت الى مصر عن سواكن ومصوع في سنة ١٨٦٦ م لزيادة في جزيتها السنوية فمذ اصبحت مصوع بيد مصر اخذت تسعى في تأييد المواصلات بينها وبين كسله وكان اول مافتق لها وصل هذين البلادين بخط حديدي يمرّ في سنهيت التي عدّها اسماعيل باشا داخلة في الفتح الاول لكسلة فعارضهُ الملك ثيودورس ملك الحبشة في ذلك . ثم قتل الملك ثيودورس في حرب اثارها عليهِ الانكليز سنة ١٨٦٨م وتولى الحبشة بعدهُ الملك يوحنا فانشغل في محاربة القالاَّ فاغتنم اسماعيل باشا الفرصة واستخدم الموسيو مونسنجر السويسري الذي كان قنصلاً لدولتي انكلترا وفرنسا في مصوع فاحتل سنهيت بألف وخمسماية رجل سنة ١٨٧٤ م وفي الوقت نفسهِ اشترى مقاطعة آيلت الواقعة بين حماسين ومصوع من حاكمها فأهاج ذلك غضب الملك يوحنا ورفع الامر الى الدول الاوربية معتمدًا

بالاكثر على انكلترا . اما اسماعيل باشا فلم يهتم لغضبهِ ولم يزل على سعيهِ ولكنهُ شُغل عنهُ قليلاً باحتلال هرر وحملة جوبا :

احتلال هرر سنة ١٨٧٥ م

هرر سلطنة اسلامية مستقلة شرقي الحبشة وقد أسسها غزاة العرب بعد الاسلام بقليل وحكمها عائلة من اهلها فلما كانت سنة ١٨٧٤ م مات سلطانها الامير احمد فتولى السلطنة بعدهُ الامير محمد فاستبدّ بالاهلين حتى لم يعد لهم طاقة على حكمهِ فاستنجدوا باسماعيل باشا وسألوهُ ان يرسل من قبلهِ والياً يتولاهم بدل سلطانهم محمد فأجاب اسماعيل باشا سؤالهم واخذ يسعى في شراء زيلع و بربره ميناءا هرر من الدولة العلية . وفي يوليو سنة ١٨٧٥ م تنازل لهُ الباب العالي عنها بزيادة ١٣٣٦٥ جنيهاً مصرياً على جزية مصر السنوية . وفي سبتمبر سنة ١٨٧٥ م جهز حملة مؤلفة من ٥ اورط من المشاة المصريين و بلوكين من الباشبوزق و ٣٠٠ جمل ومدفعين جبليين وعدّة صواريخ حربية وعقد لواءها لرؤوف باشا الذي تقدم ذكرهُ في فتح خط الاستواء . فاحتل مدينة هرر في ١١ اكتوبر سنة ١٨٧٥ م وقبض على السلطان محمد وقتلهُ خنقاً بلا موجب و بقي الى ان عزلهُ غوردن . وما زالت مصر قابضة على زمام الاحكام في هذه البلاد الى ان كانت الثورة المهدية ولم يعد يمكنها ابقاء جنودها فيها فأخلتها لاهلها في مارس سنة ١٨٨٤ م فآلت الى الاحباش في عهد الملك منيلك الحالي وما زالت بيد الاحباش الى اليوم

﴿ حملة جوبا سنة ١٨٧٥ م ﴾ وفي سنة ١٨٧٥ م ارسل اسماعيل باشا حملة الى نهر جوبا لفتح الطريق بين البحر الهندي و بلاد خط الاستواء وتجنب السد في النيل الابيض الذي لم يقوَ على ازالتهِ . وكان غوردن باشا اذ ذاك حاكماً على خط الاستواء فأصدر اليهِ الامر بملاقاة الحملة من جهتهِ ولكن تضاربت عدّة مصالح دولية ووقفت في سبيل هذه الحملة فنصحت الدولة الانكليزية لاسماعيل باشا فعدل عن رأيهِ وعادت الحملة الى مصر

﴿ حرب الحبشة سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ م ﴾ وعاد اسماعيل باشا الى النظر في

احتلال حماسيم فلما كانت اواخر سنة ١٨٧٥ م ارسل اورطتين وبطارية مدافع بقيادة الكولونل ارندروب من ضباط الاميركان في خدمة الجيش المصري بقصد احتلالها فلما علم الملك يوحنا بقدومه جرَّد جيوشهُ وتقدم لقتالهِ فالتقاهُ في قندت في ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٥ فقتلهُ وافنى جيشهُ وغنم اسلحتهُ وذخائرهُ وتقوَّى بها وكان في جملة القتلى عراقيل بك وكيل مونسنجر في مصوع اما مونسنجر نفسهُ فلم يذهب مع الحملة ولكن لم تنتهِ سنة ١٨٧٥ م حتى قتلهُ الاحباش على بحيرة أوسا ومثلوا بهِ

ولما وصل الخبر الى اسماعيل باشا بمصر صمم على الاخذ بالثار فأمر السردار راتب باشا فجرَّد جيشاً مؤلفاً من ١٥٠٠٠ مقاتل فيهم اورطة من السواري واربعون مدفعاً وعدة سواريخ وسار بهِ بطريق البحر الاحمر الى مصوع فوصلها السبت في ١٣ القعدة سنة ١٢٩٢ هـ ١١ ديسمبر سنة ١٨٧٥ م ومعهُ الكولونل لونج رئيس اركان حرب والبرنس حسن باشا ثالث انجال اسماعيل باشا اركان حرب شرف وزحف بالجيش على قرع الواقعة على ٥٥ ميلاً من مصوع فبنى طابية فيها وطابيتين في اول سهلها قرب قياخور واسس ثلاث نقط حربية بينها وبين مصوع لحفظ خط الاتصال.

ولما علم الملك يوحنا بقدومهِ جرَّد جيوشهُ على قرع وكان من رأي السردار ان يتربص في الطوابي حتى يهاجمهُ الملك فانكر عليهِ الكولونل لونج هذا الرأي وقال انهُ دليل الخوف والجبن وليس من شأن المهاجم فوقع الحجاج بينهما واخيرًا تغلب رأي الكولونل لونج فما اطلَّت جنود الملك يوحنا حتى خرج اليهم المصريون وحاربوهم في السهل فأطبق الاحباش عليهم من كل جانب وقد قدّر عدد الاحباش بنحو ٢٠٠٠٠٠ نفس مع النساء والاولاد وكان بعضهم مسلحين بالبنادق واكثرهم بالسيوف والحراب والدرق فلم يكن الا القليل حتى اخترقوا صفوف المصريين واعملوا بهم السيوف والحراب ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل وغنموا بنادق القتلى و٢٥ مدفعاً ومقدارًا كبيرًا من الذخائر واسروا ٢٦٧ رجلاً وذلك في يوم الثلثاء الواقع في ١١ صفر سنة ١٢٩٣ هـ ٨ مارس سنة ١٨٧٦م

واما الذين نجوا من المصريين وعددهم لايزيد عن الالف فقد لجأوا الى طابية

قرع فهاجمهم الاحباش فيها بعد الواقعة بيومين ولكنهم لم يقووا عليها فعادوا بالاسلاب والاسرى الى عدوه

وكان في جملة الاسرى محمد بك رفعت الذي رافق الحملة كاتباً للبرنس حسن باشا فأخذ يسعى في عقد الصلح مع الملك فتمّ الصلح على ان يرجع الجنود المصرية من ارض الحبشة ويرد الملك الاسرى الى مصر ويفتح التجارة بين مصوع والحبشة وعاد محمد بك رفعت مع الاسرى الى قرع في ٢٧ ربيع اول سنة ١٢٩٣ هـ ٢٢ ابريل سنة ١٨٧٦ م وعاد السردار وباقي العساكر من قرع الى مصوع ومصر فدخلوا مصر في ٧ محرم ١٢٩٤ هـ ٢٢ يناير سنة ١٨٧٧ م . وبقيت سنهيت ومصوع بيد المصريين وبقي سليمان باشا نياظي في مصوع محافظاً عليهما

جرى ذلك كلهُ واسماعيل باشا ايوب حاكم في الخرطوم وقد أمّن السبل وانشأ محطات في طرق القوافل بين الخرطوم ودارفور وبين بربر وسواكن الاّ انهُ لم يكن محبوباً في السودان وقد وصفهُ لي بعضهم بقولهِ: «كان رجلاً جباراً يعني بالعسكرية ويهمل الرعية ويقبل كل هدية»

﴿ ٢١ . غوردن باشا ١٢٩٣ : ١٢٩٦ هـ — ١٨٧٧ : ١٨٧٩ م ﴾

ولما دخلت سنة ١٨٧٧ م عاد اسماعيل باشا ايوب الى مصر فلم يرَ الخديوي رجلاً يوليهِ السودان على اتساع اطرافهِ وكثرة مشاكلهِ في هذا العهد افضل من غوردون فأرسل يستدعيهِ تلغرافياً من بلاد الانكليز فحضر في اوائل فبراير سنة ١٨٧٧م . وكانت مديريات السودان لا تزال مستقلة بعضها عن بعض فطلب غوردن ضمها كلها تحت ولايتهِ فأجابهُ الى ذلك واصدر لهُ فرماناً بتاريخ ١٧ فبراير بالولاية على جميع بلاد السودان المصري مع دارفور وخط الاستواء وسواحل البحر الاحمر وهرر ومنحهُ السلطة العسكرية والمدنية عليها واعطاهُ سلطاناً على القتل والعفو ومنع دخول احد الى السودان الاّ باذنهِ ووجهُ منع تجارة الرقيق وتحديد التخوم بين السودان والحبشة . فسار غوردون الى الخرطوم بعزم وطيد لاصلاح

البلاد وفض مشاكلها ووضع نظام عام يكفل لها الراحة ويرقيها في معارج المدنية والعمران ولكنهُ لم يلبث ان رأى خطارة المركز الذي تولاّهُ وتعذّر النجاح نظرًا لعدم تيسر الايدي اللازمة للعمل واتساع اطراف السودان ومشقة السفر في بلاده برًّا وبحرًا مع قلة الجيوش اللازمة لحمايته بعد ان ذهب قسم منها لمساعدة الدولة العلية في حرب الروس ونهك الباقي حرب الحبشة . فقضى غوردون في السودان سنتين ونيفًا وهو يتنقل من مكان الى مكان تارةً بالبر وتارةً بالبحر متممًا كلما امكنهُ من الاصلاح حتى اعياهُ التعب وقاومتهُ السياسة فاضطر الى الاستعفاء . وكان اهم ما اشتغل به في هذه المدة : اخماد ثورة الامير هارون الرشيد في دارفور وحركة صباحي في كردفان وسليمان الزبير في بحر الغزال ومنع تجارة الرقيق والنظر في مد سكة الحديد واصلاح ذات البين بين الحبشة والسودان

﴿ ثورة السلطان هارون سنة ١٨٧٧ : ١٨٨٠م ﴾ تقدم ان اسماعيل باشا ايوب ضرب الضرائب الفادحة على اهل دارفور فقبلوها على الرغم لانهم كانوا قد سئموا عيشة الاضطراب والقلق التي وصلوا اليها في آخر سلطنة الفور وتاقوا الى السكينة ولكن لم يطل الامد حتى انتشر الباشبوزق في انحاء البلاد واقتضوا الضرائب منهم بالعنف والقوة فاستعظموا ذلك وفضلوا العودة الى ما كانوا عليهِ قبل . وكان عندهم من اولاد السلاطين الامير هارون الرشيد ابن الامير سيف الدين ابن السلطان محمد الفضل فبايعوه سلطانًا عليهم في اوائل سنة ١٨٧٧م وثاروا ثورة عامة وحصروا حاميات الفاشر ودارة وكلكل . وحصر الفاشر الملك سعد كبير البرقي والمقدوم آدم مقدوم الشمال سابقًا فهاجماها مرتين وكادا يستوليان عليها لو لا ان العساكر حاربوا حرب الاسود فصدوهما ولكنهم لم يقووا على رفع الحصار . فارسل حسن باشا حلمي الجويسر مدير الفاشر في طلب المدد من الخرطوم فاتاهُ عبد الرزاق باشا بجيش كبير فتصدّى لهُ العصاة في بروش بين ام شنقه والفاشر فقتل منهم خلقًا كثيرًا ودخل الفاشر فرفع عنها الحصار وارسل الجنود الى دارة وكلكل فرفعوا الحصار عنهما ايضًا

ثم اخذ حسن باشا عسكرًا من الفاشر وخرج لمطاردة الامير هارون فادركهُ

في الطينة مسيرة يوم ونصف الى الفاشر فأوقع فيـهِ واقعة شديدة ثم لحقهُ الى بير مرتال فقتل من عسكرهِ خلقاً كثيرًا وهزمهُ الى نيورنيا وسط جبل مره

ولما وصل غوردن الخرطوم وعلم بثورتهِ اسرع الى الفاشر فوجدهُ هادئاً في نيورنيا فتركهُ وشأنهُ وأمر الجباة بالرفق في تحصيل الضرائب وعزل جانباً كبيرًا من عساكر الباشبوزق ورجع الى الخرطوم بعد ان ارجع اليها نصف العساكر النظامية

وفي اوائل سنة ١٨٧٩ م عاد الامير هارون الى الحركة فعاد غوردون الى الفاشر فرأى ان دارفور لا يصلح حالها الاّ اذا حكمها رجل من اهلها تحت طاعة الحكومة على نحو ما اشار بهِ الزبير من قبل فبعث الى مصر في طلب الارشد من اولاد السلطان ابرهيم وعزل حسن باشا حلمي عن الفاشر وسمى مساداليه بك وهو ضابط ايطالي مديرًا على دارفور. وكان عند مرورهِ بسواكن في دسمبر سنة ١٨٧٧م قد اطلق من سجنها المقدوم رحمه قومو المار ذكرهُ وقد استصحبهُ الى الفاشر فجعلهُ معاوناً لمساداليه بك الى ان يجيء ابن السلطان ابرهيم من مصر اما ابن السلطان ابرهيم فانهُ ما وصل دنقله؟ حتى فاجأتهُ المنية فبقي حكم البلاد على حالهِ

﴿ سلاطين باشا ﴾ وكان مساداليه بك قبل انتقالهِ الى الفاشر مديرًا على داره فخلفهُ سلاطين بك وهو الآن سلاطين باشا الذي اصبح لهُ شأن عظيم في السودان لذلك نأتي على لمع من بدء سيرتهِ هنا فنقول: قدم سلاطين الى السودان سائحاً سنة ١٨٧٤ م وهو اذ ذاك في الثامنة عشرة من عمرهِ فقصد جبال النوبة لدرس احوالها فثار عرب الحوازمة على الحكومة لثقل الضرائب عليهم فرجع الى الابيض وجعل وجهتهُ الفاشر فبلغهُ في الطريق ان اسماعيل باشا ايوب قد اصدر امرهُ بعدم توغل الاجانب في بلاد دارفور خوفاً عليهم من اهلها فانقلب راجعاً الى الخرطوم فوجد فيها الدكتور امين بك وقد جاءها بقصد الدخول في خدمة غوردن في خط الاستواء فتعرف بهِ وكتبا الى غوردن يطلبان خدمة عندهُ فجاءهما الجواب بعد شهرين يدعوهما اليهِ فذهب امين بك على ما مرّ واما سلاطين فقبل ان يرد الجواب من غوردن بعث اليـهِ اهلهُ يستحثونهُ على الرجوع اليهم فرجع في ختام

سنة ١٨٧٥ . م ولما تولى غوردن حكمدارية السودان سنة ١٨٧٧م ورأى قلة الايدي اللازمة للعمل ذكر طلب سلاطين القديم فبعث اليهِ في اواسط سنة ١٨٧٨م يستدعيهِ للخدمة في السودان وكان سلاطين اذ ذاك ملازماً في جيش النمسا في حرب الهرسك وقد حضر « واقعة هرزكوفينا » فلما انتهت الحرب وعادت اورطتهُ الى مركزها في برسبورج استعفى من الجيش وودّع اهلهُ في فينا في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٧٨ وجاء الخرطوم عن طريق سواكن فدخلها في ٢١ يناير سنة ١٨٧٩ م فرحب بهِ غوردن وسماهُ مفتشاً في مالية السودان على ان يطوف في المديريات ويبحث في اسباب شكاوي الاهلين من الضرائب فذهب الى سنار وفازوغلي فرأى ان معظم الضرائب غير موزعة بالقسط وان الرشوة سائدة بين الموظفين عموماً ولا يمكن الاصلاح الا بقلب هيئة العمال كلها فرفع استعفاءهُ الى غوردن وهو اذ ذاك في دارفور فقبلهُ وعينهُ مديراً على داره كما مرّ . وذهب سلاطين لاستلام مهام وظيفتهِ الجديدة فالتقى بغوردون في الطريق بين الابيّض والنيل الابيض فامرهُ بتتبع الامير هارون واخماد انفاسهِ فما وصل دارة حتى جاءتهُ الانباء ان الامير هارون قد قام من نيورنيا قاصداً نقطة بيرقوي على ثلاثة ايام جنوبي داره فاخذ سلاطين العساكر وقصد بير قوي فرجع هارون عنها وعاد سلاطين الى داره

وبعد ذلك بنحو شهر أي في فبراير سنة ١٨٨٠م جاءهُ كتاب من مساداليه بك يقول انهُ صمم على مهاجمة الامير هارون في نيورنيا وقد جرَّد عليهِ سرية من الفاشر بطريق طرّة وسرية من كلكل بطريق أبي حراز وسألهُ ان يذهب بسرية من عسكرهِ بطريق منواشي ويجتمع الكل في نقطة معينة قرب نيورنيا فجهز سلاطين ٢٢٠ رجلاً من الجهادية و٦٠ من البازنجر وبعض الفرسان وسار بهم الى نقطة الملتقى ولم يكن الا يسيرًا حتى اجتمعت عليهِ سرية الفاشر فمكثوا في انتظار سرية كلكل . ولكن الامير هارون علم بخبر السرايا فجهز انصارهُ وقد بلغ عددهم ٤٠٠ رجل مسلحين بالبنادق ومثلهم مسلحين بالسيوف والحراب و ٦٠ فارساً وخرج بهم من نيورنيا فقابل سرية كلكل في الطريق فقتل منها وردها الى كلكل وسار قاصداً داره

فقتل وسبى وغنم ولكنهُ لم يقوَ على الحامية فعاد عنها قانعاً بالغنائم والسبايا . ولما علم بهِ سلاطين خرج لمطاردتهِ فأدركهُ في رهد النبق بالقرب من مركز سلطان المسبعات فباغتهُ الهجوم وهو يستعد للرحيل فما شعر هارون الآ والرصاص يتخطف رجالهُ من كل جهة فانهزم شر انهزام وغنم سلاطين منهُ ١٦٠ بندقية وجوادين و ٤ نقارات و ٤ رايات وعاد الى داره . وفرَّ هارون الى جهة الغرب فنزل في ابتره في دار قمر فعلم بهِ النور بك عنجرة مدير كلكل فخرج لهُ وباغتهُ الهجوم في معسكره فقتلهُ وهو يحاول الفرار على فرسهِ وقتل من انصاره خلقاً كثيرًا واستولى على معسكره وذلك في مارس سنة ١٨٨٠ . وكان لقتلهِ فرح عظيم في جميع دارفور

وانضم القليل الذين نجوا من واقعة ابترة على الامير دود بنقه ابن الامير بكر بن السلطان محمد الفضل فتحصن بهم في جبل مرة على ضعفٍ وبقي الى ان كانت الثورة المهدية

﴿ حركة سليمان الزبير في بحر الغزال ١٨٧٧ : ١٨٧٩م ﴾ قال الزبير : «وبعد ذهابي الى مصر خرج ابني سليمان بالجيش وعددهُ ٤٠٠٠ مقاتل الى شكا واقام فيها الى ان حضر غوردن الى دارفور اول مرة فأرسل اليه امرًا لمقابلتهُ مع جيشهِ في داره فصدع بالامر واجتمع على غوردن في شهر اوغسطوس سنة ١٨٧٧م . وكان السعيد بك حسين احد سناجق الجيش قد وشى بي الى غوردن قائلاً اني اوصيت ابني اذا لم ارجع سريعاً من مصر ان ينهض بثورة على الحكومة» كامر فرأى غوردن ان يفرق جيش سليمان فاعطى السعيد بك الف رجل وسماهُ مديرًا على شكا واعطى الباقي للنور بك عنقره من سناجق جيش سليمان وارسلهُ الى كبكية وامر سليمان فرجع الى شكا بقلة وذلة . «وفي اواسط سبتمبر سنة ١٨٧٧ وافاهُ الى شكا فطيب خاطرهُ وانعم عليهِ بالرتبة الثانية مع لقب بك وسماهُ مديرًا على بحر الغزال فسرَّ سليمان بهذا الالتفات وذهب الى ديمي القديم وكنت قبل قيامي من الديم لحرب دافور قد خلفت ادريس ابتر من تجار الدناقلة وكيلاً عني في بحر الغزال براتب معين فقضي اربع سنوات في ادارة بحر الغزال لا يشاركهُ فيها احد فلما حضر سليمان وجد ان ادريس ابتر قد اخلَّ بالادارة واستبد بالعباد ولم يهتم الا بانتفاعهُ الشخصي فأعلن

سليمان ارادتهُ بمحاكمته في مجلس قضائي ففرَّ الى الخرطوم ووشى بهِ الى غوردن بانه يريد الاستقلال في بحر الغزال بحجة انها بلاد أبيهِ وليس للحكومة حق فيها.

﴿ حملة ادريس ابتر ﴾ ويظهر ان غوردن باشا اصغى الى وشايتهِ فانعم عليهِ بلقب بك واعطاهُ مدفعين و ٢٠٠ من العساكر المنظمة وسماهُ مديرًا على بحر الغزال . فلما وصل ادريس ابتر الى ديم قنده المعروف ايضاً باسمهِ كتب الى رؤساء الزرائب يخبرهم بتعيينهِ مديرًا على بحر الغزال ويأمرهم بالحضور اليهِ وكتب الى سليمان يدعوهُ للتسليم فغضب سليمان من ذلك وكتب اليهِ في الجواب يقول : «ان ولائي للحكومة يمنعني الخروج عن طاعتها الاّ ان شرفي لا يسمح لي بالتسليم الى من كان خادمي وخادم أبي من قبلي ولا يمكنني ان أأتمنك على نفسي واموالي بعد الذي رأيتهُ من خيانتك وانكارك للجميل لانك لو كنت امينًا وذاكرًا للجميل لحفظت عيشنا وملحنا وتربيتنا لك فلا تنتظر مني التسليم ولو ارسلت الحكومة اليَّ رجلاً غيرك ولو عبدًا لسلمت وذهبت معهُ الى غوردن وأطلعتهُ على جلية امري وبينت لهُ نفاقك والسلام »

فتيقن ادريس ابتر من هذا الجواب ان سليمان لا يسلم اليهِ الاّ بالقوة فترك جندهُ في عهدة اخيهِ عثمان وطاف في الزرائب يحرضهم على محاربتهِ وكان عثمان أخو ادريس رجلاً فظًّا عاتيًا مكروهاً من جميع البحارة وكان يرسل الشتائم الى سليمان واتباعهِ ويتهددهم بالقتل وانواع العذاب فجرَّد سليمان رجالهُ ورجال الزرائب الذين من حزبهِ وهاجمهُ في ديم قنده فقتلهُ وقتل اكثر الجهادية والجلابة الذين معهُ وغنم اسلحتهم وذخائرهم وعاد بالاسرى والغنائم الى مركزهِ . فلما بلغ ادريس ابتر خبر الواقعة انقلب راجعاً الى الخرطوم واخبر غوردن بما كان

﴿ حملة جسّي ﴾ فجهَّز غوردن سرية من العساكر وعقد لواءها لجسي باشا المار ذكرهُ في فتح خط الاستواء ومعهُ يوسف باشا الشلالي فأقلع من الخرطوم في يوليو سنة ١٨٧٨م وسار في النيل الابيض حتى وصل أورمبك بطريق شامبي في سبتمبر سنة ١٨٧٨م فوجد البلاد مغمورة بالمياه بسبب الامطار فأقام في أورمبك نحو ثلاثة اشهر حتى جفت الارض فسار قاصدًا ديم سليمان ومعهُ ٣٠٠ من العساكر المنتظمة و ٧٠٠

من الباشبوزق و٣ مدافع . وكان على طريقهِ في نقطة الدمبو رجل من مشاهير التجارة يقال لهُ علي بك ابو عموري ومعهُ نحو الف رجل مسلحين بالبنادق فدعاهُ للانضمام اليهِ فأجابهُ بعد تردُّد لانهُ لم يكن يود محاربة سليمان ولكن كان لهُ محل تجاري في الخرطوم وآخر في مصر فأجاب الدعوة مضطرًا مراعاة لتجارتهِ واجتمع على جسي في جور غطاس وساروا كلهم حتى نزلوا في قندة في اواسط دسمبر سنة ١٨٧٨ م

﴿ واقعة قندة ﴾ وكان سليمان لما علم بقدوم جسي قد اخذ في حشد الجيوش حتى اجتمع عندهُ نحو ١٠٠٠٠ مقاتل فسار بهم الى قندة ونزل بالقرب من معسكر جسي . ولما كان صباح ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٧٨ م حمل على المعسكر حملة صادقة وكان جسي قد امر جنودهُ فبنى كل منهم متراساً علوهُ متر ونصف متر ليقيهِ من الرصاص فصلوا رجال سليمان نارًا حامية فثبتوا برهة ثم انقلبوا راجعين الى معسكرهم فبنوا حصناً منيعاً من الاخشاب والتراب ونزلوا فيهِ ثم جددوا الهجوم على جسي في ١٢ يناير سنة ١٨٧٩ وفي ٢٩ منهُ فلم يظفروا بطائل

وفي ١١ مارس سنة ١٨٧٩ م وصل جسي مدد من العساكر والذخائر فزحف بجيشهِ حتى صار قريباً جدًا من معسكر سليمان واقام تلاً من التراب وجعل عليهِ المدافع والسواريخ وشرع يرمي بمقذوفاتها معسكر سليمان وكانت بيوتهُ كلها من قش فاشتعلت النار في المعسكر كلهِ فذُعِر سليمان منهُ الى ديمهِ

﴿ واقعة ديم الزبير ﴾ وبقي جسي في قندة حتى جاءهُ مدد آخر من غوردن فزحف بجميع جيشهِ على ديم سليمان فوصلهُ في ٤ مايو سنة ١٨٧٩ م فخرج عليهِ سليمان من الديم وحاربهُ مستقتلاً مدة ساعة ثم انهزم راجعاً الى الديم فتبعهُ جسي على الاثر واخرجهُ منهُ واستولى على جميع ما فيهِ من الامتعة والاموال . واما سليمان فانهُ سار شمالاً حتى وصل غرّة غرب الكلكة من اعمال دارفور فاقام فيها

وكان غوردن لما حضر المرة الثانيــة الى دارفور كما مرّ عرّج على شكا في ٧ ابريل سنة ١٨٧٩ م فوجد فيها بعض التجار الجعليين يهربون الاسلحة الى سليمان في بحر الغزال فألغى المديرية وشتت التجار وامدَّ جسي ببعض الذخائر وتوجه الى

الفاشر للنظر في ثورة هارون ولم يلبث ان اتاهُ خبر من جسي بالاستيلاء على ديم الزبير وفرار سليمان الى غرّة فخاف غوردن ان ينضم سليمان على هارون فيصعب عليهِ اذلالهما معاً فعاد الى الطويشة وكتب الى جسي فترك الجيش بقيادة ساتي بك في ديم الزبير ووافاهُ اليها في ٢٥ يونيو سنة ١٨٧٩ م ومعهُ يوسف باشا الشلالي فأمرهُ بمطاردة سليمان الى غرّة وعاد يوسف باشا الشلالي الى الخرطوم . فقاد جسي العساكر من دارة و بعض مشايخ الرزيقات والمعالية اصحاب الثار على الزبير وسار حتى وصل الكلكة فأرسل رسلاً بكتاب الى سليمان يدعوهُ الى التلسيم . قال الزبير :

« وكان قد بلغني خروج ابني سليمان على الحكومة بسبب ادريس ابتر فكتبت اليهِ من مصر بتاريخ ٢٥ الحجة سنة ١٢٩٥ هـ ٢٠ ديسمبر ١٨٧٨ م بما فحواهُ :

« اوصيتكم قبل مجيئي مصر بالامتثال لامر الحكومة وعدم مخالفتها في شيء لتحوزوا تمام رضاها وتنالوا الرتب العالية . ثم بعد انفصال اسماعيل باشا ايوب عن الخرطوم وتولّي غوردن باشا حكمدارية السودان كتبت اليكم بالطاعة لاوامرهِ وحذرتكم من مخالفتهِ وقلت لكم ان رضاهُ مقرون برضى الحضرة الخديوية وغضبهُ كذلك واني اوصيتهُ بكم فوعدني خيراً . وقد سرّني امتثالكم لهُ في بادئ الرأي بمجيئكم مع ٤ آلاف عسكري لمقابلتهِ في دارة وسرّني بالاكثر خضوعكم لهُ عند تجريدهِ اياكم من العساكر لان فعلهُ هذا كان محض اختبار لكم وليس بقصد اذلالكم يدل على ذلك لحوقهُ بكم الى شكا وانعامهُ عليكم بالرتبة الثانية وتعيينهُ اياكم حاكماً على بحر الغزال . وقد بلغني ذلك وانا في بلاد الترك فسرّني جداً وشكرت الله على حسن قيامكم بوصيتي واتخاذكم سواء السبيل

« لكن بعد عودتي من بلاد الترك ورد عليَّ تلغراف من محمد بك العقاد بالخرطوم كتبهُ بأمر حكمدار السودان يخبرني بعدم امتثالكم لاوامر الحكمدار و يرغب اليَّ ان اكتب اليكم نصحاً لردّكم الى الطاعة وان ارسل كتابي اليكم عن يدهِ فبعثت اليهِ بهذا الكتاب ليوصلهُ اليكم فعسى ان يجدكم على أتم الطاعة والامتثال ويكون كل ما بلغ الحكمدار عنكم كذباً وافتراء . واذا كنتم لا سمح الله قد هفوتم وخالفتم

اوامر الحكمدار فارجعوا في الحال الى الطاعة وطلب العفو عمـا فرط منكم واذا لم تفعلوا ذلك فاعلموا ان الله ساخط عليكم وانا كذلك

« وقد ورد عليَّ الخبر اليقين بأن خادمكم ادريس ابتر الدنقلاوي قد زحف عليكم في مركزكم بقوة عسكرية تنيف على ٣٠٠٠ مقاتل من عساكر اميرية وخطرية و بسبب تعديهِ عليكم وخيانة العيش والملح وانكار الجميل قد ردهُ الله خائباً ولكنهُ مع ذلك اوقع الفتنة بينكم و بين الحكومة ولا بدّ ان تكون عاقبة ذلك وخيمة عليكم مع انكم فعلتم ذلك دفاعاً عن نفسكم فانا لله وانا اليهِ راجعون . واعلم يا ولدي ان من قد تربى مثلكم في كنف الحكومة ابًا عن جدّ وتشرف برتبها وانعاماتها لا يجدر بهِ الا الطاعة والامتثال لاوامرها لا سيما وانتم تعلمون ان « الحكومة عالية ويدها طائلة » وقد طالما قاومتها الجيوش ورجعت عنها خائبة فما الذي زيّن لكم هذه الوساوس الشيطانية فان كانت من رأيكم فاطرحوها جانباً لانها تلقيكم في المهالك ولا تفيدكم شيئاً وان كانت من تغرير المفسدين بقولهم ان الحكومة حجزت على والدكم في القاهرة أو انها قتلتهُ فاعلموا انهُ قول كذب لا اثر للصحة فيهِ لاننا والحمد لله لم نزل في قيد الحيوة مشمولين بانعام الحضرة الخديوية الفخيمة ومقيمين في ضيافتها على اتمّ الراحة والامان نحن وجميع اتباعنا ولا نجد من لدن الجناب العالي الخديوي وجميع رجالهِ الفخام الا التجلة والاكرام فارجعوا الى رشدكم وعودوا الى الطاعة واذكروا امر الله تعالى في كتابهِ العزيز بقولهِ « اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الامر منكم » فاذا عصيتم فما جوابكم يوم العرض وكيف الخلاص

« ثم اعلم يا ولدي ان تماديكم في العصيان يضرّ بمركزي الادبي هنا كما يضر بكم هناك ويجلب عليكم سخط الله والحكومة فحافظوا على كرامتكم وكرامتي واستوعبوا الآن وصيتي . وقد ارسلت كتابي هذا مع محمد آدم (وهو الآن عمدة الجيعاب في الجابلي) ليثبت لكم صحة قولي ويعيد عليكم وصيتي شفاهاً فعند وصولهِ اليكم اذهبوا معهُ لمقابلة غوردن باشا حكمدار السودان في الخرطوم اوفي دارفور . وانا اعلم انهُ حالما يراكم يصفح عنكم ويحسن معاملتكم لان شرف بريطانيا العظمى وكرم سجيتهِ

يوجبان عليهِ ذلك لا سيما واني اوصيتهُ بكم عند سفرهِ من مصر فوعدني خيرًا تولاكم الله وهداكم الى سواء السبيل » اه

﴿ قتل سليمان واعمامهِ بعد التسليم ﴾ قال الزبير « وقد وصل كتابي هذا الى سليمان بعد خروجهِ من بحر الغزال فاستوعبهُ وصدَّقهُ . ولما دعاهُ جسي الى التسليم مال اليهِ فعارضهُ رابح وانقسم الجيش بهما الى حزبين حزب مال الى التسليم ورئيسهُ سليمان وحزب اعرض عنهُ ورئيسهُ رابح . ولما كان صباح ١٤ يوليو سنة ١٨٧٩م اتى سليمان الى جسي مسلمًا ومعهُ ٧٠٠ رجل فيهم ثمانية من اقاربهِ وهم حسن ود دقيل وابو بكر منصور وموسى الحاج واحمد ود ادريس وابرهيم ود حسن وكلهم من الجميعاب والارباب محمد ود دياب من السعداب وعبد القادر ود الامام وسليمان ود محمد والقائد برنجي الاسود . وكان في جيش جسي كثير من الدناقلة الذين يكرهون سليمان والجعليين فوشوا بهِ الى جسي قائلين ان تسليمهُ هو واقاربهُ انما هو خدعة فاتخذ هذه الوشاية الساقطة مسوغًا لقتلهم فناداهم الى خيمتهِ ثاني يوم التسليم وسقاهم القهوة وكان قد اوعز الى بعض الجند فاحتاطوا بالخيمة ثم خرج منها فدخل بعضهم واوثقوا سليمان واقاربهُ وجعلوهم صفًّا واحدًا خارج الخيمة ووقفوا خلفهم ورموهم بالرصاص فانكبوا على وجوههم قتلى وبعد ساعة اتى قناوي بك ابو عموري فكفَّنهم وحفر لهم حفرة ودفنهم فيها

« واما الرؤوس الذين لم يسلموا عدا رابح فهم : ابو القاسم من الجاذيب وموسى جلي وادريس سلطان ومحمد فضل الله وكلهم من الجميعاب وعبد البين الاسود فأخذ كل منهم رجالهُ وتفرقوا بين عرب البادية فلما بلغ العربان قتل سليمان واعمامهِ القوا القبض عليهم وساقوهم الى مساداليه بك في الفاشر فقتلهم عملاً بأمر جسي »

﴿ رابح الزبير ﴾ اما رابح فقد انضم اليهِ نحو الف رجل مسلحين بالبنادق فقادهم الى جهة الغرب واخذ يدوّخ البلدان الى ان وصل برنو ففتحها واسس فيها ملكا عظيمًا جعل عاصمتهُ دكوة في جنوبي بحيرة تشاد . وقبل وصولهِ الى برنو قام مهدي السودان فبذل الجهد هو وخليفتهُ من بعدهِ في استمالتهِ وارجاعهِ بجيشهِ الى أم درمان فلم يجب دعوتهما كما سيجيء ولكنهُ اختار راية المهدية راية لجيشهِ واشتهر

ملكهُ بالعدل والصرامة وبقي الى ان دخلت برنو في نطاق نفوذ الفرنساويين فجرَّدوا عليهِ الجيوش فحاربهم وظهر عليهم في عدة وقائع فجردوا عليهِ اخيرًا حملة مؤلفة من ٧٠٠ عسكري مسلحين بالبنادق و ١٥٠٠ عسكري من الباجرمة و ٤ مدافع بقيادة الكونت لامي وكان مع رابح نحو ٥٠٠٠ مقاتل فيهم ٢٠٠٠ مسلحين بالبنادق و٦٠٠ فارس و ٣ مدافع فالتقى الجيشان في ٢١ ابريل سنة ١٩٠٠ قرب بحيرة تشاد واقتتلا قتالاً شديدًا كانت العاقبة فيهِ للفرنساويين وقد قتل رابح وتشتت جيشهُ وقتل الكونت لامي بعد ان تمَّ لهُ النصر

ولمَّ ابن رابح شعث جيش ابيهِ ولكن لم تنتهِ سنة ١٩٠٠ حتى قتلهُ الفرنساويون واسروا رجالهُ ولم يبقَ من قوم رابح من يطالبهم بثار؟

﴿ تنظيم مديرية بحر الغزال سنة ١٨٧٩ ﴾ وبعد ان فرغ جسي من امر سليمان عاد الى ديم الزبير فنظم فيهِ مديرية وجعل الساتي بك مديرًا والارباب الزبير ود الفحل وكيلاً لهُ ومحمود الحلاوي المار ذكرهُ مفتشاً لمنع تجارة الرقيق وقسم البلاد الى ثمانية اقسام وجعل في كل قسم منها نفرًا من الباشبوزق والبازنجر وجعل في ديم الزبير اورطة جهادية وقفل راجعاً الى الخرطوم. ثم نظم ساتي بك اورطة جديدة من اهل البلاد وجاء موسى بك شوقي قومندانًا للعساكر من الخرطوم ومعهُ ١٦ كاتبًا للقيام في اشغال المديرية. وبعد وصولهم بثلاثة اشهر حضر لبتن بك وهو من البحارة الانكليز مديرًا على بحر الغزال وقومندانًا للعساكر من قبل غوردن وعاد موسى بك شوقي الى الخرطوم. وبقي لبتن في بحر الغزال الى ان قام المهدي فاضطر الى التسليم الى احد انصارهِ كما سيجي.

اما جسي باشا فقد اعترضهُ السد في الطريق وفرغ منهُ الوقود والزاد حتى اكل رجالهُ بعضهم بعضاً واشرفوا على الهلاك واذا بوابور قاصد خط الاستواء قد اقبل عليه فرجع بهِ الى فاشودة ثم عاد فأتم سفرتهُ وتقدم جسي بمن بقي من رجالهِ وفيهم قناوي بك ابو عموري الى الخرطوم فوصلها في ٢٥ يناير سنة ١٨٨١ م وسار منها قاصدًا مصر عن طريق سواكن فوافتهُ المنية في السويس في ٣٠ ابريل سنة ١٨٨١م

﴿ حركة صباحي في كردوفان سنة ١٨٧٩ م ﴾ وفي اثناء حركة هارون الرشيد في دارفور وسليمان الزبير في بحر الغزال نهض صباحي احد القواد الذين انفصلوا عن جيش الزبير فألّف عصابة من ٤٠٠ رجل واغار على الاضيّة في كردوفان فقتل مأمورها وفرّ الى جبال النوبة فعلم بهِ غوردن وهو ذاهب الى دارفور المرة الثانية في مارس سنة ١٨٧٩ فأرسل من الابيّض نفرًا من العساكر فطاردوهُ واتوا بهِ اسيرًا فحوكم في مجلس عسكري وحكم عليهِ بالاعدام

﴿ عودٌ الى تجارة الرقيق ﴾ تقدم لنا ذكر تاريخ تجارة الرقيق في السودان وسعي اسماعيل باشا في ابطالها فلما كان ٤ اوغسطوس سنة ١٨٧٧ م عقد معاهدة رسمية مع انكلترا في هذا الشأن على ان تقفل اسواق الرقيق في مصر والسودان في الحال ولكن يُغضى عن بيع الرقيق بين العائلات في مصر الى سنة ١٨٨٤م وفي السودان الى سنة ١٨٨٩ م ثم يمنع البيع بتاتًا من البلادين . فنشر غوردن فحوى هذه المعاهدة في جميع جهات السودان وسمى جيكلر باشا مديرًا عامًا لمنع تجارة الرقيق وسمّى في كل مديرية عدة مأمورين لهذه الغاية فأخذ العبيد يفدون اليهم افواجًا يطلبون تذاكر الحرية فتعطى لهم . وفي اواسط سنة ١٨٧٨م ضبط غوردن ١٤ قافلة من قوافل الرقيق وفي السنة التالية ضبط ٦٣ قافلة

﴿ سكة الحديد في السودان ﴾ وكان غوردن على رأي القائلين بمد سكة الحديد في طريق سواكن وبربر لا في طريق النيل والاكتفاء بمدّ سكة الحديد عند الشلالات لان النيل بين الشلالات صالح لسير المراكب فلا يفتقر الى سكة حديد . لكن اسماعيل باشا الخديوي فضّل مدّ سكة حديد على النيل وبدأ بها سنة ١٨٧٧م فأتم منها نحو ٥٠ ميلاً من حلفا جنوبًا انفق عليها ٤٥٠,٠٠٠ ليرة انكليزية ثم اوقف العمل في السنة عينها لعدم تيسر المال اللازم لاتمامهِ

﴿ تحديد التخوم بين السودان والحبشة سنة ١٨٧٧ — ١٨٧٩ م ﴾ ان مسألة تحديد التخوم بين السودان والحبشة قد شغلت غوردن مدة ولايتهِ كلها فان اول ما باشرهُ من الاعمال عند تولّيهِ حكمدارية السودان انهُ ذهب الى مصوع لعقد وفاق

مع ملك الحبشة بشأن الحدود لكنهُ وجد ود ميخائيل شاهرًا العصيان على حدود الحبشة ولا يتأتى الفصل في مسألة التخوم الاَّ اذا كفَّ عن العداء فأجَّل النظر في ذلك الى فرصة أخرى وذهب الى دارفور للنظر في اخماد ثورة هارون كما مرَّ ثم عاد الى سنهيت فوجد ود ميخائيل لا يزال على العصيان فطلب الى الملك يوحنا ان يتحد معهُ على سحقهِ فلم يجبهُ الى ذلك فعاد الى الخرطوم ومصر ثم رجع بطريق البحر الاحمر الى هرر فوصلها في ابريل سنة ١٧٨٧ م فوجد رؤوف باشا مشغولاً بالتجارة وقد كثر ظلمه فعزلهُ

وفي ٦ رجب سنة ١٢٩٦ هـ ٢٥ يونيو سنة ١٨٧٩ م أُقيل اسماعيل باشا من خديوية مصر وولّي ابنهُ محمد توفيق باشا مكانهُ ٥ فكان اول ما اهتم بهِ تحديد التخوم بين السودان والحبشة فبعث في طلب غوردن الى مصر للنظر في هذا الشأن فحضر في اوغسطوس سنة ١٨٧٩ م . وفي هذه الاثناء سلم ود ميخائيل الى ملك الحبشة واتحد مع الراس ألولا لمهاجمة سنهيت فعاد غوردن في الحال الى مصوع لاصلاح ذات البين مع الحبشة وفي ١١ سبتمبر سار من مصوع قاصدًا ملك الحبشة فمرَّ بالراس ألولا في قُرَع واستطرد السير الى دبرتابور حيث كان يقيم الملك يوحنا فوصلها في ٢٧ اوكتوبر سنة ١٨٧٩ م وفي اليوم التالي قابل الملك وسألهُ عما يطلبهُ من مصر فقال مطالبي هي ان تردَّ اليَّ المتمة وسنهيت وتعطى لي زيلع وقسم من بلاد هرر وفوقها مليون جنيه أو مصوع فسألهُ غوردن ان يكتب مطاليبهُ هذه على ورق ويمهل الخديوي ستة اشهر للاجابة عليها فلم يفعل . و بعد قليل من الايام اعطاهُ كتابًا مختومًا في يدهِ واذن لهُ في السفر فسار قاصدًا الخرطوم بطريق القلابات ولكن قبل وصولهِ الى القلابات ألقي القبض عليهِ وأرجعهُ الى دبرتابور ثم أذن لهُ في السفر عن طريق مصوع فوصلها في ٨ سبتمبر سنة ١٨٧٩م بعد عناء شديد . وعلى اثر ذلك استقال من حكمدارية السودان وعاد الى بلادهِ

ثم أغلق على هذه المسألة بسبب الثورة المهدية حتى عادت ففتحت بعد الفتح الاخير في ولاية السر رجينلد ونجت باشا حاكم عموم السودان الحالي فأبرم وفاقًا مع



توفيق باشا الخديوي السابق

الملك منيلك ملك الحبشة الحالي بتاريخ ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ م حددت فيه التخوم بين السودان والحبشة فدخلت القلابات وفامكة والناصر في حدود السودان

﴿ ٢٢ • رؤوف باشا ١٢٩٦ : ١٢٩٩ هـ — ١٨٧٩ : ١٨٨٢ م ﴾

وخلف غوردن واليًا على السودان رؤوف باشا المتقدم ذكرهُ في الكلام على خط الاستواء وهرر فصدر الامر العالي بتعيينهِ في ١٥ ربيع ثاني سنة ١٢٩٧ هـ ٢٧ مارس سنة ١٨٨٠ م وفيهِ الخطة التي ارادت الحكومة اتباعها في السودان وهذا هو بنصهِ :

« انهُ نظر لثقتنا بما انتم متصفون بهِ من الاهلية لاداء المأمورية المهمة المفوضة لامانتكم والحالة هذه لا نرى لزومًا للاسهاب في شرح وتفصيل ما يجب اتخاذهُ واجراؤهُ من الوسائط والاعمال المؤدية لنجاح مأموريتكم التي نحن ناظرون اليها بعين الاهمية وهي تقدم وانتظام احوال مملكة واسعة مثل السودان وبذل ما يجب من المساعي للوصول الى توطيد اسباب عمارتها وتمدن ورفاهية اهاليها بتوسيع نطاق دائرتي التجارة والزراعة اللتين هما اعظم منابع الثروة العمومية انما نرى من اللزوم استجلاب دقة نظركم الى بعض مواد مهمة وهي الآتي ذكرها :

« اولاً • مالية السودان : وكما لا يخفى ان لفظة المالية تشمل كل ما يلزم ويمكن تقريرهُ وتجعلهُ من الاموال والعوائد بطريقة لا يتأتى منها الاضرار بحالة الاهالي ولا الاجحاف بحقوق الخزينة وكذا تقدير ما يلزم من المصاريف بالنسبة لحالة البلاد واحتياجاتها بشرط ان تكون كافلة لحسن ادارة المصالح العمومية بصورة منتظمة وعلى هذا فاول واجب عليكم هو تنظيم ميزانية مستوفية عن كافة ايرادات ومصروفات الحكمدارية ببيان انواعها ومفرداتها بغاية الضبط والدقة وحصر ما يكون موجودًا من الديون بانواعها واسماء اربابها وكيفية الوصول الى سدادها • هذا ومن اللازم ان الحكومة تكون عالمة بكافة احوال السودان اجمالاً وتفصيلاً و بالمثل انواع الضرائب والعوائد وسائر الاموال المقررة والجاري تحصيلها وكيفية استعمالها وصرفها فينبغي ان ترسلوا صورة من هذه الميزانية الى نظارة المالية واستمرار ذلك سنويًا وان تقدموا الى النظارة المشار اليها في كل ثلاثة اشهر حساب ايرادات ومصروفات الحكمدارية

بالبيان الكافي وذلك كما هو جارٍ بكافة مصالح الحكومة. وبما ان كافة ما يتعلق بالمواد المالية والحسابية مرجع الامر فيها الى نظارة المالية فجميع ما يقتضيه الحال من المخابرات والاستئذانات في هذا الشان يكون خاصاً بالنظارة المشار اليها

« ثانياً » الادارة الملكية : يلزم تنظيمها واجراؤها على صورة تلائم احوال تلك البلاد وما يختص بهذا القسم من المخابرات وما يتراءى لزوم تغييره وتبديله من المواد والنظامات ذات الاهمية وعزل وتنصيب ارباب المناصب الرفيعة مثل المديرين ووكيل الحكمدار وما يتعلق بالادارة الملكية والاحوال الداخلية مما من شأنه استحصال اوامرنا عن جميع ما ذكر من هذه الانواع فينبغي ان تكون المخابرة عنه مع نظارة الداخلية . واما ما يتعلق بالامور القضائية سواء كانت شرعية أو نظامية تجرونه على قواعده المتبعة والحالة هذه انما ما يختص بهذا القسم من المخابرات أو ما ترون لزوم اجرائه من الاصلاحات يجب اولاً المخابرة عنه مع نظارة الحقانية. ثم ان الرخصة التي كانت ممنوحة لاسلافكم بتنفيذ ما يصدر من الاحكام شرعية كانت أو سياسية في المواد القضائية الحقوقية والجنائية قد أبقيناها لعهدتكم أيضاً ما عدا احكام القصاص الواجب استحصال أوامرنا عنها

« ثالثاً » القسم العسكري : من المهم عند وصولكم الى مركز الحكمدارية ان توجهوا انظاركم والتفاتكم الى تنظيم واصلاح الحالة العسكرية حسبما يقتضيه احتياج تلك البلاد لتوطيد الامن والنظام العام لكافة انحاء المملكة خصوصاً تقوية حدود الحبشة والمحافظة عليها في الحالة الراهنة مع ما يترتب عليه الامن والاطمئنان للوقاية من وقوع أدنى مهاجمة على هذه الحدود لانكم عارفون جيداً بأفكارنا وافكار اعضاء حكومتنا في هذه المسألة وهي اننا لا نقصد أي تجاوز كان على جيراننا ولا نريد أي فتوح جديد انما جل قصدنا المدافعة بغاية البسالة اذا وقع أدنى تعدٍ على حدودنا. فهذه الافكار هي التي تكون أسّ اعمالكم في ترتيب وتنظيم عسكرية السودان مع مراعاة اجراء القانون العسكري وكافة مايتعلق بهذا القسم من المخابرات والاستئذانات هو خاص بنظارة الجهادية . هذا ومع بقاء حيازتكم الرخصة المعطاة لاسلافكم بتنفيذ

أحكام القانون العسكري في الجنايات وسائر الاحوال حسب ما تصدر بهِ مضابط المجالس العسكرية فان حكم العزل أو تنزيل رتبة أو ترقي الضابط جميع ذلك لا بد من العرض عنهُ لطرفنا بواسطة نظارة الجهادية

« رابعاً · من المعلوم ان مسألة « منع تداول بيع الرقيق » هي في غاية الاهمية اولاً ان بيع الرقيق امر مخالف للانسانية ومخل باحترام بني آدم المنصوص عليهِ بالتكريم · ثانياً من الواجب المتعين علينا ابقاء شرائط المعاهدة المعقودة بين حكومتنا الخديوية والحكومة الانكليزية في ابطال تجارة الرقيق · ولو ان ما نعلمهُ ونثق بهِ من افكاركم في هذه المسألة وما انتم عازمون عليهِ من المساعي الحميدة لمحو آثار هذه التجارة الذميمة لا يستوجب تكرار التأكيد انما رأينا من الواجب علينا ايضاً اثبات ما نحن عليهِ من شدة العزم والثبات في هذه المسألة لتوقفوا اعمالكم في ما تتخذونهُ من الوسائط المؤثرة والاحتياطات اللازمة لذلك لكي لا يسمع من الآن فصاعداً بحصول امر مغاير من هذا القبيل في كافة البلاد والطرق المودعة تحت اداراتكم

« هذا وحيث ان الاقطار السودانية بعيدة عن مركز الحكومة الخديوية ومن الاقتضاء الوقوف على الوقوعات المهمة التي تحصل سواء كانت بالحدود او بخلافها فتبادروا بالاخبار عنها بوقت وقوعها الى طرفنا والى نظارة الداخلية بالتلغراف · وبناء عليهِ اصدرنا امرنا هذا لكم للمعلومية والاجراء على مقتضاهُ كما هو مطلوبنا » اه

فباشر رؤوف باشا هذه الاعمال عند وصولهِ الى السودان بهمة ونشاط واهتم على الخصوص بتحديد النفقات وتحصيل الاموال

وفي صيف سنة ١٨٨٠ ثار السومال فأرسلت الحكومة نجدة لمساعدة حاكم هرر فاطفأت الثورة · ولكن لم تنطفئ ثورة السومال حتى ظهرت الثورة العرابية في مصر

وفي اثنائها ظهر في السودان رجل دنقلاوي الاصل يقال لهُ « محمد احمد » ادعى انهُ المهدي المنتظر فصدق الناس دعواهُ وثاروا معهُ على الحكومة ورجالها واستفحل امرهُ سريعاً حتى انهُ لم تكد تخمد الثورة العرابية في مصر حتى اصبح السودان كلهُ شعلة ثورة تفاقم شرها وتعاظم خطرها وذهبت حاميات السودان

كلها او اكثرها فريسة لها . وكان رؤوف باشا آخر الولاة الذين حكموا السودان قبل الثورة. وحكم بعدهُ من الولاة في زمن الثورة :

﴿ ٢٣ . عبد القادر باشاحلمي ١٢٩٩ : ١٣٠٠هـ — ١٨٨٢ : ١٨٨٣ م ﴾

﴿ ٢٤ . علاء الدين باشا ١٣٠٠هـ — ١٨٨٣ م ﴾

﴿ ٢٥ . غوردن باشا المرة الثانية ١٣٠١ : ١٣٠٢هـ — ١٨٨٤ : ١٨٨٥ م ﴾

وفي ايامهم أي في ٢١ فبراير سنة ١٨٨٢ م صدر امر عالٍ فجعلت ادارة عموم السودان وفيها مديرية شرقي السودان ومحافظة سواحل البحر الاحمر ومديرية هرر وزيلع و بربرة ونجرة حكمدارية واحدة . وشكلت نظارة جديدة بعنوان نظارة الاقاليم السودانية وملحقاتها مركزها مصر القاهرة

ثم في ٢ ابريل سنة ١٨٨٢م صدر امر عال بتقسيم جهات السودان ٤ اقسام وهي :

١ . حكمدارية اقليم غرب السودان وتشمل مديريات دارفور وكردوفان وشكا وبحر الغزال ودنقلة ومركزها الفاشر ٢ . وحكمدارية اقليم وسط السودان وتشمل مديريات الخرطوم وسنار و بربر وفاشودة وخط الاستواء ومركزها الخرطوم

٣ . وحكمدارية اقليم شرق السودان وتشمل مديرية التاكا وملحقاتها ومحافظتي سواكن ومصوع وملحقاتهما الى باب المندب

٤ . حكمدارية عموم هرر وملحقاتها وفيها محافظتا زيلع و بربرة ومركزها هرر

ثم في ٢٠ يناير سنة ١٨٨٣ م صدر امر عال فسمي علاء الدين باشا حكمداراً لعموم السودان وملحقاتها وسمي راشد كامل باشا حكمدار عموم السودان الشرقي والبحر الاحمر . وانشأت ادارة خاصة بأشغال السودان وملحقاته برئاسة مجلس النظار

ولما اشتدت الثورة صدر امر عال بتاريخ ١٥ يناير سنة ١٨٨٤م فألحقت ادارة عموم السودان وملحقاته الى نظارة الحربية و بقيت في نظارة الحربية الى نهاية الثورة

وقبل الخوض في تفصيل هذه الثورة ووقائعها نذكر الاسباب التي حملت اهل السودان على تلقي دعوة زعيمها محمد احمد بالقبول والثورة معهُ على الحكومة ورجالها ثم نتبع ذلك ذكر سيرة محمد احمد والاسباب التي حملتهُ على الظهور بدعوى المهدية فنقول :

الباب الثاني

في

تاريخ الثورة المهدية



الفصل الاول

في

« اسباب الثورة المهدية واسباب نجاحها »

اعلم انهُ عند قيام محمد احمد الدنقلاوي بدعوى المهدية كان أهل السودان خاصتهم وعامتهم ناقمين من الحكومة واجدين عليها وهم يتوقعون باباً للفرج أو فرصة لشق العصا. والاسباب التي اوصلتهم الى هذه الحالة كثيرة مرجعها كلها سوء الادارة وعدم اتقان السياسة اللائقة بأهل البلاد . وأهمّ تلك الاسباب :

« ١ . العنف » فقد رأيت ان السياسة التي اتخذها اسماعيل باشا فاتح سنار للتنكيل بالملك نمر عادت عليهِ وعلى اصحابهِ وآلت الى خروج الملك نمر عن طاعة الحكومة فلجأ الى الحبشة واجتمع عليهِ كل متشرد وعاصٍ فكان شرًّا عظيماً على الحكومة هو وأولادهُ من بعدهِ نحو خمسين سنة . ولما ظهر المهدي كانت بقية أولادهِ في بلاد القضارف فكانوا اول من نصروهُ ورفعوا رايتهُ في السودان الشرقي . ثم ان الدفتردار الذي جاء من كردوفان للاقتصاص من الجانين في قتل اسماعيل باشا لم يقف عند حدّ بل عمّ غضبهُ المجرم والبريء ونكّل بالجعليين تنكيلاً لم يروهُ ولا سمعوا بهِ من قبل ولا سيما في شندي والمتمة والعيلفون فانهُ قتل وسبى واذلّ الاهلين وأوجعهم فوجدوا على الحكومة بسببهِ وقد أورثوا الوجد ابنائهم من بعدهم فحفظوهُ حتى قام المهدي فقاموا معهُ يطالبون بالثار . وقد رأيت الكثيرين ممن ثاروا على الحكومة

فقالوا انما فعلنا ذلك لاسباب شتى اوّلها الاخذ بثار آبائنا من فظائع الدفتردار
{ ٢ . الضرائب } وتوالت الحكام بعد الدفتردار وضربت الضرائب على الاهلين ولم يكونوا متعودين عليها فاستثقلوها وزادها ثقلاً انها لم تكن موزعة بالقسط بل كانت شديدة على الفقراء خفيفة على الاغنياء وقد كانت خفتها على الاغنياء بالنسبة الى مقدرتهم على رشوة المأمورين وقربهم من الحكام حتى كان جانب كبير من املاك الاغنياء والمأمورين معفياً من الضرائب * وفوق ذلك فقد ناطوا تحصيل الضرائب بجماعة الباشبوزق الشايقية والاكراد والمغاربة الذين فتحوا البلاد فاستعملوا منتهى القسوة والعنف في تحصيلها حتى كانوا اذا تأخر احدهم عن دفع ما عليهِ اعملوا فيه السياط واهانوهُ حتى يدفع الفلس الاخير * وشرٌّ من ذلك كلهِ مما لم يكن لهُ مثيل في غير السودان ان هؤلاء المأمورين لم يكتفوا بالضرائب الرسمية بل كانوا يفرضون على الاهلين « فرضاً » غير رسمية يحصلونها مع الضرائب . وذلك ان اكثر الولاة الذين حكموا السودان كانوا يأتونهُ من مصر على غير ارادتهم لبعد السودان عن بلادهم وكثرة حرهِ ومشاقهِ فكانوا لا يهتمون في الغالب الا بالانتفاع من وظائفهم فيفرضون على المديرين اموالاً باسم الهدايا فيضطر المديرون الى استرجاعها من مأموري المراكز الذين تحت ادارتهم او من الباشبوزق الموكلين بجمع الضرائب وهؤلاء يفرضونها على الاهالي اضعافاً لاجل وفاء ما فرض عليهم وحفظ شيء لانفسهم . وكانوا يشددون على الاهلين في تحصيل هذا الفرض تشديدهم على تحصيل الضرائب وهم آمنون من القصاص للتواطؤ المشار اليهِ مع الولاة والمديرين ولذلك اشتد نفور الاهالي من الحكام وتمكن الحقد والوجد في قلوبهم وصاروا يتمنون زوال هذه الحكومة التي سلطت عليهم من لم يرحمهم واستبدالها باية حكومة كانت . يدلك على ذلك القول الذي جرى على السنتهم عند ظهور المهدي وهو « عشرة في تربه ولا ريال في طلبه » . ويدلك عليهِ ايضاً هجر الناس لاوطانهم والتجاؤهم الى اطراف البلاد كالقلابات وبحر الغزال ودارفور كما مر . ومما جاء في قصيدة الشيخ محمد شريف المشهورة التي نظمها في ذم المهدي بحرفهِ :

وما أبت السودان حكم حكومةٍ الى ان اتى ضعف المطاليب من مصر
فكالثلث والثلثين للمير وحده ُ وللشيخ والنظار اضعافهُ فادرِ
بضرب شديد ثم كتفٍ مؤلم ومن بعدهِ الالقاء في الشمس والحرّ
واوتاد ذي الاوتاد من بعض فعلهم واشنع من ذا كلهِ عمل الهرّ

اي انهم كانوا يجعلون في سراويل الرجل هرًّا ثم يشرعون في ضربهِ حتى يمزق الهرّ جسمهُ . قال وقد رأيتُ ذلك في قسم الخرطوم نظارة احمد اغا ابو زيد

﴿ ٣ . منع الرقيق ﴾ ثم الذي زاد الطين بلة والطنبور نغمة فكان منهُ معظم الشرّ هو تشديد الحكومة في منع النخاسة والاسترقاق فان النخاسة كما علمت مهنة قديمة في السودان يتعاطاها الجم الغفير من اهلها بل من أعظم اهلها جاهًا ونفوذًا والاسترقاق وبيع الرقيق غير محرمين في شريعة اهلها فهم لا يرون فيهما شرًّا يجب ابطالهُ بل يرون الشرّ كلهُ في ابطالها خصوصاً لان خدمة عرب السودان في البيت وخارج البيت كلها منوطة بالرقيق ولم يكن للعرب الأ السيادة والتجارة كما مرّ . وقد تعودوا هذه الحالة السنين الطوال وارتاحوا اليها كل الارتياح حتى لم يعد من الممكن منعهم عنها دفعة واحدة ولكن الحكومة اصرّت على منعها بالقوة ولا سيما في عهد السر صموئيل باكر وفي عهد الكولونل غوردن فانهما مع اعتقادهما الشخصي بأن التشديد في منع الرقيق هو في غير محلهِ وقبل وقتهِ اضطرا عملاً بأوامر الحكومة ان يبالغا في التشديد في منعهِ والتضييق على تجار الرقيق في جميع الاقطار السودانية ولاسيما في بحر الغزال وخط الاستواء فنكلا بهم تنكيلاً شديدًا وفرقا جموعهم وعاقبا البعض بالقتل والبعض بالسجن والبعض بضبط الاموال . وحرّر غوردن كثيرًا من الارقاء من ايدي اسيادهم لا سيما بعد نشر المعاهدة التي عقدت بين اسماعيل باشا والدولة الانكليزية سنة ١٨٧٧ م بل لما رأى الارقاء حريتهم في يدهم صاروا يتركون اسيادهم لاقلّ سبب أو بلا سبب . وكان الاهلون يدفعون قسماً من الضرائب عبيدًا فأصبحوا بعد ابطال النخاسة لا يقدرون على ادائها فاستبد بهم الجباة وساموهم خسفاً على خسف وذلاً على ذل . وعدّ الجهال مداخلة باكر وغوردن وجسي وجيكلر وغيرهم

من النصارى في منع الرقيق ان النصارى تتعرض لدينهم فعظم الخطب وعمت الشكوى

(٤ . المحاباة) قال المضوي : « ومن الامور التي ساءت الاهالي فزادتهم وجداً على الحكومة تمييز الشايقية الذين جندتهم عساكر وحوالات وأعفتهم من الضرائب في حين انها ثقلت بها على سائر الاهالي مع ان الجميع من مقام واحد وما من قبيلة معروفة في السودان تعترف بامتياز الشايقية عليها ومما يدلك على استياء الاهلين منهم قول الجعليين المشهور عند ظهور الثورة :

يا نعم العباسية . القامت المهدية والله ما في ريّة . غنيمة الشايقية

« ومما ساء الاهالي أيضاً وعلى الخصوص رؤساء الطرق تمييز المرغنية على سائر الطرق في السودان حتى كثر اتباعهم وعظم جاههم وهذا وان لم يكن صريحاً من اصل الحكومة بمصر فهو مسبب عنها فان الحكام واهل النفوذ من رؤساء الاقلام ليسوا من اهل السودان وعاداتهم في المأكل والمشرب والملبس والمعاملات تختلف عن عادات اهل السودان فمالوا الى مخالطة المرغنية للمشاكلة اولاً ولانتساب المرغنية الى مكة المشرفة ثانياً وبسبب ذلك مال اليهم عساكر الشايقية عموماً لتقربهم من رجال الحكومة ودخلوا في سلكهم حتى صار كل سر سواري يهدي اليهم مرتبةُ ومرتب رجالهِ شهراً في كل سنة فازدادت بذلك صولة خلفاء المرغنية وصاروا يتطاولون على رؤساء الطرق الاخرى بالشتم والاهانة فحقدوا عليهم وعلى الحكومة التي كانت سبب في تعظيم شأنهم اه »

فهذه الاسباب كلها مع انتظار جمهور المسلمين المهدي كما بيناهُ قبل هي التي حملت الاهلين على نصرة محمد احمد والثورة معهُ على الحكومة ورجالها وكان رؤساء الطرق وتجار الرقيق من اكبر انصارها واشد ايديها ولم يبقَ في جانب الحكومة الا الشايقية والمرغنية الذين وُجهت الثورة ضدهم كما وجهت ضد الحكومة للاسباب التي قدمناها

هذه هي اسباب الثورة وتعميمها واما اسباب نجاحها فهي :

(١) استخفاف الحكومة بشأن محمد احمد في بادئ الرأي . مع ان الامر الذي قام بهِ ذو بال وقد كان في كل العصور سبباً لاراقة دماء كثيرة وخراب بلدان شتى

(٢) ثورة عرابي في مصر . فانهُ عند قيام محمد احمد في السودان قام ايضاً احمد عرابي في مصر فلم يتأتَّ للحكومة ان تتفرغ لامر محمد احمد وتنجد السودان بالعساكر قبل انتهاء الثورة العرابية في مصر. ثم لم تنتهِ هذه الثورة حتى كانت الثورة المهدية قد عمت السودان كلهُ واتسع الخرق على الراقع

(٣) ضعف الحاميات العسكرية . فانهُ حين ظهور الثورة سنة ١٨٨١م لم يكن في السودان كلهِ مع اتساعهِ ووعورة مسالكهِ الا ٤٠٤٩٠ رجلاً موزعين على الحاميات كما يأتي :

١٩٥٠ في دنقله	٠٨٠٠ في الجيرة	٣٤٧٠ في هرر
٢١٧٠ « بربر	٠٢٠٠ « القضارف	٥٨٣٠ « كردوفان
٧٤٧٠ « الخرطوم	٣٩٤٠ « كسله	٤٨٦٣ « دارفور
٢٣٥٠ « سنار	٠٩٢٠ « اميديب	٠٨٨٦ « بحر الغزال
١٦١٠ « القلابات	١٩٠٠ « سنهيت	٢١٣١ « خط الاستواء
		٤٠٤٩٠ الجملة

وهذه الحاميات مع بعدها السحيق بعضها عن بعض لم تكن محصنة قبل الثورة ولما حصنت في اثناء الثورة كان في كل حصن منها غلطة دفاعية. ثم انهُ لم تكن حامياتها كلها من العساكر المنظمة بل كان بينهم كثير من الباشبوزق وكلهم غير متمرنين على الحرب والقتال وقد تعودوا الترف والراحة في حين ان اهل السودان مطبوعون على الفروسية والشجاعة ومتعودون على الحرب والنزال وقد صدقوا المهدي واحبوا الموت معهُ في سبيل الله

(٤) تردُّد الحكومة. فان الحكومة لم تتخذ سياسة ثابتة نافذة في اخماد الثورة بل اظهرت احياناً التردد والارتباك في مكان الحزم والعزم ففقدت جميع حامياتها واحدة واحدة وعادت الى حدودها بمصر كما سيجيء بالتفصيل

هذا ما كان من اسباب الثورة ونجاحها فلنتقدم الآن الى ذكر سيرة محمد احمد والاسباب التي حملتهُ على الظهور بدعوى المهدية. ثم نتبع ذلك ذكر حوادث الثورة فنقول:

الفصل الثاني

في

﴿ بدء سيرة محمد احمد وذكر الاسباب التي حملتهُ على الظهور بدعوى المهدية ﴾

ولد محمد احمد هذا في جزيرة ضرار من اعمال دنقله سنة ١٢٥٨ هـ ١٨٤٣ م أو حواليها واسم ابيهِ عبد الله وأمه زينب . وهو ذرية رجل يسمى حاج شريف طال عمرهُ جدًا واشتهر بالصلاح والتقوى . وقبيلتهُ من العرب المتنوبة وقد عرفت في دنقله بصبر نُسَبي أي قبيلة صبر وهو جدّ لهُ ابعد من جدّهِ حاج شريف وعرفت ايضًا بالاشراف لانها تدعى النسبة الى جدٍّ ابعد من صبر يقال لهُ نجم الدين وهو جدّ الكنوز المدعي النسبة الى آل البيت . ولما ادَّعى محمد احمد المهدية علّى نسبهُ حتى اوصلهُ الى الحسن السبط طبقًا لما تدوَّن في الكتب من شرائط المهدي . وهذه هي سلسلة النسب التي ادّعاها لنفسهِ :

« محمد المهدي بن عبد الله بن فحل بن عبد الولي بن عبد الله بن محمد بن حاج شريف * بن علي بن احمد بن علي بن حسب النبي بن صبر * بن نصر بن عبد الكريم بن حسين بن عون الله بن نجم الدين * بن عثمان بن موسى بن ابي العباس بن يونس بن عثمان بن يعقوب بن عبد القادر بن الحسن العسكري بن علوان بن عبد الباقي بن صخرة بن يعقوب بن الحسن السبط بن الامام علي بن أبي طالب اه »

وكان ابوهُ نجارًا ماهرًا في بناء المراكب والسواقي وقد ضاق بهِ العيش في دنقلة فرحل بعائلتهِ الى الخرطوم ومحمد احمد اذ ذاك طفلٌ . وصار يتردَّد منها الى كرري مشتغلاً بصناعتهِ الى ان مات ودفن في كرري . وقد خلف بنتًا تسمى نور الشام واربعة ذكور وهم : محمد ومحمد احمد الذي فيهِ كلامنا وحامد وعبد الله الذي تركهُ حملاً في بطن امّهِ فولد بعد وفاتهِ فسمي باسمهِ على عادة اهل السودان من تسمية الولد الذي يكون بهذه المثابة باسم أبيهِ

وقد تعلم اخوة محمد احمد صناعة والدهم واشتغلوا بها واما هو فانهُ مال بالفطرة

الى الديانة والعلم كجده حاج شريف فدرس القرآن في مدرستي كرري والخرطوم . ثم اشتغل بدرس العلوم الفقهية فأخذ عن الشيخ الامين الصويلح في مسجد ود عيسى بالجزيرة ثم عن الشيخ محمد الخير في الغُبش تجاه بربر فأتقن مبادئ النحو والتوحيد والفقه والتصوُّف واشتهر بين اقرانه منذ الصغر بالتعبد والتقوى بل بالترفض والزهد حتى قيل انهُ كان يمتنع عن اكل زاد استاذه محمد الخير لانه كان يجري عليه من الحكومة لقوله انهُ مال الظلم فكان اذا لم يأته الزاد من اهله اصطاد السمك من النيل وتقوّت به

وبعد ان اتمَّ دروسهُ على محمد الخير مالت نفسهُ الى التصوُّف فذهب الى الشيخ محمد شريف حفيد الشيخ الطيب صاحب الطريقة السمانية وهو اذ ذاك مقيم عند قبر جدّه في أم مرّحي وسألهُ الدخول في مصاف تلامذته وذلك في سنة ١٢٧٧ هـ ١٨٦١ م فأجابهُ محمد شريف الى طلبه فأقام عندهُ منقطعاً الى الصلاة والعبادة وما لبث ان اظهر من التقشف والزهد ما ميزهُ عن سائر التلامذة حتى انهُ كان يشتغل في منزل سيده بما هو منوط بالعبيد والجوار من احتطاب واستقاء وطحن وطبخ وهو غير مكلف الى شيء من ذلك وكان كلما وقف للصلاة يبكي حتى يبلّ الارض بدموعه واذا جلس امام شيخه نكّس رأسهُ ولم يرفع طرفهُ اليه الّا اذا كلّمهُ فيرفع طرفهُ بأدبٍ واحترام واقام على ذلك سبع سنين . فلما رآهُ شيخهُ على هذه الحالة وانهُ سالك طريق المريدين وناهج منهج الصالحين مال اليه واحبهُ وجعلهُ شيخاً واعطاهُ راية وأذن لهُ في الذهاب حيث شاء لاعطاء العهود وتسليك الطريقة. فذهب الى الخرطوم وتزوّج بابنة عمّ لهُ واقام مع اخوته يبث طريقتهُ بغيرة وجدّ

وفي سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٧١ م رحل اخوتهُ الى جزيرة أبا لكثرة اشجارها الصالحة للمراكب فرحل معهم وبنى في الجزيرة جامعاً للصلاة وخلوة للتدريس فاجتمع عليه سكان تلك الجزيرة وهم دغيم وكنانة وغيرهم من عرب البادية واخذوا العهد عنهُ ودخل بعضهم في تلمذته وفي جملتهم علي ود حلو الذي جعلهُ بعد ادعائه المهدية خليفتهُ الثاني . ولم يمضِ الّا القليل حتى اشتهر صيتهُ وكثر اتباعهُ وكان استاذهُ

محمد شريف قد انتقل الى القادرية قرب جبل أولى على النيل الابيض فكان يزوره في كل موسم وعيد لتقديم واجب الطاعة وقبل الدخول عليه يجعل الرماد على رأسه والشعبة في رقبته وفروة الضأن على صلبه تشبهاً بالعبد في حالة ذلّه فكان محمد شريف يحلّ الشعبة من رقبته والفروة عن صلبه ويلبسه افخر الثياب فيقيم عنده اياماً ثم يعود الى مركزه في جزيرة أبا. وفي بعض زياراته حدّثه عن خيرات البلاد التي رحل اليها وسهولة العيش فيها وزيّن له الاقامة في العراديب بين أبا والكوة فانتقل اليها سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧٢ م وكانت العراديب على خصبها خالية من السكان والزراعة فعمرها واقام فيها على صفاء. تام مع محمد احمد برهة ثم لم يلبث ان تكدر هذا الصفاء. فصار جفاء ثم نفوراً ثم عداء

وسبب ذلك فيما رواه الشيخ محمد شريف ان محمد احمد لما كثرت انصاره ومريدوه كبرت نفسه وسوّل له شيطان الغرور انه اعظم من في الارض وانه المهدي المنتظر قال محمد شريف فأسرّ اليّ بدعواه ورغب ان اكون له وزيراً ومستشاراً فيجعل الامر كله في يدي وذلك سنة ١٢٩٥ هـ ١٨٧٨ م فزجرته ونهيته مراراً ولما لم ينته عقدت معه مجلساً في أبا جمعت اليه القضاة والنظار وبعض الاخيار كعبد الرحمن اللبيح ناظر اللحويين واحمد جفون ناظر الشانخاب ويوسف ابي جمعة ناظر الجزائر ومحمد حسن قاضي الجهة وغيرهم من اكابر أبا وأمرته بالرجوع عن ضلاله واشهدت الله ورسوله والحاضرين اني ان رجع شاطرته نصف ما ملكت يدي من مال وعقار فخرج من المجلس لمشاورة من معه من الاصحاب فلم يرجع . ومن ذلك الوقت نفيته من الطريقة وقلت لاصحابي ان يضربوه اذا جاءهم ونصحت لقائمقام الكوة بوجوب القبض عليه وزجه في السجن خوفاً من تجسم الامر فلم يفعل وقال انه رجل صالح وصاحب الخضر فلا يمسه بسوء . وللشيخ محمد شريف قصيدة طويلة نظمها بايعاز عبد القادر باشا سنة ١٢٩٩ هـ ١٨٨٢ م في تكذيب دعوى المهدي جاء فيها بحرفه :

لقد جاءني في عام «زع» لموضع ... على جبل السلطان في شاطئ البحرِ
يروم الصراط المستقيم على يدي ... فبايعته عهداً على النهي والامر

فقـام على نهج الهداية مخلصاً   وقد لازم الاذكار في السر والجهر
وافرغ في نهج المحامد جهدهُ   فرقيتهُ جهلاً بعاقبـة الأمر
اقام لدينـا خادماً كل خدمة   تعزُّ على اهل التواضع في السير
كطحنٍ وعوسٍ واحتطاب وغيرهِ   ويعطي عطا من لا يخاف من الفقر
وكم صام كم صـلى وكم قام كم تلا   من الله لا زالت مدامعـهُ تجري
وكم بوضوء الليل كبر للضحى   وكم ختم القرآن في سنة الوتر
لذاك سقي من منهـل القوم شربة   بها كان محبوباً لدى الناس في البر
وكان لدينا عيشهُ صدقاتنـا   وخادمنا عشرين عاماً من العمر
الى الخمس والتسعين أدركهُ القضا   على ما مضى في سابق العلم بالشر
بصحبة شيطان من الجن ايس   وشيطان انس واقتفاهُ على الفر
ولا تنسَ داعي الاحتياج فثالث   وكم ساقط في الشر من ألم الفقر
فقـال انا المهدي فقلت لهُ استقم   فهذا مقـام في الطريق لمن يدري
وخادعني بالقـول كالمهدِ ابنكم   ومحسوبكم في الحب في عالم الذر
فقم بي لنصر الدين نقتل من عصا   فأنت لك الكرسي ولي دول الغير
فقلت لهُ دع ما نويت فانهُ   وتالله شر قـد يجر الى الخسر
وقال لهُ الشيطان بشّر ولا تخف   فانك منصور على البر والبحر
وقد فهـم القولين فهم أولي النهى   ومال الى حب الرياسة والجبر
فقـال انا كالماء في الطبع بارد   واما يُسخَّن كان كالنار في الحر
وان يستخفوا بي وان يقتلونني   فقبلي عليٌّ والحسين ولي امري
ومن ذلك النادي أبي وأبيتـهُ   وافتيت فيـه بالضلال و بالكفر
واني اذنت الجيش ان يضربوه ان   أتاهم بما يهواهُ من واضح النكر
وقد جاء للعلُّوب في سفهاتهِ   وقد ردّهُ الاتباع بالجبر والقهر
وكانَ من الاسرى لديهم بناقـةٍ   وراياتهُ والجيش قد صار في البحر
وكنت نصحت القيمقام بحبسهِ   فماجاءني من غير دعْ صاحب الخضر

هذا الذي قالهُ الشيخ محمد شريف في سبب العداء بينهُ وبين محمد احمد وقد اكدهُ لي شفاهاً بعد فتح ام درمان سنة ١٨٩٨ م · ولكن انصار محمد احمد ينكرون هذا القول ويقولون ان اصل العداء هو انصراف الناس عن محمد شريف وميلهم الى محمد احمد بالعقيدة والاتباع · وقالوا في تفصيل ذلك ان محمد شريف عند انتقالهِ الى العراديب رأى من عربان تلك الجهات اقبالاً على محمد احمد لم يرَ مثلهُ عليهِ فساءهُ ذلك جدًّا واخذ يعمل على الخفض من سطوة محمد احمد فاقام لهُ الشيخ رضوان احد خلفائهِ ندًّا في قوز العلوب غربي أبا وحثّ العربان على اتباعهِ فانكر محمد احمد على شيخهِ هذا التحامل والجفاء ووقع النفور بينهُ وبين الشيخ رضوان وسرى ذلك الى تلامذتهما فصار كلٌ فريق يندّد بالآخر ويحقد عليهِ وما زالت اسباب النفور تتزايد حتى اتصل الفريقان الى الضرب والملاكمة وتغلب فريق الشيخ رضوان فهشموا جسم محمد احمد وكسروا يد عليّ ود حلو فرفع محمد احمد الامر الى ناظر الكوّة وكان فيها اذ ذاك رحمه الدويحي فاحضر تلامذة الشيخ رضوان وزجهم في السجن فلما درى محمد شريف بما كان اتى بالشيخ رضوان الى أبا وحمل محمد احمد على مصالحتهِ وتوسط عند ناظر الكوه فاخرج تلامذة الشيخ رضوان من السجن

ومن ذلك الحين حقد محمد احمد على استاذهِ وذهب حبهُ واحترامهُ من قلبهِ فانكشفت لهُ عيوبهُ وكان محمد شريف يقبل النساء في مجلسهِ ويسمح لهن بتقبيل يدهِ فاخذ محمد احمد يندد عليهِ بذلك ويجاهر بانهُ مخالف للشرع والاسلام واحتفل الشيخ محمد شريف بختان بعض اولادهِ فدعا جمعاً غفيرًا من تلامذتهِ واذن لهم في الرقص والغناء وكان محمد احمد حاضرًا فنهى اصحابهُ عن ذلك وقال ان الشريعة تمنع الرقص والغناء فليس في وسع احد ان يجيزهما ولو انهُ شيخ الطريقة وبلغ ذلك محمد شريف وكان قد بلغهُ تنديده عليه لقبولهِ النساء في مجلسهِ فاتخذ تطاولهُ هذا ذريعة لشفاء غليلهِ منهُ فاستحضرهُ ووبخهُ توبيخاً شديدًا ومحا اسمهِ من الطريقة وقال لهُ اذهب فقد صدق فيك المثل القائل «الدنقلاوي شيطان مجلد بجلد انسان»

وكان محمد احمد يحب الطريقة السمانية واصولها وكان لهُ خلفاء وتلامذة يلقنون

اورادها ويقرأون رواتبها فلم يكن امر تركها واتباع غيرها من السهل عليه فتذلل لاستاذه وطلب العفو منهُ مرارًا فلم يعف عنهُ

وكان في الحلاويين بين المسلمية والكاملين على النيل الازرق شيخ من مشايخ هذه الطريقة يُدعى الشيخ القرشي وقد اخذ الطريقة رأساً عن مؤسسها الشيخ الطيب وكان بينهُ و بين محمد شريف مناظرة شديدة فلما رأى محمد احمد من استاذهِ هذا الاباء التجأ الى الشيخ القرشي وجدّد عليهِ عهدهُ ومشيختهُ فكتب محمد شريف الى الشيخ القرشي يعاتبهُ على قبولهِ محمد احمد فكتب اليهِ في الجواب « اني رأيت محمد احمد مستحقاً ومنع المستحق ظلم » . واذاع محمد احمد انهُ انفصل عن شيخهِ لانهُ خالف الشريعة والسنَّة وكان قد حفر غارًا تحت الارض وسكن فيهِ فاشتهر صيتهُ في السودان بالتقشف والزهد والغيرة الدينية واخذ الناس يفدون اليهِ من الجهات الاربع وكان المسافرون في النيل يقفون بالمراكب والوابورات فيقدمون اليه الهدايا ويطلبون البركة فيباركهم ويوزع الهدايا على الفقراء زهدًا وعفافًا

وبقي الى ان توفي الشيخ القرشي اواخر سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م فخرج هو وتلامذتهُ الى الحلاويين وشرع في بناء قبة فوق قبره . وكان الشيخ القرشي يحب محمد احمد ويثني عليهِ امام اتباعهِ فاتخذوهُ بعد وفاة شيخهم شيخاً لهم واشاعوا بأن وارث السلسلة الطيبية هو الشيخ القرشي فأورثها محمد احمد عند وفاتهِ . ووافقهم على ذلك جلّ ذرية الشيخ الطيب لسابق كراهة بينهم وبين محمد شريف فقويت شوكة محمد احمد وكثر انصاره وقد بالغوا في محبتهِ وتعظيمهِ حتى قالوا ان في كتب طريقتهم نصاً ان المهدي يكون منهم وان الشيخ القرشي قبل وفاتهِ اومأ بها الى محمد احمد فشكلوا هذه المفسدة في نفوسهم وصاروا يلوحون بها في اشعارهم

هذا وكان من عادة محمد احمد ان يخرج سائحاً مع بعض اصحابهِ لانذار الناس بطريقتهِ ودعوتهم الى الله ثم يعود الى محل اقامتهِ في جزيرة أبا . وقد جال في جميع البلاد من دنقله الى سنار شمالاً وجنوباً ومن النيل الازرق الى كردوفان شرقاً وغرباً ورأى بعينهِ وجد الناس خاصتهم وعامتهم على الحكومة وشدة رغبتهم في التخلص منها حتى

كان الكثير منهم يتمنون ظهور المهدي الموعود به ليتقذهم من هذه الحال بل كانوا كلما رأوا رجلاً يفضلهم عقلاً ودراية ولهُ الغيرة على الدين واهلهِ ظنوهُ المهدي

فلما رأى محمد احمد لهج القوم بانهُ المهدي المنتظر وفكر في الاستعداد الذي عليه الاهلون لقبول المهدي ثم في الحالة التي صار اليها الاسلام في السودان على ما مثلهُ لهُ استاذهُ محمد شريف وغيرهُ من رجال الدين وكانت نفسهُ مفطورة على التشيع للدين والغيرة على الاسلام والمسلمين كما مرّ اندفع بحكم الضرورة والطبع الى الاخذ بلهج القوم والقيام بدعوى المهدية وعقد النية على ذلك

وبينا هو في هذه الحال اذ وفد عليه عبد الله التعايشي المتقدم ذكره في تاريخ الزبير • قيل انهُ لما رآهُ وقع مغشياً عليهِ ولم يفق من غشيتهِ الا بعد ساعة او اكثر ولما افاق عاد فنظر الى محمد احمد وتقدم لمصافحتهِ فأغمي عليه مرة ثانية ثم افاق وتقدم الى محمد احمد حبوًا على الارض فأخذ يده وشرع يقبلها وهو يرتعد ويبكي فقال لهُ محمد احمد من انت يا رجل وما شأنك قال يا سيدي انا عبد الله ابن محمد تورشين من قبيلة التعايشة البقارة وقد سمعت بصلاحك الى دار الغرب فجئت لاخذ الطريقة عنك • وكان لي اب صالح من اهل الكشف وقد قال لي قبل وفاتهِ انك ستقابل المهدي وتكون وزيره وقد اخبرني بعلامات المهدي وصفاتهِ فلما وقع نظري عليك رأيت فيك العلامات التي اخبرني بها والدي بعينها فابتهج قلبي لرؤية مهدي الله وخليفة رسولهِ ومن شدة الفرح الذي شملني اصابني الذي رأيتهُ • فاستبشر محمد احمد بهذا القول ورقص لهُ قلبهُ لانه يرمي الى غرضهِ وبايع التعايشي وقربهُ وجدّ في بناء القبة فاتمها بشهر وعاد بتلامذتهِ ومعهم عبدالله التعايشي الى جزيرة أبا

ومن ثمّ اخذ يفتش الكتب ويبحث عن كنه المهدي وصفاتهِ وعلاماتهِ وما تكون بهِ نصرتهُ ويطبق عليها صفاتهُ • ولما استوفى غرضهُ شرع في اظهار دعواهُ فقام بها في بادئ الرأي سرًّا • وكان اوّل ما اسرّها الى عبد الله التعايشي ثم الى تلامذتهِ الاخصاء ومحبيهِ الامثل فالامثل وذلك في ربيع الثاني سنة ١٢٩٨هـ مارس ١٨٨١م

ثم خرج بهم سائحاً الى دار الغرب وقد لبسوا كلهم لباس الدراويش المعتاد وهو الجبة المرقعة والسبحة والعكاز وابريق الفخار فمرّ باخوة عبد الله في دار الجمع وبايعهم وذهب الى الابيّض فأسرّ دعواهُ الى اخصّ مشايخها واعيانها قائلاً ان الله اصطفاهُ ليطهر البلاد من الظلم والفساد ولكنهُ قال ان وقت ظهورهِ لم يحن بعد . ثم قفل راجعاً الى جزيرة أبا ومرّ في طريقهِ بجبال تقلي والنوبة فأسرّ دعواهُ الى الملك آدم ود دباله ملك تقلي . وقد صرّح عبد الله التعايشي لجلسائهِ في المحراب بعد توليهِ الخلافة انهُ لم يكن قصد محمد احمد من هذه السياحة استطلاع رأي الناس في دعواهُ فقط بل كان القصد منها ايضاً كشف البلاد التي تصلح للهيجان وشن الغارة بعد اشهار دعواهُ ويظهر انهُ من ذلك الحين اختار جبل قدير مركزاً لهجرتهِ وقد صرّح بهِ في كتبهِ فيما بعد

ولما عاد الى أبا شرع في دعوة الناس اليهِ سرًّا في الكتب وذلك في غرة شعبان سنة ١٢٩٨ هـ ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١ م فبدأ بمخاطبة اصحابهِ الاخصاء من الفقهاء والاعيان ومشايخ الطرق والقبائل فصرّح لهم بدعواهُ وحثهم على القيام معهُ لنصرة الدين والهجرة من اماكنهم للانضمام اليهِ ومبايعتهِ على الجهاد في سبيل الله قائلاً : انهُ قد رأى النبي (صلعم) بعيني رأسهِ يقظةً ! فأجلسهُ على كرسيهِ وقلدهُ سيفهِ وغسل قلبهُ بيدهِ وملأهُ ايماناً وحكماً ومعارف منيعة واخبرهُ بأنهُ الخليفة الاكبر والمهدي المنتظر وان من شك في مهديتهِ فقد كفر ومن حار بهُ خذل في الدارين . وما زال النبي (صلعم) يظهر لهُ مع الخضر والملاك جبرائيل فيوحي اليهِ الى يوم وفاتهِ

وقال في بعض كتبهِ : « اني لا اعلم بهذا الامر حتى هجم عليَّ من الله ورسوله من غير استحقاق فأمرهُ مطاع وهو يفعل ما يشاء ويختار » . . . « وقد امرني سيد الوجود (صلعم) بمكاتبة المسلمين ودعوتهم الى الهجرة معنا الى محل يكون فيهِ قوام الدين واصلاح امر الدارين » . . . « فلازم تحضروا معنا في رمضان ولا تتخلفوا فيحل بكم الخسران في الدارين . . . » وهذه صورة بعض كتبهِ التي نشرها في اوائل دعوتهِ :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآلهِ مع التسليم

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى احبابه في الله المؤمنين بالله وبكتابه « اما بعد فلا يخفى تغير الزمن وترك السنن ولا يرضى بذلك ذوو الايمان والفطن بل احق ان يترك لذلك الاوطار والوطن لاقامة الدين والسنن ولا يتوانى عن ذلك عاقل لان غيرة الاسلام للمؤمن تجبره . ثم احبابي كما اراد الله في ازله وقضائه تفضّل على عبده الحقير الذليل بالخلافة الكبرى من الله ورسوله . واخبرني سيد الوجود (صلعم) بأني المهدي المنتظر وخلفني عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مرارًا بحضرة الخلفاء الاربعة والاقطاب والخضر عليه السلام وأيدني الله تعالى بالملائكة المقربين وبالاولياء الاحياء والميتين من لدن آدم الى زماننا هذا وكذلك المؤمنون من الجن وفي ساعة الحرب يحضر معهم امام جيشي سيد الوجود (صلعم) بذاته الكريمة وكذلك الخلفاء الاربعة والاقطاب والخضر عليه السلام واعطاني سيف النصر من حضرته (صلعم) وأعلمت انهُ لا ينصر عليَّ معهُ احد ولو كان الثقلين الانس والجن . ثم أخبرني سيد الوجود (صلعم) بأن الله جعل لك على المهدية علامة وهي الخال على خدي الايمن . وكذلك جعل لي علامة أخرى تخرج راية من نور وتكون معي في حالة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها اصحابي وينزل الرعب في قلوب اعدائي فلا يلقاني احد بعداوة الا خذلهُ الله . ثم قال لي (صلعم) انك مخلوق من نور عنان قلبي فمن لهُ سعادة صدق بأني المهدي المنتظر ولكن الله جعل في قلوب الذين يحبون الجاه النفاق فلا يصدقون حرصاً على جاههم قال (صلعم) حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل . وجاء في الاثر اذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموهُ على دينكم . وجاء في بعض كتبه القديمة لا تسأل عني عالمًا اسكرهُ حب الدنيا فيصدّك عن طريق محبتي فأولئك قطاع الطريق على عبادي . ولما حصل لي يا احبابي من الله ورسوله امر الخلافة الكبرى امرني سيد الوجود (صلعم) بالهجرة الى ماسة بجبل قدير وامرني ان اكاتب بها جميع المكلفين امرًا عامًا فكاتبنا بذلك الامراء ومشايخ الدين فأنكر الاشقياء وصدق الصديقون الذين لا يبالون فيما لقوهُ في الله من المكروه

وما فاتهم من المحبوب المشتهى بل هم ناظرون الى وعده سبحانهُ وتعالى بقوله تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا في الارض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين • وحيث ان الامر لله والمهدية ارادها الله لعبده الفقير الحقير الذليل محمد المهدي بن عبد الله فيجب بذلك التصديق لارادة الله وقد اجتمع السلف والخلف في تفويض العلم لله فعلمهُ سبحانهُ لا يتقيد بضبط القوانين ولا بعلوم المتفننين بل يمحي الله مايشاء ويثبت وعندهُ أم الكتاب • قال تعالى ولا يحيطون بشيءٍ من علمه الا بما شاء وعندهُ مفاتيح الغيب لايعلمها الآ هو ولا يُسأل عما يفعل ويخلق ما يشاء ويختار يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم • وقد قال الشيخ محيي الدين بن العربي في تفسيره على القرآن العظيم علم المهدي كعلم الساعة والساعة لا يعلم وقت مجيئها على الحقيقة الآ الله • وقال الشيخ احمد ابن ادريس كذبت في المهدي اربعة عشر نسخة من نسخ اهل الله ثم قال يخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونهُ • وهذا لا يخفى علكم ان التأليفات الواردة في المهدي منها الآثار وكشف الاولياء وغير ذلك فيختلف كل منها كما علمت من انهُ يمحو الله ما يشاء الآية ومنها الاحاديث فمنها الضعيف والمقطوع والمنسوخ والموضوع بل الحديث الضعيف ينسخهُ الصحيح والصحيح ينسخ بعضهُ بعضاً كما ان الآيات تنسخها الآيات وحقيقة ذلك على ما هي عليه لا يعرفها الآ اهل المشاهدة والبصائر • هذا وقد اخبرني سيد الوجود (صلعم) بأن من شك في مهديتك فقد كفر بالله ورسوله كررها (صلعم) ثلاث مرات وجميع ما اخبرتكم به من خلافتي على المهدية الخ فقد اخبرني به سيد الوجود (صلعم) يقظة في حال الصحة وانا خالٍ من الموانع الشرعية لا بنوم ولا جذب ولا سكر ولا جنون بل متصف بصفات العقل اقفو اثر رسول الله (صلعم) بالامر فيما امر به والنهي عما نهى عنه والهجرة المذكورة بالدين واجبة كتاباً وسنةً قال تعالى يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم • وقال (صلعم) من فرَّ بدينه من ارض الى ارض وان كان شبرًا من الارض استوجب الجنة وكان رفيق ابيه خليل الله ابراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام والى غير ذلك من الآيات والاحاديث

واجابة داعي الله واجبة قال تعالى واتبع سبيل من أناب اليَّ • فاذا فهمتم ذلك فقد امرنا جميع المكلفين بالهجرة الينا لاجل الجهاد في سبيل الله أو الى اقرب بلادٍ منكم لقولهِ تعالى قاتلوا الذين يلونكم من الكفار فمن تخلف عن ذلك دخل في وعيد قولهِ تعالى قل ان كان آباؤكم وابناؤكم الخ وقوله تعالى «يا ايها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة» الخ الآيتين فاذا فهمتم ذلك فهلموا للجهاد في سبيلهِ ولا تخافوا من احدٍ غير الله لان خوف المخلوق من غير الله يعدم الايمان بالله والعياذ بالله من ذلك قال تعالى فلا تخشوا الناس واخشوني وقال تعالى والله احق ان تخشوهُ لا سيما وقد وعد الله في كتابهِ العزيز بنصر من ينصر دينهُ قال تعالى ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم وقال تعالى الاّ تنصروهُ فقد نصرهُ الله وحيث ان لم تجيبوا داعي الله وتبادروا لاقامة دين الله تلزمكم العقوبة عند الله تعالى لانكم ادلّة الخلق وازمتها فمن كان مهتماً بايمانهِ شفيقاً بدينهِ حريصاً على امر ربهِ اجاب الدعوة واجتمع مع من ينصر دينهُ • وليكن معلومكم اني من نسل رسول الله (صلعم) فأبي حسني من جهة ابيهِ وأمهِ وأمي كذلك من جهة أمها وابوها عباسي والعلمُ لله ان لي نسبة الى الحسين وهذا المعاني الحسان تكفي لمن ادركهُ الله بالايمان فلا عبرة لمن يراها ولم يصدق بها هذا والسلام اه»

«بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآلهِ مع التسليم

«وبعد جزيل السلام الى عزيز المقام حبينا ذي الاكرام الاستاذ خليفة جدنا الشيخ محمد الطيب البصير وقاهُ الله من كل التكدير» لا يخفى عزيز علمكم ان من كان لله وخرج من حظهِ وهاجر الى الله لا يخشى من شيء• ولا يخاف من احد فانهُ منصور مضمون رزقهُ وموقي من شرور الخلائق بالوعد الصادق الذي لا يشك فيهِ الا منافق وحيث انك النائب عنا وكنفسنا في جميع الامور ولازم تشجيع الاهل الى الهجرة الينا وجميع من لم يصلنا فليبايعك وقد جعلت مبايعتك مبايعتي وانت الامين على حقوق الله تعالى ولازم تزهد المحبين عن الاوطان والاموال فان الدنيا غرور

وما للعبد الا الاعمال الموافقة للكتاب والسنة ومن لم يجتهد على ذلك بشق الانفس في هذه الايام القريبة الزوال خسر الدارين ولا تنفعهُ الاموال والاوطان بل تبقى عليهِ الحسرة والندامة • ومن البشائر التي حصلت لنا بعدك انهُ حصلت لنا حضرة نبوية حاضر عليها محبنا الفقيه عيسى فيأتي (صلعم) ويجلس معي ويقول للاخ المذكور شيخك هو المهدي فيقول اني مؤمن بذلك فيقول (صلعم) من لم يصدق بمهديتهِ كفر بالله ورسولهِ قالها ثلاث مرات ثم يقول لهُ الاخ المذكور ياسيدي يا رسول الله الناس من العلماء يستهزئون بنا والحشية ايضاً من الترك فيقول (صلعم) والله والله ان قوتي تقينكم ان اشرتم بادنى قشة تنقضي حاجتكم • ثم يقول الشيخ عبدالله يا سيدي الشيخ الطيب نحن مصدقون بمهدية شيخنا والناس ليسوا مصدقين فيقول الشيخ الطيب ان شيخك حين ولادتهِ عرفتهُ اهل الباطن والحقيقة انهُ المهدي فلما أتم اربعين يوماً عرفتهُ الجمادات والنباتات بانهُ المهدي ثم يقول الشيخ الطيب الطريقة فيها الذل والانكسار وقلة الطعام وقلة الشراب والصبر وزيارة السادات فتلك ستة والمهدية فيها ايضاً ستة الحرب والحزم والعزم والتوكل والاعتماد على الله تعالى واتفاق القول فهذه الاثنتا عشرة لم تجتمع لاحد الا لك ويقول عظ قومك فلا تكن فيهم ثلاث خصال الحسد والكذب وترك الصلاة ومن كان متصفاً بواحدة من هذه الثلاث اتصف بالآخرين • ثم يقول وحين قدومك الى «قدير» ليكن النساء متسترات ولا يتكشفن كالبقارة وحين تكون بين كردوفان وتقلي عظ القوم باجمعهم فمن كان سائرًا الى الله بلا علة فليمشِ معكم ومن كان سائرًا لعلة لا يمش معكم ولازم ان تصلوا الى الملك آدم بهيئة حسنة مع ترتيب الاذكار فلما تصلوا «قدير» لازم تنفي عن قومك الصفات الثلاث ولا يدخل معكم من كان فيهِ احد اليهن • ثم يأتي الشيخ التوم ويقرأ عليَّ السلام بالمهدية ويقول اجتهد على قومك ان يكون الكبير أباً والصغير ولداً والمساوي أخاً وفي رمضان ادخل خلوة الاربعين فتبين فيها دسائس وغوامض • ثم يأتي جدنا الشيخ البصير ويقرأ عليَّ السلام بالمهدية ويتكلم بكلام المفهوم منهُ انهُ قال اشدد الحزام على سنة النبي العدنان • ثم يأتي الشيخ القرشي فيقرأ عليَّ السلام بالمهدية

ويتكلم بكلام مفهوم منهُ انهُ يقول كن ذاكرًا ولمن معك ساترًا فيقول الشيخ عبد الله يا سيدي الناس منكرون في مهدية شيخنا فيقول ان النبي (صلعم) اعلمني قبل مماتي ان شيخك هو المهدي بذاتهِ وكان اعلمني الشيخ الطيب قبل مماتهِ وقال انك تدرك المهدي وتلاقيهِ وهو شيخك بعينه . ثم يأتي النبي (صلعم) ومعهُ الشيخ عبد القادر الجيلاني لابس جبة وعليها سيور فيقول الشيخ عبدالله يا سيدي يا رسول الله الناس منكرون بالجبة ويتعففون عنها أهي سنة واردة ام لا فيقول (صلعم) في الانسان نفسه رقع فرأسهُ رقعة زرقاء وباطن شفتيهِ رقعة حمراء واسنانهُ رقعة بيضاء واظفارهُ رقعة صفراء ويقول (صلعم) الرقع اربعة بيضاء وحمراء وزرقاء وصفراء ويقول (صلعم) لو لا اني خشيت عليك ان يكون مغشياً عليك لاريتك جبب الخلفاء الاربعة ويأمر صلى الله عليهِ وسلم عزرائيل عليهِ السلام ويقول من هذه الليلة اصحب المهدي لا تفارقهُ ويقول(صلعم) للخضر عليهِ السلام من هذه الليلة اصحب المهدي وكن في قومهِ وهذه الليلة المذكورة التي حصلت فيها هذه الحضرة المباركة غرة شعبان ليلة الاربعاء ثم تلى لنا جميع الاحوال الى دخول مكة ومنازعة اهلها ومبايعة الضعفاء والقربا اولاً ثم مبايعة الشريف ملك مكة وجميع اشرافها معهُ الى هذا كفاية والسلام غرة شعبان سنة ١٢٩٨ هـ « ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١ م اه

وتاريخ هذا الكتاب هو تاريخ اشهار دعواهُ في الكتب وعمرهُ اذ ذاك دون الاربعين سنة . وكان يدعى اولاً بمحمد احمد بتركيب الاسمين ثم قال امرني سيد الوجود (صلعم) بالاقتصار على الجزء الاول اعني محمدًا وتغيير اسمي بمحمد المهدي فانهُ (صلعم) قال في بعض حضراتهِ اني كنت اسمى محمدًا فلما بلغت الرسالة والنبوة سميت رسول الله ونبي الله كذلك انت كنت تسمى محمد احمد فلما حصلت لك المهدية يقال لك المهدي وسنطلق هذا الاسم بعد الآن . وقد كان لهُ خواتم يختم بها كتبهُ ومنشوراتهِ وآخرها خاتمٌ منقوش فيهِ ثلاثة اسطر بهيئة مربع هكذا : لا اله الا الله سطر . محمد رسول الله سطر . محمد المهدي بن عبدالله سطر سنة ١٣٠٢



الفصل الثالث
في
﴿ وقائع المهدي في جزيرة أبا ﴾

﴿ دعوة المهدي الى الخرطوم ﴾ هذا وكان محمد شريف قد ابلغ رؤوف باشا حكمدار السودان بالذي عليهِ محمد احمد وحذَّرهُ من عاقبة الاهمال ولكن رؤوف باشا حمل ذلك على ما بينهما من العداء فلم يهتم للامر حتى اشتهر امر المنشورات ووقع بعضها في يدهِ فكتب الى محمد احمد يسألهُ عما نسب اليهِ من توزيع تلك المنشورات وقد انتحل لهُ عذرًا بقولهِ لعلَّ بعض العداة كتب هذه المنشورات ونسبها اليكم فاجابهُ محمد احمد ان هذه المنشورات هي منهُ لا من غيرهِ وانهُ هو المهدي المنتظر وهذه صورة الكتاب بحرفهِ :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

« و بعد فمن عبد ربهِ محمد المهدي بن السيد عبد الله الى الحكمدار (بالخرطوم)

« و بعد فعلى مقتضى المكاتبة فالامر المطلوب كشفهُ ان دعائي الخلق على تقويم السنة والهجرة بالدين مما عليهِ الطباع الزمنية امر من سيد الوجود (صلعم) والاعلام باني المهدي المنتظر من سيد الوجود (صلعم) مرارًا عديدة مع الهواتف الالهية وعلامات أخبر بها سيد الوجود (صلعم) فمن تبع صار من المقربين الفائزين ومن خالف خذلهُ الله في الدارين وصدَّهُ بقوتهِ التي يعجز عن معارضتها جميع العالمين واما المواعظ للمؤمنين فهي مبينة فمن لم يصدّق طهرهُ السيف وليكن المعلوم انهُ اتاني من الحضرتين النبوة وحضرة الاقطاب سيف وأُعلمت انهُ لا ينصر عليَّ معهُ احد ومن اتانا بالعداوة يأخذهُ الله اما بالخسف او بالغرق وذلك اعلام منهُ (صلعم) وكل ذلك لم اعمل فيهِ بشيء من نفسي ولا لغرضي وانما هو من الله والى الله ومعلوم قولهُ تعالى ان تنصروا الله ينصركم الآية وقولهُ (صلعم) احفظ الله يحفظك احفظ الله

تجدهُ تجاهك والى غير ذلك من الادلة الظاهرية والباطنية وفي ما ذكرتهُ كفاية يكتفي بها اهل العناية والسلام سنة ١٢٩٨ هـ » اه

فجمع رؤوف باشا العلماء واطلعهم على كتاب محمد احمد ومنشوراتهِ وسألهم رأيهم فيها فالتمس لهُ بعضهم عذرًا في انهُ قد حصل لهُ جذب سماوي من انعكافهِ على الزهد والعبادة ولكنهم حكموا جميعاً بوجوب القبض عليهِ وتلافي الامر قبل اتساع الخرق . فندب رؤوف باشا لهذا الامر احد معاونيهِ محمد بك ابا السعود (المتقدم ذكرهُ في فتح الاستواء) وكان اذ ذاك من معاوني الحكمدارية فسار على باخرة الى أبا فوصلها يوم الاحد ١١ رمضان سنة ١٢٩٨ هـ ٧ اوغسطوس سنة ١٨٨١م فوجد محمد احمد في الغار جالساً وحولهُ جمهور من تلامذتهِ فسلم عليهِ وقال ان حكمدار السودان بلغهُ امر الدعوى التي قمت بها وارسلني لآتي بك اليهِ بمدينة الخرطوم وهو وليُّ الامر الذي تجب طاعتهُ . فاجابهُ محمد احمد اما ما طلبتهُ من الوصول معك الى الخرطوم فهذا مما لا سبيل اليهِ وانا وليّ الامر الذي تجب طاعتهُ على جميع الامة المحمدية . ثم شرع في تقديم الادلة على انهُ المهدي المنتظر فاغلظ لهُ ابو السعود في الجواب وقال لهُ ارجع عن هذه الدعوى فانك لا تطيق حرب الحكومة ولا نرى معك من يقاتلها فاجابهُ محمد احمد وهو يتبسم أنا اقاتلكم بهؤلاء واشار الى اصحابهِ ثم التفت اليهم وقال أأنتم راضون بالموت في سبيل الله فقالوا كلهم نعم راضون بالموت في سبيل الله و باذلون ارواحنا في رضى الله ورسولهِ ومهديهِ فالتفت الى ابي السعود وقال لهُ قد سمعت ما اجابوا بهِ فارجع الى وليّ امرك في الخرطوم واخبرهُ بما رأيت وسمعت . فلما رأى ابو السعود صدق عزم محمد احمد واعوانهِ على نصرة دعواهم وان النصح لا ينجع فيهم عاد مسرعاً الى الخرطوم وقص على رؤوف باشا ما رآهُ وسمعهُ

﴿ واقعة أبا في ١٢ اوغسطوس سنة ١٨٨١ ﴾ فجهز رؤوف باشا بلوكين من العساكر جعل على كل بلوك صاغاً ومدفعاً وارسلهم مع ابي السعود على الباخرة للقبض على محمد احمد وانصارهِ . وكان محمد احمد عند ذهاب ابي السعود قد جمع اصحابهُ وقال لهم : « ايها الناس ان الترك رجعوا لطلب المدد وسيعودون الى حربنا

فمن كان منكم خائفاً على اولاده واموالهِ فليخرج منا فنحن سامحون لهُ وبيعتنا التي في اعناقكم ليس عليكم فيها حرج فان سلمنا فعودوا الينا والا فقد احرزتم ابناءكم واموالكم» فقالوا جميعاً بلسان واحد« يا سيدنا نحن بايعناك على الموت ورضينا بذلك ولا نرغب بنفسنا عن نفسك بل نحن معك حيثما توجهت فمرنا بما شئت فنحن لك سامعون ولامرك مطيعون يا خليفة رسول الله » فدعا لهم

ثم ارسل الى القبائل التي حول الجزيرة يستنفرها الى الجهاد فاجتمع عندهُ ٣٥٠ رجلاً وفيهم تلامذتهُ . ولما كانت ليلة الجمعة الواقع في ١٦ رمضان سنة ١٢٩٨ هـ ١٢ اوغسطوس سنة ١٨٨١ م بلغ محمد احمد ان العساكر حضرت بالباخرة للقبض عليهِ فأمر رجالهُ بالاستعداد للحرب وان يكون على كل عشرة منهم مقدم وفي فجر يوم الجمعة المذكور وصلت الباخرة بالعساكر فرست تجاه الحلة وخرج العساكر منها وساروا نحو الحلة على غير انتظام فانهُ عند وصول اولهم الى قرب الحلة كان آخرهم لم يزل عند الباخرة . قيل وسبب ذلك انهُ وقع خلاف بين ضابطَي البلوكين فان كلاً منهما ادعى انهُ المقدم والرئيس فكان الواحد منهما يأمر العساكر بشيء والآخر بغيره فاختل نظامهم . واما محمد احمد فانهُ لما رآهم مقبلين اخذ سيفهُ من المسجد وخرج برجالهِ من الحلة وكمن لهم بين الاشجار في الجهة الشرقية منها فلما رآهم العساكر ابتدروهم بالرصاص فحملوا عليهم حملة رجل واحد فاختلطوا بهم واعملوا فيهم السيف والحربة وكان محل الواقعة وحلاً لكونهِ قريب عهد بنزول المطر عليهِ فما استطاعت العساكر الفرار ففتك بهم انصار محمد احمـــد ولم ينج منهُ الا الهاربون المسرعون وقليل ما هم . وقد اصابت محمد احمد رصاصة في كتفهِ اليمنى فجرح جرحاً بليغاً حتى اختضب جسدهُ بالدم وكان عبدالله التعايشي واقفاً عن يمينهِ فأخذ ثوباً وطرحهُ على الجرح لئلا يراهُ الانصار فيفشلوا . وقد قتل من انصار محمد احمد ١٢ رجلاً فحملوا الى غارهِ ودفنوا فيهِ . اما قتلى العساكر فتركوا في العراء وجمع المهدي سلاحهم ووزعهُ على انصارهِ وكان ابو السعود لم يزل في الباخرة فعاد بها وبمن نجا من العساكر الى الخرطوم . وقد سميت هذه الواقعة « بواقعة أبا » وانتشر خبرها في

جميع انحاء السودان بغلو كثير وعدها البسطاء من الاعاجيب السماوية والكرامات العظمى التي خُصَّ محمد احمد بها

الفصل الرابع

في

﴿ وقائع المهدي في جبل قدير ﴾

﴿ هجرة المهدي الى جبل قدير ﴾ وعلم محمد احمد ان الحكومة لا تتغاضى عنهُ بعد الآن ولا بدّ لها من تجريد الجيوش للانتقام منهُ فجمع اصحابهُ في عشية يوم الواقعة وقال لهم « ان سيدالوجود (صلعم) امرنا بالهجرة الى جبل ماسه بلصق جبل قدير » ولم يكن بلصق قدير جبل بهذا الاسم ولكنهُ اختلق هذا الاسم لحجر عظيم بجانب الجبل طبقاً لبعض الاحاديث من ان المهدي المنتظر تكون هجرتهُ الى جبل ماسة كما مرّ فوافقهُ اصحابهُ على ذلك وكان عندهم بعض المراكب فاجتازوا بها النيل الى الغرب بما معهم من النساء والاولاد والامتعة وساروا قاصدين جبل قدير

﴿ مطاردة محمد سعيد باشا للمهدي ﴾ اما رؤوف باشا فانهُ عند رجوع أبي السعود بالباخرة من أبا اهتم للامر وسير القائمقام علي بك لطفي الى الكوة بخمساية رجل من العساكر المنظمة والباشبوزق وارسل تلغرافاً الى محمد سعيد باشا مدير كردوفان فوافاهُ اليها بألف من العساكر المنظمة وثلاثماية من الباشبوزق وكان من رأي سعيد باشا مطاردة محمد احمد قبل فوات الفرصة ولكن رؤوف باشا لم يأذن لهُ في ذلك وامرهُ فأخذ بعض العساكر وذهب بها الى أبا ليتحقق فراغ الجزيرة من المهدي وانصارهِ ويقف على تفاصيل الواقعة . وقد رأيت في مصر بعض العساكر الذين صحبوا سعيد باشا الى أبا فقال : ذهبنا الى محل الواقعة فوجدناهُ مستوحلاً وغاصاً بشجر الاراك وكان قتلى العساكر لا يزالون في العراء وقد دلّت جراحهم على انهم قتلوا بالسيوف والحراب ولكن وجد بعضهم مقتولاً بالرصاص مما دلّ على اختلال نظام العساكر وقتلهم بعضهم بعضاً لان انصار المهدي لم يكن معهم سلاح ناري فدفنا القتلى وجئنا

الى غار المهدي الذي هو اشبه بسرداب تحت الارض فوجدنا قتلى الدراويش قد دفنوا فيهِ بثيابهم . ثم دخلنا منزل محمد احمد فوجدنا فيهِ عدة كتب من مشايخ الطرق والقبائل جواباً على كتبهِ لهم واكثرهم مسلمون بدعواهُ ويعدونهُ بالقيام معهُ حين ظهورهِ الاَّ الشيخ حمد النيل شيخ العراكيين في أبي حراز والشيخ محمد السقا في الخرطوم والشيخ احمد الكناني في الابيّض فانهم في اجوبتهم يسفهون رأيهُ ويقولون «ان المهدي عند ظهورهِ يظهر كالشمس فان كنت نائماً فاصحُ» فاحرق سعيد باشا الحلة وعاد الى الكوة فاستأذن رؤوف باشا ولحق بمحمد احمد حتى وصل محلاً يدعى ابا شجيرات ومحمد احمد اذ ذاك قريب منهُ في جبل الكُمر فنزل مطر غزير حبسهما عن السير اياماً وكان سعيد باشا قد فرغ زادهُ واستخف أمر محمد احمد ولم يخطر ببالهِ انهُ سوف يحصرهُ في عاصمتهِ اشهرًا ثم يأسرهُ ويقتلهُ بعد ان يريهُ العذاب الوانا فقرَّ رأيهُ على الرجوع عنهُ وعاد الى الابيّض في اول القعدة سنة ١٢٩٨هـ ٢٥ سبتمبر ١٨٨١م

﴿ واقعة المختار ٢٤ اوكتوبر سنة ١٨٨١ م ﴾ واستطرد محمد احمد السير نحو جبل قدير وهو يدعو الناس من عرب وعجم الى طاعتهِ حتى وصل الى جبل الجرادة وهو جبل حصين يسكنهُ اخلاط من العرب والنوبة السود وعليهِ ملك يسمى المختار فتصدى للمهدي وحاربهُ فتغلب المهدي عليهِ وقتلهُ وعرفت الواقعة « بواقعة المختار » وتاريخها سلخ ذي القعدة سنة ١٢٩٨ هـ ٢٤ اوكتوبر سنة ١٨٨١ م

وسار المهدي حتى وصل جبل قدير يوم الاثنين في ٧ الحجة سنة ١٢٩٨ هـ ٣١ اوكتوبر سنة ١٨٨١ م وكان على ذلك الجبل ملك يسمى ناصرًا فقابلهُ بالبشر والسرور وانزلهُ على الرحب والسعة . وامر محمد احمد اصحابهُ فبنوا مسجدًا للصلاة ومنازل للسكنى وكانوا في تعب شديد مما لاقوهُ في الطريق من الامطار والوحول والمحن فاصابتهم الحمى وساءت حالهم جدًّا

﴿ واقعة راشد بك ٩ ديسمبر سنة ١٨٨١ ﴾ وبلغ راشد بك مدير فاشودة في ذلك الحين ان المهدي استقر في جبل قدير على خمسة ايام منهُ فاستأذن رؤوف باشا في مهاجمتهِ فلم يأذن لهُ . ثم اتاهُ مخبرٌ من قدير وقال لهُ ان المهدي في ضيق شديد

وقد فشت الحمى في اصحابهِ فصمم راشد بك على مهاجمتهِ بلا استئذان وجهز ٤٠٠ من العساكر المنظمة والفاً من الشلك وعليهم ملكهم وزحف بهم قاصداً « قديراً » وقد بذل قصارى الجهد في كتمان سيرهِ بقصد مباغتة المهدي الهجوم ولكن رأتهُ امرأة كنانية تدعى رابحة قرب جبل قدير فقامت مسرعة حتى وصلت محمد احمد في الثلث الاخير من ليلة الخميس ١٦ محرم سنة ١٢٩٩ هـ ٨ ديسمبر سنة ١٨٨١ م واخبرتهُ بمسيرهِ اليهِ . فجمع محمد احمد اصحابهُ وكانوا قد بلغوا بعد واقعة أبا ٨٠٠٠ رجل وخرج بهم الى غابة بالقرب من جبل قدير وهي طريق الجبل الوحيدة وهناك صفهم راية راية ووقف بينهم خطيباً فحرضهم على الجهاد ورغبهم في ما اعدّهُ الله للمجاهدين وصبر حتى دخل راشد بك الغابة برجالهِ وكان ذلك يوم الجمعة في ٩ ديسمبر سنة ١٨٨١ م عند طلوع الشمس فأمر اصحابهُ فحملوا على راشد ورجالهِ حملة رجل واحد قبل ان ينتظموا قلعة فتلقوهم باطلاق الرصاص فصبر اصحاب محمد احمد على نارهم ثم هاجموهم بحزم وصدق نية فدخلوا بينهم وقتلوهم شر قتلة ولم ينج منهم الا القليل وقد قتل راشد بك وأسر ١١١ من رجالهِ وغنم محمد احمد ما كان معهُ من المال والاسلحة والذخائر والزاد فتقوى بها

وقد عرفت هذه الواقعة « بواقعة راشد » وانتشر خبرها في اقطار السودان الاربعة وشاع ان المهدي يحارب بسيف القدرة وانهُ يحول رصاص العساكر الى ماء فلا تضرُّ بانصارهِ وان النار خرجت من حراب الانصار وسيوفهم فاحرقت اجسام العساكر وروى بعضهم انهم رأوا بأعينهم اسم المهدي مكتوباً على ورق الشجر وبيض الطيور في البرية . وكان محمد احمد بعد استقرارهِ في قدير قد ارسل البعوث الى كل الجهات فاخذ الناس يفدون اليهِ من سنار وكردوفان ودارفور ومن كل فج

﴿ ولاية عبد القادر باشا حلمي ١٢٩٩ : ١٣٠٠ هـ — ١٨٨٢ : ١٨٨٣ م ﴾

﴿ وكالة جيكلر باشا ١٨٨٢ م ﴾

ولما بلغ رؤوف باشا خبر راشد بك راعهُ الخبر وشرع في تجنيد عساكر باشبوزق من الشايقية والدناقلة وخاف على فاشودة من المهدي فارسل اليها قوة من العساكر



﴿ عبد القادر باشا حلمى ﴾

بقيادة جيكلر باشا (رئيس مصلحة التلغرافات السودانية) وبعث في طلب المدد من مصر

وكانت الحكومة في مصر لم تزل مشغولة بالثورة العرابية ولم يسعها امداد السودان بالعساكر فرأت ان تبعث اليهِ بوالٍ مدبّر حازم يتمكن من اطفاء الثورة بما لديهِ من العساكر فعزلت روؤف باشا فبرح الخرطوم في اوائل مارس سنة ١٨٨٢ وندبت لهذا العمل الهام البطل المدرّب والسياسي المحنَّك عبد القادر باشا حلمي ولكن دعت الضرورة الى تأخيرهِ بمصر فبقي فيها الى اوائل مايو من تلك السنة

﴿ واقعة الشلالي في ٢٩ مايو سنة ١٨٨٢ ﴾ وفي هذه الاثناء قام باعباء الاعمال بالنيابة عنهُ جيكلر باشا فأرسل الى مصر رسالة برقية يلحّ فيها على الحكومة ان تأذن لهُ في تجهيز حملة قوية لسحق المهدي في قدير قبل استفحال امرهِ فأذنت لهُ. وقد اتصل بي ان عبد القادر باشا عارض الحكومة في ذلك والحّ على ترك المهدي وشأنهُ الى ما بعد وصولهِ الخرطوم فينظر في امرهِ فلم يُسمع لهُ. فحشد جيكلر جيشاً في الكوة مؤلفاً من ١٣ بلوكاً من العساكر النظامية و١٥٠٠ رجل من الباشبوزق والخطرية من عساكر الخرطوم وسنار والابيض وعقد لواءهُ ليوسف باشا الشلالي المتقدم ذكرهُ مع جسي في بحر الغزال وكان على باشبوزق الابيض عبد الله محمد دفع الله وعبد الهادي صبر من اعيانها وسلطان كنجارة وسلطان المسبعات وكلهم من الابطال المعدودين

وفي اواسط مايو سار يوسف باشا الشلالي بجيشهِ من الكوة قاصداً قديراً عن طريق فاشودة وعلم المهدي بقدومهِ ممن هاجروا اليهِ من جزيرة سنار وارسل طلائعهُ الى قرب فاشودة فكانوا يحتالون حتى يدخلوا الجيش ويتجسسوهُ فيعودوا اليهِ بالخبر كل يوم

وارسل يوسف باشا كتاباً الى المهدي يدعوهُ الى التسليم وحقن الدماء فكتب اليهِ المهدي في الجواب ما نذكرهُ بالحرف الواحد ليعلم منهُ ما صار اليهِ محمد احمد من الجرأة والاستخفاف بالحكومة وعساكرها وهذه هي صورة الجواب:

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المنتقم القهار والصلاة على سيدنا محمد وآلهِ الاخيار من الفقير المعتصم بمولاهُ محمد المهدي بن السيد عبد الله الى يوسف حسن الشلالي ومن معهُ من الجموع

«أما بعد فانهُ وصل الينا جوابكم وما ذكرتم فيهِ من وقوفكم على مكاتبتنا وانكاركم صار معلوماً لدينا وكنا قصدنا ان نضرب عن افادتكم صفحاً ونطوي دون اجابتكم كشحاً لوقوفكم على الانذار ومجاهرتكم بالانكار لكن اردنا ان نبين لكم غلطكم في ما ذكرتموهُ في جميع المواضع ونوضح لكم خطأكم في ما ادعيتموهُ بالبراهين السواطع فنقول اما قولكم انا قتلنا العسكر غدرًا في الوقعتين قبل ان يحاربونا فهذا كذب صريح لانهم في الوقعتين ابتدأونا بالمحاربة والضرب بالسلاح حتى حاربناهم وقتلناهم . وقولكم ان الحكومة ارسلتهم ليقفوا على ما عندنا من الادلة باطل ضرورة لان الحكومة لو ارادت المراجعة والاطلاع على ما عندنا من البراهين لارسلت الصلحاء والعلماء اهل المذاكرة والدراية بهذا الشأن ولم ترسل العساكر الاغبياء وتعطيهم الاسلحة. وقولكم انا قتلنا جملة من المسلمين المتوطنين بهذا المكان ظلماً وعدواناً باطل ايضاً لانا ما قتلنا الا اهل الجرادة بعد ان كذبونا وحاربونا وقد اخبرنا النبي (صلعم) واخبر جميع اهل الكشف بان من شك في مهديتنا وانكر وخالف فهو كافر ودمهُ هدر ومالهُ غنيمة فحاربناهم لاجل ذلك وقتلناهم وبعد ذلك لما انقاد باقيهم لحكمنا رجعنا لهم جميع امتعتهم التي بايدي اصحابنا رفقاً بهم مع انها حلال لنا. وقولكم ان الذين قتلناهم من العسكر مسلمون ومتبعون ما جاء بهِ الرسول صلى الله عليهِ وسلم ونسأل عن دمائهم بين يدي الله تعالى باطل لان القطب الدرديري قد نص في باب المحاربة على ان امراء مصر وجميع عساكرهم واتباعهم محاربون لاخذ اموال المسلمين منهم كرهاً فيجوز قتلهم كما قال تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله ورسولهُ ويسعون في الارض فسادًا ان يقتلوا الى آخر الآية . على ان النبي صلى عليهِ وسلم امرنا صريحاً بقتال الترك واخبرنا بانهم كفار لمخالفتهم لامر الرسول باتباعنا وارادتهم لاطفاء نور الله تعالى الذي اراد بهِ اظهار عدلهِ فكيف نسأل عنهم بعد هذا . وايضاً قد شاهد جمع من الاخوان التهاب النار في اعضاء العساكر المقتولين جهارًا تعجيلاً لعقوبتهم واظهارًا لحقيقتهم وقولكم انكم ضبطتم اربعة انفار الطليعة وآذيتموهم فاعلموا انهُ قد اوذي قبلهم اصحاب الرسول عليهِ افضل الصلاة والسلام بالسجن والضرب والقتل وجميع انواع الاذى كبلال وخبيب

وامثالهم فليس لهم الا الثواب ولا بد ان يجازيكم الله على ما صنعتم بهم . وقولكم ان الطليعة تنافي المهدية لان المهدي يعلم الغيب ضرورة جهل منكم بسيرة الرسول فان النبي (صلعم) كان يرسل الطلائع كحذيفة اليماني والزبير بن العوام وغيرهم ولم ينافِ ذلك رسالتهُ فكيف ينافي مهديتنا وقد قال الله لنبيهِ (صلعم) قل لا اقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول لكم اني ملك ان اتبع الا ما يوحى اليَّ وقولهُ تعالى انما الغيب لله هو يعلمهُ لا غيرهُ الا ان يريد الله اطلاعهُ في بعض الاحيان لحكمة يعلمها هو . وقولكم ما اتبعنا الا البقارة الجهلاء والمجوس فاعلموا ان اتباع الرسل من قبلنا واتباع نبينا محمد (صلعم) الضعفاء والجهلاء والاعراب الذين كانوا يعبدون الحجر والشجر واما العلماء والاغنياء واهل القوة والترف فلم يتبعوهم الابعد ان يخربوا ديارهم ويقتلوا اشرافهم ويملكوهم بالقهر قال تعالى حاكياً عن قوم نوح وما نريك اتبعك الاَّ الذين هم اراذلنا باديَ الرأي وقال تعالى وما ارسلنا في قرية من نذيرٍ الا قال مترفوها انا بما أُرسلتم بهِ كافرون وقالوا نحن اكثر اموالاً واولاداً وما نحن بمعذبين . ولما بعث نبينا محمد (صلعم) كانت مدائن اليهود والنصارى مشحونة بالاحبار والرهبان والاغنياء والملوك اهل الطغيان وكانوا يتمنون ادراك زمنهِ ويستعزون بهِ فلما ظهر انكروا وجحدوا نبوتهُ وقالوا ما اتبعهُ الا اجلاف الاعراب عراة الاجساد وجياع الاكباد واستكبروا عن اتباعهِ وكفروا بهِ مع انهم يعرفونهُ كما يعرفون ابناءهم ويعلمون انهُ الحق من ربهم ولم ينفعهم علمهم ولا غناهم بل ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضبٍ من الله ولم يبق لهم ملكهم الذي منعهم عن اتباع الحق الا اياماً قليلة حتى فرقهُ الله وشتت شملهم وجعلهم غنيمة لضعفاء الاعراب الذين كانوا يستهزئون بهم وكذلك نرجو الله ان تكونوا انتم ومن وراءكم غنيمة للبقارة الجهلاء الذين تستهزئون بهم قال تعالى موبخاً اهل الكتاب وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم وقال تعالى وما تفرق الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة وقال تعالى افرأيت من اتخذ الههُ هواهُ واضلهُ الله على علم فمثال العلماء والصلحاء الذين انكروا مهديتنا وخالفونا كامثال احبار بني اسرائيل

ورهبانهم الذين اضلهم الله على علم • وقولكم قم واحضر عندنا لتتوجه الى محل الهدى مكة المشرفة فاعلموا ان توجهنا انما يكون بامر رسول الله (صلعم) في الوقت الذي يريده الله ولسنا تحت امركم بل انتم ومن فوقكم تحت امرنا وانا وليّ الامر في هذا الآن على سائر الانس والجان وان خالفتم امرنا في هذه الايام فلا بد ان تقعوا في قبضتنا وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده او بايدينا وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون • وقولكم ارسل الينا ملكاً من الملائكة جهل منكم كما قال تعالى موبخاً كفار قريش وقالوا لولا انزل عليه ملك ولو انزلنا ملكاً لقضي الامر ثم لا ينظرون وقد اخبر تعالى بانهم لا تنفعهم الآيات ولا يدلهم على الايمان ظهور المعجزات قال جل وعلا ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بايديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين وقال تعالى ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون فالآيات لا تنفع المنكر الجاحد واظهارها انما يكون بارادته تعالى لا بتمني العباد وليس علينا الا التبليغ والانذار كما قال تعالى وقالوا لولا انزل عليه آية من ربه انما انت منذر وقال تعالى قل انما الآيات عند الله وما على رسولنا الا البلاغ المبين فكذلك نحن ليس علينا الا التبليغ ولا نطلب من الله اظهار آية على مهديتنا بل نقف معه على حد ادبنا وعبوديتنا فان شاء اظهر آية كما ظهر لكثير من المحبين نقش اسمنا على بيض الدجاج وورق الاشجار حتى صار لهم ذلك سبباً في اليقين مع انا لا نطلب من الله ذلك ولم نتشوف الى ما هنالك والى الآن نكون ان شاء الله كذلك • وقولكم لا تغتروا بنوّاي ولا اسماعيل الامين جهل منكم بأمرنا لاننا لا نعتمد الا على الله ولا نستنصر غير الله • وقد صرّح لنا النبي (صلعم) في حضرات كثيرة بان الله ناظرنا وناصرنا واقسم على ذلك ثلاثاً واذا كانت نصرتنا بالله فلا نبالي بمدافعكم وصواريخكم وكثرة جيوشكم ولو بلغتم عدد الرمل لانهُ لن يغلب الله شيء وهو غالب كل شيء قال تعالى ان ينصركم الله فلا غالب لكم وقال تعالى لن يضروكم الا اذى وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لا ينصرون وقال

تعالى كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقال موبخاً على امثالكم السابقين ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وان الله مع المؤمنين . وقد ذكرتم انكم كاتبتمونا لان الخديوي الاعظم قال لكم لا تحاربوهُ حتى يتعدى الحدود فاعلموا انهُ ما أخركم عنا الا الخوف الشديد والجزع الذي ليس عليهِ من مزيد لاننا من حين كنا بجزيرة أبا تعدينا حدودكم وخالفنا مقصودكم فكيف تخاطبونا الآن بمثل هذا القول الذي لا ينشأ الا عن ضعفاء العقول فسارعوا الى محاربتنا لتأخذوا مناصبكم التي غركم بها الشيطان ولا تجبنوا وتحرصوا وتحيلوا ان كنتم كما زعمتم رجالاً أبطالاً أهل دراية بالحرب فانهُ ليس بيننا وبينكم الا السيف ولسنا محتاجين الى مراجعتكم حتى ترسل لكم العلماء ليذاكروكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر والحذر الحذر من المجاوبة ثانية فاننا لا نرد لكم جواباً ما دمتم منكرين ولو جاوبتمونا طول السنين فليس لكم عندنا الا الرماح الطعان والسيوف السنان . وليكن معلوماً عندكم اني من نسل رسول الله (صلعم) فابي حسني من جهة ابيهِ وأمهِ وأمي كذلك من جهة أمها وابوها عباسي والعلم لله ان لي نسبةً الى الحسين رضي الله عنهُ وفيما ذكر كفاية لاهل العناية والسلام على من اتبع الهدى في ٤ رجب سنة ١٢٩٩ هـ » اه ٢٢ مايو ١٨٨٢م

ويوم الاحد الواقع في ١٠ رجب سنة ١٢٩٩ هـ ٢٨ مايو سنة ١٨٨٢ م وصل الشلالي بجيشهِ الى جبل الجرادة فنزل في سهل بسفح الجبل وبنى زريبة مربعة من شوك ووضع العساكر عليها وجعل المدافع في اركانها الاربعة والمؤن والذخائر والدواب في الوسط فعادت طلائع محمد احمد اليهِ بالخبر . وبعد صلاة المغرب من ليلة الاثنين حادي عشر رجب ٢٩ مايو سنة ١٨٨٢م خرج محمد احمد من منزلهِ شاهراً سيفهُ يكبّر وقال اتانا الخبر من سيد الوجود (صلعم) بان نوجه الجيش الى حرب الترك واستدعى اصحاب الرايات فجعلهم اربع فرق وعين لكل فرقة جهة من الزريبة يهاجمها وكان قد بلغ عدد انصارهِ نحو ١٥ الفاً فساروا وسار وراءهم حتى قربوا من الزريبة فنزلوا هناك الى ان لاح فجر الاثنين فصلى محمد احمد بهم الصبح ثم حرضهم على الجهاد وقال اذا رأيتم العدو فكبروا ثلاثاً وقولوا اللهم انت ربنا

وربهم نواصينا ونواصيهم بيدك وانما تضلّهم انت قولوها ثلاثاً ثم امرهم بالحملة على الزريبة . وكانت العساكر تشتغل ببناء الزريبة وتحصينها الليل كلهُ فناموا عند الفجر وفياهم كذلك حمل عليهم انصار المهدي بعزم وصدق نية ما بين مهلل ومكبر وصارخ فشعر الجفراء بهم وايقظوا العساكر فأطلقوا المدافع والبنادق ولكن ما كادوا ينتظمون في اماكنهم حتى دخل الانصار عليهم في الزريبة وتبعوهم قتلاً حتى اخرجوهم منها فاقتفوا اثرهم يقتلونهم في كل جهة ولم ينجُ الا القليل الذاهب في بطون الاودية والمختبئ تحت الاشجار فاتخذوا الطريق الى فاشودة . وقُتل يوسف باشا الشلالي وعبد الله محمد دفع الله وعبد الهادي صبر وطاها الشايقي بعد ان حاربوا حرب الابطال وقتلوا بسيوفهم عدداً كبيراً من انصار المهدي وكان قتلى الانصار نحو ٢٠٠ رجل فيهم حامد اخو المهدي فدفنوا بأمر المهدي كما هم ثم جمعت الغنائم فكانت شيئاً كثيراً من النقود والازواد والملبوسات والدواب والذخائر والاسلحة فعزل المهدي الخمس منها لنفسهِ ووزع الباقي على الانصار ففرحوا بهِ جداً وتيسر امرهم بعد ان كانوا في ضيق شديد . وقد عرفت هذه الواقعة بواقعة الشلالي

وهذا النصر المتابع الذي نالهُ محمد احمد على عساكر الحكومة ادهش عالم السودان كافة وحطّ من كرامة الحكومة في اعينهم بقدر ما رفع من كرامة محمد احمد. فلقد كان للحكومة قبل الآن سطوة عجيبة في البلاد حتى كان جنديُّها الواحد يرهب رهطاً من الاهلين وقد مرّ عليها ستون سنة ونيف لم تظهر في خلالها بغير مظهر القوة والبطش فاقمعت كل ثورة ونكلت بمن ناوأها تنكيلاً شديداً . والآن قام فقيه خامل الذكر وضيع الشأن بنفر معدود من المستضعفين الجياع فتغلب على سراياها القوية المرة بعد المرة وما زال يتهددها ويستعد لمناوأتها فلم يبقَ للعامة ريب في ان هذا الفقيه هو المهدي المنتظر وان نصرهُ من الله فهاجروا اليهِ من كل فج . وقد انحاز اليهِ على الاخص : اهل البادية لانهم ميالون بالفطرة الى الحرب والسلب فرأوا عندهُ ما يوافق ميلهم خصوصاً وانهُ رفع عنهم الضرائب التي كانوا يئنون منها كما بيّنا قبل . وتجار الرقيق لانهم رأوا الوازع قد ذهب واطلقت لهم الحرية في البيع

والشراء . وقطاع الطرق واللصوص لانهم وجدوا بهِ ملجأ من العقاب . والعلماء والفقهاء لان القائم هو واحد منهم وقد قام ليحررهم من المصريين ويجعلهم حكاماً في مكانهم . وهكذا اتفقت الاحزاب على نصرهِ وكثرت الوفود عليهِ حتى بلغ عدد انصارهِ في قدير نحو ٢٠ الفاً فضلاً عن الذين اتوا و بايعوهُ وعادوا الى نصرتهِ في بلادهم

﴿ بيعة المهدي ﴾ اما المبايعة التي كان الناس يبايعونهُ بها فهذه صورتها :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآلهِ مع التسليم . أما بعد فقد بايعنا الله ورسولهُ و بايعناك على توحيد الله والاّ نشرك بهِ احداً ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي ببهتان ولا نعصيك في معروف بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضى بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة وعلى ان لا نفر من الجهاد

وكانت هذه المبايعة على وجهين الاول باليد وهي ان يضع المبايع يدهُ في يد المهدي جاعلاً ابهامهُ على ابهامهِ ثم يقرأ المهدي صورة المبايعة فيعيدها المبايع بعدهُ . وان كانوا أكثر من واحد الى العشرين وضع واحد منهم يدهُ في يد المهدي والقى الباقون ايديهم فوق يديهما . والوجه الثاني المبايعة باللسان وذلك متى زاد المبايعون على العشرين فيرقى المهدي الى منبر أو يركب جملاً ويقف الناس امامهُ ويبايعونهُ

﴿ لباس المهدي ﴾ وكان يلبس جبة مرقعة فوق سراويل من الدمور ويتمنطق بمنطقة من خوص وعلى رأسهِ طاقية مكيَّة يلفُّ عليها عمامة كبيرة بيضاء مفلَّجة كعمامة اهل الحجاز ويسدل لها عذبة على كتفهِ اليسرى طولها نحو نصف متر ويضع في عنقهِ سبحة وفي رجليهِ حذاء أو نعلين . وهو لباس الدراويش المعتاد في السودان الذي فرضه على جميع اصحابهِ فعرفوا عند رجال الحكومة بالدراويش كما عرفوا ايضاً بالاشقياء . اما المهدي فقد اطلق عليهم اسم الانصار والاصحاب والاحباب في الله

﴿ حكومة المهدي ﴾ وقد تشبه محمد احمد بالنبي في جميع اعماله وجعل جلَّ غايتهِ اعادة الاسلام الى ما كان عليهِ في اول امرهِ في زمن النبي فنظم حكومتهُ على ما تقتضيهِ هذه الغاية في الجند والمال والقضاء

اما في «الجند» فانهُ قبل خروجهِ من أبا عين خلفاءهُ فجعلهم اربعة بعدد الخلفاء

الراشدين يتولون الامر بعدهُ الواحد بعد الآخر اولهم عبد الله التعايشي خليفة ابي بكر الصديق والثاني علي ود حلو من عرب دغيم خليفة الامام عمر الفاروق والرابع محمد شريف ابن عمهِ خليفة الامام علي الكرار واما الكرسي الثالث اي خليفة الامام عثمان فقد خصّ بهِ محمد السنوسي فرفضهُ كما مرّ فبقي فارغاً • وقسم جيشهُ الى ثلاثة اقسام فعقد لكل خليفة على قومهِ وجعل لهُ راية خاصة فعقد للخليفة محمد شريف على انصار السودان الاوسط وهم انصار دنقلة وبربر والخرطوم وسنار وضم اليهم الجلابة واولاد النيل وخصهُ بالراية الحمراء وعقد للخليفة علي ود حلو علي عرب دغيم وكنانة وخصهُ بالراية الخضراء وعقد للخليفة عبد الله على جميع قبائل السودان الغربي كالتعايشة والرزيقات والحمر وضم اليهم الجهادية واولاد الريف وخصهُ بالراية السوداء التي عرفت عندهم بالراية الزرقاء وكان من عزمهِ ان يخص السنوسي بالراية الصفراء ليجمع بذلك رايات الاقطاب الاربعة المار ذكرها في الكلام عن الصوفية • وقد ميز الخليفة عبد الله بالامباية التي يبوّق بها لجمع الجيش كلهِ وجعلهُ رئيساً عاماً على الادارة والجند وقدمهُ على الخليفتين الآخرين لانهُ كان اقوى منهما في الجند واقدر على الادارة والتملق لا سيما وانهُ هو الذي قواهُ على دعواهُ كما علمت

وكان لكل خليفة وكيل على رايتهِ ودونهُ امراء ومقاديم ولكل امير راية خاصة غير راية الخليفة • ومما كان يكتب على الرايات

« بسم الله الرحمن الرحيم سطر • لا اله الا الله محمد رسول الله سطر • محمد المهدي خليفة رسول الله سطر • يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والاكرام سطر » او يا الله يا رحمن يا رحيم يا حي يا قيوم سطر • ياذا الجلال والاكرام سطر • لا اله الا الله محمد رسول الله سطر • محمد المهدي خليفة رسول الله سطر » وكان لكل خليفة طبل كبير يعرف بالنقارة او النحاس يضرب عند ارادة جمعهم للعرضة او للحرب

وكان المهدي يستعرض جيوشهُ في كل يوم جمعة فيجعلهم صفاً واحداً متجهين نحو القبلة كوقوفهم للصلاة اولهم الراية الزرقاء ثم الى يسارها الراية الخضراء ثم الراية الحمراء

ويمر عليهم راكباً جواداً أو هجيناً من اول الصف الى آخره . وكان هذا دأبهُ الى يوم وفاتهِ

واما في « المال » فقد انشأ لهُ ادارة سماها بيت المال وحفظ فيهِ اموال الجند والعشور والزكاة والغنائم والغرامات وعهد بهِ الى صديق لهُ يسمى احمد ود سليمان من اهالي المحس وهو من اعز انصارهِ الاول . وانشأ فرعاً في بيت المال سماهُ بيت مال الخمس جعل فيهِ ما خصهُ من الغنائم

واما في « القضاء » فقد اسند منصبهُ الى الشيخ احمد ود جبارة من علماء الازهر الذين صحبوهُ من جزيرة أبا ولقبهُ بقاضي الاسلام وجعل دونهُ قضاة ونواباً كثيرين . اما القضاة فللحكم في المسائل الشرعية الاهلية واما النواب فللحكم في الغنائم والحقوق المتعلقة ببيت المال

ولنترك الآن محمد احمد في قدير يستعد للمستقبل ويبثُّ دعاتهُ في الجهات ولننظر فيما كان من الثورة في جهات السودان فنقول :

الفصل الخامس

في

﴿ وقائع الثورة في جزيرة سنار سنة ٢ — ١٨٨٣ م ﴾

﴿ حركة عامر المكاشف ﴾ تقدم ان مشايخ السودان وفقهاءهُ لما سمعوا بنصرات محمد احمد على سرايا الحكومة اخذوا يهاجرون اليهِ من كل الجهات لتحقيق دعوتهِ ومبايعتهِ . وكان اول من هاجر اليهِ من جزيرة سنار الشيخ احمد المكاشف من كبار فقهاء الكواهلة وكانت الحكومة قد اصدرت منشوراً الى جميع الجهات تحذر الناس من اتباع محمد احمد والمهاجرة اليهِ وهدَّدت من يخالف الامر « بتصدير » مالهِ ومعاقبة اهلهِ في غيابهِ . فلما علمت حكومة سنار بمهاجرة الشيخ احمد المكاشف الى المهدي القت القبض على اخيهِ عامر وزجتهُ في السجن وحمَّلتهُ مالا يطيق قيل فافتدى نفسهُ بمال وخرج من سنار وفي النفس حزازات واتى عرب رفاعة الهوي

في غابة الكبوش جنوبي سنار وكان هؤلاء العربان قد تأخروا عن دفع الضرائب والحكومة مشددة عليهم في تأديتها فنادى عامر المكاشف بهم باسم المهدي فلبوا نداءهُ واجتمع عليهِ نحو ٣٠٠٠ رجل منهم فزحف بهم على سنار وكان المدير عليها اذ ذاك حسين بك شكري (حسين باشا الآن) ومعهُ ١٥٠ جنديًّا ومدفع واحد ولم يكن للمدينة سور يساعدها على الحصار فجند نحو ٢٠٠ رجل من المتطوعة وضمهم الى عساكرهِ وخرج بهم ومعهُ المدفع لطرد المكاشف فلما بدأ القتال اطلق الطوبجية المدفع مرتين وفي الثالثة ادخلوا القنبلة فيهِ قبل الخرطوش فتعطَّل فانقض العرب على العساكر كالنسور واختلطوا بهم واعملوا فيهم السيف والحربة فقتلوهم شر قتلة وألقوا المدفع في النيل وكان عليهِ الصاري محمد أغا النمر تلّب من الباشبوزق الاتراك فقاتل قتال الابطال حتى قتل بجانبهِ . ورجع المدير بمن بقي من رجالهِ الى سنار فنزلوا في الذهبيات والمراكب ودخل عامر المكاشف المدينة وقصد الخزينة في ديوان المديرية وكان عليها ١٢ رجلاً من السود مع الملازم علي افندي توفيق المصري يحرسونها فدافعوا عنها حتى قتلوا عن آخرهم واستولى العرب على الخزينة وكان الملازم قد صوَّب رصاصة على عامر المكاشف فاصابت فخذهُ فتشاءم العرب من ذلك فوضعوا الحراس على الخزينة وعادوا بعامر الى غابة الكبوش فعاد المدير الى المدينة بمن معهُ من العساكر والتجار وقتلوا حراس العرب واسترجعوا الخزينة ثم دخلوا قشلاق العساكر على النيل وتحصنوا بهِ وقد جرى ذلك كلهُ يوم الخميس في ٦ ابريل سنة ١٨٨٢ .

فلما كان السبت اي ثالث يوم الواقعة تماثل عامر المكاشف من جرحهِ وعاد فهاجم القشلاق بانصارهِ فلم يقوَ عليهِ فدخل الشونة شمالي المدينة وأخذ ما كان فيها من السمن والملح والغلال والدمور وهو شيء كثير وحصر المدينة وقطع خط التلغراف بينها وبين الخرطوم . وكان المدير قبل قطع خط التلغراف قد تمكن من مخاطبة جيكلر باشا بحال سنار فارسل جيكلر امرًا الى صالح الملك بالكوة فاتاها ورفع الحصار عنها بعد كفاح شديد واستخرج المدفع من النيل واعاد خط التلغراف بين سنار والخرطوم وذلك في صباح يوم الخميس في ١٣ ابريل . واما عامر المكاشف فانهُ

فرّ بمن بقي من انصاره الى بركة تيقو وهي منهل مشهور في بطن الجزيرة وأقام فيها الى ان طرد منها بالقوة كما سيجيء

﴿ حركة الشريف احمد طاها ﴾ وكان في جملة الذين استنفرهم محمد احمد فلبوا دعوتهُ ورفعوا رايتهُ الشريف احمد ود طاها من مشايخ الطريقة السمانية شرقي النيل الازرق بين أبي حراز ورفاعة فاجتمع حولهُ خلق كثير من البطاحين والشكرية والجعليين والدناقلة وغيرهم من سكان تلك الجهة . وكان جيكلر باشا بعد ان ارسل امرهُ الى صالح الملك لنجدة سنار خرج بنفسهِ من الخرطوم بمئتي نفر من الباشبوزق وطلب من القلابات ان ترسل نجدة لتوافيهُ الى أبي حراز فلما وصل قرب حلة الشريف المذكور بلغهُ امر قيامهِ بنصرة المهدي فأرسل عليهِ الملك يوسف من سناجق الشايقية ومعهُ مئة رجل من نظامية و باشبوزق فأحاط الشريف ورجالهُ بهم فقتلوهم شر قتلة ولما رأى الملك يوسف ما حلّ برجالهِ افترش فروتهُ فقتل عليها وذلك في اواخر ابريل

ونجا بعض العساكر الى جيكلر فأخبروهُ بما كان فأقلع الى ابي حراز وانتظر حتى اتتهُ النجدة من القلابات وهي اورطة من السود عليهم البكباشي سرور افندي بهجت قومندانًا و ٢٠٠ فارس من الشايقية فأرسل منها ٧٠٠ نفر من نظامية و باشبوزق ومدفعًا واحدًا بقيادة سرور افندي لقتال الشريف فالتقاهم في الطريق وهزمهم شر هزيمة وغنم المدفع وكان ذلك يوم الخميس في ٤ مايو سنة ١٨٨٢

فأرسل جيكلر اذ ذاك خبرًا الى عوض الكريم بك ابي سن شيخ مشايخ الشكرية فحضر بجيش كبير من عربانهِ وكتب الى الشريف يقول « اني انصح لك ان تكف عن العداء وتحضر مسلمًا فيعفى عنك والا فانج بنفسك واحقن دمك لانك شريف ولا نريد قتلك فاذا لم تفعل هذا ولا ذاك فلا تلم الاَّ نفسك » فأجابهُ الشريف « دع عنك النصح فاني اوقدتُ نارًا واريد ان اتدفأ بها » . فلما طلع فجر السبت في ٦ مايو جهز جيكلر جميع من عندهُ من العساكر وارسلهم لقتال الشريف وسير الشكرية وراءهم فنادى شيخ الشكرية بالعساكر قائلاً : « ان من ولّى ظهرهُ خوفًا من الموت امامهُ لقيهُ مني وراءهُ » فساروا كلهم على عزم الموت أو النصر حتى

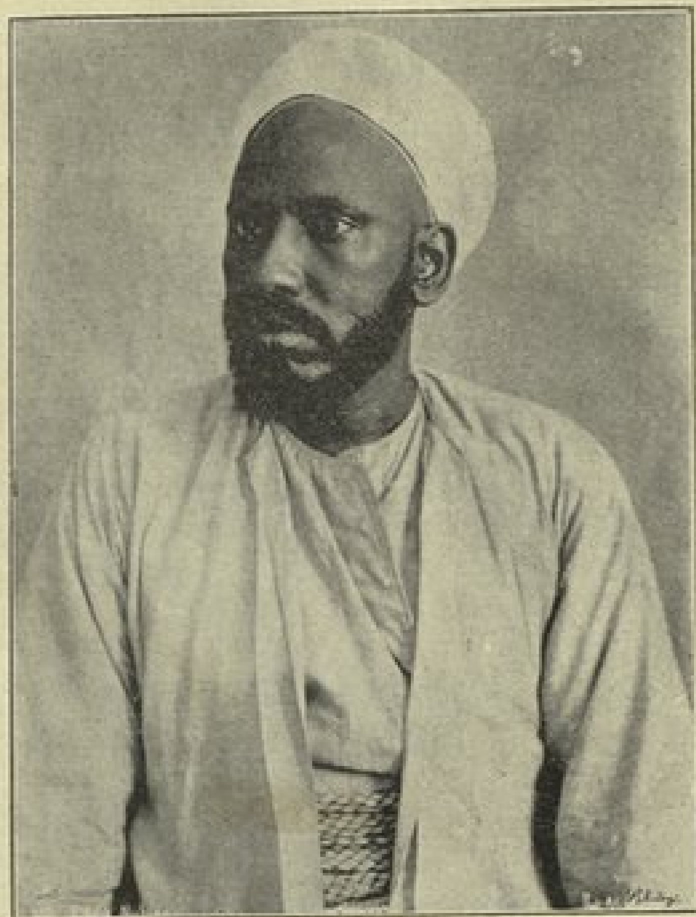
اتوا حلة الشريف فحمل عليهم بانصاره حملة رجل واحد فتلقتهم العساكر بالرصاص وكان الشريف راكباً جواداً وقد احاطهُ نفر من انصاره فأجلاهم الرصاص عنهُ ثلاث مرات حتى تراكمت القتلى حولهُ كالرُّبى ثم سقط هو فوقهم وخذل انصارهُ فتتبعهم الفرسان ومزقوهم كل ممزّق وحرقوا حلة الشريف بالنار وحملوا جثتهُ على جمل واتوا بها الى ابي حراز فقطع جيكلر رأسهُ وعلقهُ على عود وارسلهُ الى الخرطوم فعلق فيها اياماً

وصول عبد القادر باشا الى الخرطوم في ١١ مايو سنة ١٨٨٢

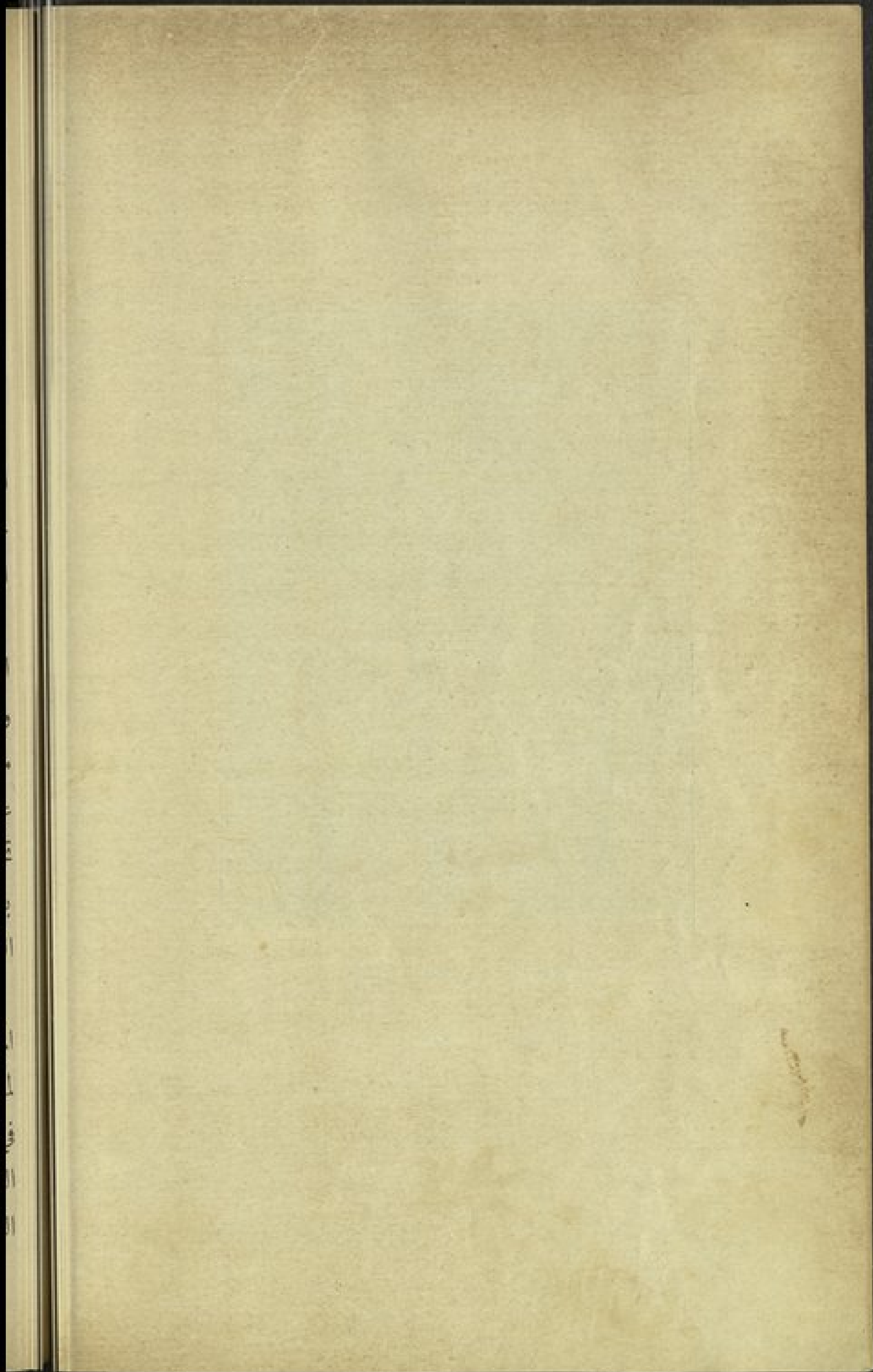
﴿ تحصين الخرطوم ﴾ وفي ١١ مايو سنة ١٨٨٢ وصل عبد القادر باشا الى الخرطوم فوجد الميرالاي حسن بك حلمي معسكراً في ظاهر المدينة ومعهُ نحو خمسماية جندي وثلاثة مدافع جبلية وليس حولهم متاريس ولا حصون ولا شيء من معدات الدفاع . ووجد اهل الخرطوم في غاية الخوف والجزع لقلة الجنود وخلو المدينة من كل تحصين مع وجود كثير من انصار المهدي حول المدينة متحفزين للوثبة عليها عند سنوح الفرصة فشرع في تحصينها وتجنيد العساكر فانشأ ثلاثة اورط من السود وغيرهم وباشر تمرينهم على الحركات العسكرية بنفسهِ واستدعى ست اورط من الجنود المنظمة من السودان الشرقي وخندق على المدينة فمدّ الخندق من النيل الازرق الى النيل الابيض وجعل عليهِ الابراج ووضع على الابراج المدافع والحراس فذهب كل خوف من قلوب السكان وتوطدت السكينة وانتشر الامن في الخرطوم وما حولها

﴿ واقعة محمد زين ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢ ؟ ﴾ واتفق انهُ حين وصول جيكلر الى سنار قام في ابي شوكة فقيه من التكارنة يقال لهُ محمد زين ونادى باسم المهدي فالتفت حولهُ جموع كثيرة من عربان رفاعة الهوي واخذ يستعد للزحف على سنار فعقد جيكلر للسر سواري علي أغا كاشف على نحو الف نفر من العساكر المنظمة والباشبوزق وارسلهُ الى ابي شوكة فقتل محمد زين وشتت شملهُ وعاد برأسهِ الى سنار

﴿ واقعة تيقو ٤ يونيو ١٨٨٢ ؟ ﴾ وعاد جيكلر الى الخرطوم فوجد عبد



الشيخ المضوي عبد الرحمن



القادر باشا مشتغلاً بتحصين المدينة فأخبره ان عامر المكاشف لم يزل مقيماً على العداء في بركة تيقو فأمر صالح بك الملك فأخذ اورطة من العساكر المنظمة وسنجقين من الباشبوزق من سنار وسار الى تيقو فأوقع في رجال عامر موقعة شديدة واضطره الى الانهزام ففرّ الى المهدي في قدير وعاد صالح بك بالغنائم والاسرى الى سنار وكان بين الاسرى جماعة من اقارب عامر المكاشف فرفع صالح بك امرهم الى عبد القادر باشا فأمر بشنقهم فشنقوا في سوق سنار

واتضح لعبد القادر باشا حينئذٍ خيانة بعض كتاب سنار ومعاونيها وتواطئهم على الثورة مع عامر المكاشف فعزل جميع الكتاب والمعاونين وارسل بدلاً منهم طقماً جديداً من الخرطوم واستدعى الخونة وبينهم الزبير ود ضوه صاحب تاريخ سنار المار ذكره فغرقهم في النيل الابيض

هذا وكان قد وقع خلاف بين حسين بك شكري المدير وبين وكيلهِ محمد افندي جودت فعزلا فأرسل عبد القادر باشا موسى بك شوقي مديراً على سنار وجعل احمد بك مكوار من كبار تجار سنار وكيلاً لهُ. ثم لم يلبث ان حصل بينهما منافسة ورُفع الامر الى عبد القادر باشا فعزل موسى بك وسمى بساطي بك مديراً على سنار مكانهُ وارسل اليهِ خليل افندي فؤاد يوزباشي اركان حرب فساعدهُ على تحصين المدينة فاحاطها بسور منيع جعل فيهِ المزاغل (الكُوى) وحفر حولهُ خندقاً بعمق ٣ امتار وعرض مترين وجعل وراءهُ زرباً متيناً من شوك ووضع العساكر على السور واستعد لكل طارئ مفاجئ

﴿الشيخ المضوي﴾ ثم لم تكد تخمد نار الثورة في جزيرة سنار بطرد عامر المكاشف من تيقو حتى كانت واقعة الشلالي وبث المهدي دعاتهُ في الشرق والغرب لمبايعة الناس لهُ وحثهم على القيام بنصرة الدين وقتال الحاميات العسكرية كما مرّ. وكان في جملة الدعاة الذين ارسلهم الى جزيرة سنار الشيخ المضوي عبد الرحمن من ذرية الشيخ ادريس ود الارباب المار ذكرهُ في تاريخ سنار وهو من تلامذة الازهر النابغين وقد قادتهُ التقادير الى مصر سنة ١٨٩٠ فحدثني عن خبرهِ مع المهدي في

ذلك الحين قال : اني بعد ان اتممت دروسي في الازهر ذهبت الى بلاد كركوج في اعالي النيل الازرق فأقمت فيها حلقة للتدريس واشتغلت بالزراعة فلما ظهر محمد احمد بدعواهُ لم احفل بهِ ولكن لم يلبث ان انتصر على أبي السعود في جزيرة أبا ثم على راشد بك في جبل قدير وكثرت اقوال الناس بعجائبهِ وكراماتهِ فاهتممت اذ ذاك بامرهِ وهاجرت اليهِ في جبل قدير لمشاهدتهِ والوقوف على حقيقة حالهِ فوجدتُ عندهُ جموعاً كثيرة ينيفون على ١٥ الف مقاتل من اخلاط الناس بينهم عدد كبير من العلماء ورجال الدين الذين جاؤوهُ من شرق البلاد وغربها بالقصد الذي جئت لاجلهِ ووجدت العلماء معهُ فريقين فريقاً اعتقد او تظاهر بالاعتقاد بانهُ المهدي المنتظر لا ريب فيهِ وجميع العامة من رأي هؤلاء وفريقاً قالوا انهُ ساحر وانهُ انما فاز بالحرب بسحرهِ لا بمهديتهِ واما انا فقد رأيت منهُ اموراً حملتني على الارتياب بامرهِ : فأولاً اني رأيتهُ يؤثر اقاربهُ واخصاءهُ بالغنيمة على بقية جيشهِ ولا يقسم بينهم بالتساوي كما يطلب الشرع . وثانياً اني رأيت بعض انصارهِ نزلوا على تجار سائرين في تجارتهم فقتلوهم واخذوا اموالهم ووزعوها بينهم ولم ينكر عليهم ذلك ولاقاصهم . وثالثاً اني رأيتهُ يقول ان من انكر مهديتي فقد كفر مع ان اركان الايمان في الاسلام التي اذا انكر الانسان ركناً منها يعد كافراً هي ستة (وقد مرّ ذكرها) والايمان بالمهدي ليس منها . ورابعاً اني لم أرَ فيهِ شيئاً من العلامات الاجمالية التي أعرفها عن المهدي . ولكني أردت التخلص منهُ فأظهرت لهُ الاعتقاد التام بمهديتهِ واستأذنتهُ في العودة الى اهلي لاحرضهم على اتباعهِ والجهاد في سبيل الله فأجابني الى ذلك وجعلني عاملاً عاماً على جزيرة سنار وأصحبني أميرين من اهل الجزيرة ليساعداني على الجهاد وهما « ود الصليحابي » من الفقهاء المعتقدين عند عربان رفاعة الهوي « وود برجوب » من فقهاء اللحويين فودعتهُ وسرت في طريق سنار ومعي الاميران المذكوران وبعض الاصحاب . وفي الطريق سألني الاميران عن رأيي في المهدي فصرحت لهم برأيي فيهِ وقلت الاولى بنا ان نتثبّت في مثل هذه الامور التي تلتبس على الناس فان كان هذا الرجل هو

المهدي المنتظر كما يزعم فلا بد ان يظهر ولو قاومتهُ الانس والجن وعند ذلك نتبعه على بصيرة وان كان كاذبًا في زعمهِ سلمنا من شر الحروب والفتن فالرأي الآن ان نتفرق الى أوطاننا حتى نرى ما سيكون من امرهِ . وسرنا حتى وصلنا الجبلين على النيل الابيض فوجدنا عربان رفاعة الهوي متجمعين عندهُ الوفًا متلهفين لسماع اخبار المهدي وقد اقبلوا علينا يقبلون ايدينا وارجلنا ويتمسحون بنا تبركاً لاننا من اصحاب المهدي فلما رأى اصحابي من العرب هذه المظاهر العظيمة قالوا لا شك ان محمد احمد هو المهدي وهذا نور المهدية قد ضاء في قلوب الناس وعقدوا مجلساً في ذلك الليل اجمعوا فيهِ على ان يقبضوا عليَّ ويمنعوني السفر الى اهلي فأتى صاحب لي كان حاضرًا المجلس وأخبرني بالذي نووا عليهِ فلما اصبحت ذهبت اليهم فرأيتهم متغيرين فقلت ما بالكم قد تغيرتم من نحوي ألا تعلمون ان الكلام الذي كلمتكم بهِ امس بشأن المهدي عليهِ السلام انما اقصد فيهِ اختباركم وسبر غوركم واتيقن صدق عقيدتكم لان الامر الذي نحن بصددهِ أمر عظيم لا يقدم عليهِ الا كل رجل صلب العقيدة ثابت العزم قوي الجنان فسُرّي عنهم ما كان من قبلي وسمحوا لي بالسفر على وعد ان آخذ عائلتي من كركوج وارجع اليهم فأخذت عائلتي من كركوج وذهبت الى اهلي قرب الخرطوم فدعاني عبد القادر باشا وسألني عن المهدي فأخبرتهُ بالواقع وبقيت الى ان كانت واقعة شيكان وانتصر المهدي على هكس باشا فقامت الارض وقعدت فلم يسعني اذ ذاك الا القيام بنصرة محمد احمد فكنت من جملة الذين حصروا الخرطوم » اه

﴿ ود الصليحابي وواقعة الجبلين ﴾ هذا ما كان من المضوي . اما ود الصليحابي فانهُ رفع راية المهدي وضمَّ تحتها عربان رفاعة الهوي وتبعهُ ود برجوب فشق على محمد مالك ابي روف شيخ عربان رفاعة الهوي انحياز قسم كبير من عربانهِ الى ود الصليحابي وخروجهم عن طاعتهِ فابلغ الخبر عبد القادر باشا في الخرطوم فجمع في الكوة جيشاً من عساكر الدويم وسنار فيهِ ١٠٠٠ من العساكر المنظمة و٨٠٠ من الباشبوزق و٤٠٠ من عربان رفاعة الهوي ومعهم شيخهم محمد ابو روف وعقد لواءهُ للسعيد بك

حسين الجيعابي المار ذكرهُ في تاريخ سليمان الزبير فسار بالجيش في البر والبحر حتى اتى الجبلين فانزل العساكر الى البر ونظم الجيش « مربعاً » جاعلاً عربان محمد مالك ابي روف ضلعاً من اضلاعهِ فتلقاهم ود الصليحابي بجموعهِ وانتشب القتال فثقلت نيران المربع على عربان ود الصليحابي وكثر القتل فيهم فداروا حتى قابلوا ضلع مالك ابي روف فوجدوا رصاصهُ خفيفاً فدخلوا المربع من جهتهِ وقيل ان مالكاً ابا روف فتح لهم الطريق عمداً لانهُ رأى كثرة القتل فيهم وهم عربانهُ فشفق عليهم فاختلطوا بالعساكر وفتكوا بهم حتى لم يبق منهم سوى ٥٠٠ رجل من نظامية وباشبوزق فقادهم السعيد بك الى الوابور وعاد بهم الى مركزهِ في الدويم فتحصن فيهِ وعاد ابو روف برجالهِ الى سنار. وقد عرفت هذه الواقعة بواقعة الجبلين وكان تاريخها اواخر شعبان سنة ١٢٩٩ هـ اواسط يوليو سنة ١٨٨٢

﴿ ود برجوب ﴾ اما عربان رفاعة الهوي فانهم نفروا من ود الصليحابي لانخذالهم في بادئ الامر على يدهِ فانحازوا الى ود برجوب وبقوا في الجبلين الى ان جاءتهم الطامة الكبرى من جيش هكس على ما سيجيء

﴿ احمد المكاشف وسقوط شات ﴾ هذا وكان في جملة الدعاة الذين بثهم المهدي بعد واقعة الشلالي لمناوأة الحكومة في جزيرة سنار الشيخ احمد المكاشف اخو عامر المار ذكرهُ فجمع العربان في الطريق ونزل على شات في ٨ اوغسطوس سنة ١٨٨٢ وكان فيها ٢٠٠ رجل من الباشبوزق عليهم السر سواري مدني ود شنبول فقتلهم عن آخرهم وغنم اسلحتهم وذخائرهم

﴿ واقعة الدويم الاولى ﴾ ونزل في وجههِ على الدويم وكان السعيد بك لم يزل فيها وقد جمع الى الخمسماية رجل الذين سلموا من واقعة الجبلين ٥٠٠ من الجعافرة المتطوعة وسلحهم بالاسلحة النارية وتحصن في طابيتهِ فتلقى احمد المكاشف بنيران المدافع والبنادق وردهُ على الاعقاب بعد ان قتل من جيشهِ ما زاد عن الالف وكان ذلك في ٢٨ اوغسطوس سنة ١٨٨٢

﴿ عبد الباسط وواقعة الدويم الثانية ﴾ فلما رأى عربان الدويم انخذالهم مع

احمد المكاشف هجروه فاجتاز النيل الابيض وذهب الى سنار فالقى عليها الحصار كما سيجيء وولّى عليهم المهدي رجلاً منهم يسمى عبد الباسط الجري من مشايخ الطريقة السمانية وامرهُ بحصر الدويم ولما طال الحصار بعث عبد القادر باشا بجيكلر من الخرطوم فاخذ عساكر الدويم وهاجم العربان في ديهم فقتل منهم خلقاً كثيرًا وشتتهم كل مشتت واخذ عبد الباسط اسيرًا فاتى بهِ الى عبد القادر باشا في الخرطوم فشنقهُ وكانت هذه الواقعة في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٨٢

﴿ فضل الله ود كرّيف . وواقعة ام سنَيطة ﴾ وفي هذه الاثناء ظهر في غربي الجزيرة فقيه يدعى فضل الله ود كرّيف فرفع راية المهدي وشهر العصيان وقطع خط التلغراف بين الكوّة والمسلمية فارسل عبد القادر باشا امرًا الى البكباشي حسن عثمان الكريتلي فخرج من الكوّة بخمسماية رجل من جهادية و باشبوزق لقتال ود كريف فالتقاهُ في أم سُنَيطة على يوم ونصف يوم من الكوّة فما انتشب القتال حتى دخل عرب ود كريف في عساكرهِ واعملوا فيهم السيف والحربة فقتلوا نصفهم وهزموا الباقي الى الكوة وذلك في اواسط ديسمبر سنة ١٨٨٢

﴿ احمد المكاشف وحصار سنار ﴾ ثم ان احمد المكاشف بعد انهزامهِ من الدويم ودخولهِ الجزيرة هيج العربان فالتفت حولهُ جموع كثيرة فنزل بهم في حلة الحجاج مسيرة ست ساعات من سنار واخذ يستعد للزحف على سنار فلما علم بهِ بساطي بك ارسل الصاغ حسن افندي حسني بخمسماية من العساكر المنظمة فهاجمهُ في مركزهِ فتغلب المكاشف عليهِ وقتلهُ وقتل مئة رجل من عسكرهِ وتقدم بنحو ١٠ آلاف مقاتل لمهاجمة سنار ثم احجم عنها لمناعتها فنزل في مشرع الداعي على نحو ٢٠ ميلاً شمالي سنار والقى عليها الحصار وقطع خط التلغراف وطريق البوسطة بينها وبين الخرطوم

﴿ واقعة معتوق ﴾ فلما رأى عبد القادر باشا اشتداد الخطب في الجزيرة عزم على مباشرة القتال بنفسهِ فخرج من الخرطوم في ٢ يناير سنة ١٨٨٢ واتى عبُود عن طريق المسلمية فجمع اليها نحو ١٦٠٠ من العساكر المنظمة و ١٠٠٠ من الباشبورق

وتقدم الى ود كريف فالتقاهُ عند غابة قرب معتوق فأوقع فيهِ واقعة شديدة وهزمه ففرَّ الى حيث القت

﴿ واقعة الداعي في ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٣ ﴾ ثم اخذ يستعد لسحق احمد المكاشف فجاء بجيشهِ الى الكوة فوجد فيها البكباشي حسن افندي عثمان السالف الذكر ومعهُ ٧٠٠ من العساكر السود و٤٠٠ من الباشبوزق فضمهم الى جيشهِ وارسل الجميع بقيادة سليم بك عوني بطريق الجزيرة الى ود مدني ونزل في الوابور الى الخرطوم فاتمّ الشؤون التي كانت تنتظرهُ فيها ثم ركب النيل الازرق الى ود مدني وقاد العساكر قاصدًا احمد المكاشف في مشرع الداعي . فلما علم المكاشف بقدومهِ وضع النساء والاولاد الذين في ديمهِ على بُعد مرمى الرصاص تجاه سنار وفي ايديهم البيارق ليوهم أهل سنار انهُ قادم لحربهم فيشغلهم بانفسهم عن نصر عبد القادر ثم اخذ انصارهُ وخرج الى ظاهر المشرع فتلقاهُ عبد القادر بنار حامية فصبر على نارهِ ٣ساعات متوالية حتى قتل من جيشهِ الف رجل ونيف فانهزم الى جبلي سقدى وموية وقد اصابت عبد القادر رصاصة في جنبهِ فحطمت ساعتهُ تحطيماً ولكنها لم تضرّ بهِ وجرح من عسكرهِ ٢٧ رجلاً ولم يقتل احد . وعرفت هذه الواقعة بواقعة الداعي وتاريخها يوم السبت في ١٦ ربيع آخر سنة ١٣٠٠ هـ ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٣

ودخل عبد القادر باشا سنار يوم الاثنين فعقد لصالح بك المك على جميع الباشبوزق الشايقية والاتراك وكانوا ينيفون على ١٢٠٠ رجل وامرهُ بمطاردة احمد المكاشف فقصدهُ الى جبلي سقدي وموية وأوقع فيهِ في ٢ مارس سنة ١٨٨٣ وهزمهُ شر هزيمة بعد ان قتل نحو ٦٠٠ من انصارهِ وفي جملتهم اخوهُ وصهرهُ فقطع رأسيهما وأتى بهما الى عبد القادر في سنار. اما احمد المكاشف فانهُ فرّ الى ود برجوب في الجبلين . واما اخوهُ عامر فانهُ بعد وصولهِ الى المهدي في قدير أمرهُ بالانضمام الى اخيهِ احمد الذي كان قد ترك قديرًا فجاء يبحث عنهُ فالتقى بهِ في سقدى وموية بعد انهزامهِ من مشرع الداعي فانهزم معهُ الى الجبلين

﴿ الحاج احمد عبد الغفار وواقعة التبنه ﴾ هذا وكان قد صحب احمد المكاشف

من عند المهدي الحاج احمد عبد الغفار من عرب كنانة القاطن في جوار كركوج فتركهُ في مشرع الداعي محاصرًا سنار وأتى الى بلادهِ واخذ يحشد الجيوش لحصر كركوج فلما عاد صالح الملك من مطاردة المكاشف اخذ عبد القادر باشا الجيش وزحف على عبد الغفار فالتقاهُ في التبنه قرب الرصيرص فقتل من جيشهِ خلقًا كثيرًا وشتت شملهُ كل مشتت وكان ذلك في ٢٧ جماد اول سنة ١٣٠٠ هـ ٢٦ مارس سنة ١٨٨٣ م٠ وقد قتل في هذه الواقعة والوقائع التي تقدمتها عدد كبير من عربان رفاعة الهوي فاغتم لذلك الشيخ احمد عم الشيخ محمد ابي روف وقال لعبد القادر باشا « لقد افنيت الرعية ببطشك يا سعادة الباشا فدع عنك هذه المناوشات واقتل الديبة من رأسها» فأجابهُ عبد القادر باشا « اذا لم نظفر برأسها يا شيخ العرب نقطع من ذنبها حتى ندرك الرأس فنسحقهُ »

وهكذا نكّل عبد القادر باشا بزعماء الثورة في سنار واحدًا واحدًا وملأ قلوب الاهلين رعبًا وخوفًا واشتهر عندهم بالبطش والدربة وحسن السياسة وقد حصن الحاميات في كل الجهات وحمل علماء الخرطوم على نشر الرسائل في تكذيب محمد احمد وضيّق عليهِ وعلى انصارهِ المسالك فهو هو الرجل الذي كان يصلح للسودان حينئذٍ ولكن قيل ان بعض الحساد وشوا بهِ فاتهموهُ بارادة الاستقلال في البلاد وقبلت وشايتهم فاستُدعي الى مصر وسُمي علاء الدين باشا حاكمًا على السودان مكانهُ كما سيجيء

وكان عبد القادر باشا قد ارسل صالح بك الملك الى فامكه لكشف خبرها فترك باقي العساكر بقيادة الميرالاي سليم بك عوني وعاد الى مصر وعاد سليم بك الى سنار بعد ان ابقى حامية من العساكر في كركوج لحفظ خط الاتصال بين سنار وفامكة وبقيت هي وحامية فامكة الى ان عادة الثورة فعادتا الى سنار على ما سيجيء

هذا ما كان من الثورة في جزيرة سنار فلنتقدم الآن الى ما كان منها في كردوفان فنقول:

الفصل السادس

في

﴿ وقائع الثورة في كردوفان سنة ٢ — ١٨٨٣ م ﴾

﴿ المكي ودابرهيم في دار حَمَر ﴾ كان اول من ثار على الحكومة في كردوفان المكي ود ابرهيم من مشائخ حَمَر هاجر الى المهدي في قدير فبايعهُ ورجع منهُ اميرًا على قومهِ في ١٠ جمادى الاولى سنة ١٢٩٩ ه ٣٠ مارس سنة ١٨٨٢ م فوجد البكباشي نظيم افندي مع نفر من العساكر المنظمة والباشبوزق يجمع الضرائب من دار حمر فحرض قومهُ على عدم دفعها وطرد نظيم افندي من الدار

﴿ حامد ود السنجق وسقوط أبي حراز ﴾ فلجأ الى ابي حراز حيث كان محمد آغا رحمة الشايقي محافظًا مع نفر من العساكر فوجد البديرية اهل تلك الجهة قد تجمعوا على شيخهم حامد ود السنجق في منهل المشقة على نحو ساعتين من أبي حراز وحصروا البلدة فخرج عليهم العساكر واهل البلدة في ٩ ابريل سنة ١٨٨٢ فردوهم على اعقابهم وتبعوهم الى أبي حراز فاعتصم العساكر في ديوان الحكومة والاهالي في الجامع فحصروهم في المكانين المذكورين فلما أرخى الليل سدولهُ فرّ العساكر الى الابيّض فدخلوها الاثنين في ١٠ ابريل و بقي اهل البلدة محاصرين في الجامع ثلاثة ايام حتى اشتد بهم العطش والجوع فسلموا

﴿ واقعة البركة في ١٨ مايو سنة ١٨٨٢ ﴾ وسرى روح الثورة الى الحوازمة والغدَيَّات فاجتمعوا على حامد ود السنجق حتى بلغ انصارهُ نحو العشرين الفًا فنزل بهم في منهل البركة فجهز سعيد باشا مدير الابيض سرية من العساكر فيها ٤٠٠ من الجهادية و٦٠٠ من الباشبوزق و٨٠٠ من المتطوعة وعقد عليها للبكباشي نظيم افندي وكان على المتطوعة عمر ود دفع الله من الابطال المعدودين فسارت السرية بهيئة «مربع» المتطوعة ضلع منها والحملة في الوسط فخرج عليهم العرب ودخلوا المربع من جهة المتطوعة واشتغلوا بنهب جمال الحملة فصوبت العساكر اذ ذاك نيران بنادقهم اليهم

والى الحملة معاً فتكوا بهم وقتلوا منهم الف رجل ونيفاً وهزموهم شر هزيمة واستولوا على المنهل المذكور وكان ذلك الخميس في ٢٦ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٩ هـ ١٨ مايو ١٨٨٢م

﴿ خراب اسحف في ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢ ﴾ ثم ان المكي ابرهيم صاحب حادثة حمر حشد جيشاً من عربانه وزحف على اسحف وهي نقطة عسكرية على ١٠ اميال غرب بارة وفيها السر سواري محمد أغا شبو محافظاً مع ٢٠٠ رجل من الباشبوزق والنور عنقرة المار ذكرهُ متقاعداً والشيخ عثمان حامد عمدة البلدة وجابر أغا الطيب ناظر القسم فخرجوا لقتال المكي ابراهيم بهيئة « مربّع » جاعلين البلدة في الوسط فكان كل منهم مع رجالهِ في جانب من المربع فاخترق المكي ود ابراهيم صفوفهم ودخل المدينة ونهبها واحرقها وقد نجا النور عنقرة ببعض اتباعهِ الى بارة وكان معهُ النحاس « المنصورة » الشهير المار ذكرهُ في تاريخ الفور فتركهُ غنيمة للثائرين وآل بعد ذلك الى الخليفة عبد الله فاتخذهُ نحاساً لهُ ٠ اما محمد أغا شبو فانهُ نجا بعساكره بعد كفاح شديد ودخل بارة الخميس في ٧ رجب سنة ١٢٩٩ هـ ٢٥ مايو ١٨٨٢م

﴿ السمّاني وواقعة بارة في ١٧ يونيو سنة ١٨٨٢ ﴾ وبعد واقعة اسحف حضر رجل لحاويّ يدعى السماني من قبل المهدي فاتحد مع المكي ود ابرهيم واخذ يستعد للزحف على بارة وكان في حاميتها اذ ذاك ٩٠٠ رجل من نظامية وباشبوزق بقيادة الصاغ سرور بهجت فاستقدم سعيد باشا العساكر من البركة وارسل الى بارة ١٦٠٠ من العساكر النظامية والباشبوزق مع البكباشي محمود حسن فدخلوها في ٦ يونيو سنة ١٨٨٢ ٠ وكان سعيد باشا في بدء الاضطراب في كردوفان قد ارسل يطلب المدد من الخرطوم فارسل اليهِ عبد القادر باشا ٤٠٠ من العساكر المنظمة و١٦٠٠ من الباشبوزق بقيادة البكباشي محمد الفولي فوصلوا بارة ثاني يوم وصول النجدة من الابيض فاجتمع في بارة نحو ٥٠٠٠ رجل من نظامية وباشبوزق وكان في الابيض الميرالاي علي بك شريف (مدير دارفور قبل سلاطين باشا) متقاعداً فجاء قومنداناً عليهم واخذوا يستعدون للدفاع ٠ وكان على حامية بارة زريبة من شوك فشرعوا في حفر خندق من داخلها وقبل ان يتموهُ حضر السماني بجيوش

لاعداد لها فتلقاهم العساكر بالمدافع والسواريخ والبنادق ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً وهزموهم شر هزيمة فخرجوا من الخندق في اثرهم يقتلونهم حتى اخرجوهم من اكناف بارة وقد قتل منهم في هذه الواقعة نحو ٥٠٠٠ رجل

وتجمع الباقون في منهل شتوره غربي بارة فكتبوا الى المهدي عما جرى لهم فأرسل اليهم عبد الله ود النور من اخصّ عمّالهِ فتولى قيادتهم وعاد معظم المدد الى الابيض وبقي البكباشي محمود حسن بعسكرهِ فلما علم بفرّ العرب خرج عليهم فطردهم منهُ فنزلوا في منهل ابي سنون فأرسل سعيد باشا نظيم افندي من الابيض مدداً لهُ وزحفا معاً على ابي سنون فاوقعا بعبد الله ود النور ففرّ الى منهل البركة وكتب الى المهدي عما اصاب انصارهُ من الفشل في البركة وبارة وشتوره وابي سنون واستحثهُ على القدوم الى كردوفان بنفسهِ قبل ان تخمد حمية العرب ويرجعوا عن نصرهِ

وكان سعيد باشا قد بعث يطلب المدد من عبد القادر باشا فارسل اليهِ نصف اورطة جهادية من سنهيت وسبعة سناجق من الباشبوزق بقيادة البكباشي باشا حماد وصحبهم محمد باشا امام الملقب بالجبير حاملاً مدداً من الذخائر الى الفاشر فدخلوا الابيض في اواسط يونيو سنة ١٨٨٢

﴿ المنّة ود اسماعيل وسقوط الطيارة في ٦ اوغسطوس سنة ١٨٨٢ ﴾ وكان في جملة الذين عاهدوا المهدي على الجهاد في كردوفان المنة اسماعيل شيخ قبيلة الجوامعة فحشد نحو عشرين الفاً من عربانهِ وهاجم حامية الطيارة وكان للحامية خندق عظيم ومتراس وحولها زرب من شوك ولكن لم يكن فيها من العساكر سوى ١٣٥٠ رجلاً من جهادية وباشبوزق وعليهم اليوزباشي محمد الشافعي قومنداناً فصدُّوا هجوم المنة مرتين وطلبوا المدد من سعيد باشا فوجه اليهم خليل اغا السنجق ومعهُ ٦٠٠ من العساكر الجهادية والباشبوزق ومدفع واحد ولكن قبل وصول المدد الى الحامية هاجمها المنة اسماعيل ثالث مرة مستقتلاً فأخذها عنوة واعمل في اهلها السيف والحربة فلم ينجُ منهم الاّ اليسير. وكان ذلك في ٢١ رمضان سنة ١٢٩٩هـ ٦ اوغسطوس سنة ١٨٨٢م

وفي اليوم التالي انقلب المنّة على العساكر الآتين من الابيض فقتلهم عن

آخرهم وارسل البشائر الى المهدي في قدير وعبد الله ود النور في البركة وقطع خط التلغراف والبوسطة بين الابيض والخرطوم واقام في الطيارة منتظرًا الامر

وكان في خورسي نحو ٣٠٠ رجل من الباشبوزق مع احمد اغا الشايقي فلما كانت واقعة الطيارة ارسل اليهم سعيد باشا فأتوا بارة في ١٦ اوغسطوس سنة ١٨٨٢ ولم يبقَ في كردوفان الى هذا العهد سوى حاميتي الابيض و بارة وحامية صغيرة في جبل الدلن ومجموعها كلها ٨٧٥٠ رجلاً من نظامية و باشبوزق

وكان سعيد باشا منذ حادثة أبي حراز قد شرع في تحصين الابيض فحفر حولها خندقًا واقام من ترابهِ متراسًا واحاطهُ بزريبة من شوك ووضع عليهِ العساكر وفرق الاسلحة على اهل البلد وجعلهم على الخندق مع العساكر. هذه كانت حال كردوفان لما اتاها المهدي غازيًا من قدير وهاك تفصيل غزوته:

الفصل السابع
في
﴿ وقائع المهدي في كردوفان سنة ٢ — ١٨٨٣ م ﴾

﴿ غزوة المهدي للابيّض في ٢٨ يوليو سنة ١٨٨٢ ﴾ وكان للمهدي في الابيض انصار اهل ثروة ووجاهة اخصهم الياس باشا ام برير الجعلي النفيعابي وهو من اكابر التجار وقد تولّى مديرية الابيّض مدة ثم عزل عنها قيل لاشتراكهِ سرًّا في حركة سليمان الزبير وكان بينهُ وبين احمد بك دفع الله من اعيان التجار ضغائن شخصية شديدة وانحاز سعيد باشا المدير الى احمد بك فاشتد حنق الياس باشا عليهما ولم يكن يقوى عليهما مع الحكومة فانحاز الى المهدي للانتقام منهما وانفذ رسلهُ سرًّا الى المهدي بقدير فحثهُ على مهاجمة الابيض واكد لهُ النصر وذلك قبل واقعتي راشد والشلالي لكن المهدي شعر من نفسهِ اذ ذاك بالعجز عن اتخاذ خطة الهجوم فاكتفى ببث الدعاة لتهييج الناس على الحاميات كما مر. ثم كانت واقعة راشد ثم واقعة الشلالي وكثرت الوفود اليهِ حتى ضاقت بهِ بلاد قدير وتحتم عليهِ النزوح الى بلاد اوفر خيرًا

واكثر اتساعاً وكبرت نفسهُ لتوالي النصر عليهِ فتطلب الهجوم بدل الدفاع وكان الياس باشا لم يزل يستحثهُ على مهاجمة الابيض وقد وثق المهدي بهِ حتى انهُ ارسل اليهِ اسماعيل العمرابي من قدير بالذهب والفضة التي غنمها من راشد والشلالي فباعها وارسل اليهِ ثمنها ومهد لهُ السبيل داخل الابيض وخارجها وكان عبد الله ود النور قد كتب اليهِ يستعجلهُ الى كردوفان كما مرَّ فاجتمعت لهُ هذه الاسباب كلها على غزو الابيض

فلما كان اليوم الثاني عشر من رمضان سنة ١٢٩٩ ﻫ ٢٨ يوليو سنة ١٨٨٢ م خرج غازياً الابيض بجميع من كان معهُ من الجيوش الاَّ العواجز والمرضى واصحاب الاعذار فانهُ ابقاهم في جبل قدير عند محمود عبد القادر احد اقاربهِ الذي استعملهُ على دار هجرتهِ وابقى عندهُ المدافع والاسلحة النارية التي غنمها من المصريين لانهُ لم يرَ داعياً الى اخذها . وكان معهُ من الجيوش نحو ٢٠ الفاً قيل خرج بهم من قدير وهم لا يعلمون الجهة التي يريدها حتى اتوا جبل الجرادة فقال لهم « ان سيد الوجود امرني بالتوجه الى كردوفان فان الترك فيها آذوا المسلمين وضيقوا عليهم » ثم كتب من هناك الى عاملهِ عبد الله ود النور انهُ قادم بجيشهِ الى غزوة الابيض وامرهُ بأن يجمع رجالهُ ويقابلهُ بالقرب منها . وسار من جبل الجرادة فنزل بمحل يدعى اللخة واقام بهِ ثلاثة ايام وفيهِ امر بقتل شخصين لانهما قتلا نفساً بريئة . ثم سار حتى نزل بحجر أم لوبه وقد كان عند خروجهِ للسفر صائماً رمضان والناس معهُ صائمون حتى وصل الى هذا المكان فأفطر وامر الناس فأفطروا . ثم استطرد السير في بلاد النوبة فنزلت الامطار في الطريق وفرغت ازواد جيشهِ فجاعوا وتعبوا فسار ببطء ومشقةٍ حتى أتى البركة فوجد عبد الله ود النور في انتظاره بنحو عشرة آلاف مقاتل فأقام في البركة اياماً للراحة . ثم زحف بجيشهِ على الابيض فنزل في منهل كابا على ستة اميال الى الجنوب الغربي من المدينة وذلك يوم الجمعة في ١٧ شوال سنة ١٢٩٩ﻫ ١ سبتمبر سنة ١٨٨٢م وكان قد كتب للمنة اسماعيل ليوافيهُ اليها من الطيارة فمكث في كابا في انتظارهِ وارسل فرسانهُ لاستطلاع الابيض

ثم انتدب رجلين من اصحابهِ وهما محمد المغربي وود جلي الزيادابي وارسلها

بكتابين الى الابيض احدهما الى سعيد باشا ورؤساء الجيش والآخر الى سكان المدينة من علماء واعيان وتجار وغيرهم دعاهم فيهما الى التسليم وحقن الدماء متهدداً اياهم بالقتل اذا لم يسلموا فدخل الرسولان المدينة وكل منهما متقلد سيفهُ وحربتهُ فسلما الكتابين الى محمد سعيد باشا فجمع الضباط والعلماء والاعيان وأمر بأن يتلى عليهم الكتابان ثم سألهم عن رأيهم فيهما فقال الضباط لا رأي لنا الا الحرب اما التجار والاعيان والعلماء فانهم لم ينطقوا ببنت شفة ولكن لاحت على وجوههم سمات الميل الى المهدي الا احمد بك دفع الله فانهُ انتصب في المجلس وقال اما انا فقد اخترت الحرب مع الجند والدفاع الى آخر نسمة من حياتي . ثم التفت سعيد باشا الى الباقين وقال وانتم ما الذي أجمعتم عليهِ فبقوا صامتين ولما الحّ عليهم في الجواب قالوا نتشاور في بيوتنا ثم نجيبكم وكان الياس باشا قد فاز باستمالة معظم الاهلين الى حزبهِ فاجمعوا على الفرار الى المهدي وقد علم احمد بك دفع الله ذلك منهم وحرّض المدير على حبسهم فلم يصغ اليهِ خوفاً من وقوع الفشل في الحامية فان الياس باشا وسائر التجار والاعيان كان لهم سلطة نافذة على الاهلين وكان عند كل منهم من ١٠٠ رجل الى ١٥٠ رجلاً مسلحين بالاسلحة الكاملة فكان يطاولهم حتى تسنى لهُ الفرصة فينكّل بهم الواحد بعد الآخر فأذن لهم في الانصراف فانصرفوا الى منازلهم . وخرج من المجلس فرأى الرسولين قد اجتمع عليهما نفر من العساكر والاهلين وهما يكلمانهم ببذاءة واستخفاف ويقولان لهم « ايها النصارى الكفار سوف نقتلكم وننكل بكم كما فعلنا بجردتي راشد والشلالي » فاغتاظ سعيد باشا والضباط من بذاءتهما وطلبوا من العلماء الافتاء بقتلهما فأبوا قائلين ان الشرع لا يسمح بذلك فاصرّ الضباط خصوصاً اسكندر بك قائمقام العساكر على قتلهما فشنقا على الزاوية الجنوبية الشرقية من السور وفرسان المهدي الذين ارسلهم لاستطلاع الابيض تنظر اليهم من بعيد . وقد اراد الضباط بقتل الرسولين ان يستخفوا بقوة المهدي ويلقوا الرعب في قلوب الاهلين الذي عوّلوا على اللحوق بهِ . ولكن قتلهما لم يؤثر شيئاً في ما نواهُ الاهلون فانهُ ما خيم الظلام حتى اخذوا يتسللون من خط النار ثلة بعد ثلة ويأتون الى المهدي في كابا وفي مقدمتهم الياس باشا وقومهُ

والحاج خالد العمرابي وجرجي استامبولي الحلبي من اعيان التجار ومحمد باشا امام المار ذكرهُ حتى لم يبق في المدينة من الاهلين سوى احمد بك دفع الله واتباعهِ وعددهم ٤٠٠ رجل فيهم ابن خالتهِ عبد الله ود ابراهيم وابراهيم ود عدلان والمرسلين النمساويين وهم ثلاثة رهبان وخمس راهبات ولهم كنيسة

وكان في الحامية من العساكر ثلاث اورط نظامية من المصريين وخمسة عشر سنجقاً من الباشبوزق الشايقية والاتراك والمتطوعة في كل سنجق من ١٠٠ رجل الى ١٥٠ رجلاً وجملة العساكر نحو ٦٠٠٠ رجل ولم يكن عددهم كافياً لحماية السور العظيم الذي اقاموهُ في بدء الحصار فلما علموا بقدوم المهدي لمهاجمة الابيض شرعوا في حفر خندق مربع داخل السور العظيم على قدرهم فاشتغلوا فيه الليل والنهار حتى اتموهُ وجعلوا فيهِ القشلاق ومحل الذخيرة وديوان المديرية والشونة وجعلوا وراءهُ زرباً متيناً من شوك واقاموا عليهِ خمسة ابراج برجاً في كل زاوية وبرجاً في وسط الضلع الشرقي تجاه مركز المديرية واصطف العساكر الجهادية والباشبوزق على الاضلاع هكذا :

١ . البكباشي محمد الفولي ومعهُ نصف اورطة جهادية و ٣ سناجق على الضلع الشمالية
٢ . البكباشي محمد نظيم ومعهُ اورطة جهادية و ٩ سناجق على الضلع الجنوبية
٣ . البكباشي باشاحماد ومعهُ نصف اورطة جهادية و ٤ سناجق على الضلع الشرقية
٤ . البكباشي محمود حسن ومعهُ اورطة جهادية وسنجقان على الضلع الغربية

ووقف احمد بك دفع الله برجالهِ على الضلع الشمالية مع محمد الفولي ومكثوا ينتظرون هجوم المهدي ومعهُ الملازم يوسف منصور ضابط بوليس الابيض

﴿ واقعة الابيض في ٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ﴾ اما المهدي فانهُ لما علم بقتل الرسولين واصرار العساكر على الحرب صمم على الهجوم وامر أصحابهُ بالاستعداد ووصل المنة اسماعيل فامرهُ بالنزول في خورطقّت تجاه الزاوية الشمالية الشرقية من الاستحكام . ولما كان فجر يوم الجمعة في ٢٤ شوال سنة ١٢٩٩ هـ ٨ سبتمبر سنة ١٧٨٢ جمع جيوشهُ فصلى بهم الصبح ثم خطب فيهم خطبة حماسية وحثهم على الجهاد وقال « ان ابواب الجنة مفتوحة للشهداء فاذا استشهد احدكم في هذا الجهاد تأتيهِ الحور

العين من الجنة بجامات من الفضة والذهب وتسقيهِ اطيب الشراب وتحملهُ الى حيث اعدّ لهُ ما لم تره عين ولا سمعت بهِ اذن ولاخطر في بال انسان، ثم حذّرهم من الفرار وامرهم بالهجوم هكذا : الشيخ المنة اسماعيل الذي نزل في خور طقت والقاضي احمد ود جبارة من الزاوية الشمالية الشرقية وفرسان البقارة من الزاوية الشمالية الغربية وهو مع خلفائهِ ومعظم جيوشهِ من الزاوية الجنوبية الشرقية

قال لي ضابط حضر الواقعة «قدّر عدد جيوش المهدي في هذا اليوم بنحو ٥٠ الف مقاتل فيهم ٥٠٠٠ فارس وكلهم مسلحون بالسيوف والحراب فلما تقدموا نحونا ارتفع غبارهم حتى سدّ الافق وسمع صوت مشيهم كانهُ هدير بحر عجاج ثم اطلوا فحسبنا الارض قدماجت فاجتازوا الخندق الخارجي وهم سكوت ولما اقتربوا من الخندق الداخلي صاحوا كلهم بالتهليل والتكبير صيحة واحدة دوت لها الارض وحملوا على الحامية بالترتيب المشار اليهِ حملة رجل واحد فتلقاهم العساكر بنيران المدافع والسواريخ والبنادق وامطروا عليهم من الرصاص ما كاد يحجب الشمس فحصدتهم النيران حصدًا ولكنهم لم يزالوا يقتحمونها بجراة وثبات غير مبالين بالموت والعساكر توالي رميهم بكرات المدافع ورصاص البنادق حتى سدّ الدخان الفضا. فتمكن نفر منهم من الدخول على العساكر في الخندق من طرف الضلع الشرقية عند الزاوية الجنوبية الشرقية التي هاجمها المهدي وخلفاؤهُ وكان سعيد باشا اذ ذاك يراقب القتال من سطح ديوان المديرية فلما رآهم دخلوا الخندق اسرع فأخذ جانبًا من العساكر من كل ضلع وتعقبهم فقتلهم عن آخرهم ثم ارجع العساكر الى محلاتهم على خط النار . اما العربان المهاجمون للزاوية الجنوبية الشرقية فلما رأوا اخوانهم قد دخلوا الاستحكام ظنوا ان الحامية اصبحت في يدهم فصاحوا صيحة النصر وحملوا على الحامية يرومون اختراقها فتلقتهم نيران العساكر اشد من قبل فردَّتهم على اعقابهم ودام القتال من صلاة الصبح الى الظهر وقد حمي على العساكر حديد البنادق فتوقوهُ بطرابيشهم ليتمكنوا من مواصلة اطلاق النار ومع ذلك لم يزل العرب يوالون الهجوم الكرة بعد الكرة حتى صاروا اذا ارادوا التقدم داسوا اخوانهم القتلى فعادوا اذ ذاك عن الحامية بالخزي والخسران وقد

قدرت خسارتهم بعشرة آلاف الى اثني عشر الفاً وفيهم القاضي احمد ود جباره قاضي الاسلام المتقدم الذكر ومحمد وعبد الله شقيقا المهدي والشيخ ادريس شاعره وعبد الله التيجاني كاتبهُ وامين ختمهِ ونحو خمسين رجلاً من عشيرتهِ . وخاب امل محمد باشا امام بالمهدي بعد هذا الانكسار واشتد بهِ الاسف على الخيانة التي ارتكبها بالفرار من الحكومة التي شرفتهُ برتبها ووظائفها فشرب سماً ومات بعد الواقعة بقليل . واما خسارة العساكر فلم تزد عن ٣٠٠ رجل . وفرّ المهدي ناكصاً على عقبيهِ مع باقي جيشهِ الى كابا فأقام فيها حائرًا ذليلاً منكسر النفس

ولو عمل سعيد باشا بمشورة احمد بك دفع الله وخرج للمهدي على اثر هذا الانكسار ربما كان اخمد انفاسهُ ومحى ذكرهُ ولكنهُ خاف ان يخرج من الاستحكام فيحتلهُ المنة اسماعيل الذي رجع الى خورطقت فلم يرَ الخروج من الاستحكام رأياً . وقد امر عساكرهُ ثاني يوم الواقعة فابعدوا جثث القتلى عن الخندق وشرعوا في تحصينهِ فزادوهُ عمقاً واقاموا لهُ سورًا من طوب وفتحوا فيهِ المزاغل ومتنوا الزريبة فاصبحوا في « حصن » منيع

اما المهدي فقد قيل ان خليفتهُ التعايشي اشار عليهِ بالرجوع الى قدير ولكن الياس باشا ثبّتهُ ودلهُ على حصار الابيّض والتضييق عليها الى ان يضطرها الى التسليم نظرًا لقلة اقواتها وعدم المدد »

﴿ حصار الابيّض ﴾ وفي ضحى الاثنين قال المهدي لاصحابهِ « امرني سيد الوجود بمحاصرة مدينة الابيّض الى ان يسلم اهلها او يهلكوا جوعاً » ثم خرج من كابا فنزل قرب الابيض على بُعد مرمى قنبلة منها بمحل يدعى الجنزارة فيهِ آبار غزيرة تعرف بالعُشَر فرسم ديماً واحتل وسطهُ وانزل خلفاءهُ من حولهِ و بعدهم الامراء فكبراء الجيش فعامتهُ وقد بنوا بيوتاً من قش واقاموا على حصار الابيض . وكان المهدي قد اخبر اهل المدينة في الكتاب الذي ارسلهُ اليهم ان يخرجوا اليهِ بابنائهم ونسائهم ويتركوا امتعتهم واموالهم في منازلهم قال «لان الملائكة تحرسها لهم فلا يمسها احد حتى تُفتح المدينة فيعودون اليها فيجدونها كما تركوها » ففعلوا كما

قال لهم وكان العساكر عند خروجهم مشغولين بحفر الخندق كما مرَّ فكانوا يذهبون الى المنازل بالمناوبة ويحملون منها كل ما وجدوهُ من حبوب وامتعة واموال وقد وجدوا في بيوت بعض التجار مطامير ثمينة من الذهب والفضة والحلى فاقتسموها بينهم . وبعد الواقعة امر سعيد باشا العساكر فانتشروا في احياء المدينة وجمعوا كل ما استطاعوا جمعهُ من الغلال والمؤن . ثم ان اهل المدينة الذين فرُّوا الى المهدي لما رأوا ان الملائكة لم تحرس منازلهم كما اخبرهم المهدي صاروا يأتونها خلسة بالجمال فيحملون ما استطاعوا حملهُ ويعودون الى ديم الجنزارة فلما درى العساكر بهم اخذوا يتعقبونهم ويقتلون من ظفروا بهِ منهم فانقطعوا عن المجيء ولكن عربان المنة اسماعيل لم يزالوا يتسللون ليلاً وينهبون المنازل حتى منعهم المهدي

﴿ تسليم حامية الدان في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م ﴾ وكان المهدي قبل قيامهِ من البركة ارسل الملك عمر من فقهاء التكارنة بسرية من الانصار الى جبل الدلن وكان فيـهِ بلوك من العساكر السود لمنع تجارة الرقيق وكنيسة للمرسلين النمساويين فيها قسيسان احدهما الاب اوهرولدر المشهور واخان وثلاث راهبات فاضطرهم الملك عمر الى التسليم ونهب الكنيسة وخربهـا وساق الجميع الى المهدي في الجنزارة وكان تسليمهم في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢

﴿ ظهور نجم ذي ذنب ﴾ وفي ٢٨ من هذا الشهر ظهر في سماء السودان نجم ذو ذنب كبير قيل امتد في السماء كشراع السفينة وكان يطلع كل يوم قبيل الفجر ويمتد حتى يخفيهُ نور الشمس وبقي على ذلك اياماً . وفي خرافات اهل السودان ان ظهور مثل هذا النجم شؤم على البلاد فحسبهُ انصار المهدي شؤماً على الحكومة وبالحقيقة انهُ كان شوماً كبيراً على الفريقين

تسليم بارة في ٥ يناير سنة ١٨٨٣

ولما استقر المهدي في معسكر الجنزارة ارسل المنة اسماعيـل والامير رحمة ود منوفل الجامعي بعربانهما لاخذ بارة وكان في بارة اذ ذاك اورطة نظامية ونحو ٢٤٠ رجلاً من الباشبوزق عليهم الصاغ سرور افندي بهجت قومنداناً ومعهُ النور عنقرة

المار ذكرهُ . وكان سعيد باشا قد ارسل بعد واقعة الابيض الى عبد القادر باشا يعلمهُ بالنصر ويسألهُ المدد فأرسل اليهِ عبد القادر باشا الاميرالاي علي بك لطفي المشهور بأبي كوكه على اورطتين من العساكر النظاميـة و ٧٥٠ رجل من الباشبوزق فتلقاهم الامير رحمه في مكان يدعى «كوز ود جفون» مسيرة يوم من بارة وكانوا عطاشاً تعابى فقتل منهم ما ينيف على الف رجل وغنم بنادقهم وذخائرهم وكان في جملة القتلى الاستاذ السيد احمد الازهري ابن الولي اسماعيل الكردوفاني المشهور الذي صحبهم على ان يكون شيخ الاسلام وقاضي عموم غرب السودان . وفر من سلم منهم فطاردهم رحمه المذكور حتي قربوا من بارة فتلقاهم المنة اسماعيل واصبحوا بين قوتين فبلغ الحاميـة أن العرب يحاربون النجدة فخرج النور عنقرة ببعض العساكر ففرّق العرب عنها وفتح لها طريقاً فدخلت بارة في ١٠ الحجة سنة ١٢٩٩ه‍ ٢٣ سبتمبر ١٨٨٢

وكان في الحامية دنقلاوي يقال لهُ احمد ود مالك يود الخروج الى المهدي لانهُ من جنسهِ فاتفق مع المحاصرين ثاني يوم وصول النجدة فاضرم النار في بعض البيوت القريبـة من الشونة والذخائر حتى اشغل العساكر ففرّ مع نفر من اهله وفي الوقت نفسهِ هاجم العرب الحامية من الجهات الاربع فاشتغل بعض العساكر في اطفاء النـار وثبت البعض الآخر على القتال فردُّوا العرب على اعقابهم . وفي اليوم التالي خرج النور عنقره ليلاً بالعساكر وباغت المنة اسماعيل في معسكرهِ فقتل من جيشهِ وغنم وعاد الى بارة . وكان سلاح انصار المهدي الى هذا العهد السيف والحربة فلما نزل المهدي لحصر الابيض رأى ان السيف والحربة لا يفيان بالغرض فاستحضر الاسلحة النارية من قدير فوزعها على اصحابهِ وارسل جانباً منها الى محاصري بارة فضيقوا على اهل الحامية ومنعوهم من الخروج ودام هـذا الحال اياماً حتى فرغ زاد العساكر فاكلوا الحمير والكلاب والجلود وقد فرغت ذخائرهم او كادت فعقد الضباط والسناجق ومعهم النور عنقرة مجلساً للنظر في أمر نجاتهم فرأوا انهم اذا بقوا محصورين هلكوا جوعاً واذا خرجوا فان قصدوا الابيض فالابيض يحصرها المهدي وقومهُ وان قصدوا الخرطوم فهي بعيدة منهم والطريق معطشة

فاذا نجوا من المحاصرين لم ينجوا من العطش فاقرّوا على التسليم وخافوا اذا سلموا المنة اسماعيل ان يسيء معاملتهم اخذاً بثاره فكتبوا الى المهدي يسألونهُ ان يرسل اليهم اميرًا للتسليم عن يدهِ فارسل اليهم عبد الرحمن النجومي بجيش كبير فسلموا لهُ في ٢٥ صفر سنة ١٣٠٠هـ ٥ يناير سنة ١٨٨٣م فجاء بهم النجومي و بالمحاصرين الى ديم الجنزارة فقابلهم المهدي بجيش كثيف واطلق ٢١ مدفعاً اعلاناً للنصر

ثم تقدم اليهِ النور عنقرة وجميع الضباط والسناجق فبايعوهُ فطيب خاطرهم وعين لهم محلاً في المعسكر فاقاموا فيهِ . وقد فرج عنهُ فتح بارة بعض الغم الذي نالهُ من انكسارهِ في واقعة الابيض

﴿عود الى حصار الابيض﴾ وكان المهدي لما استحضر الاسلحة النارية من قدير انشأ رايةً جديدة ضمَّ تحتها جميع الجهادية السود الذين كانوا في اسرهِ وجعل عليها حمدان أبا عنجه اميرًا فضيقوا على الابيض وقعدوا لها في كل مرصد

اما حمدان ابو عنجه فهو عبد من المنضلة اي العبيد المولدين في بلاد البقارة وقد خدم في جيش الزبير في بحر الغزال ثم في جيش ابنهِ سليمان ولم يسلم مع سليمان ولا فرّ مع رابح بل بقي في دار التعايشة فقبض عليهِ محمد زقل مدير داره في ذلك الحين وزجهُ في السجن ثم خرج من السجن و بقي في بلاد التعايشة الى ان ظهر المهدي فهاجر اليهِ و بايعهُ ودخل في راية التعايشي وعلم المهدي بسالتهُ وتعودهُ على ادارة الاسلحة النارية فجعلهُ اميرًا على الجهادية كما تقدم . وكان ابو عنجه يأخذ رجالهُ ويختبئ بهم في منازل الابيض المهجورة ويترصد العساكر فكلما لاح واحد منهم رماهُ بالرصاص حتى قتل عدة منهم وفيهم البكباشي باشا حماد قومندان الضلع الشرقية فقد اصابتهُ رصاصة وهو جالس عند باب ديوان المديرية مع سعيد باشا فخرَّ قتيلاً .

وفي آخر الشهر الرابع من الحصار نفد الزاد من الحامية واشتد الجوع على العساكر حتى صار فرسانهم يخرجون الى اطراف معسكر الدراويش فيخطفون منهُ القوت او يذهبون الى حلة ابي صفيَّة قرب الاستحكام فيأتون منها بالكوريب للتقوت بهِ فتنبه المحاصرون لذلك فوقفوا لهم بالمرصاد واحرقوا الكوريب . ودام الحصار على

هذا الحال حتى ملّ العساكر واشتد بهم القحط فاكلوا ما عندهم من الخيل والحمير والكلاب والهررة والفيران ثم شرعوا في اكل الصمغ . وقد غلت الاسعار اذ ذاك غلاء فاحشاً حتى بلغ ثمن اردب الذرة نحو ٣٠٠٠ ريال والجمار ٥٠ ريال والفرخة ٤٠ ريالاً والبيضة ريالاً والفار ريالين ورطل البن ريالين وراس السكر ٥٠ ريالاً . ولما بلغ الباعة في معسكر المهدي غلاء الاسعار في الحامية الى هذا الحد صاروا يأتون اليهم سرًّا بالزاد فيبيعونهُ لهم باثمان فاحشة حتى اتصل الخبر الى المهدي فاصدر امرهُ الى الكافة بمنع ذلك بتاتًا وتهدَّد من يخالف الامر بقطع يدهِ ورجلهِ من خلاف . فضاق الامر بالعساكر وبلغت المجاعة حدَّها حتى صار البعض ينبشون اوكار النمل ويخرجون منها الحب للتقوت بهِ والبعض ياكلون جلود الاسرَّة والاحذية وكلما ذُبحت ماشية اجتمعوا عليها افواجاً يختطفون دمها تسكيناً لحرارة الجوع واجتزاء بهِ من القوت

وفوق هذا الجوع الذي اصابهم انتشر فيهم مرض فقر الدم والديزنتاريا فمات منهم من ١٠ : ٢٠ في اليوم . ولما اشتد بهم الحال الى هذا الحد اخذوا يتسللون من الحامية واحدًا واحدًا الى معسكر المهدي وكان في جملة الذين خرجوا للمهدي فرارًا من الجوع ابراهيم ود عدلان فكان لهُ في المهدية شأن يذكر

تسليم الابيض في ١٩ يناير سنة ١٨٨٣

وكان سعيد باشا يتفقد العساكر على خط النار ليلاً ونهارًا ويثبتهم على الحصار وهو لم يزل يعلّل نفسهُ ويعلّلهم بقدوم النجدة من الخرطوم فلما سقطت بارة جاء بعض رجالها قريباً من الاستحكام ونادوا بالعساكر قائلين ان بارة سلمت والنجدة التي كانت آتية لانقاذكم قد اهلكها العرب في الطريق ومن بقي منها سلم مع حامية بارة فلم يصدقوا ما كانوا يسمعونهُ حتى دخل عليهم في ١٠ يناير سنة ١٨٨٣ ضابط من ضباط بارة واخبرهم بما كان من سقوط الحامية وهلاك المدد الآتي من الخرطوم وحدثهم عن الثورة في سنار والثورة العرابية في مصر فسقط هذا الخبر على الحامية كصاعقة هدَّت قواهم وقطعت رجاءهم

ثم ان المهدي لما رأى كثرة اللاجئين اليهِ فرارًا من الجوع وعلم تمام الحال التي



﴿ جرجي اسطمبوليه ﴾

صارت اليه الحامية صمم على الهجوم واستعد لهُ فبلغ ذلك جرجي استامبولي التاجر المار ذكرهُ فشفق على اهل الحاميـة وعلى الاخص قس الكنيسة لانهم اصحابهُ فذهب الى المهدي وسألهُ ان يمهلهُ ريثما يذهب الى الحامية ويخاطب اهلها بشأن التسليم فأجابه المهدي سؤلهُ فأتى ليـلاً الى قرب الاستحكام ونادى طالباً مقابلة ضباط فجاءهُ علي بك شريف الميرالاي واسكندر بك القائمقام والبكباشي محمود فأخبرهم بالذي عزم عليهِ المهدي والحَّ عليهم بالتسليم فعقد الضباط مجلساً للنظر في ذلك فقال سعيد باشا اني افضل ان القي النـار في البارود واحرق الحامية كلها على ان اسلم لهذا الدجال الحقير وكذلك قال احمـد بك دفع الله ولكن سائر الضباط والسناجق قالوا ليس من الحكمة ان نهلك انفسنا وانفس العساكر الذين في عهدتنا فاذا لم نسلم بالرضى فالمهدي لا بد ان يهاجمنا ويأخذنا بالرغم ولم نعد قادرين على صدهِ اليوم كما صددناهُ بالامس اذ لم يبق للعساكر قوة على حمـل السلاح فضلاً عن استعمالهِ بل اذا لم يهاجمنا المهدي هلكنا كلنا من الجوع والمرض وقد ذهب منا الآن نحو النصف وانقطع رجاؤنا بالمدد من الخرطوم . وعليهِ فلم يبقَ لنا رأي غير التسليم لا سيما واننا اذا سلمنا بقي لنا امل في النجاة لان الحكومة لا تترك المهدي وشأنهُ بل لا بد لها من تجريد الجيوش لسحقهِ ويكفينا فخراً لدى حكومتنا اننا حاربنا في سبيلها على قدر جهدنا وحافظنا على شرفها الى آخر رمق منا ثم كتبوا كتاباً الى المهدي فاعتذروا عما مضى وطلبوا العفو والخروج لمبايعتهِ وامضى الكتاب علي بك شريف الميرالاي واسكندر بك القائمقام وباقي الضباط والسناجق ثم عرضوهُ على سعيد باشا فأمضاهُ على الرغم وكذلك فعل احمد بك دفع الله ثم دفعوا الكتاب الى جرجي استامبولي ليحملهُ الى المهدي وكان ذلك مساء الخميس في ١٨ يناير سنة ١٨٨٣ وقد طلبوا ان يكون التسليم صباح اليوم الثاني ونبهوا على العساكر في الخط اذا رأوا الدراويش مقبلين ان لا يطلقوا عليهم البنادق بل يتقدموا اليهم مسلمين

فلما وصل كتاب التسليم من الحامية الى المهدي كتب اليهم في الجواب ما يأتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

« وبعد فمن عبد ربهِ محمد المهدي بن عبدالله الى كل من اقبل على الله بالمحبة وسلم لامرنا ونهينا من الحكام والضباط والفقراء والمساكين الذين بالقوة في المحصن » انكم كنتم في امر الترك ونهيهم صادقين و باذلين انفسكم واموالكم لغير الله بلا منافع تعود لكم عند الله وترفعكم في الدار الآخرة فكيف اني داعيكم الى الله وما يرفعكم عندهُ ويعود عليكم بالخير الدايم والنعيم السرمدي وبما انكم لعاقلون وتعلمون ان ما كان لغير الله سلمتم فيهِ فسلموا امركم لي لاني لا أريد لكم الا ما يرضي الله ورسولهُ ويديم الخير السرمدي فما دام فعلي مما يعود لكم فمن باب اولى انكم تسلمون لامري ونهي بأنفسكم واموالكم واولادكم من غير تهمة لي بمحبة وصداقة بما اني ولي امر الله لكم وخليفة رسول الله فيكم والسلام »

فلما جاءهم هذا الكتاب اطمأنوا . ويوم الجمعة في ١٩ يناير سنة ١٨٨٣ م خرج اهل الحامية جميعاً بابنائهم ونسائهم مسلمين . فخرج المهدي في ضحى ذلك اليوم من مسجدهِ وعليهِ الدرع والمغفر ومعهُ خلفاؤهُ وسائر اصحابهِ فتلقاهم بقرب الخندق الكبير المحيط بمدينة الابيض وجلس على الارض كجلوسهِ للصلاة . ثم تقدم اليه محمد باشا سعيد وعلي بك شريف واسكندر بك واحمد بك دفع الله وباقي الضباط والسناجق فبايعوهُ الواحد بعد الآخر باليد ثم بايعهُ العساكر مشافهة . قيل ولما تقدم محمد سعيد باشا لمبايعتهِ كان يلبس خاتماً من الماس فأخرجهُ المهدي من يدهِ ثم دفعهُ لهُ في كفهِ واطبق يدهُ عليهِ مشيراً الى ان لبسه ممنوع واجلسهُ الى جانبه وحولهُ الضباط والسناجق مشيراً اليهِ ولامهُ على قتال رسولهِ وشكر الله لانه اخرجهم من الظلمات الى النور ثم امرهم بالانصراف والاقامة في محل خاص عيّنهُ لهم بلصق ديمه وامر امين بيت المال فرتّب لهم من الزاد ما فيهِ كفاية وقوام امرهم على حسب احوالهم وأخذهم الى المحل الذي أعدّ لهم فخلعوا الثياب العسكرية فوضعوها في بيت المال لتستخدم للرقع وألبسوهم الجبب المرقعة وكان العساكر قد خاروا من الجوع فهرعوا الى السوق في طلب الطعام فأكلوا بشرهٍ زائد حتى مات الكثير منهم من كثرة الاكل

اما المهدي فانهُ دخل الابيض ومعهُ خلفاؤهُ وامراؤهُ ونزل في ديوان المديرية وانزل خلفاءهُ وامراءهُ في منازل الضباط والسناجق وبقي ديم الجنزارة على حالهِ

ثم امر امين بيت المال وعمالهُ بجمع الغنائم فجمعوا الاثاث والامتعة ولمالم يجدوا فيها شيئاً من النقود والحلى نادوا ضباط الحامية وسناجقها واحداً واحداً وسألوهم عن نقودهم وحلاهم وبدأوا بسعيد باشا فانكر امواله وكان قد خبأ ٧٠٠٠ جنيهاً في صندوق وجعلهُ في حائط منزلهِ ولم يكن يعلم بهِ الا جارية لهُ فاعترفت بهِ فنقبوا الحائط واخذوهُ. ثم استنطقوا باقي الضباط والسناجق والموظفين ليدلوهم على الاماكن التي اخفوا فيها اموالهم ومن انكر اعملوا بهِ السياط وعذبوهُ حتى اعترف بهِ أو مات تحت الضرب كما جرى لاحمد شلبي وكيل اشغال المديرية فانهم جلدوهُ بالسياط الى ان مات ومحمد المليجي متعهد «سلخانة الميري» فانهم ربطوهُ برجليهِ ودلوهُ في البئر حتى اعترف بمالهِ. وقال الاب روسينيولي احد القسس النمساويين المار ذكرهم «لما دخل العرب الحامية كنت في الفراش مريضاً بفقر الدم فدخل بعض الدراويش عليَّ فكسروا الصلبان والصور واحرقوها ثم تقدموا اليَّ وشرعوا يضربونني بحدّ السيف ويقولون اين مالك يا كافر قلت كان عندي الف ريال وهي كل ما املك فاقرضتها لسعيد باشا فوزعها على العساكر ثم التفتوا فرأوا القبر الذي دفن فيهِ الاب لوزي فظنوهُ مالاً مدفوناً فنبشوهُ فرأوا جثة بالية فجمعوا عليها ما وجدوهُ من ورق الدخان واحرقوها بهِ واما انا فأخذوني مع رفاقي الى ديم الجنزارة وضمونا الى جماعة كنيسة الدلن» . وبذلك جمع امين بيت المال مبالغ وافرة من النقود والحلى ولكن لم يدخل بيت المال سوى ١٤٠٠٠٠ ريال اخذوها من الضباط والسناجق وغيرهم و٧٥٠٠ ريال من خزينة المديرية . فأفرز المهدي الخمس منها لنفسهِ وجعل الباقي في بيت المال لينفق على الانصار

ثم امر فجمعت الاسلحة النارية التي كانت مع العساكر وفي حامية الابيض فضمها الى ما غنموهُ من واقعتي راشد والشلالي فاجتمع عندهُ ١٦٤٠٠ بندقية و١٣ مدفعاً و٧ سواريخ وشيء كثير من الذخائر . واجتمع عندهُ من عساكر

الحكومة نحو ٥٠٠٠ من مصريين وسود فجعل السود في راية حمدان ابي عنجه وسلحهم بالاسلحة النارية والمصريين في راية حسن حسين احد المصريين المولدين في السودان ولم يسمح لهم بسلاح غير السيوف والحراب

وبقي انصار المهدي في ديم الجنزارة اياماً بعد التسليم ثم اشتعلت نار في الديم فالتهمته كله لانه كان مبنياً بالقش كما مرّ فاذن المهدي اصحابه اذ ذاك في سكنى الابيض فاتسعت اتساعاً عظيماً الى كل الجهات اما اسرى الابيض فانه ابقاهم في المكان الذي عينه لهم في الديم القديم

وبعد هذه الحريقة بعشرة ايام اتى الخليفة عبدالله الى معسكر الاسرى وجلس في خيمة الحاج خالد العمرابي المار ذكره فدعا اليه سعيد باشا وعلي بك شريف ونظيم افندي والصاغ محمد جمعة من رجال نظيم واحمد بك دفع الله ومحمد ياسين ناظر قسم بارة وعثمان أغا سليمان ومشلي أغا حسين وكلاهما من سناجق الابيض وجعل كل اثنين منهما في عهدة شيخ من مشايخ العربان المخلصين لهم واوعز اليهم سرّاً ان يقتلوهم فجعل سعيد باشا ومحمد جمعة في عهدة الشيخ اسماعيل ود الامين شيخ الغديّات. وعلي بك شريف ونظيم افندي في عهدة الشيخ نواي شيخ الحوازمه. واحمد بك دفع الله ومحمد ياسين في عهدة الشيخ مادبو احد مشايخ الرزيقات. وعثمان سليمان ومشلي حسين في عهدة الشيخ مكي ود ابراهيم شيخ عربان حمر فذهب كل شيخ بفريستيه الى بلده وقتلهما فماتوا مأسوفاً عليهم من كل حرّ. وسيبقى اسمهم محفوظاً في التاريخ بالتجلة والاكرام ما ذُكر حصار وناح حمام

هذا وقد اختلف الرواة في السبب الذي حمل المهدي على قتل هؤلاء الرؤساء والذي عليه الاكثرون وذكره سلاطين باشا في كتابه «السيف والنار في السودان» ان هؤلاء الرؤساء كتبوا تقريراً الى عبد القادر باشا ذكروا فيه الاسباب التي حملتهم على التسليم وختموا التقرير ورفعوه الى رسول ليوصله الى الخرطوم وكان في جملة الذين ختموا التقرير الملازم يوسف منصور وكيل بوليس الابيض والقائمقام محمد بك اسكندر فخاف يوسف منصور ان يقع التقرير في يد المهدي فينتقم منهم جميعاً

فمضى اليه ووقع على قدميهِ واخبرهُ بما جرى ورأى في طريقهِ محمد بك اسكندر فاقنعهُ ان يفعل مثلهُ ففعل فأرسل المهدي في الحال في أثر الرسول فقبض عليهِ واخذ التقرير منهُ وشاع حينئذٍ ان النبي ظهر للمهدي واخبرهُ بهذا التقرير . واغتنم المهدي تلك الفرصة للانتقام من الذين قتلوا اخوَيه وخذلوهُ في وقعة الابيض فنفاهم ثم قتلهم وعفا عن يوسف منصور واسكندر بك وجعل الاول منهما قومندانًا على المدافع

وقد قابلت اسكندر بك ويوسف منصور في أم درمان سنة ١٨٩٨ م فانكرا هذه الرواية وقالا ان المهدي كان حاقدًا على الضباط لقتل اخوَيه وخذلانهِ في وقعة الابيض ولم يعلم الضباط المشار اليهم كيف يتقون نقمتهُ بل زادوهُ نكاية بعدم العناية بهِ والاستخفاف بأمرهِ . وذكر احدهما تفصيلاً لذلك وصدَّقهُ بعض الرواة قال : كان المهدي في يوم جمعة بعد الصلاة يذاكر الضباط في جامع الابيض وكان سعيد باشا جالسًا الى يسارهِ معرضًا عنهُ ويدهُ اليمنى على خدهِ فأمسك المهدي يدهُ وازاحها عن خدهِ وقال بماذا تتأمل يا محمد سعيد انا اذاكرك بالله ورسولهِ واليوم الآخر وانت معرضٌ عني اما آن لك ان ترجع الى الله وتترك الدنيا وهمومها وتنظر في أمر آخرتك فنهض اذ ذاك سعيد باشا وتأفف ونفض ثوبهِ في وجه المهدي وانصرف من المجلس مغضبًا فانقبض وجه المهدي وهبَّ انصارهُ طالبين القبض على سعيد باشا فأمرهم بتركهِ وقال لهم لا تعجبوا من نزقهِ وحماقتهِ فأنتم تعلمون انهُ كان بمقام عزيز من مقامات الدنيا ونزع هذا المقام من طالب الدنيا شديد على النفس

ثم انصرف المهدي الى منزلهِ وعقد مجلسًا مع خلفائهِ ومجلس شوراهُ بشأن محمد سعيد فأجمعوا على سجنهِ وتكبيلهِ بالحديد فأخذوهُ الى ديوان المديرية ووضعوا قيدًا من الحديد في عنقهِ ومكيّة في رجليهِ وربطوهُ في طريق المارة وكان سمينًا قصيرًا فلقبوهُ بجراب الفول فكانوا كلما مرُّوا بهِ نادوهُ اي جراب الفول هذه ثمرة عنادك وعاقبة انكارك المهدية . وقد اراد المهدي بحبسهِ وتشهيرهِ على هذه الصورة ان يذلل نفسهُ ويخضع كبرياءهُ ولكنهُ لم يزدد بذلك الاَّ انفة وكبرًا وكان ينظر الى معذّبيهِ ومهينيهِ نظر المترفّع الجلود ولسان حالهِ ينادي :

لا تحسبنْ يا دهرُ اني ضارعٌ   لنكبةٍ تعرقني عرق المُدَى
مارستَ من لوهوت الافلاكِ من   جوانب الجوّ عليهِ ما شكى

قالوا فلما رأى المهدي منهُ هذا الاصرار عقد مجلس شوراهُ فأقروا على قتله هو ومن كان على شاكلتهِ من الضباط والسناجق فسلموهم الى المشائخ المتقدم ذكرهم فقتلوهم شر قتلة رحمة الله عليهم

هذا وما انتشر خبر سقوط الابيض حتى هرع الناس اليها افواجاً لمبايعة المهدي واشهر الذين اتوا اليهِ «عثمان دقنه» أتاهُ من سواكن فسماهُ اميرًا على جميع البجة في السودان الشرقي فكان من اعظم انصار المهدية واشد اياديها وسيأتي تفصيل خبره . وكان قد ارسل بعد واقعة الشلالي الشيخ مادبو المار ذكرهُ اميرًا على دارفور فكان لهُ فيها من الشأن ما سنذكرهُ بالتفصيل . وبث المهدي كتبهُ ومنشوراتهِ في شرق البلاد وغربها مبشرًا الناس بما نالهُ من النصر ومحرضاً اياهم على شق العصا والاجتماع على عمالهِ في الجهات أو المهاجرة اليهِ وحذرهم من ترك الجهاد أو البقاء على الحياد

وكان رابح الزبير اذ ذاك لا يزال في بلاد الفراتيت ومعهُ جيش قويّ فكتب اليهِ يستحثهُ على الرجوع الى السودان والانضمام اليهِ للجهاد في سبيل الله فلم يجبهُ

ثم كان أهمّ ما سعى اليهِ ضم كلمة السنوسي الى كلمته ليستعين بهِ على غرضهِ ويتهدد مصر فلما لم يجبهُ على كتابهِ الاول عاد فكتب اليهِ كتاباً آخر بتاريخ ٥ رجب سنة ١٣٠٠ هـ ١٢ مايو ١٨٨٣ م وارسلهُ اليهِ مع طاهر اسحق الزغاوي الى جغبوب وفيهِ بين لهُ كيفية تجلّي المهدية عليهِ من النبي كما بيّنهُ في منشورهِ العام الى «احبابهِ في الله» وذكرناهُ بحرفهِ وقال :

«واعلم يا حبيبي قد كنا ومن معنا من الاعوان ننتظرك لاقامة الدين قبل حصول المهدية للعبد الذليل وقد كاتبناك لما سمعنا باستقامتك ودعايتك الى الله على السنة النبوية وتأهبك لاحياء الدين ونجتمع معك ولم ترد لنا المكاتبة واظن ذلك من عدم وصولها اليكم حتى اني ذاكرت جميع من اجتمعت معهُ من اهل الدين والشيوخ والامراء المشهورين فأبوا ذلك لهوان الدين عندهم وتمكن حب الوطن والحياة في قلوبهم وقلة

توحيدهم حتى بايعني الضعفاء على الفرار بالدين واقامته على ما يطلب رب العالمين وقنعت نفوس من بايعناه من الحياة الدنيا لما يرون للدين من الممات . ولازال المساكين الذين لم يبالوا بالله بما فاتهم من المحبوب يزدادون وفيما عند الله يرغبون حتى هجمت المهدية الكبرى من الله ورسوله على العبد الحقير فأخبرني سيد الوجود (صلعم) بأني المهدي المنتظر وخلفني عليه الصلاة والسلام على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء الاربعة والاقطاب والخضر عليه السلام . . . ولا زال التأييد يزداد من الله ورسوله وأنت منا على بال حتى جاءنا الاخبار فيك من النبي (صلعم) انك من الوزراء لي ثم ما زلنا ننتظرك حتى أعلمنا النبي الخضر عليه السلام بأحوالكم وبما أنتم عليه ثم حصلت حضرة عظيمة عن النبي (صلعم) فيما خلفهُ من اصحابه من اصحابي فاذ أجلس احد اصحابي على كرسي ابي بكر الصديق واحدهم على كرسي عمر وأوقف كرسي عثمان فقال هذا الكرسي لابن السنوسي الى ان يأتيكم بقرب أو طول وأجلس أحد اصحابي على كرسي علي رضوان الله عليهم ولا زالت روحانيتك تحضر معنا في بعض الحضرات مع اصحابي الذين هم خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . . » وختم كتابهُ بقوله :

« فاذا بلغك جوابي هذا اما ان تجاهد في جهاتك الى مصر ونواحيها ان لم يسلموا واما ان تهاجر الينا ولكن الهجرة احب الينا كما علمت من فضل الهجرة من زيادة الثواب والمقابلة ان تيسرت وعلى كل حال ترد الينا منك الافادة بما سيصير اليه عزمك من جهاد أو هجرة ومثلك تكفيه الاشارة » اه

فلم يجبهُ السنوسي على كتابه بل قال للرسول شفاهاً « قل لمحمد احمد اننا كلانا لا نساوي التراب الذي كان يطأهُ عثمان بن عفان »

وأمر المهدي بعد فتح الابيض بقتل اثنين من اعظم انصاره وهما المنة اسماعيل المار ذكره وعجيل ود الجنقاوي من كبار مشايخ الرزيقات لمنافسة حصلت بينهما وبين التعايشي فساء قتلهما جميع الناس وكثر الطعن على التعايشي وقومه سراً وجهراً وكان التعايشي وزير المهدي وقائد جيشه وعيبة سره فخوفاً من حصول الفشل في انصاره اصدر منشورهُ الشهير بتاريخ ١٧ ربيع اول سنة ١٣٠٠ ﻫ ٢٦ يناير سنة ١٨٨٣ م

في فضل التعايشي ومكانتهِ في المهدية وامر الناس بطاعتهِ كنفسهِ وحذرهم من الطعن عليهِ سرًّا أو جهرًا. وهذه صورة المنشور :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآلهِ مع التسليم « وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله اعلامًا منهُ الى كافة عباد الله المؤمنين بالله وبكتابهِ أما بعد اعلموا ايها الاحباب أن الخليفة عبد الله خليفة الصديق المقلد بقلائد الصدق والتصديق فهو خليفة الخلفاء وأمير جيش المهدية المشار اليهِ في الحضرة النبوية فذلك السيد عبد الله ابن السيد محمد حمد الله عاقبتهُ في الدارين فحيث علمتم ذلك يا احبابي أن الخليفة عبد الله هو مني وأنا منهُ وقد أشار اليهِ سيد الوجود (صلعم) فتأدبوا معهُ كتأدّبكم معي وسلموا اليهِ ظاهرًا و باطنًا كتسليمكم لي وصدقوهُ في قولهِ ولا تتهموهُ في فعلهِ فجميع ما يفعلهُ بأمر النبي (صلعم) أو باذن منا لا بمجرّد اجتهاد منهُ ولا هو عن هوى بل هو نائب عنهُ في تنفيذ امره (صلعم) والقضاء باشارتهِ فإن فعلهُ بكم وحكمهُ فيكم بحسب ذلك واعلموا يقينًا ان قضاءهُ فيكم هو قضاء رسول الله (صلعم) كما قال الله تعالى وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسولهُ أمرًا أن يكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعصِ الله ورسولهُ فقد ضلّ ضلالاً مبينًا فمن كان في صدرهِ حرج لاجل حكمهِ فذلك لعدم ايمانهِ وخروجهِ من الدين بسبب غفلتهِ وذلك بشاهد قولهِ تعالى فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا ولا شك في شرك من استنكف عن حكم الله ورسولهِ سيما بقولهِ (صلعم) ان اخوف ما اخاف عليكم الشرك الخفي الخ الحديث مع انهُ خليفة الصديق وأول المصدّقين في المهدية فانظروا لمكانة الصديق عند الله ورسولهِ بنصّ القرآن العظيم وانظروا لمكانة من أورثهُ الله مكانَ الصديقين واوزرهُ بالباطن بالخضر عليهِ السلام فهو مسدّد مؤيّد من الله ورسولهِ ويد من ايادي الله لنصر دينهِ باشارة سيد الوجود (صلعم) وقد ورد في فضلهِ كثير. فحيث فهمتم ذلك فالتكلم في حقهِ يورث الوبال والخذلان وسلب الايمان . واعلموا أن جميع افعالهِ واحكامهِ محمولة على الصواب لانهُ

أوتي الحكمة وفصل الخطاب ولو كان حكمهُ على قتل نفس منكم أو سلب اموالكم فلا تتعرضوا عليهِ فقد حكمهُ الله فيكم بذلك ليطهركم ويزكيكم من خبائث الدنيا لتصفى قلوبكم وتقبلوا الى ربكم ومن تكلم في حقهِ ولو بالكلام النفسيّ جزماً فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ويخشى عليهِ من الموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله لانهُ خليفة الصديق الذي قال الله في حقهِ اذ يقول لصاحبهِ لا تحزن ان الله معنا وقال (صلعم) ان أمنّ الناس عليَّ في الصحبة أبو بكر وقال عليهِ السلام ما طلعت شمس على احد بعد النبيين أفضل من أبي بكر • وحيث علمتم ذلك فهو بمنزلتهِ الآن لان اصحابي كأصحاب رسول الله وهو خليفتنا في الدين وخلافتهُ بأمر من النبي فمن كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ومصدّقاً بمهديتي فليسلم للخليفة عبد الله ظاهرًا او باطناً واذا رأيتم منهُ أمرًا مخالفاً في الظاهر فاحملوهُ على التفويض بعلم الله والتأويل الحسن واعتبروا يا اولي الالباب بقضية موسى والخضر عليهما السلام حكاها الله في كتابهِ العزيز لحكم داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام لتسلموا من الشكوك والاوهام وانما انذرتكم بهذا رحمة لكم وشفقة عليكم وليبلغ الشاهد منكم الغائب لئلاّ تسبوهُ وتنسبوا اليهِ الظلم والجور فتهلكوا فاحذروا عن اذية اولياء الله فانها أذية الله ورسولهِ وقد لعن الله ذلك في كتابهِ فقال ان الذين يؤذون الله ورسولهُ لعنهم الله في الدنيا والآخرة كما أن من آذى لي وليّاً فقد آذنتهُ بالحرب فان الله غيور على اوليائهِ فقد علمتم أنهُ ورد من نقض الكعبة حجرًا حجرًا ثم حرقها بالنار أهون عند الله من ان يؤذي وليّاً من اوليائهِ • وان الخليفة هو قادة المسلمين وخليفتنا النائب عنا في جميع امور الدين واياكم والوسوسة في حقهِ وظن السوء وعدم الامتثال اليهِ في قولهِ والمشاجرة لهُ ولاحكامهِ والخلاف والحسد فتوبوا الى الله وارجعوا قبل ان تذهب حسناتكم وتسلبون ثوب الايمان وانما حملني على هذا البيان النصيحة في الله وحمايتكم من الوقوع في هاوية الانفس والاماني فمن تاب تاب الله عليهِ ومن عاد فينتقم الله منهُ ويسلطهُ عليهِ وهذا امر الله ورسولهِ فليحذر الذين يخالفون عن أمرهِ ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم ولا حول ولا قوة الا بالله العليّ العظيم والسلام اه »

الفصل الثامن

في

﴿ حملة هكس باشا على المهدي في كردوفان ﴾

﴿ الحكومة والثورة ﴾ هذا ما كان من المهدي في الايض اما الحكومة في مصر فانها كانت في هذا العهد قد اخمدت الثورة العرابية واحتلّ الانكليز مصر في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ فصارت باحتلالهم مستندة الى قوتهم مقيدة برأيهم ومشورتهم فلما استقامت الاحوال في مصر وعاد اليها النظام التفتت بكليتها الى السودان وكان عبد القادر باشا اذ ذاك يلحُّ في ارسال المدد قبل فوات الفرصة فاقرت الحكومة على الغاء جيش عرابي وارساله مددًا الى السودان وفي الوقت نفسه اقرت على سحق المهدي في كردوفان فصدر الامر العالي بالغاء الجيش في ٢٠ دسمبر سنة ١٨٨٢ وانشأ بدلهُ جيش جديد من فلاحي مصر مؤلفًا من ٦٠٠٠ رجل جعل عليهِ السر افلن ود من خيار الانكليز سردارًا ومعهُ جماعة من الضباط الانكليز قوادًا للاورط واركان حرب الجيش

﴿ ولاية علاء الدين باشا سنة ١٣٠٠ هـ ١٨٨٣ م ﴾

ثم سقطت الايض وكانت الوشاية على عبد القادر باشا فدعتهُ الى مصر كما مرّ وارسلت علاء الدين باشا واليًا على السودان فوصل الخرطوم في ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٣ ولكنها حصرت سلطتهُ في الادارة الملكية وجعلت على العسكرية سليمان باشا نيازي قومندانًا عامًا وهكس باشا رئيسًا لاركان حربهِ . اما هكس باشا فهو من ضباط الانكليز النابغين وقد انتظم في الجيش الهندي سنة ١٨٤٩ وشهد عدة وقائع حربية في الهند والحبشة وتقاعد برتبة كولونل . وفي سنة ١٨٨٢ قدم الى مصر فسمي رئيس اركان حرب الجيش المصري ولما الغي جيش عرابي وصدر الامر بارسالهِ مددًا الى السودان سمي رئيس اركان حرب الجيش في السودان كما مرّ فبرح مصر في ٧ فبراير وسار بطريق سواكن فوصل الخرطوم في ٧ مارس سنة ١٨٨٣



« هكس باشا »

وتبعهُ جيش عرابي في هذه الطريق عينهـا وكان مؤلفاً من اربعة الايات في كل الاي ثلاث اورط ومجموعهُ نحو عشرة آلاف رجل عليهم اربع ضباط مصريين عظام وهم: الميرالاي سليم بك عوني قومندان ١ جي الاي والميرالاي حسين بك مظهر قومندان ٢جي الاي والميرالاي ابراهيم بك حيدر قومندان ٣جي الاي والميرالاي رجب بك صديق قومندان ٤ جي الاي. فاقام هذا الجيش في ام درمان وبنى فيها رجب بك صديق طابية اشتهرت في حصار الخرطوم

﴿ واقعة المرابيع في ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٢ ﴾ وكان اول ما اقرَّ عليهِ هكس باشا بعد وصولهِ الخرطوم ان يجرّد حملة على ود برجوب الذي كان لم يزل شاهراً العصيان في الجبلين وقد اجتمع اليهِ الزعماء الذين خذلهم عبد القادر باشا كود الصليحابي واحمد المكاشف واخيهِ عامر وغيرهم كما مرّ. فلما كان يوم ٣ ابريل خرج من الخرطوم مع سليمان باشا نيازي القومندان العام وجمع في الكوة نحو ٥٦٠٠ مقاتل فيهم الميرالاي حسن بك مظهر والميرالاي ابراهيم بك حيدر ومع كل منهما ثلاث اورط واليوزباشي حسن عزمي قومندان الطوبجية ومعهُ سبعة مدافع و٦٠ رجلاً وسنجقان من سناجق الاتراك مع كل منهما ٤٠٠ رجل وسار بهذه القوة قاصداً الجبلين. وخرج ود برجوب لقتـالهِ بنحو ٥٠٠٠ مقاتل فالتقى الجيشان في المرابيع جنوبي أبا في فجر ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٣ وكان هكس قد نظم جيشهُ مربعاً فجعل حملة الجمال والمهمات في الوسط ولم يجعل المدافع في الزوايا كجاري العادة بل جعلها بارزة عنها ووصل اضلاع المربع وصلاً تاماً حتى لا يبقى للعرب سبيل الى دخولهِ ثم نثر حول المربع قطعاً صغيرة من الحديد ذات اربعة رؤوس محددة تقف على ثلاثة منها . ولم يتم تنظيم المربع على هذه الصورة حتى اقبـل الدراويش وفرسانهم في ساقتهم مهاجمين بهيئة قوس فلما صاروا على مرمى الرصاص صدرت الاوامر للعساكر فامطروهم سحابة من الرصاص برَّحت بهم تبريحاً وخاف فرسانهم وكبراؤهم ان يثنيهم ثقل الرصاص عن متابعة الهجوم فصاحوا بهم وحملوا في مقدمتهم بقلوب لا تهاب الموت فكنت ترى الفارس مجرداً سيفهُ ومطلقاً عنان جوادهِ قاصداً اختراق المربع فيصيبهُ الرصاص فيقع

فيضمد جرحهُ بيدهِ ويعيد الكرة راجلاً حتى يصرعهُ الرصاص الى ان ملئت الارض من قتلاهم فولوا الادبار وقد قتل من كبارهم ١٢ رجلا فيهم احمد المكاشف وجرح عامر المكاشف جرحاً بالغاً وجرح ود برجوب جرحاً اقعدهُ حتى صار يحمل على سرير. اما جيش هكس فقد قتل منهُ رجلان وجرح عشرون وتقدم هكس بجيشهِ الى الجبلين فوجد ديم الدراويش خالياً فعاد الى الدويم فترك جيشهُ فيها وتقدم الى الخرطوم ليعد نفسهُ للحملة على المهدي في كردوفان . وقد اختار الدويم النقطة الاساسية لهذه الحملة لانها ميناء حسن على النيل الابيض وبها شونة قديمة ومنها تتفرع الطرق الى كردوفان

﴿ حملة هكس باشا على كردوفان ﴾ وكان عبد القادر باشا اذ ذاك قد عاد الى مصر قبل فألحَّ على الحكومة ببقاء الجيش محافظاً على النيل الابيض من الخرطوم الى فاشودة لمنع امتداد الثورة الى جزيرة سنار وترك المهدي وشأنهُ في كردوفان الى ان يظهر للناس نفاقهُ أو تضيق بهِ البلاد فيضمحل من نفسهِ وكان هذا رأي الكثير من ساسة الانكليز ولكن الحكومة لم تزل مصممة على سحق المهدي في كردوفان خوفاً على دارفور وبحر الغزال فأمرت هكس باشا بالزحف على المهدي في الحال فكتب تلغرافاً في ١٣ مايو الى حكومة مصر يقول انهُ لا يتحمل مسؤلية الحملة الا اذا كانت لهُ القيادة العامة عليها ولما لم تلتفت الى طلبهِ قدم استعفاءهُ في ٢٣ يوليو سنة ١٨٨٣ فاهتمت اذ ذاك بالامر ونقلت سليمان باشا نيازي محافظاً على عموم شرقي السودان وجعلت هكس قومنداناً عاماً على الحملة وأمرت علاء الدين باشا بمرافقتهِ كقومندان ثان للحملة وجعلت حسين باشا سرّي وكيلاً عنهُ في الخرطوم

فشرع هكس باشا في تجهيز الحملة . وكان اول ما لزمهُ الاهتمام بهِ وسائط النقل فارسل علاء الدين باشا الى شرقي النيل الازرق فاشترى ٤٠٠٠ جمل وكان عندهُ ١٥٠٠ جمل فاجتمع للحملة ٥٥٠٠ جمل . ثم ارسل علاء الدين باشا الى الدويم وشرع في ارسال الجند تباعاً من الخرطوم وأم درمان . وفي ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٣ سار ببقية الجيش الى الدويم فوصلها في ٢٠ من الشهر المذكور فاجتمع عندهُ فيها اربع اورط

مصرية وخمس سودانية فيها ٧٠٠٠ من المشاة المنظمة و٥٠٠ من الفرسان المنظمة و٥٠٠ من الفرسان الباشبوزق و ١٠ مدافع جبلية و٤ كروب و٦ من نوع النور دنفلت . ما عدا ٢٠٠٠ من الاتباع و٥٥٠٠ جمل و٣٠٠٠ بغل و١٠٠٠٠ حمار و٥٠٠٠ فرس

واما ضباط الجيش العظام فهم الميرالاي سليم بك عوني قومندان الآلاي الاول والسيد بك عبد الخالق قومندان الآلاي الثاني وحسين بك فهمي قومندان الآلاي الثالث ورجب بك صديق قومندان الآلاي الرابع ما عدا السناجق الباشبوزق . واما حسين بك مظهر قومندان الآلاي الثاني السابق فقد رقي الى رتبة لواء ورافق الجيش قومندانًا على الآلايات الاربعة واما ابرهيم بك حيدر قومندان الآلاي الثالث السابق فقد رُقي ايضًا الى رتبة لواء وسمي قومندانًا على خط النار في الخرطوم

وصحب هكس من الضباط الافرنج الكولونل فركوهار رئيس اركان حرب و ٨ ضباط اركان حرب وسكرتيره الخاص ميخائيل افندي ناصيف اللبناني شقيق سليمان بك ناصيف من كبار موظفي الحربية بمصر وجورجي بك الحكيم الرومي ومكاتبو التيمس والدالي نيوز والغرافيك وكلهم من الانكليز . وصحبهُ من الخبراء صالح غانم وابراهيم محجوب وأوّاه ومن الملكية الوطنيين الذين استصحبهم من الخرطوم ليأمن شرّهم ويوليهم امر كردوفان في حالة النصر : قناوي بك ابو عموري البحّاري الشهير الذي تقدم ذكرهُ في تاريخ الزبير وبساطي بك المحسي باشكاتب الخرطوم وحمد بك التلب الجعلي رئيس مجلس الاستئناف ومحمود بك احمداني الكنزي مدير الخرطوم وعبد الرحمن بك بان النقا الجعلي من عمد التجار . وابقى الكولونل ده كوتلوجن من اركان حربه في النيل بين الخرطوم وفاشودة لمنع مهاجرة الناس من الجزيرة الى المهدي

وفي حال وصولهِ الى الدويم اجتمع بعلاء الدين باشا ونظرا في طريق الحملة فللابيض من الدويم طريقان شهيرتان : طريق بارة طولها ١٧٦ ميلاً وماؤها قليل وتصل الابيض من الشمال . وطريق شات طولها ٢٦١ ميلاً وماؤها كثير وتصل الابيض من الجنوب . فقال هكس بطريق بارة لانها أقصر وقال علاء الدين بطريق شات لان ماءها اغزر يكفي الحملة فقرّ الرأي على قول علاء الدين .

وسارت الحملة من الدويم في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٨٣ فمرَّت بشات وتركت فيها حامية صغيرة لحفظ خط الاتصال مع النيل ثم تقدمت الى أبار زريقة وقبل الوصول اليها وقع اختلاف شديد بين هكس وعلاء الدين في شان خط الاتصال فاراد هكس ان يجعل في كل منهل حامية عسكرية مؤلفة من ٢٠٠ رجل لحفظ خط الاتصال مع النيل وقد ترك حامية فى شات لهذه الغاية فاعترضهُ علاء الدين وقال ان هذه الحاميات لا تستطيع حفظ نفسها فضلاً عن خط الاتصال اذ البلاد كلها قد سلمت للمهدي فلا نترك حامية في منهل حتى تحيط بها العربان وتأخذها عنوة فنكون بذلك قد اهلكنا جانباً من رجالنا ولم نستفد شيئاً. فعقد هكس باشا مجلساً من الضباط الافرنج والمصريين للحكم في الامر فأجمعوا على قول علاء الدين وسار الجيش من ذلك الحين كانهُ جسم واحد متأهب للقاء العدو في كل لحظة . وكان سيرهُ بهيئة مربع عظيم في مقدمتهِ الدليلان فالطلائع فالضباط العظام فاركان الحرب ثم المربع وهو مؤلف من المشاة في وسطهِ الطوبجية وفي ساقتهِ الفرسان ثم الجمال والاحمال ثم الفرسان الباشبوزق وهم وراء الكل

وكان المهدي لا يغفل طرفة عين عن مراقبة حركات الجيش فلما اتاهُ خبر قيام هكس من الدويم أمر اصحابهُ فخرجوا من الابيض الى ساحة في شرقي المدينة ثم خرج بنفسهِ ونزل تحت شجرة شهيرة من شجر التبلدي وانتدب اربعة من كبار قوادهِ وهم: محمد عثمان الشهير بأبي قرجة وشيخ فضلو احمد وعبد الحليم مساعد وعمر ود الياس باشا ومعهم نحو ٣٠٠٠ رجل وامرهم بالتوجه الى حيث تكون الحملة وتعقُّب حركاتها وعدم محاربتها في واقعة بل ان يناوشوها القتال ويمنعوا اهل البلاد من الانضمام اليها ويوافوهُ بالاخبار تباعاً . فصدعوا بالامر ووافوا الحملة بالقرب من العقيلة في ١١ اكتوبر فلازموها من ذلك الوقت وصاروا اذا سارت ساروا وراءها وطمروا الابار بعدها واذا وقفت وقفوا بعيداً عنها وناوشوها القتال وما تطرف احد منها الاَّ قتلوهُ حتى ان الجمال لم تستطع المرعى لانحصارها في المربع فجاعت واكلت قش رحالها وخارت قواها فمات كثير منها وبدأ اللغط في الجند من ذلك الوقت

فايقنوا بالخذلان وتوقعوا العواقب الوخيمة وصاروا كلما توغلوا في البلاد زاد خوفهم ولغطهم حتى رأوا انهم سائرون حتماً الى حتفهم وما زالوا كذلك حتى وصلوا الى منهل الرهد في ٢٠ اوكتوبر سنة ١٨٨٣ فنزلوا في جنوبيهِ ونزل امراء الدراويش قبالتهم في شماليهِ وذهب احدهم عبد الحليم الى الابيض فاخبر المهدي بما كان من امرهم

وفرَّ من الحملة قبل وصولها الى الرهد بقليل خادم مكاتب الدالي نيوز وهو صف ضابط الماني اسمهُ كلوتس فذهب الى المهدي في الابيض واخبرهُ ان الحملة في يأس وخوف شديد فايقن المهدي انهُ غالب لا محالة وامر كلوتس باعتناق الاسلام ففعل فسماهُ مصطفى و بقي في الاسر الى ان حاول النجاة من القلابات فمات في الطريق

واقام هكس في الرهد ستة ايام ينظر في طريق الحملة الى الابيض ولم يكن للأبيض من الرهد الا طريقان : طريق الملبس وطريق البركة فقر الرأي على اختيار طريق البركة لانها اغزر ماء فسار بالجيش قاصدًا المنهل المذكور وارسل في الطريق احد الخبراء ومعهُ عبد الى الابيض للاستعلام عن قوة المهدي ووجهتهِ ووصل بالجيش الى منهل علوبه الاثنين في ٢٩ اوكتوبر فوجد فيهِ ماء غزيرًا فأقرَّ على البقاء فيهِ الى ان يعود الخبير بخبر المهدي ٠ فلما كان يوم الخميس ١ نوفمبر عاد العبد وحدهُ ومعهُ ١٥٠٠ نسخة من كتاب كتبهُ المهدي الى هكس وجنودهِ وهذه صورتهُ :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

« و بعد فمن عبد ربه الفقير المعتصم بمولاه محمد المهدي بن عبدالله الى من يسمع من أهل الجردة ممن لهُ عقل فانهُ لا يخفى على ذي عقل ان الامر بيد الله لا يشاركهُ في ذلك بنادقُ ولا مدافع ولا صواريخ ولا عصمة لاحد الاَّ من عصمهُ الله تعالى فاذا فهمتم ذلك فاعلموا ان الله واحد فلا تغتروا بأسلحتكم ولا بجنودكم التي تريدون ان تقاتلوا بها جنود الله فان لا قوَّة لشيء دون الله وان قلتم ان مهديتنا مكذوبة فاعلموا ان الكذب انما يصدر ممن يحب الدنيا ويخاف المخلوق ويستعجز قوَّة الله فاذا فهمتم ذلك فلا تغرَّنكم أقوال علمائكم فان الترك الذين قتلتهم شكوا للحق عزَّ وجل وقالوا يا الهنا ومولانا ان المهدي قتلنا من غير انذار فأقول انذرتهم يا رب فلم

يسمعوا وحضر على ذلك شاهدًا سيد الوجود (صلعم) وقال لهم الامام المهدي أنذرتكم فلم تسمعوا لهُ وسمعتم قول علمائكم فذنبكم عليكم فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون فقال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدي اذ جاءكم بل كنتم مجرمين فان كان لكم نورٌ تؤمنون بالله ورسولهِ والدار الآخرة وتصدقوا بهديتنا وتخرجوا الينا مسلمين ومن سلّم يسلم وان ابيتم الاّ الجحود والاغترار بالمدافع والبارود فأنتم مقتولون كما أخبر سيد الوجود واسوتكم بمن سبقكم من الجنود والسلام »

فلما أطلع هكس على الكتاب مزّقهُ واحرق نسخهُ كلها . وسأل العبد عن الخبر فقال ان المهدي امر بقتلهِ وهو يستعد لمقابلة الجيش بطريق البركة

﴿ واقعة شيكان في ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ ﴾ ولما كان يوم الخميس ١ نوفمبر وهو يوم وصول العبد الى علوبه استعمل المهدي على الابيض احد اقاربهِ عبد الله ود الصمد وخرج بجيش ينيف على ٥٠ الفًا قاصدًا البركة فسار حتى نزل بمنهل فرتنقول وهو منهل قليل المياه جدًّا حتى ان المسافرين كانوا اذا نزلوا بهِ لا يكاد يكفي العشرين منهم فضلاً عن دوابهم قالوا فلما نزل المهدي بهِ ورأى قلة الماء صفر فخرج منهُ ماء غزير أروى تلك الجيوش وفاض حتى سقوا رواحلهم وملأوا قربهم !!!

ثم بلغ المهدي وهو بالمنهل المذكور ان الجيش قاصد منهل البركة وجاد السير ليسبقهُ اليهِ فأمر في الحال محمود بن عبد القادر من اقاربهِ وضوء الدين بن عبد الله رئيس النواب ومن معهما من اهل رايتهما فجدوا السير حتى وصلوا المنهل المذكور الجمعة في ٢ نوفمبر ثم ارتحل المهدي بباقي اصحابهِ صبيحة يوم السبت ٣ نوفمبر من منهل فرتنقول وفي ظهر ذلك اليوم نزل بمنهل البركة

وكان هكس لما علم من العبد ان المهدي قاصد البركة ارسل اليها رسلاً من علوبه لتحقيق الخبر فعادوا واخبروا ان الدراويش قد احتلوها فجمع هكس اذ ذاك الضباط والخبراء فعدلوا عن طريق البركة واقروا على طريق الملبس التي تمر بشيكان فخرجوا من علوبة فجر السبت في ٣ نوفمبر وساروا عشرة اميال ثم وقفوا وزربوا زريبة

متينة و باتوا فيها الى صباح الاحد و بات الدراويش المطاردون لهم بالقرب منهم

اما المهدي فانهُ عند وصوله الى البركة ظهر يوم السبت كما مرَّ اتاهُ ابراهيم الحاج الشهير بالترجماوي ومعهُ جماعة وقالوا لهُ يا سيدي يقول الناس ان الترك عدلوا عن طريق البركة وقصدوا مدينة الابيض ليستأصلوا من فيها ويحوزوا النساء والذرية حتى شاع الخبر في الجيش وارجف الناس بذلك فلنتوجه الى الابيض قبل الترك . فالتفت المهدي وقال ايها الناس أنصتوا ثم بصق في كفهِ اليسرى وقال اي شيء هذا قالوا بصاق يا سيدي ثم طرحهُ على الارض فشربتهُ في الحال فقال للناس هل ترون لهذا البصاق أثرًا فقالوا لهُ لا فقال نحن كالارض والترك كالبصاق . ثم قال اذا طار طائر فاين ينزل فقالوا لهُ على الارض فقال لهم ان الترك كالطائر ونحن كالارض أيها الناس اثبتوا واطمأنوا ونزلوا رواحلكم واستريحوا فان الترك لا قدرة لهم مع قدرة الله ثم قال غدًا يوم الاحد نتوجه اليهم وفي صبيحة الاثنين بعد ان نامركم بمحاربتهم اذا تأخر احدكم لاصلاح نعلهِ لم يدركهم احياء . ثم جمع المهدي جميع الفرسان واهل الاسلحة النارية فضمهم الى ابراهيم الترجماوي المذكور وارسلهم نجدة للسرية المطاردة الجيش في عشية ذلك اليوم (السبت) فوصلوها صباح الاحد في ٤ نوفمبر فوجدوا اخوانهم محيطين بالجيش من كل جانب احاطة السوار بالمعصم فزادوا في حصرهِ . وفي هذا اليوم قبيل الصبح ارتحل المهدي بكل جيوشهِ من البركة قاصدًا الجيش ونزل في منهل شيكان عند الضحى ويسمى هذا المنهل ايضًا بمنهل أم مصارين فلما نزل المهدي بهِ قال لهُ بعض اصحابهِ يا سيدي هذا المحل يدعى بمنهل أم مصارين فقال ان مصارين الترك تصب فيهِ

وكان هكس لما اصبح صباح الاحد المذكور قد خرج من الزريبة التي كان بائتًا فيها واستطرد السير نحو منهل شيكان وهو لا يدري ان المهدي قد احتلهُ بجيوشهِ فما سار ساعة حتى خرج من جيش المهدي حمدان ابو عنجه وعبد الله ود النور وفوزي أحد كتاب المهدي بمن معهم من الانصار المسلحين بالاسلحة النارية وبينهم عدد وافر من الفرسان وحملوا حملة صادقة على ساقة الجيش حيث المهمات والذخائر فاختلطوا

بالعساكر فدارت عساكر المقدمة عليهم وهزمتهم ولكنهم تمكنوا من اخذ بعض الخيول والجمال والازواد وقد قتل منهم في تلك الهجمة اربعة بينهم فوزي كاتب المهدي وجرح عبد الله ود النور وقتل من الجيش رجب بك قومندان الالاي الرابع ونفر من العساكر . وزرب الجيش في محل الواقعة زريبة من شوك واقام فيها قيل ولما رأى اصحاب المهدي ما حلّ بالجيش من التزلزل والاضطراب رغبوا من المهدي ان يأذن لهم في الحملة عليهم مرة واحدة في ذلك اليوم فقال لهم اخبرني سيد الوجود ان الترك لا يموتون كلهم اليوم وانما هلاكهم يكون غداً الاثنين . وبقي اصحاب الاسلحة النارية منهم محيطين بالجيش يرمونهُ بالرصاص بقية ذلك اليوم وليلة الاثنين الى الصباح فحملوهُ خسارة تذكر وكان في جملة من قتلوهُ جورجي بك الحكيم . فرأى هكس ان الاقامة في تلك الزريبة لا تجدي نفعاً ولم يكن يدري أي سبيل يتبع فجمع مجلساً من الضباط العظام والملكية الذين صحبوهُ فلم يقروا على رأي وكثر اللغط بين الجند وتسلط الرعب على قلوبهم واشتد بهم العطش لبعدهم عن الماء فايقنوا بالهلاك . فعوَّل هكس اذ ذاك على المسير تحت رحمة الله نحو منهل شيكان . وقيل ان الخبراء الذين كانوا معهُ كان بينهم وبين المهدي مواطأة سرية فقادوا الجيش في الطريق التي دلهم عليها المهدي

فلما كان ضحى الاثنين ٥ نوفبر سنة ١٨٨٣ خرج هكس بجيشهِ من الزريبة بثلاثة مربعات على شكل مثلث متساوي الاضلاع في كل زاوية مربع وبين المربع الواحد والآخر ٣٠٠ ياردة وفي وسط كل مربع مهماتهُ وذخائرهُ . وسار هكس وأركان حربهِ في مقدمة الجيش يتبعهُ بعض الطوبجية بأربعة مدافع ومن وراء المدافع المربع الاول ثم المربعان الآخران واحد الى اليمين وواحد الى اليسار وكان السواري يحمون المؤخرة والجوانب المكشوفة من المربعات . وما سار الجيش على هذا الترتيب نصف ساعة حتى دخل وادياً مفتوحاً شائكاً وعلى كل من جانبيهِ غابة كثيفة فجعل المهدي معظم جيشهِ في تينك الغابتين عن يمين الجيش وشمالهِ وجعل الباقي في وسط الوادي في طريق الجيش وعليهم عبد الرحمن النجومي وكان محمد ابو قرجه

ومن معـهُ من الانصار لم يزالوا متتبعين الجيش من الوراء فأصبح الجيش مكتنفاً بجيوش الدراويش من الجهات الاربع . وكان المهدي لما رأى الجيش من بعيد جمع امراءهُ لآخر مرة وصلى امامهم ثم رفع سيفـهُ ونادى الله اكبر عليهم ثلاثاً ثم قال احملوا عليهم ولا تخشوا نيرانهم فان ارواحهم مزملة ونيرانهم لا فعل لها وانكم لظافرون عليهم باذن الله فما دخل الجيش ذلك الوادي حتى حملوا عليهِ حملة واحدة من كل جهة فاخترقوا صفوفهُ واوقعوا الفشل في العساكر واخذوا يقتلونهم طعناً بالرماح وضرباً بالسيوف واستفرسوا في القتال فلم يمضِ ساعة حتى قتل الجيش برمتهِ وفيهم هكس واركان حربهِ وعلاء الدين باشا وجميع الضباط المصريين والافرنج وقد تراكمت جثث القتلى في محل الواقعة كالتلال ولم ينج من الجيش كلهِ الا ملازمان (وهما محمد افندي صلّي من المنصورة وقد فرَّ بعد ذلك من الخرطوم الى مصر واحمد افندي عزمي وقد مات في كردوفان) ونحو ثلاثماية جندي اختبأوا بين الاشجار ودواب الحملة والقتلى فوقعوا كلهم في الاسر . وعند نهاية الواقعة قطعوا رأس هكس وحملوهُ الى المهدي . وقد قاتل هكس واركان حربهِ وجميع رجال الجيش ما استطاعوا الى القتال سبيلاً وماتوا مشرفين موت الابطال بعد ان قتلوا من الدراويش نحو مئتي رجل منهم ابو اميَّة والطاهر وغيرهما من اقارب المهدي وضوء الدين بن عبد الله رئيس النواب وهو من اصحاب المهدي السابقين ومحمـد وعبد الرحمن ابنا النصري وعثمان بن عم الخليفة محمد شريف وعبد الرحيم أحد المادحين للمهدي وغيرهم فنقلوا الى محل المهدي فأمر بدفنهم بما عليهم من الثياب . ثم أمر المهدي فجمعت الغنائم ونقلت الى البركة فكان منها شيء كثير من الاسلحة والجبخانة والمدافع والميرة * وأقام المهدي بشيكان الى يوم الاربعاء ثالث يوم الواقعة ثم خرج منها عائداً الى منهل البركة فأقام فيه بضعة عشر يوماً وهناك فرَّق الغنائم بين اصحابه بعد اخراج الخمس منها لنفسهِ

ثم عاد الى الابيض بالمدافع والذخائر والاموال فدخلها باحتفال شائق وكتب الى عماله في الجهات مبشراً اياهم بالنصر الذي آتاهُ الله عن يدهِ في قتلة هكس وهذه صورة ما كتبهُ الى عثمان دقنه في ١٠ ربيع اول سنة ١٣٠١ ٩ يناير سنة ١٨٨٤

« ومن خصوص الجردة المصرية التي بلغكم أنها حضرت الينا من طريق الخرطوم وصلتنا وحصل الظفر عليها بأمر الله تعالى وقتلناها عن آخرها شر قتلة بما فيها من الرؤوس الكبار أحدهم علاء الدين الحكمدار والثاني هكس النصراني والثالث حسن وغيرهم من الضباط والآن جميع مدافعهم واسلحتهم بيدنا وهي شيء كثير جداً وكان هلاك المذكورين في يوم الاثنين ٤ محرم سنة ١٣٠١ﻫ بجهة غابة (شيكان) وعددهم كما قيل ستة وثلاثون الفاً (؟) فانقرضوا في أقل من ساعة واشتعلت النار في أجسامهم بأمر الله السماوي هذا وأفيدونا بأحوالكم والسلام » اه

﴿ اخلاء السودان ﴾ وكان هذا الانخذال العظيم الذي اصاب الحكومة في شيكان قد قضى على نفوذها في السودان القضاء المبرم فان عقلاء أهل الجزيرة وغالب أهل الخرطوم والسودان كانوا قبل هذه الواقعة يترددون في اتباع محمد احمد وينتظرون حربهُ مع هكس فلما علموا بما اصاب هكس وجيشهُ ورأوا عجز الحكومة عن اذلالهِ انقطع كل رجاء لهم في الحكومة ووفدوا على المهدي بالابيض أفواجاً يبايعونهُ وفي جملتهم الملك آدم أم دباله ملك جبال تقلي . وانتشر خبر المهدي في العالم الاسلامي كلهِ فجاءتهُ الوفود من الحجاز والهند وتونس ومراكش لزيارتهِ وتحقيق دعوتهِ

أما الحكومة في الخرطوم فانها عند سماعها خبر هلاك هكس اضطربت وارتاعت وأرسلت بالخبر تلغرافياً الى مصر وبعثت وابوراتها في النيل الابيض فانتشلت عساكرها من فاشودة والكوة وشات والدويم الى الخرطوم وشرعت في زيادة تحصين الخرطوم

واما الحكومة في مصر فقد رأت انها لا تستطيع سحق المهدي واعادة النظام الى السودان بعد الآن الا بجيش جرار من الجنود النظامية المجربة ولم يكن هذا الجيش متوفر لديها لا سيما بعد الذي صارت اليهِ مصر بسبب الثورة العرابية من الضعف وتضعضع الاحوال . وكانت الحكومة الانكليزية قد أرسلت الكولونل ستيورت من ضباطها العظام الى الخرطوم في اواخر سنة ١٨٨٢ فدرس احوال السودان درساً دقيقاً وارسل لها تقريراً بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٨٨٣ نظر فيهِ ملياً في حالة السودان المالية والادارية وبيّن وجوه الخلل وطرق الاصلاح وعجز المصريين عن حكم السودان وحدهم .



﴿ السر رودلف سلاطين باشا ﴾

مفتش السودان العام

فأقرّت الحكومة اذ ذاك على اخلاء السودان واسترجاع عساكرها من الحاميات كما سيجي

ثم ان المهدي لم يقتصر على بث الرسل والكتب الى الجهات لاذاعة النصر الذي ناله في شيكان بل ارسل السرايا الى الجهات كدارفور وبحر الغزال وبربر ودنقلة وغيرها لاخضاع الحاميات المصرية فيها واحتلال البلاد باسمهِ وارسل الى كبراء المشايخ في جزيرة سنار لحصر الخرطوم واخذ يستعد للزحف بنفسهِ عليها فلنبدأ الآن ببيان ما كان من الثورة في تلك الجهات قبل زحف المهدي على الخرطوم فنقول :

الفصل التاسع

في

﴿ وقائع الثورة في دارفور سنة ٢ : ١٨٨٤ ﴾

كان آخر عهدنا بدارفور اخماد ثورة الامير هارون على يد سلاطين والنور عنقره وكان سلاطين اذ ذاك مديرًا على داره والنور عنقره مديرًا على كبكيَّة والمدير العام على الفاشر مساداليه بك والوالي على السودان غوردن باشا فلما تولّى رؤوف باشا السودان عزل مساداليه بك فقام على مديرية الفاشر الميرالاي علي بك شريف المار ذكرهُ في حصار الابيض الى ان سُمي سلاطين باشا مديرًا عامًا على دارفور فوصل الفاشر في ٢٠ ابريل سنة ١٨٨١ وتولّى زمام الاعمال فعزل النور بك عنقره عن كبكية لشكاوى وُجّهت عليهِ من ضباطها وارسلهُ الى كردوفان فكان من امرهِ فيها ما قدمناهُ فبقي البكباشي آدم افندي عامر السوداني قومندانًا على الحامية وسمي محمد بك زقل من اقارب المهدي مديرًا على داره مكان سلاطين . ثم لم تكن الا هنيهة من الزمن حتى ظهرت الثورة المهدية وامتدت شعلتها الى دارفور فكان لسلاطين فيها من الشأن ما فصّلهُ في كتابهِ « السيف والنار في السودان » احسن تفصيل

﴿ ثورة الشيخ مادبو ﴾ وكان اول من أوقد نار الثورة في دارفور الشيخ مادبو احد مشايخ الرزيقات المار ذكرهُ هاجر الى المهدي في قدير فحضر معهُ واقعة الشلالي وعاد منهُ اميرًا على دارفور فرفع راية المهدية فيها فاجتمع عليهِ خلق كثير وكان في

شكا حامية عسكرية عليها يوسف افندي منصور قومندانًا فنازل الحامية فخرج عليهِ نفر منها فقتلهم وتقوى بسلاحهم وذلك في ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٢

﴿ واقعة أم ورَيقات ﴾ فلما اتصل الخبر بسلاطين اسرع الى دارة فأخذ بعض عساكرها وقصد مادبو حتى وصل منهل الضعين فبلغهُ انهُ نازل بالقرب منهُ فعمل زريبة من شوك وتحصن فيها فعلم بهِ مادبو وكان بينهُ وبين سلاطين مودة قبل المهدية فكتب اليهِ ينصحهُ بالتسليم ويقول «ان البلاد كلها اصبحت للمهدي والاجدر بك ان تسلم فتسلم والا فلا بدَّ لي من محاربتك وان كنت صديقي » فلم يجبهُ سلاطين على كتابهِ بل قال للرسول اذهب الى مادبو واخبرهُ ان ليس بيني وبينهُ الاَّ السيف ثم تجسس جيش مادبّو فوجدهُ قويًّا لا طاقة لهُ بحربهِ لقلة رجالهِ فرجع الى دارة لاخذ الاهبة لنفسهِ . ورجع اليها ايضًا يوسف منصور فارًّا من شكا فوبخهُ سلاطين لتركهِ حاميتهُ بلا اذن . وجمع من دارة وباديتها ٢١٥٠ من العساكر النظامية والبازنجر و ٧٠٠ من العربان المحابة كالبيقو والبرتات والبرقد و ٤٠٠ فارس من الزغاوة والمسيرية والداجو والمعالية ومدفعًا جبليًّا وعاد قاصدًا مادبّو وكان مادبّو قد كمن لهُ في ارض شائكة موحلة على طريق شكا تعرف « بأم وريقات » فلما دنا من الكمين فاجأهُ بالهجوم عليهِ وكان سلاطين قد جعل عسكره على شكل مربع ولكن كان اكثرهُ من البازنجر وعربان البادية فلم يحفظوا النظام الذي أُمروا بهِ فدخل عربان مادبّو في وسطهم وفتكوا بهم فتكًا ذريعًا حتى لم يبقَ منهم سوى ٩٠٠ رجل من نظامية وبازنجر وذلك في أقل من نصف ساعة وكانت الواقعة يوم سبت في اواخر اوكتوبر سنة ١٨٨٢ . وقد أُصيب سلاطين برصاصة في بنصر يدهِ اليمنى فذهبت بها وجرح برصاصة في فخذهِ فجمع بقية جيشهِ وكان بينهم كثير من الجرحى فتحصن بهم في تل قريب من محل الواقعة الى ان تماثل الجرحى فرجع بهم الى دارة كل ذلك ومادبّو لا يزال يهاجمهُ ويطاردهُ على التل وفي الطريق وهو يصدّهُ ويدفع غاراتهِ حتى دخل دارة

﴿ عصيان حامية دارة ﴾ وكان قد ترك في دارة حامية مؤلفة من ٤٠٠ من العساكر المنظمة و ٢٥٠ من البازنجر و٣٠ فارسًا و٧ مدافع فوجدهم قد تغيرت حالهم

ومالوا الى العصيان وكان قد بلغهم خبر ثورة عرابي في مصر واخراج الخديوي منها لمصادقتهِ النصارى فارادوا ان يفعلوا مثل ذلك بسلاطين خصوصاً بعد انتصار مادبو عليهِ . ثم لم يكن الا القليل حتى جاء خبر سقوط الابيض فسرى روح الثورة في جميع بلاد دارفور وازداد عساكر الحامية عتوًّا ولم يمنعهم عن المجاهرة بالثورة والفتك بسلاطين الا ما بلغهم بعد قليل من عزم الحكومة على ارسال جيش جرار لسحق المهدي في كردوفان ولكن كان بينهم جماعة من اهل دارفور فاتفقوا على الفرار الى دود بنقه الذي قام في جبل مرّة بعد الامير هارون كما مرّ وجاهروا بالعصيان قائلين « اننا لا نرضى ان يحكمنا نصراني » فامر سلاطين بمحاكمتهم بمجلس عسكري فحكم المجلس بقتلهم وصدقهُ سلاطين فقتلوا

﴿ اسلام سلاطين ﴾ ومع ذلك لم يزدد العساكر الا عتوًّا ونفورًا وقد اثرت ثورة عرابي تأثيرًا ثابتاً في اذهانهم وايقنوا انهم انما خذلوا في واقعة ام وريقات لان رئيسهم نصراني فرأى سلاطين انهُ لا يمكن استرجاع سلطتهِ عليهم وهو نصراني فجمعهم ووقف بينهم خطيباً وقال « اعلموا اني مسلم مثلكم واشهد ان لا اله الا الله وان محمدًا رسول الله » ففرح العساكر باسلامهِ وعادوا الى طاعتهِ

﴿ بعثة زُقل الى المهدي ﴾ ولكن اهل دارفور في الخارج لم يزالوا على العصيان وتيقن سلاطين انهُ لا يمكن ردّهم الى الطاعة والولاء الا اذا كُسرت شوكة المهدي في كردوفان وكان قد بلغهُ خبر حملة هكس فاصبحت آمالهُ كلها معلقة بها فأحبّ مخاطبة هكس ليعلمهُ بحالهِ ويستحثهُ على انقاذهِ ولكن كان يخشى شرّ محمد خالد زقل مدير دارة لانهُ من اقارب المهدي وكان بينهُ وبين المهدي مخاطبات سرّية فاراد سلاطين التخلص منهُ من جهة والاحتياط للمستقبل من جهة ثانية فخلا بهِ واخبرهُ بانهُ عالم بعلاقتهِ مع المهدي وقال لهُ اني مرسلك الى الابيض لمنع المهدي من ارسال جيش الى دارفور او تحريض اهلها على الثورة فاذا غلبهُ هكس واسترد منهُ البلاد فانا شفيعك عند الحكومة والا فالبلاد من نفسها تسلم للمهدي وخيرٌ لهُ ان يأخذها عامرة من ان يأخذها خربة وفي الوقت نفسهِ اعطيك كتاباً ترسلهُ الى

هكس ليعلم بحالنا ويعجل في انقاذنا » فسرّ زقل بهذا الرأي واراد سلاطين ان يجعلهُ برأي اهل الحامية ليقيّدهم بهِ فعقد مجلساً من الضباط والاعيان وعرضهُ عليهم فصدقوهُ وكتبوا كتاباً الى المهدي يعدونهُ بالتسليم وكتاباً الى هكس يستعجلونهُ لنجدتهم فحمل زقل الكتابين وذهب بهما الى المهدي في الابيض . فلما رأى سطوة المهدي والعزّ الذي صار اليهِ في كردوفان نبذ سرّ سلاطين ظهرياً واتحد مع المهدي قلباً وقالباً وارسل سرًّا الى احد اصدقائهِ في دارة يخبرهُ بما رأى من سطوة المهدي ويقول لهُ قم واحضر بعائلتي الى الابيض مستعيناً بمادبو فلما علم سلاطين بذلك حبس عائلة زقل في منزلها واستصفى اموالهُ والقى القبض على بعض اقاربهِ في دارة وزجهم في السجن

﴿ واقعة كرشو ﴾ ولنرجع الآن الى مادبو فانهُ بعد دخول سلاطين في دارة نزل في كرشو على يوم ونصف يوم جنوبيها فخرج عليهِ سلاطين ببعض عساكرهِ وباغتهُ الهجوم فهزمهُ وعاد الى دارة بكثير من الاسلاب والغنائم

﴿ واقعة البوَيرة ﴾ وعاد مادبو فجمع جموعهُ في مكان يقال لهُ البويرة في دار رِقر فجرد عليهِ سلاطين ٤٥٠ من الجهادية و١٥٠ من البازنجر وفتك بهِ واوقع الفشل في جيشهِ ففرّ حافي القدم عاري الرأس على جواد بلا سرج وغنم سلاطين جميع امتعتهِ وفيها نحاسهُ فعظم على مادبو فقد نحاسهِ لان ذلك عار عليهِ فجمع العربان من جديد وتقدم لمناوأة سلاطين في دارة واسترجاع نحاسهِ

﴿ عقد الصلح ﴾ ولم يكن سلاطين يقوى عليهِ لقلة رجالهِ ولا كان من الممكن الخروج بجميع العساكر وترك دارة بلا حامية فالتجأ الى الحيلة وجمع مشايخ العرب تحت شجرة خارج دارة وعقد معهم صلحاً وكتب بمعرفتهم كتاباً الى المهدي يسألهُ ارسال رجل من قبلهِ ليسلمهُ البلاد قائلاً انهُ لا يستطيع ان يسلمها الى العرب الذين حاربهم مخافة ان ينتقموا منهُ

وفي هذه الاثناء جاء سلاطين ورقة صغيرة من علاء الدين باشا يقول فيها « ان سمو الخديوي قد سماك قومنداناً عاماً على العساكر في دارفور وان من عزم الحكومة ارسال قوة كبيرة لسحق المهدي في كردوفان وتسكين الثورة » فارسل صورة منها الى

الفاشر وكبكبية فقرئت الناس جهاراً واطلقت المدافع عند قراءتها « وكانت الحكومة قد ارسلت اليـه امراً بتسمية احد امراء دارفور سلطاناً على البلاد وحشد عساكر الحاميات كلها في الفاشر والعودة بها الى الخرطوم ولكن هذه الرسالة لم تصلهُ

تسليم دارة في ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م

ثم لم يكن الاّ القليل حتى كانت واقعة شيكان فاهتزت لهـا دارفور وارسل المهدي محمد خالد زقل عاملاً عاماً على دارفور بجيش عظيم فجاءها بطريق أم شنقه وكان فيها حامية صغيرة فسلمت لهُ. ثم سار منها قاصداً داره فنزل في حلة شعيريّة مسيرة يوم من دارة وكتب الى سلاطين يدعوهُ الى التسليم فحضر اليهِ مسلماً وذلك في ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٣ فأكرمهُ وذهب بهِ الى دارة فسلمت اليهِ . وكان فيها ٥١٠ من العساكر النظامية والباشبوزق وشيء قليل من الذخيرة. وانتشر جيش زقل في المدينة يجمعون الغنائم فجردوا اهل الحامية وعذّبوا من اخفوا اموالهم أو ظنوا انهم اخفوها وحمّلوهم ما لا يطاق « واخبرني من اثق بهِ وذكرهُ فوزي باشا في كتابهِ » ان سلاطين باشا لما رأى ما اتاهُ زقل من تعذيب المصريين طار صوابهُ وذهب اليهِ في دارهِ وقال لهُ جهاراً « لو علمت انكم تعاملون ضباطي هذه المعاملة لصليتكم حرباً يشيب لهولها الطفل وسمحت بموت هؤلاء الرجال في ساحة الحرب وانا على يقين من أن الواحد منهم لا يموت الا بعد ان يقتل عشرة منكم » فأخذ زقل يلاطفهُ وأوصى بتخفيف العذاب عن البعض واطلق البعض »

﴿ تسليم كبكبيَّة ﴾ وكان زقل قد كتب من شعيرية الى السيد بك جمعة في الفاشر والى آدم عامر في كبكبية يدعوهما الى التسليم وطلب من سلاطين ان ينصحهما بذلك ففعل فأرسل آدم عامر مفاتيح الخزينة والشونة والجبخانة علامة على التسليم ثم حضر مسلماً بمن معهُ من العساكر

تسليم الفاشر في ١٤ يناير سنة ١٨٨٤

واما السيد بك جمعه فانهُ رفض التسليم ودافع عن حاميتهِ اياماً حتى اضطر الى التسليم عطشاً وقد رأيتهُ سنة ١٨٩٨ بعد واقعة أم درمان وسألتهُ عن كيفية دفاعهِ

وتسليمهِ الى زقل فقال : « لما ذهب سلاطين من الفاشر لتأديب مادبو عند اول ظهور الثورة بقيت انا على الفاشر فقام رجل في كربو على ست ساعات منا يقال لهُ «ابو ود جوده فات» البرناوي وجمع جموعهُ واشهر العصيان فجرّدت عليهِ ونكلت بهِ وفرقت جموعهُ . ولكن لم يكن الاّ القليـل حتى هبّ للثورة جلُّ اهل الدار من حضر وبادية فاجتمعوا على الملك حسب الله ملك زغاوة والسلطان جدُّوه سلطان ميمة والشيخ حسب الله من الماهرية وكوع النمر من الزيادية ونزلوا في وادي بيره على ساعتين جنوبي الفاشر يريدون حصرنا فخرجت عليهم بمعظم العساكر وضربتهم ضرباً شديدًا وشتتُّ شملهم ثم عادوا فتجمعوا على السلطان جدُّوه وحصروا الفاشر من كل الجهات واحرقوا المنازل المجاورة للاستحكام فصليتهم نارًا حامية من المدافع والبنادق ورددتهم على اعقابهم خاسرين . ومن ذلك الحين لم يعد احد يجسر على مهاجمتنا حتى حضر محمد خالد زقل وطلب منا التسليم فلم نرضَ بهِ ولا صدقنا ما قالهُ لنا من تسليم سلاطين اليهِ وصممنا على الحرب وكتبنا الى عساكر كبكية للانضمام الينا ولكن خرج منا عمر أغا ود ترحو من سناجق الشايقية مسلمًا ولم نكن نعلم بما كان من عساكر كبكية فخفنا ان عمر ترحو يخبر زقل بما كتبناهُ اليهم فيقطع الطريق عليهم ويصدهم عن الوصول الينا فكتبنا الى زقل نخادعهُ بانا مسلمون ثم حضر فقابلناهُ بالرفض واشتعل بيننا قتال شديد دام ٤٨ ساعة اطلقنا فيها الف قبلة عدا ما اطلقنا من الرصاص فهزمناهُ الى وادي بيرة حيث اقام ١٨ يوماً حتى اتاهُ المدد من دارة وكان عساكر كبكية قد انضموا اليـه فاعاد الكرة علينا وحصرنا في الاستحكام وكان استحكامنا منيعاً وعندنا من الدرة ما ينيف على ٦ آلاف اردب ولكن اعوزنا الماء. وقد كنا في بادئ الامر نستقي الماء من آبار في الخور خارج الاستحكام فلما حضر زقل لحصرنا هذه المرة سدّ الآبار فشرعنا في حفر بئر داخل الاستحكام اوصلناها الى عمق ٦٠ قامة ولم نظفر بالماء لان الاستحكام قائم على تل رملي فعطشنا ودام القتال ثمانية ايام متوالية حتى صار العساكر يموتون عطشاً فعقدت اذ ذاك مجلساً من ضباط الحامية للنظر في رأي تكون فيهِ نجاتنا فلم نرَ بدًّا من التسليم فكتبنا بذلك كتاباً الى

زقل يوم الاحد في ١٤ ربيع الاول سنة ١٣٠١ هـ ١٣ يناير سنة ١٨٨٤ م

وفي اليوم التالي الاثنين فتحنا الابواب وكان في الحامية اذ ذاك ٥٠٠ رجل من الجهادية و١٠٠ من الطوبجية على ١٢ مدفعاً فوق ستة ابراج ونحو ٦٠ رجلاً من الملكية فدخل الدراويش علينا وصادرونا في اموالنا وامتعتنا وقد استنطقوا جميع الضباط والسناجق والاعيان ليدلوهم على اموالهم ومن انكر عذبوهُ حتى اعترف او مات فضربوا الصاغ حمادة افندي من ضباط الطوبجية حتى فاضت روحهُ . وقبضوا على سعيد أغا الفولي وابراهيم أغا بُرل ولما لم يعترفا باموالهما شرعوا في ضربهما بالسياط فطلبا مهلة ريثما يذهبان ويحضران المال فذهب كل منهما الى منزلهِ وانتحر »

ووزع زقل العساكر على العربان وارسل سلاطين باشا الى المهدي في كردوفان فادركهُ في الرهد فبايعهُ فسماهُ عبد القادر سلاطين وامرهُ بلزوم باب التعايشي والائتمار بامرهِ ثم ارسل بعدهُ السيد بك جمعة فادركهُ في الطريق غازياً الخرطوم ؟

﴿ تسليم دود بنقة الى زقل ﴾ هذا وكان السلطان دود بنقة لا يزال مقيماً باتباعهِ في جبل مرّة فكتب اليه زقل يدعوهُ الى التسليم فأبى فجرد عليهِ سرية بقيادة أدم عامر مدير كبكبية سابقاً وذلك في اواخر يونيو سنة ١٨٨٤ فدعاهُ الى التسليم فاجابهُ : « اني قاومت الحكومة المصرية التي هي أشد بأساً من الدراويش واعظم قوة منذ موت السلطان هارون الى اليوم ولم يكن زقل اذ ذاك الا عبداً في سلطنة آبائي فدع عنك النصح وما يحكم بيننا الا السيف » وكان دود بنقة متحصناً في طابية منيعة في رأس جبل طره فهاجمهُ آدم عامر فصدّهُ عنهُ بعد ان اذهب نصف قوّتهِ فكتب آدم الى زقل في طلب المدد فاستدعاهُ الى الفاشر وارسل مكانهُ عمر أغا ود ترحو الشايقي المتقدم الذكر بجيش كبير وكان عمر أغا متزوجاً باحدى بنات السلطان ابراهيم فكتب الى دود بنقة ناصحاً اياهُ بالتسليم فطلب مقابلتهُ فاتاهُ واقنعهُ بوجوب التسليم فقال لهُ دود بنقة سر امامي بعساكرك وانا اتبعك فسار عمر أغا وتبعهُ دود بنقة برجالهِ الى الفاشر فسلم الى زقل فارسلهُ الى المهدي في الخرطوم وذلك في سبتمبر سنة ١٨٨٤

وبقي زقل في دارفور لا ينازعهُ فيها منازع الى ان مات المهدي واستدعاهُ الخليفة عبد الله الى أم درمان واذلّهُ وكان من امرهِ ما سنذكرهُ بالتفصيل

الفصل العاشر

في

﴿ وقائع الثورة في بحر الغزال سنة ٢ : ١٨٨٤ م ﴾

تركنا بحر الغزال سنة ١٨٧٩ م ولبتن بك من البحارة الانكليزية مديرٌ عامٌ عليها وساتي بك مدير ومحمود الحلاوي مفتش عام لمنع تجارة الرقيق والبلاد كلها مقسومة الى ثمانية اقسام على كل قسم ناظر ومعهُ نفر من الباشبوزق وفي مركز المديرية اورطتان من الجهادية . وقد قادت التقادير محمود الحلاوي المذكور الى مصر بعد حين فقص عليَّ خبر الثورة في بحر الغزال وكيفية سقوطها في يد الدراويش قال ما ملخصهُ :

﴿ ثورة الجانقية ﴾ ولما بلغ مشايخ الجانقية والجور خبر المهدي ونصرتهُ على رجال الحكومة في أبا وقدير هاجروا اليهِ وبايعوهُ فامرهم بالعودة الى بلادهم وقال لهم « اذهبوا واخرجوا الترك من بلادكم فان الله ناصركم ومتى اخرجتموهم فلتكن بلادكم لكم لا ينازعكم فيها منازع » وكان هذا جلُّ ما يتمناهُ السود اي الحرية والاستقلال لانهم لم يتخلصوا من «البحارة» قبل عهد الحكومة حتى وقعوا في الجباة الباشبوزق في عهدها فعادوا الى بلادهم وجمعوا جموعهم وجاهروا بالعصيان . وكان اول من جاهر بهِ الجانقية في جوار بحر العرب في اوائل سنة ١٨٨٢ فجرد عليهم لبتن بك سرية من العساكر المنظمة والباشبوزق بقيادة محمد افندي النصري معاون المديرية فاوقع فيهم واقعتين خُذِل في الاولى وانتصر في الثانية

﴿ ثورة الشيخ يانكو ﴾ ثم لما ظهر مادبو بالثورة في بلاد شكا قام الشيخ يانكو شيخ مركز تل قونه وهو من مشايخ الداجو فنزل على بعض العساكر الذين كانوا مقيمين بمركزهِ وقتلهم في ١٧ اوغسطوس سنة ١٨٨٢ وفرَّ الى الشيخ مادبو فحضر معهُ واقعة ام وريقات المار ذكرها ثم عاد الى تل قونة ومعهُ جماعة من فرسان

الرزيقات وجاهر بالعصيان . قال الحلاوي فعقد لي لبتن على ١٧٠٠ رجل من نظامية وباشبوزق وامرني بمحاربته . فاوقعت فيه واقعة شديدة وهزمته شر هزيمة وذلك في ٢١ يناير سنة ١٨٨٣ . ثم جمع جموعهُ ونزل على مركز لقي فصدهُ ناظرها بخسارة جسيمة في ١٠ فبراير من السنة المذكورة ففر الى دارفور وانضم ثانية على مادبو

﴿ عود الى الجانق ﴾ وفي هذه الاثناء حضر وابور من الخرطوم الى مشرع الريك لاستطلاع خبر بحر الغزال فجهز لبتن بك ٤٠٠ عبد امرد ومقدارًا وافرًا من سن الفيل وارسلها مع بعض الخفراء الى الوابور في المشرع المذكور ليأخذها الى الخرطوم فلما درى بهم الجانق قطعوا عليهم الطريق فقتلوا الخفراء واخذوا ما كان معهم من الاسلحة والرقيق والسن وذلك في ١٣ فبراير وكان ساتي بك المدير اذ ذاك في جور غطاس فلما سمع بخبرهم جرّد عليهم فقتل منهم وسبى وغنم وعاد الى الجور ثم اجتمع الجور على الجانق ونازلوا لبتن وعساكرهُ في عدة وقائع كان النصر في اكثرها للعساكر

﴿ مكيدة الدناقلة ﴾ وكان في بحر الغزال عدد كبير من الدناقلة متفرقين في جميع جهاتها تجارًا ومتسببين وموظفين وبينهم الفقيه عبد الرحمن بن عوف النصري اخو محمد النصري المار ذكرهُ وهو من خلفاء محمد احمد وقد اقام معهُ مدة في جزيرة أبا وجاء الى بحر الغزال بعد تنظيمها للاقامة فيها مع اخيهِ واقاربهِ وكان يراقب حركات محمد احمد منذ ظهورهِ ويكاتبهُ سرًّا فلما رأى نصراتهِ المتتابعة عزم على جمع الدناقلة في جميع المراكز والمهاجرة بهم اليهِ فضرب لهم موعدًا في ١٢ شعبان سنة ١٣٠٠ ١٨ يونيو سنة ١٨٨٣ يجتمعون بهِ في قندة . وفي هذه الاثناء قام الشيخ الطيب اخو الشيخ يانكو في جهة لقي فارسلني لبتن بك بنفر من العساكر نجدة لناظرها فمررت بقندة ليلة الميعاد المذكور فاخبرني محافظها بمكيدة الدناقلة وكان في قندة اربعون رجلاً منهم ينتظرون قدوم النصري تلك الليلة فجردتهم من اسلحتهم وتأهبت للقبض على النصري فلما حضر اخبرهُ رفاقهُ بما نويت عليهِ ففرّ ليلاً باثني عشر منهم الى مركز المديرية فاخبر اخاهُ محمدًا وكرم الله الشيخ محمد احد التجار الدناقلة وغيرهما من الدناقلة في المركز بما كان من كشف مكيدتهم فقرّ رأيهم على الرحيل في الحال

فتركوا عيالهم واموالهم وساروا بطريق تل قونا وشكا قاصدين المهدي فلقوهُ في الابيض فاقاموا معهُ الى ان جاء جيش هكس فحضروا واقعة شيكان فقتل فيها عبد الرحمن ومحمد ابنا النصري كما مرَّ وجُرح كرم الله

ولما تعافى كرم الله من جرحهِ عقد لهُ المهدي على سرية من جيشهِ وارسلهُ لفتح بحر الغزال ولنرجع الى ما كنا فيهِ:

﴿ واقعة لفّي ﴾ قال الحلاوي فلما اصبح الصباح وعلمت بفرار عبد الرحمن النصري لحقتهُ بالعساكر فلم ادركهُ فكتبت الى لبتن بما كان منهُ واستطردت السير الى لفي لقمع الشيخ الطيب فادركتهُ في غابة قرب لفي فاوقعت بهِ وشتتُّ شملهُ وقد اصابتهُ رصاصة في فكهِ الاسفل فشوَّهتهُ وكان ذلك في ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٣

﴿ سفر ساتي بك الى الخرطوم ﴾ وفي رمضان سنة ١٣٠٠هـ يوليو سنة ١٨٨٣ م حضر وابور من الخرطوم حاملاً الالبسة والملح والرواتب للعساكر وكان لبتن بك في حاجة كبيرة الى الذخائر والكبسول فاستدعى ساتي بك من جور غطاس وارسلهُ الى الخرطوم لاحضار الذخائر والكبسول فاقلع بالوابور في ٧ سبتمبر سنة ١٨٨٣ فدخل الخرطوم في ٢٤ يناير سنة ١٨٨٤ فوجدها محصورة فلم يعد يمكنهُ الرجوع الى بحر الغزال فبقي يجاهد في الحصار الى ان قتل في واقعة القطينة كما سيجيء

﴿ امين بك وخط الاستواء ﴾ وكان روح الثورة قد امتد الى خط الاستواء ولم يكن امين بك محتاطاً لها فبعث الى لبتن في طلب مدد من الذخائر والكبسول فارسلني اليهِ بشيء منها واعتذر لهُ فلقيتهُ في اورمبك فسلمتهُ الذخيرة وعدت منهُ بجواب الى لبتن

﴿ واقعة بحر بيري ﴾ وفي اوائل يناير سنة ١٨٨٤ هاج الجانق من جديد فتجمعوا على بحر بيري فجرَّد عليهم لبتن بك جيشاً مؤلفاً من ٨٠٠ من العساكر المنظمة و١٠٠٠ من الباشبوزق و٨٠٠ من البازنجر جمعهُ من جهات مختلفة واتى بحر بيري فرأى الجانق قد جمعوا جيشاً لا يقل عن ٥٠ الفاً فزرب على جيشهِ زريبة متينة من اغصان الشجر ثم احاطها بزريبة اخرى . قال الحلاوي : فلم يتم لبتن بناء

الزريبة حتى اقبل الجانق علينا مهاجمين وكان الدراويش قد علموهم ان يكرروا عند الهجوم قولهم « الدايم الله الدايم هو » فكانوا يكررونهُ كلهم بصوت واحد جهوري حتى حسبنا الارض قد زلزلت زلزالها ولما قربوا من الزريبة انتشروا حولها فاحاطوها احاطة الهالة بالقمر وقد سدوا الافق واظلموا الجوّ لكثرتهم وسواد لونهم وكنا في الزريبة وهم من حولنا مهاجمين لنا والرماح تلمع فوق رؤوسهم كاننا في جزيرة صغيرة تلاطمها الامواج في وسط بحر عجاج . فلما قربوا جدًّا من الزريبة هجموا هجمة واحدة مستقتلين فتلقتهم العساكر بنيران البنادق الرمنتون وابي روحين فحصدتهم حصدًا فلم يبالوا بها بل كانوا كلما سقط منهم صف خلفهُ آخر حتى تمكن بعضهم من الوصول الى الزريبة الخارجية وما زالوا مهاجمين والعساكر تشويهم بنيرانها شيئًا حتى تراكمت القتلى حول الزريبة اكداسًا وسدل الليل حجابهُ فرجعوا عنا بنيَّة اعادة الكرّة في الصباح التالي وتاريخ هذه الواقعة ١٤ ربيع الاول سنة ١٣٠١ هـ ١٣ يناير سنة ١٨٨٤م

وبعد الواقعة فتَّش لبتن الجبخانة فوجدها لا تكفي لواقعة اخرى فخرج بعساكره من الزريبة تحت جنح الظلام قاصدًا مركز المديرية فمرّ بمركز الدمبو فوجد فيها عبدين قد حضرا من المهدي ومعهما كتب الى بعض الدناقلة في بحر الغزال يخبرهم بانتصاره على هكس ويحثهم على الهجرة اليهِ فايقن لبتن اذ ذاك بمجيء الدراويش الى بحر الغزال فاسرع الى مركز المديرية واخذ يستعد للحصار وكان في المركز حصن منيع فزادهُ مناعة وبث المعاونين في الاقسام لجمع الغلال

تسليم بحر الغزال في ٢٥ جمادى الاخرة سنة ١٣٠١هـ ٢٢ ابريل سنة ١٨٨٤ م

وقبل رجوعهم اتاهُ كتاب من حسان آغا عجيب ناظر قسم اني بتاريخ ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٤ يخبرهُ بان كرم الله الشيخ محمد الذي كان يتجر في بحر الغزال وفر مع عبد الرحمن ومحمد ابنا النصري الى المهدي قد حضر الآن اميرًا من قبل المهدي على بحر الغزال ومعهُ ثمانية آلاف مقاتل من العرب والجلابة بينهم خمسة بلوكات من العساكر المنظمة مسلحين بالرمنتون وسالهُ عما يفعل فاجابهُ لبتن ان احضر حالاً بمن معك من العساكر وكتب الى نظار الاقسام الاخرين بالحضور الى المركز ايضًا

وقبل وصول الاوامر اليهم تقدم كرم الله بجيشهِ الى لفي فسلم لهُ ناظرها واستطرد السير حتى اتى حلة يانقو مسيرة يوم من مركز المديرية فكتب الى لبتن وضباطهِ واعيان الحامية والموظفين يدعوهم الى التسليم فاراد لبتن ان يستطلع قوة كرم الله ويغنم وقتاً لجمع عساكرهِ الباشبوزق من الاقسام فارسل رسلاً من عندهِ الى كرم الله يسألهُ ان يرسل اليهِ منشور المهدي الذي سماهُ فيهِ اميرًا على بحر الغزال لينظر في امر التسليم ثم شرع في الاستعداد للدفاع . وكان في مركز المديرية اذ ذاك ١٢٠٠ رجل من العساكر الجهادية السود ومعهم ٣ مدافع و٤ سواريخ فاتفقوا مع الاهالي على التسليم واطلعوني على رأيهم فذهبت واخبرت لبتن بهِ فلم يصدقني فقلت اجمعهم في مجلسك فاريك باطن امرهم . وكان لبتن قد جعل ضرب النقارة علامة لجمع الاعيان والموظفين الملكية وضرب البوري علامة لجمع الضباط العسكرية فامر فضرب النقارة والبوري معاً فاجتمع الفريقان عندهُ في ديوان المديرية فوقف بينهم وقال بلغني ان بعضكم ينوون التسليم الى كرم الله فمن صمم على الدفاع معي عن شرف الراية الخديوية فليقف فبقي الكل جلوساً . قال المحلاوي فوقفت اذ ذاك وقلت مخاطباً لبتن اني لا اعلم ما نواهُ الحضور في هذا الشأن واما انا فاقول ان كان كرم الله قد جاءنا من عند نفسهِ فانا اول من يحاربهُ معك واما ان كان قد جاءنا من عند المهدي فانضمامنا اليهِ لا يخل بشرفنا بل يزيدنا ديناً على ديننا . فانتهرني لبتن بك وقال اي دين تزيد على دينك ايها الجبان بتسليمك شرفك وشرف حكومتك الى رجل مثل كرم الله وما هو شأن المهدي في السياسة والاحكام . ثم التفت الى الاعيان والموظفين الملكية وقال وانتم ماذا تقولون قالوا: الذي قالهُ المحلاوي . ثم نظر الى الضباط وقال سمعتم ما قالهُ الملكية وانتم رجال افندينا وحماة الذمار ماذا تقولون اتسلمون البلاد التي انفق عليها افندينا مليون جنيه وقد عهد بحمايتها اليكم من غير ان تطلقوا عيارًا نارياً في الدفاع عنها فقالوا: يا حضرة المدير انما المراد من الحرب النصر لا الحرب فاذا لم يكن النصر مضموناً فعلى مَ الحرب فانت ترى ان جيش كرم الله اضعاف جيشنا فليس في وسعنا الانتصار عليهِ وان انتصرنا عليهِ اليوم جاءهُ المدد من المهدي في الغد واخذنا عنوة

او حصرنا حتى نموت جوعاً واما نحن فلا جهة لنا ننتظر منها المدد اذ الخرطوم التي كانت تمدنا قد اصبحت في الحصار واهل البلاد كلهم ضدنا وجارتانا دارفور وخط الاستواء في اشد الضيق (اذ لم يكونوا يعلمون ان دارفور قد سقطت بعد) فلا حيلة لنا الا بالتسليم فقال لبتن اني اعلم الحرج الذي نحن فيهِ ولكن لا عذر لنا في التسليم قبل بذل الجهد في الدفاع اذ النصر لا يكون على الدوام للفئة الكبرى بل قد تنصر الفئة الصغرى بعون الله ومع ذلك فاني افضل الحرب ولو لم اضمن النصر على التسليم لرجل مثل كرم الله فاذا لم تقرّوا معي عليهِ فاعلموا اني اخذ امرأتي و بنتي (وقد كان متزوجاً بجارية جنقاوية مترية في مدرسة المرسلين النمساويين في الخرطوم) وادخل الطابية واحارب كرم الله وحدي حتى اذا دخل المركز صوبت المدافع عليهِ وقلت عليَّ وعلى اعدائك يا رب فاجابوهُ افعل ما شئت فاننا لا نرى رأياً غير التسليم.
فلما لم يرَ وسيلة تحملهم على الحرب كتب اليهم السؤال الآتي وسألهم ان يجيبوهُ عليه كتابةً ويختموهُ باختامهم فقال «اتحاربون معي ام تسلمون الى كرم الله» فاجابوهُ بالتسليم الى كرم الله وختموهُ باختامهم فاخذهُ لبتن وحفظهُ في جيبهِ. ثم كتبوا كتاباً الى كرم الله قالوا فيهِ «سلمنا لله ورسولهِ ومهديهِ الذي ارسلك الينا اميراً فاحضر صباح الغد واستلم الحامية فليس بيننا و بينك حرب» وامضاهُ لبتن والضباط والاعيان وارسلوهُ الى كرم الله فحضر صباح الثلثاء في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١هـ ٢٢ ابريل سنة ١٨٨٤م ووقف بجيشهِ في ظاهر الحامية وكان قد ارسل الى لبتن بدلة من لباس الدراويش وهي حزام خوص وطاقية ونعلين فلبسها وخرج بالعساكر والملكية على نحو ميل من الاستحكام ووقف بهم تجاه كرم الله ثم تقدم بمن معهُ من الضباط والاعيان فسلموا على كرم الله وامرائهِ وعاد العساكر والاهالي الى منازلهم ونزل جيش كرم الله خارج الاستحكام ودخل هو ورؤساء جيشه مع لبتن وضباطهِ واعيان الحامية الى ديوان المديرية ولما استوى بهم المجلس التفت كرم الله الى لبتن وقال ان المهدي امرني ان اعرض الاسلام عليك واسميك عبد الله فقال اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمداً رسول الله وان محمد احمد

بن عبد الله هو مهدي الله وخليفة رسوله . ثم دعا غبريال افندي وصالح افندي شنوده من كتاب المديرية الاقباط لاعتناق الاسلام ففعلا فسمى الاول محمد سعيد وابقى الثاني على اسمه . ثم قام لبتن فسلم الى كرم الله مخازن الذخائر والاسلحة والبضائع والسن وهي شيء كثير . ولما بلغ نظار الاقسام امر التسليم صاروا يفدون الى كرم الله واحدًا واحدًا مسلمين فاصبحت البلاد كلها بيده وارتفعت اعلام المهدية في جميع انحائها

قال الحلاوي ولما علم كرم الله اني انا ولبتن لم نسلم الاَّ مرغَمَين اساء معاملتنا فخشينا ان يغدر بنا فاحتلنا عليهِ وسألناهُ ان يأذن لنا في الذهاب الى كردوفان لمبايعة المهدي فأرسل معنا الخفراء الى الابيض فوجدنا المهدي قد ارتحل منها غازيًا الخرطوم وكان في الابيض السيد محمود عبد القادر من اقاربهِ فكتب الى المهدي يسألهُ عما يفعلهُ بنا فاجابهُ بان يرسلنا اليهِ وقبل ورود الجواب اخذنا الى محل واقعة هكس في شيكان فوجدنا جثث القتلى متراكمة في ذلك الوادي تلالاً عظيمة . ثم ارسلنا الى المهدي فوجدناهُ مخيماً في ابي سعد جنوبي ام درمان فبايعناهُ وكان ذلك في ١٨ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ . فجعل لبتن قومندانًا على مدفع وارسلهُ لمساعدة انصارهِ في أم درمان فاستمرض وكتب الى غوردن كتابًا يخبرهُ بما جرى له في بحر الغزال واصحب كتابهُ الجواب الذي اخذهُ من الضباط والاعيان بشأن التسليم فوقع الكتاب بيد المهدي فزج لبتن في السجن وحاول صالح شنوده الفرار فقبض عليهِ وزجهُ في السجن ايضاً . وكتب الى لبتن الكتاب الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآلهِ مع التسليم

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى عبد الله المسلماني وقاهُ الله السوء وجعلهُ من اهل التداني . كان سابقاً اخبرنا الاخ الصادق وفيّ العهد الذي جاء صحبتكم من كردوفان بانهُ اظهر لك انهُ لم يكن راضياً بالمهدية واستجلب بذلك الوقوف على حقيقتك فاعلمتهُ بان التسليم الذي حصل منك ليس على غرضك انما لعدم الموازر على الحرابة لاجل العسكر الذي معك سلمت جميعها واظهرت النفاق معهما وانك على ما انت عليهِ من الكفر ومراكنة الترك فصفحنا عن ذلك املاً انك

ان لاقيتنا يصفى ايمانك ويتم تصديقك وتسليمك لنا بالمذاكرة ولما قابلتنا ذاكرتك واعلمتك ان امرنا هذا الهي وان الله اذا اراد امرًا امضاهُ ولم تنفع في مقابلتهِ مدافع ولا جيوش انكليز ولا غيرها ولا بوابير ولا كافة الحيل اذ انهُ لا يغلب الله غالب وكل ذلك لتصفى معنا سريرتك ويصير لك الحظ الوافر عند الله وتنال سعادة الابد وتكون من الاصحاب المؤمنين الذين لهم عند الله حسن المكانة العظمى وكل ذلك خير لك ابدي حتى ظهرت خيانتك وتصميمك على النفاق بمكاتبتك للغردون واظهارك لهُ انك لم تسلم باختيارك وانك منتظر نجدة الانكليز واظهارك لهُ ان جماعتنا كثيرهم مرضى وجايعين ولا يقدروا حرابة شهر وكل ذلك ظهر عند ضبط صالح شنوده لخيانتهِ ايضًا. فمن الآن وصاعدًا ان تبت من سريرتك بينك وبين الله واعتقدت ان هذا السجن لتصفيتك وتجريدك عما يضرك عند الله وصدقت مع الله في تسليمك لنا لا بد ان يظهر لنا على سمتك او اخبار من الغيب من رسول الله صلى الله عليهِ وسلم او من الخضر عليهِ السلام وان لم تتب من سريرتك وفضلت على نفاقك كذلك لا بد ان يظهر لنا فتزيد عذابًا على عذابك وفي الآخرة اشد عذابًا واشد تنكيلاً فان اراد الله بك خيرًا يهديك وتظهر هدايتك لاتباعنا والصداقة معنا وان اراد الله شقاوتك وعذابك في الدنيا والآخرة تصمم على ما انت عليهِ من النفاق ولا تقل ان الهداية التي تنفع بادعاء اللسان فان ذلك لا ينفع كما روي عليك حين أتيتنا من عدم الصفا على وجهك فان اهتديت من سريرتك سترى خير الدنيا والآخرة ان شاء الله تعالى والسلام في ٢٠ محرم سنة ١٣٠٢هـ ٩ نوفمبر سنة ١٨٨٤ م

ثم اخرجهُ من السجن بعد فتح الخرطوم وبقي في ام درمان الى ان مات في ١٧ يوليو سنة ١٨٨٨ م

واما كرم الله فانهُ بقي في بحر الغزال الى سنة ١٨٨٦ م فانضم الى اخيهِ كرقساوي في شكا فبقيا في دارفور بامر الخليفة الى سنة ١٨٨٨ م وكان لهما هناك من الشأن ما سنذكرهُ في محله. ولنأت الآن على بيان ما كان من عثمان دقنة والثورة في سواكن فنقول :

الفصل الحادي عشر

في

﴿ عثمان دقنة والثورة في سواكن سنة ٣ : ١٨٨٤ م ﴾

بقي السودان الشرقي هادئاً مطمئناً لا تقلقهُ الثورة واهلهُ البجة على اتم الولاء مع الحكومة حتى سقطت الابيض سنة ١٨٨٣ م وجاءهُ عثمان دقنة عاملاً عاماً من قبل المهدي كما مرَّ فثار الاهلون معهُ ولا ثورة الذئاب واصبح بلاء عظيماً على الحكومة في السودان الشرقي وجرت بينهُ وبين جيوشها وقائع جمَّة مشهورة ولم يزل على مناوأتها وقتالها كلما سنحت لهُ الفرصة حتى وقع في قبضتها سنة ١٩٠٠م فرأيتهُ في محطة مصر ثم في سجن رشيد ثم في سجن دمياط حيث هو الآن فاذا هو رجل اسمر اللون طويل الوجه برَّاق العينين معتدل الانف واسع الفم عريض اللحية اشيبها غزير الشعر ربع القامة مع ميل الى الطول . وقد دلت ملامحهُ الظاهرة على ما انطوى عليهِ من المكر والدهاء وصدق العزم وهو يتردَّى برداء من الدمور ويتعمم بعمامة بيضاء ويحلق شعر رأسهِ كزي حضر سواكن . قيل وهو سريع الحركة قليل الكلام ولهُ صبر غريب على المشي والجوع حتى لقد يمشي النهار بطولهِ حافي القدم بلا طعام ولا شراب ولكن اذا جلس للاكل اكل خروفاً في وجبة واحدة . وقد سألتهُ عن سنهِ عند قيامهِ في المهدية فقال ٤٣ سنة . وسألتهُ عن اصل منبتهِ فقال «ان اصل اجدادي من اكراد ديار بكر اتوا سواكن مع السلطان سليم الفاتح فاستوطنوها واختلطوا بالهدندوة بالزواج فكان منهم قبيلتنا المعروفة بالدقناي وقد ولدتُ في سواكن ونشأتُ فيها واشتغلتُ بالتجارة مع السودان والحجاز بالبضائع والرقيق الى ان قام المهدي فنصرتهُ» . قيل وقد كانت تجارتهُ رائجة وحالهُ حسنة حتى شددت الحكومة على منع الرقيق فبارت تجارتهُ وساءت حالهُ وقد سجن مرة في جدَّة هو واخوهُ علي لمتاجرتهما بالرقيق فحقد على الحكومة وكان من المتعصبين في الدين على طريقة المجاذيب فحسب مداخلة الحكومة ببيع الرقيق تعرُّضاً في دينهِ

فلما سمع بظهور محمد احمد في أبا اخذ يستنشئ اخباره ويستعد للمهاجرة اليه حتى فتحت الابيض فهاجر اليهِ وبايعهُ واظهر لهُ الغيرة المرّة على الاسلام والمسلمين وتصديقهُ لمهديته والاستعداد لنصرتهِ . وقد سألتهُ مرة في سجن رشيد هل قام بنصرة المهدي عن اعتقاد قلبي قال « نعم ان محمد احمد هو المهدي المنتظر لا ريب فيهِ واموت على هذا الاعتقاد » قلت ان كان هو المهدي المنتظر فكيف مات قبل ان يتم نبواته بفتح مصر والقسطنطينية ومكة قال « وقد مات النبي (صلعم) من قبله ولم يتم فتوحاته فاتمها خلفاؤهُ من بعدهِ » قلت ولكن خلفاء محمد احمد لم يتموا فتوحاتهِ ثم ان امة النبي باقية لم تزل وامة المهدي قد زالت قال « هكذا اراد الله » !!! وعلى كل حال فانهُ اتحد مع المهدي قلباً وقالباً وسرّ بهِ المهدي سروراً عظيماً لانهُ لم يكن لهُ يدٌ في السودان الشرقي بعد . وكان عثمان دقنه عالماً بدخائل اهل سواكن وعارفاً لغة البجة وعاداتهم وهو يحسن القراءة والكتابة في العربية فسماهُ عاملاً عاماً على جميع بلاد البجة التي بين الاتبرة والبحر الاحمر اي بلاد سواكن وطوكر وكسلا. وقد اصحبهُ كتباً الى مشايخ تلك البلاد من هدندوه و بشارين وامارار وغيرهم يدعوهم بها لنصرة الدين والقيام مع عاملهِ عثمان دقنه لمحاربة الترك والجهاد في سبيل الله . وهذه صورة ما كتبهُ الى اهل سواكن بحرفهِ :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

« وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن السيد عبد الله الى كافة احبابه في الله المؤمنين بالله وبكتابه ومن تبعهُ ووافقهُ على اقامة الدين ونصرته . اما بعد فالذي نعلمكم بهِ ايها الاحباب ان الامر كلهُ لله واليهِ المرجع والمآب وانهُ مالك الملك يؤتيهِ من يشاء وينزعهُ ممن يشاء كما اخبر بذلك في منشور الكتاب فاتعظوها وتذكروا يا أولي الالباب وتنبهوا عن الغفلة والغرور بلوامع الدنيا التي هي سراب وتفكروا في انفسكم واعتبروا بفوات دول القرون الماضية وبمن هو اشد منكم قوة واكثر جمعاً للفانية فاصبحوا لا ترى الا مساكنهم الواهية الخالية فاقبلوا نصيحتي وما تبعها الا اذن واعية وانما انذرتكم بجوابي هذا نصيحة لكم ورحمة بكم وشفقة على عباد

الله المؤمنين وسببًا لنجاة المسلمين والمستضعفين ٭ وحيث فهمتم ذلك وعقلتموهُ فاني موجه اليكم الشيخ عثمان ابا بكر دقنه السواكني لكي تستعينوا بهِ على اقامة الدين وجهاد الكافرين وجعلتهُ اميرًا مباركًا لكم لدلالتكم وارشادكم فاسمعوا لهُ واطيعوا امرهُ ونهيهُ وبمجرد وصولهِ اليكم ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ومصدقين اني المهدي المنتظر فتحزبوا اليهِ واتوهُ افواجًا افواجًا من كل سهل وجبل لبيعة الرضوان ورضاء الواحد الديان لاجل اقامة الدين والسنن وشمروا في ذلك بغاية الجهد وعلوّ الهمة واجتمعوا على كلمة واحدة باتفاق الجميع . والكلمة الواحدة هي التصميم والعزم على قتال الترك اهل المديرية التي انتم فيها ثم بعد اتفاقكم باخذ عهودكم ومواثيقكم مع الله ورسولهِ واميرنا النائب عنا في اقامة الدين فخذوا حذركم واهبتكم الجميع ثم اخبروا اعداء الدين بذلك وبلغوهم امرنا هذا واطلبوا منهم في الحال احد الامرين اما التسليم واما القتال فان ندموا وسلموا بصدق وايمان فليسلموكم جميع ما عندهم من الاسلحة ولزومها والخزائن بما فيها ومفاتيحها فان كان كذلك فاحمدوا الله واشكروهُ ومن الدنيا الساحرة فاحذروا وان ابوا وسلكوا مسالك الحيل فالقتال القتال لتنالوا مقام الصديقين من الرجال فاهجموا عليهم الجميع مرة واحدة فانتم حزب الله الغالبون . واذا اتحد معهم بعض اهل البلد فجميع من هو موافق للشيخ عثمان ابي بكر دقنه فلينضم اليهِ واخرجوا عنهم خارج البلد واجمعوا العربان التي باطراف البلد واحكموا فيهم بالحصار والمغار واقطعوا عنهم الموارد بالكلية الى ان يهلكهم الله تعالى كما اهلك اصحابهم فانهم قوم كتب الله عليهم البلاء والعذاب فهم في قبضة الله ونواصيهم بيدهِ فلا تخشوهم ابدًا فانهم هالكون باذن الله تعالى وعن قريب يورثكم الله ارضهم وديارهم فعليكم بالعدل والاحسان . واعلموا ان من بايع الشيخ عثمان المذكور فقد بايعني ومن استشهد معهُ فكانما استشهد معي ومن صحبهُ فقد صحبني فاعلموا الجميع بذلك وابشروا بما بشرني بهِ النبي (صلعم) وهو ان اصحابي كاصحابهِ وان عوامهم لهم رتبة عند الله تعالى كرتبة الشيخ عبد القادر الجيلاني والله ذو الفضل العظيم وهذا الفضل بشرط الاتباع ظاهرًا وباطنًا وحيث فهمتم ذلك فلا يفتكم

هذا الفضل العظيم فاحرصوا على الصدق والوفا واقتفاء آثار المصطفى (صلعم) واختيار ما عندهُ تعالى بالجوع والفقر مع الرضاء والتسليم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم والسلام غرة رجب سنة ١٣٠٠ اه » ٨ مايو سنة ١٨٨٣ م

فحمل عثمان هذه الكتب وسار مجدًّا حتى وصل محلا يدعى قباب في ضواحي سواكن فلقي فيهِ الطاهر المجذوب وهو كبير المجاذيب في تلك الجهات ومعظم اهلها على طريقتهِ فسلمهُ كتاباً من المهدي فقبلهُ وقبَّلهُ وبايع عثمان وكان لهُ اكبر نصير. ثم تقدم الى اركويت حيث كان اهلهُ فوصلها في ١ اوغسطوس سنة ١٨٨٣ فتلقاهُ اهلهُ بالقبول وبايعوهُ وبايعهُ ايضاً بعض مشايخ الهدندوة فرفع راية المهدي واستعد للجهاد

﴿ واقعة سنكات في ٥ اوغسطوس سنة ١٨٨٣ ﴾ وكان للحكومة في تلك البلاد عدا حامية سواكن حامية في طوكر على ٤٠ ميلاً جنوبي سواكن وحامية في سنكات على مثل هذه المسافة غربيها ولم يكن في سنكات سوى ٢٥ عسكرياً. وكان المحافظ على سواكن في ذلك العهد الشهم الباسل محمد بك توفيق المصري فلما سمع بخبر عثمان اسرع الى سنكات ومعهُ مئة رجل فوصلها في ٢ اوغسطوس ليلا. وفي اليوم التالي ارسل كتاباً الى كلٍّ من الطاهر المجذوب واحمد دقنه شقيق عثمان يطلب حضورهما ليتمكن من ضبط عثمان فمزّق كل منهما كتابهُ وانضم الى عثمان فجمعوا جموعهم وزحفوا على سنكات فوصلوها ضحى يوم الفطر اي ٥ اوغسطوس سنة ١٨٨٣. وكان عثمان قد اتى بكتاب من المهدي الى توفيق بك يدعوهُ الى الانتظام في سلك المهدية فارسلهُ اليهِ وسألهُ التسليم في الحال او الاستعداد للقتال ولم يكن توفيق بك مستعدًّا للحرب لان طابية سنكات كانت متسعة غير حصينة ورجالهُ قليلون فطلب الى عثمان ان يمهلهُ ثلاثة ايام وقال اني لا استطيع ان اجيبكم من نفسي سلباً او ايجاباً لاني مأمور ولا بدَّ لي من استشارة صاحب الامر والنهي فعلم عثمان انها حيلة للتمكن من الاستعداد فامهلهُ الى الظهر ولم يزد فردَّ توفق الرسل وطلب المهلة الى العصر وشرع في الاستعداد ففتح بعض المزاغل في الطابية وسدَّ بابها باكياس من الرمل وجعل بعض العساكر على السور والبعض الآخر على سطوح المنازل وكان عثمان

يرى استعداد العساكر رأى العين فلما كان الظهر امر اصحابهُ فحملوا على الحامية حملة صادقة فدخلوها واختلطوا بالعساكر فالتجأ بعض العساكر الى منازلهم واخذوا هم والذين على السطوح يرمون المهاجمين بالرصاص فقتلوا منهم وجرحوا وكان في جملة القتلى محمد اخو عثمان وجُرح عثمان نفسهُ جراحاً بالغة في يدهِ ورأسهِ وجنبهِ فحملهُ اصحابهُ على جمل وعادوا منهزمين الى اركويت وكانت خسارتهم في ذلك اليوم ٦٠ رجلاً وخسارة العساكر ٧ قتلى و١٢ جريحاً بينهم توفيق بك فانهُ أصيب بعدة جراح وعاد الى سواكن

﴿ واقعة قباب في ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٣ ﴾ وبعد وصولهِ بقليل ارسل حملة من العساكر بمدفعين يصحبها محمود علي شيخ الامارار بنفر من رجالهِ وامرهم ان يحملوا على عثمان في اركويت ويقضوا عليهِ . فعلم عثمان بخبر الحملة وكانت جراحهُ لم تزل تؤلمهُ فعقد لاخيهِ محمد موسى على انصارهِ وارسلهُ لملاقاتها فالتقى بها في خور قباب في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٣ عند الغروب فبنت الحملة زريبة متينة ببابين جعلت على كل باب مدفعاً وباتت فيها وبات اصحاب عثمان بقربها وفي صباح اليوم التالي احاطوا بها من كل الجهات وهاجموها هجمة واحدة فتلقتهم العساكر بنيرانها فصدتهم عن الزريبة الا ثلاثة منهم فانهم تمكنوا من الدخول اليها فقتلوا في داخلها وفيهم رجل يسمى طاها كان من ملازمي المهدي وجاء مع عثمان قصد الجهاد . وقد خسر اصحاب عثمان في هذه الواقعة ٢٧ رجلاً وعدة جرحى بينهم محمد موسى وخسر العساكر بضعة رجال بينهم احد ابناء الشيخ محمود علي المذكور وعادت الحملة الى سواكن . وامر عثمان دقنه رجالهُ فقطعوا خط التلغراف بين سواكن وكسله

﴿ حصار سنكات وواقعة أبنت في ٢٥ اوكتوبر سنة ١٨٨٣ ﴾ ثم عقد لرجلٍ يدعى علي طلاب بن محمد على سرية من انصارهِ وارسلهُ لحصر سنكات فسار من اركويت في ٢٥ اوكتوبر سنة ١٨٨٣ . واتفق انهُ في هذا اليوم نفسهِ ارسل توفيق بك البكباشي محمود افندي خليل ومعهُ ١٥٦ من العساكر المصرية مدداً لحامية سنكات فالتقوا باصحاب عثمان في منتصف الطريق في مضيق يدعى أبنت وانتشب القتال

بين الفريقين فلم تكن ساعة حتى قتل العساكر عن آخرهم وغنم اصحاب عثمان اسلحتهم وامتعتهم وتقدموا لحصر سنكات. ثم امدَّهم عثمان حتى بلغوا ٧٥٠ رجلاً فامَّر عليهم عليًّا ابن حامد المشهور بامير سنكات لان فتوحها كان على يدهِ

﴿ حصار طوكر وواقعة التيب الاولى في ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ ﴾ وكان عثمان قد ارسل في ٢ اوكتوبر سنة ١٨٨٣ الخضر بن علي شيخ الحساناب اميرًا على قبائل طوكر الذين جلُّهم من الارتيقة واصحبهُ كتابًا اليهم من الطاهر المجذوب يدعوهم الى القيام معهُ لنصرة الدين فلبوا الدعوة هم وشيخهم موسى بن الفقيه وذهبوا مع الخضر لحصر طوكر. وكان في طوكر اذ ذاك ٤ بلوكات من العساكر عليهم صاغ ولهم خندق حصين فلما جاءهم الخضر بن علي دعاهم الى التسليم والتصديق بالمهدي فأبوا وارسلوا في طلب المدد من سواكن

وكان في سواكن اذ ذاك محمود باشا طاهر قومندان السودان الشرقي فجهز ٥٥٠ رجلاً وسار لنجدتهم. وكان الخضر بن علي امير طوكر قد قدَّر مجيء المدد من سواكن فارسل عبد الله بن حامد ومعهُ ١٥٠ رجلاً من انصارهِ ليتربصوا مجيئهُ في آبار التيب فلما اقترب العساكر منهم حملوا عليهم حملة رجل واحد فاختلطوا بهم واعملوا فيهم السيف والحربة فقتلوا ١٤٨ رجلاً وهزموا الباقي فاتى بهم محمود باشا الى سواكن فعزل من وظيفتهِ على الاثر وكان قد صحبهُ القومندار مونكريف الانكليزي فقتل في الواقعة وقتل فيها من انصار عبدالله بن حامد ٢٧ رجلاً. وتاريخ هذه الواقعة ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ وهو اليوم الذي هلك فيهِ جيش هكس في شيكان

﴿ حصار سواكن وواقعة تماي (التمنيب) الاولى في ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٣ ﴾

ثم عوفي عثمان دقنه من جراحهِ فجمع نحو ٣٠٠٠ رجل ونزل بهم في آبار تماي (التمنيب) على نحو ٢٠ ميلاً من سواكن واخذ يشن الغارة عليها وقطع الطريق بينها وبين سنكات فخرج لهُ كاظم افندي من سواكن ومعهُ ٧٠٠ من العساكر السود والباشبوزق و٢٠ فارساً فتلقاهم عثمان دقنه بانصاره وقتلهم شر قتلة فلم ينجُ منهم سوى ٤٥ رجلاً وقد قتل من انصار عثمان ٨٠ رجلاً وذلك في ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٣

﴿ حملة باكر باشا الى سواكن وواقعة التيب الثانية في ٤ فبراير سنة ١٨٨٤ ﴾

وشدّد عثمان دقنه الحصار على سواكن وطوكر وسنكات معاًفرأت الحكومة انها اذا لم ترسل اليها المدد في الحال وقعت في يد عثمان وهذا المدد لم يكن متيسراً فان الجيش المصري القديم قد هلك في شيكان كما علمت والجيش الجديد لم يكن بعد مدرّباً على القتال فجهزت الحكومة حملة من عساكر الجندرمة والبوليس وعساكر الرديف وهي سلاحها الاخير وعقدت لواءها لباكر باشا وكلفت الزبير باشا فجمع لها اورطة من السود ورغبت اليهِ في مرافقة الحملة فطلب ان يكون مستقلاً في اعمالهِ ولما لم تجب الى طلبهُ اعتذر عن السفر . وصحب باكر جماعة من الضباط الانكليز والمصريين اركان حرب وكان الكولونل سرتوريوس رئيس اركان حربهِ الانكليز والميرالاي عبد الرزاق بك رئيس اركان حربهِ المصريين وقد أعطي السلطة الملكية والعسكرية على جميع بلاد السودان الشرقي وعهد اليهِ في استرجاع الامن والسلام الى ربوعهِ على ان يبدأ اولاً بالوسائل السلمية فلا يرجع الى القوة الا اذا لم ينجع السلم وصحبهُ السيد محمد المرغني لهذه الغاية . فبرح مصر بمعظم قوتهِ واركان حربهِ في ١٩ ديسمبر سنة ١٨٨٣ فوصل سواكن في ٢٣ منهُ ثم ذهب مع الاميرال هيوت الى مصوع فوصلها في ٣١ منهُ فاخذ منها ومن سنهيت بعض العساكر السود وجعل مكانها عساكر مصرية ثم عاد الى سواكن فبدأ بالوسائل السلمية فاوعز الى السيد محمد المرغني فكتب الى عثمان دقنه ينصحهُ بترك الحرب ويخبرهُ باتحاد الدول على قمع الثورة فاجابهُ بالجواب الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآلهِ مع التسليم

« و بعد فمن عبد ربه عثمان ابي بكر دقنه الى الجناب الاكرم السيد الجليل السيد محمد بن الاستاذ السيد محمد المرغني وفقنا الله واياهُ الى باب العلي . فالذي نعلمكم بهِ جناب الاكرم انهُ قد وصل جوابكم وفهم خطابكم الى آخر ما ابديتم من النصح العام وذلك على حسب ما بدا لكم لان الدين مبناهُ النصيحة فجزاكم الله خيراً . وذكرتم انكم حضرتم بهذا الطرف من طرف الدول لاسكان هذه الفتن الكائنة بهذه الجهة

وكون انا قمنا فيها باسباب ناس مفتنين فعلى حسب فهمكم حكيتم ما حكيتم فاعلموا يقيناً انهُ لما قمنا من الامام المهدي المنتظر عندنا اليقين الذي لا يشك فيهِ عاقل انهُ لو اجتمعت الخلائق باسرها شرقها وغربها لم يقدروا على مقاومة الايدي التي معها يد الله تعالى فضلاً عما ذكرت لنا من اتحاد الدول ولو كان عندنا ادنى شك في عدم نصرة الدين لما اقدمنا على هذا الامر ولكن المطلوب من شيمكم الحضور لطرفنا لاجل المكالمة والمفاهمة في الامر الذي جئنا بهِ فان كان قصدكم احياء سنة رسول الله (صلعم) فبعد الكشف على حالنا تكونوا انتم بالخيار وان كان قصدكم تبليغنا اتحادية الدول فقد فهمنا والسلام ٧ ربيع اول سنة ١٣٠١ هـ ٦ يناير سنة ١٨٨٤

فعلم باكر من هذا الجواب ان الوسائل السلمية لاتجدي نفعاً فعوَّل على القوة ونوى انقاذ حامية سنكات اولاً ولكن قبل قيامهِ جاءتهُ رسالة من قومندان حامية طوكر مفادها ان الحامية نفدت ذخائرها واضنى عساكرها الاسهال فاذا لم تأتهِ نجدة بعد يومين او ثلاثة اضطر الى التسليم فعدل عن سنكات وسار في الحال لنجدة طوكر فخرج من سواكن بحرًا ووصل ترنكتات في ٢٨ يناير سنة ١٨٨٤

وكان عبد الله امير الباحل المار ذكرهُ واقفاً لهُ بالمرصاد فبعث الجنرال باكر يسألهُ ترك الحرب فأبى فتقدم اليهِ في ٢٩ يناير سنة ١٨٨٤ ومعهُ : ٣٠٠ من الفرسان المصريين و١٥٠ من الفرسان الاتراك و٦٥٠ من جندرمة الاسكندرية و٥٠٠ من جندرمة القاهرة و٤٥٠ من عساكر مصوع و٤٢١ من عساكر سنهيت و٤٢٩ من المشاة الاتراك و٦٧٨ من عساكر الزبير باشا و١٢٨ من الطوبجية المصريين و٤٠ من البوليس الاور بيين المتطوعين ومجموعهم ٣٦٥٦ رجلاً و٦ مدافع . فسار بهم بالانتظام العسكري مسافة ٣ اميال ثم وقف فبنى طابية جعل فيها ٣٠٠ رجل لحفظ خط الرجعة

وفي فجر ٤ فبراير سنة ١٨٨٣ استطرد السير بباقي القوة تتقدمهُ الكشافة حتى صار على مقربة من آبار التيب فعاد الكشافة مذعورين وقالوا ان الدراويش قريبون منا وهم في عدد كثير . وكان عثمان دقنه قد ارسل مددًا الى قوة التيب حتى

بلغت ١٢٠٠ رجلاً مؤلفة من عدة فئات كل منها تحمل راية فظن الكشافة ان كل راية تمثل جيشاً. ثم لما رأى العساكر كثيرة الرايات ظنوا الذي ظنهُ الكشافة فهلعت قلوبهم وتولاهم الرعب حتى انهُ لما صدر لهم الامر بتشكيل مربع لم يحسنوا تشكيلهُ كما مرّنوا عليهِ فاختلط رجال الضلع الخلفيَّة بدواب الحملة ولم يحسنوا رمي الرصاص فاخترق الدراويش صفوفهم واختلطوا بهم فازدادوا هلعاً وخوفاً حتى طرح البعض سلاحهم في الارض وركعوا و بسطوا ايديهم نحو السماء طالبين الرحمة واختبأ البعض الآخر بين دواب الحملة فانقض الدراويش عليهم كالنسور يقتلونهم يميناً وشمالاً حتى لم يبقَ من الجيش كلهِ سوى ١٢٠٠ رجل فانهزموا الى ترنكتات فعاد بهم باكر الى سواكن . وكان في جملة قتلى الجيش ١١٢ ضابطاً بينهم عبد الرزاق بك و١٠ ضباط اوربيون واما الدراويش فلم يقتل منهم سوى ٣٠٠ رجل بينهم محمود اخو الحضر وقد غنموا ٦ مدافع و ٣٠٠٠ بندقية ونصف مليون خرطوشة وانضموا الى اخوانهم المحاصرين لطوكر فضيقوا عليها واضطروها الى التسليم كما سيجيء . وضيّق عثمان دقنه على سواكن

سقوط سنكات يوم الجمعة في ١٠ ربيع الثاني سنة ١٣٠١ هـ ٨ فبراير سنة ١٨٨٤

اما سنكات فكانت اذ ذاك في اشد الخطر . وكان توفيق بك قد جاءها بعد واقعة أبنت فحصَّن طابيتها وخندق عليها واحاطها بزريبة متينة من شجر السيال و بنى عليها اربعة ابراج على كل برج مدفعاً فلما جاءها علي بن حامد وجدها حصينة فلم يجسر على مهاجمتها بل قعد لها بكل مرصد وحال بينها و بين سواكن ومنع اهلها الخروج منها وكان يبعث باصحابه الحاملين الاسلحة النارية الى قرب الطابية فكلما لاح لهم أحد رموهُ بالرصاص وكان اذا رماهم العساكر بالقنابل صاحوا بهم مستهزئين اطلقوا مدافعكم مرة ثانية فان هذه الطلقة لم تصب . وداموا على ذلك حتى نفد زاد العساكر واكلوا البغال والحمير والكلاب والقطط وشرعوا في اكل الجلود ومضغ اوراق الشجر تسكيناً لآلام الجوع . فلما صاروا الى هذه الحال جمعهم توفيق بك المعروف ببطل سنكات وقال لهم « ايها الرجال ان بقينا هنا هلكنا من الجوع وان سلّمنا لهؤلاء الاشقياء لم نضمن السلامة وان سلمنا عشنا عيشة يهون معها الموت

فلم يبق لنا الا ان نخرج من الاستحكام ونتخذ طريق سواكن فاذا لحقونا حاربناهم حتى ظفرنا أو متنا مشرفين . وما زال يشدد عزائمهم ويرغبهم في هذا الرأي حتى وافقوهُ عليهِ . فلما كان يوم الجمعة ١٠ ربيع الثاني سنة ١٣٠١هـ ٨ فبراير سنة ١٨٨٤م احرقوا مخازن البارود والجبخانة وسدوا افواه المدافع وخرجوا من سنكات وعددهم ٦٠٠ نفس من رجال ونساء واولاد فما ساروا ميلاً ونصف ميل حتى اتوا مضيقاً وعراً فوجدوا الدراويش كامنين فيهِ فانتظموا بهيئة مربع وجعلوا النساء والاولاد في الوسط وشرعوا في رمي الدراويش بالرصاص حتى قتلوا منهم ٥٧ رجلاً ولكن الدراويش تغلبوا عليهم لكثرتهم وقتلوهم فلم ينجُ منهم سوى خمسة رجال بينهم قاضي سنكات وثلاثين امرأة فماتوا موت الابطال الاعزاء وخلدوا ذكرًا في التاريخ يمدحهم عليه كل شهم حرّ . وانضم امير سنكات اذ ذاك الى عثمان في تماي فاشتد الحصار على سواكن

حملة جراهم الاولى الى سواكن سنة ١٨٨٤ م

هذا وكانت الحكومة الانكليزية لما سمعت بانكسار باكر اخذت الامر كلهُ في يدها فعقدت مجلس نوابها بعد الواقعة بيومين واقرّت على حماية سواكن فارجعت باكر باشا الى مصر والقت مقاليد الاحكام العسكرية والملكية في سواكن الى الاميرال هيوت . فابلغها في ١٢ فبراير خبر سقوط سنكات وهلاك حاميتها فعقدت مجلساً آخر اقرّت فيه على ارسال جيش في الحال لحماية سواكن وانقاذ حامية طوكر واوعزت الى قومندان جنودها في مصر فعقد للجنرال جراهم على ٤٠٠٠ جندي فيهم ١٠٠ من الطوبجية بستة مدافع واورطة من الفرسان وصحبهُ بعض الضباط الانكليز الموظفين في الجيش المصري الجديد بصفة اركان حرب فوصل سواكن في اواخر فبراير فترك بعض الجند لحماية سواكن وسار بالباقي بحرًا الى ترنكتات فوصلها في ٢٨ منهُ وبعث يتجسس احوال طوكر .

سقوط طوكر في ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٤ م

وكان الدراويش قد اخذوا المدافع والاسلحة التي غنموها في واقعة باكر وشددوا الحصار بها على طوكر وكانت مؤونة الحامية تكفيها مدة طويلة وماؤها

من آبار في وسطها وحصنها منيع ولكن اعوزتها الذخيرة فثبتت على الحصار حتى علمت بانكسار باكر ولم تعد تسمع بنجدة اخرى فسلمت للدراويش في ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٤

﴿ واقعة التيب الثالثة في ٢٩ فبراير سنة ١٨٨٤ ﴾ فعاد الجواسيس الى جراهم في ترنكتات واخبروهُ بسقوط طوكر في يد الدراويش فابلغ الخبر حكومتهُ فامرتهُ بالحملة عليهم في الحال وتشتيت شملهم فقام من ترنكتات بعد ظهر ٢٨ فبراير ونزل عند طابية باكر المار ذكرها وكان الدراويش قد علموا بقدومهِ فتجمعوا لهُ في التيب وبعث اليهم عثمان بابن اخيه مدني بن علي مددًا حتى بلغ عددهم ٦٠٠٠ رجلاً. فارسل اليهم جراهم كتاباً ينصحهم بالتسليم وترك الحرب ودفع الكتاب الى الاميرالاي هارفي بك فالصقهُ براية بيضاء وسار وحدهُ نحو الاعداء حتى قرب من التيب فغرز الراية في الارض وعاد الى الجيش ثم رجع في صباح اليوم التالي اي ٢٩ فبراير ومعهُ شرذمة من الفرسان الى المكان الذي غرز فيهِ الراية فلم يرَ الراية ولا ردًّا على الكتاب فصمم جراهم اذ ذاك على القتال فنظم جيشهُ مربعاً وجعل دواب الحملة في الوسط وسار تتقدمهُ طليعة من الفرسان. وكان الدراويش قد بنوا طابية على مقربة من التيب جعلوا فيها مدافعهم وخرجوا للقاء العساكر فما سار الجيش ميلاً من طابية باكر حتى اطلوا عليهِ ورموهُ بالرصاص ثم جعلوا يتقهقرون امامهُ كلما تقدم نحوهم حتى وصلوا الى طابيتهم فدخلوها فامر الجنرال جراهم اذ ذاك فعزفت الموسيقى بعض الحانها الحماسية وتقدم المربع بقدم ثابتة حتى صار على قيد مرمى القنابل فوقف فبادرهُ الدراويش باطلاق المدافع فاطلق المربع اذ ذاك مدافعهُ فاسكت مدافعهم. ثم ضرب النفير فحمل المربع على الطابية فخرج عليهم قسم من اهلها وقد اشهروا الاسنة وجردوا السيوف وفرسانهم في مقدمتهم فتلقاهم المربع بنيرانهِ فحصدهم حصدًا وكان الواحد منهم اذا أُصيب بالرصاص سدَّ جرحهُ بيدهِ واعاد الكرَّة حتى يلقى حتفهُ. وما زال المربع يتقدم مقتحماً نار العدو حتى امتلك الطابية عنوة وفر من سلم من الاعداء الى آبار التيب فزربوا زريبة وتحصنوا فيها. وفي الساعة الواحدة بعد الظهر تبعهم الجيش واخرجهم منها عنوة بعد قتال عنيف دام ٣ ساعات متوالية. وقتل من الانكليز

في هذا اليوم ٣٤ رجلا وجرح ١٥٥ واما قتلى الدراويش فقد زادوا عن الالفين وزاد جرحاهم عن ذلك . وبين قتلاهم عبد الله بن حامد المشهور بامير الساحل ومدني بن علي ابن اخي عثمان السالف ذكرهما والطاهر بن عمر ابن عم الطاهر المجذوب وموسى قيلاي الذي قال فيه عثمان انهُ رجل بمقام الف . ولم يقع منهم في الاسر الا القليل لانهم كانوا يحاربون الى آخر رمق حتى ان جريحهم كان وهو ملقى على الارض يختبط بدماه اذا مرَّ بهِ عسكري يطعنهُ بحربة او بسيف . وقد حكي ان الطاهر بن عمر المجذوب المذكور آنفًا قال لاصحابهِ قبل الحملة على الجيش « اذا أُصبت قبل ان اتمكن من الوصول الى العدو فجروني برجلي حتى توصلوني اليهِ لعلي اتشفَّى من اعداء الله بضربة ولو في آخر رمق مني ثم ادفنوني فاستريح من شؤم الدنيا »

واسترجع الجنرال جراهم في هذه الواقعة ٧ مدافع وشيئًا كثيرًا من الاسلحة والذخائر . وفي اليوم التالي اي ١ مارس تقدم الى طوكر فوصلها الساعة الرابعة بعد الظهر فلم يجد فيها احدًا من الدراويش بل وجد ٦٠٠ نفسًا من المصريين بينهم ٧٠ رجلاً من حاميتها فعاد بهم الى سواكن ثم ارسلهم الى مصر واخذ يستعد للزحف على عثمان دقنه في تماي

﴿ واقعة تماي (التمنيب) الثانية في ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ ﴾ وقد ظن الجنرال جراهم ان النصح ينجع في عثمان بعد الذي جرى لاصحابهِ في التيب فكتب اليهِ ينصحهُ بالتسليم فلم يجبهُ فكتب ثانية اليهِ والى امرائهِ في ٨ مارس سنة ١٨٨٤ يتهددهم بالزحف عليهم في تماي اذا لم يسلموا فاجابهُ عثمان بقولهِ « دع عنك النصح واستعد للقتال الذي يكون فيهِ هلاكك ان شاء الله » وختم جوابهُ هذا بختمهِ واختام امرائهِ . فخرج الجنرال جراهم اذ ذاك بالجيش من سواكن في ١١ مارس فبات ليلتهُ في زريبة من بناء باكر باشا . وفي صباح اليوم التالي (١٢ مارس) تقدم نحو تماي فالتقاهُ عثمان خارج الآبار فبات جراهم بالجيش على مقربة منهُ فارسل عثمان رجالهُ المسلحين بالبنادق فاقلقوا الجيش الليل كلهُ . وفي صباح الغد (١٣ مارس) الساعة ثمانية ونصف نظم جراهم جيشهُ في مربعين فسار المربعان متحاذيين احدهما متقهقر

عن الآخر قليلاً بهيئة « تدريجاه » وكان مع عثمان نحو ١٢ الفاً فجعلهم فرقتين كل فرقة صدد مربع فاخترقوا المربع الاول وغنموا بعض مدافعه ولكن المربع الثاني تغلب على فرقته وتقدم فانجد المربع الاول واسترجع المدافع وصبوا على اصحاب عثمان ناراً لم يطيقوها فانهزموا شر هزيمة فلحقوهم الى تماي فوصلوها الظهر فوجدوا ديم عثمان خالياً فاحرقوهُ وعادوا في اليوم الثاني الى سواكن . وقد قتل من اصحاب عثمان في هذا اليوم ٢٠٠٠ رجل وقتل من الجيش ٥ ضباط و١٠٤ عساكر وجرح مثل ذلك من العساكر و٨ ضباط

وفي ١٧ مارس اعلن الاميرال هيوت ان من يأتيهِ برأس عثمان دقنه حيا او ميتاً يجيزهُ بخمسة آلاف ريال ولكن بعد ثلاثة ايام من تاريخ صدور الاعلان اتاهُ الامر من بلاد الانكليز بالغائهِ لمخالفته لمبادئ حزب الاحرار

وكانت الحكومة المصرية قد اقرّت على اخلاء السودان كما مرّ وولجت بهذا المهمة غوردن باشا فحُصر في الخرطوم وطلب النجدة من حكومته فلما كانت واقعة تماي قال بعض الساسة الانكليز بوجوب فتح الطريق الى بربر وارسال النجدة الى غوردن عليها وقال البعض الآخر بعدم صلاحية هذه الطريق لطولها ووعورتها وقلة مائها وخوف الغدر من اهلها الذين كانوا لم يزالوا متشيعين للمهدية فاقرّ رأي الحكومة على تركها ولكنها سلمت بكسر شوكة عثمان دقنه الذي عاد الى ديمهِ في تماي فحمل عليهِ جراهم ثانية في ٢٧ مارس ولم يكن مع عثمان اذ ذاك جيش يصادم بهِ فانهزم من امامهِ وفرَّ الى الجبال المجاورة فاحرق جراهم منازلهُ وعاد الى سواكن

وفي ٣ ابريل سنة ١٨٨٤ عاد الى مصر ولحقهُ جيشهُ . وفي ١٠ مايو سمي الماجور تشمرسيد حاكماً على سواكن وجعل تحت يدهِ اورطتان من الجيش الجديد واورطة من البحارة الانكليزية لحماية سواكن وكان على سواكن سور منيع عليهِ الابراج والمدافع . ولما علم عثمان دقنه بذهاب الجنرال جراهم وجيشهِ اشاع ان الانكليز انما اخلوا سواكن فراراً من سطوتهِ واخذ يجمع كلمة القبائل من جديد لحصر سواكن ولنتركهُ الآن في هذا الصدد ولنأتِ على ما كان من امر غوردن وحصار الخرطوم فنقول :



﴿ غوردون باشا ﴾

الفصل الثاني عشر

في

غوردن باشا وحصار الخرطوم سنة ١٨٨٤ م

ولاية غوردن الثانية على السودان

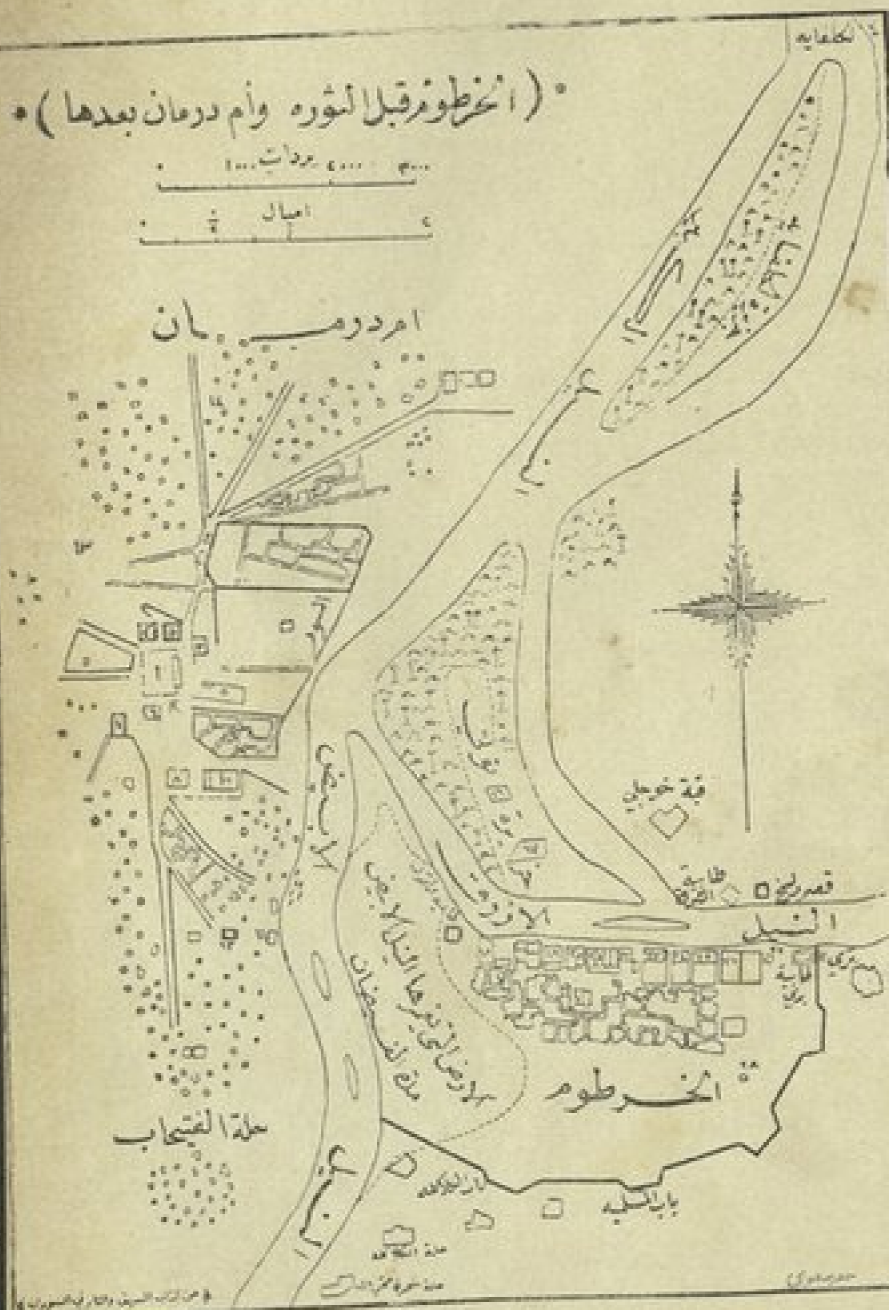
تقدم ان الحكومة المصرية لما بلغها خبر هلاك هكس في شيكان قرَّ رأيها على اخلاء السودان وانتشال حامياتها وموظفيها منهُ . قيل فلما عُرض هذا القرار على النظار برئاسة شريف باشا لتصديقهِ قدموا استعفاءهم من الوزارة فشكل الجناب العالي مجلساً آخر برئاسة نوبار باشا في يناير سنة ١٨٨٤ وعرض القرار عليهِ فصدَّقهُ وندب لهذه المهمة عبد القادر باشا فاعتذر قيل لانهُ كان متيقناً الفشل بغير الجند. فندب لها غوردن باشا فحضر من بلاد الانكليز في ٢٥ يناير سنة ١٨٨٤ . وفي اليوم التالي تشرف بمقابلة الجناب العالي فأصدر لهُ فرماناً بتوليتهِ حاكماً عاماً مفوضاً على السودان وامراً آخر يتضمن الغرض الذي ندب لهُ وهذا فحواهُ : « ان الغرض من ارسالكم الى السودان ارجاع الجنود والموظفين الملكيين والتجار الى مصر وذلك مع حفظ النظام في البلاد باعادتها الى سلالة الملوك الذين حكموها قبل الفتح المصري ولنا مزيد الثقة انكم تتخذون افضل الطرق لاتمام هذه المهمة طبق رغبتنا والسلام »

فسار غوردن في اليوم التالي (٢٧ يناير) قاصداً الخرطوم وليس معهُ من الاعوان سوى ستيورت باشا وابرهيم بك فوزي المتقدم ذكرهما . ويظهر من ارسال الحكومة لغوردن بهذه المهمة وقبول غوردن لها بلا عساكر تعضدهُ ان الحكومة وغوردن لم يدركا حقيقة الحالة التي كان عليها السودان في ذلك الحين . فقد رأيت ان الثورة قد اشتعلت في السودان كلهِ فسقط بعض حامياتهِ في يد المهدي واصبح البعض الآخر تحت الحصار أو في خطر الحصار فكيف يتسنى لرجل واحد مهما اشتدت سطوتهُ وحسنت سياستهُ ان ينتشل تلك الحاميات من مراكزها وفيها نحو ٣٠ الفاً من العساكر ومثل ذلك أو ازيد من الموظفين والتجار وبين الحامية الواحدة والاخرى

مئات من الاميال في برٍّ مقفر ونيل بعيد المدى قابل للانخفاض مع ما فيـهِ من السدود والشلالات . ثم أية سلطة بقيت لسلالة الملوك الاولين بعد السلطة التي حازها المهدي في البلاد واين الرأس الذين يجمع اولئك الملوك ويقف ندًّا للمهدي !

ومما زاد المركز حرجاً الخطة التي جرى عليها غوردن في بدء مهمتهِ : قال حسين باشا خليفة مدير بربر « ان غوردن ارسل اليَّ رسالة برقية من اسيوط يأمرني بها ان ابلغ عمد البلاد واعيانها انهُ سُمي واليًا مفوَّضًا على السودان وانهُ عند وصوله سيعزل جميع الموظفين الاتراك والمصريين ويولّي حكامًا من اهل البلاد ليعيد الحكم كما كان قبل الفتح وانهُ اعفاهم من الاموال الاميرية المتأخرة لغاية سنة ١٨٨٣ ومن دفع الاموال مدة سنتين في المستقبل وانهُ خفض الضرائب الى نصف ما كانت عليهِ والغى الاوامر الصادرة بمنع الرقيق واذن لهم في المعاملة بالرقيق بعضهم مع بعض وامرني بجمعهم في مركز المديرية الى ان يجيء . وعند وصولهِ الى كورسكو ارسل اليَّ كتابًا معنونًا باسم محمد احمد يسميه فيهِ سلطانًا على كردوفان وكتب اليَّ امرًا بارسال الكتاب الى محمد احمد مع رسول خاص مصحوب بهدية وهي جبة جوخ حمراء وقفطان حرير احمر وطربوش احمر ومركوب احمر فأرسلت الرسول والهدية

وعند وصول غوردن الى بربر عقد مجلسًا من العمد والاعيان والقى عليهم خطابًا اعاد فيه ما جاء في رسالتـهِ البرقية اليَّ وقال ان الجناب العالي ترك السودان لاهلهِ واني قادم الى السودان بقصد ارجاع العساكر الى مصر ليس الاَّ . ثم اختار ١٢ عمدة وامرهم ان يشكلوا مجلسًا كل اثنين وخميس ويحكموا فيهِ بالشورى وامرني بأن لا انفذ امرًا الاَّ بعد اقرار المجلس عليهِ . ثم عزل الحكام الاتراك وسمى عبد الماجد ابا الكيلك ومحمد خشم الموس من كبار الميرفاب الاول مأمورًا على الوجه البحري الى حلة برتي والثاني على الوجه القبلي الى حجر العسل . واعلن الجمهور ان كل من اراد الرجوع الى مصر يرسل على نفقة الحكومة فرحل الكثير من التجار والغرباء . ثم اصدر منشورًا صرَّح فيـهِ بتسمية محمد احمد سلطانًا على كردوفان وفتح الطريق بينهُ وبين بربر بعد ان كان مقفلًا والصق المنشور على باب



« امدرمان »

١ الجامع
٢ قبة المهدي
٣ بيت الخليفة
٤ بيت الخليفة ود حلو
٥ بيت الخليفة شريف
٦ بيت سلاطين باشا
٧ بيت يعقوب
٨ بيت الامانه
٩ السجن
١٠ معمل الاسلحة
١١ المشرع
١٢ طابية الكاره
١٣ سوق امدرمان
١٤ حي الملازمية
١٥ مقبرة الشهداء

« جزيرة توتي »

١٦ مخزن البارود
١٧ بلدة توتي

« الخرطوم »

١٨ الجنائن
١٩ الكنيسه
٢٠ الصحة
٢١ البوسته والماليه
٢٢ الحكمداريه
٢٣ سراي الحكومة
٢٤ الترسانه
٢٥ الترسانه
٢٦ القشلاق
٢٧ الاسبتاليه
٢٨ معمل الخرطوش

المديرية وباب الضبطية وفي شوارع المدينة فأخذ الناس يهاجرون الى المهدي افواجاً خصوصاً بعد الذي علموهُ من عزم الحكومة على اخلاء البلاد . وكان في جملة من هاجر اليه محمد الخير الذي افتتح المديرية باسم المهدي فيما بعد ، كما سيجيء

ثم سار غوردن الى الخرطوم فوصلها في ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤. قال نصحي باشا: « فاستقبلهُ على الشاطئ جميع الجند وقناصل الدول ورؤساء الاديان والعلماء . ثم دخل ديوان المديرية وكان غاصاً بعمد البلاد ومشايخها وتجارها فاخرج فرمان توليته من جيبهِ ودفعهُ الى الشيخ حسين المجدي فتلاهُ على الجمهور . ثم وقف بينهم خطيباً وقال بما معناهُ : اني بمقتضى هذا الفرمان قد سُميت حاكماً مفوضاً على السودان لانظر في ما حلَّ فيهِ من المشاكل واسأل الله ان يرشدنا جميعاً الى ما فيهِ اصلاح الحال واطمئنان البال وقد جئتكم وحدي غير مصحوب بالعساكر والاسلحة اعتماداً على معونة الله وولائكم للحكومة وانتم تعلمون شفقتي عليكم ومحبتي لكم من قبل فلا يعيث الباشبوزق بعد الآن في البلاد ولا ترون الا ما فيهِ راحتكم وانماء ثروتكم ونجاح تجارتكم وزراعتكم . ثم اشار الى ستيورت باشا الذي كان بجانبهِ وقال هذا الواقف امامكم هو وكيلي ومعتمدي فاطلب اليكم إطاعة اوامرهِ واعتبارهُ كشخصي . ثم امر فانصرف العساكر الى اماكنهم وذهب الى سراي الحكومة المعدة لسكناهُ واقام فيها

وفي هـذا اليوم أمر فجمعت دفاتر الضرائب على الاطيان في ساحة عمومية ووضعت فوقها السياط وآلات الضرب التي كان يستعملها الحكداريون السابقون واضرم فيها النار . ثم زار السجون فاخلى سبيل الجميع ما عدا القتلة

ثم تفقد العساكر على خط النار فسرَّ من متانة الحصون التي اقامها عبد القادر باشا وكان الجيش مؤلفاً من عساكر مصرية نظامية وعساكر سود نظامية وعساكر باشبوزق اتراك ومغاربة وشايقية فجعل ابراهيم بك فوزي قومنداناً على العساكر المصرية وفرج بك الزيني قومنداناً على العساكر السود والسعيد بك الجيعاني قومنداناً على العساكر الباشبوزق وحسين بك ابرهيم الشلالي وكيلاً لهُ ومنح كلاً منهما بعد ذلك لقب باشا . قال نصحي باشا : ثم شرع غوردن في اخلاء الحامية ففرز

القسم الاكبر من العساكر المصرية وارسلهم بقيادتي الى ام درمان على نية ارسالهم الى مصر والاكتفاء بالعساكر السود الى ان يتم اخلاء البلاد وفرز ستيورت باشا بامره المرضى وعيال الضباط والعساكر الذين قتلوا في شيكان والعساكر غير اللائقين للخدمة العسكرية والمرفوتين من الموظفين والكتّاب وشرع في تسفيرهم شمالاً هم ومن اراد من التجار المصريين وغيرهم وامر ابراهيم باشا حيدر قومندان خط النار سابقاً فذهب الى بربر واقام هناك مأموراً بتسفيرهم هم والتجار المقيمين في بربر فارسلهم عن طريق كورسكو ثم لحقهم . وكان غوردن قد بعث برسالة برقية من كورسكو بعزل حسين باشا سرّي من وكالة الحكمدارية فبرح الخرطوم قبل وصول غوردن اليها بايام وناب عنهُ الكولونل ده كوتلوجن المار ذكرهُ فبرح الخرطوم بعد وصول غوردن بيومين . فكان مجموع من نزل الى مصر قبل انْ سُدت الطريق نحو ١٠٠٠ نفس

﴿ مخازن الخرطوم وشونها ﴾ . وفي صباح اليوم التالي اي ١٩ فبراير تفقد غوردن المخازن والشون والترسانة والخزينة وفتش دفاترها فوجد في المخازن :

٨٧٢	بندقية رمتنون
٢٦٨٠	بندقية طرز قديم
٣١٥,٧٤٠	دستة جبخانة رمتنون
١٠٣,٠٦٨	» » طرز قديم
٣,٧٠٠	» » للمتريليوز
١,٢٦٩	» » جديد
٢,٥١٢	خرطوشة للكروب
١,٩٠٠	دانة كروب قطر ٨
٢٥٠	حلقوم كروب
١,٢٥٥	طلق ساروخ
١٣,٣٢٣	دانة ششخان اجناس للمدفع الجبلي
٢,٠٤٥	حلقوم للمدفع الجبلي
٩,٢٣٤	خرطوشة للمدفع الجبلي
١٣,٧١٠	كلة طرز قديم
٥٧٠	حلقوم لمدفع اوردي طرز قديم
٢٥٥	قنطار بارود حب رفيع للبنادق
٢٧٧	» » خشن للمدافع
١٩	» » ملون للزينة
٣٧٦,٠٠٠	كبسول طرز قديم للبنادق
٨٥٠,٠٠٠	كبسول طرز جديد لبنادق الرمتنون

ووجد في الشون :

٢٣,٥٠٠	اردب دره
١٠٠	اردب قمح
٦٠,٠٠٠	اوقة ارز هندي
١٢٥٠,٠٠٠	اوقة بقسماط
١٤	قنطار عسل
٢٠٠	قنطار تمر هندي
٢١	قنطار ريش نعام
٣,٠٠٠	اردب ملح
٤١٢	قنطار خرتيت
٦٠٠	قنطار صابون
١٠٠٠	قنطار زيت
١٠٠٠	قنطار شحم

﴿ المجلس الوطني ﴾ . ثم نظر في تنظيم مدينة الخرطوم فانشأ مجلساً وطنياً من

اعيانها لفصل المشاكل بين الاهلين . وارسل في طلب عوض الكريم ابي سن شيخ الشكرية ليكون مديرًا على الخرطوم بدلاً من علي بك جلاّب

﴿ منشور غوردن ﴾ ثم وزّع منشورًا على اهل الخرطوم وضواحيها فقال « ان السودان قد فصل عن مصر فصلاً تاماً وقد جئتكم حاكماً مفوضاً عليه فجلعت محمد احمد سلطاناً على كردوفان والغيت الاوامر الصادرة في منع الرقيق واغضيت عن المتأخر من الضرائب لغاية سنة ١٨٨٣ وعن ضرائب سنتين في المستقبل وسأجعل حكومة وطنية من اهل البلاد ليحكم السودان نفسهُ بنفسه وقد ندبت الشيخ عوض الكريم ابا سن ليكون مديرًا على الخرطوم » . وهو القول الذي اشاعهُ في بربر بعينهِ

ولم تعلم الحكمة التي ارادها غوردن في افشاء الغرض من رسالتهِ لاهل السودان ثم في تسمية محمد احمد سلطاناً على كردوفان فان محمد احمد قد اصبح بعد واقعة شيكان سلطاناً معنوياً على السودان كلهِ وسلطاناً فعلياً على جميع السودان الغربي فهل يحتفل بعد بلقب « سلطان على كردوفان » من حكومة جرّد سيفهُ لقتالها وقهر جنودها المرة بعد المرة . وما الفائدة في اعطائهِ هذا اللقب رسمياً ثم ما الفائدة في تبليغ الاهلين قصد الحكومة في اخلاء السودان في مثل تلك الاحوال سوى اظهار العجز امام المهدي وحمل الاهلين الذين كان لهم بقية امل في الحكومة على تركها بتاتاً والانضمام الى المهدي قبل فوات الفرصة

﴿ مناشير المهدي ﴾ وقد تقدم لنا ان المهدي بعد واقعة شيكان اخذ يستعد للزحف على الخرطوم وكتب الى اهل الجزيرة يستحثهم على القيام لنصرة الدين وحصر الخرطوم الى ان يجيء بنفسهِ . وقد جاهر الشيخ محمد البصير حمو المهدي بالثورة في جهات النيل الازرق توًّا بعد واقعة شيكان وحصر صالح المك في فدامي كما سيجيء . وكتب المهدي يتهدد المشايخ الذين لم ينصروهُ بعد وهاك ما كتبهُ الى الشيخ العُبيد ولد بدر (في ام ضبان) واعوانهِ :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

« وبعد فجزيل السلام من عبد ربهِ الواثق بمولاهُ محمد المهدي بن عبد الله الى

حبيبهِ العبيد بدر وكافة من كان لله وبذل نفسهُ في نصرة الدين من عبادهِ المؤمنين اما بعد فالذي نعلمكم بهِ ايها الاخوان ان قد تكررت منا اليكم المخاطبات والانذارات والمواعظ التي يهون في جنبها ارتكاب كل صعب شديد في طاعة الملك المجيد وقد كنا نعدكم للنائبات التي تزلُّ من عدم الصبر عليها اقدام الثقات لتعمير بواطنكم واوقاتكم بذكر الله ودلالتكم لخلق الله وعكوفكم على قدم الصدق التي تنافس فيهِ اهل الله وحزبهُ وانتم اهل دراية ومعرفة وقد علمتم ان القلب اذا خلا من غير الله يمتلي نورًا ويفيض منـهُ الى خلق الله ولا شك ان الرباني المتمسك بالله كامثالكم شأنهُ هكذا وسيماهُ هي عدم الخشية من احد غير الله والى الآن انتم معدودون عندنا لاجل ذلك وقد بلغنـا عنكم عدم الاهتمام والقيام لقتال الكفرة حيث ندبكم محمد الطيب البصير لذلك فتخلفتم عن اجابتهِ وما كان لكم ان ترغبوا بانفسكم عن الله ورسولهِ وتشاركوا المتخلفين عن رسول الله (صلعم) فاي عذر لكم بعد امر الله ورسولهِ وامرنا هـذا وان كنتم في اشد البلايا فان الدين بالبلوى يزيد تجملاً ولا يعرف الذهب من الزيف الا بحرقهِ في النار ولا يرغب عن ملة ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام الا من سفَّه نفسهُ وما اراكم ترضون بذلك لكونكم عندنا من الاخيار فاطلبوا ما عند الله فالبدار البدار وتوبوا ممـا توقفتم لاجلهِ فانهُ لا شيء يعتذر بهِ ويستحي المؤمن اذا وقف بين يدي الله تعالى وينكس رأسهُ ذليلاً منكسرًا حيث آثر الغير على محبة الله وتأنى من طلب الله لاجل شيء ظنهُ عذر وتوانى عن نصرة الله فيود ان تسوى بهِ الارض من شدة وجلهِ وخجلهِ من الله حيث انكشف لهُ حقيقة حالهِ عند الله وبعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور • فاذا بلغك جوابي هذا فشمر وقوّ عزمك في الله وشد حزام العزم والحزم واجمع همك في الله وارسل لجميع اتباعك واحبابك واهلك وعشيرتك في الله وجاهر في معاداة الكفرة واقطع السكك وبارز بالعداوة ظاهرًا وباطنًا بالقتـل والاسر والرباط والحصار ولا تتوقف ابدًا لامر مّا ان كنت ممتثلاً مصدقًا بمهديتنـا افعل ذلك ولا تبالِ حكم ما فعل محمد الطيب البصير وان خشيت فانضم اليهِ وهاجر من

محلك الذي انت فيه واتحد معه كيد واحدة فلا يكون لك بد عن هذا ابدًا فحرض المؤمنين على القتال وسلم نفسك واتباعك من الحساب والسؤال فان من قصد الله ورسولهُ واقامة الدين يجاهد عدو الله ورسوله ولو مع شلكاوي فلا تضر نفسك فلا يكون رضائي عليك الا بفعل ما امرتك من احد الامرين مع عود الافادة الينا عاجلاً لنعلم ما انت عليه والسلام ولا تجاوبنا بغير ما امرناك ولا تبسط لنا الاعذار وها قد انذرناك ومن بلغهُ الانذار لا حق لهُ في الاعتذار والسلام »

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

« وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن عبد الله الى احبابه في الله المؤمنين بالله وبكتابه خصوصاً دفع الله تلميذ العبيد ولد بدر وكافة عصبته ورجاله واتباعه اجمعين اما بعد فالذي نعلمكم به ايها الاحباب انهُ جاء الحق وزهق الباطل وقد علمتم ان خروج المهدي وظهورهُ كقيام القيامة تنصح فيه اهل الدين والايمان ويكشف عن الصادقين من الاحباب وانتم ابناء الطريقة وخدمتها المريدين لحرث الآخرة ومجتهدين فيها وهذه سنة محمد رسول الله (صلعم) قد ظلمت وايدها الله بظهورنا واوجب عليكم طاعتنا ونصرتنا في الله لاقامة الدين وترك كل ما لهى وشغل من مال وبنين. وحيث فهمتم ذلك وفاتتكم الهجرة الاولى وكان الله ورسولهُ والجهاد في سبيله احب اليكم من كل شيء سواهُ فبمجرد وصول جوابنا اليكم صحبة رافعه محمد النابر تحزبوا في الله احزاباً احزاباً وجهزوا حالكم واستعدوا للقتال والجهاد للكفرة بكل ما امكنكم وانضموا الى العبيد بدر وبمجرد سماعكم بحلولنا بالبحر الابيض تقوموا بكامل رجالكم خفافاً وثقالاً وقابلوا الخرطوم بجهتكم التي يقال لها القبة وحاصروا اعداء الله وضيقوا عليهم فان الله يخزيهم وينصركم عليهم فاني موعود بالنصر والظفر عليهم باذن الله تعالى ولو كنت وحدي فمن تخلف بعد مجيئنا فدمهُ هدر ومالهُ واولادهُ غنيمة للمسلمين يكون معلومكم ذلك وبعدهُ السلام . وايضاً كتبنا لوالدكم العبيد بالحصار والجهاد تجاه القبة للخرطوم وانهُ يساعدكم على هلاك الكفرة فتعاونوا عليهم فان المؤمنين كالبنيان يشد بعضهُ بالبعض يكون معلومكم والسلام » اه

وكتب مثل ذلك الى الشيخ المضوي عبد الرحمن المار ذكرهُ ٠ والشيخ المضوي والشيخ العبيد هما كبيرا الطريقة القادرية من فرع تاج الدين البهاري وكثير من اهل الجزيرة والشرق على طريقتها ولم يكونا مصدقين المهدي ولكن عجز الحكومة عن اذلاله اضطرهما الى مسالمتهِ والبقاء على الحياد الى ان ترجح احدى القوتين على الاخرى فيتبعانها ٠ فما زالا يتتبعان اخبار الحكومة والمهدي الى ان كانت واقعة شيكان وقدم غوردن وحدهُ بلا جند بقصد اخلاء السودان وقام الشيخ محمد البصير في الجزيرة وحصر فداسي كما اشرنا قبلاً فلم يريا بعد ذلك بدًّا من الاخذ بقول المهدي والقيام بنصرتهِ فرفعا رايتهُ واخذا يستعدان لحصر الخرطوم

وكان غوردن بعد ان وزع منشورهُ المار ذكرهُ قد ارسل وكيلهُ ستيورت باشا في باخرة على البحر الابيض لاجل تامين الاهالي ومعرفة تأثير المنشور وصحبهُ الشيخ حسين عبد الرحيم شيخ الدويم والشيخ عبد القادر قاضي الكلاكلة وغيرهما من اعيان البلاد فلما وصلوا الدويم وجدوا العربان متجمعين للثورة تحت راية احمد المكاشف وما قربوا منهم حتى بادروهم باطلاق الرصاص فانقلبوا راجعين الى الخرطوم

وفي هذه الاثناء ارسل الشيخ عوض الكريم ابو سن ابنهُ علي الهد الى الخرطوم فأخبر غوردن ان الثورة اشتعلت في جميع بلاد النيل الازرق ومحمد البصير لم يزل محاصرًا لصالح المك في فداسي وان منشورهُ لم يكن لهُ اقل تأثير ولذلك فهو لا يستطيع المجيء الى الخرطوم ويرى ان بقاءهُ في جهات النيل الازرق اصلح للحكومة

فلما علم اهل مدينة الخرطوم حال البلاد قلقوا واضطربوا وجاؤا الى غوردن زمرًا من تجار ومتسببين وصناع من وطنيين ومصريين وافرنج وقالوا لهُ ان كنت لم تزل مصممًا على ارسال العساكر فنسألك ان تسعى في ارسالنا قبلهم ٠ وفرَّ كثير من الوطنيين من المدينة وثاروا مع الثائرين وفي جملتهم الشيخ عبد القادر قاضي الكلاكلة

﴿ طلب غوردن للزبير ﴾ فرأى غوردن الآن ان السودان اذا ترك لاهلهِ فأهلهُ لا رأس لهم يجمع كلمتهم لانهم قبائل شتى لكل قبيلة منهم شيخ أو ملك مستقل عن الآخر فاذا تركهم وشأنهم لم يروا بدًّا من الانضمام الى المهدي القائم بدعوى

الرئاسة على الكون كلهِ . فأراد ان يجعل لهُ في السودان ندًّا تجتمع عليهِ القبائل فترجح كلمتهُ على كلمة المهدي فلم يرَ ندًّا افضل من الزبير لانهُ فضلاً عن علوّ نسبهِ على نسب المهدي فهو معروف عند اهل السودان كافة بالكرم والشجاعة وحسن السياسة واهل الخرطوم وضواحيها هم اهلهُ ولهُ منن جمة على كثير منهم مذكان حاكماً على بحر الغزال ودارفور . وكان الزبير اذ ذاك في مصر فبعث غوردن يطلب ارسالهُ الى الخرطوم ليولّيهُ السودان على الشروط الآتية :

١ . ان يمنح الزبير رتبة فريق والنيشان العثماني الاول ويجعل حاكماً عاماً على السودان الى حد الخندق من اعمال دنقلة براتب ٦٠٠٠ جنيه في السنة

٢ . ان يمنح الحرية المطلقة في ادارة الشؤون الملكية والعسكرية فيولّي من يشاء ويعزل من يشاء وينظم المالية والترسانة والضرائب وجميع انواع الدخل والخرج

٣ . ان يُعطى السلطة لمنح رتب ملكية وعسكرية الى رتبة ميرالاي على ان يطلب عرائضها من خديوي مصر

٤ . ان تجعل لهُ الحكومة المصرية اعانة سنوية قدرها مليونان ونصف مليون جنيه وهي قيمة ما كان ينفق على السودان من قبل وذلك لمدة سنتين فقط

٥ . ان يترك لهُ جميع ما للحكومة في السودان من الاسلحة والذخائر والوابورات

٦ . ان تساعدهُ الجنود الانكليزية على رفع الحصار عن الخرطوم وسنار وسواكن

٧ . ان يشمل السودان جميع بلاد سواكن والقضارف وكسله والقلابات وسنار والخرطوم وبربر ودنقلة الى حد الخندق . اما مصوع وسنهيت فتفصلان عن السودان واما بحر الغزال وخط الاستواء فتخليان ويؤتي بموظفيها الى الخرطوم أو مصر

٨ . ان ينشأ جمرك في سواكن ويُضمّ دخلهُ الى مالية السودان اما في الخندق فلا يكون جمرك بل تعفى البضائع الصادرة والواردة من الرسوم

٩ . ان تبقى تجارة الرقيق ممنوعة بموجب الاتفاق الذي ابرم بين الدولة الانكليزية ومصر

١٠ . ان تحكر طرق السودان لحسين باشا خليفة (مدير بربر) ولذريتهِ من بعده»

وقد صرّح غوردن بأنهُ لا يمكن استرجاع النظام الى السودان ومنع امتداد

الثورة الى مصر الآ بتوليج الامر كله للزبير فجاءهُ الجواب من حكومته في ٢٦ فبراير بعدم استصواب ارسال الزبير فبعث بعد يومين يلح عليها في ارساله ويبين الاسباب ولما لم تجبهُ عاد في ٤ مارس الى الحاحهِ . قيل وكان الجناب العالي والسر أفلن بارنج (اللورد كرومر) ونوبار باشا رئيس مجلس النظار موافقين على ارسال الزبير الى الخرطوم ولكن جمعية ابطال الرقيق في لندن هي التي عارضت في ارسالهِ وشددت المعارضة فجاءهُ الجواب من حكومتهِ في ٥ مارس بأنهُ قد قرَّ الرأي نهائيًا على عدم ارسال الزبير الى الخرطوم

فلما رأى غوردن ان حكومتهُ لا تسمح لهُ بالزبير ورأى استعداد الاهلين لحصر الخرطوم اخذ يهتم بتحصينها فأرجع اليها العساكر المصرية من طابية أم درمان ولم يبقِ فيها سوى اورطة واحدة ومدفع وساروخ لحمايتها . ثم امر فرج باشا الزيني قومندان العساكر السودانية فشكل مجلسًا عسكريًا من الضباط العظام تحت رئاستهِ ونظر في امر الدفاع فقرّ رأي المجلس على وضع جميع العساكر المصرية والسودانية والباشبوزق والمدافع على خط النار بين النيل الابيض والنيل الازرق . عدا اوردي من الباشبوزق يوضع في قصر راسخ بك المعروف بسراي الشرق تجاه سراي الخرطوم . وبلوك من العساكر النظامية ومدفع واحد في طابية المقرن عند التقاء النيلين . مع بقاء الاورطة في طابية أم درمان بالغرب فصدق غوردن هذا القرار ونفّذ في الحال

﴿ واقعة الحلفاية في ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ ﴾ وما أتم غوردن استعدادهُ حتى حضر الجواسيس واخبروهُ بأن الشيخ العبيد زاحف بجيوش تنيف على ٣٠ الفًا لحصر الخرطوم من جهة الشرق فأرسل ٥٠٠ من الباشبوزق مددًا الى سراي الشرق وفتح المزاغل في جدرانها وخندق حولها وانشأ فيها محطة تلغرافية فوصل بينها وبين سراي الخرطوم . ثم ارسل ٥٠٠ من الباشبوزق الشايقية الى الحلفاية لمنع الدراويش من احتلالها . ولم يكن الاَّ القليل حتى اقبلت جيوش الشيخ العبيد وعليها ابناهُ ابرهيم والعباس والشيخ المضوّي ونزلوا على الشايقية في الحلفاية فهزموهم منها بعد ان فتكوا بهم واحتلوها مكانهم . وكان غوردن باشا واقفًا على سطح السراي يشاهد القتال

بالمنظار فلما رأى انهزام الشايقية ارسل ابرهيم بك فوزي في باخرتين مشحونتين بالعساكر فوجد الدراويش قد شادوا المتاريس والطوابي وتحصنوا بها مع انهُ لم يمضِ على احتلالهم اياها سوى بضع ساعات فحاربهم مستبسلاً الى ان سدل الليل حجابهُ فرجع عنهم بعد ان زحزحهم من حصونهم وقد اصابتهُ رصاصة في فخذهِ اليمنى فشوهتها فأنعم عليهِ غوردن برتبة اللواء. وكان تاريخ هذه الواقعة ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وهي اول وقائع حصار الخرطوم

﴿ واقعة الشرق في ١٦ مارس سنة ١٨٨٤ ﴾ وصمم غوردن رأيهُ على طرد الدراويش من الحلفاية فجهز جيشاً مؤلفاً من ٣٠٠٠ من الباشبوزق و ١٠٠٠ من الجهادية ومدفع جبلي وعقد لواءهُ للسعيد باشا ووكيلهِ حسين باشا ابرهيم الشلالي المار ذكرهما فخرجا من سراي الشرق وسارا نحو الحلفاية فالتقاهم الدراويش في منتصف الطريق فانقسموا ثلاث فرق فرقة عن يمينهم في غابة الملاحة وفرقة عن يسارهم شمالي القبة وفرقة امامهم قيل وكان السعيد باشا ووكيلهُ متواطئين معهم على الفتك بالجيش فلما صاروا على بعد مرمى الرصاص لم يأمرا العساكر باطلاق النار فهاج قومندان الجهادية وأمر رجال المدافع ومقدمة القلعة فأطلقوا نيرانهم واخذ الدراويش في الانهزام فأمر حسين باشا اذ ذاك ملازم الطوبجية بالكف عن الضرب ولما لم يفعل ضربهُ بسيفهِ ضربة أطاحت رأسهُ. وامر سعيد باشا البروجي بضرب «نوبة رجعة» ولما اعترضهُ الصاغ قال انا القومندان دون غيري واعاد الامر للبروجي فتوقف فضربهُ بالسيف فقتلهُ ونادى بروجياً آخر فخشي ان يصيبهُ ما اصاب رفيقهُ فضرب نوبة رجعة وأخذ العساكر في التقهقر فعجب الضباط من هذا الامر واخذ خشم الموس ومحمد أغا قرضية وغيرهما من الضباط يستوقفون العساكر للقتال ولكن كان السعيد والحسين يردانهم بالسيف وقد جعل كل منهما طربوشهُ في فمهِ فظنَّ انها العلامة التي اتفقا عليها مع الدراويش. ولم يبقَ في ساحة القتال سوى ضابط من الباشبوزق يدعى مولَى بك وقد كان متوليًا ادارة مدفع فبقي يقاتل الدراويش حتى تكاثروا عليهِ فقتلوهُ واخذوا المدفع وتأثروا العساكر المنهزمين فأدركوا اربعة جمال محملة ذخائر فغنموها.

وكان قتلى الجيش في هذا اليوم نحو ٤٠٠ رجل واما الدراويش فلم يقتل منهم سوى ٢٠ رجلاً . وتاريخ هذه الواقعة الاحد في ١٦ مارس سنة ١٨٨٤ وقد عرفت «بواقعة الشرق» لانها كانت في شرق النيل

وكان غوردن باشا يشاهد الواقعة من سطح السراي وقد كاد يتمزق من الغيظ لما رآهُ من انهزام العساكر فارسل ستيورت باشا الى قصر راسخ ليتحقق سبب انهزامهم فاخبروهُ بالذي جرى فابلغهُ غوردن تلغرافياً فامر باحضار السعيد والحسين الى الخرطوم وشكل مجلساً عسكرياً من الضباط والسناجق برئاسة فرج باشا الزيني لمحاكمتهما وفي اثناء ذلك قدم اهل العساكر الذين قتلوا في الواقعة عرائض شديدة الى غوردن يطلبون بها قتل السعيد والحسين والا قتلوهما بايديهم واظهر التحقيق انهما كانا متواطئين مع الدراويش فحكم المجلس عليهما بالاعدام وصدق غوردن الحكم فقتلا . وانعم على خشم الموس بالرتبة الثالثة وجعلهُ قومنداناً على الشايقية مكافأة لهُ على بسالتهِ في واقعة الشرق

وقد رأيت كتاباً من المهدي الى زقل بتاريخ ١٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ ٥ ابريل سنة ١٨٨٤ يشير فيهِ الى الواقعتين السابقتين قال : ... «وايضاً نعلمكم انهُ في يومي تاريخهِ حضر لنا جواب من الشيخ العبيد بدر يذكر فيهِ بعد ما اتاهُ جوابنا لهُ بالجهاد انهُ وجه ابنهُ ابراهيم العبيد ومعهُ الانصار لاجل محاصرة الخرطوم فوافوا مراكب ملانات عسكر متوجهة للخرطوم تحت حلة الحلفاية فتقابلوا معهم وهزموهم وضبطوا منهم ماية وخمسين عسكرياً من ضباط وغيرهم واستلموا بعضاً من اسلحتهم النارية والباقون ولوا الادبار . وكذلك يوم الاحد الموافق ١٨ جمادى اول سنة ١٣٠١ في ساعة الضحى خرجت اليهم جردة تساوي أربعة آلاف من قيقر قصر راسخ بالشرق فتقاتلوا مع المذكورين فهزموهم في اقل من نصف ساعة وقتلوا منهم ار بعماية نفر واستلموا منهم مدفع وجبخانة اربعة جمال والشهداء من الانصار عشرون شهيداً ...»

﴿ حصار الخرطوم ﴾ وزاد انصار المهدي جرأة بعد واقعة الشرق فتقدموا لحصر الخرطوم وام درمان معاً فنزل ابراهيم بن الشيخ العبيد والشيخ المضوي في قبة خوجلي

فحصرا الخرطوم من الشمال واجتاز العباس ابن الشيخ العبيد النيل الازرق ونزل في الجريف فحصرها من الجنوب من جهة النيل الازرق . ثم ان عبد القادر قاضي الكلاكلة بعد فراره من الخرطوم نادى باسم المهدي فاجتمع عليهِ نحو ٣٠٠٠ رجل واكثرهم مسلحون بالاسلحة النارية فنزل بهم في حلة الكلاكلة وحصر الخرطوم من جهة البحر الابيض . وكان المهدي قد كتب الى مصطفى الامين ام حقين المقيم بجزيرة اسلانج شمالي الحلفاية فجمع نحو ٢٠٠٠ رجل ونزل في خورشنبات فحصر ام درمان من جهة الشمال . وجمع احمد ابو ضفيرة شيخ الجموعية نحو ٢٠٠٠ من عربان الجموعية والفتيحاب ونزل في ابي سعد فحصر ام درمان من جهة الجنوب

ولما استقرَّ بهم المقام ارسل كل منهم كتاباً الى غوردن باشا يدعوهُ الى التسليم وهذا ما كتبهُ اليهِ المضوي كما رواهُ لي :

« اما بعد فقد بلغني انك تزعم ان معظم اهل السودان مجبورون على اتباع محمد احمد المهدي وليس لهم الرغبة فيهِ باطناً وانك تحب خلاصهم منهُ فاعلم ان جميع اهل السودان خاصتهم وعامتهم قد اتبعوا محمد احمد قلباً وقالباً ودليل ذلك بذلهم ارواحهم بين يديهِ في الحروب واني انصح لك ان تفعل أحد أمرين امّا ان تسلم للمهدي فتسلم بمن معك من اهل الخرطوم فيؤتيك الله اجرك مرتين او ان ترحل الى بلادك فتنجو من هذه المهالك فانهُ لا خير لك في البقاء هنا على هذا الحال لانك ان بقيت فلا بد من هلاكك أنت وجميع رجالك والسلام »

فكسى غوردن رسل الزعماء وارجعهم بجواب هذا مفادهُ : « اعلموا ان محمد احمد الذي اتبعتموهُ ليس المهدي المنتظر على ما اثبتتهُ النصوص الشرعية والمعلوم عندي انهُ سلطان كردوفان كما سبقت فاخبرتهُ في كتاب خاص . واما نصيحتكم اليَّ بالتسليم فتدل على جهلكم وغروركم ولا يسوغ لي ان اسلم لكم العساكر والرعية لتعاملوهم بما تعودتموهُ من القتل والنهب والسلب واعلموا انكم اذا لم ترجعوا عما انتم فيهِ ستبلون بجيوش من قبل الحكومة الخديوية والدولة الانكليزية لا طاقة لكم بها والعاقل من تدبر امرهُ والسلام »

﴿ جواب المهدي على كتاب غوردن ﴾ ثم لم يكن الا القليل حتى حضر الرسول (عبدالله العبادي) الذي ارسل بالهدية والكتاب الى المهدي ومعهُ رسولان من قبل المهدي فوقفوا امام السور ورفعوا راية بيضاء فامر غوردن باحضارهم اليهِ وكان رسولا المهدي مسلحين فتقدم المأمور اليهما ليجردهما من سلاحهما قبل دخولهما على غوردن فأبيا فسمح لهما غوردن بالدخول عليهِ بسلاحهما ثم أمر لهما بكرسيين فجلسا وأمر ابراهيم بك رشدي باشكاتب الحكمدارية باستلام ما معهما فاذا بالهدية التي ارسلها غوردن مردودة ومعها هدية من المهدي وهي بدلة من لباس الدراويش وكتاب هذه صورتهُ :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمدلله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآلهِ مع التسليم

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى عزيز بريطانية والخديوية غوردن باشا . قد وصلنا جوابك وفهمنا ما فيهِ والحال انك تزعم ارادة اصلاح المسلمين وفتح الطرق لزيارة قبر النبي (صلعم) واتصال المودة فيما بيننا وبينكم وحل المسيحية من النصارى والمسلمانيين وان تجعلنا سلطاناً على كردوفان فاقول والامر لله اني قد دعوت العباد الى صلاحهم وما يقربهم من ربهم وان يفرغوا من الدنيا الفانية الى دار البقاء ويعلموا بما يصلحهم في آخرتهم وقد كتبت الى حكمدار الخرطوم وانا بأبا بدعايتهِ الى الحق وبان مهديتي من الله ورسولهِ ولست في ذلك بمحيل ولا مريد ملكاً ولا جاهاً ولا مالاً وانما انا عبد احب المسكنة والمساكين واكره الفخر وتعزز السلاطين ونبوهم عن الحق المبين لما جبلوا عليهِ من حب الجاه والمال والبنين وهذا هو الذي صدهم عن صلاحهم واخذ نصيبهم من ربهم فاخذوا الفاني وتركوا الباقي واشتغلوا بما لا يكون من الفانيات ولم يسمعوا قول الله ولا رسولهِ ولم يذكروا خبر القرون الذين لم يغن عنهم ذلك شيئاً وتندموا على قدر الذي تمتعوا بهِ فايدني الله تعالى بالمهدية الكبرى لدلالتهم الى الله تعالى وليتركوا العز الفاني والنعيم الفاني الى العز الدائم والنعيم الابدي في دار النعيم المقيم ولاعزفهم غرور من يريد العاجلة ويظن انهُ ساع في رضاء الله ويكون لهُ نصيب في الآخرة وقد قال المسيح عليهِ السلام يا معشر الحواريين ابنوا على موج البحر داراً تلكم الدنيا فلا تتخذوها

قرارًا ومن ظن انهُ يخوض البحر من غير بلل فهو مغرور فكذلك من ظن انهُ يجمع الدنيا ويريد عزها وجاهها ويكون لهُ في الآخرة شان . فانب الى الله الباقي واخضع لجلاله واطلب عز الآخرة ولا تظن ان هذه الدنيا دار حتى تسعى لملكها وعزها وكيف من يكون على خلاف سكة النبي (صلعم) يفتح باب زيارة قبره ولم يكن النبي (صلعم) ممن يرغب زيارة الكلاب كما ورد ان الدنيا جيفة وطلابها كلاب ولم يكن يرغب من عبد غير الله ونسي الله واعرض عن كلامه وطلب متاع الحياة الفانية فان كنت شفيقاً على المسلمين فبالاول اشفق على نفسك وخلصها من سخط خالقها وقومها على اتباع الدين الحق باتباع سيدنا محمد رسول الله (صلعم) الذي احيا ما اندرس من ملل الانبياء والمرسلين واتى مصدقاً لما بين يديه من الكتب فجميع الانبياء عليهم السلام لو حضروهُ لما سلكوا غير ملته وكلهم يتمنون ان يكونوا من امته ومن حضر بعثتهُ وما بعد لا يقبل منهُ ديناً غير سكته فطهر نفسك اولاً بالدخول في ملته ثم اشفق على امته بسلوك سنته فعند هذا فانت الشفيق ومن غير هذا فما لك من المحقين رفيق كيف وقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فانهُ منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين الى ان قال وليكم الله ورسولهُ والذين آمنوا الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم راكعون ومن يتول الله ورسولهُ والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون وانا قد امتثلنا امر الله فما نتخذ ولياً الا الله ورسولهُ والمؤمنين وعلى ذلك قد وعد الله الغلبة كما سمعتهُ من قول الله . هذا وما دام ان الله يقول لهم الغالبون فلا غلبة لغيرهم فان رجعت عما انت عليه من ملة غير الاسلام وانبت الى الله ورسوله واخترت الآخرة نتخذك ولياً وتكون من اخواننا وتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله وتكون ممن امتثل امر الله بعد هذه الآيات فاستحق الوعد والبشارة في قوله تعالى ولو ان اهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولادخلناهم جنة النعيم ولو انهم اقاموا التورية والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم الآية فبعد هذا تتصل المحبة والمودة فيما بيننا وبينك وتكون ممن عمل

بالقرآن والتورية والانجيل وتكون قد اتبعت باتباع نبينا محمد (صلعم) عيسى وجميع
الرسل والنبيين وحزت الخير الابدي . والا حيث علمت ان حزب الله الذين وليهم
الله ورسولهُ والذين آمنوا هم الغالبون من كلام الله فاعلم ان حزب الله واصل اليك
ومزيل لك عما شاركت بهِ الله خالقك فاستدعيت ملك عبادهِ وارضهِ مع ان
الارض لله يورثها عباده الصالحين واما المسلمانيون والمسيحيون الذين دعوت بطلقهم
اليك فانا اريد لهم الصلاح والنفع عند الله وفي دار الابد كما اريدهُ لك ولكافة عباد
الله فلا ابعدهم من جنتهم الى محنتهم فان الله قد ايدني رحمة للعباد لانقذهم من
الهلاك الذين هم واقعون فيهِ لو لا رحمة الله بظهوري فيهم . واعلم اني المهدي المنتظر
خليفة رسول الله (صلعم) فلا حاجة لي بالسلطنة ولا بملك كردوفان ولا غيرها ولا
في مال الدنيا ولا زخرفها وانما انا عبد الله دال الى الله والى ما عندهُ فمن كان سعيدًا
اجابني واتبعني ومن كان شقيًا اعرض عن دلالتي فازالهُ الله عن موضعهِ واذلهُ
وعذبهُ عذاب الابد وقد ايدني الله تعالى بالانبياء والمرسلين والملائكة والمقربين
وجميع الاولياء والصالحين لاحياء دينهِ وقد بشرني النبي (صلعم) ان جميع من يلقاني
بعداوة يخذلهُ الله ويهزمهُ ولو كان الثقلين الانس والجن فلا تغتر فتهلك كما هلك
اخوانك فافهم وسلم تسلم . واما الهدية التي ارسلتها لنا فعلى حسب نية الخير جزاك الله
الخير وهداك الى الصواب واعلم انهُ كما كتبنا لك انا لا نرغب متاع الحياة الدنيا
وزينتها وانما هي قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب فها هي مرسلة اليك
مع ما نرغبهُ من اللبس لنفسنا ولاصحابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون ما عند
الله من الخير الباقي الابدي ليستحقوا بذلك نعيم الابد وملك الدوام كما درج على
ذلك الانبياء والمرسلون وجميع السعداء من عباد الله الصالحين وتعلم ذلك انت حقيقة
من سيرة عيسى عليهِ السلام وحواريهِ وقد قال كيت لكم الدنيا فلا تنعشوها بعدي
فتعلم بذلك ان من خالفهُ من الاحبار والرهبان وجميع من يدعى اتباعهُ ليسوا محقين
وانما غرتهم الحياة الفانية والامتعة الآئلة الى ان تكون جيفة وعذرة ثم عدما محضا
فتكون حسرة وندمًا عند فراقها ولما فوتتهُ من اكتساب خيرات الدوام . ثم ان مثل

هديتك عندنا كثير ولكن اعرضنا عنهُ طلباً لما عند الله واقول لك في ذلك كما قال سليمان عليه السلام لبلقيس وقومها اتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتيكم بل انتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون • واعلم انك اذا اتيتنا مسلماً نريك ونريك من النور ما يطمئن به قلبك ويزول به طمعك في الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك ان رأينا فيك خيراً وصلاحاً للمسلمين وليناك كما فعلنا ذلك بمحمد خالد المشهور بزقل مدير داره سابقاً فانهُ لما اتانا ورأى الحق وفرح بلقائنا غاية وندم على ما فات مما ضيعهُ من عمره في الفاني فاطمأن قلبهُ بالله واختار الآخرة ووثق بالله وليناهُ على دارفور وقد كتب لنا قبل ذلك عبد القادر سلاطين بالتسليم فاكرمناهُ والى الآن نريد كمال تربيته وهو الآن في خير كثير وكذلك السيد جمعه الذي كان مدير الفاشر الآن ارسلنا الى محمد خالد المذكور يأتي به الينا لكمال التربية والارشاد وبلغنا حسن اسلام الدمتري سجاده وصدق اتباعه لنا وانابتهُ للآخرة • وكذلك جميع امراء النقط بدارفور قد اذعنوا لله كباقي سلاطين دارفور وسلموا جميعاً امرهم الينا في حب الله ورسوله بحسن تسليمهم واتباعهم لنا • وكذلك الملك آدم ملك جبال تقلى الآن أتى مهاجراً لما رأى الحق وحسن اتباعه وصدقه وقد اكرمناهُ وهو الآن معنا بخير كثير وهلمَّ جرًّا فكل سعيد لا بد ان يتصل بنا من جميع اقطار الارض ومن أبى لا بد ان يخذلهُ الله ويعذبهُ في الآخرة كما اشار الى ذلك النبي (صلعم) مراراً • وليكن معلوماً عندك يا حضرة الباشا ان جميع الذين قتلوا على يدي قد انذرتهم اولاً انذاراً بليغاً وها هي واصلة اليك انذار ولد الشلالي بعد مخاطبته لي وانذار هكس بأجوبة عديدة للعامة وجواب مخصوص لهُ ولاكابر جيشه وقد ارسلنا الى باشة الابيض بجواب فقتل رسلنا وبعد ان وقع في يدنا اكرمناهُ واعطيناهُ جبة جميلة ليتدرج الى الصدق مع الله ولا زلنا نكرمهُ ونعظمهُ ليقتدي بنا ويصدق مع الله فيكون من الاصحاب الذين هم كالنفس فلم يصدق ولا زال يقع فيما يهلكهُ ونحن نصفح عنهُ حتى اخذتهُ نيتهُ فمات ومع ذلك لاجل مبايعته لي ومجالسته معي اياماً قد اتانا خبر بعد

موته انهُ عفي عنهُ في الآخرة فصار من السعداء والعبد اذا كان يسعد في الآخرة فهو المقصود ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها بل انما متاعهـا يكثر الحسرة والحبس فقط يوم القيامة ونبتغي بالعباد سعادتهم في آخرتهم الابدية وازالة الهلاك عنهم من الله ولذلك لاطفت جميع الاكابر واهل الدولة بالقول والفعل ليعرفوا ما عند الله فيرغبوا فيهِ ويتركوا الحسيس الفاني وهكذا جميع من وقع في قبضتنا من الاكابر من الدولة والحكام ما عملنا معهُ الا الخير والاكرام فمن صدق منهم معنا فهم الآن في خير كثير وازدياد شرف السلام ٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ﻫ ٥ مارس سنة ١٨٨٤ م

« و بعد هذا البيان فان اهتديت وسلمت لي واتبعتني حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت بأجرك وبأجر جميع من اتبعك والا هلكت فكان عليك اثمك ومثل آثام جميع من اتبعك وان كان لك حسن نور في العقل تعلم اني خليفة رسول الله (صلعم) فلا تتهمني فيما اسوق بهِ الى الله والدار الآخرة ولم تسمع عليَّ قول الظلماء الحساد الذين يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الاَّ ان يتم نورهُ وقد قال (صلعم) من شك في نصرة المهدي فليقرأ قولهُ تعالى هو الذي ارسل رسولهُ بالهدى ودين الحق ليظهرهُ على الدين كلهِ ولو كره المشركون وقولهُ كلما أوقدوا نارًا للحرب اطفأها الله ولزيادة الشفقة عليكم لزمت التحشية بهذا والهادي هو الله وكثرة البيان لا تهدي هدانا الله والعباد على الصواب آمين »

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

« و بعد فمن عبد ربه الفقير الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى غوردون باشا باطلاعك على ما تدوَّن بالجواب اليك تعلم باطنهُ وبهِ كسوة الزهاد اهل السعادة الكبرى الذين لا يبالون بما فات من المشتهيات طلبا لعالي الدرجات وهي جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقية وحزام وسبحة فان انبت الى الله وطلبت ما عندهُ لا يصعب عليك ان تلبس ذلك وتتوجه لدائم حظك وها هو الرسول الذي أتى منك واصل اليك مع رسل من عندنا كما طلبت والسلام »

وكتب على الغلاف : « سألتك بحق الله ونبيهِ عيسى عليهِ السلام ان تقف

على اجوبتنا هذه بالحرف وقد بلغني محمد سعيد المسلماني الذي يسمى جورجي اسلامبوليه ان رجلاً يسمى السيد افندي نعيم الاجزجي انهُ لهُ معرفة بلغتكم و بالخط العربي وما دام انهُ يعرف الخطين واللغتين نرغب منكم الوقوف على ما في هذا الظرف جميعهُ حرفياً على يد المذكور أو أما هو مثلهُ وقد سألتك السؤال المذكور لما ذكرتهُ والسلام اه »

فلما ترجم الكتاب لغوردن استشاط غضباً ودفع الهدية برجلهِ وأمر ابراهيم بك رشدي فأحرقها ثم اوعز اليه فكتب جواباً هذه مفادهُ :

« من غوردن باشا والي السودان الى محمد احمد المتمهدي : وصلني كتابك الركيك العبارة العاري عن المعنى الدال على سوء نيتك وخبث طويتك وعن قريب ستبلي بجيوش لا طاقة لك بها وتكون انت المسؤول امام الله عما يسفك من الدماء كما انك أنت المسؤول الآن عمن أعميت قلوبهم وغشّيت بصائرهم ويتمت أطفالهم وخربت ديارهم وكنت لا ارى حاجة الى مخاطبة رجل مثلك جاحد النعمة عادم الذمة لكني تعلقت باذيال الامل راجياً من الله عزَّ وجل ان يتجلّى على فكرتك الخامدة فتلقي النصيحة يد القبول وتعلو متن سلطنة مكنتك منها وكان دون نيلها خرط القتاد وها انا مستعد لقدومك ومعي رجال اقطع بهم انفاسك والعاقل من تدبر والسلام »

وكان غوردن قد جمع العلماء في الخرطوم فكتبوا نصحاً شرعياً بينوا فيهِ بطلان دعوى محمد احمد وحكموا بتكذيبهِ فسلم غوردن هذا النص والكتاب الى الرسولين واعادهما الى محمد احمد في الابيض واخذ يستعد للدفاع

﴿ تجنيد المتطوعة والباشبوزق ﴾ ورأى غوردن قلة العساكر على خط النار فجنّد بعض ارادي باشبوزق جديدة وجمع جيشاً من المتطوعة من اهل المدينة ومرّنهم على حمل السلاح واستعماله ووضعهم على خط النار مع العساكر المنظمة فاجتمع في الخرطوم اذ ذاك من الباشبوزق والمتطوعة من قديم وحديث ٣٢ اوردياً في كل اوردي من ٥٠ الى ٣٠٠ رجل وجعل عليهم ثلاثة رؤوس وهم : خشم الموس بك على الباشبوزق الشايقية والمولدين والسودانية وميتو بك على الباشبوزق الاتراك

وعبد القادر بك حسن على العساكر المتطوعة وكان معهم ست اورط نظامية ثلاث مصرية وثلاث سودانية وفيهم الاورطة المصرية في طابية أم درمان والكل بقيادة فرج باشا الزيني السوداني

﴿ تقوية الاستحكام ﴾ وتفقد غوردن الاستحكام على عادته فحصن طابية بُرّي و بنى حائطاً على خط النار بعلو ٢٠ سنتيمترًا وفتح فيهِ المزاغل ليكون سترًا للعساكر يقيهم نار العدو ويمكّنهم من اجادة اطلاق النار ٭ هذا وكان من مآثر عبد القادر باشا انهُ صنع عددًا كبيرًا من الاهرم الفارغة التي توضع امام الخندق لتكون عثرة في سبيل العدو عند هجومهِ فأمر غوردن فرميت على مسافات مختلفة امام الخندق ولكن لم يكن منها عدد كافٍ فعمل ما يعبر عنهُ في فن الاستحكام « بالشرخ فلك » وهي أوتاد من الاخشاب الصلبة المحدّدة الاطراف تغرز في الارض بعضها بجانب بعض وتربط بأسلاك على هيئة شباك وقد جعل ذلك على بُعد عشرين مترًا من الخندق ٭ ثم صنع دانات فارغة وملأها بارودًا ومواد فصفورية تلتهب بمجرد اللمس وجعلها على بُعد ثمانين مترًا من الشبكة وذلك على طول الخط من النيل الازرق الى النيل الابيض ٭ وقد فعل مثل هذه الاحتياطات في طابية ام درمان

ورأى ان الباشبوزق لا يصلحون لحماية سراي الشرق لانهم كانوا يتركون السراي ويأتون الخرطوم بلا ترتيب فأتى بهم الى الخرطوم وارسل بدلهم بلوكين من العساكر النظامية ٭ وكان الباشبوزق في الخرطوم يتركون خط النار ويدخلون المدينة بلا اذن فنهاهم عن ذلك وجعل عليهِ قصاصاً شديدًا ومنح خشم الموس لقب بك وامرهُ بملاحظة اصحابهِ وحملهم على حفظ النظام ٭ ثم انشأ نقطاً تلغرافية في كل مركز من مراكز الاستحكام فوصلها بالسراي

﴿ تحصين الوابورات ﴾ وكان في الخرطوم من الوابورات : « بوردين والصافية وتل حوين والتوفيقية والمنصورة والفاشر والاسماعيلية وعباس وشبين والمسلمية والحسينية ومحمد علي » فأصلحها وحصّنها وجعل في اكثرها العساكر والمدافع وجعل اثنين منها في النيل الازرق واثنين في النيل الابيض لحماية الخندق من طرفيهِ وجعل

وابورًا عند المقرن لتقوية طابيتهِ . ثم امر مدير الترسانة فبنى وابورًا صغيرًا كوابور عباس وسماهُ الزبير فعُرف بعد ذلك بالطاهرة وغرق في واقعة الحفير سنة ١٨٩٦ كما سيجي

﴿ الغاء المجلس الحسبي واعادة المحافظة ﴾ هذا وكان اهل المدينة بعد واقعة الشرق قد اضطربوا وفقدوا الوازع فأطلق بعضهم عيارًا نارياً على ستيورت باشا فأخطأهُ فألغى غوردن المجلس الوطني الذي شكلهُ يوم وصولهِ الى الخرطوم لانهُ لم يقم بالواجب عليهِ واعاد الضابطة . قال نصحي : وقد عهد بها اليَّ وجعل الصاغ السيد افندي امين وكيلاً لي . فنظمت مع الضابطة ديوان محافظة ووضعت خفرًا عسكريًّا في كل جهة من جهات المدينة الاربع وفي الشوارع والاسواق والمعادي واصدرت منشورًا لاهل المدينة فحذَّرتهم من اطلاق الاسلحة النارية داخل المدينة ومن الخروج ليلاً من منازلهم وتهددت من يخالف ذلك بالاعدام فاستولت السكينة على المدينة واستتب الامن فوجه لي غوردن رتبة الميرالاي ولوكيلي رتبة البكباشي ثم ألغى الضابطة وأبقى ديوان المحافظة وجعلني محافظ المدينة » . فلنترك الآن غوردن يستعد للدفاع والعصاة يحصرونهُ من كل جهة ولننظر ما كان من الثورة في بربر ودنقله وسنار فنقول :

الفصل الثالث عشر

في

﴿ وقائع الثورة في بربر سنة ١٨٨٤ ﴾

﴿ محمد الخير ﴾ اما اهل بربر فقد كان وجدهم على الحكومة اشدّ من وجد غيرهم عليها لانهم لم ينسوا فظائع الدفتردار في بدء الفتح ثم ظلم الحكام وجباة الضرائب ومفتشي الرقيق من بعدهِ لكنَّ قربهم من مصر وشدة علائقهم التجارية بها مع وجودهم بين القوات العسكرية بين بربر والخرطوم ذلك كلهُ اضطرهم الى التربص للفرصة حتى جاءهم غوردن وفتح الطريق الى كردوفان واعلن عزم الحكومة على اخلاء السودان فشرعوا في المهاجرة الى المهدي . وكان في جملة من هاجر اليهِ استاذهُ محمد الخير وهو مدرّس مدرسة الغبش ولهُ راتب شهري يجري من الحكومة

قدرهُ ٤٠٠ غرش وشيء من الحبوب . وهو قصير القامة صغير العينين اسود اللون ولهُ لحية يدوّرها وقد كان المهدي يكاتبهُ ويلح عليه بالحضور اليهِ وهو يتردّد في الامر حتى جاء غوردن وعلم منهُ عزم الحكومة فأقرّ على السفر الى المهدي . وكان محمد الخير صديقاً لحسين باشا خليفة مدير بربر قبل فأطلعهُ على سرّه واراهُ التحارير التي اتتهُ من المهدي وقال «ان الحكومة قد اقرّت على اخلاء السودان فأي خير لنا في البقاء معها وما الذي تقولهُ للمهدي بعد ذهابها واحتلالهِ مكانها» . فقال لهُ حسين باشا «اذاً بادر اذهب الى المهدي وانظر في امرهِ فان وجدتهُ مصيباً عدت الى بربر فكنت حاكمها الشرعي وانا حاكمها السياسي الى ان يفتح المهدي الخرطوم ويأتي بربر فنسلمهُ اياها بمخازنها وخزائنها» . وقد اراد حسين باشا بهذا الرأي ان « يمسك الحبل من الطرفين » ويكون الحاكم في الحالين . فذهب محمد الخير الى المهدي في كردوفان فتلقاهُ بالبشر والسرور وسماهُ عاملاً عاماً على بربر واصحبهُ كتباً الى رؤوس قبائلها يدعوهم فيها الى طاعتهِ والجهاد ضدّ الترك فعاد محمد الخير من عند المهدي في ٢٧ ابريل سنة ١٨٨٤ م ونزل في وادي بشارة على النيل

﴿ الشيخ الهُدَي الشايقي ﴾ وكان في تلك الوادي شيخ من مشايخ الشايقية السواراب يسمى احمد الهدى وهو غير مصدق المهدي فارسل اليهِ المهدي سيفاً جميلاً والف ريال وامرًا بالامارة على دنقلة فقبل الهدية وبايع محمد الخير باسم المهدي

﴿ الحاج علي ود سعد النفيعابي ﴾ ثم سار محمد الخير شمالاً يصحبهُ احمد الهدى وهو يدعو الناس في طريقهِ فيجيبونهُ حتى دخل المتمة بجيش كبير . وكان في جملة من هاجر الى المهدي في كردوفان عبد الله ود سعد من كبار النفيعاب الجعليين في المتمة فاعطاهُ المهدي امارة لاخيهِ الاكبر الحاج علي ود سعد فقبل الحاج علي الامارة وجمع قومهُ للجهاد فلما وصل محمد الخير المتمة بايعهُ باسم المهدي وانضم اليهِ

﴿ احمد حمزة السعدابي ﴾ هذا وكان اول من رفع راية المهدية في بربر احمد حمزة السعدابي من اقارب الملك نمر هاجر الى المهدي سنة ١٨٨٣ وحضر معهُ واقعة شيكان ورجع من عندهِ اميرًا على قومهِ فنصرهُ عرب البطاحين واخلاط من العرب

ونزلوا على السبلوكة وكان فيها محمد افندي وهبه محافظاً وقد كان قبل الآن مأموراً لجمع الضرائب فلما مرَّ غوردن ببربر منعهُ من جمعها وجعلهُ في السبلوكة مع ٢٠٠ رجل ووابور لمراقبة الجعليين وموافاته باخبارهم الى الخرطوم فلما جاء محمد حمزة ورأى انهُ لا طاقة لهُ على حربهِ فرَّ بالوابور الى شندي فتحصن في ديوان حكومتها فحصرهُ محمد حمزة فيها وبقي في الحصار الى ان قدم محمد الخير الى المتمة فركب النيل وفرَّ بعساكره الى بربر. وانضم محمد حمزة الى محمد الخير. وكان محمد حمزة قد قطع خط التلغراف بين بربر والخرطوم فارسل محمد الخير بعض رجاله فقطعوهُ بين بربر ومصر وكان قطعهُ من اكبر الضربات على غوردن

﴿ الامين احمد المجذوب ﴾ وتقدم محمد الخير بجموعهِ الى الدامر فبايعهُ الامين احمد المجذوب كبير المجاذيب في الدامر وانضم اليهِ

هذا ويظهر ان محمد الخير صدق المهدي واتحد معهُ قلباً وقالباً فلم يعد يرضى بالذي قرَّ عليهِ مع حسين باشا. قيل وكان بعض اهالي بربر مرتابين من صدق محمد احمد فقالوا لمحمد الخير « انت اميرنا وعالمنا ونحن نعتمد على علمك فان كان محمد احمد هـذا ليس بالمهدي فانت تحمل ذنبنا يوم القيامة » فقال ويدهُ على لحيتهِ « اذا لم يكن محمد احمد هو المهدي المنتظر فأمسكوني بلحيتي هذه وطالبوني بذنبكم امام الحق عزَّ وجل » ولكنهُ لم يمت حتى رأى انهُ كان في شطط وندم على ما قال اشد الندم

﴿ دعوة حامية بربر الى التسليم ﴾ وكتب من الدامر الى حسين باشا وضباط الحامية يدعوهم الى التسليم ويقول « ان خديوي مصر قد ترك لنا بلادنا فسلمونا اياها والا فنحن مصممون على قتالكم حتى نخرجكم منها بالرغم » . وكتب ايضاً الى اهل المدينة يدعوهم الى التسليم فخرج اليهِ عبد الماجد محمد خوجلي ابن اخيهِ ثم عبد الماجد ابو اللكيلك وخشم الموس محمد اللذان سماهما غوردن مأمورين على بربر كما مرَّ

وكان على المدينة خندق عظيم محيطهُ نحو ٧٠٠٠ متراً ولم يكن فيهِ من العساكر سوى ١٦٠٠ النصف باشبوزق والنصف عساكر نظامية مصرية والكل بقيادة البكباشي محمد افندي فهمي المصري وقد انتشروا على خط النار فكان بين الجندي

الواحد والآخر اربعة امتار وزيادة. وكان حسين باشا قبل قطع المواصلات التلغرافية يسأل غوردن عما يفعلهُ فيعدهُ بوصول المدد اليهِ قريباً من مصر ويسأل مصر فتصرّح لهُ بعدم تيسر المدد فلم يكن يدري ما يفعل فلما جاءهُ كتاب محمد الخير عقد مجلساً من الضباط والسناجق وقرأ لهم الكتاب وسألهم عن رأيهم فيهِ فقالوا كلهم بصوت واحد « الموت ولا التسليم » وكتبوا في ذلك الى محمد الخير فاعاد اليهم الانذار رفقاً بهم فعادوا الى جوابهم الاول

﴿ حصار بربر ﴾ فلما رأى اصرارهم على الحرب سيَّر عليهم الجيوش من الدامر تباعاً ثم جاء في آخرها فوصل بربر في ١٢ مايو سنة ١٨٨٤ فنزل مع الحاج علي ود سعد وعبد الماجد الكيلك المار ذكرهما في حلة الدكة فحصر بربر من الشمال وأمر سعد ود سالم المشهور بود بنونة من السعداب فنزل في قوز الفونج وحصرها من الجنوب وحصرها البشاريون واخلاط من الجعليين من الشرق وكان مجموع جيوشهِ نحو ٤٠ الفاً من مشاة وفرسان وكثير منهم مسلحون بالاسلحة النارية . وعند وصولهِ جدّد الكتابة الى الحامية يدعوهم الى التسليم حقناً للدماء. وكان الرباطاب قد اسروا علي باشا وهبي في بلادهم وهو مسافر الى مصر فأرسلهُ محمد الخير الى اهل الحامية مع الكتاب لحثهم على التسليم فأبوا الاَّ الحرب. وفي صبيحة يوم الجمعة ١٦ مايو سنة ١٨٨٤ اطلقوا نيران المدافع والبنادق على الدراويش فأجابهم الدراويش باطلاق النيران من كل جهات الحصار وكان في جهة الدكة بستان فيهِ قصر شامخ يطلّ على العساكر في الخندق فاحتل الدراويش القصر وصاروا يوالون اطلاق الرصاص على العساكر فيفتكون بهم . وكان قومندان العساكر قد تنبّه لهذا القصر واراد هدمهُ فمنعهُ حسين باشا لانهُ لوكيل المديرية فكان اشد البلاء الذي اصاب الحامية من هذا القصر

سقوط بربر الاثنين في ٢٣ رجب سنة ١٣٠١هـ ١٩ مايو سنة ١٨٨٤م

ولما كان فجر الاثنين ١٩ مايو سنة ١٨٨٤م ٢٣ رجب سنة ١٣٠١ هـ (وفي قمر السودان ٢٢ منهُ) صلى محمد الخير بأصحابهِ صلاة الصبح وامرهم بالحملة على العساكر في خندقهم وأمر الذين في القصر فوالوا اطلاق النار على الحامية وفتحوا طريقاً

للهاجمين فدخلوا الخندق من تلك الجهة ومن جهة النيل واعملوا السيف والحربة في العساكر وكان معظم العساكر لما رأوا العصاة قد دخلوا الخندق تركوا الخط ودخلوا منازلهم أو ركبوا الوابور والمراكب واجتازوا النيل الى البر الغربي ولم يبقَ على الخط سوى البلوك الثالث من الاورطة الثالثة من العساكر النظامية وأوردي علي أغا اسلام وأوردي محمد أغا حسن عوض الله العبادي من العساكر الباشبوزق فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم رحمة الله عليهم . واما حسين باشا فانهُ دخل منزلهُ مع القواصة وبعض العساكر واغلق بابهُ فبعث اليهِ محمد الخير بالامان فسلم لهُ . وما زال الدراويش يتعقبون العساكر ويقتلونهم الى قرب الظهر فنادى المنادي فكفوا عن القتل وكان مجموع الذين قتلوهم في ذلك اليوم نحو ١٠٠٠ رجل واسروا الباقين وصادروهم في اموالهم الاّ حسين باشا فانهم لم يمسوهُ بسوء . وكان في خزينة بربر مبلغ ٥٥٨١٢ جنيهاً قد أرسلت من مصر الى غوردن ثم سُدّت الطريق فبقيت في بربر مع امانات اخرى في الخزينة تبلغ قيمتها نحو ٨٠٠٠ جنيهاً فكتب محمد الخير الى المهدي ثاني يوم الفتح يعلمهُ بالفتح والخزينة واسر حسين باشا ويسألهُ عما يفعل فارسل المهدي ابراهيم ود عدلان فاحضر المال من الخزينة فضمهُ الى بيت المال وكتب الى محمد الخير فارسل اليهِ حسين باشا مع وكيلهِ عمر بك العمراني وكان المهدي اذ ذاك في الرهد . قال الكحّال : فوصل حسين باشا الرهد في ١٠ رمضان سنة ١٣٠١ ٤ يوليو ١٨٨٤م فامر المهدي الخليفة علي ود حلو فاستقبلهُ في ظاهر الديم باحتفال عظيم . وقبل وصولهِ الى زريبة المهدي وضع جنزيرًا من الحديد في عنقهِ وحثا التراب على رأسهِ وتقدم للمهدي ذليلاً وهو لابس الجبة المرقعة فبايعهُ فقرّبهُ المهدي وجعلهُ من خواصّ رجالهِ وبقي في اسرهِ الى ان دبّر الحيلة ونجا الى مصر ، كما سيجيء

واما العساكر الذين وقعوا في الاسر فقد امّر عليهم حسن افندي شريف احد معاوني المديرية ومن اقرباء الحاج علي ود سعد . ولما فتحت الخرطوم ذهبوا الى ام درمان فبايعوا المهدي وعادوا الى بربر يسعون وراء الرزق في سوق المدينة وكلما سنحت فرصة لواحد منهم فرّ الى مصر حتى لم يبقَ منهم الى الفتح الاخير الا القليل

الفصل الرابع عشر

في

﴿ وقائع الثورة في دنقلة سنة ١٨٨٤ م ﴾

﴿ الشيخ الطيب وواقعة الدّبة الاولى في ١٨ مايو سنة ١٨٨٤ ﴾ تقدم ان المهدي ارسل الى الشيخ الهدي امرًا بالامارة على دنقلة فسار مع محمد الخير لحصار بربر وارسل خالهُ ود عبود بكتاب الى الشيخ الطيب الشايقي السوارابي في جهة مروي يسميهِ اميرًا على الشايقية ويستنهضهُ للقيام بنصرة المهدي فنادى في الشايقية باسم المهدي ونزل بهم على دار الحكومة في مروي فنهب الخزينة والشونة وسار في وجههِ شمالاً يستنفر اهل البلاد للجهاد. وكان المدير على دنقلة في ذلك الحين مصطفى باشا ياور من كرام الشراكسة وقد اشتهر بالتعبد والتقوى مع حسن التدبير والاستقلال في الرأي وقد كتب اليهِ المهدي من كردوفان يسألهُ التصديق بهديتهِ فأجابهُ بما ارضاهُ واحسن الى اقاربهِ في دنقلة قصد مخادعتهِ فكتب اليهِ المهدي بالامارة على دنقلة. وكان مصطفى باشا يظن انهُ بهذه المخادعة يضمن راحة مديريتهِ ويأمن دخول الثورة اليها لانهُ لم يكن معهُ سوى اورطة من العساكر المنظمة و ٦٠٠ من الباشبوزق و بضعة مدافع فلما سمع بخبر الشيخ الطيب اخذ ١٠٠ من العساكر النظامية و٤٠٠ من الباشبوزق ومدفعين وسار قاصدًا الشيخ الطيب حتى وصل الدبة فعلم انهُ نازل في دبة الفقرا قريباً منهُ فتحصن في طابية الدبة فعول الشيخ الطيب على حصرهِ وكان قد اجتمع عليهِ نحو ٦٠٠٠ رجل مسلحين بالسيوف والحراب و بعضهم مسلح بالبنادق فجعلهم قسمين غير متساويين فأتى بالقسم الاكبر الى الكرو شمالي الدبة وأبقى القسم الآخر في دبة الفقراء جنوبيها فخرج مصطفى باشا بمعظم قوتهِ و باغت جيش الكرو فقتل منهُ ٣٠٠ رجل وجرح مثل ذلك وفيهم الشيخ الطيب وانهزم الباقون الى اخوانهم في دبة الفقراء فتبعهم مصطفى باشا اليها بعد ظهر ذلك اليوم بجميع قوتهِ واشعل فيهم النار فقتل منهم ٥٠٠ رجل وشتت الباقين كل مشتت ولم يقتل من عسكرهِ

احد . وكان ذلك يوم الاحد في ١٨ مايو سنة ١٨٨٤ م اي قبل سقوط بربر بيوم

﴿ الشيخ الهدي وواقعة الدبة الثانية في ٢٩ يونيو سنة ١٨٨٤ ﴾ فلما سقطت بربر لم يلبث الشيخ الهدي ان برحها بنحو ٣٠٠ من اهل الشايقية و ٥٠ عسكرياً سودانياً حاملين البنادق وجاء بلاد الشايقية بطريق الدقاييت ونادى بالنفير فاجتمع عليهِ اهلهُ الشايقية والشيخ نعمان ود قمر شيخ المناصير وبعض بادية الحسانية والهواوير فزحف بهم عن يسار النيل قاصداً الدبة . وكان مصطفى باشا بعد طردهِ الشيخ الطيب من الدبة عاد الى الاوردي بالعساكر المنظمة وترك فيها العساكر الباشبوزق بقيادة النور بك من سناجق الارناؤط ووكيل المديرية جودت بك فبنى جودت بك طابية صغيرة على قدر العساكر وحصنها بالمدفعين ولما سمع بقدوم الهدي بعث بالخبر الى مصطفى باشا فأرسل الى مصر في طلب المدد فلم يُسمع لهُ فجمع نحو ٢٠٠٠ رجل من المتطوعة من اهل ارقو والخفير والاوردي والخندق ودنقلة العجوز وضم اليهم ٢٠٠ من الجهادية وسار الى الدبة لنجدة جودت بك

وقبل وصولهِ اقبل الهدي بانصارهِ في فجر ٢٩ يونيو سنة ١٨٨٤ وهاجموا الطابية مستقتلين ففتح العساكر عليهم افواه المدافع والبنادق وامطروا من القنابل والرصاص ما حصدهم حصداً حتى بلغ عدد قتلاهم ٢٧٠٠ رجل وفيهم نعمان ود قمر شيخ المناصير ولم يقتل من العساكر سوى اثنين من الطوبجية وجرح جودت بك جرحاً خفيفاً في وجههِ وانهزم الهدي بباقي جيشهِ الى الحتّاني . ووصل مصطفى باشا الدبة بعد الواقعة بقليل فاخذ العساكر والمتطوعة وسار براً وبحراً الى الحتاني ففرَّ الهدي من وجههِ فطاردهُ الى صنم فدخل بلاد المناصير فرجع عنهُ فترك العساكر في الدَّبة بعهدة جودت بك وعاد بالمتطوعة الى الاوردي ففرقهم الى بلادهم

﴿ محمود ود الحاج وواقعة كورتي في ٤ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ﴾ ثم عاد الهدي الى مروي وبعث في طلب المدد من المهدي وكان المهدي اذ ذاك في الرهد في طريقهِ على الخرطوم فارسل محمود ود الحاج من اقاربهِ مع نفر من اصحابهِ على ان يكون عاملاً عاماً على دنقلة وكتب الى الهدي بالانضمام اليهِ . فسار محمود في صحراء

الكبابيش ونزل في ام بليلة على نيل دنقلة في اواخر اوغسطوس سنة ١٨٨٤ وكتب الى مصطفى باشا يقول لهُ « قم واحضر لمقابلتنا بابي قس ومنها تتوجه لمقابلة المهدي لاجل البيعة والتأدب بآداب المهدية » . ثم اجتمع على الهدي في كورتي

اما مصطفى باشا فانهُ لما علم بقدوم محمود توجه بالوابور الى الدبة فاخذ عساكرها ومدفعاً واحداً وسار برًا وبحرًا طالبًا محمود والهدي فالتقاهما الخميس في ٤ سبتمبر سنة ١٨٨٤ قرب كورتي واشعل فيهم النار فلم يكن الا القليل حتى قتل محمود والهدي وتشتت جيشهما كل مشتت فقطع مصطفى باشا رأسيهما ورأس رجل قيل انهُ امير طرابلس الغرب وآخر قيل انهُ امير مصر وارسل الرؤوس الاربعة الى سردار الجيش المصري بحلفا وسألهُ ان يرسل رأس امير الغرب الى جلالة السلطان ورؤوس الباقين الى سمو الخديوي فكتب اليهِ السردار يمدح بسالتهُ ويهنئهُ بالنصر ويتلطف لهُ بقولهِ انهُ لم تجر عادة هذا العصر في ارسال مثل هذه العلائم ثم امر فدفنت الرؤوس الاربعة . ولم يقتل في هذه الواقعة من العساكر سوى اثنين وجرح ضابط واحد . وبعد الواقعة جاء الكثير من العصاة مستأمنين وهدأت البلاد وعاد اليها الامن كما كان ولم يعد يقم للدراويش قائمة فيها الا بعد خروج الانكليز منها اواخر سنة ١٨٨٥ كما سيجيء

وقد رأيت كتابًا من المهدي الى زقل امير دارفور بتاريخ ٨ الحجة سنة ١٣٠١هـ ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٨٤ يشير فيهِ الى هذه الواقعة قال :

« . . . وقد ورد لنا خبر اكيد من دنقلا ان حبيب الجميع محمود الحاج محمد واحمد الهدي استشهدا في سبيل الله . قيل انهما لما حضرا بالقرب من دنقلا نزلا في محل وهم قليلون جدًا فما شعروا الا وقد هجم عليهم اعداء الله فصبروا عليهم صبر الكرام حتى نالوا احدى الحسنيين . وكنا ارسلنا محمود الى دنقلا بناء على ما ورد لنا من « ياور » مديرها يوري بانهُ طائع لله ومسلم لامر المهدية وان الشيخ احمد الهدى أتى اليهِ وحاصرهُ وضايقهُ ورغب كف يد المذكور عنهُ بواسطة مخصوص من طرفنا فلذلك ارسلنا محمود بدون جيش اختبارًا لحال المذكور وقد الزمناهُ بتسليم البلد الى محمود وحضورهُ هو على وجه الفور فظهر غدرهُ وعُلم انهُ منافق ماكر والله خير الماكرين »

الفصل الخامس عشر

عودٌ الى

﴿ وقائع الثورة في سنار سنة ٣ — ١٨٨٤ م ﴾

﴿ واقعة الشريف انجضو ﴾ تقدم لنا ان عبد القادر باشا قبلما برح سنار في اواسط سنة ١٨٨٣ ارسل صالح بك الملك الى فامكه ليتعهدها وكان عليها مأمور تلياني يُدعى مارنو بك ومعهُ ٤ بلوكات من العساكر النظامية و ١٠٠ من الباشبوزق بقيادة الصاري سعد أغا شميم الشايقي فلما جاءهم صالح بك وجدهم بغاية الجوع والعري فعاد على الاثر في طلب الزاد والكسوة لهم فاعترضهُ في الطريق قرب شلال الرصيرص فقيه من انصار المهدي يُدعى الشريف انجضو فأوقع فيهِ واقعة شديدة وقتلهُ وشتت شمل انصاره واستطرد السير شمالاً حتى وصل كركوج فوجد فيها حامية مؤلفة من ٤٠٠ رجل بقيادة علي كاشف ووجد فيها امرًا من مدير سنار بالبقاء في سيرو تجاهها لحماية الغرب فصدع بالامر وكتب الى المدير يخبرهُ بحال فامكة

﴿ اخلاء فامكة ٣١ ديسمبر سنة ١٨٨٣ ؟ ﴾ ولما ابطأ المدد على مارنو بك جاء بقارب صغير الى الخرطوم وكان عليها اذ ذاك علاء الدين باشا فاخبرهُ بالضيق الذي صارت اليهِ حاميــة فامكة فأصدر امرهُ بعزل بساطي بك وارسل حسن بك صادقًا مديرًا على سنار مكانهُ فجاء الى سيرو في وابور ومعهُ الزاد والعساكر الى فامكه فسلمها الى النور بك محمد وعثمان بك الدالي فاخذاها بالمراكب الى الرصيرص ليحملاها من هناك على البقر * وقبل قيامهما من الرصيرص وردت الانباء بانكسار جيش هكس وهاجت البلاد فرأى المدير ان يلمَّ شعثهُ فبعث اليهما امرًا باخلاء فامكة فاخلياها ورجعا بالحامية الى سنار في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٨٣ ؟ فوجدا حامية كركوج وصالح بك الملك قد سبقاهما اليها * ونزل صالح بك بأمر المدير في ابي سقره على حدود سنار الشمالية فبقي فيها الى ان كانت حركة محمد ود البصير حمي المهدي في الحلاويين

﴿ حركة محمد ود البصير في الحلاويين ﴾ وقد تقــدم ان المهدي اجاز حماهُ

المذكور باعطاء البيعة بالنيابة عنهُ فبقي في مكانهِ يتربص للفرصة الى ان كانت واقعة شيكان وعاد من عند المهدي عبد الله ود الشيخ حمد النيل شيخ العراكيين في ابي حراز وعبد الله ود البحر شيخ الكواهلة في وسط الجزيرة ومع كل منهما امر بالامارة على اهله وامر الى كل من عبد الله بن عوض الكريم باشا ابي سن في رفاعة والطيب ود حامدون ناظر الجعليين في المسلمية بالامارة على اهلهِ فلبيا الدعوة وانضم الجميع الى محمد البصير فصادفوا عسكريًّا في سوق الحلاوبين فقتلوهُ قيل فغمس كل من حضر حربتهُ بدمهِ وشهروا العصيان وذلك في اواخر ديسمبر سنة ١٨٨٣

﴿ واقعة ود مدني في ١٧ يناير سنة ١٨٨٤ ﴾ فلما بلغ الخبر صالح المك في أبي سقرة زحف على ود البصير ومعهُ نحو ١٤٠٠ رجل من الباشبوزق الشايقية وكلهم مسلحون بالاسلحة النارية فالتقاهُ اصحاب ود البصير قرب ود مدني في ١٧ يناير سنة ١٨٨٤ فقتل منهم ٥٠٠ رجل وفيهم الطيب ود حامدون وهزم الباقي ثم تقدم الى فداسي فحفر خندقًا وتحصن فيهِ وبعث يطلب المدد من سنار فجاءهُ محمد أغا الصاغ من مواليد الاتراك على وابور «محمد علي» بمئة صندوق من الذخيرة و ٧٥ رجلاً من الباشبوزق

﴿ واقعة فداسي ﴾ فجمع محمد البصير جيوشهُ وهاجم صالح المك في الخندق فصدهُ بخسارة ١٠٠٠ رجل ولم يفقد من عسكرهِ سوى ١٤ رجلاً . فلما رأى العرب ان لاطاقة لهم على حربهِ عوَّلوا على حصرهِ فنزل عبد الله ود الشيخ حمد النيل في جنوبيهِ لمنع المدد عنهُ من سنار ونزل محمد البصير وباقي الامراء في شماليهِ لمنع المدد من الخرطوم ثم حضر الشيخ عوض الكريم باشا ابو سن بألف من رجال قبيلتهِ ونزل تجاه فداسي شرقي النيل فتظاهر بأنهُ محاصر لصالح المك واتفق معهُ سرًّا فأرسل كل منهما رسولاً الى غوردن يعلمانهِ بالحالة ويطلبان المدد فأرسل عوض الكريم ابنهُ علي ألهد كما مرَّ وارسل صالح بك حسن افندي وراق من ضباط الباشبوزق وكان غوردن اذ ذاك في مركز حرج فلم يستطع انجادهما فبعث يشكر لهما ثباتهما ويعدهما بارسال المدد بأول فرصة فعاد الرسولان منهُ بعد غياب ٣٠ يومًا وقد رقّى صالح بك الى رتبة اللواء. ورفع رتبة كل ضابط من ضباطهِ رتبة وكانت حاجة صالح باشا الآن الى المدد لا الى الرتب وقد بعث

الى سنار في طلب المدد فأحالوهُ على الخرطوم وكان الجوع قد مسّ الحامية فلم يبقَ له بعد هذا سوى التسليم فخشي ان سلم الى ود البصير ان ينتقم منهُ بمن قتل من رجالهِ فأرسل الى المهدي في الابيّض كتاباً يسألهُ ان يبعث اليهِ بأمير من قبله ليسلمهُ الحامية

﴿ سرية محمد عثمان ابي قرجة وتسليم صالح الملك في فداسي في ٢٧ ابريل سنة ١٨٨٤م ﴾

وكان المهدي اذ ذاك على اهبة الزحف على الخرطوم فأرسل اليهِ محمد عثمان اباقرجة الدنقلاوي بجيش مؤلف من ٢٠٠٠ مقاتل من اخلاط حمر ودغيم وكنانة وجمليين وحسانية ومعهم ٤ بلوكات من العساكر السودانية الذين اسروا في الابيض ومدفعان وساروخ وأمرهُ باستلام فداسي من صالح الملك والتوجه منها لحصر الخرطوم. فخرج بجيشهِ من الابيّض في اواخر مارس سنة ١٨٨٤ وسار مجدًّا حتى نزل بجهة فداسي قرب الخندق وارسل الى صالح الملك فخرج اليهِ مسلماً في ٢٧ ابريل سنة ١٨٨٤ ؛ فاستولى ابو قرجة على جميع اسلحتهم وذخائرهم وابورهم « محمد علي » وارسل صالح الملك الى المهدي فوافاهُ بالرهد وصحبهُ الى أم درمان فحاول مكاتبة غوردن فعلم بهِ المهدي فزجهُ بالسجن وعذبهُ و بقي في ام درمان الى ان مات قهرًا سنة ١٨٨٩ رحمة الله عليهِ

﴿ واقعة ابي الحسنى في ١١ يوليو سنة ١٨٨٤ ﴾ وجاء مع ابي قرجة من كردوفان شيخ من اليعقوباب من اتباع الطريقة السمانية يدعى عبد القادر ابا الحسنى كان قد هاجر الى المهدي في كردوفان وحضر معهُ واقعة شيكان و بقي الى ان جاء ابو قرجة فصحبهُ الى فداسي . وفي ثاني يوم التسليم انفصل عنهُ بعض الانصار لجمع الجموع وقصد سنار فوجدها محاطة بخندق حصين فلم يجسر على مهاجمتها فقعد لحصرها قرب حلة البقرة فخرج عليهِ مديرها حسن بك صادق في ١١ يوليو سنة ١٨٨٤ بمعظم العساكر فأمر ابو الحسنى اصحاب الاسلحة النارية من جيشهِ فساروا في منحدر شاطئ النيل متوارين بهِ وداروا من وراء العساكر فقطعوا خط رجعتهم الى سنار وتصدَّى لهم ابو الحسنى بحرَّابتهِ من الامام فحصرهم في الوسط فدهش المدير من مكيدة ابي الحسنى وحار في امرهِ فبرز لهُ عثمان بك الدالي اذ ذاك وقال اعطني ٢٠٠ رجل وتفرَّغ انت لمن امامك ولا تهتمّ بمن وراءك فاني اكفيك شرهم فأعطاهُ ما طلب فانقلب

على من في الوراء واشعل فيهم النار وهو يتقدم نحوهم رويدًا حتى هزمهم ونكل بهم وعاد على الاثر الى المدير فأنجدهُ على ابي الحسنى فهزماهُ وشتتا شملهُ ومن ذلك الوقت خمد ذكر ابي الحسنى ومات بعد قليل فدفن في حلة البقرة وبنى ابنهُ قبة فوق قبرهِ

﴿ واقعة الشيخ غالب في ٢٥ يوليو سنة ١٨٨٤ ﴾ وظهر الشيخ غالب في حلة داود على الدندر فجاهر بالعداء ورفع راية المهدي فهاجمهُ المدير في ٢٥ يوليو سنة ١٨٨٤ وبدد شملهُ ونزل في حلة الجادين على ١٢ ميلاً من سنار وشرع في جمع الحبوب للحامية

الفصل السادس عشر

عودٌ الى

﴿ غوردن وحصار الخرطوم ١٨٨٤ ﴾

ابو قرجه وحصار الخرطوم

ولقب المهدي ابا قرجة بأمير البرّين والبحرين وجعلهُ اميرًا عاماً على محاصري الخرطوم فزحف بجيشهِ عليها ومعهُ ود البصير وقد نادى بالنفير العام في الجزيرة كلها وامر ان لا يتخلف احد عن الجهاد فكان جيشهُ يزداد ضخامة وقوة كلما تقدم شمالاً حتى نزل بالجريف قرب الخرطوم فكتب الى غوردن كتاباً هذا مفادهُ :

« اني حضرت من قبل المهدي اميرًا على البرين والبحرين وقد اخذت فداسي وجئت الى الخرطوم انصح اهلها بالتسليم فاذا سلّموا سلموا وأمنوا على اموالهم وارواحهم والا فلا بد لي من محاربتهم واخذ المدينة منهم عنوة والسلام »

فاحسن غوردن الى الرسل وردّهم بلا جواب . فتقدم ابو قرجة اذ ذاك الى بُرّي ودنا جدًّا من الخندق فبنى طابية ونزل فيها بجيشهِ وابقى محمد البصير في الجريف فبنى فيها طابية كطابية بري وجعل الطاهر العبيد ود بدر السالف الذكر في الوسط بينهما . ثم ارسل وابور « محمد علي » الى الحلال فجمع مقدارًا عظيماً من الحبوب وبنى لها مخازن بين طابيتي برّي والجريف وجعل في الطابيتين مزاغل ترمي على النيل والخرطوم وحصّن طابية برّي بالمدافع وشرع يرمي بمقذوفاتها على الخرطوم . وكانت ذخيرة الحامية في

مخزن قريب من الخندق فاصبحت في خطرٍ عظيم فنقلها غوردن الى كنيسة المرسلين النمساويين الكاثوليك الواقعة في وسط المدينة وقد كانت من امتن ابنية المدينة واتقنها صنعاً

هذا وكان اصحاب الشيخ العبيد لم يزالوا يناوشون العساكر القتال كل يوم بلا انقطاع من الفجر الى الضحى ثم يصبرون الى ما بعد الغروب بنصف ساعة فيجددون المناوشة الى الساعة الرابعة في الليالي المقمرة فانتقى غوردن نفرًا من العساكر الماهرين في الرماية وجعلهم على سطح السراي واقام لهم حائطاً فتح فيهِ المزاغل ليقيهم نار العدو ويمكنهم من اجادة الرمي . واصدر امرهُ الى ابراهيم افندي لبيب فصنع اشخاصاً من الخشب بهيئة العساكر وصفها على هيئة طابور على الشاطئ الشرقي للنيل الازرق فظنها الدراويش عساكر واخذوا يرمونها بالرصاص ولما لم تتحرك علموا انها خدعة فكانوا يأتون اليها ليغنموا ملابسها فيدخلون ضمن دائرة مرمى الرصاص فيصوّب الرماة النيران عليهم من سطح السراي فيقتلونهم

﴿ واقعة ودجار النبي ﴾ وبلغ غوردن ان في موردة ود جار النبي على النيل الابيض جموع من الدراويش ومعهم قطعان كثيرة من الغنم والبقر فارسل ساتي بك مدير بحر الغزال باحدى الوابورات فشتت شملهم وغنم الف رأس من الماشية وعاد الى الخرطوم وكانت الحامية في اشد الحاجة الى اللحوم فتعللوا بها

﴿ واقعة الشجرة ﴾ فلما رأى ابو قرجة ضعف انصاره في النيل الابيض ارسل سرية من جيشهِ بقيادة شيخ فضل احمد الدقلاوي فبنى طابية قرب شجرة محو بك ووضع فيها مدفعاً فارسل غوردن سرية من العساكر بالوابورات والمدافع ومعها من القواد ساتي بك وعبد القادر بك حسن وحسن بك العقاد فهدموا الطابية وعطلوا المدفع وطردوا شيخ فضل وانصارهُ من تلك الجهة وعادوا الى الخرطوم . فمنح غوردن كلاًّ من الساتي بك وعبد القادر بك الرتبة الثانية وحسن بك العقاد الرتبة الثالثة . ثم ارسل بعض العساكر فخربوا حلة الكلاكلة لمنع الدراويش من التحصن فيها وعادوا باخشابها وقودًا للوابورات . وعاد الشيخ فضل بعدهم الى محلهِ على النيل الابيض

وكان النيل اذ ذاك في زمن انخفاضهِ ولا يمكن الانتفاع بالوابورات ولا سيما

على النيل الازرق فبقي غوردن في انتظار ارتفاعهِ على احرّ من الجمر

هذا ولم تكن متاعب غوردن داخل المدينة اقل منها خارجها فقد كان في المدينة من السكان نحو ٥٠ الف نسمة ما عدا العساكر واكثرهم من المصريين والمولدين والغرباء فحمّلوهُ مشاق كان في غنى عنها ولكنهُ تحملهم بصبر غريب واظهر في سياستهم من الرفق والاحسان ما دلّ على تناهيهِ في حب العدل والانسانية

﴿ علم الحامية بسقوط بربر ﴾ ولم يعلم غوردن بسقوط بربر حتى بعث اليها بجاسوس فوجدها بيد الاعداء وعاد اليهِ بالخبر فأمرهُ بالتحفظ عليهِ ولكن ليصح القول « ان للحيطان آذاناً » شاع الخبر بين سكان الخرطوم فقلقوا وخافوا وكثر الشغب في المدينة فرأى غوردن ان يستنبط حيلة تسكن روعهم فعلق منشوراً في شوارع المدينة والمراكز العسكرية يقول « انهُ أتى بالامس جاسوس ومعهُ بريد من مصر ينبئ بأن الانكليز قد جردوا حملتين لانقاذ الخرطوم حملة بطريق دنقلة وحملة بطريق كسلة وان حملة كسلة انقسمت فرقتين فرقة أتت بطريق الاتبرة بقصد النزول على بربر وفرقة بطريق ابي حراز بقصد النزول على الخرطوم وقد جرّد السلطان حملة ثالثة بطريق سواكن وجردت مصر حملة رابعة بقيادة السيد محمد عثمان المرغني عن طريق كسلة ورفاعة وقد رسم صور العساكر في الحملات الاربع على ورق شفاف وعلقها مع المنشورات

﴿ نجمة الحصار ﴾ وصنع مدالية كالمدالية المصرية علق في اعلاها النجمة والهلال وكتب في دائرها هكذا : « حصار الخرطوم سنة ١٣٠١ » وسماها « نجمة الحصار » وقد صنعها من فضة ونحاس وطلى بعض الانجم الفضية بالذهب فوزعها على الضباط من رتبة بكباشي فما فوق ووزع الانجم الفضية على الضباط من رتبة صاغ فما دون والانجم النحاسية على الصف ضباط والعساكر فكان لها احسن تأثير على الحامية كلها

﴿ اعانة الفقراء ﴾ وسمح للتجار والاعيان بحمل الانجم الفضية فجعل على كل نجمة عشرة جنيهات فجمع مبلغاً وافراً من المال وزعهُ على الفقراء

ولما كان موسم النخيل جمع التمر من جنائن الخرطوم الاميرية فبلغ ثمنهُ ٢٦٠٠٠ غرشاً فوزعهُ على الفقراء والفقهاء وحملة القرآن وسألهم قراءة كتاب البخاري في





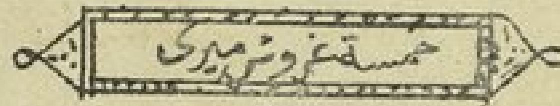


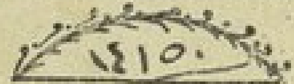












هذا المبلغ مقبول ويجري دفعه من خزينة الخرطوم او مصر بعد مضي
ستة شهور من تاريخه ٢٥ ابريل ١٨٨٤ غوردون
باشا

المساجد والتوسل الى الله بصالح الدعاء ليعينهم على رفع الحصار وقطع دابر العصاة

﴿ اوراق البون ﴾ وكان يدفع مرتبات العساكر والموظفين كل شهر حتى نفدت النقود من الخزينة فأخذ يقترض من تجار المدينة واعيانها ويعطيهم « رجعاً » ممضاة باسمهِ واسم محمد باشا حسن رئيس المالية حتى عجز التجار عن زيادة القرض فأصدر اوراق « بون » بقيمة ٥٠ الف جنيه مصري الورقة بخمسة غروش صاغ وعشرة وعشرين وثلاثين واربعين وخمسين ومئة وخمسمائة والف والفين وكتب على كل ورقة ما يأتي : « هذا المبلغ مقبول ويجري دفعهُ من خزينة الخرطوم أو مصر بعد مضي ستة شهور من تاريخهِ في ٢٥ ابريل سنة ١٨٨٤ » وجعل لكل ورقة نمرة متسلسلة وختمها كلها بختمهِ وختم الحكمدارية ثم امضاها بامضائهِ وسلمها الى رئيس المالية فقيدها في دفاتر اليومية وصار ينفق منها على العساكر والموظفين كأنها نقود فتوقف اهل المدينة عن قبولها لانهم لم يكونوا متعودين عليها فرُفع الامر الى غوردن فأوعز الى المحافظ فجمع اعيان التجار الوطنيين والاوربيين وارباب الصنائع والمتسببين وافهمهم معنى تلك الاوراق وأمر الاوربيين بقبولها تشجيعاً للوطنيين فلم يجدِ ذلك نفعاً فعلق منشورًا في الشوارع والممرات فحواهُ « ان من يتجرأ على رفض اوراق البون يُقتل بالرصاص » فاضطر الاهلون الى قبولها بالرغم ولم يكن بينها اوراق اقل من خمسة غروش فتعسرت المعاملة بها فطبع غوردن اوراقاً بقيمة عشرة آلاف جنيه منها عشرة آلاف ورقة الواحدة منها بغرش والباقي بخمسة غروش وعشرة غروش . ولكن لم يلبث التجار ان بخسوا اثمانها وصاروا يشترونها بثمن اقل من الثمن المعين لها فقبض غوردن على بعضهم وارسلهم الى سراي الشرق فحبسهم مدة ثم عفا عنهم واعادهم الى الخرطوم بعد ان اقسموا بالتوبة . ثم لم يتلافَ هذا الشر حتى ظهر ان صابرًا واحمد ابني الشيخ عبد الغني السلاوي قد قلدا ختم الحكمدارية « وفرمة » غوردن بالنقش على القرع وطبعا اوراق « بون » كاوراق غوردن فحوكما بمجلس عسكري فاعترف ابوهما انهما فعلا ذلك نظرًا للضيق الذي صارا اليهِ فحكم المجلس بحبسهما سنة فصدق غوردن الحكم وجعل لوالدهما مرتباً يستعين بهِ على معيشتهِ قدره خمسة جنيهات في الشهر

﴿ اخفاء التجار للغلال ﴾ ثم لما طال الحصار اخذ التجار في اخفاء الغلال في مطامير داخل منازلهم فارتفعت اثمانها وكثر عدد المتسوّلين في المدينة حتى غصت بهم شوارعها فاحصاهم غوردن فكانوا ٣٠٠٠ نفساً فامر بمرتب يومي يجري لهم من المخازن قدره ١٠٠ درهم من البقسماط لكل نفس ولما طال الحصار خفض المرتب الى ٥٠ درهماً. ثم امر غوردن المحافظ فنبش المطامير واحصاها في «كشف» فاخذ التجار يخفون منها ايضاً ويقولون انها نفدت فضج الاهالي لقلة الغلال ففتح غوردن شونة الحكومة واخرج منها ٤٠٠٠ اردب غلة فبيعت للموظفين والاهالي بثمن معتدل وبحث المحافظ عن الغلال المخفاة فوجد تاجرًا روميًا بشركة ابراهيم بك البورديني الوطني قد اخفى ٦٠٠٠ اقة درة فاحضره ووبخهُ قيل وجلده بالسياط حتى ادماه فحملهُ رفاقهُ الاروام على سرير واتوا بهِ الى غوردن طالبين بثأرهِ فالغى غوردن المحافظة تسكيناً لروعهم واعاد نصحي ووكيلهُ الى خط النار وارجع الضابطة بامورها السابق حسن بك فؤادو وكيلهِ ابراهيم افندي لبيب وامرهما ان يسلكا فيها مسلك المحافظة بلا فرق

﴿ اباحة الفطر والحرب في رمضان ﴾ وقد تقدم ان غوردن كان ينتظر ارتفاع النيل بفارغ الصبر ليتمكن من استخدام الوابورات لرفع الحصار ويتمكن الانكليز من نجدتهِ فلما بدأ النيل في الارتفاع بدأ شهر رمضان فجمع العلماء واستفتاهم في اباحة الفطر والحرب فيهِ فافتوا بذلك بدليل ان النبي (صلعم) فتح مكة في شهر رمضان فنشر غوردن هذه الفتوى في جميع المراكز العسكرية

﴿ واقعة القطينة ٤ يوليو سنة ١٨٨٤ ﴾ ولما كان يوم ١٠ رمضان سنة ١٣٠١ هـ ٤ يوليو سنة ١٨٨٤ بلغهُ ان رجلاً يدعى حامد ود الفقيه عبد الله الدقلاوي من سكان القطينة قد جمع جموعاً من بلدهِ ونوى الزحف على الخرطوم فجرَّد عليهِ ساتي بك بالوابورات فحاربهُ مستبسلاً ولكن حامد عبد الله تغلب عليهِ بكثرة العدد وقتلهُ مع نفر من عسكرهِ وهزم باقي العساكر الى الخرطوم وما انتشر خبرهم حتى ارتفعت اصوات الحزن في المدينة وتأسف غوردن لموت الساقي بك لانهُ كان من اعز رجالهِ فاستدعى اخاهُ وعزاهُ ووجه اليهِ الرتبة الثالثة وقلدهُ قومندانية الوابورات مكان اخيهِ

﴿ واقعة الكلاكلة في ٩ يوليو سنة ١٨٨٤ ﴾ وقطع الدراويش رأس الساقي بك وعلقوهُ على حربة طويلة واتوا به قرب الخندق وصاروا ينادون العساكر « اخرجوا ايها الملاعين ليحل بكم ما حلّ بالساقي » فاشتعل غوردن غيظاً من قحتهم وفظاعتهم فجهز جيشاً مؤلفاً من ٦٠٠ من العساكر النظامية و٢٠٠ من الباشبوزق وطقم ساروخ وعقد لواءهُ للبكباشي السيد افندي امين فجعل العساكر النظامية بهيئة « قلعة » او « مربع » ووضع العساكر الباشبوزق بهيئة « شرنجية » على ٣٠٠ متر من مقدمة المربع وسار حتى اقبل على الدراويش قرب حلة الكلاكلة وكان بينهُ و بينهم خور يمتد من تلك الحلة الى النيل الابيض فخاف اذا لجأ الدراويش اليه تعسر اخراجهم منهُ ففتح المربع وصفهُ بهيئة طابور فسبقهم اليهِ وواري عسكرهُ بهِ وفتح على الدراويش نارًا حامية فمالوا نحو الجناح الشمالي بقصد تجاوزه وقطع خط الرجعة فامر السيد افندي فانكسر الجناح المذكور واصطف بهيئة طابور على زاوية مستقيمة مع الطابور الاول ووالى الطابوران رمي الرصاص وطوبجية الكروب من الخرطوم تساعدهما وكان الدراويش يوالون الهجوم مستقتلين حتى ان احد امرائهم المسمى ود دفع الله دفع جوادهُ وسط النيران وكرّ مهاجماً والسيف مشهور بيدهِ وهو ينادي « انا ود دفع الله » حتى اخترق الصف فانبرى لهُ الملازم عبد الخالق افندي المصري وابتدرهُ بضربة من سيفهِ فجندلهُ . ودام القتال من الضحى الى ما بعد الغروب وقد قتل من الدراويش نحو ١٠٠٠ رجل ولم يقتل من العساكر سوى اثنين وجرح ١٢ لان الخور حماهم من النيران فعادوا الى الخرطوم والوية النصر تخفق فوق رؤوسهم فزال الغم عن الحامية وعم الفرح المدينة كلها

﴿ واقعة برّي في ٢٧ يوليو سنة ١٨٨٤ ؟ ﴾ وكان غوردن ينتظر ارتفاع النيل الازرق بفارغ الصبر ليتمكن من الانتفاع بالوابورات فلما كان يوم الاحد ٢٧ يوليو سنة ١٨٨٤؟ وقد ارتفع النيل المذكور الى الحد المطلوب جرّد على ابي قرجة جيشاً من العساكر النظامية بقيادة الميرالاي محمد علي بك وجيشاً من الباشبوزق في البر بقيادة خشم الموس بك فحصرا ابا قرجة بين نارين واخرجاهُ من الطابية عنوة وتقدما

بالعساكر الى الطابية فهدماها وهدما المنازل التي في جوارها وكان غوردن يشاهد القتال من الخندق فلما رأى انتصار العساكر اتى الى محل الواقعة فهنأهم بالنصر ورقى كل ضابط الى رتبة اعلى من رتبته واستطرد العساكر القتال في اليوم الثاني والثالث فهزموا الدراويش الى الجريف وقد قتلوا منهم في الايام الثلاثة ٨٠٠ رجل ولم يقتل من العساكر سوى ٣٠ رجلاً

﴿ واقعة الجريف في ١٢ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ ؟ ﴾ وصمم غوردن الآن على طرد أبي قرجه من الجريف فلما كان يوم الثلثا في ١٢ اوغسطوس سنة ١٨٨٤؟ عاد محمد علي بك بعسكرهِ في النيل الازرق وخشم الموس بك في البر فحصرا ابا قرجه بين نارين كما فعلا بهِ في برّي فحارب مستقتلاً حتى قتل معظم جيشهِ وفيهم اخوهُ نصر وحاج محمد واد الزبير العابدلابي وغيرهما من الابطال المعدودين وقتل فرس ابي قرجه فشاع بين انصارهِ انهُ قتل هو فانهزموا شر هزيمة واستولى العساكر على الديم فكانت غنائمهم ٦٠٠ اردب درة و١٠٠٠ بندقية و١٢ صندوق جبخانة وعددًا من السيوف والمواشي

هذا وكان ابو قرجه قد ارسل يطلب الشيخ فضلاً من النيل الابيض لنجدتهِ ولكن غوردن كان قد احتاط لذلك وارسل سرية من العساكر الى الصحرا لتحول بينهُ وبين ابي قرجه فخرج فضل في اصحاب الخيل وترك باقي اصحابهِ في صدد السرية فقابلهُ الدراويش المنهزمون في الطريق واخبروهُ بنصر العساكر وخبر قتل ابي قرجه قيل فاسترجع ودمعت عيناهُ وهمَّ ان يحمل على العساكر وحدهُ فتعلق اصحابهُ في عنان فرسهِ ومنعوهُ عن ذلك فعاد وبحث عن ابي قرجه فوجدهُ حيًّا فنزل معهُ بمحل يدعى ود شكر الله على النيل الابيض على نحو ٢٠ ميلاً من الخرطوم وارسلا الرسل الى المهدي يعلمانهُ بما كان . وسرّ غوردن من محمد علي بك فرقاهُ الى رتبة اللواء الرفيعة

﴿ واقعة الحلفايا الثانية وطرد الشيخ العبيد في اواسط اوغسطوس سنة ١٨٨٤؟ ﴾

هذا ولما فرغ غوردن من ابي قرجة التفت الى الشيخ العبيد الذي كان محاصرًا الخرطوم في الحلفاية فسير عليهِ جيشاً في النيل في ثلاث بواخر بقيادة خشم الموس بك وجيشاً في البر بقيادة فرج الله بك فلما رأى العساكر مقبلين برًّا وبحرًا ترك

النيل وتوغل في البر الى غابة الملاحة فاجتمع العساكر عليهِ واشعلوا النار في جيشهِ من البر والبحر فثبت امامهم الى الظهر ثم ولى الادبار منهزماً الى ام ضبان وقد قتل من جيشهِ نحو٢٠٠ رجل وجرح ابنهُ ابرهيم وحمل على فرس واستولى العساكر على دبهِ فغنموا شيئاً كثيراً من الحبوب والاقمشة والكتب والاسلحة

ثم ان محاصري ام درمان لما رأوا بطش العساكر خافوا على انفسهم وتركوا الحرب فانجلى الحصار عن الخرطوم وام درمان ووزع غوردن كتب الامان الى اطراف البلاد واعاد العساكر والتلغراف الى الحلفاية ففتحت سوقها وصار الناس يأتونها بالحبوب والمواشي والسمن من كل الجهات فتنفس اهل الحامية وزال عنهم الغمّ

﴿ واقعة ابي حراز ﴾ وكان اول ما بدا لغوردن بعد رفع الحصار عن الخرطوم ان يستطلع حال سنار فبعث لها بخيت بك بطراكي بوابور بوردين و ٢٠٠ عسكري فأوصلهُ محمد علي باشا بخمس وابورات الى ابي حراز فوجد اهلها لم يزالوا على العداء فاوقع فيهم واقعة شديدة وطردهم من البلدة وغنم منها ١٨٠٠ اردب ذرة و ٨٥ قنطار بن و٢٣ اردب سمسم فحملها في الوابورات وعاد بها الى الخرطوم

﴿ واقعة العيلفون في اواخر اوغسطوس ١٨٨٤ ﴾ فاخذ غوردن ينظر الآن في استرجاع بربر وفتح الطريق الى مصر فاستدعى رؤساء جيشهِ واستشارهم في الامر فوافقوهُ على ذلك فجهز جيشاً مؤلفاً من ١٠٠٠ جهاديّ و٨٠٠ من الباشبوزق وعقد لواءهُ الى محمد علي باشا وفيما هو يتأهب للمسير اذا بمخبر قد حضر من الجنوب وقال ان انصار الشيخ العبيد قد عادوا الى تجمعهم في العيلفون وسدّوا طريق النيل الازرق فرأى محمد علي باشا وجوب تمهيد العيلفون قبل الزحف على بربر وصدّق غوردن رأيهُ فركب الوابورات وسار قاصداً العيلفون في ٢٩ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ ونازل اهلها يومين فقتل منهم وهزمهم الى ام ضبان على ١٢ ميلاً من العيلفون حيث اقام الشيخ العبيد بباقي انصارهِ

﴿ واقعة ام ضبان في ٤ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ﴾ فطلب محمد علي باشا الاذن من غوردن في الحملة عليهِ فلم يأذن لهُ لانهُ لم يرَ الخروج عن النيل رأياً فبعث محمد علي باشا

يلحُّ عليهِ في طلب الاذن ويقول ان سحق الشيخ العبيد لا بد منهُ لراحة الخرطوم وفتح طريق سنار وان النصر عليهِ مضمون فاذن لهُ بعد تردُّد . وفيما هو يتأهب للمسير الى ام ضبان اتاهُ عبد اسود ارسلهُ الشيخ العبيد جاسوساً فقال اني فررت من الشيخ العبيد لشدة ما لحقني من الضرب والاهانة وجئت ادلكم على طريق يكون فيها هلاكهُ فلأم ضبان من هنا طريقان الطريق المعتادة وطريق قصيرة في غابة كثيفة ملتفة الاشجار فان اتيتموهُ بالطريق المعتادة شعر بقدومكم وفرَّ منكم فاقصدوهُ بطريق الغابة وباغتوهُ الهجوم وانا ادلكم على هذه الطريق فانطلى خداع هذا العبد على محمد علي باشا فنظم جيشهُ مربعاً جعل الجهادية فيهِ ضلعين والباشبوزق ضلعين والحملة في الوسط وسلك طريق الغابة فما توسطها حتى خرج لهُ كمينان عن اليمين والشمال فاخترقوا القلعة واختلطوا بالعساكر فقتلوا منهم نحو ٨٠٠ رجل وهزموا الباقي وقد اصيب محمد علي باشا برصاصة فافترش فروتهُ على عادة اهل السودان المعهودة واجتمع عليهِ الدراويش فقتلوهُ ولم يقتل من اصحاب الشيخ العبيد سوى ٥٢ رجلاً . وقتل من الضباط سلطان بك عبد الله بعد ان حارب حرب الابطال ونجا فرج الله بك فجمع شتات المنهزمين وعاد بهم وبالبواخر الى الخرطوم فما انتشر فيها خبر الانكسار حتى ضجت بالبكا والعويل فبذل غوردن جهدهُ في تسكيتهم بالحسنى فلم يفلح فاصدر اوامرهُ المشددة بان من لم يكفَّ عن الصياح والعويل يطرد خارج الخندق ويحرق منزلهُ فهدأت المدينة

وقد اغتمَّ غوردن لقتل محمد علي باشا لانهُ كان من افضل قوادهِ فجاء رؤساء العسكرية وقنصل اليونان وحكيم الاسبتالية يعزونهُ وقالوا ان كنا قد انكسرنا في هذه الواقعة فقد انتصرنا قبلها في وقائع وهذه عادة الدهر «يوم لك ويوم عليك» فشكر لهم غوردن سعيهم وقال اني لا زلت اجد بكم الكفاءة لقمع العصاة ولكني اتأسف ان قائداً من قوادي العظام يتبع عادة همجية ويودي بنفسهِ الى الهلاك ولهُ من ذلك مفرٌّ .

اما الشيخ العبيد فانهُ بث الرسل الى كل الجهات يخبرهم بالنصر الذي نالهُ في ام ضبَّان ويستحثهم على حصر الخرطوم من جديد . فلنترك الشيخ العبيد يجمع رجالهُ على النيل الازرق

وابا قرجة ينتظر المدد على النيل الايض ولنرجع الى المهدي في كردوفان فنقول :

﴿عصيان جبل الداير﴾ كنا تركنا المهدي بعد واقعة شيكان يعدّ نفسهُ للزحف على الخرطوم فعصاهُ اهل جبل الداير وقطعوا طريق الايض فجرد عليهم الجيوش لقمعهم فكان بينهم و بين اهالي ذلك الجبل وقائع معدودة قتل فيها خلق كثير من الفريقين . وقد رأيت كتاباً من المهدي بتاريخ ٢ مارس سنة ١٨٨٤ الى عاملهِ محمد خالد زقل في دارفور يخبرهُ بما كان من عصيان جبل الدائر قال : « ... والملك آدم مك جبال تقلي اتى الينا مسلماً وجميع ملوك الجبـال انقادوا لامر الله ورسولهِ ما عدا اهالي جبـل الدائر عصوا وخالفوا امر الله ورسولهِ بقطعهم لطريق المسلمين ونهبهم لاموال الناس ولذلك عيَّنا لهم من بيرق الخليفة شريف عبد الرحمن النجومي وعبدالله النور ومن بيرق الخليفة عبدالله حمدان ابا عنجه ومن معهم من الاخوان فتوجهوا لهم »

﴿انتقال المهدي الى الرهد غازياً الخرطوم ٧ جادى الاخرة سنة ١٣٠١هـ ؛ ابريل ١٨٨٤م﴾

وقد خرج الجيشان المذكوران من الايض في ربيع الثاني سنة ١٣٠١هـ مارس سنة ١٨٨٤م وطالت الحرب بينهما و بين الجبـل والمهدي لم يزل في الايض حتى اتاهُ رسول صالح الملك من فداسي فسير اليهِ عثمان ابا قرجه كما مرّ وقام هو على الاثر قاصداً منهل الرهد بعـد ان استعمل محمود عبد القادر من اقاربهِ على الايض . وهاك ما كتبهُ الى زقل في ٥ ابريل سنة ١٨٨٤ بهذا الشأن :

« ... وقد عينا محمد ابا قرجه ومن معهُ من الانصار اميرًا على جهة البحر ووجهناهُ لمحاربة اعداء الله . واما نحن فقد اتانا الخبر النبوي بالتوجه الى البحر وجهاد الخرطوم فها هو قد صار قيامنا مع كافة الاحباب والاصحاب في اثرهِ مع قيام وتوجه عمد واعيان كردوفان معنا كمثل الياس محمد أم برير و بان النقا وولد العريق والمكي اسماعيل وغيرهم . وايضاً عينا السيد محمود اميرًا لكافة اهالي مديرية كردوفان وملحقاتها لازالة الفساد والضلال والامور غير المرضية كتاباً وسنةً ... »

قيل وفي اثناء سيرهِ الى الرهد كان يمشي على رجليهِ مراعاة لحال الضعفاء من انصاره الذين ليس لهم دواب حتى انهُ حفي وتورمت رجلاهُ . وقد اختار الرهد

لكثرة مائهِ وقربهِ من جبل الدائر الذي كان لم يزل على العصيان وقد عجز عن قمعهِ الجيشان اللذان ارسلهما عليه في مارس فجهز جيشاً آخر من راية الخليفة على ود حلو وعقد لواءهُ لموسى ود حلو وارسلهُ مدداً الى الجيشين المذكورين ووزع منشوراً بين اصحابهِ بتاريخ ١٩ مايو سنة ١٨٨٤ يدعوهم الى الجهاد فرافق موسى ود حلو خلق كثير من اخلاط الرايات فلما رأى اهل الداير كثرة الجيوش أتى رؤساؤهُ مسلمين فكتب الامراء الى المهدي بذلك وكان المهدي قد قلق لطول حرب الداير وصار يتمنى عذراً من الغيم لتركها لانها تحرفهُ عن قصده وتضعفهُ ولا تفيدهُ بشيء فكتب الى الامراء يدعوهم الى الرهد وهذه صورة الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآلهِ مع التسليم

« وبعد فمن العبد الفقير الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى احبابهِ في الله واصفيائهِ المكرمين عبد الرحمن النجومي وحمدان أبي عنجة وموسى حلو عملاء المهدية جزاهم رب البرية خيراً واحساناً وتولاهم الله . نقريكم السلام ونعرفكم ان جوابكم ورد علينا كما ذكرتموهُ صار معروفاً والحال ما دام ان المطلوب نصرة الدين وقد حصلت وظفركم الله على اعدائكم فجزاكم الله عنا كل الخير وعن الاسلام والمسلمين حيث صبرتم وجاهدتم لوجهِ الله وللاخرة اردتم ولما عند الله قصدتم وفي الله تبعتم وعلى المقصود حصلتم بمقاساتكم لشدائد كالجبال فبوصول هذا اليكم حالاً احضروا جميعاً انتم ومن معكم كما كاتبكم خليفة الصديق الخليفة عبد الله ولا يكون لكم تعويق الا مسافة الطريق هذا وبارك الله فيكم وعليكم واني فضلكم الى لقاء ربكم آمين بتاريخ ١٨ شعبان سنة ١٣٠١ هـ ١٣ يونيو سنة ١٨٨٤ » . فلما وصلهم كتاب المهدي هذا احرقوا الديوم التي كانوا مقيمين فيها ورجعوا جميعاً الى الرهد

عبد الرحمن النجومي وحصار الخرطوم

وعند وصول الجيوش من الدائر ندب المهدي عبد الرحمن النجومي وعقد لهُ على ١٠٠٠ من العساكر النظامية و٣٠٠٠ من اخلاط العرب وكلهم مسلحون بالبنادق الرمنتون واعطاهُ مدفعين كروب واربعة مدافع جبلية وساروخ وسيرهُ الى الخرطوم اميراً عاما

على جميع المحاصرين فخرج من الرهد في غرة رمضان سنة ١٣٠١ هـ ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٤ وابطأ في السير فنزل على النيل الابيض بمحل يدعى شبشه قرب الدويم في اواخر اوغسطوس فوافاهُ هناك رسول من أبي قرجه يخبره بما حصل لهُ في الجريف يوم ١٢ اوغسطوس فجد السير حتى أتى ود شكر الله فأخذ ابو قرجه ومن معهُ من الانصار وزحف على الخرطوم فنزل بجيوشهِ في محل يدعى الغرقان بينهُ وبين خندق الخرطوم مرمى القنبلة وكذلك بينهُ وبين النيل الابيض فترك العائلات في الغرقان بعهدة ابي قرجه وتقدم بالمقاتلة لحصار الخرطوم فأقام لهم طوابي تجاه طوابي الخندق طابية تجاه طابية الكلاكلة وعلى مرمى الكلة منها وقعد فيها بمعظم جيوشهِ وامر عبد القادر ولد مدوع امير الحسنات فنزل بمقابلة باب المسلمية من ابواب الاستحكام وامر عبدالله ود النور فنزل تجاه طابية برّي وكان محل نزولهِ اقرب اماكن الحصار حتى كان الواقف فيهِ يرى الداخل والخارج في منازل الخرطوم ولذلك سمى بعضهم هذا المكان بالدار الآخرة اشارة الى ان من كان يقيم بهِ للحصار كانهُ صار من اهل الدار الآخرة

وكان الشيخ العبيد لما علم بقدوم النجومي لحصر الخرطوم قد حشد جيوشهُ وتقدم لحصرها من الشرق فأسرع غوردن واخرج عساكرهُ من الحلفاية وهدم منازل قبة الشيخ خوجلي وقبة الشيخ حمد ولكنهُ ابقى على القبتين وعلى محل السادة المرغنية في حلة الشيخ خوجلي فجعل الشيخ العبيد مدفعاً في محل السادة المرغنية وقعد لحصر الخرطوم ومعهُ الشيخ المضوي . وارسل اليهِ النجومي بأمر المهدي عبد الله ود جبارة وابو بكر ولد عامر ليساعداهُ على الحصار بتلك الجهة وهكذا حصر الخرطوم من الشرق والجزيرة وترك جهة ام درمان للمهدي الذي كان لاحقاً بهِ . وبعد ان رتب النجومي جيوشهُ على ما قدمناهُ ارسل الى غوردن كتاباً هذا مفادهُ :

« اعلم اني ود النجومي امير امراء جيوش المهدية الملقب بسيف الله المسلول وفاتح كردوفان والداير وقد جئتك الآن بجيوش لا طاقة لك بها ومدافع لا قدرة لك على احتمالها فسلم تسلم ولا تسفك دماء العساكر والاهلين بعنادك والسلام »

فرد عليهِ غوردن بقولهِ : « قد اطلعت على خطابك وانا لست بمبال بك ولا

بسيدك المهدي ولسوف يحلّ بك ما حلّ بابي قرجة في بري والجريف وبابن عمك العبيد بالحلفاية فخلّ عنك شقشقة اللسان وكثرة الهذيان وجرّب نفسك والسلام»

هذا وكان النجومي قد كتب الى اهل الخرطوم ايضاً كتاباً يدعوهم به الى التسليم وقد اوعز الى العلماء الذين صحبوهُ فكتبوا لهم كتاباً حاولوا فيهِ بيان صحة دعوى محمد احمد وتطبيق صفاتهِ على ما جاء في الكتب من صفات المهدي فاجتمع علماء الخرطوم واصدروا فتوى بتاريخ ٢٣ القعدة سنة ١٣٠١هـ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٤م فندوا فيها كتاب النجومي بنداً بنداً وامضاهُ كل من الشيخ الامين محمد رئيس ومميز علماء السودان وشاكر افندي مفتي استئناف السودان والشيخ حسين المجدي مدرس العلم بالجامع ومحمد خوجلي قاضي عموم السودان وموسى محمد مفتي مجلس السودان. فدفع غوردن هذه الفتوى والكتاب الى رسول النجومي بعد ان طاف به على مراكز الدفاع ثم اخرجهُ من الاستحكام

﴿ مواصلة سنار ﴾ ولننظر الآن الى ما كان من بخيت بك بطراكي الذي ارسلهُ غوردن في اواخر اوغسطوس ليتعهد حال سنار فانهُ جدّ السير حتى وصل الجادين فوجد المدير لم يزل فيها ومعهُ النور بك محمد وعثمان بك الدالي ففرح بهم وفرحوا بهِ واخذوهُ الى سنار فمكثوا يوماً ثمَّ عادوا الى الجادين وكان بخيت بك قد اخذ معهُ الى الحامية مقداراً من الذخيرة والصابون والملبوسات وعدداً معلوماً من ورق البون فسلمها الى المدير وكان معهُ أمر من غوردن الى النور بك محمد يسميهِ قومنداناً عاماً على العساكر لانهُ كان يعرفهُ من خط الاستواء فسلمهُ اياهُ ثم وسق ٨٠٠ اردب درة في الوابور وانقلب راجعاً الى الخرطوم فوصلها في ٧ سبتمبر فعنفهُ غوردن على عاقتهِ بلا سبب وقلة ما أتى بهِ من الدرة وأوقفهُ عن الاشغال

﴿ بعثة نصحي بك الى سنار في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ﴾ ثم عقد مجلساً من الضباط العظام للنظر في اخلاء سنار وجلب عساكرها الى الخرطوم فقرّ رأيهم على ترك العساكر في سنار والاستمرار على مواصلتها فندب غوردن نصحي بك وجهز لهُ وابوري بوردين وتل حوين واربعة مراكب شراعية و٢٠٠ عسكري واعطاهُ الف

طاقم للعساكر وامرًا بزيادة مرتب المدير الف غرش في الشهر ومعاملتهِ كاميرالاي من كل وجه مع الوعد بالترقي الى رتبة لوا واعطاهُ اوراقًا بيضاء مختومة بختمهِ وفوَّض اليهِ منح الرتب لمن يستحقها من الضباط والعساكر ومشائخ البلاد . وكان مدير سنار قد ارسل مع بخيت بك : محمود افندي طلعت بكباشي العساكر واحمد افندي مكوار وكيل المديرية لخصام وقع بينهما فصالحهما غوردن ورقى كلاًّ منهما رتبة وارجع احمد بك مكوار مع نصحي بك . فخرج نصحي من الخرطوم في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤ وسار حتى وصل الكاملين فتصدَّى لهُ اهلها فحاربهم ست ساعات متوالية وخرج منهم ظافرًا ثم تقدم الى رفاعة فحاربوهُ اربع ساعات واستطرد السير نحو سنار وقد عانى المشاق في ايجاد الخشب وقودًا للوابورات فلم يصل الجادين الا الجمعة في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٤ فوجد فيها بعض عساكر سنار يجمعون الحبوب فانفذ خبرًا الى المدير يعلمهُ بوصولهِ فحضر اليهِ في صباح الغد فناولهُ امر غوردن القاضي برفع مرتبهِ وصالحهُ مع احمد بك مكوار . ثم امر رجالهُ فشرعوا في شحن المراكب حبوبًا وتقدم مع المدير الى سنار فاستقبلهُ العساكر على الشاطئ « بالتشريفات » اللازمة ثم دخل ديوان المديرية فامَّهُ الاعيان والتجار وضباط الجيش فوقف بينهم خطيبًا وقال : « لقد سُرَّ حكمدار السودان من تعلقكم بالراية الخديوية وولائكم لحكومتكم في هذه الايام الشديدة وكلفني ان ابلغكم سلامهُ وشكرهُ القلبي ووعد بمكافأة كلٍّ منكم بما يستحقهُ وهو يوصيكم بترويج اوراق البون والتعامل بها كالدراهم لانها مضمونة من الحكومة الخديوية والدولة البريطانية وجميع الدول تتعامل بها لاسيما في الاحوال المماثلة لحالتنا واذا احتاج المدير الى نقود معدنية للانفاق منها على الجواسيس والرسل فاقرضوهُ ما يلزم وخذوا منهُ « رجعًا » واحفظوها معكم الى ان يرتفع الحصار فترجع لكم مع المكافأة اللازمة » . فاجابوهُ بالسمع والطاعة فوزع عليهم الرتب حسب التماس المدير . وكان المدير قد ارسل مع بخيت بك بطراكي يلتمس جزاء السر سواري عثمان بك الدالي لاجل ما ابداهُ من الدربة والبسالة في واقعة ابي الحسني المار ذكرها فرقاهُ غوردن الى رتبة ميرالاي جهادي فتقبلها شاكرًا . وفي اليوم التالي الاحد تفقد

نصحي الخندق فوجدهُ في غاية المناعة وعاد يوم الاثنين الى الجادين ومعهُ اشياء كثيرة من الحبوب والزيوت والسمن والسمسم من اهل سنار الى اقاربهم في الخرطوم فوجد رجالهُ قد شحنوا مراكبهم بثلاثة آلاف اردب درة لحامية الخرطوم فشحن الف اردب اخرى امانات وفي فجر الاربعاء قفل راجعاً بالوابورين والمراكب الى الخرطوم وسار لا يعترضهُ احد حتى وصل الكاملين صبح الجمعة في ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٨٤ فتصدى لهُ اهلها كالاول فرماهم بالقنابل وتخلص منهم وسار حتى وصل الجريف وكان النجومي قد علم ببعثتهِ الى سنار وارسل بعض الطوبجية واصحاب الاسلحة النارية الى الجريف ففتحوا المزاغل في منازلها وعملوا متراساً على شاطئ النيل وكمنوا لهُ فما اطل حتى ابتدروهُ بالقنابل والرصاص فارسل غوردن وابور «المنصورة» بالعساكر فانجدهُ فدخل الخرطوم مساء الجمعة المذكور وقد قتل من عسكرهِ ١٥ رجلاً واصيب قزان وابورهِ بوردين فسرَّ غوردن من نشاطهِ ودربتهِ فرقاهُ الى رتبة لواء وقال «اني اريدك لامر هام فاذهب الآن واسترح الى الغد»

﴿ بعثة ستيورت باشا الى مصر في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ﴾ هذا وكان غوردن يوم وجه نصحي الى سنار قد وجه وكيلهُ ستيورت باشا بوابور عبـاس الى مصر لابلاغ الحكومة حالة الخرطوم واستعجالهـا في انقاذهِ . وقد صحبهُ على الوابور ٤٠ رجلاً وفيهم المستر بور قنصل انكلترا في الخرطوم والمستر هربن قنصل فرنسا فيها وحسن افندي حسني من موظفي التلغراف الانكليزي و ١٩ من التجار اليونان و ٥ عساكر طوبجية ومدفع صغير . وجرَّ الوابور وراءهُ اربعة مراكب صغيرة اخذ فيها جماعة من تجار اليونان والشوام واليهود بشرط تركهم عند اقل خطر . وبعث غوردن مع «عباس» وابوري المنصورة والصافية بقيادة عثمان بك حشمت ليساعداهُ على المرور ببربر ثم يعودان الى الخرطوم فسار ستيورت باشا بمن معهُ بلا معارض حتى اشرف على شندي فبادرهُ اهلها بالرصاص من الشونة الاميرية فرماهم بقنبلة واحدة وبقي سائراً الى ان وصل الدامر فوجد اهلهـا قد اقاموا متراساً وكمنوا للوابورات فصوَّب عليهم المدافع ونجا منهم ووالى السير حتى اطل على بربر فتلقاهُ اهلها بالقنابل والرصاص من

الشرق والغرب فأطلق مدافعهُ وبنادقهُ يميناً وشمالاً وهو مواصل السير حتى تخلّص منهم فأمر عثمان بك حشمت فعاد بالوابورين الى الخرطوم فوصلها في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤

وجدّ ستيورت السير شمالاً وهو يجر المراكب الاربعة الى ان وصل العبيدية فترك مركبين منها وراءهُ لضيق النيل هناك وكان محمد الخير عامل بربر لا يعلم سبب سفره فأفلت من الوابور رجل من الباشبوزق يقال لهُ التوم ود علي بك فأخبر محمد الخير بقصده فأرسل وراءهُ ابن اخيهِ عبد الماجد على وابور الفاشر الذي غنمهُ في بربر فلما ادرك المركبين اللذين تركهما ستيورت رفعا لهُ راية بيضاء دلالة على التسليم فتركهما وجدّ السير وراء وابور عباس حتى وصل شلال الحمار فوقف لضيق الشلال عليهِ واجتازهُ «عباس» لصغر حجمهِ ولكنهُ ترك المركبين الآخرين وراءهُ لتخف حركتهُ فوقع المراكب الاربعة في اسر «الفاشر» فقطرها وقفل راجعاً الى بربر

وواصل وابور عباس السير حتى دخل شلالات ودقمر فاصطدم بصخرة فدخلهُ الماء فرسى على جزيرة صغيرة تجاه قرية هبّة على ٩ اميال من السلامات وذلك في ضحى الخميس ١٨ سبتمبر سنة ١٨٨٤ فأخرج ستيورت شحن الوابور الى الجزيرة ورمى بالمدفع الى البحر فعلم بهِ شيخ هبة الفقيه ود عثمان فأرسل الى السلامات الى الشيخ سليمان بن الشيخ نعمان ود قمر الذي قتل في الدبة يعلمهُ بغرق الوابور ويستعجلهُ لاغتنام الفرصة والاخذ بالثار فأتى الشيخ سليمان الى ستيورت باشا واظهر اشد الاسف لما اصابهُ وسألهُ ان ينزل معهُ الى البر فيدبر لهُ الركائب ويوصلهُ بنفسهِ الى دنقله قيل فارتاب ستيورت باخلاصهِ ولكن الحاجة وفراغ الاجل اضطراهُ الى قبول دعوتهِ فترك اشياءهُ في الجزيرة ونزل بمن معهُ الى هبة فأبقى العساكر والخدم على شاطئ النيل ودخل منزل سليمان ود نعمان ومعهُ المستر بور والموسيو اربان والتجار اليونان وحسن افندي حسني الذي استعملهُ مترجماً وكان سليمان ود نعمان قد دبّر المكيدة لقتلهم فذبح لهم ذبيحة واحضر بعض الجمال ليوهمهم انهُ يهتم بترحيلهم بعد الضيافة وكان قد بعث بالرسل الى قومهِ فاجتمعوا حولهُ من كل جهة ثم اشار فانقضوا عليهم كالنسور وقتلوهم عن آخرهم حتى العساكر والخدم ولكنهم ابقوا على حسن افندي حسني

ورئيس الوابور فاختُلف في سبب نجاتهما فقال البعض انهما نطقا بالشهادة واستغاثا بالمهاجمين فأبقوا عليهما وقال البعض انهما اشتركا في المكيدة. وقد رأيت حسن افندي حسني بعد واقعة أم درمان فأراني جرحاً في جسمهِ قال انهُ اصابهُ في تلك الواقعة فصرع منهُ فظنهُ المهاجمون انهُ قتل ثم ظهر لهم انهُ حيّ فأبقوا عليهِ واستولى سليمان ود قمر على جميع مهمات ستيورت واوراقهُ وفي جملتها يومية غوردن منذ اول مارس الى قيام ستيورت من الخرطوم في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤ فوقعت بيد سليمان ود قمر فبعث بها الى المهدي و بعث بالخبر الى محمد الخير فأرسل ابن اخيهِ عبد الماجد الى ود قمر فأخذ مهمات الوابور وعاد بها الى بربر. واما غوردن فلم يعلم خبر ستيورت قبل ١٠ اوكتوبر

بعثة نصحي باشا بالوابورات الى شندي لمقابلة الانكليز في ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤

هذا وكانت الحكومة الانكليزية قد اقرّت على ارسال حملة لانقاذ غوردن منذ ٨ اوغسطوس كما سيجيء وبلغ الخبر غوردن من طريق دنقله في اواخر سبتمبر فنشرهُ في المدينة كلها ولما عاد نصحي باشا من سنار جهز لهُ ثلاث وابورات وامرهُ بملاقاة الانكليز في المتمة واستقصاء اخبارهم وارسالها اليهِ تباعاً وهذا مفاد الامر الذي اصدرهُ لهُ في هذا الشأن بتاريخ ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٤ م اي ثاني يوم وصولهِ من سنار :

« سعادتلو افندم محمد نصحي باشا

« اني اخترتكم للذهاب الى شندي لمقابلة الجيش الانكليزي القادم لنجدتنا بطريق دنقله وجهزت لكم وابورات تل حوين والصافية والمنصورة لتذهبوا فيها ومعكم من الضباط محمود بك طلعت وعلي افندي رضا فيكون كل منكم في وابور ويرافقكم خشم الموس بك ليؤلف السناجق الذين في شندي ويضمهم اليكم. وفي مروركم الى شندي اختبروا حال الاهلين واعلموا الطيب منهم والردي وابقوا في شندي فلا تتعدوها الى بربر ولا تخرجوا من الوابورات الى البرّ لايّ سبب كان وابعثوا بالجواسيس الى دنقله لاستطلاع خبر الجيش وارسلوهُ اليّ تباعاً. ويرافقكم يوسف افندي صديق من كتاب الحكمدارية بصفة كاتب لكم ومعهُ ٨٠٠ ريال لاجل الانفاق منها على الجواسيس واذا اتتكم رسالة من مدير دنقله او من الجيش فأرسلوها

اليَّ حالاً . ولي الامل الوطيد انكم تقومون بواجب مأموريتكم هذه خير قيام والسلام »

ولما كان يوم الثلثاء في ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤م خرج نصحي من الخرطوم بالوابورات الثلاثة قاصدًا المتمة وسنعود اليهِ بعد . ولنأتِ الآن الى ذكر ما كان من المهدي فنقول :

المهدي وحصار الخرطوم

﴿ غزوة المهدي للخرطوم ﴾ تقدم ان المهدي اتى الرهد من الابيض في اوائل جمادى الآخرة فاقام فيهِ الى آخر شوال سنة ١٣٠١هـ ٢٢ اوغسطوس سنة ١٨٨٤م يستعد للزحف على الخرطوم . وفي اثناء ذلك اتاهُ سلاطين باشا (وقد سمي بعبد القادر سلاطين) والسيد بك جمعة من دارفور وحسين باشا خليفة من بربر وصالح باشا المك من فداسي وقد مرَّ ذكر ذلك كلهُ في محلهِ

واتاهُ الحاج عبد الله الكحال التاجر الشامي المشهور في خان الخليلي بمصر وكان قد ذهب بتجارة الى الفاشر بطريق الاربعين فلم يصلها حتى كان زقل قد استولى عليها فاخذ منهُ ثلثي تجارتهِ وترك لهُ الثلث الباقي فباعهُ واخذ يحتال على النجاة فطلب من زقل الاذن في زيارة المهدي فاتاهُ الى الرهد وبايعهُ فسماهُ المهدي اميرًا على بلاد الشام واصحبهُ كتبًا الى اهلها للقيام بنصرتهِ والانضمام الى اميرهم الكحال لمحاربة الترك فحمل الكحال هذه الكتب وجد السير الى مصر بطريق دارفور فودَّاي فبني غازي فالاسكندرية وهو غير مصدق بالنجاة

واتى المهدي الى الرهد في اواخر يوليو سنة ١٨٨٤ رجل من الغرب يدعى فخر الدين ادَّعى انهُ خليفة المهدي فسلمهُ الى الخليفة عبد الله فحبسهُ ثم قتلهُ . وارسل من الرهد محمود الحاج محمد الى دنقله كما مرَّ ومحمد ود ارباب الى القلابات كما سيجيء

ولما كان يوم ٢٩ شوال سنة ١٣٠١ هـ ٢٢ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ م خرج من الرهد غازيًا الخرطوم بجميع جيوشهِ فنزل في منهل البساطة واذن لاصحابهِ فزاروا قبر والد الخليفة عبد الله المدفون في ابي ركبة

﴿ قدوم الاستاذ محمد شريف الى المهدي ﴾ ثم استطرد السير حتى اتى شات فاستراح فيها نحو شهر حتى تكامل جيشهُ وهناك اتاهُ استاذهُ الشيخ محمد شريف

السالف الذكر مسلماً طائعاً وكان الاستاذ المذكور قد انتقل من العراديب الى مقام جده الشيخ الطيب في ام مرّحي فبقي فيه مؤملاً كسر شوكة المهدي حتى سقطت بربر وسدت طريق مصر في وجهه وزحف المهدي غازياً الخرطوم فلم يعد يرى بدًّا من التسليم اليه فاستقبلهُ المهدي احسن استقبال وامر بذبح النياق احتفالاً بقدومه وبقي في صحبته غير مهان الى ان مات المهدي فوقع في يد خليفته التعايشي فاهانهُ واذلهُ ثم وضعهُ في السجن وبقي فيه الى ان انقذهُ الجيش المصري الانكليزي بعد واقعة ام درمان سنة ١٨٨٤

﴿ خبر اوليفر باين ﴾ وقبل وصول المهدي الى شات اتاهُ رجل فرنساوي عن طريق دنقله والابيض يدعى اوليفر باين وعرض عليه مساعدتهُ ومساعدة قومه فرفضها المهدي وجعلهُ في صحبة سلاطين فمرض بالحمى التيفوسية ومات في الطريق

وقد فصل سلاطين باشا خبرهُ في كتابه «النار والسيف في السودان» فقال :

«وشاع خبر قدوم اوليفر باين في جيش المهدي فقال البعض انهُ امبراطور فرنسا والبعض انهُ من اقارب ملكة الانكليز فاحضروهُ الى الخليفة فسألهُ عن غرضه فاخذ يتكلم بالعربية كلاماً لايفهم فقال لهُ المهدي تكلم بلسانك مع عبد القادر سلاطين وهو يترجم لنا فاخذ يتكلم بالفرنساوية فقال : انا فرنساوي واسمي اوليفرباين وقد احببت السودان منذ صغري واهل بلادي ايضاً يحبون السودان مثلي ونحن في اوروبا على خلاف مع الانكليز الذين احتلوا مصر وارسلوا غوردن الى الخرطوم وقد اتيت اليكم لاعرض عليكم مساعدتي ومساعدة امتي. فقال لهُ الخليفة وما هي هذه المساعدة فاجاب اما انا فاساعدكم برأيي واما امتي فتساعدكم بالمال والاسلحة فذهب الخليفة ليخبر المهدي بذلك وبقي سلاطين وباين وحسين باشا خليفة فقال حسين باشا لسلاطين أمن السياسة ان يعرض المال والاسلحة على اناس غرضهم قتل البشر ونهب الاموال وسبي النساء والبنات وانتم اذا اشترى واحد منا عبدًا اسود قلتم ان ذلك اثم فظيع وعاقبتونا اشد العقاب فلم يحر سلاطين جواباً . ثم احضروا باين الى المهدي وامر سلاطين ان يترجم بينهما فقال باين للمهدي كما قال للتعايشي فاجاب

المهدي لقد علمت ما تقول ولكن لا اعتمد على الناس بل على الله ورسوله وانتم قوم كفار فلا يمكنني محالفتكم وفيَّ الكفاءة على قهر جميع اعدائي بانصاري هؤلاء. ثم قال لباين هل انت مسلم فقال نعم ثم قال كلمة الشهادة بصوت جهوري فاعطاهُ المهدي يدهُ فقبلها . ولما وقف باين على حقيقة المهدي ودَّ لو ان طيرًا من السماء يحملهُ الى بلادهِ وينجيه من تلك الهلكة التي اوقع نفسهُ بها وتوسل الى سلاطين فتوسط لهُ مع الخليفة ليسمح لهُ بالعودة الى بلادهِ فلم يفلح . ثم مرض بالتيفوس فقام سلاطين على الاعتناء بهِ ولما اشتد عليهِ المرض استدعى سلاطين وقال لهُ « قد دنا اجلي فاشكر لك اعتناءك بي واهتمامك بامري وآخر معروف اطلبهُ منك هو انك اذا نجوت من ايدي هؤلاء البرابرة واتيت باريز فاخبر زوجتي واولادي التعساء انني كنت افكر بهم وانا على حافة القبر ثم اخذ يبكي وينتحب وحملوهُ في اليوم التالي على جمل فوقع عنهُ وقضي نحبهُ ودفن في برية شات اه ملخصاً

وارتحل المهدي من شات فنزل النيل عند الدويم ثم ارتحل الى الترعة الخضراء فصلى فيها صلاة عيد الاضحى سنة ١٣٠١هـ ١ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ ثم ارتحل الى القيعة وهناك اتتهُ الوفود من جهات الجزيرة والسودان الشرقي لمبايعتهِ ووردت عليهِ الكتب من اعيان الجهات المذكورة بالتسليم وطلب البيعة والتماس العفو عما حصل من تأخيرهم لاجابة داعيهِ قبل الآن . وارسل غوردن وابورًا فكشف خبرهُ وعاد الى الخرطوم . ثم ارتحل ونزل بمحل يدعى ابا سعد بينهُ و بين طابية ام درمان مسيرة ساعة ومن هناك امدَّ النجومي بجيوش لتشديد الحصار على اهل الخرطوم وجهز جيوشاً لمحاصرة خندق ام درمان و بقي في ابي سعد الى ان فتحت ام درمان فانتقل اليها . وكان وصولهُ الى ابي سعد في ٢٣ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ قيل وكان عدد الجيوش التي حضر بها تنيف على ستين الفاً

﴿ تأثير غزوة المهدي في الخرطوم ﴾ هذا ولما علم المحاصرون بقدوم المهدي ازدادوا جرأة حتى صاروا يحفرون في الليل حفرًا قريبة من خط النار و يختبئون بها فاذا لاح لهم عسكري رموهُ بالرصاص والعساكر لا تراهم حتى اشتد اذاهم فأمر غوردن المهندسين فأقاموا على خط النار ابراجاً شاهقة اطلت عليهم في تلك الحفر فطردوهم منها

اما اهل الخرطوم فانهم لما سمعوا بقدوم المهدي اضطربوا وهلعت قلوبهم وكثر شغبهم فعلق غوردن منشورًا في جميع الممرّات والشوارع والمراكز العسكرية مؤداهُ: «ان الجيش الانكليزي القادم لنجدتنا تبلغ عدتهُ خمسين الفًا وقد انقسم الى قسمين قسم بطريق ابي حمد وقسم بطريق ود قمر وقد وصلت اول فرقة منهُ بالرويان وعن قريب تصل بربر وربما وصلت الخرطوم قبل وصول محمد احمد الى أم درمان فتشددوا واعلموا ان الله ناصركم والسلام» . ومنح مكافأة شهرين لجميع العساكر والموظفين الملكية

وكان غوردن عند اول سماعهِ بقدوم الجيش الانكليزي قد أمر باعداد بعض المنازل على شاطئ النيل لسكنى الضباط الانكليز فذهب الآن بنفسهِ الى تلك المنازل وتعهدها فوجد انها مفتقرة الى اصلاح كثير فأعطى احد المعاونين ٢٠ الف غرش فرمها وداوم الكنس والرش داخل المنازل وخارجها

﴿ كتاب النجومي الثاني الى غوردن ﴾ هذا وكان النجومي لما وصلهُ الخبر بقيام المهدي من الرهد قد كتب الى غوردن كتابًا مفادهُ: «ان الامام المنتظر قد تحركت ركابهُ الشريفة من الرهد غازيًا الخرطوم بجيوش لا عدد لها فأنصحك ان تقابلهُ مع من تختار من الاعيان طائعًا طالبًا الامان وهو لا شك يؤمنك على نفسك ومالك ومن معك وذلك اولى من سفك الدماء . واما ما ينقلهُ اليك الجواسيس من ان الانكليز قد ارسلوا جيشًا لانقاذك فكلهُ كذب وهم انما ينقلونهُ اليك لتبذل لهم العطاء كما هي عادتك وانا بعون الله قادر على فتح الخرطوم واخذها منك عنوة ولكن سيدنا الامام المهدي امرني بنصحك والرفق بك حقنًا للدماء والسلام على من اتبع الهدى»

﴿ جواب غوردن للنجومي ﴾ فأجابهُ غوردن في ٩ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ بكتاب هذا مفادهُ: «من غوردن باشا والي السودان الى ولد النجومي بالكلاكلة: اعلم اني لست بيالٍ بك ولا بسيدك المهدي ولا بما معكما من الجيوش . واما خبر قدوم الجيش الانكليزي فليس هو من اختلاق الجواسيس بل قد جاءتني بهِ اخبار رسمية من قبل الحكومة الخديوية والدولة البريطانية العظمى وسترى عن قريب ما يحل بك من الدمار وتقول يا ليتني مت قبل هذا ولا تعد الى مخاطبتي بعد الآن فهذا آخر العهد بيننا والسلام»

﴿ خبر احمد العوّام ﴾ وكان في الخرطوم رجل من خطباء الثورة العرابية يقال لهُ احمد العوام وهو مصري الجنس حُسيني الانتساب وقد نفي الى الخرطوم بسبب الثورة العرابية فرأى الثورة المهدية في وجهه فتشيع لها وقد اطلعت على رسالة لهُ بتاريخ ١٧ رمضان سنة ١٣٠١ هـ ١١ يوليو سنة ١٨٨٤ سماها « نصيحة العوّام » فاذا هي ثوروية محضة وقد اعلن فيها تشيعهُ للثورة المهدية وكرههُ للحكومة الخديوية ومما قالهُ فيها مشيرًا الى موظفي حكومة الخرطوم : «...وقد طالما جادلتهم بالحق سرًّا ونصحت لهم حتى في دار الحكومة جهرًا على مرأى ومسمع من وكيلها النصراني ومن حضر من كتبة الديوان في ليلة النصف من شعبان هذه السنة (١٣٠١هـ) ٩ يونيو ١٨٨٤ م ان يسعوا في الصلح بين الطائفتين المتحاربتين عملاً بأمر الله فلم اجد فيما بينهم محقًا كلا ولا ساعيًا بحكمة حتى لاخماد هذه الحرب بين المسلمين وعباد الله المؤمنين مع تطلع الحاكم غوردن باشا وهو نصراني لاطفاء لهيب هذه الحرب الموقدة ولذلك اعتزلتهم وجميع المحصورين الاَّ من جانبي يسعى وهو يخشى فاني ابذل لهُ محض النصح حتى يفتح الله بيننا وهو خير الفاتحين ... »

وقد اثرت اقوالهُ تأثيرًا سيئًا في نفوس اهل الخرطوم فسجنهُ غوردن وكبّلهُ بالحديد حتى رأى منهُ انكسار النفس ووعد انهُ لا يعود الى ما كان عليهِ فعفا عنهُ وجعلهُ معاونًا في الحكمدارية براتب ١٥٠٠ غرش في الشهر ولكن ما لبث ان عاد الى سابق عادتهِ من انتقاد اعمال الحكومة وتهييج اهل البلاد ضدها . ولما جاء الخبر بزحف المهدي على الخرطوم واعلن غوردن خبر قدوم الجيش الانكليزي جاهر في تكذيب غوردن وتصديق المهدي ولم يقتصر على ذلك بل اغرى احدى النساء فرمت جمرة من شباك على معمل الفشكليك بقصد احراق الجبخانة كلها فسقطت الجمرة على بعض الاوراق فأحرقتها فشعر بها الديدبان فأطفأها واعترفت المرأة ان احمد العوام هو الذي اغراها بذلك فأمر غوردن بقتلهِ فقتل في سراي الشرق

﴿ خيانة بعض اعيان الخرطوم ﴾ ولما حلَّ المهدي بأبي سعد زاد قلق اهل الخرطوم فاتفق جماعة من اعيانها وكبار موظفيها وجمعوا مبلغًا من النقود لفقراء جيش

المهدي وكتبوا اليهِ كتاباً يصرحون فيهِ بتسليمهم بمهديتهِ وانهم ساعون في اضعاف الحكومة بكل جهدهم وينتظرون الفرصة للخروج اليهِ وقد ارسلوا الكتاب والنقود مع عبد لاحمد بك جلاب مدير الخرطوم فصادفتهُ « دورية » أم درمان وأرسلتهُ الى غوردن فاستنطقهُ فكان في جملة المشتركين في هذه الجناية :

احمد بك جلاب	مدير الخرطوم واخوه تميمي	الخليفة ولد ارباب	من ارباب المعاشات
الشيخ محمد خوجلي	قاضي عموم السودان	الفكي الامين الضرير	شيخ الاسلام
الفضل ابراهيم	باشكاتب مجلس الاستئناف	محمد عبد الرحمن البشير	تاجر
ابو بكر الجركوك	احد اعضاء مجلس الاستئناف	ادريس بك النور	احد اعضاء مجلس الاستئناف

فامر غوردون مأمور الضابطة فاحضرهم من منازلهم ليلاً وحبسهم في ثكنة العساكر ماعدا المدير واخوهُ والقاضي وشيخ الاسلام وادريس بك النور فانهُ حبسهم في منازلهم ومنع الناس من الدخول اليهم . وسمى موسى بك شوقي مديراً للخرطوم بدلاً من احمد بك جلاب واعاد المحافظة فجعل ابرهيم باشا فوزي محافظاً وامرهُ بمساعدة الضابطة على معرفة المؤتمرين وقطع دابر المفسدين

﴿ عودٌ الى نصحي والوابورات ﴾ وفي ١١ اكتوبر سنة ١٨٨٤ ارسل غوردن وابور التوفيقية بكتب الى نصحي والجيش ليستطلع خبرهم ويعلمهم بقدوم المهدي فابقى نصحي وابور التوفيقية وارسل الى غوردن وابور تل حوين الى الخرطوم فوصلها في ١٩ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ بكتاب هذا مفادهُ : « لما خرجنا من الخرطوم لم يقابلنا احد بالعداء الاّ ادريس شيخ الجريساب فانهُ اقام متراساً على النيل وتحصن فيهِ هو ورجالهُ و بادرونا باطلاق النار فصوبنا عليهم المدافع فهزمناهم شر هزيمة وخرجنا الى الحلة فخربنا منازلها وسواقيها واخذنا اخشابها وقوداً للوابورات ثم استطردنا السير الى المتمة فوجدنا اهلها وفي رأسهم احمد حمزة قد اقاموا استحكاماً منيعاً فبادرونا برمي الرصاص فرميناهم بالقنابل ثم اقلبنا الى شندي فوجدنا السناجق الشايقية قد تحصنوا في المنازل التي على النيل واتحدوا مع الدراويش ورمونا بالرصاص فحاربناهم حتى هزمناهم من تلك المنازل واحتللناها مكانهم ثم وسّطنا الست فاطمة والست نفيسة كريمتي السيد حسن المرغني المقيمتين في شندي لدعوتهم الى الطاعة فظهر انهم متذبذبون ومايتنصرون الاّ

للغالب . وقد ارسل احمد حمزة اخاه الى بربر يطلب المدد فعاد بلا شيء . وبلغ محمد الخير ان الجنود الانكليزية زاحفة على بربر من دنقله وكسله وكورسكو فنادى بالنفير العام في البلاد ليأتوا الى بربر لمحاربة الانكليز فلم يذهب احد من هذه الجهة خوفاً على بلادهم من الوابورات لكن حضر اليوم سعد ولد بنونه بمدفع من بربر ورمانا بعدة قنابل فلم يصبنا بضرر . وقد اظهر محمد بك طلعت وعلي افندي رضا كل نشاط ودربة وبسالة وجرح منا في المناوشات التي حصلت بيننا وبين الاعداء ٢٥ رجلاً وهاهم واصلون اليكم لمعالجتهم عندكم فارجو ارجاع الوابور الينا بما عندكم من الاوامر واما الكتب التي برسم الجيش فقد بعثناها اليه مع الجواسيس »

فأعلن غوردن في المدينة ان الانكليز قد زحفوا على بربر من كسله وسواكن ودنقله واستشهد بكتاب نصحي وارجع اليه وابور تل حوين ثاني يوم وصوله ومعهُ وابور بوردين واصحبهما كتباً الى الجيش الانكليزي على ان تبقى في شندي الى حضور الجيش وكتاباً الى نصحي هذا مفادهُ :

« واصل اليكم بوردين وتل حوين بما يلزم من الذخائر والبقسماط فعند وصولهما ابقوا خشم الموس بك بشندي بوابور المنصورة وخذوا وابورات بوردين وتل حوين والتوفيقية والصافية وسيروا بها حتى تشرفوا على بربر فتستطلعوا طلع الجيش فاذا وجدتموهُ قريباً ساعدوه على بربر وارسلوا الي تل حوين بعد ١٠ ايام بما عندكم من الاخبار . واحذروا من استعمال الذخيرة الاَّ عند الضرورة . واكرر عليكم الامر بعدم الخروج من الوابورات الى البر فقد علمت ان الجرحى الذين ارسلتموهم انما جرحوا بالمحاربة في البر وها قد ارسلت اليكم ٢٥ عسكرياً من المصريين بدلاً منهم واجابةً لالتمسكم انعمت على محمود بك طلعت برتبة الميرالاي وعلى علي افندي رضا برتبة القائمقام »

وصدع نصحي بالامر فذهب الى بربر واستطلع خبر الجيش ولما لم يجد لهُ اثراً فيها عاد الى شندي وارسل وابور تل حوين بالاخبار الى الخرطوم فارجعهُ غوردن ثانية الى نصحي بكتاب ؟ الى رئيس الحملة الانكليزية بتاريخ ٤ نوفمبر سنة ١٨٨٤ فأوصلهُ نصحي ؟ الى رئيس الحملة وسيأتي ذكرهُ

الفصل السابع عشر
في
﴿ تاريخ الحملة الانكليزية سنة ٤ — ١٨٨٥ ﴾

﴿ مأمورية كتشنر ورندل ﴾ هذا وكانت الحكومة في مصر ساهرة على الثورة في السودان وترقب حركاتها بكل اهتمام وكأن الحكومة الانكليزية في رفضها ارسال الزبير الى الخرطوم قد ضمنت سلامة غوردن والحاميات المصرية في السودان فوق سلامة مصر • وكان غوردن يطلعها على احواله تفصيلاً الى ان سدت طريق مصر وخيف على حامية بربر فندبت الكبتن كتشنر (الجنرال كتشنر المشهور) واللفتنت رندل (الجنرال رندل الآن) وكانا كلاهما من ضباطها النجباء الموظفين حينئذ في الجيش المصري وامرتهما بالذهاب الى بربر ومساعدة مديرها حسين باشا خليفة على تمهيد البلاد فما وصلا كورسكو حتى علما ان الرباطاب ثاروا في ابي حمد فامرتهما بتجنيد جيش من متطوعة العبابدة وانجاد بربر ولكن قبل ان يتما جمع الجيش المطلوب سقطت بربر فبقيا بمن جمعا من العبابدة في كورسكو

﴿ ارسال الجيوش الى الحدود ﴾ وخافت الحكومة على حدودها النيلية لمجاورتها للسودان وشدة علائق اهلها التجارية والقرابية باهله فجعلت الجيش المصري على الحدود منذ شهر ابريل سنة ١٨٨٤ ووزعتهُ بين اصوان وكورسكو وحلفا • وفي ٧ يوليو ارسلت اورطة انكليزية الى اصوان

﴿ بعثة كتشنر الى دنقله ﴾ ثم كانت الثورة في دنقله على ما علمت ولم تكتفِ الحكومة بما كان يرسلهُ مصطفى باشا ياور من اخبارها فتطوع الكبتن كتشنر للذهاب الى دنقله واستجلاء الحقيقة فترك رندل مع متطوعة العبابدة في كورسكو وذهب الى دنقله فوصلها في ١ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ فوجد مصطفى باشا ياور مشغولاً بمحاربة الدراويش فاستأذن الحكومة في مشاركتهِ في العمل فلم تأذن لهُ فارسل لها تقريراً مطولاً عن حالة دنقله وعما سمعهُ عن غوردن والثورة في الخرطوم وبقي في الدبة

﴿ طريق الحملة الى الخرطوم ﴾ وكانت الحكومة الانكليزية منذ علمت بحصر غوردن في الخرطوم اخذت تفكر في امر انقاذه وفي الطريق التي تتخذها الحملة اذا اقرت على ارسالها الى الخرطوم فكان امامها اربع طرق: طريق مصوع الى كسله فبربر وطولها ٦٠٣ اميال وطريق النيل وطولها من حلفا الى بربر ٦٦٦ ميلاً وطريق سواكن الى بربر وطولها ٢٤٥ ميلاً وطريق كورسكو الى ابي حمد فبربر وطولها ٣٦٠ ميلاً فبحث كبار قوادها طويلاً في هذه الطرق ففضَّل اللورد ولسلي طريق النيل مع انها اطولها لوفرة مائها وطيب هوائها ورفض طريق مصوع لقلة مائها ووعورة مسلكها فضلاً عن طولها ورفض طريق سواكن لقلة مائها وكثرة حرّها وعداء القبائل المالكة لآبارها . وفضَّل الجنرال ستفنسن قومندان جيش الاحتلال في مصر طريق سواكن لقصرها . والسر افلن سردار الجيش المصري طريق كورسكو لقصرها وقربها من مصر . وقال السر صموئيل باكر باتخاذ هذه الطرق الثلاث معاً فاختارت الحكومة طريق النيل اي الطريق التي قال بها اللورد ولسلي

﴿ قرار الحكومة الانكليزية على ارسال الحملة ﴾ فقرّ رأيها في بادىء الامر على ارسال آلاي من الجيش الانكليزي الى دنقله بقصد تثبيت اهل الحدود ودنقله على الولاء وارهاب قبائل السودان لعلها ترجع عن حصار الخرطوم فاذا لم ترجع جعلت هذا الآلاي مقدمة الحملة على الخرطوم وكان ذلك في ٧ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ . فما لبثت ان رأت ان اهل السودان لم يكونوا اذ ذاك ليرهبوا آلاياً من الجيش في دنقله ويرجعوا عن حصر الخرطوم فأقرَّت نهائياً على ارسال حملة منظمة لانقاذ غوردن واناطت قيادتها العامة باللورد ولسلي القائل بطريق النيل وهو من اكبر ضباطها شأناً واسدّهم رأياً واكرمهم خلقاً واعظمهم اقداماً وقد اجملت لهُ الغرض من الحملة بقولها : « ان الغرض الاساسي من الحملة انما هو انقاذ الجنرال غوردن والكولونل ستيورت من الخرطوم فمتى تمّ هذا الغرض فلا تباشروا حركات عدائية ايًّا كانت والحكومة تعتمد عليكم بأنكم لا تتقدمون جنوباً الا بقدر ما يلزم للحصول على هذا الغرض »

﴿ قوة الحملة ﴾ وكان اول ما نظر فيهِ اللورد ولسلي القوة اللازمة للحملة فطلب جيشاً مؤلفاً من ٩ آلاف من العساكر الانكليزية فوق الجيش المصري على ان يجعل الجيش المصري في خط الاتصال بين شلال حلفا وشلال حنك ويجعل ٤ آلاف رجل من جيشهِ في هذا الخط بين شلال حنك و بربر وذلك للمساعدة على النقل والمحافظة على المؤن والذخائر في الطريق فيتوفر عندهُ ٥ آلاف عسكري انكليزي لساحة القتال فلبت الحكومة طلبهُ ولم تكن العساكر كلها متوفرة لديها في مصر فأتت بالباقي من مالطة و بلاد الانكليز

﴿ العقبات في طريق الحملة ﴾ ولما تمَّ للورد ولسلي ما طلب من الجيش اخذ يهتم في نقل هذا الجيش وما يلزمهُ من المؤن والذخائر وتمهيد العقبات التي وقفت في سبيلهِ في البر والبحر واهمها طول المسافة وكثرة الشلالات وقلة المؤن في الطريق فضلاً عن حرّ الشمس وبرد الليل ووعورة الطريق فصدر امرهُ بمدّ سكة حديد حلفا وسرس الى عكاشة ولكنها لم تتم حتى كان الجيش قد اصبح جنوبيها . وكان آخر الحد الجنوبي لسكة الحديد المصرية اسيوط فعهد امر النقل من اسيوط الى حلفا الى المستر كوك الشهير . وسأل بعض معامل بلادهِ في ١٢و٢٢ اوغسطوس فصنعوا لهُ ٩٠٠ قارب يسع كل قارب منها ١٢ رجلاً بعدتهم وسلاحهم ومؤنتهم وكلها صالحة لسلوك اضيق الشلالات وارسلوها الى حلفا فوصلتها في ١٤ اوكتوبر فأبقى ٢٠٠ منها بين حلفا واسوان وارسل الباقي بالعساكر الى دنقله . واجاز فوق شلال حلفا وابوري ناصف الخير والجيزة من وابورات الحكومة المصرية فوصل « ناصف الخير » الى دنقله في ١٠ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ وساعد كثيرًا في النقل بين الشلال الثالث والرابع واما « الجيزة » فانهُ غرق في شلال تنجور . واحضر وابورين من بلاد الانكليز قطعاً فبنى احدهما « وولزلي » في الاسكندرية وسيَّرهُ بالنيل الى حلفا وبنى الآخر « لوتس » جنوبي شلال سمنة .

هذا بعض ما سهَّل بهِ النقل في النيل واما لتسهيل النقل في البر فقد اشترى اربعة آلاف جمل واستأجر ضعفها من الجمال وعددًا كبيرًا من البغال والحمير

وكان خط التلغراف ممتدًا الى مروي فاخذ معهُ جميع معدات التلغراف ليمدهُ الى حيث اراد جنوبي هذا الخط ٥ ونظم البريد احسن تنظيم بحيث انهُ لم يسمع ان احدًا فقد كتابًا واحدًا كل مدة الحملة

وقدكان من نصيبي اني رافقت هذه الحملة موظفًا في قلم المخابرات فوصلت معها الى آبار الجكدول في صحراء البيوضة وشهدت بعيني الهمة التي بذلها اللورد ولسلي ورجالهُ في تذليل الصعاب حبًا بخلاص غوردن وحاميتهِ فاذا هي مثال الهمم وعنوان الشمم

و بعد ان اتمّ اللورد ولسلي استعداداتهِ في مصر خرج منها باركان حربهِ في ٢٧ سبتمبر فوصل حلفا في ٥ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ ٠ وكان قدارسل اورطة من جيشهِ الى دنقله فوصلتها في ٢٠ سبتمبر ووصل السر هربرت ستيورت في ٢٩ من الشهر المذكور فاستلم قيادة العساكر ووصل السر تشارلس ولسن رئيس قلم المخابرات في ١١ اوكتوبر وكان من المساعدين في هذا القلم الكولونل كولفل والماجور ترنر وكلهم من كرام الانكليز ٠ وبقي اللورد ولسلي في حلفا الى ان رأى بعينهِ المراكب تسير بالعساكر فوق الشلال فمرّ اولها في ٢٥ اوكتوبر بمساعدة كوكو شيخ الشلال وفي ٢٨ منهُ قام الى دنقله فوصلها في ٣ نوفمبر ٠ وكان قد اتى بنيشان القديسين ميخائيل وجورج من جلالة الملكة فسلمهُ اياهُ وارسلهُ الى مصر ٠ واقرّ على جعل كورتي النقطة الاساسية للجيش وعاد الى حلفا ليعجل في نقل الجيوش والمؤن فوصلها في ١٦ نوفمبر سنة ١٨٨٤

﴿ مواصلة غوردن ﴾ وكان همّ رجال المخابرات مواصلة غوردن واستطلاع حالهِ كما انّ همّ غوردن من الجهة الثانية مواصلة مصر واستطلاع خبر النجدة التي كان ينتظرها بفارغ الصبر خصوصاً بعد ارسالهِ ستيورت باشا وقد بث كل فريق العيون والجواسيس حتى تمّ الاتصال بينهما وتحقق غوردن مجيء الانكليز لنجدتهِ في ١٧ سبتمبر فأرسل الوابورات لملاقاتهم في المتمة في ٢٩ من الشهر المذكور وارسل معها كتبًا يخبرهم بحالهِ كما مرّ فبعد وصول اللورد ولسلي الى حلفا بيوم اي في ١٧ نوفمبر وصلهُ كتاب من غوردن بتاريخ ٤ نوفمبر وهو الكتاب المشار اليهِ آنفًا وهذه ترجمتهُ :

﴿ كتاب غوردن الى رئيس الحملة بتاريخ ٤ نوفمبر سنة ١٨٨٤ ﴾ ٥ وصلني

امس بريد من كتشنر بالدبة بتاريخ ١٤ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ ومعهُ كتاب « بالجفرة » من اللورد ولسلي بتاريخ ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤ لا استطيع حلهُ لاني ارسلت المفتاح مع ستيورت . وما وصلني قبل هذا البريد الا كتاب من كتشنر مؤرخ في ٣١ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ وصلني في ١٧ سبتمبر اي بعد سفر ستيورت من هنا بأسبوع . في جهة المتمة الآن خمسة وابورات عليها تسعة مدافع بانتظاركم . يمكنا ان نثبت في الحصار ٤٠ يوماً بالراحة ومن ثمَّ يصعب علينا الثبات . اني اشتعل غيظاً لغرق الوابور ومتى تأكدتم غرقهُ اخبروا نظارة الخارجية ان مفتاح الجفرة قد ضاع لاني ارسلتهُ مع ستيورت اذ كنت في ريب من نجاتنا . وقد ظننت ان سفر النيل سليم فأرسلت ستيورت وبَوَر وهربن في وابور ليطلعوكم على حالنا لعلكم تعجلون بانقاذنا وارسلت مع ستيورت يومية الحوادث من اول مارس سنة ١٨٨٤ الى ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤ . المهدي هنا الآن على ثمانية اميال منا (في أبي سعد) والعرب يحصروننا من الشرق والجنوب والجنوب الغربي ولكن ليس منهم احد شمالي ام درمان . سنار لا تزال ثابتة في الحصار وهي عالمة بقدومكم . وفي الوابورات يوميتي من ١٠ سبتمبر الى هذا اليوم وفيها تفصيل حالنا وخارطة بربر . يقع بيننا وبين العرب قتال من وقت الى آخر ولكن المهدي يقول انهُ لا يحارب في هذا الشهر (وهو شهر محرم سنة ١٣٠٢) وقد احضر معهُ جميع الاوربيين والراهبات الذين وقعوا في اسره ويقال انهم جميعاً اعتنقوا الاسلام . سلاطين ايضاً مع المهدي وكذلك لبتن ويقول المهدي ان لبتن سلَّم . منذ ١٠ مارس سنة ١٨٨٤ الى اليوم وصلني (عدا كتابَي كتشنر المشار اليهما آنفاً) رسالتان واحدة من دنقله بدون تاريخ وواحدة من سواكن بتاريخ ٥ مايو سنة ١٨٨٤ ووصلتني رسالة بمعنى هذه الرسالة من مصوع بتاريخ ١٧ ابريل سنة ١٨٨٤ واما انا فقد ارسلت في الثمانية اشهر الماضية عدة رُسل في كل الطرق .

نزل العرب في ضواحي الخرطوم في ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ فهاجمناهم في ١٦ مارس فهزمونا وحملونا خسارة جسيمة من العساكر وغنموا مدفعاً واحداً ومن ذلك الوقت لا نزال في قتال مستمر وقد جرح ستيورت جرحاً خفيفاً في ذراعهِ في بعض

المناوشات . ولما ارتفع النيل خرجنا عليهم فاوقعنا فيهم ثلاث وقائع او اربع ورفعنا الحصار عن المدينة وارسلنا حملتين الى سنار * وفي كل واقعة جرت لنا مع المحاصرين كانوا يهاجمون المربع مستقتلين فيخترقونهُ ويدخلون وسطهُ وقد كسرونا في ٤ سبتمبر سنة ١٨٨٤ كسرة شنيعة ومن بعدها لم يكن شيء يذكر . ومجموع ما اطلقناهُ من الرصاص الى الآن ٣ ملايين رصاصة والسراي احسن محل لاطلاق الرصاص * مع العرب هنا مدافع كروب وقد عطلوا وابوراتنا مرارًا وغنموا وابورين صغيرين في بربر ووابورًا في النيل الازرق وبنينا نحن وابورين جديدين وصفحنا جميع الوابورات وقوينا الحصون بالالغام والشباك الشرنجية * ندفع مرتبات الجند شهرًا شهرًا فغير متأخر لهم الآ راتب نصف شهر . وقد استعملنا عملة الورق وانفقنا جميع الثياب التي في المخازن * الاسرى الذين مع المهدي كلهم بخير وقد تزوج الراهبات زواجاً ظاهرياً بالاروام تخلصاً من التزوج بالعرب . سلاطين مع المهدي والمهدي لم يصادرهُ في مالهِ بل ابقاهُ لهُ كلهُ وهو يحسن معاملتهُ ولكنني سمعت اليوم انهُ مقيد بالحديد . مع المهدي رجل فرنساوي جاءهُ بطريق دنقله ولا اعلم سبب مجيئهِ * وقد صنعت مدالية وجعلتها ثلاثة انواع ذهب وفضة وقصدير ووزعتها على اهل الحامية * يقول كتشنر انهُ ارسل اليَّ عدة رسائل ولم يصلهُ جوابها مع اني ارسلت في الشهر الماضي عشر رسائل على الاقل . يسافر الوابور بكتابي هذا نهار غدٍ الى المتمة ويُرسل لكم من هناك مع جاسوس . لا تدعوا العساكر المصرية تأتي الى هنا استلموا قيادة الوابورات منهم واخرجوهم منها فانهُ لا فائدة بهم »

﴿ جواب اللورد ولسلي على كتاب غوردن ﴾ فكتب لهُ اللورد ولسلي جوابًا على كتابهِ هذا يوم وصولهِ (١٧ نوفمبر) وهو موجسٌ خوف وقوعهِ في يد المهدي فقال :

« وصلني كتابك بتاريخ ٤ الجاري (نوفمبر) وهو اول كتاب اخذتهُ منك الى الآن . وسأكون في دنقله بعد ٤ ايام ويكون الجيش كلهُ بين الدبة وامبقول في ٧ يناير سنة ١٨٨٥ ولست اعطيك تفصيل القوات التي يتألف منها الجيش ولكن تأكد انها كافية لسحق محمد احمد وانصارهِ ومحو ذكرهِ من الوجود وكلما زاد عدد

مقاتلتهِ زاد سرورنا لانهُ بذلك يزيد عدد قتلاهم . ويودُّ جنودي ان يثبت المهدي في ساحة الحرب لانهم يحبون القتال ويعظم اسفهم اذا قطعوا هذه المسافة الطويلة من بلادهم ولم يجدوا فرصة لقتل محمد احمد والفتك بانصاره . اما انا فقد رأيت سفك دماء كثيرة في زماني وافضل ان تنتهي المسألة سلميًّا وذلك بمسامحة محمد احمد في ما مضى وجعلهِ سلطانًا مستقلاً على كردوفان يكون الملك فيها لهُ ولاولاده من بعده وبتأسيس حكومة وطنية في الخرطوم يكون الحاكم فيها مستقلاً عن مصر وحكمهُ وراثي فيملك دنقله وبربر والخرطوم وتعود انت الى انكلترا . واما اذا كان محمد احمد أحمق وأبى الاَّ الحرب فاني ادع عساكري ينالون مآربهم منهُ وهم نخبة جيشنا المظفر وصفوتهُ وهم الآن سائرون برًّا وبحرًا الى دنقله. لم اكتب هذا اليك في الجفرة لانك تقول انك اضعت مفتاحها . ابعث برسلك الينا في كل اسبوع واخبرنا بجميع احوالك ونحن نكافئ رسلك الذين يأتونا بكتب منك بكل سخاء . . . »

وقد جعل من هذا الكتاب نسختين فأرسل نسخة بطريق الدبّة بواسطة الكبتن كتشنر ونسخة بطريق مروي بواسطة الكولونل كولفل . ويظهر ان النسخة التي ارسلها كولفل وصلت الى نصحي في شندي فأرسلها بوابور بوردين الى غوردن ؟

وكان اللورد ولسلي لا يعلم عن غوردن والخرطوم الا من الجواسيس فلما جاءهُ كتاب غوردن وعلم منهُ حقيقة الحال التي صار اليها جدّد الهمة في تعجيل الجنود وكانت اذ ذاك (١٨ نوفمبر) موزعة على نقط خط الاتصال بين اسيوط ودنقله فأرسل اليهم التلغرافات يحثهم على الاسراع في السير برًّا وبحرًا الى كورتي فاجتازت المراكب بالجنود شلال حنك الى نيل دنقلة السهل في ٣٠ نوفمبر . وفي هذا اليوم نشر اللورد ولسلي في الجيش كلهِ الامر الآتي : « الى عساكر الحملة النيلية وبحريتها

« ان انقاذ الجنرال غوردن وحاميتهِ المحصورين في الخرطوم منذ زمان طويل هو العمل الجيد الذي ندبتنا اليهِ جلالة الملكة وهو يحرّك عاطفة كل عسكري وبحري حباً بالاشتراك فيهِ . وجسامة المصاعب التي يستلزمها هذا العمل انما هي بعينها تحركنا الى زيادة الهمة . فكانا نفتخر بالشهامة وانكار النفس اللذين يظهرهما

غوردن في الدفاع عن حاميته وذلك مما يزيد شهرتهُ العالية ان كانت الزيادة ممكنة بعدُ ولكن غوردن لا يستطيع الثبات طويلاً في الحصار وهو الآن يدعونا لانقاذ حاميته • وشهامتهُ وحبهُ لوطنهِ مشهوران في كل بلاد ناطقة بلغتنا فليس امر انقاذهِ مما يهم الأمة فقط بل مجرد معرفتنا ان رفيقاً باسلاً في حاجة الى المساعدة يستفزُّنا الى اعانتهِ بحمية مضاعفة وما تسمح لنا المروءة ان نتركهُ يلاقي ما لاقاهُ رفيقهُ المقدام ستيورت الذي غدر بهِ الاهلون وقتلوهُ وهو مجدٌّ في القيام بمهمة خطيرة حرجة • وفي يدنا ان نخلص غوردن من ميتة كهذه بعون الله ٥ المسير صعداً في النيل وشلالاتهِ شاق جداً ولا يحتمل مشاقهُ الا من كانت لهُ اسمى الصفات العسكرية وهي احتقار الاخطار والمصاعب بالحزم والعزم الصفات التي امتاز بها عساكر جلالة الملكة وبحريتها في المعارك السالفة • اني عالم بجسامة الموانع التي تعوقنا عن الاسراع في السير ولكن من منا يبالي بهذه الموانع اذا علم ان الجنرال غوردن وحاميتهُ في خطر فانقاذ غوردن وحاميتهِ من الخطر هو الآن بعد الله في ايديكم • وكيف كان الحال فلا بد من انقاذهم بعون الله وبهذا كفاية للعساكر والبحرية الانكليز » اه

﴿ جيش الصحراء ﴾ واقام اللورد ولسلي في دنقلة الى ١٣ ديسمبر حتى اجتمع الجيش المحارب كلهُ في كورتي فتقدم اليها مع اركان حربهِ فوصلها في ١٦ ديسمبر سنة ١٨٨٤ وقسم جيشهُ قسمين : جيشاً يسير بطريق النيل بقيادة الجنرال أرل فيؤدّب المناصير الذين غدروا بالكولونل ستيورت ويتقدم الى ابي احمد فيوافيهِ اليها اللفتننت رندل بالمؤن من كورسكو بمن معهُ من المتطوعة العبابدة ثم يُسير القوتان لفتح بربر • وجيشاً يسير بطريق الصحراء الى المتمة بقيادة الجنرال السر هربرت ستيورت فيسرع في نجدة غوردن قبل فوات الفرصة • وكان غرض اللورد ولسلي ان يبعث بجيش الصحراء كلهِ دفعة واحدة ولكن لم يتيسر لهُ العدد اللازم من الجمال فجعل محطة في وسط الطريق عند آبار الجكدول وارسل اليها الزاد والعساكر تباعاً

اما آبار الجكدول فهي عبارة عن ثلاث برك واسعة بين التلال تجتمع اليها مياه الامطار اثنتان منها في وسط تلال شاهقة يشقّ الوصول اليها

فلما كان يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٤ سار الجنرال ستيورت بقسم من جيشهِ حاملاً الذخائر والمؤَن ومعهُ الكبتن كتشنر الذي الحق بقلم المخابرات فترك الزاد والذخائر في عهدة الكبتن كتشنر ونفر من الجيش في الجكدول وعاد بمعظم القوة والجمال الى كورتي فوصلها في ٤ يناير سنة ١٨٨٥ وشرع في ترحيل الجند. وفي ٨ يناير سار بباقي قوتهِ الى الجكدول وفي ١٤ منهُ سار بالجيش كلهِ من الجكدول قاصدًا المتمة

(سرية موسى ود حلو) وفي اثناء ذلك كان محمد الخير يبث العيون والطلائع في بلاد دنقلا والحدود لاستطلاع خبر الحملة ومراقبة حركاتها ويرسلها تباعاً الى المهدي والمهدي ايضاً يبث العيون بطريق جبرة لمراقبة الحملة فلما تحقق قيام جيش الصحراء من كورتي قاصدًا المتمة اخرج سرية من جيش الخليفة ودحلو قيل فيها نحو ٣ آلاف مقاتل من عرب دغيم وكنانة وهم اخلص انصارهِ واشدهم باساً وعقد لواءها للامير موسى ود حلو اخي الخليفة علي ود حلو وامرها بمقابلة الانكليز في الصحراء

(سرية الجعليين) وامر محمد الخير في بربر بارسال سرية من بربر تنضم الى سرية موسى ود حلو فتصدان الانكليز عن الوصول الى النيل. فاخرج محمد الخير سرية من جيشهِ بقيادة ابن اخيهِ عبد الماجد محمد خوجلي واوعز الى الحاج علي ود سعد فنادى بالنفير العام في بلاد الجعليين فاجتمع عندهُ وعند ابي الماجد في المتمة نحو ٨٠٠٠ مقاتل فارسل الطلائع الى الانكليز فرجعوا وقالوا انهم خرجوا من آبار الجكدول قاصدين آبار ابي طليح وهي في منتصف الطريق بين الجكدول والمتمه وليس في الطريق آبار غيرها فلم يعد ينتظر موسى ود حلو بل اسرع بجيشهِ الى الآبار المذكورة ليمنع الانكليز من ورود الماء ويفتك بهم فيفوز بالغنيمة وحدهُ

(واقعة ابي طليح في ١٧ يناير سنة ١٨٨٥) وفي ١٦ يناير سنة ١٨٨٥ وصل الجنرال ستيورت الى ظاهر آبار ابي طليح فوجد الجعليين قد سبقوهُ اليها وكان الوقت اذ ذاك العصر فرأى ان يؤخر الهجوم الى صباح اليوم التالي خوفاً من دخول الليل قبل انتهاء المعركة فعسكر في محل حصين قرب الآبار وسهر الليل كلهُ خوفاً من هجوم الجعليين. وفي ذلك الليل حضر موسى ود حلو بجيشهِ فانضمّ الى الحاج علي

ود سعد . وفي فجر ١٧ يناير سنة ١٨٨٥ نهض الجنرال ستيورت فنظم جيشهُ مربعاً وزحف على الدراويش وهو لا يرتاب من انهم يهاجمونهُ فاتخذ خطة الدفاع وكانت قوة المربع ١١٥ ضابطا و ١٦٨٧ عسكرياً انكليزياً و ٨ عساكر مصرية و ٣٤٠ من الخدم و ١٥٣ جواداً و ٢٨٨٨ جملاً و ٣ مدافع وصحب المربع السر شارلس ولسن رئيس قلم المخابرات والكبتن كتشنر اركان حرب المخابرات وصحبهُ من السوريين جورج افندي زيدان من كبار موظفي المخابرات وامين افندي حداد مترجم الجنرال ستيورت ومن المصريين محمد افندي ابرهيم (محمد بك الآن) مترجم السر تشارلس ولسن

وبقي الجنرال ستيورت زاحفاً بالمربع حتى صار على ٥٠٠ يرد من معسكر الدراويش فحملوا عليهِ حملة واحدة في خمس فرق وفرسانهم في مقدمتهم وكان كشافة المربع اذ ذاك على ٢٠٠ يرد من الدراويش فتقهقروا الى المربع حسب الاصول العسكرية فصبر المربع حتى انضموا اليهِ فما انكشف لهُ الدراويش حتى صاروا على ٢٠٠ يرد منهُ ففتح عليهم افواه المدافع والبنادق وفتك بهم فتكاً ذريعاً والدراويش مع ذلك يوالون الهجوم حتى اجتمع قتلاهم اكداساً . قيل اول من هاجم المربع موسى ود حلو وكان قد امر اصحابهُ بان يكون اهل الاسلحة النارية في جهة واهل الخيل في جهة والراجلون في جهة ليتمكنوا من الحرب على احسن منوال ولكنهم لما رأوا الانكليز قالوا كيف نرى الكفار امام اعيننا ونصبر عن قتالهم فبادروا بالحملة عليهم جميعاً دفعة واحدة من غير نظام او ترتيب فحصدهم الرصاص حصداً ولم يسلم منهم الا طويل العمر وقليل ما هم وكان في جملة القتلى اميرهم موسى ود حلو والامير ود برجوب المار ذكرهُ واحمد ود بلال من روساء دغيم وقد انشد شعراء السودان في رثائهم الاشعار فقالوا:

موسى الشهيد وود برجوب وود بلال ٭ باعوا الجنات من الدلاّل

وفي اثناء ذلك هاجم الحاج علي ود سعد والجعليون فثقلت عليهم نار المقدمة فداروا الى ميسرة المربع ومؤخرهِ وحملوا عليهِ حملة صادقة فاخترقوهُ ودخلوا وسطهُ وتقهقر عساكر المؤخرة والميسرة الى داخل المربع واختل نظامهم فاختلطوا بجمال الحملة

واشتبك القتال بالسيوف والحراب واتفق ان عساكر المقدمة والميمنة كانوا على ارض مرتفعة فوالوا النار على المهاجمين فصدوهم عن المربع واشتد القتال داخل المربع وعلا الصياح والضجيج حتى لم تعد تسمع اوامر القواد فكان كل عسكري يدافع عن نفسه بما بدا لهُ فقتلوا الذين دخلوا المربع عن آخرهم و بذلك انجلت الواقعة فكانت خسارة المربع ٧٤ قتيلاً فيهم ٩ ضباط و ٩٤ جريحاً فيهم ٩ ضباط . واما الدراويش فقد زادت قتلاهم عن ١١٠٠ وزادت جرحاهم عن ذلك واما الحاج علي ود سعد فقد قيل ان فرسهُ قتل من تحته واصيب هو بثلاث رصاصات داخل المربع فعدَّ بين القتلى و بقي الى ان انجلى المربع عن محل الواقعة فأتى اهلهُ وحملوهُ ورجعوا بهِ مع باقي المنهزمين الى المتمة . وتقدم الجنرال ستيورت الى الآبار فاحتلها عصر ذلك اليوم

وفي صباح اليوم التالي (١٨ يناير) بنى طابية صغيرة جعل فيها الجرحى ووضع عليهم مئة رجل لخفارتهم وخفارة الآبار وفي العصر تقدم بباقي الجيش نحو المتمة فسار بهم الليل كلهُ لانهُ اراد ان ينزل النيل بدون قتال وكانت الطريق شائكة والليلة مظلمة والجمال تعبة فتعبوا ونعسوا فلم يقطعوا في ١٤ ساعة سوى ١٨ ميلاً

﴿ النور عنقرة وواقعة المتمة في ١٩ يناير سنة ١٨٨٥ ﴾ ولما طلع فجر ١٩ يناير اطلوا على المتمة فظنوا انهم ينزلون النيل بلا معارض . وكان المهدي قد ارسل النور عنقرة بالف مقاتل من اهل الاسلحة النارية مددًا لموسى ود حلو فوصل المتمة يوم رجوع المنهزمين من ابي طليح فبقي فيها متربصاً قدوم الانكليز فلما رآهم مقبلين خرج لقتالهم في الصحراء وهم على اربعة اميال من النيل فجعل ستيورت الجرحى وجمال الحملة على اكمة واخذ يستعد للزحف على المتمة فأصابتهُ رصاصة طائشة في بطنهِ فجرحتهُ جرحاً مميتاً وذلك في الساعة العاشرة صباحاً فأحيلت قومندانية الجنود على السر تشارلس ولسن لانهُ كان اقدم ضابط بعدهُ فنظم الجيش مربعاً وسار قاصدًا النيل وكان النور عنقرة لا يزال متربصاً للمربع فتلقاهُ بنار حامية واضطر الى الانهزام في اقل من خمس دقائق ونزل النيل عند قبة ابي خروق جنوبي المتمة وكانت خسارة الانكليز في هذا اليوم من القتلى ضابط و ٢٢ عسكرياً ومن الجرحى ٨ ضباط و٩٠

عسكريا . واما الدراويش فقد قتل منهم اضعاف هذا العدد . وفي اليوم التالي اي ٢٠ يناير عاد الانكليز الى جرحاهم وجمال الحملة الذين تركوهم على التلة واتوا بهم الى القبة فكان اول واجب على السر تشارلس ولسن الآن ان يسرع لنجدة الخرطوم ولكنهُ رأى ان يفتح المتمة قبل التقدم الى الخرطوم . فلما كان يوم ٢١ يناير اخذ معظم العساكر والمدافع وزحف على المتمة وقبل مباشرة القتال كتب الى اهلها يدعوهم الى التسليم أو الاستعداد للحرب ولما لم يجيبوهُ امر الطوبجية فرموا المدينة بالقنابل فأجابهُ الدراويش من حصونهم بالقنابل والرصاص وفيما هم كذلك اذا بالوابورات الاربعة وهي بوردين والصافية والتوفيقية وتل حوين التي ارسلها غوردن لمقابلة الانكليز قد اقبلت وكانت عند وصولهم تناوش العصاة شمالي شندي فنزل خشم الموس بك ببعض العساكر الى البر واخبر السر تشارلس ولسن ان الفقيه مصطفى الامين المار ذكرهُ قادم بجيش جرار من قبل المهدي مددًا للدراويش فرجع اذ ذاك عن المتمة وبنى طابية عند القبة وطابية اخرى تجاهها على شاطىء النيل ووضع العساكر في الطابيتين والجرحى في طابية النيل وفيهم الجنرال ستيورت

وفي صباح ٢٢ يناير ركب بالوابورات الى شندي فرماها ببعض القنابل فوجد اهلها قد هجروها وعاد الى القبة بعد الغروب وكان قد ارسل بعض الكشافة الى جهة الجنوب فعادوا في المساء ولم يروا احدًا فاقرَّ على التقدم الى الخرطوم فقضى يوم ٢٣ يناير في انتقاء العساكر وترميم الوابورات استعدادًا للسفر . وكان اللورد بارسفورد قد صحب جيش الصحراء على ان يكون قومندانًا للوابورات فاتفق انهُ كان اذ ذاك مريضًا في الاسبيتالية وقد قتل اكثر عساكرِ البحارة في واقعتي ابي طليح والمتمة اوجرحوا فانتقى السر تشارلس ولسن ٢٤٠ رجلاً من العساكر السودانية الذين في الوابورات فجعلهم تحت قيادة خشم الموس باشا وضمَّ اليهم ضابطين و٢٠ عسكريا انكليزياً وانزل الكل في وابوري بوردين وتل حوين وقطر باحدهما مركبًا مشحونًا ذرة اعانة لاهل الخرطوم وسار بها في ٢٤ يناير نحو الخرطوم تاركا الكولونل بوسكوين قومندانًا على العساكر في القبة . ولنترك الآن السر تشارلس ولسن سائرًا في الوابورين

الى الخرطوم لكشف خبرها ولنرجع الى غوردن وحصار الخرطوم لنرى ما كان من اخبارهما بعد حلول المهدي بابي سعد فنقول :

الفصل الثامن عشر

عودٌ ثانٍ

﴿ الى غوردن وحصار الخرطوم سنة ٤ — ١٨٨٥ ﴾

تقدم ان المهدي حل بجيوشهِ في ابي سعد في ١٩ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ م ٢٨ الحجة سنة ١٣٠١ ﻫ فقضى بقية الحجة ومحرم سنة ١٣٠٢ ﻫ في الاستعداد للحرب لانهُ لم يحب الحرب في محرم فلما كان غاية الشهر المذكور اي ١٩ نوفمبر سنة ١٨٨٤ كتب الى غوردن يدعوهُ الى التسليم وهذه صورة الكتاب بعد البسملة :

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله الواثق بما عند مولاهُ محمد المهدي ابن عبد الله الى غوردن باشا : اعلم اني حضرت بالقرب من ام درمان بجيوشي المنصورة واصحابي واحبابي في الله المؤيدين بالنصر من عند الله وكن على يقين اني على علم من حضور عساكر الانكليز بجهة دنقلا ولكني لست مباليًا بهم ولا بغيرهم بفضل الله وسيكون لهم اسوة بجيوش هكس والشلالي ولا تغرك نصرتك المتوالية فكل من استشهد بها فهو عن امري رأفة بهم لينالوا درجة الصالحين تصديقًا لقولهِ تعالى « ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله امواتًا بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما اتاهم الله من فضلهِ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ان لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ولولا مراعاة حسم دماء المسلمين لضربت صفحًا عن مخاطبتك وبادرتك بالهجومات التي لا اشك في نجاحها فسلم تسلم انت ومن معك وقد نصحتك وانصحك والا فالحرب بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى »

﴿ جواب غوردن للمهدي ﴾ فكتب اليهِ غوردن في الجواب يقول : « لست أبالي بك ولا بجيوشك وليست العساكر الانكليزية بجهة دنقله كما تزعم تضليلاً لعقول انصارك واغرائهم بطلب المستحيل بل هم بجهة بربر والمتمة وسترى ما يحل بك

وبجيوشك عند مجيئهم من النكال بل اذا لم يأتوا فيّ الكفاءة لان اعرفك قدرك ولا تغرّنك كثرة انصارك فالبغي له مصرع والسلام » وكتب المهدي الى فرج الله بك ما نصهُ:

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله الواثق بما عند مولاهُ محمد المهدي بن عبد الله الى احبابهِ المكرمين المعظمين واهل الدراية وهم كبير العساكر وعظيمهم فرج الله وصاحبهُ عبد النبي ومن انضم اليهم من الاكابر والاصاغر اعلموا وتحققوا احبابي اني لست قائماً هذا المقام الا بدعوة الخلق الى الله وسعادتهم الكبرى ونيل مراتبهم العلية ومنفرهم عما يضرهم من خسيس فاني اللذات التي تعقب طول الحسرات وقد بلغني ان المكرم المعظم فرج الله من ضباط اهل فشودة الذين يحبونني سابقاً وانا بأبا من معرفتهم زهدي في الدنيا وصدقي في الطلب لما عند الله وارادة الآخرة ودلالتي على الصلاح والفلاح وارشاد العباد الى رضاء الفتاح ليكتسبوا دائم المطلوب من النجاح فلا تظنوا انا نطلب اموالكم وما ملكت ايديكم ان سلمتم لنا وصرتم من اصحابنا الذين بشرنا سيد الوجود (صلعم) بانهم كأصحابهِ وادنى اصحابي رتبة ينال مقام الشيخ عبد القادر الجيلاني عند الله تعالى وفيما ذكرتهُ كفاية لاهل العناية. واظن انهُ قد بلغتكم انذاراتي سابقاً فلا فائدة حينئذٍ في التطويل فان سلمتم فقد عفونا عنكم ورضينا عليكم وكنتم من الاصحاب المكرمين الذين لهم عند الله حسن المكانة الابدية فاني المهدي المنتظر خليفة نبيكم (صلعم) فابشروا بالكرامة والفخامة ان سلمتم لي واتبعتموني. وليكن معلوماً عندكم احبابي ان من لم يصدقني ويتبعني يعذب في الدنيا ولعذاب الآخرة اشد واني موعود بملك جميع الارض ورأيتم نصري في حال الضعف والقلة الى ان بلغت هذا المبلغ واجتمعت عندي اسلحة راشد بك وولد الشلالي وهكس والابيض ودارفور وبحر الغزال وجباخينهم وبشرت بأني لو اردت لقبض الله سلاح الترك بحيث ان اصحابي يقتلونهم ولا يقتلون ولكن اخترت توفيقاً من الله ان ينال اصحابي الشهادة ويبلون في الله لينالوا عظيم المكانة عند الله كما في كتاب الله واقتداء برسول الله (صلعم) واصحابهُ كما علمتم ولتعتمدوا هذا زيادة كتبت هذا بخطي والسلام في غاية محرم سنة ١٣٠٢ » اه ١٨ نوفمبر سنة ١٨٨٤ ٥ فلم يجبهُ فرج الله بك على كتابهِ هذا

فلما كان يوم الاربعاء غرة صفر سنة ١٣٠٢ ١٩ نوفمبر سنة ١٨٨٤ امر انصاره فضربوا نقاقير الحرب وابواقهُ وصاروا ينادون العساكر ويتهددونهم بالموت العاجل وشرعوا في اطلاق البنادق والمدافع على الخرطوم من كل جهات الحصار

﴿ حصار ام درمان ﴾ وفي الوقت نفسهِ ارسل سرية من الانصار بقيادة أبي عنجة لمهاجمة طابية ام درمان وهي واقعة تجاه طابية المقرن وبينها وبين شاطئ النيل الابيض نحو ٥٠٠ متر وبوصلها بسراي الخرطوم خط تلغرافي وهي عبارة عن خندق عميق من داخلهِ سور منيع مفتوحة فيهِ المزاغل وعليهِ الابراج ومن داخل السور بئر ماء للشرب وفيها اورطة من العساكر المصرية عليهم فرج الله بك قومندانًا فما اقترب ابو عنجة منها حتى انهال عليهِ الرصاص انهيال المطر فرجع عنها خاسرًا وقد ترك وراءهُ ٩٠ بقرة غنيمة للعساكر فاخبروا غوردن بها تلغرافيًا فامرهم فارسلوا ٧٠ بقرة الى الخرطوم واكلوا الباقي ٥ وفي اليوم التالي هاجم ابو عنجة الطابية مرة اخرى فردّ عنها خاسرًا كالمرة الاولى وغنم العساكر ٨٠ بقرة فاكلوا ٢٠ وارسلوا ٦٠ الى الخرطوم ٥ وبذلك امتنع ابو عنجة عن الهجوم وعوّل على حصر الطابية فنزل عند شاطئ النيل وحال بينها وبين طابية المقرن واجهد اصحابهُ فاقاموا في الليل متراسين متوازيين متراسًا يقيهم مقذوفات الخرطوم وآخر يقيهم مقذوفات ام درمان واقاموا طابية عن يمين المتراسين وطابية عن شمالها وجعلوا في كل طابية مدفعين وشرعوا يرمون الخرطوم وام درمان معًا بالقنابل ٠ وقطعوا خط التلغراف بين الحاميتين فأصبح اهلها يتخابرون بالاشارة الحربية

وكان في طابية المقرن بلوك من العساكر النظامية ومدفع واحد فقوّاها غوردن بمدفعين آخرين واوردي باشبوزق وامر فخرج وابورا الاسماعيلية والحسيني في النيل الابيض لمساعدة الطابيتين على طرد ابي عنجة من حصنهِ فرماهما بالقنابل فاصابت قنبلة احدى جوانب الاسماعيلية فعطلتها واصابت قنبلة اخرى قزان الحسيني فغرقتهُ وقتل قومندانهُ مصطفى افندي فارسل غوردن الاسماعيلية الى الترسانة وناظر اصلاحها بنفسهِ الى ان تمّ فارجعها لنشل الحسيني فما وجد لذلك سبيلاً فاخذ نوتيتهُ وامتعتهُ وعاد الى الخرطوم

وفي هذه الاثناء حضر وابور بوردين بكتاب اللورد ولسلي المار ذكرهُ ؟ الى غوردن فارجعهُ غوردن الى نصحي في الحال فامر المهدي اصحابهُ فبنوا طابية في الحلفاية وطابية في خور شمبات تجاهها وذلك لمنع الوابورات من المرور ذهاباً واياباً بين شندي والخرطوم ٥ وبنوا طابية قبالة كل طابية من خط نار الخرطوم وثلاث طواب حول طابية ام درمان طابية الى شماليها وأخرى الى جنوبيها وثالثة الى غربيها عدا الطابيتين في شرقيها وجدد الهمة في مناوشة الحاميتين القتال الليل والنهار فدافع العساكر عن انفسهم احسن دفاع وحمّلوا الدراويش خسارة تذكر ولم يقتل منهم سوى البكباشي ابراهيم افندي سودان قومندان طابية المقرن وبضعة عساكر فسرّ غوردن من نشاطهم وتيقظهم وطبع ٩٠ الف غرش من اوراق البون ووزّع عليهم مرتب ستة اشهر ونصف شهر مكافأة لهم على حسن دفاعهم ووجه رتبة اللوا الى كلّ من موسى بك شوقي مدير الخرطوم وفرج الله بك قومندان طابية ام درمان وامرهُ فاعطى بالاشارة الحربية اسماء الضباط المستحقين الجزاء وهم البكباشي خليل افندي عمارة والبكباشي مصطفى افندي عصمت والصاغ حسين افندي محمد واليوزباشي محمد افندي والملازم محمد افندي كريم فرقّى كلاً منهم الى رتبة اعلى من رتبتهِ

﴿ اشتداد الجوع في الخرطوم ﴾ واشتد الجوع في الحاميتين ولا سيا في الخرطوم حتى صار اهلها يموتون جوعاً في الطريق وكان غوردن قد أوى الرقيق والمساكين والعواجز من النساء والرجال وجعل لهم مرتباً من الذرة كما مرّ فلما اشتد الحال عليهِ الى هذا الحد اخرجهم الى المهدي بكتاب هذا مفادهُ :

« اعلم ان الجنس للجنس رحمة وهؤلاء المساكين يشتركون معك في الجنسية وقد قضت الحال باخراجهم من الحامية بعد ان عاشوا فيها سنة على نفقة الحكومة فصار عليك الآن ان تتولى امر معيشتهم فافعل بهم ما انت اهلهُ »

وكان ذلك في اواخر دسمبر سنة ١٨٨٤ ولم يكن اذ ذاك في المخازن ما يكفي العساكر مرتبهم الشهري فجمع غوردن مجلساً من الضباط من رتبة بكباشي فما فوق برئاسة فرج باشا الزيني فاقرّوا على تخفيض المرتب من ٢٠٠ درهم بقساط و٤٠٠

درهم ذرة في اليوم الى ١٠٠ درهم من البقسماط أو الذرة للعسكري النظامي و ١٥٠ درهم من الذرة للعسكري الباشبوزق وان يُعطى العساكر مرتب ٥ ايام فقط فمتى انتهت يعطون مرتب ٥ ايام اخرى وهكذا الى ان يمنّ الله بالفرج فصدّق غوردن هـذا القرار وامتدح صبر المصريين الذين رضوا بالشدة على انفسهم دون سواهم

﴿ اشتداد الجوع في أم درمان ﴾ ولما كان يوم ٢٨ ديسمبر ارسل فرج الله باشا قومندان أم درمان اشارة حربية الى غوردن بأن مرتبات الزاد للعساكر قد نفدت ولم يبقَ منها الاّ مرتب ٣ ايام فاغتمّ غوردن لهذا الخبر ودعا الضباط العظام في الخرطوم من رتبة قائمقام فما فوق للنظر في حالهم فأقرّوا على الخروج من الخرطوم على المحاصرين وكسب قوت الحاميتين منهم بالقوة

﴿ خروج حامية الخرطوم في ١ يناير سنة ١٨٨٥ ﴾ ولما كان الخميس ١ يناير سنة ١٨٨٥ امر غوردن فخرج بخيت بك بطراكي من باب برّي بخمسمائة من العساكر السودانية ثم تبعهُ محمد بك الملك بألف من الباشبوزق وقصدا عبد الله ود النور في برّي وخرج البكباشي يوسف افندي عفت بخمسمائة من العساكر المصرية من باب المسلمية لحماية ظهر بخيت بك فما قرب بخيت بك من برّي حتى خرج عليهِ الدراويش فلم يسعهُ الا التقهقر اما محمد بك الملك فاستل سيفهُ ودفع جوادهُ في وسطهم وقاتل قتال الابطال حتى قتل . وفي اثناء ذلك ثار انصار النيل الابيض في وجه يوسف افندي عفت وكان قد نظم عسكرهُ قلعة فأمرهم فجلسوا على ركبة واحدة وما زال يمطر عليهم من الرصاص حتى هزمهم وأبى الرجوع الى خط النار الاّ بأمر غوردن فأمرهُ فرجع فامتدح غوردن بسالتهُ ولام بخيت بك على عدم ثباتهِ

﴿ خروج حامية الخرطوم المرة الثانية في ٣ يناير سنة ١٨٨٤ ﴾ وصبر غوردن الجمعة حتى استراحت العساكر وفي فجر السبت في ٣ يناير سنة ١٨٨٤ ارسل تلغرافاً الى فرج باشا الزيني يأمرهُ بالتنبيه على عساكر الخميس ان يخرجوا مرة ثانية في طلب القوت للحامية الاّ بخيت بك فانهُ امر ببقائهِ على خط النار وذهاب حسن بك البهنساوي في مكانهِ قيل فتمارض البهنساوي فولى الامر للشجاع المدرّب البكباشي

السيد افندي امين صاحب واقعة الكلاكلة المار ذكرهُ ووعدهُ بالترقي الى رتبة قائمقام فخرج السيد افندي بجميع العساكر من باب المسلمية ونظم عسكرهُ قلعتين العساكر النظامية قلعة قادها بنفسهِ والباشبوزق قلعة ولّى قيادتها للصاغ منصور عبد العال وسار بالقلعتين حتى صار على الف متر من خندق الخرطوم فوقف فجعل قلعة الباشبوزق قبالة انصار المسلمية والكلاكلة وتقدم بقلعتهِ نحو برّي

هذا وكان قد فرَّ يوم الجمعة عسكري من الخرطوم الى النجومي واخبرهُ بأن العساكر خارجون اليهِ في ثلاث قلعات قلعة تهاجمهُ في الكلاكلة وقلعة تهاجم عبد الله ود النور في برّي وقلعة تهاجم عبد القادر مدرع تجاه باب المسلمية فأرسل النجومي اوامرهُ المشددة الى عبد الله ود النور وعبد القادر مدرع بالاستعداد للحرب فأمر عبد الله ود النور اصحابهُ بأن يسقطوا الى الارض ولا يباشروا القتال حتى يقرب العساكر منهم جدًّا فيخرجون عليهم اذ ذاك ويقتلونهم بالسيف والحربة . ولما قرب السيد افندي امين من طابية برّي ولم يرَ للدراويش حركةً علم ان في الامر مكيدة فبعث فارسين يستطلعان طلعهم فرجعا واخبرا بأن الدراويش قد اخلوا طوابيهم فأرسل فارسين آخرين فلم يريا احدًا فسار اذ ذاك بنفسهِ وامامهُ اوردي باشبوزق بهيئة «اطلاقجية» حتى اقترب جدًّا من طوابي الدراويش فأمر الاطلاقجية باطلاق النار فهب الدراويش اذ ذاك من مراقدهم وبادروهم باطلاق الرصاص فأمر السيد افندي الاطلاقجية فرجعوا الى يمين القلعة وشمالها ثم امر عساكر القلعة فاصطفوا بهيئة طابور واسرعوا الى خرائب ابنية قديمة فامتلكوها وصبوا على الدراويش نارًا دائمة

وكان غوردن يشاهد القتال بالمنظار فلما رأى ان السيد افندي قد توغل نحو برّي امر وابور الاسماعيلية فسار في النيل الازرق ومعهُ الجبخانة نجدة لهُ فما خرج الوابور من الخرطوم حتى انتشر الدراويش الذين في الشرق على طول الشاطئ ورموهُ بالرصاص والقنابل فانقلب راجعاً فغضب غوردن منهُ وامرهُ باعادة الكرة فتلقاهُ اهل الشرق بنار اشد من قبل فرجع ثانية . واما القلعة الثانية فقد تصدَّى لها انصار المسلمية والكلاكلة واندفعوا عليها كالسيل العرم فاضطرت الى التقهقر بعد ان قتلت جماعة من اكابر

امراء الدراويش وفيهم عبدالقادر مدرّع قائد انصار المسلمية وعمر ولد الخليفة وغيرهما .
ولما عادوا الى الخندق اغلق فرج باشا باب المسلميـة في وجوههم وو بخهم على ترك
اخوانهم عرضة لهجوم الاعداء من وراء فلم يؤثر فيهم تو بيخهُ لانهم باشبوزق لا يعرفون
نظاماً فاختبأ بعضهم بالخندق ولحق بعضهم بالدراويش

و بقي السيد افندي يجاهد وحدهُ الى ان نفدت منهُ الذخيرة فانفذ اشارة حربية
الى فرج باشا في طلب الذخيرة وارسال قلعـة الامداد الى جهتهِ فأجابهُ ان قلعة
الامداد انهزمت ولا واسطة لارسال الذخيرة وامرهُ بالرجوع الى الاستحكام فعاد
القهقرى حسب الاصول العسكرية . وفي اثناء ذلك أصيب برصاصة في رجلهِ
وقتل حصانهُ فحملهُ رجالهُ وعادوا بهِ الى الخندق فأتى غوردن بنفسهِ ومعهُ حكيمباشي
الاسبتالية فصافحهُ وشكر لهُ بسالتهُ ودربتهُ ورقاهُ الى رتبة قائمقام وامر الحكيمباشي
فضمد جراحهُ و بالغ في الاعتناء بهِ ورقى كل ضابط من ضباطهِ الى رتبة اعلى من
رتبتهِ . وكانت خسارة السيد افندي في هذه الواقعة ١٢ قتيلاً وجريحاً واما الدراويش
فقد قتل منهم ٦٠٠ رجل وزيادة وفيهم اميرهم عبدالله ود النور من الفرسان المعدودين
فحزن عليهِ الدراويش حزناً شديداً وكان قتلهُ خذلاً صريحاً للمهدي لانهُ صرَّح
مراراً بأنهُ لا يموت في حصار الخرطوم بل يموت في الكوفة

﴿ محاولة اخلاء ام درمان ﴾ ومن شدة حزن الدراويش على قتلاهم لم يناوشوا
العساكر القتال ليل ذلك اليوم فرأى غوردن ان يغتنم الفرصة ويحـاول اخلاء ام
درمان وجلب عساكرها الى الخرطوم فارسل اشارة حربية الى فرج الله باشا يعلمهُ بذلك
فاجاب اني مستعد للخروج بالحامية والمدافعة الى آخر رمق على شرط ان الوابور
المزمع ارسالهُ لحملنا اليكم يقف في نقطة معينة ويثبت في مكانهِ الى ان نصل اليهِ .
ففي صباح الاحد في ٤ يناير سنة ١٨٨٥ ارسل غوردن الوابور وامرهُ بالذي اشرطهُ
فرج الله باشا فما قرب من النقطة المعينة على الشاطئ حتى ابتدرهُ الدراويش بالقنابل
ومنعوهُ من الوصول الى الشاطئ فكر راجعاً الى الخرطوم فوبخهُ غوردن فرجع وعاد
خائباً كالاول . وكان فرج الله باشا لما رأى الوابور مقبلاً قد خرج بنصف عساكره

قلعة وترك النصف الآخر في الطاية تحمي ظهرهُ فهاجمهُ الدراويش وانتشب القتال فثبت حتى رأى ان الوابور قد رجع المرة الثانية فقفل راجعاً الى الطابية بعد ان نكل بالدراويش وقتل من عسكرهِ اليوزباشي احمد افندي فهمي والملازم عبد النبي افندي

تسليم ام درمان الاثنين في ٥ يناير سنة ١٨٨٥

وبعد ظهر الاحد ارسل اشارة حربية الى غوردن يقول ان مؤونة الحامية قد نفدت فاذا لم يفِ الوابور بالشرط السابق ايضاحهُ اضطرّ الى التسليم او القتال الى الموت قيل فاذن لهُ غوردن في التسليم . وفي يوم الاثنين ٥ يناير سنة ١٨٨٥ رفع العلم الابيض وكتب الى المهدي بالتسليم وارسل الكتاب مع الشيخ موسى امام الاورطة فالبسهُ المهدي جبة مرقعة وارجعهُ مع اربعة من اصحابهِ الى الطابية فاتوهُ بفرج الله باشا ثم ارسل جماعة من اصحابهِ فاتوهُ بالعساكر فسمى فرج الله باشا اميرًا على عساكرهِ وجعل لهُ مرتباً قدرهُ ٢٠ ريالاً في الشهر يجري لهُ من بيت المال وامر اصحابهُ بعدم التعرض لهُ ولا لرجالهِ . وكان غوردن يشاهد حركة التسليم من سراي الخرطوم فشق عليهِ ذلك جدًّا قيل واخذ يضرب الارض برجلهِ ودموعهُ تجري على خديهِ وشيع العساكر بنظره الى ان غابوا عن عينيهِ

واذاع محمد احمد خبر تسليم ام درمان في الجهات . وهذا ما كتبهُ الى عاملهِ عثمان دقنه . .... وفي هذين اليومين يبلغكم ان شاء الله فتوح الخرطوم فان فقرة ام درمان التي كانت لها كالروح صار فتحها على يد جند الله ووقعت في القبضة بما فيها واضمحل امر الخرطوم ووهى وصار في ضعضعة نظرًا للفتوح الذي ذكر ولكونهِ خرج اربع قلعات كبار منها على قصد المحاربة مع الانصار فاهلكهم الله بقدرتهِ ورد كيداهلها في نحرهم والذي أسر منهم كثير ولما رأى ذلك الباقون الذين داخل الفقرة صاروا يخرجون افواجاً ليلاً ونهارًا خفيةً وجهرًا حتى اجتمع معنا اناس كثيرون من نساء ورجال واطفال بعضهم اهل بلد وبعضهم مماليك (عبيد) وما زال جاري خروجهم وذلك لما رأوهُ من التضييق عليهم وشدَّة بأس الله الذي حلّ بهم من حصارنا اياهم . وقد بلغنا ان بعضاً من اعداء الله الانكليز حضروا بدنقلا وارسلوا منهم

جانباً الى جهة المتمة لكي يدخلوا الخرطوم من قبلها والى الآن ما تم وصولهم بها وقد وجهنا لهم من طرفنا نحو احدى عشر الفاً والبشائر متواترة علينا بهلاك أولئك المخذولين وان بلغوا في الكثرة عدد الشجر والمدر وزبد البحر ولافهامكم بما ذكر والعمل كما اشير لزم تحريرهُ والسلام في ٢٦ ربيع اول سنة ١٣٠٢هـ » ١٣ يناير سنة ١٨٨٥

وقد كان لتسليم ام درمان اسوأ وقع في نفوس اهل الخرطوم فانهم ادركوا بهِ حقيقة الضعف الذي صاروا اليهِ وازداد الم الجوع فاخذوا يخرجون الى المهدي مسلمين فنشر المهدي كتاباً لقومهِ للرفق بمن يخرج من الخرطوم وهذا صورتهُ بعد البسملة :

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي الى احبابهِ واصفيائهِ انصار الدين بالهوي والشرق والغرب وخصوصاً العملا والرؤوس : وبعد فاذا فهمتم هذا احبابي فالفوا عباد الله الذين يخرجون مسلمين ومنقادين بانواع التأليف وتلقوهم بالاكرام والتشريف ولا تنظروا لمن استشهد من الانصار فتحنقوا بسبب ذلك على من كان مع الكفار فان قيامنا هذا لله ... ومن استشهد من الانصار فقد نال عظيم المقدار فيما فعلهُ لوجه الله ... فاكرموا الذين يأتون مسلمين وخصوصاً العلماء ومن كانوا اهل وظائف كبار وبالاخص نحو الامين الضرير فقد قال (صلعم) اكرموا عزيز قوم ذل وغني افتقر ... والسلام ١٩ ربيع اول سنة ١٣٠٢هـ » ٦ يناير سنة ١٨٨٥

وكتب ايضاً الى اهل الخرطوم يدعوهم الى التسليم بما نصهُ بعد البسملة :

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبدالله الى كافة اهالي الخرطوم هداهم الله الى الصواب ... وقد طالما ذكرتكم بالله ورغبتكم فيما عندهُ وحذرتكم من وعيده فالى متى الغفلة والتسويف والى متى مبارزة مولاكم بالعداوة أترغبون النجدة والفرج عند الانكليز وتصرفون نظركم عن خالقكم الذي بيدهِ اموركم وقوامكم وهو القوي العزيز فما الانكليز وغيرهم اضعافاً مضاعفة بشيء في جنب قدرة الله التي يعجز عن وصف كنهها كل لبيب ونجيب وما الغوث الآمن عند الله القريب المجيب. وحيث فهمتم ما ذكر فاني لا أؤاخذكم بما فات منكم ولا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين فأنيبوا الى ربكم وسلموا لهُ من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة

وأنتم لا تشعرون وعليكم أمان الله ورسوله وأمان العبد لله وليس عليكم حرج فيما مضى وغايتهُ ان من سلّم سلم ومن خالف عطب وندم فهياً هياً ثم هياً الى طريق الفلاح والنجاح قبل قص الجناح ولا تخشوا من شيء يحصل عليكم فانا مناظرون فيكم آية قولهِ تعالى «واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسهِ الرحمة انهُ من عمل منكم سوءا بجهالةٍ ثم تاب من بعدهِ وأصلحَ فانهُ غفور رحيم والسلام»

وكتب ايضاً الى غوردن كتباً يدعوهُ الى التسليم هذا نصها بعد البسملة :

﴿ الكتاب الاول ﴾ « وبعد فمن العبد المفتقر الى الله المعتصم بهِ محمد المهدي بن عبدالله الى غوردن باشا فسلّم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين وان أعرضت كان عليك اثمك واثم من معك فقد اتاني الخبر من الرسول ان الجردة الآتية لو كان معي ستة انفار تموت أو خمسة تموت أو واحد تموت أو وحدي كذلك ولو كانت مثل ورق الشجر ونبت الوعر وموج البحر وقد اتاني خبرها انها تموت أيسر من موت جردة ولد الشلالي وهكس والمديريات الغربية كلها والبحر الابيض وكذلك موعود بجميع البلاد فالامر لله وما دام ان الله القادر أيدني بالكرامات وبالنصر فلا يضرني انكار منكر وانما يضر نفسهُ فقط والامر الذي وعدت بهِ من رسول الله (صلعم) صاره على ان الجردة التي تعتمدونها ما لها وجه بوصولها لكم من سد الانصار الطرق فان اسلمت وسلمت فقد عفونا عنك واكرمناك وسامحناك فيما جرى منك وان أبيت فلا قدرة لك على نقض ما ارادهُ الله والسلام ٩ ربيع اول سنة ١٣٠٢هـ ٦ يناير سنة ١٨٨٤

تحشية : وان طلبت زيادة بعد وصول جوابي هذا فتخبرك المرأة الواصلة اليك وان رأيت التمكين واليقين ان اردت التسليم اكثر من هذا الجواب سنرسل لك عبد القادر ولد أم مريوم لزيادة الطمأنينة في الامان فلا مانع وبذا لزمت التحشية

﴿ الكتاب الثاني ﴾ « وبعد فان اراد الله سعادتك وقبلت نصحنا ودخلت في اماننا وضماننا فهو المطلوب وان اردت ان تجتمع على الانكليز الذين اخبرنا رسول الله (صلعم) بهلاكهم فنوصلك اليهم فالى متى تكذيبنا وقد رأيت ما رأيت وقد اخبرنا رسول الله (صلعم) بهلاك من في الخرطوم قريباً الا من آمن وسلم ينجيه الله

ولذلك احببت لك الا تهلك مع الهالكين لانا قد سمعنا مرارًا فيك الخير ولكن على قدر ما كاتبناك للهداية والسعادة ما أجبتنا بكلام يؤدي الى خيرك كما نسمعهُ من الواردين والمترددين والآن ما ايسنا من خيرك وسعادتك ولما سمعنا من الفضل فيك سنكتب لك آية واحدة من كتاب الله عسى ان ييسر الله هدايتك بها اذ جعلنا الله باب الرحمة والدلالة الى الله ولذلك طالما كاتبناك لترجع الى وطنك وتحوز فضائلك الكبرى ولئلا تيأس من الفضل الكبير اقول لك قال الله تعالى « ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان بكم رحيماً » والسلام ٢٠ ربيع اول سنة ١٣٠٢ه ٧ يناير سنة ١٨٨٤ » وقد بلغني في جوابك الذي ارسلتهُ الينا انك قلت ان الانكليز يريدون ان يفدوك وحدك بعشرين الف جنيه ونحن نعلم ان الناس يتقولون من البطال كلاماً كثيرًا ليس فينا وذلك لصدود من اراد الله شقاوتهُ ولا يعلم نفيهُ الا من اجتمع بنا وانت ان قبلت نصحنا فبها ونعمت والا ان اردت ان تجتمع على الانكليز فبدون خمسة فضة نرسلك اليهم والسلام في تاريخهِ

فأجابهُ غوردن برفض التسليم وطلب اليهِ ارسال عبد القادر ام مريوم فكتب المهدي

« الكتاب الثالث » « ... نعلمك ان جوابك رد المحرر منا وصل الينا وفهمنا مضمونهُ وقد عذرناك في عدم اذعانك واجابتك لنا بالطاعة كما طلبنا منك وذلك لانك لم تدر الحقيقة التي نحن عليها وبحسب مقامنا ودلالتنا الى الله وشفقتنا على عموم خلق الله حتى من هو مثلك لم يطب قلبنا بصرف النظر عنك ولا زلنا نداركك عسى الله ان يهديك الى سواء السبيل فاجب داعي الله واغتنم سلامتك من الشر الوبيل فقد رأيت ما حلّ ونزل ولا زلت ترى ولا طاقة لك ولا لاعوانك على حرب جند الله عز وجل وقد ذكرت ان عبد القادر ولد ام مريوم حبيبك وتقبل قولهُ ونصيحتهُ وطلبت ارسالهُ اليك فعلى م ذا؟ هل انت منيب الى الله وقصدك التسليم لنا على يد المذكور أم أنت على تصميمك في اعراضك ومعاداتك لربك فأفدنا على هذا لنعلم طلبك لهُ على أي الوجهين هو ونرسلهُ لك ان رأينا في ذلك صلاحاً للدين واقول لك ان عزة الاسلام خير لك وابقى لدوام احترامك في الدارين فتحلّ بها

ان عقلت والسلام ـــ في ٢١ ربيع الاول سنة ١٣٠٢ هـ ٨ يناير سنة ١٨٨٥ »

ولما رأى غوردن اضطراب اهل الخرطوم علّق منشورًا في المراكز العسكرية والشوارع العمومية قال فيهِ : « انهُ وان تكن حامية أم درمان قد سلمت فهي انما سلمت بأمري وانا اعتني بعائلاتهم هنا واجري لهم مرتباتهم كالاول وعن قريب ننقذهم من مخالب الاعداء لانهُ قد جاءت البشرى بأن الجيش الانكليزي فرّق جموعهم في صحراء البيوضة وقتل منهم الوفًا ونزلت مقدمتهُ في المتمة وهي مسرعة لانقاذنا وبسبب هذه البشرى عفوت عن احمد بك جلاب مدير الخرطوم وعمن اشتركوا معهُ في مراسلة المهدي واطلقت سراحهم من السجن »

وحان ميعاد مرتب الخمسة ايام الثانية من يناير سنة ١٨٨٥ حسبما قرر المجلس العسكري السالف الذكر ولم يكن في المخازن ما يكفي خمسة ايام فعقد غوردن مجلسًا برئاسة احمد بك جلاب للبحث عن الذرة في المدينة فلم يجدوا سوى ٣٦ اردبًا ثم امر فجمعت الابقار والاغنام وثمّنت باثمان باهظة وأعطى اصحابها « رجعًا » لتدفع لهم عند رفع الحصار واستشار الاطباء في اكل الصمغ فاقروا على اكلهِ ولما تمّ جمع الذرة والماشية والصمغ اجرى مرتب الخمسة ايام الثانية من ٦ يناير الى ١٠ منهُ

ثم بحث في المجلس عما يجريهِ للعساكر بعد انقضاء هذه المدة فقرّ الرأي على قطع النخيل في جنائن الخرطوم واخذ قلبهِ وتجفيفهِ ففعلوا وكلفوا نساء العساكر فطحنّهُ وخبزنهُ وصاروا ينفقون منهُ على العساكر مع ما بقي من الذرة والصمغ

ثم كانت واقعة ابي طليح في ١٧ يناير كما مرّ قبل فبلغ خبرها المهدي في ٢٠ منهُ فامر فاطلقت المدافع مئة طلقة وطلقة وهي علامة النصر وقد اراد بذلك ان يوهم انصارهُ واهل حامية الخرطوم بأن رجالهُ انتصروا على الانكليز . ثم وصل المنهزمون من ابي طليح فاخبروا اخوانهم بهول تلك الواقعة والخسائر التي حلت بهم . وتلاهم خبر انكسار النور عنقرة ـــ في المتمة ونزول الجيش الانكليزي على النيل فاضطرب المهدي وقومهُ واشتد النوح والبكاء في مخيمهِ . وصار عساكر الحكومة الذين في اسر المهدي يفرون منهُ ويدخلون الخرطوم سباحة في النيل حتى بلغ عدد

اللاجئين الى الخرطوم ١٢٠٠ رجلاً وقد حدثوا الحامية عن انهزام الدراويش في أبي طليح والمتمة وعن الاضطراب الحاصل في مخيم المهدي فانتعشوا واملوا قرب الفرج. وتهلل غوردن فرحاً لهذا الخبر واطمأن بالهُ واعلن رسمياً منح مرتب شهرين مكافأة لجميع العساكر والموظفين الملكية داخل الاستحكام وخارجهُ وذلك عند تيسر النقود

وقد امّل غوردن ان الانكليز بعد هذا النصر الذي نالوهُ لا يلبثون ان يحضروا بالوابورات لنجدتهِ فأصبح في انتظارهم كل ساعة وقلق لتأخرهم عن الميعاد الذي قدَّرهُ لهم فكنت تراهُ يقضي اكثر اوقاتهِ على سطح السراي والمنظار بيدهِ يوجههُ الى الشمال لعلهُ يراهم أو يرى آثارهم فيرجع خائباً. وكان اهل الحامية قد نفد منهم القوت الذي جمعوهُ في المجلس الاخير وشرعوا في اكل الكلاب والحمير والخيل والبغال وصاروا يطلبون ربع الذرة بمئة ريال نقوداً ومئة جنية ورق بون فلا يجدونهُ. وكنت ترى النساء حاملات الذهب في ايديهنَّ وهنَّ يطفنَ في الشوارع طالبات ربع الذرة بأربع اواق ذهباً فلا يجدنهُ. واذا حظي صياد بسمكة في الليل باعها في الصباح بخمسين ريالاً او اكثر. وظهر تأثير الجوع في العساكر فهزلت اجسامهم واصفرت الوانهم وغارت عيونهم واخذ عساكر الشايقية والسودانية يخرجون الى الدراويش فراراً من الموت جوعاً فشق الامر جداً على غوردن وزاد ألم انتظارهِ للانكليز وهو لا يعلم السبب الذي يؤخرهم عنهُ وحار في الواسطة التي يصبّر بها عساكر الحامية الى ان تصلهم النجدة وكان قد مضى مدة ولم يدفع لهم مرتبهم نقوداً فجمع قرضاً من التجار والاعيان والضباط بسندات على نفسهِ ووزعهُ على العساكر فأصاب كلاً منهم مرتب نصف شهر واصدر منشوراً قال فيهِ: « اني سبقت فأنعمت على جميع العساكر والموظفين الملكيين بمرتب ٣ اشهر ثم بمرتب ٦ اشهر ونصف شهر ثم بمرتب شهرين والآن اعود فأثبت انعامي هذا وانا في انتظار الانكليز القادمين لنجدتنا كل يوم بل كل ساعة فكلما تأخروا يوماً حسبتهُ لكم شهراً وجلالة ملكة الانكليز ضامنة لقولي هذا » ومع ذلك ظلَّ العساكر يخرجون من الخندق فراراً من الجوع

﴿ قرار المهدي على مهاجمة الانكليز ﴾ هذا وكان المهدي من الجهة الثانية لما

بلغهُ خبر أبي طليح عقد مجلساً من خلفائهِ وخاصة اهل مشورتهِ مثل محمد عبد الكريم والسيد عبد القادر ود ساتي علي واحمد شرفي وكلهم من اقاربهِ ويعقوب اخي الخليفة عبد الله ومحمد نوباوي شيخ بني جرّار واحمدي كاتب المهدي • حدثني المضوي عن محمد عبد الكريم قال : اتفق اولاً رأي الاكثرين في هذا المجلس على الهجرة الى كردوفان خشية من الوقوع في قبضة الانكليز فعارضهم محمدعبد الكريم في ذلك وقال انا حاصرنا اهل الخرطوم حتى صاروا في حيز العدم فاذا تركناهم وبهم بقية حياة وورد عليهم الجيش الانكليزي تقووا وسعوا في اقتفاء اثرنا ومعهم اهل النيل • وايضاً اذا كان غوردن وهو واحد من الانكليز قد اتعبنا كل هذا التعب فكيف يكون حالنا اذا اجتمع على غوردن جيش من ابناء جنسهِ • فالرأي الاتم هو الهجوم على الخرطوم واخذها عنوة قبل وصول الانكليز اليها فلم يقبلوا رأيهُ خوفاً من ان يصيبهم في مهاجمة الخرطوم ما اصابهم في مهاجمة الابيض • واخبرني الشيخ اسماعيل الازهري عن احمدي كاتب المهدي « ان رأي الهجرة الى كردوفان لم يشِر بهِ احد ولكن عُرض في المجلس رأيان : الاول الزحف على الجيش الانكليزي وصدهُ عن الوصول الى الخرطوم مع البقاء على حصرها حتى تضطر الى التسليم جوعاً والثاني مهاجمة الخرطوم واخذها اولاً ثم الانقلاب على الانكليز • وكان اول من ابدى هذا الرأي محمد نوباوي شيخ بني جرار وقد ضرب لهم مثلاً تأييداً لرأيهِ قال اذا طارد صياد صيداً حتى ارهقهُ ثم عرض لهُ صيد آخر فهل من الرأي ان يترك الصيد الاول الذي ارهقهُ ويلحق بالثاني الذي لا يزال قوياً ونحن الآن حصرنا الخرطوم حتى اضعفناها فكيف نتركها ونلحق بالانكليز الذين ما زالوا في قوتهم فصدق محمد عبد الكريم هذا الرأي ولكن خالفهما الباقون خوف الفشل وقرَّ رأي الاكثرين على مهاجمة الانكليز » • فكتب المهدي الجمعة في ٦ ربيع آخر سنة ١٣٠٢ ٢٣ يناير سنة ١٨٨٤ كتاباً الى ابي قرجه يأمرهُ بالاستعداد لملاقاة الانكليز وصدهم عن النزول في الحلال كما فعل بجيش هكس الى ان يصلوا الى أم درمان ومما قالهُ لهُ :

« ... وقد استحسنا مع الخليفة عبد الله والخليفة علي والخليفة محمد شريف

وبقية الاصحاب من النواب وغيرهم توجيك الى الجردة متوليًا على من يسير من هنا وهناك تنظرون فيها ان لزم محاصرتها تحاصرونها كهكس فتحصرونها من التصرف في الحلال حتى تصل الينا او ما تروهُ فيها فقد يرى الحاضر ما لا يراهُ الغائب والسلام »

﴿ فرار السنجق عمر ابراهيم ﴾ وفيما هم كذلك اذ فرَّ اليهم من الخرطوم يوم السبت في ٢٤ يناير سنة ١٨٨٥ سنجق من الباشبوزق يقال لهُ عمر بك ود الفقيه ابراهيم الملقب بغرة العينين من اهل الخرطوم وقد اخذ معهُ راتبهُ ورواتب عساكر اورديهِ التي نقدهُ اياها غوردن عن نصف شهر كما مرَّ وكان المهدي لا يعلم حقيقة الحالة في الخرطوم اذ جميع الذين فروا اليهِ قبل هذا الرجل كانوا من ضعفاء الناس وليس لهم اطلاعٌ على ماجريّات الاحوال فاخبرهُ عمر المذكور بحال الخرطوم على التمام ودلهُ على مواطن الضعف فيها

﴿ نقطة الضعف في خندق الخرطوم ﴾ وقد تقدم ان خندق الخرطوم يمتد من النيل الازرق الى النيل الابيض الا انهُ لم يكن يتصل بالنيل الابيض الا في زمن ارتفاعهِ فاذا انخفض انحسر عن ثغرة يُدخل منها الى الخرطوم بسهولة وكانت الثغرة التي انحسر عنها النيل الى ذلك العهد (٢٤ يناير) نحو ١٥٠٠ متر فمدَّ العساكر الخندق فيها رويدًا متتبعين النيل مسافة الف متر وبقي ٥٠٠ متر بين الخندق والنيل كان الماء فيها ضحلاً ولا يمكن نزحهُ وحفر الخندق الا بقوة جسيمة والعساكر في هذا العهد لا يقدرون على حمل انفسهم فضلاً عن حفر خندق مثل هذا ولم يعطوا جراية منذ ١١ يناير فكانوا يقتاتون ما يجدونهُ من الحيوان والنبات داخل المدينة وغاية ما استطاعهُ غوردن لاجل سدّ هذا الخلل في الخندق انهُ وضع عقبين (مركبين) في النيل وجعل في كل منهما ضابطًا و٣٥ عسكريًا

﴿ ترتيب العساكر على خط النار ﴾ وكان لخط النار كما علمت ثلاثة ابواب: باب الكلاكلة تجاه حلة الكلاكلة قرب النيل الابيض وباب برّي تجاه حلة برّي قرب النيل الازرق وباب المسلمية في الوسط . وكان عليهِ خمس اورط من العساكر النظامية اورطتان مصريتان وثلاث اورط سودانية ومعهم ٢٥ اورديًا من الباشبوزق

الشايقية والاتراك والمتطوعة موضوعة على الترتيب الآتي مبتدءًا من جهة النيل الابيض:

اورطة مصرية فيها ٣٢٠ رجلاً فقط بقيادة يوسف افندي عفت . يليها عشرة ارادي باشبوزق بملاحظة القائمقام عثمان بك حشمت يمتدون الى باب الكلاكلة . ويليهم الاورطة الثانية المصرية وعليها القائمقام فرج بك صالح بدلاً من السيد بك امين الذي جُرح في برّي . ثم ثلاثة ارادي باشبوزق شايقية . يليهم اورطة سودانية بقيادة البكباشي بلي افندي صقر . ثم تسعة ارادي باشبوزق بملاحظة القائمقام سرور بك بهجت . ثم الاورطة الثانية السودانية وعليها البكباشي محمد افندي عثمان . ثم اورديان باشبوزق بملاحظة احمد افندي حماية ثم الاورطة الثالثة السودانية وتمتد الى النيل الازرق وعليها البكباشي محمد افندي دسوقي

وقد جُعل خط النار كلهُ قسمين : قسم اليمين ويمتد من النيل الابيض الى باب الكلاكلة وعليهِ الميرالاي حسن بك البهنساوي قومنداناً وقسم الشمال وعليهِ بخيت بك بطراكي قومنداناً . والكل بقيادة القومندان العام الفريق فرج باشا الزيني

﴿ قرار المهدي على مهاجمة الخرطوم ﴾ فدل السنجق المذكور المهدي على هذا الترتيب وعدد العساكر وشدة الحال التي صاروا اليها كما دلهُ على نقطة الضعف في خط النار فجمع مجلس شوراهُ (السبت) واخبرهم بما اتاهُ عمر المذكور فأجمعوا كلهم على مهاجمة الخرطوم . قيل وفي يوم الاحد (٢٥ يناير) أتى هجان من المتمة واخبر المهدي ان الوابورات خرجت من القبة في فجر ٢٤ يناير قاصدة الخرطوم فأقرّ المهدي اذ ذاك على مهاجمة الخرطوم في الحال . وفي المساء (ليلة الاثنين) اجتاز النيل على المراكب ومعهُ خلفاؤهُ ومن اراد الجهاد من اصحابهِ في ابي سعد ونزل بالقرب من معسكر النجومي عند شجرة محو بك وامر جميع اصحابهِ فحضروا بين يديهِ وكان النجومي قد ارسل يطلب عبد الله ود جبارة وابا بكر ولد عامر بمن معهما من الانصار المحاصرين بجهة الشرق فحضروا ايضاً واجتمعوا كلهم حول المهدي في شكل نصف دائرة وهو في الوسط فقال لهم ان سيد الوجود امرني بمهاجمة الخرطوم في فجر غدٍ الاثنين فهل انتم مستعدون لاقتحام الخندق وعدم المبالاة بما سيكون قالوا كلهم نعم ثم

قال هل انتم طالبون الجهاد في سبيل الله بنية صادقة وقلوب سليمة قالوا نعم فقال وهل تثبتون فيهِ ولو مات منكم الثلثان قالوا نعم فرفع يديهِ اذ ذاك الى السماء فرفع الجميع ايديهم وقرأوا الفاتحة ثم استل سيفهُ وضرب بهِ الهواء ثلاث مرات وهو يقول الله اكبر ثم قال هيا هيا على الخرطوم . ثم ارسل اوامرهُ الى جماعة الشيخ العبيد في الشرق بمهاجمة سراي الشرق وجزيرة توتي في الوقت الذي يهاجم النجومي فيـهِ الخرطوم وعاد هو وخلفاؤهُ الى ابي سعد فوصلها في بقية ليلتهِ المذكورة

﴿ استعداد غوردن الاخير ﴾ وكان غوردن يقضي اكثر اوقاتهِ على سطح السراي وبيدهِ النظارة يرقب حركات الدراويش المحاصرين من الشرق والغرب والجنوب كما يرقب مجيء الانكليز لنجدتهِ من الشمال . وفي مساء الاحد بينما كان ينظر الى جهة ابي سعد رأى الدراويش يجتازون منها الى الجزيرة ويجتمعون عند شجرة محو بك بالقرب من معسكر النجومي . فعلم ان الدراويش قد اقرّوا على مهاجمة الخندق قريباً فاعلن تلغرافياً الى جميع القومندانات على خط النار ما عوّل عليهِ الدراويش وامرهم بالتيقظ واخذ الاهبـة لانفسهم والاستعداد للدفاع ثم قال ان الجنود الانكليزية لا بُدَّ ان تكون هنا قبل ظهر الغد فاذا ثبتّم الى ذلك الحين نجوتم لا محالة . ثم جمع الموظفين الملكيين واعيان المدينة وكل من لهُ قدرة على حمل السلاح وارسلهم الى خط النار لمساعدة العساكر على الدفاع

﴿ سقوط الخرطوم الاثنين ٩ ربيع الثاني سنة ١٣٠٢هـ ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ م ﴾

هذا ما كان من غوردن واما النجومي ومن معهُ من الجيوش فانهم باتوا تلك الليلة بين مهلل ومكبر ومصلٍّ . وقبل طلوع الفجر بساعة زحفوا على الخرطوم وقد انقسموا فرقتين يمين وشمال فقاد النجومي فرقة الشمال وهي الفرقة الكبرى وهاجم قسم اليمين من خط النار جهة البحر الابيض وقاد ابو قرجة فرقة اليمين وهاجم قسم الشمال من خط النار جهة البحر الازرق وقد جعلت كل فرقة منهما رجال الاسلحة النارية في مقدمتها فانتشروا امام خط النار بصفة شرنجية وابقوا الطوبجية في الطوابي . وقبيل الفجر فتحوا افواه البنادق والمدافع على خط النار فنهض العساكر اذ ذاك ووجهوا

نيرانهم الى طوابي الدراويش وشرخجيتهم ووالوا عليهم رمي الرصاص والقنابل ولم يكن لهم علم بالمهاجمين من الجناحين فدخل عربان النجومي من الثغرة التي دلهم عليها عمر الفقيه واعملوا السيف والحربة في الاورطة الاولى حتى قتلوا معظمها وفيهم قومندانها يوسف بك عفت والتجأ من بقي الى المركبين في النيل الابيض وعبروا النيل الى ام درمان ٭ واما ارادي الباشبوزق العشرة التي تلي هذه الاورطة فان اكثر عساكرها تركوا الخط فدخلوا المدينة أو نجوا الى الصحراء. وثبت الباقون فحاربوا الى ان قتلوا وفيهم من السناجق علي آغا وانلي ومتو بك وعبد الهادي آغا ومحمد بك كرمي ومحمد بك قرضية ونصر بك . واما عثمان بن حشمت قومندان الارادي المذكورة فانهُ كان في جملة من دخلوا المدينة فقتل بعد حين في منزلهِ ٭ ثم انقلب الدراويش على الاورطة الثانية المصرية فنظم ضباطها العساكر ثلاث قلعات وحاربوا الى ان قتلوا . واما قومندانها فرج بك صالح فانهُ جاهد قدر المستطاع ثم نجا الى الصحراء.٭ودخل بعض انذال الدراويش على السيد بك امين وهو على فراشهِ في غرفة قرب اورطتهِ فطعنوهُ بالحراب وتركوهُ يخبط بدمائهِ ولطول اجلهِ لم يمت . واما حسن بك البهنساوي قومندان قسم اليمين كلهِ فانهُ كان واقفاً بطابية باب الكلاكلة فلما رأى ما حلّ بالعساكر خلع ثيابهُ العسكرية وتعدّى الخندق الى جهة الصحراء فوقع اسيرًا ٭ ٭ وبعد ان اجهز الدراويش على عساكر قسم اليمين انقلبوا على قسم الشمال وكان في اولهِ ٣ ارادي باشبوزق كما مرّ فدخل بعضهم المدينة وثبت البعض الآخر فحاربوا الى ان قتلوا وفيهم من السناجق محمد بك السنجق وبشير بن خشم الموس بك ومحمد علي بن نعمان ٭ ثم زحف الدراويش على الاورطة السودانية الاولى فقتلوا قومندانها علي افندي صقر ومعظم ضباطها ٭ ثم انقضوا على الارادي التسعة الباشبوزق بقيادة سرور بك بهجت فمنهم من حارب وقتل ومنهم من فرّ ٭ واما فرج باشا الزيني قومندان العساكر العام فانهُ لما رأى انكسار العساكر خلع ثيابهُ العسكرية وفتح باب المسلمية وخرج منهُ فارًّا الى الصحراء ومعهُ سرور بك بهجت ٭ وزحف الدراويش على الاورطة الثانية السودانية بقيادة البكباشي

محمد افندي عثمان فثبت امامهم وحاربهم حتى قتل هو ومعظم الضباط والعساكر وخرج من سلم من باب المسلمية الى الصحراء.

ثم لما فتح باب المسلمية دخل منهُ كثير من الدراويش المهاجمين وزحفوا على الباقي من عساكر قسم الشمال في جهة برّي وهم الاورطة الثالثة السودانية واوردبان من الباشبوزق ومعهم بخيت بك بطراكي قومندان قسم الشمال العام وانتشب القتال بين الفريقين . وفي اثناء ذلك دخل ابو قرجة بجيوشهِ من باب برّي فهاجموا بخيت بك من الوراء وحصروهُ في الوسط وبقي يقاتلهم الى ان قتل رحمة الله عليهِ وقتل معهُ اكثر الضباط والاعيان الملكية وفيهم محمد بك ابراهيم وابو بكر الجركوك وعصمت بك رئيس التلغرافات ومحمد بك القباني قومندان عموم الطوبجية . واما حسن بك القباني واحمد بك ابو القاسم فانهما نزلا في صندل مع نفر من العساكر . وفرّ البكباشي احمد حماية مع بعض الضباط الى جهة الصحراء.

هذا وكان الدراويش الذين نكلوا بقسم اليمين من خط النار اي بجهة النيل الابيض قد انقلبوا على البلد فأدركوا الكثير من الفارّين اليها في الطريق فقتلوهم ودخلوا المدينة فوجدوا الكثير من اهلها قد اقفلوا ابواب منازلهم تخلصاً من القتل فكسروا الابواب ودخلوا المنازل وقتلوا من وجدوهُ فيها اشنع قتلة واخذوا اموالهم وسباريهم وفي جملة هؤلاء موسى باشا شوقي مدير الخرطوم والمفتي شاكر وابنهُ وعثمان بك حشمت المار ذكرهم . ذلك مع اشتغال كثير من الدراويش بالنهب والسلب وارتكاب الفظائع والموبقات فعلا الصراخ والعويل في المدينة وكان هول تلك الساعة عظيماً

﴿ قتل غوردن ﴾ قيل وكان اوّل من اخترق خط النار ودخل الخرطوم محمد نو باوي شيخ بني جرار المار ذكرهُ فاخذ فصيلة من عربانهِ وقصد سراي الخرطوم طالباً غوردن وكان غوردن قد صعد على سطح السراي من قبل الفجر لمشاهدة القتال ولم يكن معهُ في السراي سوى خادمهِ محمد ادريس وثلاثة من القوّاصة وعلى باب السراي ضابط وبعض الخفراء فلما اقبل العرب مهاجمين السراي تلقاهم الخفراء بالرصاص فقتلوا منهم ٦ رجال ولكن العرب تغلبوا عليهم لكثرتهم فقتلوهم عن آخرهم

وصعد جماعة في سلم السراي وفي مقدمتهم محمد نوباوي فوجدوا غوردن واقفاً عند رأس السلم بثيابهِ العسكرية والسيف عن جنبهِ فقال لهم « اين محمد احمد » فاجابوهُ بالطعن بالحراب وكان اول من طعنهُ محمد نوباوي وقبل ان فاضت روحهُ مسكوهُ برجلهِ وجروهُ على السلم بقسوة بربرية الى اسفل السراي ثم قطعوا رأسهُ وحملوهُ الى المهدي في ابي سعد .
وقد شاع ان المهدي أوصى قومهُ الأَّ يقتلوا غوردن بل يأتوهُ بهِ حيًّا ليفتدي بهِ عرابي باشا ولكن هذه الاشاعة لم يذكرها ثقة من محاصري الخرطوم وليس في كتب المهدي مايصدقها او يشير اليها . حدثني ثقة قال : اني ذهبت مع ابي عنجة الى سراي الخرطوم توًّا بعد قتل غوردن فوجدنا جثة غوردن ملقاة في اسفل السلم عارية بلا رأس وهي مضرجة بالدماء مثخنة بالجراح ثم صعدنا في سلم السراي الى الدور العلوي فوجدنا في الغرفة ثلاثة قتلى ودخلنا غرفة الطعام وهي غرفة مكتبهِ الخاص فرأينا على المائدة صحناً فيهِ بيض مقلي وبجانبهِ علبة لحم صغيرة في وسطها شوكة والى جانبها ملعقة صغيرة وصحناً آخر فيهِ قطعة من السكر ثم دخلنا غرفة النوم فوجدنا الكِلّة مدلاة على السرير والمرايات وصناديق الثياب الجلدية على حالها . قال محدثي اني لا اشك في ان محمد نوباوي شيخ بني جرار هو قاتل غوردن وقد قطع رأسهُ واخذهُ الى النجومي فارسلهُ النجومي الى الخليفة شريف فاتى بهِ الى المهدي فارسلهُ المهدي الى سلاطين باشا وهو في السجن مقيد بالحديد ليتحقق انهُ رأس غوردن ثم علقهُ في المشنقة ثلاثة ايام

هذه نهاية تلك الرواية المحزنة التي مثلها ذلك البطل العظيم في حصار الخرطوم فمثَّل فيها الشهامة وانكار النفس وحب الانسانية احسن تمثيل وسيبقى ذكرهُ في التاريخ موضوع التجلة والاعتبار ما بقيت الخرطوم وذكر حصار

﴿ سقوط باقي نقط الحصار ﴾ اما طابية المقرن فان قومندانها الصاغ ابراهيم الشيخ لما رأى انتشار الدراويش في المدينة كلها وان لا فائدة في المقاومة رفع العلم الابيض علامة للتسليم ولكن الدراويش لم يبالوا بالعلم الابيض بل دخلوا الطابية وقتلوهُ هو ومن معهُ . وفي الوقت الذي هجم فيهِ النجومي على الخرطوم هاجم رجال الشيخ العبيد سراي الشرق ونقطة جزيرة توتي عملاً بامر المهدي وكان قومندان النقطتين

عبد الله بك العبد في سراي الشرق فدافع دفاع الابطال ولكن تكاثر العرب عليهِ فقتلوهُ هو ومعظم رجالهِ واخذوا القطتين منهُ عنوة

واستمر القتل في اهل الخرطوم من لدن طلوع الفجر الى قرب الضحى حتى امتلأت الطرق من جثث القتلى قيل وكان جملة من قتل من اهل الخرطوم نحو ٣٥ الف نسمة واما الدراويش فلم يقتل منهم الاّ القليل . وقد أوقف القتل في اهل الخرطوم بامر المهدي قيل لما اخذوا لهُ رأس غوردن واخبروهُ بما كان لهم من النصر على الحامية امر اصحابهُ فكفوا عن القتل وذلك في الساعة الخامسة حساباً عربياً

﴿ الغنائم والاسرى ﴾ ثم صدر الامر الى الامراء بجمع الاسرى والغنائم في ديم النجومي خارج الخندق فطافوا المدينة ودخلوا المنازل منزلاً منزلاً فساقوا من وجدوهُ فيها من الناس اسرى واخذوا اموالهم غنيمة وكان ابرهيم باشا فوزي المحافظ في جملة هؤلاء . وقد عذبوا كل من ظنوا بهِ انهُ اخفى اموالهُ حتى اظهرها . ثم اوقفوا الخفراء من النساء والرجال في ابواب الخندق الثلاثة ففتشوا الاسرى وهم خارجون وجردوهم من كل ثمين وتركوهم عراة الرؤوس حفاة الاقدام وجمعوا الكل في مكان واحد في العراء وجعلوهم قسمين احرارًا وارقاء اما الارقاء فقد ارسلوهم مع الغنائم الى بيت المال واما الاحرار فقد جعلوهم ايضاً قسمين النساء والرجال ففرزوا الابكار والحسان من النساء وارسلوهن الى المهدي فاختار منهن عشرين وارسل الباقيات الى الخلفاء فانتقى كل منهم من حسنت لديهِ ووزعوا الباقيات على الامراء الاكبر فالاكبر واما غير الحسان من النساء والعجائز فقد تركوهن وشأنهنّ . واما الرجال فعند فرزهم وجدوا بينهم فرج باشا الزيني وسرور بك بهجت وحسن بك البهنساوي فادخلوهم المدينة اولاً امروهم ان يسلموا اموالهم فسلموها بعد تهديدهم بالضرب ثم عقد المهدي مجلساً مع الخليفة عبد الله واحمد ود سليمان امين بيت المال في شأنهم فأقروا على قتل فرج باشا الزيني وسرور بك بهجت ورمي جثتيهما على تربتي السعيد باشا وحسن باشا ابرهيم اللذين قتلا لخيانتهما في واقعة الحلفاية كما مرّ وانفذ القرار فيهما واما حسن بك البهنساوي فقد اطلق سبيلهُ ولكنهُ جرد من نسائهِ وقد اتخذ المهدي ابنتهُ زوجة لهُ . وترك باقي الاسرى

بلا قوت حتى مات بعضهم من الجوع فرفعوا امرهم الى المهـدي فأمر الحاج خالد العمرابي الذي سمّي اميرًا على الخرطوم فحصر اسماءهم في كشف وسلمهُ الى امين بيت المال فاجرى لكل منهم نصف غرش في اليوم وبقي على ذلك مدة يسيرة ثم تركهم وشأنهم فاشتد الحال عليهم حتى كان الموظف الكبير او الضابط يضطر ان يخدم في السوق او ينقل الماء من النيل ليلتقي لقمة او حفنة من الذرة يسدّ بها رمقهُ فرفعوا شكواهم الى المهدي ثانية فوزعهم على الرايات وجعل لكل منهم ربع ريال في الاسبوع

هذا ما كان من جهة الاسرى واما الغنائم فقد جمع منها شيء كثير من الاسلحة والذخائر والنقود والامتعة ما عدا المراكب والوابورات وكان الباقي في الخرطوم من الوابورات اذ ذاك : المنصورة والفاشر والاسماعيلية وشبين والمسلمية ومحمد علي

وعلم المهدي ان بعض اصحابهِ أخفوا من الغنائم فأصدر اليهم منشورًا شديد اللهجة يحذرهم من الغلول في الغنائم وردّ جميع ما اخفوهُ الى بيت المال * وكتب الى عمالهِ يخبرهم بفتح الخرطوم وهذا ما كتبهُ الى محمد زقل عامل دارفور بعد البسملة :

* وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبـد الله الى حبيبهِ في الله وعاملهِ وابن عمهِ محمد خالد تولاهُ الله بلطفهِ وحرسهُ بعين عنايتهِ آمين منا لكم السلام ورحمـة الله وبركاتهُ ثم اعرف الحبيب انهُ بمقتضى وعد الله الوفي ولطفهِ الخفي قد صار فتوح مدينة الخرطوم بعون الله الحي القيوم وذلك يوم الاثنين الموافق ٩ ربيع آخر سنة تاريخهِ بعد انفلاق الصبح بواسطة انصار الدين فقد استعدوا واقتحموا الخندق توكلاً على رب العالمين فلم يكن قدر ربع ساعة أو اقل الا وحلَّ باعداء الله ما حلَّ من قطع دابرهم عن آخرهم مع شـدة استعدادهم وفي اول الصدمة ولوا الادبار منهزمين بين يدي جنـد الله الانصار ظانين السلامة بدخولهم الحيشان واغلاق ابوابها فاتبعوهم ضربًا بالسيوف وطعنًا بالرماح حتى كثر الصياح واشتد الانين وجندلوهم في الحين ثم استحصلوا على الباقين الذين اغلقوا الابواب خشية من نزول العذاب فأخذوا وقتلوا تقتيلاً ولم تبقَ لهم بقية الا القليل والموالي والذرية * واما عدو الله الغردون فعلى قدر ما انذرناهُ ولاطفناهُ بان يرجع وينيب الى الله فلم يكن ليفعل ذلك

لسبوق شقاوتهِ وزيادة غباوتهِ حتى بلغ اجلهُ منتهاهُ وحصد بالندامة ما زرعهُ من خطاياهُ واسكنهُ الله دار غضبهِ التي ساءت مستقرًّا ومقامًا فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فويل لمن كانت النار جزاهُ وهنيئًا لمن كانت الجنة مسكنهُ ومأواهُ جعلنا الله واياكم من الفائزين برضائهِ الاكبر وعظيم خيرهِ المستقر وقد فاز بالشهادة عشرة من اصحابنا في هذا الفتوح ولم يصب الباقين شيء من جراح او نكبة وذلك الفضل من الله وما النصر الا من عند الله وقد سجدنا شكرًا لله على نصرة الدين فافعلوا انتم كذلك والسلام ١٢ ربيع آخر سنة ١٣٠٢ هـ ٢٩ يناير ١٨٨٥

الفصل التاسع عشر

عودٌ الى

﴿ تاريخ الحملة الانكليزية سنة ١٨٨٥ ﴾

﴿ السر تشارلس ولسن وكشف حال الخرطوم ﴾ ولنرجع الآن الى السر تشارلس ولسن الذي تقدم انهُ سار بوابوري بوردين وتل حوين من القبة في صبح ٢٤ يناير سنة ١٨٨٥ لكشف حال الخرطوم فانهُ ما زال سائرًا بلا معارض حتى وصل ود حبشي في رأس شلال السبلوكة فتلقاهُ الفقيه مصطفى الامين بالقنابل والرصاص وكان قد ارسلهُ المهدي نجدة الى النور عنقرة ومقاومة الوابورات ؟ فأقام في ود حبشي وبنى فيها طابية فرماهُ السر تشارلس ولسن ببعض القنابل ومرق منهُ مروق السهم وذلك عصر ٢٥ يناير • وفي صباح ٢٦ يناير وهي ساعة سقوط الخرطوم ارتطم وابور بوردين في صخرة فعلق بها فأفرغ شحنهُ وأخرج منها ثم لم يسر الا قليلاً حتى غرز في رملة فأخرج منها فكانت عاقتهُ في الحادثتين ٢٤ ساعة • وفي عصر ٢٧ يناير وصل شمالي التمانيات فرماهُ الاهلون بالرصاص وسمع رجلاً ينادي « الخرطوم سقطت والغردون مات » فلم يصدقهُ وسار حتى اتى التمانيات فقطع الحطب وقودًا للوابورين وبات فيها ليلتهُ الى فجر ٢٨ يناير فاستطرد السير جنوبًا الى الساعة ١١ من الصباح فاطل على الخرطوم وهو اذ ذاك شمالي الحلفاية في النقطة التي طالما وجّه غوردن نظرهُ اليها ليرى

تباشير النجدة وهناك سمع ايضا رجلاً ينادي « الخرطوم سقطت والغردون مات »

وكان خبر الوابورين قد وصل المهدي فاصدر امرهُ الى امرائهِ في الشرق والغرب والخرطوم بالاستعداد لصدّهما فاقام اهل الشرق خط نار في الحلفاية وآخر في جزيرة توتي وتحصن ابو عنجة في طابية ام درمان بالغرب والنجومي في طابية المقرن بالخرطوم فما اقترب السر تشارلس ولسن بالوابورين من الحلفاية حتى ابتدرهُ اهلها بالقنابل والرصاص فلم يبالِ بها وتقدم نحو الخرطوم حتى اقترب من المقرن فانهالت عليهِ القنابل والرصاص من جزيرة توتي وطابية ام درمان وطابية المقرن فتيقن اذ ذاك ان الخرطوم قد سقطت فقفل راجعاً نحو المتمة وما نجا من الخطر حتى العصر . قيل وقد اشغل الوابوران بال المهدي جدًّا فما سرّ بالنصر على الخرطوم ولا هدأ لهُ بال حتى رآهما عائدين عن الخرطوم . حدثني السيد اسماعيل الازهري قال : « ان المهدي عند سماعهِ بخبر الوابورين ارسل الطلائع لمرافقتهما وموافاتهِ بأخبارهما تباعاً الى ابي سعد فلما قربا من الخرطوم صاح الخليفة عبد الله بقومهِ وسار بهم الى ام درمان فضم جميع الاسلحة النارية الى ابي عنجه في طابيـة ام درمان وارسل الى النجومي واهل الشرق بالتيقظ وبذل المجهود في مقاومة الوابورين . اما المهدي فانهُ صلى الظهر جماعة في مسجدهِ بأبي سعـد ثم رفع يديهِ نحو السماء وبكى وقال « اللهمّ يا قويّ يا عزيز انصرنا على الترك واعوانهم الشايقية والانكليز » ثلاث مرات ثم خرج فركب جواداً واردف خلفهُ الشيخ ود ارباب من مشائخ الدين بالخرطوم لانهُ كان عاجزاً هرماً وسار حتى أتى شجرة بين ابي سعد وام درمان فنزل تحتها فسميت بشجرة الحضرة قيل لان قد هبطت عليهِ هناك « حضرة » . وعند نزوله ناولهُ احمد ود سليمان امين بيت المال سيفاً فاستلهُ فوجد مكتوباً عليهِ بماء الذهب هذه الآية « نصرٌ من الله وفتحٌ قريب » فاستبشر بذلك فجمع بعض الحضور احرف الآية بالجمَّل فوجدها ١٣٠٢ وهي السنة التي كانوا فيها فزاد استبشاراً وبقي تحت الشجرة الى ان رجع الوابوران فرجع الى ابي سعد فرحاً منشرح الصدر »

هذا ما كان من المهدي وانصارهِ اما السر تشارلس ولسن فكل قارئ يعلم مقدار

الاسف الذي تولاهُ وهو راجع الى قومهِ بخبر سقوط الخرطوم الذي ذهب باتعاب الحملة ادراج الرياح واقل ما يتمناهُ القارىء لهُ الرجوع الى قومهِ بالامان والراحة ولكنهُ ما وصل جبل الرويان عند قدم شلال السبلوكة حتى ارتطم وابور تل حوين في صخرة فغرق قيل ان ربانهُ اتفق مع عبد الحميد بك احد ضباط الشايقية فغرقاهُ عمدًا وقد فرَّا الى المهدي توًّا بعد غرقهِ وذلك في عصر ٢٩ يناير. وفي المساء اتى رسول بكتاب من المهدي الى الانكليز والشايقية الذين على الوابورين يخبرهم بسقوط الخرطوم وموت غوردون ويسألهم التسليم فاجابهُ خشم الموس بك مخادعًا لهُ «اذا ضمنت لنا السلامة نسلم للفقيه مصطفى الامين في ود حبشي» ٥ ونقل السر تشارلس ولسن امتعة تل حوين ورجالهُ الى وابور بوردين وسار حتى اتى جزيرة مرنات على ٣ اميال جنوبي ودحبشي فارتطم في صخرة تحت الماء فغرق وذلك في ٣١ يناير فانزل السر تشارلس ولسن رجالهُ وامتعتهُ الى البر الشرقي وارسل اللفتننت ستيورت ورتلي في قارب الوابور الى القبة يطلب النجدة فلما مرَّ بود حبشي رماهُ الدراويش بالرصاص والقنابل فلم يصيبوهُ بضرر وبقي مجدًّا السير حتى وصل القبة الساعة ثلاثة من صباح ١ فبراير فاخبر قومهُ بسقوط الخرطوم ونكبة السر تشارلس ولسن

وكان اللورد تشارلس بارسفورد قد تعافى من مرضهِ فاخذ بعض العساكر في وابور الصافية واسرع لنجدة السر تشارلس ولسن فلما قرب من ودحبشي بادرهُ الدراويش بالقنابل وقد اضطر ان يسير على ٧٠ يردًا من الشاطىء لقلة ماء النيل اذ ذاك فاصابت قنبلة قزان الوابور فعطلتهُ فرسى بهِ في البر الشرقي على ٥٠٠ يرد من طاية العدو ليصلحهُ ومع ذلك فان مدافعهُ وبنادقهُ لم تكف عن العمل فأنلى بالدراويش وقتل قائدهم احمد ود فنَّه ٥ وكان السر تشارلس ولسن قد شحن امتعتهُ في نقر وجرَّهُ بإزاء الشاطىء وسار هو ورجالهُ في البر محاذيًا لهُ حتى وصل الى حيث اللورد تشارلس بارسفورد فشاركهُ في محاربة الدراويش الى ان أصلح القزان فنزل هو ورجالهُ وامتعتهُ في الوابور وقفلوا كلهم راجعين الى القبة فوصلوها مساء ٤ فبراير

هذا وقد وجَّه فريق من الانكليز اللوم على السر تشارلس ولسن لعاقتهِ في

القبة وألقوا عليهِ تبعة سقوط الخرطوم فقالوا لو انهُ اسرع لنجدة الخرطوم حال التقائهِ الوابورات في المتمة اي صباح ٢١ يناير لادرك الخرطوم قبل السقوط ومنع سقوطها. فدافع السر تشارلس ولسن عن نفسهِ بكتاب خاص نشرهُ بين قومهِ وانتصر لهُ جماعة منهم قالوا ان احوال المتمة وسلامة جيش القبة قضت عليهِ بهذه «العاقة» وايضاً فان المهدي لم يتأخر عن مهاجمة الخرطوم الا مصابرة لها ليضطرها الى التسليم جوعاً ويكفي نفسهُ الخسائر ما امكن ولكنهُ كان يرقب حركات الانكليز والوابورات وهو مصمم على مهاجمة الخرطوم حال علمهِ بتحرك النجدة اليها وقالوا بل لو وصل الوابوران الخرطوم قبل مهاجمة المهدي لها ما امتنع عن مهاجمتها ولا امكن الحامية حينئذٍ صدهُ عنها فسقوطها بعد الضعف الذي صارت اليهِ من قبل وصول الجيش الى القبة كان امرًا محتوماً سواء حضر الوابوران لنجدتها في الحال أو تأخرا . ولكل من الفريقين ادلة كثيرة يؤيد فيها رأيهُ . على ان المسألة الهامة في هذا البحث هي هذه : أكان تأخر السر تشارلس ولسن في القبة مما تستلزمهُ القواعد الحربية أم كان في امكانهِ السفر الى الخرطوم حال التقائهِ الوابورات ؟ لانا قد رأينا ان المهدي لم يقرّ على مهاجمة الخرطوم بل احجم عنها خوف الفشل حتى فرّ اليهِ ذلك السنجق الشقي ودلّهُ على مواطن الضعف فيها وهوّن عليهِ امر افتتاحها فلو امكن السر تشارلس ولسن نجدتها حين التقائهِ الوابورات اي صباح ٢١ يناير لوصلها قبل فرار السنجق منها (٢٤ يناير) ومنع مهاجمة المهدي لها. ثم لو وصل الوابوران بالزاد الى الخرطوم لانعشا حاميتها اي انعاش وزادا خوف المهدي من مهاجمتها . حتى لو صحّ انهُ كان يهاجمها بعد وصولهما لاحتمل انهُ كان يُصدّ عنها . وعليهِ فالتأخر عن نجدة الخرطوم الى ما بعد ٢٤ يناير موجب للاسف الشديد مهما كانت الاسباب

﴿ تغيير صبغة الحملة ﴾ ولنرجع الآن الى ذكر الوقائع فان قومندان القبة لما علم بسقوط الخرطوم من اللفتننت ستيورت ورتلي في ١ فبراير كما مرّ ارسل الخبر مع ضابط خاص الى اللورد ولسلي في كورتي فوصل في ٤ فبراير ووقع على اللورد ولسلي كصاعقة فأبلغهُ في الحال تلغرافياً الى حكومتهِ ببلاد الانكليز وتبودلت بينهُ وبينها

التلغرافات بشأن السياسة التي يجب اتباعها بعد الآن فأجابتهُ في ٦ فبراير « اما الغرض الذي ترمي اليهِ الآن فهو سلامة غوردن ان كان لم يزل حياً ومنع تقدم المهدي الى البلاد التي لا تشغلها الثورة » فأجابها بأنهُ سيبذل جهدهُ في خلاص غوردن ان كان باقياً حيًّا وسألها التصريح لهُ بالسياسة التي تريد اتخاذها بشأن السودان عموماً. فجاءهُ الجواب مساء ٧ فبراير « بأن غاية الحكومة الآن سحق المهدي واخماد ثورتهِ وانها تعتمد عليهِ في جميع التدابير العسكرية التي توصلهُ الى هذه الغاية» فأقرَّ اذ ذاك على فتح بربر قبل حلول الصيف وبعث في ٨ فبراير يشكر لحكومتهِ التصريح بسياستها ويسألها ارسال الجند الى سواكن لسحق عثمان دقنه ومدّ سكة حديد منها الى بربر حتى متى جاء الخريف التالي ضمَّ قوة سواكن الى قوة بربر وسار بالقوتين لسحق المهدي في ام درمان ٠ وفي ٩ فبراير وصل السر تشارلس ولسن نفسهُ الى كورتي واخبر اللورد ولسلي بتفاصيل سفرتهِ الى الخرطوم فأبلغها هذا الى حكومتهِ

﴿ عود الى جيش الصحراء ﴾ هذا وكان اللورد ولسلي لما بلغهُ جرح الجنرال ستيورت في واقعة المتمة ارسل الجنرال بُلَر رئيس اركان حرب ليقود جيش الصحراء وسمى الجنرال وود سردار الجيش المصري رئيس اركان حرب مكانهُ فخرج الجنرال بُلر من كورتي في ٢٩ يناير قاصدًا القبة ٠ وفي صباح اليوم التالي سيَّر اللورد ولسلي اورطة انكليزية مددًا لهُ ٠ وصدر لي الامر من رئاسة قلم المخابرات بالذهاب الى الجكدول مع شيخ من مشايخ الدين بدنقله بقصد مكاتبة عربان الصحراء وتثبيتهم على الولاء فسرنا مع هذه الاورطة ٠ وفي الطريق بلغنا خبر سقوط الخرطوم المشوم فمكثنا في الجكدول الى ان عاد جيش الصحراء الى كورتي فعدنا معهُ

واما الجنرال بُلَر فقد علم بسقوط الخرطوم في الجكدول فتأخر فيها بضعة ايام بأمر اللورد ولسلي ثم استطرد السير الى القبة فوصلها في ١١ فبراير ٠ وكان اللورد تشارلس بارسفورد وهو اقدم ضابط في جيش الصحراء قد كتب انذارًا الى اعيان النيل وسكانهِ اجمعين بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٨٨٥ هذا نصهُ :

« نكتب اليكم هذا الانذار كي لا يفوتكم العلم اننا نحن القسم الاول من

الجيوش الانكليزية الزاحفة على الخرطوم لمعاقبة العصاة الاشقياء. فاذا اتيتم الينا مسلمين خاضعين قبلناكم واهّلنا بكم ودفعنا لكم اثمان ما نأخذهُ من مواشيكم ومحصولاتكم لكن اذا رأينا منكم ما دلَّ على اصراركم على عدم التسليم عاملناكم معاملة الاعداء وسلبنا جميع مواشيكم واحرقنا منازلكم وسواقيكم وكل ما ملكتهُ ايديكم اما انتم انفسكم فتلاقون ما لاقى الذين تجرأوا على قتالنا في ابي طليح والتمة. ومن اراد المجيء منكم الى الجنرال الانكليزي للمفاوضة معهُ بشأن من الشؤون فليأتِ حاملاً راية بيضاء ماشياً وحدهُ على شاطئ النيل فيدخل بلا معارضة ويحمى من كل خطر والسلام»

فلم يجبهُ احد. وفي مساء ذلك اليوم جاء خبر فتح الخرطوم الى اهل التمة فضربوا نقاقيرهم وزادوا جرأة على عساكر القبة. واما العساكر فقد شقَّ عليهم هذا الخبر وكانوا قد تعبوا لكثرة ما قاسوهُ من المشاق والحروب ولم يكن عندهم يوم وصول الجنرال بلر اليهم سوى مؤونة ١٢ يوماً وكان الزاد يأتيهم من الجكدول على جمال قد تلف اكثرها وانهك باقيها التعب والجوع. هذا وكان المهدي بعد ان عاد الوابوران عن الخرطوم قد اصدر امرهُ للنجومي لحشد جيشهُ في كرري وزحف في ٨ فبراير قاصدًا الانكليز في القبة وكان في التمة نحو ٢٠٠٠ من الدراويش ومعهم مدفعان ومن الف الى الف وخمسمائة بندقية. فلهذه الاسباب كلها رأى الجنرال بلر وجوب اخلاء القبة والعودة الى ابي طليح فكتب في ذلك الى اللورد ولسلي ثاني يوم وصوله (١٢ فبراير) وشرع فعلاً في تنفيذ رأيهِ

وكان اللورد ولسلي لما اتاهُ تلغراف حكومتهِ في ٧ فبراير مصرحاً لهُ بعزمها على سحق المهدي واقرَّ على فتح بربر قد ارسل امرًا الى الجنرال بلر في ١٠ فبراير ليفتح المتمة عنوةً ويتقدم الى بربر فيتحد مع جيش النيل على فتحها فوصلهُ الامر في ١٣ فبراير اي بعد شروعهِ في اخلاء القبة فلم يكفَّ عن اخلائها بل اعاد للورد ولسلي الاسباب التي حملتهُ على الاخلاء. وفي ذلك اليوم ارسل جميع الجرحى والمرضى وفيهم الجنرال ستيورت الى الجكدول. وفي فجر اليوم التالي ١٤ فبراير لحق بهم بنفسهِ مع باقي القوة (١٧٠٠ مقاتل) بعد ان عطل الوابورين الباقيين ورمى بالمثقلات

في النيل وقد ترك بعض الخيام منصوبة والانوار موقدة فيها ليوهم اهل المتمة انهُ لم يزل محتلاً القبة . ولكن الدراويش دروا بخروج حملة الجرحى فلحقوها في الطريق فقتلوا منها رجلين وجرحوا ستة ودروا ايضاً بخروج الجنرال بلر فلحقهُ بعض فرسانهم فرأوهُ من بعيد وعادوا الى المتمة وجدَّ بلر السير حتى وصل آبار ابي طليح صباح ١٥ فبراير فمكث في انتظار الامر . اما الجرحى فوصلوها في ١٤ فبراير فاستراحوا قليلاً وواصلوا السير الى الجكدول وكان الجنرال ستيورت قد قضى مدة في النزاع بسبب جرحهِ فمات في الطريق بين ابي طليح والجكدول في ١٧ فبراير فحملوا جثتهُ الى الجكدول ودفنوها هناك وذلك في ١٨ منهُ وكانت حكومتهُ قد رقتهُ الى رتبة ماجور جنرال فوصلتهُ البشرى الى القبة ولكنهُ لم يتهنأ بها وكان رحمهُ الله قائدًا حازماً شهماً كريم الخلق فاشتد اسف الجميع عليهِ

واما الجنرال بلر فلم يلبث ان رأى ان ماء الابار لا تكفي عساكرهُ فارسل قسماً كبيرًا منهم الى الجكدول وذلك في ١٦ فبراير . وفي هذه الاثناء وصل النجومي الى القبة وارسل مقدمة جيشهِ لمطاردة الجنرال بلر فوصلت الآبار مساء اليوم المذكور فنزلت على اكمة تجاه الآبار وشرعت في اطلاق الرصاص على الجنرال بلر ودامت على ذلك الليل كلهُ . وفي صباح اليوم التالي خرج اليهم بعض العساكر فطردوهم عن الاكمة وكانت خسارة العساكر في اليومين من القتلى ٤ ضباط و٣ عساكر ومن الجرحى ٢٣ عسكرياً . واما جيش النجومي فلم يصل ابا طليح حتى ظهر ٢٣ يناير فرأى الجنرال بلر ان لا قِبَلَ لهُ بمصادمتهِ فلما امسى ردم الآبار وخرج بجميع عساكرهِ الى الجكدول وقد ترك نار المعسكر موقدة ليوهم النجومي انهُ لم يزل بائتاً فيهِ ولحقهُ بعض فرسان النجومي في اليوم التالي فادركوهُ الظهر فاطلقوا عليهِ بنادقهم وعادوا الى حيث اتوا فاستمر السير حتى وصل الجكدول ظهر ٢٦ فبراير بعد عناء شديد

هذا وكان اللورد ولسلي لما عزم على فتح بربر قد ولّج الجنرال وود اخلاء نقط الصحراء بعد ذهاب الجنرال بلر من القبة فخرج من كورتي في ١٥ فبراير ومعهُ اللفتننت ونجت (سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام الآن) اركان حربهِ

فما وصلا الجكدول حتى كان الجنرال بلر قد اخلى القبة كما مرّ فبقيا في الجكدول وساعداهُ على اخلاء ابي طليح * وفي ١٨ فبراير وصل اللورد ولسلي كتاب الجنرال بلر بالاسباب التي حملتهُ على اخلاء القبـة فصدقهُ واقرّ على حشد جيش الصحراء في مروي والحاقهِ بجيش النيل لفتح بربر ولكنهُ لم يلبث ان رأى ان هـذا الرأي ايضاً لا يمكن تنفيذهُ لقلة الجمال وصعوبة الشلالات في الطريق من جهة ولسوء الحالة التي صار اليها جيش الصحراء من جهة أخرى * فعدل عن فتح بربر في هذا الفصل واقر على جمع الجيش كلهِ بين الشلال الثالث والرابع اي بين الحفير وابي دوم الى الخريف التالي فيزحف على بربر والخرطوم بقوة مضاعفة وعزم جديد • وفي ٢٠ فبراير اصدر امرهُ الى جيش النيل بالرجوع الى ابي دوم كما سيجيء والى الجنرال بلر والجنرال وود بالرجوع بجيش الصحراء الى كورتي • فخرج الجنرال بلر من الجكدول في ٢٧ فبراير وبقي الجنرال وود والاقتنت ونجت اركان حربهِ فيها حتى اتما اخلاء النقط كلها على احسن اسلوب ولم يرجعا الى كورتي حتى ١٤ مارس ورجع آخر الجيش في ١٦ مارس سنة ١٨٨٥ * وقد عانى جيش الصحراء مشاقّ كثيرة من العطش والحر والعري • ومما زاد هذه المشاق عناء قلة الركائب اذ لم يكن للجيش واسطة للنقل الا الجمال التي فني اكثرها كما مرّ حتى كنت ترى جثثها منتشرة في الطريق من القبة الى كورتي وما بقي من الجمال تقرحت ظهورها حتى اضطر العساكر كافة ومعظم الضباط الى المشي وقد بليت احذية العساكر وتقرحت ارجلهم من الحفا

هذا وقد احضر الجنرال بلر معهُ من القبة نصحي باشا وخشم الموس بك (الذي رقي بعـد ذلك الى رتبة باشا) ورجالهما الذين حضروا بوابورات غوردن الاربعة • وكان معهم في الوابورات بريد من غوردن فيهِ يوميتهُ من ١٠ سبتمبر اي من يوم سفر الكولونل ستيورت من الخرطوم الى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٤ فطبعت في كتاب خاص • وفيها كتاب الى قومندان الجنود الانكليزية وعدة كتب خصوصية بينها كتاب بتاريخ ١٤ ديسمبر الى الماجور وطسن من ضباط الجيش المصري يقول فيهِ انهُ يتوقع شرًّا عظيماً في المدينة بعد عشرة ايام • وايضاً ورقة صغيرة مكتوب عليها ما ترجمتهُ :

«الخرطوم بخير ويمكنها الاقامة على الحصار سنين . غوردن في ٢٩ ديسمبر ١٨٨٤» . وكان قد وصل رسول من غوردن (بطريق المتمة ؟) الى مروي في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٤ ومعهُ ورقة صغيرة بقدر طابع البريد مكتوب على وجه منها ما ترجمتهُ : «الخرطوم بخير في ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٤ . غوردن» وعلى الوجه الآخر ختم غوردن

﴿ جيش النيل وواقعة كربكان في ١٠ فبراير سنة ١٨٨٥ ﴾ تقدم ان الجنرال أرل تولى قيادة جيش النيل لفتح بربر فشرع في حشد الجيش في الحامداب في رأس الشلال الرابع فخرج اول الجيش من كورتي بالمراكب في ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٤ ووصل آخرهُ في الحامداب في ٢٣ يناير سنة ١٨٨٥ وعندهُ من المؤونة ١٠٠ جراية لكل عسكري . وفي صباح اليوم التالي زحف الجنرال أرل بالجيش برًّا وبحرًا فسار المشاة بالمراكب في النيل . وصحبهُ ٣٠٠ من عساكر دنقله بقيادة البكباشي احمد افندي سليمان يرافقهم جودت بك وكيل المدير (على ان يكون مديرًا لبلاد المناصير بعد فتحها) والكولونل كولفل ضابط المخابرات فساروا عن يمين النيل لحماية يسار المراكب وسار هو بباقي جيشهِ من الفرسان والطوبجية عن يسار النيل لحماية يمين المراكب

هذا وكان محمد الخير لما علم بجيش النيل أمر موسى أبا حجل كبير الرباطاب وسليمان ود قمر كبير المناصير فجمعا نحو ١٠٠٠ مقاتل من اهلهما ونزلا في حلة برتي على الحد بين مديريتي دنقله وبربر . ثم بعد رجوع ابن اخيهِ عبد الماجد الكيلك من أبي طليح ارسلهُ الى برتي بنحو ٢٠٠ مقاتل من اهل بربر ؟ على ان يكون رئيسًا عامًّا على الجيش كلهِ . وكان الجنرال أرل عالمًا بنزول الدراويش في برتي فسار بجيشهِ حتى وصل غمرة على ٧ اميال منهم . ولما رأى الدراويش ان لا قبل لهم بمقاومة الجيش في برتي تقهقروا الى جبل كربكان وذلك في ٣٠ يناير فتقدم الجنرال أرل واحتلها في ١ فبراير ببعض العساكر ومكث في انتظار باقي الجيش . قيل وهنا وقع الخلاف بين امراء الدراويش فأراد عبد الماجد ان يتقهقروا امام الجيش رويدًا فيضيقوا عليهِ في الطريق ويناوشوهُ القتال الى ان يصلوا بربر فينضموا الى اخوانهم فيها ويحاربوهُ هناك فأبى موسى ابو حجل وسليمان ود قمر هذا الرأي لان فيهِ خراب بلادهما واصرًّا على الثبات

في كربكان فتركهما عبد الماجد اذ ذاك وعمل برأيهِ وفي ٥ فبراير وصل الجنرال أرل تلغراف من اللورد ولسلي يخبرهُ بسقوط الخرطوم ويأمرهُ بالبقاء حيث هو منتظرًا الامر . وفي ٨ فبراير وصلهُ كتاب بتاريخ ٧ منهُ باستطراد السير واتباع الخطة التي رسمها لهُ قبلاً حتى متى وصل قرب بربر يوافيهِ جيش الصحراء اليها فيتحدان معًا على فتحها فأمر اذ ذاك عساكر دنقله فعبروا النيل الى برتي فتركهم فيها وسار بالجيش برًّا وبحرًا تتقدمهُ الكشافة حتى قرب من جبل كربكان فعاد الكشافة وقالوا ان الدراويش قد نزلوا في الجبل المذكور وقطعوا طريق الجيش . اما جبل كربكان فجبل حصين على النيل يعلو ٣٠٠ قدم عن سطح الارض ويمتد مسافة ٦٠٠ يرد الى جهة الصحراء وبينهُ وبين النيل مضيق لا يزيد عن ٢٠٠ يرد وفي فم المضيق اربع اكام صخرية متجاورة في صف واحد تختلف في الارتفاع بين ٥٠ و ٨٠ قدمًا اولها على ضفة النيل وطريق المارة بينها وبين الاكمة الثانية . فلما عاد الكشافة بخبر الدراويش اقام الجنرال أرل زريبة متينة على جيشهِ وذهب بنفسهِ لاستطلاع مركز الدراويش فوجدهم قد احتلوا الاكمتين المتوسطتين من الآكام الاربع والطرف الغربي من الجبل واقاموا امامهم متاريس من الحجارة تقيهم شر الرصاص فحتم على الجنرال أرل محاربتهم ليفتح طريقًا للجيش . وكانت قوة جيشهِ اذ ذاك ١٠٤٢ من العساكر الانكليزية و٥٦ ضابطًا انكليزيًّا وبطارية بمدفعين من الطوبجية المصرية وبلوك من الهجانة المصرية ومعهم الدكتور خليل افندي خير الله من الاطباء السوريين في الجيش المصري

فلما كان صباح ١٠ فبراير استعد للهجوم فترك بلوكًا من العساكر في الزريبة لحماية المراكب وامتعة الجيش وجعل بلوكين من العساكر الانكليزية والطوبجية المصرية بين الزريبة والاكام الاربع وعلى مرمى القنبلة من الاكام وأمر الهجانة المصرية فوقفوا على مرمى الرصاص من الدراويش الذين على جبل كربكان لمنعهم من الفرار وجعل ٣ بلوكات من العساكر في جزيرة كربكان تجاه الاكام وسار هو بباقي القوة فدار في الصحراء حول جبل كربكان حتى اتاهُ من الوراء فأرسل فرقة من جيشهِ لمهاجمة الدراويش الذين في اعلاهُ وتقدم هو بمن بقي لمهاجمة الدراويش

الذين على الاكام وهكذا احاط بالدراويش الذين على الجبل والاكام من الجهات الاربع وحصرهم في الوسط ثم أمر العساكر ففتحوا أفواه البنادق والمدافع من كل الجهات ففتكوا بالدراويش فتكاً ذريعاً واخذ المهاجمون للاكام يتقدمون زويداً مقتحمين رصاص الدراويش بقلوب لا تهاب الموت حتى اختلطوا بهم وقتلوهم بالسنج ورمى بعض الدراويش بأنفسهم في النيل تخلصاً من القتل فتصيد العساكر اكثرهم بالرصاص وتنقت الاكام منهم فوقف الجنرال أرل في ساحة بين الاكمتين المتوسطتين وأمر عساكرهُ بالانتظام صفوفاً فيها وهو على ١٠ امتار من كوخ صغير قد التجأ اليهِ بعض الدراويش وهو لايدري فنادى بهِ صف ضابط وقال « في هذا الكوخ نفر من الدراويش وقد رموا واحداً منا الآن بالرصاص » فأمر باحراق الكوخ وتقدم هو بنفسه نحوهُ وكان الجنرال بركنبري بجانبهِ فصاح بهِ « الحذر يا سيدي فان الكوخ ملآن من العدو » وما اتم كلامهُ حتى خرج من الكوخ رصاصة فأصابت الجنرال أرل في رأسهِ فقضت عليهِ في الحال وكان رحمهُ الله قائداً مدبراً شجاعاً فعم الاسف عليهِ

وتولى الجنرال بركنبري قيادة العساكر مكانهُ وكان الدراويش الذين على جبل كربكان لايزالون يقاتلون فأرسل الجنرال بركنبري مدداً لمقاتليهم فاقتحموا الدراويش في الجبل ونكلوا فيهم وفرّ من سلم منهم الى جهة السلامات فطاردتهم الفرسان الى مسافة بعيدة . وقد دامت الواقعة اربع ساعات ونصف ساعة وقتل فيها من الدراويش نحو ٨٠٠ رجل وفيهم الامير موسى ولد حجل . واما خسارة الانكليز فكانت ٣ ضباط و ٧ عساكر قتلى و ٤ ضباط و ٤٣ عسكرياً جرحى

وممن اشتهر في هذه الواقعة من الضباط الانكليز العظام بالبسالة والاقدام الكولونل جرين قومندان العساكر الاسكوتلندية والكولونل بتلر . اما الكولونل جرين فقد بلغني انهُ لما رأى تحصن الدراويش على الاكمة التي جُعل في صددها ورأى ان لا حيلة لهُ في قهرهم الا بالمخاطرة والهجوم استل سيفهُ ونادى بجندهِ « اتبعوني يا رجالي اتبعوني » ثم اعمل بشاكلة جوادهِ المهماز واقتحم النيران ورجالهُ تتبعهُ كالاسود حتى وصل اعلى الاكمة وقتل الدراويش عن آخرهم . وقد كوفئ على ذلك

بعد الحملة بترقيتهِ الى رتبة ماجور جنرال وجعل قومندان العساكر الانكليزية في اسوان فمكث هناك سنتين ٭ وقد كان من حظي الخدمة في مركز قومندانيتهِ كل هذه المدة ٭ وكان معهُ اركان حربهِ الماجور ككوتش (الجنرال ككوتش الآن صاحب حصار كمبرلي في حرب الترنسفال الحديثة) الذي اشتهر ايضاً في جيش النيل بالدربة والاقدام كما اشتهر بين اقرانهِ بالذكاء والنبل وشرف الخصال

وقد غنم الانكليز أمتعة الدراويش واوراقهم فوجدوا بينها كتاباً من محمد الخير الى عبد الماجد الكليك بتاريخ ١٣ ربيع الثاني ١٣٠٢هـ ٣٠ يناير ١٨٨٥م وفيهِ ان قد وصلهُ كتاب من الخليفة عبد الله يوم تاريخهِ يخبرهُ بسقوط الخرطوم وقتل غوردن

وكتب الجنرال بركنبري خبر الواقعة الى اللورد ولسلي فكتب اليهِ بتاريخ ١٢ فبراير يأمرهُ بالتقدم الى بربر ويسألهُ متى يصلها ليخبر قومندان القبة حتى يوافيهُ اليها فاجاب الجنرال براكنبري انهُ لا يستطيع تعيين الوقت بالدقة لان امامهُ شلالات لا يعرفها وعدوًّا لا يعلم حركاتهِ وفي ظنهِ انهُ لا يصلها قبل ١٣ مارس

وفي ١٣ فبراير استطرد السير برًّا وبحرًا حتى وصل السلامات في ١٧ منهُ فاحرق منزل سليمان ود قمر الذي غدر بالكولونل ستيورت واحرق منازل اهلهِ وسواقيهم ونخيلهم ٭ ثم تقدم بالجيش حتى وصل تجاه هبَّة في صباح ٢٠ فبراير فرأى النيل عندها سهل العبور فعبرهُ لان ابا حمد و بربر المراد احتلالها هما عن يمينهِ وكان معهُ ٨٧٠ من الجمال والخيل وستة مدافع فعبر بهم وذلك في ١٣½ ساعة ثم ذهب الى قرية هبَّة والجزيرة التي غرق عندها وابور عباس وفتش لعلهُ يجد شيئاً من آثار الكولونل ستيورت فما وجد الا بعض اوراق الزيارة باسمهِ واقمصة ملطخة بالدم فأحرق القرية كلها وفيها بيت الفقيه عثمان المتقدم ذكرهُ ٭ وفي ٢٢ فبراير استطرد السير بالجيش برًّا وبحرًا حتى أتى عصر اليوم التالي حلة الخلَّة بين الرباطاب والمناصير على نحو ٣٠ ميلاً من أبي حمد و ١٥ ميلاً من هبة

وفي صباح ٢٤ فبراير أتاهُ رسول بتلغراف من اللورد ولسلي بتاريخ ٢٠ منهُ يقول فيهِ : « اني عدلت عن فتح بربر الى الخريف الآتي فقف عن السير الى أبي

حمد ولكن احرق ودمّر البلاد التي اشترك اهلها في قتل الكولونل ستيورت وعد بالجيش الى مروي الا اذا كان امامك عدوٌّ فاقهرهُ قبل عودتك واذا لم يصلك هذا التلغراف قبل وصولك الى ابي حمد أو وصلك وكنت قريباً منها بحيث لا يبقى عليك الاَّ احتلالها فاحتلها وارسل للحملة في كورسكو لتوافيك اليها » . فانقلب الجنرال بركنبري راجعاً بالجيش ظهر ٢٤ منهُ وفي اليوم التالي مرّ ببهبة فأتم خراب بيوتها وسواقيها وعاد الى مروي فعبر النيل الى ابي دوم صنم . ثم تقدم بمعظم القوَّة الى كورتي فوصلها في ٨ مارس سنة ١٨٨٥ وقد قاست عساكرهُ في الشلالات وسفر البر من العناء ما لا يوصف وفقد ستة مراكب و٣ رجال

﴿ معسكر الصيف في دنقله ﴾ ولما تمَّ رجوع العساكر من ساحة الحرب اقرَّهم اللورد ولسلي على يسار النيل بين الشلال الثالث والرابع في الحفير ودنقله والخندق وابي قسّ والكرد والدبّة والحتّاني وامبقول وكورتي وابي دوم . وقد وصل هذه النقط بعضها ببعض وصلاً متيناً بحيث لو هاجم العدو نقطة منها امكن سائر النقط الاسراع الى نجدتها . وبنى للعساكر منازل من الطوب النيّ وسقفها بالقش والجريد على اسلوب صحي يخفف وطأة الحرّ وجلب لهم عنكريبات ينامون عليها والعاباً يتسلون بها . واوصى معامل بلادهِ فصنعوا لهُ ٣٠٠ قارب و ١١ وابورًا محمول الواحد منها من ٣٠ : ٥٠ طنًا استعدادًا للحملة المنوية

﴿ رجوع الحملة الانكليزية النيلية ﴾ وبعد ان اقرَّ العساكر في اماكنهم رجع الى القاهرة فوصلها في ١١ ابريل ٥ وقد رجعت معهُ اليها ٥ ورجع معهُ زهراب باشا (وكيل نظارة الحربية الآن) الذي صحبهُ من مصر اركان حرب فأحبهُ وامتدح كفاءتهُ فمنحتهُ الحكومة الانكليزية نيشان القديسين جورج وميخائيل مع لقب سر ٥

واراد اللورد ولسلي ان يجعل القاهرة مركزًا لهُ مدة الصيف لانها متوسطة بين دنقله وسواكن ولكن اتاهُ تلغراف من وكيل نظارة الحربية بلندن في ١٣ ابريل بما مؤدّاهُ :

« ان علاقاتنا الخارجية (يشير الى علاقاتهم مع روسيا على حدود الافغان) ربما اضطرتنا الى العدول عن استرجاع الخرطوم في الخريف التالي وطلب اليهِ اتخاذ

افضل الطرق لارجاع العساكر الى مصر ٠٠ وفي ٢١ ابريل اقرَّ مجلس النوَّاب رسميًا على العدول عن استرجاع الخرطوم وكان ذلك ضد رأي اللورد ولسلي فحذَّر حكومتهُ من نتائج هذا القرار وقال اذا رحلنا عن دنقله اليوم احتلها المهدي في الغد وتقدم طالبًا مصر فتضطر الى حشد جيش عظيم على الحدود فلم يُسمع لهُ ٠ وفي اواخر ابريل ذهب الى سواكن فكشف حالها وعاد الى مصر ٠ وفي ١١ مايو اصدر امرهُ الى العساكر بالخروج من دنقله وكان في النقط الحربية اذ ذاك ٦٨٢٥ من العساكر الانكليزية بينهم ٤٢١ عسكريًا في الاسبيتالية ٠ وكان الجنرال وود قد عاد الى القاهرة مريضًا فتولّى الجنرال دورمر قومندان العساكر في دنقله امر ترحيلهم ٠ وكان في دنقله ايضًا ٥٠٧ من العساكر النظامية المصرية و ٦٧٣ من الباشبوزق و ٥٠ موظفًا ملكيًا و ٩٤٠٠ من الاعراب والوطنيين الذين أحبوا المهاجرة مع الجيش فولج امر ترحيلهم بالماجور ترنر من ضباط المخابرات الكرام ٠ فما اخلت العساكر الانكليزية النقط الجنوبية الى دنقله حتى سقطت وزارة غلادستون رئيس حزب الاحرار وتولّى الوزارة اللورد سلسبري رئيس حزب المحافظين فأمّل اللورد ولسلي ان الوزارة الجديدة تعود الى رأي الزحف على المهدي فأرسل تلغرافًا الى دنقله بالتوقف عن الرحيل ولكن الوزارة الجديدة بعد اعادة النظر في الامر ايّدت قرار الوزارة القديمة وارسلت بذلك تلغرافًا الى اللورد ولسلي في ١ يونيو ودعتهُ الى لندن للنظر معهُ في حماية الحدود المصرية فأرسل امرهُ الى الجنرال بركنبري الذي كان قائد الجنود في دنقله اذ ذاك باستطراد الرحيل فقام آخر الجند من دنقله شمالاً في ١٥ يونيو سنة ١٨٨٥ فوصلوا كوشه في ٢١ منهُ ٠ وسلم الجنرال بركنبري قيادة العساكر الى الجنرال غرنفل الذي سمي قومندانًا على جيش الحدود بلقب ماجور جنرال محلي وبذلك انحلت الحملة النيلية الانكليزية

اما الجيش المصري فقد تقدم انهُ جُعل في خط الاتصال بين الشلال الاول والثالث في اصوان وكورسكو وحلفا وجماي وسرس وسمنه وامبقول وتنجور وعكمه وعكاشه ودال ومغركة وكوشة وعبري وابي صاري ودلقو وخيبر وابي فاطمة ٠ فساعد على ترحيل الجيش الانكليزي والذخائر والمؤن وخدم في الشلالات خصوصًا احسن

خدمة حتى ان المراكب لما وصلت شلال دال منعها التيار من المرور فحملتها العساكر المصرية من رأس الشلال الى قدمه مسافة ٣ اميال في البر ٠ ولم يتعدَّ شلال حنك منهم الاّ نفر قليل فرافق بعضهم جيش الصحراء وهم: الملازم اول السيد افندي ماجد (ميرالاي الآن) ومعهُ ١٨ نفر من الطوبجية فرافقوا جيش الصحراء وحضروا واقعة ابي طليح ٠ والملازم ثاني مرسي افندي فهمي (بكباشي الآن) والملازم ثاني ابراهيم افندي صادق (بكباشي الآن) ومعهم ٤٠ عسكرياً من المشاة فخدموا مع حملة الجمال ٠ ورافق بعضهم جيش النيل وهم: اليوزباشي حسن افندي رضوان (لوا باشا الآن) والملازم ثاني محمد افندي محمود (ميرالاي الآن) والملازم اول احمد افندي حافظ (قائمقام الآن) واليوزباشي محمد افندي حامد ومعهم بطارية من الطوبجية فيها ١٥٠ رجلاً و ٦ مدافع ٠ وبلوك هجانة فيهِ ١٠٠ رجل و ٤ ضباط و ١٨ رجلاً من الفرسان ٠ وبقي بعضهم مع اللورد ولسلي في كورتي وهم: اليوزباشي اسماعيل افندي همت (بكباشي الآن) وقسم من الفرسان والملازم ثاني موسى افندي حموده (صاغ الآن) وبعض المشاة ٠ فعاد الكل مع الانكليز الى الحدود المصرية

وممن رافق هذه الحملة من الموظفين السوريين فامتازوا فيها بحسن الخدمة ولا يزالون في خدمة الجيش الى الآن: ملحم بك شكور سكرتير الجنرال غرنفل والآن سكرتير عربي السردار ٠ وسليمان افندي ناصيف سكرتير قومندان عموم السواري والآن سليمان بك رئيس قلم في رئاسة الجيش المصري ٠ وشاهين افندي جرجس مترجم مدير المهمات والآن شاهين بك سكرتير عربي السردار ٠ والدكتور سليم موصلي والآن الميرالاي موصلي بك من كبار اطباء الجيش ٠ وشاكر افندي الخوري مترجم صراف الحملة العام والآن شاكر بك مترجم جيش الاحتلال العام ٠ ومنهم المستر ادوارد فنديك نجل الدكتور فنديك الشهير سكرتير قلم المخابرات ٠ والاستاذ جبر ضومط ٠ ونجيب افندي ابكاريوس وكثيرون غيرهم ممن تركوا خدمة الجيش

ومن الموظفين المصريين الملكيين الذين امتازوا في هذه الحملة ولا يزالون في خدمة الجيش المصري الى الآن: نخله افندي تادرس مترجم تشيلات الجيش الانكليزي

والآن وكيل قلم في ادارة سكرتير مالي السودان • وابرهيم افندي زيدان مترجم قومندانية حلفا والآن في رئاسة الجيش بمصر • وعبد الباقي افندي صالح كاتب بالنزلات والآن في ادارة سكرتير مالي الحربية • وغبريال افندي جرجس كاتب وصراف السردارية والآن في قومندانيـة حلفا • ويعقوب افندي صبري كاتب الاورطة التاسعة السودانية والآن في ادارة التعيينات • ومحمد افندي محمد كاتب عموم السواري والآن في ادارة سكرتير مالي الحربيـة • وحبيب افندي بطرس مترجم تشهيلات الجيش الانكليزي والآن في ادارة الطوبجية بالقلعة • وبشاره افندي حنا مترجم في بوسطة الجيش والان في ادارة المهمات بالقلعة • وروفائيل افندي جرجس كاتب العربان المتحابة بكورسكور والان كاتب وصراف قومندانية اصوان • وعبد الله افندي ميخائيل مترجم السواري الانكليزي والان مترجم في قومندانية شندي • والسيد افندي حسين كاتب في السردارية والان كاتب في القرعة العسكرية

ومنهم احمد افندي حلمي مترجم رئاسة الوابورات والان في شركة التلغرافات الشرقية الانكليزية بالسويس • ومحمد افندي شيخون باشكاتب الاورطة الرابعة • ومكارم افندي ضيف باشكاتب الاورطة السادسة وكلاهما الان من ارباب المعاشات وكثيرون غيرهم ممن تركوا خدمة الجيش أو توفاهم الله

و بعد انحلال الحملة النيلية استقال السر افلن وود فسمي الجنرال غرنفل سردارًا للجيش المصري مكانهُ وسمي الجنرال بتلر قائدًا للعساكر الانكليزية على الحدود فجعل كوشه آخر الحدود المصرية و بنى فيها طابية و بنى طابية في مغركة وأخرى في عكاشه واستمر العمل في سكة حديد عكاشة الى ان تمت في ٧ اوغسطوس سنة ١٨٨٥

﴿ اقارب المهدي بدنقله ﴾ وكان قلم المخابرات بعد ان استقرَّ العساكر في منازل الصيف قد التفت الى اقارب المهدي بدنقله فقبض على جماعة منهم وهم محمد عبد القادر وشريف ساتي علي ومحمد ابراهيم واحمد النجيب وحاج شريف محمد نور وحاج شريف محمود وعبد القادر عبد الكريم وسألهم ان يكتبوا الى المهدي كتابًا يسألونهُ اطلاق الاوربيين وغيرهم من رجال الحكومة الذين في اسره فديةً لهم

فكتبوا اليه بذلك . فكتب المهدي الى الجيش كتاباً هذا نصهُ بعد البسملة :

« و بعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبد الله الى وكيل الاورد وازلي وكافة عساكرهِ . اعلموا ان الله تعالى قادر قاهر لا يخفاهُ شيء في الارض ولا في السماء واذا اراد شيئاً قال لهُ كن فيكون وهو مالك الملك ذو الجلال والاكرام ولما اظهرني لتأييد دين الاسلام أيدني بملائكتهِ وجنودهِ واوليائهِ و بقذف الرعب في قلوب اعدائي ووعدني بالنصر عليهم وتملك جميع الارض ولا يثبت لقتالي انس ولا جن وقد كنت قبل ذلك رجلاً ضعيفاً فأيدني الله من عنده واظهر أمري واهلك من كذّبني من اعداء الله الترك وغيرهم ولا يخفى عليكم ما حصل على جرداتهم التي اعدُّوها بالاسلحة والجباخين ووجهوها لقتالي من القتل والاسر والاحراق بالنار لمن قتل بسببي وقد رأيتم امتلاكي لحصونهم في السودان وتحققتم ما صار اليهِ أمري من القوة بالله والمنعة ولا زال يزداد الى ان يتكامل لي ملك جميع الارض باذن الله تعالى . وحيث فهمتم ذلك فأنيبوا الى الله يا عباد الله واجيبوا داعيهِ فاني ادعوكم الى الايمان بالله ورسولهِ والتسليم بامر المهدية اسلموا تسلموا يؤتكم الله اجركم مرتين ويا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك بهِ شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فانكم ان أسلمتم وأنبتم الى ربكم تكونوا من اخواننا في الله لكم ما لنا وعليكم ما علينا ونحفظ دماءكم واموالكم وعروضكم وتنالوا من الله يوم القيامة الذي لا ريب فيهِ كل خير تؤملونهُ فان هذه الدنيا لا بد من زوالها وانما الدار آخرة فهلموا اليها فانها دار القرار ومسكن الاخيار . وان ضربتم عن نصحنا هذا صفحاً و بقيتم على اختيار كفركم فاعلموا انهُ يحل بكم من النكال والوبال ما حلَّ بمن قبلكم كهكس وغوردن ولن تغنِ عنكم عِددكم من الله شيئاً وستعلمون غداً من الكذّاب هذا . وليكن بعلمكم انهُ قد ورد لنا خطاب من الجماعة الذين أسرتموهم في شأن القسيسين والافرنج والاقباط يلتمسون فيهِ ارسالهم اليكم لكي تفرجوا عنهم وما ذلك الا من باب حيلكم ومخادعاتكم التي لا تجدي نفعاً . وحيث ان هؤلاء الجماعة الذين هنا قد أنابوا الى الله ودخلوا في دين الاسلام فقد صاروا اكرم الى الله

وأعز عندنا من الجماعة الذين معكم وأسرتموهم ولا نرضى لهم الرجوع ليد الكفر بعد دين الاسلام كما أنهم لا يرضون ذلك ولا يمكن ارسالهم اليكم ولو قطعتم الذين بطرفكم أرباً أرباً وجميع ما أجريتموهُ عليهم فهو أقل من جزائهم وأنتم وهم اسوة عندنا ولا فرق فيما بينكم ولا بد من وقوعكم الجميع في قبضتنا باذن الله وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ان لم تنيبوا اليهِ وهذا انذاري اليكم والسلام على من اتبع الهدى »

قيل وقد جمع انصارهُ في الجامع فقرأ لهم الكتاب والجواب عليهِ وسألهم ان كان الجواب مناسباً فصاحوا كلهم باستحسانهِ فطواهُ وارسلهُ . وارسل معهُ كتاباً آخر الى اقاربهِ يقول لهم فيهِ « كنا سابقاً كاتبناكم بالهجرة الينا فما هاجرتم ورغبتم في مناولة الجيف ومن اراد ان يأخذ من الجيف فليصبر على عض الكلاب وسيجعل الله كيدهم في نحرهم وسيكونون قريباً في قبضتنا »

وكان الانكليز قد اخذوا اقارب المهدي معهم الى حلفا ؛ فلما وقفوا على ما قال لهم المهدي اطلقوا اقاربهُ واكرموهم واعطوهم رواحل وازواداً وكسوة وارجعوهم الى بلادهم . فاتوا الى المهدي في أم درمان واعتذروا لعدم مجيئهم اليهِ من قبل بسبب الجيش فقبلهم

﴿ حكومة دنقلة الجديدة ﴾ هذا وقبل ان اخلت الحكومة دنقلة رأت ان تنظم فيها حكومة وطنية موقتة لكي لا تتركها فوضى لا حاكم لها فاختارت لها حكاماً من سلالة ملوكها الذين حكموها قبل الفتح المصري فجعلت محمداً ولد كنيش الشايقي من البلل حاكماً على مروي . وسعيد محمد فرح من بقايا الفونج حاكماً على الدبة . والملك طنبلاً حاكماً على ارقو ودنقلة . والشيخ محجوباً كبير المرغنية في بلاد سكوت حاكماً على سكوت والمحس . ولكن ما برح الانكليز دنقلة حتى احتلها الدراويش غنيمة باردة كما سيجيء وبادت الحكومة الجديدة من نفسها . اما محمد ولد كنيش فانهُ حال خروج الانكليز من بلادهِ ذهب الى ام درمان فبايع المهدي وعاد مع الجيش الذي اتى لاحتلال دنقلة وحارب معهم في واقعة جنس كما سيجيء . وانضم اليهم ايضاً سعيد محمد فرح حاكم الدبة . واما الملك طنبل فانهُ ما وصل الدراويش دنقلة حتى فرَّ بعائلتهِ ولجأ بالجيش فانزلهُ في الشلال . واما الشيخ محجوب فانهُ بقي في بلدتهِ كويكة الى ان

اتى الدراويش فقبضوا عليهِ وارسلوهُ الى الخليفة في ام درمان فاساء معاملتهُ فمات قهراً. وقد أسروا ابنهُ الشيخ ادريس معهُ فبقي الى ان ارسلهُ الخليفة في حملة النجومي ففرّ منها واعلم الحكومة بحالهِ بعد واقعة طوشكي فارسلت اليهِ جمالاً فنجا بعائلة ابيهِ واهلهِ الى حلفا. و بقي فيها خادماً للجيش الى ان عادت الحكومة الى السودان فعاد الى بلادهِ

الفصل العشرون

عودٌ الى

عثمان دقنه والثورة في سواكن سنة ١٨٨٥

حملة جراهم الثانية الى سواكن سنة ١٨٨٥

تقدم ان اللورد ولسلي لما اقرَّ على فتح بربر بعد سقوط الخرطوم سأل حكومتهُ ارسال قوة انكليزية الى سواكن لسحق عثمان دقنه ومدَّ سكة حديدية في طريق سواكن الى بربر فأجابتهُ الحكومة الى طلبهِ . وفي ١٧ فبراير سنة ١٨٨٥ عقدت اتفاقاً مع احدى شركاتها لمدّ سكة الحديد المطلوبة وفي ٢٠ منهُ ندبت الجنرال جراهم قائد الحملة الانكليزية الاولى الى سواكن ليقود حملة ثانية اليها فوصلها في ١٤ مارس سنة ١٨٨٥ وكان في سواكن اذ ذاك من الجنود ١٠٩ ظباط و٢٥٢٦ عسكرياً و١٨٧ جواداً و٢٨ بغلاً و٣٣٩ جملاً و٦٣ تابعاً فأخذت الحكومة الانكليزية تحشد اليها الجنود من مصر والهند واستراليا و بلاد الانكليز حتى اجتمع فيها تحت قيادة الجنرال جراهم ١٣٠٠٠ مقاتل من فرسان ومشاة وطوبجية ومعهم كلما يلزمهم من الجمال والدواب والمؤن والذخائر

وجاء مع الجيش جماعة من العارفين بركوب البالون ومعهم بالون ولكن الرياح العالية المتغلبة في تلك الجهات منعت استعمالهُ . وكان عثمان دقنه لما بلغهُ خبر قدوم الجنرال جراهم الى سواكن بعث اليهِ بكتاب يتهدّدهُ فكتب اليهِ الجنرال جراهم ينصحهُ بالتسليم ويحذرهُ من التمادي في الطغيان فلم يجبهُ

﴿واقعة تل هشيم في ٢٠ مارس سنة ١٨٨٥﴾ وكان عثمان دقنه اذ ذاك معسكراً في تماي ومعهُ نحو ٥٠٠٠ مقاتل ولهُ جيش آخر فيهِ نحو ٣٠٠٠ مقاتل في تل هشيم على ٧ اميال من سواكن وجيش صغير في طوكر فأقرّ الجنرال جراهم على سحق قوة هشيم قبل التقدم على تماي . ففي صباح ١٩ مارس خرج ببعض الفرسان والمشاة فاستكشف التل وعاد الى المعسكر . وفي اليوم التالي ٢٠ مارس تقدم الى هشيم بالقوة الآتية من الفرسان والمشاة الهندية والانكليزية وهي : ٣٠٦ ضباط و٧٨٨٦ عسكرياً و٣١٧ تابعاً و١١٩٢ حصاناً و٢١٠ بغال و٧٣٥ جملاً و١٠ مدافع فوصل تل هشيم الساعة ٩ ½ صباحاً واحاط بالدراويش من كل جانب واشعل فيهم النار فثبتوا لهُ ودامت الحرب نحو خمس ساعات ثم انهزم العرب الى عثمان دقنه بعد خسارة جسيمة واحتل جراهم التل فجعل فيهِ نقطة عسكرية ورجع الى سواكن وكانت خسارتهُ في ذلك اليوم من القتلى ضابط و٨ عساكر ومن الجرحى ٣ ضباط و٣٦ عسكرياً

﴿واقعة توفرك في ٢٢ مارس سنة ١٨٨٥﴾ ثم اخذ يتهيأ للزحف على عثمان دقنه في تماي فرأى ان يؤسس نقطة اتصالية في الطريق بين سواكن وتماي يجعلها مخزناً للزاد والماء اللازم للحملة . فلما كان ٢٢ مارس أخرج سرية من جيشهِ ببعض المدافع بقيادة الكولونل مكنيل وأمرهُ بان يسير في طريق تماي حتى يكون على ثمانية اميال من سواكن فيبني ثلاث زرائب واحدة تسع ٢٠٠٠ جمل وواحدة عن يمينها واخرى عن يسارها تسع كل منهما أورطة من العساكر وبعد اتمام الزرائب يجعل فيها المدافع وقسماً من العساكر ثم يرجع بالقسم الآخر فيبني زريبة في وسط الطريق بين تلك الزرائب وسواكن فيجعل فيها أورطة ويرسل الباقي الى سواكن

وكان عثمان دقنه عالماً باستعداد الانكليز لمهاجمتهِ فلما رأى سرية الكولونل مكنيل ظن ان الجيش كلهُ زاحف عليهِ فدق طبل الحرب وخرج لملاقاتهِ بجميع انصارهِ . فلما سار الكولونل مكنيل خمسة أميال عن سواكن حتى رأى ان تقدمهُ الى الميل الثامن فيهِ خطر وان جهد ما تسمح لهُ الاحتياطات العسكرية التقدم الى الميل السادس وكان يمد خط التلغراف من سواكن ليبقى متصلاً بها فارسل تلغرافاً الى الجنرال جراهم يعلمهُ

بالحالة ويبين لهُ رأيهُ فصدّقهُ فسار الى الميل السادس ونزل في خور يعرف باسم « توفرك » وباشر بناء الزرائب ولكن قبل ان يتمها جاءت الطلائع واخبرتهُ بقرب الدراويش فأمر بترك العمل في الحال والاستعداد للدفاع وما انتظم العساكر في اماكنهم حتى كان الدراويش قد صاروا على مرمى الرصاص ففتحوا عليهم افواه البنادق والمدافع فلم يبالوا بها بل هاجموا مستقتلين حتى اختلطوا بالعساكر واعملوا بهم السيف والحربة فدافع الجنود احسن دفاع حتى قيل ان احد الجنود الهندية تصدى لهُ ثلاثة من الدراويش فضرب كلاً منهم ضربة بالسيف فقتلهُ . وكان هجوم الدراويش الساعة ٣ الا ١٠ دقائق فانهزموا الساعة ٣ والدقيقة ١٠ وكانت خسارة الدراويش لا تقل عن ١٥٠٠ قتيل واما خسارة الجيش فمن العساكر الانكليزية ٦٤ قتيلاً و٦٣ جريحاً وفقد ١٤ ومن العساكر الهندية ٥٣ قتيلاً و ٩٢ جريحاً وفقد ١٠ ومن الاتباع ٣٣ قتيلاً و ١٩ جريحاً وفقد ١٢٤ ومن الجمال ٥٠١ فقتلوا او فقدوا

﴿ حملة الجنرال جراهم على تماي ٣ ابريل سنة ١٨٨٥ ﴾ وبعد انهزام الدراويش عاد الكولونل مكنيل الى بناء الزرائب فاتمها الساعة ٧ مساء فشرع الجنرال جراهم في حشد العساكر اليها فاجتمع عندهُ في ٢ ابريل ٨١٧٥ رجلاً فسار بهم الساعة ١٠ من الصباح قاصداً عثمان دقنه فوصل تل تسلهاي على مقربة من تماي الساعة ½٤ بعد الظهر فرأى انهُ اذا هاجم يدخل الليل قبل انتهاء الواقعة فزرب زريبة بجانب التل وبات فيها ليلتهُ فجاء رجال عثمان ليلاً ورموهُ بالرصاص فاصابوا بعض رجالهِ ولكن العساكر فتحت عليهم افواه المدافع فصدتهم الى تماي

وفي الساعة ٨ من صباح اليوم التالي ٣ ابريل ترك الجنرال جراهم بعض العساكر في الزريبة لحفظ امتعة الحملة وسار بمعظم العساكر الى تماي فوجدها خالية فاحتلها الساعة ٩ صباحاً . وكان عثمان دقنه لما رأى كثرة الجيش أخلى معسكر تماي وتحصن في الجبال المجاورة لها وارسل كشافة يناوشون الجيش ويتقهقرون امامهُ الى الجبال التي تحصن بها ليبعدهم عن الماء ويحاربهم وهو في مركز حصين فسار الجنرال جراهم وراءهم مسافة قريبة ولما لم يرَ عثمان ورأى ان توغلهُ في الصحراء يعرضهُ الى العطش

رجع الى تماي فاحرق معسكر عثمان وعاد بالجيش الى سواكن في اليوم التالي

﴿ مدّ سكة الحديد ﴾ وبعد ان أتم جراهم الغرض الاول من الحملة وهو تشتيت شمل عثمان دقنه التفت الى الغرض الثاني وهو مدّ سكة الحديد الى بربر. وكان العمال قد بدأوا بمدّ الخط منذ ١٣ مارس ولكنهم لم يتقدموا فيهِ كثيرًا بل اعدوا المعدات اللازمة لمدهِ بعد انتهاء القتال. فلما انتهى القتال اجتهدوا في مد الخط حتى أتموهُ الى اوتاو في ٣٠ ابريل سنة ١٨٨٥

واراد الجنرال جراهم عقد معاهدة مع القبائل التي على طريق سكة الحديد لحماية السكة فأشرطت عليهِ الا تترك الجنود سواكن كما تركتها في السنة التي قبلها بل تبقى فيها لحمايتهم من عثمان دقنه فأرسل الجنرال جراهم تلغرافًا الى حكومتهِ في ٢١ ابريل سنة ١٨٨٥ بهذا الشأن وكان اللورد ولسلي اذ ذاك قد عدل عن فتح بربر كما مرّ فلم يعد أمر مد السكة الحديد وترك العساكر في حر سواكن من الضروري فأجابتهُ حكومتهُ بعدم عقدها

﴿ خروج العساكر الانكليزية من سواكن ﴾ ثم أقرت الحكومة على اخراج عساكرها من دنقلة كما مرّ فأمرت الجنرال جراهم بالخروج من سواكن فعاد منها بجملتهِ الى مصر في ١٧ مايو ١٨٨٥ وهجر سكة الحديد . وكان اهل بادية سواكن لما رأوا ما حلّ بهم من النكال والضيق في محاربة الانكليز تفرقوا الى بلادهم ومراعيهم ولم يبقَ مع عثمان دقنه الا نفر قليل . فلما خرج الانكليز من سواكن عاد عثمان دقنه الى حث الاهلين على الجهاد مبينًا لهم ان الانكليز انما فروا من سطوة المهدية وان لا قدرة لهم على مناوأتها فالتف حولهُ جمع كبير من الهدندوة والامارار وعاد الى تماي (تسلهاي) وبقي فيها الى ان سلمت كسلة للدراويش فذهب اليها بأمر الخليفة كما سيجيء. ولنتقدم الآن لنرى ما كان من امر كسلة وسائر الحاميات التي الى جنوبي السودان الشرقي على حدود الحبشة وفي جملتها بلاد مصوع وهرر وذلك منذ بدء الثورة فنقول :

الفصل الحادي والعشرون
في
﴿ تاريخ الثورة في بلاد كسلة ﴾

﴿ وفيه ذكر حاميات كسلة والقضارف والقلابات والجيرة واميديب وسنهيت ﴾
﴿ مع ذكر محافظتي مصوع وهرر ﴾

﴿ تسليم القضارف الاثنين في ٢٤ جمادى الاخرة سنة ١٣٠١هـ ٢١ ابريل سنة ١٨٨٤م ﴾

﴿ الامير الحسين عبد الواحد ﴾ تقدم ان المهدي سمى عثمان دقنه سنة ١٨٨٣ عاملاً عاماً على بلاد البجة بين البحر الاحمر والاتبرة اي على بلاد سواكن والقسم الاكبر من كسلة فبقيت البلاد الواقعة بين النيل والاتبرة فسمى الحسين عبد الواحد من ذرية الشيخ الطيب عاملاً عليها واصحبهُ ثلاثة امراء وهم الطاهر محمد تاتاي وعبدالله الطريفي الجعلي والسماني ود احمد. وكان الحسين عارفاً احوال تلك الجهات لانهُ كان مقيماً قرب « تبارك الله » على الاتبرة فسار برفاقهِ حتى اتى القلعة أرانج من مراكز الشكرية فجمع اهلها وزحف بهم على مركز القضارف وكان فيهِ محمد باشا اغا ابو زبد من سواري المغاربة على ٢٠٠ رجل ومدفعين ومعهُ محمد بك بن عوض الكريم باشا ابو سن مأموراً من قبل الخرطوم وجماعة من التجار والمتسببين من اروام ووطنيين فارسل اليهم كتاباً اتى بهِ من عند المهدي وكتاباً من عندهِ يدعوهم الى الطاعة ويعدهم بحفظ مالهم وسلامتهم فاجتمعوا وتشاوروا في الامر فاقروا على التسليم وسلموا الاثنين في ٢١ ابريل سنة ١٨٨٤ ؛ فاخذ الحسين جميع ما في مخازن الحكومة من الاسلحة والذخائر ثم جمع بضائع التجار وادخلها بيت مالهِ خلافاً للوعد واجبر النصارى على الاسلام وقطع خط التلغراف بين القضارف والقلابات

﴿ حصار القلابات وانقاذها سنة ٤ : ١٨٨٥ ﴾

ثم تقدم لاخذ القلابات فمرَّ بالتومات فوجد فيها محمود بك زايد شيخ الضباينة فسلمهُ كتاباً من المهدي باسمهِ فسلم اضطراراً . ودعا عرب الحمران في

تلك الجهة الى الطاعة فسلم لهُ قسم منهم بقيادة الشيخ عمر ود الكردي وعصاهُ القسم الآخر بقيادة الشيخ العجيل فحارب الدراويش في كسلة كما سيجيء ٠ ثم تقدم الى « الصوفي » فوجد فيها الجعليين سلالة الملك نمر الذين تقدم انهم صالحوا الحكومة ايام موسى باشا سنة ١٨٦٦ وعليهم الامير خالد فانضموا اليهِ ٠ واستطرد السير الى دوكة فسلم لهُ الشيخ عجيب ودالنيسي وكيل الشيخ محمود ود زايد ٠ وكان في دوكة ٢٠ عسكريًا عليهم محمود اغا محمد التركي فسلموا لهُ اضطرارًا ٠ وانضم اليهِ ايضًا اولاد الشيخ مريود من مشايخ العراكيين وبذلك دانت لهُ معظم القبائل العربية التي بين الاتبرة والنيل

وكان للحكومة في تلك الجهة حاميتان : المتمة عاصمة القلابات والجيرة فاهتم بأخذهما ٠ اما المتمة فكان فيها اذ ذاك صالح بك ادريس المار ذكرهُ ومعهُ من خاصة اهلهِ التكارنة ٤٠٠ فارس و١٠٠٠ راجل عدا اهل الدار الذين بلغ عددهم ٢٠٠٠٠ نسمة ٠ وفي المتمة طابية حصينة فيها ٤٠٠ من العساكر الباشبوزق النصف فرسان والنصف مشاة بقيادة السر سواري محمد بك السيد و ٢٠٠ من العساكر السودانية و ٤٥ من الطوبجية و١٢ مدفعًا بقيادة الصاغ محمد افندي رياض والكل بقيادة البكباشي محمد افندي سرّي ٠ فكتب الحسين عبد الواحد من دوكه الى صالح بك يدعوهُ الى التسليم فاجابهُ في غرة رجب سنة ١٣٠١ هـ ٢٧ ابريل سنة ١٨٨٤ م مخادعًا لهُ : « اني انا واهلي التكارنة مسلمون للمهدي ولكن العساكر الذين يدهم الحامية غير مسلمين فامهلوني ريثما ادبر الحيلة للخلاص منهم » ٠ وكان الاوان اذ ذاك اوان الامطار وبلاد القلابات مغمورة بالمياه ولا يمكن الحسين عبد الواحد مهاجمتهم قبل انقطاع الامطار فاستشار المهدي في شأنهم فقبل المهلة ٠ ثم سار الى الجيرة كما سيجيء فوجدها حصينة والامطار تمنعهُ من حصرها فعاد الى دوكة في صدد القلابات

وقد اطلعت على كتاب منهُ الى الشايقية الذين في حامية القلابات بتاريخ ٣٠ القعدة سنة ١٣٠١ هـ ٢١ سبتمبر سنة ١٨٨٤ يقول فيهِ :

« ٠٠٠ وانكم ممن يظن بالصداقة والاخلاص عندنا دون غيركم بسبب ما بلغنا من اخباركم بانكم مسلمون ومتبعون الامام المهدي ٠٠٠ وايضًا يا احبابنا

لا تقطعوا عنـا مادة الجواب ... والمأمول المقابلة معنا في اي مكان والسلام »

وكتب صالح بك الى غوردن في الخرطوم بتاريخ ٢٢ سبتمبر يعلمهُ بحالهِ بما مفادهُ : « انا محاطون بالاعداء من كل الجهات : الشكرية والضباينة والجعليين من جهة دوكة والحمدة ... من جهة الرهد ولكننا لا نزال ثابتين على الحصار ولا نحسب لهم حساباً فان الله ناصرنا والامل الجواب على كتابنا مع الرسول ونحن لم نكتب لكم قبل الآن لعدم الامان في الطريق وقد قتـل الضباينة اثنين من رسلنا في طريق التمرقو (جبل بين دوكه والتومات) ومع ذلك فلا زلنا نواصل مركز كسله بالمكاتبات »

﴿ واقعـة مربود في ٧ نوفمبر سنة ١٨٨٤ ﴾ وبقي الحسين محاصرًا في دوكه حتى انقطعت الامطار فكتب الى صالح بك يطالبهُ بالوعد فعاد صالح بك الى المخادعة فسألهُ مهلة ٣ اشهر اخرى وبعث لهُ بسريَّة وقنطارين بنًّا وحمل عسل وخمساية ريال هدية فتيقن الحسين اذ ذاك انهُ يخادعهُ فصمم على حربهِ فقسم جيشهُ قسمين قسماً ذهب بهِ لحصر الجيرة وقسماً ارسلهُ لقتال القلابات فهاجم رجال هذا القسم سرف سعيد فنهبوها وتقدموا لحصر المتمة فأمر صالح بك اخاهُ عثمان فخرج عليهم بستماية رجل من اهلهِ وصحبـهُ السر سواري محمد بك السيد بفرسانهِ فالتقوهم عند تل بين سرف سعيـد ومربود يوم الجمعة في ١٨ محرم سنة ١٣٠٢هـ ٧ نوفمبر سنة ١٨٨٤ م فارتقوا الى التل وصبوا عليهم نارًا حامية حتى هزموهم الى الحسين وقتلوا منهم نحو ٧٠٠ رجل وفيهم اثنان من اولاد الشيخ مربود قيل ان اكبرهما دفع الله كان حاملاً الراية فلما قتل حملها اخوهُ محمد فقتل فحملتها امهما فقتلت وقتل من العساكر ٦٢ رجلاً

﴿ النور فقرا وواقعة قدَبي في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨٤ ﴾ هذا وكان من جملة انصار المهدي في تلك الجهـة رجل من الجبرته (مسلمي الحبشة) يُدعى النور فقرا هاجر الى المهدي في كردوفان فبايعهُ وعاد منهُ اميرًا فجمع نفرًا من الضباينة ونزل بهم على قدبي من حلالات التكارنة ففزع اهل قدبي الى صالح بك فجهز الف فارس و٢٠٠ رجل من اهلهِ ومتطوعي الشايقية واستنصر الاحباش فأتاهُ الراس دهنشوم فته بنحو ٨٠٠٠ مقاتل وزحف الجيشان في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨٤ على ود فقرا في قدَبي فقتلا

من جيشهِ ٧٠٠ رجل وزيادة وفيهم الجبّار وعمر واحمد ود عايس من مشايخ الضبانية وجرحاهُ جرحاً بالغاً ففرّ من بقي من جيشهِ الى الحسين في حصار الجيرة ٠ وعاد الاحباش الى بلادهم بالاسلاب والغنائم وقد قتل منهم نحو ٧٠ رجلاً وعاد صالح بك الى المتمة ولم يقتل من جيشهِ احد

﴿ واقعة زُرقه في ١٠ ديسمبر سنة ١٨٨٤ ﴾ وبعد هذه الواقعة بقليل نزل الحمدَة بقيادة الرضى ابي ريش و بني حسين البقارة بقيادة محمد ماجوق على زرقه من ارض القلابات فقتلوا وسبوا وغنموا فخرج عليهم صالح بك بسرية من جيشهِ فالتقاهم في خور القنا قرب زرقه في ٢١ صفر سنة ١٣٠١هـ ١٠ ديسمبر سنة ١٨٨٤ وأوقع فيهم واقعة شديدة وقتل واسر منهم خلقاً كثيرًا وكان في جملة القتلى الرضي شيخ الحمدة وفي جملة الاسرى امرأة الرضي و ١٤٠ نفساً

وبقي الحسين على حصر الجيرة حتى وقع الخلاف بينهُ وبين امرائهِ فرفعوا الامر الى المهدي فخطأ الحسين وبعث في طلبهِ في ٧ ربيع الاول سنة ١٣٠٢ هـ ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٤ م ٥ وكان عند المهدي في الرهد رجل من تكارنة القلابات يسمى محمد ود ارباب فأرسلهُ اميرًا على القلابات فأتى اليها وحشد الرجال وحصرها من الشمال الغربي وبقي الطريفي على حصار الجيرة

﴿ انقاذ حامية القلابات في ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٥ ﴾ هذا وكانت الحكومة في مصر عالمة بحصر الحاميات على حدود الحبشة ولكن لم يمكنها انقاذها فطلبت الى الملك يوحنا ملك الحبشة ان يساعدها على ذلك فتعطيهُ المراكز نفسها بما فيها من الاسلحة والذخائر ٠ وقد ارسلت اليهِ الاميرال هيوت وماسون بك منذ شهر يونيو سنة ١٨٨٤ للمفاوضة معهُ رسميًا في هذا الشأن فأقر الملك يوحنا على انقاذ القلابات اولاً وندب لهذه المهمة قائدهُ دهنشوم فته ٠ وندب لها الكولونل تشرمسيد باشا (محافظ سواحل البحر الاحمر في ذلك العهد كما مرّ) القائمقام سعد بك رفعت (ميرالاي الآن) بالنيابة عن الحكومة المصرية فخرج من مصوع بخمسة وعشرين من الباشبوزق في ١٨ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ وأتى الملك يوحنا في عدوة فصدر امر الملك الى دهنشوم

فسار معهُ بخمسة عشر الف مقاتل الى القلابات فوصلاها في ١٢ فبراير سنة ١٨٨٥ فوجدا الدراويش قد حصروها من جهة السودان بامارة محمد ود ارباب كما مرَّ فطردام الى سرف سعيد وجعلا الجيش بينهم وبين المتمة ثم شرعا في إخلاء الحامية فبلغ عدد المهاجرين من عساكر الحكومة ورجال صالح بك نحو ٣٠٠٠ نفساً فسلم سعد بك الاسلحة والذخائر الى دهنشوم وخرجا بهم كلهم من المتمة السبت في ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٥ واتيا قندر فتأخر فيها صالح بك ورجالهُ وذهب سعد بك مع دهنشوم الى الملك يوحنا فشكر لهُ سعيهُ فأهدى اليهِ الملك بغلتين بسرجين من الفضة ودرقة مذهبة وانعم عليهِ بلقب دجازماتش واصحبهُ كتاباً الى جميع البلاد التي في طريق مصوع لمساعدتهِ على السفر فأخذ سعد بك العساكر من قندر وسار الى مصوع بخفر من الاحباش فاكرمهُ اهل البلاد التي مرَّ بها اعظم اكرام وقدموا لهُ كل ما لزمهُ من الزاد والماء والركائب حتى وصل مصوع في آخر مايو سنة ١٨٨٥ فسمح لاكثر الباشبوزق بالبقاء في مصوع واخذ الباقي وهم ٦٧٠ نفساً الى مصر وفيهم السر سواري محمد بك السيد ٠ وتقدم محمد ود ارباب بجيشهِ من سرف سعيد واحتل القلابات يوم الخميس في ٥ مارس سنة ١٨٨٥ اي بعد خروج الحامية منها بخمسة ايام وسنعود الى ذكرهِ

حصار الجيرة وانقاذها سنة ٤ : ١٨٨٥

الجيرة طابية حصينة على حدود الحبشة وهي مبنية بالحجر الصلب على اكمة مرتفعة على بحر ستيت وكان فيها في بدء الثورة اورطة من العساكر السودانية بقيادة البكباشي فضل الله افندي حبيب فذهب ٥ بلوكات منها نجدة الى سنار كما مرَّ وبقي فيها ٣ بلوكات وبطارية طوبجية و ٣ مدافع ثم ذهب نصف بلوك الى كسلا لجلب رواتب العساكر وكساويهم فحُصروا فيها ولم يرجعوا كما سيجيءُ وحُصر الباقي في الطابية منذ مايو سنة ١٨٨٤ ٠ وقد اطلعت على كتاب ارسلهُ البكباشي فضل الله قومندان الطابية الى حاكم مصوع بتاريخ ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٨٤ يصف فيهِ حصارهُ بما مفادهُ :

« جاءنا الشقي الحسين عبد الواحد منذ مدة وحصرنا بثمانية آلاف رجل ودعانا الى التسليم فرددناهُ بالخيبة وقد سبقت فأخبرتكم بذلك وسألتكم المدد وكنت ارجو

ان يصلني في شهر فخاب رجائي والآن ارسل اليَّ المهدي كتاباً يدعوني بهِ الى التسليم لاحد امرائهِ القريبين كعبد الله احمد ابي سن أو محمود زايد وارسل اليَّ امراؤهُ ايضاً عدة تحارير بهذا المعنى وانا لا ازال اخادعهم واطاولهم حتى يأتيني المدد. وفي ٧ نوفمبر عاد الحسين عبد الواحد ومعهُ الطاهر ود تاتاي وعبدالله ود الطريفي وتميمي احمد ومحمود ود زايد وأعادوا طلب التسليم مني فسألتهم فرصة شهر آملاً وصول المدد وأرسلت رسلاً الى معسكرهم لاتجسس احوالهم فعاد الرسل بكتاب منهم يقولون فيهِ: «اذا لم تسلموا بالرضى نأخذكم بالرغم» فلم نجبهم وعقدنا النية على الثبات الى ان تأتينا النجدة وهم الآن يهاجموننا كل يوم وقد انقسموا فريقين فريقاً لقتالنا وفريقاً لحصرنا واصبح مركزنا من احرج المراكز. نعم ان الطابية حصينة ولكن العساكر قليلون كما تعلمون لذلك ارجو ان تسرعوا بارسال المدد ولو اورطتين تأتيان بطريق الحمران

﴿ انقاذ الجيرة في ٨ يوليو سنة ١٨٨٥ ﴾ وكانت الحكومة تسعى مع الحبشة في انقاذ جميع الحاميات التي على حدود الحبشة كما مرَّ فكتب اليهِ حاكم مصوع في الجواب: « ان الحبشة آتون لانقاذكم قريباً فاخلوا لهم الطابية وسلموهم الاسلحة والذخائر وهم يأتون بكم الى مصوع ». فارسل فضل الله افندي الملازم ابراهيم افندي حزين بكتاب الى الملك يوحنا في دبر تابور فجاءهُ جيش جرار بقيادة دجاج تسمَّى . وكان امراء الدراويش اذ ذاك في خلاف كما مرَّ فلما رأوا الاحباش في عدد عظيم تفرقوا ودخل الاحباش الجيرة في اوائل يوليو سنة ١٨٨٥ واستلموا ما كان فيها من الاسلحة والذخائر وكان فيها من الاسلحة: ٣٠٠ بندقية رامنتون و٦٠٠ بندقية بالكبسول و٣ مدافع وساروخ . وفي ٢٥ رمضان سنة ١٣٠٢ هـ ٨ يوليو سنة ١٨٨٥ خرجوا بالحامية الى «غبطة» فاقام العساكر هناك سبعة اشهر بسبب الامطار وامتلاء الانهر فلما انقطعت الامطار وانفتحت الطرق أتى مندوب من طرف ملك الاحباش فاخذهم الى مصوع فوصلوها في اوائل فبراير سنة ١٨٨٦ ومنها ارسلوا الى مصر

تسليم مصوع للتليان في ٦ فبراير سنة ١٨٨٥

اما محافظة مصوع فانها سُلمت للتليان منذ ٦ فبراير ١٨٨٥ وعادت حاميتها الى مصر

اخلاء أميديب في ١٠ ابريل سنة ١٨٨٥

واما اميديب فقد كان فيها اورطة من العساكر بقيادة الصاغ عبد الله افندي سالم و١٠٠ رجل من الباشبوزق بقيادة حسن اغا التوم فعادت بطريق سنهيت الى مصوع فوصلتها في ١٠ ابريل سنة ١٨٨٥

اخلاء سنهيت في ١٩ ابريل سنة ١٨٨٥

واما سنهيت فقد كان فيها اورطتان من العساكر وفيها خسرو باشا قومندان شرق السودان فسلم سنهيت للحبشة وخرج منها الى مصوع فوصلها في ١٩ ابريل ١٨٨٥

وقد كان في وسع هذين الحاميتين الرجوع الى مصوع قبل ذلك بزمان لان الثورة لم تمتد اليهما ولكن ظُنّ ان بقاءهما يساعد على اخلاء كسلة فلما وُجد ان اخلاءها ورفع الحصار عنها يستلزمان تجريدة قوية امرت الحكومة فرجعتا الى مصوع

اخلاء هرر وزيلع وبربرة في ١٣ مايو سنة ١٨٨٥

ثم ان قرار الحكومة على اخلاء السودان لم يستثنِ محافظة هرر شرقي الحبشة لا سيما وان حفظها كان يستلزم نفقات جمة ومشقات جسيمة. فندبت لذلك رضوان باشا من الجيش المصري والماجور هنتر من الجيش الانكليزي في الهند . فخرج رضوان باشا من السويس في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ومعهُ ٥٠٠٠ جنيه لاخلاء المحافظة فوصل عدن في ٢٣ منهُ فوجد الماجور هنتر في انتظارهِ فذهب بهِ في اليوم التالي الى بربرة وقرأ لاهلها الامر العالي القاضي باخلائها ثم أتى زيلع فوضع الدراهم في خزينتها وارسل في البريد كتاباً الى محافظ هرر يعلنهُ بحضورهِ وعاد الى بربرة فباع ما امكن بيعهُ من اشياء الحكومة بالمزاد العلني ثم سلمها الى قنصل الانكليز فيها وسار منها في ١٢ اكتوبر الى هرر ومعهُ اللفتننت بيتن الذي ناب عن الماجور هنتر وشرع في اخلاء الحامية فباع ما في المخازن الاميرية بالمزاد العمومي ونقد العساكر رواتبهم المتأخرة عن خمسة اشهر . وفي آخر اوكتوبر ارسل ١٠٠٠ رجل ثم في وسط نوفمبر ارسل ٢٧٠٠ نفس ودفاتر الحكومة . وفي ١٣ نوفمبر حضر الماجور هنتر ومعهُ ٤٠ الف رُبيّة وشرع مع رضوان باشا في تنظيم حكومة وطنية للبلاد فبنيا طابية جعلا فيها

٣٠٠٠ رجل من السومال حامية وسلحاهم بالبنادق وعلماهم كيفية استعمالها وعاد الماجور هنتر الى زيلع فوصلها في ١٥ فبراير سنة ١٨٨٥ ٠ وبقي رضوان باشا فعقد مجلساً اجتمع فيهِ ٥٦ من مشايخ هرر واعيانها وسألهم ان يختاروا من يولوهُ عليهم من سلالة الامراء الذين حكموهم قبل الاحتلال المصري فاختاروا عبد الله محمد عبد الشكور ٠ وفي ٢٥ ابريل قرأ رضوان باشا على الجمهور الامر العالي القاضي باخلاء هرر واعلن تولية عبد الله المذكور حاكماً عليها واطلق ٢١ مدفعاً اشعارًا بذلك ٠ وفي اليوم التالي اي ٢٥ ابريل خرج بباقي الحامية وهم ٦٥٠٠ رجل الى زيلع ٠ وبقي اللفتننت ييتن في هرر لحماية بعض التجار الاوربيين الى ١٣ مايو سنة ١٨٨٥ فسلّم مباني الحكومة وجنانها التي قدرت قيمتها بنحو ٧٤٠٠ جنيه الى الحاكم الجديد وعاد الى زيلع

وبقيت هرر بيد عبد الشكور لاينازعهُ فيها منازع الى بدء سنة ١٨٨٧م فزحف عليهِ منيلك ملك شوه (ملك الحبشة الآن) واخذها منهُ عنوة فاستعمل عليها الراس مكونن وعاد الى شوه ولا تزال بيدهِ الى اليوم ٠ وهكذا صارت هرر الى الاحباش وزيلع وبربرة الى الانكليز ٠ ولم يبقَ في السودان الشرقي الا حامية كسلة التي اضطرت الى التسليم بعد حصار طويل كما سيجيء

حصار حامية كسلة سنة ٤ : ١٨٨٥

﴿ بدء الثورة في كسلة في اوغسطوس سنة ١٨٨٣ ﴾ ما حرّك اهل كسلة ساكناً للثورة حتى قدم عثمان دقنه الى بلاد سواكن في اوغسطوس سنة ١٨٨٣ ووزع عليهم كتب المهدي فقام الكميلاب الهدندوة على جباره اغا الشايقي ونفر من الباشبوزق كانوا في بلادهم يشترون الابل لحملة هكس فحاربوهم مستبسلين وتملصوا منهم وأمّوا مركز كسلة حتى وصلوا بلاد السمرندواب الهدندوة فرحبوا بهم واظهروا اسفهم من فعل الكميلاب وامنوهم حتى ناموا عندهم ٠ وكان الكميلاب لا يزالون يطاردونهم فوصلوا ليلاً واتحدوا مع السمرندواب فانقضوا عليهم عند صلاة الصبح فقتلوهم وغنموا سلاحهم وكان في كسلة اذ ذاك راشد باشا كامل قومندان عساكر شرق السودان فخرج

بالف وخمسمائة رجل من نظامية و باشبوزق ونزل على السمرندواب فقتلهم عن آخرهم وتقدم لتأديب الكيلاب فهاج لذلك غضب محمد بك موسى ناظر الهدندوة ورفع الامر تلغرافياً للجناب العالي بمصر وقال ان فعل راشد باشا يهيج القبائل كافة فصدر امرهُ الى راشد باشا بالرجوع عن الكيلاب والعودة الى مصر وسمي محمد خسرو باشا قومندانًا على عساكر شرق السودان مكانهُ فاتخذ مركزهُ سنهيت

﴿ مصطفى هدل سنة ١٨٨٤ ﴾ وهدأت بلاد كسلة بعد ذلك اربعة اشهر حتى انتشر خبر هلاك هكس وجيشهِ في شيكان فتحفزَّ الاهلون للثورة وقام رجل يدعى مصطفى هدل قيل انهُ من الشرعاب الهدندوة وحرفتهُ صنع اسورة العاج للنساء ومسكنهُ الدقا مركز بني عامر وكانت لهُ علائق تجارية وودّية مع عثمان دقنه من قبل الثورة فلما بلغهُ خبر قيام عثمان في سواكن ذهب اليهِ و بايعهُ باسم المهدي فكتب اليهِ بالامارة على كسلة وامرهُ بجمع الهدندوة ومحاصرة حاميتها حتى تخضع لهُ فحمل كتاب عثمان واتى الى فلَّك مركز الهدندوة العام فوجد فيهِ احمد موسى شيخ مشايخ الهدندوة وحوًّا الحبشي وكيل محمد بك موسى ناظر الهدندوة فقرأ لهما كتاب عثمان دقنه ودعاهما للجهاد فلبيا الدعوة وجمعا لهُ جيشاً عظيماً من اهلها فزحف بهِ طالباً كسلة

وكان في كسلة اذ ذاك اورطة من العساكر السودانية المنظمة ونفر من الطوبجية معهم ١٨ مدفعاً وساروخين و بضعة ارادي باشبوزق وعلى الجميع فرج بك عزّاز التقلاوي وهو من الابطال المعدودين والمدير على كسلة احمد بك عفّت الشركسي المشهور بالحزم والعزم وجودة الرأي والكل في « استحكام » منيع بخندق وسور لهما خمسة ابواب وتسعة ابراج ومعهم بداخل الاستحكام نحو ٢٠٠٠ من التبع و ٢٠٠ من التجار و ٥٠٠ من اهل الزراعة ، وكان في الختمية جنوبي كسلة السيد محمد عثمان المرغني شيخ الطريقة المرغنية في السودان ومعهُ نفر من اتباعهِ وقد كتب اليهِ المهدي يدعوهُ للقيام بنصرتهِ فلم يجبهُ بل حذَّر انصارهُ من اتّباعهِ فكان الوحيد من مشايخ الدين في السودان الذي قاوم المهدية الى النهاية وكان اعظم سند لحامية كسله كما سيجيء

﴿ واقعة الجمّام في ١٢ فبراير سنة ١٨٨٤ ﴾ فلما وصل مصطفى هدل الجمّام على

٣ ساعات من كسلة كتب الى المدير يدعوهُ للتسليم فاجابهُ المدير « ارتدع عن غيك وفرّق القبائل الى اماكنها ولا تكن سبباً في سفك دماء المسلمين » . فردَّ مصطفى هدل كتابهُ بقولهِ « دع عنك هذا القول الهراء وسلم تسلم او استعد للحرب » .
فخرج لهُ اذ ذاك فرج بك عزاز بالف وخمسمائة مقاتل من نظامية و باشبوزق فالتقاهُ مصطفى هدل في ظاهر الجمام ودارت رحى الحرب بين الفريقين فدامت من الصبح الى ما بعد الظهر وقد فتك الرصاص بانصار مصطفى هدل فتكاً ذريعاً ولكنهم فازوا اخيرًا لكثرة عددهم ودخلوا وسط العساكر فاعملوا فيهم السيف والحربة وقتلوا منهم ٤٥٠ رجلاً فغنموا اسلحتهم واضطروا الباقين الى الفرار وذلك يوم الثلاثاء في ١٤ ربيع آخر سنة ١٣٠١ هـ ١٢ فبراير سنة ١٨٨٤ م

وكان الهدندوة يعتقدون ان من يقتل منهم في هذا الجهاد تحملهُ الحور العين الى الجنة كما وعدهم المهدي في كتبهِ فرأوا بعد الواقعة رجلاً منهم قد جرح جرحاً مميتاً وهو في حال النزع فتجمعوا حولهُ وسألوهُ هل ترى الحور العين مقبلة لتحملك الى الجنة فصاح بلغتهِ قائلاً « حورية كاكا حورية كاكا اي لا أرى الحور لا أرى الحور بل ارى نارًا توقد فيَّ فارفقوا بانفسكم واتركوا هذه الحرب وعودوا الى اهلكم »

اما المدير فانهُ لما عاد العساكر منهزمين من الجمام تحقق الامر وشرع في تقوية الاستحكام والاستعداد للدفاع فهدم حلالات الحلاقة والجعليين والشايقية والتكارنة خارج الخندق لينكشف ما حولهُ ثم عمق الخندق وجعل المدافع على الابراج التسعة واغلق بابين من ابواب السور وهما باب القاش و باب رجب بك وصفَّ العساكر على خط النار فوجدها غير كافية لحماية السور فجند ١١ اورديًا من المتطوعين وارسل في طلب المدد من الحاميات الاخرى فأتاهُ ٢٠٠ رجل من اميديب و١٠٠ من سنهيت و١٠٠ من القلابات وجاء ٢٥ رجل من الجيرة جاؤوا لاخذ رواتب العساكر فيها فحصروا معهُ كما مرَّ . وارسل السيد محمد عثمان الى القبائل التابعة لهُ فجاءهُ : شكرية الاتبرة وعليهم الشيخ عمارة ولد حمد ابو سن والشيخ ابراهيم ولد قلبوس . وشكرية القاش المعروفون بالنوايمة وعليهم ولد الفحل . و بنو عامر وناظرهم الشيخ علي بك

البخيت . والقادين جماعة الشيخ احمد حجاج . و بعض اهل سبدرات جماعة الشيخ علي نورين . وقسم من الحمران شياخة عجيل الحمراني المشهور . والحلاقة بقيادة عبد القادر بك محمد إيلة . وقد جاؤوهُ بخيلهم ورجلهم وآلات حربهم فكانوا نحو ١٠٠٠ فارس بالدروع واللبوس و٧٠٠٠ راجل * واما مصطفى هدل فانهُ بعد واقعة الجمام زحف بجيوشهِ الى قلوسيت على نحو عشرة اميال شمالي كسلة والقى الحصار على كسلة

﴿ الحسن ود حاشي وبلال السمرندوابي ﴾ وهناك «أتاهُ الحسن ود حاشي» من سكان قوز رجب «و بلال السمرندوابي» وكلاهما من فقهاء الهدندوة ومع كل منهما كتاب من المهدي بالامارة على اهلهِ

﴿ عماره ولد ضاوي وواقعة العُشَرة في مارس سنة ١٨٨٤ ﴾ ثم جاءهُ عماره ود ضاوي من فقهاء البوادرة الشكرية ومعهُ ايضاً كتاب من المهدي بالامارة على من يتبعهُ وكان عمارة المذكور صاحب مكر ودهاء فاستمال اليهِ الحسن ود حاشي و بلال السمرندوابي المذكوران فسلخهما عن مصطفى هدل وزحف بهما من قلوسيت الى توكرف على نحو ساعة من حصن كسله وهناك كتب كتاباً الى المدير في كسله وكتاباً الى السيد محمد عثمان في الختمية يدعوهما للتسليم فبعثا ينصحانهِ بالعدول عما هو فيهِ فلم يزدد الا طغياناً وأرسل جماعة من رجالهِ فقطعوا الطريق بين كسله والختمية وقتلوا وخرَّبوا . فتجرد لهُ المدير وجرَّهُ الى كمين على القاش بالقرب من جميزة العوض وجعلهُ بين نارين فقتل نحو الفين من رجالهِ وهزمهُ شر هزيمة الى قلوسيت وكانت الواقعة في شهر جمادى الاولى سنة ١٣٠١ هـ مارس سنة ١٨٨٤م وقد سميت بواقعة العشرة لانها وقعت عند شجرة كبيرة من العُشَر

﴿ واقعة الفقيه عيسى ﴾ وكان في جيش عمارة المذكور فقيه من التكارنة الفلاته يقال لهُ الفقيه عيسى كان هذا متوطناً في كسله قبل الثورة بخمسة وعشرين سنة وكان اهلها يعتقدون بهِ الصلاح والتقوى وهو يكره السيد محمد عثمان فجاء بجيش من قلوسيت لاخذ الثار فرأى بعض نساء خارجات من الختمية من زيارة السيد محمد عثمان المرغني الى الاتبرة فجردهنَّ من حلاهنَّ وسبى بعضهنَّ وقطع آذان البعض

الآخر وأنوفهنَّ فرجع المشوهات الى السيد محمد عثمان شاكيات مولولات فلما رآهنَّ في تلك الحالة هاج بهِ الغيظ وصاح بانصارهِ فضربوا طبول الحرب وزحفوا على الفقيه عيسى فالتقوهُ على القاش وأوقعوا بهِ واقعة دموية فقتلوا خلقاً كثيرًا من انصارهِ وهزموهُ أقبح هزيمة واسترجعوا النساء المسبيات وعادوا بغنائم كثيرة

هذا وكان مصطفى هدل قد اشتكى عمارة ولد ضاوي المذكور الى عثمان دقنه فكتب عثمان الى عمارة يأمرهُ بالحضور اليهِ في الحال فخرج بحجة انهُ ذاهب الى عثمان فاختفى ولم يعلم احد مقرّهُ وقيل انهُ التجأ الى الحبشة

﴿ باشريك السمرندوابي وواقعة تبكياي في ١٩ يونيو سنة ١٨٨٤ ؟ ﴾ وبعد ذهاب عمارة وقع الخلاف بين مصطفى هدل والحسن ود حاشي و بلال السمرندوابي في من يكون رئيس المجاهدين فقام فقيه من السمرندواب يسمى باشريك واغتنم الفرصة ودعا الناس لاتباعهِ فتبعوهُ فزحف بهم الى توكرف بنية فتح الخاتمية . وكان معهُ محمد ولد حامد ابن أخي موسى بك فخرج بالقسم الاكبر من الجيش وزحف على الخاتمية فنزل بجهة تبكياي اي محل زرع التنباك على غرب القاش تجاه الخاتمية فالتقاهُ رجال السيد وقاتلوهُ حتى قتلوهُ مع الف رجل من انصارهِ وهزموا الباقين الى توكرف وذلك يوم الخميس في ٢٤ شعبان سنة ١٣٠١ ﻫ ١٩ يونيو سنة ١٨٨٤ م ؟

وكان موسى بك ناظر الهدندوة قد فرّ من الاستحكام وانضم الى الدراويش في توكرف فلما سمع بقتل ابن اخيهِ ضرب نقارة الحرب في اليوم المذكور وأتى تبكياي بجيش عظيم فخرج محمد عثمان بنفسهِ ليلاً بجميع جيوشهِ واستعد لملاقاتهِ . وفي صباح اليوم التالي حضر كتاب من موسى بك الى السيد محمد عثمان يدعوهُ للتسليم فأجابهُ « قرأت كتابك وفهمت خطابك فان اقمت في محلك الى الظهر ألحقتك بابن اخيك بعون الله » . وأرسل الى المدير في طلب المدد فبعث اليهِ بألف رجل وكانت فاطمة بنت الشيخ موسى زوجة محمد حامد المقتول في الخاتمية وهي على عقيدة السيد محمد عثمان فلما رأت القوة في جانب السيد خافت على اخيها ان يلحق بزوجها فأرسلت اليهِ رسولاً سرًّا تخبرهُ ان لا طاقة لهُ على هذه الحرب وتلح عليهِ بالرجوع فرجع

﴿ خروج السيد محمد عثمان من الخاتمية في ٣٠ يونيو سنة ١٨٨٤ ﴾ ورأى السيد محمد عثمان ان الخطب قد تفاقم الى حد لا يمكن ملافاتهُ الا اذا جاء المدد من مصر فلم يجئ المدد من مصر وخاف اذا بقي ان يقع في الاسر فيهان ويذل فقرّ رأيهُ على الخروج من الخاتمية فخرج في ٦ رمضان سنة ١٣٠١هـ ٣٠ يونيو سنة ١٨٨٤م قاصداً مصر فشيعهُ العربان الذين كانوا مجتمعين عليهِ الى الدقا وتفرقوا الى اماكنهم اما السيد فانهُ بقي في الدقا مدة ثم ذهب الى مصوع فمصر فاقام في مصر بضعة ايام ثم توفي الى رحمة ربهِ السبت في ١٠ ربيع الآخر ١٣٠٣هـ ودفن في باب الوزير ومقامهُ مشهور

﴿ السيد البكري وسور الخاتمية ﴾ وتولى الخاتمية بعد ذهابهِ ابن عمهِ السيد البكري ابن السيد جعفر المرغني ولم يبقَ معهُ الا اخلاط من الدناقلة والجعليين والحلانقة والبجة ٥ فبني سورًا حول الخاتمية جعل بناءهُ اقساطاً على الاهالي على كل جماعة قسطًا فاشتغلوا فيـهِ ليلاً ونهارًا حتى اتموهُ على ارتفاع خمسة امتار في اقل من شهر وكان جدارهُ من جهة الشرق الجبل لان الخاتمية بلصقهِ

﴿ واقعة سدّينة الاولى في ٣٠ يوليو سنة ١٨٨٤ ﴾ هذا وكان العصاة بعد الانخذال الذي لقوهُ برئاسة باشريك قد انصرفوا عنهُ ووقع الخلاف بين مصطفى هدل والحسن ود حاشي بشأن الرئاسة فذهب الحسن ود حاشي الى المهدي شاكيا فزحف مصطفى هدل على الخاتمية مصمماً على فتحها فنزل في سدّينة غرب القاش وكان قد علم بخروج السيد محمد عثمان منها فكتب الى السيد البكري بالتسليم فطلب السيد البكري المدد من كسلة فجاءهُ الف رجل من جهادية و باشبوزق بقيادة الصاغ فرج افندي من ضباط مدد اميديب ومعهُ من الرؤوس صالح بك البغدادي وعبد القادر بك محمد ايله الحلانقي فطردوا مصطفى هدل من سدّينة بعد ان نكلوا بجيشهِ تنكيلاً وعادوا الى كسلة عند الغروب وذلك اول اربعاء في شوال ١٣٠١هـ ٣٠ يوليو ١٨٨٤م

﴿ واقعة سدينة الثانية ﴾ وفي اليوم التـالي ضرب مصطفى هدل نقارتهُ وجمع شتات جيشهِ وعاد بهِ الى الحرب فخرج لهُ فرج بك عزاز بالف وخمسمائة مقاتل من كسلة مع فرسان السيد البكري من الخاتمية فضربهُ ضربًا شديدًا وهزمهُ الى قلوسيت •

ومن ذلك الوقت لم يعد مصطفى هدل ولا غيرهُ من امراء الدراويش يجسر على مهاجمة كسلة او الختمية بل اقتصروا على غزو القبائل المحابة وداموا على ذلك اشهرًا

﴿ قتل الميتكناب في اوغسطوس سنة ١٨٨٤ ﴾ في اول القعدة سنة ١٣٠١ هـ ٢٣ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ م ارسل مصطفى هدل ابن عمهِ جمعة بسريّة من جيشهِ لتأديب الميتكناب الذين على الطريقة المرغنية وكانوا نحو الف رجل فقاتلوهُ مستبسلين وصدّوهُ بخسارة جسيمة فارجعهُ مصطفى هدل بسريّة اعظم فاطبق عليهم من كل جانب وقتلهم عن آخرهم حتى النساء والاولاد وغنم اموالهم وخرب ديارهم

﴿ عوض الكريم كافوت ﴾ وفي هذه الاثناء قدم جعلي من مواليد التاكا يسمى عوض الكريم كافوت كان قد ذهب بتجارة الى شكا قبل الثورة فلما كانت الثورة انضم الى المهدي في كردوفان فارسلهُ اميرًا على قومهِ الجعليين في التاكا وكان رجلاً شريرًا ولاهلهِ مهارة في فن الحرب فجمعهم واخذ يغزو بهم الشكرية الذين على الاتبرة فقتل من رؤسائهم عوض الكريم ذكين واخاهُ احمد . وكان من عادة اهل كسلة الخروج من الاستحكام لجمع الحطب للوقود والعلف للبهائم فوقف لهم عوض الكريم بالمرصاد ومنعهم من الخروج

﴿ سبدرات والسمرنداب ﴾ وفي اواخر القعدة سنة ١٣٠١ هـ اواسط سبتمبر سنة ١٨٨٤ م غزا علي نورين شيخ سبدرات بلاد السمرندواب فاصاب قطيعاً من الماشية فباعهُ في كسلة وعاد الى سبدرات فجمع باشريك السمرندوابي قومهُ وقصد سبدرات فكمن لهُ علي نورين خارج البلدة ولما اطل خرج من الكمين واوقع الفشل في قومهِ فقتل منهم نحو الف رجل وهزم الباقين ولكنهُ جرح جرحاً شديدًا في وجهه . ولم يعد في امكانهِ استمرار القتال ولم يكن يشك في عودة السمرندوابي للاخذ بالثار فكتب الى المدير يسألهُ المدد فارسل اليهِ المدير ٢٥٠ رجلاً من جهادية و باشبوزق بقيادة اليوز باشي دياب اغا والصاري ابراهيم اغا البدوي فاقاموا حامية في سبدرات . ولم يلبث باشريك ان عاد اليها بجيش عظيم فهزم العساكر المحافظين عليها وقتل اهلها واحتلها . واما علي نورين فقد حملهُ ابنهُ وفرَّ بهِ الى كسلة

وكان السيد محمد عثمان لا يزال في الدقا فلما سمع بنكبة سبدرات كتب الى المدير يسألهُ ارسال جيش الى سبدرات في يوم معين وساعة معينة فيهاجم باشريك من الغرب وهو يوجه البخيت شيخ بني عامر فيهاجمهُ من الشرق في الميعاد المضروب. فخرج المدير بنفسهِ بالف وخمسمائة رجل من جهادية و باشبوزق ومعهُ من الرؤوس القائمقام فرج بك عزاز والسر سواري بشير اغا كمبال والسر سواري حسن اغا سليمان وكان علي نورين قد تعافى من جرحهِ فصحبهُ المدير ونزل بالجيش في خور ملاّسي غرب سبدرات وعمل زريبة من الشجر ومكث ينتظر قدوم الشيخ البخيت ولكن هذا الشيخ لم يصل سبدرات حتى بادرها بالهجوم ولم يعلم المدير بقدومهِ وكان جيش باشريك اقوى من جيشهِ فهزمهُ شر هزيمة واقبل على زريبة المدير يريد اختراقها ففتح عليهِ نارًا حامية فثبت ساعة خسر فيها الف رجل ولم يقتل من عساكر المدير الا رجل واحد . وانهزم باشريك الى فتهاي على عشرة اميال من سبدرات فتبعهُ علي نورين وبقية المشايخ الحابة المرافقين للجيش فهزموهُ الى قلوسيت

﴿ غزوة قلوسيت في ٥ يناير سنة ١٨٨٥ ﴾ واغتر المشايخ بالنصر الذي نالوهُ على الدراويش فزيّنوا للمدير ان يهاجمهم في ديمهم العام في قلوسيت فرضي بذلك . وفي يوم الاثنين في ١٧ ربيع الاول سنة ١٣٠٢هـ ٥ يناير سنة ١٨٨٥ م جهز نحو ٢٠٠٠ رجل من جهادية و باشبوزق وعزم على الخروج للحرب بنفسهِ فزلّت رجلهُ وهو نازل على سلم المديرية فوُثئت فسلّم قيادة الجيش الى فرج بك عزاز فزحف بهِ على قلوسيت . وكان مصطفى هدل قد بلغهُ عزم الجيش على مهاجمتهِ فاستعد لملاقاتهِ وكان عوض الكريم كافوت متغيبًا في غزوة على النواعمة فبعث اليهِ يستعجلهُ في الرجوع الى الديم فوصل قبل وصول الجيش بقليل والتقى الجمعان عند الضحى في ظاهر ديم قلوسيت وهاجم العصاة بحزم وثبات مستقتلين فلم يكن الا القليل حتى دخلوا وسط العساكر واوقعوا فيهم الفشل فانهزموا والعصاة وراءهم تقتل بهم طعنًا بالرماح وضربًا بالسيوف الى جبل مكرام شرقي كسلة . وقد قتل من العساكر وحدهم ٧٥٠ رجلاً من نظامية وباشبوزق فيهم ١٧ ضابطًا وغنموا مدفعًا واسلحة كثيرة

وقويت نفوسهم لهذا النصر فتقدموا الى توكُرُف وحصروا كسلة والخاتمية معا وذلك في ١٣ يناير سنة ١٨٨٥ • ومن ذلك اليوم انحصر العساكر في استحكامهم فلم يعودوا يجسرون على الخروج منهُ قيد شبر

﴿ صدّ باشريك عن الخاتمية ﴾ وكان السيد البكري قبل واقعة قلوسيت يحمي سور الخاتمية بنحو ٦٠٠ بندقية فلما نزل العصاة بتوكرف طلب المدد من المدير فارسل اليهِ صالح بك البغدادي ومعهُ ٢٠٠ جهادي و٣٠٠ من الباشبوزق والخطرية فحصَّن بهم سور الخاتمية وما اتم استعدادهُ حتى هاجمهُ باشريك السمرندوابي فردَّهُ خاسرًا

﴿ عودة الحسن حاشي الى كسلة ﴾ وفي ٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٢ هـ ٦ ابريل سنة ١٨٨٥ م عاد الحسن حاشي الى كسلة ومعهُ منشور من المهدي بالامارة على من يتّبعهُ فتبعهُ معظم الجيش فزحف بهِ في ١١ ابريل الى سدّينة وحصر كسلة والخاتمية معًا ومنع ما كان بينهما من الاتصال

سقوط الخاتمية في ١٨ رجب سنة ١٣٠٢ هـ ٣ مايو سنة ١٨٨٥ م

ثم كتب الى السيد البكري يقول « اني جئتك بكتاب من المهدي بتوليتك على مديرية التاكا وعلى جميع هذه الجيوش فتعال للمفاوضة في هذا الشأن » فلم يركن السيد البكري اليهِ فبعث الى بلال السمرندوابي نظرًا لسابق المودة بينهما فاتاهُ الى باب سور الخاتمية واكد لهُ صحة قول الحسن حاشي وعاهدهُ اذا خرج الى معسكر العصاة ان يحميهُ من كل ضرر فاستشار السيد البكري المدير وخرج الى ديم العصاة مساء ١٧ رجب سنة ١٣٠٢هـ ومعهُ ١٥٠ رجلاً من جهادية و باشبوزق فرحَّب بهِ بلال و باشريك وبات ليلتهُ عند بلال ولما اصبح يوم ١٨ رجب سنة ١٣٠٢ هـ ٣ مايو سنة ١٨٨٥م اجتمع اليهِ الامراء ما عدا مصطفى هدل فانهُ بقي منفردًا بجيشهِ واشتد الجدال بين السيد البكري والامراء في شأن التسليم • وانهم لكذلك اذا بعوض الكريم كافوت قد انقض على خفراء السيد البكري فقتلهم عن آخرهم ثم انقلب على السيد البكري يريد قتلهُ فرمى بلال السمرندوابي بنفسه عليه وحماهُ من القتل وكذلك فعل علي شنتير الجعلي وابراهيم حمد الشبوديناني فاحتملهُ عمارة أبو سن الى

محل الأمان فأتى مصوع فسواكن فمكة فمات فيها سنة ١٣٠٤هـ . وفي الوقت نفسهِ زحف مصطفى هدل بجيشهِ على الختمية فاخذها غنيمة باردة ثم جاء الحسن حاشي بجيشهِ فاحتل الختمية وعاد مصطفى هدل الى توكرف فحصرا كسلة من الشمال والجنوب وضيقا عليها بعد ان هدَّما قبة السيد حسن المرغني وجامعهُ

﴿ مواصلة الحامية للحكومة ﴾ وكان المدير قبل الآن في اتصال دائم مع خسرو باشا قومندان عموم شرقي السودان في سنهيت فكتب اليهِ بعد واقعة الجمام يسألهُ المدد والنقود فبعث بالنقود يخفرها سعد بك رفعت بمئة رجل . ثم عاد المدير الى طلب النقود والمدد فاجابهُ عندي نقود ولكن ليس عندي خفراء لحمايتها في الطريق وقد سألت مصر تلغرافياً ارسال المدد فمتى حضر ارسلهُ اليكم مع النقود

وكان المحافظ على سواكن في هذا العهد تشرمسيد باشا كما مرّ فبعد ان فاوضهُ خسرو في شأن كسلة كتب الى المدير كتاباً آخر يقول «ان الحكومة ليس عندها مدد فتخيروا الرأي الذي ينجيكم من العصاة واذا امكنكم فاتركوا المثقلات في مكانها وتعالوا خفافًا الى مصوع» فجمع المدير الضباط والتجار وتلا عليهم الكتاب فكتبوا في الجواب «ان كثرة عائلاتنا تمنعنا من الخروج بلا نجدة قوية ويلزمنا ٥٠٠٠ جمل وخفراء اقوياء لحفظنا في الطريق» فلم يجبهم بشيء . ولكنهم لم يهتموا في بادئ الامر لابطاء المدد لانهم كانوا فائزين على العصاة فلما كانت واقعة قلوسيت واصيبت الحامية بتلك الضربة الموجعة ارسل المدير عبد القادر كبير الحلاقة الى سنهيت يستعجل المدد والنقدية ويقول انهُ لم يبقَ للحامية سوى قوت شهرين وقد اشتد الحصر عليها حتى لم يعد يمكنها الخروج في طلب القوت . فابلغ خسرو باشا الخبر الى تشرمسيد باشا بسواكن . وبعد ذلك بقليل وصلت حامية اميديب ومعها السيد محمد عثمان المرغني الى سنهيت واستطردت السير الى مصوع فصحبها عبد القادر بك . وبعد قليل لحقتها حامية سنهيت كما مرّ . وانتظر المدير المدة التي كان يمكن لعبد القادر بك الرجوع بها فلما لم يرجع ولا ورد منهُ خبر ارسل اربعة جاويشية الى سنهيت ليعلموا ما الخبر فوجدوا خسرو قد اخلى سنهيت فلحقوهُ الى مصوع . وكانت الحكومة على ما علمت تفاوض ملك الحبشة

بشأن انقاذ الحاميات التي على الحدود فكتب الكولونل تشرمسيد الى الملك يوحنا في ١١ ابريل سنة ١٨٨٥ يستحثهُ على التعجيل في ارسال المدد ويقول اذا لم تسرعوا في ارسال النجدة فالحامية لا بد من سقوطها وقد وعدوهُ بعشرة آلاف بندقية فارسل الملك يوحنا امرهُ الى الراس الولا لانقاذها لان جهتهُ موالية لكسلة فابطأ في نجدتها

وكتب خسرو الى المدير بعد المفاوضة مع تشرمسيد بمامفادهُ: «اعلم ان الخرطوم قد سقطت وانسلخ السودان عن مصر وغير متيسر للحكومة ارسال مدد اليكم من جندها ولكن المفاوضة جارية مع ملك الحبشة للاسراع في نجدتكم فاعقدوا مجلساً من اعيان المدينة وانظروا في امر سلامتكم فاذا حكمتم باخلاء الحامية فخاطبوا ملك الحبشة رأساً وعدوهُ بعشرة آلاف بندقية مكافأة على ما عساهُ ان يبذل من المساعدة لكم». فكتب المدير الى ملك الحبشة في طلب المدد. وكتب الى حكومته في ١٣ ابريل سنة ١٨٨٥ يقول: ان الحامية قد صارت في اشد الضيق فقد نفد منها الزاد واضطرت الى اكل الحمير ونحن لا نزال ننتظر النجدة اذ لا يمكنا الخروج من الحصن بدونها

﴿كتاب الحامية الى المهدي بشأن التسليم﴾ ولما لم يرَ جواباً من الحكومة ولا من الحبشة على الحاحهِ في طلب المدد ورأى انهُ اذا طال هذا الضيق على الحامية اضطرت الى التسليم أو الموت جوعاً اختار التسليم على الموت ولكنهُ كره التسليم الى مصطفى هدل واعوانهِ خوفاً من غدرهم فجمع ضباط الحامية وتجارها وكتبوا الى المهدي في الخرطوم كتاباً يخبرونهُ بأنهم مسلمون ويسألونهُ ارسال امناء من طرفهِ ليسلموا لهم وقالوا فيما بينهم اذا جاءنا المدد قبل مجيء الامناء استعنا بهِ على المحاصرين والاَّ سلمنا لهم

﴿جواب المهدي للحامية﴾ فبعث المهدي حسين ابراهيم الشهير بالزهرة وابراهيم احمد عالم وجماعة من اصحابهِ ومعهم كتاب منهُ الى اهل كسلة ولفظ الكتاب بعد البسملة:

«وبعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبد الله الى احبابهِ في الله احمد عفت مدير التاكا وفرج عزازي رئيس العساكر وحسن لبيب وعبد القادر هديب وحسن سليمان وبشير كبال ونعيم الفكي وابراهيم بدوي وحسن موسى وخورشيد واحمد المنسي وحسن بدوي وخلف خلف الله واحمد حمدي وكافة عباد

الله المحصورين بخندق كسلا تجارًا وعمدا وغيرهم وفقهم الله تعالى الى الصواب بجاه النبي الاواب آمين ٥ منا لكم السلام ثم نعرفكم بان خطابكم المحرر لنا صحبة رسولكم المعين عبد الله بطلب الامان ورغبة تعيين احد من طرفنا للتسليم على يده والتماس العفو عنكم وخشيتكم من العمال المحاصرين لجهتكم ان سلمتم على يدهم الى آخر ما بخطابكم قد احطنا بهِ علماً وشكرنا صنيعكم ودعونا لكم بكل خير وحمدنا الله تعالى على هدايتكم وانابتكم الى ربكم فان ذلك سبب فلاحكم وفوزكم ونجاحكم الذي هو مقصودنا من دعاية الخلائق الى الله وقد عقلتم فيما صنعتم وتداركتم انفسكم من عطب الدارين والمقصود الاهم هو سلامة الآخرة فان هذه الدنيا قريبة الزوال منغصة العيش مكدرة الاحوال لا خيرها يدوم ولا شرها يبقى ولا فيها لمخلوق بقاء حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب لم ينظر الله اليها منذ خلقها وقد ورد في الخبر انها لا تزن عند الله جناح بعوضة وانها دار من لا دار لهُ ومال من لا مال لهُ ولها يجمع من لا عقل لهُ كما جاء في الحديث واما الآخرة فنعمت الدار هي دار دائمة النعيم اعدَّ الله فيها لعبادهِ المؤمنين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واكرمهم فيها بالنظر الى وجههِ الكريم وقد ورد في محكم القرآن مدحها والتنويه بقدرها قال الله تعالى وان الدار الآخرة لهي الحيوان وقال الآخرة خير وابقى وقال اذا رأيت ثمَّ رأيت نعيماً وملكاً كبيرًا الآية. وحيث كان الامر كما ذكر فينبغي للعاقل ان يطلب ما عند الله ويعرض عن هذا الفاني الخسيس المعوق عن الوصول الى الدائم النفيس . ولما اظهرني الله رحمة للعباد وطفقت ادعوهم الى الله والى الرغبة فيما عند الله وانفرّهم عن هذه الدار كثيرة المحن والاشرار وقد هدى الله بي من اراد هداهُ واضل من اراد شقاهُ . وبعد ان فتح الله مدينة الخرطوم حسنت الظن باهل الخنادق المحصورين بالسودان وقلت في نفسي لعل الله ان يلهمهم رشادهم ويأخذ بنواصيهم الى طريق سدادهم . ولما وردت لي مخاطبتكم هذه ازداد حسن ظني بكم وسددت من جهتكم ورضيت عنكم واهتممت بامركم رغبة في هدايتكم ورشادكم وعلى حسب التماسكم قد عيَّنت لكم كلًا من الحبيب الحسين ابن ابراهيم

زهرة والحبيب ابراهيم عالم فان المذكورين من الاحباب الاصفياء الذين لا قصد لهم سوى تأييد الدين وسوق عباد الله بالتي هي احسن واشرت عليهما بمعاملتكم بالرفق والتأليف ولين الجانب وها هما واصلان اليكم لتطمينكم وحقن دمائكم واعطائكم امان الله ورسولهُ وامانا في انفسكم واولادكم التي تؤخذ منكم ما يزيل ضرركم كل واحد منكم على حسب حالهِ وراحتهِ التي تلزم لهُ وترشيدكم وتذكيركم بالله وبايام الله بهِ وبان من يريد الهجرة منكم الينا يعطياه الاذن بذلك فان امركم على حسبما حكيتم بجوابكم وترغبون الاسلاك في سلك انصار دين الله والانابة اليهِ والاقلاع عما مضى فما بيننا وبينكم الا المحبة الخالصة لوجههِ تعالى ولكن اول وصول هذا الخطاب اليكم سارعوا الى الخروج لمقابلة الجماعة المندوبين من طرفنا واطلبوا امانا منهم وسلموهم كافة الاشغال الميرية ولا يصير منكم ادنى تأخير . هذا وليكن في علمكم انهم النائبون عنا في جميع ما يجرونهُ معكم امضيناهُ فاعتمدوهُ ولا تخشوا من شيء . وابشروا بكل خير ما دمتم على الاخلاص معنا الهمكم الله رشادكم وحفكم بعنايتهِ وجعلكم من اهل هدايتهِ والسلام في ٣ شعبان سنة ١٣٠٢ هـ ١٨ مايو سنة ١٨٨٥ م ه ولنترك الامناء الآن سائرين لاستلام كسلة ولنرجع الى المهدي لنرى ما كان منهُ بعد سقوط الخرطوم فنقول :

الفصل الثاني والعشرون

في

﴿ المهدي بعد سقوط الخرطوم سنة ١٨٨٥ ﴾

﴿ دخول المهدي الخرطوم في ٣٠ يناير سنة ١٨٨٥ ﴾ تقدم ان المهدي ما سرَّ بالنصر على الخرطوم حتى عاد الوابوران عنها . وفي يوم الجمعة ٣٠ يناير سنة ١٨٨٥ اي بعد رجوعهما بيومين ركب الوابور المسمى « الزبير » وعبر النيل الى الخرطوم فصلى الجمعة في جامعها وعاد الى ابي سعد في الوابور نفسهِ فغير اسمهُ الى « الطاهرة » اشارة الى انهُ طُهر بركوبهِ فيهِ ه ومن ذلك اليوم اخذ يتردد الى الخرطوم فاعدوا لهُ منزل ابي بكر الجركوك لانهُ كان متقن البناء ولان ابنة ابي بكر المذكور التي

تسرّاها بعد فتح الخرطوم كانت ذات حظوة عندهُ • واعدوا للخليفة عبد الله سراي الحكومة ولكل امير من الامراء منزلاً في المدينة فرتعوا فيهاو بقي معسكر المهدي في ابي سعد وابي عنجة وجهاديتهُ في طابيـة ام درمان التي عرفت عندهم بالكارة

﴿ سرّية النجومي الى القبة في ٨ فبراير سنة ١٨٨٥ ﴾ وفي ٥ فبراير اتى المهدي بخلفائهِ وخاصـة امرائهِ من ابي سعد الى كرري لتشييع جيش النجومي الذي امرهُ بطرد الانكليز من القبة وعاد الى ابي سعد الاحد في ٨ فبراير سنة ١٨٨٥ يوم خروج النجومي بآخر جيشهِ من كرري كما مرّ

﴿ انتقال معسكر المهدي الى ام درمان اواخر فبراير سنة ١٨٨٥ ﴾ ثم لم يكن الا القليل حتى اتاهُ الخبر من النجومي ان الانكليز رجعوا الى دنقلة فطابت نفسهُ وسرّي عنهُ فشرع في نقل الديم من ابي سعد الى ام درمان لانها اسهل مراساً وافضل موقعاً من ابي سعد فضلاً عن انها قريبة الى الخرطوم فركب هو وخلفاؤهُ وبعض امرائهِ واتوا ام درمان فخططوا جامعاً يسع الف نفس على شكل ظهر الثور وسقفوهُ بالزنك الذي وجدوهُ في ترسانة الخرطوم و بنوا للمهدي وخلفائهِ وكبار امرائهِ منازل من الحجر والطين وسقفوها بالقش والبروش ثم شرعوا في نقل الديم الى ام درمان حتى اتموهُ وكان ذلك في اواخر فبراير سنة ١٨٨٥ • قيل وقد اجتمع في أم درمان في ذلك الوقت نحو مليون نسمة

﴿ سرية ابي عنجة الى جبال النوبة في اواخر فبراير سنة ١٨٨٥ ﴾ ولما استقر المهدي في عاصمتهِ الجديدة نظر اولاً في جهات السودان التي لم تزل على العصيان • وكان البعض من اهل جبال تقلي وجبال النوبة قد تخلّفوا عن الجهاد ورجعوا الى اماكنهم باسلحتهم وقطعوا طريق الخرطوم من الغرب فجرّد لهم جيشاً جراراً من راية الخليفة عبدالله وعقد لواءهُ لحمدان ابي عنجة وامرهُ بان لا يبادرهم الى الحرب بل يدعوهم الى الطاعة ويحذرهم العاقبة فان ابوا ناجزهم فخرج حمدان ابو عنجة من ام درمان بجيش كبير من جهادية وحرابة فيهِ نحو ١٥٠ اميراً وسلاح الجهادية رمنتون وابو روحين وابو لفتة ومدافع وسواريخ • وذلك بعد فتوح الخرطوم بشهر

﴿ سرية محمد عبد الكريم الى سنار ١٩ مارس سنة ١٨٨٥ ﴾ وكانت سنار لا تزال ثابتة على الحصار فندب لها ابن عمه محمد عبد الكريم فخرج بجيش كثيف من راية الخليفة شريف يوم الخميس في ٢ جمادى الاخرة سنة ١٣٠٢ هـ ١٩ مارس سنة ١٨٨٥

﴿ بعثة الامناء الى كسلة مايو سنة ١٨٨٥ ﴾ وكانت كسلة في هذه الاثناء في اشد الحصار وقد كتب اهلها الى المهدي يسألونهُ ان يبعث اليهم امناء من عنده ليسلموا لهم فاجابهم في شهر مايو سنة ١٨٨٥ الى سؤالهم كما مرّ

﴿ مطاردة الانكليز الى دنقلة ﴾ هذا وكان المهدي لما اتاهُ الخبر من النجومي ان الانكليز رجعوا من القبة الى دنقلة أمرهُ باللحوق بهم وذلك في ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٢ هـ ٢٤ مارس سنة ١٨٨٥ م ثم أمرهُ بالبقاء في المتمة وعهد بالامر الى محمد الخير فأخذ في الاستعداد واستنفار الجيش . وبينما هو في ذلك اذ اتاهُ الخبر باخلاء الانكليز لمديرية دنقلة فأمرهُ المهدي بالزحف عليها واحتلالها

﴿ استعداد المهدي لغزوة مصر ﴾ وكانت نفس المهدي تسوّل لهُ فتح مصر والشام والقسطنطينية ومكة واخضاع جميع الامم . فلما خرج الانكليز من دنقلة شرع في الاستعداد لغزوة مصر

﴿ حسين باشا خليفة وغزوة مصر ﴾ وكان حسين باشا خليفة قد تمكن من مخادعته حتى اقنعهُ انهُ مخلص لهُ في السر والجهر فسماهُ عاملاً عاماً على قومهِ العبابدة الذين في حدود مصر وعلى من اراد الانضمام اليهم من اهلها وأمرهُ بمواقعة الترك الى ان يدركهُ بجيشهِ . وهذه هي صورة المنشور الذي اصدرهُ اليهِ بهذا الشأن :

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى حبيبهِ في الله وصفيهِ حسين خليفة تولاهُ مولاهُ واجتباهُ واكرمهُ واصطفاهُ آمين . ايها الحبيب اعلم وفقني الله تعالى واياك الى الصواب وجعلنا ممن اعتصم بحبل الله الوهاب ان الله سبحانهُ قد اكرمكم بصحبتنا وجعلكم من انصارنا واعواننا واتم عليكم نعمهُ ظاهرةً وباطنةً بسماع وعظنا والتنوُّر بأنوارنا فصرتم بذلك من انصار الله واحبابهِ وعددتم من الاصحاب الصادقين . ولما كان موضوع امرنا القيام بأمر الدين وجهاد اعداء الله

الكافرين وقد انتهى امرهم بالسودان وعزمنا بارادة الله على التفرغ لغيرها من البلدان قد اخترنا الله تعالى ووجهناك امامنا عاملاً عمومياً على كافة قبائل جماعتك العبابدة الذين بالجهات البحرية عشاباب وشنانير وفقرا وعلى كافة من يرغب الانضمام عليك من القبائل الأخر بطوعهِ واختيارهِ لتبلغهم دعوتنا وتعطيهم بيعتنا وتستنفرهم لاحياء الدين وحرّرنا لهم الاوامر بذلك وما تركنا لهم في الدلالة على الله والترغيب فيما عندهُ والتنفير عن هذه الدار الفانية شيئاً فخذ الاوامر المذكورة وتوجه على بركة الله وابذل وسعك في ابلاغ الدعوة واستنفار الناس للجهاد ودلالتهم على طريق السداد وكما اذناك في اعطاء البيعة لمريدها فقد اذناك في جهاد الاعداء تركاً وغيرهم وفي تولية من ترى فيهِ اصلاح المسلمين وعزل من ترى فيهِ افسادهم وفوضنا اليك الامر في فعل كل ما ترى فيهِ مصلحة الدين بتلك الجهة فشمر فيما ندبناك اليهِ وقم بواجب امرنا هذا وتوكل على الله واعتصم بهِ وليكن اكبر همك الاقبال عليهِ ومحبة لقائهِ فان من احب لقاء الله احب الله لقاءهُ واكرم نزلهُ ووصيتنا الجامعة لك ان تتق الله وتكون من الصادقين وان تسير في الناس بسيرنا وامارتنا لك على شرط اتباع الكتاب والسنة فان غيرت أو بدّلت فلا امارة لك فافهم ذلك واسترشد بهِ سدد الله امرك وجعلك ممن قال في شأنهم الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة واتوا الزكات وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وفقنا الله واياك على مرضاتهِ والسلام في ١٢ شعبان سنة ١٣٠٢هـ ٢٧ مايو سنة ١٨٨٥م ٥ تحشية ثم اعلم ايها الحبيب انهُ قد سبق التحرير منا بامارة الحسن سعد محمد وشمعون ابرهيم والحسن أبي سيدين على جهات قبائل العبابدة ثم صار ضمهم على محمد الخير وحيث ان امارة محمد الخير محصورة ومحددة فلتكن امارات هؤلاء الجماعة على العبابدة الذين بمديرية بربر ويفصلوا مع محمد الخير كما كانوا ولا يكن لاحد منهم تعرض على العبابدة بخارج مديرية بربر وانما يكونوا تحت امارتكم بذا لزم الالحاق في تاريخهِ والسلام » اه

وارسل في الوقت نفسهِ كتاباً الى الشيخ منشنح كرّار يسميهِ اميرًا على قومهِ الشنانير وفيهِ : « ... ان خطابك الذي تذكر فيهِ تسليمك لامر المهدية ورغبتك

للانسلاك في سلك انصار الله واحبابه وانتظارك لاشارتنا قد وصلنا وفهمنا مضمونهُ .» وكتاباً الى الشيخ بشير جبران يسميهِ اميرًا على قومهِ العشاباب ويخبر كلاً من الشيخين المذكورين بتولية حسين خليفة عاملاً عاماً على العبابدة ويسألهُ الانقياد اليهِ ومعاونتهُ على الجهاد

فخرج حسين باشا من أم درمان في ١٦ شعبان سنة ١٣٠٢هـ ٣١ مايو سنة ١٨٨٥م وأتى القاهرة وهو غير مصدق النجاة فحوكم بمجلس عسكري وخرج منهُ بريئاً فسمي مفتشاً في الداخلية وبقي الى ان توفاهُ الله سنة ١٨٨٦ ؛

﴿ كتاب المهدي الى اهل مصر ﴾ وكتب المهدي منشورًا عاماً « الى سكان مصر حكاماً وتجارًا وعمدًا وغيرهم » يخبرهم بعزمهِ على غزو مصر ويدعوهم الى نصرتهِ

﴿ كتاب المهدي الى الخديوي ﴾ وكتب في الوقت نفسهِ الى سمو الخديوي كتاباً هذه صورتهُ بعد البسملة :

« وبعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبدالله الى والي مصر

« لا يخفى على من نوّر الله بصيرتهُ وشرح صدرهُ ان الدين الذي يكون المتمسك بهِ ناجياً عند الله هو دين الاسلام الذي جاءنا بهِ نبينا محمد (صلعم) ونزل بهِ القرآن من الملك العلام قال تعالى ان الدين عند الله الاسلام وقال تعالى ومن يبتغِ غير الاسلام فلن يقبل منهُ وما سوى ذلك من الاديان فضلال يدعو الشيطان اليهِ حزبهُ ليكونوا من اصحاب السعير ومن منحهُ الله تعالى عقلاً يميز بهِ بين الخبيث والطيب لا ينبغي لهُ ان يصرفهُ الا فيما ينتج خلاصهُ عند الله يوم تزل الاقدام ويشيب الطفل ويشتد الزحام والا كان اسوأ حالاً من البهائم حيث اضاع حكمة تركيب العقل فيهِ ولا سبيل الى السلامة عند الله الا باتباع دينهِ واحياء سنة نبيهِ وأمتهُ واماتة ما حدث من البدع والضلال والانابة اليهِ تعالى في كل الاحوال وقد تأكد ذلك في هذا الزمان الذي عمّ الفساد فيهِ سائر البلدان فان دسائس اهل الكفر التي ادخلوها على اهل الاسلام وضلالاتهم التي مكنوها من قلوب الانام قد افضت الى اندراس الدين وعطلت احكام الكتاب والسنة بيقين فصارت شعائر الاسلام غريبةً بين الانام وتراكمت الظلمات وانتشرت البدع وابيحت محارم الاسلام واشتد

الكرب على اهل الايمان فصار القابض على دينهِ كالقابض على الجمر لتراكم البغي والعدوان فعند ذلك اظهرني الله طبق الوعد الصادق رحمةً لعبادهِ لانقذهم من ظلمة الكفر الى نور الايمان وادلهم الى الله على هدى منهُ وتبيان وطوقني بالخلافة الكبرى على المهدية وخلع عليّ حللها البهية وبشرني سيد الوجود (صلعم) بالنصر على كل من يعاديني ولوكان الثقلين وبان من يقصدني بعداوة يخذلهُ الله في الدارين وقلدني سيف النصر وايدني بقذف الرعب في قلوب اعدائي يسعى امامي اربعين ميلاً . واخبرني باني املك جميع الارض وبان من شك في مهديتي فقد كفر بالله ورسولهِ ونفسهُ ومالهُ غنيمة للمسلمين وبان الله قد ايدني بالملائكة الكرام وبالجن احياء وامواتاً وهكذا من البشارات العجائب الذي يطول شرحها وكل ذلك بحضرة الملائكة المقربين والخلفاء الاربعة والخضر عليهِ السلام وما كنت ارتقب هذا الامر لنفسي ولا سألت الله اياهُ بل كنت اسألهُ ان يجعلني معيناً لمن يقوم بهِ فلما اراد الله كان وحتم الامر عليّ من سيد الاكوان فقمت باعباء هذه الحالة واعتصمت بالله وتوكلت عليهِ واخبرت الحكمدارية باني المهدي المنتظر وقد كان بها محمد رؤوف وما تركت لاهلها في ايضاح هذا الامر شيئاً وانا في انتظار الاختبار وتسليم الامر لله الواحد القهار فما كان منهم الا ان ضربوا عنا اخبرتهم بهِ صفحاً وطووا عن قبولهُ كشحاً وبادروني بالمحاربة من غير روية ولا تثبيت في هذا الامر الديني الذي جئتهم بهِ من خير البرية فأيدني الله عليهم كما وعدني . وهكذا صارت جيوشك تأتيني ثلة بعد ثلة واقدم لهم الانذارات ولم تنفعهم والله يؤيدني وينصرني عليهم كما وعدني ويقطع دابرهم الى ان قلّت حيلتك وتلاشا امرك فسلمت امر امة محمد (صلعم) لاعداء الله الانكليز واحللت لهم دماءهم واموالهم واعراضهم فجاءت الانكليز بكبرهم وخيلائهم واعتمادهم على غير الله فلما سول الشيطان لهم ادراك غردونهم بالخرطوم وأيست من هداية اهلهِ وعلمت ان تكرر الانذارات لا ينفعهم وحقت عليهم كلمة العذاب وصاروا مثل من قال الله تعالى في شأنهم وسواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم الآية عجل الله بفتحهِ واهلاك من فيهِ واحرقت النار اجسامهم عياناً كالذين من قبلهم اظهاراً للحقيقة

وتعجيلاً للعقوبة وصدق عليهم قولهُ تعالى حتى اذا فرحوا بما أوتوا اخذتهم بغتة الآية. ثم انذرت الانكليز فلووا رؤوسهم فوجهت اليهم طائفة من الانصار فقذف الله في قلوبهم الرعب فولوا هاربين بعد ان اهلك الله فيهم من اهلكهُ وشتت شملهم وهذا كلهُ غير خافٍ عليك ولا زال حزب الله مقتفياً اثر باقيهم وعن قريب يحلّ الله من الدمار ما يكون عبرةً لمن اعتبر هذا اوان المؤمن المصدق بوعد الله لا يرى لجميع ما في الحيوة الدنيا من الفانيات قيمة ولا يأسف على ما فاتهُ من ملكها الذي مآلهُ الى الزوال وعظيم النكال وانما يكون مطمح نظرهِ الى ما عند الله من النوال في دار الكرامة والافضال فان الدنيا لو بقيت للاول لم تنتقل للآخر ومن هنا نعلم ان هذا الملك لم يصل اليك الا بموت او عزل من كان قبلك وهو خارج من يدك بمثل ما صار اليك. وحيث كان الامر كذلك فلا ينبغي لك ان كنت ترجو من الله نعيم دار الابد ان تأسف على ما فاتك من الدنيا ولو كان الدنيا بحذافيرها فدقق النظر واجمع عليك فكرك وتدارك نفسك واسع فيما ينجيك عند ربك اذا تمثلت بين يديهِ وسألك عما جرى منك وسلم الامر اليهِ تسلم وما كان يحسن منك ان تتخذ الكافرين اولياء من دون الله وتستعين وهم على سفك دماء أمة محمد (صلعم) ألم تسمع قول الله تعالى يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فانهُ منهم الآية وقولهُ تعالى لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حادّ الله ورسولهُ ولو كانوا آباءهم الآية وقولهُ تعالى يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءكم من الحق الآية وقولهُ تعالى يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزءاً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء الآية وما هذه الطاعة لاعداء الله والله تعالى يقول يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين وكيف تكفرون وانتم تتلى عليكم آيات الله الى ان قال يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاتهِ ولا تموتنّ الاّ وانتم مسلمون الاية » فاذا كنت ممن ينظر بعين بصيرتهِ ولا يؤثر متاع الدنيا الخسيس على نعيم آخرتهِ

فاعتبر بذلك وبادر الى النجاة والسلامة المعتبرة وهي سلامة الايمان ونزه نفسك عن ان تكون في عسكر اعداء الله دائماً ولا تهلك من كان معك من أمة محمد (صلعم) واغسل ما جرى منك بدموع الندم ولا تكترث بجاه الدنيا الفاني ولا بملكها الزائل فان لله داراً خيراً منها وقد اعدها لعباده المتواضعين لجلاله قال تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين الآية واياك والركون الى اقوال علماء السوء الذين اسكرهم حب الجاه والمال حتى اشتروا الحيوة الدنيا بالآخرة فيهلكوك كما اهلكوا من قبلك في الحديث القدسي لا تسأل عني عالماً اسكرهُ حب الدنيا فيصدك عن طريقي أولئك قطاع الطريق على عبادي ولا تغتر بقوة حصن بلدك وكثرة اسلحتك وعددك الظاهرية ومظاهرة دول اهل الكفر لك فانها لم تغن عنك من الله شيئاً وكم اهلك قبلك من الملوك اهل الحصون المنيعة من هو اشد منك قوة واكثر جمعاً لما بغوا وعثوا في الارض مفسدين • وليكن في علمك ان امرنا هذا ديني مبني على هدى من الله ونور من رسول الله (صلعم) ومؤيد من عند الله بجنود ظاهرية وباطنية وما قصدنا فيه الا احياء الدين واظهار آثار الانبياء والمرسلين ولا نريد مع ذلك ملكاً ولا جاهاً ولا مالاً فان نور الله بصيرتك وخالفت النفس الامارة بالسوء وقبلت هدينا هذا وانبت الى الله بنية خالصة فعليك أمان الله ورسوله وأماننا وما بيننا وبينك الا المحبة الخالصة لوجهه تعالى ونكون الجميع يداً واحدة على اقامة الدين واخراج اعداء الله من بلاد المسلمين وقطع دابرهم واستئصالهم من عند آخرهم ان لم ينيبوا الى الله ويسلموا • وقد حررت اليك هذا الكتاب وانا بالخرطوم شفقةً عليك وحرصاً على هدايتك فارجو الله ان يشرح صدرك لقبوله ويدلك على صلاحك ورشادك في الدارين وها انا قادم على جهتك بجنود الله عن قريب ان شاء الله تعالى فان امر السودان قد انتهى فان بادرتني بالتسليم لامر المهدية والانابة الى الله رب البرية فقد حزت السعادة الابدية وامنت على نفسك ومالك وعرضك انت وكافة من يجيب دعوتنا معك وان ابيت بعد هذا الا الاعراض عن طريق الفلاح والرشاد فانما عليك اثمك واثم من معك ولا بد من

وقوعك في قبضتنا ولو كنت في بروج مشيدة وهذا انذار مني اليك وفيه الكفاية لمن ادركته العناية والسلام على من اتبع الهدى » اه

﴿ عبدالله الكحال وغزوة الشام ﴾ وكان المهدي قد ارسل الحاج عبدالله الكحال من الرهد عاملاً على بلاد الشام فجاء مصر بطريق وداي وعاد الى تجارته فيها كما مرّ

﴿ المهدي ومراكش ﴾ ويظهر ان جماعة من اهل مراكش المستوطنين مصر كتبوا الى المهدي يصرّحون له بتصديقهم مهديته ويسألونه تسمية احدهم السيد محمد الغالي اميرًا على مراكش لنشر دعوته في بلادهم فاجابهم بالكتاب الآتي :

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبدالله الى احبابه المكرمين السيد ابراهيم السنوسي الحسني ومحمد عبد السلام الحبابي وعبد السلام البناني ومحمد قاسم الحلو وفقهم الله وسددهم والهمهم الصواب وارشدهم آمين ٥ ايها الاحباب اهدي لكم جزيل السلام الممزوج بالرضاء عنكم وجليل الاكرام واعرفكم بان خطابكم المؤرخ ٧ ربيع آخر سنة ١٣٠٢ قد وصلني وما احتوى عليه من حسن تسليمكم لامر المهدية ورغبة وصولها اليكم ونشرها بجهاتكم الغربية مع تولية السيد محمد الغالي عبد السلام على فاس وجهاتها الى آخر ما بخطابكم قد احطت به علماً وجزاكم الله عن دينه وعنا احسن الجزاء وشكر سعيكم وادام هديكم وجعلكم مفتاح كل خير وقد سرنا حسن رشادكم زادكم الله رشادًا ومحبة وها نحن قد اجبناكم الى ما طلبتم وحررنا الاوامر بامارة السيد محمد الغالي وها هي واصلة اليكم صحبة الحبيبين عبد الخالق السبتي والطيب البناني فان المذكورين قد اوصلا جوابكم الينا واخذا يعتنا وسمعا من مواعظنا ما ينور البصائر وصارا عندنا من الاحباب ورأينا تحميلهما للاوامر اصوب وانفع فينبغي مراعاتهما ومشاورتهما في امر الدين ٠ ثم انه لا يخفى عليكم ان جهات فاس فيها اكابر من اهل الخير الذي يقتدي بهم في الدين فلذا ولمحبتي اتفاق كلمة المسلمين في الله قد جعلت تفويض الامر اليهم فان اتفقت كلمتهم على السيد محمد الغالي المذكور فذاك جل قصدنا وقد باركناه لهم وان اتفقت كلمتهم على غيره من الافاضل فقد اذناهم في ذلك وان السيد محمد عندنا من الملحوظين بعين الرعاية

المكرمين الغاية ولكن حيث كان قصدنا واحداً وهو تأييد الدين فلا يليق يا احبابنا الا الرضا والفرح والقبول لما نريده فانهُ عين الخير عند الله تعالى . هذا واوصيكم ايها الاحباب بتقوى الله والاعتصام بهِ والتوكل عليهِ في كل الامور وعزيمتي عليكم العمل بما في الاوامر واخذها على النور والتوجه بها لجهة التعيين وابلاغ الدعوة فانكم القائمون باعباء هذا الامر بتلك الجهة والمتسببون فيهِ ولكن الاعتماد على الله والاقبال عليهِ ومحبة لقائهِ والاعراض عن هذه الدار الفانية التي لا تزن عند الله جناح بعوضة ولابد من تعجيل مخاطبتنا في كل ما يتجدد لكم حال وصولكم بارك الله فيكم والهمكم رشادكم وجعلكم من اهل اجتباه بجاه سيدنا محمد ومن والاهُ والسلام ٢٥ رجب سنة ١٣٠٢هـ ١٠ مايو سنة ١٨٨٥ اه

وكتب في التاريخ نفسهِ كتاباً خاصاً الى السيد محمد الغالي بالعمالة العامة على فاس وكتاباً الى الطيب البناني احد الرسولين بالامارة ضمن عمالتهِ . ثم كتب الى اهل فاس يدعوهم الى الانضمام الى عاملهِ . وكتب الى والي فاس ما نصهُ بعد البسملة :

«وبعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبدالله الى حبيبهِ في الله السيد الحسن بن محمد بن عبد الرحمن والي فاس ونواحيها وفقهُ الله . ايها الحبيب منا اليك جزيل السلام ومزيد الاحترام ثم اعلم وفقني الله تعالى واياك الى ما يحبهُ ويرضاهُ وغمسني واياك في بحار محبتهِ ورضاهُ ان الدين خير للمرء من نفسهِ ومالهِ وهو الرفيق الذي ينفعهُ عند هول المحشر . ولا يخفى ما حصل على الدين في آخر الزمان من الاهانة وتعطيل الاحكام واهمال العمل بالشريعة المطهرة ولكن المسموع عن اهل جهتكم انكم اهل خير والى الآن متمسكون بشريعة خير الانام وحيث انكم كذلك فقد جاءكم الهدى والرشاد ودعاكم داعي الله الى طريق السداد اذ قد طوقني الله بالخلافة المهدية وامرني بدعاية الخلق الى احياء السنة المرضية وقد لبى دعوتي من اسعدهُ الله ببلاد السودان واعرض عنها من اشقاهُ فأهلكهُ واشتعلت فيهِ النيران وقد وفق الله جماعتكم الذين بمصر والهمهم رشادهم فخاطبوني بالتسليم التام لامر المهدية والرغبة الكاملة في نشرها في الاقطار العربية والتمسوا تولية السيد محمد الغالي

عبد السلام عاملاً من طرفنا على فاس وما والاها ونحن لمحبتنا ايصال الخير للمؤمنين قد حررنا للمذكور بالامارة على تلك الجهة ولكن فوضنا الامر لاهلها فان اتفقت كلمتهم عليه فبها ونعمت وان اتفقت كلمتهم على غيره من الفضلاء فقد اذناهم في ذلك . وحيث انك والي تلك الجهة من سابق وراع امرها فقد حسنا بك الظن وخاطبناك بهذا لتبادر الى فلاحك وفوزك ونجاحك وتجيب دعوتنا على اقامة الدين وجهاد اعداء الله الكافرين وان اتفقت كلمة اهل البلد على توليتك عليهم من طرفنا فقد وليناك عليهم ولكن تكون مع السيد الغالي المذكور يداً واحدة ونفساً واحدة وتحابوا في الله ولا تنافروا فان المقصود واحد وهو اقامة دين الله . وان اتفقت كلمة اهل البلد على غيرك سواء كان الغالي المذكور او غيره من المسلمين فكن انت كرجل منهم ولا تكترث بزوال الملك فان ذلك رحمة من الله حفك بها . ألم تعلم ان النبي (صلعم) قد ذمه في غير ما حديث وقال عليه السلام في الامارة اولها ملامة ووسطها ندامة وآخرها عذاب يوم القيامة الى غير ذلك من الاحاديث التي لا تحصى . وحيث كان امر الامارة كذلك فلا تحزن لفواتها واعلم انك ان اجبت دعوتنا فانت مقبول ومكرم عندنا ومنا والينا دنيا وآخرة وابشر بخير الدارين وعزيمتي عليك ان تعمل بالكتاب والسنة وان تنفذ جميع ما في الاوامر المحررة الى اهل جهتك . وليكن في علمك اني عن قريب ان شاء الله تعالى حاضر بحزب الله للجهات المصرية فان امر السودان قد انتهى فان بادرت امري هذا بالتسليم وطلبت سلامتك عند الله وآثرت ما في الآخرة من النعيم فقد حزت السعادة الابدية وأمنت على نفسك ومالك وعرضك انت وجميع من يجيب الدعوة معك وان أبيت الا الاعراض عن طريق الرشاد فانما عليك اثمك واثم من معك وامر الله واقع وفيما هو مسطر اليك في الاوامر الواصلة لك صحبة هذا كفاية لمن حفته العناية الهمك الله رشادك ودلك على الصواب بجاه النبي الاواب هذا والسلام ٢٨ رجب سنة ١٣٠٢هـ ، اه ١٣ مايو سنة ١٨٨٥م

ولكن لطف الله بعباده ولم تصل هذه الكتب الى اصحابها اذ الطيب البناني الذي عاد بها لم يبلغ بربر حتى كان المهدي قد مات وعلم الخليفة به فارسل في

طلبه فاخذ منهُ الكتب وحبسهُ « حبس عين » في أم درمان فبقي الى ان فتحها الجيش سنة ١٨٩٨ فرأيتهُ فيها ورأيت هذه الكتب بين اوراق الخليفة فسألت البناني عنها فقال انهُ احتال على المهدي للتخلّص منهُ فلم يقدِّر الله لهُ الخلاص . وسألت عنها بعض المراكشيين المخاطَبين فيها فاجابوا « لا علم لنا بذلك مطلقاً »

﴿ انتشار الجدري في أم درمان ﴾ وفي ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٢ هـ ١ ابريل سنة ١٨٨٥ م فشا وباء الجدري في أم درمان واستمر شهرًا كاملاً ففتك بالاهلين فتكاً ذريعاً حتى قيل ان الاكفان التي أنفق عليها من بيت المال وحده بلغت ١٢٦ الف كفن . واصبح لسان حال السودان ينادي :

قل للوبا انت «وابن دُنقُل» قد جزتما الحدّ في النكاية
ترفقا بالورى قليلاً في واحد منكما كفاية

يُكنى بابن دُنقل عن المهدي اذ في تقاليد الدناقلة ان اصلهم من جدّ يسمى دنقل

﴿ الاحتفال بختان اولاد المهدي ﴾ وفي يوم المعراج اي في ٢٧ رجب سنة ١٣٠٢ هـ ١٢ مايو سنة ١٨٨٥ م احتفل المهدي بختان اولادهِ فاختتن في ذلك اليوم جميع اولاد الامراء والاعيان طمعاً في ان ينال الاولاد البركة وقد عملوا وليمة عامّة وذبحوا من الابل والبقر والغنم ما لا يحصيهِ عد وكان ذلك اليوم يوم فرح عظيم عند جميع الشعب

﴿ تبرُّؤ المهدي من أهلهِ ﴾ وكان الاشراف اهل المهدي قد طغوا و بغوا على الناس واساؤا السيرة فاستاء المهدي منهم فلما كان يوم آخر جمعة في شعبان سنة ١٣٠٢ هـ ١٢ يونيو سنة ١٨٨٥ بعد ان فرغ من الخطبة في الجامع وهمّ الناس بالوقوف للصلاة أشار اليهم بيدهِ وقال اجلسوا ثم نادى بأعلى صوتهِ وقال أيها الناس اني مللت من النصح والمذاكرة لاقاربي الاشراف الذين تمادوا في الطيش والغواية وظنوا ان المهدية لهم وحدهم ثم مسك ثوبهُ ونفضهُ ثلاث مرّات وقال انا بريء منهم فكونوا انتم شهودًا عليَّ بين يدي الله تعالى فنكس الاشراف رؤوسهم ولم يجبهُ احد بكلمة . ثم نزل عن المنبر وصلى صلاة الجمعة وخرج . وكان هذا آخر عهدهِ بالجامع كما سيجيء

﴿ سك النقود فبراير سنة ١٨٨٥ ﴾ وكثر ما غنمهُ المهدي من مصوغات الذهب

والفضة من الابيّض والخرطوم وقلّت النقود في أيدي الناس فأراد ان يسد هذه الحاجة ويبين للملأ استقلالهُ عن الدول وتأسيسهُ مملكة جديدة بعملة جديدة فجمع الصاغة وامرهم بسك النقود فأنشأوا ضربخانة في بيت المال وضربوا من الذهب جنيهاً قلدوا بهِ الجنيه المصري فهو على مثالهِ بطغرائهِ وتاريخهِ وقطعهِ وثخنهِ عملوهُ من ذهب خالص ولكنهم جعلوا وزنهُ أقل من وزن الجنيه المصري بحبتين وضربوا من الفضة ريالاً بقطع الريال الجيدي ووزنهِ فجعلوهُ سبعة دراهم فضة ودرهم نحاس وقد كتبوا على وجههِ الواحد «ضرب في الهجرة سنة ١٣٠٢» وعلى الوجه الثاني « بأمر المهدي » بهيئة طغراء وضربوا منهُ نصفاً وربعاً . وكان بدء هذا العمل في جمادى الاولى سنة ١٣٠٢ هـ فبراير سنة ١٨٨٥ م

﴿ جمع الزكاة والعشور ﴾ وقد شرع المهدي في جمع الزكاة والعشور توًّا بعد فتح الخرطوم وهاك ما ارسلهُ الى احد نوَّابهِ في هذا الشأن بعد البسملة :

« وبعد فمن عبد ربهِ محمد المهدي بن عبدالله الى حبيبهِ وصفيهِ وعونهِ في الله محمد عثمان وقاني الله واياهُ من كل علة ورفقني واياهُ الى نور الرفيق الاعلى . حبيبي فجزاك الله كل الخير واعطاك ما هو لهُ اهل فيما بينت لهُ مادة الزكاة على الاحاديث الواردة . واما اخذ الزكاة فهي كما ذكرت المناشير حلول المهدية سنة قتلة الشقي الهكسي (٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣) اذ ان أحكام الترك زالت سنتها من الجزيرة فلذلك تعدّ الزكاة منها اذ انها هي وضع حكمنا في تلك الامكنة فمنها تؤخذ الزكاة وعلى السنة الناقصة من باب اولى . ولكن اذا سبقت الخدمة قبل تمام السنة الناقصة فلا يخدمونهم فيها حتى تتم السنة الثالثة ومن لا يخدمونهم في الناقصة يتركونهم الى حين تمامها فيخدمونهم هذا والسلام نهاية شعبان سنة ١٣٠٢ هـ » اه ١٣ يونيو سنة ١٨٨٥

﴿ الغنائم ﴾ وقد حذر المهدي انصارهُ من الغلول في الغنائم ونشر في ذلك عدة منشورات وجاء في واحدٍ منها : « ان من أخذ ابرة من الغنائم تقع يوم القيامة في قعر بحر من نار ويُؤمر بأن يخوض في البحر ليخرجها »

واما توزيع الغنائم فيظهر رأيهُ فيها من كتابهِ الى محمود عيسى زايد عاملهِ على

جهات الصباينة بتاريخ ٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٢ هـ ١٩ مارس سنة ١٨٨٥ م

« واما الغنائم وتقسيمها فان كانوا المجاهدين منقطعين لله فقط ولا غرض لهم سوى الله ولا حرفة لهم سوى الجهاد وليسوا اهل بيع وشراء ولا حرث فليصر جمعها ووضعها في بيت المال والصرف منها شيئاً فشيئاً اذ انهم لا وسيلة لهم سواه . اما اذا كانوا من ذوي الحرف ويجمعون للجهاد لوقت معلوم وعند انتهائه ينفرون لحرفهم فليصر اخذ الخمس منها (الغنائم) وباقيها ينقسم لهم على وفق كتاب الله وسنة رسوله »

وقد كان من مبدإ المهدي جمع اموال العشور والزكاة والغنائم كلها في بيت المال والانفاق منها على المجاهدين كافة بحسب عددهم وحالهم وهاك منشوره بهذا الشأن :

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى كافة اصحابه واعوانه في الله من الخلفاء والعمال والانصار والمأمورين . أحبابي ان امر الدين يحتاج الى اتفاق الكلمة واتفاق القلوب واتصال الاحوال والمقال وان يتصل بالواطي العال فقد قال الله تعالى واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ولذلك اتتنا الوصية من الحضرة ان اصحاب المهدي يكون الصغير منهم ابناً والكبير اباً والمتوسط اخاً واذا حصل الامر على هذا الاتفاق استقام الامر واتصل العسر وتيسر العدل . وعلى ما سبق من الوصايا والمنشورات فعزيمة مني على كافة الاصحاب خصوصاً الخلفاء ان يعاونوا الخليفة عبد الله في جمع الغنائم والزكوات لبيت المال وهو يفرق بمعرفته العمال فيها وهم يكونون معاونين بأنفسهم واتباعهم وقد عزمت على كل احد من الاخوان ان من كان يؤمن بالله ورسوله ومهديه الا يؤخر عن بيت المال درهماً ولا ديناراً وتكون راحة جميع الاخوان والاصحاب كبيراً وصغيراً من بيت المال ولتفرح الاخوان لخدمة الدين وراحة المسلمين لا يخدم احد لنفسه ولا لجماعته فكل مؤمن بالله ورسوله ومهديه ومعاون لي على هذا الدين يكون على راحة المسلمين ولا يستبد احد بطائفة لجماعته ولا بقبيلة لرايته ولا بجهة ومعلومية لامره لان هذا فيه خدمة النفوس والاتكال على غير الله القدوس مع ان البيعة على زهد الدنيا والاتكال على الله وبذل النفس لاقامة الدين . وحيث كان الواجب القيام بالبيعة ، الاخوان جميعاً فليخدموا

« الاعشار والزكوات والغنائم » لبيت المال ولا يأخذ احد لنفسهِ ولا لجماعتهِ شيئاً، ولكن الراحة من بيت المال لجميع الانصار وليبين من كان لهُ عيال واهل من كثير وقليل ومن ليس لهُ الا قليل فالكل يقتنِ لهُ من بيت المال ما يكفيهِ والجميع خدمتهم لله وان فرغ بيت المال يكون الصبر حتى يعطي الله بيت المال الكفاية لهُ والسلام »

﴿ كتّاب المهدي ﴾ وكان المهدي قبل فتح الخرطوم ينظر بنفسهِ في جميع المسائل الادارية التي تأتيهِ من الجهات ويشير الى كتّابهِ بالاجابة عليها بما يقتضيهِ رأيهُ واشهر كتابهِ: الصديق ولد ابو صفية من اعيان كردوفان الذي صحبهُ من قدير . واخوهُ عبد الكبير . وفوزي السوداني التلغرافجي الذي قتل في واقعة هكس كما مرّ . وفوزي محمود بادي من مواليد بارة . واخواهُ احمدي ومختار . والطيب الهاشم وابو القاسم اخوهُ ومدثّر ابراهيم من جعلي بربر . وقد كان ختمهُ بيد فوزي السوداني فلما قتل سلمهُ الى فوزي محمود فبقي بيدهِ الى ان مات المهدي

﴿ أمناء المهدي ﴾ ثم لما فتحت الخرطوم واتسعت الاشغال الادارية على المهدي عجز عن النظر بنفسهِ في جميعها لا سيما وانهُ كان يهتم اذ ذاك في غزو مصر فاختار سبعة من الامناء وعهد اليهم بالنظر في جميع الامور الادارية وامرهم بالا يقطعوا في امرٍ الا بعد عرضهِ على الخليفة عبد الله واخذ رأيهِ فيهِ . وهؤلاء الامناء هم : الرئيس السيد عبد القادر الساتي علي من اقارب المهدي . والاعضاء فوزي محمود كاتبهُ وامين ختمهِ وقد امرهُ بختم جميع الكتب التي يقر عليهِ مجلس الامناء والخليفة وارسالها الى جهتها . ومحمد سليمان شقيق احمد ود سليمان امين بيت المال . والشفيع رحمة الشايقي كاتب الالهام للمهدي وعلي ود الفقيه الامين خوجلي من علماء السودان . واسماعيل ود شجر الخيري الدنقلاوي ومعهم احمد ود النور كاتباً . وبقي حكمهم نافذاً الى ما بعد وفاة المهدي ففرقهم الخليفة عبد الله كما سيجيء

واجاز المهدي لعمالهِ الحكم بالقتل بدون استئذانهِ وهاك ما كتبهُ الى عاملهِ على بربر محمد الخير في ٢٤ رجب سنة ١٣٠٢ ‍ ٩ مايو سنة ١٨٨٥ « ... قد سبق منا مراراً وتكراراً ان امر تلك الجهة مفوض منا اليكم ولو بقتل احد في الحق ... »

﴿ منشور الراحة في رمضان ﴾ ولما أقبل شهر رمضان سنة ١٣٠٢ طلب الراحة من الاشغال والانقطاع الى النظر في تدبير المستقبل فنشر لانصاره المنشور الآتي :

« وبعد فيقول العبد لله محمد المهدي ان هذا الذي اقبل هو شهر رمضان زمن الاقبال على الرحمن وميدان الاشتياق الى عظيم الشان فافزعوا ايها الاحباب فيه للديان ووطنوا قلوبكم على الشدائد والرضا بالبلايا والامتحان حيث اوعد بذلك الرحمن لتبيين حال اهل الصفوة والرجحان وبشر الصابرين بعظمة الشان وحسن العواقب وتولية الديان فتوكلوا على الله وفوضوا لهُ في كل ما يفعل لحسن الظن بهِ اذ هو حقيق بالاحسان وهو العالم بما لا يعلمهُ الابوان . . . فتحققوا ذلك ايها الاحباب وانصبوا انفسكم لله وارفعوا حوائجكم فكلنا عبيد الله والامور بيدهِ فلا تشغلوني بقضايا ولا بحوائج في هذا الشهر وخلونا للذكر والتذكار والصلوات والدعوات فان فقد العبد نور الصبر والرضا والتفويض واراد ان يرفع حاجتهُ الى العبيد فها هم الخلفاء نيابة عني والامناء المنيبين والقاضي فمن شغلني بشيء في رمضان بعد هذا فلا يلم الا نفسهُ والسلام غاية شعبان سنة ١٣٠٢ هـ » اه ١٣ يونيو سنة ١٨٨٥ م

الفصل الثالث والعشرون

في

﴿ وفاة المهدي وصفاتهُ وتعاليمهُ ﴾

﴿ وفاة المهدي في ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٥ ﴾ ولما كان يوم الاربعاء في ٤ رمضان سنة ١٣٠٢هـ اصابت المهدي حمى خبيثة تعرف في السودان « باب دم » وعند الاطباء بالالتهاب السحائي الشوكي . وفي يوم الجمعة ٦ رمضان امر الخليفة عبد الله فخطب وصلى بالناس الجمعة . ودامت الحمى على المهدي الى يوم الاثنين ٩ رمضان (وفي قمر السودان ٨ منهُ) سنة ١٣٠٢هـ ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٥م فاسلم الروح عند الضحى وكان عندهُ خلفاؤهُ واقاربهُ فامر الخليفة عبد الله اقاربهُ فجهزوهُ وحفروا قبرهُ في محل فراشهِ في منزلهِ ثم صلى عليه اماماً وباقي الخلفاء والناس مؤتمون بهِ ودفن عند الظهر ولم

يسمع لدفنهِ صوت • وبايع الناس الخليفة عبد الله فقام بالامر بعـدهُ كما سيجيء

وقد شاع بعد موت المهدي انهُ مات مسموماً وان بنت ابي بكر الجركوك هي التي دست لهُ السمّ في الطعام انتقاماً لابيها وزوجها اللذين قتلا في فتح الخرطوم ولكن الثقات من اهل السودان ينكرون هذه الاشاعة ويؤكدون ان بنت ابي بكر الجركوك كانت تحب المهدي وكان المهدي يحبها وان اقارب المهدي شدُّوا شعر لحيتهِ قبل دفنـهِ وتيقنوا انهُ لم يمت مسموماً • وقد رثاهُ جماعة من ادباء السودان نظماً ونثراً ومنهم ابرهيم شريف الدولابي الكردوفاني فانهُ رثاهُ بقصيدة غراء هذه هي بحروفها:

كيف التئام فؤادي المفطورِ ... ورقوء دمع محاجري المفجورِ
أم كيف ينفك الضنا عن مهجةٍ ... احشاؤها تُصلى على تنُّور
أسف على المهدي من مهد الصبا ... قد كان معصوماً عن المحظور
لا زال في كنف العناية يغتذي ... بدقائق التبصير والتنوير
حتى انتهى لمقامهِ الاعلى الذي ... عنهُ النُّهى في حيرة وقصور
واقامهُ المختار عنـهُ خليفـةً ... خلعت عليهِ ملابساً من نور
ورقى الى كرسيـهِ متسنماً ... في مشهدٍ بالاوليـاء معمور
فدعا الى الدين الحنيف مجاهداً ... بالسيف والانذار والتبشير
فتح الفتوح ودمّر الكفار في ... كل البلاد بجيشهِ المنصور
ومن اهتدى بهداهُ أصبح داخلاً ... سور الرضى أعظم بهِ من سور
ومن انتمى لسواهُ أمسى حائراً ... ضلّ الطريق بليلةٍ ديجور
ما شئت فيهِ من الثناء فقل ولا ... تأخذك لومة لائمٍ مدحور
ما أطنبت مدّاحهُ الاّ وهم ... عن وصفِ بعضِ حلاهُ في تقصير
هو مجمع البحرين بحر شريعةٍ ... طامٍ وبحر حقيقـةٍ مسجور
سر الوجود وترجمان الحضرة الـ ... مليـا ومظهر غيبهـا المستور
والله اكرمهُ بطيب تحيةٍ ... يحذو بهـا موسى كليم الطور
قد كان قوّامَ الدجى متبتلاً ... متواصل الاحزان غير فخور

طلق المحيا خاشعاً متواضعاً ... كهف الفقير وجابر المسكور
وتفيض بالجود الكثير يمينهُ ... ابداً بلا منٍّ ولا تكدير
ويبيت طاوي الكشح جوعاً وهو قد ... اعطى الكنوز بجمعها الموفور
لا يبتغي جاهاً ولا مالاً ولا ... عز الملوك ولا ارتباع الدور
ما همهُ الا اجتذاب الخلق من ... درك الشقاوة عميهم والعور
لما أبان لنا السبيل ولم يدع ... ايضاح منهيٍّ ولا مأمور
والدين عز وأهلهُ بلغوا المنى ... وتقلبوا في نعمةٍ وحبور
تاقت الى الذات العلية روحهُ ... وسعت لمقصد صدقها المذخور
فمضى وأودع كل قلب حسرةً ... وحشا الحشا ببلابل وسعير
تبكي المساجدُ والمحاربُ فقدهُ ... ومواطن الاذكار والتذكير
يا طيب أرضٍ ضمّ جسمك تربها ... تزري بعرف المسك والكافور
يا آل بيت المصطفى صبراً وان ... جل المصاب وعزّ عن تصبير
فلكم تسلٍّ في مصيبة جدّكم ... خير الانام الحيّ والمقبور
واذا توارت في الثرى شمس الهدى ... فهناك بدر هدًى عظيم النور
أبقاهُ مهديُّ الاله وراءهُ ... خلفاً يسير بسيرهِ المشكور
ويسوق للنهج القويم بحالهِ ... ومقالهِ وحسامهِ المشهور
هو ذاك عبد الله نجل محمدٍ ... وسع الورى بالحلم والتدبير
وخليفة الفاروق نجمٌ ثاقبٌ ... بضيائهِ يجلو ظلام الزور
وخليفة الكرار سيف منتضى ... بالحق يقطع هامَ كل كفور
بطلٌ اذا اقتحم الكتيبة غادر الا ... بطال بين مضرجٍ وأسير
فبهم قوام الدين بعد امامهِ ... وبهم تمام ظهورهِ المأثور
صلى الاله على ضريحٍ ضمهُ ... أزكى صلاةٍ في المساء وبكور

ورثاهُ محمد ابن الطاهر المجذوب بقصيدة طويلة اقتطفنا منها هذه الابيات :

دهتنا دواهٍ يضرس القلبَ نابُها ... ويوقد في الاحشاء نارًا منابُها
غداة نعى الناعون نور الوجود مَن ... بهِ ملة الاسلام جلَّ مصابها
امام الهدى المهدي افضل من دعا ... الى الله مفتاح النجاة وبابها
الا قد أصبنا اذ عدمنا حبيبنا ... وضاقت بنا الارض الوسيع رحابها
ليبكِ لهُ الدين الحنيفُ وملةٌ ... ابان هداها حين تمّ خرابها
فقدناك يا هديًا يتمنا بفقدهِ ... فقدناك يا شمسًا دهانا غيابها
الى الله انا راجعون هو الذي ... اليهِ نفوس العالمين إيابها
هو الفاعل المختار باقٍ وانفس الورى ... — كلها جمعًا اليهِ إنقلابها
وكنا نرى انا نفوز بوصلهِ ... بذي الدار حتى صاح فينا غرابها
فلم يبقَ فيها الآن ما يبتغى لهُ ... بقاها فقد اضحى سرابًا شرابها
سقى الله ارضًا ضُمّنتهُ بقاعها ... بهِ فاقت العرش العظيم قبابها
عزائي الى الصديق نائبهُ الذي ... بهِ الملة الغراء شدَّ انتصابها
عزائي الى الفاروق من كان دأبهُ ... لذى نِعَم الدنيا الغرور اجتنابها
عزائي الى الكرار ذي الناصر الذي ... لديهِ يهاب البائرات ذُبابها
عزائي الى الآل الكرام أولي التقى ... على الله هاتيك الرزايا احتسابها
والحقنا المهديَّ في جنة العلى ... ليذهب عن هذي القلوب اكتئابها
ألا أبلغوا عنا ضريح ابي الهدى ... تحايا الى الله الكريم انتسابها

﴿ أوصافهُ ﴾ وكان عمر محمد احمد عند وفاتهِ نحو اثنتين واربعين سنة وكان طويل القامة كبير الرأس عريض الوجه اسمر اللون أدعج العينين ازج الحاجبين واسع الجبين اقنى الانف رحب الصدر واسع الفم عريض الشفتين عظيم المنكبين ضخم العظام واسع الكفين والقدمين سائل الاطراف مفلج الاسنان مشرط الوجنتين على كل وجنة ٣ شرائط اقنية مستدير اللحية واسعها خفيف الشاربين • وكان يحلق شعر رأسهِ ويحسن لحيتهُ ولباسهُ الجبة والعمامة على ما تقدم قبل • وكان كثير التبسم يظهر من تبسمهِ فلج اسنانهِ المستحب عند اهل السودان حتى لقبوهُ « بأبي فلجة »

﴿ اخلاقهُ ﴾ وقد وصفهُ اسماعيل عبد القادر الكردوفاني وصفاً طويلاً اضطر فيهِ الى التملق الكثير ومما قالهُ : « انهُ كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظّ ولا غليظ ولا فحاش ولا عياب ولا مدّاح . ترك نفسهُ من المراء وما لا يعنيهِ وترك الناس من ثلاث لا يذم احدًا ولا يعيبهُ ولا يطلب عورتهُ ولا يواجه احدًا بما يكره . يتفقد اصحابهُ ويسأل عنهم فمن كان غائبًا دعا لهُ ومن كان حاضرًا زارهُ ومن كان مريضاً عادهُ . وافضل الناس عندهُ اعمهم نصيحةً واعظمهم عندهُ منزلة احسنهم مواساة . لا يجلس ولا يقوم الا عن ذكر ... يعطي كل واحد من جلسائهِ نصيبهُ حتى لا يحسب جليسهُ ان احدًا اكرم عليهِ منهُ . وما جالسهُ احد الا صابرهُ حتى يكون هو المنصرف عنهُ . وقد وسع الناس بسطهُ وخلقهُ فصار لهم ابًا وصاروا عندهُ في الحق سواء ... اوسع الناس صدرًا واصدقهم لهجة والينهم خلقاً واكرمهم عشرة لا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح . متخلقاً بالقرآن المجيد عاملاً بما فيهِ من الاجتهاد في طاعة الله والخضوع لهُ والانقياد لامرهِ والشدة على اعدائهِ والتواضع ولين الجانب والرحمة لاوليائهِ ومواساة عبادهِ وارادة الخير لهم والحرص على كمالهم والاحتمال لاذاهم والقيام بمصالحهم وارشادهم الى ما يجمع لهم خيرَي الدنيا والآخرة . ذا حلم وعلم وصبر وشكر وعدل وزهد وتواضع وعفو وعفة وتقوى وحياء ومروءة وجود وسماحة وشجاعة وصمت الاَّ عن ذكر الله وتؤدة ووقار ورحمة المؤمنين ... وما وضع احد فمهُ في اذنٍ لهُ الاَّ استمر مصغيًا اليهِ حتى يفرغ من حديثهِ . اكثر الناس شفقة على خلق الله وارأفهم بهم . يركب الحمار ويردف خلفهُ ويجلس على الارض ويأكل مع الخادم ويحمل حوائجهُ بنفسهِ من السوق يحب الطيب ويستعملهُ ويحب من الثياب ما خشن ومن الطعام ما خشن ... واشتهر من اول نشأتهِ بحب الخلوة والانفراد عن الناس والتمسك بالدين كما بينا قبل

﴿ جلوسهُ ﴾ وكان يجلس على فروة من الضأن ويقعد القرفصاء وحولهُ اخصاؤهُ واقرباؤهُ يذاكرهم . واذا جلس على الطعام جثا على احدى ركبتيهِ وبارك الطعام قبل الاكل ودعا اليهِ اخصاءهُ واقرباءهُ

﴿ الدخول عليهِ ﴾ وكان الداخل عليهِ يخلع نعليهِ ويتقدم اليهِ حبواً حتى يقرب منهُ فيلمس يدهُ ويرجع عنهُ قليلاً ثم يكلمهُ وهو منكس الرأس ويخاطبهُ بقولهِ يا سيدي . وبعد الفراغ من حديثهِ ينصرف راجعاً القهقرى غير مولّيهِ ظهرهُ

﴿ نساؤهُ ﴾ ولكنهُ كان مولعاً بالنساء وقد مات عن نحو ١٠٠ امرأة منهن اربع شرعيات عرفن بامهات المؤمنين والباقيات سراري وقد حبسن في منزلهِ بأم درمان ولم يسمح لهنَّ بالزواج الى ما بعد الفتح الاخير فاطلق سراحهنَّ فتزوج بعضهنَّ ولا يزال البعض الآخر بلا زواج

اما نساؤهُ الشرعيات فهنَّ : فاطمة بنت احمد شرفي التي تزوجها في الخرطوم قبل المهدية وقد توفيت في قدير . وعائشة بنت احمد شرفي تزوجها في الابيض بعد وفاة أختها . وفاطمة بنت حاج ابنة عمهِ تزوجها في كرري قبل المهدية . وفاطمة بنت حسين الحجازي تزوجها بشات قبل المهدية . وعائشة بنت ادريس الفلاتي تزوجها بقدير

اما سراريهُ فقد استقصيت اسماء ٦٣ منهنَّ واشهرهنَّ — من سبايا كردوفان: ام الحسن اخت احمد بك دفع الله . وعائشة بنت حاج احمد ام برير . وزنوبة بنت خورشيد كاشف . وكنانة سرية الزبير ود ضوَّه . ونظيفة ونخل الجود سريتا محمد بك الشايقي . ومدينة سرية يوسف باشا الشلالي ٥ ومن سبايا الخرطوم : آمنة بنت ابي بكر الجركوك المار ذكرها . وأمينة بنت ابي السعود بك العقاد . والشول بنت يوسف بك مدير فاشودة . وفاطمة بنت حسن مسمار . وزينب بنت حسن بك البهنساوي . وفاطمة بنت النور بك . ونزهة بنت محمد بك سليمان الشايقي . وآمنة بنت احمد شجر الخيري . وزينب بنت يوسف باشا الشلالي . وزينب بنت اختهِ ٥ ومن سبايا الجزيرة : النعمة بنت الشيخ القرشي . والسرة بنت محمد ولد البصير . وزينب زوجة حمد التلب . ومقبولة الدارفورية . ومأمونة الحبشية . وقبيل الله النوباوية ؟

﴿ اولادهُ ﴾ ولهُ من فاطمة بنت احمد شرفي : ثلاثة اولاد ذكور وهم الفاضل وهو بكر اولادهِ ومحمد والبشرى و بنت تسمى زينب تزوجها الخليفة شريف ٥ ومن فاطمة بنت حاج اربع بنات . ام كلثوم تزوجها الخليفة عبد الله . ونور الشام تزوجها

الخليفة علي ود حلو • ونفيسة • وعائشة توفيت بعد وفاته * ومن فاطمة بنت حسين الحجازي : ثلاث بنات رحمة توفيت قبله • وام سلمة تزوجها شيخ الدين ابن الخليفة عبد الله • ومريم • وولد يسمى الصديق * ومن نحل الجود سرية محمد بك الشايقي ولد يسمى عبد الله * ومن النعمة بنت الشيخ القرشي ولد يسمى علي * ومن مقبولة الدارفورية ولد يسمى عبد الرحمن * ومن مأمونة الحبشية ولدان توأمان الطاهر والطيب * ومن قبيل الله النوباوية ولد يسمى نصر الدين * وجملة من ذكرنا ١٠ بنات و ١٠ صبيان سبعة من الصبيان ماتوا أو قتلوا وبقي ثلاثة وهم علي والطاهر في قلعة مصر وعبد الرحمن في جزيرة الخرطوم وسيأتي ذكرهم بعد

﴿ اخوتهُ واقاربهُ ﴾ واما اخوتهُ فهم ثلاثة محمد وحامد وعبد الله قتل حامد في قدير ومحمد وعبد الله في الابيض كما مرَّ واما اقاربهُ الاخصاء فهم : السيد احمد شرفي حموهُ • وعبدالقادر ود ساتي علي • ومحمود امير الابيض • ومحمد عبد الكريم • والخليفة شريف • عدا محمودًا الذي قتل في واقعة كورتي كما مرَّ

﴿ تعاليمهُ ﴾ وكان اساس تعاليمهِ ان يعيد الدين الى ما كان عليهِ في اول الاسلام «ويملأ الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت جورًا وظلماً» فمن سلمهُ وبايعهُ على الجهاد ضمهُ الى انصارهِ ومن لم يتبعهُ حاربهُ واذلهُ سواء كان مسلماً او غير مسلم بلا تمييز • وكان اذا انكر أحد عليهِ مهديتهُ قتلهُ • واذا خالف لهُ امرًا قاصهُ اما بالقتل او بقطع اليد والرجل من خلاف * وقد رفع المذاهب الاربعة (وهي المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي) وتفرَّد بمذهب اجتهادي خاص بهِ وحَّد فيهِ المذاهب بتسوية ما بين بعضها من الخلاف والغاءِ البعض الآخر وفرضهُ على اتباعهِ مدَّعياً انهُ هو الواسطة بينهم وبين نبي الاسلام في تبليغ الاحكام الاسلامية وان فعلهُ كفعل النبي ففرض عليهم ان يتوضأوا كما رأوهُ يتوضأ ويصلوا كما رأوهُ يصلي وهكذا في جميع العادات والعبادات من غير نظر لما تدون بالمذاهب الاربعة المذكورة * وقد احرق كل كتب السنة والتفسير واحرق معها جميع الكتب الدينية والعلمية حتى لم يبق في السودان من الكتب الا القرآن ومناشيرهُ ورواتبهُ • واختار لراتبهِ آيات من القرآن الكريم والحديث الشريف

وفرض على اتباعه حفظهُ غيباً وتلاوتهُ كل يوم مع تلاوة حزب من القرآن بعد صلاة الصبح وصلاة العصر • وقد بدأ بانشاء هذا الراتب منذ اشهار دعوته فأخذ يزيد عليه من وقت الى آخر الى ان اتمهُ قبل وفاته بقليل • وقال ان الطريق الموصلة الى الله تعالى محصورة في ستة اشياء وهي : صلاة الجماعة • والجهاد في سبيل الله • وامتثال اوامره ونواهيه • والاكثار من كلمة التوحيد • وتلاوة القرآن • وتلاوة الراتب • وقد كتب كراساً علم فيه اتباعهُ كيفية قيام رمضان • وسهل طرق الوضوء • وعلَّم الزهد في الدنيا والجهاد للدار الآخرة • ومنع الناس عن زيارة قبب اوليائهم التي كانوا يزورونها قبل المهدية وقد زربها زرباً قوياً • بل منع الحج الى الحرمين بحجة ان الجهاد اشد لزوماً منهُ • وهدَّم اكثر الجوامع • ومنع اقامة صلاة الجمعة في الجوامع الاخرى او انشاء جوامع جديدة الا بأمره • وشدد في المحافظة على الصلوات الخمس جماعة • وأبطل الرتب والالقاب الرسمية وغير الرسمية • وساوى الغني بالفقير • وفرض على جميع اتباعه لباساً واحداً وهو الجبة المرقعة التي كان يلبسها هو • ومنع النساء من لبس الذهب والفضة وشعر العارية وخروجهنَّ مكشوفات الرؤوس وخروج الحديثات السن منهنَّ بين الناس وقاصَّ من خالف ذلك بالجلد ولكنهُ سمح لهنَّ بالتحلي في منازلهنَّ بالسوميت والمرجان والصدف واللؤلؤ • وأمر اهل البادية بحلق شعر الرأس ولبس العمة بعد ان كانوا يرخون شعورهم ويدهنونها بالشحم وربما كان هذا من احسن آثاره • وحرَّم الاحتفال بالاعراس احتفالاً يدعو الى النفقة وخفض مهر الزواج فجعلهُ عشرة ريالات وبدلتين اي ثوباً وقرباباً للبكر وخمسة ريالات وبدلتين للثيب وعاقب من خالف ذلك بمصادرة امواله لبيت المال • فسهل بذلك وسائل الزواج على الفقراء وقد كانت نفقات العرس الباهظة تحول بينهم وبين الاقتران فأقبلوا على الزواج حتى ان بعضهم عدَّ ٧٠ عقداً عقدت في ليلة واحدة • وابطل الرقص والغناء وضرب الدلوكة الذي اشتهر اهل السودان بحبه وجازى من خالف ذلك بجلده وتصدير ماله • وحرَّم خصي العبيد • ومنع البكاء وراء الميت • وابطل السحر والتعزيم وكتابة الحُجُب • وحرَّم شرب الدخان ومضغهُ وشرب

الحشيش والخمرة وقضى على من خالف أمرهُ هذا بالجلد ثمانين سوطاً والحبس سبعة ايام مع تصدير امواله كلها. وجعل عقاب من شتم بلفظ الكلب والخنزير ٢٧ سوطاً والحبس سبعة ايام وعرف هذا القصاص عندهم والذي قبلهُ « بمحق الله » ٭ واعاد قصاص الرّجم للزاني والزانية وقطع اليد للسارق

﴿ كتب المناشير ﴾ وكان يبث تعاليمهُ ووصاياهُ في مناشير ينسخها النساخ . وبعد فتح الخرطوم واستيلائهِ على مطبعة الحجر الاميرية صار يطبعها بمطبعة الحجر ويوزعها على انصاره . وقد أمر قضاتهُ باتخاذها أساساً لاحكامهم وقال لهم احكموا بالمناشير فاذا عرضت لكم مسائل لم ترد فيها فاحكموا بالكتاب والسنة ٭ وجمع خليفتهُ هذه المناشير في جزئين طبعهما بمطبعة الحجر وجعلها اساساً لاحكامهِ . وقد اسقط عدة منشورات منها كمنشور المهدي للسنوسي ومنشورهِ الذي صرّح فيهِ بفتح مكة وقال انهُ اسقطها حذرًا من ضلال الجهال

وكان المهدي قد شرع في تأليف كتاب سماهُ « المجلس » ضمنهُ ارشادات للصلوات والاذكار وقرآءة الراتب وكان القصد ان يضمنهُ الاحكام الشرعية في المعاملات والديانة ويكون سنَّة لانصاره ولكن المنية عاجلتهُ فمات قبل ان يتمهُ

﴿ تعاليم المهدي من منشوراتهِ ﴾ واهم منشور نشرهُ المهدي بين اصحابهِ فضمنهُ معظم تعاليمهِ المنشور الآتي وهو بحرفهِ بعد البسملة :

« وبعد فمن عبد ربهِ محمد المهدي ابن السيد عبد الله الى كافة الاحباب في الله . ايها الاحباب ان الامر كلهُ لله واليهِ المرجع والمآب وان النبي (صلعم) لما اجلسني على كرسي المهدية قد امرني بجهاد الترك وقال لي ان الترك كافرون بل هم أشد الناس كفرًا ونفاقاً لقولهِ تعالى يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم وانهم يسعون في اطفاء نور الله تعالى لقولهِ تعالى يريدون ليطفؤا نور الله بأهانة السنة النبوية واستضعاف الاسلام . وقد اظهروا كتباً يريدون بها طفي نور الله تعالى ويسمونها كتب القانون مع شتم الاسلام وقهره . أما ترونهم يسحبونكم في الحديد والسلاسل لاجل أخذ أموالكم لا يوقرون كبيركم ولا يرحمون صغيركم ويحملونكم المشاق القوية .

لا تتركوهم حتى يسلموكم الاسلحة والاموال فان فعلوا ذلك فلا تسترقوا أولادهم ونساءهم بل اقروهم على حالهم وهم اخوانكم في الدين واحسنوا اليهم ٠ وان العمل كلهُ للنية في الجهاد في سبيل الله كمثل خطاف أخذ بمنقاره من ماء البحر قال تعالى ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة عوضاً عنها اذا قتلوا او قاتلوا٠ قال تعالى ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ٭ وقال لي سيد الوجود (صلعم) من انكر مهديتك فقد كفر ٠ وان ارواح الترك اشتكت اليَّ وقالوا يا الهنا ويا خالقنا ان الامام المهدي قتلنا من غير انذار فقلت يا الهي أنذرتهم وخالفوني وصالوا عليَّ وسيد الوجود شاهد علينا ٠ وقال سيد الوجود (صلعم) ذنبكم عليكم وانكم خالفتم وصلتم فقتلتم ٠ واني عبد مأمور باظهار الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما ٠ وقد امرني سيد الوجود (صلعم) ان كل من خالفني عدَّ كافراً وان الله قد غفر ذنب من اتبعني وقواني ٭ وقد أمرني سيد الوجود (صلعم) ان زواج الثيب بخمسة والبكر بعشرة ريالات تخفيفاً لأمتهِ ومن نقص الصداق عن ذلك فهو اقرب اليَّ من بياض العين الى سوادها واياكم والزيادات ٠ فامنعوا نساءكم عن النوح والتسنيم وذبح الاموال سرفا ٠ واما كيفية الحافرين والحاملين النعش فلا بد من مالهِ اذا كان لهُ مال والاَّ فمن بيت مال المسلمين ٠ فمن بكت أو سوَّدت الباب أو ناحت أو حدَّت على غير زوجها فتؤدب حتى تظهر توبتها بالضرب والسخط بما يناسب لهاه ونهيتكم عن التنباك الخبيث فمن شربهُ منكم فليؤدب حتى يموت أو يتوب ٭ وان الجهاد فرض فمن تخلف عنهُ فهو عاص الله ورسولهُ ولا تقبل صلاتهُ ولا صومهُ ولا صدقتهُ بل أمرهُ كلهُ هدر فمن تركهُ من غير عذر باين فحكمهُ كذلك ٠ أطعموا طعامكم المجاهدين ٠ فمن لم يأخذ البيعة من الامراء اصحاب الرايات الذين يخرجون من عندنا لاجل الجهاد فهو منافق ملعون ٠ فأما العالم التابع لي في مهديتي فهو كالنبي المرسل والعاميّ التابع لي كرتبة الشيخ عبد القادر الجيلاني والعالم المخالف لي كفرعون والعاميّ المخالف لي كهامان ٭ ومن علامة مهديتي ان النار تخرج من ثقب السلاح أي يخرج دخاناً ٠ وان الله قوَّاني بالملائكة الكرام وعزرائيل حامل لواء نصرتي وان

الخضر وسيد الوجود والاولياء من عهد أبينا آدم الى هنا معي ومؤمن الجن كذلك معي ٥ وقد أمرني سيد الوجود (صلعم) بأن يخرجوا الاحراز ساعة الملاقاة كون الجان تنفر منهُ ٠ وأمرني بأن أتوكل على الله كيف يهتم العبد بالرزق حيث ضمن الله رزقهُ لقولهِ تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون وقولهِ تعالى وما من دابة في الارض الاّ على الله رزقها ٠ كيف يرتقي العبد من الامراض كونهُ هو الفاعل والتوكل أولى ٠ وكيف يصح للعبد ان يسوء في بساط الخيرات لان الفاعل يفعل والمفعول يدفع لقولهِ تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبهُ ٥ ومن سرق منكم سرقة قل أو كثر فاقطعوا يدهُ لانهُ يوم القيامة يقوم بلا يد ويتخبط كما يتخبط العبد في الدنيا بمس الشيطان لا بارك الله في ولي تركهُ أو امير استعان بهِ ٠ وكذلك الزّاني يرجم اذا كان محصناً ويجلد البكر واما المرأة فاذا دخلت بالاجنبي الذي يخشى عليها منهُ فيؤدبان بالاجتهاد لان الشاب والشابة اذا تلاقيا يكون الشيطان دليلهما فلا بأس بمقاضاة الحاجات بحضرة واسطة من الناس ٥ ومن ترك الصلاة أو تهاون بها قتل حدّاً في ضروريّة ٥ واما من تعدى منكم على اخيهِ يبسط لسانهِ في عرضهِ أو مالهِ فهو ليس مني وانا لست منهُ ٠ وان ادعيتم انكم اتباعي ولم تفعلوا فعلي فانكم منافقون لقولهِ تعالى يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم فاذا لم تحابّوا كالاخوين من الأبوين فليس انتم اتباعي ٠ ومن ستر على سرقة رآها أو شرب خمر أو زنى فكتمهُ رأفة عليهم فهو كالفاعل ٥ ومن تخلف عن الجهاد بصحة جسم لا بارك الله فيهِ ٠ واذا اخذتم ذنب الابقار والاغنام والابل والزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعهُ عنكم ٥ اتركوا الترفهات وفراوي الريف لان موت النفوس حياتها ٥ والبسوا الجبب المرقعات والبسوا نساءكم الثياب الخلقة ٥ وان امري مبهم لا يعرفهُ إلا اصحاب الحضرة الذين يرون رسول الله (صلعم) لقولهِ تعالى ويخلق ما لا تعلمون ٠ اما ترون الترك لهم الاسلحة النارية والقوّة العديدة قد هلكوا واورثكم ارضهم وديارهم ٠ هذا حصل لهم بمعصية الله كذلك اذا عصيتم الله يحصل لكم كمثلهم لقولهِ تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ٠ وافضل الخلق من اتقاهُ بمأموراتهِ ونهى نفسهُ عن منهياتهِ ٠ وان

الشخص اذا اخذ البيعة وعاد الى فعلهِ الخبيث فهو كالمرتد * ويقول الانسان اذا الليل اظلم بجناحهِ الله القادر المقتدر القاهر على كل جبار عنيد ناصر الحق حيث كان بهِ الحول والقوة ان هي الا صيحة واحدة فاذا هم خامدون اللهمَّ اني اسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا اليك لم أخرج أشرًا و بطرًا ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك اسألك ان تنقذني من النار وان تغفرلي ذنوبي فانهُ لا يغفر الذنوب الا أنت • ومن قال هذا الدعاء صباحًا ومساء احدى واربعين مرة فهو معي ومع سيد الوجود (صلعم) وان عملهُ كعمل اهل السموات والارض * ولا تجاوروا من ترك الجهاد او فعل منكرًا من المنكرات المنهية كتابًا وسنة فاستعينوا عليهِ تخذوا نفسهُ ومالهُ غنيمة للمسلمين الجاهدين ان استحل ذلك والا فيؤدب * ولا تمنعوا الاراضي لانها لا تملك بل هي محوزة لبيت مال المسلمين * واما المجاهد فان استضافكم فاضيفوهُ وان استغاث بكم فاغيثوهُ * واما ارباب الجاه الذين اتخذتموهم اولياء ان نهوكم عن متابعتنا فانهم كافرون لا تسمعوا لهم قولاً لانهم ضالون مضلون بل هم اشد اهل النار وعملهم كعمل الذين قال فيهم ربنا كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك اني اخاف الله رب العالمين • وقال لي سيد الوجود (صلعم) ان السعيد من اتبعك والشقي من خالفك واني عبد ضعيف ليس لي طاقة على قوام أدنى شيء فضلاً عن ذلك الملك الجائر الذي غيّر السنة النبوية والكتب الازلية واني على بصيرة من الله واعانة من رسولهِ ومعي سيف النصر لا ينفع الشريف شرفهُ ولا العالم علمهُ ولا الولي ولايتهُ الا باتباعي والخير كلهُ في تسليمهِ الامر أيها الاحباب اني محمد ابن عبد الله وأبي حسني من جهة أبيهِ وأمهِ وأمي عباسية من جهة أبيها وأمها حينئذٍ لا شك اني من نسل المصطفى (صلعم) واني ولدت في بحر النيل وهاجرت الى ماسة في اقصى الغرب بلصق جبل يقال لهُ قدير لاني موعود بهِ فلا تلبسوا على انفسكم بقول ظهرنا في المشرق المعنى اننا نظهر بالمشرق ويملأ الله لنا البلدان عدلاً كما ملئت جورًا ويدرّ الله لنا الارزاق درًا ويغيض الماء غيضًا وتتآنس الذياب يعني بها السباع الضارية في الانعام ويؤمن كل مؤمن من

سم الحية وهـذا كلهُ بعد وصولنا لبيت الله الحرام والبيعة الثانية هي الكبرى وتسمى بيعة الفوز والرضوان • اللهم اجعلنا واخواننا المؤمنين على التقوى لقولهِ تعالى ان المتقين في جنات وعيون • وقولهِ تعالى الاخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو الا المتقين يا عبادي لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون • وقال تعالى واتقوني يا أولي الالباب وقال تعالى واتقوا الله لعلكم تفلحون وقولهِ تعالى ومن يتقِ الله يجعل لهُ مخرجاً و يرزقهُ من حيث لا يحتسب والتقوى المذكورة لا توجد غاية الا بالجهاد في سبيل الله والعمل بالكتاب والسنة رأس المال والجهاد ثمنهُ • ويجب على المجاهدين يعني بهمْ اتباعنا الذين يلهجون بالذكر في جل احوالهم بالتهليل والتسبيح والتكبير • وان اصحابي كاصحاب رسول الله (صلعم) وهذا قالهُ لي بلفظهِ الشريف ان اصحابك كاصحابي فلما كان كذلك ينبغي لنا ان تقتفي أثر اصحاب رسول الله (صلعم) الذين قال فيهم ربنا تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون وكن كذلك واحمل نفسك ودسها تحت اقدامك لعل الله يعلوك ٭ أيها الاحباب قد امرتكم ان من ترك منكم عقيقة ابنهِ فليدعها لان الروح تشكي اليَّ وتقول والدي لم يدعني فاعطني اسماً أدعى بهِ فيقول الله لها سمي نفسك بنفسك وكذلك من لم يسمهِ ابوهُ فليسمِ نفسهُ ولو بعيد الشيب والهرم فيا حسرة أب لم يسمِّ ابنهُ • وكذلك تجب باعادة الزكاة لمفرطها والصوم والكفارة فتفحصوا من الذنوب • واذا ضعف المجاهدون عن الجهاد أعينوهم أيها القاعدون اولوا الضرر بثلث مالكم واتقوا نفوسكم بمالكم ولا تخزنوها فيها لكم ضرر وسوء حظ ٭ وحكم النساء ان المرأة الناشزة لزوجها احبسوها في الاوكار والبيوت المظلمة حتى ترجع أو يتوفاها الله تعالى كالزانية فمن ثبطت نفسها عن زوجها فما لها غنيمة لزوجها وان راضاها فمالهُ غنيمة للمسلمين فان فعلوا ذلك فلا تعودوهم ان مرضوا ولا تشيعوا جنائزهم ولا تعينوهم عند الشدائد ٭ ولا يجهل في مهديتي الا شقي محروم الحظ وعادم الخير والاحسان • واعلموا ان الوقت قد أزف وربما قام كالشمس تكون في اوكار غروبها ٭ وتجنبوا عن النساء واللذات العديدة التي تورث صاحبها الكبر والبطر وجاهدوا في حق الله حق جهادهِ ايها الاحباب الناظرون

لرضوان الله الواحد القهار • وناصحوا المؤمنين وحب لأخيك المؤمن كما تحب لاخيك من ابويك وقدم حب أخيك المؤمن على نفسك وذلك الوقت تكون صاحبنا فان لم تكن كذلك بل انت مغرور وقد حرَّم الله عليك سيد الوجود ٭ واموال الغنيمة وان قلت كابرة فانهُ لا يدخل الجنة الاَّ من أخذها بقسمة أو شراء أو استحق شيء من بيت مال المسلمين فان من سرق منها لا تقبل عملهُ حتى يردها أو قيمتها ٭ فمن أعان مجاهدًا بلقمة أو درهمًا أو اناء شرب أو آلة حرب فكان يوم القيامة تحت ظل العرش ومن ناصح مجاهدًا فكأنما ناصح محمدًا (صلعم) وامن في الجنة ٭ ليتعلم بعضكم من بعض وليتأدب بعضكم لبعض وليكسر طرفه لاخيهِ المجاهد • وان لا يعلو عليهِ وان يساويهُ في الفراش والاكل الاَّ الضرر البيّن وان الامراء والعاميين فكلهم على حدّ سوى الاَّ في الامر والنهي فليحبوهم ولا يتفاضلون عليهم في المركب والملبس والاكل فمن فعل ذلك فهو مردود منا • وقال في الغنيمة المتقدمة وما كان لنبي ان يغلّ ومن يغلل يأتِ بما غلّ يوم القيامة فهو العتاب عدم نهب الغنيمة للنبي وغيره • فمن جاهد خوفًا على مالهِ أو عيالهِ وجاهه فهو محسور عند الله كالصدقة تخرج الناس • ايها الاحباب كونوا ربانيين وفوّضوا امركم الى الله فان النصر لكم وان القتل الذي ترونهُ امتحانًا لكم وليس يريد بهِ تضعيف المسلمين وان الله مع المؤمنين والسلام ٭

﴿ تعاليم المهدي عن استاذهِ محمد شريف ﴾ وجاء في رائية الاستاذ محمد شريف عن تعاليم المهدي ما يأتي بحرفهِ مع اصلاح وزن بعض الابيات :

أكاذيب ابداها فمنهـا عن النبي	ومنها عن المولى ومنها عن الخضر
كأخباره بالخسف والمسخ للعدا	وكم في قدير من سلاح ومن تبر
ومن بعضها تحليل كل جميـلة	ولو ذات بعل دون عقد ولا مهر
ومنهـا روى عن زوجة المتخلف	بما لم يكن في المسلمين ولا الكفر
ومنها اصلي في الجوامع كلها	الى المسجد الاقصى ولم يدرِ ما يجري
ومنها انا المهديـ منتظر الورى	ولم يستحِ من عالم السرّ والجهر
وينهى النسا عن حليهنّ وان بدت	بها كان منهُ الحكم بالنتف للشعر

وينهى عن التنباك نهياً كأنما | أتى منعهُ في الذكر من شدة الزجر
وينهى عن الارباح في الاخذ والعطا | ويمنع عن حرثٍ وعن سبب الخير
وينهى عن العلم وعن كل واجب | ويأمر بالمنهي وينهى عن الامر
ويمنع عن حجٍ وينهى عن النبي | ويمنع عن درس وينهى عن الذكر
يبيح حرام الدين كالمال والزنا | وسفك الدما والبيع للمسلم الحر
وينسخ حكم الله بالرأي والهوى | ويقضي بالقاء الشريعة في البحر
ويزعم بالجهل المركب فضلهُ | على الانبيا الا الرسول فذو شطر

﴿مراتب اصحاب المهدي﴾ وقد كان انصار المهدي مراتب متفاوتة في المقام والكرامة بحسب أسبقيتهم في الانضمام اليهِ : فالمرتبة الاولى «تلامذتهُ» الذين صحبوهُ قبل ادعائهِ المهدية ويقال لهم أبكار المهدي . والمرتبة الثانية «انصار أبا» اي الذين نصروهُ في أبا . والمرتبة الثالثة «انصار قدير» اي الذين هاجروا اليهِ وهو في قدير . والمرتبة الرابعة «انصار كابا» وهم الذين خرجوا لهُ من الايض الى كابا . ثم باقي الانصار وهم ايضاً طبقات بحسب أسبقيتهم في صحبتهِ فأهل بارة اكرم من اهل الايض وهؤلاء اكرم من اهل الخرطوم وهكذا . قيل ان اللواء ابراهيم باشا فوزي اجتمع بالملازم يوسف افندي منصور في بيت الحاج خالد العمرابي بعد سقوط الخرطوم فلما حضر الخادم بالقهوة قدّمها الى يوسف منصور اولاً فأشار هذا اليهِ ليذهب بها الى ابراهيم باشا فالتفت الحاج خالد الى يوسف منصور وقال لماذا تردّ القهوة وتقدمها الى ابراهيم فوزي قال يا سيدي لانهُ اكبر مني مقاماً فقال الحاج خالد لا بل أنت اكرم منهُ الآن لانك اسبق الى صحبة المهدي . وكان الخادم قد قدّم القهوة الى ابراهيم باشا فلما سمع كلام سيدهِ اخذ الفنجان من يد ابراهيم باشا واعطاهُ ليوسف منصور ثم قدم لابراهيم باشا فنجاناً فاعتذر عن شربهِ وانصرف وهو يحرق الأرَّم على المهدية وساعتها

﴿اهل السودان ودعوى المهدي﴾ وقد صدَّق اهل السودان خاصتهم وعامتهم دعوى المهدي ونصروهُ وهم لا يشكّون ان من مات في سبيلهِ فنصيبهُ الجنة والحور العين حتى صاروا يتمنون الموت وينادون عند رؤية القتال «الجنة جت قريبة تحت

المدفع وتحت الزريبة » . وقد سموا التجار « كلاب الدنيا » لتقاعدهم عن الجهاد . وحُكي ان جعلياً جرَّ صديقاً لهُ الى المحاكمة لانهُ قال لهُ عند وداعهِ « الله يكتب سلامتك » . ولم يبقَ في السودان من شك في دعوى المهدي الا نفر قليل من الادباء العقلاء وهؤلاء لم يجسروا على الاباحة بسرّهم حتى الى نسائهم خوفاً على انفسهم من نقمتهنّ فضلاً عن نقمة المهدي . ومن اباح منهم بسرّهِ قتل الأثلاثة من العلماء خطأوا المهدي في وجههِ قصد إراحة ضميرهم مع الله فسلموا وهم :

«الشريف محمد الامين بن الشريف يوسف الهندي» من سكان رهد النيل الازرق . قيل ان المهدي كتب اليهِ يأمرهُ بالانضمام الى عاملهِ احمد المكاشف أو الهجرة اليهِ في الابيض فاختار الهجرة اليهِ ليختبرهُ وأتاهُ الى الابيض بعد فتوحها في شوال سنة ١٣٠٠ فأنزلهُ مع الشريف حمد النيل قرب ديوان المديرية فلما خبرهُ انكر عليهِ اشياء كثيرة ولم يكن لهُ القدرة على ردعهِ ولم يطاوعهُ رأيهُ على المظاهرة بنصرتهِ فقال للمهدي في بعض زياراتهِ لهُ « اني استحلفك الله ان تتركني وشأني فلا تزورني ولا تدعوني الى زيارتك » قيل وطلب من الله ان يقبض روحهُ وينجيهُ من هذه الضلالة فلما زحف المهدي من الابيض لغزو الخرطوم خرج معهُ فتوفاهُ الله في رهد كردوفان في ٢٧ رجب سنة ١٣٠٠هـ ودفن هناك رحمة الله عليهِ . وقد رأيت نجلهُ الشريف يوسف الهندي في مصر فاكد لي هذه الرواية وقال انهُ سيبني قبة فوق قبرهِ في وقت قريب

«والشيخ محمد الزاكي من اقارب ود الزاكي المدفون على البحر الابيض» . قيل انهُ كتب الى المهدي يصرّح لهُ في الامور التي خالف بها الشريعة واحدة واحدة وقال لهُ : اني اكتب هذا اليك لمجرد النصح فاملي ان تعمل بهِ وتخفيهِ عن اصحابك لانهم لو علموا بهِ لقتلوني جهلاً فان اخفيتهُ وحفظت هذه النصائح فانت جدير بذلك وان لم تخفهِ ولحقني شرٌّ بسببهِ فأعدّهُ « كلمة حق عند ملك جائر » . فاخفاه المهدي عن اصحابهِ ولكن اباح بهِ ود الزاكي لبعض اخصائهِ

« والشيخ محمد نور احمد من عمد بارة » . قيل انهُ كان يصلي كثيرًا بالصلاة

الجزولية فلما امر المهدي بمنع قراءة الكتب كلها اغتاظ من منع كتاب الصلاة الجزولية لحمله بيده وتقدم الى المهدي وقال له اني لا استطيع ترك هذه الصلاة وانا راض بما يصيبني من قراءتها فكتب اليه المهدي كتاباً يسمح له بقراءتها هذه صورته بعد البسملة:

« وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي الى حبيبه محمد النور وقاه الله الشرور انا قد قلنا ان من امكنه ان يصلي على النبي بالصلوات الواردة المأثورة فخير لاجل الاقتداء ومن كان لا ينشط لذلك فليصلي على النبي بما ينشطه من جزوليته او غيرها والسلام »

﴿ العالم الاسلامي ودعوى المهدي ﴾ هذا وقد اهتز لمهدي السودان العالم الاسلامي في جميع الاقطار وهاجر اليه جماعة من مصر والحجاز والهند وبلاد المغرب قصد زيارته والوقوف على حاله ولو اطال الله في امده وزاد في توفيقه لقلب وجه الشرق انقلاباً عظيماً ولكن لطف الله بعباده واوقفه عند هذا الحد فلم تتعد نصرته السودان

﴿ الحكومة ودعوى المهدي ﴾ وكانت الحكومة قد تحوطت له فأصدر جلالة السلطان عبد الحميد السلطان الحالي ايده الله منشوراً رسمياً كذب فيه دعوى محمد احمد ونشره في جميع البلاد الاسلامية ٥ وكذلك أستفتي علماء الازهر في شأنه فأفتوا بتكذيبه ونشر مجلس النظار منشوراً بذلك. قال العوَّام في نصيحته المشهورة: « ان الحكومة لم تستفت علماء الازهر في امر المهدي الاّ في شهر محرم سنة ١٣٠١ هـ أي بعد مباشرتها الحرب سنتين واربعة اشهر وعجزها عن القيام باستمرار الحرب فكان رجوعها بعد ذلك الى الاستفتاء رجوع فرعون الى الايمان » ٥ ثم لما ذهب عبد القادر باشا واليا على السودان أوعز الى علماء الخرطوم فألفوا الرسائل في تكذيب محمد احمد وتسفيه رأيه وقد طبعت في مطبعة الحجر في الخرطوم ووزعت في البلاد واشهر هذه الرسائل:

رسالة السيد احمد الازهري ابن الشيخ اسماعيل الولي الكردوفاني شيخ الاسلام في عموم غرب السودان المسماة بالنصيحة العامة لاهل الاسلام عن مخالفة الحكام والخروج عن طاعة الامام. ورسالة الشيخ الامين الضرير شيخ الاسلام في عموم شرق السودان المسماة هدي المستهدي الى بيان المهدي والمتمهدي. ورسالة الاستاذ محمد شريف المار ذكرها. ورسالة المفتي شاكر مفتي مجلس استئناف السودان. وهذه هي:

رسالة المفتي شاكر الغزي في بطلان دعوى محمد احمد المتمهدي

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمدلله الذي جعل السلطنة سرًّا من اسرار الالوهية وفرضاً من الفروض الشرعية الدينية . وجعل لزوم طاعتها فرضاً لازماً وامرًا جازماً . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بين الحلال والحرام وازال الشكوك والاوهام . وعلى آلهِ واصحابهِ السادة في الاهتداءِ وشموس الاقتداءِ فيقول العبد الفقير شاكر الغزي مفتي مجلس استئناف السودان بلغهُ الله اقصى منازل الرضوان

لما كان ما ادعاهُ محمد احمد من المهدية بعيد عن الصدق بالكلية وصدقهُ في مدعاهُ جهلة العوام والاوباش الطغام جمعت هذه الرسالة في نصحهم وارشادهم من هذه الضلالة مرتبة على مقدمة وفصلين وخاتمة فأقول والله المستعان

المقدمة * في وجوب طاعة السلطان وولاة الامور

اعلموا ايها الاخوان اصلح الله لي ولكم الشأن ان الدين والسلطان اخوان متلازمان فالدين هو الاساس والسلطان هو حافظهُ ومشيدهُ وما لا حافظ لهُ ضائع يعز تأييدهُ فلا دين الا بالسلطان . فالسلطان في الحقيقة هو القائم بحماية الدين وحفظ بلاد المسلمين وهو ظل الله في ارضهِ وبهِ تقام شعائر سنتهِ وفرضهِ فهو خليفتهُ على خلقهِ وامينهُ على رعاية حقهِ قد ارتضاهُ من خليقتهِ وامرهم بطاعتهِ . قال تعالى اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الامر منكم . وقال (صلعم) عليكم بالسمع والطاعة وان تأمر عليكم عبد حبشي كان رأسهُ زبيبة . وقال عليهِ السلام تسمع وتطع وان ضرب ظهرك واخذ مالك * واعلموا ان من اوضح الادلة السالمة من الاعتراض الحاسمة ابواب الانتقاض ما ورد في القرآن العظيم وسنة النبي الكريم من الامر بالاعتصام بالكتاب والسنة والائتلاف وعدم النزاع والخلاف قولهُ واطيعوا الله ورسولهُ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم . وقال تعالى واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . وقال تعالى لو انفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم والمراد بحبل الله المعتصم بهِ هو القرآن وهو اختيار جماعة من ائمة التفسير * ونقل

عنهُ عليهِ السلام انهُ قال ان الله رضي لكم ثلاثاً وكره لكم ثلاثاً رضي لكم ان تعبدوا الله ولا تشركوا بهِ شيئاً • وان تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا • واسمعوا واطيعوا لمن ولاهُ الله تعالى امركم • وكره لكم قيل وقال واضاعة المال الحديث ۞ وقال عليهِ السلام المؤمنون كالبنيان يشد بعضهُ بعضاً • وقال عليهِ السلام من حمل علينا السلاح فليس منا • وقال عليهِ السلام من رأى من اميرهِ شيئاً فكرههُ فليصبر فانهُ ليس احد يفارق الجماعة شبراً فيموت الا مات ميتة جاهلية ۞ واعلموا ان نور التألف ينسخ ظلم العداوة من القلوب ويكون ستراً من هجوم الحوادث وسداً في وجه الخطوب • وقديماً شبت في القبائل والعشائر نار العداوة فأحرقتهم وانبسطت يد المنازعة والمخالفة بينهم فمزقتهم واستلت فيهم سيوف الاحن والبغضاء ففرتهم ولمعت بروق التقابل والتقاتل فتألقت • ثم هبت عليها رياح التألف والاتفاق فأطفأت ضرامها وصرفت غرامها وشفت سقامها ونفت عنها آلامها وملامها فتبدلوا بالاساءة احساناً وبالمخالفة اماناً وبالمنافرة اذعاناً وبالنقيصة رجحاناً فعادوا بعد التباين صنواناً واصبحوا بنعمة الله اخواناً ۞ فاذا علمتم ذلك وعلمتم ما تضمنتهُ هذه الآيات الكريمة والاحاديث العظيمة من وجوب طاعة ولاة الامور وحرمة قتالهم والخروج عن طاعتهم أيقنتم ان من خرج عن الطاعة شبراً فقد عصي الله ومات ميتة جاهلية • واذا علمتم ايضاً ما في الخلاف والمنازعة والعداوة من الخراب والدمار أيقنتم ان الواجب عليكم الرجوع الى الائتلاف والاتفاق فاتقوا يوماً ترجعون فيهِ الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون • فذكروا انفسكم رحمكم الله تعالى فان الذكرى تنفع المؤمنين

الفصل الاول ۞ في بطلان دعوى محمد احمد المهدية

ان بعض العلماء قال بظهور المهدي في آخر الزمان واحتجوا لذلك باحاديث خرجها الائمة • وبعض العلماء انكرها وتكلموا فيها وربما عارضوها ببعض الاخبار • وللمتصوفة المتأخرين طريقة اخرى في امرهِ • ورمز بعضهم الى خروجهِ في ج ف ج اشارة الى انهُ يخرج سنة ٦٨٣ • ورمز بعضهم الى خروجهِ في سنة ٧٠٠ وكسور وغير ذلك ولم يخرج • فللعلماء فيهِ قولان قول بخروجهِ آخر الزمان وقول بعدم خروجهِ •

وعلى القول بخروجهِ فهذا ليس زمانهُ . ومحمد احمد ليس هو المهدي المنتظر لمخالفتهِ لهُ في اوصافهِ وفي مكان مولدهِ ومكان خروجهِ ووزرائهِ ورجالهِ ٭ ٭ فما ورد من ذلك ان مولد المهدي المنتظر ومظهرهُ بمكة كما في العرف الوردي والصواعق . وقيل مولدهُ بالمدينة . وقال العلقمي والقول بانهُ يخرج من المغرب لا اصل لهُ وعلى تسليم صحتهِ فالذي قال بخروجهِ من المغرب قال انهُ يخرج بموضع يقال لهُ ماسة وراء السوس الاقصى . وانتم لا يخفى عليكم ان مولد محمد احمد بدنقلة وخروجهُ بجزيرة ابا وجبل قدير فقد باين المهدي في المولد والخروج وهذا دليل على بطلان دعواهُ وظهور كذبهِ وافتراهُ ٭ ٭ ومنها انهُ من عترتهِ (صلعم) افرق الثنايا اجلى الجبهة وجههُ كالكوكب الدري ومحمد احمد ليس كذلك ٭ ٭ ومنها انهُ شاب اكحل العينين ازج الحاجبين اقنى الانف كث اللحية على خدهِ الايمن خال وعلى يدهِ اليمنى خال وهذه الاوصاف تباين اوصاف محمد احمد وهو ايضاً برهان قاطع بعدم صحة دعواهُ وبطلانها ٭ ٭ ومنها انهُ يشبه رسول الله (صلعم) في الخلق ويقرب منهُ في الخلق وانتم تعلمون ان لونهُ (صلعم) ابيض مشرب بحمرة كما في الشمائل الترمذية ولون محمد احمد ليس بابيض كما هو مشاهد لكم فمن اعتقد ان لون نبينا (صلعم) كلونهِ فقد انتقصهُ وحكم منتقصهِ (صلعم) الردة حتى قال في الشفاء لا تقبل توبتهُ وهذا دليل ايضاً على عدم صحة دعواهُ . وايضاً لا يقارب خلقهُ (صلعم) لقتلهِ المسلمين واستباحة اموالهم وحملهم على قتل بعضهم بعضاً ورسول الله (صلعم) منزه عن ذلك ٭ ٭ ومنها انهُ ينادي عند ظهورهِ فوق رأسهِ ملك هذا المهدي خليفة الله فاتبعوهُ ومحمد أحمد ليس كذلك فكيف تتوهمون في عدم صحة دعواهُ الباطلة وهذه الاحاديث تكذبهُ اكذبتم باحاديث رسول الله والعياذ بالله تعالى ٭ ٭ ومنها ما اخرجهُ الحاكم في صحيحهِ عنهُ عليهِ الصلاة والسلام قال يحل بامتي في آخر الزمان بلاء شديد من سلطانهم لم يسمع بلاء اشد منهُ حتى لا يجد الرجل ملجأ فيبعث الله رجلاً من عترتي اهل بيتي يملأ الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت جورًا وظلماً يحبهُ ساكن الارض وساكن السماء . وانتم لا يخفى عليكم ان شدة البلاء من السلطان وعدم الملجإ لم يوجدا

فانا وانتم في رغد من العيش آمنين مطمئنين وملجأنا وملجأ العامة موجود وهو ولي النعم الخديوي الاعظم وسعادة افندم ناظر ديوانه وحكمدار عموم الاقاليم السودانية « عبد القادر باشا » بلغهُ الله ما يشاء . والمأمورون من تحت ادارته تلجأون اليهم في مهماتكم فيأخذون بيد المظلوم وينتقمون من الظالم . فلا يتوهم حينئذٍ ظهور المهدي في هذا الزمان لان هذا الزمان ليس زمان ظهوره لوجود الملجإ وفقد البلاء . وان كنتم تتوهمون انهُ المهدي فاين ملؤُهُ الارض عدلاً وقسطاً كما في الحديث بل والله ما ملأها الا قتلاً وفساداً وخراباً كما هو مشاهد واين حب ساكن الارض لهُ هل يحب العاقل من يسعى في الارض بالفساد وينهب ويقتل العباد وهل يرضى احد بفقد الامن وقتل المسلمين بغير حق وتفريق كلمتهم . فاعتبروا يا أولي الابصار وانظروا بعين الاستبصار واعتقدوا ان محمد احمد ليس مهدياً وكذبوهُ في دعواهُ لما بسطناهُ من الاحاديث ولما ورد عن رسول الله (صلعم) ان رجال المهدي المنتظر الهيون ابدال الشام وعصائب اهل العراق فهل رأيتم يا جهلاء المسلمين معهُ رجالاً الهيون من ابدال الشام وعصائب اهل العراق كلا والله ما معهُ الا جهلة العوام واوباش الطغام كما هو ظاهر لكم وهذا دليل ايضاً يكذبهُ في دعواهُ * ومنها انهُ يخرج لقتال يوسف السفياني لا لقتال المسلمين ومحمد احمد انما يقاتل المسلمين ويقتلهم ظلماً فهل رأيتم في كتاب الله او سنة رسول الله ان المهدي يقاتل المسلمين ويقتلهم وينهب اموالهم وهو انما يظهر لحماية الدين ونصرة المسلمين . واين السفياني وجيوشهُ الذين خرج محمد احمد لقتالهم فهذا برهان آخر على ان دعوى محمد احمد زور وبهتان * ومنها ان المهدي يبايع وهو كاره لهذه البيعة ومحمد احمد يندب الناس الى مبايعته ويقتل من لم يبايعهُ وهذا دليل على ضلال محمد احمد وبطلان دعواهُ * ومنها ان المهدي المنتظر لا يخرج عن الكتاب والسنة ومحمد احمد نبذ كتاب الله وراء ظهره والا فالكتاب والسنة لا تبيحان الخروج عن طاعة الامام والكذب والغش والتلبيس على المسلمين وقتلهم ونهبهم بلا حق والشرع لا يبيح قتل الكافر المؤْمن والمعاهد ولا نهب ماله فاين العمل بالكتاب والسنة . فهذه

عدة ادلة نقلناها في بطلان دعواهُ . فهل رضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة وما متاع الحيوة الدنيا في الآخرة الا قليل ام قبلتم الخروج عن سنن الكتاب والسنة وانقلبتم على اعقابكم خاسرين اهكذا شأن المسلمين فكيف ترضون باقرار هذه المعاصي بين اظهركم ولم لا تغيرون هذا المنكر من بين اظهركم * فيا ايها المسلمون انشدكم الله تعالى في دينكم لا تغيروه بوساوس محمد احمد الشيطانية وهذياناته النفسية * فانا رأينا وسمعنا كثيرًا من ادعى المهدية قبلهُ كابراهيم السوداني فانهُ ادعى المهدية بالخرطوم واتخذ محمد الهراف وزيرًا وتلاشى امرهُ وبطلت دعواهُ بقوة الحكومة * وكذلك الشيخ احمد بن عبيد المدعي انهُ المهدي بصعيد مصر قد تلاشت دعوتهُ الباطلة وفرقت جموعهُ العاطلة وغير ذلك ممن ادعى المهدية بل النبوة بل الالوهية كالمقنع الكندي و بطلت دعواهم وكذبهم الكتاب والسنة فيهما وانقطع امرهم * فاعلموا ان محمد احمد هذا قد تأسى في دعواهُ هذه بمن ادعاها قبلهُ وسيحل بهِ ان شاء الله تعالى ما حل بهم فاتقوا الله عباد الله وازيلوا هذا المنكر بما قدرتم لانهُ ورد عنهُ عليهِ السلام من رأى منكم منكرًا فليغيرهُ بيدهِ فان لم يقدر فبلسانهِ فان لم يقدر فبقلبهِ وذلك اضعف الايمان والله سائلكم عن ذلك

الفصل الثاني * في النهي عن اتباعهِ ونصيحة من اتبعهُ

قد اوضحنا لكم السبيل السويّ ونقلنا لكم القول القوي مما ليس فيهِ شائبة توهم ان محمد احمد هو المهدي فلا يتبعهُ الا من استحكمت عليهِ عوائد التوحش ووقع في ظلمات الجهل والطمع في ايدي الناس وباع دينهُ بدنياهُ فجملة اتباعهِ من حمق العربان وحمق الدراويش الذين ليس لهم مقصد الا النهب والسلب والقتل اذ انهم اضل من الانعام سبيلاً لا بصيرة لهم ولا معرفة ولا دين . فما مثال هؤلاء الاتباع الا كمثال امرأة عجوز سمعت ان الشجعان والابطال من المقاتلين ثبتت اسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من اقطار المملكة فتاقت نفسها الى ان يقطع لها مملكة فلبست درعاً ولبست على رأسها مغفرًا وتعلمت من رجز الابطال ابياتًا وتعودت ايرادها بنغماتهم حتى تيسرت عليها وتعلمت كيف تبخترهم في الميدان

وتحريكهم الايدي وتلقفت جميع شمائلهم في الزّي والمنطق والحركات والسكنات ثم توجهت الى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان فلما وصلت الى المعسكر انفذت الى ديوان العرض وامر بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر ما تحتهُ وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر عنائها فلما جردت عن المغفر والدرع فاذا هي عجوز ضعيفة زمينة لا تطيق حمل الدرع والمغفر فقيل لها أجئتِ للاستهزاء بالملك والاستخفاف بأهل حضرتهِ والتليس عليهم • خذوها فالقوها قدام الفيـــل لسحقها فألقيت الى الفيل وهكذا يكون حال الجهلة الطغام الذين لا يعرفون عاقبة ماهم فيهِ المغرورين الملبسين الذين سوّل لهم الشيطان اعمالهم فصدّهم عن السبيل وما كانوا مهتدين • فاياكم ايها الاخوان الاقتداء بهؤلاء الجهلة والعمل بأعمالهم فيجب عليهم ان يرجعوا الى طاعة الحكومة ولا يقتدوا بشيخهم ابليس لانهُ اذا كشف عنهم الغطاء وأتتهم الجلل والمدافع والبنادق والرصاص لتمنوا الخلاص ولات حين مناص اذ ما من احد ينكر ان عساكر الحكومة هي مئات من الالوف وان الحكومة قادرة في كل وقت على تجديد الوف الالوف من العسكر وتجهيزها بالمهمات الكافية الحربية وعلى تشكيل القوى العديدة وان حصول التلف لجزء من عساكرها لايؤثر في الحكومة شيئاً ولا تعتد بهِ لاقتدارها على تجديد اكثر منهُ في اقرب وقت • فبمجرد وقوع الفشل لبعض العساكر في بعض الوقائع لتهاون الضباط واهمالهم لا تؤيد دعوى الشقي محمد احمد اذ لذلك امثال مضت ووقائع تقدمت • ألا ترون ما وقع من عساكر الحكومة مع العصاة الذين كانوا بجهة شكا ودارفور وغيرها في اول الامر أوقعوا الفشل في عساكرها ثم انتصرت عليهم عساكر الحكومة وعاد عليهم العصيان بالوبال والخسران وذهبوا فريسة عساكرها جزاء خروجهم عن الطاعة وامثال هذا كثير يعلمهُ من شاهد الحوادث أو سمع بها • فكيف يتصور بعقل عاقل ان هذا الشقي بمجرد اجتماع شرذمة من المفسدين عليـهِ غايتهم السلب والنهب يقاوم حكومة لها مئات من الوف العساكر والجيوش قادرة بمنهِ تعالى على تسليحهم بأسلحة نارية وآلات حربية • وهذا ما أعد لهم في الدنيا وقد أعد الله لهم جهنم وساءت مصيرًا جزاء

خروجهم عن طاعة الله ورسوله وولاة الامور وقتلهم النفس التي حرّم الله قتلها ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها فالله الله عباد الله عليكم بتقوى الله تعالى والعمل بكتاب الله وسنة رسوله وارجعوا الى طاعة الله وطاعة الحكومة ولا تتبعوا الاوهام الشيطانية والوساوس الخرافية وانشدكم الله في دمائكم واموالكم ودينكم الا تضيعوها بمتابعة محمد احمد الشقي وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون

﴿ الخاتمة ﴾ في وجوب قتل الخوارج ونصر السلطان

اعلموا ايها الاخوان قد اجمع ائمة الدين ان الخروج عن الطاعة من الكبائر ولو جار السلطان لا يجوز الخروج عليه ويجوز له قتالهم . ويجب عليكم قتال الخوارج معهُ ونصرتهُ عليهم لخلعهم ربقة الاسلام قال (صلعم) من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الاسلام من عنقهِ . وقال (صلعم) يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الاسنان سفهاء الاحلام يقولون من قول خير البرية يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية لا يجاوز ايمانهم حناجرهم فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فان قتلهم اجر لمن قتلهم يوم القيامة . وعنهُ عليهِ الصلاة والسلام قال سيكون في أمتي اختلاف وفرقة قوم يحسنون القيل ويسيئون الفعل يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية لا يرجعون حتى يرتد على فوقهم هم شر الخلق والخليقة طوبى لمن قاتلهم وقتلهم يدعون الى كتاب الله وليسوا منهُ في شيء من قاتلهم كان أولى بالله منهم . فعليكم ايها المسلمون ان تنصروا الله تعالى بنصر سلطانكم قال تعالى ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم . فيجب عليكم صيانة لدينكم وحفظاً لاموالكم ودمائكم ان تقاتلوا هؤلاء الخوارج الدجالين وتقتلوهم حيث وجدتموهم وان تمنعوا كل من اراد الخروج معهم وتفرقوا جماعتهم وتمنعوا زيادتهم ويحرم عليكم جلب السلاح اليهم وكلما يؤدي الى قوتهم وزيادتهم حتى يرجعوا الى الحق ويعلنوا الطاعة ولا يغرّنكم قول محمد احمد الشيطان الغرور ان يخرج عليكم مدافع الترك وبنادقها ورصاصها ماء بارداً لا ناراً وانهُ يمسك سر النار لكم فهذا كذب وغرور وبهتان وزور لا صحة لهُ ولا دليل عليهِ بدليل ان الرصاص من الترك اصابهُ في كتفهِ ولم يقدر ان يجعلهُ ماء على نفسهِ

فكيف يجعلهُ عليكم ماء، وهذا وزيرهُ ولد المكاشف واحمد ولد طاها وغيرهم ممن كانوا بجزيرة أبا وغيرها وجميع من كان معهم من حزب الشيطان قتلهم الرصاص ولم يجعلهُ عليهم ماء، كما هو مشاهد لكل مطلع بالعيان • فيا اتباع محمد احمد قد اوضحنا ما أنتم عليهِ ومحمد احمد من الباطل مؤيد بالكتاب والسنة وعلمتم حكم الله فيكم فالله الله في دمائكم ودماء المسلمين والدين • فبادروا الى الحكومة بطلب العفو والامان وتقربوا اليها بالسمع والطاعة وتوبوا الى الله تعالى وتوسلوا اليهِ باتباع اوامر الحكومة واجتناب نواهيها فانها تقبل متابكم وتعفو عن عقابكم وتشملكم بالرحمة والاحسان والعفو والامان • وها قد بذلت لكم النصيحة فاتركوا الافعال القبيحة فكم للحكومة عليكم من الاحسان الجليل والغفران الجزيل فانهــا ربتكم فوق مهد عدلها وادرت عليكم وافر فضلها وخلصتكم من ملوككم الاولين الذين اتخذوكم عبيدًا وخولاً وعمرت بلادكم وامنت اوطانكم وكثرت زراعتكم بعد ان كانت بلادكم بغاية الخراب والبوار واموالكم وذراريكم للنهب والاسار لا تملكون خطيرًا ولا حقيرًا • والآن لله الحمــد صرتم بفضلها وحسن سياستها في غاية الامن والعمار وكثرة الغنى واليسار ومع ذلك فهي تنفق على عمار بلادكم وحفظ حياتكم المبالغ الوافرة من خزائنهــا العامرة ولا تحملكم دفع شيء من ذلك • وما تأخذهُ منكم من المطاليب الميرية ينفق مع زيادة عليــهِ منها في مصالح بلادكم الضرورية • ومع هذا فلا يبلغ مطلوبكم نصف مطلوب مديرية من المديريات مع ان الله تعالى أوجب عليكم ان تدفعوا للحكومة زكاة سائمتكم من ابل وبقر وغنم وخراج اراضيكم واذا حاسبتكم الحكومة على ما هو واجب عليكم دفعهُ شرعاً اليها واخذت منكم على مقتضاها يكون اضعاف ما يؤخذ منكم من المطاليب الآن • فمع شمولها بهذهِ الشفقة والرحمة الخديوية كيف يليق بكم ان تقابلوها بالعصيان وتتبعوا حزب الشيطان واهل الفساد والبهتان وتسعوا في خراب دياركم وقتل نفوسكم ونهب اموالكم فلولا شفقتها ورحمتهــا بكم لانزلت بكم العذاب وعاملتكم بأشد العقاب فاقبلوا هذه النصيحة واسأل الله لي ولكم الهداية ـــفي المبدأ والنهاية وصلى الله على سيدنا محمــد وعلى آلهِ وصحبهِ وسلم • انتهت • ويليها :

﴿ رسالة السيد احمد الازهري في تكذيب دعوى محمد احمد المتمهدي ﴾

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي خصّ من اصطفاهُ بالهداية وهدى من وفقهُ الى سلوك سبيل الرشد بمحض العناية والصلاة والسلام على حبيبهِ ورسولهِ الذي انزل عليهِ كتابهُ الذي لم يفرط فيهِ من شيء. وعلى جميع آلهِ واصحابهِ الناهجين منهاجهُ في تبيين الرشد من الغيّ.

« اما بعد فأقول وانا الذي من كل حول وقوة بري الفقير اليهِ تعالى « السيد احمد المعروف بالازهري ابن الشيخ اسماعيل الولي الكردوفاني » افاض الله تعالى عليَّ وعلى المسلمين من فيض مددهِ الرحماني . انهُ لما كانت النصيحة لله ولرسولهِ ولائمة المسلمين وعامتهم من الدين وقد ورد ذلك في الاحاديث الصحيحة عن سيد المرسلين وخاتم النبيين وورد عنهُ ايضاً من لم ينصح في ديننا هذا فليس منا أي ليس تابعاً لسنتنا وورد عنهُ ايضاً من لم ينصح في ديننا هذا فبيعتهُ منقوضة وغير ذلك مما لا يمكننا ايرادهُ هنا قد عنَّ لي ان اتدارك نفسي والمسلمين من اتباع الوساوس الشيطانية واقتحام سبيل المهالك بالتسويلات النفسانية وذلك لما تحقق عندي من عموم البلوى التي انتشرت ببلاد السودان حتى ضاعت بسببها الالوف المكررة من دماء المسلمين واموالهم خصوصاً في جهات سنار وجهات كردوفان وانجبرت الحكومة العثمانية على بذل التكاليف لتحصيل العُدَد والعدَد غيرة على الدين والاسلام واهلهِ لاجل الذب وردع المفسدين بسطوة الدولة وقوة المدد. وحيث ان شتيت القبائل من العربان وغيرهم اغلبهم عوام وقد قام بأفكار ارباب العقول الضعيفة ما قام بها من الاوهام نظرًا لما سمعوهُ من دعوى المهدية التي قام بها محمد احمد وصدور مكاتبات منهُ لبعض من يظن انهُ يعتمدها وتكون لهُ كالمستند وقد هيجت تلك الدعوى وما اشتملت عليهِ من المكاتبات فتنة عظيمة بين المسلمين حتى صار البعض منهم يقتل بعضاً وينهب مالهُ من غير حق الاسلام وغاب عنهم ما حذر الشارع (صلعم) وصرح بأن ما كان مماثلاً لما ارتكبوهُ لا يشك فيهِ بأنهُ

حرام • وكان قبل خروجي من محل طني كردوفان قد بلغني ان مدعي المهدية المذكور قد خاطبني بكتاب وكنت حريصاً على وجدانه والنظر لما اشتمل عليه من الخطاب ولكني لم اجده ولم اجد احداً يكيّفهُ لي لكي ابني عليه مخاطبة تشتمل على ما لا بد منهُ من النصيحة وأوضح فيها ما يحتاج اليه من النصوص الصريحة رجاء مني بأنها ان وصلت اليه وتليت بين يديه فانهُ لايسعهُ الا الرجوع الى الحق ومقابلة أولي الامر بالسمع والطاعة وتسكين هذه الفتنة التي هاجت بين الخلق وما كنت أظن اشتداد هذه الفتنة يبلغ هذه الغاية حتى مررت بجزيرة الخرطوم قاصداً التوجه الى مصر المحروسة وبعد وصولي الى الخرطوم تراكمت عليَّ المخاطبات بوصول تلك البلوى والفتنة الى ما ليس لهُ نهاية • ثم لما حضر صاحب الجلالة والشهامة والرأي السديد والتدبير الكامل والبسالة والفخامة ناظر الديوان وحكمدار عموم الاقاليم السودانية « سعادتلو عبد القادر باشا » بلغهُ الله تعالى غاية الامنية بمركز الحكومة الذي هو في الخرطوم وبسديد رأيه دبّر الامور ورتب الترتيبات ونشر راية الامن واجتهد في نشر ما يكون به اصلاح العموم ومن الجملة فان الواجب علينا القيام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر والاجتهاد في بذل النصيحة ودرء الشبه التي قامت بأفكار من ليس لهم قريحة بايراد الادلة المأخوذة عن الاحاديث الصريحة واقوال اهل العلم المعتمد على اقوالهم الصحيحة عسى ان يكون في ذلك نفع للعموم وردع للمفسدين بما يكون لهم من الدين معلوم وقد ألفت هذه النصيحة التي سميتها « النصيحة العامة لاهل الاسلام عن مخالفة الحكام والخروج عن طاعة الامام » وعند شروعي في ما قصدت بعون من عليه اعتمدت قلت :

« اعلموا ايها الاخوان في الاسلام الراغبون فيما عند الله تعالى من الكرامة والانعام ان الله سبحانهُ وتعالى بيّن لعباده طريق الضلالة وطريق الهدى وانهُ مراقب لهم في جميع احوالهم وافعالهم ولم يتركهم سدًى واختار من عباده اناساً أولاهم اسرار المملكة وأمر بطاعتهم وجعل مخالفتهم مؤدية الى الوبال والتهلكة قال تعالى اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم وقال عليه الصلاة والسلام عليكم بالسمع والطاعة

وان ولّي عليكم عبد حبشي • وقد نص العلماء على ان الخروج عن طاعة الامام حرام • وقال عليه الصلاة والسلام من أطاع اميري فقد اطاعني ومن عصى اميري فقد عصاني • وقد نص العلماء أيضاً على ان الامام لا يعزل ولا تنبذ بيتعهُ ولا يطرح عهدهُ الا اذا أمر أحدًا ان يكفر أو كفر هو أي الامام واما اذا لم يكفر فانهُ لا يعزل عن الامامة ولا يُنبذ عهدهُ ولا تطرح بيعتهُ ولو زالت عنهُ العدالة واتصف بالفسق كما عليهِ اهل التحقيق • وحيث علمتم ما اوردتهُ لكم من النصوص من ان طاعة الامام واجبة عليكم وان خروجكم عن طاعتهِ حرام عليكم وانهُ لا يصح لكم نبذ عهدهِ وطرح بيعتهِ ولو اتصف بالفسق ما لم يكفر فكيف يسوغ لكم الاستماع لما نقل عن محمد احمد من دعوى المهدية والاغترار بما ينقل عنهُ من الاقوال في المخاطبات مع ان دعواهُ المهدية ليس لهُ دليل عقلي ولا نقلي يوافقهُ على صدقهِ فيها وها اني اذكر لكم ادلة تناقضهُ في دعواهُ المذكورة :

أولها ۞ ان محمد احمد المنقول عنهُ انهُ مدعي المهدوية مولدهُ ببلاد السودان وذلك معروف متواتر عند جميع من يعرفهُ من اهل عصرهِ فضلاً عن كونهم يعرفون اباهُ وأمهُ وانهما مما يطلق عليهما اسم الدناقلة ولو ان ذلك نسبة الى البلد ولم ينقل عن احد انهُ توجه الى مكة ولا الى المدينة • والذي ذكرهُ العالم المحدث شهاب الدين احمد بن حجر الهيتمي نزيل مكة في كتابهِ الصواعق المحرقة في الرد على اهل البدع والزندقة نقلاً عن الامام علي كرم الله وجههُ انهُ قال مولد المهدي بالمدينة

ثانيها ۞ ان المحققين من العلماء ذكروا من الحديث الذي اخرجهُ ابو نعيم ليبعثن الله رجلاً من عترتي افرق الثنايا اجلى الجبهة اي منحسر الشعر عن جبهتهِ • ومما اخرجهُ الروياني وغيرهما المهدي من ولدي وجههُ كالكوكب الدري اللون لون عربي والجسم جسم اسرائيلي اي طويل • وورد ايضاً في حليتهِ انهُ شاب اكحل العينين ازج الحاجبين اقنى الانف كث اللحية على خدهِ الايمن خال اه فهذه الصفات المذكورة في صفات المهدي مفقودة في محمد احمد المذكور فانهُ حضر عندنا بكردوفان في مدينة الابيض مركز المديرية وحضر عندنا بمجامعنا زائرًا لنا وجلس مجالسنا ونحن نقرأ ونقتنذ درس

الحديث في الشمائل الترمذية وهو بالمجلس الى ان فرغنا من الدرس وانهُ زارنا وطلب منا الدعاء وتوجه الى منزله ولم نرَ فيهِ شيئاً من تلك الاوصاف بل انما هو عندجلوسهِ بمجلسنا لم نرَ منهُ الا الرزانة والخضوع والصمت وكان اذ ذاك في الربيع الاول ثم رجع الى جزيرة ابا واقام فيها اشهرًا . ثم بلغنا انهُ تفوه بتلك الدعوى وقيل انهُ قال انهُ لهُ خال في خدهِ الايمن فان ثبت ذلك مع عدم ثبوت بقية الاوصاف لم يفد شيئاً

ثالثها ٥ ان الذي ذكرهُ العلماء المحققون ان ظهور المهدي بعد ان يكسف القمر في اول ليلة من رمضان وتكسف الشمس في النصف منهُ ومثل ذلك لم يوجد منذ خلق الله السموات والارض اه ومن المعلوم ان محمد احمد المذكور تفوه فيما قيل بتلك الدعوى بجزيرة ابا في شهر شعبان وان رمضان قدم ولم ينقل عن احد كسوف القمر في اول ليلة منهُ ولا كسوف الشمس في النصف منهُ وذلك دليل واضح على ان المهدية التي ادعاها لم يظهر فيها ما يدل على دعواهُ

رابعها ٥ انهُ نقل عن الامام المحقق الجامع بين الحقيقة والشريعة الشيخ الشعراني انهُ قال في مختصره روي انهُ يخرج في آخر الزمان رجل يقال لهُ المهدي من اقصى المغرب يمشي النصر بين يديهِ اربعين ميلاً راياتهُ بيض وصفر فيها رقوم وفيها اسم الله الاعظم مكتوب فيها فلا تهزم لهُ راية . وقيام هذه الرايات وانبعاثها من ساحل البحر بموضع يقال لهُ ماسة من جبل المغرب فيبعث هذه الرايات مع قوم قد اخذ الله تعالى لهم ميثاق النصر والظفر أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون اه وقد علمت ان محمد احمد المذكور لم ينقل عن احد انهُ رآهُ توجه الى اقصى المغرب ولم يكن بجبل المغرب بالموضع الذي يقال لهُ ماسة بل ان المسموع الآن انهُ بجبل قدير من جبال الصعيد وان قال قائل بان جبل قدير هو الذي يقال لهُ ماسة يرد عليهِ انهُ ليس بجبل قدير بحر لهُ ساحل ولم يحصل منهُ بعث رايات بالصفات المذكورة وان من بيدهم الرايات الزاعمين انهم وزراء لهُ قد اتضح لكل احد خذلهم وقتلهم على يد عساكر الحكومة ولم يأخذ الله لهم ميثاق النصر والظفر

خامسها ٥ ان شهاب الدين احمد بن حجر قد ذكر مما اخرجهُ ابن عساكر عن

علي كرم الله وجهه اذا قام قائم آل محمد (صلعم) جمع الله اهل المشرق واهل المغرب فاما الرفقاء فمن اهل الكوفة واما الابدال فمن اهل الشام ثم قال وصح انهُ (صلعم) قال يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من المدينة هاربًا الى مكة فيأتيه ناس من اهل مكة فيخرجونهُ وهو كاره فيبايعونهُ بين الركن والمقام ويبعث اليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة فاذا رأى الناس ذلك اتاهُ ابدال اهل الشام وعصائب اهل العراق فيبايعونهُ ثم ينشأ رجل من قريش اخوالهُ كلب فيبعث اليهم بعثًا فيظهرون عليهم وذلك بعث كلب والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب فيقسم المال ويعمل في الناس بسنة نبيهم (صلعم) اه . ولا يخفى على العاقل ان الامام الذي هو خليفة رسول الله (صلعم) موجود الآن فلم يمت ولم يحصل اختلاف في الخلافة حتى يدعيها احد فدعوى محمد احمد بالخلافة الكبرى والمهدوية مع وجود الخليفة وطلبهُ من الناس مبايعة فيهِ مخالفة لنفس الحديث المتقدم فضلاً عن كون نبذ عهد الخليفة الموجود وطرح بيعتهِ مع انهُ لم يكفر لا يجوز شرعًا . ومما ذكرناهُ يعلم رد جميع الادلة التي تنقل عنهُ بانهُ يستدل بها على ايجاب طاعتهِ والزام موافقتهِ لانهُ لم تثبت امامية مع وجود الامام فجميع الآيات القرآنيـة والاحاديث النبوية المعزوة اليهِ بانهُ يستدل بها مسوقة في غير موضوعها

سادسها ه ان الذي رواهُ الامام احمد وغيره المهدي منا اهل البيت يصلحهُ الله في ليلة اه والمعروف عند جميع المعاصرين لمحمد احمد المذكور انهُ قد سلك الطريقة الخلوتية على يد الشيخ القرشي وعلى يد غيره وحضر مجالس العلم عند جماعة فعلى تقدير اصلاحهِ من المشايخ المذكورين فانهُ لا يوافق ظاهر ما رواهُ الامام احمد فضلاً عن كون الامام المهدي المنتظر من السودان ولم يعهد لهُ شيخ ارشدهُ بسلوك طريقة مخصوصة

سابعها ه ان الحاكم قد روى في صحيحهِ يحل بأمتي في آخر الزمان بلاء شديد من سلاطينهم لم يسمع بلاء اشد منهُ حتى لا يجد الرجل ملجأ فيبعث الله رجلاً من عترتي اهل بيتي يملأ الارض قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجورًا يحبهُ ساكن الارض وساكن السماء وترسل السماء قطرها وتخرج الارض نباتهـا لا تمسك فيها شيئًا اه

والمشاهد في حكومة الدولة العثمانية لم يحصل من حكامها البلاء الذي ذكرناهُ حتى يخرج المهدي والمشاهد الآن ان كل من وقع في قبضة محمد احمد مدعي المهدية يسخط عليهِ لانهُ يقتل رجالهُ وينهب مالهُ فأين الاتفاق من ساكني الارض على محبتهِ فضلاً عن الظلم والجور الذي حصل من بعض الناس لبعض وأين العدل والقسط

ثامنها ٭ ان الامام الاكبر سيدي محيي الدين بن عربي الصوفي قال في فتوحاتهِ المكية قد استوزر الله للمهدي طائفة خبأهم الله تعالى في مكنون غيبهِ اطلعهم كشفاً وشهودًا على الحقائق وما هو الا امر الله في عبادهِ فلا يفعل المهدي شيئاً الا بمشورتهم وهم على اقدام رجال من الصحابة الذين صدقوا الله ما دعاهم اليهِ وهم من الاعاجم ليس فيهم عربي لكنهم لا يتكلمون الا بالعربية لهم حافظ من غير جنسهم ما عصى الله قط هو اخص الوزراء اه ٭ فعلم مما ذكرهُ هذا الامام ان الجانين على انفسهم هم الذين عرضوا انفسهم للتلف حتى طهّر الله تعالى الارض منهم بسيف الحكومة كان ادعاؤهم الوزارة مجرد تسويلات نفسية وان ثبت ان محمد احمد قد خاطبهم بالوزارة المذكورة أو اقرهم عليها فذلك دليل على عدم دعواهُ المهدية

تاسعها ٭ قال بعض ائمة التحقيق وجاء في بعض الروايات انهُ ينادي عند ظهورهِ فوق رأسهِ ملك هذا المهدي خليفة الله فاتبعوهُ فتقبل عليهِ الناس ويشربون حبهُ وانهُ يملك الارض شرقها وغربها وان الذين يبايعونهُ اولاً بين الركن والمقام بعدد اهل بدر ثم تأتيهِ ابدال الشام ونجباء مصر وعصائب اهل الشرق واشباههم ويبعث الله لهُ جيشاً من خراسان برايات سود نصرة لهُ ثم يتوجهون الى الشام وفي رواية الى الكوفة والجمع ممكن وان الله تعالى يؤيدهُ بثلاثة آلاف من الملائكة وان اهل الكهف من اعوانهِ ٭ فالذي عليهِ الناس الآن من تمنيهم ظفر الحكومة بمحمد احمد ونصرتها عليهِ لازالة المفاسد التي حدثت بأسباب ادعائهِ هذه الدعوى ينافي نداء الملك واشراب محبتهِ في قلوب الناس

عاشرها ٭ قد ورد ان الكنوز تفتح في زمن المهدي وانهُ يضع الجزية ويقتل من لم يسلم واجابوا بأن اتصاف سيدنا عيسى بذلك لا ينافي اتصاف المهدي بأن كلاً

منهما امام متبع ومقرر لشريعة رسول الله (صلعم) وحيث ان الكنوز تفتح في زمانهِ فلا نفع لاخذ الجزية حينئذٍ حتى يشرع اخذها لان الوسيلة اذا لم يترتب عليها مقصدها فلا تشرع . وورد في رواية للترمذي ان الرجل يجيء اليهِ فيقول يا مهدي اعطني فيحثي لهُ في ثوبهِ ما استطاع ان يحملهُ . واخرج احمد ومسلم يكون في آخر الزمان خليفة يحثي المال حثياً ولا يعدهُ عداً . واخرج احمد الماوردي انهُ (صلعم) قال ابشروا بالمهدي رجل من قريش من عترتي يخرج في اختلاف من الناس وزلزال فيملأُ الارض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً ويرضى عنهُ ساكن الارض والسماء ويقتسم المال صحاحاً بالسوية ويملأُ قلوب أمة محمد غنى ويسعهم عدلهُ حتى ان يأمر منادياً فينادي من لهُ حاجة اليَّ فما يأتيهِ احد الا رجل واحد فيأتيهِ فيسألهُ فيقول ائت السادن حتى يعطيك فيأتيهِ فيقول انا رسول المهدي اليك تعطيني مالاً فيقول احث فيحثي ما لا يستطيع ان يحملهُ فيلقي حتى يكون قدر ما يستطيع ان يحملهُ فيخرج بهِ فيندم فيقول انا كنت اجشع أمة محمد نفساً كلهم دعي الى هذا المال فتركهُ غيري فيردهُ عليهِ فيقول انا لا نقبل شيئاً اعطيناهُ اه . فما ذكرناهُ في سابع الادلة وما ذكرناهُ هنا يتضح لكل عاقل ان الامر الآن بالعكس فأين ارسال السماء قطرها واين اخراج الارض نباتها واين غنى القلوب واين اخراج الكنوز واين حثي المال وأين فيضانه بل ان الامر الآن لم تشاهد الا شدتهُ من قلة الامطار وغلاء الاسعار وتكالب الناس في الدنيا حتى ان بعضهم صار يقتل بعضاً لاجل اخذ مالهِ وبهذا يتضح لكل عاقل ان هذا الزمن ليس زمن الامام المهدي

حادي عشر ه قال شهاب الدين الامام احمد بن حجر قال ابو الحسين الابري قد تواترت الاخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى (صلعم) بخروجهِ وانهُ من اهل بيتهِ وانهُ يملك سبع سنين وانهُ يملأُ الارض عدلاً وانهُ يخرج مع عيسى على نبينا وعليهِ افضل الصلاة والسلام فيساعدهُ على قتل الدجال بباب لد بأرض فلسطين وانهُ يؤم هذه الامة ويصلي عيسى خلفهُ اه وما ذكروهُ من ان المهدي يصلي بعيسى هو الذي دلت عليهِ الاحاديث كما علمت اه وقال سيدي الامام محيي الدين بن

عربي الصوفي الحاتمي الطائي الاندلسي في كتابه بلغة الغواص في مبحث سيدنا عيسى عليه السلام وتمام ملكه موقوف على ظهور المهدي و بظهوره يعمّ النداء ويفتح فم الاحاطة ويسمع الرجل من شراك نعله وعذبة سوطه ويخبره بما عمله اهل بيته من بعده وتدعوهم الاحجار والاشجار لليهود ويفعلون بالقول مايفعله غيرهم بالفعل فيفتحون القسطنطينية بالتسبيح والتقديس اه • فأين ما ذكره هؤلاء المحققون من حال هذا الوقت ودعوى محمد احمد المهدية فكيف يليق بعاقل تصديقه فيها

وأما ما نقل عنه بأنه ادعى انه مأمور من رسول الله (صلعم) وانه مصرح في مكاتباته بذلك فان حاله لا يخلو اما ان يكون رأى رسول الله (صلعم) في المنام وامره بذلك فان صحّ ذلك فان امر رسول الله (صلعم) له في المنام بذلك لا يصح له العمل به حيث كان يخالف ظاهر الشرع من الخروج عن طاعة الامام ونبذ عهده وطرح بيعته فضلاً عن تأدية ذلك الى سفك دماء المسلمين وتلف اموالهم بغير حق الاسلام وقد نص الفقهاء بأن الرجل اذا رأى رسول الله (صلعم) في المنام واخبره بطلاق زوجته فانه تجوز له معاشرتها معاشرة الازواج ولا تحرم عليه وذلك لعدم ضبط النائم وان كان الشيطان لا يتمثل برسول الله (صلعم) في النوم • واما ان يكون ذلك يقظة بطريق الكشف فان كان بطريق الكشف فانه لا يصح له ايضاً ان يعمل به حيث انه مخالف لظاهر الشرع وقد نص اكابر العلماء على ان الولي يناط به حكم الظاهر فكيف وانه ان ارتكب امرًا مخالفًا لظاهر الشرع يتبع فيه خصوصاً ان أدى الى سفك دماء المسلمين وتلف اموالهم • وحيث كان ذلك فلا يصح لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر ان يوافقه على ذلك فضلاً عن كون الدلائل الظاهرة تناقض دعواه المذكورة وقد نص اكابر الصوفية على ان الكشف اقسام وان بعضه يكون خياليًا فكيف بالعمل به مع ايقاعه في المحذور

واعجب من ذلك ما نقل عنه بان من شك في مهديته كفر فانه ان اراد بالكفر تغطية الحق بالباطل فان ذلك لا يحصل الا اذا اتضحت له دلائل تصدقه في دعواه والمكذب او الشاك لم يجد دليلاً يعارض تلك الدلائل فضلاً عن ان

جميع الادلة الظاهرة التي اطبق عليها المحققون مناقضة لدعواهُ المذكورة . وان اراد بالكفر الخروج عن الايمان فذلك لا يقول بهِ احد لان المهدية ليست بنبوة ولا رسالة وغايتها خلافة فانكار اصل المهدية والشك فيها لا يوجب كفرًا بمعنى الخروج عن الاسلام لما مال اليهِ بعض العلماء في بعض طرق الحديث من قولهِ (صلعم) لا يزداد الامر الا شدة ولا الدنيا الا ادبارًا ولا الناس الا شحًا ولا تقوم الساعة ولا على شرار الناس ولا مهدي الا عيسى بن مريم . وان اوَّل هذا الحديث بعض العلماء بان معناهُ لا مهدي معصومٌ الا عيسى او لا مهدي على الاطلاق سواهُ يأتي بعدهُ عيسى فضلاً عن مهدية انسان مخصوص ادعاها في زمن لم يقم دليل على حصولها فيهِ

وحاصل الامر ان الامام الذي هو خليفة رسول الله (صلعم) موجود الآن بقيد الحياة ودولتهُ منتظمة مؤيدة بوزرائهِ وجميع اهل الاسلام يخطبون باسمهِ في المنابر ويدعون لهُ بالنصر والتوفيق بوجودهِ وانتظام دولتهِ حاصلة لجميع اهل الدولة الصيانة لدمائهم واموالهم فالخروج عن طاعتهِ مع ان اوصافهُ التي انعقدت بيعتهُ عليها من اهل الحل والعقد باقية لم تزل عنهُ حرام على كل مسلم وان الذي يخرج عن طاعتهِ ويكون باغيًا ومحاربًا لله ورسولهِ وساعيًا في الارض بالفساد تجوز مقاتلتهُ وردهُ عما هو عليهِ واقامة حد الشريعة فيهِ . فلا وجه الآن يجوز لكم معاشر المسلمين الخروج عن طاعة امير المؤمنين واتباع الباغين المفسدين فان قابلتم ما قلتهُ لكم بالامتثال وتركتم سبيل الضلال فالله سبحانهُ وتعالى يعفو عما سلف و يوفق الجميع لصالح الاعمال وان ابيتم الا ما انتم عليهِ عاكفون فسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون

هذا والحمد لله اولاً وآخرًا والصلاة والسلام على من جاء بالحق المبين وعلى آلهِ وصحبه اجمعين . كان الفراغ من تأليفها صبيحة يوم الجمعة المباركة لعشر ليالٍ بقيت من شهر شعبان المكرم من شهور سنة ١٢٩٩ الف ومايتين وتسع وتسعين من هجرة اشرف المرسلين صلى الله عليهِ وعلى آلهِ وصحبهِ اجمعين » اه

الى هنا انتهى بنا الكلام عن سيرة محمد احمد المهدي ووقائعهِ فلنأتِ الآن على ذكر خليفتهِ التعايشي وما كان في ايامهِ من الوقائع والحروب فنقول :

الباب الثالث

في

خلافة عبد الله التعايشي

الفصل الاول

في

مبايعة عبدالله التعايشي

مات محمد احمد عن ثلاثة خلفاء يتولون الامر بعدهُ الواحد بعد الآخر واولهم وادهاهم عبد الله التعايشي الذي تولّى أمر دفنهِ . ولولاء الدهاء والحزم اللذان فطر عليهما هذا الرجل ومساعدة الاقدار لهُ لانفلت الامر من يدهِ وعمت الفوضى السودان . ولكنهُ حال وفاة المهدي دعا اليه احمد علي قاضي الاسلام (الذي تولّى هذا المنصب بعد قتل احمد جبارة في الابيض) وبعض الامراء والاعيان الذين من حزبهِ كالسيد المكي الكردوفاني وعبد المحمود نور الدائم فحضروا الدفن مع رفيقيهِ الخليفتين واقارب المهدي . و بعد الدفن عقد معهم مجلساً وخاطبهم قائلاً :

« أيها الاخوان ان المهدي الآن قد مات ولكن مات النبي من قبلهِ وقام الخلفاء بعدهُ فاتموا عملهُ . وقد ترك المهدي خلفاء يتولون الامر بعدهُ وانا خليفتهُ الاول فمن احبهُ وآمن بهِ فليبايعني الآن على السبيل الذي خطهُ لنا لنقتفي اثرهُ ونتم عملهُ »

اما الخليفة شريف وقومهُ الاشراف فانهم حاروا في امرهم ولم يدروا ما يفعلون وقالوا في انفسهم مات المهدي الآن وقد اسس مهدية وملكاً فلماذا نتبع ترتيب المهدية فنولي علينا عبد الله التعايشي غريب الوطن والجنس ولا نتبع ترتيب الملك فنولي ابن مؤسسهِ او خليفتهُ ابن عمهِ . ولكن لم يكن في وسعهم اذ ذاك المجاهرة

بهذه الافكار او القيام بحركة عدائية لان قوات المهدية في السودان كانت كما علمت ثلاث رايات : الراية الزرقاء راية الخليفة عبد الله وهي اكبر الرايات واقواها وتحتها جميع اهل الغرب ولم يكن غائباً منها سوى جيش ابي عنجة الذي أرسل لغزو جبال النوبة كما مرَّ ٠ والراية الخضراء راية الخليفة علي ود حلو وهي اصغر الرايات وتحتها قبيلتا دغيم وكنانة وتوابعهما ٠ والراية الصفراء راية الخليفة شريف وهي راية قوية وتحتها جميع سكان النيل والجزيرة والجلابة وغيرهم ٠ فلو كان رجال هذه الراية كلهم في أم درمان لترجح وقوع حرب شديدة بينهم و بين الخليفة عبد الله ولكن كان اعظم قوادها متفرقين في الجهات وهم : عبد الرحمن النجومي في المتمة ومحمد عبد الكريم في سنار ومحمود عبد القادر في كردوفان ومحمد خالد زقل في دارفور وكرم الله في بحر الغزال ومع كل منهم جيش كبير

وكانت راية الخليفة عبد الله اذ ذاك اقوى من رايتي الخليفة ود حلو والخليفة شريف معاً فضاقت انفس الاشراف من حرج هذا المركز وظهرت على وجوههم علامات الحيرة والاسف ولكن التعايشي اخذهم بالدهاء والحيلة وبالغ في ملاطفة الخليفة علي ود حلو الذي لا يوافقهُ تحوُّل المهدية الى ملك لانهُ ثاني الخلفاء من جهة ولا قرابة لهُ بالمهدي من جهة اخرى فكان اول من بايع الخليفة عبد الله ثم بايعهُ الخليفة شريف مضطرًّا ثم اولاد المهدي واقاربهُ ثم الامراء والاعيان الذين في المجلس

ولما شاع خبر موت المهدي ومبايعة الخليفتين واقارب المهدي والامراء للخليفة عبد الله هرع اهل أم درمان وضواحيها الى منزلهِ افواجاً و بايعوهُ بقية ذاك اليوم والذي بعدهُ ٠ وهذه صورة المبايعة : « بايعنا الله ورسولهُ ومهديهُ و بايعناك على طاعتك والانقياد الى حكمك »

ثم بعث الخليفة بكتبهِ الى امرائهِ وجميع قبائل السودان في الجهات الاربع لتجديد البيعة لهُ ودعا اهل الجهات البعيدة الى حضور عيد الاضحى في أم درمان في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨٥ فاجتمع عندهُ في هذا العيد خلق كثير ٠ وحضر اهل الجهات القريبة قبل العيد فبايعوهُ وعادوا الى بلادهم ٠ وكانت مبايعتهم لهُ بالصيغة الكبيرة

وهي : « بايعنا الله ورسولهُ ومهديهُ وبايعناك على توحيد الله والاَّ نشرك بالله احداً ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي ببهتان ولا نعصيك في معروف بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضى بما يريد الله رغبة في ما عند الله والدار الآخرة وان لانفر من الجهاد »

﴿ تأثير موت المهدي في السودان ﴾ اما موت المهدي فقد اوقع الدهشة في نفوس اهل السودان خاصتهم وعامتهم . وكان العقلاء قد انكروا عليهِ بعض الافعال والاقوال مثل قتلهِ عجيل ود الجنقاوي الزريقي بعد ان اتاهُ مسلماً وقتلهِ المنة اسماعيل الذي نصرهُ في كردوفان وقتل عبد الله ود النور في واقعة برّمي بعد قولهِ انهُ يموت في الكوفة . ورأوا ان هذه الاقوال والافعال لا تنطبق على ما ظنوهُ في مهدي الزمان ولكن ادهشهم توالي النصر على يديهِ واخذوا ينتظرون اتمام باقي نبواتهِ كصلاتهِ في كراسي مصر والشام والاستانة ومكة وقولهِ ان مهديتنا تظهر خيراتها ويرعى فيها الذئب مع الغنم وتأمن الناس الآفات فتلعب الاولاد الصغار بالعقارب وذلك بعد فتح مكة . فلما مات في أم درمان ولم يصلّ في الكراسي المذكورة ولا لعبت الاولاد بالعقارب أيقنوا انهم كانوا في ضلال وان الامر الذي قام بهِ محمد احمد انما هو ثورة وبلاء ليس الاَّ . قيل ان الملك ابا حجل ملك الرباطاب لما عاد من مبايعة الخليفة من أم درمان حضر اهلهُ للسلام عليهِ وسألوهُ عن البيعة الجديدة فقال « البيعة اس » اي اسكتوا . ولما عاد الشيخ ابو خرمي من مبايعة الخليفة الى قومهِ في المسلمية قال لهم « اشفقوا على انفسكم ايها الناس واستغفروا ربكم عما فرط منكم فانها مصيبة عامة وقد حلّت في السودان وليست من المهدية بشيء »

على ان ضعاف العقول لم يؤثر ذلك كلهُ في اعتقادهم وبقوا مصدقين انهُ المهدي ولا يزال بعضهم يعتقدون بانهُ المهدي الحقيقي الى هذا اليوم . لكن الحمية التي قاموا بها اولاً خمدت في نفوسهم فلم يقدموا على الجهاد من ذلك الحين الا مُكرَهين واخذ الامر يتحول تدريجاً من صبغة دينية الى صبغة سياسية . وكانوا كلهم قد اغضبوا الحكومة ورفعوا السلاح في وجهها وكانت الحكومة قد تركتهم وشأنهم فاضطروا عقلاء وجهالاً الى متابعة صاحب القوة الخليفة عبد الله والعمل بأوامرهِ ونواهيهِ

﴿ منشور وفاة المهدي ﴾ وقد قدّر التعايشي التأثير الذي يحصل للناس بموت المهدي واحتاط لذلك فوزع منشورًا في جميع البلاد بان المهدي قد مات وانهُ قام في الامر بعدهُ وقال ان موت المهدي انما يزيدنا احتقارًا لهذه الدنيا وحبًّا للموت في سبيل الله . وامر رفيقيهِ الخليفتين والاشراف اهل بيت المهدي فوزعوا منشورًا صرّحوا فيهِ بمبايعتهم لهُ وحثوا الناس على الاقتداء بهم وقالوا« ان المهدي ليلة وفاتهِ حصلت لهُ «حضرة» ظهر لهُ فيها الشيخ القرشي ومعهُ جمع من الاولياء فقال لهُ ان النبي (صلعم) قد استعجل انتقالك الى الدار الآخرة فاجعل لك وكيلاً من خلفائك يقوم بالامر فقال المهدي اوكلت الخليفة عبد الله فاتفقت كلمتنا عليه» . ثم شاع ان الخليفة شريف لم يبايعهُ وان الخليفة ود حلو منحاز اليهِ فامر اذ ذاك الخليفتين فوزعا منشورًا آخر صرحا فيهِ بانهما بايعاهُ حقًّا وان جميع ما شاع عن وقوع خلاف بينهما وبين الخليفة عبد الله هو محض كذب واختلاق . وهذه هي صورة المنشور الذي اصدرهُ الخليفة عبد الله بشأن وفاة المهدي وتوليه الخلافة بعدهُ بحرفهِ بعد البسملة :

« وبعدُ فمن عبد ربّهِ الخليفة عبدالله بن محمد خليفة الصدّيق الى احبابهِ في الله » .

« احبابي بعد اهداء السلام اليكم فان الله جل شأنهُ وعز سلطانهُ هو الفاعل المختار الحيّ الدائم الباقي الذي لا يموت والخلق عبيدهُ وتحت مشيئتهِ وكلهم موعودون بالفناء والانتقال من هذه الدار الى تلك الدار ولا اكرم عليهِ تعالى من نبيهِ محمد (صلعم) وقد نعاهُ بقولهِ تعالى في كتابهِ المكنون انك ميت وانهم ميتون وزاد الامر تأكيدًا بقولهِ تعالى وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون وحيث كان كذلك فان الرضا بالقضاء من الواجبات ٥ ثم ليكن معلومكم ان المهدي عليهِ السلام قد دنا اجلهُ فتدلى ودعا ربهُ فلبى وقبض اليهِ كريمًا طيبًا في يومنا هذا الذي هو يوم الاثنين الموافق ٨ شهر رمضان سنة تاريخهُ وقت الضحى الاعلى بام درمان ودفن عليهِ السلام بها بعد صلاة الظهر بداخل بيتهِ وان مصيبتهِ لعظيمة على الجميع احسن الله عزاءنا واياكم فيهِ والزمنا الصبر وضاعف لنا ولكم الاجر والثواب بعدهُ وهو حسبنا ونعم الوكيل ليهننا واياكم انهُ عليهِ السلام فرطنا بعد النبي (صلعم) ونحن وانتم

لاحقون بهما وقد سار الى الله تعالى الى سدرة المنتهى ثم الى جنة المأوى والفردوس الاعلى والكأس الاوفى والرفيق الاسنى والحظ الانفس والعيش الهني وان موعدنا الحوض الذي عرضهُ كما بين الشام وصنعاء اليمن يصبُّ فيه ميزاب الكوثر ماؤه اشد بياضاً من اللبن والين من الزبد واحلى من الشهد . من شرب منهُ لم يظمأ ابدًا حصباؤهُ اللؤلؤ وبطحاؤهُ المسك ومن حُرِمَهُ فقد حرم الخير كلهُ نعوذ بالله من ذلك ۞ وان سبب وفاة المهدي عليه السلام حمّى اصابتهُ ولازمتهُ نحو ستة ايام . وقد تعلمون انهُ داعيكم الى الله وخليفة نبيكم (صلعم) وقد ابان الدليل واوضح السبيل ودلّ الى الجليل فجزاهُ الله عنا وعنكم احسن الجزاء وامدنا بمدده دنيا واخرة وانهُ عليه السلام قد كان على نور من الله وتأييد من رسول الله . ونائبهُ العبد لله تعالى بعدهُ كذلك بحسب اشارته عليه السلام التي هي عن امر رسول الله . واني اقول لكم نصحاً في الله ورسوله كمقالة ابي بكر الصديق رضي الله عنهُ حيث دلّ الى الله بقوله « أيها الناس من كان يعبد محمدًا فان محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حيٌّ لا يموت وان الله قد تقدم اليكم في امره فلا تدعوه جزعاً فان الله عز وجل قد اختار لنبيه (صلعم) ما عنده على ما عندكم وقبضهُ الى ثوابه وخلّف فيكم كتابهُ وسنة نبيه (صلعم) ومن اخذ بهما عرف ومن فرق بينهما انكر . يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتنكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم ۞ هذا والمطلوب منكم ايها الاحباب ان تثبتوا مع الله كما عاهدتموه و بايعتموه على اتباع المهدي عليه السلام وطاعته و بذل اموالكم وانفسكم في سبيل الله لاعلاء كلمته وشدوا حيلكم وشمروا فان اصحاب رسول الله (صلعم) لم يهملوا الدين بعده بل تحزبوا عليه وايّدوه وجاهدوا في الله حق الجهاد ورغموا انف اهل الشرك والمرتدين وفتحوا كثيرًا من البلاد ولكم بهم أسوة حسنة فاقتفوا اثرهم لتنالوا نيلهم وتدركوا اللحوق بنبيكم ومهديكم معهم ولا تغتروا بايام الدنيا القليلة فقد انقضت مدتها وزال عرضها وآن اوانها فعضوا على ايمانكم بالنواجذ وايقنوا بانكم ما دمتم على عهد البيعة فانتم حزب الله وانصارهُ

والفائزون برضاء ربكم ونبيكم ومهديكم ورضانا عليكم وابشروا بالخير فان دين الله منصور بحول الله وقوته · وواصل لكم مع هذا جواب من الخلفاء والاشراف اهل بيت المهدي عليهِ السلام وباقي المهاجرين والانصار اطلعوا على ما فيهِ واعملوا بمقتضاه وفقنا الله واياكم الى سلوك طريق المقربين الاخيار هذا والسلام سنة ١٣٠٢ ٨ رمضان » اه والصواب ٩ رمضان ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٥ »

﴿ ختم المهدي وسيفهُ ﴾ وعند وفاة المهدي اخذ التعايشي خاتم ختم المهدي وخاتم يدهِ · فاما خاتم الختم فقد ابطل العمل بهِ واستعمل بدلاً منهُ خاتماً مستديراً نقش عليهِ « حسبنا الله ونعم الوكيل » · واما خاتم اليد وهو خاتم من فضة لهُ فص من عقيق احمر مستدير فقد جعلهُ في بنصر يدهِ اليمنى · وطلب سيف المهدي فلم يجده لان نساء المهدي اخفينهُ عنهُ ثم اعطينهُ للخليفة شريف زاعمين ان النصر يكون فيهِ وكان ذلك من أهمّ اسباب الضغائن بينهُ وبين الاشراف

﴿ سياسة التعايشي ﴾ وتولى التعايشي الخلافة وهو لا يصدّق انهُ يتولاها وكان يغار عليها حتى من خيالهِ ويحرص عليها حرصهُ على نفسهِ وقد ساسها بثلاثة امور وهي :

الاول · المحافظة على شعائر المهدية مع علمهِ بمروق العقلاء منها اذ لا جامعة لانصارهِ الاّ بها ولا حجة لهُ في الملك سواها « والثاني · مراقبتهُ المنكرين حقهُ في الملك والمزاحمين لهُ على السلطة والبطش بهم بالقتل او بالنفي كثروا او قلوا

والثالث · حصر المناصب العالية في اهلهِ التعايشة وتفريق كلمة سائر القبائل واذلالهم حتى لا تقوم لهم قائمة

وكان اول ما اتاهُ بعد تولّيهِ الخلافة انهُ اسند الى اخيهِ يعقوب المنصب الذي كان لهُ في زمن المهدي فجعلهُ وزيرهُ وقائد جيشهِ ومدبر اشغالهِ الحربية والمالية · ثم اخذ يدرّب اهلهُ التعايشة على الادارة والملك ويوليهم امور الجيش والبلاد تدريجاً حتى اصبح جميع القواد والعمال واصحاب المناصب العالية منهم

واما المهام التي باشرها اولاً قياماً بواجب الخلافة واقتفاءً لاثر المهدي فهي : فتح كسلة وسنار وغزو جبال النوبة ومصر ولكنهُ دبّرها حسبما تقتضيهِ سياستهُ كما سيجيء

الفصل الثاني

عودٌ الى

﴿ حصار حامية كسلة سنة ١٨٨٥ ﴾

﴿ كتاب مدير كسلة الى محافظ سواكن في ٩ يونيو سنة ١٨٨٥ ﴾ تقدم ان حامية كسلة لما اشتد عليها الحصار كتبت الى المهدي فوجّه اليها بعض الامناء للتسليم على يدهم * وقبل وصولهم وفد الى المدير كتاب من تشرمسيد باشا محافظ سواكن يقول فيهِ انهُ لم يزل باذلاً الجهد في تعجيل الراس الوله لنجدتهم فكتب اليهِ المدير جواباً مفادهُ : « ان حاكم مصوع ارسل اليّ نسخ الكتب التي بعثتم بها الى الراس الوله للتعجيل في انقاذنا فشكرنا لكم هذه الغيرة ونحن ايضاً كتبنا اليهِ اربع كتب والى الآن لم يأتنا منهُ خبر وقد صرنا في اشد الضيق فالحصار لا ينفك عنا ليلاً ولا نهارًا والزاد قد نفد منا واصبحنا نأكل الصمغ والجلود بل هذان الصنفان ينفدان منا قريباً وقد عدمنا كل حيلة وسلمنا امرنا الى الله في ٩ يونيو سنة ١٨٨٥ »

﴿ صدّ الحسن حاشي عن الحامية في ١٣ يونيو سنة ١٨٨٥ ﴾ هذا وكان الحسن ود حاشي كبير المحاصرين لما بلغهُ قدوم الامناء لاستلام الحامية عزّ عليه ان تسلم لغيرهِ بعد طول حصرها فهاجمها في ١٣ يونيو سنة ١٨٨٥ هجمة صادقة فامطرت الحامية عليهِ سحائب الرصاص والقنابل ونكلت بهِ تنكيلاً ولكنهُ صمم على اخذها عنوة في ذلك اليوم فوالى الهجوم عليها المرة بعد المرة حتى قتل من جيشهِ نحو ٣ آلاف رجل فارتد عنها ولم يعد يجسر على مهاجمتها ولكنهُ زاد في حصرها والتضييق عليها

و بعد الواقعة بايام معدودة وصل امناء المهدي وهم : الحسين الزهرة وادريس عبد الرحيم وعبد الله حمزة واخوهُ محمد فنزلوا في معسكر توكرف وكتبوا الى المدير يدعونهُ للتسليم ومعهُ كتاب المهدي المتقدم ذكرهُ . فعقد مجلساً من الضباط والتجار والموظفين للنظر في امر التسليم وقبل ان يقروا على شيء حضر رسول من الراس الوله يقول « تشددوا واثبتوا فاني منجدكم قريباً » فأقروا اذ ذاك على انتظار الوله وعدم

التسليم فهاج المحاصرون واخذوايناوشونهم القتال الليل والنهار وكانوا هم يصدونهم بشجاعة وثبات وقد اطلقوا يوماً مدافعهم فقتلوا عبدالله حمزة احد الامناء وعشرة آخرين

تسليم حامية كسله الاربعاء في ١٦ شوال سنة ١٣٠٢ﻫ ٢٩ يوليو سنة ١٨٨٥م

وصبر اهل الحامية على الجوع صبر الكرام حتى نفد منهم القوت او كاد ولم يبق لهم طعام سوى الجلود القديمة والاشياء المسترذلة حتى صار يموت منهم في اليوم ٤٠ نفساً وزيادة ٭ فلما رأى المدير اشتداد الحال الى هذا الحد وقد يئس من انتظار المدد لم يرَ بدًّا من التسليم فانتدب ثلاثة من رجاله وهم اليوزباشي حسن افندي برنوس والصاري طيفور آغا وحسين افندي خليل معاون التلغراف وارسلهم الى الامناء بكتاب التسليم على انهم لا يؤذون احدًا من اهل الحامية ولا يأخذون منهم سوى خمس مالهم . فتلقاهم الحسين الزهرة كبير الامناء عند جميزة العوض «وحلف لهم الكتاب» على ذلك فخرج المدير اليهم راكبًا حمارًا بنفر من الضباط والموظفين الملكية والتجار وفيهم : اليوزباشي على افندي خوجه والسنجق بشير اغا كمبال وحسين افندي بدوي وكيل المديرية والعوض المرضي باشكاتب المديرية و برسوم القبطي رئيس الحسابات وعلي جاويش من اعيان التجار فتلقاهم الحسين الزهرة عند الجميزة بالترحيب ثم احضر لهم طعاماً من اللبن والعصيدة والسلات فأكلوا ثم بايعوهُ باسم المهدي فالبسهم الجبب المرقعة وارسلهم الى ديم توكرف ثم ساق الجيش ودخل الخندق

﴿ الغنائم والاسرى ﴾ وكان العساكر قد تركوا خط النار وأووا الى منازلهم فأحاط الدراويش بهم و بالمنازل الاميرية واستولوا على الخزينة فما وجدوا فيها شيئاً يذكر . ثم استولوا على مخازن الجبخانة والاسلحة فوجدوا فيها : ٦٠٠٠ بندقية ارشليك وكبسول قديم و ٢٠٠٠ بندقيـة رمنتون وشيئاً كثيرًا من الجبخانة ما عدا المدافع والبنادق التي كانت على خط النار ٭ ثم دخلوا المنازل وجمعوا الاسرى فكانوا نحو ٣٠٠ من العساكر النظامية و ٤٠٠ من الباشبوزق و ٥٠٠ من التجار و ٣٦٠٠ من النساء والاولاد والجملة نحو ٤٨٠٠ نفساً وهم عشر سكان الحامية قبل الحصار أو اقل . فجردوهم من مالهم ورقيقهم واخرجوهم خارج السور فقسموهم قسمين قسماً ارسلوهُ الى ديم

الحسن حاشي في الختمية وآخر الى ديم مصطفى هدل في توكرف ٭ ثم اخذوا في جمع اموال اهل البلد واشيائهم وقد دلهم عليها الرقيق الذي ابقوهُ داخل السور . وفي اليوم الثالث بعد التسليم اتوا بالاسرى من الختمية وتوكرف الى ديوان المديرية واخذوا يستنطقونهم واحدًا واحدًا عما خبأوهُ من الاموال وقد تولى الاستنطاق ود حمزة احد الامناء مستعيناً بالعوض المرضي باشكاتب المديرية فمن لم يعترف بمالهِ جلدوهُ بالسياط أو جلدوا امرأتهُ حتى يظهر المال وكان في جملة من ضربوهم الضرب المبرّح حسين افندي بدوي المصري وكيل المديرية . قيل ومع ذلك فقلَّ من اعترف بمالهِ و بقيت اموال كثيرة مدفونة تحت الارض الى ان كان الفتح الاخير

﴿ قدوم عثمان دقنه الى كسله في ٢٦ اوغسطوس سنة ١٨٨٥ ﴾ وكتب الامناء الى الخليفة عبدالله بامدرمان وعثمان دقنه بجهة تماي يعلمونهما بفتح كسلة فحضر عثمان دقنه الى كسلة وكان الخليفة قد ارسل اليهِ كتاباً بموت المهدي وطلب اليهِ ان يدعو اهل عمالتهِ الى تجديد البيعة لهُ على يدهِ فعند وصولهِ الى كسلة صعد على سطح ديوان المديرية فاجتمع اليـهِ الامراء والانصار فقرأ لهم كتاب الخليفة ثم قال ان كنتم تعبدون المهدي فان المهدي قد مات وان كنتم تعبدون الله فالله حيٌّ لا يموت والخليفة عبد الله هو خليفة المهدي القائم بالامر بعدهُ فهل انتم طائعون لهُ متبعون لامرهِ قالوا كلهم نعم ثم بايعوهُ باسم الخليفة

﴿ واقعة كوفيت في ٢٣ سبتمبر سـنة ١٨٨٥ ﴾ وبعد وصول عثمان دقنه الى كسلة بايام معدودة اتت اليهِ امرأة من نساء الهدندوة تنادي باعلى صوتها «واغوثاه اللصوص التقوني بجانب جبل مكرام واخذوا مني حمارتي واشيائي التي عليها» وكان عثمان جالساً مع نفر قليل من اصحابهِ فقام لساعتهِ وتأبط نعليهِ واسرع حافي القدم الى جهة الجبل وقال ان من يكره الظلم ويأبى التعدي فليتبعني فتبعهُ اصحابهُ الذين كانوا جالسين معهُ فطاردوا اللصوص الى سبدرات فلم يقفوا لهم على اثر . ثم تبعهُ الجيش كلهُ وفيهِ من الامراء مصطفى هدل والحسن ود حاشي و بلال السمرندوابي وباشريك السمرندوابي وعوض الكريم كافوت . ولم يبقَ في كسلة الا نفر قليـل

لحمايتها وخفر الاسرى ٥ واتاهُ الى سبدرات احمد حجاج شيخ الجادين وعجيل شيخ الحمران المار ذكرهما طائعين فأمنهما وزحف بالجيش كلهِ على كوفيت في حدود الحبشة

وكان الراس الوله اذ ذاك في اسمرة يستعد لنجدة كسلة فلما بلغهُ خبر سقوطها وتهجم عثمان دقنه على الحدود كتب اليهِ يقول : بلغني انك حضرت كوفيت وقصدك دخول الحبشة فانتظرني ثلاثة ايام فادخلك الجنة عاجلاً ان شاء الله »

وفي الميعاد المضروب اي في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٥ حضر الراس الوله بجيش جرار الى كوفيت ومعهُ علي نور بن شيخ سبدرات وعبدالقادر بك محمد ايله ومحمد الفيل شيخ بني عامر المتقدم ذكرهم . قيل وكان جيش الراس الوله نحو ٢٠ الفاً وجيش عثمان دقنه نحو ١٠ آلاف . وكان دجاج قبره في مقدمة جيش الراس الوله فاطبق عليهِ عثمان بجيشهِ فقتلهُ وقتل معظم رجالهِ وتقدم الى جيش الوله فاشتبك القتال بين الفريقين وانجلى عن هزيمة عثمان بخسارة جسيمة فرجع يجر اذيال الخيبة الى كسلة

وكان الشيخ محمد عوض ناظر الحلانقة سابقاً قد ذهب الى القادين قصد الانضمام الى عثمان دقنه فلما بلغ القادين انهزام عثمان قبضوا عليهِ وعلى رفيقهِ الشيخ نافع الحلانقي واخذوهما الى الراس الوله في اسمرة فقتلهما

﴿ قتل المدير وبعض الموظفين والتجار ﴾ اما عثمان دقنه فانهُ حال وصولهِ الى كسلة امر بسجن احمد بك عفت المدير وابراهيم افندي شوقي الشركسي باشمعاون المديرية والسر سواري حسن أغا سليمان الارناؤطي وثلاثة من التجار وهم : الخواجه استيلو الرومي والخواجه بدروس الارمني وعلي جاويش الحجازي . و بعد يومين عفا عن ابراهيم شوقي وعلي جاويش وقطع رؤوس الباقين . وقد اختلف الرواة في سبب قتلهم والذي عليهِ الاكثرون ان عثمان دقنه وجد بين اوراق قتلى الاحباش في كوفيت كتباً يستحثون فيها الراس الوله لنجدتهم ويلعنون المهدي واعوانهُ . وقد اسف الجميع على قتلهم ولا سيما على المدير لانهُ كان صاحب عفة ونزاهة وعدل مع حسن رأي وشجاعة وتدبير . وقد رقتهُ الحكومة بعد وفاتهِ الى رتبة باشا براً بخدمتهِ ورفقاً بعائلتهِ

وكتب الخليفة الى عثمان دقنه فأخذ الخمس من الغنائم وقسم الباقي على الامراء

ثم ارسل الامناء مع الاسرى والغنائم الى أم درمان فارسل نحو الف من الجهادية وجانبًا كبيرًا من المدافع والاسلحة والذخائر فأفلت منهم الصاغ فرج افنـدي وني المار ذكرهُ باربعة وخمسين رجلاً واتى بهم الى مصر بطريق مصوع

﴿ هدم عثمان دقنه الختمية ورجوعهُ الى سواكن ﴾ ثم اخذ عثمان دقنه الجيش فهدم منازل الختمية وخرّب قبة السيد الحسن المرغني وجامع نجلهِ السيد محمد عثمان تخريبًا تاماً وعاد الى كسلة فكتب اليهِ الخليفة عدة كتب للرجوع الى سواكن لاهمية وجوده فيها فسمى محمد فاي ابن اخيهِ اميرًا على كسلة وعبد الله ابا بكر امينًا على بيت المال وعاد الى معسكرهِ في تماي فوصلهُ في ٢١ فبراير سنة ١٨٨٦ وسنعود اليهِ

الفصل الثالث

عودٌ الى

﴿ حصار حامية سنار سنة ٤ : ١٨٨٥ ﴾

﴿ كتاب مدير سنار الى غوردن في ٩ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ ﴾ كان آخر عهدنا بسنار يوم رجوع نصحي باشا منها الى الخرطوم في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٨٤ وكانت اذ ذاك آمنة مطمئنة . وفي ٩ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ كتب مديرها حسن بك صادق الى غوردن جوابًا على كتاب ارسلهُ اليهِ مع رجل تكروري هذا مفادهُ :

« من حسن صادق مدير عموم سنار الى غوردن باشا حاكم عموم السودان

« في ٦ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ تشرفنا بورود كتابكم الكريم المؤرخ في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٨٤ فسرَّنا ما حواهُ من البشائر بقدوم تسع اورط من ابطال الانكليز ومسلمي الهند من فرسان ومشاة ومدفعية بمدافع جديدة وخيول شديدة وقد قرأنا كتابكم على رجال الحامية ونشرناهُ في البلاد فسرَّ الجميع بهِ سرورًا عظيماً وكلهم يدعون لكم وللجيش بالظفر والنصر . ثم ان حامية سنار واهلها من علماء وتجار واعيان يقبلون يديكم ولنا الرجاء انهُ بهمة سعادتكم وبجاه نبينا عليهِ السلام تسكن الثورة في السودان وتزول دعوى المهـدي ويخضع الكل لسيف الحكومة بحول الله وقوتهِ

حاشية « المرجو الاسراع بارسال وابور بالاشياء التي طلبناها في كتابنا نمرة ٢٩/١٤ »

﴿ المرضي ابو روف وحصار سنار ﴾ فظهر من هذا الكتاب ان سنار كانت الى ٩ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ هادئة مطمئنة ولكنها لم تبقَ طويلاً في هذه الطمأنينة فان المهدي في طريقه الى حصر الخرطوم كما مرّ أمر المرضي ابا روف اخا مالك ابي روف المار ذكرهُ فحشد جيشاً كبيرًا من عربان رفاعة الهوي ونزل لحصر سنار في حلة عابدين على ٤ ساعات جنوبي سنار وذلك في اواسط نوفمبر سنة ١٨٨٤

﴿ حبس المدير ﴾ وقبل ذلك بايام وقع نزاع بين المدير والنور بك قيل سببهُ الامر الذي ارسلهُ غوردن الى النور بك ليكون قومندانًا على العساكر فعدّ المدير الامر اهانة لهُ لانهُ اقدم من النور بك واحق منهُ بالقومندانية وانحاز معظم العساكر الى النور بك فحبس المدير في منزله ووضع الخفراء على بابه

﴿ واقعة العردية ﴾ فلما قدم المرضي لحصر سنار خرج عليه النور بك بنحو ٧٠٠ من عساكر الحامية وعثمان بك الدالي فالتقاهُ المرضي في العردية على ٣ ساعات من سنار وهزمهُ وتقدم الى غابة الكبوش فأقام فيها محاصرًا سنار الى ان سقطت الخرطوم فكتب الى النور بك يعلمهُ بسقوطها ويدعوهُ الى التسليم فبعث النور بك بجعليّ يدعى سعيد وداعة الله الى الخرطوم لتحقيق الخبر فرجع واخبرهُ بأن الخرطوم سقطت والانكليز عادوا من المتمة ومحمد عبد الكريم قادم بجيش كبير لفتح سنار

﴿ اطلاق المدير وقتلهُ ﴾ فعقد النور بك مجلساً من الضباط والاعيان للنظر في امر نجاتهم فتوسل الاعيان اليهِ فأفرج عن المدير ودعاهُ الى المجلس وسألهُ رأيهُ فقال لا رأي لي الاّ الحرب فاذا سُلمت لي قيادة العساكر تكلفت بطرد الدراويش المحاصرين حتى اذا ما جاءنا عبد الكريم قاتلناهُ فاذا لم نفز بهِ لجأنا الى الحبشة . وعندي مخزن كبير من الحبوب اقدمهُ للعساكر فصدقوا رأيهُ وسلموهُ قيادة العساكر فخرج بهم لقتال المرضي في غابة الكبوش فتوغل المرضي في الغابة وانقلب المدير راجعاً بالعساكر قلعة الى سنار وفي الطريق نزل مع بعض الضباط تحت جميزة ظليلة للراحة وتناول الطعام وامر العساكر ففرطوا عقد القلعة وتفرقوا جماعات فورد بعضهم النيل

فشربوا واتخذوا الطريق الى سنار وجلس البعض الآخر قرب الجميزة للراحة . وكان كشافة المرضي لا يزالون يرقبونهم فلما رأوا المدير ورفاقهُ تحت الجميزة تواروا بشاطئ النيل حتى اتوا بالقرب منهم فباغتوهم الهجوم فهبَّ كل منهم الى جواده فأجفل جواد المدير وافلت من يد السايس فانقض العرب عليهِ وقتلوهُ هو ونحو مئة من الضباط والعساكر . واما النور بك وعثمان بك الدالي فقد ركب كل منهما جوادهُ وضربا النفير فجمعا بعض العساكر ورجعا الى محل الواقعة فهزما الدراويش وعادا بجثث الضباط الى سنار فدفناها بالجبَّانة . وعادت القيادة العامة الى النور بك وعاد المرضي الى غابة الكبوش

﴿ محمد عبد الكريم وحصار سنار ﴾ وفي ١٨ ابريل سنة ١٨٨٥ وصل محمد عبد الكريم حلة البقرة ومعهُ من الامراء الشيخ عبد الرحمن المضوي السالف الذكر ومحمد احمد ود الشيخ ادريس من اقارب المهدي ومصطفى ود جبارة وخليل عمر ابو زهانة ومن الوابورات وابور محمد علي فحصر سنار من الشمال . وحال وصولهِ ارسل الى اهل سنار كتاباً يدعوهم الى التسليم ويعدهم بالعفو والصفح عما مضى ان خرجوا اليهِ طائعين فسأل النور الرسل عن الامراء الذين معهم فسموا لهُ خليل عمر ابا زهانة وكان النور بك يعرفهُ من خط الاستواء فطلب من محمد عبد الكريم ارسال خليل المذكور للمفاوضة معهُ بشأن التسليم فحضر بموكب حافل فاستقبلهُ الضباط والاعيان في ديوان المديرية فاخذ يعدد لهم نصرات المهدي واعاجيبهُ ولكن قيل انهُ خلا بالنور بك فاخبرهُ بما يحصل لهم اذا سلموا فقال اما كبار الضباط فيقتلون او يعذَّبون واما اهل البلد فيأخذ مالهم وتسبى الجميلة من نسائهم . فصمم النور بك اذ ذاك على القتال ولكنهُ اخذ يخادع محمد عبد الكريم ويطاولهُ ريثما يتمكن من تقوية الخندق . وكان الخندق على شكل مربع مستطيل يحيط بالبلدة من ثلاث جهات والنيل يحيط بها من الجهة الرابعة فقطعهُ من الجنوب حتى صيرهُ مربعاً فضمَّ اكثر منازل المدينة ومخازن الذخائر والشونة وثكنة العساكر وديوان المديرية . وقد عمقهُ وعلَّى ابراجهُ وجعلها سبعة اي في كل زاوية برجاً وبرجاً في وسط الضلع الشمالية وبرجين في الضلع الغربية وجعل في كل برج مدفعاً . وجعل للخندق بابين باب في طرف الضلع الشمالية الغربي وباب في

وسط الضلع الغربية ٠ وصف العساكر على خط النار فجعل في كل جانب من جوانب الخندق الثلاثة نحو ٥٠٠ من العساكر النظامية و٣٠٠ من الباشبوزق وجنَّد الملكية من موظفين وتجار وجعلهم مع العساكر على خط النار ٠ وجعل عثمان بك الدالي قومندان الضلع الشمالية والقائمقام حسن بك عثمان الكريتلي قومندان الضلع الغربية وحمى بنفسهِ الضلع الجنوبية واستعد للدفاع ٠ ٠ فلما تحقق محمد عبد الكريم ان النور بك يخادعهُ شرع في التضييق عليهِ فامر بعض الامراء فنزلوا في البساتين الملاصقة للخندق من جهة الشمال و بنوا فيها طابيتين حصنوهما بالمدافع ٠ وامر مصطفى ود جباره ومن معهُ فعبروا النيل الى الشرق ونزلوا تجاه سنار و بنوا هناك ايضاً طابيتين حصنوهما بالمدافع وصاروا كلما لاح لهم شخص أو بهيمة رموهُ بالرصاص حتى صار اهل البلد يأخذون من المياه ما يكفيهم النهار كلهُ ويحبسون في منازلهم الى الليل

وكان اهل الحامية من الجهة الاخرى كلما رأوا رجلاً خارج الخندق رموهُ بالرصاص حتى اهلكوا كثيرًا من المحاصرين

﴿ مهاجمة محمد عبد الكريم لسنار في ١٧ يونيو سنة ١٨٨٥ ﴾ وداموا على ذلك حتى فرغ صبر محمد عبد الكريم فعقد مجلساً من امرائهِ واهل شوراهُ فأجمعوا على مهاجمة الخندق واخذ البلد عنوةً فأمر مصطفى ولد جباره فعبر بمن معهُ الى الديم العام في الغرب ٠ وكان قد فرَّ اليهِ في هذه الاثناء كاتب من سنار فظنَّ انهُ هو الذي جرأهُ على مهاجمتها ٠ ولما كان الثلث الاخير من الليل في ٢ شعبان ١٣٠٢ هـ ١٧ يونيو ١٨٨٥ م زحف محمد عبد الكريم بجيوشهِ على الخندق وقد امر اصحابهُ بالسكوت فساروا تحت جنح الظلام سيرًا بطيئاً هادئاً حتى وصلوا الخندق فتسلق بعضهم الطابية الشمالية الغربية وقتلوا بعض الطوبجية ودخلوا الشونة ومحل الذخائر فاستيقظ الخفراء ورجال الخط كلهُ وكان عثمان بك الدالي قومندان الخط في الطرف الشرقي منهُ فأخذ بعض العساكر واقلب على الدراويش الذين دخلوا الشونة ٠ قيل وكان الصاغ رمضان بهجت قومندان الطابية نائماً في منزلهِ فلما علم بدخول العرب جمع من بقي من عسكره وانضم الى عثمان بك الدالي واشعلوا النار في الشونة من جهة الشمال ٠ وعلم النور بك

بهم فأسرع بعض العساكر واشعل النار في الشونة من الجنوب فحصروهم بين ناربن ووالوا اطلاق الرصاص عليهم حتى افنوهم عن آخرهم ورجع كل الى محله على خط النار * وكان محمد عبد الكريم قد ارسل خبرًا الى المرضي قبل الفجر فهاجم الخندق من الغرب فامطر العساكر عليهم سحُب الرصاص والقنابل ووالوا الضرب بغير فاصل وتتبعوا الذين داخل الخندق فقتلوهم عن آخرهم وهزموا الباقين شر انهزام • قيل وكان قتلى الدراويش نحو ٢٠٠٠ رجل وفي جملتهم احمد الكاشف السالف الذكر

ومن ذلك اليوم لم يعودوا يجسرون على مهاجمة الحامية بل اقتصروا على حصرها والتضييق عليها * وقد بذل اهل الحامية الجهد في مواصلة الانكليز املاً بانهم يأتون لنجدتهم وتفننوا في استنباط الحيل لايصال الرسائل اليهم فكتبوها على ورق رقيق جدًا وجعلوها بين نصاب السكين ومقبضهِ او في جوف العصا او في طي النعال او بين الفص والخاتم ومع ذلك فما ارسلوا رسولاً الا قبض الدراويش عليهِ واستنطقوهُ وعذبوهُ حتى اعترف برسالتهِ فانقطعت آمالهم من وصول النجدة اليهم واشتد الحال عليهم وعمهم الجوع وتعذر وجود القوت فأكلوا الكلاب والحمير والجلود وصار الضعفاء منهم يخرجون خارج الخندق لالتقاط بعض النباتات البرية كالضريسة وقش النال وغيرها للتقوت بها فيقع البعض في ايدي المحاصرين ويسلم البعض انفسهم هربًا من الموت جوعًا فصمم النور بك اذ ذاك على الخروج من الخندق ومهاجمة الدراويش في ديمهم وكسب غلالهم للتعلل بها او الموت دون ذلك

﴿ خروج حامية سنار مهاجمة في ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٥ ﴾ ولما كان يوم الاثنين في ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٥ خرج النور بك بالف ومايتين من العساكر النظامية والباشبوزق وهم جلُّ عساكرهِ فهدم طابيتي الدراويش اللتين في الجنائن وقتل من فيهما ثم زحف قاصدًا ديم الدراويش في البقرة فالتقوهُ في الطريق واشتعل القتال بين الفريقين فأصيب النور بك برصاصة في رجلهِ فحملوهُ على حمار وأخذوهُ الى سنار والقيت قيادة العساكر الى عثمان بك الدالي فاشعل في الاعداء نارًا حامية حتى هزمهم وقتل منهم نحو ٢٠٠٠ رجل ودخل ديمهم فغنم كل ما فيهِ من حبوب وخيم واسلحة

وعاد الى سنار فعمَّ الفرح اهل الحامية كلها وزال ما حلَّ بهم من كرب الجوع والحصر. وقد وجد العساكر في كوخ عبد الكريم كتباً من أم درمان تنبئ بوفاة المهدي فازدادوا سروراً واستبشاراً وظنوا ان المهدية قد زالت بوفاته وان الدراويش لا يرجعون الى القتال

﴿ خروج حامية سنار المرة الثانية في ٣٠ يوليو سنة ١٨٨٥ ﴾ ولكن ما لبث الدراويش ان تجمعوا وعادوا الى ديمهم في البقرة فأقرَّ أهل الحامية على اعادة الكرة عليهم وكان النور بك لا يزال طريح الفراش من جرحه فقاد عثمان بك الدالي العساكر وخرج بهم صباح الخميس في ١٧ شوال سنة ١٣٠٢ هـ ٣٠ يوليو ١٨٨٥ م وكان الدراويش قد اقاموا مترلساً امام الديم ووضعوا عليه اهل الاسلحة النارية فلما أقبل العساكر بادروهم بالرصاص فمال عثمان بك بالعساكر الى جهة الغرب فهاجمهُ اذ ذاك الحرابة وكانت العساكر بهيئة قلعة ففتحت عليهم نيران البنادق فاصابت عبد الكريم رصاصة في فخذهِ فكسرتها فوقع فيهم الفشل وانهزموا شر هزيمة. ودخل العساكر الديم فأخذوا جميع ما وجدوهُ فيهِ من حبوب وغلال واغنام وغيرها ثم احرقوهُ وعادوا بالغنائم الى سنار ودامت هذه الواقعة من الساعة واحدة من النهار الى الساعة ١١ حساباً عربيّاً وقد قتل في هذا اليوم من الدراويش نحو ٢٠٠٠ رجل واما العساكر فقد قتل منهم ١٢٠ رجلاً من ضباط وعساكر وجرح احمد بك مكوار جرحاً مميتاً فحمل الى سنار ومات هناك . وأصيب عثمان بك الدالي بثلاث رصاصات واحدة أصابت يدهُ اليمنى واثنتين أصابتا فخذيهِ ولكنهُ سلم منها كلها . اما عبد الكريم فقد حملهُ انصاره الى البرياب لمعالجتهُ هناك وقد لزم الفراش بسبب انكسار فخذهِ ولم يعد لهُ طاقة على ادارة الجيش فأمر محمد احمد ولد شيخ ادريس المار ذكرهُ فجمع شتات الانصار وعاد الى ديم البقرة وعاد مصطفى ود جبارة الى ديمهِ في الشرق

﴿ واقعة كساب الاثنين ١٧ اوغسطوس سنة ١٨٨٥ ﴾ ولم يكن الا القليل حتى فرغ الزاد الذي كسبهُ العساكر وجاءهم نبأ ان في جهة كساب شرقي النيل على نحو عشرة اميال من سنار مخزناً كبيراً من الحبوب فاقروا على اخذهِ وكان النور بك وعثمان بك الدالي لا يزالان طريحي الفراش بسبب جراحهما فجهز القائمقام حسن بك عثمان

نحو الف من العساكر النظامية والباشبوزق ومعهم الملك تاج الدين كبير الفونج بسنار وعدّى بهم الى الشرق السبت في ١٥ اوغسطوس سنة ١٨٨٥ وفي صباح الاحد تقدم بالعساكر الى كساب فلم يجد فيها شيئاً فاراد ان يتوغل جنوباً للتفتيش عن الغلال فلم تذعن العساكر لامرهِ فبات ليلتهُ في كساب وهو لا يدري ما يفعل . ولما استيقظ صباح الاثنين في ١٧ اوغسطوس سنة ١٨٨٥ وجد ان ٤٠٠ رجلاً من عساكرهِ السود قد هجروهُ وانضموا الى مصطفى ود جبارة امير الدراويش بالشرق فقفل راجعاً بباقي العساكر قاصداً سنار فكمن لهُ مصطفى ود جبارة في غابة الشيخ فرح بين سنار وكساب وما اقترب منهُ حتى خرج عليهِ بجيشهِ فقتلهُ وقتل معهُ الصاغ رمضان افندي بهجت والملك تاج الدين كبير الفونج المار ذكرهما و بعض العساكر واسروا البعض ولم ينج من العساكر الا القليل فعبروا النيل سباحة الى سنار ونزل بعضهم بالمراكب فقذفهم التيار الى قرب معسكر محمد احمد ولد الشيخ ادريس في البقرة فارسل وابور محمد علي فقبض على المراكب ومن فيها ولم يرجع من الالف رجل الذين خرجوا الى الشرق الا نفر قليل . واصبحت حامية سنار بعد هذه المصاب تحت رحمة الدراويش

تسليم حامية سنار في ١٩ اوغسطوس سنة ١٨٨٥م

وكان محمد احمد ولد الشيخ ادريس لما القى القبض على العساكر في المراكب ألبس أربعة منهم جبباً مرقعة وأرسلهم في صبيحة اليوم الثاني أي ١٨ اوغسطوس الى سنار بكتاب الى اهل الحامية يدعوهم الى التسليم ويقول اذا سلمتم سلمتم والا هاجمتكم ودخلت الخندق عنوةً » . فجمع النور بك اذ ذاك مجلساً من الضباط والتجار والاعيان فلم يجدوا بدًّا من التسليم فكتبوا بذلك كتاباً الى محمد احمد شيخ ادريس وامضاهُ الميرالاي النور بك قومندان العساكر وعثمان بك الدالي ثانيهُ والبكباشيان محمد صالح وعثمان ذهني والشيخ احمد مكي قاضي سنار والشيخ احمد ابو عامر سر تجار سنار وغيرهم من التجار والاعيان . ثم خرجوا فسلموا لهُ و بايعوهُ وذلك في يوم الاربعاء في ٨ القعدة سنة ١٣٠٢ ھ ١٩ اوغسطوس سنة ١٨٨٥ م وكانت سنار آخر من سلم من حاميات السودان بعد جهاد ثلاث سنين وخمسة اشهر

﴿ الغنائم والاسرى ﴾ ودخل الدراويش الخندق فأخرجوا العساكر الى الديم وكانوا لا يزيدون عن ٧٠٠ رجل من نظامية وباشبوزق ثم اخرجوا اهل البلد واخذوا في جمع الغنائم فأتوا بمن ظنوهُ اخفى مالهُ فعذبوهُ وجلدوهُ بالسياط حتى اعترف بهِ كما فعلوا في كل حامية فتحوها. اما النور بك فانهُ لم يُهن لان ابنتهُ كانت في عصمة محمد عبد الكريم وقد تسرَّاها بعد فتح الخرطوم وكان النور بك وعثمان بك الدالي لا يزالان طريحي الفراش بسبب جراحهما فتركوهما داخل الخندق

﴿ بعثة النجومي الى سنار ﴾ هذا وكان الخليفة عبد الله لما رأى محمد عبد الكريم قد ابطأ في فتح سنار استدعى عبد الرحمن النجومي من المتمة وارسلهُ الى سنار ومعهُ ثلاثة وابورات وهي تل حوين وبوردين والاسماعيلية فسار برًّا وبحرًا بجيش لا يقل عن ١٣٠٠٠ رجل وفيهم من الامراء ود جبارة وابو قرجه ومكين النور وعبد الحليم مساعد فوصل سنار السبت في ٢١ اوغسطوس أي بعد التسليم بثلاثة ايام. وكان انصار محمد عبد الكريم لا يزالون مشتغلين في نهب المدينة وتعذيب اهلها فمنعهم النجومي من ذلك وأمَّن البلاد

﴿ خراب سنار ﴾ وكتب محمد عبدالكريم الى الخليفة يبشرهُ بفتح سنار فكتب اليهِ جوابًا بتاريخ ١٢ القعدة سنة ١٣٠٢ هـ ٢٣ اوغسطوس سنة ١٨٨٥ م يخبرهُ بوصول كتابهِ الحاوي بشائر فتح سنار وعليهِ حاشية : « جزى الله الانصار خيرًا وخصوصاً الحبيب المكرم مضوي عبد الرحمن فقد سرَّنا ما نوَّهتم بهِ في حقهِ من حسن الثبات وفتكهِ بالعدا وهكذا شأن من تكمَّل وتصفَّى وبعهد الله وفَى »

وكان الخليفة عبد الله لا يأمن جانب الاشراف لما تقدم من الاسباب وخشي من اتحاد النجومي وعبد الكريم عليهِ في سنار فاخذ يوالي تحاريرهُ الى كل منهما بحرق سنار والرجوع الى ام درمان في الحال ويقول « سنار تصيبها النار » فعاد النجومي بجيوشهِ ووابوراتهِ اولاً فوصل الخرطوم في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٥ واقام فيها . ثم لحقهُ عبد الكريم بعد ان احرق سنار واتمَّ خرابها وبقيت خرابًا فلم يجسر احد على سكناها الى ان كان الفتح الاخير فعمرت كما كانت

هذا وكان قد شاع في ام درمان ان محمد عبد الكريم لما علم بوفاة المهدي اراد جمع كلمة جيشهِ لمحاربة التعايشي وجعل الخلافة لابن عمهِ الخليفة شريف لانهُ احق منهُ بالملك فعند وصول محمد عبد الكريم الى ام درمان استدعاهُ الى مجلسهِ وتهددهُ وطلب اليهِ ان يحلف لهُ يمين الطاعة ففعل . واذاع التعايشي خبر فتح كسلة وسنار وكتب بذلك الى امرائهِ في الجهات وهاك ما كتبهُ «الى حبيبهِ المكرم يونس الدكيم»

«... واعلم حبيبي انهُ بحمد الله قد انتصر الدين النصر المبين وذلك ان كلا من مديرتي كسلة وسنار قد صار فتوحها ببركة الله تعالى على اتم حال واسرّ بال . وسيرتهما ان اهل كسلة قد اشتد عليهم الضيق بواسطة انصار الدين وقطعت عليها المواد بالكلية حتى تضايقوا المضايقة الشديدة واكلوا الحمير ولحوم بني آدم ولما ضاق بهم الحال واشتد عليهم النكال رجعوا الى الواحد المتعال وسلموا للمهدية حقرًا اذلاً منقادين والآن جميع مدافعهم وجبخانتهم واسلحتهم استلمت بيد الانصار والجهادية كذلك والحمد لله على ذلك . وكيفية فتح سنار هي ان اعداء الله لما اشتد كربهم خرجوا لجنود الله للحرابة فتصادموا فقتلت منهم مقتلة ثم انهزموا ودخلوا حصنهم وقد املوا التوجه لجهات الصعيد لقصد اخذ غلال لازالة ما بهم من الضرر فدخلوا في مراكب وتوجهوا فصادمهم الانصار وشددوا عليهم حتى هلك منهم نحو الالف وثلثمائة واسر منهم نحو الثلثمائة واستلمت مراكبهم وما فيها من الجباخين والاسلحة ولما رأوا ما حصل لهم من الدمار انحل عزمهم وتشتت رأيهم وبعد هذه المقتلة منهم عزم الانصار على دخول خندقهم وافتتاحهِ ليدمروا من فيهِ نصرةً لدين الله واحياء لملة رسولهِ (صلعم) فقبل انتقامهم خاطبهم الاعداء بالتسليم والانقياد للمهدية وطلبوا الامان خيفة على انفسهم من الهلاك فأمنهم الانصار فخرجوا من حينهم واستلمت مديريتهم بجميع ما فيها وصارت غنيمة للمؤمنين ولمعلوميتكم بما ذكر تحرر هذا . فاسجدوا شكرًا لله كما سجدنا وان شاء الله بعد الآن تتكاثر الفتوحات ويتأيد الدين زيادة على ما فات فشدوا الحزم وقووا العزم وتشوقوا للقاء الله يا حزب الله فان خيركم قدام فلا تطلبوهُ هنا رحمكم الله . هذا والسلام على جميع من معكم من انصار الدين ...»

الفصل الرابع
في
« وقائع الحدود وأم درمان سنة ٥ : ١٨٨٦ »

(واقعة جنس في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٥) تقدم ان محمد الخير لما علم بخروج الانكليز من دنقلة في ١٥ يونيو سنة ١٨٨٥ ارسل مقدمة جيشهِ بقيادة ابن اخيهِ عبد الماجد محمد خوجلي فاحتلها في ٢٦ اوغسطوس بنحو ٣ آلاف مقاتل . ثم لحقهُ على الاثر فوصل دنقلة في ٢٠ اوكتوبر سنة ١٨٨٥ . و بعد وصولهِ بقليل سيَّر عبد الماجد المذكور بمعظم انصارهِ لمناوأة جيش الحدود في كوشة وأخذ يستعد للحوق بهِ .

فوصل عبد الماجد بلدة جنس على نحو ٣ اميال من كوشة في ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٨٥ فأقام فيها ديماً ووضع بعض الانصار في بلدة كوشة والبعض الآخر على اكمة صخرية شماليها عرفت بالحجر الاسود تطل على طابية الجيش ووضع على الاكمة مدفعاً و بعض الرماة فشرعوا يرمون الطابية بالقنابل والرصاص حتى صار اهلها يحفرون الحفر و يختبأون بها فأقر الكولونل أفرت قومندان الطابية على طردهم من الاكمة عنوة . وفي ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٥ خرج عليهم بمعظم العساكر فرماهم بالقنابل اولاً ثم امر الصفوف فوضعوا السنج في رؤوس البنادق واقتحموا رصاص الاعداء وتسلقوا الاكمة فأجلوهم عنها وغنموا المدفع فجعل الكولونل افرت نفراً من العسكر في مكانهم ورجع بباقي القوة الى الطابية . وقد خسر في هذه الهجمة ضابطاً وعسكرياً وجرح الكبتن هنتر (الجنرال هنتر الآن) وثلاثة عساكر

هذا وقد صحب عبد الماجد من دنقلة عبدالله ود سعد فنزل بانصارهِ في الشاطئ الغربي تجاه ديم الدراويش في جنس وكانوا يأتون قبالة الطابية فيختبئون بالصخور ويترقبون العساكر فكلما لاح لهم عسكري رموهُ بالرصاص فاجتاز البكباشي بارو ببعض العساكر السودانية والمصرية وزرب زريبة تجاه الطابية ومكث بها فمنع اذاهم

وكان الجنرال ستفنسن قائد جيش الاحتلال في مصر لما علم بقدوم الدراويش

الى كوشة ساق اليها الجنود الانكليزية والمصرية من مصر والحدود فوصلها في ١٩ ديسمبر سنة ١٨٨٥ ومعهُ الجنرال غرنفل سردار الجيش المصري بصفة رئيس اركان حرب . وكان الجنرال بتلر قومندان العساكر الانكليزية في الحدود قد سبقهُ اليها فاجتمع عندهُ بين طابيتي مغركة وكوشة خمس اورط مشاة واورطة راكبة من الجيش الانكليزي وقسم من الاورطة التاسعة السودانية وآخر من الاورطة الثالثة والاورطة الاولى من الجيش المصري واقسام متفرقة من الطوبجية والمهندسين والهجانة والسواري من انكليز ومصريين . ذلك عدا وابور لوتس الحربي بقيادة الكبتن لويد في النيل . وكان مع عبد الماجد في جنس وكوشة والغرب نحو ٦٠٠٠ مقاتل . فاقر الجنرال ستفنسن على مهاجمة الدراويش في الشرق والغرب فجعل الماجور بارو وجنودهُ في صدد عبدالله ود سعد في الغرب وقسم جيشهُ الى آلايين : الآلاي الثاني — وهو مؤلف من ثلاثة انصاف اورط انكليزية والاورطة الاولى المصرية و بعض الهجانة الانكليز والمصريين وستة بلوكات من الهيلندرس و بلوكين من الاورطة التاسعة السودانية بقيادة الكولونل هوش - يهاجم بلدة كوشة ثم يتقدم على ديم الدراويش في جنس بطريق النيل . والآلاي الاول — وهو مؤلف من ثلاث اورط انكليزية واقسام من الطوبجية والهجانة والاورطة الثالثة المصرية بقيادة الجنرال بتلر . تتبعهُ الاسلحة الراكبة من انكليز ومصريين بقيادة الكولونل بلاك - يسير في نصف دائرة ويهاجم ديم جنس من الجنوب

وفي ٣٠ ديسمبر قبيل الفجر زحف الجنرال ستفنسن بالجيش من النيل الى التلال الجنوبية المطلة على كوشة وجنس من جهة الصحراء جاعلاً الآلاي الاول ومعهُ الاسلحة الراكبة امامهُ والآلاي الثاني وراءهُ . ولما كان الفجر أمر مدفعية الآلاي الاول ففتحوا افواه مدافعهم على كوشه . ثم امر الستة بلوكات من اورطة الهيلندرس والبلوكين من الاورطة التاسعة السودانية من الآلاي الثاني فهجموا على بلدة كوشة هجمة الاسود واحتلوها عنوة وغنموا منها مدفعاً وذلك في الساعة ٦ والدقيقة ٥٠ . وكان الآلاي الاول اذ ذاك قد اتخذ مركزًا على التلال الجنوبية على نحو ميل ونصف ميل من ديم الدراويش في جنس والآلاي الثاني وراءهُ تجاه بلدة كوشة . وكان

الدراويش في جنس لما سمعوا اطلاق المدافع قاموا مذعورين الى سلاحهم فما طلع النهار حتى رأوا العساكر قد ملأوا التلال وهم زاحفون عليهم فخرجوا لصدّهم زمرًا ففتح العساكر افواه البنادق والمدافع فاقتحموا النيران وتسلقوا التلال بقلوب لا تهاب الموت وذهبت فرقة منهم في خور متوارين بشاطئه حتى اتوا على الهجانة المصرية في يسار الآلاي الاول والتحم القتال بينهم وبين الهجانة بالسيوف والحراب فساعد هؤلاء فرقة من العساكر الانكليزية فردوهم على اعقابهم خاسرين وشتتوهم كل مشتت. ووالى العساكر رمي النار على الدراويش حتى اجلوهم عن التلال وتقدم الآلاي الاول الى الديم فاحتلهُ الساعة ٩ والدقيقة ١٥ . وبعد ربع ساعة انضم اليهِ الآلاي الثاني واستولى الجيش على جميع ما كان في الديم من الامتعة والذخائر والاسلحة وفيها ٤ مدافع

اما عبد الله ود سعد في غربي النيـل فانهُ كان قد استعد للهجوم على زريبة الماجور بارو فلما رأى قومهُ قد شرعوا بالانهزام انهزم هو ايضاً بلا قتال

ولحق فرسان الجيش بالدراويش المنهزمين الى عبري فقتلوا من ادركوهُ في الطريق وعادوا بالغنائم الى جنس

واما الوابور لوتس فانهُ ساعد الجيش في اثناء القتال ولما انهزم الدراويش تتبعهم الى أبي صاري فغنم منهم تسعة مراكب ملأى بالمؤن والذخائر وعاد الى جنس

هذا وبعد انجلاء الواقعة علم ان جماعة من الدراويش لا زالوا مختبئين في بيت من بيوت كوشة فدُعوا الى التسليم فلم يسلموا بل رموا العساكر بالرصاص وقتلوا ضابطًا مصريًا فاتى العساكر بالمدافع فهدموا البيت وقتلوا من فيهِ

وكانت خسارة الجيش في هذا اليوم ٧ قتلى و٣٤ جريحًا واما خسارة الدراويش فقد قدرت بنحو ٥٠٠ قتيل و٣٠٠ جريح وبين قتلاهم عبد الماجد الكيلك الميرفابي المار ذكرهُ وحسن ابو قرجة وبين الجرحى عبد الماجد رئيس السريّة وعثمان ازرق

وقد اعجب الهيلندرس ببسالة عساكر الاورطة التاسعة السودانية الذين صحبوهم في الهجوم على كوشه فأهدوهم راية مكتوبًا عليها اسم جنس فصارت الاورطة التاسعة تحملها مع رايتها الخاصة الى اليوم

وممن امتاز في هذه الواقعة والمناوشات التي تقدمتها من الضباط المصريين وذكروا في الاوامر العسكرية : البكباشي احمد افندي فهمي اركان حرب فانهُ «ادّى مساعدة ذات قيمة » ٥ والبكباشي في الطوبجية المصرية حسن افندي رضوان (رضوان باشا الآن) فانهُ « اصيب بجرح في طابيــة كوشه وقد صبر شهرًا على نيران العدوّ واظهر بسالة ومهارة في ادارة المدافع

وممن امتازوا من الموظفين السوريين : البكباشي الطبيب سليم افندي موصلي (الميرالاي موصلي بك الآن) فانهُ « ساعد مساعدة عظيمة جدًا اذ كان طبيب طابية مغركة . ثم الحق في الآلاي الاول وحضر واقعة جنس فداوم على الاعتناء بالجرحى وقام بالواجب عليهِ أحسن قيام » ٥ وملحم افنــدي شكور (ملحم بك الآن) سكرتير السردار العربي فانهُ «خدم مدة ثلاثة اشهر قبل الواقعة بصفة معاون المخابرات في نقط الجيش الامامية . فأظهر من الحميَّة والمهارة وحسن التدبير في تأدية واجباتهِ مما أتى بأحسن النتائج . وقد صحب سعادة السردار في الواقعة فكان لهُ افضل مساعد في الدلالة على نقط شتى لزمت الجيش معرفتها »

هذا وبعد الواقعة رأت الحكومة ان لا فائدة لهــا من احتلال بطن الحجر غير تحمل المشاق والنفقات فأخرجت جنودها منهــا وجعلت آخر حدها الجنوبي حلفا فوصل آخر الجند اليها من الجنوب في ١٣ ابريل سنة ١٨٨٦ . وفي ٧ مايو خرج العساكر الانكليز من حلفا فتركوا حمايتها للجيش المصري ولكن بقي الف رجل منهم في اسوان لنجدة الجيش المصري اذا مست الحاجة الى سنة ١٨٨٧ فعادوا الى مصر

﴿ التعايشي وخبر الحملة على دنقلة ﴾ هذا وكان محمد الخير لما بلغهُ خبر استعداد الانكليز لواقعة جنس بعث الى الخليفة بكتاب وصلهُ في ١٧ سبتمبر سنة ١٨٨٥ قال فيهِ :

« ... ان الانكليز لما بلغهم خبر وفاة المهدي سوَّلت لهم انفسهم الرجوع الى دنقلة وقد قاموا فعلاً من حلفا قاصدين دنقلة في ثلاث طوائف طائفة بالبحر وطائفة بالخلا لجهة الغربيــة وطائفة بالجهة الشرقية وان بعضهم دخلوا عكاشة ... »

فاضطرب الخليفة لهذا الخبر وارسل في الحال طليعة من عندهِ الى الحدود لتأتيهُ

بالخبر اليقين . وكان النجومي قد حضر من سنار في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٥ كما مر فامره بالزحف على دنقلة فصدع بالامر وشرع في تسيير الجيوش الى بربر

وكتب الخليفة في ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٨٥م « الى جماعة مضوي عبد الرحمن وكافة الحلاويين التابعين لمحمد البصير واولاد المرحوم العبيد بدر وغيرهم » يقول : « ... حيث امرنا الرايات بالخروج الى الجهاد في سبيل الله وانتم من جملة الرايات التي تعينت للجهاد فيقتضي ان تستعدوا لذلك ولا يتخلف منكم احد ... »

وبعث امرًا الى أبي عنجة في جبال النوبة في ٩ اوكتوبر سنة ١٨٨٥ « ليستعد للرجوع الى أم درمان عند اقل اشارة » . وقد كان من رأيهِ ان يجعل الخليفة شريفًا في صدد الجيش المهاجم ثم يجمع اطرافهُ في أم درمان ويستعد للطوارئ

قيل وعند وصول الخبر اليهِ من محمد الخير استدعى رفيقيهِ الخليفة شريفًا والخليفة ود حلو وقال لهما ان الحضرة النبوية قضت بتقسيم الرايات على الجهات فجعلت كل راية في صدد جهة فالراية الحمراء التي هي راية الخليفة شريف في صدد مصر والجهات البحرية . والراية الخضراء التي هي راية الخليفة ود حلو في صدد السودان الشرقي والحبشة . والراية الزرقاء في صدد السودان الغربي الى آخر حد الاسلام في السودان وعليهِ فقد عهدت امر مصر والجهات البحرية بالخليفة شريف ووجَّهتهُ لفتح مصر

وقد رأيت كتابًا منهُ الى عثمان دقنه بتاريخ ٩ صفر سنة ١٣٠٣ هـ ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٥ م ردًّا على كتابهِ عن واقعة كوفيت يقول فيهِ : « ... وليعلم لديك انَّا بخير وقد تعين خليفة الكرار برايات الى فتح الجهات البحرية ودعاية من فيها الى رب البريَّة وها هم على جناح السفر » ... « ثم اعلم يا حبيبي انهُ قد صار تعيين الحبيب عبد الرحمن الجنومي وقيامهُ في اول السريَّة وفي تاريخ اثنين ربيع الاول الآتي يصير قيام خليفة الكرار بباقي الجيش » . وكتب لهُ في ١٢ ربيع الاول سنة ١٣٠٣هـ ١٩ ديسمبر سنة ١٨٨٥ يقول : « ... خرج خليفة الكرار مدعمًا للسفر خارج المدينة ونحن اخرجنا خيمتنا معهُ للمشاورة والمدابرة في امر الجيش وفي شهر ربيع الثاني الآتي يقوم ببركة الله الى الجهات البحرية بجيوش لا قبل لها من العداء »

ثم كانت واقعة جنس في ٣٠ دسمبر سنة ١٨٨٥ فازداد قلق الخليفة وجدَّد الهمة في حشد الرايات الى دنقلة ٠ وكان محمد الخير قد ارسل الطلائع لاستطلاع طلع الجيش فعادوا في اواسط ابريل سنة ١٨٨٦ واخبروهُ بان الانكليز قد اخلوا البلاد كلها الى حلفا فكتب في ذلك الى الخليفة فسُرّي عنهُ واشاع ان الانكليز فزعوا من سطوتهِ فعادوا الى بلادهم

﴿ تجريد الخليفتين من الاسلحة والرايات ﴾ وكان التعايشي انما جعل الخليفة شريف في صدد مصر ليدرأ بهِ نار مهاجميهِ فلما سمع برجوعهم الى حلفا خاف انهُ اذا ذهب الخليفة شريف الى دنقلة ومعهُ تلك الجيوش الجرارة يفلت من يده ويستقل عنهُ ويكون لهُ ندًّا اينما حلَّ فامرهُ بالبقاء في أم درمان ٠ ولم يكتفِ بذلك بل أمرهُ بتسليم العساكر الجهادية الذين في رايتهِ وما معهم من الاسلحة النارية الى أخيهِ يعقوب لضمهم الى الراية الزرقاء ٠ وطلب مثل ذلك من الخليفة علي ود حلو فادرك ود حلو ان مراد التعايشي بذلك انما هو تنكيس الاشراف ليس الاَّ ولم يكن عندهُ الانفر قليل من السود فسلمهم طائعاً فلم يسع الخليفة شريفاً اذ ذاك الا الطاعة ٠ فجعل التعايشي جميع الجهادية راية واحدة وولى عليهم فضل المولى صابون اخا حمدان ابي عنجة وجعلهم في طابية ام درمان التي عرفت بكارة الجهادية ٠ ثم امر التعايشي الخليفتين فسلما طبولهما الحربية ثم رايتهما التي كانا ينصبانها امام منزليهما بحجة ان الدين واحد والجيش واحد ٠ وكان ذلك في اواسط جمادى الآخرة سنة ١٣٠٣ هـ اواسط مارس سنة ١٨٨٦ م

﴿ فرار الشيخ المضوي ﴾ ولم يكن ذلك كلهُ بلا جلبة أو لغطٍ بل قيل ان الشيخ المضوي انكر هذه المطاليب وحرَّض الاشراف على رفضها والعبور الى شرق النيل فتكفل بضم أهل الشرق والجزيرة اليهم وتدبير ما يلزمهم من المؤن ولما لم يوافقوهُ على رأيهِ خشي ان يبلغ التعايشي تحريضهُ فيبطش بهِ ففرَّ الى الحبشة ٠ وخاف ان يعترضهُ احد في الطريق فلفَّق كتاباً بختم التعايشي قال فيهِ انهُ مرسل من قبلهِ بأمر ديني ٠ ولما علم التعايشي بهِ بثَّ أصحابهُ في أثرهِ فلم يدركوهُ فبعث الى ملك

الحبشة في تسليمه فلم يجبهُ . وبقي المضوي في عاصمة الاحباش الى سنة ١٨٨٩ ثم أتى الى مصر وتوسط لهُ الزبير باشا فمُنح العفو الخديوي وعاد الى الازهر فأقام فيه حتى فتحت دنقله سنة ١٨٩٦ فسمّي قاضياً عليها ثم عزل وعاد الى بلاده على النيل الازرق

﴿ عزل احمد سليمان وتسمية ابراهيم عدلان مكانهُ ﴾ وقد تظاهر احمد سليمان امين بيت المال بانهُ محازب للاشراف وكان التعايشي حاقداً عليه من ايام المهدي فاحتال لعزله والايقاع به فطلب اليه تقديم حساب مدقق عن السنين السالفة واذ لم يستطع ذلك رماهُ بالاختلاس والخيانة وعزلهُ وزجهُ في السجن فبقي فيه سنة وشهراً وسمّى مكانهُ اميناً على بيت المال ابراهيم ود عدلان المار ذكرهُ في حصار الابيض

﴿ بعثة النجومي الى دنقلة ورجوع محمد الخير الى بربر ﴾ هذا وكان النجومي قد شرع في ترحيل جيشه من بربر الى دنقلة منذ اوائل ابريل سنة ١٨٨٦ . وكان التعايشي يود تنكيس محمد الخير لانهُ كان ذا سطوة ونفوذ في البلاد من لدن المهدي فاتخذ انكسارهُ في جنِس سبباً لذلك فكتب اليه فسلم البلاد الى حسن ود جبارة أمير مقدمة جيش النجومي ورجع بجيشه الى بربر . وكان معهُ من جيش النجومي راية حسن أبي قرجه وراية مرغني سوار الذهب فتركهما في دنقلة

﴿ عزل محمد الخير عن بربر وتولية عثمان الدكيم مكانه ﴾ ثم لم يكتفِ التعايشي بعزله عن عمالة دنقلة بل عند وصوله الى بربر استدعاهُ الى أم درمان وعزلهُ عن عمالة بربر وارسل عثمان الدكيم من اقاربه مكانهُ . وهاك ما كتبهُ الى عثمان الدكيم في ٦ الحجة سنة ١٣٠٣ هـ ٥ سبتمبر ١٨٨٦ ؟ بنصه بعد البسملة :

« وبعد فمن عبد ربه خليفة المهدي عليه السلام الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق الى حبيبه وعونه في دين الله عثمان الدكيم كان الله لهُ آمين ٥ بعد السلام عليك ورحمة الله وبركاته . حبيبي ان هذا الامر الذي نحن عليه هو الدين الخالص الذي كان عليه نبينا (صلعم) وجاء به عن الله . وظهر المهدي عليه السلام لاحيائه واقامته واظهاره على الدين كله ونحن بحمد الله على اثره . وحيث انك من الاصحاب الكرام الذين أخذ عليهم العهد من المهدي عليه السلام ومنا ومعدود عندنا

من أهل الحزم والعزم والتشمير في الدين وظننا بك جميل فقد جعلناك عاملاً على عموم بربر ونواحيها تعمل فيها بكتاب الله وسنة رسوله (صلعم) وتجتهد في اشهار شعائر الدين وتحزب أنت وجميع أهالي الجهة المذكورة لجهاد اعداء الله الكافرين لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى فاعلم ذلك حبيبي وسر في العباد بسير الصدق وكن على الحق الذي يرضي الله ورسوله واتقِ مولاك في الحركات والسكنات وساوِ الضعيف والقوي في الحق وأرفق بالمسلمين وسر بهم الى مولاهم وعظهم بالحكمة والموعظة الحسنة وكن أنت ومن معك على الاستقامة أشداء على الكفار رحماء بينكم وأجرِ الحق ولو على نفسك وكن على غاية الاجتهاد وعلو الهمة في الاستعداد لملاقاة مولاك ونصرة الدين حتى تفوز بذلك الفوز العظيم وتنال من ربك التكريم ولا يبلغنا عنك الآ الخير وحسن السير . واعلم ان امارتنا لك هي على شرط اتباع الكتاب والسنة والعمل بما يرضي الله فكن على ذلك تسلم من المهالك والسلام

﴿ تسمية مساعد قيدوم وكيلاً للنجومي ﴾ ثم ان التعايشي لم يبقِ النجومي وحده على ادارة الجيش بل ارسل مساعد قيدوم من اهله رقيباً عليه فسماه وكيلاً على الجيش على ان يوليه بلاد دنقله فيما بعد . وهاك ما كتبه الى أبي عنجة في ١٦ يوليو سنة ١٨٨٦ بهذا الشأن : « ... فالآن عزمنا على تعيين الحبيب مساعد قيدوم برايته للحوق بالحبيب عبد الرحمن النجومي ويوم الاثنين بعد غدٍ قصدنا اخراجها للسفر ... »

وكتب الى الامراء الذين مع أبي عنجة في ١٨ القعدة سنة ١٣٠٣ﻫ ١٨ اوغسطوس سنة ١٨٨٦ يقول : « ... وان سألتم عن حال اخوانكم الانصار فانهم على حالة تسر الخاطر وتقر الناظر ولا زالوا متوجهين للجهاد ونافرين خفافاً وثقالاً للحوق بالحبيب عبد الرحمن النجومي وقد تكامل بدنقلة منهم خمسة عشر الف مجاهد منهم من وصل بذات العرضي ومنهم من لا يزال بدار الشايقية ونحوها من الجهات والباقي منهم ببربر ستة آلاف مجاهد بمعية عبد الرحمن النجومي والحبيب مساعد قيدوم وهم شارعون الآن في السفر وجميع جهات الارياف ساكنة وليس بها أدنى حركة . واما اعداء الله الانكليز فقد هربوا من جهة مغركه وكوشه وغيرهما من محلاّت قيامهم السابقة ولا زالوا في

هرب الى مصر ومنها الى ديارهم وتركوا الترك وحدهم حيارى في ما يصنعونهُ وقلّت حيلهم لاسيا بعد ما بلغهم نزول الانصار الى جهات الارياف فلذلك و بالنظر لامتلاء دنقله بجيش الحبيب عبد الرحمن النجومي حرّرنا الى الحبيب العامل محمد الخير عبد الله خوجلي بالحضور والنزول بجهات أبي حمد بمن معهُ من الجيوش لشن الغارة على اهالي الجهات البحرية ور بنايتم بالخير ودين الله لازال منصورًا وعدوهُ مغلوبًا مقهورًا » اه

وخرج النجومي ببقية جيشهِ من بربر في ١٤ اوكتوبر سنة ١٨٨٦ فوصل دنقلة في ٩ نوفمبر من السنة المذكورة ٠ وفي ٣ ديسمبر من هذه السنة كتب الخليفة الى انصار دنقلة يحثهم على الجهاد والمحافظة على رباطهم والطاعة لعاملهم النجومي بمانصهُ :

« ٠٠٠ و يعلمكم ان الله تعالى قد عظم امر الجهاد واستنفر اليهِ جميع العباد ونوّه بفضلهِ كثيرًا ووعد عليهِ اكيدًا فقال تعالى ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدًا عليهِ حقًا في التورية والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهدهِ من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم بهِ وذلك هو الفوز العظيم ٠ وقال تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيلهِ صفًا كانهم بنيان مرصوص ٠ وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسولهِ وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يغفر لكم الآية ٠ وقال نبيهُ المعظم ان مثل المجاهد في سبيل الله والله اعلم بمن يجاهد في سبيلهِ كمثل الصائم القائم الخاشع الراكع الساجد ٠ وقال ما معناه من نزل منزلاً يخيف فيهِ العدو ٠٠٠ كتب لهُ كاجر ساجد لا يرفع رأسهُ الى يوم القيامة وأجر صائم لا يفطر الى يوم القيامة وأجر قائم لا يقعد الى يوم القيامة ٠ وقال من غزا فمات في سنتهِ دخل الجنة ومن ضمان الله الا يترك من خرج في سبيلهِ بدار ضيقة ولا هوان بل يتولاهُ بلطفهِ ويرفع ضررهِ بما يسوق من فضلهِ ويستجيب دعاءهُ برحمتهِ ٠ وقال ما جميع اعمال العباد عند المجاهدين في سبيل الله الا كمثل خطاف اخذ بمنقارهِ من ماء البحر وان الله تعالى يغضب للمجاهدين كما يغضب للانبياء والرسل ويستجيب لهم كما يستجيب للانبياء والرسل ولا طلعت شمس

ولا غربت على احدٍ اكرم على الله من مجاهد . وقال من سأل عني او سرهُ ان ينظر اليَّ فلينظر الى اشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة رفع لهُ علم فشمر اليهِ ليوم المضمار وغدًا السباق والغاية الجنة او النار » ... « فشدوا يا احبابنا في الله حيلكم واعلموا انكم الآن في خير كثير وفضل غزير ومستقرون ما بين فضيلة الجهاد وقد تقدم لكم بيانها وفضيلة الرباط وقد ورد فيها عن النبي انهُ قال من رابط يومًا في سبيل الله جعل الله تعالى بينهُ و بين النار سبع خنادق كل خندق كسبع سموات وسبع ارضين . وقال ثلاثة لا ترى النار اعينهم عين حرست في سبيل الله تعالى وعين بكت من خشية الله تعالى وعين كفت عن محارم الله تعالى . وقال من حرس ليلة على ساحل البحر كان افضل من عبادتهِ في اهلهِ الف سنة وان من ادركهُ الموت وهو في الرباط فقد فاز فوزًا عظيماً قال (صلعم) ليبعثنَّ اقوامٌ يوم القيامة يتلألأ نور وجوههم يمرّون بالناس كهيئة الريح يدخلون الجنة بغير حساب فقيل من هم يا رسول الله قال أولئك قوم أدركهم الموت وهم في الرباط » ...

« وما دمتم من اهل الكمال وتعلمون ان الحبيب الصفي عبد الرحمن النجومي هو صاحب امركم ونهيكم ومأمورون منا باتباع اشارتهِ واداء طاعتهِ فما زلتم فكونوا قائمين بسماع امرهِ ونهيهِ ما امر بالمعروف ونهى عن المنكر فانكم ما دمتم على ذلك فرضانا عليكم ولا زلتم ببالنا مذكورين و بصالح دعواتنا مغمورين واني اوصيكم ايها الاحباب بتقوى الله في السرّ والنجوى والقيام باداء طاعتهِ في السراء والضراء وملازمة القيام بشعائر الاسلام ولاسيما التحزب والتجمع بمحل الديم واقامة الصلوات فيهِ جماعة وقراءة راتب المهدي عليهِ السلام والحزب في الاوقات المعلومة وانكم لاشك منصورون واعداؤكم مخذولون بمقتضى الوعد الصادق الذي لا يخلف . فشمروا في امر دينكم وتحابّوا فيما بينكم وليرحم كبيركم صغيركم و يوقر صغيركم كبيركم وكونوا على طريق السلف الصالح الذين انتم على اثرهم ناهجين ولسكتهم سالكين لتدخلوا في مدح قوله تعالى الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة واتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن لمنكر بارك الله فيكم وتولاكم وحفظكم ورعاكم وفي هذا كفاية لكم والسلام » اه

الفصل الخامس

في

﴿ كتب التعايشي الى خارج السودان في الدعوة الى المهدية سنة ٦ : ١٨٨٨ ﴾

كتبهُ الى اهل مصر وحكومتها

﴿ كتابهُ الى أهل مصر ﴾ هذا وقد كان من هوَس التعايشي الذي اخذهُ عن سيدهِ المهدي ان المهدية ستعم بلاد الدنيا ويخضع لسطوتها جميع الامم طوعاً أو كرهاً فأخذ في بث مناشيرهِ خارج السودان للدعوة الى المهدية والحث على الجهاد محذرًا الناس من الاحجام عنهما. ولما كان فتح مصر من اول احلامهِ كما مرّ امر انصارهُ في دنقلة فهاجموا حدود مصر الى حلفا كما سيجيء. وكتب منشورًا عامًا الى « احبابهِ في الله اهالي الريف والجهات البحرية كافة » يدعوهم الى الانخراط في سلك المهدية ويحذرهم من المخالفة وهو منشور طويل جاء في ختامهِ :

« . . . واعلموا ان ما حملني على نصحكم ولادعاني الى بسط العنان في عظتكم الا مزيد الشفقة عليكم والخوف من ان لا تنجع فيكم المواعظ غرورًا بالاماني الكاذبة وركونًا الى راحة الدنيا الفانية الذاهبة فتدور عليكم الدوائر كما دارت على من قبلكم في بلاد السودان لما اعرضوا عن قبول الحق وجنحوا الى اتباع اقوال علماء السوء الذين اضلهم الله على علم واغتروا باكاذيب حكامهم وكثرة عدد جنودهم وعُددهم العارية عن معونة الله تعالى فختم الله على سمعهم وقلبهم وجعل على بصرهم غشاوة وحاق بهم مكرهم وهلكوا وحرقت النار اجسامهم وخسروا الدارين والعياذ بالله ولكم فيهم عبر وعندكم من امرهم خبر والسعيد من اتعظ بغيرهِ ونظر في صلاح عاقبتهِ وكشف ضيرهِ ٭ وليكن في علمكم ان هذا الامر ديني مبني على نور من رسول الله ومؤيد من عند الله بجنود ظاهرية و باطنية ولا يختلج في صدوركم انقطاع ذلك المدد الالهي بسبب انتقال المهدي عليهِ السلام فان للمهدي بجدّهِ المصطفى (صلعم) اسوة حسنة ولما انتقل (صلعم) لم يزل المدد مع اصحابهِ الكرام حتى تأيد دين الله واتسعت

دائرته كما لا يخفى عليكم . وانتقال المهدي عليه السلام للدار الآخرة قبل فتح مكة والقسطنطينية وغيرهما من الامصار كما هو مذكور في بعض الروايات لا يقدح في انه مهدي آخر الزمان الذي بشر الامة بظهوره سيد الاكوان على فرض صحة تلك الروايات لما ان النبي (صلعم) قد اخبر في حياته بفتح بعض البلاد كاليمن والشام وغيرهما واضاف ذلك الى نفسه الشريفة كما قيل به في حديث حفر الخندق والله اعلم ثم لم يكن فتح ما ذكر على يده الشريفة بل كان على يد خلفائه الكرام بعد انتقاله (صلعم) ولم تقدح ذلك في نبوته اذ لا غرو في نسبة فعل خلفائه اليه لما انهم اياديه وخاصته الوارثون لمقامه المنيف . ولا يخفى ان فعل التابع ينسب الى المتبوع وقد اخبر انبياء الامم السابقة اممهم ببعثة نبينا (صلعم) وذكروا انه يفتح الامصار ويقهر الملوك ويخرب المدائن الكبار ومعلوم انه لم يفتح في زمنه غير مكة وخيبر وكانت بقية الفتح على يد الخلفاء بعده . وعلى طريقته المثلى اتى خليفته المهدي عليه السلام فجميع ما وجد مضاف اليه في الاحاديث من فتح البلاد فلا بدّ من حصوله على يد خلفائه واصحابه لما انهم ورثته القائمون بالامر بعده واما نسبة جميع ذلك اليه فمن كمال وراثته المصطفوية . وحينئذ فلا بدّ من ان يعمّ امره هذا مشارق الارض ومغاربها بعون الله تعالى فان الله غالب على امره ومعلوم ان قدرته لا تقاوم وبطشه لا يصادم . وها قد بلغتكم واعذرت اليكم فلا عذر لكم بعد هذا الانذار وفقكم الله وشرح صدوركم لقبوله . ثم انه لا بد من ورود الرد منكم بما تصيرون اليه الهمكم الله رشادكم واخذ بنواصيكم الى طريق سدادكم هذا والسلام » اه

﴿ كتبه الى حكومة مصر ﴾ ومما دلّ على تناهيه في الغرور وجهله التام باحوال العالم الخارجي انه ارسل الى مصر اربعة رسل بثلاثة كتب بتاريخ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٤ هـ مارس سنة ١٨٨٧م منها كتاب الى جلالة السلطان عبد الحميد وآخر الى سمو الخديوي توفيق باشا وآخر الى جلالة الملكة فكتوريا ملكة الانكليز وفيها يدعوهم الى اعتناق المهدية قبل ان تطأ جيوشه بلادهم وتنتقم منهم !!! فوصل الرسل حلفا في ١٢ ابريل سنة ١٨٨٧ فأرسلوا الى الجناب العالي في مصر حيث قرئت الكتب وارسل

كتاب جلالة الملكة اليها ثم أرجع الرسل من حيث اتوا بجواب شفاهي هذا نصهُ : «ان اولئك الملوك الذين تجرأ سيدكم على الكتابة اليهم لارفع جدًّا من ان يتنازلوا الى مجاوبته » ٭ اما الخليفة فانهُ تباهى بهذه الكتب وارسل صورها الى جميع امرائهِ في الجهات للاطلاع عليها وتلاوتها على الانصار • وهذه هي صور كتبهِ الثلاثة بحروفها :

﴿ كتابهُ الى سمو الخديوي توفيق باشا ﴾ ٭ وبعد فمن عبد ربهِ خليفة المهدي عليهِ السلام الخليفة عبدالله بن محمد خليفة الصديق الى «والي مصر محمد توفيق» وفقهُ الله لمرضاتهِ وسلك بهِ طريق نجاتهِ آمين ٭ سلام على من اتبع الهدى ٭ اما بعد فاعلم ارشدك الله تعالى الى الصواب ورزقك حسن المآب ان هدي الله هو الهدى ومن حاد عنهُ باتباع النفس والهوى فقد هوى • وخير الهدى هدى نبينا محمد (صلعم) الذي نزل بهِ الروح الامين على قلبهِ من عند ربهِ الا وهو دين الاسلام الذي عناهُ الملك العلام بقولهِ جل شأنهُ ان الدين عند الله الاسلام • وان الله سبحانهُ وتعالى لما اراد احياء هذا الدين بعد اندراسهِ بين العالمين اظهر لذلك المهدي المنتظر وأيدهُ بالنصر والظفر فاعتمد على ربهِ ودعا العباد الى طريق الهداية والرشاد واجاب داعيهُ كل سعيد اوّاه وأعرض عنهُ من كتب عليهِ شقاوة ومنهم اتباع دولتك بالسودان ومن نحا نحوهم وسلك مسلكهم من اهل الطغيان حتى قضى الله عليهم بالهلاك على يدهِ وجندهم بسيفهِ ثلة عقب ثلة وقرية تلو قرية بعد تكرار الانذارات وتتابع الآيات ٭ وانك مع علمك بذلك وادعائك انك من ولات المسلمين السالكين احسن المسالك فما زلت مصرًّا على اعراضك عن طريق هداك ومحجماً عن اجابة داعي من دعاك الى مولاك فان كان ذلك منك ايثارًا لجانب علو الدنيا الذاهب عما قريب على الخضوع لامر الله المفضي الى الفوز بأوفر نصيب فاعلم ان الدنيا بحذافيرها ليست بشيء في جنب ما عند الله ولا تزن اقل قليل منهُ كما ورد • وكيف يليق بمن يؤمن بالله واليوم الآخر حب العلوّ في الدنيا بعد العلم بقول الله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا في الارض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين • وقولهُ تعالى من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا

النار وحبط ما صنعوا فيها و باطل ما كانوا يعملون ٭ وان كان ذلك استكبارًا منك عن قبول الحق فان الله تعالى قد اوعد المستكبرين في الارض بغير الحق بأليم العذاب وسوء المآب . قال تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين . وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني واحدًا منهما القيتهُ في جهنم ولا أبالي . وقال (صلعم) بئس العبـد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الاعلى بئس العبد عبد تجبر واختال ونسى الكبير المتعال بئس العبد عبد غفل وسها ونسى العقاب والبلا بئس العبد عبـد عتى و بغى ونسي المبدأ والمنتهى ٭ وغاية الامر انهُ لا حجة لك مع الله تعالى ان لم تنسلخ عن الحالة التي أنت فيها وتبادر الى اجابة دعوتي بالتلبية فاني ادعوك الى القيام بتأييد دين الاسلام كما دعاك الى ذلك المهدي عليهِ السلام فان كنت تريد سلامتك مع ربك فأنب اليهِ بالوقوف مع اوامرهِ ونواهيه وتسليم الامر اليَّ والتصديق بأمر المهدية والدخول تحت طاعتها المرضية فاني خليفة مهدي الله وصاحب العهد من بعدهِ والقيام بأمر الله ولا فخر . وليس قصدي من دعوتك الى هذا الامر الذي انا بصددهِ الا جلب النفع الدائم لك فان ما انت عليهِ من ملاذ الدنيا لا يدوم لك وعما قريب يزول عنك ولا يصحبك لآخرتك الا عملك نجاك أو اهلكك فدقق نظرك وتوقَّ ضررك ولا تركن الى دار الفناء والذهاب بل تأهب لدار البقاء والمآب . واعلم ان ما دعوناك اليهِ هو الدين الحق القديم والمنهاج الواضح المستقيم فلا تعرض عنهُ الى نزهات الباطل فان الحق جدير بالاتباع والباطل حريٌّ بالتلاشي والضياع ولو كان قصدي من هذا الامر ملك الدنيا الزائل وعزها الفاني الذي ما تحتهُ طائل لكان في السودان وملحقاتها كفاية كما تعلم من اتساعها وتنوع ثمراتها . ولكن ما القصد كما يعلم الله الا احياء السنة المحمدية والطريقة النبوية بين اظهر عامة البرية . ولو نظرت بعين البصيرة والانصاف وتركت التعامي عن الحق والاعتساف لأذعنت لي بذلك وسلكت باتباعي احسن المسالك وتيقنت انك الآن بمعزل عن الهداية حيث اتخذت الكافرين اولياء من دون المؤمنين اهل العناية وركنت الى مؤاخاتهم والانخراط في سلكهم حتى كأنك

تريد بهم اطفاء نور الله ويأبى الله الا ان يتم نورهُ ولو كره اعداؤهُ . . . ومن ثم فقد حملتنا الشفقة عليك على تحرير هذا اليك مقدماً قبل حلول جيش المهدية بديارك البحرية واقطارك المصرية بدعوتك الى الله وتسليمك الامر لنا لتكون من اعز رجال الدين القائمين بنصرة الاسلام وجهاد اعدائه الكافرين . فان كنت من اهل الغيرة على دينك وتريد الفوز عند ربك والتخلص من أسر اعدائه الكافرين فبادر الى اجابة الدعوة واندرج في سلك اهل الصفوة أنت ومن تبعك من المسلمين لتكون الامة المحمدية يداً واحدة على قطع دابر الفئة الكفرية أو ينيبوا لامر رب البرية وحينئذٍ نصفح عن جميع ما سبق صدورهُ منك وتكون كريماً لدينا وحبيباً الينا في الله وتأمن على نفسك ومالك وكافة متعلقاتك أنت ومن يكون معك من أمة محمد (صلعم) .

واعلم اني عبد ضعيف لا طاقة لي بقوام أدنى شيء . وانما سبيلي التوكل على الله وهو وليي وكفيلي ولولا اني على نور منهُ على هذا الامر الذي أنا بصدده اقتفاء لاثر مهديهِ وهو المحرك لي والمؤيد والمسكن والمشيد لما كان في طاقتي ان اقوم بمدافعة اضعف مخلوقاتهِ ولكني عليهِ توكلت فكفاني بقدرتهِ و بهِ اعتصمت فهداني وتولاني بنصرتهِ ولا شك ان ناصية كل شيء بيدهِ وان قدرتهُ لا تقاوم و بطشهُ لا يصادم . فتدارك ايها الرجل نفسك ودبر حالك ولا تغتر بما يلوح على نظرك من عددك الظاهرية العارية عن معونة رب البرية فان قوة العدد وتحصن البلد لا يدفعان عنك مقدور الواحد الصمد . وليكن بعلمك يقيناً ان لا قصد لي غير سوق العباد الى طريق الهدى والرشاد فهلم رحمك الله الى ذلك واسلك محجة فوزك ومنالك ولا تعرض عما دعوتك اليهِ ركوناً الى علماء السوء الذين اسكرهم حب الدنيا حتى باعوا بها دينهم فيصدوك عن طريق هداك وتخسر دنياك وأخراك . فقد ورد عن الله تعالى في الحديث القدسي لا تسأل عني عالماً اسكرهُ حب الدنيا فيصدك عن طريقي أولئك قطاع الطريق على عبادي الى غير ذلك من الاحاديث الواردة في هذا الصدد . فامعن ايها الرجل فكرك لتستبين طريق هداك قبل ان تحل رمسك فتساعدني على نجاتك وسلامتك من موبقاتك فاني لاشفق عليك من نفسك التي بين جنبيك . وان

أبيت بعد هذا الا الاحجام فقد انقطعت حجتك فصار ذنبك وذنب من تبعك مطوقاً بك في رقبتك ولا بد بمشيئة الله من وقوعك في قبضتنا أسوة من تقدمك فانا موعودون بالنصر على كل من بادرنا بالعداوة ولو كان في عدد معدودة و بروج مشيدة وهناك ترى عاقبة امرك ولوائح خسرك ٭ وحيثما ان الهمم نهضت الى توجيه الجيوش نحو جهتك وعن قريب ان شاء الله تعالى تحل بديارك فلا بد من سرعة ورود الرد منك بما يحط عليه رأيك صحبة المخاصيص المعينين لك من طرفنا ٭ فان سلمت فقد فزت والخير ادركت والا فذنب جميع من معك من المسلمين يكون عليك يوم لقاء احكم الحاكمين وفي هذا القدر كفاية لك والسلام على من اتبع الهدى ٭ اه

﴿ كتابه الى جلالة الملكة فكتوريا ملكة الانكليز ﴾ ٭ وبعد فمن العبد المعتصم بمولاهُ القاهر خليفة المهدي عليه السلام عبدالله بن محمد خليفة الصديق الى ٭ عزيزة قومها فكتورية ملكة بريطانيا ٭ سلام على من اتبع الهدى ٭ اما بعد فاعلمي ان الله عز وجل هو ملك الملوك القادر المقتدر الذي ليس كمثله شيء ٭ وجميع ما في الكون فهو في حيز قبضته لايعجزهُ في الارض ولا في السماء ولو اراد ان يهلك اعداءهُ في اقل من خطرة بال لكان جديرًا بحصول مراده ولكنهُ لكرمه يمهل ولا يهمل ولا يرد بأسهُ عن القوم المجرمين ٭ وقد ارسل الرسل الكرام لايضاح السبل للانام وجعل نبينا محمدًا خاتمهم رسولاً عامًا الى كافة الخلق بشيرًا ونذيرًا وداعيًا الى الله باذنه وسراجًا منيرًا فكان ناسخ الملل وفاسخ الدول وكل من آمن به وصدّق ببعثته فاز برضاء الله وادرك من الحظ الاوفر ما تمناهُ ومن كفر به وانكر بعثتهُ باء بالخزي من الله وصار الى النار وبئس القرار ٭ ولما كان المهدي المنتظر عليه السلام هو خليفة نبينا محمد الذي اظهرهُ الله لدعوة الناس كافة الى احياء دين الاسلام وجهاد اعدائه الكفرة الائام ٭ وانا خليفتهُ القافي اثرهُ في ذلك فاني ادعوكِ الى الاسلام فان اسلمتِ وشهدتِ أن لا اله الاّ الله وان محمدًا رسول الله واتبعتِ المهديّ عليه السلام واذعنتِ لحكمي فاني سأقبلك وأبشرك بالخير والنجاة من عذاب السعير وتكونين آمنة ومطمئنة لكِ ما لنا وعليكِ ما علينا وتتصل بيننا المحبة في الله ويغفر الله لكِ جميع ما فرط منكِ في زمن الكفر كما وعد بذلك في قوله

تعالى قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ٠ وان أبيت الا الجحود اعتماداً على ما عندكِ من الاستعدادات والجنود فاعلمي انكِ في غرور كبير وبعد عن السداد والتدبير اذ ان ما نحن بصددهِ فهو الدين الحق الذي تكفل الله الملك القادر بنصرتهِ وتأييدهِ ورفع منارهِ وتشييدهِ فلا طاقة لاحدٍ بمقاومتهِ ولا سبيل الى مغالبتهِ ضرورة ان قدرة الله غالبة فلا تقاوم وبطشهُ شديد فلا يصادم ٥ وان كنتِ تظنين توهماً ان جيوش المهدية القائمة بتأييد السنة المحمدية مثل عساكر احمد باشا عرابي الذين ادخلت الغش عليهم بالدنيا حتى افتتنوا بها عن دينهم وتخذلوا عن نصرتهِ ومكنوكِ من الاستئصال على البر المصري وصاروا اذلة اسرى لا يستطيعون المدافعة عن انفسهم فهذا توهم فاسد وغرور كاسد فان رجال المهدية رجال الميمون طبعهم الله على حب الموت وجعلهُ اشهى لهم من الماء البارد للظمآن فلذا صاروا اشداء على الكفار كأصحاب رسول الله الابرار لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يثنيهم عما هم بصددهِ صدمة صادم بل لا يرون لجميع ما سوى الله التأثير لصدق يقينهم بربهم القدير ولا يريدون حياة الدنيا الذاهبة الساحرة وانما يرون ان نعيمهم الدائم وعيشهم الناعم معد لهم في الدار الآخرة ٠ بخلاف اولئك فانهم لو صدقوا مع ربهم وكانوا على حسن اسلامهم وطرحوا حب الدنيا وراء ظهورهم وحفظوا الله فيما امرهم بهِ لأنجدهم الله بنصرهِ ولما توصلت عساكركِ الى هزمهم والاستيلاء على بلدهم ولو نظرتِ بعين البصيرة والانصاف لعلمت الفرق ٥ ثم مما يقضي عليك بتمني الغرور الفاسد منك انك بعد ان بلغك ظهور المهدي المنتظر عليهِ السلام ومحاربة دول الاتراك لهُ وظفرهُ بهم في عدة وقائع سولت لكِ نفسكِ ان منكِ الكفاية لحربهِ والاستيلاء عليهِ فبادرت الى ارسال احد رجالك المشاهير المدعو هكس باشا ومعهُ جيش عرمرم مؤلف من اجناس شتى وعدد منوعة وذلك من بادي رأيكِ بدون امعان نظر في العواقب بلامشورة باقي الدول في ذلك توهماً منكِ انكِ ستظفرين بالنصر على جند الله الغالب فعند ما حضر ذلك الجيش في ألوف مؤلفة وعدد معددة ما ثبت امام حزب الله ولا نصف ساعة بل قضى الله عليهِ بالدمار والبوار عن آخرهِ ٠ وكان هلاك ذلك الرجل

المدبّر الشجاع بجيشه بأسباب سوء تدبيرك وكثرة غرورك ولم تغن عنه كثرة العدد ولا قوة العدد بل صار الى النار وغضب الجبار * ثم ما اعتبرت بذلك ولا دبّرت حالك بل صرت تجهزين عساكرك من بادي رأيك جردة بعد جردة بكل فج لمحاربة الله ورسوله ومهديه تارة بسواكن وتارة بدنقلة وتارة بوادي قر حتى اهلكت بسوء صنيعك من رجالك ما ينوف عن عدة ألوف . ومن ذلك هلك كثيرًا من رؤساء رجالك المعروفين لديك بالشجاعة وحسن التدبير والثبات وقوة العزم كالجنرال غوردن باشا هلك بالخرطوم والجنرال استيورت هلك بأبي طليح واستيورت الثاني ومن معهُ من القناصل بوادي قر وفلان وفلان وما يكثر عددهم من مشاهير رجالك كما هو بعلمك * ومع كثرة دعواك التقدم في مجالات الحروب وتفوهك بقوة البأس والشهامة فما بال عساكرك رجعت من السودان القهقرى بالخيبة والهزيمة قانعة منها بالكلية ولا شك ان موجب ذلك الهرب محض الخوف من سطوة حزب الله الغالب كما هو بديهي وانهم صاروا الآن الى اسوء حال واضيق مجال تائهين في أودية الحيرة لايهتدون الى المخاص سبيلاً . وكل هذا من سوء تدبيرك واستبدادك برأيك عن باقي الدول ولو رفعت الشورة اليهم كما هو الواجب عليك لارشدوك الى ما يسكن روعك في الجملة وكانوا اما ان يشيروا عليك بالكف عن مصادمة حزب الله الذي لا طاقة لك بمقاومته وتكوني مقتصرة على محافظة بلدك لا غير واما ان يمدوك بالرجال والاسلحة ويحزّبوك على حرب حزب المهدية وحينئذٍ لا يتوجه عليك العار وحدك عند حصول الهزيمة بل يكون ذلك بالاشتراك * والحاصل انك قد اخطأت الرأي وصرت الى نقص كبير ولا مخاص لك من ذلك الاّ بالانابة الى الله المالك والدخول في ملة الاسلام واتباع المهدي عليه السلام فانك ان فعلت ذلك وسلمت الامر لنا تظفرين بمقصودك من السعادة التامة والراحة الحقيقية التي هي الفوز عند الله بدار النعيم المقيم الذي فيه مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . وان كنت لا تزالين على غرورك واستبدادك برأيك فأقدمي على حرب حزب الله بنفسك بجميع جيوشك واستعداداتك الحربية لترى كيف عاقبة امرك فتهلكي بحول الله

وقوتهِ أو تعذري من مات أو فرّ من رجالكِ الذين تطفلوا على محاربة حزب الله بمقتضى غروركِ ... واعلمي يقيناً اني مؤيد من عند الله وبهِ قوّتي ونصرتي لا بنفسي فاني عبد ضعيف لا قوة لي من نفسي وانما عصمتي بالله واعتمادي على الله وهو كفيل بنصرة من اعتمد عليهِ واعتصم بهِ ومن ثم فكل من بادرنا بعداوة يقتل على يدنا بعون الله وقوتهِ ولو كان الثقلين . فأعي ذلك جيداً ولا تغتري بما يلوح على نظركِ من العدد والجنود فان ناصية كل شيء بيد الله ولن يغلب الله احد بل هو القاهر فوق عبادهِ . وانكِ ان لم تسلمي لامر الله وتدخلي في ملة الاسلام واتباع المهدي عليهِ السلام فاحضري بنفسك وجنودك لحرب حزب الله وان لم تحضري فاستعدي في محلكِ فان حزب الله سيطأ داركِ باذن الله في الوقت الذي يريدهُ الله ويذيقك السوء بما صددتِ عن سبيل الله وفي هذا كفاية لكِ والسلام » اه

﴿ كتابهُ الى جلالة السلطان عبدالحميد ﴾ « وبعد فمن عبد ربه المعتصم بهِ خليفة المهدي عليهِ السلام الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق « الى سلطان اسلامبول عبد الحميد » جعلهُ الله من خواص العبيد وشرح صدرهُ بنور الايمان والتوحيد آمين

« لا يخفى عليك ان الله سبحانهُ وتعالى هو القاهر فوق عبادهِ المتصرف فيهم بحسب مرادهِ وقد اراد اظهار دين الاسلام واحياء ما اندرس من سنة خير الآنام فاظهر سيدنا الامام المهدي المنتظر خليفة سيد البشر وانجع دعوتهُ في العباد والبلاد وخذل اهل العناد والفساد فنهى بنهي الله وامر وبشر وانذر واجاب داعيهُ كل سعيد واعرض كل شقي عن الرحمة طريد . وكان فيمن اعرض عن اجابة داعيهِ الذي هو داعي الله اهل دولتك ومن تبعهم حرصاً على فاني الملك وزائل الجاه فضربوا صفحاً عما أصدرهُ اليهم من الانذارات وطووا كشحاً عن الهدى وابتدروهُ بالمحاربات فنصرهُ الله عليهم ثلة بعد ثلة واهلكهم على يدهِ معما كان عليهِ من الضعف والقلة . ولا شك انك قد رويت من آثارهِ وسمعت من اخبارهِ ما يكون عبرة لمن اعتبر وهداية لمن اهتدى ومقنعاً لمن اختبر « ومع كونك تدعي انك سلطان الاسلام القائم بتأيد سنة خير الانام فمالك معرضاً عن اجابة داعي الله الى هذا الآن ومقرًا لرعيتك

على محاربة حزب الله المؤمنين مع اهل الكفر والعدوان فهل أمنت مكر الله أم كذبت وعد الله حتى صرفت مجهودك في اعانة اهل الاصنام على هدم اركان الاسلام ما كان الظن بك ان تحيد عن طريق الصواب وترغب عن اتباع السنة والكتاب لما انك اولى الناس بالاعتناء بهذا الشان والوقوف منهُ على بنيان • فالعجب كل العجب من اعراضك عن اجابة داعي الهدى واتباعك لشهواتك الى الردى وتمكينك للاعداء من بلاد الاسلام مع علمك سعيهم في اطفاء نور الله بأشد اهتمام • وانت تزعم انك والي المسلمين الذاب عن حرم الدين فما عذرك غدًا اذا وقفت بين يدي مولاك فسألك عما قدمتهُ يداك * فهل جرى منك ما جرى ثقة بخلودك في الدنيا ألم تعلم ان من ذوقتهُ الدنيا حلاوتها بركون منهُ اليها اذاقتهُ الآخرة مرارتها بتجافيه عنها • وان النبي (صلعم) قال انما الدنيا دار بلاء ومنزل عناء قد نزعت منها نفوس السعداء وانتزعت بالكره من ايدي الاشقياء واسعد الناس فيها ارغبهم عنها واشقاهم بها ارغبهم فيها • هي الغاشة لمن استصحبها والمغوية لمن اطاعها والفائز من اعرض عنها والهالك من هوى فيها • طوبى لعبد اتقى فيها ربهُ وناصح نفسهُ وقدم توبتهُ وأخر شهوتهُ من قبل ان تلفظهُ الدنيا الى الآخرة . . . فيحشر اما الى جنة يدوم نعيمها او نار لاينفك عذابها ام اغترارًا بالملك الفاني ألم تعلم انهُ لم يصل اليك الا بموت او عزل ممن كان قبلك وهو خارج من يدك بمثل ما صار اليك اسوة من تقدمك قال النبي (صلعم) انما انتم خلف ماضين وبقية متقدمين كانوا اكثر منكم بسطة . . . فلا تكن ايها الرجل ممن خدعتهُ العاجلة وغرتهُ الامنية واستهوتهُ الخدعة فركن الى دار قريبة الزوال وشيكة الانتقال فقد ورد عن النبي (صلعم) انهُ قال انهُ لم يبقَ في دنياكم هذه في جنب ما مضى الا كاناخة راكب او صر حالب . . . وحيث ايقنت من دنياك بالزوال وتحققت حلول الارتحال فتدارك ايها الرجل نفسك قبل ان تحل رمسك واعلم اني داعيك الى الله ومرشدك الى ما يجلب لك رضاه فأجب الداعي تسلم وسلم الامر لله ورسوله ومهديه والىَّ تغنم فاني خليفة مهدي الله القائم بعدهُ بأمر الله ولا فخر وقد دعوتك الى جنة عرضها السموات والارض فأعنّي على جلب الخير لك

بالامتثال تفز يوم العرض ولا تسوف بالاجابة فتخطئ الاصابة بل بادر التسويف بالعزم والتفريط بالحزم فرحم الله امرأً نظر لنفسهِ ومهّد لرمسهِ ما دام رسنهُ مرخى وحبلهُ على غاربهِ ملقى قبل ان ينفد اجلهُ وينقطع عملهُ . ولا يغرنك ان الله وسع عليك سلطانك وكثر خدمك واعوانك وسوّى لك البلاد وملكك امر العباد فان ذلك مع اقامتك على تعدي الحدود ومخالفة الرب المعبود استدراج من الله وامهال لا اهمال فيوشك ان تثبطت بعد هذا عن اجابة داعي الله ان يحل بك الندم وتزلّ منك القدم فتلحق بمن غرّهم حلم الله عنهم وطول أملهم فزلّت بهم الاقدام فهووا في النار فلا جعلك الله منهم وألحقك بمن رضي عنهم ٭ وما كان يجب منك ان تتخذ الكافرين أولياء من دون الله وتركن الى موادتهم ومتابعتهم على ما يجلب لك سخط الله . ألم تسمع قول الله تعالى يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فانهُ منهم الآية . وقولهُ تعالى لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسولهُ ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم الآية . وقولهُ تعالى يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودة الآية . وقولهُ تعالى يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزؤاً ولعباً من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء الآية . وما هذه المطاوعة لاعداء الله ومتابعتهم على اطفاء نور الله والله تعالى يقول يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات . الى ان قال يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاتهِ ولا تموتنّ الّا وانتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا الآية ٭ فان كنت ممن ينظر بعين بصيرتهِ ولا يؤثر متاع الدنيا الفاني على نعيم آخرتهِ فتذكر ذلك وانتشل نفسك من اوحالك و بادر الى نجاتك وسلامتك من موبقاتك ونزه رأيك في عظمتهِ عن ان يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث امرك ودعاك ولا تكترث بزخرف الدنيا الباطل وملكها الزائل ٭ واجب داعينا الذي هو داعي الله ورسولهِ ومهديهِ ويكون ذلك بتسليم الامر لنا والقيام بواجب طاعتنا والمبادرة الى فعل احد امرين اما جهاد الكافرين واخراجهم

من بلاد الاسلام كمصر وغيرها صاغرين مع العمل بكتاب الله وسنة رسوله الامين وابطال جميع البدع التي احدثتها اعداء الدين واما السعي في الاجتماع بنا لنقوم جميعاً بنصرة الدين وقطع دابر القوم الكافرين فانك ان بادرت الى اجابة الداعي فزت بالسعادة الابدية وجلبت رضاء رب البرية . فاجمع عليك ايها الرجل فكرك ودبر امرك واغسل ما جرى منك بدموع الندم وتدارك سلامتك قبل ان تزل منك القدم * واعلم انا قد فرغنا من فتوحات السودان منذ ازمان وسمت بنا همتنا الى فتح الجهات البحرية والممالك المصرية فان كنت طائعاً لامر الله وتريد الفوز بقربه ورضاه فبادر الى الاجابة فيما طلبناه منك وسلم تسلم وتكون كريماً علينا فخيماً لدينا ونضرب عما جرى منك صفحاً وتنال منا محبة كاملة وعفواً فان هذا الامر الذي نحن عليه ديني مبني على هدى من الله ونور من رسوله الاوّاه ومؤيد من عند رب البرية بجنود الهية ولا قصد لنا غير اقامة الدين واحياء ما اندرس من سنة سيد المرسلين ولا نريد مع ذلك ملكاً ولا جاهاً ولا مالاً واعتمادنا في قوامه على الله فمنهُ نصرتنا وبه استعانتنا وعليه اعتمادنا واتكالنا . فعليك بالمبادرة الى ما دعوناك اليه لتنال رضاء الله وتحظى بالاكرام لديه * وان اعرضت بعد هذا البيان . . . فاعلم ان امر الله غالب على امرك وسلطانه فوق سلطانك ولابد ان شاء الله من وقوعك في القبضة . فانظر ايها الرجل بنور بصيرتك فانما ينفعك مع الله صفاء سيرتك فاعلم ان جميع من تحت طاعتك فذنبهُ مطوق بك في رقبتك وها قد انذرناك الى وجهة فلاحك وفوزك ونجاحك شفقة عليك وعلى من ينسب بالطاعة اليك فساعدنا على نجاتك بحسن الامتثال واتبع رضاء الجلال واعلم ان دين الله بلا شك منصور وعدوهُ قطعاً مقهور فلا تغتر بكثرة عددك وقوة حصن بلدك فان قدرة الله لا تقاوم وبطشهُ لا يصادم فارحم نفسك واتق ربك . ومن باب اتباع الاثر النبوي والسير المهدي فقد حررنا هذا الكتاب انذاراً لك من الوقوع في سخط رب الارباب فامعن فيه نظرك وافدنا بما يوافق رأيك وليس بعد هذا الانذار الا الاعذار والسلام على من اتبع الهدى » اه

!!! عجباً لفعل الجهل والغرور في الناس !!!

كتبهُ الى قبايل نجد والحجاز

﴿ كتبهُ الى قبائل الحجاز ﴾ وكتب ايضاً الى جميع قبائل الحجاز يدعوهم الى المهدية والجهاد ومنهم قبائل قريش وخزاعة ولحيان والحمران والجانين والصحاف و بشر وزيد والمجاولة وصبح والحوازم والطواهرة وعوف والهلبة والصواعق وميمون والدعاجين والمزاميم والزاهرة وهذيل الشام و بنو مسعود والمطارحة والاحامدة وغيرهم

﴿ تسميتهُ حذيفة بن سعد عاملاً على الحجاز ﴾ وقد جعل حذيفة بن سعد كبير الاحامدة عاملاً عليهم وكتب اليهِ منشورًا في العمالة بتاريخ ٢١ شوال سنة ١٣٠٣ هـ ٢٣ يوليو سنة ١٨٨٦م قال فيهِ : « ... فانا بالنظر لما بلغنا من جهتك من خلوص النية وصفاء الطوية وقوة العزم وثبات النفس قد حسَّنا بك الظن واملنا فيك الخير وجعلناك عاملاً من طرفنا على قبائل الحجاز كافة لتدعوهم الى الله وتحرضهم على الجهاد فحقق حسن ظننا بك وقم بواجب امرنا هذا وابشر بنصر الله وولايتهِ ولا تأل جهدًا في جهاد الترك واخراجهم من جهاتك وقطع دابرهم فانهم قد غيروا دين الله و بدلوا فيهِ ... وقد حررنا الى قبائل الحجاز كافة بامتثال امرك ونهيك ما دمت قائماً بامرنا هذا على اتباع منهج الحق وها هي الاوامر المحررة اليهم واصلة اليك صحبة هذا الامر بمعية رسولنا اليك الحبيب علي ... فان المذكور من اهل الصدق مع الله ومن خاصة الاصحاب الذين بذلوا ارواحهم لله وحسنت لهم التربية و بالنظر لذلك ولمعرفتهِ بالاحوال من جهة الطرفين احببنا ارسالهُ اليك باوامرنا لتقوم بواجب امرها

تحشية : ايها الحبيب نعلمك انا كنا قد حررنا « لعثمان نورين الدين » والي الحرمين من طرف الترك بالدعوة الى الله و بجعلهِ عاملاً على تلك الجهات على شرط مبادرتهِ الى القيام بأمر المهدية وذلك بناء على ما ورد منهُ الى المهدي عليهِ السلام بالتسليم ورغبة الدخول تحت سلك المهدية وطاعتها ومن حيث كونهُ من طرف الترك فغير بعيد ان يركن الى تأثير ملكهِ فليكن لك علم بحالهِ فان عمل بمقتضى امرنا لهُ بالانسلاخ عن طاعة الترك فكونوا الجميع متوازرين على اقامة الحق وعجلوا لنا بالافادة والا فان كان اعرض عن اجابة الداعي اغترارًا بملكهِ الذي لا بقاء لهُ فالاذن معك بحصارهِ

وشن الغارة عليهِ وكل من يأتيك مسلماً منيباً لامر الله راغباً للدخول في سلك المهدية فاكرمهُ وأمنهُ ولا سيما اهل الحرمين الشريفين وبذا لزمت الحاشية والسلام » اه

﴿ كتابهُ الى قريش ﴾ ومما كتبهُ الى قبيلة قريش: «...فكيف يليق بكم وانتم بضعة سلف طاهرين وبقية اخيار بذلوا ارواحهم في نصرة الدين ان تتكاسلوا عن المبادرة لاجابة دعوة المهدية بل المناسب لحالكم حيث انكم بتلك البقاع الطاهرة والاماكن التي لا يليق بها الا نشر احكام الاسلام واتباع سنة خير الانام ان تبادروا لاجابة تلك الدعوة الدينية وتبذلوا ارواحكم في طاعة رب البرية ولو ادّى ذلك الى التقطع ارباً ارباً فانهُ سهل في جنب رضاء الله عند من رضيهُ ربّاً» ...

« وقد توسمنا في المكرم حذيفة بن سعد الصدق وحسن الانقياد للمهدية والاهتمام بامر السنة المحمدية فجعلناهُ عاملاً من طرفنا واذناهُ في الجهاد فيلزم ان تنضموا اليهِ وتوازروهُ على اقامة الدين وتمتثلوا امرهُ ونهيهُ في طاعة رب العالمين لكن عما تنالهُ على شرط اتباع الكتاب والسنة والقيام بامر المهدية فحزبوهُ على ذلك ولا يحصل منكم تراخٍ بعد كتابنا هذا عن شن الغارات على اعداء الله تعللاً بضعف الحال فان امر المهدية هذا مبناهُ التوكل على الله وهو تعالى قائم بنصرتهِ وخذلان اعدائهِ بقدرتهِ. وحيثما ان الوجه عليكم ولا بد من بلوغ المهدية الى جهاتكم فقد حررنا لكم هذا مقدماً بالانذار فان عملتم بموجبهِ وتحزبتم مع المكرم حذيفة بن سعد على القيام بامر المهدية وجهاد من خالف ذلك الى ان يجتمع بكم جيش الاسلام فقد أديتم الواجب عليكم والاّ فقد وصلكم البلاغ وامر الدين لا بد من قوامهِ بقدرة الملك الخلاق وفي هذا كفاية لكم ولترد لنا منكم الافادة. والله المسؤول ان يوفقكم والى طريق الحق يرشدكم » اه

﴿ كتابهُ الى اهل المدينة ﴾ ومما قالهُ لاهل المدينة بتاريخ ٢٣ شوال سنة ١٣٠٣: «...فمع هذا لا يسوغ لامثالكم حيث اكرمكم الله بجوار خير الانام و بدر الظلام ان تكونوا راغبين عن القيام في نصرة سنتهِ ركوناً لهذا الحطام الذي لا يزن جناح بعوضة عند الملك العلام بل اللائق ان يكون مطمح نظركم ومنتهى أمركم الالتفات الى الخير الابدي والنعيم السرمدي الذي فيهِ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على

قلب بشر ... ومن باب حسن الظن بكم ومحبة الخير لكم قد حررنا لكم هذا بالدعوة الى الله فان كانت لكم طاقة بذلك فنيبوا عليكم من تختارون واتبعوا اشارته وجاهدوا الترك بعد انذارهم حتى يهلكهم الله على ايديكم أو تخرجوهم من جهاتكم صاغرين والاّ بان حسستم بالضعف من انفسكم ولم تقدروا على مقاومتهم فانحازوا الى الحبيب حذيفة بن سعد وانضموا عليه وتوازروا جميعاً على جهادهم فانا قد حررنا للحبيب المذكور بالامارة على جهات الحجاز كافة نظراً لما بلغنا في حق المذكور من كمال الصدق مع الله والتسليم لامر المهدية فكونوا معهُ ظاهراً و باطناً ان رأيتم الانضمام اليهِ. وعلى أي حالة فلا بد من اجابة داعي الله والانخراط في سلك المهدية والقيام بجهاد الطائفة الكفرية ابتغاء لاحياء سنة خير البرية وافادتنا عن ذلك هذا والوصية لكم بعد تقوى الله العمل بمقتضى كتابنا هذا فان فيهِ الكفاية لمن أدركتهُ العناية والسلام » اه

﴿ تسميتهُ عبد الله بن فيصل عاملاً على نجد ﴾ هذا وكان قد كتب الى جميع امراء نجد وسمّى « عبدالله بن فيصل بن مسعود » عاملاً عليهم و بعث اليهِ في ذلك منشوراً بتاريخ ١١ جمادى الاولى سنة ١٣٠٣ هـ ١٥ فبراير سنة ١٨٨٦ م جاء فيهِ :

« ... هذا وليعلم لديك حبيبي ان رسولك الحبيب ... قد منّ الله عليهِ بالوصول لساحة الامام المهدي عليهِ السلام وحظي بزيارة ضريحهِ وتم مقصودهُ بمقابلتنا وسماع مذاكرتنا وصار من الاحباب الكرام والاصحاب الفخام وقد ذكر لنا من جهتكم ما يشرح الخاطر من مزيد هممكم باقامة الدين وجميل تصديقكم بخليفة رسول الله الامام المهدي عليهِ السلام و بالنظر لذلك وحسن الظن بكم فقد اخترنا ان تكون عاملاً من طرفنا على عموم جماعتك كافة امراء نجد وعموم اهاليها على شرط دلالتهم على الله وادخالهم في سلك المهدي والتحزب بهم على جهاد اعداء الله والعمل بكتاب الله وسنة رسولهِ ... وقد فرغنا من فتوحات السودان وتطلعت انظارنا لتجهيز السرايا لفتح جهات الامصار ونحن الآن ان شاء الله شارعون في ذلك بعون الله ومشيئتهِ وعن قريب يبلغكم فتحها واتساع دائرة الدين فيها فليكن الاجتهاد يا حبيبي فيما اشرنا بهِ عليك وصورة ما تحرر لاهل الامصار البحرية واصلة اليكم طي هذا مع بعض من

منشورات المهدي فليكن الاطلاع على ما ذكر والعمل بمقتضى هـذا وما في مناشير المهدي عليهِ السلام وسرعة الرد منكم بما تصيرون اليهِ ه هذا واني اوصيك بما اوصى بهِ رسول الله معاذ بن جبل حيث قال يا معاذ اوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد واداء الامانة وترك الخيانة وحفظ الجوار ورحمة اليتيم ولين الكلام و بذل السلام وحسن العمل وقصر الامل ولزوم الايمان والتفقد في القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح واياك ان تسب حليماً او تكذب صادقاً او تطع آثماً او تعصى اماماً عادلاً او تفسد ارضاً. اوصيك بتقوى الله عند كل حجر وشجر ومدر وان تحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية بذلك ادب الله عبادهُ ودعاهم الى مكارم الاخلاق ومحاسن الآداب

كتبهُ الى ملك الحبشة

هذا وكان المهدي قد كتب الى يوحنا ملك الحبشة في سنة ١٨٨٥ يدعوهُ الى اعتناق الاسلام والمهدية ويحذرهُ من المخالفة فلم يجبهُ. فلما مات المهدي كتب التعايشي اليهِ والى خلفهِ الملك منيلك الحالي عدة كتب يدعوهما الى الطاعة و يتهددهما وقد جرت بينهُ و بينهما وقائع مشهورة يأتي ذكرها في ما بعد مع بعض كتبهِ اليهما

كتبهُ الى غرب السودان الاقصى

﴿ كتابهُ الى الاستاذ محمد السنوسي ﴾ وقد اهتم التعايشي كما إهتم سيدهُ المهدي من قبلهِ باستمالة الاستاذ محمـد السنوسي اليهِ للاستعانة بهِ على فتح مصر فكتب اليهِ يدعوهُ الى اعتناق المهدية ويؤاخذهُ على تقاعدهِ عن نصرتها ومما قال له:

«... و بعلمك ان المهدي عليهِ السلام عند ماطوق بهذه الحالة الالهية واعلن بأمر المهدية اعتنى بشأنك واهتم بأمرك وكاتبك اولاً وثانياً بأسرار غيبية واشارات نبوية للقيام بأمر الدين واحياء اثر سيد المرسلين وما ذاك الاَّ لحسن ظنه بك وتوسمهِ الخير فيك وشفقتهِ عليك وما زال حالهُ معك طيباً ورضاؤهُ عليك مسبلاً وظنهُ بك حسناً وترقبهُ لقاءك في الله حاصلاً الى ان انتقل الى الرفيق الاعلى ه ثم نحن كذلك لما رأينا من حال المهدي عليهِ السلام معك ما زلت منا على ظن حسن وما زلنا نترقب قيامك في

الدين وانتدابك لجهاد الكافرين ولكن من عهد ظهور المهدي ومكاتبتهِ لك الى هذا الآن قد مضت عدة اعوام فضلاً عن الشهور والايام وما أتى من جهتك رسول ولا جواب ولا بلغنا عنك التفات لامر المهدية ولا استصحاب مع انك لست بالبعيد عن جهة المهدية بعداً يتصور معهُ عدم بلوغ الدعوة ... ولا بد من ورود الرّد منك عن هذا الجواب فانا لذلك في انتظار والعاقل مثلك يكتفي بأقل من هذا والوصية بيننا تقوى العظيم والسلام في ٢٩ شعبان سنة ١٣٠٥هـ « ١١ مايو سنة ١٨٨٨م » أه

وقد عهد بإيصال هذا الكتاب الى محمود احمد المغربي وسلمهُ امرًا الى ابيهِ بالعمالة على « اهل الغرب » فذهب تعبهُ باطلاً

﴿ كتبهُ الى سلطان وداي ﴾ وكان على دار وداي في زمن المهدي السلطان محمد يوسف بن السلطان محمد شريف بن السلطان محمد صالح بن السلطان صليح العباسي فكتب اليهِ المهدي يدعوهُ الى طاعتهِ والقيام بأمرهِ . قيل فسأل السلطان يوسف الاستاذ السنوسي عن السياسة التي يتخذها مع المهدي فأجابهُ السنوسي « اتركهُ وشأنهُ ما تركك فاذا دخل دارك فحارِبهُ فانك منصور عليهِ بعون الله » فعمل برأيهِ ولكنهُ احب مجاملة المهدي ليأمن شرّهُ فكتب اليهِ انهُ مصدق مهديتهُ وتبادل الهدايا وكتب المودة هو ومحمد خالد زقل عاملهِ على دارفور فبعث اليهِ زقل بمدفع جبلي مع طوبجيتهِ وقنابلهِ . ولما تولّى التعايشي كتب الى السلطان يوسف مرارًا يذكرهُ عهودهُ ويحثهُ على القيام بأمر المهدية وهذا بعض ما قالهُ لهُ في كتابهِ الاخير في اواخر سنة ١٣٠٥هـ :

« ... وانك يا حبيبي على علم من امر المهدية وقد كنت بادرت بالتصديق والاذعان لاوامرها السنية وورد كتابك بذلك للمهدي عليهِ السلام وحظي لديهِ بالقبول والاكرام وتحرر لك منهُ بالحث على اقامة الدين واحياء الاثر النبوي بجهتك بين العالمين . وكذا مكاتبتك وكبراء قومك المحررة منكم لمحمد خالد لما كان بدارفور بعد انتقال المهدي عليهِ السلام بانكم ما زلتم على عهدكم وتصديقكم بالمهدية وقيامكم باوامرها المرضية وانك سترسل مخصوصاً من طرفك لمقابلتنا وتجديد العهد لك عن يدنا قد وصلت بطرفنا وفهمناها ولكن من وقت ما كاتبك المهدي عليه السلام بل من وقت

وصول مكاتباتك المذكورة بطرفنا قد مضت مدة ولم يأتنا منك رسول ولا جواب ولا سمعنا منك بقيامك في المهدية ظاهرًا عملاً بما تحرر لك في الكتاب مع انتظارنا لذلك وترقبنا لحصول ما هنالك فلما طال علينا المطال دعانا داعي المحبة لك والشفقة عليك الى مخاطبتك ثانيًا فكاتبناك في تاريخ ٢٣ شوال سنة ١٣٠٤ بحثك على القيام بأمر المهدية والانتداب لاحياء السنة المحمدية وعدم انقطاع اخبارك عنا وفتح طريق الهجرة لكل من يرغب القدوم الينا وقد مضت على ذلك مدة ولم يأتنا الرد منك وما علمنا السبب الذي دعا لقطع اخبارك عنا بالكلية مع قرب جهتك وموالاتها لحدود المهدية ... وبالنظر لكونك من المظنونين لدينا بالخير لسابق تصديقك فقد حررنا لك هذا وهو ثالث مكاتباتنا لك فان كنت على حسب ظننا بك وتوسمنا الخير فيك فاول وصوله بطرفك فبادر باجابة الداعي وقم بتأييد امر المهدية بجهتك واحمل من معك على العمل بالكتاب والسنة ومنشورات المهدي عليه السلام وافتح طريق الهجرة لكل من رغبها من المؤمنين واجعل اخبارك متصلة بنا في كل وقت . وكل من اتاك فارًا من المهدي فلا تأوه بجهتك ولا تقبلهُ ايًا كان وبالاخص ان كان من الفور او العرب بل اضبطهُ وارسلهُ الى المكرم عثمان آدم عامل المهدي بجهات دارفور ونواحيها بالمحافظة القوية واجعل اخبارك متصلة معهُ في الله فانك ان فعلت ذلك فقد صرت حقًا من ضمن اعوان المهدية وكنت منا على بال ومن خواص الاصحاب اهل الكمال والاَّ فأنت الجاني على نفسك ولابد من قدوم حزب الله لجهتك ويكون عليك إثمك واثم من معك من المستضعفين وهذا ما لزم اعلامك به وفيه الكفاية ولترد لنا منك عنهُ الافادة فانا في انتظار لذلك والوصية بيننا تقوى الله والسلام » اه

﴿ كتبهُ الى حياتو بن سعيد ﴾ وكان المهدي قد ارسل الى « حياتو بن سعيد بن محمد بلّو سلطان سوكوتو » يدعوهُ الى اعتناق المهدية فأجابهُ بأنهُ مصدق دعواهُ وانهُ سيجمع قومهُ ويلحق به . فلما تولى التعايشي الخلافة كتب اليه والى جميع اهالي سوكوتو وملي يخبرهم بوفاة المهدي ويدعوهم الى الهجرة اليه لنصرة الدين وجهاد اعداء الله الكافرين ومما كتبهُ الى حياتو بن سعيد بتاريخ ١٤ صفر سنة ١٣٠٤هـ ١٢ نوفمبر

سنة ١٨٨٦م : « ... وفي موسم هذا العيد الماضي وفدت الينا عمال المهدية المشاهير من الجهات فوفد الينا الحبيب عثمان دقنه بن أبي بكر من جهة بوغاز سواكن والحبيب محمد الخير من جهة بربر والحبيب محمد ارباب من بوغاز القلابات بنواحي الحبشة واخذوا معنا مدة في المذاكرات ثم وجهنا كل منهم الى جهته ، وان شاء الله تعالى يبلغكم فتح الجهات المصرية بقدرة رب البرية اذ الاعداء على فزع شديد وخوف اكيد من جهة انصار الله المجيد وجميع الاهالي في عموم الجهات المصرية متشوقون للاندراج في سلك المهدية ، وقد حضر بطرفنا بعد انتقال المهدي أمة من الناس من الجهات النائية البعض من الهند والبعض من بخارى على مسافة خمسة اشهر من مكة المشرفة والبعض من بني تميم شرق مكة بمسافة عشرين يوماً والبعض من الحبشة والبعض من الرحمنو والبعض من تونس والبعض منهم حسنت تربيته ورجع الى انذار قومه رسولاً منابا فيهم الحبشة قد حسن اسلامهم ورجعوا منذرين الى اهاليهم ودين الله قد تأيد . فعليكم يا حبيبي بالتشمير في امر الدين و بذل المهج في تأييده ابتغاء مرضاة رب العالمين وفيما تحرّر لكم في الاجوبة التي ارسلت اليكم مع الحبيب محمد العربي كفاية فليكن العمل بموجبها بارك الله فيكم وتولاكم ورعاكم » اه

ومما كتبهُ اليهِ في ٢٨ شعبان سنة ١٣٠٤هـ ٢٢ مايو سنة ١٨٨٧م : « ... كاتبناك مرارًا وألحنا عليك في الهجرة لله ورسولهِ الى عندنا والى الآن لسنا بصارفين النظر عنك ولا بأس عليك فيما مضى من تأخيرك لاننا تحققنا انك معذور بعدة امور فمنها اولاً من مكاتباتك الواردة الى المهدي عليهِ السلام مرارًا ومن رسولك الحبيب محمد العربي وثانيًا من اجوبتك التي وردت الينا اخيرًا بعد أوبة المذكور اليكم من عندنا وفيها تعرّفون انهُ وصلكم على السلامة هو والحبيب محمد الامين احمد فالحمد لله على ذلك وكل ما في تلك الاجوبة من حسن اجراءاتك قد علمناهُ واستصوبناهُ لظننا بك انك على هدى ولا ترى الاّ مصلحة الدين ولا تقصد غير وجه رب العالمين وغاية الامر انا في انتظار وشوق اليك فان وجدت بعد وصول هذا لك سبيلاً فبادر للهجرة الينا بنفسك ... » اه وقد كتب اليهِ مرارًا بعد هذا على غير جدوى

﴿ كتابهُ الى رابح الزبير وفيه خلاصة وقائع المهدية الى ٢٢ اوغسطوس سنة ١٨٨٦ ﴾

وسعى التعايشي والمهدي من قبلهِ اعظم السعي للحصول على رابح الزبير الذي فرَّ بجيشهِ الى الغرب الاقصى سنة ١٨٧٨م كما تقدم فكتبا اليهِ مرارًا قصد ارجاعهِ الى السودان وضمهِ الى جيش المهدية فلم يفلحا . ولكن يظهر ان رابحًا اتخذ المهدية شعارهُ وراية المهدية راية لهُ وما زال يتوغل في غرب السودان الاقصى حتى فتح مملكة برنو فاسس فيها ملكاً عظيماً بقي فيهِ الى ان تغلب الفرنسيس عليهِ وقتلوهُ سنة ١٩٠٠ كما مرَّ

وهذا اول كتب التعايشي لرابح بحرفهِ وفيهِ مجمل وقائع المهدية من اول ظهورها في أبا الى يوم تاريخ الكتاب في ٢٢ القعدة سنة ١٣٠٣هـ ٢٢ اوغسطوس سنة ١٨٨٦م :

« وبعد فمن عبد ربهِ خليفة المهدي عليهِ السلام الخليفة عبدالله بن محمد خليفة الصديق الى الحبيب في الله ورسولهِ المكرم رابح فضل الله كان الله لهُ متوليًا وحافظًا وهاديًا ووفقهُ لما فيهِ رضاهُ وادخلهُ في كنف برهِ وحماهُ آمين » ايها الحبيب انهُ بعد السؤال عن كامل احوالك والدعاء لك بشرح بالك فنعلمك انا بحمد الله وعنايتهِ على احسن حالة واطيب سيرة جادين في ما نحن بصددهِ من اقامة الدين وارشاد عباد الله الى ما يجلب لهم رضاهُ في كل حين . وقد كنا ونحن بالابيض سنة ١٣٠١هـ بالنظر لكونك منا على بال ونحب لك الخير والكمال خاطبناك واخبرناك بان اعداء الله الترك لما تزايد طغيانهم واشتد فسادهم وعصيانهم وانتشرت ضلالاتهم بين المسلمين وعطلوا احكام سنة سيد المرسلين خيب الله سعيهم ونغص عيشهم بظهور المهدي المنتظر الذي بشر بهِ سيد البشر » وانهُ عليهِ السلام ظهر بجزيرة يقال لها أبا من جزائر البحر الابيض ودعا الناس الى الله وخاطب الترك بأمر المهدية ودعاهم الى رب البرية فاجاب من اسعدهُ الله من المؤمنين واعرض الترك ومن تبعهم عن داعي الله لشقاوتهم وضلالهم المبين فجيشوا جيشهم وحاربوهُ بالجهة المذكورة فقتلهم الله شر قتلة في اسرع مدة ومع قلة عددهِ اذ ذاك وضعف امرهِ وكثرة عددهم واستعداداتهم هلكوا على يدهِ ولم ينجُ منهم الا النادر الذي فرَّ هاربًا بيوابيرهم » وانهُ عليهِ السلام بعد قتلهِ اياهم جاءهُ الاذن في الهجرة الى جهة قدير وماسة فجيشوا كذلك جيشًا من

جهة كردوفان تحت رئاسة مديرها محمد سعيد لمحاربتهِ ومنعهِ عن التوجه الى الجهة التي قصدها على زعمهم الفاسد فالقى الله الرعب في قلوبهم فما استطاعوا الوصول اليهِ من شدة الفزع مع قربهم منهُ في بعض الحالات برأى العين وهو عليهِ السلام في غاية الأناة والثبات وعدم الاكتراث لهم ثقة بالله واعتصاماً بحبلهِ المتين . وكما نزل عليهِ السلام في محطة وتأنى بها انتظاراً لهم يرجعون القهقرى عن القدوم فرقاً من صدمتهِ الالهية وهكذا الى ان خرج من جهات مملكتهم فرجعوا ناكصين على اعقابهم * وهو عليهِ السلام جاد فيما هو بصددهِ فعرض لهُ اهل الجرادة فدعاهم الى الله فلم يقبلوا فناجزهم الحرب فكانوا تحت القبضة واذعنوا لحكمهِ وانقادوا لطاعتهِ فاخذ فيما هو فيهِ حتى حلَّ بجهة قدير * فحضر اليهِ راشد مدير فشودة بعساكرهِ فاهلكهم الله على يدهِ وشتت شملهم وآل اليهِ ما كان لهم من الاسلحة والجباخين وغير ذلك * ثم لم يلبث الا يسيراً حتى حضر اليهِ يوسف الشلالي في جردة عظيمة مؤلفة من جهادية وبازنقر وبحارة واولادعرب وعساكر تركية وغير ذلك من الاجناد والاتباع في عدد وعُدد لحين قاربوا انذرهم وحذرهم فلم يسمعوا غروراً بما معهم من العدد والعُدد فقام فيهم بامر الله فناجزهم الحرب فقطع دابرهم في ايسر مدة واغتنم جميع ما اتوا بهِ من الاسلحة والجباخين وغير ذلك * ثم بعد ان نشر معالم الدين في تلك الجهات جاءهُ الاذن في التوجه الى جهة الابيض لانقاذ من فيها من الظلمات الى النور فخرج في كتائب انصارهِ وسار في حفظ الله وأمانهِ الى ان حلَّ بالقرب من بندر الابيض فدعا من فيهِ الى الله فمنهم من اجاب الداعي ونجا بنفسهِ ودينهِ ومنهم من أبى وبقي في الخندق كالأتراك واتباعهم فحاصرهم حصاراً شديداً واشتدت وطأتهُ «عم» عليهم . فلما ضاق بهم الحال استنجدوا اهل مملكتهم فحضر لنجدتهم عدو الله المدعو ابا كوكه ومعهُ جردة من العساكر التركية من جهادية وحمران وغيرهم فقابلها حزب الله قبل وصولها وقطع دابرها ولم يصل اليهم منها احد وجميع ما كان معها من الاسلحة وغيرها صار تقوية للدين . فلما انقطع رجاؤهم وضعفت قواهم واشرفوا على الممات وصاروا في حيز الهلاك والشتات وعاينوا من صولة حزب الله ما اذهل عقولهم وارعد فرائصهم

انقادوا لحكم الله صاغرين وجميع ما حوته تلك المديرية من الجباخين والاسلحة وغير ذلك آل الى المهدي « عم » واصحابه في الحين « وانهُ بعد ان تكامل فتوح جهات كردوفان كافة جيشوا لهم جردة كثيرة العدد متنوعة العدد مؤلفة من نصارى وجهادية وارانطة واولاد عرب واولاد بلد واتباع وقائد جردتهم هذه عدو الله هكس ومعهُ الحكمدار . ومن حين وصولهم في جهات الدويم وشروعهم في القيام تعين حزب الله لمقابلتهم ومناوشتهم وحصرهم عن الرجوع القهقهرى فأحاطهم حزب الله بالاماكن الى ان اوصلهم بجهة شيكان بنواحي البركة فقابلهم المهدي « عم » بباقي انصاره هنالك وقطع دابرهم في اقل من ساعة فلكية ولم ينجُ منهم احد ما عدا نفرًا قليلاً أخذوا اسرى وجميع ما اتوا به من الاسلحة والجباخين صار تقوية لدين الله . وانهم في جميع وقائعهم المذكورة تحرق النار اجسامهم عيانًا اول خروج الارواح من ابدانهم ومبداها من محل طعنة الكبس وذلك اظهارًا لحقيقتهم وتعجيلاً لعقوبتهم الى آخر ما سطرناهُ لك آنفًا قبل هذا مستوفيًا من الاحوال والاخبار والدعاء الى الله العزيز الغفار وما ندري هل وصلك ام لا

« وها نحن على حسب ارادتنا الخير لك واعتنائنا بشأنك نفصّل لك ما جرى بعد ذلك من الاحوال وما حصل للدين من الاتساع والتأييد من ذي الجلال ليكون مدركاً لديك ومحسوبًا لك أو عليك فنقول لك ايها الحبيب انهُ بعد ان نصر الله دينهُ في مواطن كثيرة وعز جندهُ وقوّى شوكة اهل الاسلام وفلّ شوكة اعدائهِ اللئام وجاء عباد الله من جهات شتى وفودًا وفودًا داخلين في دين الله افواجاً افواجاً مشاةً وركبانًا جماعة ووحدانًا وهم لا يحصون في كل حالاتهم كثرة طفق « عم » يجهز السرايا للجهات النائية فجهز سرية لجهات دارفور وفتح مدائنها وسرية لجهات الجزيرة وحصار مدينة الخرطوم وسرية لجهات بربر وفتح مدينتها وهكذا نشر سراياهُ في الجهات البعيدة لدعوة العباد الى طريق الرشاد « ولما ازمع عم على الهجرة الى جهات البحر لقطع دابر من بغى بها من اعداء الله الترك وجّه جملة سرايا لدعاية اهالي جبل الدائر وانضمامهم الى حزب الله والقيام بأمر الدين فلووا رؤوسهم عن

اجابة داعي الله واغتروا بحصانة جبلهم وشدة حمايتهِ ووعورة طرقهِ وغفلوا عن قدرة الله التي لا تقاوم و بطشهُ الذي لا يصادم فعنـد ذلك ناجزهم حزب الله الحرب وشنوا عليهم غارات بأسهم وعلت راياتهم على رأس جبلهم فألانوا شديدهم وقتلوا صناديدهم واثخنوهم ضرباً وطعناً واستأصلوهم قتلاً واسرًا وصيروهم عبرة لمن اعتبر ومقنعاً لمن اختبر وانزلوهم من صياصيهم صاغرين واقامت الجيوش بجبلهم اشهرًا حتى اجلوهم عن دورهم وصـيروا اماكنهم بلاقع ٭ وهكذا الى ان حضر الاذن بهجرة المهدي «عم» الى نواحي البحر فخرج من الابيض ونزل بالرهد حيث اجتمعت عليهِ الجيوش وهم في كثرة لا يحصي عددهم الاَّ الله ووردت الاخبار من بعض الجهات بفتح كثير من المدائن كبربر وغيرها ٭ ثم زحف المهدي «عم» من الرهد الى جهة البحر بجيوش لا قبل بها للعدى ولا يدرك عددها الاَّ رب السماء وتراكمت حتى ضاق عنها الفضاء وأربت على عدد الحصى بل كانت جيوش متواصلة وانصار متزاحمة يتلو بعضها بعضاً وقد اعدوا من اليقين بالله والاستغراق في حب الموت في سبيلهِ ما لا يكاد يوصف ٭ ومعهم فوق ذلك آلات حربية من خيول ولبوس ودروع واسلحة نارية وغيرها ما لا يحصى وهم جادُّون مع مهدي الله «عم» من بين يديهِ ومن خلفهِ وعن يمينهِ وعن شمالهِ الى ان نزلوا بالقرب من مدينة الخرطوم ووجدوا من كان قبلهم من الانصار واهالي البلد عاقدين عليها الحصار فترتبت الجيوش لحصار تلك المدينة من جوانبها الثلاثة أي الجانب الغربي والشرقي وجانب الهوي وشنوا الغارة عليها من كل الجهات بالضرب وشدة الحصر ٭ ومن ذلك فالانصار الذين بالجهة الغربية شدوا الوطأة على اعداء الله فحالوا بينهم و بين عساكرهم المقيمين بخندق أم درمان بالغرب وعملوا المرصاد والطوابي اللازمة ما بين الجهتين لضربهما كلتيهما والبوابير المحاربة بالبحر وانقطعت المواصلة بين القفرتين وجرت في اثناء ذلك محاربات شديدة حتى انكسرت شوكة الاعداء وداخلهم الرعب الشديد وضاقت عليهم السبل وتقطعت بهم الاسباب فعند ذلك خرج عساكر قفرة أم درمان مسلمين منقادين لامر الله ٭ ثم التفت جند الله الى المدينة الكبيرة وهم في اثناء حصارها اذ ورد الخبر بحضور

اعداء الله الانكليز زاعمين انهم يلحقون الخرطوم قبل فتحها لينجدوها فتعينت السرية الكافية لمقابلتهم على الطريق وانحزم الامر على اقتحام خندق الخرطوم فاقتحمهُ حزب الله من جهة الهوي وقطعوا دابر من فيهِ في اقل من ساعة وفي الحال قطع رأس عدو الله الغردون وحمل الى المهدي «عم» ضحوة يوم الفتوح • وكذلك الانصار الذين بالجهة الشرقية اقتحموا الخندق المحفور بالجهة المذكورة وقتلوا من فيهِ من اعداء الله وفاز الدين بالنصر وجندهُ بالظفر • وداخل اعداء الله الانكليز الرعب الشديد والخوف الذي ما عليهِ من مزيد فحفروا لهم ثلاث فقرات بالقرب من حلة المتمة موالية البحر • ودخل بعضهم في وابورين واتوا ليختبروا امر الخرطوم في ثالث يوم الفتوح فوجدوا انصار الدين قد تبوأُوها دارًا وابتدروهم بالقاء الجلل والسواريخ عليهم من كل جهات الخرطوم والمقرن وأم درمان وتوتي فجدوا السير هاربين نحو جماعتهم • فبعد ذلك تعينت اليهم الجيوش الكافية لقطع دابرهم فعند ما سمعوا بقدومها خرجوا من فقراتهم ليلاً وفروا هاربين جادين السير نحو جهة دنقلة بطريقهم التي اتوا بها بعد ان طرحوا كثيرًا من مثقلاتهم بالبحر فاقتفى الانصار اثرهم الى محل يقال لهُ ابو طليح على مسافة يوم في الخلاء من جهة المتمة فلم يدركوهم لتمكن الرعب من قلوبهم وسرعتهم في المسير • فعند ما وصلوا بجهات دنقلة خائبين تنازلوا عن حرب السودان وجدُّوا في السير الى بلادهم فزعاً من كفاح انصار الله • ثم تعينت الجيوش الكافية لفتح جهات سنار • وفي اثناء حصارها وقبل فتحها انتقل المهدي عم الى الرفيق الاعلى حسبما هو مبين في الكتاب الواصل اليك طي هذا • وما زال انصار الله بعد انتقالهِ «عم» جادين في ما هم بصددهِ من امر دينهم حتى فتح الله على يدهم مدينة سنار المذكورة ومدينة كسلة والجيرة ؛ و بعضاً من مدائن الجهات الشرقية • وبحمد الله وعونهِ قد اتسعت دائرة الدين وكثرت اجنادهُ وانصارهُ وجميع جهات السودان الآن صارت تحت طاعة المهدية مباشرة اقامة السنة المحمدية في طمأْنينة وامان وخيرات حسان

«وقد تواتر وفود عباد علينا الله من الجهات القاصية والاماكن النائية مهاجرين رغبة في دين رب العالمين ومحبة في بذل الروح لله ابتغاء مرضاتهِ في كل حين •

فمن ذلك انهُ قبل انتقال المهدي «عم» وبعدهُ حضر الينا جماعة من المهاجرين البعض من مكة المشرفة . والبعض من المدينة المنورة . والبعض من الهند . والبعض من بخارى على مسافة ستة اشهر من مكة المشرفة . والبعض من نجد على مسافة عشرين يوماً منها ايضاً . والبعض من تونس . والبعض من استنبول . والبعض من الرحنو والجبرته والبعض من المكادة بما فيهم اسرى وكلهم قد أخذوا البيعة عنا واندرجوا في سلك الاصحاب وصاروا من انصار الدين . والبعض منهم قد كملت تربيتهُ وتنور قلبهُ وحررنا المكاتبات الكافية اليـهِ والى اهالي جهتهِ لدعوتهم الى الله ووجهناهُ اليهم رسولاً من طرفنا وباقيهم معنا على احسن حالة مرضية من الجهة الدينية

. وبوغازات السودان كافة مشحونة بالانصار فبوغاز دنقلة فيهِ الحبيب عبد الرحمن النجومي ومعـهُ من الجيوش اهل الهمة والعزم ما فيهِ الكفاية لقطع دابر اعداء الله واوّلهم الآن بنواحي وادي حلفا والاعداء في غاية الفزع والجزع من جهتهم ومقتصرون على حفظ جهلتهم البحرية وفي كل يوم يتصورون هجوم الانصار عليهم ولابد من حصول ذلك عن قريب بمشيئة الله . وبوغاز ابي حمد فيهِ الحبيب محمد الخير بجميع جيوش اهالي بربر والجعليين والرباطاب وغيرهم من القبائل التي يكثر عددها والاعداء ايضاً في غاية الفزع من جهتهم والمحافظة على انفسهم . وبوغاز سواكن فيهِ الحبيب عثمان دقنه ابن ابو بكر بجميع جيوشهِ والاعداء كذلك في غاية الجزع من جهتهِ وكثيرًا ما افنى جموعهم في وقائع كثيرة يطول شرحها . وبوغاز المكادة فيهِ الحبيب يونس الدكيم بجيوش لا قبل للعدى بها والاعداء ايضاً في غاية الفزع من جهتهم وكثيرًا ما يطلبون الصلح خوفاً من سطوة الانصار اذ قد حصلت لهم معهم مناوشات كثيرة ووقائع خطيرة هلك منهم فيها جم غفير وهدم الانصار لهم كنائس قديمة وكسروا ما فيها من الصلبان . وبالجملة فجميع جهات السوادن من بوغازات وجبال وغيرها مشحونة بالانصار * وعلى ذلك فنحن جادُّون في تجهيز السرايا وتسفيرها لفتح جهات الامصار وعن قريب يصير فتحها بعون الله القهار . والاخبار الواردة الينا من جهتهم تفيد ان جميع الاهالي راغبون في الاندراج بسلك المهدية

اول حلول جيشها بتلك الجهة والاعداء كافة تركاً وغيرهم على وجل شديد من جهة الانصار وخصوصاً الانكليز فقد تنازلوا عن مصر وتركوا حمايتها للترك وقد داخل الترك من جهة المهدية رعب شديد وفزع اكيد ! وقد اطلعنا على وقائعهم المطبوعة فعرفنا منها حالهم وخشيتهم من جهة حزب المهدية * ولما بلغنا من احوال اهل الجهات البحرية وحال اهالي الجهات الحجازية فقد حررنا لكل من اهالي الجهتين الانذارات الكافية والتبشيرات الوافية بالدعوة الى الله والانخراط في سلك طاعة مهدي الله والقيام بجهاد اعداء الله و بعثنا اليهم المحررات وها هي صورها واصلة اليكم طي هذا للاطلاع عليها والاسترشاد بما فيها

« وقد اجتمع للدين من القوة والعدد ما يكثر عدده فعندنا الآن من صنف المدافع ما ينيف على ماية مدفع فضلاً عن كثير من الاسلحة المتنوعة من صنف الرامنتون وغيره والجباخين والبوابير وعددها ثمانية فضلاً عن الكبكات والمراكب المعدة لاهبة الانصار * ومع هذا كله فاعتمادنا في نصرة الدين على الله لا على هذه العدد وان كانت مطلوبة بحسب امتثال قوله تعالى « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم الآية »

« وها نحن ايها الحبيب اعتناء بك قد بسطنا لك الاخبار على سبيل الاجمال والاختصار ولو اردنا ان نستقصي لك كل ما جرى لضاق عنه النطاق ولم تسعه الاوراق • وحاصل الامر ان عناية الله بانصار دينه واصحاب مهديه صيرتكم في غاية لا تدرك ونهاية لا تستدرك ولا غرو فالله غالب على امره ومتم نوره بتأييد حزبه • فافهم ذلك ايها الحبيب بقلبك السليم و بادر الى ما فيه نجاتك وفوزك بالثواب العظيم واعلم انك منا على بال كبير ونحب لك ما نحب لنفسنا من الخير الغزير وما دعانا الى بسط الاحوال اليك الا مزيد شفقتنا عليك ورغبتنا في ان تفوز بنصرة الدين كما فاز اصحابك واقرانك من السابقين فصاروا الآن في حالة يغبطون عليها وحازوا رضاء الله باعراضهم عن الدنيا وما لديها ولا شك انك ان بادرت الينا بعد ذلك يكون لك ما لهم وتنال من الخيرات ما لا يكون في حسابك وفي هذا

القدر كفاية لامثالك والله المسؤول ان يوفقك للالتفات الى ما فيهِ الخير ٭ والمبادرة الى الهجرة الينا ٭ انهُ جواد كريم

«تحشية : ايها الحبيب ان الاسلحة النارية التي استحوزت عليها المهدية كثيرة جدًا ولا يمكن حصرها الآن بالدقة ومن باب الحزر والتقريب فصنف البنادق ما بين رامنتون وابي روحين وأبي لفته وخشخان يزيد عن مائة الف بكثير وغالب ذلك رامنتون ٭ وصنف المدافع ما بين الكروب والجبلي والمتريوز واوردي و بلبل وكبس ينيف على مائة مدفع كما اشرنا ٭ وصنف الصواريخ كذلك كثير ٭ وهذه الاصناف منها ماهو بمدينة المهدي عليهِ السلام تحت الطلب ومنها ما هو بأيدي الانصار في السرايا وجميع البوغازات مشحونة منها بما فيهِ الكفاية ٭ واما البوابير الموجودة فهي وابورات بوردين والصافية والاسماعيلية والفاشر ومحمد علي والمسلمية والتوفيقية وهذه تحت خدمة الدين وقد اوضحناها لكم باسمائها القديمة المعروفة عند اعداء الله الترك ٭ ووابور الطاهرة وهذه سماها المهدي عليهِ السلام لان الاعداء صنعوها ايام الحصار وعند تمامها وقبل دخول عدو الله الغردون بها حصل الفتح ودخل فيها المهدي «عم» ولم يسبق دخول احد من اعداء الله بها فلذا سماها الطاهرة وهي وابور عظيم جدًا وكان عدو الله الغردون قصد الهروب فيها بطريق البحر وسماها الزبير ولم يمكنهُ الله من ذلك واهلكهُ لسابق شقاوتهِ ٭ و بقية البوابير قد تكسرت في محاربة الانصار فمنها وابور تل حوين كسرها الانصار بجهة ود رملي ٭ ووابور المنصورة كسروها بجهات شندي ٭ ووابور عباس كسروها بجهات وادي قمر حين هرب فيها عدو الله استورت وكيل الغردون بالبوستة وقتلوهُ هو ومن معهُ هناك ٭ ووابور الحسينية غرقها الانصار قبالة ام درمان في اثناء الحصار ٭ واما وابور شبين فهي الآن بالخرطوم تحت التصليح ٭ والانصار جماعة الحبيب محمد الخير الذين اخبرناكم في اصل هذا الجواب بانهم في بوغاز ابي حمد فطائفة منهم بجهات المرّات قريبة من كورسكو وكذلك بعض من امراء المهدية بجهات عربان الريف شارعون في جمع الجيوش هنالك ٭ وجماعة الحبيب عثمان دقنه الذين ببوغاز سواكن منتشرون بنواحي عتباي الى الملاحة

من الجهة المذكورة . وبحمد الله فالدين كل يوم يزيد اتساعاً ويعلو منارهُ ارتفاعاً والاعداء في وجل شديد وخوف ما عليهِ من مزيد ولمزيد افهامكم بالاحوال لزم الالحاق في تاريخهِ والسلام » اه

وكتب اليهِ مع هذا ايضاً كتاباً آخر ذكر فيهِ بعثة صديقهِ حمدان ابي عنجة الى جبال النوبة وما أوتيهُ من الظفر هناك مما سنأتي عليهِ في ما بعد وذكر لهُ اسماء سائر اصحابهِ واقرانهِ الذين نصروا المهدية قال :

« . . . . والذين مع الحبيب حمدان المذكور من الاخوان احبابكم واهل معرفتكم فهم الحبيب النور عنقرة والحبيب السيد جمعة مدير الفاشر سابقاً والحبيب الزاكي ولد طنبل والحبيب بلل ناقور والحبيب ولد فرح والحبيب ابو بكر ولد الحاج والحبيب عبد الرسول عمر والحبيب ابو ولد محمود والحبيب ام بدي ولد حمدون والحبيب عبد الرحيم ولد ابي دقل والحبيب ابراهيم المليح والحبيب عبد الحميد محمد الشايقي والحبيب البشير الياس ام بربر والحبيب عمر الياس وهم الذين حضروا لنا من معارفك معهُ وغيرهم من الجيوش والامراء ومن لم نعرفهم كثيرون جداً لا يستقصى عددهم في هذا الخطاب . واما الذين معنا منهم بمدينة المهدي « عم » لمساعدتنا في خدمة الدين فهم الحبيب حمدان ولد حمد والحبيب السعيد صغير ولد احمد وهذا من الملازمية ابناء البيت والحبيب موسى ولد تاي الله والحبيب الحسن اخوهُ والحبيب عبد المولى صابون والحبيب عبد القادر سلاطين مدير عموم دارفور سابقاً والحبيب عبد الله لبتن المسلماني مدير بحر الغزال سابقاً وهذا معين بالترسانة لاصلاح البوابير نظراً لما لهُ من الدراية التامة بذلك والحبيب صالح الملك الشايقي والحبيب محمد حامد جفون والحبيب الياس ام بربر وغير ذلك من الاحباب الذين لهم الدراية بمعرفتك . ومع ذلك فبيان الحال الواقع على ما هو عليهِ من كمال التأييدات الالهية والوقائع المهدية لا يمكن ان تسعهُ هذه الاوراق وعند حضورك سترى مما هو فوق ذلك ما يسر خاطرك ويقر عينك وتطلع من ذلك على ما لا يكون في حسابك هذا ما لزم وبعدهُ السلام » اه . وارسل لهُ مع هذين الكتابين عدة منشورات ورواتب

الفصل السادس

في

﴿ وقائع السودان الغربي سنة ٥ : ١٨٩١ ﴾

حمدان ابو عنجه وجبال النوبة سنة ٥ : ١٨٨٧

﴿ غزو جبال تقلي ﴾ تقدم ان المهدي وجَّه ابا عنجه في اواخر فبراير سنة ١٨٨٥ بجيش كثيف لغزو جبال النوبة فأتى اولاً جبل الدوري من جبال تقلي ودعا اهلهُ الى الطاعة ولما لم يجيبوهُ اشعل فيهم نارهُ « ففرقهم في بطون الاودية والكهوف وغنم ماشيتهم وغلالهم » ٥ ثم تقدم الى جبل كراية كرسي مملكة تقلي ايام الملك آدم ود دباله المار ذكرهُ وكان فيهِ البعض من ذرية الملك المذكور فرأوا ضعفهم بجانب قوتهِ فسلموا لهُ فضمهم الى جيشهِ ٥ وقصد جبل تُكم وهو جبل شاهق صعب المرتقى فوجد اهلهُ مستعدين لمحاربتهِ فحاربهم اياماً حتى ظفر بهم واسر ملكهم فمات في الاسر ٥ وتوجه منهم الى جبل الكجاكجة وهو جبل مرتفع حصين واهلهُ سبع طوائف على كل طائفة ملك فاتفقوا كلهم على قتالهِ فحمل عليهم وقهرهم واتخذ جبلهم ديماً لهُ ٥ ثم دخل بلاد الكواليب فتجمعوا لهُ في جبل دري فحاصرهم اياماً حتى دانوا لهُ فاستولى « على جميع ما ملكتهُ ايديهم من غلال ومواشٍ مع ٣٠٠ راس رقيق و١٢٠ بندقية » وعاد الى ديمهِ في جبل الكجاكجة وقد قتل من جيشهِ ٢٥ رجلاً فيهم عمر بن الملك آدم

﴿ غزو الحوازمة ﴾ ثم تفرغ الى عرب الحوازمة المنتشرين في اودية تلك الجبال وسهولها وكانوا هم الذين اغروا اهل الجبال بالتحزب عليهِ فدعاهم الى الهجرة الى ام درمان فاخذوا يحاولونهُ ويخادعونهُ فتلطف لهم حتى ظفر برؤوسهم فجرّدهم من مالهم فكان ما غنمهُ منهم « ٢٧٠٠ بقرة و٥١ حصاناً و٢٠٠ رأس رقيق »

﴿ غزو جبل قدير ﴾ هذا وكان قد بعث بجماعة من اصحابهِ الى جهات جبل قدير لجمع الغنائم فقام اهلها بقيادة الملك بوش وقتلوهم عن آخرهم فخرج عليهم بنفسهِ وقاتلهم اياماً فنكل بهم واكتسح بلادهم وعاد الى الكجاكجة ٥ فوجد ان اولاد ملوك

تقلي قد نقضوا العهد وجمعوا جموعهم في جبل شندورة وصاروا يشنون الغارة على ديم الكجاكجة فانتقل بالديم الى جبل كراية وسط بلادهم وجرّد عليهم السرايا وما زال يتتبعهم في المعاقل والجبال حتى ظفر بهم وقتل منهم نحو ١٠٠ رجل بالسيف فدانت لهُ جميع البلاد من سهول وجبال عرب ومجوس وكانوا قد غنموا كثيرًا من الاسلحة النارية من واقعة شيكان فاتوهُ بها من انفسهم وقدموا لهُ ما عليهم من الزكاة والفطرة وهم صاغرون

كردوفان والامير محمود سنة ٥ : ١٨٨٧

﴿ حادثة جهادية الابيض ﴾ تقدم ان المهدي قبل خروجهِ من الابيض لغزو الخرطوم استعمل عليها ابن عمهِ محمود عبد القادر فبقي فيها نافذ الامر والنهي حتى مات المهدي واستدعاهُ التعايشي الى ام درمان لتجديد البيعة عليهِ فلبى الدعوة وحضر الى ام درمان في اوغسطوس سنة ١٨٨٥ ٠ وكان جيشهُ في الابيض مؤلفًا من نحو ٣٠٠٠ من العرب و٣٠٠ من السود واكثر هؤلاء أسرى من رجال الجيش المصري فكان محمود يرفق بهم نظرًا لما يعهدهُ فيهم من حب الحرية وعدم تحمل الضيم فلما غاب اساء العرب اليهم ولم يحسنوا سياستهم فشقوا العصا واجتمع عليهم اخوانهم السود فبلغوا نحو الف رجل فحملوا على العرب وقتلوا منهم جماعة ونهبوا بعض المنازل وساقوا نساءهم واولادهم وخرجوا من البلد علانية وما زالوا سائرين حتى اتوا جبل النما من جبال النوبة فجعلوا احدهم علي يوسف رئيسًا عليهم ورفعوا الراية الخديوية وصاروا يحلفون برأس « افندينا » ومن حلف باسم المهدي سهوًا جلدوهُ ٨٠ سوطًا ٠ وبالغوا في التحفظ على الذخيرة حتى جعلوا قصاص المفرّط بها القتل

﴿ عزل محمود وتولية عثمان آدم مكانهُ ﴾ ولما بلغ الخبر أم درمان طلب محمود الى الخليفة ان يأذن لهُ في الرجوع الى الابيض لمطاردتهم ٠ وكان الخليفة يهتم كثيرًا لغرب السودان لانها بلادهُ وحامية ظهرهِ وقد ودّ اخراج الاشراف منها على الخصوص وجعلها بيد اهلهِ الاخصاء فسمّى عثمان آدم الملقب بجانو من اعزّ اهلهِ عاملاً على الابيض وقال لمحمود « ان مصلحة الدين تقضي بتركك الابيض واللحوق بعبد الرحمن النجومي في دنقله » ٠ وكان محمود رجلاً نحيفًا اصفر اللون خفيف

الشاربين واللحية وكان قبل المهدية تاجرًا قيل فلما ظهر المهدي ذهب اليهِ والمصحف في يدهِ وقال لهُ اني رجل أُمّي لا اعرف القراءة ولا الكتابة فاحلف لي على هذا المصحف ان دعواك هذه على حق فحلف لهُ فقام بنصرته وهو يثق انهُ ينصر الله ورسولهُ ومهديهُ وكان عادلاً في احكامهِ صادقًا في اقوالهِ وافعالهِ متقشفًا في مأكلهِ وملبسهِ . فلما جاء أم درمان رأى امورًا كثيرة مغايرة لمبدأ المهدية فناصح الخليفة بها فلم يسمع لهُ ثم عزلهُ عن منصبهِ كما مرّ فساءهُ جدًا انقلاب الحال وانخفاض سلطة الاشراف الى هذا الحد فقال لاصحابهِ « الموت بعد هذا خير من الحيوة »

﴿ قتل محمود في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٥ ﴾ ثم استأذن الخليفة في العودة الى الابيض لجلب عائلتهِ فأذن لهُ فأتى الابيض ولم يدخلها بل نزل تحت شجرة ظليلة في ظاهرها وبعث الى الانصار فيها يقول من أحب الموت في سبيل الله فليتبعني فتبعهُ نحو الف رجل فسار بهم حتى أتى جبل النما فدعى الجهادية الى الطاعة ولما لم يجيبوهُ حمل الراية بنفسهِ واقتحم رصاصهم غير مبالٍ بالموت فقتلوهُ وقتلوا جماعة من انصارهِ وهزموا الباقين الى الابيض وكان ذلك في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٥ ؛ ووصل عثمان آدم الابيض بعد ذلك بقليل وسنعود اليهِ . ويذكر اهل السودان انهُ لم يمسِ اليوم الذي قتل فيهِ محمود حتى بدأت النجوم تتساقط في الجو تساقطًا عجيبًا ودامت كذلك الى آخر الليل

هذا وكان الخليفة حالما علم بحادثة الجهادية بعث الى ابي عنجة يأمرهُ بمراقبتهم حتى كلما ظفر بواحد منهم وضع الشعبة في رقبتهِ وارسلهُ مخفورًا الى ام درمان . فلما بلغهُ خبر محمود كتب اليهِ بمطاردتهم وتلافي امرهم قبل اتساع الخرق. ثم لم يكن الاَّ القليل حتى عرضت لهُ فرصة على زقل عامل دارفور وهو من اكبر زعماء الاشراف فكتب الى ابي عنجة بترك امر الجهادية وموافاة زقل الى كردوفان في الحال واليك البيان:

دارفور ومحمد خالد زقل سنة ٤ : ١٨٨٦

تقدم ان زقل استولى على دارفور كلها سنة ١٨٨٤ فعاش فيها ملكًا عظيمًا الى ان توفي المهدي فعزم التعايشي على عزلهِ عملاً بقاعدته الاساسية المار ذكرها فاستدعاهُ

الى ام درمان بجيشهِ واشار الى رفيقيهِ الخليفتين فكتبا اليهِ بذلك ايضاً. بل امر النجومي وامراءهُ فكتبوا اليهِ قبل سفرهم لفتح سنار يقولون: «....فاذا وصلكم هذا الكتاب فاجمعوا رجالكم مشاةً وركباناً واسرعوا بالحضور كما امر خليفة المهدي لتبايعوهُ وتسمعوا مذاكرتهُ وتزوروا ضريح سيد الجميع». ولما ابطأ كتب اليهِ لحضور عيد الاضحى في ام درمان. ثم لما مضى العيد ولم يحضر عاد فكرَّر الطلب فادرك زقل ان التعايشي انما يريد تنكيسهُ واحتال جدًّا على البقاء ولكنهُ لم يرَ بدًّا من اجابة الداعي فترك الامير يوسف ابن السلطان ابراهيم اميرًا على الفاشر وخرج بجيشهِ منها في ٧ يناير سنة ١٨٨٦ فوصل بارة في اوائل ابريل من السنة المذكورة ومعهُ من الامراء عمر الياس الجعلي وعمر محمد خير ترحو الشايقي ومحمد ولد فرح الدنقلاوي الفونجي وابراهيم المليح الحمري وحسن ام كدوك البرتاوي وحسب الله الماهري وابو جوده فات البرتاوي وآدم عامر السوداني البكباشي رئيس جهادية كبكية ومحمد سليمان رئيس سائر الجهادية وغيرهم. ومعهُ من الانصار نحو ١٠٠٠ فارس و٢٠٠٠٠ راجل و٣٠٠٠ من الجهادية السود؛ وكان التعايشي انما يريد تجريدهُ من الاسلحة النارية والخيول قبل وصولهِ الى ام درمان خوفاً من اتحادهِ مع الاشراف عليهِ بعد وصولهِ. فلما سمع بخروجهِ من الفاشر كتب الى ابي عنجة بتاريخ ١١ مارس سنة ١٨٨٦ لموافاتهِ الى كردوفان كما مرَّ وتجريدهِ من الاسلحة النارية والخيول وارسل كتابهُ هذا مع كاتبهِ الخاص مدثر ابراهيم ليتأكد وصولهُ اليهِ في وقتهِ فسار ابو عنجة لساعتهِ بطريق البركة والابيض قاصدًا بارة فوصلها بعد وصول زقل اليها بتسعة ايام

﴿تجريد زقل وسجنهُ في ١٨ يونيو سنة ١٨٨٦﴾ وكان التعايشي بعد ان ارسل جوابهُ الاول الى أبي عنجة قد جرَّد الاشراف من الاسلحة والرايات كما مرَّ ورأى منهم علامة الغدر فالحق بأبي عنجة كتاباً آخر بتاريخ ٩ ابريل سنة ١٨٨٦ يأمرهُ بتجريد زقل من الجيش كلهِ وبيت المال فعند وصولهِ بارة احاط جيش زقل بجهاديتهِ ثم بعث في طلبهِ ودفع اليهِ امر الخليفة فلم يسعهُ الا الطاعة فاستلم منهُ الجيش ويوم السبت في ١٨ يونيو سنة ١٨٨٦ عند استلامهِ الخزينة وجد في حساباتهِ بعض العجز

ورماهُ بالاختلاس والقى القبض عليهِ ثم كبلهُ بالحديد وارسلهُ الى الابيض فأم درمان فبقي فيها الى سنة ١٨٨٩ فعفا الخليفة عنهُ وسماهُ اميرًا على دنقلة كما سيجيء

(قتل جهادية الابيض في اوائل اوغسطوس سنة ١٨٨٦) ولما انفذ التعايشي غرضهُ في زقل كتب الى أبي عنجه في ٢٧ يونيو سنة ١٨٨٦ لمداركة امر الجهادية قبل استفحاله فزحف بالجيش الى جبل النما محل واقعة الامير محمود فرأى الجهادية قد هجروهُ وتوغلوا في الجنوب فسار في اثرهم حتى وصل جبل الوطا فبلغهُ انهم نازلون في جبل السما على ٣ ايام جنوبيهُ فعقد لعبد الله ابرهيم على سرية من الجيش وامرهُ باللحوق بهم فلما علم الجهادية بهِ فرُّوا ليلاً الى «فقرة صباحي على جبل تلك» فلحقهم اليها فثبتوا لهُ وحاربوهُ حتى قتل رئيسهم علي يوسف ففرُّوا منهزمين فاعترضهم نهر كبير ولحقهم عبد الله ابرهيم فقتل منهم واسر ٤٠ رجلا وعددًا كبيرًا من النساء والاولاد ثم حزَّ رأس رئيسهم ورأسي اثنين من زعمائهم وأرسلها الى ابي عنجه فبعث بها الى الابيض فأم درمان فعلقت في السوق اياماً . وكان ذلك في اوائل اوغسطوس ١٨٨٦

هذا وكان عبد الله ابرهيم قبل قتله الجهادية قد سبق أبا عنجه الى جبال النوبة فغزا جبل كودور والكافير في اوائل يونيو سنة ١٨٨٦ فغنم منها ٤٠٠ رأس رقيق و٢٠٠ بقرة و ٥٥ بندقية . ثم غزا جبل الدائر فنكل بحلّتي كله وسدرة وغنم ٤٠٩ رؤوس رقيق و ٦٠١ بقرة وقتل الملك الباجي وتسعة من اعيانهِ ثم بعد قتل الجهادية بين اواخر سنة ١٨٨٦ واوئل سنة ١٨٨٧ زحف ابو عنجه بالجيش كلهِ فغزا جبال انبرى وتقوي ورشاد والكدور وغنم منها اشياء كثيرة من نحاس وبارود وكبسول ورصاص ولبوس وشايات وعبايات جوخ وقمصان مقصبة وطواقي حرير وثياب علج واثواب دمور ونحوها

(رجوع ابي عنجه الى أم درمان في ٢٣ ابريل سنة ١٨٨٧) ثم لم ينتهِ امر جبال النوبة وجهادية الابيض حتى دعت الحاجة الى ابي عنجه في السودان الشرقي فاستدعاهُ الخليفة الى أم درمان فأتى الابيض وقسم جيشهُ قسمين فأرسل قسماً منهُ بقيادة عبد الله ابرهيم بطريق بارة وقسماً بقيادة الزاكي طمل بطريق الطيارة ثم خرج بين معهم الزوامل في طريق بينهما يوم السبت في ١٢ مارس فدخل ام درمان بالجيش كلهِ

السبت في ٢٣ ابريل سنة ١٨٨٧ . وكان جيشهُ مؤلفاً من : ٨١ راية و ٢٨٢٥١ مجاهداً و ٣١٩٥٥ من النساء والاولاد و٨٤٨٧ بندقية رمنتون و ١٣٦٠ بندقية ابو لفته وروحين و ١٠١١ جواداً و ١٣١ درعاً و ٧٤ من اللبوس و ٢٨١ صندوق ذخيرة رمنتون ومدافع و٥ مدافع و ٥ سواريخ و٦٣ نقارة نحاس و ٧١ بورياً و ٣٦ طرنبيطة فاستقبلهُ الخليفة احسن استقبال وعين لهُ ديماً جنوبي أم درمان فأقام فيهِ الى ان عيد الاضحى فأرسلهُ الى القلابات لقتال الحبشة كما سيجيء

هذا ولم تنتهِ متاعب التعايشي في السودان الغربي بانتهاء امر جبال النوبة بل خرج عليهِ هناك في هذه الاثناء اربعة رؤوس فاقلقوا بالهُ وتهددوا راحتهُ مدة فجرد عليهم ووقف لهم معظم اهتمامهِ حتى ظفر بهم جميعاً وهم : الشيخ صالح شيخ الكبابيش في شمالي كردوفان والشيخ مادبو شيخ الرزيقات المار ذكرهُ في جنوبي دارفور والامير يوسف ابن السلطان ابراهيم الذي ابقاهُ زقل وكيلاً عنهُ في الفاشر وابو جميزة في دار تامه

حركة الشيخ مادبو وقتله في اواسط فبراير سنة ١٨٨٧

اما مادبو فقد كان آخر عهدنا بهِ انكسارهُ على يد سلاطين قبل تسليم دارة بقليل فلما سلمت داره والفاشر عاد الى باديتهِ في شكا فكتب اليهِ الخليفة مراراً من الابيض والرهد وام درمان للهجرة الى جيش المهدية فلم يجبهُ ثم لما مات المهدي كتب اليهِ للحضور الى ام درمان لتجديد البيعة على يده وزيارة ضريح المهدي ثم طلبهُ لحضور عيد الاضحى ثم عاد فكرر اليهِ الطلب بالحضور وحدهُ على جوادهِ وحذرهُ من المخالفة فلم يحضر وكان في كل مرة ينتحل عذراً او لا يكتب ثم جمع جيشاً من اهل قبيلته واشهر العصيان فكتب الخليفة الى قبائل الرزيقات والهبانية و بني هلبة فهدر لهم دمهُ وكتب الى محمد كرقساوي عاملهِ على شكا فارسل جيشاً لمطاردتهِ في رمضان سنة ١٣٠٣هـ . هذا وكان الخليفة قد بعث في طلب كرم الله من بحر الغزال فاخلى البلاد وحضر الى شكا في محرم سنة ١٣٠٤هـ او كتوبر سنة ١٨٨٦ م كما مرّ . وفي اوائل صفر اخذ جيشهُ وسار في اثر مادبو فطاردهُ الى قرب الفاشر فلم يدركهُ فكتب الى الامير يوسف فقبض عليهِ في الدُور قرب جبل مرّة وارسلهُ الى كرم الله فارسلهُ

كرم الله الى كرقساوي فبعث بهِ الى ام درمان فاتفق مرورهُ بالايض عند ما كان ابو عنجة مشتغلاً في ترحيل جيشهِ الى ام درمان كما مرّ وكان لابي عنجة ثار عليهِ قبل المهدية لان مادبو سخرهُ حينئذٍ في حمل صندوق ذخيرة على رأسهِ مسافة طويلة ولما تشكى جلدهُ واهانهُ فعلم مادبو انهُ لا يلقى رحمة عنده فقال لهُ اني لا اطلب منك رحمة بل عدلاً فاني ما كنت اودّ محاربة المهدية ولكن مظالم كرقساوي اضطرتني الى محاربتها فقال ابو عنجة ومع ذلك فلا بد من قتلك فتيقن مادبو من قوله هذا ان لا فائدة لهُ من الاحتجاج وانهُ مقتول لا محالة فاسلم نفسهُ لعزتها وقال مخاطباً ابا عنجة «لست انت الذي يقتلني ايها العبد الذميم بل الله سبحانهُ وتعالى يقتلني اذا شاء وانا ما سألتك الرحمة بل العدل ولكن عبداً مثلك لا يُتاح لهُ ان يكون شريفاً فان كان قتلي يبرد غليلك ويبرئ الدُّبرة (الندبة) التي في رأسك (من حمل صندوق الذخيرة) فلا بأس من قتلي ولكن اعلم انهُ كيف جاءني الموت يجدني رجلاً صنديداً ثابت الجأش قوي الجنان فاني انا مادبو والقبائل تعرفني» فانتهرهُ ابو عنجة وامر بارساله الى السجن وفي اليوم التالي أمر فقتلوهُ وقطعوا رأسهُ فارسلهُ الى الخليفة في ام درمان فعلقهُ في الجامع من صلاة الصبح الى صلاة الظهر

حركة الشيخ صالح الكباشي وقتله في ١٧ مايو سنة ١٨٨٧

وكان في جملة الذين دعاهم التعايشي مراراً للهجرة الى ام درمان بعد موت المهدي فلم يلبوا الدعوة الشيخ صالح كبير مشايخ الكبابيش فصمم الخليفة اذ ذاك على الفتك بهِ فكتب الى رؤوس الكبابيش فهدر لهم دمهُ وكتب الى النجومي في دنقلة فسدّ طرق الشمال في وجههِ فجمل سرية من انصارهِ بقيادة مكين النور في العقب وأخرى بقيادة احمد الطيب البصير وعثمان ازرق في جهة عيلاوي وأخرى في عين حامد ولد تنكل وكتب الى عثمان آدم عاملهِ على كردوفان فمنع بيع الحبوب لاهله الكبابيش من كردوفان ليهلكهم جوعاً وارسل سرية من الانصار لمطاردته فطاردوهُ في بادية الكبابيش من منهل الى منهل حتى ظفروا بهِ حياً في عين حامد ولد تنكل

وذلك ١٧ مايو سنة ١٨٨٧ فقتلوهُ وقطعوا رأسهُ وارسلوهُ الى الخليفة فعلقهُ في الجامع وجرّد عربهُ الكبابيش من ابلهم واموالهم ونكل بهم تنكيلاً شنيعاً

اسر نوفل النمساوي في ١٦ ابريل سنة ١٨٨٧

هذا وكان الشيخ صالح منذ صمم على العصيان يواصل جيش الحدود لمساعدتهِ على التعايشي. وفي اوائل سنة ١٨٨٧ بعث بأربعين رجلاً من اخصائهِ بمئة وعشرين جملاً الى حلفا لجلب الاسلحة والذخائر فجهز لهُ الجيش ٢٠٠ بندقية رمنتون و٤٠ صندوق ذخيرة وغيرها من الاسلحة والهدايا. وفي هذه الاثناء جاء الى اسوان خوجال دفع الله التاجر الجعلي المشهور فوجد فيها تاجراً نمساوياً يدعى نوفل واخبرهُ ان في كردوفان صمغاً كثيراً بثمن بخس جداً او بلا ثمن وكان نوفل جاهلاً حال السودان والدراويش واغتر بالربح فعزم على الذهاب الى كردوفان فاتى القاهرة ورأى الجنرال ستفنسن قومندان جيش الاحتلال فأخبرهُ بعزمهِ فحذرهُ من سوء العاقبة ونصحهُ بالعدول عن رأيهِ ولما لم يقبل النصح اخبرهُ بعرب الشيخ صالح الآتين لاخذ الاسلحة فاستأذنهُ في الذهاب معهم فأذن لهُ واعطاهُ كتاباً الى الشيخ صالح. فخرج هو وجماعة الشيخ صالح من حلفا في ١ ابريل سنة ١٨٨٧ فوصلوا سليمة في ٧ من الشهر المذكور فاستراحوا فيها اياماً ثم استطردوا السير الى صحراء الكبابيش وكان خبر جماعة صالح والقصد الذي جاؤوا لاجلهِ قد وصل النجومي من بعض اياديه فأرسل عليهم محمد حمزة ومعهُ ٦٠ رجلاً فالتقاهم في الطريق بين البطحاء وسليمة ضحوة يوم السبت في ١٦ ابريل سنة ١٨٨٧ فبادرهم القتال فقتل منهم عشرة رجال واسر ٤٣ نفساً وفيهم نوفل وغنم ما معهم من الاسلحة والذخيرة وأتى بالجميع الى النجومي في دنقلة فأرسل النجومي نوفل الى الخليفة في أم درمان وكتب اليهِ في تفصيل الواقعة بما نصهُ :

«وبعد فمن عبد ربهِ عبد الرحمن النجومي الى سيدهِ وسندهِ ووسيلتهِ الى ربهِ خليفة المهدي «عم» الخليفة عبد الله خليفة الصديق نصر الله بوجودهِ الاسلام ومحق بسيف قهرهِ رقاب الكفرة الاثام آمين . سيدي بعد ان اهدي لمحيا طلعتكم اوفر السلام ومزيد التحيات الفخام ابدي ... اني سبقت فاخبرت جنابكم بالبوسطة

الماضية بان عدو الله المخذول صالح الكباشي ارسل جماعة من قبله الى اعداء الله الكفرة لاحضار السلاح والجبخانة منهم ليستعين بها على حرب الانصار ... فخرج اصحابهُ بالاسلحة والجبخانة من حلفا في ٧ رجب كما حققهُ لنا الحبيب محمد احمد هاشم في كتابهِ ففرزنا في الحال ٦٠ رجلاً من الانصار وجعلنا عليهم الحبيب محمد حمزة رئيساً وامرناهم بالتوجه الى منهل اللقية في طريق الاربعين على سبعة ايام منا ليتربصوا بهِ للمذكورين فلما وصلوا البطحاء مسيرة يوم من رباط الحبيب مكين النور واربعة ايام من اللقية سقوا رواحلهم وملأوا رواياهم اذ لا ماء منها الى اللقية ثم استطردوا السير الجمعة في ٢١ رجب ٠ وفي ضحى السبت ٢٢ منهُ صادفوا عربان المخذول صالح وعبيدهُ الحاملين الاسلحة والجبخانة على بغتة فبادروهم باطلاق الرصاص وانتشب القتال بين الفريقين مدة ٣ ساعات ثم حمل الانصار عليهم حملة صادقة فقتلوا منهم عشرة واسروا الباقي وهم ٤٣ نفساً فأتوا بهم الينا وفيهم رجل نصراني من دولة النمسا يدعى نوفل خرج معهم من قيقر حلفا مرسلاً من اعداء الله الانكليز الى عدو الله صالح للنظر في ما عرضهُ عليهم بكتبهِ والاطلاع على حال جيوش المهدية ٠ وفيهم سرية للنصراني المذكور وعبد عارف بالخط قال انهُ تابعهُ ٠ وجميع الحضرهُ المذكورون وقع في يد الانصار وهو من الاسلحة ٢٠٠ بندقية رمنتون و ٤٠ صندوق جبخانة و ١١ طبنجة ذات ستة ارواح و ٤ بنادق بروحين و بضائع غير الهدية المرسلة اليهِ من اعداء الله الموضحة بالكشف الملصق بكتابهم لهُ المرسل طية لطرف السيادة للعلم بما حواهُ ... وقد وعدوهُ بكتابهم انهُ متى وصلت هذه الرسالة اليهِ فاذا ارسل رسلهُ يزيدونهُ اسلحة وذخائر ... وقد وجد بشنطة النصراني كتب وخارطة بلسان الانكليز وهي واصلة لقراءتها هناك بواسطة من لهُ المام بلسانهم ... ومن جملة الاسرى اولاد العرب اولاد هوال ... ومنهم علي ولد الامين الذي سبقت فعرضت عنهُ لسيادتكم بانهُ توجه الى اسوان بناء على طلب الاعداء لهُ وانهُ طلب لاجل توصيل هذا النصراني الاسير الى عدو الله صالح والرجوع اليهم باخبارهما ٭ وقد عاد الينا الحبيب محمد حمزة وانصارهُ وهم على احسن حالة ولم يصب منهم احد في الواقعة

بجرح . وعند استنطاق الاسرى اتضح لنا ان جميع عبيد المخذول صالح من اكبر المفسدين ولا ثمرة للدين في بقائهم فحكمنا بعد استشارة الاخوان بقتلهم قهرًا لسيدهم المخذول وارهابًا لغيرهم فحفرنا شقًا في ارض السوق فقتلناهم عنده ودفناهم فيهِ . اما اولاد هدال وغيرهم من عرب الكبابيش فقد رأى معشر الاخوان ان الصواب عدم قتلهم ترغيباً لاهاليهم الذين مع المخذول في الدخول في الدين اذ لو سمع اهاليهم بانهم قتلوا زادوا نفورًا عن الدين فكبلناهم بالحديد ووضعناهم في السجن الى ان يصدر أمر السيادة في شأنهم ... اما النصراني نوفل فها هو مرسل الى سيادتكم لتجروا ما يوافق بشأنهِ ... واما الاسلحة والجبخانة فهي محفوظة عندنا ... والسلام في ٢ شعبان سنة ١٣٠٤ هـ ٢٦ ابريل سنة ١٨٨٦ م » اه

وبقي نوفل في اسر التعايشي تارة في السجن وتارة خارجهُ مقيدًا بمكية في رجليهِ الى ان فتحت ام درمان وكان اذ ذاك في السجن فاخرج منهُ وعاد الى مصر

دارفور والامير يوسف ابن السلطان ابراهيم سنة ٦ : ١٨٨٨

تقدم ان زقل لما خرج من الفاشر سنة ١٨٨٦ ابقى الامير يوسف ابن السلطان ابراهيم اميرًا عليها . فلما رأى هذا انهُ جالس على كرسي آبائهِ واجدادهِ ارتاحت نفسهُ الى منصبهِ وعقد النية على حفظهِ والاستقلال بهِ . لذلك لما جاءهُ كرم الله مطاردًا مادبو القى القبض عليهِ وسلمهُ اياهُ كما مرَّ املاً بسرعة خروجهِ من بلادهِ . فلما رآهُ قد استقرَّ في دارة صمم على اخراجهِ منها بالرضى او بالرغم فرفع الامر اولاً الى الخليفة فاحسَّ بالغرض الذي يرمي اليهِ يوسف فكتب اليهِ في ١٠ فبراير سنة ١٨٨٧ يؤيد كرم الله على دارة ويقول : « ... والحال يا حبيبنا ما دام ان امر المهدية ديني لا منافسة فيهِ وانت والامير كرم الله اخوان في الدين فلا يليق بكما الا المحابة والاتفاق على ازالة كل ما لا يرضى الله ... فيلزم بوصول كتابنا هذا اليك ان تتفق مع الحبيب كرم الله وتطلب منهُ المسامحة وهو كذلك وقد حررنا اليهِ بمثل ما حررنا لك والسلام » . فساء يوسف تأييد الخليفة لكرم الله وبعث برجالهِ الى دارة فاكرهوهُ على تركها . وفي ٢١ فبراير سنة ١٨٧٧ كتب كرقساوي

اخو كرم الله الى الخليفة يقول « ... ان الفور قد شرعوا بالفساد واعادوا الى البلاد نظام حكومة آبائهم السابقين فسموا الحكام بالملوك والشراتي وسموا الجهات بالحواكير واطلقوا على اميرهم يوسف اسم السلطان وصاروا يسلمون عليهِ سلامهم على سلاطينهم السابقين ويقبلون الارض بين يديهِ وقد جاهروا بشرب الخمر والتنباك ومشوا سكارى في شوارع الفاشر وارتكبوا غير ذلك من البدع والمنكرات ... » فاهتم الخليفة جدًّا لهذا الخبر واخذ يتلطف في السعي للحصول على يوسف فكتب اليهِ اولاً ان يحضر الى أم درمان مع بعض اعوانهِ لتجديد العهد على يدهِ والتبرك بزيارة ضريح المهدي ثم يعود الى الفاشر وكرر الطلب مرارًا بصور متنوعة فأجابهُ يوسف بعدم مقدرتهِ على اجابة دعوتهِ نظرًا « لما وقع بين رجالهِ ورجال كرم الله من الخلاف ولان اعوانهُ المطلوب حضورهم معهُ متفرقون في الجهات لتسكين الحركات »

عثمان آدم في دارفور سنه ٨٧ : ١٨٩١

فتيقن التعايشي اذ ذاك ان السياسة لا تنجع فيهِ فكتب الى عثمان آدم عاملهِ على كردوفان فجهز جيشاً عظيماً وسار بهِ قاصدًا الفاشر بطريق شكا . فضم انصار كرم الله وكرقساوي الى جيشهِ وابقى كرقساوي محافظاً على شكا وسار يصحبهُ كرم الله قاصدًا دارة فالتقاهُ جيش يوسف قبل وصولهِ اليها فهزمهُ في واقعتين ودخل دارة

﴿ قتل الامير يوسف في يناير سنة ١٨٨٨ ﴾ وكتب الى الامير يوسف يدعوهُ الى الطاعة ولما لم يجبهُ زحف بجيشهِ عليهِ فخرج الامير يوسف بجميع انصارهِ والتقاهُ في وادي بيرة قرب الفاشر واقتتلا قتالاً شديدًا فلم تكن ساعة حتى انهزم الامير يوسف ودخل عثمان الفاشر . وقد قتل ليوسف في هذه الواقعة اخوان وهما ناصر وعباس واما هو ففرّ بباقي انصارهِ الى جبل مرة فأرسل عثمان آدم بعض الانصار خلفهُ فطاردوهُ حتى ادركوهُ في وادي عزوم فقتلوهُ وحزُّوا رأسهُ واتوا بهِ الى عثمان في الفاشر فأرسلهُ الى الخليفة فعلقهُ في السوق وكان ذلك في يناير ١٨٨٨

هذا وكان قد وقع في اسر عثمان آدم في الفاشر جماعة من امراء الفور وفيهم تاج الدين ابن بنت السلطان محمد الفضل فأمر عثمان بقطع رأسهِ فلما شرعوا في شد وثاقهِ

قال لهم على مَ الوثاق ايذنوا لي ان اصلي ركعتين فأذنوا لهُ فصلى ثم جاء الى عثمان آدم فجثا امامهُ وألقى بيديهِ الى الارض ثم نكس رأسهُ وقال افعلوا بي ماشئتم فضربوا عنقهُ بالسيف . تبًّا لهم !

﴿ الامير ابو الخيرات ﴾ ثم ان الذين سلموا من امراء الفور ولّوا ابا الخيرات اخا الامير يوسف سلطانًا عليهم وبثوا الدعاة في اكناف البلاد لاستنفار الاهلين الى القتال

حركة ابي جميزة وانطفاؤها سنة ٨ : ١٨٨٩

وفي هذه الاثناء ظهر في الغرب في دار تامه رجل فقيه يدعى ابا جميزة ادَّعى انهُ خليفة عثمان وانهُ قام لفتح طريق الحج التي سدَّها التعايشي وكان اهل الغرب خصوصاً حانقين لسدّ هذه الطريق فاجتمعوا على أبي جميزة من كل فج من برقو وبرنو ومساليت وتامه وترجم واسنقور وزغاوه و بني هلبة والقرعان والبديات ورنقاء وكان ذلك طبق مرام ابي الخيرات فانضم اليهِ بانصارهِ فأصبح ابو جميزة في جموع كثيرة فزحف بها على الفاشر . وكتب الى التعايشي في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٨ يعلمهُ بظهورهِ فأجابهُ التعايشي بتاريخ ٢٤ ديسمبر من السنة المذكورة بما نصهُ بعد البسملة :

« و بعد فمن عبد ربهِ خليفة المهدي عليهِ السلام الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق الى الشخص المدعي خلافة عثمان بالغرب ، اما بعد فنعلمك ان جوابك المحرَّر لنا بتاريخ ١٣ ربيع الاول سنة ١٣٠٦هـ (١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٨م) وصل بطرفنا وما سطرتهُ بهِ من انك على اتباع الكتاب والسنة وسكة المهدي «عم» وانك خليفة عثمان وقد بايعتنا على السمع والطاعة في الامر والنهي الى آخره فهم لدينا . ونقول لك اما من خصوص قولك انك على اتباع الكتاب والسنة وسكة المهدي «عم» مع ما انت عليهِ من المجاهرة بالعداوة لحزب المؤمنين والاعراض عن اجابة داعي رب العالمين فهو زور وافتراء وكذب على الله واجتراء فانك قد خالفت امر الله ورسولهِ ورفضت العمل بالكتاب والسنة واتّباع سكة المهدي «عم» بمحاربتك لانصار دين الاسلام واصحاب مهدي الله الكرام الذين شاهدوهُ و بايعوهُ و بذلوا ارواحهم في نصرتهِ وشيدوهُ ... واما قولك انك خليفة عثمان فهذا ايضاً مع تلبسك بما انت

عليه من محاربة الله ورسوله ومهديه ومحاربتنا واثارة الفتن التي قال فيها رسول الله (صلعم) الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها محض زور وافتراء على الله وفجور فان من كان متصفاً بخلافة عثمان «رضه» على الحقيقة لا يكون بهذه المثابة بل يكون مقتفياً لأثره وسالكاً لمنهجه. وهل بلغك ان عثمان «رضه» جرّد سيفه على مسلم او سعى في الأرض فساداً او حارب احداً من اصحاب رسول الله (صلعم) في زمان أبي بكر الصديق او في زمان عمر الفاروق او في زمانه هو ... واما قولك انك قد بايعتنا على السمع والطاعة في الامر والنهي فان كنت صادقاً فيما ذكرت فقد صرت ببيعتك هذه تحت امرنا ونهينا وفي حيز اشارتنا فيلزمك الوفاء بذلك عقداً وعملاً قولاً وفعلاً بنصّ قوله تعالى وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها الآية . ولا بد ان تسأل عن تلك البيعة بين يدي الله كما اخبر سبحانهُ بذلك في قوله تعالى وكان عهد الله مسئولاً وها نحن قد امرناك امراً جازماً وعزيمة مؤكدة بالاقلاع عما انت فيه وان تتوب الى الله توبةً نصوحا مما ارتكبتهُ من عظم الفساد ومحاربة رب العباد فاعمل بأمرنا هذا ولا تحرك شيئاً او تسكنهُ من الآن فصاعداً الا باذن منا حيث علمت وجود طاعتنا عليك من كتب الله تعالى ولا تقدر على محاربة احد ايّا كان ولا سيما اصحاب المهدي «عم» المعينين بامرنا الى اصلاح العباد وازالة الفساد ودعوة الخلق على الدخول في طاعة المهدية تحت رئاسة عاملنا المكرم عثمان آدم في الجهات الغربية ان كنت على طاعتنا كما ذكرت . وان لم يكن لما ذكرتهُ من مبايعتك لنا والتزام طاعتنا صحة ولا عزم من قلبك فاعلم انك رجل قد غرّك الشيطان حتى سلك به سبيل الهوان فتدارك نفسك قبل الفوات وتلافَ سلامتك قبل الممات ولا يسوّل لك شيطانك انك تقوم بمحاربة المهدية ويزين لك ذلك حتى يوقعك في ورطة الهلاك ويتبرأ منك وتبوء بسخط رب البرية والعياذ بالله فان امر المهدية هذا من الله ورسوله وما تصدّى احد لمحاربته الا خذلهُ الله وقطع دابرهُ وشتت شملهُ ودمر امرهُ فاعتبر بالمعرضين قبلك كيف اهلكهم الله ودمّرهم اجمعين ولا تغتر بما حصل لك من الاستدراج والامهال فان ذلك من عادة الله مع

امثالك في مبدأ امرهم ثم يأخذك اخذ عزيز مقتدر ... ففرق من معك من جموع الفساد واحضر لطرفنا منيباً لامر رب العباد لننظر في امرك ونرشدك الى طريق فلاحك وفوزك والا بان كنت لم تزل على سعيك في الارض بالفساد والبغي والعناد فالله اكبر عليك! الله اكبر عليك! الله اكبر عليك! ولابد بمشيئة الله وعونهِ من وقوعك في القبضة اينما كنت وحيثما توجهت وفي هذا كفاية لمن كان من اهل العناية والسلام على من اتبع الهدى ٢٠ ربيع آخر سنة ١٣٠٦هـ ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٨م اه »

هذا وكان عثمان آدم لما علم بظهور ابي جميزة جهز عليهِ جيشاً بقيادة الامير محمد بشارة فعاد منهزماً فارسل عليهِ جيشاً آخر فانهزم كالاول فاضطرب الخليفة من ذلك ومدَّ عثمان بالرجال. وتقدم ابو جميزة بجيوشهِ الجرارة قاصداً الفاشر فاصابهُ الجدري فمات في الطريق ه قيل وقد سمي ابا جميزة لانهُ كان يقيل تحت جميزة كبيرة في دار تامة

﴿ واقعة ساغة في ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٩ ﴾ وخلفهُ اخوهُ ساغة فقاد الجيوش وسار حتى نزل بجبل يدعى مجدوب على ٤ ساعات جنوبي الفاشر فبرز عثمان آدم الى لقائهِ في ارض مكشوفة بظاهر الفاشر. وفي يوم الجمعة في ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٩ زحف عليهِ ساغة بجيوش لا يحصى عددها وقد صحبها النساء والاولاد فسدت الافق لكثرتها. وكان جيش عثمان اربعة ارباع على كل ربع امير وامراء الارباع: محمد بشارة والختيم موسى وعبد القادر دليل والعطا اصول فوقفوا كلهم صفاً واحداً كل ربع على حدتهِ والفرسان عن الجناحين وصبروا حتى صار جيش ساغة على بعد مرمى الرصاص ففتحوا افواه البنادق وامطروا عليهم من الرصاص ما حصدهم حصداً فامتلأَت الارض من قتلاهم وما زالوا مهاجمين حتى اختلطوا بجيش عثمان والتحم القتال بالسيوف والحراب فما لبث جيش ساغة في الملحمة حتى انهزم واسلم نساءهُ وابناءهُ للاسر وتبعهُ انصار عثمان فرساناً ومشاة يقتلونهُ في كل جهة بقية ذلك النهار وقد قتل ساغة وكثير من رؤساء جيشه وتفرق الباقون ايدي سبا. وحزَّ عثمان رأس ساغة ورأس وكيل ابن السلطان سُلا وارسلهما الى الخليفة في ام درمان فعلقا في السوق وارسل مع الرأسين كتاباً بتفصيل الواقعة قال فيه: «... اما الاعداء فلما لم

يجدوا سبيلاً الى الخلاص تحول بعضهم قردةً و بعضهم ذئاباً و بعضهم ارانب وغزلاناً ٭ واما الانصار فقد رأى بعضهم ساعة الحرب رايات بيضاء باطراف خضراء في الهواء . ورأى بعضهم سوراً عظيماً كهيئة الجبال نازلاً من السماء على الاعداء . وسمع بعضهم صوت ام بابه سماعاً محققاً لا شك فيهِ ... » !

﴿ قتل ابو الخيرات ﴾ واما ابو الخيرات فانهُ فرّ بمن بقي من اتباعهِ الى جبل مرة فبقي فيهِ الى ان ثار عليهِ عبيدهُ اوائل سنة ١٨٩١ فقتلوهُ وذهبوا الى الفاشر مسلمين

﴿ عثمان آدم وودّاي ﴾ هذا وكان عثمان آدم بعد قتل الامير يوسف قد شرع في تتبع الرؤوس الذين نصروهُ فكتب الى السلطان يوسف سلطان وداي يسألهُ ألا يأوي احداً من العصاة الفور في دارهِ فكتب اليهِ السطان يوسف يخادعهُ بكتاب مؤرخ في ١٨ اوغسطوس سنة ١٨٨٨ هذا نصهُ بعد البسملة :

نقش خاتم السلطان في اعلى الكتاب : ملك السلطان محمد يوسف ابن السلطان محمد شريف ابن السطان محمد صالح ابن السلطان صليح العباسي سنة ١٢٩٣

« انهُ من عبد مولاهُ اللطيف السلطان محمد يوسف بن السلطان محمد شريف عامل المهدية بالديار الوداوية — الى امير الامراء ونخبة الوزراء عامل المهدية بعموم الجهات الغربية مولانا الامير عثمان آدم حفظهُ الله ٭ من بعد اهداء السلام واسداء التحية والاحترام اللائقين بعالي المقام قدم الينا رسلكم مسعود وحسن ورفيقاهما وكنت لدي حضورهم خارج البلد لاجل الصدقة والزيارة للوالدين لما اوجب الله لهم من الحقوق علينا ... فلما بلغني خبر رسلكم تركت بعض شؤوني وقدمت لملاقاتهم يوم الاحد في ٣ الحجة فاجتمعت بهم في الاثنين ٤ الحجة فبقراءة كتابكم انشرح الصدر بعد ضيقهِ وانسرّ الخاطر بعد «صفوقهِ» ولله الحمد على ذلك . وليكن في علمك حبيبي انهُ لو كانت الدنيا تدوم لدامت لمن قبلنا وامر المهدية لا يخفى حتى على غير العاقل حتى الاطفال الذين لاحساب عليهم ولا عقاب يتمنون زمن المهدي وحضورهُ . ونحن لاول وهلة ساقتنا السعادة الازلية الى مبايعتهِ واخذ العهد عليهِ وكيف ينكث العاقل وعدهُ وينقض عهدهُ ولكن الوشاة وهم شياطين الانس الذين تخشاهم شياطين الجن لفقوا الاكاذيب

ونشروها في الناس فاقلقوا البلاد والعباد . هذا ومنذ مجيء رسولنا اسحق ونحن متجهزون في ردّ كتبكم الواردة الينـا معهُ فجاءت الاخبار المرجفة وشوشت علينا وما خطر ببالنا انهُ يصدر من حضرتكم ما لا يليق بها كما اتضح لنا بكتابكم المرسل الينا صحبة رسلكم ولذلك حررنا هذا مقدماً لتقفوا على حقيقة حالنا و بعد العيد بيومين او ثلاثة نبعث لكم رسلكم ومعهم رد الكتب المبعوثة لنا من الاحباب ومن حضرتكم. ومن الآن فصاعداً ان شاء الله تجري المواصلة التامة بيننا و بينكم حسب اشارة خليفة المهدي « عم » وهو ذخرنا يوم العرض والزحام . وكذلك انت ايها السيد لا تسمع كلام الوشاة ولا تصغ لتسويلاتهم فانهم قوم بهت... وليكن في علمك ايها الحبيب ان الاحباب عبدالقادر دليل وحامد مجبور والعطا اصول خاطبوني بشأن العصاة وادريس القمراوي فأجبتهم بانك خاطبتني انت من قبل في شأنهم وقد شرطت على عمالي بان يردوا كل مخالف حتى الفوراوي مع انهُ تربى عندنا لم نقبلهُ امتثالاً لامركم. واما ادريس القمراوي فانهُ ارسل اليَّ رسولاً وهو بدار زغاوه اطاريف دارنا فرددت لهُ رسولهُ وحلفتهُ بالله وبمحمد رسول الله و بالمهدي والخلفاء الا يدخل داري فاني لا اقبلهُ ومن يومئذٍ ما بلغني خبرهُ والذي بلغني قبل هذا انهُ متوجه بطريق الفيزان وقد اشرت عليهم ان يكاتبوهُ ويحالفوهُ ليطمئن فعسى الله ان يهديهُ ويدخلهُ في قبضتكم ولاجل المعلومية حررت لكم هذا وسيأتيكم مع رسلكم شرح ما هو لازم تفصيلاً ونرجوكم المسامحة في التقصير والسلام ٧ الحجة سنة ١٣٠٥ »

وكتب عثمان آدم الى الخليفة يسألهُ عن السياسة التي يتخذاها مع ملك وداي (برقو) فأجابهُ بتاريخ ١٦ شعبان سنة ١٣٠٦ هـ ١٧ ابريل سنة ١٨٨٩ م «... أما البرقاوي فلا تدخلوا دارهُ وخاطبوهُ بالكلام اللين وأخبروهُ بأن خليفة المهدي لم يأمرني بدخول دارك وانهُ في انتظار ردّ ما تحرّر اليك منهُ اذ لم يزل ظاناً بك الخير وحذروهُ من ان يأوي محارباً للمهدية فعسى الله ان يهديهُ ... »

فلما أقام أبو جميزة في دارتامه تبعهُ كثير من اهل برقو وغيرها من اهل الغرب كما مرّ فصمم عثمان على فتح بلاد الغرب الى عاصمة وداي فخرج من الفاشر بجيش ينيف على

٣٦ الفاً اكثرهم مسلحون بالبنادق وسار حتى أتى أم دخن من بلاد المساليت فتفشّى في جيشهِ مرض « اب دم » ففتك بهِ فتكاً ذريعاً فاضطر ان يرجع على عقبهِ الى الفاشر وما زال المرض يفتك بالجيش حتى هلك نحو ثلثيهِ وامتلات الطرق من الجثث واصيب عثمان آدم نفسهُ بالمرض في الطريق فحملوهُ على عنقريب الى الفاشر فمات بعد وصولهِ بقليل وذلك في يوم الجمعة ١١ ؟ صفر سنة ١٣٠٨ هـ ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٩٠ م . وكان مربوع القامة نحيف البدن اسمر اللون على وجههِ اثر الجدري وكان كثير الدهاء شجاعاً في الحرب ميالاً الى التخشن وقد حزن الخليفة لموتهِ . وكان قد سماهُ عاملاً عاماً على الغرب كلهِ اي على كردوفان ودارفور وشكا فارسل محمود احمد ابن عمهِ عاملاً على الغرب مكانهُ فوصل الفاشر الاثنين في ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٨ هـ ٢٦ يناير سنة ١٨٩١ م وكان من امرهِ في دارفور ما سنبينهُ في محلهِ ان شاء الله . واما كرم الله واخاهُ كرقساوي فقد دعاهما الخليفة الى ام درمان فلبيا الدعوة قبل ذلك بزمان ولنأتِ الآن الى ما كان من اخبار السودان الشرقي :

الفصل السابع
في
﴿ وقائع السودان الشرقي سنة ٥ : ١٨٩١ ﴾

وقائع القلابات والحبشة سنة ٥ : ١٨٨٩

﴿ عمالة محمد ود ارباب على القلابات ﴾ تقدم ان محمد ود ارباب احتل القلابات بعد خروج الحامية المصرية منها بخمسة ايام اي الخميس في ٥ مارس سنة ١٨٨٥ . ونزل النور ود فقرا مع جماعة من انصارهِ في تبارك الله على الاتبرة وصار يشن الغارة على حدود الحبشة والاحباش لا يحركون ساكناً حتى ظهر رجل من قطاع الطرق يدعى الحاج علي عاث في الحبشة والتجأ الى القلابات فكتب الراس عدار الى محمد ود ارباب يسألهُ ارسال الحاج علي مخفوراً الى الحبشة ولما لم يجبهُ زحف بجيش كبير ومعهُ صالح بك على ود فقرا في تبارك الله فقتل من جيشهِ نحو ٥٠٠ رجل وشتت

شملهُ كل مشتت. ثم انقلب في اليوم التالي على القلابات فقتل محمد ارباب وجيشهُ واحرق القلابات وعاد بالغنائم والاسرى الى الحبشة وذلك في اوائل يناير سنة ١٨٨٧

﴿ عمالة يونس الدكيم على القلابات ﴾ فلما بلغ التعايشي الخبر اضطرب جداً واهتم للامر . اذ القلابات ثغر حصين في صدد الحبشة وحفظ السودان يقضي بحفظهِ مسدوداً . فجهز جيشاً عظيماً وعقد لواءهُ ليونس الدكيم من اخص اقاربهِ وارسلهُ عاملاً على القلابات في ١١ مارس سنة ١٨٨٧ فجاءها بطريق القضارف فوجد فيها رجلاً يدعى سكرًا من جماعة محمد ارباب كان قد جمع شتات جيش ود ارباب المذكور واقام بالقلابات الى ان وصل يونس فعزلهُ . وكان قد وفد الى القلابات بعض تجار الحبشة فألقى يونس القبض عليهم وارسلهم مخفورين الى ام درمان فادخلهم الخليفة في دين الاسلام وبايعهم وعفا عنهم ثم ارجعهم الى يونس ليجعلهم مع الانصار او يرسلهم الى اهلهم ليبشروا بسطوة المهدية . هذا وكان المهدي قد كتب الى الملك يوحنا ملك الحبشة يدعوهُ الى اعتناق الاسلام والمهدية ويحذرهُ من المخالفة ومما قالهُ لهُ :

. . . غير خافٍ عليك ما حصل لاعداء الله الترك من القتل والاسر وتخريب ملكهم وكذا ما حصل لاعداء الله الانكليز من القتل وتمكن الرعب من قلوبهم حتى صاروا كلما عزمت على التوجه لجهة تجمعهم يفرون هاربين لغيرها وهكذا ينسحب الامر على من خالفني من اهل الكفر بحول الله وقوتهِ لاني مؤيد من عند الله بالملائكة الكرام وبالاولياء وبمؤمني الجن وموعود من عندهِ ايضاً بالنصر والغلبة على كل من يعاديني ولو كان الثقلان الجن والانس فافهم ذلك . واعلم اني قد استعقلتك وشكرت صنيعك وظننتك بالخير فيما صنعت من ارسالك الرسل الى عاملنا على جهة القلابات محمد ارباب والتماسك لتحرير مخاطبة منا اليك بحقنا بيبان ما نحن عليهِ فان فعلك هذا انما يصدر من العقلاء الذين يطلبون الحظ . وبناء عليهِ قد حررت لك هذا الكتاب اجابة لطلبك ورغبة في هدايتك ومحبةً لايصال الخير لك ودعوتك فيهِ الى الاسلام فاسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين وتفوز بخير الدارين وتغنم اجر صحبتنا وتكون مكرماً عند الله ورسولهِ وعندنا . وحيث ان الله سبحانهُ وتعالى قد اكرمك

بحضورك هذا الزمن النبوي بظهوري فيهِ خليفة لنبينا محمد (صلعم) حقاً فكن كسلفك النجاشي رضي الله عنهُ فانهُ لما اكرمهُ الله بحضور زمن نبينا محمد (صلعم) آمن بهِ وصدقهُ وآوى اليهِ اصحابهُ ولم يمنعهُ ملك الدنيا من اتباع الحق لما جاءهُ فنال من النبي (صلعم) غاية الاكرام ولما مات رضي الله عنهُ ببلدهِ صلى عليهِ النبي (صلعم) وهو بالمدينة اظهارًا لشرفهِ ورفعة لمكانهِ ووردت في حقهِ احاديث كثيرة وقصص عجيبة تنبئ عن علو شأنهِ عند الله تعالى بسبب اتباعهِ لنبينا محمد (صلعم) وعدم اكترائه بملك الدنيا الفاني وارجو الله الذي احضرك هذا الزمن المبارك ان يجعلك وارثًا لمقام سلفك المذكور باتباعي ويخرجك من ظلمات الكفر الى نور الايمان ويزيل عنك ولات الطاغوت ويدرجك في سلك ولاية الكريم انهُ على ذلك قدير . هذا وليكن في علمك اني على سكة نبينا محمد (صلعم) وما قصدي من الخلق الا دلالتهم الى الله وارشادهم لسلوك طريقة النجاة ولا اريد بحمد الله ملك الدنيا ولا جاهها ولا مالها الفاني فان انبت الى الله وسلمت واسلمت فابشر بخير الدارين وطب نفسًا وقرّ عينًا وستجد منا ما يسرك دنيا وأخرة وان أبيت الا الاعراض واستحباب العمى على الهدى والرشاد فانما عليك اثمك واثم من اتبعك ولا بد من وقوعك تحت يدنا فانا موعودون بملك جميع الارض التي انت في جزء قليل منها... سنة ١٣٠٢ اه »

فلما ارسل الخليفة يونس الى القلابات كتب الى الملك يوحنا كتابًا هذا نصهُ :

« وبعد فمن العبد القائم بأمر مولاهُ في نصرة الاسلام خليفة المهدي عليهِ السلام الخليفة عبد الله ابن محمد خليفة الصديق الى يوحنا عظيم الحبشة » اما بعد فاعلم ان الله عز وجل هو ملك الملوك يؤتي الملك من يشاء ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء بيدهِ الخير والشر والنفع والضر لا إله غيرهُ ولا شريك لهُ يفعل في ملكهِ ما يريد ولهُ التصرف النافذ في جميع العبيد خلق الخلق ليعبدوهُ وارسل اليهم رسلهُ ليعرفوهُ فيوحدوهُ وجعل للمطيع الجنة بفضلهِ وللعاصي النار بعدلهِ وختم الرسالة بحبيبهِ ونجيبهِ ورسولهِ وصفيهِ ونبيهِ محمد (صلعم) حين ارسلهُ الى جميع الخلق بشيرًا ونذيرًا وداعيًا الى الله باذنهِ وسراجًا منيرًا وشرع على لسانهِ دين الاسلام ونسخ

به ِما سواهُ من شرائع الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ٭ ثم أرسل خليفتهُ الموعود به ِفي الخير الامام المهدي المنتظر ليجدد دين الاسلام ويقيم شعائرهُ بين الانام فدعا الناس الى اقامة الدين واحياء شريعة محمد سيد المرسلين (صلعم) واجاب دعوتهُ من فاز وسعد واعرض من شقي وطرد ٭ ولِما اني خليفتهُ عليهِ السلام القائم من بعدهِ في تأييد دين الاسلام فاني ادعوك الى ذلك الدين الحق كما دعا الله اليهِ في قولهِ تعالى « قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الاّ نعبد الاّ الله ولا نشرك بهِ شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا اربابًا من دون الله » . فان شهدت ان لا اله الا الله وان محمدًا رسول الله نطقًا بلسانك واعتقادًا في جنانك واجبت دعوتي والقيت زمام امرك طوع اشارتي فقد دخلت في حرم الاسلام والفيت الرشد والفوز والاكرام وصرت أخًا لنا ومنا والينا لك ما لنا وعليك ما علينا وتتصل بيننا المحبـة في الله وتصدق المودة لله وتكون في أمن وامان وخيرات حسان . وان أعرضت عن قبول الاسلام واجابة الملك العلام فانما عليك اثمك ويحيط بك مكرك وحينئذٍ فليكن بعلمك ان تعدي الحدود عاقبتهُ وخيمة وضرورتهُ جسيمة ٭ ونحن قد كنا معك ملاحظين اشارة قول سيد المرسلين اتركوا الحبشة ما تركوكم ومن ثم فلم نصرح لجيوش المسلمين بغزو جهتك حتى حصـل منك التعدي البليغ على ضعفاء المسلمين الذين بالقرب الى بلدك المرّة بعـد المرة والكرة بعد الكرة بالقتل والاسر والنهب والضر وصار يأوى اليك كل من يرتد عن دينهِ من المسلمين كصالح شنقة وعجيل وادريس ابي جن ومضوي ومن معهم من المرتدين . ولما لم يمكن تركها سدًا على ذلك الحال وتعين الالتفات الى صدك عن هـذا المجال عينّا الجيوش الكفاية من الانصار اهل النجدة والحماية الى الاقامة بالثغر الموالي لجهتك صدًا لم يتوقع منك . فان كنت تريد رفع المحاربة عنك وعدم غزو جيوش المسلمين لبلدك فأولاً بادر بارجاع جميع الاسرى المسلمين الذين بطرفك من ذكر وانثى حر وعبد صغير وكبير باكرام واحترام حتى لا تترك احدًا منهم عندك ولو كالغلام . وثانيًا الجماعة الذين ارتدوا وانضموا عليك كصالح شنقة وادريس ابي جن وعجيل ومضوي ومن معهم ان

كانت لهم رغبة في الرجوع لدينهم مستسلمين فأخرجهم من بلادك وأرسلهم الينا مكرمين وان كانوا لم يزالوا مصرين على ردتهم ومختارين الكفر على ايمانهم فخذ اقرارهم بذلك بمقتضى مكاتبة منهم بأختامهم وارسلها لطرفنا لكي نعدهم من جماعة قومك وحزبك واهل ملتك وجندك . وثالثاً كف يدك عن التعدي على بلاد الاسلام من الآن فصاعداً والزم حدودك ولا تمد لغيرها يداً . فان فعلت ما ذكرناهُ لك فاعلم انا نكف الحرب ولا ندع جيش المسلمين يدخل بلدك وان اخترت الاسلام والدخول في صحبة المهدي « عم » فستلقى القبول والاكرام في هذه الدار ويوم القيامة وان أعرضت عن كلا الامرين وغرّك ابليس اللعين فلا بد من مناجزتك الحرب ووقوعك في القبضة بمشيئة الرب لما انا على هدى من الله وهو تعالى ناصرنا وخاذل اعدائنا ولو كانوا عدد الرمل لا بحول منا ولا قوة بل بحوله وقوته وتأييده ونصرته ولا شك ان من ينصرهُ الله فلا غالب لهُ ومن يخذلهُ فلا ناصر لهُ . وحينئذٍ فلا تغتر بكثرة عددك وقوة عُددك العاريتين عن معونة الله فان لله من البطش الشديد ما لو تجلى بهِ على الجبال لدكت وعلى الارض لرجت . وهذا ما لزم تحبيرهُ اليك من الانذار وفيهِ الكفاية لك ان كنت من اهل الاعتبار وبعد وصولهِ بطرفك صحبة الرسل الواصلين بهِ لك فلترد لنا منك الافادة عنهُ بما يوافق رأيك والسلام على من اتبع الهدى في جمادى الاولى سنة ١٣٠٤ هـ مارس ١٨٨٧ م اه »

﴿ بعوث يونس الى الحبشة ﴾ فلم يجبهُ الملك يوحنا على مطاليبهِ ولا اجاب كتابهُ فشرع يونس في ارسال البعوث لغزو الحبشة فارسل بعثاً بقيادة علي جيبر الى جبل غورة على نحو ٣ اميال من القلابات فخرب كنيستين للاحباش وغنم وسبى * وارسل بعثاً آخر على عجيل الحمراني الذي نزل بارض غبطة على حدود الحبشة فقتل اثنين من اولادهِ واخاهُ وابن عمهِ ووكيلهُ وبعض رؤوس الشكرية المتحزبين معهُ واسر نساءهم وذراريهم * وارسل بعثاً آخر بقيادة عربي دفع الله الى دبرسينة بقصد القبض على صالح فأوقع بهِ وبالاحباش الذي نصروهُ وقتل منهم خلقاً كثيراً وعاد بالاسرى والغنائم الى القلابات . وكان كلما مرَّ بحلة من حلال الحبشة قتل من فيها واحرقها

عمالة حمدان ابي عنجه على القلابات سنة ٧ : ١٨٨٩

فلما رأى الملك يوحنا تمادي الدراويش في البغي امر الراس عدار فشرع في حشد الجيوش الى غندر بقصد النزول على القلابات وطرد الدراويش منها . وكان يونس لا ينفك يتجسس اخبار الحبشة فلما علم باستعدادهم طيَّر الخبر الى الخليفة . فاهتم الخليفة لذلك ولم يكن عندهُ قائد يدفع بهِ شر الحبشة افضل من أبي عنجة فأمرهُ بالسفر على جناح السرعة الى ثغر القلابات فخرج من أم درمان بجيشهِ في منتصف محرم سنة ١٣٠٥هـ ٣ اوكتوبر سنة ١٨٨٧م وسار برًّا وبحرًا الى ان وصل ابي حراز فشرع في ترحيل جيوشهِ الى القلابات طائفة بعد طائفة لئلا تضيق بها المناهل فارسل قسماً منها بقيادة الزاكي طمل بطريق القلعة ارانج وآخر بقيادة النور عنقرة بطريق البحر على ان يجتمعا في راشد ثم يتقدما معاً الى القلابات . وفي اوائل نوفمبر سنة ١٨٨٧ خرج بباقي الجيش وسار بطريق البحر والقضارف حتى دخل القلابات بجميع جيوشهِ في ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٧

ظهور النبي عيسى في القلابات في ديسمبر سنة ١٨٨٧

وفي هذه الاثناء ظهر في القلابات رجل تكروري يدعى آدم محمد البرقاوي ادعى انهُ نبي الله عيسى وصدَّق بهِ عشرة من الامراء وخمسة من العامة في جيش يونس وقد حفظوا الامر سرًّا ليعرضوهُ على يونس عند سنوح الفرصة حتى اذا لم يسلم بهِ قتلوهُ . فاطلع ابو عنجة على السر بعد وصولهِ بيومين فاستدعى اليهِ صاحب الدعوى واستنطقهُ عن دعواهُ في مجلس من القضاة والامراء فاجابهُ بكل صراحة وجرأة انهُ النبي عيسى وسأل انصارهُ عن ذلك فاجابوهُ انهُ على حق وانهم مصدقون دعواهُ وثابتون عليها فزجهم في السجن وبعث هو ويونس الى الخليفة يفصلان لهُ خبرهم ويستشيرانهُ في شأنهم بما نصهُ بعد البسملة :

« وبعد فمن العبدين الذليلين العاجزين حمدان أبي عنجة ويونس الدكيم الى سيدهما وسندهما ووسيلتهما الى ربهما خليفة المهدي « عم » الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق « رضه » آمين . ... سيدي انهُ لقد حدث عنا بمركز القلابات

امر عجيب جلل وهو ان احد المجاهدين المدعو آدم ولد محمد البرقاوي من راية الحاج عبد الله البرقاوي ادّعى زورًا وبهتانًا انهُ نبي الله عيسى بن مريم عليهما السلام. وقد قام بهذه الدعوى من أمد بعيد غير انهُ لم يظهرها الاّ لبعض خواصهِ الذين يثق بهم سرًّا واكد عليهم بعدم افشائها الاّ لمن يأتمنونهُ وبذلك أضلّ كثيرين من اعيان السريّة الذين اقروهُ على امرهِ وحالفوهُ على كتاب الله تعالى وما زال مستمرًا على فعلهِ غير مكترث لقبيح عملهِ وكبير زللهِ حتى تكاثر ما قد افتراهُ ووصل الينا خبرهُ من بعض الاصدقاء وذلك في يوم الاربعاء في ١٨ ربيع الاول سنة ١٣٠٥ فبعثنا في طلبهِ. وقبل حضورهِ حضر بعض انصارهِ عبد الله البرقاوي ومحمد عمر المشهور بأبي القرشي ومهاجر اسماعيل وعيسى احمد والطيب محمد بن البديري ومحمد احمد أبو أم فضالي الحمري فسألناهم عن الامر فأقروا لدى المجلس المؤلف من جماعة من المسلمين وفيهم نواب الشرع الثلاثة وهم آدم ضو البيت وحامد بلوله وآدم علي وجميع العمال والنقبا وغيرهم. ثم حضر هو بذاتهِ في المجلس فقلنا لهُ: « ايها الاخ لقد بلغنا بانك زعمت انك نبي الله عيسى وروح الله فهل ما نسب اليك صحيح ام هي اشاعة كاذبة لا اصل لها» ؟ فاجاب ايها الاخوان ان ما قد بلغكم حقيقتي هو وانا نبي الله عيسى فان لم تصدقوا بي الآن فلا تصديق لكم بعد هذا ثم قلنا لهُ وما دليلك على ثبوت دعواك فأجابنا بان الحق عز وجل أخبرني باني نبي الله عيسى وكذلك الرسول (صلعم) فقلنا لهُ ان كان ولا بد من ذلك فاعلمنا في أي زمن وبأي وقت اجتمعت بخليفة المهدي « عم » وفي أي محل صليت خلفهُ فان عندنا منهُ « رضه » اشارات نفهمك بها فان انبأتنا بشيء منها فورب المهدي « عم » وهذا الكتاب الشريف لنصدقنَّ بك فيما ادعيتهُ. فاجابنا بقولهِ يا هؤلاء انكم تلوّنون الكلام وانني انا عيسى ومالي بغير هذا لكم من جواب فافعلوا ما انتم فاعلون او خاطبوا في امري خليفة المهدي « عم » ليعلمكم بحقيقتي فانكم انتم لا تعلمون ووافقهُ على ذلك وزيرهُ ابو القرشي وغيرهم ممن تقدم ذكرهم وكذلك الطائف احمد وهنون النيل الهباني ومحمد حسين بقاري ومحمد علي البرتاوي وداوود التاماوي وعبد

الرحمن ابراهيم البرناوي وعبد الله جاموس وعثمان احمد المغموس وجميع هؤلاء امراء رايات فحينئذٍ اخذتنا عليهم غيرة الاسلام وامرنا بسجنهم جميعاً ٥٥ ثم احضرناهم ثانياً واعدنا لهم السؤال علهم يرجعون عما هم فيهِ فما زادوا الا تصميماً واصراراً عليهِ . فسألنا المتنبي عن أبيهِ وأمهِ ومولدهِ ومنشأهِ فقال اني من البشر مثلكم واني نبي الله عيسى بلا ريب ولكن ليس هذا اواني وليس لكم معي الآن من قول لاني للآن ما انذرتكم وعما قليل ترون صدق ذلك ٥ ولشدة اعتقاد جماعتهِ فيهِ وتصديقهم اياهُ كانوا لا يتكلمون في المجلس الا عن اذن منهُ فلو سألناهم صدُّوا عن الاجابة حتى يأذن لهم فاستأذنهُ احدهم مهاجر اسماعيل في الكلام فأذن لهُ فقال ان دعوى هذا الرجل صحيحة وانهُ قبل هذا اخبرنا بان هذا ليس اوانهُ ٥ ثم سألنا المدعي عن شأنهِ في المهدية فقال نحن وأنتم الآن فيها سواء تحت اشارة خليفة المهدي « عم » وتابعون اليهِ فعليكم بالايمان . وعلامة ظهوري ستأتيكم الحبشة على جردتين فتفوت الاولى ويأتيكم الدجال في الثانية وهناك ترون العجب من أمري ويتم لكم ظهوري فقلنا لهُ ما شأنك مع خليفة المهدي « عم » فقال ان الخليفة عبدالله والخليفة علي عارفان بامري واما الخليفة شريف فلا علم لهُ بي واني الآن تحت اشارة خليفة المهدي « عم » الى الوقت المعلوم . ثم ان مهاجراً المذكور اجاب ثانياً بقولهِ للمجلس يا أيها الاخوان ان الانبياء والمرسلين والمهدي عليهم الصلاة والسلام المؤيدين من الله بالملائكة والاولياء والجن والانس فأول تأييدهم لهم هل هو ظاهري أم باطني فأجبناهُ بأنهُ باطني فأجابنا هل لكم من علم في الباطن فقلنا لهُ لا فقال هذا تأييدهُ لعبدهِ هذا . وقد طال الكلام وكثر المقال على هذا المنوال فأعدناهم الى السجن فقال بعضهم عند القيام الى السجن لا اله الا الله محمد رسول الله ان هذا هو عيسى حقًّا لا غيره لا نشرك بهِ شيئاً ٥ وحيث سيدي ان هذا من أهم ما يجب رفعهُ لباب السيادة وان ارباب هذه الدعوى امراء رايات كما سلف ومن الضروري ان تكون عقيدة اتباعهم مثل عقيدتهم . وربما اذا داموا على ذلك أو أمهلوا ودام لهم هذا المدَّعي ان يوقدوا نار الفتنة على غفلة ويحصل الفشل في الدين فقد ثقلناهم الآن بالحديد وتجاسرنا برفع هذا لتصدر لنا

الاشارة الكريمة بشأنهم ه اما صاحب الدعوى فانهُ مولود في برقو وامهُ فاطمة بنت خديجة وعمرهُ ٢٥ سنة وهو أمرد لا لحية لهُ ولونهُ اخضر الى صفرة أعجمي اللسان مفلج الاسنان السفلى مفتوح الوجه مربوع القامة متوسط الجثة واسع الجبهة عظيم الرأس ونظر السيادة فيهِ كفاية والسلام ٢٩ ربيع اول ١٣٠٥هـ ١٥ دسمبر ١٨٨٧م اه

فاهتم الخليفة للامر وكتب الى ابي عنجة في قتل المدعي في الحال وخيَّرهُ بين قتل الامراء معهُ والرفق بهم بالاقتصار على سجنهم . وارسل مع الكتاب اربعة امناء لتحقيق الخبر فحالما وصل كتاب الخليفة نصب ابو عنجة المشنقة وشنق المدعي وانصارهُ واحدًا واحدًا امام الجيش كلهِ وذلك في صباح الخميس في ١٥ ربيع آخر سنة ١٣٠٥هـ ٣١ دسمبر سنة ١٨٨٧م . ثم قطع رؤوسهم وارسلها الى ام درمان فعلقت في السوق . وكان الخليفة قد الحق كتابهُ الاول بكتاب آخر يقول فيهِ « اما المدعي ووزيرهُ فيقتلان في الحال واما الامراء فان رجعوا عن الدعوى يكتفى بسجنهم والا فليقتلوا » فوصل هذا الكتاب بعد الكتاب الاول بثلاث ساعات وعاد الامناء الاربعة الى الخليفة واخبروهُ بجلية الامر فلم يأسف على قتلهم ونشر منشورًا وزعهُ على جميع انصارهِ في الجهات يحذرهم من اتباع اهل الضلالة ومما قالهُ فيهِ : « . . . ان شخصًا في القلابات اعظم الفرية على الله تعالى وادعى ضلالًا وكذبًا انهُ نبي الله عيسى مع انهُ معلوم الام والاب والقبيلة وسارَّ بذلك اشخاصًا ودعاهم الى تصديقهِ ومحالفتهِ فصدقوهُ وحالفوهُ لضعف يقينهم فآل امرهم الى الهلاك وقتلوا جميعًا باشارتنا وطهرت الارض منهم » . . . « ومن الآن فصاعدًا فاي من عثر على صاحب دعوى فليرفع امرهُ الينا ويتبين خبرهُ منا ولا يبادر الى تصديقهِ من عند نفسهِ فينقض عهدهُ مع الله ورسولهِ ومهديهِ ومعنا ويخسر الدارين ويهلك اسوة بالهالكين . . . »

﴿ رجوع يونس الى ام درمان ﴾ هذا وكان الخليفة قد ارسل ابا عنجة الى القلابات على ان يكون قائدًا عامًا لجميع جيوش المهدية فيها ويكون يونس الدكيم ممثلًا لهُ في الادارة العسكرية فثقل الامر على يونس لانهُ من اقرباء الخليفة ولم يكن ابو عنجة في الاصل سوى عبد من المنضلة ففرز جيشهُ عن جيشهِ ورفض الطاعة لهُ .

فاستدعاهُ الخليفة الى ام درمان وجعلهُ ملازمًا لهُ الى ان ارسلهُ عاملاً على دنقلة اواخر سنة ١٨٨٨ كما سيجيء وابقى ابا عنجة عاملاً على القلابات اداريًا وعسكريًا . وكان قد ارسل معهُ كتابًا الى الملك يوحنا ملك الحبشة يدعوهُ من جديد الى طاعتهِ ومما قالهُ لهُ :

« ... وبعد فان المهدي « عم » قد كاتبك وحثك على الدخول في ملة الاسلام فحصل منك الصدود والاعراض عن طريق الرشاد ثم نحن قد كاتبناك قبل هذا بمثل ما كاتبك بهِ المهدي « عم » واعلمناك بانك ان لم تعمل طبق امرنا فلا بد من حلول جيوش الاسلام بديارك ومناجزتك الحرب وقتل رجالك فما حصلت منك الى الله انابة ولا لداعيهِ اجابة حتى غزا المسلمون بلادك فخربوا الديار وقتلوا الرجال واحرقوا الكنائس والمدن الكبار وسبوا النساء ويتموا الاطفال وعادوا غانمين حائزين لرضاء ذي الجلال وصار اثم من هلك من اتباعك عليك ولو اجبت داعي الله لاجابوا معك تبعًا اليك . والحاصل ان ما مضى قد فات وما زلنا نريد هدايتك فيما هو آتٍ ودخولك في دين الاسلام وانتظامك في سلك اصحاب المهدي « عم » ومن ثم حررنا هذا ثانيًا اليك قبل اعادة الكرة عليك فان رحمت نفسك بالدخول في ملة الاسلام والانتظام في سلك اتباع المهدي «عم» وشهدت ان لا اله الا الله وان محمدًا رسول الله نطقًا بلسانك واعتقادًا في جنانك واقمت بجهتك شعائر الاسلام من صلاة وصيام وزكاة وغير ذلك من الاحكام فاعلم انك تكون منا والينا ونكف عنك المحاربة ويغفر الله لك جميع الآثام التي وقعت منك في زمن الكفر . والا فان كنت لم تزل على اعراضك عن اجابة داعي الهدى واصرارك على دين الكفر واتباع الهوى فاعلم انك تصير من الهالكين بقدرة رب العالمين اذ لا بد من حلول جيوش الاسلام بدارك ومناجزتك الحرب وقطع دابرك ... » ولترد لنا منك الافادة بما تختارهُ من اعراض أو اجابة وعلى من اتبع الهدى السلام سنة ١٣٠٥هـ » اه

﴿ غزوة حمدان الاولى للحبشة ﴾ فلم يجبهُ الملك يوحنا على كتابهِ كعادتهِ فأمر ابا عنجه « فخرج لغزو الحبشة في ٩ يناير سنة ١٨٨٨ بجيش كثيف جعلهُ اربعة ارباع وجعل على كل ربع اميرًا وهم : احمد علي وعبدالله ابرهيم والزاكي طمل وعربي

دفع الله . وكان في كل ربع جماعة من اهل الاسلحة النارية والباقون من اهل السيوف والحراب فجعل اهل الاسلحة النارية صفاً واحداً واهل الرماح صفاً آخر وراءهم كل ربع على حدتهِ وكان هو وملازموهُ في الوسط وراء ربع الزاكي طمل ولهُ اشراف على الجيش كلهِ حتى اذا ظهر لهُ خلل في الارباع ولزمت مداركتهُ امدَّهُ بملازميهِ .
واما الفرسان فقد جعلهم في الجناحين وجعل طليعة الجيش امام الكل . وسار على هذا الترتيب حتى اتى بلاد دمبيا من الحبشة فعاث فيها فأخرب حلالها وقتل اهلها وغنم وسبى وعاد الى القلابات ، وكتب الى الخليفة تفصيل غزوتهِ بما نصهُ بعد البسملة :

« و بعد فمن العبد الحقير ذو العجز والتقصير حمدان ابي عنجة الى محيي الدين ومدمّر الكافرين وسفينة المؤمنين الموصلة لرب العالمين سيدي وسندي الى الله خليفة المهدي « عم » الخليفة عبد الله ابن محمد خليفة الصديق « رضه » وارضاهُ ونفعنا ببركتهِ وافسح في ايامهِ واهلك اعداء الدين بماضي حسامهِ آمين ٠ ... سبق فاخبرنا السيادة انهُ صار قيامنا على بركة الله تعالى من القلابات الاثنين في ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٠٥ ... فبعد مضي ثلاثة ايام من قيامنا تناولنا اطراف دار العدو من جهة علفه فمرّ بعض الانصار بشجرة ذات ثمر يؤكل ولكنها في ارتفاع عظيم وكانوا جياعاً فحاروا لا يدرون كيف يقتطفون ثمرها و بينما هم كذلك اذا بها تدانت لهم باذن الله تعالى الى الارض بكليتها فأكلوا جميعاً وشبعوا وحمدوا مولاهم على تلك الكرامة في الدين والانصار المذكورون هم من جماعة الاخ علي فايت وقد قابلونا وقصوا علينا القصة ٠ وفي اليوم التالي اتى جماعة من الاخوان الزريقات جماعة عيسى عبد الله على شجرة بحذاء كنيسة الكفرة بالجهة المذكورة فتسلقها ثلاثة منهم وجعلوا يأكلون فسألهم الباقون ان يناولوهم من طلعها فلم يعطوهم كفايتهم فما شعروا الا والشجرة قد خرّت الى الارض فأكلوا وشبعوا ... هذا ولما تمّ لنا في المسير تسعة ايام وصلنا دمبيا محل الكافر عدو الله النقس راس عدار (وهو الذي صار ملكاً على كوجام باسم تقله هيمنوت) فالتقتنا طلائعهُ الفرسان في اول البلاد فهزمناهم وقتلنا منهم واستطردنا السير بقية يومنا الى الاصفرار فنزلنا قريباً من ديم اعداء الله ... ولما طلع فجر اليوم

العاشر من خروجنا من القلابات توضأنا على حالتنا المعهودة ورتبنا حزب الرحمن من الاسلحة والخيول بحسب ما يسّرهُ الله لنا من علمهِ وقمنا بعد صلاة الصبح على بركة الله تعالى قاصدين ملاقاة حزب الشيطان وعلينا من الله السكينة والوقار لا نؤمل الا لقاء الله ونصرة الدين فلما اشرقت الشمس قبل وصولنا لاعداء الله أخرج الله تعالى نورًا عظيماً ساطعًا تجاه الشمس من جهة بحر هناك يقال لهُ «بحر أبيض» وعند ما شاهدناهُ استبشرنا وخررنا من ظهور الركائب سُجدًا لله تعالى على اسداء النعمة وفعل كذلك جميع الاخوان الذين معنا . . . ولما تراءينا مع اعداء الله الكفرة اذا هم من كثرتهم لا اول لهم يعرف ولا آخر يوصف فابتدرونا ضربًا بمدافعهم الاربعة بمسافة لا يصلها الرمنتون لزعمهم اننا نقف مكاننا ونناوشهم مناوشة وما زالوا كذلك ونحن زاحفون عليهم حتى اطلقوا علينا ١٦ قنبلة ثم شرعوا بضرب السلاح . هذا كلهُ والاخوان زاحفون عليهم يسبق بعضهم بعضًا اقدامًا بلا احجام طمعاً فيما ينالونهُ من نفحات العزيز العلام . ولم نأذن لهم بالضرب الى ان حققنا بان افواه السلاح امتلأت من اعداء الله فعند ذلك شرعنا في ضربهم بغاية الحزم وشدة العزم مع الزحف عليهم فما كانت لهم ساعة الا وقد زلزل الله اقدامهم والحق الرعب في قلوبهم وانكشفوا عن وجوهنا مسرعين مرتكبين عار الفرار ذاهلين عن كل ما لهم من ذراري ونساء وخيول و بغال وحمير وخدم وحشم ونحو ذلك . هذا كلهُ والاخوان الصادقون يسمعون صوت الام باية تضرب في وقت اشتداد الحرب . و بعد انكشاف الاعداء اقتفينا اثرهم طعنًا وضربًا وأسرًا حتى اضطرّ الذين امامنا الى ان رموا بانفسهم في النهر المذكور وكانوا يزيدون عن الف نفس من ذكر وانثى فمات اكثرهم غرقى . وما رجعنا عن مطاردتهم الا بعد الساعة العاشرة من النهار ووجدنا الهالكين من اعداء الله ألوفًا مؤلفة لا يحصي عددهم الا الذي اراد هلكهم ولم يفز بلقاء الله من الانصار الا نفر قليل كما يرى في الورقة الاخرى طيهُ ه هذا وجميع الغنائم مع المدافع الاربعة و بعض السلاح الذي تيسر جمعهُ والخيول والبغال وغير ذلك اخذناهُ بفضل الله تعالى بلا منازع ولا معارض لان الكفار تركوا الديم كما هو . وقد اعلمنا نقاد رأس صابون من ثقات مسلمي

الجبرته الذي شهد معهم الواقعة وسلم بالفرار ان عدد الكفار مايتين واربعين الفاً بلا نقصان منها خاصة اهل الحربة والدرقة والسيف مايتين الف وخاصة السلاح الرمتون اثنا عشر الفاً والاجناس ثمانية آلاف والخيول عشرون الفاً والمدافع اربعة. واهل الديار التي تجمعت معهم لحربنا هم قجام واجفر وعلفه وطاقسة ودمبيا وقندر وشقلته وشلعة وام بجارة وارمجوه وغيرهم من عامة الديار . وقد هلك اكثر البطارقة والرؤوس ومن جملتهم الشقي دجاج كاسة قائد جميع الجيش بعد الشقي راس عدار الذي حصلت على يده وقعة القلابات . وهذه ثلاثة اروس مع رافعه وهم دجاج كاسه عقيد الحربة وبزابه بن الشقي راس عدار وقداري يقرا عقيد السلاح وكان جملة من يقال لهُ دجاج ستة عشر ومع كل دجاج خمسة عشر الفاً اعني كل واحد صاحب جهة وتقارة وما ارسلنا هذه الاروس الثلاثة الا لشهرة اربابها . ومن جملة الاسارى لدينا اولاد الشقي راس عدار ذكوراً واناثاً مع حرم واولاد الرؤوس المفسدين بما فيهم بعض حرم وابناء عدو الله المخذول صالح شنقه وغيره ...

هذا ولما خلت الدار من الكفار واتنت رائحة الديم من جيف اعداء الله ورمم بهائمهم انتقلنا على بركة الله تعالى طالبين قندر ام مدائنهم يوم السبت في ٧ جمادى الاولى وقبل وصولنا اليها قابلنا اهل الديار المذكورة اعلاه راغبين الامان ورافعين الرايات البيض وفي ايدي البعض الاغصان الخضراء. ثم لما قربنا اليها قابلنا جميع كبرائها من مسلمي الجبرته بالطاعة والاذعان طالبين الامان فامنّاهم . وبعض المكاتبات التي قابلتنا منهم بالطريق ها هي واصلة طي هذا . وجميع الكفار الساكنين بها ولّوا مدبرين فدخلنا يوم الاثنين وجلنا فيها يميناً وشمالاً فاعجبنا بما شاهدناهُ من القصور الشامخات واحرقنا فيها ٤٥ كنيسة ما عدا الكنائس التي احرقناها بالديار المذكورة عند مرورنا بها وهي تزيد على ٢٠٠ كنيسة . فلما لم نجد بالمدينة المذكورة الا المسلمين من الجبرته (وكانوا نحو ٢٠٠٠) ولم نعلم جهة للعدو فلزيادة اشتياقنا لمخاطبات السيادة لانقطاعها عنا مدة غزوتنا هذه وايفاء بوعدنا السابق للسيادة عن تعجيل الاوبة قمنا منها ومعنا جمع من الجبرته باموالهم واولادهم مهاجرين لله والغنائم المتقدم ذكرها آنفاً . وسيتم

وصولنا الى القلابات غدًا ان شاء الله تعالى . ولعلمنا بان الافكار الشريفة متعلقة بنا قد بادرنا بتحرير هذا في ١٥ جمادي الاولى سنة ١٣٠٥ هـ « ٢٩ يناير سنة ١٨٨٨م اه

« تحشية . استقر ومع الرؤوس الثلاثة راس رابع وهو راس شيخ عموم القالة المدعو « اسوري قلا » كان بالعام الماضي شاهدًا معهم وقعة العامل ابن ارباب » اه

﴿ غزوة حمدان الثانية للحبشة ﴾ واقام ابو عنجة في القلابات نحو اربعة اشهر ثم « تاقت نفسهُ الى غزوة اخرى للحبشة فخرج في ٧ شوال سنة ١٣٠٥ هـ ١٧ يونيو سنة ١٨٨٨ بطريق علفة وبعد ثمانيـة ايام من خروجهِ وصل محلاً يدعى تنكل فوضع الديم فيهِ وارسل البعوث يمينًا وشمالاً فلم يجد احدًا على محاربتهِ وبلغهُ ان في مدينة أم بشارة رئيسًا يدعى دجاج مششه قد جمع لهُ فقصدهُ ففرّ من وجههِ فرجع الى تنكل . وفي رجوعهِ مرّ بدير عظيم في جزيرة من جزائر « بحر ابيض » فأمر الزاكي طمل وعبد الله ابرهيم فأحرقاهُ وقتلا من وجدا فيهِ من الرهبان والقسس ورجعا اليهِ فعاد الى القلابات فدخلها في ٧ الحجة سنة ١٣٠٥هـ ١٥ اوغسطوس سنة ١٨٨٨ »

﴿ كتاب الملك يوحنا الى أبي عنجة في طلب الصلح ﴾ وكان الملك يوحنا في هذه الاثناء منشغلاً بالتليان الذين احتلوا مصوع وقد خشي على بلادهِ منهم فرأى ان يعقد مع الدراويش صلحًا ليتفرغ للتليـان فكتب الى ابي عنجة كتابًا بالحبشية والعربية يدعوهُ الى الصلح بما نصهُ :

« نقش خاتمهِ : ملك الملوك يوحنا ملك صهيون الصليب بالحبشة غلب امة اسماعيل

« رسالة من المؤيد من الله يوحنا ملك صهيون ملك ملوك الحبشة ـ تصل الى المعظم دجاج ابي عنجة ٥ اول سؤالنا عن صحتك وسلامتك عسى ان تكون بخير وعافية . نحن الآن مع جميع الجيوش والامراء والوزراء بخير بمعونة الله والاوليـاء الابرار ولله العظمة والحمد دائمًا لان رحمتهُ دائمة الى الابد ٥ قبل تاريخهِ بخمس عشرة سنة حكم الترك بلادكم الى حدود التمة . وقد ارادوا ان يحكموا بلاد التيغرى فاتوا بطريق مصوع ودخلوا بلاد حماسين فحاربناهم واعطانا الله القوة فظفرنا بهم وهزمناهم مرتين ٥ وبعد ذلك فيما نحن في مدينـة اسمره حاكمين الاسلام

بالايمان المسيحي كتب الينا المهدي كتاباً يأمرنا بالدخول في دين الاسلام فغضبنا وارسلنا « حربة » الى مدينة المتمة فأهلكت من الخلائق عدداً جزيلاً . ثم حضرتم انتم الى بلاد دمبيا وحاربتم وغلبتم من غلبتموهُ وبهذا السبب هلكت المساكين ٥ والآن فاذا انا حضرت الى بلادكم واهلكت المساكين ثم جئتم انتم واهلكتم المساكين فما الفائدة في ذلك . ونحن ليس لنا ارادة على التعدي من حدودنا الى حدودكم فلا يكن لكم ارادة على الخروج من حدودكم الى حدودنا بل نحن وانتم نكون ساكنين جلوساً ببلادنا فلا تهلك المساكين في الباطل ٥ والواقع ان الافرنج اعداء لنا ولكم فاذا غلبونا وهزمونا لم يتركوكم بل اخربوا دياركم واذا غلبوكم وكسروكم فعلوا بنا كذلك . فالرأي الصواب ان نتفق عليهم ونحاربهم ونغلبهم ويتردد التجار من اهل بلادنا بالمتاجر الى بلادكم وكذلك تجار بلادكم تتردد الى غندر لاجل المعايش والمكاسب لاهلكم ولاهلنا ٥ فاذا صار كذلك فهو غاية المنفعة لنا ولكم لانكم انتم ونحن في الاصول السابقة اولاد جدّ واحد فاذا قاتلنا بعضنا بعضاً فماذا نستفيد فالافضل والاصوب لنا ولكم ان نكون ثابتين في المحبة جسداً واحداً وشخصاً واحداً متفقين بعضنا مع بعض ومتشاورين بالمشورة الواحدة ضد اولئك الذين يحضرون من بلاد الافرنج والترك وغيرهم الذين يريدون ان يحكموا بلادكم و بلادنا مزعجين لكم ولنا اولئك اعداؤكم واعداؤنا نحاربهم ونهينهم ونحرس حدود بلادنا ومما لكنا منهم . هذه هي مشورتنا العظمى لمن يسمع وينظر فيفرح ويبتهج ٥ وايضاً قبل تاريخهِ بنحو خمس سنوات ونحن في امباجاره طلب الطليان التوجه الى سنهيت وكسله وطلبوا منا خبر السكة والمعاونة قائلين لنا الانكليز من هناك ونحن معكم من هنا نحارب الدراويش ونهلكهم فمنعتهم من ذلك وما مكنتهم من شيء. وقلت لهم أليس الناس نامي وهم بلاد واحدة معنا وحبشة واحدة فمنعتهم من ذلك منعاً باتاً ولهذا السبب صارت العداوة معهم الى الآن فليكن ذلك معلوماً لديكم في ١٧ كيهك سنة ١٨٨١ مسيحية » اه ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٨ م

﴿ جواب ابي عنجه للملك يوحنا ﴾ فأجابهُ حمدان ابو عنجه بكتاب فظّ هذا نصهُ :

« وبعد فمن عبد ربهِ قائد جيوش الاسلام لتدمير الكفرة اللئام حمدان ابي عنجه الى يوحنا بالحبشة » انهُ لقد وصلنا جوابك عربياً وعجمياً تاريخهُ ١٧ كيهك سنة ١٨٨١ مسيحية وفيهِ تعرفنا بملك الترك سابقاً لبلادنا الى حدود المتمة وما قد حصل لهم فيما بعد • وانهم لما ارادوا الدخول في بلادك منعتهم منها وهزمتهم مرتين • وان سيدنا الامام المهدي « عم » ارسل اليك جواباً يدعوك فيهِ الى الاسلام فغضبت وارسلت الى المتمة من حاربها وكان ما كان من امر الله ثم توجهنا نحن الى بلادك وكان ما قدكان بأرض دمبيا وعلى ان يقف كلاً منها على حده وينعقد الصلح بيننا ويكف الحرب ونكون اخواناً واعواناً على من يقصدنا من دول الافرنج والانكليز وان يتردد بيننا وبينكم التجار بمتاجرهم فذلك الذي رأيتموهُ صواباً ولعدم الثمرة في المحاربات وهلاك المساكين الى آخر ما عددتهُ لنفسك من المزايا والتظاهرات الباطلة فهمناهُ وها سأوضح لك ما ظهر لمهدينا « عم » من الكرامات وخوارق العادات فلعلك ان عقلتها تكون لك اكبر عبرة (ثم عدد لهُ الوقائع التي فاز بها المهدي وخليفتهُ من بعده وقال) : واما غضبك من جواب سيدنا المهدي « عم » فهو من اعظم الشقاء عليك ولقد رأيت ما حل بمن جاء الى المتمة انتقاماً من عند الله تعالى فاذا لم تعتبر بهِ فستكون انت ان شاء الله عبرة لغيرك • وما كان بالمتمة سابقاً الا التكارير الذين يحرثون الارض ويستعملون القطن ولكنها الآن امتلأت ليوثاً ضواري يقاوم الواحد منهم عشرة من الكفار وجميعهم بايعوا الله ورسولهُ ومهديهُ وخليفتهُ من بعده عهداً وثيقاً على الموت في سبيل الله ابتغاء وجههِ الكريم فان لم تعرفهم فستعرفهم غداً فانهُ ما جاء بهم الى هذه الجهة حب مال ولا جاه بل جاؤا لقطع دابرك وجميع الكفار فانتبه من الغفلة واصحُ من النومة وفق من السكرة ولا تغرنك جموع الشيطان التي لم تغن عنك من الله شيئاً وفيما سبق عبرة لأولي الالباب » فاما نداؤك لي في صدر الجواب بقولك دجاج ابو عنجة فاعلم اني لست بدجاج وانما انت الدجاج لكفرك وتماديك على غضب باريك » واما طلبك الصلح منا وانت باقٍ على كفرك فبعيد بعد المشرقين ودليل على ضعف عقلك وفراغ ذهنك فيا لك من سفيه ويا لك من جاهل

اتريد منا صلحاً ومواخاة ولم تدخل في الدين الحق وكتاب الله ناهٍ عن ذلك . فان رمت الصلح فقل مخلصاً من قلبك اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدًا رسول الله (صلعم) والاّ فانا نقاتلكم ونخرب دياركم ونتيم باذن الله اطفالكم ونغنم اموالكم كما وعدنا الله ذلك في كتابهِ العزيز اذ انهُ لا قصد لنا في الدنيا وما هي لنا بدار وانما هي دار الكفار اهل الذل والصغار ودارنا هي الآخرة ذات الدرجات الفاخرة ولم تكن اقامتنا هذا لخدامة قُبُر ولا جمع رزق وانما هي لجهادك وجهاد امثالك في رضاء الله . فحينئذٍ انت والطليان والافرنج ومن والاكم الله اكبر عليكم جميعاً فما بيننا وبينكم الا السيف ما لم تؤمنوا بالله وحده . فان آمنت فذلك الذي نريدهُ والاّ فاتخذ لك دارًا غير التي انت فيها فلا بد ان تنجلي عنها قريباً . واعلم انهُ لا حد لنا نقف عليهِ الاّ بيتك خاصة حيث جاهرت بكفرك وخالفت مهدي الله خليفة الرسول وسيف الله المسلول فان كنت ذا قوة وشجاعة كما تزعم فأقدم علينا ولا تحجم اذ ما أخرك كل هذه المدة الاّ شدة الخوف واذا لم يكن ذلك فأثبت في محلك فلا بد لك من الهلاك عن يد حزب الله الغالب وجنده المفلح فأولى لك الانابة الى الله ومداركة عمرك قبل فواتهِ فسلامتك في الاسلام وعطبك في ضده فابكِ ان كنت باكياً على نفسك فقد حان ذهابك ولن يتعظ شقي مثلك الاّ بنفسهِ وها قد نصحت لك وانذرتك فأنب الى الله او بوء بغضب من الله ورسولهِ فقد هيئ مقعدك من النار وبئس القرار وفي هذا كفاية والسلام على من اتبع الهدى جمادى الاولى سنة ١٣٠٦هـ يناير سنة ١٨٨٨ م

﴿ غزوة الملك يوحنا القلابات ﴾ فلما اطلع الملك يوحنا على كتاب ابي عنجه طار صوابهُ وصمم على طرد الدراويش من القلابات ومطاردتهم الى ام درمان فارسل الى جميع مدائن مملكتهِ باستنفار الجيوش فاجتمع عليهِ نحو ٢٥٠ الف مقاتل ومعهم من الرؤوس والاعيان الراس عدار والراس الوله وهيلا مريم وصالح شنقة وغيرهم من مشاهير دولتهِ الابطال فقادهم وزحف بهم قاصدًا القلابات

﴿ تحصين القلابات ﴾ وعلم ابو عنجه باستعدادهِ فشرع في تحصين القلابات فأحاط الديم بزريبة مربعة متينة ومن داخلها متراس بغاية الحصانة واقام من داخل

المتراس سورًا طول الجانب منهُ ١٧٠ مترًا لوقاية العائلات والذخائر والشون وجعل للزريبة اربعة ابواب على كل باب مدفع

﴿ وفاة ابي عنجه في ٢٩ يناير سنة ١٨٨٩ ﴾ وقبل ان يتم زريبتهُ اصابتهُ حمى فقضت عليهِ في ٢٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠٦هـ ٢٩ يناير سنة ١٨٨٩م فبكاهُ اصحابهُ والجيش كلهُ لانهُ كان محبوبًا من الجميع وكان طويل القامة غليظ الجثة قوي البنية خفيف اللحية اشيبها اسود اللون حتى تظنهُ عبدًا لكنهُ كان مهيبًا عادلاً حسن الخلق سديد الرأي ونقش خاتمهِ: «وفق ياذا القدرة عبدك حمدان ابو عنجة» . وكان اشد قواد المهدية بأسًا واكثرهم جرأة واطوع الى الخليفة من بنانهِ لذلك حزن عليه حزنًا شديدًا ونعاهُ الى جميع امرائهِ في السودان . وقد رثاهُ محمد المجذوب بن الطاهر بقصيدة منها:

حمدان انك طالما سمت العدى ذلاً وذكرك في المحافل يرفعُ
ما وُجهت رايات نصرك وجهة الا وبالظفر المؤكد ترجع
فلك الهنا بلقاء ربك شاهرًا سيف الجهاد وكل قرم تقمع
فسحائب الرضوان تغشى تربة ضمتك ما نجمٌ يغيبُ ويطلع

عمالة الزاكي طمل على القلابات سنة ١٨٨٩

﴿ واقعة القلابات في ٩ مارس سنة ١٨٨٩ وموت الملك يوحنا ﴾ هذا وكان ابو عنجه قبل وفاتهِ قد سمى الزاكي طمل خلفاً لهُ على جيوش القلابات فنازعهُ الرئاسة احمد علي من اخصّ رجال التعايشي وكاد الامر يفضي الى وقوع الفشل في الجيش فارسل الخليفة القاضي احمد علي وبعض اخصائهِ فثبّتوا الزاكي طمل في الرئاسة . فاتمّ الزريبة التي شرع فيها ابو عنجه وصفّ عليها المقاتلة وقد بلغوا نحو ٦٠ الفاً ومعهم ١٢ الف بندقية رمنتون و ٣٥٠٠ بندقية من اجناس شتى والف جواد . ويوم السبت في ٩ مارس سنة ١٨٨٩ وصل الملك يوحنا القلابات بجيوشهِ الجرارة وانتشبت حرب هائلة ظلّ النصر فيها في جانب الاحباش حتى جرح الملك يوحنا جرحاً مميتاً فحملهُ رجال حاشيتهِ وخرجوا بهِ من الموقعة فوقع الفشل في الاحباش اذ ذاك وانهزموا شر انهزام . وتبعهم الزاكي في اليوم التالي فادركهم على الاتبرة يوم الثلثاء في ١٢

مارس فاوقع فيهم واقعة شديدة فقتل وغنم وسبى وعاد الى القلابات و بعث الى الخليفة في تفصيل الواقعتين بكتاب طويل هذا نصهُ بعد البسملة :

« و بعد فمن العبد الحقير المعترف بالعجز والتقصير الزاكي طمل الى سيدهِ وسندهِ ووسيلتهِ الى ربهِ خليفة المهدي « ع » الخليفة عبدالله بن محمد خليفة الصديق رضي الله عنهُ ونفعنا بهِ آمين ٥ بعد ان يهدي العبد الى سيدهِ جزيل السلام و يقبل اياديهِ الكرام يعرض للاعتاب العلية والمسامع الزكية ما حصل بحول الله وقوتهِ من عظيم البشارة بتأييد الدين وقطع دابر اعداء الله الحبشة الكافرين وهو انهُ بعد ما سبق العرض للسيادة عما بلغنا من حضور اعداء الله الحبشة لمحاربتنا فقد تم وصول الاعداء المذكورين يوم السبت في ٦ رجب ومعهم تقُسهم الهالك الملعون يوحنا قريباً منا فكانوا على حالة عجيبة وقوة شديدة وجموع كثيرة العدد عظيمة العُدد لا يحصي مقدارهم الا الله تعالى حتى من شدة كثرتهم ضاقت بهم الارض وما وسعتهم الطرق فصاروا يطلقون الحرائق امامهم لتنظيفها ولقد رأينا نيرانهم من مسافة ثلاثة ايام فلما قربوا من المركز مسافة ساعتين ثار الغبار من جهتهم حتى سد الافق وصار من في ديم الانصار لا ينظر من يكون بحذائهِ من شدة ثوران الغبار وانتشارهِ ٥ وعند ما شاهد الانصار ذلك اظهروا من الثبات والصبر والشهامة والاشتياق الى لقاء الله والوفاء بالعهد ما هم بهِ حريون و بقينا مترتبين ومستعدين على الحالة المعهودة ومنتظرين قدوم الاعداء الى ميدان الحرب لمناجزتهم وقطع دابرهم فحضروا الينا في الوف مؤلفة وعدد متنوعة ومعهم من الخيول والاسلحة والبغال ما لا يحصى وقد ساقوا امامهم الوحوش كالجواميس والذئاب والغزلان وخلاف ذلك واحاطوا بنا من كل جانب حتى صرنا في وسطهم كالخاتم الصغير وهم في غاية الغرور والاعتماد على كثرتهم العارية من المعونة الالهية وكان عدد الانصار اهل الاسلحة النارية اذ ذاك سبعة عشر الفاً بخلاف الحرابة لكون الاعداء المذكورين اتونا على حين غفلة قبل التمكن من جمع جيوش الانصار المتفرقة بالجهات في المصالح ٥ فبعد ما احاطوا بنا من كل جانب ومعهم تقسهم الملعون يوحنا يحثهم ويحرضهم على القتال و يمنيهم

بحسب ما يلقيهِ اليـهِ الشيطان وتسوّل لهُ نفسهُ الخبيثة من القدرة على اطفاء نور الرحمن ابتدرونا بضرب المدافع والاسلحة النارية من كل الجهات وحملوا علينا حملة ارتج لها الكون وصار لهم دوي عظيم واصوات مختلفة من ضرب الاسلحة المتنوعة والانصار في تلك الحالة في غاية الثبات والصبر وقوة العزم وعدم الاكتراث لكثرة الاعداء وجموعهم ولم يسبق لاحد مصادمة نظير هذه فيما نعلم الا في زمن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم • فعند ما ابتدرونا بالضرب عاقبناهم بضرب المدافع من كل ناحية وصبرنا لهم حتى «ملأوا افواه الاسلحة» فتوكلنا على الله وضربناهم ضربة رجل واحد واستمر اطلاق الاسلحة النارية من الجهتين وتواتر حتى ارتجت الارض من اصوات الاسلحة واسود النهار وصار كالليل المظلم من تراكم الدخان والغبار في الجو وكأنما السماء قد اطبقت الارض من عظيم ما حصل والانصار وقتئذٍ جزاهم الله خيرًا مع قلتهم بالنسبة الى كثرة جموع الاعداء في غاية الثبات والصبر والاقدام والشهامة والبسالة وشدة الوطأة على اعداء الله ضربًا بالاسلحة وطعنًا بالرماح وقطعًا بالسيوف واستمر الحرب بيننا وبينهم نحو خمسة ساعات بحيث لم يكن في اثنائها فاصل بين الضرب بالاسلحة والالتحام مع الاعداء • وبعد ذلك انزل الله علينا نصرهُ وانجز لنا وعدهُ وزلزل اقدام اعدائهِ فولوا هاربين وعلى اعقابهم ناكصين بعد ان اهلك الله تعسهم الملعون يوحنا وجماعة من رؤساء دولتهِ ووزرائهِ واهلك من جموعهِ ألوف مؤلفة حتى امتلأت الارض من جيفهم الخبيثة وجيف خيولهم وبغالهم • وبعد انكشافهم عن وجوهنا اخذوا تعسهم الملعون يوحنا وادخلوهُ في صندوق واشاعوا انهُ حيّ ولكنهُ مجروح جرحًا خفيفًا وحملوهُ معهم وفروا هاربين ولعار الفرار مرتكبين • وبالنظر لكون الانصار جزاهم الله خيرًا ما انتبهوا في حالة التحام الحرب مع الاعداء لشيء سوى مصادمتهم وقطع دابرهم ولم يشغلهم عن ذلك شهيد ولا جريح حتى كشفوهم وصدوهم على اعقابهم فنحن بعد هرب الاعداء شرعنا في دفن من اكرمهُ الله بالشهادة من الانصار وهم عدد يسير وتمييز الجاريح وكان ذلك ليلة السبت ويوم الاحد • ثم تجهزنا بما لزم من الاستعداد واقتفينا أثر الاعداء المذكورين في صباح

الاثنين وجددنا السير في طلبهم وادركناهم عشية يومنا هذا على بحر اتبرة نازلين وبايتناهم هناك فطلعونا في تلك الليلة بجانب من خيولهم فحملنا على طلائعهم فانهزموا. فلما اصبحنا بيوم الثلاثاء الموافق ٩ رجب (والواقع ١٠ رجب ١٢ مارس) ناجزناهم الحرب فانتشب القتال بيننا وبينهم فثبت لهم الانصار ثبوت الرواسي واشتد الحرب وعظم الخطب واستمر الحال على ذلك ست ساعات فانكشفوا عن وجوهنا منهزمين لا يلوي منهم احد على احد لشدة ما رأوهُ من سطوة انصار الدين وذلك بعد ان اهلك الله منهم كل من يقال لهُ رأس او دجاج من الباقين بعد الواقعة الاولى فاقتفى الانصار أثرهم ضرباً وطعناً حتى استأصلوهم عن آخرهم ولم ينجُ منهم الا الهارب وقد غنمنا جميع ما معهم من الاسلحة والمدافع والجباخين والخيول والبغال وبقية الامتعة . وبعد استئصال المنهزمين صار تفقد الهالكين من رؤساء الكافرين بواسطة من لهم المعرفة التامة بهم فوجدنا عدو الله الهالك النقس يوحنا مقتولاً في الواقعة الاولى كما ذكرناهُ آنفاً مدخلاً في صندوق مشمع ببطن خيمتهِ وعلى صدرهِ صليب من ذهب كان يعبدهُ من دون الله ومعهُ ايضاً الخز ملابسهِ وبعنقهِ العتبة التي يتخذونها وعليهِ انواع من الادوية لئلا يتمزق ففي الحال اخرجناهُ من الصندوق وحززنا رأسهُ ورفعناهُ على قناةٍ فاستبشر الانصار بذلك وحمدوا مولاهم على تلك النعمة العظيمة ثم ارسلنا رأس الهالك يوحنا المذكور ورؤوس وزرائهِ كرأس الوله وغيرهِ لصوب السيادة اعلاماً بتأييد الدين ودمار الكافرين ومعها تاج المملكة الذي للملعون المذكور وخيامهُ ونحاساتهُ وغير ذلك من امتعتهِ الخاصة بهِ . وبعد ان فرغنا من مكافحة الاعداء وقطع دابرهم تفقدنا من اكرمهم الله بالشهادة من الانصار في تلك الواقعة فوجدناهم عدداً يسيراً بالنسبة الى كثرة الاعداء وقلة الانصار واستمرار الحرب وفرحنا لهم بما نالوهُ من حسن لقاء الله ودفناهم ورجعنا الى المركز سالمين غانمين . ثم من جملة ما رأينا من الكرامات في حال انتشاب الحرب مع الاعداء المذكورين ان كثيراً من الانصار سمعوا صوت ام بايه وشاهدوا خليفة المهدي «عم» ذاتهُ امام الاصحاب وبعضهم رأوا رايات بيضاً بايدي رجال نازلين من السماء يقتلون في الاعداء فضلاً عن مشاهدة التهاب النار في اجسام

اموات الكفار من محل الطعنة حتى تعم الجسد كافة وغير ذلك من البشائر والكرامات التي لا يمكن استقصاؤها فهذا ما كان لنا مع اعداء الله الهالكين في كلتا الوقعتين ٭ اما الانصار ففي كل يوم يلتمسون منا التوجه لغزو الحبشة في بلادهم وما يمكننا ان نجيب التماسهم الا بعد تشريفنا بصدور امر كريم للتبرك بهِ والعمل بما فيهِ . وبالنظر لما هو واجب علينا من رفع الاحوال مفصلة لولي امرنا فقد حررنا هذا اداء للواجب علينا ولا شك ان جميع ما حصل من هلاك الكافرين ونصرة الدين فهو من عناية الله وتأييده لخليفة مهديهِ عليهِ الرضوان فنسأل الله تعالى سيدي بجاهكم عندهُ ان يمنحنا رضاكم في الدارين ويعمنا بعفوكم في كل حين ويوقع في قبضتكم كل معاند من الكافرين انهُ على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير هذا والسلام في ١٠ رجب سنة ١٣٠٦ هـ » اه ١٢ مارس سنة ١٨٨٩ م

وكتب اليهِ كتاباً آخر في التاريخ نفسهِ يقول : « ... سيدي ان بعض خيالة الاعداء وجدوا لهم منفذاً من جهة المكرم احمد علي وأخذوا بعض «عوائل» الانصار ... وقد فاز بالشهادة من انصار الدين جهادية واولاد عرب جماعة ما امكن حصرهم وفيهم عشرون رجلاً من اهل الرايات واكثرهم من راية المكرم احمد علي ... وعند دخول الاعداء في الديم ساعة المصادمة اثاروا فيهِ الحرائق بقصد نهب الامتعة ... »

وفي كتاب ثالث بتاريخ ١١ رجب سنة ١٣٠٦هـ ١٢ مارس سنة ١٨٨٩م يقول: « ... سيدي ها هو برنس عدو الله الملعون يوحنا من الحرير الاخضر المرصع بالذهب والجواهر ومعهُ عراقية ملطخة بدمهِ وخاتم الملعون راس الوله ذهباً بفص احمر ... »

وفي كتاب رابع بهذا التاريخ يقول : « ملحق بما سبق ذكرهُ من اشياء الملعون يوحنا : طاقية ذهب خالص تساوي ٤٠٠ اوقية وصليبان من فضة وذهب ومركوب قطيفة وسوار كبير فضة ... سيدي ان هذه الاشياء احضرها الانصار بعد تحرير الكتب المرسلة مع هذا وها هي واصلة للسيادة مع رافعه عبد الكريم لغرابتها ليراها انصار الدين ويحمدوا الله على ما اولاهم من النصر المبين ... »

وكتب اليهِ في ١٤ شعبان سنة ١٣٠٦هـ ١٥ ابريل سنة ١٨٨٩م يقول : « ...

بحسب ما ورد لنا من سيادتكم بجمع الاسلحة التي غنمناها من اعداء الله الحبشة اكدنا على الاصحاب في احضارها فحصلنا منها الى الآن ١١٨٦ بندقية من رمنتون وابي لفتة وخشخان وشيئاً قليلاً من الجبخانة كما ترون في الكشف طيه ‥ وقد حفظنا الجميع في منزل سيدنا المرحوم حمدان ابي عنجه الى ان تصدر الاشارة الشريفة بشأنها ‥»

فطبع الخليفة كتاب الزاكي الاول في مطبعة الحجر ووزعهُ على انصاره في جميع البلاد اشهارًا للنصر على الاحباش. ولكن الراس الوله لم يقتل كما جاء في كتاب الزاكي. وجاء مصر وفد من الحبشة سنة ١٨٩٩ لاخذ مطران لمملكة كوجام وكان احد اعضاء الوفد غبريل بقطر قد حضر واقعة القلابات فسألتهُ عن الواقعة وموت الملك يوحنا فقال: « كنا قد انتصرنا في بادئ الامر حتى اخترقنا زريبة القلابات وكدنا نستولي عليها فأصابت الملك يوحنا رصاصة طائشة اخترقت ذراعهُ ودخلت صدرهُ فجرحتهُ جرحاً مميتاً فحملهُ رجال حاشيتهِ الى الخيام فطلب ابنهُ الراس منقشا وقال لهُ ان جرحي قتّال فشد حيلك واجمع رجالك وارجع الى بلادك فرجع في مقدمة الجيش والملك يوحنا معهُ محمولاً على سرير حتى وصل دير محبره سلاسه على نحو يومين من المتمة فثقل حال الملك ومات الاحد مساء وكان قبل موتهِ اوصى ان يدفن في الدير المذكور فدفن فيهِ صباح الاثنين في ١١ مارس سنة ١٨٩٩ . وفي اليوم التالي لحق الدراويش ساقة الجيش عند فرع للاتبرة يعرف بنهر الكلب فاوقعوا فيهم وكان معهم جثة هيلا مريم من وزراء الملك يوحنا فاخذوها وذهبوا بها ظانين انها جثة الملك»

هذا وكان اقوى ملك في الحبشة بعد الملك يوحنا الملك منيلك ملك شوا فلما بلغهُ خبر وفاة الملك يوحنا اشهر نفسهُ ملك ملوك الحبشة وعقد صلحاً مع التليان ثم نقضهُ وكانت بينهُ وبينهم وقائع مشهورة يأتي ذكرها في تاريخ الحبشة

وقائع كسله سنة ٦ : ١٨٨٩

تقدم ان عثمان دقنه قبل رجوعهِ الى تماي سمى ابن اخيهِ محمد فاي اميرًا على كسلة فضرب الزكاة على الماشية باكثر مما تحمّلهُ الاهلون وحبس محمد بن الشيخ موسى ناظر الهدندوة لتقصيرهِ في تأدية الزكاة فضج الهدندوة لذلك ورفعوا الامر

الى عثمان دقنه ولما لم يجبهم تجمعوا برئاسة بلال السمرندوابي ودخلوا السجن واخرجوا محمد موسى منهُ عنوة وكتبوا الى الخليفة يطلبون عزل محمد فاي من كسلة وتسمية عامل عليهم غير عثمان دقنه . فاستدعى الخليفة عثمان الى أم درمان وسألهُ عن ذلك ففنَّد شكوى الهدندوة وتزلّف الى الخليفة فثبتهُ في مركزه واصحبهُ بجيش كبير فيه نحو ١٠ آلاف من اخلاط البقارة والجعليين والدناقلة بقيادة محمد عثمان ابي قرجة . و بلغ الهدندوة ان الخليفة ايّد عثمان دقنه على عمالتهِ فتجمعوا في أم قروفه على ١٦ ساعة من كسله مصممين على القتال فخف الفقيه علي بن حامد الجيلابي الى أم درمان واخبر الخليفة بالذي عليهِ الهدندوة فتلافى الامر وكتب الى أبي قرجه ودقنه ان يأخذ احدهما منصب الآخر فجعل دقنــه امير الجيش وابا قرجه عاملاً على القبائل وكتب الى القبائل النافرة منشورًا بتاريخ ٢٣ صفر سنة ١٣٠٤ = ٢١ نوفمبر سـنة ١٨٨٦ قال فيهِ :

« ... فان كان ما جرى منكم من الاعراض عن طريق الهدى والرشاد سببهُ كما بلغني ما اصابكم من الحبيب عثمان أبي بكر دقنه من الضرر وعدم المراعاة ومعاملتكم بالشدة وانكم ما زلتم على طاعتكم لامر المهدية ... فاعلموا انا قد عينا لكم من طرفنا الحبيب محمد عثمان ابا قرجه لمباشرة اموركم وراحة بالكم ورفع الضرر عنكم والسير فيكم بمقتضى السنة المحمدية والطريقة المهدية . وارسلنا معهُ قاضيًا شرعيًا وعضدناهما برجال من امناء الدين والاصحاب السابقين وما تركنا للحبيب محمد عثمان المذكور من التوصية والرفق بكم شيئًا وسيعمل فيكم بمقتضى وصيتنا و يعاملكم بالعدل والفضل ولا يأخذ منكم غير الزكاة المفروضة عليكم في كتاب الله وسنة رسولهِ ... »

فرضي الهدندوة بذلك . وحال وصول ابي قرجة الى كسلة بثّ المقاديم في انحاء البلاد فعدّ الانفس والمواشي وشرع في جمع الزكاة على ما يفرضهُ الشرع الاسلامي . وكان محمد فاي قد هجر بندر كسلة ونزل في ديم طوكرف فاتخذ ابو قرجة محلجة القطن البخارية للتاجر عمر أغا خارج البندر ديمًا لهُ . . وسمى الخليفة علي حامد المذكور آنفًا عاملاً على جهات سواكن و بني عامر والحباب فنزل في طوكر وكتب الى اهل سواكن في ٧ يناير سنة ١٨٨٧ م يدعوهم الى الطاعة فلم يجبهُ احد

﴿ وقائع سواكن سنة ٨٦ : ١٨٩١ ﴾

﴿ احتلال عثمان دقنه لهندوب ﴾ هـذا وكانت الحكومة في سواكن لما علمت بذهاب عثمان دقنه الى ام درمان اوعزت الى محمود علي شيخ الامارأر فهجم بنفر من رجالهِ على ديمهِ في تماي في ٦ سبتمبر سنة ١٨٨٦ فقتل جماعة من اهلهِ واسر آخرين ٥ وبلغ عثمان الخبر وهو في طريقهِ الى كسله ولكنهُ انشغل بالهدندوة مدة . وفي اوائل نوفمبر سنة ١٨٨٧ اخذ جانباً من جيش كسله واتى هندوب على ١١ ميلاً الى الشمال الغربي من سواكن وارسل بعثاً الى بلاد الامارأر للأخذ بثار اهلهِ فالتقاهم في مكان يدعى دارة فقتل وسبى وعاد الى هندوب . ثم ارسل بعثاً آخر بقيادة شائب الدنقلاوي فأوقع فيهم في ١٧ يناير سنة ١٨٨٨ قرب محل الواقعة الاولى فقتل منهم نحو ٥٠٠ رجل وفيهم محمد شيخ اخو شيخ الامارأر

﴿ واقعة هندوب في ١٧ يناير سنة ١٨٨٨ ﴾ وكان المحافظ على سواكن في ذلك العهد كتشنر باشا فلما علم بخروج سرية شائب من هندوب رأى ان ينتهز الفرصة ويهاجم عثمان وهو في قلة لعلهُ يظفر بهِ ويريح السودان الشرقي من شرهِ فاستأذن مصر وخرج من سواكن الساعة الاولى بعد نصف الليل في ١٧ يناير سنة ١٨٨٨ ومعهُ ٥٠٠ رجل من الامارأر والعساكر السودانية والباشبوزق والبوليس ونفر من السواري والهجانة فلما صار على ٣ اميال من هندوب وقف ينتظر بزوغ الفجر وهو يظن انهُ على ميل واحد منها . وفي الساعة ٤ والدقيقة ٤٥ امر المشاة بقيادة محمد بك احمد مأمور بوليس سواكن فخفّوا نحو هندوب وسار هو في اثرهم بالفرسان والهجانة متمهلاً . وكان عثمان دقنه مدتماً في زريبة متينة بين سلسلة من الاكام عن اليسار واكمة منفردة عن اليمين ومن ورائهِ بلدة هندوب ومن امامهِ غابة من الاشجار فكمن المشاة في الغابة الى ان بزغ الفجر فخرجوا منها وهجموا على عثمان وهو يصلي بانصارهِ خارج الزريبة فانهزموا مذعورين تاركين اسلحتهم في الزريبة فطاردتهم العساكر الى بلدة هندوب . وكان كتشنر قد اوعز الى العساكر السودانية بمطاردة عثمان ذاتهِ فاتوا محلاً في البلدة ظنوا انهُ يلجأ اليهِ فرأوهُ من بعيد

فاراً على جمل سريع ولكن انصاره تجمعوا بعد الشتات فرساناً ومشاة وداروا حول الاكمة المنفردة ورجعوا الى الديم فاخذوا سلاحهم واوقعوا الفشل في العساكر فاسرع كتشنر اذ ذاك الى نجدتهم وضرب البوري فاجتمعوا عليهِ فهاجم الزريبة بجميع رجاله فاصابتهُ رصاصة في وجهه فجرحتهُ جرحاً بالغاً اضطرهُ الى ترك القتال فعاد بالعساكر الى سواكن وقد خسر ١٠ عساكر قتلى و١٩ عسكرياً و٣ ضباط جرحى

﴿ واقعة شكسبير ﴾ وعاد عثمان الى ديمهِ فارسل جماعة من انصاره في ٣ مارس على سواكن فنزلوا على مسافة ١٩٠٠ يرداً منها واخذوا يرمونها بالرصاص . وكان كتشنر اذ ذاك قد ذهب الى مصر بسبب جرحهِ وناب عنهُ الماجور شكسبير فخرج عليهم في صباح ٤ مارس ببعض العساكر فردوهُ خاسراً وعادوا الى ديمهم في هندوب ولما بلغ كتشنر خبر هذه الحادثة اسرع الى سواكن وكان لم يزل متألماً من جرحهِ فلم يمكث الا القليل حتى عاد منها عليلاً وناب عنهُ الماجور رندل رفيقهُ القديم الى ان رقي الى منصب ادجو تانت جنرال فسمي هولد سمث باشا محافظاً على سواكن فاخذها من الماجور رندل في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٨

تولية حامد علي عاملاً على كسله وذهاب ابي قرجه الى هندوب

هذا وكان عثمان دقنه بعد واقعة هندوب قد ارسل الى الخليفة في طلب المدد . فارسل الخليفة حامد علي من اخصاء رجالهِ عاملاً على كسله وكتب الى ابي قرجه فاتى هندوب في اوائل ابريل سنة ١٨٨٨ فوجد الاقامة فيها شاقة لقلة مائها وعدم وجود الغلال فيها فاشار على عثمان بنقل الديم الى طوكر فلم يسمع لهُ فاشتد الخلاف بينهما ورفعا الامر الى الخليفة . وكان الخليفة يحرص على رضى عثمان لانهُ لم يكن عندهُ في السودان الشرقي اصلح منهُ فاستدعى ابا قرجه الى ام درمان وارسل عثمان نائب مدداً الى هندوب

﴿ واقعة الجميزة في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٨ ﴾ وفي ١٧ سبتمبر اصدر عثمان دقنه امرهُ الى عثمان نائب فنزل بانصاره على ٩٠٠ يردٍ الى الجنوب الغربي من طابيتي الشاطة والجميزة اللتين تحميان آبار الماء الحامية سواكن وحفر خندقاً طويلاً فتمنع بهِ وجعل يترصد العساكر ووراد الماء فكلما لاح له شخص رماهُ بالرصاص . وفي

١٣ اوكتوبر امر جماعة من انصاره فأتوا الآبار خلسةً في الليل وشرعوا في ردمها فاحس العساكر بهم واجلوهم عنها * وكان هولدسمث باشا يرفع خبر الدراويش الى السردارية في مصر ويسألها المدد فحضر السردار غرنفيل باشا بنفسهِ الى سواكن واستكشف الخندق وعاد الى مصر فاستأذن الحكومة في الحملة عليهم وطردهم من الخندق فأذنت له فطلب الاورطتين التاسعة والعاشرة من الحدود النيلية فذهبتا الى سواكن بطريق قنا والقصير . وخافت الحكومة الانكليزية ان العساكر التي توفرت للسردار في سواكن لا تضمن لهُ النصر فبعثت اليهِ باورطة من عساكرها * فخرج من مصر في ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٨ قاصدًا سواكن فوصلها في ٩ منهُ وقد اجتمع فيها ٧٥٠ من العساكر الانكليزية و ٢٠٠٠ من العساكر السودانية و ٢٠٠٠ من العساكر المصرية . وكانت العساكر الانكليزية بقيادة الكولونل كوك وعساكر السردار لواءين : اللواء الاول وفيهِ الاورط التاسعة والعاشرة والثانية عشرة السودانية بقيادة اللواء كتشنر باشا واللواء الثاني وفيهِ الاورطتان الرابعة المصرية والحادية عشرة السودانية بقيادة اللواء هولدسمث باشا . وكان معهُ من الضباط المصريين اركان حرب : القائمقام علي بك حيدر ياورًا . وملحم بك شكور ضابط ملكي المخابرات . والبكباشي ابرهيم افندي فتحي من اركان حرب اللواء كتشنر باشا والبكباشي احمد افندي فهمي من اركان حرب اللواء هولدسمث باشا * ولما كان فجر ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٨ خرج السردار من سواكن بالجيش كلهِ فوقف بين طابيتي الجميزة والشاطة ومعهُ الطوبجية السواري المصرية والاورطة الانكليزية وامر اللواءين فزحف الواحد بجانب الآخر مهاجمين الدراويش عن يسارهم فتجمع اكثرهم الى هذه الجهة واطلقوا رصاصهم على العساكر وهم على ٦٠٠ يرد منهم فاقتحم العساكر الرصاص بجنان ثابت الى ان صاروا على ٢٠٠ يرد منهم فاشعلوا فيهم نارًا حامية . وفي اثناء ذلك كان الطوبجية السواري والاورطة الانكليزية مع طوبجية الوابورات الانكليزية الراسية في ميناء سواكن يمهدون السبيل للواءين باطلاق القنابل والرصاص في زاوية منحرفة على الخندق وما زال اللواءان يتقدمان وهما يفتكان بالدراويش حتى دخلا عليهم في الخندق وطرداهم منهُ

بحد السنج فتبعهم السواري اذ ذاك الى مسافة بعيدة فقتلوا واسروا وانتهت الواقعة الساعة ٨ صباحاً . وكان عدد الدراويش في الخندق نحو ١٦٠٠ رجل فقتل منهم ٥٠٠ واكثر وفيهم اربعة امراء واسر جماعة وفيهم ضرير موسى دقنه ابن عم عثمان . واما خسارة الجيش فكانت ضابطين و ٦ عساكر قتلى و ٢٤ جريحاً . وكان عند الخندق جميزة كبيرة فعرفت الواقعة بها . وقد تسلق هذه الجميزة ساعة القتال رجل من البقارة واخذ يرمي العساكر بالرصاص وهو يشتمهم بأعلى صوتهِ وينـاديهم بأقبح الالفاظ فصوب العساكر نارهم عليهِ فخرَّ الى الارض قتيلاً . وبعد الواقعة امر السردار فزيد عدد الطوابي خارج سور سواكن لحماية الآبار ومنع الدراويش من العودة الى مثل حالهم الاول وعاد الى مصر

﴿ انتقال عثمان دقنه بالديم الى طوكر ﴾ وبعث عثمان دقنه بخبر واقعة الجميزة الى الخليفة فاهتم للامر وكتب اليهِ فانتقل بالديم الى طوكر في ١١ فبراير سنة ١٨٨٩ وامر ابا قرجه فخف الى كسله وأخذ ما بقي من رايات عثمان فيها ووافاهُ الى طوكر في اواخر مارس . ولكن لم يكن الاَّ القليل حتى وقع الخلاف بينهما بشأن الرئاسة على الجيش ورفعا الامر الى الخليفة فكتب في ٣٠ ابريل سنة ١٨٨٩ بأن يكون عثمان دقنه العامل وابو قرجه وكيلاً لهُ وارسل اربعة امناء وهم : محمد خالد زقل والطاهر المجذوب والشفيع رحمه واسماعيل احمد ليكونوا معهم في طوكر يصلحان ما بينهما ويرفعان الاحوال كما هي الى الخليفة . وفي ١٤ يوليو سنة ١٨٨٩ كتب الخليفة الى عثمان فذهب الى ام درمان قبل للنظر في امر مهاجمة مصر من طريق القصير بينما النجومي يهاجمها من جهة النيـل فمرَّ وهو راجع بالقضارف وكسله فأخذ منهما كل من لهُ رغبة في الجهاد وارسلهم امامهُ ثلة بعد ثلة الى طوكر وما عاد اليها حتى كان النجومي قد خذل في طوشكي كما سترى فبقي في طوكر . وما زال النفور بينهُ وبين ابي قرجه فاستدعى الخليفـة ابا قرجه الى ام درمان في ٣٠ ابريل سنة ١٨٩٠ فسماهُ اميرًا على بربر وبقي عثمان في طوكر ولهُ نقطة صغيرة في هنـدوب الى ان طردتهُ الحكومة منهما في اوائل سنة ١٨٩١ كما سيجيءُ

الفصل الثامن
في
﴿ وقائع الثورة في خط الاستواء سنة ٧٩ : ١٨٨٩ ﴾

﴿ نزول امين بك الى الخرطوم ﴾ تقدم لنا الكلام على بلاد خط الاستواء الى ان برحها غوردن سنة ١٨٧٩ وصارت في عهدة امين بك . وكان فيها اذ ذاك نحو ١٥٠٠ من العساكر النظامية و ٣٠٠٠ من الباشبوزق . وفي مارس سنة ١٨٨٢ نزل امين بك الى الخرطوم لمقابلة حاكمها رؤوف باشا و بقي فيها الى ١٥ يونيو من السنة المذكورة ثم قفل راجعاً الى خط الاستواء . وكان قد علم في الخرطوم بقيام محمد احمد وعند وصوله الى فاشودة سمع بانكسار جيش الشلالي في قدير ولكنهُ لم يعبأ بما كان ولم يكن يشك ان الحكومة تسحقهُ عاجلاً او آجلاً فعاد الى خط الاستواء ناعم البال وكان مولعاً بدرس النبات والحيوان فعاد الى درسهِ وجمع رواميز النبات الى يوم ٢٨ مارس سنة ١٨٨٤ اذ جاءهُ كتاب من لبتن بك مدير بحر الغزال ينبئهُ بهلاك جيش هكس في شيكان وتسليم سلاطين في دارة وامتداد الثورة الى بحر الغزال

﴿ كتاب كرم الله الى امين بك يدعوهُ الى التسليم ﴾ ثم فتح كرم الله بحر الغزال على ما علمت وبعث الى امين بك كتاباً يدعوهُ الى التسليم وصلهُ في ٢٧ مايو سنة ١٨٨٤ . وكان امين بك اذ ذاك في موقف حرج لان عساكرهُ على قلتها وعدم تدريبها على القتال كانت موزعة على نحو ٤٠ نقطة في شرق البلاد وغربها ولم يكن عندهُ من القواد من يعتمد عليهِ وقد اعوزتهُ الاسلحة والذخائر والميرة لان آخر وابور وصلهُ من الخرطوم في ١٦ مارس فعاد منهُ في ١٤ ابريل سنة ١٨٨٣ . وفوق ذلك فقد كان الدناقلة منتشرين في كل انحاء البلاد تجاراً ومتسببين بل كان بعضهم كتاباً وموظفين في المديرية وقد مدّوا اعناقهم لسماع اخبار ابن وطنهم المهدي وكتب كرم الله الى كثير منهم يدعوهم الى الهجرة اليهِ . فاغلق امين بك اذ ذاك كتاب الطبيعة واخذ يقلب في كتب السياسة والادارة لعلهُ يجد فيها باباً ينجيه من ذلك الحرج

﴿ ارسال وفد الى كرم الله ﴾ فعقد مجلساً من ضباطهِ وموظفيهِ الملكيين وقرأ لهم كتاب كرم الله وسألهم رأيهم فيهِ فاجمعوا كلهم على التسليم وكتبوا بذلك كتاباً واختاروا وفداً يوصلهُ الى كرم الله فجعلوا امين بك رئيساً لهُ وعثمان حاج حامد قاضي المديرية وعثمان ارباب الباشكاتب وكلاهما من اقرباء المهدي وابراهيم اغا مأمور اللاتوكا اعضاء. فقلق امين بك لاختيارهم اياهُ رئيساً للوفد فاعتذر بان البلاد تصبح في غايةِ فوضى واقترح ان يكون القاضي رئيساً للوفد واحب القاضي الرئاسة فبيّن للناس اوجه الصواب في بقاء امين بك فرضوا بهِ وخرج الوفد من اللادو في ٣ يونيو سنة ١٨٨٤ وكان في جملة شروط التسليم ان تبقى البلاد على ما هي عليهِ الى ان تأتي الوابورات من المهدي في الخرطوم فيذهبون بها ويسلمون اليهِ وان جيوش كرم الله لا تدخل البلاد باية صورة كانت. وقد اراد امين بك ان يطاول كرم الله الى ان يجمع شتات عسكرهِ فما سار الوفد حتى اصدر اوامرهُ الى النقط البعيدة بالتجمع على النيل وحشد جيشاً في امادي الواقعة على طريق كرم الله الى اللادو وخندق على اللادو واستعد للدفاع

﴿ حصار امادي نوفمبر سنة ١٨٨٤ ﴾ واما كرم الله فانهُ لما اطلع على شروط التسليم ابى قبولها وصمم على ان يكون التسليم على يده فارسل عبدالله عبدالصمد في مقدمة جيشهِ الى خط الاستواء فحاربهُ مرجان اغا قومندان طابية امادي في عدة وقائع وقتلهُ فزحف كرم الله اذ ذاك بمعظم جيوشهِ على امادي فحصرها حتى نفد زادها واكل اهلها الجلود فخرج ستة ضباط و ٣٠٠ رجل منهم واخترقوا صفوف المحاصرين ونجوا الى ودلاي بطريق وندي عاصمة مكركة. ثم خرج مرجان اغا القومندان بباقي القوة بقصد اللحوق بهم فاعترضهُ كرم الله وقتلهُ هو ومن معهُ وذلك في اواخر مارس سنة ١٨٨٥ وكتب الى امين بك بلاغاً نهائياً ليحضر مسلماً في ٥ ابريل فاذا لم يحضر في الميعاد المذكور زحف عليهِ واخذ البلاد عنوة وكان قد كتب لهُ من قبل واخبرهُ بسقوط الخرطوم وقتل غوردن فلم يجبهُ بل جمع عساكرهُ في نقط النيل بين الرجاف وودلاي وجعل الدفلاي مركز المديرية وجعل العساكر اورطتين الاولى في النقط الشمالية بين الدفلاي والرجاف والثانية في النقط الجنوبية بين الدفلاي وودلاي واستعد للقتال .

وفيما هو كذلك شاع ان كرم الله رجع بجيشهِ الى بحر الغزال . واختلف الرواة في سبب رجوعهِ فقال البعض ان المهدي دعاهُ الى أم درمان ليرسلهُ في جيش مصر وقال البعض الآخر ان العبيد في بحر الغزال ثاروا على من خلَّفهم وراءهُ في المركز فرجع لتمهيد الثورة وبقي الى ان مات المهدي واستدعاهُ الخليفة فلبى الدعوة كما مرَّ (« مواصلة امين بك لمصر ») ومهما يكن السبب في رجوعهِ فقد كان من سعد امين بك الذي اصبح همهُ بعد الآن مواصلة مصر . وقد جاءهُ في هذه الاثناء سائحان اوربيان وهما ينكر الالماني والكبتن كازاتي الايطالي فبقي الكبتن كازاتي معهُ لمساعدتهِ على حملهِ وسافر ينكر الى مصر في يناير سنة ١٨٨٦ وكان امين بك قد كتب الى الحكومة المصرية في ١ نوفمبر سنة ١٨٨٥ يسألها النجدة وارسل كتبهُ عن طريق زنجبار . ومن غريب الاتفاق ان الحكومة المصرية كتبت اليهِ بهذا التاريخ ايضاً وفي الطريق عينها فوصلتهُ الكتب في ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٦ وكان بينها كتاب بامضاء نوبار باشا رئيس مجلس النظار بتاريخ ٢ نوفمبر سنة ١٨٨٥ يقول لهُ فيهِ : ان الحكومة قد اخلت السودان وليس في قدرتها ان تساعدهُ بشيء ولكنها فوضتهُ في اتخاذ افضل الطرق لاخلاء البلاد

على ان اخلاء البلاد لم يكن من السهل لانهُ فضلاً عن بُعد طريق زنجبار وكثرة مشاقها ومخاطرها . فان العساكر واكثر الضباط كانوا من السود وقد تزوجوا من نساء البلاد واقتنوا من رقيقها . وفوق ذلك فان انشغال امين بك بدرس النبات والحيوان وعدم اهتمامهِ بالادارة العسكرية انسى العساكر الطاعة العسكرية حتى لم يكونوا يسمعون لهُ امرًا الا اذا وافق اميالهم . فلما قرأ لهم كتاب نوبار هاجوا وماجوا وقالوا اذا كان لا بد لنا من ترك البلاد فلا نعرف لنا طريقاً غير الخرطوم وقد ارادوا القبض عليهِ ولكن بعض ضباط الاورطة الثانية انحازوا اليهِ وحالوا دون ذلك

حملة المستر ستنلي لانقاذ امين باشا سنة ٧ : ١٨٨٩

وفي يناير سنة ١٨٨٧ وصل السائح الالماني ينكر الى مصر ووصلت قبلهُ كتب امين بك الى الحكومة المصرية فعلم العالم المتمدن بحالهِ في خط الاستواء فتألفت حملة

في لندن لانقاذهِ وتبرع الرحالة الشهير المستر ستنلي فترأس الحملة وأتى بها الى مصر في اواخر يناير سنة ١٨٨٧ · فقابل الجناب العالي الخديوي فناولهُ فرمانًا الى امين باشا بتاريخ ٨ جمادى الاولى سنة ١٣٠٤هـ ١ فبراير سنة ١٨٨٧م هذا مفادهُ :

« حررنا اليك قبلاً في ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٨٦ نمرة ٣١ مع ما حرَّرهُ عطوفة نوبار باشا رئيس مجلس نظارنا فشكرنا لك الهمة والبسالة اللتين اظهرتهما انت والضباط والعساكر الذين معك في الدفاع عن بلاد خط الاستواء المصرية · لذلك قد رقيناك الى رتبة لواء باشا وصدَّقنا جميع الترقيات التي توصي بها للضباط الذين تحت ادارتك · ولما كان غرضنا الاعظم انقاذك انت والضباط والعساكر الذين معك من المركز الحرج الذي صرتم اليهِ · وقد أُلفت الآن حملة بقيادة السائح الخبير الطائر الصيت المستر ستنلي لانقاذكم من ذلك الحرج والمجيء بكم الى مصر في الطريق التي يختارها فقد اصدرنا امرنا العالي هذا و بعثنا بهِ معهُ لاعلامكم بما كان · وعند وصولهِ اكلفكم بابلاغ الضباط والعساكر احسن رغائبي واعلموا انكم احرار في المجيء الى مصر أو البقاء حيث انتم مع الضباط والعساكر ولكن اعلموا ان من احب البقاء هناك من الضباط والعساكر فهو انما يفعل ذلك على مسوءوليتهِ فلا ينتظر اية مساعدة من الحكومة · افهم ذلك جيدًا وافهمهُ للضباط والعساكر ليكونوا على بصيرة مما يفعلون · الامضا (توفيق)

وفي ٣ فبراير سنة ١٨٨٧ خرج ستنلي بحملتهِ من مصر فسار بطريق البحر الاحمر الى زنجبار ودار حول رأس الرجا الصالح حتى أتى نهر الكونغو في ١٨ مارس فابحر فيهِ الى يمبوعة فوصلها في ١٦ يونيو فترك بعض الحملة فيها حرسًا خلفيًا وسار بنحو ٤٠٠ رجل فاخترق الغابة العظيمة المشهورة ونزل عند بحيرة البرت في ١٥ ديسمبر بعد معاناة شدائد جمة ووقائع دموية مع اهل الغابة · ولما لم يجد امين بك في البحيرة ولا رأى مركبًا يوصلهُ اليهِ انقلب راجعًا الى يمبوعة ؛ فاتى بقارب كان قد تركهُ فيها وعاد الى البحيرة · هذا وكان القناصل في زنجبار قد بعثوا فاخبروا امين باشا ان ستنلي ذاهب لانقاذهِ بطريق الكونغو فوصلهُ الخبر في مايو سنة ١٨٨٧ وارسل الرسل الى البحيرة للتفتيش عليهِ فلم يجدوهُ ولكنهم سمعوا بخبر الحرب التي

كانت بينهُ وبين عبيد الغابة وكان هؤلاء العبيد من حلفاء كبريقة ملك يونيورو فحنق على امين ظاناً انهُ بعث في طلب ستنلي لفتح بلادهِ . وكان امين قد ارسل اليهِ الكبتن كازاتي لتسهيل مواصلة مصر فطردهُ كبريقة من دارهِ فذهب بهِ امين في الوابور «الخديوي» الى البحيرة للتفتيش عن ستنلي فلقيهُ في نسابي في ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٨ . فسلمهُ ستنلي الفرمان العالي المار ذكرهُ للعمل بهِ وترك عندهُ المستر جفسن احد اعوانهِ لمساعدتهِ في شؤونهِ . ثم رجع ثانية الى يمبوعة لجلب بقية عسكرهِ . فعاد امين باشا ومعهُ المستر جفسن الى العساكر وقرأ لهم الامر العالي مبتدئاً من نقطة ودلاي فكان جوابهم انهم يتبعونهُ حيثما ذهب حتى وصل نقطة كيري فاتاهُ كتاب من حامد أغا محمد قومندان الاورطة الاولى في الرجاف يحذرهُ من التقدم شمالاً ويقول ان العساكر لا يريدون السفر الى مصر فاذا اتاهم قبضوا عليهِ وحبسوهُ فرجع على عقبهِ . هذا وكان في النقط الجنوبية ضباط من رجال الثورة العرابية فنفثوا روح الثورة في عساكر الاورطة الثانية بقولهم ان الفرمان الذي سمعتموهُ من امين مزور وان ستنلي ورفاقهُ ليسوا الاَّ سياحاً وقد اتوا بهذه الحيلة ليأخذوكم من بلادكم ويسلموكم عبيدًا للانكليز . فصدق العساكر قولهم وقاموا على امين وجفسن في اللابوره وكادوا يفتكون بهما وعندوصولهما الى الدفلاي في ١٨ اوغسطوس سنة ١٨٨٨ كان فضل المولى احد ضباط السود العظام قد حضر من نقطة فبُو الشرقية فالقى القبض عليهما وحبسهما ثم عقد مجلساً من الضباط فعزل امين عن منصبهِ وسمى حامد أغا مديرًا على خط الاستواء مكانهُ وسليم بك مطر قومندانًا للاورطة الثانية

سرية عمر صالح الى خط الاستواء سنة ١٨٨٨

وانهم لكذلك اذ ورد خبر من الشمال في ١٥ اوكتوبر سنة ١٨٨٨ انهُ قد وصل اللادو سرية من الدراويش في ثلاثة وابورات وتسعة مراكب . وبعد يومين جاء الدفلاي ثلاثة من الدراويش ومعهم كتاب من عمر صالح امير السرية الى امين باشا يخبرهُ بما جرى في السودان ويدعوهُ الى التسليم

وتحرير الخبر ان الخليفة لم يبرح من بالهِ ان بلاد خط الاستواء كانت لا تزال

يد امين وقد زين لهُ اصحابهُ فتحها لكثرة ما فيها من سن الفيل والعبيد الصالحين للانتظام في الجيش . وكان قد نوى فتحها بعد فتح سنار ولكن شغلتهُ حوادث ام درمان والحدود المصرية وكردوفان ودارفور والقلابات المار ذكرها فلما انتهى منها أوكاد جهز سرية مؤلفة من نحو ١٥٠٠ من اخلاط الجعليين وعربان النيل ومعهم ٧٠٠ بندقية من رمنتون وغيره وعقد لواءها لعمر صالح وهو جعلي متربٍ في شكا ومتزوج من الزريقات واصحبهُ ثلاثة وابورات وتسعة مراكب والكاتب عثمان او باب المار ذكرهُ . وأوعز الى سلاطين باشا وجورج استمبولي وبولس صليب فكتب كل منهم الى امين باشا كتاباً اجمل فيهِ نصرات المهدية ونصحهُ بالتسليم وهذه هي صورة كتاب سلاطين:

« وبعد فمن عبد ربهِ عبد القادر سلاطين الى حضرة المكرم محمد امين مدير خط الاستواء وفقهُ الله الى الصواب * بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاتهِ نعلمك ان العارف لا يعرّف وانك ذو عقل ودراية وتعلم ان ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . وقد اراد الله تعالى ظهور المهدي المنتظر « عم » وانتشار امرهِ في جميع الاقطار . وبلغك ما حصل لهُ من النصر على جيوش الحكومة في جزيرة أبا وجبل قدير . ثم زحف على كردوفان فافتتحها واهلك من فيها من العساكر . وارسلت عليهِ الحكومة جردة برئاسة علي بك فقتلها . ثم ارسلت عليهِ الجيش المصري بقيادة هكس باشا الى كردوفان فاهلكهُ « عم » في ربع ساعة بجميع من معهُ من ضباط مصريين وأورباويين وفيهم علاء الدين * ثم بعد قتل المذكورين حرر الينا مكاتبات ونحن اذ ذاك بجهة الغرب بدارة فحررنا اليهِ ردها بالاذعان والتسليم ثم حضر الجيش المعين لجهتنا فلما تراءى لنا وجه الحق خرجنا اليهم من الاستحكام الذي عملناهُ في دارة وسلمنا الامر للمهدية وجميع ما معنا من اشياء الميري سلمناهُ لهم واعطيت لنا جميع املاكنا من خيل ورقيق ومصوغات وغيرها * ثم توجهنا معهم الى مديرية الفاشر وكان فيها السيد جمعه فسلمناهم جميع ما فيها من اشياء الحكومة . وكذلك سلمنا مديريات كلكل وككبية وام شنقه . ثم توجهنا لمقابلة المهدي « عم » وخليفتهِ عليهِ الرضوان فقابلناهما واخذنا البيعة وحصل لنا من الاكرام والاحترام ما سرنا وشرح صدرنا *

وتوجهنا مع جيش المهدية الى الخرطوم وحين وصولنا حررنا كتاباً الى الغردون وعرفناهُ بما شاهدناهُ في جيش المهدية واعلمناهُ بما حصل لنا من الاكرام وطلبنا منهُ ان يفعل مثل ما فعلنا فأبى ومكر . وحرَّر اليهِ المهدي «عم» انذارًا وأمنهُ على نفسهِ فأعرض عنهُ فأمر المهدي «عم» وخليفتهُ عليه الرضوان الجيش باقتحام خندق الخرطوم وكان فيهِ من العساكر ما ينيف على الف مقاتل من جهادية وملكية وغيرهم وفي ساعة واحدة قتل الغردون وجميع الضباط والعساكر والتجار وما نجا منهم الا طويل الاجل وصارت الحكمدارية في حوزة المهدية بجميع ما فيها من الاسلحة المتنوعة والجباخين والمدافع والصواريخ والخزائن ٭ ثم ارسل جيش لفتح سنار وآخر لفتح كسلة ففتحتا ٭ وفي اثناء اقامة المهدي «عم» وخليفتهُ بجهة كردوفان والبحر ارسلت الحكومة ما ينيف على خمس وعشرين جردة بطريق سواكن فخذلت جميعها على يد جيش المهدية المقيم بتلك النواحي وقتل جميع ضباطها من باشوات وغيرهم كباكر باشا واستورت واستورت الثاني وغيرهم وخربت جميع مراكز الحكومة مثل بربر وفشوده وفازوغلي ودنقله والقلابات ٭ ثم بعد هلاك الجردات المصرية ارسلت الحكومة الانكليزية عدة جردات بطريق دنقله وسواكن فقتلت ايضاً وما رجع منها الى القطر المصري الا النذر اليسير ٭ وفي شهر جمادى الاولى من هذه السنة وجّه جيش وافٍ يضاهي ١٢٠ الفًا من طرف سيدنا خليفة المهدي «عم» لغزو الحبشة فدخلها واهلك من جيوشها عددًا وافرًا وغنم جميع ما معهم من الاسلحة والمدافع والخيول والبغال وكان جيش الحبشة تحت رئاسة النقس راس عدار واحضرت نساؤهم واولادهم حتى اولاد راس عدار ذاتهِ وقد أحرقت مدينة غندر وهدم ما فيها من الكنائس والقصور . والآن حضر ابن النقس تادرس طالباً الامان فاعطيهُ وهو الآن في البقعة بمعية سيدنا خليفة المهدي «عم» وصار الحبشة يأتون افواجاً للمهدية مسلمين ومسلّمين ٭ ولما صار جميع جهات السودان من دار برقو والى وادي حلفا في قبضة المهدية أرسلت الجيوش الكافية لفتح الجهات البحرية وقد وصل اوائل الجيش قرب كورسكو وهجم على النقط التي في جوار المركز المذكور وقتل من فيهِ من العساكر وضبط رؤساء النقط المذكورة واحضروا

الآن الى خليفة المهدي «عم» وهذا الجيش الذي وصل بقرب كورسكو هو المعين بطريق المرات واما الجيش المعين بطريق دنقله فهو الآن في حلفا * وبما ان المهدية لا قصد لها الا هداية العباد قد حرر سيدنا خليفة المهدي «عم» انذارات الى السلطان عبدالحميد وتوفيق والي مصر وفكتوريا ملكة الانكليز فان اذعنوا وسلموا فقد حازوا السلامة وان اعرضوا فلابد من هلاكهم اسوة من تقدمهم من رؤساء الحكومة ** ولما توجهت انظار سيدنا خليفة المهدي «عم» لخلاصكم مما انتم فيهِ وانضمامكم الى جيش المهدية استأذناهُ في مخاطبتكم لسابق مودتنا معكم فاذن لنا «رضه» وحررنا اليكم هذا لتعلموا حال الحكومة وانشغالها بنفسها عنكم فعليكم قبول اوامر خليفة المهدي «عم» واياكم والاعراض عنها فانهُ ما اعرض عن اوامرهِ احد الا ذاق شديد النكال لان امر المهدية هذا من الله ورسولهِ فلا يستطيع احد من المخلوقين ان يقاومهُ كما شاهدنا ذلك بأعيننا ونحمد الله تعالى ونشكرهُ على ما أولانا من الاسلام والتسليم والاندراج في سلك المهدية واخرجنا من الظلمات الى النور * فان اردتم السلامة فافعلوا كما فعلنا ولا تظنوا انكم تقاومون المهدية التي امرها دولة مصر والانكليز فضلاً عمن كان مثلكم منقطعاً في بلاد العبيد وما كتبنا هذا اليكم الا حبًّا بسلامتكم فان سمعتم نصحنا وسلمتم للمهدية فقد حصل المقصود وسنجتمع ان شاء الله تعالى ونصير يدًا واحدة في خدمة المهدية فتشكرون صنيعنا وتعلمون محبتنا لكم وان اعرضتم فأنتم الجانون على انفسكم. وبلغوا سلامنا الى جميع من معكم من الضباط والعساكر وها نحن منتظرون رد الجواب لنعلم ما انتم عليهِ ليطمئن قلبنا من جهتكم . ثم نعلمكم ان عبد الله لبتن قد توفي الى رحمة مولاهُ (هذه السنة) بالحمى . وطيه صورة ما تحرر من خليفة المهدي «عم» الى السلطان وتوفيق والانكليز للاطلاع عليها سنة ١٣٠٥هـ » اه

فحمل عمر صالح هذه الكتب وخرج بالجيش والوابورات من أم درمان في ١١ يونيو سنة ١٨٨٨ فوصل اللادو في ١١ اوكتوبر فوجدها خالية من العساكر ولكنهُ وجد فيها كثيرًا من سن الفيل فارسلهُ الى ام درمان . وسأل عن امين باشا فعلم انهُ في الدفلاي وان اول جيشهُ في الرجاف فارسل اليهِ ثلاثة رسل بكتاب يدعوهُ

الى التسليم كامرٌ ويخبرهُ بكتاب سلاطين لهُ فقتل العصاة الرسل وصمموا على الحرب

﴿ واقعة الرجاف الاولى ﴾ وكان عمر صالح بعد ان ارسل الرسل ترك حامية صغيرة في اللادو مع الوابورات وتقدم بمعظم جيشهِ الى الرجاف فخرج اليهِ حامد آغا في قلعتين فهزمهُ ودخل الرجاف فاستحوذ على النساء والاولاد وغنم مدفعين و ١٨ صندوق من الجبخانة وكثيرًا من الاسلحة والامتعة والحبوب والرقيق والمواشي

﴿ واقعة الرجاف الثانيــة في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٨٨ ﴾ ثم جمع حامد اغا شتات جيشهِ وعاد بهِ لاسترجاع الرجاف فخرج اليهِ عمر صالح الاثنين في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٨٨ فقتلهُ وقتل نفرًا من عسكرهِ وضباطهِ وفيهم علي جبور وبخيت من الضباط السودانيين وسالم خلاف وعبد الوهاب طلعت من الضباط المصريين وحسن لطفي الكاتب .
وكانت خسارة عمر في الواقعة الاولى ١٠٦ قتلى وفي الثانية ٧ قتلى و ٣ جرحى

﴿ خروج امين وجفسن من السجن ﴾ هذا ولما بلغ النقط الجنوبية خبر هاتين الواقعتين اضطربوا وارتاعوا واخذوا يستعدون للدفاع فاغتنم انصار امين من الموظفين الملكيين وغيرهم فتوسطوا لهُ عند العصاة فخرج هو وجفسن من السجن واخذ النساء والاولاد والموظفين الملكية وفيهم عثمان بك لطيف وكيل المديرية وسار جنوبًا الى ودلاي

﴿ حصار الدفلاي ﴾ وتقدم عمر صالح لفتح الدفلاي وكان قد اجتمع في طابيتها بقية الاورطة الاولى ومعظم الاورطة الثانية بقيادة سليم بك مطر فأقام على حصرها مدة ثم رجع مخذولاً الى الرجاف بعد ان قتل نحو ١٤ ضابطًا من ضباطها وهاك ما كتبهُ الى الخليفة في ١٣ ربيع آخر سنة ١٣٠٦ هـ ١٧ ديسمبر سنة ١٨٨٨م بهذا الشأن :

« وبعد فمن عبد ربهِ عمر صالح الى القائم بامر الله خليفة المهدي « عم » الخليفة عبد الله بن محمد ... بعد الفراغ من محاربة حامد محمد مأمور ادارة خط الاستواء فجميع الكفرة في محطات الشلال وكيري ومقي واللابوره توجهوا الى الدفلاي مركز المديرية وتركوا المحطات قاعًا صفصفًا . ولعلمنا ان امينًا معهم بالمركز المذكور وهو الغرض المطلوب خرجنا بنفسنا ومعنا غالب الجيش تاركين باقية لمحافظة ديم الرجاف والوابورات والعائلات والمريض من الاخوان وجددنا السير ثمانية ايام حتى وصلنا

الدفلاي فوجدنا أميناً قد توجه الى محطة ودلاي ومعهُ البعض من النصارى واولاد الريف المائلين اليهِ واما العساكر والضباط من السودان واولاد الريف فقد اقاموا في قيقرة الدفلاي فكاتبناهم ثلاث مرات واخبرناهم بما معنا من المكاتبات الشريفة الصادرة اليهم من السيادة وعرضنا عليهم ان نرسلها اليهم فلم يفيدونا بسوى قولهم «انتم خُطَرية» فحاصرناهم ليلاً ونهارًا قريباً منهم جدًّا حتى كنا منهم بمرأى ومسمع. وبعد ثلاثة ايام خرجوا قلعة فحمل عليهم الانصار حملة رجل واحد فولوا هاربين ودخلوا قيقرهم . فلما كان اليوم الرابع من الحصار اي يوم الاربعاء في ٢٤ ربيع الاول سنة ١٣٠٦ اجمع الاخوان على مهاجمتهم في القيقرة فحمل عليهم تسع رايات ... وبعض الجهادية ليلاً قبل طلوع الفجر وحصروا القيقرة من الجنوب وحصرها باقي الرايات من الجهة الغربية وعند ما صلوا الصبح حملوا على القيقره حملة رجل واحد فوجد بعض الاخوان الذين هاجموا من الجنوب سبيلاً الى الدخول بعد مخاطرة جسيمة وتعذر ذلك على باقي الجيش لان القيقرة كانت محصنة بخندق عظيم ولها ابواب محكمة فاجتمع الاصحاب على الباب الجنوبي يضربونهُ بالفؤوس والسيوف فما اراد الله فتحهُ لشدة متانتهِ ولا اراد الانصار الرجوع فتمكن اعداء الله منهم وصاروا يرمونهم بالرصاص حتى استشهدوا جميعاً هم ورؤوس الرايات الثمانية وكان الواحد منهم يقول لصاحبهِ تقدم على الكفرة فانا شهيد فيجيبهُ صاحبهُ وانا ايضاً شهيد ولما لم يجدوا للدخول سبيلاً وخشية من ان يراهم الله مدبرين من اعداء الله كان يقبض الواحد منهم على يديهِ كاقباض المصلي ويطرق استحياء من ان يراهُ الله مدبرًا عنهُ حتى استشهدوا جميعاً بهذهِ الحالة . واما راية أدم جاد الرب التاسعة فقد نجاها الله بصاحبها . واما الذين دخلوا القيقر من الاصحاب فانهم مع قلة عددهم اختلطوا بالعساكر داخل القيقر وقتلوا منهم خلقاً كثيرًا ودخل بعضهم الوابور فقتلوا قبطانهُ وجميع من فيهِ حتى ضرب الاعداء بوريهم وتجمعوا على الاصحاب من كل جانب فاستشهد منهم من استشهد وسلم من اراد الله سلامتهُ . ويوم الجمعة اي بعد الواقعة بيومين خرجوا قلعة فما حمل الانصار عليهم حتى رجعوا الى قيقرهم . وفرغت الجبخانة منا في زمن الحصار والوقعات

الثلاث فلم يبقَ منها الاّ جانب يسير ومع ذلك ما زلنا مصممين على محاصرتهم حتى اتانا خبر بان الترك الذين بمكركة متحركون على ديم الرجاف وقد ارسلوا لهم طلائع من العبيد فاستصو بنا الرجوع لوقاية الديم فوجدناهُ بحمد الله سليماً والطلائع موضوعة في الحديد ونحن الآن مقيمون بديم الرجاف على احسن حال ... والسلام » اه

هذا وكان عمر صالح قد علم بمجيء ستنلي لانقاذ امين وحبس العساكر لامين وجفسن في الدفلاي ورفضهم الذهاب الى مصر فكتب في ذلك الى الخليفة وكان قد ارسل اليهِ تفاصيل واقعتي الرجاف و بعض الغنائم فلخص الخليفة هذه الكتب وارسلها الى محافظ سواكن اشهارًا للنصر فقلقت الافكار في مصر بشأن ستنلي وامين مدة

وفي ٤ ديسمبر شاع في ودلاي ان الدفلاي سقطت في ايدي الدراويش فخرج امين باشا بمن معهُ من الملكية والاتباع وفيهم كازاتي وجفسن وسار جنوبًا الى تنقرو فاقام فيها ينتظر ستنلي وفي ١٨ يناير سنة ١٨٨٩ عاد ستنلي بحملتهِ فعسكر في كفالي غربي البحيرة و بعث في طلب امين وقومهِ فشق على امين رجوعهُ الى مصر بدون عسكرهِ فكتب الى سليم بك مطر وهو ارشد ضباطهِ واعقلهم ملحًا عليهِ بالمجيء مع سائر الضباط لمقابلة ستنلي وكان الضباط قد سمعوا ان ستنلي عاد في المرة الثالثة بقوة عظيمة فخافوا اذا لم يصدعوا بالامر ان يزحف ستنلي عليهم من الجنوب والدراويش من الشمال فيصبحوا بين نارين فجاء سليم بك ومعهُ ١٤ ضابطًا في وابوري الخديوي ونيانزة الى امين باشا في تنقرو فاعتذروا لهُ عما فرط منهم فسامحهم وذهب بهم الى ستنلي فعقد معهم مجلسًا اقروا فيهِ على السفر من كفالي بطريق زنجبار في ١٠ ابريل سنة ١٨٨٩ ومن تأخر عن الميعاد تركوهُ. ورجع الضباط على ان يعودوا بالعساكر في الميعاد او قبلهُ ولكنهم لما رأوا ستنلي آتيًا بنفر قليل ورأوا الدراويش قد استكنوا في الرجاف اعتصب اكثرهم برئاسة فضل المولى وعادوا الى رأي البقاء حيث هم .

على ان سليم بك مطر كتب الى امين باشا بانهم لا يزالون مصممين على السفر وسألهُ انتظارهم فطلب امين تأجيل السفر ٣ اشهر فرفض ستنلي ذلك بتاتًا و بلغهُ ان بعض المهاجرين في المعسكر قد رغب عن السفر فصفهم صفًا واحدًا وقال من اراد البقاء هنا

فليخرج من الصف فبرز لهُ واحد فامر بسجنهِ في الحال واقرَّ الباقون على السفر وكان عددهم ٦٠٠ نفس وعدد نفوس الحملة كلها ١٥٠٠ . فلما جاء الميعاد المضروب للسفر خرج ستنلي بامين والحملة من كفالي وسار في طريق زنجبار فاصابتهُ حمى في مازمبوني فتأخر فيها الى ٨ مايو وما خرج منها حتى وصلهُ رسول من سليم بك مطر يخبرهُ بانهُ آتٍ على اثرهِ ومعهُ ٨٠٠ رجل ما عدا النساء والاولاد ويسألهُ انتظارهُ قليلاً فبعث اليهِ في الجواب « ان اسرع في السير فتدركني لاني اسير على مهل واما ان انتظرك ولو دقيقة فلا » وبقي دائباً في السير حتى وصل زنجبار في ٦ دسمبر سنة ١٨٨٩ وذهب منها الى مصر فبلاد الانكليز فكتب تاريخ رحلتهِ هذه في مجلدين

﴿ وفاة سليم بك مطر ﴾ واما سليم بك فانهُ وصل بجماعتهِ الى كفالي فحلَّ فيها الى ان اتاهُ الكبتن لوجارد من رجال الشركة الانكليزية في شرقي افريقيا فاخذهُ الى اوغنده فجند من رجالهِ من اراد التجنيد في خدمتهِ وارسل الباقي الى مصر ثلثة بعد ثلثة فوصل اولهم في ٩ يونيو سنة ١٨٩٢ وآخرهم في مارس سنة ١٩٠٣ . واما سليم بك فقد وافتهُ المنية في اوغنده وهو على اهبة السفر الى مصر

﴿ وفاة امين باشا ﴾ اما امين باشا فانهُ لم يذهب مع ستنلي الى مصر بل بقي في زنجبار فدخل في خدمة الالمان وعاد الى خط الاستواء فمرَّ بكفالي في ابريل سنة ١٨٩١ قبل سفر سليم بك منها فأحب ان يجند عسكرهُ في خدمتهِ فأبوا لعلمهم انهُ ترك الحكومة المصرية فسار في مهمتهِ الى الكونغو فاعترضهُ بعض العبيد في الطريق وقتلوهُ

ومن كانت منيتهُ بارضٍ فليس يموت في ارضٍ سواها

وبقي في خط الاستواء خصمان عنيدان عمر صالح في الرجاف وفضل المولى في الدفلاي ثم انتقل هذا الى ودلاي ودخل خدمة البلجيك فبقي حتى قتلهُ الدراويش كما سيجيء

هذا وقد اصبح التعايشي بعد فتح خط الاستواء سيد السودان المصري كلهُ من حلفا الى الرجاف شمالاً وجنوباً ومن سواكن الى وداي شرقاً وغرباً وكان قد اقمع جميع مقاوميهِ في السودان فبلغ الآن اعالي مجدهِ ثم اخذ نجم سعدهِ في الأفول الى ان دالت دولتهُ وانقضى امرهُ . وكان بدء سقوطهِ انخذالهُ في غزوة مصر كما سيجيء

الفصل التاسع
في
﴿ وقائع الحدود ودنقله وفيها غزوة النجومي لمصر سنة ٦ : ١٨٨٩ ﴾

وقائع الحدود سنة ٦ : ١٨٨٩

﴿ تخريب سكة الحديد بين حلفا وعكاشه سنة ٥ : ١٨٨٦ ﴾ تقدم لنا ذكر اخبار الحدود الى ان خرج الانكليز منها سنة ٦ : ١٨٨٧ وتركوها لحماية الجيش المصري بقيادة سرداره الهمام غرنفيل باشا . وكان على دنقله اذ ذاك عبد الرحمن النجومي يستعد لغزوة مصر . وقد ارسل مقدمة جيشه بقيادة النور الكنزي الى الحدود فوصل سرس في ٩ نوفبر سنة ١٨٨٦ . وكان محمد الخير قد خرَّب سكة الحديد بين عكاشه وسرس سنة ١٨٨٥ فخربها النور الكنزي بين سرس وعبكه في اواسط نوفبر سنة ١٨٨٦ واحتل عبكة . وكان آخر نقطة للجيش في خور موسى باشا فأخذ النور الكنزي بعض رجالهِ واقتلع بعض قضبان سكة الحديد بين خور موسى وحلفا . وكان قومندان الحدود اذ ذاك الجنرال مونتمورنسي فساق الجنود وقصدهُ الى عبكه ففر امامهُ الى جنوبي سرس ثم عاد الى سرس وخيَّم فيها

﴿ واقعة سرس في ٢٨ ابريل سنة ١٨٨٧ ﴾ فبلغ خبر عودتهِ تشرمسيد باشا قومندان حلفا في ظهر ٢٧ ابريل سنة ١٨٨٧ فجهز سرية من العساكر الطوبجية والسواري والمشاة والباشبوزق الشايقية وسار بهم ليلاً الى سرس قصد مباغتتهِ الهجوم . وما طلع فجر ٢٨ ابريل حتى كانت العساكر قد احدقت بالبلدة من الجهات الثلاث ومن الجهة الغربية النيل . وكان النور الكنزي قد عسكر في سفح تلَّة هناك وجعل رجالهُ المسلحين بالاسلحة النارية في برج على التلة بناهُ الجيش قديماً فأمر تشرمسيد الطوبجية فصوبوا القنابل نحو البرج فهدموهُ ثم امر الباشبوزق الشايقية وكانوا نحو ٧٠ رجلاً فتسلقوا التلة وقتلوا من كان في البرج . وفي اثناء ذلك هاجم النور الكنزي فأوقع الفشل في ديمهِ وقتلهُ هو ورجالهُ وكانوا يزيدون عن ٢٠٠ رجل فلم

يفلت منهم احد . واما خسارة تشرمسيد باشا فكانت ٢١ قتيلاً و٣٠ جريحاً

﴿مجيء عبد الحليم مساعد الى الحدود سنة ١٨٨٧﴾ ولما بلغ النجومي خبر هذه الكسرة ارسل الى الحدود جيشاً قوياً بقيادة عبد الحليم مساعد فبنى ديماً في فركة وارسل مقدمة جيشهِ فاحتلت سرس في ١٨ يونيو ثم لحقها بجميع الجيش في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٨٧ فاجتمع عندهُ هناك ٢٨٠٠ مقاتل فيهم ٢٠٠ فارس و١٠٠ هجان

﴿غزوة دراويش أبي حمد للكلابشة في ٢٥ فبراير سنة ١٨٨٨﴾ هذا وكان الخليفة قد جعل حامية في بوغاز أبي حمد لرصد حركات الجيش في كورسكو وعهد بها الى الحسن محمد خليفة فبلغهُ ان في شرقي الكلابشة نقطة للبوليس المصري عليها الملازم محمد فني فركب بجماعة من انصارهِ وهجم على النقطة في ٢٥ فبراير سنة ١٨٨٨ فقتل بعض البوليس واختطف الملازم وعاد بهِ الى أبي حمد ثم ارسلهُ الى أم درمان فسرَّ بهِ التعايشي سروراً عظيماً وخرج بهِ الى ساحة «العرضة» فاستعرض جيوشهُ امامهُ ثم ارسلهُ الى القلابات ليرى جيوش أبي عنجه واعادهُ الى أم درمان . وجعل السردار سنة ١٨٨٩ نقطة من العبابدة المليكاب في آبار المرات برئاسة صالح بك خليفة لتكون في صدد بوغاز أبي حمد كما سيجيء فسعى قلم المخابرات مع صالح بك فانقذ الملازم محمد فني من قلب أم درمان وأتى بهِ مصر بطريق المرات في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٢

﴿غزوة دراويش سرس لارمنَّة في ٥ ابريل سنة ١٨٨٨﴾ ولنرجع الى الدراويش في سرس فان الزاد الذي اتوا بهِ من دنقله نفد ولم يكن في بلاد سرس الاَّ الحجارة و بعض اشجار النخيل فقطعوا تلك الاشجار واكلوا جوفها و بعثوا في طلب الزاد من دنقله فأبطأ عليهم . وفي ٢٢ مارس اتاهم مدد مؤلف من ٥٠٠ مقاتل بلا زاد . وكان امر الخليفة لهم ان يبقوا محافظين على الرباط فلا يباشرون حركة عدائية حتى يصلهم النجومي بجيشهِ فلما جاعوا عصوا الامر واصبحوا كالذئاب الخاطفة يشنون الغارة على بلاد الحدود فيقتلون وينهبون ويعودون الى ديمهم في سرس . ففي ٥ ابريل سنة ١٨٨٨ غزا جماعة منهم ارمنة على ٥٠ ميلاً شمالي حلفا فانتهبوا ماشيتها وقتلوا ٣ من اهلها وعادوا الى سرس

﴿ غزوة التوفيقية في ١٩ يوليو سنة ١٨٨٨ ﴾ وفي ١٩ يوليو سنة ١٨٨٨ هجمت سرية منهم على التوفيقية وهي مدينة استحكام حلفا فانتهبتها وقتلت من اهلها وعادت الى سرس غانمة . وقد ذعر اهل التوفيقية ذعرًا شديدًا عند رؤية الدراويش فرموا بأنفسهم الى النيل وكان عند شاطئهِ ٢٠ مركبًا فنزلوا فيها وعبروا الى جزيرة تجاه البلدة فغرق ثلاثة مراكب فيها ١٣٧ نفسًا . وما وصل خبر الدراويش الى حامية حلفا حتى كانوا قد ابعدوا جنوبًا فركب بعض السواري والهجانة في اثرهم فلم يدركوهم

﴿ مهاجمة طابية خورموسى في ٢٩ اوغسطوس سنة ١٨٨٩ ﴾ وهذا النصر الذي نالهُ الدراويش عند انف الاستحكام جرأهم على مهاجمة الاستحكام نفسهِ ففي ٢٩ اوغسطوس سنة ١٨٨٨ خرج ٥٠٠ رجل منهم بقيادة عبد الحفيظ وهجموا على طابية خورموسى قصد اخذها فقتلوا الخفير على الباب فاستيقظ وكيل الخفراء وفتح الباب مذعورًا ليعلم ما الخبر فقتلوهُ هو ومن معهُ من الخفراء ودخلوا الطابية نصف الليل . وكان فيها بلوكان من الاورطة السابعة المصرية و بلوك من الهجانة عليهم البكباشي عبد الغني فؤاد قومندانًا فبعث عبد الغني رسالة تليفونية الى ود هوس باشا قومندان العساكر في حلفا فارسل في الحال وابورًا حربيًا في النيل ونفرًا من العساكر في سكة الحديد بقيادة ماتشل بك . وكان الدراويش قد احتلوا الجهة الجنوبية من الطابية وتجمع لهم العساكر مع القومندان في الجهة الشمالية فاخذ الوابور يرمي قنابلهُ على الجهة التي فيها الدراويش الى ان وصل ماتشل بك فاحاط جمهم بمعظم العساكر واتى بالباقين الى باب الطابية ففتح عليهم نارًا دائمة فذعروا وتسلقوا الجدران قصد الفرار فتلقاهم العساكر الذين كانوا متربصين لهم خارج الطابية ودخل ماتشل الطابية فنقاها منهم . وكانت خسارتهم في تلك الليلة ٨٥ قتيلاً وكثير من الجرحى . واما خسارة الجيش فكانت ١٩ قتيلاً و ٢٤ جريحًا

﴿ غزوة صحابة وارجين في ١٥ ابريل سنة ١٨٨٩ ﴾ وبقي الدراويش في سرس مدة بعد هذه الكسرة لا يحركون ساكنًا حتى عاد النجومي من ام درمان على نية غزو مصر فجددوا الهمة وكان لهم نقطة امامية في عبكة ونقطة تجاهها في معتوقة

فلما كان يوم ١٥ ابريل خرج جماعة عبكة على صحابة على ٦ اميال شمال حلفا وجماعة معتوقة على ارجين تجاه صحابة فانتهبوا ماشية البلدتين وعادوا قبل ان تدركهم العساكر

﴿ غزوة دبيرة في ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٩ ﴾ وفي ٢٩ من الشهر المذكور خرج جماعة منهم ليلاً قاصدين دبيرة على نحو ١١ ميلاً شمالي حلفا وكان الجيش قد اخرج الوابورات في النيل لحماية البلاد شرقاً وغرباً بين حلفا وكورسكو فعلم بهم البكباشي دنن قومندان احد الوابورات فاسرع لنجدة البلدة ولكن الدراويش كانوا قد دخلوها قبل وصوله فاختطفوا ما استطاعوا من الماشية والامتعة وساقوا بعض الاهالي اسرى وانقلبوا راجعين فاسرع البكباشي دنن الى حلفا واخبر ود هوس باشا بما كان فأصدر امرهُ في الحال الى هكمن بك فخرج بمئة فارس وكمن لهم في طريقهم الى سرس على ٣ اميال من حلفا . وفي فجر ٣٠ ابريل اطل الغزاة وكانوا نحو ٥٠ رجلاً وقد ركب بعضهم الابل وبعضهم الخيل والباقون مشاة وهم يسوقون امامهم الماشية والاسرى فأغار عليهم هكمن ورجالهُ حتى صاروا على ٣٠٠ يرد منهم فنزلوا عن خيولهم واصلوهم ناراً حامية ثم ركبوا خيولهم واقتحموهم ودخلوا بينهم واعملوا فيهم السيف وقد صالوا عليهم حتى كانوا يلتقطون حرابهم من الارض ويطعنونهم بها . وهجم اميرهم ود رحمة على باشجاويش من السواري يدعى حسن محمد الفقي (الآن يوزباشي) فطعنهُ بحربة في جنبهِ فاخرج حسن الحربة من جنبهِ وانشبها في صدر ضاربهِ فصرعهُ وبلغ ود هوس خبرهُ فاوصى بهِ فرقي الى رتبة ضابط . وقد اظهر الفرسان المصريون في هذه الوقعة خبرة تامة في استعمال الحراب فادخل السردار المزراق في سلاح السواري من ذلك العهد فجعل نصفهم بالسيوف والنصف الآخر بالمزاريق . ولم يفلت من الدراويش في هذه الوقعة الا طويل الاجل وقد اسر العساكر منهم ثمانية رجال وانقذوا اسرى دبيرة وعادوا الى حلفا مكللين بالظفر

﴿ غزوة سرّا الغرب في ٩ مايو سنة ١٨٨٩ ﴾ ومع ذلك لم يكف الدراويش عن التعدي والغزو ففي ٩ مايو سنة ١٨٨٩ خرج عبد الحفيظ شمّت بنحو ٦٠٠ رجل وهجم سرّا الغرب فقتل واسر وغنم ولكن علم بهِ ود هوس فانجد البلدة وانقذ الاسرى

﴿ وقوع النزاع بين النجومي وقيدوم ﴾ تقدم ان التعايشي ارسل مساعد قيدوم من اهله ليكون وكيلاً للنجومي في الظاهر ورقيباً عليهِ في الباطن فنازعهُ السلطة ولم يسمح لهُ ان يقطع امرًا الا بمشورتهِ فعظم ذلك على اعز ابكار المهدي وفاتح الدائر والخرطوم وقائد السرية المصرية فاستأذن الخليفة وخرج من دنقلة الخميس في ٢٢ مارس سنة ١٨٨٨ فاتى ام درمان وبسط شكواهُ من قيدوم فتصامّ الخليفة عن سماعها وحبس النجومي عندهُ مدة قصد تذليلهِ وتعويدهِ على الرضى بالحال التي يرضاها لهُ

حكى لي من اثق بصدقهِ : ان الخليفة التفت الى النجومي في بعض جلساتهِ في الجامع وقال انت يا ولد النجومي « اسمك هيّن لكن هوّين » اي اسمك كبير ولكن فعلك صغير وكرر ذلك مرارًا ثم التفت الى الهادي دفع الله من كبار الحلاويين وقضاة الفتح الاول وقال : « يا الهادي اذا كان الرئيس هوين ولكن مو هين اما يضر الجيش فقال الهادي : في المثل السائر يا مولاي « ان الف ثعلب يقودهم اسد خير من الف اسد يقودهم ثعلب » فضحك الخليفة حتى استلقى على قفاهُ وقرب الهادي فجعلهُ قاضياً من قضاتهِ فاغتاظ النجومي من ابتذالهِ امام الجمهور وقال لاصحابهِ لا خير في العيش بعد هذا فاذا لقيت العدو رميت بنفسي في نحرهِ ومت موت الشهداء . ثم اذن لهُ الخليفة فرجع الى دنقلة فوصلها الاثنين في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٨ ورجع الى النزاع مع قيدوم فكتب قيدوم يشكوهُ الى الخليفة بما نصهُ :

« ... وبالتفحص في حالهِ وجدنا ان المذاكرات التي سمعها من جنابكم شفاهياً ما اثرت فيهِ ولا هو راضٍ بما في الاوامر الرسمية المحررة اليهِ بل ازداد من جهتنا بغضاً ولا زال منطوياً على غير المطلوب وعلى قدر ما سعينا في الطريقة التي تحبب اليهِ الجيش فهو لا يزال صادًّا عنها ونيتهُ بخلاف نيتنا فان كانت السيادة مؤملة فيهِ نصرة الدين والقيام باحوال الجيش فلا نرى لذلك سبيلاً لعدم عملهِ بشروط النصرة وواجباتها وعدم صفاء نيتهِ . وقد تداولنا معهُ قريباً في مصالح الدين فقلنا لهُ في عرض الكلام انت رئيس الجيش فاعرض عن هذه الكلمة وقال ان رئاستي ليست

برئاسة بل هي عملية وهو لا يزال متضجراً ويتلفظ برغبتهِ في الرجوع ... وهذه الحالة لا تحصل بها راحة ولايمكننا السكوت عليها فلزم رفعها لجنابكم المعلومية سنة ١٣٠٦»

﴿ تسمية يونس الدكيم عاملاً على دنقله ﴾ فأرسل الخليفة ثلاثة امناء وهم ابرهيم الحاج ومكي ابو حراز والهادي دفع الله فنظروا في الخلاف بين النجومي وقيدوم ورفعوا تقريرهم اليهِ فاستدعى قيدوم الى ام درمان وارسل يونس الدكيم المار ذكرهُ عاملاً على دنقله وامر النجومي بطاعتهِ

غزوة النجومي لمصر سنة ١٨٨٩

وكان التعايشي قد استراح من المشاغل الداخلية واستتب لهُ الامر على حدود الحبشة ودارفور وخط الاستواء فباشر الآن ما طالما جاهر بهِ من غزو مصر بدهاء عجيب فانهُ امر النجومي فسلم جميع الجهادية والاسلحة والذخائر الى يونس الدكيم ولم يبق مع النجومي الا الجيوش والامراء الذين لا يأمن جانبهم أو لا يهمهُ عاشوا أو ماتوا وبقي يونس في دنقله بجيش قوي بحجة المحافظة على دنقله ونجدة النجومي عند الاقتضاء متوقعاً للنتيجة حتى اذا فاز النجومي لحقهُ وانتفع بنصره والا بقي بالجيش المصفى في دنقله

وكان الخليفة قد كتب الى مشايخ العبابدة وبعض اهالي الصعيد للخروج عن طاعة الترك والقيام معهُ للجهاد تمهيداً لجيوشهِ الزاحفة لغزو مصر. ومما كتبهُ بتاريخ ٢٥ محرم سنة ١٣٠٦ هـ ١ اوكتوبر سنة ١٨٨٨ م الى بشير مصطفى ابي جبران :

«... وبعلمك ان المهدية قد اتسعت دائرتها وشاع في بلاد الله امرها وقد التفتت الآن لفتح الجهات البحرية والشروع في توجيه الجيوش اليها بعون رب البرية ولا بد من وصولها لجهاتكم عن قريب فيلزم ايها المكرم ان تكون في غاية الاهبة والاستعداد والتحزب لجهاد اعداء رب العباد فانا بالنظر لما بلغنا عنك من علو الهمة وتصديق المهدي عليهِ السلام اخترناك ان تكون عاملاً من طرفنا على اهاليك العشاباب وجميع من تبعهم وحررنا لك هذا بالعمالة عليهم وامرنا المكرم محمد بحر كرار بموازرتك على ذلك ومساعدتك على تنفيذ اشارتنا والقيام بأمرنا في

تأيد الدين وجهاد الكافرين فيلزم اول وصول كتابنا هذا اليك ان تنبه على اهاليك كافة بالتحزب والاستعداد لجهاد اعداء رب العباد بحيث اول ما يبلغكم قدوم الجيوش من دنقله الى جهات حلفا تنفصلون عن اعداء الله وتأخذون في شن الغارة عليهم وقطع طرق المواصلات عنهم ومناجزتهم الحرب والانحياز الى جيش المهدية ...»

وكتب الى اهل دنقله يستنفرهم الى الجهاد فضرب على كل ساقية رجلاً نشيطاً يقوم مع النجومي لغزو مصره وكتب الى محمد الخير في بربر وعلي ود سعد في المتمة ان يجمعا الجيوش بمثل هذه الضريبة ويلحقا بود النجومي

فخرج النجومي من دنقله في ٣ رمضان سنة ١٣٠٦ﻫ ٣ مايو سنة ١٨٨٩م بجيش مؤلف من ٤٠٠٠ مقاتل و ٧٠٠٠ من النساء والاولاد من اخلاط الجعليين والدناقلة والبطاحين والفلاته والمولدين والبقارة ومعهم نحو ٣٠٠ بندقية و ١٠ مدافع و ٣٠٠ جواد و ٥٥٠ جمل و ٣٠٠٠ حماره وكان قد جمع لهم الغلال والتمر في الكرمة فوزعها عليهم للرجل الواحد ٣ قراريط ذرة و ٣ قراريط شعيرًا و ٣ قراريط تمرًا وللامير اردب واحد من كل صنف . وسار بالبر الغربي مع علمه بأفضلية البر الشرقي ليتجنب حصون الجيش . وقد اكتسح بلاد المحس وسكوت وساق اهلها كرهاً امامهُ لحمل اثقالهِ وسار ببطء حتى وصل سرس بمقدمة جيشهِ في ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٩ . وكان قد كتب الى عبد الحليم مساعد فاستقبلهُ غربي سرس ومعهُ من الانصار ١٢٠٠ مقاتل و ١٠٠٠ من النساء والاولاد معهم ٣٠٠ بندقية و ٤ مدافع و ٥٠ حصان و ٥٠ جمل

وزحف النجومي بالجيش كلهِ على معتوقة فوصلها في ٢٨ يونيو فاخذ بعض الامراء وصعد على حجر ابي صير فكشف منهُ حلفا وحصونها ثم عاد الى المعسكر وهناك قسم جيشهُ الى ثلاثة اركان : الركن الاول الجعليين والبطاحين وعليهم ابن اخيهِ احمد بشير . والركن الثاني الدناقلة والمولدون وعليهم عثمان ازرق . والركن الثالث البقارة من حمر وهبانية واولاد حميد وسيرية وعليهم اسماعيل عبد الجايد من اولاد حميد . وجعل عبد الحليم مساعد وكيلاً لهُ في الجيش

﴿ واقعة ارجين في ٢ يوليو ١٨٨٩﴾ وفي ظهر الاثنين في ١ يوليو تقدم بالجيش

طالباً ارجين شمالي حلفا بقصد الاستقاء منها فاحتل التلال المطلة عليها ضحوة ٢ يوليو

وكان ود هوس باشا عالماً بجميع تحركاته ومستعداً لملاقاته وقد امر اهل العدوة الغربية من حلفا الى توماس على نحو ٧٠ ميلاً شمالي حلفا فقطعوا ثم نخيلهم واخلوا منازلهم وعبروا الى العدوة الشرقية و بقي في حلفا يرقب حركاته فلما علم بخروجه من معتوقة اسرع الى ارجين فحصنها . اما ارجين فهي بلدة مستطيلة تمتد على النيل نحو اربعة اميال في وسط غابة من النخيل في طرفها الجنوبي طابية صغيرة على نحو ٣ اميال من حلفا وفي طرفها الشمالي بيت العمدة فحصن ود هوس البيت والطابية وجعل اورطة من العساكر في مجموع من المنازل وسط البلدة وحصن طابية اشكات تجاه بيت العمدة وبقي هو مع بقية عساكر حلفا في اربع وابورات حربية وهي المتمة وابو طليح والتيب وتماي لنجدة النقطة التي يقع فيها القتال فاجتمع عندهُ من العساكر في ارجين عدا اركان حربه ١٩٤٢ عسكرياً منهم ١٦٠ من السواري و٥٠ من الطوبجية معهم ٨ مدافع كروب و ١٣٠ من الهجانة والاورط السودانية التاسعة والعاشرة والحادية عشرة و٢٣٢ رجلاً من القسم الطبي . وكانت تلال ارجين التي نزل بها النجومي على ٥٠٠٠ يرد من النيل اي ضمن دائرة مرمى القنابل فلما اطل النجومي امر ود هوس طوبجيتهُ فرموهُ بالقنابل من الشرق والغرب والوابورات وكان جيش النجومي في اشد العطش فرأى انهُ لايتسنى لهُ الوصول الى الماء الابالقوة فأمر وكيلهُ عبد الحليم مساعد فأخذ ركن احمد البشير وفيهِ نحو ٣٠٠٠ مقاتل ومدفعاً واحداً وسار في خور متصل بالنيل تحت القنابل والرصاص حتى ورد الماء بين الطابية الجنوبية والاورطة التي في وسط البلدة ونصب المدفع في محل مرتفع فأسرع ود هوس وانجد الطابية والاورطة التي في وسط البلدة وحتم على العساكر طرد الدراويش من النيل فصبوا عليهم الرصاص والقنابل من كل الجهات ثم هاجموهم في مراكزهم فدافعوا عن انفسهم دفاع الابطال ودام القتال من الضحى الى قرب الغروب فكان النصر للعساكر والهزيمة للدراويش وقد قتل من الدراويش نحو ٩٠٠ رجل وأسر ٥٠٠ وجرح من امرائهم عبد الحليم مساعد وعثمان ازرق واصابت النجومي شظايا قنبلة وهو على

التلال البعيدة فجرحتهُ في فخذهِ وغنم الجيش مدفعهم واسر نحو ٥٠٠ نفس من النساء والاولاد . واما خسارة الجيش فكانت ١١ قتيلاً و ٥٩ جريحاً . وقد كان بين قتلى الدراويش من الامراء ٢٥ وفيهم شيخ ادريس ود الهاشمي الجعلي . قيل انهُ قال لاصحابهِ قبل الهجوم « هيا بنا نموت قبل ان نجقّت » اي نضعف ونهزل جوعاً

وبات النجومي ليلتهُ على تلال ارجين فعقد في تلك الليلة مجلساً من الامراء فقال عبد الحليم الرأي ان نرجع الى بلاد المحس الى ان يأتينا الزاد والنجدة من الجنوب لاننا عدمنا القوت والماء والطريق امامنا مفازة قاحلة معطشة والجيش يطاردنا فيمنعنا ورود الماء وجلب القوت . فقال النجومي لا والله لا ارجعنَّ الى الوراء الاّ محمولاً على الاكتاف فاذا عطشنا او جعنا فانما نحن في جهاد فلنتدرع بالصبر والثبات حتى نفوز بالنصر او بالشهادة قال ذلك وهزَّ سيفهُ فوق رأسهِ فتحمس الامراء في المجلس وهزوا سيوفهم فوق رؤوسهم وانحازوا الى رأيهِ . وفي صباح الخميس في ٤ يوليو سنة ١٨٨٩ نهض من التلال واوغل في طريق الصحراء حتى تجاوز مرمى القنابل واستطرد السير شمالاً ولم يكن مع ود هوس ما يكفي من العساكر لمهاجمتهِ في الصحراء فسار بحذائهِ في الوابورات بقصد منعهِ ورود الماء . ومع ذلك فقد فرض النجومي على اصحابهِ النزول الى الماء متناوبين فكل ليلة ينزل جماعة منهم الى النيل خلسة في الظلام فيحملون منهُ كفاية الجيش كلهِ يوماً واحداً . وما زال كذلك حتى اتى البلينة جنوبي هيكل أبي سمبل فاتخذ تلالاً على نحو ميلين منها و ٣٠٠٠ يرد من النيل وأقام فيها ينتظر علي ود سعد الجعلي ومكين النور العركي اللذين كانا يتبعانهُ . فعسكر ود هوس قبالتهُ في البلينة

وأرسل الخليفة الى النجومي رسلاً هجانة مخصوصين ليطلعوا على حالهِ ويعودوا اليهِ بالخبر اليقين وأرسل معهم كتاباً يوصيهُ هو وامراءهُ بالتيقظ وعدم الغفلة من الاعداء والاخذ بالحزم والعزم والاتحاد الى أن يأتيهم عاملهم يونس الدكيم . فكتب اليهِ النجومي عما جرى لهُ منذ خرج من معتوقة وما لاقاهُ هو وقومهُ من المشاق والمحن في الطريق . ومما قالهُ لهُ بعد ذكر واقعة ارجين واسماء الامراء الذين قتلوا فيها :

« سيدي وملاذي بعد اهداء مزيد السلام نرفع الى مكارمكم عن احوالنا واحوال

الانصار الذين معنا انهُ قد مسهم الضرر الشديد الذي ما عليهِ من مزيد واشتد بهم الحال وضاق الامر جداً فان الجوع الحالّ بهم اضناهم وأذهب قواهم فورّم اجسامهم وغيّر أحوالهم لانهم قبل دخول بلد العدو كان قوتهم التمر الاخضر المرّ ونواهُ واقطع عنهم من مدة ولطول الطريق وكثرة المشقة ضعفوا فدخلوا البلد على حالة ضعيفة. ولشدة الضرر جلسوا جميعهم على الارض وكثيرون منهم ماتوا جوعاً . وأما ضعفآء اليقين منهم فلعدم صبرهم على البأسآء والضرآء رغبوا في الاعدآء. والجهادية والعبيد والخدم لحقوا ايضاً بالاعدآء. وارتدوا عن الدين ولم يبق منهم الاّ النادر. ثم ان الجهادية الذين ارسلوا معنا طوبجية للمدافع من طرف سيدي يونس كانوا خمسة وثلاثين الجميع رغبوا في الكفرة وهربوا اليهم ولم يبق معنا منهم الاّ ثلاثة. وكذلك من سرس انضم الينا نحو سبعين من الجهادية والجميع دخلوا القياقر ما عدا ستة وما دعاهم لذلك الا تراكم الضرر والاضطرار الذي الجأ الناس كافة الى اكل ما لا يذكر من الحيوانات وغيرها ولم يبق معنا من الانصار الا من تداركهُ الله بلطفهِ وصبر على البلايا والاختبار ولهُ جلد على ذلك ولولا لطف الله بنا وجميل نظركم لما قدرنا على الوصول الى بلاجه (البلينة) . والحاصل ان الانصار تعبوا وضاق بهم الحال وعظم الخطب وطالما صبروا على ذلك لانهم من عهد ما « صرفوا » بدنقله لم يجدوا « صرفاً » اصلاً ولم يكن معنا ما نعطيهم لسد رمقهم وحفظ انفسهم وارجو الله بجاهكم سيدي ان يتولاهم ويصلح شأنهم ويأتيهم بالفتح من عندهِ . وكذلك الجمال التي كانت عندهم وجمال الجبخانة والخيول والحمير ماتت من شدة المحل وطول السفر ولم يبقَ منها الا النادر. وان الخيل الموجودة بالجيش فهي مايتان بالكشف المعروض لسيدي يونس الدكيم في تعداد الجيش مع انها كلها هزيلة ولا تقدر على كرّ أو فرّ . والخيل القوية منها لا تزيد على الخمسة عشر حصاناً ولذلك فان خيل الكفرة دائماً تبدو بنواحي الديم وليس عندنا خيل قوية لمطاردتها غير الخمسة عشر المذكورة . وان جبخانة الرمنتون التي معنا جميعها وزعت على اهل السلاح لعدم القدرة على مشالها دفعة واحدة وكذلك جبخانة المدافع وزعت على الانصار جلّة جلّة خرطوش خرطوش لموت جمالها

كافة وان من المدافع مدفعاً جرهُ الانصار اولاد العرب على اعناقهم الى مكان بعيد لعدم وجود جمل يحملهُ ٭ وكذلك بعض الجبخانة والمدافع التي كانت بسرس تركت بجهاتها لعدم وجود الجمال • وجميع الانصار كبيرهم وصغيرهم ذكرهم واناثهم ماشون على ارجلهم حاملون على رؤوسهم كما شاهد ذلك الاخوان المجانة الذين اتوا من سيادتكم

حاشية • انهُ لشدة الضرر الحاصل على الانصار فلو صار قيامنا من المرحلة الاولى فلا يمكن جد السير وقطع مسافة الى مرحلة اخرى بل تنزل بالقرب منها برأي العين ولا يتلاحق الناس الآ الى الغروب لعدم القدرة على المشي • ولو صار قيامنا من هذه المرحلة فالمدافع لا يمكن حملها معنا بحال مطلقاً • وقد نوينا انهُ لو قمنا ندفنها بالخلاء ونأخذ واحدة منها فقط حتى ينصر الله دينهُ • وجميع الملازمين الذين معنا ليلة تاريخهِ لحقوا بالاعداء حتى حامل ركوتنا وما بقي منهم معنا الا نحو ثلاثة او اربعة ...

اما أهل الريف من معتوقة الى بلاجة التي وصلنا اليها فكلهم قاموا في عون الكفرة وحزَّبوهم كل التحزب ومن عهد دخولنا ديارهم الى الآن لم يأتنا منهم وارد ولا معرج ولا راغب في الدين ولا من يريد تجارة بل الجميع حملوا الاسلحة النارية وحاربونا اشد المحاربة وما من قرية من قراهم التي بشاطئ البحر الغربي الا رأينا اهلها قد قطعوا اثقالهم بالشرق او ادخلوها الجزائر وتركوا القرية خالية لتكون حصناً لهم وللكفرة لحرب الانصار • وتبين ان جميع الجهات التي مر الجيش بها من ارض الريف اهلها اعداء وعصاة بل الذين لم نصل جهتهم الى الآن فالمتراءي من حالهم انهم كذلك لاننا ناهزنا الوصول الى بلدهم ولو كانوا راغبين لاتونا فان المكان ليس ببعيد ٭ اما بوابير الكفرة فما زالت سائرة معنا بالبحر تبيت معنا حيث بتنا وتقيل حيث قلنا وعساكرهم ماشية بالشرق في خيل وجمال لمنع الانصار ماء البحر ولم يمكن شرب الماء الا بقتال ومضاربة واستشهاد وجراحات وجزى الله الانصار خيراً وبارك فيهم فانهم ما زالوا مطمئنين على حالهم وثابتين على محاربة عدوهم لا ينتظرون الا النصر والظفر بالاعداء أو الفوز بالشهادة ٭ ولقد وصلهم المنشور الكريم الصادر من لدنكم لهم بالمذاكرة والمداولة والتذكير بالله و بأيام الله فتلقوهُ بقلوب صادقة ونيات صافية والزموا انفسهم القيام بذلك

حتى القيام وزادوا به نشاطاً في الدين وعلو همة لكفاح القوم الكافرين ٭ ولقد رفعنا لسيدي يونس الدكيم ما جرى من هذه الوقائع بالتفصيل ولم نزل نرفع اليه ما يتجدد من الاخبار شيئاً فشيئاً حسب الاشارة ٠٠٠ في ١٢ القعدة سنة ١٨٠٦ هـ » اه ١٠ يوليو سنة ١٨٨٩

﴿ مجيء السردار الى البلينة وكتابهُ الى النجومي ﴾ هذا وكان السردار غرنفيل باشا يدير حركات جيش الحدود تلغرافياً من مصر ويحشد الجيوش الى اصوان ٠ فلما كان ٥ يوليو سنة ١٨٨٩ خرج باركان حربهِ وأتى معسكر ود هوس في البلينة في ١٥ من الشهر المذكور فعلم من الفارين سوء الحالة التي صار اليها النجومي وجيشهُ فأرسل اليهِ ثاني يوم وصولهِ كتاباً مع رسولين يدعوهُ فيهِ الى التسليم بما نصهُ :

« ما على الرسول الاّ البلاغ ٭ وبعد فاني اكتب اليك هذا يا ولد النجومي لاعلمك ان قائدي الباسل ود هوس باشا اخبرني بتهجمك على الحدود فجئت لارى بعيني الحالة الراهنة وعلى اثري الوف من العساكر الانكليزية والمصرية ٭ وقد بلغني انتهابك لممتلكات الناس المساكين الذين لا طاقة لهم بالدفاع عن انفسهم واخذك نساءهم واولادهم وتخريبك بلاداً كانت بالامس عامرة مطمئنة ٠ وكنت قد صممت على سحقك ومحو اثرك واثر انصارك عن وجه البسيطة بلا انذار ولكن عند مجيئي الى هنا وجدت انكم قوم مستضعفون مساكين تموتون جوعاً وعطشاً ٠ وانا عالم سوء حالك انت وعالم انك فريسة لغيرة ذلك الخليفة الكذاب الذي جعل ابن عمهِ يونس عاملاً في مكانك وجعلك تحت طاعتهِ وارسلك انت والاعراب الذين يخشى شرهم بحجة فتح مصر وهو انما يريد هلاككم فانهُ يعلم ان الذي أرسلكم اليهِ لمستحيل عليكم بل انتم أيضاً تعلمون ذلك ولكنكم لعماوة قلوبكم تظنون ان طاعة ذلك الكذاب واجبة ٠ ولقد رأيتم الآن خيبة مسعاكم وسوء مصيركم ٭ وانتم فيما نعلم طالبون بمبان وتظنون ان اهلها ينصرونكم فاعلموا ان بمبان تبعد عنكم مئات من الاميال وتفصلكم عنها مفازة طويلة لاماء فيها ٠ بل هب انكم وصلتم اليها فانكم تلاقون فيها جيوشاً انكليزية ومصرية متعطشة لشرب دماء الاعداء ٠ وعليهِ فاذا تقدمت الى الامام فأنت هالك لا محالة واذا رجعت الى الوراء فان جيوش حلفا واقفة لك بالمرصاد ٠ واذا بقيت حيث

انت مت جوعاً وعطشاً فاصبحت كالطائر في القفص لا منفذ لك ولا معين . لذلك ولما كانت حكومتنا السنية مجبولة على حب الشفقة والانسانية ولا تريد قتل النفوس ولا سيما النساء والاولاد فقد جئتك بهذا ادعوك الى التسليم فاذا سلّمت سلمت انت ومن معك من الامراء والاعوان . واعلم انك تأخذ هذا الوعد من جنرال انكليزي . واما اذا ابيت التسليم فليس امامك الا الهلاك كما بيّنا لك . فاختر ارشدك الله الى الصواب احدى الطريقين واني في انتظار الجواب على كتابي هذا مع رافعيهِ والسلام »

فاجابهُ النجومي في اليوم التالي بكتاب هذا نصهُ بعد البسملة :

« وبعد فمن عبد ربهِ المعتصم بمولاهُ عبدالرحمن النجومي الى السردار غرنفيل باشا هداهُ الله الى الصراط المستقيم . سلام على من اتبع الهدى وخاف مقام ربهِ ونهى النفس عن الهوى . ثم نعلمك ان جوابك المرسل منك باعلامنا بحضورك وما جئت لاجلهِ وصلنا ولآخر ما ذكرتهُ فيهِ وزعمتهُ من الاقاويل التي لا طائل تحتها قد عُلم لدينا وتقول لك انا ما بعثنا من طرف السيادة الا لدعاية الناس والمسلمين وادخالهم في سور الرحمة والهداية اجمعين . وليس حضورنا الى مصر فقط كما تقول ولسنا نقصدها بالذات بل المقصود بالذات الوصول الى جميع البلاد وادخال اهلها في الدين بمعونة الله رب العباد فمن صدق وآمن واتبع وسلم الامر لله تعالى ورسولهِ (صلعم) ومهديهِ « عم » وخليفتهِ عليهِ الرضوان وسلم جميع ما كان معهُ من الاسلحة والجباخين امّناهُ على نفسهِ ومالهِ وولدهِ لهُ ما لنا وعليهِ ما علينا ومن خالف واتبع نفسهُ وهواهُ وابى الا جماحاً فالسيف حتى يحكم الله بيننا وبينهُ وهو احكم الحاكمين ۞ هذا واعلم ان جوابك المذكور وغيرهُ من الاجوبة الواردة منك الى الاخوان الثلاثة ارسلت الى سيدي يونس مع احد الرسولين عبد الهادي ومنهُ الى سيدنا ووسيلتنا الى الله خليفة المهدي « عم » للاطلاع عليها وحضور الردّ لكم من لدنهِ بما فيهِ الكفاية ولو كنا مأمورين بردّ امثالها لكتبنا اليكم من ذلك ما فيهِ المقنع ۞ اما ما ذكرتهُ من كثرة عساكرك وقرب وصولها الخ فذلك لا يهولنا ولا يخيفنا بل لا نخشى احدًا الا الله تعالى ولو الثقلين الانس والجن فلقد كنا قبل هذا متربصين بكم وقائمين على

جهادكم وشن الغـارة عليكم وبما ان الله تعالى اخرجنا من ظلمات موالاتكم وقربكم فاعلم انا باقون على قتالكم وجهادكم واستئصالكم حتى لا ندع على وجه الارض منكم داعياً ولا مجيباً او يفوز بالشهادة من يفوز ويلاقي الله تعالى. فتحقق ذلك ولا تغترّ بعساكرك ومدافعك وسواريخك وكثرة بارودك العارية عن معونة الله تعـالى وفيما سبق من اهلاك رجالكم ورؤساء دولتكم كهكس وغوردن واشباههم مع كثرة جنودهم وعدّتهم وعددهم كفاية فان اسلمت وسلّمت جميع المدافع والجبخانات والاسلحة سلمت وعليك امان الله ورسوله (صلعم) ومهديهِ « عم » وخليفتهِ عليهِ الرضوان والا فهذا حجة عليك وذنبك وذنب من معك مطوق في ذمتك. اما رسولكم الآخر فضل المولى فهو عائد لكم بهذا والسلام على من اتبع الهدى القعدة ١٣٠٦ اه يوليو ١٨٨٩

وارسل النجومي الرسول الآخر الى يونس والخليفة كما قال ومعهُ الكتب التي ارسلها اليهِ السردار وصورة جوابهُ هذا . فكتب الخليفة اليهِ بهذا الشأن ما نصهُ :

« وبعد فمن عبد ربهِ خليفة المهدي عليهِ السلام الخليفة عبد الله ابن محمد خليفة الصديق الى المكرم عبد الرحمن النجومي كان الله لهُ وتولاهُ وحفظهُ ورعاهُ آمين . بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاتهُ نعلمك ايها المكرم ان المحررات التي وردت من عدو الله جرنفل برسمكم قد وصلت لطرفنا من المكرم يونس الدكيم ومعها المحررات منكم لهُ بأحوالكم واحوال من معكم وما بالجميع فهم . والحال ايها المكرم ان ما حررتهُ لعدو الله المذكور ردًّا لما ورد منهُ قد وافق فجزاك الله تعالى خيرًا وكفاك همًّا وضيرًا وبارك فيك وحمد مساعيك وهكذا شأن من يكون بمثابتك من رجال الدين الذين بايعوا الله ورسولهُ ومهديهُ وبايعونا . وقد اطلعنا على محررات جرنفـل الخبيثة وما ذكرهُ فيها من الامور التي سوّلها لهُ الشيطان وحملهُ عليها ظنهُ الفاسد مؤملاً ما ليس لهُ اليهِ سبيل ولم يعلم قاتلهُ الله ان اصحاب المهدي « عم » لا يلتفتون الى مثل هذه الاباطيل ولا ينخدعوا بأقوال الكافرين . وقد علمنا من محرراتهِ ان الذي حملهُ على ما قالهُ هو محض الخوف الشديد فانهُ لما كان بجهة سواكن وحصلت المضايقة الشديدة من الانصار على اهل القيقر حرّر مكاتبات مثل هذه الى المكرم عثمان دقنه ولما رفعها

المذكور الينا امرناهُ بعدم الرد عليها وصرف النظر عنها ولما علم ان الانصار لا يلتفتون الى قوله ولا يردون لهُ جوابًا كفّ عن المخاطبات وخيب الله سعيهُ . فالآن بما انهُ حضر الى جهتكم وابتدأكم بالمحررات فاعلم ان قصدهُ ادخال الغفلة عليكم . والرسل الذين يأتون منهُ بالمكاتبات انما هم طلائع يكشفون اخباركم ويعرفونهُ بما انتم عليهِ فلا يجد عدو الله فيكم مدخلاً ولا غفلة بمحرّراتهِ الفاسدة فانهُ قد علم بهزمكم لعساكرهِ مرارًا عديدة ودخولكم ارض الريف على رغم انفهِ ولحقهُ من ذلك الفزع الشديد فأراد ان يوقع في قلوبكم اقاويلهُ الكاذبة ومعتقداتهِ الفاسدة فلا تقبلوا لهُ قولاً ولا يبلغهُ من جهتكم ادنى وهن أو ضعف . ومن الآن فصاعدًا اذا ارسل اليكم جوابًا ورأيتم استصواب رده فحرّروا لهُ على ظهر ظرفهِ بأن جوابك وصل وها هو عائد اليك ولا رغبة لنا في نظره وسماعهِ ما لم توف بالله ورسولهِ وتصدق المهدي «عم» وتسمع اشارة خليفتهِ وانا لسنا بمأذونين في مجاوبتك والا فان رأيتم عدم رجوع رسولهِ فأحرقوا جوابهُ بالنار ولا تجيبوهُ بشيء . وجزاكم الله تعالى خيرًا حيث تفطنتم لاقوالهِ وحررتم لهُ ما يغيظهُ فلا تشتغلوا معهُ بمكاتبات ولا يطلع احد من الاصحاب على محاراتهِ فان الاقوال الفاحشة فيها كثيرة وسماعها لا خير فيهِ لانهُ مضر وعليهِ ظلمة الكفر وما زلتم فعاملوهُ بما يغيظهُ من عدم رد محرراتهِ فان ذلك أليق بحالهِ لانهُ كافر بالله ورسولهِ وآيس من رحمة الله والسلام في ٢ الحجة ١٣٠٦ هـ » اه ٣٠ يوليو سنة ١٨٨٩م

هذا وكان السردار لما رأى عناد النجومي واصرارهُ على الحرب أخذ يهتمّ لصدّهِ عن التقدم شمالاً والتنكيل بهِ فرجع الى اصوان وشرع في حشد الجيوش الى طوشكي . وفي ٢٢ يوليو فرّ الى معسكر ود هوس باشا كاتب عبد الحليم المدعو حسن حبشي من كتاب الفتح الاول فاخبر ود هوس بعدد جيش النجومي وما عليهِ من سوء الحال وانهُ احصاهُ بنفسهِ قبل فرارهِ فكان ٢٨٢١ مقاتل معهم ٣٠٩ بنادق و١٣٢ جوادًا و٢٠٠ جمل و٤٠٠٠ من النساء والاولاد . وفي ٢٥ من الشهر المذكور وصل علي ود سعد ومكين النور اللذان كان النجومي في انتظارهما ومعهما نحو ٥٠٠ مقاتل و٣٠٠ بندقية . وبعد وصولهما بثلاثة ايام خرج النجومي بجيشهِ مستطردًا السير

شمالاً • وعند خروجهِ ذهب بعض الجنود المصرية الى معسكرهِ لتفقد حالهِ فوجدوا بعض المرضى قد تركوا وحدهم بحالة تفتت الاكباد من الجوع والعطش والعري والالم فنقلوهم الى اسبيتالية الجيش في البلينة • ووجدوا في الديم ٢٥٠ ضريحاً عدا الجثث التي تركت في العراء بلا دفن • ووجدوا عظام البهائم التي اكلوها قد كسرت واستخرج مافيها من الدهن مما دلّ على شدة احتياجهم الى القوت • واقتفوا اثر النجومي شمالاً فما ابعدوا حتى وجدوا مدفعين مطمورين بالرمال والطريق مغطاة بالدروع التي عجزوا عن حملها

هذا وحال خروج النجومي من البلينة خرج ود هوس بعساكرهِ واتى طوشكي وكان السردار قد حشد اليها من اصوان الجيوش المصرية وفرسان الجيوش الانكليزية وهو في انتظار الجنود الانكليزية المرسلة من مصر لنجدة الجيش المصري • فلما علم بتحرك النجومي شمالاً اسرع باركان حربهِ الى طوشكي فوصلها في ٣١ يوليو وقد اجتمع لهُ فيها القوات الآتية : الاسلحة الراكبة وفيها ٤٠٩ فرسان من السواري الانكليز الهوسار والسواري المصرية والهجانة المصرية والشايقية بقيادة اللواء كتشنر باشا ٥ والطوبجية المصرية وهم ٢٤١ مقاتلاً ومعهم ٨ مدافع بقيادة القائمقام رندل بك ٥ والمشاة المصرية وهم لواءان اللواء الاول مؤلف من الاورط السودانية التاسعة والعاشرة والثالثة عشرة وفيهِ ١٤٨١ جندياً • واللواء الثاني مؤلف من الاورطتين المصريتين الاولى والثانية والاورطة السودانية الحادية عشرة وفيهِ ١٤٧١ جندياً وكلاهما بقيادة اللواء ود هوس باشا ذلك ما عدا ٧ ضباط اركان حرب و ٧١ رجلاً من القسم الطبي والقسم البيطري • ومجموع الكل ٣٦٨٠ رجلاً و ٨ مدافع ٥ ٥ وكان رئيس اركان حرب السردار اللواء ستل باشا المشهور بثبات الجاش وسداد الرأي ٥ وكان اهم اركان حربهِ في هذه الواقعة كما في واقعة الجميزة المار ذكرها القائمقام ونجت بك (السردار الحالي) الذي عهدت اليهِ وظيفة مساعد ادجوتانت جنرال المخابرات فوق وظيفة اركان حرب فقام في الوظيفتين خير قيام واثنى عليهِ السردار في تقاريرهِ الرسمية اجمل الثناء • وقد كان ما ابداهُ في ذلك العهد من الكفاءة والبسالة وعلو الهمة بشيرًا صادقاً بما بلغ اليهِ الآن من سمو المنزلة ورفعة المقام



الجنرال غرنفيل

واقعة طوشكي السبت في ٣ اوغسطوس سنة ١٨٨٩

اما طوشكي فهي بلدة مستطيلة على غربي النيل على نحو ٦٠ ميلاً من حلفا وفيها نخيل كثير وتمتد اراضيها الزراعية نحو ١٢٠٠ يرد الى جهة الصحراء ومن ورائها سهل رملي متسع تتخلله الآكام والصخور العظيمة وتكتنفهُ الجبال من الشمال والجنوب والغرب . اما الجبال التي الى جنوبيهِ فتبعد اربعة اميال من طوشكي وتمتد من النيل ٣ اميال غرباً. فلما كان مساء الخميس ١ اوغسطس سنة ١٨٨٩ وصل النجومي تلك الجبال وعسكر عند سفحها الغربي ليكون في مأمن من قنابل الوابورات التي كانت لا تزال تطاردهُ . وكان قد هجرهُ بعض اتباعهِ في الطريق فبقي معهُ ٣٢٠٠ مقاتل و ٣٦٠٠ من النساء والاولاد والاتباع وهي القوة التي حارب بها في واقعة طوشكي

وفي فجرِ الجمعة في ٢ اوغسطوس خرج السردار ببعض الفرسان من طوشكي وكشف معسكر النجومي من تلة في السهل فرآهُ يصلي هو وجيشهُ . وافاد الفارُّون منهُ انهُ مستطرد السير شمالاً في فجر اليوم التالي فكشف السردار طريقهُ فوجد انهُ لا بد لهُ من المرور في سهل طوشكي فعاد الى البلدة على نية الخروج الى هذا السهل وصدهِ عن التقدم شمالاً الى ان تصل النجدة الانكليزية فيوقع بهِ

ولما كان فجر السبت في ٣ اوغسطوس نهض النجومي بجيشهِ ودخل سهل طوشكي فخرج لهُ السردار بأركان حربهِ والاسلحة الراكبة حتى صار على ١٥٠٠ يرد منهُ الساعة ٦ والدقيقة ٤٥ فتقدم اهل البنادق من جيش النجومي ورموهُ بالرصاص وتبعهم الباقون مهاجمين فأمر السردار السواري فتواروا خلف تل صغير وامر الهجانة فترجلوا ووقفوا صفاً واحدًا وصبوا الرصاص على الدراويش حتى كثر عدد المهاجمين فتقهقر السردار بالعساكر امامهم لجذبهم الى وسط السهل فظنوا انهُ يفر خوفاً منهم فأسرعوا وراءهُ مهاجمين فاتخذ مركزًا حصيناً وسط السهل وارسل في طلب مدفعين من البطارية السواري واللواء الاول وما زال رجال الاسلحة الراكبة يطلقون نارهم حتى كانت الساعة ٨ والدقيقة ٣٠ فحمل النجومي عليهم بجيشهِ حملة واحدة في مقدمتهِ اهل الاسلحة النارية وفي ساقتهِ النساء والاولاد . ولم يكن

السردار قادرًا على صدهِ بما لديهِ من العساكر فتقهقر امامهُ الى جهة طوشكي واتخذ مركزًا حصينًا عند سفح تلة مخروطية الشكل على نحو ميلين من جنوب طوشكي الغربي ولم تمضِ عشر دقائق حتى كان العدو قد وصل المركز الذي هجرهُ السردار وظلَّ مهاجمًا . وفي الساعة ٩ وصل المدفعان اللذان طلبهما السردار فاتحد رجالهما مع رجال الاسلحة الراكبة وسدَّدوا رمي القنابل والرصاص على النجومي فلم يكن الا القليل حتى غيَّر وجهة سيره وسار نحو الشمال الغربي ليتخلص من السهل وكان السردار انما يريد حصرهُ فيهِ لموافقتهِ لتحركات العساكر فأصدر امرهُ الى الاسلحة الراكبة بقيادة كتشنر باشا فخفَّت الى التلال التي الى الشمال الغربي من السهل وسدَّت طريقهُ شمالاً

وفي الساعة ١٠ وصل اللواء الاول بقيادة هنتر بك فاحتل مركز الاسلحة الراكبة وهو سلسلة من الاكام الصخرية تمتد نحو ٢٠٠ يرد شمالاً وجنوبًا وتبعد نحو اربعة اميال من النيل فلما رأى النجومي ان طريقهُ الى الشمال قد سدَّت عوَّل على الحرب ورأى امامهُ اربع آكام متجاورة في وسط السهل تجاه مركز اللواء الاول وعلى ٨٠٠ يرد منهُ فصف انصارهُ عليها فجعل اهل البنادق في الامام ومن ورائهم الحرابة ونصب هو رايتهُ في تلة وراءها وجعل النساء والاولاد والحملة في مكان منخفض وراءهُ بعيدًا عن مرمى الرصاص والقنابل . وفي هذه الاثناء حضر اللواء الثاني مع الستة مدافع الباقية فأمرهُ السردار فوقف وراء اللواء الاول لنجدتهِ عند الحاجة . ولما كانت الساعة ١٠ امر السردار اللواء الاول والطوبجية ففتحوا نارًا حامية على العدو فأجاب العدو نيرانهم مدة نصف ساعة ثم امر اللواء الاول فاقتحم رجالهُ رصاص الدراويش من القلب والجناحين بجرأة الاسود حتى وصلوا تلالهم والتحموا بهم وساعدهم اللواء الثاني والطوبجية والاسلحة الراكبة فأجلوا الدراويش من مراكزهم عنوة بعد ان جندلوا ابطالهم وكانت الساعة اذ ذاك ١١ ونصفًا وفرَّ من سلم من الدراويش نحو معسكر النساء والحملة ولحق بهم النجومي على جوادهِ ليجمع شتاتهم فأمر السردار الاسلحة الراكبة والطوبجية بمطاردتهم وعند الظهر تقدم بسائر العساكر فسار اللواء الثاني اولاً ليأخذ «نوبتهُ» في القتال وتبعهُ اللواء الاول . وفي اثناء ذلك جمع النجومي

شتات جيشه وكرّ على العساكر فلم يلبث ان اصابهُ الرصاص فسقط مجندلاً الى الارض ومات فحملهُ بعض اصحابهِ على جمل وفروا منهزمين وانهزم بقية جيشهِ فتقدم العساكر واستولوا على الديم وما فيه من الخيام والطبول والسروج والسيوف والدروع ولحقوا بالمنهزمين فأسروا عددًا كبيرًا من الرجال والنساء والاولاد . ولحقت كتيبة من السواري الجمل الذي حمل الجثة فقتلوا حراسها واتوا بها الى طوشكي فوجدوا انها جثة النجومي . وأمر السردار فأوقفت النار الساعة الثانية بعد الظهر وعادت العساكر بالغنائم والاسرى الى طوشكي فوصل آخرهم الساعة الخامسة بعد الظهر وقد قضوا النهار كلهُ يقاتلون بلا زاد ولا ماء أو بماء قليل لان اكثرهم خرجوا للحرب قبل ان يفطروا

﴿ القتلى والجرحى ﴾ وقد كانت خسارة الجيش في هذه الواقعة ٢٥ قتيلاً و١٤٠ جريحًا فضموا القتلى جميعًا الى مكان واحد في ساحة القتال وبنوا فوقهُ قبرًا نقشوا على واجهتهِ باللغة العربية كتابة هذا نصها : « شيّد هذا الاثر تذكارًا لواقعة طوشكي التي حصلت في ٦ الحجة سنة ١٣٠٦ هـ وانهزم فيها جيش العصاة السوداني المرسل تحت امرة عبد الرحمن ولد النجومي فتشتتوا بعد قتل اميرهم وكان الجيش المصري تحت قيادة سعادة السردار غرانفل باشا وفي هذا القبر دفنت جثث العساكر المصرية الذين استشهدوا وهم بالميدان » . واما العدو فقد قدرت خسارتهُ بنحو ١٢٠٠ قتيل فيهم ٦٢ اميرًا وأهمهم النجومي وابنهُ وعبد الحليم مساعد . ونجا من امرائهِ عثمان ازرق وعلي ود سعد وحسن النجومي ومرغني سوار الذهب والطاهر والشيخ العُبيد ؛ ومن عامتهم ١٤٠٠ نفس نصفهم أو اكثر من النساء والاولاد فعادوا الى دنقله . واما محمد الخير فانهُ لم يكد يصل من بربر الى دنقله حتى مرض بالحمى فمات قهرًا قبل واقعة النجومي بأيام معدودة . قيل وقد استغفر ربهُ كثيرًا قبل وفاتهِ لنصرتهِ المهدية

﴿ الغنائم والاسرى ﴾ وجمعت الغنائم بعد الواقعة فبلغت ١٤٧ راية و ٤٠٠٠ حربة وعددًا كبيرًا من السيوف والبنادق والدروع والسروج والطبول . واما اسرى الواقعة فكانوا ١٢٠٠ فأصبح عدد الاسرى والفارين من جيش النجومي منذ دخولهِ الحدود نحو ٤٠٠٠ من رجال ونساء واولاد فوُزع نحو الف منهم في مديرية

الحدود وارسل الباقون الى اسيوط فوزعوا على مديريات القطر الا نحو مئة من الامراء والمقاديم فانهم وضعوا في سجن طره مدة ثم نقلوا الى رشيد حيث بقوا الى ما بعد فتح دنقله سنة ١٨٩٦ فاطلق سراحهم . وكان السردار قد اذن لـ ٣٤١ نفساً منهم فرجعوا الى بلادهم بطريق سرس في ١٣ ابريل سنة ١٨٩١ . هذا وكان بين الاسرى ابن النجومي عمره سنة فأدخل في المدارس الاميرية بمصر ولا يزال يتلقى العلوم فيها الى اليوم . وكان بينهم تاجر يدعى أبا زيد فرّ من التوفيقية سنة ١٨٨٨ وهو الذي دلّ الدراويش على مهاجمتها فحوكم بمجلس عسكري وقتل رمياً بالرصاص

وانحلت قوة الحملة على النجومي في ٦ اوغسطوس وعاد السردار الى مصر في ١٧ منهُ . وقد امتاز فيها من الضباط المصريين برتبة بكباشي : علي بك حيدر ياور السردار وحسن افندي رضوان من الطوبجية ومصطفى افندي رمزي اركان حرب . وامتاز فيها من الموظفين الملكيين السوريين : ملحم بك شكور سكرتير عربي السردار وسليمان بك ناصيف من موظفي السردارية وطنوس افندي شحاده مترجم السواري وامين افندي حداد مترجم في المهمات . ومن الملكيين المصريين : عبد الله افندي فكري المار ذكرهُ وابرهيم افندي زيدان مترجم الحدود ونخله افندي تادرس مترجم الاورطة الحادية عشرة السودانية . وحضر منهم ميدان القتال ملحم بك شكور وطنوس افندي شحاده وابراهيم افندي زيدان

وبعد واقعة طوشكي مدت الحدود المصرية جنوباً الى سرس فاحتلتها الاورطة الثالثة عشرة في ١١ اوغسطوس سنة ١٨٨٩ ورُمم خط سكة الحديد بينها وبين حلفا . وكان الدراويش قد جعلوا حدودهم الشمالية حلة فركة فلما رأوا الحكومة قد احتلت سرس رجعوا الى سواردة على نحو ١٠٠ ميل من سرس وبقوا فيها الى ان طردتهم الحكومة منها سنة ١٨٩٦ كما سيجيء . ثم لما استقر الدراويش بسواردة هاجر جماعة من أهل المحس وسكوت الى الحدود فأعطاهم السردار ارضاً في دبيره شمالي حلفا فسكنوها الى ان فتحت بلادهم سنة ١٨٩٦ فعادوا اليها

﴿ احتلال المرات ﴾ هذا وكان التعايشي لما صمم على ارسال النجومي لغزو

مصر أمر حسن خليفة فخرج من أبي حمد واحتل آبار المرات في ١٩ يونيو سنة ١٨٨٩؛ فلما توجَّه السردار لملاقاة النجومي أمر صالح بك خليفة كبير المليكاب فجهز سرية من عربانهِ وهاجم المرَّات فطرد الحسن منها واحتلها في مكانهِ وذلك في ٣ اوغسطوس سنة ١٨٨٩ أي يوم واقعة طوشكي ٠ فاتهم التعايشي حسن خليفة بعدم الدفاع عن المرَّات فعزلهُ وجعل جريجر من اقاربهِ في مكانهِ ٠ ٠ وهكذا انتهى حلم التعايشي الذي رآهُ سيدهُ المهدي من قبلهِ في فتح مصر والعالم فانهُ بعد انخذالهِ في هذه الواقعة لم يعد يخطر ببالهِ فتح ولا حملات عدائية كبيرة بل حصر كل اهتمامهِ في حفظ مملكتهِ من القوات المحيطة بها من الخارج والفتن التي تهددتها من الداخل ٠ واما حكومة مصر فانها منذ واقعة طوشكي اخذت تهتم في استرجاع السودان وكان لها بعد الواقعة احسن فرصة لما اصاب السودان من الجوع والضيق في ذلك العهد ولكن اعوزها المال فما زالت متربصة حتى اتاحت لها الفرص فأعادت السودان حامية حامية كما سيجيء

وكان السردار قد اصدر الى اهل الحدود منشورًا بتاريخ ١٠ يوليو سنة ١٨٨٩ حذرهم فيهِ من ممالأَة النجومي بقولهِ : «ان من كاتب الدراويش او ساعدهم بشيءٍ ما فعقابهُ القتل ومن بقي على الولاء وفقد شيئًا من زرعهِ فالحكومة تعوض عليهِ » ٠ وفي اوكتوبر سنة ١٨٨٩ اصدرت الحكومة الى اهل السودان منشورًا تستحثهم فيهِ على الرجوع الى الولاء وارسلتهُ مع بعض امراء طوشكي ليوزعوهُ عليهم وهذه صورتهُ :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيد المرسلين ٠ وبعد فلا يخفى عليكم ما كانت عليهِ بلادكم السودانيَّة ايام الحكومة الخديوية من رغد العيش وراحة البال وما آلت اليهِ حالتها من الضنك والاضمحلال بأسباب الفتنة المهدوية التي هي نتيجة اغراض الرؤساءِ وحب التظاهر من الاغنياءِ دون مبالاة منهم بما يترتب على ذلك من سفك الدماءِ والضرر بالافراد وخراب البلاد ٠ على ان ملتنا الغرَّاء الاسلاميَّة تأمر بالائتلاف والاتحاد وتنهى عن التنازع والسعي في الفساد واي فساد اعظم من ايقاد نار الفتنة بين المسلمين ٠ وقد غشكم اولئك الرؤساء تموهيًا باسم الدين وهم ابعد الناس عن معرفة شيءٍ منهُ حتى اوردوكم المهالك واكتسبوا بدمائكم ودماءِ اخوانكم

من المسلمين حسن التمتع بنفوذ الكلمة وظنوا انهم صاروا من ارباب الممالك * أمن قواعد الدين منع الناس عن الحج وهو من الاركان الخمسة التي بني عليها الاسلام وها انتم ترون اؤلئك الرؤساء يمنعون قوافل السودانيين عن اداء تلك الفريضة المبرورة * أمن قواعد الدين التحريض على قتال المتمسكين بالكتاب والسنة من المسلمين وها انتم ترونهم يحرضونكم على قتال امة مسلمة عاشت معكم اعواماً مع حسن التمسك بكتاب الله العزيز وسنة نبيهِ الكريم وقد ورد عن النبي (صلعم) « اذا شهر المسلم على اخيهِ في الدين سلاحاً فلا تزال الملائكة تلعنهُ حتى يغمدهُ » * أمن قواعد الدين تحريضكم على ان تلقوا بأيديكم الى التهلكة وقد قال الله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة * فلا حاجة الى اطالة الكلام على ماهم عليهِ اولئك الرؤساء من الاعوجاج عن الدين القويم ومخالفة جماعة المسلمين * واعلموا ايها الاخوان ان ما حل بولد النجومي وقومهِ وقد اشتهر بينكم بالبسالة والاقدام مما يذكركم بعاقبة الامر الذي انتم فيهِ والعاقل من اعتبر بغيرهِ فالنصيحة ان تعودوا الى قول القائل :

يقضى على المرء في ايام محنتهِ   حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

فترجعوا عما انتم عليهِ مما اضرَّ بلادكم ويتَّم اطفالكم ورمَّل نساءكم كل ذلك خدمة لاغراض الرؤساء وابتغاء غاياتهم * والحق الذي يعلمهُ الله ان الجناب الخديوي العالي نصر الله اعلامهُ اشفق على الرعية من الاباء على الابناء حريص على راحة العباد واطمئنان البلاد وقد ابى افتتاح بلادكم بالقسوة والعنف حقناً للدماء وشفقة على الفقراء وكثيراً ما غيَّر خاطرهُ الشريف ما ألمَّ بكم من الوبال وسوء الحال وتمنى ان ينعم الله عليكم بالهداية ويمنحكم من مراحمهِ ما يرجع بكم الى ما كنتم عليهِ من الرغد وصفاء البال فاغتنموا هذه الفرصة الجليلة وقدموا لاعتاب حكومتهِ الخضوع تفوزوا بالمساعدات الجمة والنعم الجزيلة ولا تنسوا الشرف الرفيع والمزايا التي خصتكم بها الحكومة السنية انتم واباءكم من الشايقية والجعليين وغيرهم وما اصبحتم فيهِ من الذل والاهانة تحت احكام اناس كانوا يلجأون الى سطوتكم ويهابون سلطتكم ففي ذلك الكفاية لمن رام الهداية والسلام سنة ١٣٠٧ هـ » اه

وكتب الخليفة من الجهة الثانية الى اهل دنقله والمقاتلين الذين نجوا من واقعة طوشكي يصبرهم على ما اصابهم من الخذلان قال: «... وبما انهُ لايخفى عليكم أيها الاصحاب ان أمرنا هذا ديني والقصد منهُ احياء السنة النبوية واتباع الاثر فالابتلاء الحسن لا بد ان يحصل للمؤمنين لكي يتميز بذلك الخبيث من الطيب طبق ماوقع للصحابة رضوان الله عليهم فانهم قد كابدوا في الله كل شدة وحصل عليهم من البلاء الحسن مالا يطاق فصبروا صبر الكرام واوفوا بعهد الملك العلام وجميع ما وعدهم الله بهِ في قولهِ تعالى ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين» حصل عليهم في الغزاوت والجهادات فما ثناهم عن قصدهم ولا يرد همتهم عن اقامة الدين وجهاد الكافرين بل لم يزدهم ذلك الا قوَّة وثباتاً وشجاعةً واقداماً وايماناً وتسليماً. وأنتم يا أصحاب المهدي «عم» لاشك انكم على اثرهم فجميع ما يحصل عليكم من نزول الشدائد وحلول المصائب فهو لرفع درجاتكم واختباركم فيلزم ان تلبسوا لذلك جلباب الصبر والثبات وتتدرَّعوا بدرع التوكل فان الخير كلهُ امامكم في الآخرة وما الدنيا الا مزرعة لها فازرعوا فيها صالح الاعمال وأوفوا بعهدكم مع الله ورسولهِ ومهديهِ ومعناه ولا تهنوا أو تضيعوا في دينكم والوفاء بعهدكم مع ربكم بسبب ما حصل لاعداء الله من الاستدراج والامهال وفوز اخوانكم الصادقين ناس الشهيد عبد الرحمن النجومي فان ذلك قدر الهي وسعادة كتبها الله لهم في ازلهِ ودين الله لا شك منصور وعدوهُ مقهور كما وعد الله تعالى بذلك في غير ما آية من كتابهِ والعاقبة لا شك للمؤمنين والدائرة على الكافرين ...»

ثم كتب الى أهل دنقله ما نصهُ: «... وبما انكم من الاعوان والاصحاب التابعين المهدية بصدق وصفاء نية فعليكم منا أمان الله ورسولهِ ومهديهِ وأماننا في أنفسكم وأموالكم ولا يحصل عليكم من أحد من الانصار أدنى شيء ما دمتم صادقين في معاملتكم ومنقادين لعاملكم المكرم يونس الدكيم وكل من لهُ ساقية فليصلحها ومن لهُ نخيل فليلقحهُ ومن لهُ انسان بجهات الريف فليسعى في حضورهِ لوطنهِ ان امكنهُ ذلك فان من يحضر لوطنهِ ويقيم فيهِ تحت طاعة المهدية فعليهِ منا الامان ومن

لهُ نخيل أو سواقي بجهة دنقله ويحضر اليها على مقتضى أماننا هذا وعلى وجه الفور فهي لهُ ولا يحصل عليهِ تعدٍ من احدٍ لانا لسنا نريد منكم الاّ القيام بأمر الدين واداء ما هو مطلوب منكم من حقوق الله تعالى . وبما ان المكرم يونس الدكيم هو العامل عليكم بأمرنا فاسمعوا أمره ونهيهُ وقد أوصيناهُ بكم خيرًا وان شاء الله لا ترون الا ما يسركم هذا والسلام ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠٧هـ ، اه ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٩م

الفصل العاشر

في

﴿ وقائع ام درمان وسائر السودان سنة ٨٦ : ١٨٩٠ ﴾

﴿ خراب الخرطوم وعمار ام درمان سنة ١٨٨٦ ﴾

جرت عادة الدراويش انهم كلما فتحوا مدينة اخربوها وأقاموا لهم ديمًا بجانبها كما فعلوا في الابيض وبربر ودنقله وكسله وغيرها ولم يستثنوا من ذلك الخرطوم فانهم هجروها تدريجًا وعمروا ام درمان تجاهها على النيل الابيض مع ان الخرطوم افضل موقعًا واخصب تربة واعذب ماء . وقد كانوا يأخذون اخشاب منازلها ويبنون بها مدينة ام درمان فلم تنتهِ سنة ١٨٨٦ م حتى خربت الخرطوم خرابًا تامًا ولم يبق فيها عامرًا الا جنائنها وترسانتها

﴿ بناء جامع ام درمان ﴾ وما زالت ام درمان تزداد عمرانًا واتساعًا حتى ضاق على اهلها جامع الصفيح الذي بناهُ المهدي فأقام الخليفة بجانبهِ جامعًا متسعًا فوضع حجر أساسهِ بيدهِ يوم الاحد في ٤ ربيع الاول سنة ١٣٠٥ هـ ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٧ وسخر أهل المدينة فبنوهُ في مدة ٧٣ يومًا . وهو عبارة عن حوش عظيم مربع يحيط بهِ سور مرتفع من الطوب المحرق طولهُ نحو ٤٧٠ ذراعًا وعرضهُ نحو ٢٩٥ ذراعًا ولهُ ثمانية ابواب لكل جهة بابان . وقد تركهُ مكشوفًا بلا سقف لكنهُ اقام قرب المحراب صفًا من الرواكيب لجلوس امرائهِ وخاصة رجالهِ وفرض على اهل ام درمان كافة حضور الصلوات الخمس فيهِ يوميًا

﴿ بناء قبة المهدي ﴾ وبعد ان اتم بناء الجامع بدا لهُ ان يقيم فوق قبر المهدي قبة ليصرف الناس الى حجها بدل الكعبة فدعا اليهِ الامراء من الجهات وأبا عنجة من القلابات للاحتفال بذلك . وفي يوم الاربعاء في ٣ ربيع الاول سنة ١٣٠٦هـ ٧ نوفمبر سنة ١٨٨٨ شرع في حفر الاساس بيدهِ ثم تبعهُ الخليفتان فالامراء وتتابع الناس في العمل بهِ فأتموهُ بأسبوع ثم وضع لهم حجر الاساس وشرعوا في البناء حتى اكملوهُ فكانت بنيَّة عظيمة مربعة طول كل جدار من جدرانها الاربعة ١٧ ذراعاً وسمكهُ ٣ ½ ذراع وعلوه ١٤ ذراعاً وفوقهُ بناء مثمن يعلو ١٥ ذراعاً وفوقهُ القبة وتعلو ٢١ ذراعاً . فكان علو البنيَّة من الارض الى القمة ٥٠ ذراعاً . وقد بنيت بالحجارة على علوّ ذراعين ثم بالطوب الاحمر الى آخرها ولها بابان كبيران باب الى الجنوب وباب الى الشمال وثمانية شبابيك في كل جدار من جدرانها الاربعة شباكان وثماني كوى او « مناور » بيضوية الشكل في القسم المثمن في كل ثمينة « منور » فجاءت اعظم قبة بنيت في السودان الى هذا العهد وكان المهندس لها رجلاً مصري الجنس يدعى اسماعيل . وفي فتح ام درمان سنة ١٨٩٨ دكها الجيش الى الارض هي والجامع كما سيجيء . وقد وصفها اسماعيل عبد القادر الكردوفاني بقصيدة غراء هذه هي بحروفها :

سمت قبة المهدي مجداً وسؤددا ... ونيطت بها الجوزاء عقداً منضدا
وصيغ من الاكليل تاج لهامها ... وسال بها نهرُ المجرَّة مزبدا
وقد نظمت زهر النجوم قلائدًا ... لجيد علاها حائز السبق مفردا
ولاحت بانوار الهداية شمسها ... فاشرق منها الكون وانقشع الردى
بنيَّة مجدٍ شادها الحلم والتقى ... يطوف بها الزوار مثنىً وموحدا
فلله مغناها ومحكم صنعها ... وروضتها الزهراء بالفضل والندى
ولمْ لا وقد ضمت لافضل وارث ... لخير الورى طه المشفع احمدا
خلاصة صفو المجد عن آل هاشم ... وافضل من في الخير راح او اغتدى
امام لهُ في كل مجدٍ وسؤددٍ ... مآثر فضل ما اجلَّ وامجدا
محمد المهدي بشرى محمد ... شفيع الورى في الحشر من طاب محتدا

يبشراهُ غنى بلبل السعد مطرباً　وقام على غصن المسرات منشدا
بهِ الله احيانا واظهر دينهُ　واولاهُ افضالاً ونصرًا مؤيدا
وقد احرز الدين الحنيفي بالظبى　ودمر جبارًا طغى وتمرّدا
وجاهد من قد حاد عن شرع احمد　وقد فلّ جيش المعتدين وشرّدا
ولما دعاهُ الحق جل جلالهُ　لدار بها الفوز العظيم مخلدا
اجاب الندا فالقلب بعد فراقهِ　يذوب اسًا والصبر عزّ وابعدا
وقد جبر الله الوجود بأسرهِ　واعلى منار الدين حقًا وشيّدا
بهدْي الذي قد قام فينا مقامهُ　خليفتهُ هادي الورى قامع العدى
فقام بأمر الدين حق قيامهِ　واعمل في اهل الضلال المهندا
قلوب الورى تعنو جميعاً لهديهِ　فلا تنثني الا وعنها انجلى الصدى
امام اجلَّ الله في الكون قدرهُ　وتوّجه تاج القبول وايدا
مآثرهُ في الدين يعسر حصرها　فغاية ما عندي القصور وقد بدا
وقد اصدر الامر الكريم مخاطباً　لانصار دين الله حالاً ومبتدا
وقال لهم قوموا بكامل جهدكم　لتحرز اجرًا في البنيَّة سرمدا
وبادر ابقاهُ الالهُ مسارعاً　يباشر اعمال البنية مرشدا
ومن بعدهِ الانصار تحت اشارةٍ　لهُ وهو بدر في سماء العُلا بدا
فجاءت بحمد الله اعظم قبةٍ　حوت كل مجد لا يعد وسوددا
فيا زائرًا تلك البنية لا تذا　بقبر حوى الفضل الجسيم المؤبدا
توسل يبشرى المصطفى متأدباً　لتظفر بالحسنى وتبلغ مقصدا
وقف خاضعاً وارجُ القبول مؤرخاً　بقبة مهديّ الانام ترى هدى

وقد نقش تاريخ القبة على حجر رخام فوق عتبة بابها الجنوبي ٥ سنة ١٣٠٦ ه

قتل محمد نور في جمادى الاولى سنة ١٣٠٥ﻫ فبراير سنة ١٨٨٧م

هذا وعلى اثر بناء الجامع ظهر في ام درمان رجل من الفادنية يدعى محمد نور جاهر بانكارهِ المهدية ورفض الصلاة في الجامع فاتصل خبرهُ بالخليفة فحاكمهُ بمجلس

من القضاة حضرهُ الامير محمد الخير لانهُ كان اذ ذاك في ام درمان فحكم المجلس بقتلهِ فقتل شنقاً وكتب الخليفة بشأنهِ الى جميع امرائهِ في الجهات ومما كتبهُ الى ابي عنجه في ٢٨ جمادى الاولى سنة ١٣٠٥ ه‍ ١١ فبراير سنة ١٨٨٨ م :

« وبعد فمن عبد ربهِ خليفة المهدي عليهِ السلام الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق الى المكرم حمدان ابي عنجه كان الله لهُ آمين ٠ بعد السلام عليك نعلمك انهُ ظهر رجل بهذا الطرف يدعى محمد نور فاعرض عن الدين ونفر من جهتنا غاية النفرة حتى انهُ لم يصلِّ بالمسجد معنا وقد توجه اليهِ بعض الاصحاب الثقات مرارًا في محلهِ فوجدوهُ في غاية الاعراض والانكار. ثم أحضر عند القضاة في المحكمة فقالوا لهُ ان الله سبحانهُ وتعالى يقول اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الامر منكم وان خليفة المهدي « عم » قد ولاهُ الله علينا وطاعتهُ واجبة فقال لهم المراد من أولي الامر هو الله. فقالوا لهُ ان الله تعالى قال أولي الامرِ منكم فكيف مع هذا تقول ما ذكرتهُ فلم يعترف بخطاهُ وما زاد الا نفورًا. ومع ذلك فانهُ منكر قتل من قتل على يد المهدي « عم » كأهل الخرطوم وغيرهم من الاعداء الذين خرجوا من الدين بكفرهم بالامام المهدي « عم » ومحاربتهم لهُ وليس مصدقاً بكفرهم. ولما لم يرجع عن اعراضهِ حكم الشرع بقتلهِ فصلب وقد اكلت النار لسانهُ ولحيتهُ ويديهِ ورجليهِ وسرحت فيهِ وتغير لونهُ والعياذ بالله من ذلك وبعد ذلك امرنا فأخرج من الديم خارج قبور المسلمين وقد حررنا هذا لاعلامكم بما كان ... » اه

التعايشي وقبائل السودان سنة ٨٦ : ١٨٩٠

تقدم ان التعايشي بعد موت المهدي كتب الى مشايخ السودان كافة من حضر وبادية بالحضور الى ام درمان لتجديد البيعة على يده والتبرك بزيارة قبر المهدي فمن اطاع ونصرهُ رضي عنهُ ومن عصى جرّد عليهِ حتى اقمعهُ ونكل بهِ وباهلهِ كما فعل بصالح الكباشي واهلهِ الكبابيش ومادبو شيخ الرزيقات وكثيرين غيرهم من القبائل والافراد نخصّ بالذكر :

﴿ عوض الكريم باشا ابا سن شيخ الشكرية ﴾ المار ذكرهُ فانهُ تمنع عن اجابة

داعي المهدي الى ان سقطت الخرطوم فحضر الى ام درمان وسلم للمهدي فعفا عنهُ. وبعد موت المهدي امرهُ الخليفة فكتب الى رؤساء قبيلتهِ يدعوهم الى الحضور الى ام درمان بخيلهم وابلهم ولما لم يحضروا قبض الخليفة عليهِ وزجهُ في السجن فمات قهرًا سنة ١٣٠٤هـ وجرّد على الشكرية فقتل وسبى وغنم حتى استجاروا بالحبشة والانكليز ومن ذلك قول شاعرهم الحاردلو اخي عوض الكريم باشا:

ناس قباح من الغرب يوم جونا جابوا التصفية ومن البيوت مرقونا
اولاد ناس عزاز مثل الكلاب سوّونا يا يابا النقس يا الانكليز الفونا

﴿ ومحمد البشير علي طه بن جن شيخ الحمدة ﴾ فانهُ أبى الحضور الى ام درمان فظل يتتبعهُ حتى ظفر بهِ وقتلهُ ونكل باهلهِ تنكيلاً وذلك سنة ١٣٠٤ هـ

﴿ ومحمود ود زايد شيخ الضباينة ﴾ فانهُ رفض اجابة داعيهِ فامر عثمان دقنه فجرّد عليهِ عوض الكريم كافوت بمدفع جبلي و٤٠٠ رجل مسلحين بالبنادق فوجدهُ مستعدًا للحرب بقوة كبيرة فخادعهُ حتى جرّهُ الى معسكرهِ فقبض عليهِ وكبلهُ بالحديد وجرّدهُ من جميع مالهِ وارسلهُ الى ام درمان والى ذلك اشار الحاردلو بقولهِ:

يا شايل الجواب وديه للحمراني وقل لهُ الزمان مثل الكليب سوّاني
اكتب لي جواب يا صاحبي لا تنساني ولد زايد يقول ظاهر الامان غشاني

وبقي ود زايد في سجن الخليفة الى سنة ١٣٠٧هـ فعفى عنهُ وعاد الى بلاده فمات ذليلاً

﴿ والمرضي ابا روف شيخ بني حسان ﴾ السالف الذكر فانهُ حضر الى ام درمان بعد فتح سنار وبايع الخليفة فامرهُ بالعودة الى بلادهِ وجمع رجال قبيلتهِ للجهاد فذهب الى قومهِ ولم يرجع فبعث الخليفة يستعجلهُ فاخذ الاسلحة من الرسل ونصرهُ قومهُ قيل وذبحوا الثيران التي عندهُ وقالوا للرسل اذهبوا الى التعايشي واخبروهُ اننا ذبحنا هذه الثيران لانها تشبه لباس الدراويش وتجمعوا في قوز الاهليلج تجاه فاشوده واستعدوا للحرب. وكان ذلك على اثر عودة ابي عنجة الى جبال النوبة فأخرج التعايشي سرية قوية من هذا الجيش وعقد لواءها لعبد الله ود ابراهيم والزاكي طمل وارسلها عليهم بطريق النيل الابيض وارسل اسماعيل ود الامين من مشايخ حمر برجالها

بطريق النيل الازرق فنزلوا في ابي شوكة وقطعوا خط الرجعة عليهم . فسار عبد الله ابراهيم بالوابورات حتى اتى الجبلين فأنزل جيوشهُ الى البر وتقدم الى قوز الاهليلج فأوقع في المرضي وقومهِ واقعة مشهورة فقتلهُ هو وجميع كبار جيشهِ وفيهم الشيخ محمد بن الشيخ مالك ومردس شيخ العلاطين وابراهيم ود صابون شيخ العقليين والفقيه ابراهيم ود خالد وغيرهم . ومن فرَّ من الواقعة وقع في يد جيش النيل الازرق فاجتمع عند انصار الخليفة عدد لايحصى من الاسرى والغنائم من الابل والغنم فاتوا بها الى الخليفة فوزع الاسرى في الجهات وضم الغنائم الى بيت المال . واخترق عبد الله ود ابراهيم الجزيرة واتى ابا حراز في ٣ صفر سنة ١٣٠٥ هـ ٢١ اوكتوبر سنة ١٨٨٧م حيث كان ابو عنجة ينتظرهُ فسار معهُ الى القلابات كما مرَّ

﴿ قتلة البطاحين نوفمبر سنة ١٨٨٨ ﴾ هذا وفي مجاعة سنة ١٣٠٦ هـ فرَّ بعض البطاحين من جيش النجومي لشدة ما اصابهم من الجوع في دنقله واتوا الى باديتهم شرقي النيل الازرق بين رفاعة والحلفاية ورجعوا الى عادتهم من قطع السابلة ونهب المارة فأرسل اليهم التعايشي الامير ود جار النبي من جيش الخليفة ود حلو بنفر قليل من الانصار يدعوهم الى أم درمان فحاربوهُ وقتلوا بعض رجالهِ فجرَّد عليهم التعايشي جيشاً يزيد على ٢٥٠٠ مقاتل من حرابة وجهادية وخيالة فأوقع فيهم واقعة شديدة وقتل معظم اكابرهم وساق الباقين الى أم درمان وفيهم ٦٧ رجلاً فجعلهم الخليفة اربع فرق فرقة قتلت شنقاً وفرقة ضربت اعناقها واخرى قطعت ايديها اليمنى واخرى قطعت ايديها وأرجلها من خلاف . وقد اثبت سلاطين باشا هذا المشهد في كتابهِ «السيف والنار في السودان» فاذا هو مما تقشعر لهُ الابدان ويقضي بأن البشر قد يبلغون في الشراسة مبلغاً تقصّر عنهُ الوحوش الضارية

﴿ الخليفة والبقارة ﴾ ورأى الخليفة ان سكان النيل لا يقيمون على ولائهِ اذا ضعف امرهُ أو خانهُ دهرهُ فبعث الى مشايخ البقارة في جنوبي كردوفان ودارفور يستحثهم على الهجرة الى أم درمان بخيلهم وابلهم ومواشيهم ليعزّز بهم ملكهُ ويأمن بهم غدرات الزمان وقد كرّر اجوبتهُ لهم واكثر من الوعود براحتهم وبدأ بهذا المسعى بجد

واهتمام منذ سنة ١٣٠٤هـ • على ان البقارة فضلوا جدب صحرائهم وحرية البادية على خصب النيل وعزّ الملك ولسان حالهم ينشد قول تلك البدوية التي زوجت للحضر:

لبيت تخفق الارياح فيهِ — احبُّ اليَّ من قصر منيفِ
ولبس عباءة وتقرّ عيني — احبُّ اليَّ من لبس الشفوف
واكل كسيرة في كسر بيتي — احبُّ اليَّ من اكل الرغيف
خشونة عيشتي في البدو اشهى — الى نفسي من العيش الظريف
فما ابغي سوى وطني بديلاً — فحسبي ذاك من وطن شريف

لكن الخليفة صمم على انفاذ رأيهِ فيهم فأمر عمالهُ بتخريب ديارهم وجلبهم الى أم درمان بالرغم أو بالرضى فهاجر الوف من التعايشة والرزيقات والهبانية والحمر وغيرهم فسرَّ الخليفة بهم سرورًا عظيماً وكتب الى أبي عنجة بتاريخ ٨ محرم ١٣٠٦هـ مانصهُ:

« بعد السلام نعلمك انهُ بحمد الله قد انتهى امر التعايشة فحضروا من بلادهم بأ كملهم والآن قاموا من الفاشر وأولهم قد وصل جبل الحلة وهم كثار حتى لقد يبلغون من عائلة المجاهد نحو ستين الفاً وكون ذلك مما يزيد المسرّة في الدين حرّرنا لك هذا • ثم ان الهبانية حاضرون جميعهم بعد التعايشة بواسطة المكرم عثمان آدم ومن بعدهم يحضر قبائل متفرقة من اهالي الناقة وخلافهم رزيقات وغيرهم نساء ورجال والله ينصر الدين ويخذل الكافرين ... » اه

وما زال البقارة يفدون الى أم درمان الى آخر سنة ١٣٠٧هـ فاستقبلهم الخليفة احسن استقبال واسكنهم على الرحب والسعة ومع ذلك حاول الكثير منهم الفرار فأرسل الخليفة الى عثمان آدم « بالبحث عن الفارين وارجاعهم الى أم درمان بالشعبة والجنزير مع المحافظة القوية » • وفر الغزالي كبير التعايشة فألحق بهِ بعض الجند فأدركوهُ على يومين من ام درمان فقتلوهُ واتوهُ برأسهِ • هذا بعض ما فعلهُ التعايشي بقبائل السودان وسيأتي ذكر ما فعلهُ بالشلك و بالاشراف واقارب المهدي

الجوع في السودان سنة ١٣٠٧:٦ هـ سنة ٨٨ : ١٨٩٠ م

مضى خريف سنة ١٣٠٦ هـ سنة ١٨٨٨ م فلم يقع مطر كافٍ في السودان ولا

زاد النيل الزيادة المعتادة . ثم جاءت سنة ١٣٠٧ هـ ٨٩ : ١٨٩٠ م فأتى الجراد واكل معظم الزرع واحضر التعايشي اهلهُ البقارة من الغرب كما مرَّ فأكلوا ما في البلاد من الحبوب المذخورة فأصاب الناس في السنتين المذكورتين جوع عظيم لم يروا مثلهُ في سالف الاعصار فأهلك منهم اضعاف ما اهلكتهُ الحروب والاوبئة . وقد اقفل الكثير عليهم الابواب وماتوا جوعاً هم واولادهم لكي لا يضطروا الى التسول فيعيروا بذل السؤال . وعمت هذه المجاعة جميع بلاد النيل والسودان الشرقي والغربي ما عدا فاشودة فذهب التجار اليها وأتوا منها بالحبوب الى ام درمان فخففوا بعض المصاب على اهلها . ولقد رأيت في كتب عمال الجهات الى الخليفة ما يشير الى هذه المجاعة . من ذلك ما كتبهُ اليهِ النجومي من دنقله في ٩ صفر سنة ١٣٠٦ هـ ١٥ اوكتوبر سنة ١٨٨٨ م : « ... ومما ينبغي الاخبار عنهُ من احوال دنقله هو الضيق الحاصل فيها هذه السنة بخلاف عاداتها وذلك لان نتاج الحبوب قليل لعدم فيضان البحر فيها فكثير من الاماكن التي كانت تنتج الحبوب عندهم كالجزائر الكبار ما عمها النيل ولا زرعت . والزراعة فيها قليلة واهلها يشكون الضيق والتعب من عدم العيوش ... »

وكتب اليهِ عثمان الدكيم من بربر في ١٤ القعدة سنة ١٣٠٦ هـ ١٢ يوليو ١٩٨٨ م يقول : « ... ان الاردب الواحد من الذرة بلغ في الثمن ستين ريالاً ... »

وخرج الزاكي طمل من القلابات الى القضارف طلباً للقوت وكتب الى الخليفة في ١٨ شعبان سنة ١٣٠٦ هـ : « ... والحال سيدي ان الجيش بعد ما حرَّرنا في طلوعهِ لارض العدو قد تزايد بهِ الضرر من جهة المعايش وعمَّ ذلك الكافة صغيرًا وكبيرًا مجاهدًا وعائلة حتى صاروا يأكلون الجيف ويلتقطون الحبوب من الارض في الطرق والمزابل ومحلات الرماد وهم الآن بحالة لو رآها سيدي لرثى لهم ... وتفرق الغالب منهم في الجهات في التماس المعايش وبعضهم يلتقطون القشوش والاشجار من الاودية مسافة ٣ ايام أو اربعة ... لذلك قد اخرنا السرية عن التوجه الى الحبشة ونحن كذلك غير متيسر توجهنا اليها الآن لان الجيش قد اشتغل بنفسهِ ... وفي هذين اليومين قصدنا ارسال سرية الى جهات الجبال الصعيدية كمثل أبي رملة وما يليهِ فيها ٨٠٠٠

رجل ٤٠٠٠ سلاح ناري و٤٠٠٠ حرابة وفي رأسها عبد الرسول عمر فبذلك تحصل مداركة الجيش بما يحضرونهُ من المواشي وهم ايضاً يتمعشون ٠٠٠٠ »

وقد اجتمعت بكثيرين ممن حضروا هذه المجاعة في السودان فقصوا عليَّ كثيرًا مما قاسوهُ بأنفسهم وما شاهدوهُ بغيرهم · من ذلك ما حكاهُ لي عمر بك ابو سن قال : خرجت من الخرطوم في شهر محرم سنة ١٣٠٧ هـ قاصدًا رفاعه فما اقبل الليل حتى تراكمت السحب وخفنا ان يداهمنا المطر في الطريق فعرجنا الى حلة في الجزيرة تسمى « ولد عشيب » للمبيت فيها فوجدنا ابواب منازلها مقفلة ولا يسمع فيها صوت انسان فعمدنا الى باب دار فخلعناهُ فانتشرت منهُ رائحة منتنة فأوقدنا نارًا لنرى ما الخبر فاذا بأهل المنزل رجالاً ونساء واطفالاً قد رقدوا على اسرتهم موتى ثم طرقنا بيتاً آخر فسمعنا صوت انين ضعيف فدخلناهُ فاذا بسكانهِ قد اشرفوا على الهلاك فسألناهم عن الخبر فأومأ الينا صاحب الدار ان اطعمونا فنعلمكم بحالنا فأحضرنا لهم ما تيسر من الزاد فأكلوا وشربوا واكل بعضهم بنهم زائد فماتوا في الحال وقال صاحب الدار ان القحط قد بلغ حدهُ عند اهل البلدة بسبب انحباس الامطار فأقفلوا عليهم الابواب فماتوا جوعاً كما ترون » اه

واخبرني من اثق بهِ انهُ دخل منزلاً في المتمة من اهل البيوتات فرأى صاحب المنزل ميتاً على سريرهِ واولادهُ موتى بجانبهِ وقد ربطهم الى قائمة السرير لئلا يفلتوا ويضطرهم الجوع الى التسوُّل فيعيّر بهم

وحدثني احد الثقات قال كنت في مجاعة سنة ١٣٠٦ هـ في كسلة في امارة حامد علي البقاري وكيلاً على السوق فدخلت ذات يوم منزلاً فوجدت امرأة تطبخ في قدر فكشفت القدر فاذا فيها يدا عروس لايزال عليهما اثر الحنَّاء فسألتها عن ذلك فقالت اني دخلت ليلاً على عروس فلان مع فلانة وفلانة فوجدناها قد اشرفت على الهلاك جوعاً فذبحناها واقتسمنا لحمها للتقوت بهِ · قال محدثي وكثيرًا ما رأيت الموتى قد بقرت جثثهم وأخذت اكبادهم طعاماً للجياع · الى غير ذلك من الاخبار الرائعة والانباء المحزنة

﴿ قتل ابراهيم ود عدلان سنة ١٣٠٧ هـ ﴾

تقدم ان الخليفة عزل احمد سليمان وسمى ابراهيم ود عدلان المار ذكرهُ في حصار الابيض اميناً لبيت المال فأحسن ادارتهُ ونقلهُ من مكانهِ الاصلي الى شاطئ النيل لتقليل نفقات النقل ومشقاته ونظم اساليب الدخل والخرج وضرب الريالات مازجاً فضتها بالنحاس. وقد علم كيف يكتسب رضى الخليفة فخصهُ واقاربهُ بالنصيب الاكبر من بيت المال فبقي مكرماً مسموع الكلمة الى ان كانت سنة ١٣٠٧هـ وتم ورود البقاره من الغرب فامرهُ الخليفة ان يمضي الى الجزيرة ويقنع اهلها بارسال ما استغلوهُ من الذرة اعانة للبقارة بلا ثمن فذهب مكرهاً لانهُ لم يكن يرضى بالجور الى هذا الحد وكان قد اثرى من بيت المال وكثر حسادهُ فوشوا به الى الخليفة انهُ غير راضٍ بأمرهِ وانهُ نسب المجاعة التي حصلت سنة ١٣٠٦هـ اليهِ والى سلبهِ الناس لاجل قبيلتهِ وكان اكبر خصومهِ يعقوب اخا الخليفة فاستدعاهُ الخليفة الى ام درمان ووبخهُ توبيخاً صارماً وكان ود عدلان جسوراً ابي النفس فقال لهُ نعم انك بتفضيلك لقومك نفرت منك قلوب الذين كانوا يخلصون لك وانا لا قدر ان اخدمك بعد فاضطرب الخليفة من هذا الكلام وقال في نفسهِ ان الرجل لم يتكلم بهذه الجراة الا ولهُ انصار في البلاد ولم يستعفِ من منصبهِ الا وهو على ثروة طائلة وقد صمم على الفتك بهِ لكنهُ اضمر الكمد واظهر الجلد وقال لهُ اذهب الآن وغداً ارد لك الجواب فطلب الخليفتين والقضاة واخاهُ يعقوب ثم استدعى ود عدلان وعنفهُ امامهم على جراتهِ ثم امر الملازمين فقبضوا عليهِ وخفوا بهِ الى السجن وامر باستصفاء اموالهِ ولكن ود عدلان رشى السجان واسرع الى بيته ليلاً واخفى اموالهُ في مكان قيل لا يزال مجهولاً الى اليوم وعاد الى السجن فلما جاء رسل الخليفة لاستصفاء مالهِ لم يجدوا منهُ الا النزر اليسير . هذا وكان الملازمون عند القبض عليهِ وجدوا ورقة في جيبهِ عليها اسم الخليفة وكتابة مبهمة فقال الخليفة انها طلسم اراد ان يسحرني بهِ فحكم عليهِ بالقتل فقيد الى المشنقة فصعد الى السلم بقدم ثابتة واسلم الروح. وسمي في مكانهِ النور الجريفاوي من تجار الخرطوم سابقاً وسيأتي ذكرهُ

الباب الرابع

في

استرجاع السودان

الفصل الاول

في

استرجاع طوكر في ١٩ فبراير سنة ١٨٩١

تقدم ان الحكومة المصرية ما خرجت من السودان الآ مُكرهة مضطرة فوقفت عند حدودها في حلفا على النيل وفي سواكن على البحر الاحمر وهي غير آيسة من الرجوع الى السودان بل ما زالت تؤملهُ وتترقب الفرص . وقد تسنت لها فرصة بعد واقعة طوشكي سنة ١٨٨٩ فاعوزها المال كما قدمنا. ثم اتاحت لها فرصة في سواكن في اوائل سنة ١٨٩١ فاسترجعت طوكر بنفقة لا تذكر واليك البيان :

﴿ غزوة عثمان دقنه للحباب ﴾ قد ذكرنا ان عثمان دقنه هجر هندوب بعد واقعة الجميزة واحتل بلاد طوكر الخصيبة فاشتغل في تهريب الرصاص من ارض الحجاز الى السودان وقد ترك عصابة من الرجال في هندوب وأخرى في تماي فقطعوا السابلة وضيقوا على سواكن وكثر تهريب الرقيق الى الحجاز من داخلية السودان وكان المحافظ على سواكن الى هذا العهد هولدسمث باشا فرأى ان لا يمكن اصلاح الحال الا بطرد عثمان دقنه من طوكر فاخذ يترقب الفرص لذلك

ولما دخلت سنة ١٨٩١ خرج عثمان دقنه بمعظم جيشهِ لغزو الحباب الذين خرجوا عن طاعتهِ ولم يبقِ في طوكر الآ حامية صغيرة فابلغ هولدسمث الخبر تلغرافياً الى السردار في ١٥ يناير سنة ١٨٩١ واستاذنهُ في مهاجمة طوكر بما لديهِ من



﴿ الماجور ونجت ﴾

« مدير قلم المخابرات الحربية سابقاً »

(سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام الحالي)

العساكر قبل عودة عثمان اليها وكان السردار اذ ذاك في الحدود النيلية بمعية المغفور له توفيق باشا الخديوي السابق فرجع الى مصر للنظر مع رجال الحكومة في اغتنام هذه الفرصة

﴿ اخذ هندوب وتماي ﴾ وتمهيداً للزحف على طوكر اخذ هولدسمث الاورطة الحادية عشرة وبعض الفرسان ونزل على هندوب في ٢٧ يناير وكان فيها نحو ١٠٠ رجل فقتل نحو ٤٠ رجلاً وفيهم مقدمهم رقعة وهزم الباقي الى الجبال . وفي ٢ فبراير ارسل العربان المتحابة الى تماي وكان فيها ٥٠ رجلاً عليهم الشريف قبسة فاسروا الشريف المذكور وبعض اصحابه وعادوا الى سواكن

﴿ الزحف على طوكر ﴾ وفي ٨ فبراير اقرت الحكومة على استرجاع طوكر فابلغ السردار قرارها الى هولدسمث تلغرافياً وارسل اليه بعض اركان حربه من مصر لمساعدته على الفتح وهم اللوا ستل باشا رئيس اركان حربه والقائمقام ونجت بك مدير قلم المخابرات (السردار الحالي) والميرالاي رندل بك . وكنت في هذا العهد في قلم المخابرات تحت ادارة القائمقام ونجت بك فصحبته انا وملحم بك شكور سكرتير عربي السردار . فدخلنا سواكن في ١٤ فبراير فوجدنا هولدسمث قد سبقنا بالعساكر الى ترنكتات ومعهُ من اركان حربهِ البكباشي ابرهيم افندي فتحي فلحقناهُ اليها في اليوم التالي

وفي صباح ١٦ فبراير ابقى هولدسمث في مرسى ترنكتات بلوكاً من العساكر وسار نحو ساعة حتى بلغ اليس فأقام مخزناً للماء حصنهُ بمدفعين وبعض العساكر واستطرد السير قاصداً التيب بالقوة الآتية : اورطة من السواري ومدفعين كروب والاورطة الرابعة المصرية والاورطتين السوادنيتين الحادية عشرة والثانية عشرة وبعض رجال القسم الطبي ومجموع الكل ٨٥ ضابطاً و ١١٩٦ عسكرياً و ١٥١ جواداً و ١٩٥ جملاً و ٣٠ بغلاً و ٤٦ حماراً . وقبل وصولنا الى التيب بقليل رأينا عظام القتلى قد انتشرت اكداساً في سهل فسيح تعلوهُ الانجم فعلمنا انا في ميدان وقعة باكر . وعند العصر بلغنا التيب فوجدنا الآبار مسدودة وكان الجيش قد احضر معهُ بعض الفؤوس والفعلة فحفرها واخذنا منها كفايتنا من الماء وبتنا على نية استطراد السير نحو طوكر في فجر الغد . ولكن ما طلع الفجر حتى ثارت زوبعة شديدة غشيت

الجو والطرق بسحاب غبار كثيف دام عدة ساعات فانتظرنا الى صباح اليوم التالي

هذا وكان عثمان دقنه قد عاد من غزوة الحباب وعلم باحتلال هولدسمث لهندوب فترك ابن الطاهر المجذوب وكيلاً عنهُ في طوكر وقام لساعته بمعظم انصاره قاصدًا استرجاع هندوب فما وصل تماي حتى جاءهُ رسول من ابن الطاهر المجذوب يعلمهُ بخروج العساكر من ترنكتات قاصدين طوكر فرجع على الاثر ودخل الديم الاثنين في ١٦ فبراير وكان الديم في بقعة خصبية تسمى عفافيت على نحو ٣ اميال الى الجنوب من طوكر القديمة وهو ديم متسع محيطهُ ٤ اميال وفيهِ نحو ٦٠٠٠ طفل. فحال وصولهِ ضرب نقارة الحرب وجمع اهل بادية طوكر الى جيشهِ فاجتمع عندهُ في ذلك اليوم : ٦١٣٠ مقاتل منهم ٥٠٠ رجل من الارتيقة والجميلاب والنوارب والاشراف والدقناي والخاسة وغيرهم من اهل بادية طوكر وكلهم مسلحون بالسيوف والحراب والدرق و٧٠٠ من الاعراب الجعليين والدناقلة والبقارة معهم ٣٠٠ بندقية و٣٠٠ جهادي مسلحين بالبنادق و ١٣٠ فارسًا

وفي ظهر الثلثاء في ١٧ منهُ خرج بجميع مقاتلتهِ الى ظاهر الديم فلم يبقَ فيهِ سوى النساء والاولاد وجعلهم اربعة ارباع في كل ربع خليط من الوطنيين والاعراب والجهادية وجعل على كل ربع اميرًا وكان امراء الارباع : شايب احمد والشريف حمد النيل ومحمد احمد واحمد بدوي ابو صفيَّه وجعل على الفرسان عثمان نائب وكلهم من مولدي الدناقلة وقد جعلهُ وراء الجيش ليمنع الناس من الفرار وارسل طلائعهُ لتنبئهُ بحركات الجيش

هذا وكنا عند وصولنا ترنكتات قد علمنا برجوع عثمان دقنه الى طوكر ولكننا لم نتحقق ذلك حتى مساء ١٦ فبراير اذ فرَّ الينا محمد اغا حسين الشايقي من ضباط كردوفان الباشبوزق فأخبرنا برجوع عثمان من غزوة الحباب وشخوصهِ الى هندوب. وفي فجر ١٨ فبراير قبض كشافة الجيش على طليعة لعثمان فاكد لنا رجوعهُ الى عفافيت واستعدادهُ لملاقاة الجيش وانهُ يوم رجوعهِ شنق ثلاثة من مشايخ البلاد لانهم حاولوا الفرار الى الجيش وقطع يد ورجل ٢٠ رجلاً منهم لاتهامهِ اياهم بالجاسوسية

واقعة طوكر في ١٩ فبراير سنة ١٨٩١

وفي فجر ١٩ فبراير ترك هولدسمث في التيب المدفعين و٥٠ رجلاً من الطوبجية ونصف بلوك من الاورطة الثانية عشرة وسار بالجيش الى طوكر تتقدمهُ السواري وكان في مقدمة السواري القائمقام ونجت بك فالتقى بطلائع العدو عند خرائب طوكر القديمة فردَّهم على اعقابهم و بعث يستحث الجيش على الاسراع لاحتلال تلك الخرائب والامتناع بها قبل وصول العدو فسار الجيش سيرًا حثيثًا حتى وصلها الساعة ١٠ صباحاً فاتخذ من جدرانها متاريس واصطف فيها على شكل نصف دائرة جاعلاً حملة الماء والذخيرة وراءهُ ومكث هولدسمث واركان حربهِ في الوسط . وفي اثناء ذلك كنا نرى العدو من خلال الانجم التي ملأت السهل من حولنا وهو مقبل نحونا ركضاً قصد احتلال الخرائب قبلنا فسبقناهُ اليها ببضع دقائق ولو سبقنا اليها لاستحال علينا اخراجهُ منها وترجح رجوعنا عنهُ بالخيبة والخسران وكان الفضل كل الفضل في هذا السبق للحازم الباسل القائمقام ونجت بك كما ذكرنا . وما أتم الجيش انتظامهُ في الخرائب حتى كان العدو قد اصبح على قيد ٥٠ يردًا منها ففتح الجيش افواه البنادق وصب الرصاص عليهِ كالمطر الوابل واجاب العدو نيراننا واشتد القتال باطلاق الرصاص من الجانبين . وقد كنت قبل بدء القتال على قمة تلة بين الخرائب اشاهد العدو وهو مقبل علينا فبقيت على تلك التلة اشاهد القتال فكان رصاص العدو على كثرتهِ قليل الاصابة عالي المرمى حتى انهُ كان يمر فوق رأسي مع شدة ارتفاع موقفي واما رصاص الجيش فقد كان صائباً فتاكاً فكنت ارى ابطال العدو مهاجمين والرصاص يجندلهم الواحد بعد الآخر حتى كان بعضهم يقتل على قيد متر أو مترين من صفوف الجيش . ولما كثر القتل فيهم رأيت فرسانهم يدورون حول الجناح الايمن قصد مهاجمتنا من الوراء فمدّ الجيش جناحهُ وصلاهم نارًا حامية فجندل ابطالهم وصدَّهم عنهُ ولكن فاز اميرهم عثمان نائب باختراق الصف واذ قتل فرسهُ من تحتهِ هجم راجلاً وبيدهِ الحربة وهو ينادي «اين الملعون كبيركم» فتصدى لهُ الكبتن «انشل قومندان الحملة (مستشار الداخلية الآن) ورماهُ برصاصة من مسدّسهِ فاحتمل الضربة وظل مهاجماً ثم رأيت محمد بك احمد مأمور سواكن

قد كرَّ عليهِ راكبًا جوادهُ وشاهرًا سيفهُ ولكنهُ قبل ان يدركهُ وقع يخبط بدمائهِ عند اسفل التلة التي كنت جالسًا عليها فضربهُ بالسيف ضربة فأجهز عليهِ . واخترق صف العساكر ايضًا فارس آخر يدعى الأُخيضر فقُطع اربًا . ثم ان رماحة الدراويش حاولوا ان يدوروا حول الجناحين فلم يفلحوا ودامت الواقعة في احتدامها ساعة ونصف ساعة فكانت اشد الوقائع التي جرت للجيش مع الدراويش وحق لجميع الضباط والعساكر الذين اشتركوا فيها كل مدح وثناء . وقد انجلت عن انهزام عثمان دقنه وانصارهِ فمرُّوا بديمهم واخذوا نساءهم وما خف من الامتعة وفرُّوا جنوبًا وما ابعدوا حتى انقسموا فريقين فريقًا انضم الى الامير شايب فذهب الى حامد علي البقاري في كسلة وفريقًا بقي مع عثمان دقنه فنزل في ادارأمه على الاتبرة . وزحف الجيش على الديم وكان قد تخلف فيهِ كثير من اهل البلاد وجماعة من رجال الفتح الاول الذين كانوا في اسر الدراويش من ضباط وعساكر وملكية وتجار فرفعوا راية بيضاء وخرجوا لاستقبال الجيش فتلقاهم بالترحيب واحتل الديم مساء يوم الواقعة وبذلك عادت بلاد طوكر الى الحكومة المصرية بعد ان رتع فيها الدراويش سبع سنين . وقد قتل من الجيش في هذه الواقعة ضابط و ٩ عساكر وجرح ٤٨ رجلاً واما الدراويش فقد بلغ عدد قتلاهم ٧٠٠ رجل فيهم ١٧ اميرًا وزاد عدد جرحاهم على ذلك

«الغنائم» ثم جمعت الغنائم من الديم فكانت اكداسًا عظيمة من الاسلحة القديمة والجبخانة والرصاص والنقاقير والذرة والاثاث وفيها ٤ مدافع وخيام من ايام باكر . وقد وجدتُ بين دفاتر بيت المال واوراقهِ تاريخ وقائع عثمان دقنه كما قدمهُ للخليفة فاطلعت منهُ على حقائق شتى . وبيعت الغنائم التي لم يحتج الجيش اليها بالمزاد فاشترى القائمقام ونجت بك نقارة كبيرة عليها كتابة قديمة تقرأ هكذا : «هذه نقارة الفضة ... نقارة سلطان الحبشة السلطان ياسو ابن السلطان الكبير . يوم الاثنين ... سنة ١١٠٧ ... يوم جاء بنفسهِ فقتلهُ السلطان بادي في شهر صفر» وعليها كتابة اخرى حديثة بأحرف رفيعة : ملك السيد محمد احمد الشيخ ادريس سنة ١٣٠٤ ولم نرَ في عفافيت شيئًا يستميل النظر سوى مشنقتها وجامعها وهو عبارة عن



﴿ عباس باشا حلمي الثاني ﴾

﴿ خديوي مصر المعظم ﴾

عدة رواكيب من قش بعضها بجانب بعض . وبجانبه قبر الطاهر المجذوب الذي مات سنة ١٨٩٠ م وثاني يوم الواقعة جاء مشائخ البلاد المجاورة وقدموا الطاعة للجيش فعفي عنهم . وفي ٢٣ فبراير حضر السردار غرنفل الى عفافيت وارسل منشورات الى اهل بادية السودان الشرقي كافة يخبرهم باحتلال الحكومة لطوكر ويدعوهم الى مجلس في سواكن . وفي ٣ مارس اخذ اركان حربه والمحافظ وعاد بطريق تماي وسنكات فوصل سواكن في ٧ مارس وفي ٨ مارس عقد مجلساً مع مشائخ البلاد فصرَّح لهم بالعفو باسم افندينا . وفي ٩ منه عادَ الى مصر هو واركان حربهِ فعدت معهم

﴿ ولاية سمو الخديوي عباس باشا حلمي الثاني في ٨ يناير سنة ١٨٩٢ ﴾

وكانت طوكر البلاد الوحيدة التي استرجعها الجيش في عهد المغفور لهُ توفيق باشا الذي انتقل الى رحمة ربهِ في ٧ يناير سنة ١٨٩٢ . وكان نجلهُ الاكبر عباس باشا حلمي (الخديوي الحالي) اذ ذاك يتلقى العلوم في كلية برلين فوصل مصر في ١٦ يناير وقرئ الفرمان السلطاني بتوليته في قصر عابدين في ١٤ ابريل من السنة المذكورة فكان استرجاع السودان في ايامهِ السعيدة ادام الله نصرهُ وايّدهُ

الفصل الثاني

في

﴿ استرجاع كسلة عن يد الطليان في ١٧ يوليو سنة ١٨٩٤ ﴾

﴿ مع ذكر وقائع فاشوده والسودان الشرقي سنة ١٨٩٦:١ ﴾

﴿ غزوة الزاكي طمل للشلك ﴾ تقدم لنا ذكر قتل ملك الشلك في واقعة راشد بك في قدير فتولى الشلك بعدهُ الملك عمر قيل انهُ ذهب الى المهدي فأعطاهُ البيعة وثبتهُ ملكاً على بلادهِ فبقي لا يعارضهُ فيها معارض الى ان كانت مجاعة سنة ٦ : ١٣٠٧ ﻫ فأرسل اليهِ الخليفة جيشاً في باخرتين لجلب العشور منه فأبى تأدية العشور ولكنهُ ارسل اليهِ ٢٠٠٠ اردب ذرة على سبيل الهدية

فلما كانت سنة ١٣٠٨ﻫ انفذ الخليفة امرهُ الى الزاكي امير القلابات فخرج بنحو ٢٠

الف مقاتل واخترق الجزيرة الى بلاد الشلك فوجد الملك عمر قد حشد الجيوش واستعد لمحاربتهِ فأوقع فيه وقائع دموية حتى قتلهُ فأرسل رأسهُ الى الخليفة وبقي يعيث في بلاد فاشودة فيسترق اهلها وينهب ماشيتهم وغلالهم الى اواسط سنة ١٨٩٢

﴿ سفر الزاكي طمل الى القضارف ﴾ فاستقبلهُ الخليفة احسن استقبال وارجعهُ بجيشهِ الى القضارف في اوائل سنة ١٨٩٣ بطريق ابي حراز ليكون مع جيش كسله في صدد التليان الذين كانوا يعدون حدودهم في الارثريا جنوباً وغرباً فبنى الزاكي في القضارف قصراً جميلاً وعاش بابّهة عظيمة . فسعى بهِ بعض حسادهِ الى الخليفة وفيهم حامد البقاري وعبد الله ابراهيم من امراء جيشهِ بانهُ طامح الى الاستقلال. قيل وقد اساء معاملة الامراء الذين رأى منهم الانحراف عنهُ

﴿ موت الزاكي في سجن ام درمان ﴾ فاستدعاهُ الخليفة الى ام درمان فحضر الجمعة في ٢٥ اوغسطس سنة ١٨٩٣ ؛ فالقى القبض عليهِ وزجهُ في السجن وكبلهُ بالحديد ومنع عنهُ الغذاء فمات جوعاً في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٩٣؛ وكان رجلاً جباراً عبوساً طويل القامة قليل اللحم متماسك البدن اسمر اللون جداً خفيف اللحية طويل الشاربين ونقش خاتمهُ : « وفق لاحسن العمل عبدك الزاكي طمل » ؛ وقد غنم الخليفة مالهُ فوجد عندهُ ٥٠ الف ريال مجيدي وأبو طيره وحلى ثمينة من غنائم الحبشة وكثيراً من الخيل والماشية والرقيق . قيل وكان عندهُ من النساء فوق المئة ومن الاولاد ٢٧ فوزع الخليفة النساء اللواتي لهنَّ اولاد على عبيدهِ واللواتي ليس لهنَّ اولاد على خاصة رجالهِ

وكتب الى امرائهِ في الجهات يخبرهم بسجن الزاكي ثم بموتهِ فمما كتبهُ الى محمود احمد امير الفاشر في سجنهِ : « ... هذا ونعلمك أيها المكرم ان الزاكي طمل قد كثرت فيهِ التشكيات من الانصار الذين معهُ وتضرر كثيراً من سيره فيهم بالعنف وضيق اخلاقهِ وتغير احوالهِ فطلبناهُ لطرفنا ومعهُ العمال وبالممارسة لاحوالهِ وجدنا ان بهِ عارضاً شديداً وقيل انهُ كان معهُ من سابق الاَّ انهُ اشتد عليهِ في هذا الوقت وبأسباب ذلك اجرينا زجرهُ وحبسهُ بالمشورة فان طاب وشفي من ذلك العارض

فيها والا فتصير معالجتهُ منهُ الى ان يقدّر الله لهُ الشفاء أو يقضي الله امرًا كان مفعولاً ... والسلام في ١٤ صفر سنة ١٣١١هـ » ٢٧ اوغسطوس سنة ١٨٩٣م

ثم كتب اليهِ في ١٠ ربيع الاول ٢١ سبتمبر من السنة المذكورة يقول « انهُ هلك في السجن على صفة فظيعة وحالة شنيعة وانهُ بمجرد خروج روحهِ اشتعلت النار في جسمهِ واسود وجهه والعياذ بالله ! »

﴿ واقعة اغوردت في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٩٣ ﴾ وسمى الخليفة احمد علي قائدًا على الجيش مكانهُ وكان التليان لم يزالوا يمدون حدودهم الى جهة كسله فأمرهُ بصدهم فساق الجيش وفيهِ ١٢ الف مقاتل وأوغل في بلاد الارثريا حتى بلغ اغوردت في منتصف المسافة بين كسله ومصوع فالتقاهُ الكولونل اريموندي بنحو ألفي مقاتل من العساكر الوطنية و ٤٢ ضابطًا وأوقع فيهِ واقعة عظيمة فقتلهُ هو ومعظم رجالهِ وفيهم الامير عبد الله ود ابرهيم وهزم الباقين الى كسله وكان ذلك في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٩٣

فتح التليان كسله في ١٧ يوليو سنة ١٨٩٤

فاشتد قلق الخليفة اذ ذاك على كسله فعزل اميرها حامد علي (اخا احمد علي) وولى مكانهُ ابا قرجه ثم مساعد قيدوم وارسل جيشًا بقيادة احمد فضيل من اقاربهِ الى القضارف تعزيزًا لهُ وشرع يستعد لاخذ الثار فرأى التليان ان اخذ كسله يقوي مركزهم في السودان والحبشة فاستأذنوا الحكومة المصرية وأمروا قائدهم الكولونل بارتياري فتقدم بـ ٢٥١٠ رجال الى كسله وباغت اهلها الهجوم في فجر ١٧ يوليو سنة ١٨٩٤ فاحتلها عنوة وفرَّ مساعد قيدوم ومن سلم من القتل الى القضارف وأم درمان فحصن التليان كسله واقاموا فيها الى ان سلموها للحكومة المصرية في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٩٧

ولما وصل خبر كسله الى الخليفة طار صوابهُ فركب جوادهُ وأتى بانصارهِ الى ضفة النيل الابيض ثم دفع الجواد في الماء حتى غمرهُ الى صدرهِ فاستل سيفهُ وهزهُ مشيرًا الى كسله ثم كبر على التليان ثلاثًا واقسم ان لا يرجع عنهم حتى يسترجع كسله ويردهم الى مصوع . ولكنهُ لم يأت شيئًا يستحق الذكر حتى كانت واقعة عدوة في ١ مارس سنة ١٨٩٦ التي انتصر فيها الاحباش على التليان انتصارًا باهرًا

كما سيجيء في تاريخ الحبشة فشرع في تعبئة الجيوش في القضارف لاسترجاع كسله وكان استعداده هذا السبب الاعظم الذي حمل الحكومة المصرية على مباشرة الفتح الاخير كما سيجيء . هذا ما كان في السودان الشرقي فلننظر الآن الى ما كان في السودان الغربي بعد ان تولاه محمود احمد ابن عم التعايشي فنقول :

الفصل الثالث

في

﴿ وقائع السودان الغربي في ولاية محمود احمد سنة ١ : ١٨٩٦ ﴾

مرّ بنا ان محمود احمد وصل الفاشر الاثنين في ٢٦ يناير سنة ١٨٩١ وتولى قيادة جيوش الغرب بدلاً من عثمان آدم . وكان عنده من الجيوش عدا حامية صغيرة في الابيض ٥٤٣١ جهاديًا و ٥٥٥٠ حرابًا و ٨٢٨ فارسًا فجعل منها حاميات في دارة وشكا وكبكية والاضيَّة وبقي هو بمعظم الجيش في الفاشر

﴿ غزوة الميدوب في ٢٠ فبراير سنة ١٨٩١ ﴾ وكانت باكورة اعماله فيها انهُ ارسل سرية بقيادة البشاري ريدة على الميدوب فالتقاهم في عدّ المالحة يوم الجمعة في ٢٠ فبراير سنة ١٨٩١ م وقتل منهم خلقًا كثيرًا وعاد بالاسلاب والغنائم الى الفاشر

﴿ غزوة الرزيقات مارس سنة ١٨٩١ ﴾ وارسل فضل النبي اصيل على الرزيقات فغنم منهم : ٣٩ جوادًا و١١٣ جملاً و ٥٥٩ بقرة و٦٢ حمارًا و ٤٤٦٨ رأس غنم و٦٤ رقيقًا

﴿ حسن تور ﴾ هذا وكان الفور المطالبون بملك اجدادهم بعد قتل ابي الخيرات قد تجمعوا على حسن تور وهجموا على سنين حسين عامل كبكية فردهم بالخيبة والخسران ثم اعادوا الكرة عليهِ يوم الجمعة في ٦ مارس سنة ١٨٩١ فردهم ثانية

﴿ الامير علي دينار والتعايشي ﴾ فولى الفور الامير علي دينار ابن الامير زكريا ابن السلطان محمد الفضل سلطانًا عليهم بدلاً من ابي الخيرات فامتنع بهم في جبل مرة فكتب اليهِ محمود يدعوهُ الى التسليم فحاولهُ مدة ثم جاءهُ مسلمًا . فكتب محمود بذلك الى الخليفة في ٢٨ مايو سنة ١٨٩١ فكتب الخليفة الى الامير علي دينار مرارًا

يستدعيه الى ام درمان وقد بالغ في التلطف لهُ واكثر من الوعود فلبى الدعوة بعد تردّد كثير فقابلهُ بالاحتفاء والاكرام وابقاهُ عندهُ الى ان كانت واقعة كرري سنة ١٨٩٨م ففرَّ منها بأنصارهِ الى دارفور فتولاها الى اليوم وسيأتي ذكرهُ

﴿ تمرد الجهادية في النهود في ٢٠ يوليو سنة ١٨٩١ ﴾ وفي هذه الاثناء حصل جوع في الفاشر فانتقل محمود بجيوشهِ الى النهود وقد أساء معاملة الجهادية فائتمروا على قتلهِ وقتل جميع التعايشة الذين معهُ وخرجوا عليهِ الاثنين في ٢٠ يوليو سنة ١٨٩١ فأخذ بعضهم بالحيلة و بعضهم بالقوة ففاز بالنجاة ونكل برؤوس العصاة . واقلق الخليفة عليهِ فكتب يستدعيهِ مع الجيش الى ام درمان لاجل تدريب الجهادية على طاعتهِ فوصلها في ٧ يونيو سنة ١٨٩٢ فأقام فيها نحو خمسة اشهر وعاد الى الفاشر

﴿ خبر مزيل المحن سنة ١٨٩٣ ﴾ ولم يكد يصل الفاشر حتى اتاهُ كتاب من الخليفة يخبرهُ بأن الناس ارجفوا كثيرًا في ام درمان بقيام رجل في جبال النوبة ادَّعى الاصلاح فدعا الناس لحرب الانصار فالتفت عليهِ جموع كثيرة وقد سمى نفسهُ مزيل المحن وسماهُ بعضهم ابا نعال لانهُ يلبس نعالاً . فكتب اليهِ محمود بتاريخ ٢٩ يناير سنة ١٨٩٣ يقول : « ان هذه الاخبار شائعة في الفاشر ايضاً وان الناس على خلاف في شأنهِ فبعضهم يقول انهُ كجور جبال الكدرو و بعضهم انهُ رجل غيره ظهر لرفع الظلم وغالب الناس يقولون انهُ في جبل السَّما » . قلت وقد وصلت هذه الاشاعات مجسمة الى مصر حتى ظننا ان نهاية التعايشي قد اقتربت ولكن لم تلبث الاشاعات ان انطفأت و بقي التعايشي على حالهِ . وقد رأيت كتاباً من محمود الى الخليفة بتاريخ ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٣ يقول : « اني جلت في جبال النوبة كلها افتش على الرجل فوجدت خبرهُ كذباً واختلاقاً »

﴿ غزوة الجانقية وخبر النصارى في بحر الغزال سنة ١٨٩٣ ﴾ وفي اوائل سنة ١٨٩٣ غزا فضل النبي اصيل عامل شكا بلاد الجانقية فتجمعوا عليهِ وقتلوهُ هو ومعظم جيشهِ . وخلفهُ الزبير النحل على شكا فكتب الى محمود في ٧ مارس سنة ١٨٩٣ يقول : ان ٣٠ سائحاً من النصارى حضروا الى بلاد الفراتيت ثم عادوا الى النيامنيام

﴿ خبر النجل المكرم سنة ١٨٩٥:٤ ﴾ هذا ومما يذكر في هذا الموضع « خبر النجل المكرم » الذي بلغ دويّهُ اقاصي السودان ومصر وذلك ان الخليفة عبد الله لما كان في الابيض استحظى جارية من النوبة فحملت منهُ وهما لايعلمان فلما خرج مع المهدي لغزو الخرطوم سنة ١٨٨٤ لم ترضَ الذهاب معهُ فرجعت الى جبالها فولدت ولدًا ذكرًا ومرت الايام والسنون حتى بلغ عمر الولد ١٠ سنين فنقل بعض التجار خبره الى الخليفة فاهتم لهُ جدًا وارسل رسلاً مخصوصين الى جبال النوبة فأحضروا الولد وامهُ الى ام درمان بطريق الفاشر سنة ١٨٩٥ فاستقبلها الخليفة باحتفال عظيم باهر وهذا « النجل المكرم » وقع اسيرًا في يد السر رجينولد ونجت باشا في واقعة « جديد » سنة ١٨٩٩ وهو الآن في قلعة مصر يتعلم الاشغال اليدوية في ورشتها واسمهُ عبد الصمد

﴿ غزوة محمود لدار قمر ودار تامة سنة ١٨٩٥ ﴾ وفي اوائل سنة ١٨٩٥ خرج ادريس القمراوي عن طاعة المهدية فزحف عليهِ محمود من الفاشر ففرَّ امامهُ الى دار تامة فطاردهُ اليها فجرَّد عليهِ سليمان بن ابراهيم سلطان تامة جيشاً جرارًا بقيادة ابن اخيهِ وولي عهدهِ يونس فالتقاهُ محمود وأوقع بهِ في مكان يدعى كيمه ضحوة الثلثاء في ٢٧ شعبان سنة ١٣١٢ هـ ٢٣ فبراير سنة ١٨٩٥ فقتلهُ وهزم جيشهُ

﴿ مهدي تامة الاول ﴾ فجهز السلطان سليمان جيشاً آخر اعظم من الاول وعقد لواءهُ لاخيهِ فضل وارسلهُ لقتال محمود وقبل الوصول اليهِ ظهر فقيه من قرية الجميزة التي خرج منها ابو جميزة المار ذكرهُ وادَّعى انهُ المهدي المنتظر وتكفل لجيش السلطان سليمان بابادة الدراويش فصدقهُ وكتب الى برقو والمساليت فوفد اليهِ جموع كثيرة ثم كتب الى محمود يخبرهُ بظهورهِ ويدعوهُ الى الطاعة وكان محمود قريباً منهُ فاستعد لهُ والتقاهُ ضحى الاثنين في ٢٤ مارس سنة ١٨٩٥ م قرب وادي « بالي » فكان بين الفريقين قتال شديد اقتتلا فيهِ بالحراب والسيوف فقتل مهدي تامة وانهزم جيشهُ . وقد علق كل من انصارهِ لوحاً في عنقهِ عليهِ كتابة «قطعة» زعم انها تقيه من الرصاص فأرسل محمود رأس المدعي وبعض هذه الالواح مع تفصيل الواقعة الى الخليفة وتقدم لقتال السلطان ابراهيم في عاصمتهِ ففر من وجههِ الى برقو

﴿ مهدي تامة الثاني ﴾ ولكن لم يكن الا القليل حتى ظهر من قرية الجميزة مهدي آخر يدعى احمد بن عبدالله فالتفت حولهُ الانصار من تامة و برقو والمساليت وقد ادعى انهُ نزل من السماء وان ابا جميزة تلميذهُ ولكنهُ قام بالدعوة بلا اذنه فلم يفلح فطاردهُ محمود الى مكان يدعى «ليلة» ففرّ منها فأرسل خلفهُ الفرسان فأدركوهُ جنوبي ليلة فقتلوهُ وشتتوا جموعهُ وتقدم محمود الى قرية الجميزة فأخربها وحرق الجميزة ثم ولّى ادريس ابرهيم وكيلاً عنهُ في دار تامه فأقام في عاصمتها نيرة وولى حسب الله ابو بكر اخا ادريس القمراوي وكيلاً عنهُ في دار قمر فأقام في عاصمتها قناطير

وفي ١ اوغسطوس سنة ١٨٩٥ م غزا زغاوة فغنم وسبى وعاد الى الفاشر

﴿ النبي عيسى في دار تامه ﴾ ورأيت منهُ كتاباً الى الخليفة بتاريخ ٤ اوكتوبر سنة ١٨٩٥ م يقول فيهِ : « انهُ ظهر في دار تامه رجل ادعى انهُ نبي الله عيسى »

وبقي محمود في الفاشر الى ان زحف الجيش المصري لاسترجاع دنقله فاستدعاهُ الخليفة الى أم درمان فحضر وعاد في ٦ سبتمبر سنة ١٨٩٦ واخذ في جمع اطرافه. ثم ولّى امبدّى الرضي على الفاشر والختيم موسى على الايض وأتى بجيشهِ الى أم درمان فوصلها في ٨ الحجة سنة ١٣١٤ هـ ١٠ مايو سنة ١٨٩٧ م فأرسلهُ الخليفة الى المتمة لتأديب الجعليين الذين خرجوا عن طاعتهِ والوقوف في صدد الجيش المصري كما سيجيء تفصيلاً

الفصل الرابع

في

﴿ وقائع ام درمان سنة ١ : ١٨٩٦ ﴾

الخليفة والاشراف سنة ١ : ١٨٩٥

اشرنا غير مرّة الى الشدة والدهاء اللذين عامل بهما التعايشي رفيقهُ الخليفة شريف لمناظرتهِ اياهُ في الخلافة وما زال التعايشي يضيق عليهِ حتى ضاق صدرهُ ونفد صبرهُ. وقد نال اولاد المهدي والاشراف عموماً نصيبهم من هذا التضييق لحاز بتهم للخليفة شريف فاجتمعوا كلهم وألفوا جمعية سرية في ام درمان على قتل التعايشي والقبض

على ازمة الملك وقد كاتبوا اخوانهم الدناقلة في الجزيرة يدعونهم الى ام درمان للتضافر على هذا العمل . وأودعوا سرهم بعض الجعليين وفيهم البدوي ود العريق فوشى بهم الى التعايشي فشرع هذا في اتخاذ التحوطات اللازمة لصيانة نفسهِ والتنكيل بالاشراف . وعلم هؤلاء بافتضاح سرهم فأسرعوا الى تنفيذ مشروعهم قبل ان تمكن التعايشي من عرقلة مساعيهم . فاجتمعوا في قبة المهدي والمنازل المجاورة لها وكانوا قد خبأوا بعض الاسلحة والذخيرة فأخرجوها ولم يبقَ واحد منهم الا تقلد حساماً أو بندقية حتى ارامل المهدي فانهنَّ كنَّ الى ذلك العهد محجورات في منازلهنَّ لا يخرجنَ ولا يرين احدًا فخرجنَ في تلك الليلة وتقلدنَ السيوف طالبات الحرب

كل ذلك والخليفة عبد الله في منزلهِ يستعد لرد كيد الاشراف في نحرهم ففرق على ملازميهِ البنادق والذخيرة وامر بعضهم بملازمة بابهِ وبعث البعض الآخر الى الاسواق لمنع المدد عن الاشراف . ثم جمع اهلهُ التعايشة فوزع عليهم نحو الف بندقية وجعلهم في الساحة التي بين منزلهِ ومنازل الاشراف واقام اخاهُ يعقوب بجيشهِ في الجامع بجانب منزلهِ وقد جرى ذلك كلهُ مساء الاثنين في ٢٠ ربيع الثاني سنة ١٣٠٩هـ ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٩١م . وفي صباح الثلثاء احاط بالاشراف احاطة السوار بالمعصم واستعد اتم الاستعداد للبطش بهم . ولكنهُ لم يكن يودُّ الالتجاء الى القوة ما استطاع الى الدهاء سبيلاً وقد خشي انهُ اذا انتشبت الحرب ينتهز عرب الغرب الفرصة فينهبون المدينة ويفرون الى بلادهم فأمر رجالهُ بأن يلزموا خطة الدفاع مهما بدا من الاشراف حتى يأمرهم بالهجوم . ثم ارسل الخليفة ود حلو وجماعة من اكابر القوم الى الاشراف يدعوهم الى الصلح ويعاهدهم على اجابة سؤلهم وازالة شكواهم فلم يرضَ الاشراف بالصلح و بدأوا باطلاق النار على منزل التعايشي فأجابهم انصار التعايشي باطلاق النار وداموا على ذلك نحو ساعة . فعاد الخليفة وعرض عليهم الصلح ثانية فلما رأوا استعداد التعايشي مالوا الى المسالمة وقالوا نريد ان نعرف ما هي شروط الصلح فأجابهم التعايشي ضعوا انتم الشروط وما زالت المفاوضة جارية بقيــة ذلك اليوم (الثلثاء) وطول ليلهِ الى الصباح التالي (الاربعاء في ٢٥ نوفمبر) فانفرجت الازمة وتمَّ الصلح على شروط اهمها :

١٠ ان يعفو التعايشي عفوًا عامًا عن جميع المشتركين في الثورة ٠ ٢٠ ان يجعل لمحمد شريف مقامًا يليق بهِ ويخلي لهُ كرسيًا في مجلسهِ ٠ ٣٠ ان يرد اليهِ راياتهُ ليجمع تحتها المتطوعة ٠ ٤٠ ان يخصص لهُ راتبًا شهريًا قدرهُ ٢٠٠٠ ريال ولأولاد المهدي ونسائهِ رواتب تكفيهم من بيت المال ٠ ٥٠ ان يسلم الاشراف سلاحهم ويطيعوا التعايشي طاعة عمياء ٠ وعاهد الخليفة علي ود حلو الخليفة شريفًا على انفاذ هذه الشروط وحلف على المصحف انهُ يكون ظهيرًا لهُ اذا لم تنفذ ٠ ثم اتى بهِ الى التعايشي فاستقبلهُ احسن استقبال ووقع على عنقهِ يقبلهُ ويتأسف على ما جرى وامّل ان تعود المياه الى مجاريها ثم امضى لهُ الشروط وامضاها الخليفة شريف وعاد الى منزلهِ وهو بغاية الطمأنينة وراحة البال ٠ ثم اخذ التعايشي يبحث سرًّا عن مثيري هذه الفتنة ولم يمضِ ٢٠ يومًا على الصلح حتى قبض على جماعة من الاشراف اهمهم : احمد ود سليمان امين بيت المال الاسبق وفوزي محمود واخوهُ احمدي كاتبا الخليفة وصالح ود سوار الذهب وسعيد محمد فرح وكلاهما من كبار الدناقلة واحمد محمد خير من الاشراف واحمد النور كاتب الخليفة شريف فسجنهم في ام درمان اياماً مكبلين بالحديد ٠ ارسلهم في قارب الى الزاكي طمل في فاشوده فقتلهم ضربًا بالنبابيت ٠ وكان قد اصدر منشورًا بحبسهم هذا نصُّهُ :

« وبعد فيقول عبد ربه خليفة المهدي « عم » الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق انهُ بليلة الاثنين الماضي الموافق ١٢ الجاري سنة تاريخهُ قد سمعت وانا بين اليقظة والنوم هاتفًا يتلو عليَّ هذه الآية وهي قولهُ تعالى فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليماً » ٠ ثم في ضحوة هذا اليوم الذي هو يوم الاربعاء الموافق ١٤ الجاري ايضًا حصلت لي حضرة اجتمعت فيها بالنبي عليهِ الصلاة والسلام والمهدي « عم » فقال لي المهدي « عم » بلغ الخليفة عليًا والاصحاب الواقفين مع اشارتك السلام وقل لهم المهدي يقول لكم جزاكم الله خيرًا عن ذلك ثم اخبرني « عم » بأن الاصحاب الذين وقفوا مع اشارتي في المسألة التي حصلت قد نظر الله اليهم بعين الرحمة ثم قال لي « عم » ان احمد سليمان واحمد النور واحمد محمد خير وسعيد محمد فرح وفوزي واحمدي وصالح

سوار الذهب فليكن حبسهم فقلت للمهدي «عم» ان اهل الظاهر ينكرون عليَّ ذلك ويقولون عفا عنهم ثم حبسهم فقال لي المهدي «عم» ان الحق معك واهل الباطن معك فاحبسهم واتلُ على الاصحاب المنشور المحرر منا في حقك فمن ينكر بعد ذلك فذنبهِ عليهِ ثم قال لي المهدي «عم» ان من يخالف اشارتك في هذا الزمان ولو كان يمشي على البحر حتى يقطعهُ فأمن باطل وهذا مالزم الاعلام بهِ والعلم لله والسلام في ١٤ جمادي الاولى سنة ١٣٠٩ هـ ١٦ ديسمبر سنة ١٨٩١

﴿ سجن الخليفة شريف ﴾ ولما بلغ الخليفة شريفاً قتل المذكورين غضب وشكا امرهُ الى الله جهاراً من ظلم التعايشي وجورهِ وامتنع عن صلاة الجمعة والجماعة ففتح للتعايشي باباً طالما ترقب فتحهُ فأمر الخليفة علي ولد حلو والقضاة ان يقضوا عليهِ بما فيهِ تأديب لهُ وعبرة لغيرهِ ويعلموهُ ان تجاوزهُ حدودهُ أوجب قتل اقاربهِ . فاجتمع القضاة والامراء وحكموا بسجنهِ فسيق مضروباً مهاناً الى السجن حيث وضعوهُ وحدهُ في كوخ من قش وكبلوهُ بالحديد وذلك في ٢ مارس سنة ١٨٩٢ ؛ وهذه هي صورة الحكم حرفياً بعد البسملة :

« حمداً لمن جعل الاستقامة طريقاً للسلامة وشكراً لمن وفق ذوي البصائر الى الوقوف على قدم الصدق فصاروا من اهل الكرامة وخصَّ اهل عنايتهِ بأنوار هدايتهِ فاستسلموا لقضائهِ واستراحوا من الوقوع في هاوية الندامة وحضَّ على طاعة أولي الامر بقولهِ تعالى يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الامر منكم لانتظام الحال والسلامة في يوم القيامة وصلاةً وسلاماً على قطب دائرة الاصل النوراني ومنبع الفيض الرحماني واشرف النوع الانساني ومعدن السر الرباني سيدنا محمد الذي قصم بسيف الحق ظهر الخلاف ومكن حسام الشرع من رقاب اهل الانحراف وعلى آلهِ واصحابهِ الذين قوي في الله يقينهم فآمنوا بالغيب فانكشفت غياهب الشك عن بصائرهم فازدادوا ايماناً وتمكن دينهم . وبعد فان الخليفة محمد شريف حامد قد بارز خليفة المهدي «عم» بالعداوة والعصيان والخلاف حتى تظاهر بالحرابة لهُ وشهر السلاح عليهِ ولم يبال بادخال الخلل في الدين وشق عصا المسلمين .

فبعد هذا كلهِ اجتمع جماعة المسلمين واحضروه بين ايديهم وحلّفوهُ على كتاب الله تعالى فحلف وعاهد على ان لايعود الى مثل ما صدر منهُ ثم جاء خليفة المهدي «عم» نادماً على شنيع فعلهِ فقبلهُ معما ارتكبهُ من عظيم الذنب والخطيئة . . . وعفا عنهُ وقابلهُ بالصفح والاكرام . ثم نقض العهد وعاد الى الخلاف واضمار السوء والاصرار على عدم الامتثال فضلاً عن كونهِ تاركاً الجمعة والجماعة فعند ذلك اجتمع اصحاب المهدي «عم» من قضاة الشرع الشريف وامراء وعمد واعيان وسألوهُ عن ذلك فقابلهم باقبح المقال وتفوه بما يؤدي الى سوء الحال حتى قال ان الغوث معهُ وفي حزبهِ وان نصرة المهدية تحت قدمهِ وان الصحابة اعترضوا على النبي (صلعم) وغير ذلك من سوء المقال وما زالوا يراجعونهُ بالقول اللين الحسن وتلوا عليهِ منشور المهدي «عم» في خليفتهِ والمنشور الذي وجّههُ اليهِ خاصة وأمرهُ فيهِ باتباع خليفتهِ وعدم خروجهِ عن اوامرهِ فعند ذلك اظهر التوبة والندم . فنظراً لما حصل منهُ من نقض العهد وعدم استمرارهِ على التوبة السابقة اقتضى نظر اصحاب المهدي «عم» طبق الوجه الشرعي وضعهُ بالسجن تأديباً لهُ . ولولا اظهارهُ التوبة عما حصل منهُ لكان جزاؤهُ اعظم من السجن . وقد ثبت جميع ذلك لدى اصحاب المهدي «عم» الآتي ذكر اسمائهم واختامهم فيهِ ادناهُ وجميعهم شهدوا عليهِ شهادة حق يؤدونها بين يدي احكم الحاكمين والسلام سنة ١٣٠٩ هـ وامضى المنشور ٤٦ رجلاً من اكابر دولة التعايشي واهل شوراهُ وهم :

احمد علي قاضي الاسلام	السيد المكي اسماعيل	عبد القادر أم مريوم	اسماعيل عبد القادر
الهادي دفع الله الحلاوي	عثمان احمد البطحاني	محمد البدوي	مكي ابو حراز
احمد حمدان	حسين جزؤ	شرف الدين دفع الله	عبد الله الحسن
احمد الاخيضر	الزاكي محمد	محمد عمر البنا	البدوي العريق
محمد حامد جفون	علي الامين	عبد الباقي الماحي	عمر الياس ام برير
طه الجعلي	خالد عطا المنان	طه الازيرقابي	العطا الدود
المبارك جباره	محمد البصير	عبد الله احمد	عجب الفيه
بابكر عمر	القرشي احمد	ابرهيم الفكي	محمد علي بلال
عبد الله برجوب	عبد الرحمن ابو سيل	عثمان ابو خوبدم	كباشي محمد
جاد الله بليلو	النور السيفي	النعيم احمد	الشريف النابر
جفون احمد	ابرهيم علي * عبيد موسى	محمد عثمان الضيف	علي المدني * سعيد لبطه

واما منشور المهدي المشار اليهِ في حق الخليفة عبد الله فهذا هو بنصهِ بعد البسملة:

« و بعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله اعلاماً منهُ الى عباد الله المؤمنين بالله و بكتاب الله . اما بعد فاعلموا ايها الاحباب ان الخليفة عبد الله خليفة الصديق المقلد بقلائد الصدق والتصديق هو خليفة الخلفاء واميرجيش المهدية المشار اليهِ في الحضرة النبوية فذلك السيد عبد الله ابن السيد محمد حمد الله عاقبتهُ في الدارين . فحيث علمتم ذلك يا احبابي ان الخليفة عبد الله هو مني وانا منهُ وقد اشار اليهِ سيد الوجود (صلعم) فتأدبوا معهُ كتأديبكم معي وسلموا اليهِ ظاهرًا وباطنًا كتسليمكم لي وصدقوهُ في قولهِ ولا تتهموهُ في فعلهِ فجميع ما يفعلهُ بأمر النبي (صلعم) او باذن منا لا بمجرد اجتهاد منهُ ولا هو عن هوى بل هو نائب عنهُ في تنفيذ امرهِ (صلعم) والقضاء باشارتهِ فان فعلهُ بكم وحكمهُ فيكم بحسب ذلك . واعلموا يقيناً ان قضاءهُ فيكم هو قضاء رسول الله (صلعم) كما قال الله تعالى «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسولهُ امرًا ان تكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعص الله ورسولهُ فقد ضل ضلالاً مبيناً» فمن كان في صدرهِ حرج لاجل حكمهِ فذلك لعدم ايمانهِ وخروجهِ من الدين بسبب غفلتهِ وذلك بشاهد قولهِ تعالى: فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً . ولا شك في شرك من استنكف عن حكم الله ورسولهِ سيما بقولهِ (صلعم) ان اخوف ما اخاف عليكم الشرك الخفي الحديث . مع انهُ خليفة الصديق واول المصدقين في المهدية فانظروا لمكان الصديق عند الله ورسولهِ بنص القرآن العظيم وانظروا لمكانة من اورثهُ الله مكان الصديقين ووازرهُ بالباطن بالخضر «عم» فهو مسدد مؤيد من الله ورسولهِ ويد من الله لنصر دينهِ باشارة سيد الوجود (صلعم) وقد ورد في فضلهِ كثير . فحيث فهمتم ذلك فالتكلم في حقهِ يورث الوبال والخذلان وسلب الايمان » واعلموا ان جميع افعالهِ واحكامهِ محمولة على الصواب لانهُ أوتي الحكمة وفصل الخطاب ولو كان حكمهُ على قتل نفس منكم او سلب اموالكم فلا تعترضوا عليهِ فقد حكمهُ الله فيكم بذلك ليطهركم ويزكيكم من خبائث الدنيا لتصفى

قلوبكم وتقبلوا الى ربكم ومن تكلم في حقهِ ولو بالكلام النفسي جزماً فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ويخشى عليهِ من الموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله لانهُ خليفة الصديق الذي قال الله في حقهِ اذ يقول لصاحبهِ لا تحزن ان الله معنا. وقال (صلعم) ان آمن الناس عليَّ في الصحبة ابو بكر. وقال «عم» ما طلعت شمس على احد بعد النبيين افضل من ابي بكر» وحيث علمتم ذلك فهو بمنزلتهِ الآن لان اصحابنا كأصحاب رسول الله (صلعم) وهو خليفتنا في الدين وخلافتهُ بأمر من النبي (صلعم) فمن كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ومصدقاً بمهديتي فليسلم للخليفة عبد الله ظاهراً و باطناً واذا رأيتم منهُ امراً مخالفاً في الظاهر فاحملوهُ على التفويض بعلم الله والتأويل الحسن واعتبروا يا أولي الابصار بقضية موسى والخضر عليهما السلام حكاها الله في كتابهِ العزيز لحكم داود وسليمان عليهما السلام لتسلموا من الشكوك والاوهام وانما انذرتكم بهذا رحمة لكم وشفقة عليكم وليبلغ الشاهد منكم الغائب لئلا تسبوهُ وتنسبوا اليهِ الظلم والجور فتهلكوا . فاحذروا عن اذية اولياء الله فانها اذية الله ورسولهِ وقد لعن الله ذلك في كتابهِ فقال ان الذين يؤذون الله ورسولهُ لعنهم الله في الدنيا والآخرة كما ان من آذى لي وليًّا فقد آذنتهُ بالحرب فان الله غيور على اوليائهِ فقد علمتم انهُ ورد «من نقض الكعبة حجراً حجراً ثم حرقها بالنار اهون عند الله من ان يؤذي وليًّا من اوليائهِ وان الخليفة هو قادة المسلمين وخليفتنا النائب عنا في جميع امور الدين واياكم والوسوسة في حقهِ وظن السوء وعدم الامتثال اليهِ في قولهِ والمشاجرة لهُ ولاحكامهِ ... فتوبوا الى الله وارجعوا قبل ان تذهب حسناتكم وتسلبوا ثوب الايمان . وانما حملني على هذا البيان النصيحة في الله ... فمن تاب تاب الله عليهِ ومن عاد فينتقم الله منهُ ويسلطهُ عليهِ وهذا امر الله ورسولهُ فليحذر الذين يخالفون امرهُ ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم والسلام سنة ١٣٠٠هـ » اه

﴿ حبس اولاد المهدي ﴾ و بعد حبس الخليفة شريف امسك التعايشي اولاد المهدي البالغين وهم الفاضل ومحمد والبشرى وحبسهم في منزل جدهم لامهم احمد

شرفي ومنعهم الخروج منهُ ولم يسمح لاحد ان يراهم وبقوا على ذلك مدة

﴿ حبس الدناقلة ﴾ ثم ارسل بعض رجاله الى الجزيرة فامسكوا نحو الف رجل من الدناقلة الذين اتهموا بمشاركة الاشراف في الفتنة وأتوا بهم الى ام درمان فزجهم في السجن ثم استصفى اموالهم واطلق سراحهم واودعهم منّة عفوهِ عنهم

﴿ نفي بعض التعايشة وقتل محمد عبد الكريم وعبد القادر ساتي علي ﴾ وفي شهر يوليو سنة ١٨٩٢ ائتمر نحو ٧٠ رجلاً من التعايشة على قتل الخليفة عبد الله اخذاً بثار الغزالي فخانهم واحد منهم واعلم الخليفة بمكيدتهم فقبض عليهم ونفاهم الى الرّجاف

ثم لم يبقَ في ام درمان من كبراء الاشراف الا محمد عبد الكريم المشهور وعبد القادر ود ساتي علي طبيب المهدي وكانا قد اشتركا في فتنة الاشراف فابقى عليهما الخليفة ريثما يطلع منهما على اسماء بقية المشتركين في الفتنة فلما كانت فتنة التعايشة قبض عليهما بحجة انهما يغريان الناس بشق عصا طاعتهِ ثم اوثقهما بالحديد وارسلهما الى الزاكي في فاشودة فقتلهما ضرباً بالفؤوس وذلك في اوغسطوس سنة ١٨٩٢

وفي هذه الاثناء انتدب الجعليين الذين عاهدوا الاشراف على الثورة ثم خانوهم كما مرَّ وامرهم بالذهاب الى كسله فتأخروا في رفاعه فاستدعاهم الى ام درمان ونفى رؤوسهم الى الرّجاف في نوفمبر سنة ١٨٩٢ وهم : البدوي العريق وعمر الياس باشا ومحمد حامد جفون ومحمد صالح وحاج مرزوق الشايقي وعبد الباقي الماحي المكابرابي وعبد المجيد نور الدايم وقد سجنهم سنة في الرجاف ثم اطلق سراحهم فمات بعضهم في المنفى ونجا البعض

وكان قد نفى قبلهم الى الرجاف اسماعيل شجر الخيري لاتهامهِ بانهُ محارب للاشراف

﴿ نفي أبي قرجه وزقل ﴾ وبقي من الاشراف المعروفين في السودان ابو قرجه وزقل . اما ابو قرجه فانهُ عند قيام الاشراف كان عاملاً على كسله فخشي الخليفة ان يتحد مع التليان فاستدعاهُ الى ام درمان بعد ان تولى كسله ثمانية اشهر وولى مكانهُ مساعد قيدوم كما مرّ ثم ارسلهُ الى خط الاستواء بنفر من الانصار معللاً اياهُ بأنهُ سيكون عاملاً عليها واصحبهُ بقاريًّا بكتاب الى امير الرجاف فقبض عليهِ حال وصولهِ وزجهُ في السجن . ثم الحق بهِ محمد خالد زقل سنة ١٨٩٣ على ما سيجيء

﴿ المصالحة ﴾ وطال الزمان على الخليفة شريف في السجن فتوسط لهُ اولاد المهدي وامهات المؤمنين مع التعايشي فأرسلهم التعايشي الى اخيهِ يعقوب فضرب لهم المثل الآتي :

« حكي ان رجلاً كان ينتاب حية في جذع شجرة فيحمل اليها كل يوم شيئاً من اللبن فتشربهُ وتلفظ من فيها قطعة من الذهب في الوعاء فيحملها وينصرف ثم يأتي في اليوم التالي باللبن فيعود بقطعة الذهب وبقي على ذلك اياماً حتى عرض لهُ سفر فأناب ابنهُ عنهُ في ارسال اللبن الى الحيــة فلما رأى الابن ان الخير كلهُ في جوف الحية قال في نفسهِ اقتل الحية وآخذ الذهب من جوفها مرة واحدة واستريح من العناء. فأخذ سيفاً في يدهِ وحمل اللبن على عادتهِ وقدمهُ الى الحية فلما همت بشربهِ بادرها بضربة من سيفهِ فقطع ذنبها فثارت الحية عليهِ وقتلتهُ . فلما عاد الرجل من سفرتهِ تفقد ابنهُ فلم يرهُ فذهب الى مكان الحية فوجدهُ مقتولاً تحت الشجرة ثم اقبلت الحية فقدم اليها اللبن فقالت لهُ دع عنك هذه الصحبة بعد الآن فان ابنك غدر بي فقتلتهُ فأنت لن تنسى قتل ابنك وانا لا انسى قطع ذنبي » اه . ففهم المتوسطون من ذلك ان التعايشي لا يعفو عن الخليفة شريف لانهُ لا يأمن غدرهُ بعــد الآن

وكان في جملة المتوسطين للخليفة شريف محمد ابن المهدي المتزوج باحدى بنات التعايشي فلما رأى اصرارهُ على سجن الخليفة شريف ثار بهِ الغضب فطلق امرأتهُ هذه فزوجها التعايشي سلفها البشرى فازداد محمد غيظاً واستياء . وبقي الجفاء مستحكماً بين التعايشي والاشراف حتى بدأ الجيش المصري بالزحف على السودان فرأى التعايشي ان يسلّ الضغائن والاحقاد التي بينهُ وبينهم فأطلق الخليفة شريفاً من السجن وزوج محمد المهدي بابنة اخيهِ يعقوب وعاد الى مصافاتهم

زيادة ملازمي الخليفة وتولية ابنهِ اميراً عليهم وبناء سور حول منزلهِ سنة ٣ : ١٨٩٤

اما ملازمو الخليفة فهم حرسهُ الخاصّ وكانوا قبل فتنة الاشراف لا يزيدون على ٥٠٠ من الجهــادية السود فلما كانت الفتنة اخذ في زيادة عددهم من شبان السود وجميع القبائل من عرب وعجم حتى بلغوا الوفا . فأسكنهم حول منزلهِ وجعل ابنهُ البكر الذي سماهُ شيخ الدين اميرًا عاماً عليهم ورشحهُ للملك بعدهُ * وتخر اهل ام درمان

فبنوا حول منزله ومنازل ملازميه سورًا منيعاً سمكه اكثر من متر وعلوه نحو ٥ امتار وظلَّ يزيد عدد ملازميه حتى ضاق بهم السور فأقام لهم سورًا آخر لاصقاً بالسور الاول وطرد اهل البلد منه وقد شرع في بناء السور في اوائل سنة ١٨٩٣ فأتمه سنة ١٨٩٤

قتل ود جار النبي الثلثاء في ١٠ صفر ١٣٠٩ ؟ ١٥ سبتمبر سنة ١٨٩١ م ؟

مرَّ بنا ان التعايشي انفذ ود جار النبي الى البطاحين ليجلبهم الى ام درمان وانهُ هو الذي هيج التعايشي عليهم فنكل بهم تنكيله المعلوم . وكان ود جار النبي فارساً مشهورًا في راية الخليفة ود حلو ومعهُ في الراية نفسها رجل من دهاة البطاحين يدعى عثمان احمد فحنق عليه لعدم الرفق بقومه واخذ يسعى في تنكيسه والحط من كرامته عند الخليفة ود حلو فأفلح مسعاه واقصاه الخليفة ود حلو بعد ان كان مقربًا جدًا عنده فاستاء ود جار النبي من ذلك وخرج من راية الخليفة ود حلو الى راية يعقوب اخي التعايشي واطلق لسانهُ في ذم الخليفة علي ود حلو والاستخفاف به فعظم ذلك على ود حلو ورفع الامر الى التعايشي وكان التعايشي يودُّ مراعاة رفيقه لمضافرته لهُ على الخليفة شريف فأحال الامر على القضاة فحكموا بقتل ود جار النبي وصدق الخليفة الحكم وكانوا قد قيدوا المحكوم عليه وارسلوه الى السجن فلما صدر حكم القتل عليه جاؤا ليأخذوه من السجن فقال لهم حلوا القيد من رجلي لان فارس السودان لا يمشي بين الناس راسفاً بالقيود واصرَّ على ذلك فرفعوا الامر الى الخليفة فأمر ان يقطعوا كعبي قدميه ويخرجوا القيد منهما بلا فتح ففعلوا كما امر وساقوه الى المشنقة بالضرب والاهانة فأطلق لسانهُ اذ ذاك على الخليفة والبقارة وأخذ ينادي بأعلى صوته بما معناه : « يا قبائل السودان وابطال هذه الزمان استيقظوا من غفلتكم وارفعوا براقع الجهل عن عيونكم فليس بينكم مهدية ولا خلافة ولا دين بل هو ملك مدنيّ جائر في يد بقّاري ظالم غشوم يسعى الى اعدام كل بطل في السودان وجعل اهله كالانعام يسوقهم رعاة من البقارة الاجلاف الذين كانوا بالامس يلبسون «الكنفوس» ويركبون الثيران وستبقون في حكم هؤلاء الانذال الى ان تستفزكم نخوة الرجال وتتحدوا قلباً واحدًا على قتلهم او طردهم الى اقصى الجبال . انهضوا ما دامت

لكم بقية حيوة وجاهدوا في سبيل الحرية والاستقلال لحيوة الحيوان ارقى من حياة تقضى بالذل والهوان . وقولوا الملك المغفل الجبان علي ود حلو انهُ لن يرى الخلافة في عينيه لان التعايشي يرشح ابنهُ للملك بعدهُ واخبروهُ اني لم اقتل مراعاة لمقامهِ أو اكراماً لشأنه بل قتلت لاني بطل كرار وفارس مغوار ولان التعايشي يرهب فعالي ويخاف على نفسه مني ومن امثالي * ثم لما أدنوهُ من المشنقة عظم عليه القتل شنقاً فالتفت الى البقارة وقال أمن المروءة ايها اللئام ان تقتلوا فارس السودان قتل لص جبان أليس بينكم فارس ينازلني في هذا الميدان فأشفي غليلي بقتله أو اموت ميتة الفرسان * ثم أصعد على كرسي المشنقة فأتوهُ بالماء ليشرب فرفض الماء باحتقار وقال انما يشرب في هذا الموقف الجبان . ثم التفت الى الناس وقال : من لم يرَ شجاعاً يُقتل فلينظر اليَّ ويا ليتني أُقتل وانا على ظهر جوادي اجاهد البقارة الانذال في الدفاع عن الحرية والاستقلال . ثم تنفس الصعداء وقال : افارق الحيوة بهذه الغصة فاعتبروا بمصيري وخذوا ان كنتم رجالاً بثاري . ثم رفس الكرسي برجله فتعلق جسمهُ في الهواء واسلم الروح . وكان ذلك ضحوة الثلثاء في ١٠ صفر سنة ١٣٠٩هـ ؟

نفي اسماعيل عبد القادر الى الرجاف سنة ١٨٩٢ م

تقدم لنا ذكر اسماعيل عبد القادر مراراً بلا تعريف فهو ابن اخت السيد احمد الولي الكردوفاني المشهور وقد قضى في الازهر مع خاله ٨ سنين فاشتهر بالنجابة والذكاء ثم عاد الى الابيض فخدم فيها مفتياً للمديرية الى ان كانت المهدية واتى المهدي الى كابا مهاجماً الابيض فخرج اليهِ مسلماً في من خرج من اهلها كما مرَّ فصحب المهدي الى ان توفي فصحب خليفتهُ التعايشي الذي عهد اليهِ تأليف سيرة المهدي وما كان في المهدية من الوقائع والفتوحات لتكون شاهدةً بفضل المهدية ومؤيدة لملك خليفتها في السودان . فشمر عن ساعد الجدّ وكتب الى جميع العمال في الجهات فأرسلوا اليهِ التقارير الوافية عما جرى على يدهم من الوقائع والفتوحات وجمع اليهِ من كان في ام درمان من القواد والمحاربين فألف سيرة نفيسة ضمَّنها وقائع المهدية منذ قيام المهدي الى ما قبل واقعة طوشكي أي منذ رمضان سنة ١٢٩٨ الى ٣ ربيع الاول سنة

١٣٠٦ هـ وقد قضى في تأليفها بضعة عشر شهرًا وتحرَّى فيها الحقيقة ما امكن ولكنهُ طلاها بطلاء كثيف من الاطراء والتملق للمهدي وخليفتهِ واضطر الى ذكر كثير من الكرامات والخوارق المنسوبة اليهما مما لم يكن في اعتقادهِ فسرَّ بها الخليفة سرورًا عظيماً وأمر النسَّاخ فنسخوا منها عدة نسخ وزعها على الامراء . وعلت منزلة اسماعيل عبد القادر ونفذت كلمتهُ فحسدهُ القاضي احمد وسلط عليهِ بعض اخصائهِ فسعوا بهِ عند الخليفة فشهد بعضهم انهُ سمعهُ يقول « كيف يطاق ان تسلم امور الرعية كلها الى رجل جاهل غشوم مثل عبد الله التعايشي » وشهد آخر عليهِ انهُ قال : اني والخليفة كاسماعيل باشا المفتش مع اسماعيل باشا الخديوي وقال آخر انهُ ملأ السيرة مغامز تحطّ من شأن المهدية وتدل على انكارهِ اياها ففعلت هذه الوشايات في رأس الخليفة فعل النار بالهشيم فنفى اسماعيل عبد القادر الى الرجاف وارسلهُ مع زقل في وابور واحد سنة ١٨٩٣ وامر ان تحرق سيرتهُ اينما وجدت فأحرقت كلها الا نسخة منها خبأها احد كتاب الخليفة حرصاً على حقائقها . وقد بلغني خبرها وانا في قلم المخابرات في مصر اتحرّى وقائع الثورة من الضباط والعساكر الذي نجوا من الاسر فبحثت عنها مستعيناً بالتجار الذين يترددون الى السودان حتى ظفرت بها فاذا هي مع كثرة ما فيها من الاطراء والتملق للمهدي وخليفتهِ قد ضمنت الحقيقة احسن تضمين وانطبقت حقائقها على ما تحرّيت جمعهُ في مصر فزدت بهِ ثقة واستشهدت بالسيرة في مواضع كثيرة من التاريخ . اما المؤلف فانهُ بقي في الرجاف في اشد العناء والضيق حتى مات اوائل سنة ١٨٩٧ . وقيل ان مرعفياً اختطفهُ وهو ملقىً على سريرهِ لا يستطيع حراكاً من شدة الجوع رحمة الله عليهِ

سجن احمد علي قاضي الاسلام وموتهُ في السجن في يونيو سنة ١٨٩٤

اول من سمي « قاضي الاسلام » في المهدية احمد ود جبارة فقتل في واقعة الابيض كما مرَّ وتولى القضاء بعدهُ ود حلاب احد فقهاء النيل الابيض فمات في حصار الابيض فخلفهُ القاضي احمد علي من فقهاء بني هلبة فلم يكن لهُ في زمن المهدي شأن يذكر لان المهدي أقام النواب للفصل في القضايا الشرعية ثم أقام الامناء للنظر في القضايا السياسية كما رأيت فلما مات المهدي واستبد التعايشي عزل الامناء ثم النواب وجعل

المحكمة واحدة برئاسة القاضي احمد فقضى لهُ بما اقتضاهُ رأيهُ سواء وافق الشرع او خالفهُ فأصبح من اعظم المقربين عندهُ . وكان مع وظيفة القضاء امير راية في جيش يعقوب فانضم الى رايتهِ كثير من سراة البلاد واغنيائها ومدَّ يدهُ الى الرشوة فجمع مالاً طائلاً وعظم شأنهُ جداً فحسدهُ يعقوب على ذلك وسلط عليهِ بعض القضاة فعادوهُ وتتبعوا هفواتهِ فوجدوا انهُ يأمر الجباة باعفاء المنتمين الى رايتهِ من الضرائب فشكوهُ الى الخليفة فجردهُ من رايتهِ وامرهُ بالانقطاع الى القضاء . ثم شكوهُ لقبولهِ الرشوة ومداخلتهِ في الضربخانة متحزباً لفريق دون آخر فجرَّدهُ من جميع اموالهِ ونسائهِ وزجهُ في السجن ومنع عنهُ الغذاء حتى مات وذلك في يونيو سنة ١٨٩٤ . وكان طويل القامة غليظ الجثة اسود اللون حتى تظنهُ زنجياً خفيف اللحية عبوساً مهاباً شجاعاً نهاباً وهاباً وكان من الدهاء على جانب عظيم . وفي اعتبار اهل السودان انهُ قام في هذا القرن اربعة دهاة لم يقم في السودان ادهى منهم . اثنان قبل المهدية وهما الملك بشير عقيد من المسلماب والحسن الملك سعد من السعداب . واثنان في زمن المهدية وهما القاضي احمد المذكور والحاج علي ود سعد امير الجعليين المار ذكرهُ في واقعتي ابي طليح وطوشكي وقد عاد هذا بعد واقعة طوشكي الى ام درمان فمات فيها سنة ١٣٠٧هـ وقيل ان الخليفة اماتهُ مسموماً . وخلفهُ على الجعليين اخوهُ عبدالله ود سعد فكان لهُ من الشأن مع التعايشي ما نذكرهُ في محلهِ :

﴿ سجن الحسين الزهرة وموتهُ في السجن سنة ١٨٩٥ ﴾ وبعد القاضي احمد أسند منصب القضاء الى سليمان الحجاز من تجار بربر المتفقهين فمكث فيهِ مدة قصيرة ثم خلفهُ الحسين الزهرة المتقدم ذكرهُ في حصار كسلا وهو من قرية تدعى أم عظام في ضواحي المسلمية ومن متخرجي الأزهر النابغين وقد هاجر الى المهدي بعد واقعة هكس وظن انهُ ينال في دولتهِ مقاماً عالياً فلم يلبث ان رأى ان هذه الدولة تبغض العلم والعلماء ولا تولي الوظائف الاَّ الجهلة الطغام فلما كانت واقعة الخرطوم نظم للمهدي قصيدة طويلة في ١١٢ بيتاً اشار فيها الى فتح الخرطوم وقتل غوردن ونصح المهدي بوجوب اسناد الوظائف الى العلماء وقد استدل بعضهم من بعض اياتها انهُ منكر

للمهدية ومندد في رجالها مع انها تدل على اضطراب قصد المؤلف وليس فيها تصريح بسوى كدرهِ من اسناد الوظائف الى غير اهلها . وهذه هي بعض مقتطفات منها :

برح الخفا ما الحق فيهِ خفاء وتوالت الآيات والانباء
بالآية الكبرى التي بظهورها كمل الرضى وانجابت الاسواء
بشرى لنا بظهور مهدي الورى ايه ونعمى بعدها نعماء
علماء امة احمد ناشدتكم ردوا جوابي انكم علماء
ارضى وترضون الضلال بعيد ما ظهر الهدى وانجاب عنهُ قذاء
ويخيب ظني فيكم وعشيرتي انتم ويجمع جمعنا الغرباء
مهدي امة احمد بي لم تذر خلاً يدوم لهُ لديَّ اخاء
مالي سواك وليس بعدي من جفا لكن بذاك جرى عليَّ قضاء
لم تعرف الايام قبلك منزلي ولذاك لم يرفع عليَّ لواء
جهل الولاة أمات دين محمدٍ واهيلهُ ماتوا وهم احياء
يا ابن النبي محمد ووليهُ وامينهُ ما ذا اليك مراء
انا عبد عبد استعيذ بذمتي ابدًا اليك ولي هنا اعداء
ما بي استهانوا بل بشرع محمد فعليهِ من اثر الدماء حياء
واماتهُ الجم الغفير مهاجرًا ولهُ بماء سمائك الاحياء
فتاولنهُ من اللئام واعطهِ صنف الكرام فأهلهُ العلماء
واشرط عليهم ما أردت من الهدى يعطوا العهود لانهم امناء
وديار من ناوى الهدى منقوضة وسقوفها بين السقوف هواء
في تاسعٍ من رابعٍ في الثان من بعد المئين وللامور مضاء
والله دمر من طغى واباده حتى تولى قتلهُ الضعفاء
ولقد تبدد جسمهُ برماحهم فكأنهُ من خلقهِ اشلاء
صالوا بهِ وذويهِ بين حصونهم في خندق غرت بهِ الاذواء
والنار ترعى في الجسوم كأنها عشب لعمري ان ذا لبلاء

انظن تلك كرامة مأنوسة لا والذي ضلت به الآراء
فسوى خلائف احمد مهدي الورى كل الانام من الخيور فضاء
الا الذين غدوا على آثارهم اهل الولاية والصفا الامراء
ذاك الرفيق الزمهُ واترك غيرهُ ربط الجياد لغير ذلك نواء
واعصم سقاءك بالوكاء من الظما ما في الفضاء امام قصدك ماء
واحلل اسيرك ههنا ان تستطع ما في القيامة للاسير فداء
خفض عليك فللخطوب ترسُّل طورًا وطورًا شدة ورخاء

ويظهر ان المهدي التفت اليه على اثر هذه القصيدة فانفذهُ الى كسلا لاستلام حاميتها كما مرَّ . وبعد رجوعه كان المهدي قد مات فعاد الى بلاده ثم جمع الخليفة جميع العلماء في ام درمان وهو في الجملة فعهد اليه تدريس علم الميراث في المسجد الى ان ولاهُ منصب القضاء كما مرَّ فوقف عند حد الشرع وقضى بعدة مسائل على خلاف ما اراد التعايشي فاغتاظ منهُ وحبسهُ وكبلهُ بالحديد ومنع عنهُ الطعام والماء الى ان مات قهرًا سنة ١٨٩٥ . ومما قالهُ التعايشي في ود الزهرة ان مثل العالم بين اصحاب المهدي مثل الشجرة وسط الزرع فانها تأوي الطير الذي يفسد الزرع فما يستريح الزارع حتى يقطعها من اصلها ٭ وتولى القضاء بعد ود الزهرة امبدَّى البقاري ثم النذير من علماء الخرطوم فبقي الى فتح ام درمان سنة ١٨٩٨

الخليفة والاسرى المصريون في السودان

مرَّ بنا ان الدراويش اسروا كثيرين من موظفي الحكومة المصرية وضباطها وعساكرها عند فتح حامياتها في السودان فعرفوا بأولاد الريف لان اكثرهم من المصريين وعرف النصارى منهم الذين اكرهوا على الاسلام بالمسلمانيين . وقد قضت سياسة التعايشي وسيده المهدي من قبله بالحجز عليهم جميعاً في السودان للانتفاع بصنائعهم ومعارفهم الكتابية من جهة وكتم اخبار السودان عن مصر من جهة أخرى . وقد اطلعت على كتب كثيرة من الخليفة الى عماله يحذّرهم فيها من ائتمانهم على الاشغال الهامة ويأمرهم بشدة المراقبة عليهم لئلا يفلتوا ٭ فمن ذلك ما كتبهُ الى احمد محمد خوجلي

في دنقله بتاريخ ٨ محرم سنة ١٣٠٣هـ : «حبيبنا ينبغي ان تنبهوا على جماعتكم بأن من يوجد من اولاد الريف متوجهاً من هنا ان يحضروهُ اليكم وانتم ترسلونهُ الينا ولا تتركوا احدًا منهم يتوجه الى بحري أو خلافها الا ان كان معهُ خطاب منا . وأولاد الريف الذين معكم احرصوا عليهم كل الحرص » . وكتب الى كرم الله شيخ محمد بتاريخ ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٣٠٤ هـ : « اما اولاد الريف فأرسلوهم جميعاً لهذا الطرف ليقيموا في البقعة ولا تتركوا منهم احدًا كلية لانهم اينما كانوا لا يؤتمنون » .
ورأيت كتاباً من مساعد قيدوم الى الخليفة بتاريخ ٢٤ رمضان سنة ١٣٠٦هـ يقول فيه :
« انهُ بناء على الاشارة الكريمة بدقة البحث عن ابناء الريف في دنقلة وارسالهم اليكم فقد بحثنا عنهم في جميع جهات دنقلة من ارقو الى صنم والقينا القبض على من وجدناهُ وها هم واصلون مع الحبيب محمد عبد الله الفادني وجماعتهِ للمحافظة عليهم ومع المذكور كشف باسمائهم ووظائفهم السابقة » . وكتب الخليفة الى عثمان آدم بتاريخ ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٧ هـ . « وكذلك جميع اولاد الريف لا تمكنوهم من اموركم المهمة لاننا نحن هنا لم نمكنهم من امورنا بل نشغلهم بالكتابة على قدر اللزوم بدون دخل لهم في شيء آخر . ومن الجملة موسى حسين وجماعته فانهم وان كانوا من الانصار فما دام انهم ابناء ريف فخذ حذرك منهم » . وكتب الى محمود احمد في ٥ جمادى الآخرة سنة ١٣١٠هـ . « ينبغي الانتباه الى مثل موسى حسين ومن معهُ من المواليد وامثالهم الذين كانوا مخالطين الترك سابقاً فاجعلوهم في وسط بلاد الاسلام ولا تجعلوهم في الجهات الموالية لجهة الاعداء ولا تندبوهم اليها » .

وقد جمع الخليفة اكثرهم في ام درمان واستخدم الصناع والكتبة والطوبجية في مصالحهِ العامة وترك الباقين يحتالون على معاشهم بتعاطي الاشغال الوضيعة جدًا حتى كان الضابط الذي قاد الجنود الى ساحة القتال يضطر ان يعيش بالاستقاء أو الاحتطاب من الصحراء أو بفتح دكان للقهوة أو لبيع الخضر . وقد حاول كثيرون منهم الفرار فمنهم من قبض عليهِ وعذّب أو سجن حتى ذاق الموت الاحمر ومنهم من نجا بطرق اسوان وكورسكو وسواكن وقليل ما هم واكثر هؤلاء من العساكر والكتبة

الصغار . واما الضباط والموظفون الكبار مثل سلاطين باشا وفوزي باشا والافراد الاوربيون من قسس وتجار فقد كانت المراقبة عليهم شديدة جدًّا حتى عُدّ امر فرارهم مستحيلاً أو شبيهاً بهِ

مآثر الميرالاي ونجت بك مدير قلم المخابرات سنة ١:١٨٩٦

﴿ انقاذ اوهر ولدر من الاسر سنة ١٨٩١ ﴾ وكان الميرالاي ونجت بك مدير المخابرات في مصر (السردار الحالي) عالمًا بحال الاسرى في ام درمان وباذلاً جهده في انقاذهم وامدادهم بالمال . فسعى مع مطران المرسلين النمساويين في القاهرة فأرسلا الى ام درمان خبيرًا من عبابدة السيَّالة يدعى احمد حسن فانقذ الاب اوهر ولدر الذي اسر في جبل الدلن وراهبتين من راهبات الابيّض فخرج بهم من ام درمان في ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٩١ على اثر فتنة الاشراف واتخذ طريق المرات وكورسكو فوصل بهم مصر في ٢١ ديسمبر من السنة المذكورة

﴿ تأليف كتاب المهدية والسودان المصري سنة ١٨٩١ ﴾ وكان ونجت بك قد فرغ من تأليف كتابهِ المشهور المسمى « المهدية والسودان المصري » الذي فصّل فيهِ وقائع الثورة المهدية ولاسيما وقائع الجيش مع الدراويش الى ما بعد واقعة طوكر احسن تفصيل

﴿ تأليف كتاب اسر عشر سنين في معسكر المهدي سنة ١٨٩٢ ﴾ فرأى ان الاب اوهر ولدر ذو اطلاع كبير وخبرة تامة في احوال السودان والثورة المهدية مع ذكاء وفطنة وصدق لهجة فطلب اليهِ ان يخطّ اختبارهُ هذا على ورق فكتب اصولهُ بالالمانية فألف منها ونجت بك كتاباً بالانكليزية من انفس الكتب سماهُ « أسر عشر سنين في معسكر المهدي » ونشرهُ سنة ١٨٩٢ فنال رواجاً عظيماً في اوربا كلها

﴿ انقاذ روسينيولي من الاسر سنة ١٨٩٤ ﴾ ثم ارسل الى ام درمان عبادياً آخر يدعى عبد الله محمد عمر من سكان دراو فانقذ الاب روسينيولي الذي أسر في الابيض ١٨٨٣ واتى بهِ الى مصر في ٢٠ اوكتوبر سنة ١٨٩٤

﴿ انقاذ سلاطين من الاسر سنة ١٨٩٥ ﴾ وكان اخوة سلاطين باشا باذلين الجهد في انقاذ اخيهم من الاسر وقد استودعوا قنصلية النمسا في مصر الف جنيه

لهذه الغاية فسعى ونجت بك والقنصلية المذكورة سعياً متواصلاً حتى وفقوا اخيرًا الى تاجر جعلي يدعى العجيل فعقدوا معهُ اتفاقاً ودفعوا لهُ ٢٠٠ جنيه مقدماً وكتبوا لهُ صكاً بـ ٨٠٠ جنيه تدفع لهُ بعد رجوعهِ بسلاطين سالمًا الى مصر ه وكان سلاطين بعد وصولهِ الى ام درمان مع المهدي سنة ١٨٨٤م قد كتب الى غوردن كتاباً بامل التخلص من اسر المهدي والفرار اليـهِ فوقع الكتاب في يد المهدي فسجنهُ وكبلهُ بالحديد ثمانية اشهر • ولما مات المهدي جعلهُ الخليفة من ملازمي بابهِ لا يبرح منهُ من الفجر الى ما بعد العشاء الا اذا ركب فيركب معهُ • وقد شدد المراقبة عليهِ واعطاهُ منزلاً ينام فيهِ قرب منزله وكان يفخر بأن مدير دارفور اسير عند بابهِ • فدبر العجيل الامر سرًا مع سلاطـين وخرج بهِ من ام درمان في ٢٠ فبراير سنة ١٨٩٥ وأرسلهُ مع رسل مخصوصين على هجن قوية فعبر النيل بين ابي حمد و بربر واتى بطريق اسوان فوصل مصر في ١٩ مارس من السنة المذكورة ه وقد اغتاظ الخليفة جدًا من فرارهِ وبحث عن الساعين في ذلك حتى درى بالعجيل فنفاهُ هو وصديقاً لهُ يدعى الصادق عثمان الى الرجاف وقتلهما هناك

﴿ تأليف كتاب النار والسيف في السودان سنة ١٨٩٦ ﴾ وكان سلاطين باشا أعلم الناس بأحوال السودان ومطلعاً على اسرار حكومة التعايشي فأوعز اليـهِ ونجت بك فشرع حال وصولهِ في كتابة معلوماته بلغتهِ الالمانية فأنشأ منها ونجت بك كتاباً ثميناً في الانكليزية سمي « النار والسيف في السودان » فنشر في اوائل سنة ١٨٩٦ ثم ترجم الى أهم اللغات الاوربية وكان لهُ اعظم شأن في اوربا كلها • وقد جاء بعد كتاب اوهر ولدر محرضاً قويًا للحكومة المصرية على استرجاع السودان • وسمي سلاطين باشا مساعدًا لمدير قلم المخابرات فرافق الجيش في الفتح الاخـير الى ان تمَّ استرجاع السودان فسمي مفتشاً عاماً على السودان كلهِ ولا يزال في هذا المنصب الرفيع الى اليوم

و بعد نجاة سلاطين باشا بأيام اهدى جلالة امبراطور النمسا الى ونجت بك وساماً من أعلى وسامات الدولة النمسوية • ثم رفع سلاطين باشا الى جلالتهِ اسمي واسم ملحم

بك شكور فأنعم على كلٍّ منا بوسام عالٍ فرفعت الى جلالتهِ في ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦ قصيدة عربية عنوانها « شكر الجميل » هذه هي بحروفها:

أحمّلُ انفاسَ النسيم اذا سرى ... وفي طيّهِ ما فاق في النشر عنبرا
لعاصمة النمسا « فينَّا » التي همت ... على روضها مزن المعالي فأزهرا
عقودَ ثناءٍ رائعاتٍ أصوغها ... وانظمها في السلك دُرًّا وجوهرا
واجمل تعبير « امتنانٍ » عبيرهُ ... أتى يستعيرُ المسك منهُ التعطّرا
تقبّل اعتابَ المليك « فرنسوى » ... وتبدي بناديهِ الرفيع التشكُّرا
هو الامبراطور الذي فاق مجدهُ ... وفاخر كسرى في المعالي وقيصرا
تسامى على هام الثريّا بهمةٍ ... علت ايضاً للهند يُعزى وأسمرا
تقول لمن رام التشبُّه وانبرى ... يقلدهُ اين الثريّا من الثرى
هو البحر قد عمت موارد فضلهِ ... ولكن معاذ الله ان يتكدَّرا
لقد جاد لي فضلاً باكرم منّةٍ ... « وسامَ صليبٍ فوقهُ التاج أسفرا »
سأجعلهُ عنوان فخرٍ وعزَّةٍ ... يحقُّ بهِ لي ان أعزّ وافخرا
وتذكار تشريفٍ بمنحة سيدٍ ... غدا حمدهُ فرضاً عليَّ مقرَّرا
واني وان اطنبت في وصف فضلهِ ... يَظلُّ لساني في الثناءِ مقصرا
ولكنني أرجو الى الله داعياً ... مدى الدهر ان يُبقيهِ للفضل مصدرا
فلا زال في عرش الجلالة زاهياً ... بعزٍّ واسعادٍ ودام مظفرا

الفصل الخامس
في
﴿ استرجاع دنقله في سنة ١٨٩٦ ﴾

وفيه وقائع دنقله والحدود سنة ١٨٩٦:١

﴿ امراء دنقله سنة ٩٨ : ١٨٩٦ ﴾ تركنا دنقله بعد خروج النجومي منها سنة ١٨٨٩ وعليها يونس الدكيم عاملاً ومساعد قيدوم وكيلاً لهُ فوقع بينهما خلاف

اشتد حتى لم يعد من الممكن ازالتهُ فاستدعى يونس الى ام درمان وسمي زقل عاملاً على دنقله في ٢٥ شعبان سنة ١٣٠٧هـ فاغتاظ مساعد قيدوم لعدم انتخابه عاملاً وكان معهُ من امراء البقارة عربي دفع الله فنصبا العداء لزقل • وفي ١١ شعبان سنة ١٣٠٨ كتبا الى الخليفة « انهُ مواد للكفرة وانهُ متحيز لاولاد البلد الجعليين والدناقلة على البقارة والجهادية السود » فبعث الخليفة في طلبهِ وحاكمهُ في مجلس من القضاة فاثبت خصماهُ شكواهما عليهِ فامر الخليفة بسجنهِ • ولما ثار الاشراف ثورتهم المار ذكرها كان في جملة شروط الصلح اخراج زقل من السجن فاخرجهُ ثم نفاهُ الى خط الاستواء سنة ١٨٩٣ كما قدمناه واعاد يونس الدكيم ثانية الى دنقله فعامل الاهلين بالشدة والغلظة فرفعوا شكواهم الى الخليفة فلم يسمع لهم ولما كرروا شكاويهم خاف ان يلجأوا الى الحكومة المصرية لقربهم منها فاستدعى يونس الى ام درمان سنة ١٨٩٥ وارسل مكانهُ محمد بشاره المار ذكرهُ في الكلام على دارفور وكان عمرهُ اذ ذاك لا يزيد على ٣٣ سنة ولكنهُ كان على حداثة سنهِ من اعظم رجال التعايشي دهاء واعلاهم همة واشدهم رأياً وافضلهم سياسة

﴿ تسمية كتشنر سرداراً على الجيش ﴾ وفي اثناء ذلك استعفى السر جرنفل باشا من منصبهِ فخلفهُ اللوا كتشنر باشا سرداراً على الجيش المصري وذلك في ١٢ ابريل سنة ١٨٩٢ • وفي ايامهِ استرجعت الحكومة دنقله وسائر السودان وقبل الكلام على ذلك نذكر ما كان من وقائع الحدود بعد حملة النجومي في ايام يونس وزقل فنقول :

وقائع الحدود سنة ٨٩ : ١٨٩٦

﴿ غزوة سرس ﴾ تقدم ان الدراويش بعد حملة النجومي رجعوا الى سواردة فجعلوها اقصى نقطة لهم في الشمال وكان عليها حموده ادريس البقاري اميراً فبقوا نحو ثلاث سنين لا يبدون حراكاً ثم عادوا الى تهجماتهم السابقة على الحدود فاغار جماعة منهم في ٤ ابريل سنة ١٨٩٢ على سرس القديمة واختطفوا ماشيتها وعادوا الى سواردة

﴿ غزوة سرَّا الغرب ﴾ وفي ٢١ مايو سنة ١٨٩٢ اغار عثمان ازرق على سرَّا الغرب شمالي حلفا بنفر من الهجانة فقتل ٣٤ نفساً من اهلها وغنم ٥٠ رأساً من الماشية



اللورد كتشنر أوف خرطوم.

﴿ غزوة قستل ﴾ وفي ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٩٢ غزا جماعة منهم بلدة قستل قرب ادندان فقطعوا خط التلغراف بين كورسكو وحلفا وغنموا ماشية البلدة وقفلوا راجعين

﴿ غزوة جماي ﴾ ولما رأى اهل سوارده ان الجيش لم يبدِ حراكاً اشتد طمعهم وزاد طموحهم فخرجوا كلهم يتقدمهم اميرهم حموده بقصد غزو جماي وسرس وتخريب سكة الحديد بين سرس وحلفا فاتصل الخبر بقلم المخابرات قبل وصولهم فاستعدت حامية سرس لصدهم وذهبت الاورطة العاشرة فاحتلت جماي وجاء الدراويش بطريق امبقول فلما قربوا من النيل انقسموا فريقين فريق الهجانة وعليهم عثمان ازرق وفريق الفرسان والمشاة وعليهم حموده فاغار الاول على جماي والثاني على سرس فردَّ الجيش الفريقين خاسرين الى امبقول وذلك مساء ٣١ دسمبر سنة ١٨٩٢

﴿ واقعة امبقول في ٢ يناير سنة ١٩٠٣ ﴾ وفي اثناء ذلك جهز البكباشي باين ضابط المخابرات اربعة بلوكات من السواري وبلوكاً من الهجانة و٢٥ رجلاً من عساكر الشايقية وسار بهم الى سرس فوصلها في فجر ١ يناير سنة ١٨٩٣ فعلم ان الدراويش قد فروا راجعين بطريق المرات وامبقول فتقدم الى المرات ولما لم يجدهم ابق السواري في المرات وتقدم بالهجانة الى امبقول في فجر ٢ يناير فوجد بعضهم قد تأخروا في الآبار يسقون رواحلهم فأمر هجانتهُ فترجلوا واتخذوا ثلاث تلال متقاربة في صف واحد وابتدروهم بالرصاص فتمنعوا في تلال منيعة شرقي الآبار واجابوا اطلاق الرصاص بمثلهِ وسمع اخوانهم صوت البنادق فأسرعوا الكرة لنجدتهم فهاجم فرسانهم ميمنة الهجانة ودار الباقون عليهم من شمالهم فالتحموا بهم وقتلوا البكباشي باين والصاغ فؤاد افندي قومندان الهجانة و بعض العساكر وخف الباقون الى هجنهم فركبوها وانقلبوا راجعين فرقتين : الهجانة المصرية وعليهم الملازم محمد افندي بركات والهجانة الشايقية وعليهم الصاغ سليمان افندي عبد الله فتأثرهم الدراويش فنجا محمد افندي بركات بفرقتهِ واما سليمان افندي عبد الله فانهُ لما رأى الدراويش قد قربوا منهُ امر رجالهُ فترجلوا وتسلقوا اكمة وشرعوا في اطلاق النار على الدراويش الذين احاطوا بهم من كل جهة وما زالوا يطلقون الرصاص حتى فرغت جبخانتهم أو كادت . وكان

معهم موظف في المخابرات يدعى الشيخ صالح جبريل من مواليد دنقلة النجباء فلما رأى حرج المركز صعد الى اعلى التلة وطفق ينادي « ابشروا بالخير ابشروا بالخير جاءت السواري » فلما سمع الدراويش هذا النداء صدقوهُ واقلبوا راجعين فنزل الهجانة عن التلة وأتوا سرس في اليوم التالي • وكان الملازم محمد افندي بركات قد سبقهم اليها وأنفذ خبرًا الى السواري في المرات فرجعوا الى سرس • وقد عرفت هذه الواقعة بواقعة امبقول وكانت خسارة العساكر فيها ٣٦ قتيلاً و ١٥ جريحاً • واما خسارة الدراويش فكانت ٥٠ قتيلاً و ٦٠ جريحاً • وقطع الدراويش رأس البكباشي باين وارسلوهُ الى الخليفة في ام درمان مع مسدسهِ ونظارتهِ ومرآتهِ • وقد مررت بامبقول سنة ١٨٩٦ وشاهدت محل الواقعة فاذا فيهِ اثار ملابس العساكر و بعض رفاتهم

﴿ غزوة بريس في ٢٥ يوليو سنة ١٨٩٣ ﴾ وبلغ يونس الدكيم امير دنقلة ان في واحة بريس على ٦٠ ميلاً من الخارجة خيرًا كثيرًا وهي خالية من العساكر والحصون فجهز عثمان ازرق بنحو ٣٠٠ مقاتل وارسلهُ لغزوها في يونيو سنة ١٨٩٣ فلما اتى واحة سليمه رأى آثار قافلة آتية من سوهاج الى آبار النطرون فأرسل خلفها مئة رجل فأدركوها عند الآبار فاعتقلوا رجالها وغنموا ما كان معهم من الجمال والمال وساقوهم الى دنقلة • وسار عثمان ازرق بباقي القوة الى بريس فدخلها في ٢٥ يوليو سنة ١٨٩٣ ولم يجد من يقاومهُ فأخذ يجمع ما فيها من الغنائم فكانت ٥٤ بقرة و ١٨٧ رأس غنم و ١٠ جياد و ٢٥٦ بندقية و ١٠٠ اردب حنطة و ٤٥ حمارًا و ٥ قناطير من آنية النحاس ومن الذهب والفضة ما قيمتهُ ٣٤٠ ريالاً و ١٥٠ جنيهاً وقضى في جمعها ٣ ايام ثم حملها وعاد بها الى دنقلة ومعهُ ١١ رجلاً من اهلها فأخذ يونس جانباً من الغنائم الى بيت المال ووزع الباقي على الغزاة وارسل اسرى الواحات والآبار الى ام درمان

وكان اهل بريس قبل خروج الدراويش من واحتهم قد انفذوا خبرًا الى معاون الخارجة فانفذهُ الى مدير اسيوط ووصل السردارية بمصر في ٣٠ يونيو فأرسلت الجند الى سوهاج بقصد انجاد الواحة وقبل ذهاب الجند اليها ورد الخبر بأن الدراويش قد خرجوا منها فذهبت اورطة واحدة من العساكر لتسكين روع

الاهالي • وخصصت الحكومة ٥٠٠٠ جنية لتنفق على حماية الواحات فبنى العساكر طابية في بريس وطابية في الخارجة ومُدَّ خط التلغراف من الخارجة الى جرجا • وجُعلت قطة من الكبابيش في بير الشب غربي حلفا على طريق الاربعين

﴿ غزوة المرات وقتل صالح بك اخذًا بثار سليمان ودقمر في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٩٣ ﴾

ذكرنا احتلال صالح بك للمرات يوم واقعة التجومي سنة ١٨٨٩ • وفي سنة ١٨٩١ بلغهُ ان الدراويش في ابي حمد يستعدون للهجوم عليهِ فرأى ان يتغداهم قبل ان يتعشوهُ • فجهز رجالهُ ونزل بهم على ابي حمد فباغت اهلها الهجوم في الفجر وهم يصلون صلاة الصبح في الجامع فذعروا واسرعوا الى اسلحتهم وبدأ اطلاق النيران من الفريقين ثم برز سليمان نعمان ود قمر الغادر بستيورت باشا راكبًا على جوادهِ وهجم على رجال صالح بك فرموهُ بالرصاص فسقط الى الارض يختبط بدمائهِ فغنموا جوادهُ ورجعوا الى المرات • فجار الخليفة بعد هذه الواقعة على المليكاب الذين في السودان ونفى كبيرهم حسن محمد خليفة الى بحر الجبل وصمم على اخذ الثار من صالح بك فامر يونس الدكيم امير دنقله فعقد لعثمان ازرق على ٦٠٠ مقاتل بالاسلحة النارية وارسلهُ لغزو آبار المرات فوصلها في فجر ١٢ نوفمبر سنة ١٨٩٣ وكان مع صالح بك ١٠٠ رجل مسلحين بالبنادق وقد تحصنوا وراء متراس من الحجارة على راس اكمة فانتشب القتال بين الفريقين ودام من لدن الفجر الى ما بعد العشاء • وقد وقف صالح بك بين رجالهِ يحثهم على القتال والثبات الى ان اصيب برصاصة في فخذه حالت دون تمكنهِ من الوقوف ومع ذلك ظل يشجع رجالهُ على القتال الى ان توفي بعد ان جرح بخمس ساعات • وتولى اخوهُ عبد العظيم قيادة العربان مكانهُ واستمر القتال حتى ارخى الليل سدولهُ فرجع الدراويش الى دنقله وقد قتل منهم ٢٩ رجلاً واما العبابدة فقد قتل منهم عدا صالح بك ١١ رجلاً • وجعل السردار عبد العظيم مكان اخيه وأوصى الحكومة بعائلة صالح بك فأجرت لها مرتبةً بتمامهِ حتى بلغ اولادهُ سن الرشد • وارسل الكبتن ماتشل فبنى في المرات طابية حصينة في دسمبر سنة ١٨٩٣

﴿ زيارة الجناب العالي للحدود في يناير ﴾ وفي يناير سنة ١٨٩٤ زار الجناب

العالي الخديوي بلاد الحدود وكان قومندان الحدود اذ ذاك لويد باشا فوزع منشورًا على الاهالي أخبرهم بتشريف سموهِ بلادهم وأوعز اليهم بغرس شجرة من الجميز في كل بلدة تذكارًا لزيارتهِ . وبلغ الدراويش خبر هذه الزيارة فظنوا ان الحكومة تستعد للزحف على السودان فتيقظوا

﴿ غزوة الشب سنة ١٨٩٤ ﴾ وفي آخر سنة ١٨٩٤ نزل جماعة منهم على حامية الشب فوجدوا حاميتها الكبابيش متيقظين فرجعوا عنها

﴿ غزوة ادندان ﴾ وفي ١٠ دسمبر سنة ١٨٩٥ غزا ود حمزه الانقريابي بجماعة من الهجانة بلدة ادندان على ٣٠ ميلاً من حلفا فقتل ١٦ رجلاً من اهلها

﴿ غزوة سرس القديمة ٣٠ يناير سنة ١٨٩٦ ﴾ وفي ٣٠ يناير سنة ١٨٩٦ أغار جماعة من سواردة على سرس القديمة فقتلوا ٣ من اهلها

حملة دنقله سنة ١٨٩٦

وهكذا كان الدراويش كلما سنحت لهم فرصة ركبوا الهجن وضربوا في عرض الصحراء وأغاروا على بلدة من بلاد الحدود فقتلوا ونهبوا ثم رجعوا قبل ان تدركهم العساكر حتى أقلقوا راحة الجيش وسكان الحدود ولم يمكن توقي شرهم ومنع تعدّيهم الا بنشر العساكر على طول البلاد من اصوان الى حلفا شرقًا وغربًا وهذا لم يكن ميسورًا لقلة عدد الجيش . وكان السردار قد طلب من الحكومة في اواخر سنة ١٨٩٢ مبلغ ٦٠ الف جنيه ليزيد بها عدد الاسلحة الراكبة ويقف للدراويش في المرصاد فلم تعطَ لهُ . ولم ينفك يحث الحكومة على وجوب الحملة على دنقله وطرد الدراويش منها رفقًا بالحدود والجيش وهي لا تجيبهُ الى طلبهِ لعجز ماليتها عن تحمل النفقات حتى كانت واقعة عدوة بين التليان والحبشة في ١ مارس سنة ١٨٩١ وهب الدراويش لاسترجاع كسله من التليان كما مر فاقرت بادئ بدء على ارسال الجنود الى سواكن والتظاهر في الحملة على بربر لارهاب الدراويش وحملهم على العدول عن كسله ثم رأت ان مجرد التظاهر لا يفي بالمقصود فاقرت أيضًا في ١٢ مارس سنة

١٨٩٦ على الحملة على دنقله والتظاهر في الحملة على بربر. وفي ١٨ مارس سنة ١٨٩٦ اصدر السردار امرهُ تلغرافياً الى هنتر باشا قومندان الحدود فارسل معظم العساكر الى عكاشة واسس نقطاً حربية بينها وبين حلفا لحفظ خط الاتصال وشرع في مدّ خط سكة الحديد اليها بطريق الصحراء. وفي ٢٩ مارس وصل السردار حلفا باركان حربهِ وشرع في اعداد معدات الحملة والتهيؤ لها

﴿ غزوة عثمان دقنه لطوكر مارس — ابريل سنة ١٨٩٦ ﴾

ولكن لم يلبث ان جاءَتهُ الانباء من سواكن ان عثمان دقنه حضر الى اركويت بنحو ٢٠٠ فارس و ١٠٠٠ راجل بنية استرجاع طوكر فظهر ان الخليفة انما اراد استرجاع طوكر وكسله معاً وقد عهد الى عثمان دقنه استرجاع طوكر كما عهد الى احمد فضيل استرجاع كسله فأصدر السردار امرهُ الى لويد باشا محافظ سواكن وكان اذ ذاك في مصر فخفَّ الى سواكن وارسل الى سدني بك قومندان طوكر ليوافيهُ بما لديهِ من الجند الى خور ونتري على ٢٢ ميلاً من سواكن في يوم عينهُ لهُ بقصد جمع القوتين وطرد عثمان دقنه من البلاد . وكان في سواكن من الجند نحو ٩٠٠ رجل من سواري وهجانة و بيادة وفي طوكر نحو ٢٥٠ رجلاً من الاورطة العاشرة السودانية

﴿ واقعة سدني في ١٥ ابريل سنة ١٨٩٦ ﴾ فخرج سدني بعساكرهِ من طوكر في ١٤ ابريل ولويد باشا من سواكن في ١٥ منهُ قاصدين نقطة الملتقى فما وصل لويد الى طروة حتى اتاهُ مخبرٌ بأن عثمان دقنه قد خرج من اركويت قاصدًا خور ونتري فأقام في مكانهِ وانفذ خبرًا في الحال الى سدني ليعدل عن خور ونتري ويأتي رأساً الى طروة وارسل البكباشي فنك بـ ٨٠ فارساً تقوية لهُ . فابطأ رسول لويد ولم يعلم سدني بك بشيء حتى صار على نحو ميل من خور ونتري في عصر ١٥ ابريل فعاد الكشافة واخبروهُ بأن عثمان دقنه قد احتل الخور فأمر العساكر في الحال فترجلوا ونظموا قلعة حول هجنهم وما اتموا انتظامهم حتى هجم عليهم عثمان بجيشهِ واحاط بهم من كل جانب فصبوا عليهِ الرصاص كالعارض الهطال وهزموهُ في اقل من ساعة بعد ان قتلوا من جيشهِ نحو ٢٥٠ رجلاً

﴿ واقعة فنك ﴾ وكان فرسان عثمان دقنه لما رأوا ثقل الرصاص من مربع سدني تحولوا عنهُ الى جهة طروة فصادفوا « السواري » الآتين من لويد لنجدة سدني فهجموا عليهم وقتلوا منهم واوقعوا فيهم الفشل فانهزموا فرقتين فرقة فازت بالنجاة الى طروة واخرى وفيها البكباشي فنك و ٣٨ فارساً صعدت الى اكمة ثم ترجلت وصلت فرسان عثمان بنار بنادقها فردتهم على اعقابهم . ثم انضم اليهم بقية جيشهم المنهزم من واقعة سدني فحصروا الاكمة الليل كلهُ الى الصباح (١٦ ابريل) فلم يظفروا منها بطائل فارتدوا عنها فنزل فنك بفرسانهِ عن الاكمة الساعة ٩ صباحاً وعاد الى طروة . واما سدني فانهُ بات ليلتهُ في محل الواقعة وفي صباح اليوم التالي (١٦ ابريل) تقدم الى خور ونتري وانفذ خبرًا الى لويد باشا فوافاهُ اليهِ وطلبا عثمان دقنه فوجداهُ قد انقلب راجعاً الى ادارامة فدخلا سواكن فبقي لويد فيها محافظاً وجاء سدني وفنك والعساكر الى النيل للمشاركة في حملة دنقله

غزوة احمد فضيل لكسله مارس — ابريل سنة ١٨٩٦

﴿ وقعة كسله ٢ ابريل سنة ١٨٩٦ ﴾ هذا ما كان من غزوة عثمان دقنه لطوكر . اما احمد فضيل فانهُ زحف على كسله في اواخر مارس سنة ١٨٩٦ بنحو ٦٠٠٠ مقاتل فحصرها . وكان الثليان قد ارسلوا اليها من مصوع حملة كبيرة من المؤن والذخائر يحرسها ٣٥٠٠ رجل بقيادة الكولونل ستفاني فالتقاهُ احمد فضيل في ظاهر المدينة في ٢ ابريل سنة ١٨٩٦ فجمع الكولونل ستفاني قواهُ واوقع فيهِ واقعة مشهورة وهزمهُ الى طوكرف بخسارة ٤٠٠ قتيل واما خسارتهُ فكانت ١٠٠ قتيل وجريح

﴿ واقعة طوكرف في ٣ ابريل سنة ١٨٩٦ ﴾ وفي صباح اليوم التالي (٣ ابريل) خرج عليهِ بجميع عساكرهِ الى طوكرف واوقع فيهِ واقعة اشد من الواقعة الاولى فقتل من جيشهِ ٨٠٠ رجل وهزمهُ الى القضارف وكانت خسارتهُ في هذه الواقعة ١٤٣ قتيلاً منهم ٤ ضباط و ٢١٧ جريحاً

عود الى حملة دنقله سنة ١٨٩٦

﴿ واقعة ١ مايو سنة ١٨٩٦ ﴾ ولنرجع الآن الى حملة دنقله فان الدراويش

لما علموا بتحرك الجيش الى عكاشة هبوا الى سلاحهم وتقدم حموده بحامية سواردة الى كوشة فاحتلها في ٢ ابريل سنة ١٨٩٦ ثم تقدم الى فركة فاحتلها في ٢٨ منهُ · وخرج محمد بشاره امير دنقله بجميع مقاتلتهِ خارج الديم وشرع في ارسال المدد الى حموده حتى اجتمع عندهُ في فركة نحو ١٦٥٠ رجلاً فخرج بهم في ١ مايو بطريق الصحراء بنية جرّ عساكر عكاشة الى الصحراء والايقاع بهم · وكان قلم المخابرات متنبهاً للدراويش وقد بث العيون والارصاد لمراقبة حركاتهم ومعرفة احوالهم فلما علم بخروجهم من فركة ابلغ السردار فصدر امرهُ الى القائمقام برن مردخ بك قومندان السواري فخرج بـ ٢٥٠ فارس والتقاهم في منتصف الطريق بين عكاشة وفركة فقتل منهم ١٢ رجلاً وردهم على اعقابهم مدحورين وقد قتل من عسكرهِ رجل واحد وجرح سبعة · وكانت الاورطة التاسعة السودانية قد خرجت لنجدتهِ فما وصلت حتى كانت الواقعة قد انتهت فعاد الكل الى عكاشة

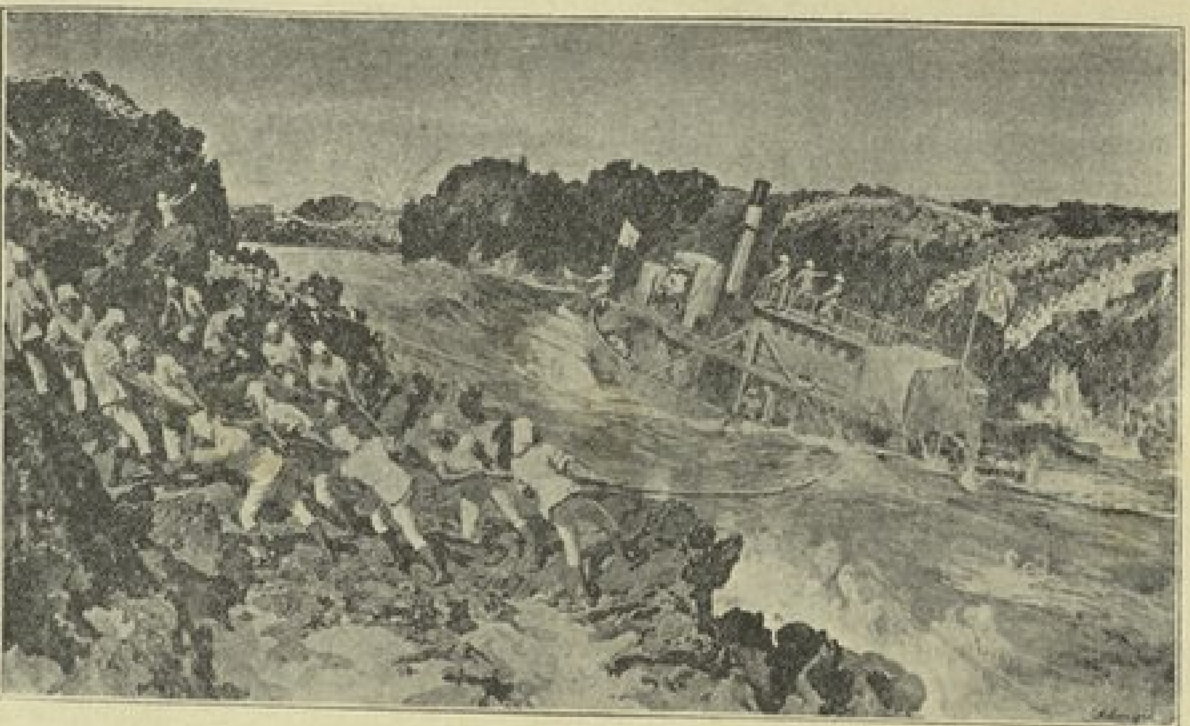
﴿ قوة جيش فركة ﴾ قيل وقد اظهر حموده الجبن في هذه الواقعة فشكاهُ الامراء الى محمد بشاره امير دنقله فعزلهُ وسمى عثمان ازرق اميرًا على الجيش مكانهُ وكان الجيش مؤلفًا من ١٦٣٢ رجلاً فجعلهُ اربعة ارباع وجعل على كل ربع اميرًا من جنسهِ وهم : الهبانية وعددهم ٣٣٦ رجلاً وعليهم حموده ادريس · والدناقلة والحمر وعددهم ٤٤١ رجلاً وعليهم كرم الله كرقساوي الدنقلاوي · والجعليين وعددهم ٢٤٥ رجلاً وعليهم محمد الامين ابن عبد الحليم · والجهادية السود واولاد العرب وعددهم ٦١٠ رجال وعليهم يوسف عنقر ودودو بدر البقاريين · اما الجهادية فسلاحهم البنادق الرمنتون واما الباقون فالسيوف والحراب وبعض البنادق · ومعهم كلهم ٧٢١ بندقية رمنتون و٥٠ صندوق جبخانة و٢٠٥ افراس و١١٠ جمال و٥٠٠ حمار

﴿ استعداد العدو في فركة ﴾ واستعد عثمان ازرق للدفاع في فركة فعين لكل امير مكانًا يدافع فيهِ · اما فركة فهي بلدة حسنة على ضفة النيل هجرها اهلها منذ الحملة النيلية فرارًا من الدراويش فأصبحت خرابًا وفي شمالها جبل شاهق علوهُ ٩٠٠ متر ينسب اليها والى جانبهِ الجنوبي اكام تختلف في الارتفاع من ٣٠ الى ١٥٠ قدمًا

و بينها و بين خرائب البلدة ديم الدراويش فجعل عثمان ازرق الهبانية والجهادية على الاكام والجعليين شمالي خرائب فركة والدناقلة والحمر جنوبيها . وقد علم قلم المخابرات قوة العدو تماماً بل رسم له فركة وعين مكان كل امير فيها وقت الدفاع حسبما رتبهُ عثمان ازرق فشرع السردار في الاستعداد للحملة وهاك ما دبَّره

﴿ جيش الحملة على دنقله ﴾ لما صدر الامر بالحملة على دنقله كانت قوة الجيش المصري مؤلفة من : آلاي من السواري فيهِ ١٢٥٣ فارساً . وآلاي من الطوبجية فيهِ ٩٥٣ رجلاً و ١٨ مدفعاً . وآلاي من الهجانة المصرية والسودانية فيهِ ٦١٨ رجلاً . و ١٣ اورطة بيادة أي ثماني اورط مصرية وهي التي انشئت بعد الغاء الجيش القديم سنة ١٨٨٣ وخمس اورط سودانية وقد انشئت في اثناء الثورة المهدية وفي الكل ١٠٧١٥ رجلاً . واركان حرب مصالح الجيش وعددهم ١٦٠١ رجل . ذلك ما عدا ٩٤٢ من العساكر غير المنظمة ونحو ٦٠٠ من رجال حملة النقل ومجموعهم كلهم ١٦٦٨٠ فيهم نحو ٧٠٠ ضابط . وسلاح الجميع بنادق مارتين هنري الا العساكر غير المنظمة فانها كانت مسلحة ببنادق رمنتون

فجعل السردار الاورط المصرية الاولى والخامسة والسادسة في نقط خط الاتصال بين اسوان وعكاشه واعدَّ باقي الجيش للحملة على دنقله . وتبرع الجناب العالي ببلوك من الهجانة كان في خدمة سموهِ فأضيف الى قوة الحملة . وكان السردار قبل صدور الامر بالحملة على دنقله امر بانشاء الاورطة السودانية الرابعة عشرة فأتمَّ انشاءها وابقاها في اساس الجيش في مصر . ثم لما صدر الامر بالحملة انشأ أورطتين من العساكر الاحتياطيين : الخامسة عشرة فجعلها في اصوان وكورسكو والسادسة عشرة فأرسلها الى سواكن . وكان في خدمة الجيش نفر من عربان العبابدة والكبابيش والعليقات فزاد عددهم اكثر من الف رجل وحصن بهم نقط الصحراء الشرقية والغربية . واستنصر دولتهُ فأرسلت اليهِ أورطة من الاي نورث ستفوردشير فيها ٨٧٠ رجلاً و بعض المهندسين الملكيين والطوبجية والبحارة فاستخدمهم في حملة دنقلة . وارسلت الى سواكن آلاياً من الهند بقيادة الجنرال اجرتن فكان لوجوده في سواكن في اثناء



صعود الوابور فوق الشلال الثاني

الحملة على دنقلة تأثير أدبي عظيم في الدراويش ٥ ٥ وقد تطوع لها جماعة من كبار ضباط الانكليز فكانوا اركان حرب فيها أهمهم : اللورد ادورد سسل ابن اللورد سلسبري وزير انكلترا الشهير فالحق باركان حرب السردار. واللورد ألمني الحق باركان حرب اللوا هنتر باشا. والكونت كليخن من افراد العائلة الملوكية ومن اركان حرب مخابرات الجيش الانكليزي جعل في قلم المخابرات في حلفا اياماً ثم نقل الى سواكن فتولى اشغال المخابرات فيها . والماجور ستيورت ورتلي من رجال الحملة النيلية . والماجور كتشنر شقيق السردار

﴿ وسائط النقل ﴾ وكان اهم ما لزم السردار بعد حشد الجيش الاهتمام بوسائط النقل في صحار مقفرة ونيل تعترضهُ الشلالات . وكان في الجيش عند صدور الامر بالحملة ٣٠٤٨ رأساً من خيلٍ وجمال و بغال وحمير فارسل السردار بعض ضباطهِ واركان حربهِ فاشتروا الفي جمل من اسيوط وقنا واصوان فوق جمال الحملة. وانشأ عشرة بلوكات من عساكر القرعة غير المستوفين الشروط من جهة القد والطول فضمهم الى البلوكات الثلاثة المخصصة للحملة في الجيش وجعل لكل بلوك قومنداناً وجعل الكل بادارة شقيقهِ الماجور كتشنر

وكانت الحكومة قد اقرّت قبل الحملة على مد سكة الحديد من كورسكو الى المرات وبوشر العمل فلما كانت الحملة أوقف السردار العمل واتى بمواد السكة الى سرس وشرع في مدها جنوباً الى عكاشة فكوشة وقد انشأ أورطة من عساكر القرعة غير المستوفين الشروط وولجها العمل ثم استخدم اورط الجيش عند الحاجة

هذا من جهة تدبير النقل في البر اما في النيل فقد كان بين اسوان وحلفا ١٢ وابوراً من الوابورات التي تخلفت عن الحملة النيلية فاستخدمها السردار في نقل المؤن والذخائر من اسوان الى حلفا واعدّ سبعة منها للصعود فوق الشلال الثاني عند ارتفاع النيل منها ٤ مدرعة و ٣ غير مدرعة وامر بشراء ثلاث بواخر حربية مدرعة من بلاد الانكليز تبنى فوق الشلال الثاني وسماها الظافر والفاتح والناصر ونظم بوسطة يومية على الهجن عهد بها الى الشيخ صالح جبريل المار ذكرهُ في

واقعة امبقول فقام بها خير قيام . واما التلغراف فكان يمدهُ الى حيث يكون الجيش (تأليف ادارة الجيش) وفي ٢ يوليو نقل مركز السردارية الى عكاشه وألفت ادارة الجيش من سرس وجنوبيها كما يأتي :

قومندان عموم القوة	السر هربرت كتشنر باشا السردار . وياورانه : اللورد ادورد سسل . والقائمقام وتسن بك . والصاغ محمدافندي بدر
رئيس اركان حرب	اللوا رندل باشا
مدير قلم المخابرات	الميرالاي ونجت بك
مساعد قلم المخابرات	الميرالاي سلاطين باشا
حكيمباشي التجريدة	القائمقام هنتر بك
حكيمباشي بيطري	جرفث بك
مدير المهمات	القائمقام دراج بك
مدير حملة النقل	الماجور كتشنر
مدير سكة الحديد	البكباشي جيروارد
اركان حرب التلغراف	البكباشي مانيفولد

قومندان عموم السواري	القائمقام برن مردخ بك
قومندان طوبجية السواري	البكباشي يونج
قومندانات بطاريات الطوبجية	بيك بك والبكباشي لوري والصاغ محمد افندي حافظ
قومندان الهجانة	القائمقام تدوي بك

قومندان فرقة البيادة	اللوا هنتر باشا
قومندان اللواء الاول (وفيه الاورط الـ ٣ و٤ و٩ و١٠)	الميرالاي لويس بك
قومندان اللواء الثاني (وفيه الاورط الـ ١١ و١٢ و١٣)	الميرالاي مكدونلد بك
قومندان اللواء الثالث (وفيه الاورط الـ ٢ و ٧ و ٨)	الميرالاي مكسول بك
قومندان خط المواصلات (بين اصوان وعكاشه)	الميرالاي كوكرين بك



هنتر باشا



رندل باشا

واقعة فركة في ٧ يونيو سنة ١٨٩٦

وفي اوائل يونيو مُدَّت سكة الحديد الى ابار امبقول وكانت دوريات الدراويش تصل الى تلك الآبار فتعترض حملات النقل وتحاول منع العمل في سكة الحديد فوجد السردار ان استمرار العمل في السكة يقضي بطرد الدراويش من فركة وقد اقر على مهاجمتهم بطريق الصحراء وطريق النيل معاً ٭ فلما كان يوم ٦ يونيو جمع الجيش كلهُ في عكاشة وجعلهُ قسمين : الاسلحة الراكبة وهم آلاي السواري والبطارية السواري والهجانة ومعها الاورطة الثانية عشرة السودانية راكبة على الهجن ومدفعا مكسيم وجماعة من القسم الطبي بقيادة الميرالاي برن مردخ بك تسير بطريق الصحراء فتأتي فركة من الشرق والجنوب ٭ وفرقة البيادة ومعها بطاريتا ميدان ومدفعا مكسيم واسبيتالية ميدان بقيادة اللواء هنتر باشا تسير معهُ بطريق النيل فتأتي فركة من الشمال ويكون الجيشان محيطين بفركة في فجر اليوم التالي فيهاجمانها معاً من الجنوب والشرق والشمال ٭ ولما كانت الساعة الرابعة بعد الظهر خرج السردار بجيشهِ من عكاشة وسار بطريق النيل وخرج برن مردخ بك بالاسلحة الراكبة بعدهُ بساعتين وسار بطريق الصحراء واتيا فركة في فجر ٧ يونيو والدراويش اذ ذاك يؤدون صلاة الصبح فما شعروا الأ والقنابل تنصب عليهم من كل جهة فهرع كل فريق منهم الى مكانهِ مذعوراً واستعدوا للدفاع وانتشب قتال حاد دام نحو ساعتين أبلى العساكر فيهما بالدراويش بلاء حسناً ٭ ثم هجمت فرقة البيادة عليهم في اماكنهم فقتلتهم شر قتلة وامتلكت الديم ٭ وتمكن بعضهم من الفرار متوارين بجرف النيل وفيهم عثمان ازرق وكرم الله كرقساوي فلحقهم السواري الى مغركة فقتلوا منهم وأسروا ٭ ولجأ بعضهم الى جزيرة في النيل تجاه فركة فرفعوا راية بيضاء وأتوا مسلمين وفيهم بانَّ النقا عبد الحفيظ من موظفي حكومة الفتح الاول ٭ وقد سرَّ السردار من بسالة برن مردخ بك وحسن تدبيرهِ فرقّاهُ الى رتبة ميرالاي في الحال وامرهُ فتقدم بالاسلحة الراكبة الى سواردة واحتلها في صباح اليوم التالي أي في ٨ يونيو . وكان عثمان ازرق قد سبقهُ اليها فعدَّى العائلات الى البر الغربي حيث كان حسن النجومي معسكرًا

بثلاثماية مقاتل وبقي في سواردة الى ان رأى غبار الجيش ففرَّ بمن معهُ من الانصار الى كدّين ثم الى الكرمة . وفرَّ حسن النجومي بالعائلات الى دنقله

﴿ القتلى ﴾ وقد قتل من الجيش في واقعة فركه ٢٠ رجلاً وجرح ٨٦. وأما قتلى الدراويش فنحو ٨٠٠ وفيهم الامراء حموده ومحمد الامين ويوسف عنقر . وقد رُئيت بين القتلى امرأة من الهبانية قالوا انها جاءت الى الحرب لتقتل مع رجلها أو تحيا معهُ فأصيبت برصاصة في صدرها وكانت علامات الهدوء والاطمئنان بادية على وجهها كأنها نائمة

﴿ الاسرى والغنائم ﴾ وقد جُمع الاسرى بعد الواقعة فكانوا ٥٩٣ نفساً من السود والجعليين والدناقلة والبقارة فأدخل السود في خدمة الجيش في الحال واما العرب فمن عرف انهُ كان مكرهاً على الحرب اطلق سراحهُ واما البقارة وانصارهم فقد ارسلوا بعيالهم الى سجن حلفا . وكان بين الاسرى ٧١ جريحاً فنقلوا الى الاسبيتالية وعولجوا فيها الى ان شفوا فوزعوا على الاسلوب المار ذكرهُ . وكان بين الجرحى الشيخ الطاهر ود العيد المذكور في حصار الخرطوم فانهُ كان في ربع الجعليين وقد كرَّ على الجيش في وسط المعركة فقتل فرسهُ فترجل وقعد على قناة ماء ووضع سيفهُ بجانبهِ اشارة الى تركة الحرب فرآهُ احد ضباط الاورطة الرابعة فأفرغ فيهِ مسدسهُ فجرحهُ في فخذهِ وجنبهِ وصدرهِ ويدهِ اليمنى ومع هذا كلهِ لم يتحرك من مكانه الآ انهُ اشار الى ضاربهِ بيدهِ فأتى اليهِ بعد توقف فقال لهُ ما الذي دعاك الى ضربي وأنا مطوي اليدين فقال الغدر الذي لقيناهُ من اخوانك في المواقع السالفة فقال لهُ ان الذي يقعد قعودي لا ينوي الغدر ثم حملوهُ الى المستشفى . وكان قد سأل عن سلاطين باشا فأتى وأوصى بالاعتناء بهِ

وقد غنم الجيش في فركة ٢٥ صندوقاً من الجبخانة وشيئاً كثيراً من الاسلحة والنقاقير والدروع والخيل والجمال والحمير والحبوب والخوذ . وكان بينها خوذة نقش عليها هذا البيت من قصيدة البردي المشهورة :

ومن تكن برسول الله نصرتهُ ان تلقهُ الاسد في آجامها تجمِ

ولعلها من خوذ ملوك سنار لان هذا البيت كان شعارهم الذي يكتب على اختامهم

وقد فتشت عن اوراق الدراويش فوجدت بينها كتباً كثيرة من محمد بشارة الى حموده وعثمان ازرق حثهما فيها على التقيظ والثبات ودربهما احسن تدريب ﴿ معسكر كوشه ﴾ وبعد انتهاء الواقعة عسكر السردار في جنوبي فركة اياماً ثم انتقل الى كوشه في فم عقبة ابي صاري وجعلها مركز الجيش واهتم باتمام سكة الحديد اليها ونقل الوابورات ، وارسل من فركة ﴿ منشوراً الى اهل السودان ﴾ فوصل نسخ منهُ الى ود بشاره في دنقله والخليفة في ام درمان هذا ملخصهُ :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين. اما بعد فغير خاف على الحكومة ان الذي حملكم على شقّ عصا طاعتها انما هو تصديقكم دعوى محمد احمد المتهدي وقد اتضح لكم الان ان تلك الدعوى لم تكن من المهدية بشي بل هي ثورة دموية افضت الى ملك جائر يتولاه الآن عبد الله التعايشي الذي عزل كل امير من غير اهلهِ وولى اهلهِ فاستبدوا بكم . ولما رأت الحكومة سوء مصيركم ارسلت الآن جنودها الجرّارة لانتشالكم من وهدة الضلال التي اوقعكم فيها ذلك المتمهدي وانقاذكم من الظلم الذي تقاسونهُ في عهد خليفتهِ التعايشي . وقد كان من مبتدعات المتمهدي وخليفتهِ هذا منع الحج الشريف مع انهُ فرض وجب على كل من استطاع اليه سبيلاً . ثم ان كلا منهما فسر القرآن على رأيهِ وهواهُ واستنبط احكاماً شرعية كما اراد ومنعكم قرأة كتب الحديث والتفسير فضلاً عما ياتيهِ التعايشي الآن من جمع المال وتفريق كلمة الاسلام وهتك الاعراض وظلم الفقراء وهدم بيوت الكبراء وبعد ان كان رجلاً مسكيناً لايملك شروى نقير استأثر باموال الرعية كلها وسكن القصور المشيدة واتخذ نساء المؤمنين سراري لهُ واستحل وطأهن بلا عقد ولا ملك يمين وهو مع ذلك يدعي بالزهد والمسكنة ويتنعم سرًّا بكل ما تطيب بهِ نفسهِ وتقرُّ عينهُ وهو ظالم غشوم ما تكلم احد بالحق الا قتلهُ او سجنهُ او نفاهُ . وقد سجن الخليفة شريفاً واهان الخليفة ود حلو واولاد المهدي وقتل ابرهيم عدلان واقارب المهدي مثل عبد القادر ودساتي علي ومحمد عبد الكريم واخوانهم سجن والزاكي طمل والقاضي احمد والحسين ود الزهرة اماتهم جوعاً . وخرب

مساجد المسلمين كمساجد الحسن المرغني واولاد نور الدايم والشيخ العبيد والشيخ حمد النيل العركي • ونفى امراء الجعليين مثل بدوي ود العريق وغيره وبذلك اسخط جميع العالم الاسلامي واصبحت مكة المشرفة وكرسي الخلافة العظمى تنظر الى عمله بعين المقت والكراهة » ولما رأى ولي النعم خديوينا المعظم ﴿ عباس حلمي الثاني ﴾ ان جرائم هذا الطاغية تزداد يوماً فيوماً اخذته الشفقة على المسلمين المظلومين وصمم على انقاذهم من الظلم فارسل جيوشهُ المظفرة لكي تهدم اركان دولة التعايشي وتقيم حكومة شرعية مؤسسة على العدل والاستقامة وتبني المساجد وتعين على نشر الدين القويم • وقد اصدر سموهُ عفوهُ التام عن جميع ذنوبكم وأمر بردّ املاككم. وهو يدعوكم الى استقبال جيوشهِ بالترحيب فاذا قبلتم الدعوة وعرفتم قيمة الانعام كنتم انتم الرابحين الناجين والا فالويل لمن رفض نعمة ربهِ وكرم خديوينا المعظم وباسمهِ لي الرجاء الوطيد ان اراكم قريباً طائعين ومعضدين للحكومة الخديوية والسلام يونيو سنة ١٨٩٦ » الامضاء : كتشنر قائد جيش حملة السودان وسردار الجيش المصري

هذا ولم يعد في الامكان الانتقال من كوشه جنوباً قبل مدّ سكة الحديد والوابورات اليها • اما الوابورات فلم يمكن عبورها فوق الشلالات الا بعد استيفاء الفيض حدّهُ وذلك في اوائل اوغسطوس فاهتم السردار بأتمام سكة الحديد الى كوشه بأسرع ما يمكن من الزمن لينقل اليها الزاد والذخائر واجزاء الوابورات التي اوصى بها في بلاد الانكليز على ان يبنيها في كوشه حتى اذا ما ارتفع النيل الى الحد المطلوب وجاءت الوابورات من حلفا تكون الوابورات الجديدة قد تمت فأضاف اربع أورط من الجيش الى أورطة سكة الحديد وحثهم على الجد في العمل

﴿ انتشار الكوليره في الجيش ﴾ وكانت الكوليره قد تفشت في مصر بعد خروجنا منها بقليل فوصلت اسوان في اواسط يونيو وما زالت تذهب صعداً في النيل حتى تفشت في جميع نقط خط الاتصال من اسوان الى سواردة فاجتهد السردار واركان حربهِ والاطباء في محاربتها حتى زالت في ١٠ أوغسطوس وبلغت الوفيات في جميع نقط الجيش ٩١٩ منهم ١٤ عسكرياً و ٥ ضباط من الانكليز وفيهم البكباشي فنك

بطل الاكمة المار ذكرهُ في سواكن و ١٥٦ عسكريًا و ٤ ضباط من المصريين و١٨٣ من «حريمات» العساكر السودانية و ٤٥٦ من اهل البلاد . ومنهم المرحوم يوسف شكور من مهندسي سكة الحديد النجباء وابن اخي ملحم بك شكور ونسيب سليمان بك ناصيف . توفي في فركة في ٢٩ يوليو رحمة الله على الجميع

﴿ تفشي الحمى التيفودية في الجيش ﴾ ولكن المصائب لا تأتي فرادى فانهُ قبل زوال الكوليرة تفشت في الجيش الحمى التيفودية وما زالت حتى اخذت نصيبها منهُ

﴿ الحر والزوابع والامطار ﴾ ومعلوم ان الفصل الذي قامت فيهِ الحملة هو فصل الحرّ وقد اشتد علينا حتى بلغت درجة الحرارة ١٢٥ بقياس فارنهيت في الظل . ثم لم يبدأ شهر اوغسطوس حتى بدأت الاعاصير والرياح اللواقح فكانت كلما ثارت تقتلع الخيام وتثير الغبار وتغادر الجو مظلماً . وفي ٢٥ اوغسطوس ثار اعصار شديد عند الغروب فاقتلع نصف خيام المعسكر ونسف خيمة هندية كبيرة كنت اكتب فيها فسقطت عليَّ ولكنني نجوت منها بمعونة الله وخرجت فوجدت العاصفة قد اثارت الغبار وهي لا تزال تهب بشدة وعنف حتى كنت اذا وقفت ترميني الى الارض واذا جلست تنسف التراب والحصى في وجهي وبقيت على هذه الحالة الشديدة نحو ساعة اذكرتني جيش كمبيز الذي هلك في صحراء سيوه . ثم هطلت الامطار فسكنت الرياح وانقشع الغبار فذهبت الى خيمتي لاتقي المطر فوجدت الريح قد اقتلعتها والمطر مبللاً فراشي وثيابي ولكنني وجدت كثيرين قد اصيبوا بما اصبت فقضينا ليلة شر الليالي

وفي ٤ اوغسطوس مدّت سكة الحديد الى كوشة وأخذ الجيش ينقل عليها المؤن والذخائر بكل اهتمام . وفي ١٥ منهُ وصلت اجزاء الوابور الجديد المسمى الظافر الى كوشة فبناهُ القومندار كولفل من البحارة الملوكية في أيام معدودة وانزلهُ الى الماء قصد تجربتهِ فانفجر قزانهُ فتأخر في كوشه مدة

وتاخر ارتفاع النيل هذه السنة عن ميعادهِ فلم يمكن الشروع في مرور الوابورات فوق شلال حلفا قبل ٢ اوغسطوس وقد تولى هـذا العمل الشاق اللوا هنتر باشا والقومندان رو برتصن من البحارة الملوكية وكان عدد الوابورات التي عبرت

الشلالات سبعة : اربعة مدرعة وهي تماي والمتمة وأبو طليح والنيب وثلاثة غيرمدرعة وهي عكاشة ودال وخيبر وقد وصلت كوشة في ٢٣ اوغسطوس

وفي هذا اليوم عاد الينا رسول كنا ارسلناه في بدء الحملة الى دنقله لاستطلاع اخبارها فقبض عليهِ اميرها وارسلهُ الى الخليفة في ام درمان فزجهُ في السجن الى ان كانت واقعة فركه فاستدعاهُ اليهِ وسألهُ هل سلاطين باشا في الحملة قال نعم فقال لهُ «ان سلاطين كتب الينا كتاباً وهذا جوابهُ فسلمهُ اياهُ سرًّا » فحملهُ واتى بهِ الى سلاطين وهو غير مصدق انهُ نجا . وكان سلاطين عند وصولهِ الى مصر قد ارسل الى الخليفة كتاباً يخادعهُ بهِ ليرفق بخدمهُ الذين تركهم وراءهُ وهذه صورتهُ :

«اما بعد فمن عبد ربهِ عبد القادر سلاطين الى سيدي وسندي خليفة المهدي (عم) السيد عبد الله بن السيد محمد حفظهُ الله آمين نخبر سيادتكم اننا وصلنا الى مصر بعون الله سالمين وبعد وصولنا حصل لنا لطف من الله وان شاء الله عن قريب يحصل الشفاء ونتوجه الى بلادنا لمقابلة اهلنا واخواننا وأنا لا زلت اذكر فضلكم ومعروفكم أيام كنت في بابكم واذا بلغكم عنا ما يكدر خاطركم فأرجو ان لا تصدقوه وانتم قد وهبكم الله سبحانهُ معرفة الباطن ومن ذلك تعلمون ان محبتنا لكم خالصة . نعم اني تركت بابكم بدون اجازة منكم ولكن هيبة سيدي خليفة المهدي منعتني عن طلب الاجازة والآن الوم نفسي على ذلك واطلب منكم العفو وان شاء الله بعد رؤية الاهل والوطن نعود الى خدمة بابكم العالي وذلك عند وصول كتاب الامان من سيدي خليفة المهدي . مصر في ٧ ابريل ١٨٩٥ » اه . وهذا جواب الخليفة عليهِ :

« وبعد فمن عبد ربه خليفة المهدي عليهِ السلام الخليفة عبد الله ابن محمد خليفة الصديق الى عبد القادر سلاطين . بعد السلام نعلمك ان الجواب المحرر لنا منك بخطك بأنك ثابت على دين الاسلام وانك لا تخون العيش والملح قد وصلنا وهو الآن محفوظ بطرفنا وحيث انك على ذلك وقد حضرت الآن مع الكفار الذين انت معهم فاعمل المكيدة التي تمكن من انتهاز الفرصة فيهم وها هي الجيوش الاسلامية

متوجهة اليهم وهذا ما لزم اعلامك بهِ لتجري العمل بموجبهِ سرًّا والسلام في ٢٠ صفر سنة ١٣١٤ هـ » اه ٣١ يوليو سنة ١٨٩٦

وعند وصول الوابورات الى كوشة اي في ٢٣ اوغسطوس امر السردار حامية سواردة فتقدمت الى ابي صاري وشرع في ترحيل الجيش اليها بطريق العقبة فخرج اللواء الاول من كوشة في ٢٧ اوغسطوس وتبعهُ اللواء الثاني على الاثر ٠ وفي مساء هذا اليوم جاءت الانباء بهطول امطار غزيرة شمالي عكاشة أفاضت الخيران وأخربت ٢٠ ميلاً من سكة الحديد بين المرات وسرس فامر السردار جميع من توفر لديهِ من العساكر وقد زادوا على ٥٠٠٠ فاصلحوا الخط بمزيد الهمة وما كادوا يتمونهُ حتى هطلت الامطار ثانية وخرَّبت محطة عكاشة وثمانية اميال من الخط بقربها فخفَّ العساكر اليها فانصبوا على العمل فيها ليلاً ونهارًا حتى أتموها في ٣ سبتمبر ٠ فأستأنف السردار ترحيل العساكر جنوبًا وأرسل اللوائين الثالث والرابع في عقبة أبي صاري في ٥ سبتمبر واتى بالاورطة الانكليزية من حلفا بسكة الحديد وارسلها في الوابورات في ١٢ منهُ وسار وراءها في النيل فاجتمع الجيش كلهُ والوابورات في دلقو في صباح ١٣ سبتمبر ٠ وعند العصر سار السردار بالجيش المصري برًّا وسارت العساكر الانكليزية بالوابورات مقابلهُ حتى وصل الى ابي فاطمة جنوبي شلال حنك مساء ١٨ سبتمبر ٠ وقد عبرت الوابورات شلال حنك سالمة الا وابور خيبر فانهُ ترك شمالي الشلال ووابور التيب فانهُ ارتطم بصخرة جنوبي الشلال فقرَّ عليها وتعذر اخراجهُ منها فترك ٠ وقتًا

هذا وكان ود بشاره لما علم بخروجنا من كوشة خرج بجميع جيشهِ الى الحفير تجاه الكرمة فاقام فيها ٣ طوابي على النيل جعل في كل منها مدفعين ووصلها بخندق حصين بنى من ترابهِ متراسًا فتح فيهِ المزاغل وجعل فيهِ رجالهُ المسلحين بالبنادق وكانوا نحو ١٨٠٠ ونزل هو بباقي جيشهِ بعيدًا عن مرمى الرصاص وراءهم ٠ وكان قد بنى استحكامًا في الكرمة وعزم على مقاومة الجيش فيها وفي الحفير معًا ولكن امراءهُ الحوا عليهِ فأخلى الكرمة واتى بالعساكر التي كانت فيها الى الحفير وذلك في

مساء ١٨ سبتمبر اي عند وصولنا ابا فاطمة فاجتمع عندهُ في الحفير من الجيش ما يأتي :

القبائل	الامراء	القرابة	الجهادية	الهجانة	الفرسان
الملازمون (أو الحرس الخاص)	محمد بشارة		١٦٠	١٣٠	١١٠
الجهادية السود	عبد الباقي عبد الوكيل (وثلاثة غيره من التعايشة)		١٥٣٢	٨٦	١٠٥
التعايشة	احمد محمد منجي	٦٠٠	٦٠	١٥	١٧٠
الحمر	حماد رقيعات	٥٦٥		٢	١٥٠
الهبانية	مساعد قيدوم	٤١٠	٣٠	٥	٥٠
دغيم	سليمان جمعه	٤٥٩		٦	٦٠
الجعليين	الحسن النجومي	١١٠٨	٢٠	١٥	٣٠
الدناقلة	عثمان ازرق	٣٣٢	٢٥	٤	١٢
	مجموعهم	٣٤٧٤	١٨٢٧	٢٦٣	٦٨٧

واقعة الحفير في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٦

﴿ الوابورات الحربية ﴾ وفي فجر ١٩ سبتمبر سار الجيش كلهُ برًّا وسارت الوابورات مقابلهُ في النيل وفي كل منها نفر من العساكر الى ان وصل الكرمة الساعة ٦ صباحاً فوقف تجاه الحفير . واما الوابورات فقد صدر لها الامر باستطراد السير الى دنقله وضرب الحفير عند مرورها بها . وندبت من قلم المخابرات لمرافقة الشريف الكبتن كولفل قومندان العماره فصحبتهُ في وابور « طماي » الذي سار في مقدمة الوابورات . وما زلنا سائرين حتى صرنا على بعد مرمى القنابل من الحفير فلاحت لنا خيمة ود بشاره في وسط معسكره وراء غابة من النخيل فصدر امر القومندان فصوبت القنابل عليها وقد علمنا بعد ذلك ان اول قنبلة اصابت ود بشاره وهو يقرأ كتاباً من الخليفة جاءهُ في تلك الساعة فجرحتهُ وقتلت عبدًا لهُ وكانت الساعة السابعة فاضطر ان يتقهقر الى التلال البعيدة فرارًا من القنابل . وامر السردار طوبجية الجيش فاتخذوا

مكاناً عالياً في الكرمة وشاركوا الوابورات في رمي الحفير بالقنابل ولم يلبث العدو أن اطلق علينا مدافعهُ فتقدمنا نحوهُ ونحن نرميهِ بالقنابل حتى ظهرت طوابيهم للعين المجردة فسددنا مرامينا فهدمنا الطابية الاولى وصوبنا القنابل نحو الثانية والثالثة وما زلنا نتقدم حتى صرنا على ٥٠٠ يرد من الشاطئ فتح أهل الخندق بنادقهم وصلونا ناراً حامية فأصيب سليم افندي شقره مترجم الوابور برصاصتين احداهما في كتفهِ اليمنى والاخرى في جنبهِ فجرح جراحاً خفيفة. واصابت رصاصة رسغ الكبتن كولفل فجرحتها جرحاً شديداً دامياً فالح عليهِ الطبيب في الدخول الى غرفتهِ لضمد الجرح في الحال فأمر الوابورات اذ ذاك بالتقهقر عن مرمى الرصاص وعاد بالوابور الى البر الشرقي ليضمد جرحهُ ولكنهُ ابقى الوابورات الاخرى تجاه الحفير ترميها بالقنابل. وعند وصولهِ الى البر ذهب الكبتن ده روجمان قومندان الطوبجية في الوابور فأخبر السردار بما كان فتكدر لجرح الكبتن كولفل وأمر باخراجهِ الى البر لمعالجتهِ وعهد بقومندانية الوابورات الى الكبتن ده روجمان وأمرهُ بالعبور بها الى دنقله تحت كل خطر فرجع ومعهُ اللورد اثلمني الذي ابلغ الكبتن كولفل اوامر السردار فطار صوابهُ وكان حكيمباشي الجيش قد جاء لينزلهُ الى البر فأخذ يتوسل اليهِ بالحاح ان يسمح لهُ بالبقاء في الوابور ويخبر السردار ان جرحهُ لايمنعهُ عن اتمام وظيفتهِ فسمح لهُ بالبقاء في الوابور بعد تردُّد كثير وما نزل الحكيمباشي حتى غاب الكبتن كولفل عن صوابهِ من شدة ألم الجرح فاقلع الوابور الساعة ½ ٩ يقودهُ الكبتن ده روجمان واهاب بالوابورين ابي طليح والمتمة ان يتبعاهُ الى دنقله فتبعاهُ ولما رآنا الاعداء مقبلين قاصدين المرور امطرونا وابلاً هطالاً من الرصاص والقنابل فرددنا نارهم باحرَّ منها حتى اغرقنا وابورهم الطاهرة. وكان معنا الملازم الباسل حسن افندي توفيق نجل بدر بك الحكيم ومعهُ ٣٠ رجلاً من الاورطة السابعة فاستل سيفهُ ووقف في رجالهِ يحثهم على مواصلة اطلاق الرصاص ويدلهم على مواقف العدو بجنان ثابت وعزم راسخ. وما زلنا نصادم تيار النيل ونواصل العدو برصاص البنادق وقنابل المدافع وطوبجية الجيش تساعدنا من البر الشرقي حتى اجتزنا الحفير آمنين وذلك الساعة عشرة وربع وقد اصابت قنابلهم وابوراتنا الثلاثة لكنها

لم تضر بها ضررًا يذكر وجرح بعض العساكر والبحارة . وكان مرورنا بالحفير تحت قنابل العدو ورصاصهِ مخاطرة شديدة لكن السردار رأى انهُ لابد من هذه المخاطرة لانهُ اراد ان يزحزح الدراويش من الحفير ويعبر اليها بالجيش فيهاجمهم في ديمهم وقد فاز بتدبيرهِ هذا كل الفوز فان الدراويش لما رأوا ان الوابورات تجاوزت الحفير قلقوا اشد القلق على ديمهم وعيالهم التي تركوها فيهِ وكان مدير المخابرات قد ارسل اليهم رسلاً من اهل البلاد فأشاعوا ان الجيش لاحق بالوابورات في البر الشرقي ليعبر بها الى دنقله ويستولي على الديم وانهُ لم يبق الا الطوبجية لمشاغلتهم فازداد قلقهم وما ارخى الليل سدولهُ حتى اخلوا الحفير واسرعوا الى ديمهم في دنقله فوصلوهُ في صباح ٢٠ سبتمبر

﴿ عبور الجيش الى الحفير ﴾ وفي فجر هذا اليوم شرع السردار في العبور الى الحفير بجميع الجيش وكان مؤلفاً من ١٢٦٩٣ رجلاً و١٣١٢ جوادًا و٣٧١ بغلاً و١٤٤٢ جملاً و٦٤ حمارًا و٢٢ مدفعاً ولم يكن عندهُ سوى وابورين و بعض المراكب التي غنموها في الحفير فعبروا جميعاً في ٣٠ ساعة

﴿ عود الى الوابورات الحربية ﴾ هذا ما كان من الجيش والدراويش اما نحن في الوابورات فاننا بعد ان تجاوزنا الحفير واصلنا السير حتى صرنا تجاه ديم الدراويش وكانت الشمس قد غابت فبتنا في البر الشرقي قبالتهُ . والديم المذكور من بناء النجومي طولهُ نحو ٣ اميال وعرضهُ نصف ميل وهو على ٣ اميال شمالي مركز الاوردي وعلى نحو ميل من النيل ولكنهُ قائم على ترعة قديمة تجري من جنوبي مركز الاوردي وتصب عند مسجد الحجر شمالي الديم . اما مركز دنقله الاوردي فقد هدمهُ الدراويش عند دخولهم البلاد و بنوا باخشابهِ ديمهم الا مركز المديرية فقد جعلوهُ شونة للغلال والتمر

وفي فجر ٢٠ سبتمبر خرجنا من مبيتنا وقصدنا الشونة فوجدناها خالية واذ لم يكن لنا اذن في النزول الى البر انقلبنا راجعين الى حيث كان السردار فوجدناهُ لم يزل مهتماً لتعدية الجيش الى الحفير وكان وصولنا اليهِ الساعة ٤ بعد الظهر فاخبرناه بما كان فأمر الكبتن كولفل بالبقاء في الحفير للراحة وأمر المستر بيتي قومندان أبي طليح بالرجوع

الى الديم في فجر الغد لمراقبة العدو بعد تقهقره اليهِ وندبني للذهاب معهُ ٠٠ وفي فجر ٢١ سبتمبر سرنا حتى قربنا من ديم الدراويش وكان الاهلون يستقبلوننا في الذهاب والاياب وعن اليمين والشمال بالتأهيل والترحيب والزراغيت فسألناهم عن الدراويش فقالوا ان ود بشاره حال وصولهِ امس الاحد من الحفير ارسل ٣٠٠ رجل بثلاثة مدافع الى الشونة لمصادمة الوابورات فجعلوا مدفعين في طابية قديمة شمالي الشونة والمدفع الثالث في غرفة جنوبيها وكان بين الطابية القديمة والشونة حائط حصين قديم فتحت فيهِ المزاغل فاحتلهُ بعض الجهادية ثم حفروا بين الشونة والمدفع الثالث خندقاً وبنوا من ترابهِ متراساً كما فعلوا في الحفير فاحتلهُ باقي الجهادية وتربصوا الوابورات ٠ فتقدمنا الى الشونة لتحقيق الخبر وابتدرناها بقنبلة من اقوى مدافعنا فأجابنا العدو على الفور من الطابيتين وانتشب القتال باطلاق القنابل من الجانبين لكن قنابلهم كلها اخطأت المرمى الا انهم رموا قنبلة من قنابل شرنبل فتفرقعت في الجوّ فوق وابور ابي طليح ولكنها لم تلحق بهِ ضرراً يذكر ٠ واصابني اذ ذاك شظية من كبسول مدفعنا عند اطلاقهِ فجرحتني في وجهي جرحاً خفيفاً فظن انها من قنبلة العدو ٠ وبعد ان رمينا الشونة بسبعين قنبلة رجعنا عنها الى الديم فرميناهُ بالقنابل الى قرب غروب الشمس فجئنا الى جزيرة ارقو وارسلنا منها أخبار يومنا الى مدير المخابرات وبتنا فيها الى الصباح ٠٠ وفي فجر اليوم التالي (٢٢ سبتمبر) رجعنا الى الشونة فناجزناها نحو نصف ساعة وعدنا الى الديم نستطلع اخباره فما كدنا نصل اليهِ حتى جاءنا الوابوران الحربيان يقودهما الكبتن كولفل وقد اتى ليتحقق بنفسهِ خبر الشونة التي بعثنا بهِ امس فندبني اليهِ وسار حتى اتى الشونة الظهر فرماها بالقنابل فاجابتهُ واشتد القتال ساعتين ثم اقلبنا راجعين الى الجيش وكان قد خرج من الحفير في ظهر ٢١ سبتمبر واتى الزورة على ٦ اميال من ديم الدراويش صباح ٢٢ منهُ ٠ وكنا نحن عندهُ بعد ظهر هذا اليوم فرأيناهُ يستعد للهجوم على ديم دنقله فأخذ الكبتن كولفل يعد عمارتهُ ايضاً للهجوم وكان الظافر قد اصلح قزانهُ (مرجلهُ) فوصل الزورة بعد الغروب وانضمَّ الى الوابورات الثلاثة المدرعة

احتلال دنقله في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٦

ولما كان فجر ٢٣ سبتمبر سار الجيش كلهُ برًّا لمهاجمة دنقلة وسارت الوابورات في النيل فسار طماي في مقدمتها وتبعهُ الظافر ثم الوابورات الاربعة الاخرى وكنا نتقدم الجيش قليلاً حتى كان الوابور الاخير مقابلاً مقدمتهُ . ولما كانت الساعة السابعة صباحاً اشرفنا على ديم الدراويش فرأيناهم قد اجتمعوا كلهم في شماله وراء خط النار الذي سبق ذكرهُ فأمر الكبتن كولفل فاطلقت الوابورات الحربية مدافعها عليهم فسقطت القنابل في وسطهم ففرقتهم وقتلت منهم وقد رأيناهم مهرولين غرباً وجنوباً حتى ابعدوا عن مرمى القنابل . ثم ارسلت الوابورات قنابلها الى الديم فصرنا نرى الناس يخرجون منهُ افواجاً مسرعين الى جهة الجنوب وكنا نشاهد الجيش كلهُ سائرًا نحو الديم ومستعدًّا للهجوم في نظام بديع جدًّا

ولما كانت الساعة ٨ والدقيقة ٤٥ رأينا فارساً مقبلاً نحونا من بعيد ومعهُ بعض الاتباع فوقفنا ننتظرهُ حتى اقترب منا وصاح الامان الامان فقلنا لهُ عليك الامان فترجل ودخل الوابور فسألتهُ عن اسمهِ فقال الامير حسن النجومي وكان متقلدًا سيفهُ وحاملاً بيدهِ حربة فرحبت بهِ وأخذت منهُ الحربة وأتيت بهِ الى الكبتن كولفل قومندان العمارة وعرَّفتهُ بهِ فأخذ السيف بين يديهِ وقدمهُ لهُ وقال ارجو الامان فقال لهُ القومندان عليك الامان فماوراءك من الاخبار قال : رجعنامن الحفير مساء ١٩ الجاري على نية الحرب فأرسلنا بعض الجهادية والمدافع الى الشونة لمقاومة الوابورات وأمرنا باقي الجهادية فحفروا خندقاً طويلاً شمالي الديم وتترسوا بهِ و بنوا طوابي ايضاً للمدافع الاربعة و بقينا في الديم الى ان عاد الكشافة امس الصبح فاخبرونا بقدوم الجيش الى الزورة وانهُ في عدد عظيم فخرجنا كلنا ووقفنا كل امير مع رجالهِ صفاً واحدًا وراء خط النار وفي نصف الليل عقدنا نحن الامراء مجلساً دعونا اليهِ ود بشارة وقلنا لهُ يا سيدنا اذا باشر احد الناس تجارة ثم تحقق انهُ خاسر لا محالة افلا يحجم عنها قال بلى فقلنا لهُ اذا كان هذا شأن الانسان والاتجار في المال فما قولك بهِ والاتجار في الارواح فأنت تعلم ان جيشنا كلهُ من فرسان ومشاة نحو ٦٢٠٠ رجل وجيش المصريين

ينيف على ١٥٠٠٠ رجل ثم ان عدد بنادقنا ١٨٠٠ واما هم فكل رجل منهم مسلح ببندقية فضلاً عن ان بنادقنا من نوع رمنتون و بنادقهم مارتين هنري وعندنا من المدافع ٧ وأما مدافعهم فتعد بالعشرات ولهم جيش في البر وعمارة في البحر افلا تظن ان قتالنا اياهم تجارة خاسرة يجب الاقلاع عنها • نعم اننا اذا ثبتنا امامهم نحملهم خسائر جمة ولكن هل يمكننا الثبات الى النهاية حتى نظفر بهم ونردهم الى مصر اذاً فالرأي عندنا ان نأخذ عيالنا ونتقهقر بهم الى الدبّه ومن هناك نطلب النجدة من ام درمان • قال ود بشاره عندي الموت خير من عار القهقرى ورأيي ان نثبت ونقاتلهم هنا حتى نظفر او نموت مشرفين • قلنا ليس من الحكمة ان يلقي الانسان بنفسهِ الى التهلكة وما زلنا بهِ حتى اقنعناهُ بترك الحرب وانصرفت الجلسة الساعة الاولى بعد نصف الليل وقبيل الفجر جئنا نحن الامراء وود بشاره فأخبرنا العائلات في الديم بالاستعداد للرحيل • وما طلع الفجر حتى جاء فارس من الكشافة وقال ان الجيش مقبل نحونا في البر والبحر بعدد الرمل والانصار على خط النار ينتظرون الامر فركب ود بشاره جواده وهمَّ بالمسير لمقاتلة الجيش فأخذنا بعنان الجواد وانزلناهُ عنهُ واركبناهُ حمارًا وقلنا لهُ قد اجمعنا ان لا نلقي بانفسنا في المهالك فالى اين تذهب ثم اوعزنا الى الجيش بترك الحرب والتقهقر جنوباً وصعدنا الى التلة ننتظر قدومهم واذا بالوابورات مقبلة وقنابلها تعبث بهم فانهزموا جنوباً وود بشاره في مقدمتهم واما انا فانتهزت هذه الفرصة التي طالما تمنيتها فخضت بجوادي الترعة وجئت اليكم لان انفسنا سئمت حكم البقارة وقد ارسلكم الله رحمة لنا • ثم سالناهُ عن الشونة فقال ان ود بشاره لما اوعز الى الجيش بترك الحرب أمر ايضاً بترك الشونة فاذا ذهبتم اليها لم تجدوا مقاوماً • فلخص الكبتن كولفل هذه الاقوال وارسلها مع رسول خاص الى السردار الذي كان لم يزل زاحفاً بجيشهِ على الديم واسرعنا الى الشونة فوجدنا جماعة من الناس قد رفعوا راية بيضاء واتوا لاستقبالنا فنزلنا الى البر فأمّناهم وعلمنا انهم وكلاء الشونة وعمالها وكبيرهم عبد الدائم بدر من اهالي اسنا • ثم دخلنا الشونة فاذا هي ملاءى بالذرة والقمح والشعير والتمر ووجدنا الدراويش قد تركوا المدافع وفروا هاربين • وفي الساعة

العاشرة صباحاً رفعنا الراية الخديوية على مركز المديرية وارسلنا الخبر الى السردار

اما السردار فظل زاحفاً بالجيش حتى صار على مرمى القنابل من خط نار الدراويش فجرى بينهم وبين مقدمة الجيش اطلاق القنابل والرصاص على التبادل وذلك قبل ان بلغهم امر ود بشاره بالتقهقر فلما جاءهم الامر المذكور تركوا المدافع الاربعة وفروا هاربين واستولى السردار على الديم

﴿ الاسرى والغنائم ﴾ وكان قد تخلف فيه بعض موظفي الفتح الاول وفيهم حامد البدوي كاتب ود بشاره وحمد بساطي ابن بساطي بك الشهير فسلما لهُ وجمعت الاسرى في مساء هذا اليوم فبلغت ٢٠٠٠ نفس وصاروا يزيدون كل يوم حتى بلغوا ٣٠٠٠ نفس ٠ وجمعت الغنائم فكان منها شي كثير من الاسلحة والجبخانة والحبوب والامتعة والجمال والخيل والمواشي ٠ وكان في جملة الغنائم طبلة غريبة الشكل ليونس الدكيم صنعت من جذع شجرة ضخم على هيئة ثور ذي قرنين وذنب واربع ارجل ثم شقت من الوسط وجوفت وجلّد الشق على مثال طبلات الفراتيت المسمات قدو قدو ٠ ومن الغنائم ايضاً سيف مكتوب عليهِ باللاتينية ما محصلهُ « لا تسلّني الا مضطرًا ولا تغمدني الا مشرفاً » وهو في الارجح من سيوف الصليبين

وجمعت دفاتر بيت المال واوراقهُ فملأت ٣ صناديق كبيرة فاستخرجت منها فوائد شتى عن محصولات البلاد الزراعية وضرائبها مدة حكم الدراويش لها

﴿ مطاردة السواري للدراويش ﴾ هذا وكان السردار بعد ان دخل الديم قد ارسل السواري والهجانة في اثر الدراويش المنهزمين فطاردوهم الى حلة الشيخ شريف فقتلوا منهم وسبوا وغنموا ٠ ثم جاء الشونة ومعهُ الميرالاي ونجت بك مدير المخابرات فشكر للقومندان كولفل رسائلهُ وحسن تدبيرهِ واوعز اليهِ ان يكف عن الحركة رفقاً بجرحهِ

﴿ احتلال الدبة في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦ ﴾ ثم امر القومندان روبرتصن ان يطارد الدراويش في النيل فيرسل من جاءهُ مسلماً ويحمي الاهالي من تعدياتهم ويسرع الى الدبة فيحتلها قبل وصولهم اليها فأخذ وابوري المتمة وابا طليح وسار جنوباً الساعة ١١ ½ صباحاً ٠ وكان قد صدر لي الامر فسرت معهُ ٠ وكان الدراويش

المنهزمون قد تسابقوا في الفرار فانقسموا جماعات يتلو بعضها بعضها في سلسلة متقطعة طويلة لا يدري اولها اين آخرها والسابق السابق منها الجواد وقد ابعدوا عن النيل فرارًا من الوابورات ولكن كانوا كلما عطشت جماعة منهم نزلت الى النيل فشربت وسقت رواحلها ثم عادت الى طريق الصحراء ٠ وقد لقينا بعض الجماعات في طريقنا فأمناهم وأمرناهم بالرجوع الى دنقله ٥ وفي صباح ٢٤ سبتمبر وصلنا دنقله العجوز فبلغنا ان في جزيرة حمّور اميرًا من اقارب ود بشارة يدعى عبد الرحمن معهُ ٦ رجال مسلحين بالبنادق يجمعون الضرائب فأتينا الجزيرة وارسلنا في طلبهم ولما لم يأتوا تهددنا اهل الجزيرة فلم يلبثوا ان اتونا بهم واستطردنا السير الى الدبه فوصلناها ظهر ذلك اليوم ورفعنا العلم المصرى عليها ٥ وكان ود بشاره قد ارسل مشائخ المحس وسكوت الى الدبه على نية ارسالهم الى ام درمان خوفًا من انضمامهم الى الجيش فلما رأونا اقبلوا علينا يرحّبون بنا فسألناهم عن الدراويش المنهزمين فقالوا انهُ لم يمر بهم احد بعد ولكن كان في الدبة امير من التعايشة يدعى فضالي فلما راى الوابورات من بعيد فرّ بمن معهُ من الانصار فارسلنا وابور أبي طليح بالخبر الى السردار ومكثنا في الدبة

﴿ احتلال مروي ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٩٦ ﴾ وفي فجر ٢٥ سبتمبر حضر الكبتن ده روجمان على وابور الظافر مأمورًا من قبل السردار بان يذهب الى مروي ويأخذني معهُ فانتقلت الى الظافر وسرنا حتى اتينا جزيرة قاتّي فاخبرونا ان فيها اميرًا من التعايشة يدعى حامدًا ومعهُ قاض يدعى محمد هاشمي لجمع الضرائب فانزلنا بعض العساكر الى الجزيرة واتينا بهما الى الوابور واستطردنا السير فوصلنا صنم (تجاه مروي) في فجر ٢٦ سبتمبر ورفعنا العلم المصري عليها ٠ وكان فيها امير من التعايشة مع بعض الانصار فلما رأونا مقبلين من بعيد فرّوا هاربين

وكان السردار قد ارسل تلغرافًا الى عبد العظيم بك في المرات ليوافي الوابورات الى بلاد الشايقية ويحول دون المنهزمين من دنقله فلما لم نرهُ صعدنا في النيل الى كاسنجر عند اول الشلال الرابع فرأينا آثار نبتة في البرقل ونوري من بعيد ولم نرَ عبد العظيم بك فبعثنا اليهِ برسول يستعجلهُ الى مروي واقبلنا راجعين الى دنقله

وفي الطريق اخبرونا ان اول المنهزمين من جيش ود بشاره وصلوا كورتي وهم في اسوإ حال من الجوع والعطش والعري وان بعضهم يترقبون ابتعاد الوابورات فيغشون ضفاف النيل وينهبون البلاد المجاورة ثم يرجعون من حيث اتوا فاخذنا كلما لاح لنا جماعة منهم نرميهم بالقنابل لنرهبهم ونكفي اهل القرى شرهم

﴿ مجيء السردار الى مروي في ٣٠ سبتمبر ﴾ وما زلنا سائرين حتى قربنا من دنقلة فاذا بالسردار مقبل على الوابورين دال وطماي ومعه الميرالاي ونجت بك وسلاطين باشا وكانت الساعة الاولى بعد نصف الليل من صباح ٢٨ سبتمبر فأمر بانتقالي الى دال ورجوع الظافر الى دنقلة ثم استطرد السير الى الدبة فوصلها الساعة ٣ بعد الظهر ورأى ان ساقة الدراويش قد تجاوزتها فارسل اليهم الامان فلقي الرسل فتى من الهبانية ضالاً في الطريق وقد أنهكهُ التعب والجوع فأتوا بهِ الى السردار فناولهُ بيدهِ فنجاناً من الشاي . وبقي في الدبة الى الساعة ٢ من صباح ٢٩ سبتمبر ثم استطرد السير الى مروي فدخلها في صباح ٣٠ سبتمبر ورأى ان الدراويش ساروا بطريق بئر الغزالي الى بربر فأرسل الى عبد العظيم رسولاً آخر يستحثهُ على المجيء الى مروي وفي الساعة ½ ٣ بعد الظهر انقلب راجعاً الى دنقلة فمر بالدبة ولم يمكث الا ريثما اصدر اوامرهُ الى الوابور المقيم فيها وما سار الاّ قليلاً حتى اتاهُ ضابط برًّا يحمل اليهِ تلغرافاً من حكومتهِ بترقيتهِ الى رتبة ماجور جنرال فأخذهُ ورجع الى حيث كان الجيش معسكرًا في حلة الشيخ الشريف فوصلها الساعة ١١ في ١ اكتوبر

﴿ تنظيم مديرية دنقله ﴾ وفي ٢ منهُ خرج باركان حربهِ لانتقاء مركز جديد للمديرية فاختبر النيل الى جزيرة ارقو فلم يجد محلاً افضل هواء واحسن ميناء للوابورات في الصيف والشتاء من مركز الاوردي القديم فنقل الجيش اليهِ ٥ وفي هذا اليوم اتاهُ تلغراف من الجناب العالي يهنئهُ بالفتح وينعم عليهِ بالنيشان العثماني العالي من الطبقة الاولى فاجاب سموهُ شاكرًا وقال ان الفضل في هذا الفتح عائد الى همة جيش سموكم وثباتهِ وحسن صفاتهِ العسكرية ٥ ثم وزع معظم الجيش المصري بين دنقلة والخندق والدبة وكورتي وصنم وشرع مع مدير قلم المخابرات في تنظيم حكومة

البلاد ووضع القوانين والاوامر للحكام والمأمورين الى صباح ١٨ اكتوبر فجعل اللواء هنتر باشا قومندانًا على الجيش وحاكمًا عسكريًا على دنقلة ورجع مع اركان حربه الى مصر وقد رجعت معهم فوصلناها في ١٣ اكتوبر سنة ١٨٩٦

وانحلت تجريدة دنقلة في ١٥ منهُ ورجعت الاورطة الانكليزية الى مصر * * وقد امتاز في هذه التجريدة جماعة كثيرة من الضباط المصريين فمن رتبة قائمقام: محمد بك بكير من الطوبجية وعبد الجواد بك برهان قومندان الاورطة الخامسة ومحمد بك بليغ قومندان الاورطة السادسة . وابرهيم بك فتحي قومندان الاورطة السابعة . ومحمد بك خلوصي قومندان الاورطة الثامنة . وسليم بك موصلي من القسم الطبي * ومن رتبة بكباشي احمد افندي زكي واسماعيل افندي همت وعبد السلام افندي زكي من اركان حرب . وحسين افندي شريف من السواري . ومحمد افندي مختار من الطوبجية . وابرهيم افندي صبري من الاورطة الاولى . ومحمد افندي رفعت من الاورطة الخامسة . وعثمان افندي عفت من الاورطة السابعة . ومصطفى افندي فكري من الاورطة الثامنة . وابرهيم افندي زهني من الاورطة الخامسة عشر . واحمد افندي فضلي من القسم الطبي * وامتاز ايضًا من القسم الطبي ولاسيما عند ظهور الكوليره الصاغ حسين افندي طلعت واليوزباشيون اسعد افندي راشد ومحمد افندي رفعت ومحمد افندي عهدي * * ورافق هذه التجريدة جماعة من الموظفين الملكيين فامتازوا في خدمتها وقاسوا فيها ما قاسى الجيش اهمهم: سليمان بك ناصيف من كبار موظفي السردارية وشاهين افندي جرجس . وطنوس افندي شحاده وسليم افندي شقره وكلهم من موظفي المخابرات ويوسف افندي حسب الله وعلي افندي وهبه وحسن افندي حسين واسعد افندي حنا من موظفي مصالح الجيش . ورافقها الى حلفا ملحم بك شكور سكرتير عربي السردار ونجيب افندي شقره من موظفي المخابرات * * وقد بالغ السردار في اقتصاد نفقات الحملة حتى كان الموظف حينئذٍ وهو في ساحة الحرب يتناول علاوة على مرتبه اقل جدًا من العلاوة التي يتناولها الآن والسودان في بحبوحة السلم والامان

الفصل السادس

في

﴿ استرجاع بربر سنة ٧ : ١٨٩٨ ﴾

لما رأت الحكومة انها لم تنفق على فتح دنقله الا قليلاً جدًّا من المال والرجال وان اهل السودان مستعدون لقبولها وليس فيه من يناوئها الا التعايشي واتباعهُ اقرَّت على استطراد الفتح واسترجاع سائر السودان . وكان السردار قد ابقى معظم الجيش في دنقله كما مرَّ فاستخدمهُ في اتمام مدّ سكة الحديد الى الكرمة ليتخلص من شلالات المحس وسكوت فأتمها في ٤ مايو سنة ١٨٩٧ . ثم شرع في مدها من حلفا الى ابي حمد للتخلص من شلالات المناصير وأخذ ينتظر ارتفاع النيل لاستطراد الفتح

﴿ استعداد الخليفة للدفاع ﴾ اما التعايشي فانهُ منذ سمع بواقعة فركة خرج بانصاره من ام درمان الى ظاهر المدينة وشرع في حشد الجيوش من جميع جهات السودان ظانًّا ان الجيش المصري يسرع في استطراد السير فلما رآهُ مبطئًا قدومهُ رجع الى المدينة وأخذ يترقب انباء دنقلة الى ان اتاهُ الخبر بانهزام ود بشاره فظن ان السردار يتخذ خطة اللورد ولسلي فيقسم جيشهُ في كورتي الى قسمين فيرسل احدهما بطريق النيل الى ابي حمد وبربر والآخر بطريق الصحراء الى المتمة . وكان قد ارسل في طلب محمود وجيشهِ من دار فور فحضر في سنة ١٨٩٧ كما مرَّ فأرسلهُ الى المتمة ليصد جيش الصحراء . وعقد لآدم يحيى الحمري على ٤٠٠ جهادي و ٥٠٠ فارس وارسلهُ الى بلاد المناصير ليصد جيش النيل . واوصى محمد الزين بالتيقظ في حراسة طريق كورسكو . وكان قد بعث في طلب احمد فضيل من القضارف وعثمان دقنه من ادارامة فجعلها في السبلوقة فبقيا فيها مدة ثم شاع ان الطليان زاحفون على ام درمان من كسلا فارجع احمد فضيل الى القضارف ليصدهم وامر عثمان دقنه فانضم الى محمود في المتمة

﴿ واقعة المتمة في ١ يوليو سنة ١٨٩٧ ﴾ هذا وكان الخليفة لما علم بانهزام ود بشاره

من دنقلة استدعى اليهِ عبد الله ود سعد امير الجعليين وفرض عليهِ عددًا معلومًا من اهلهِ يستنفرهم للجهاد وقدرًا معينًا من المؤنة يقدمها للجيش المنوي ارسالهُ الى المتمة فثقل الطلب على عبد الله ود سعد وقد طالما ارهقهُ الخليفة من قبل فعقد النية على عصيانهِ ولكنهُ اظهر الطاعة وعاد الى المتمة فجمع كبار قومهِ واسرَّ اليهم ما نوى فمن وافقهُ ضمهُ الى جيشهِ ومن لم يوافقهُ استحلفهُ على كتم السر فاجتمع اليهِ نحو ٣٠٠ رجل من اهلهِ الادنين وارسل في طلب المدد من جيش الحكومة في دنقلة. وكان لهُ عدو من اهلهِ يدعى احمد ود حمزه فوشى بهِ الى الخليفة وكان محمود اذ ذاك في كرري وجيشهِ في طريق المتمة فأمرهُ الخليفة ان يلحق بجيشهِ في الحال ويسحق عبد الله ود سعد قبل وصول المدد اليهِ من دنقلة فجد محمود السير حتى وصل المتمة بجميع جيشهِ في فجر ١ يوليو سنة ١٨٩٧ فاحاط بها من كل الجهات وابتدرها القتال بدون ان يدعوها الى التسليم. وكان عبد الله ود سعد قد تحصن في منازل المتمة الجنوبية وفتح فيها المزاغل فرأى انصارهُ انهم هالكون لا محالة فأشاروا عليهِ بالفرار الى دنقلة حتى اذا ما تقدم الجيش لمحاربة الخليفة عادوا معهُ فقال دعوني من الفرار وعارهِ فاني كلما ذكرت حادثة الملك نمر وفرارهِ من وجه الدفتردار ضاقت عليَّ الارض بما رحبت وتمنيت الموت فلنمت هنا او نحيا هنا وشرع في اطلاق النار فتبعهُ انصارهُ على الاثر وصدوا غارة المهاجمين وقتلوا منهم. فلما رأى محمود ما اصاب رجالهُ امرهم بالهجوم على المنازل فدخلوها عنوة وقتلوا ود سعد وانصارهُ عن بكرة ابيهم ثم انتشروا في البلدة يقتلون ويسبون ويعيثون حتى قتلوا من اهلها نحو ٢٠٠٠ نسمة وبلغ خمس السبي الذي ارسل الى الخليفة خاصة ٢٣٤ جارية و ٣٢ حرَّة. واما خسارة محمود فكانت ٨٨ قتيلاً و ٣٣٠ جريحًا. وقد ارتكب رجالهُ في المتمة من المنكرات ما تقشعر لذكرهِ الابدان واظهر نساء المتمة من الحصانة والعفاف ما يخلد لهن الذكر الجميل ما ذكر السودان حتى ان بعضهن القين بأنفسهن في النيل وفضلن الموت على حياة الفضيحة والعار. وبعد نهاية الواقعة امر الخليفة فجمع الجعليون والشايقية من بلادي المتمة والزيداب فبلغ عدد الجعليين ٢٣٠٥٦ نفسًا والشايقية ١٢٢٦٦ نفسًا وارسلوا

الى ام درمان فبقوا فيها حتى دخلها الجيش سنة ١٨٩٨ فارجعهم الى بلادهم

﴿ مجيء السردار الى مروي في ٨ يوليو سنة ١٨٩٧ ﴾ وكان السردار اذ ذاك في مصر يتهيأ للفتح وهو في انتظار ارتفاع النيل فخرج منها في ٨ يوليو سنة ١٨٩٧ يصحبهُ اركان حربهِ واتى رأساً الى مروي فجعلها مركزًا لهُ واخذ يحشد الجيوش اليها

وكانت الحكومة الانكليزية قد بعثت وفدًا سياسياً بعد حملة دنقلة الى منيلك ملك الحبشة برئاسة السر رنل رود من الوكالة البريطانية ومعهُ الميرالاي ونجت بك والكونت كليخن واللورد ادورد سسل المار ذكرهم و بنشنج بك من اطباء الجيش المصري وشاهين افندي جرجس من موظفي المخابرات فعادوا الى مصر قبل ذهاب السردار الى مروي فذهب الميرالاي ونجت بك وشاهين افندي معهُ

﴿ رجوع ابي الخليل من السلامات ﴾ وكان ابو الخليل قد ضاق به العيش في بلاد المناصير فرجع الى بلاد الرباطاب ونزل في كمب المرة وارسل في طلب المؤُنة من الزاكي امير بربر فبعث اليه بستة مراكب من الحبوب

واقعة ابي حمد في ٧ اوغسطوس سنة ١٨٩٧

فبقي محمد الزين وحدهُ في صدد الجيش في ابي حمد ومعهُ من الانصار نحو ١٥٠ فارساً و٢٥٠ جهادياً و١٥٠ من عربان البقارة والكبابيش والفادنية و٣٠٠ من الرباطاب والمناصير . وقد كتب الخليفة يحرضهُ على الثبات في رباطهِ ومحاربة الجيش الا اذا اتاهُ بالوابورات فليتقهقر الى بربر. قيل وجاءهُ كتاب من امرأتهِ في ام درمان تستحثهُ على الثبات وتقول لهُ ان نساء البقعة يقرعن ودبشاره في غنائهن لانهزامهِ من دنقلة وينظمن في ذمهِ الاشعار فاياك والانهزام لاني لا اطيق العيش معك بالذل والاهانة فصمم محمد زين على القتال حتى يموت او ينتصر . ورأى السردار انهُ لا بدَّ من طردهِ من ابي حمد ليتمكن من استئناف العمل في سكة حديد ابي حمد فجهز جيشاً مؤلفاً من بلوك من السواري و بطارية طوبجية واربع اورط بيادة وهي الثالثة والتاسعة والعاشرة والحادية عشرة وعقد لواءهُ لهنتر باشا وامرهُ بمهاجمة محمد زين فسار من مروي في ٢٩ يوليو حتى بلغ تخوم ابي حمد في ٦ اوغسطوس بعد سفر شاق

وكان السردار قد ارسل تلغرافًا الى عبد العظيم بك في المرات ليوافي هنتر باشا الى ابي حمد فوافاهُ اليها بـ ١٤٠ رجلاً . وكان محمد زين قد ارسل طلائعهُ لمراقبة حركات الجيش منذ قيامهِ من كاسنجر فعلم من انبائهِ انه لايقوى على مهاجمتهِ فحفر خندقًا شرقي البلدة وفتح المزاغل في المنازل الشمالية والشرقية واستعد للدفاع

وفي فجر اليوم التالي (٧ اوغسطوس) اعد هنتر عساكره للهجوم وزحف بهم فلما صارت العساكر على ١٠٠ ياردة من الخندق امر محمد زين رجالهُ في الخندق والمزاغل فامطروهم عارضاً هطالاً من الرصاص فرد العساكر نيرانهم باشد منها وما زالوا مهاجمين غير مبالين بالموت حتى دخلوا البلدة وقتلوا كل من وجدوهُ فيها بحراب البنادق . حكى لي ضابط شهد الواقعة قال ان بقاريًا يدعى كرارًا لما رأى العساكر منتشرين في البلدة نثر على عتبة بابهِ بعض الريالات ليشغل العساكر بها وتوارى بالحائط وصار كلما جاء عسكري وهمَّ بالتقاط الدراهم يصرعهُ ويجرهُ الى داخل المنزل حتى قتل سبعة منهم فدرى بهِ احد ضباط الانكليز فاحاط منزلهُ بلوك من العساكر فرماهم بالرصاص فاتى بالمدافع ودك منزله عليهِ ثم بحث عنهُ بين الانقاض فوجدهُ مقتولاً وامراتهُ واولادهُ مذبوحون بجانبهِ * وقد رمى البعض بانفسهم في النيل تخلصاً من نار الجيش فلاقوهُ فيهِ وحمل التيار بعض جثثهم الى حلفا . وبلغ مجموع قتلى الدراويش في هذه الواقعة نحو ٥٠٠ رجل . واما خسائر الجيش فكانت ٢٣ قتيلاً وفيهم القائمقام سدني بك قومندان الاورطة العاشرة المار ذكره في الكلام على سواكن والبكباشي فتزكلارنس من ضباط الاورطة المذكورة وجرح ٦٣ رجلاً فيهم ٣ ضباط مصريون * واسر الجيش محمد زين في منزلهِ ومعهُ ٥٠ رجلاً وغنم مدفعاً وكثيرًا من الاسلحة والذخائر

﴿ مرور الوابورات فوق الشلال الرابع ﴾ وكان السردار قد بنى وابوري الناصر والفاتح المشار اليهما قبل فضمهما الى الظافر وطاي والمتمة ودال والتيب وارسلها كلها الى فوق الشلال الرابع منذ ١٣ اوغسطوس فوصلت ابا حمد في ٢٩ منهُ الا التيب فانهُ غرق في شلال كعب العبد

احتلال بربر في ٦ سبتمبر سنة ١٨٩٧

ومن ثم توجهت عناية السردار الى فتح بربر وكان فيها الزاكي عثمان البقاري اميرًا وكان ابو الخليل لا يزال مقيماً في شلال كعب المرة فلما علم بسقوط ابي حمد رجع الى بربر فدخلها في ١٦ اوغسطوس وكتب الزاكي الى محمود يطلب منهُ النجدة فلما لم تأته خرج من بربر في ٢٤ اوغسطوس وانضم اليه في شندي · وفي ٢٧ اغسطوس بلغ هنتر باشا ان الزاكي ترك بربر فارسل احمد بك خليفة (اخا عبد العظيم بك) بار بعين رجلاً من عربانه لتحقيق الخبر فوصل بربر في ٣١ منه فوجد الخبر صحيحاً فبعث برسول الى هنتر باشا فحضر باربع وابورات ودخل بربر في ٦ سبتمبر فرفع العلم المصري عليها · ثم جاءها السردار في ١٠ اوكتوبر ولم يكن يدري بذهاب عثمان دقنة من ادارامة فارسل اليها هنتر باشا بالاورطة الحادية عشرة وبعض الملحقات العسكرية فوصلها في ٢٩ منهُ فوجدها خالية فعاد الى بربر في ٩ نوفمبر

وجاء مشايخ الهدندوة الى السردار في بربر فقدموا لهُ الطاعة ففتح الطريق الى سواكن · وجدد الهمة في سكة حديد ابي حمد فاتمها في ٣١ اوكتوبر سنة ١٨٩٧ · وبنى طابية في الداخلة عند ملتقى الاتبرة وجعلها مركزًا للوابورات واخذ يستعد للحملة على محمود في المتمة · وقد رأى ان الجيش المصري وحدهُ لا يكفي لقهره فاستنصر دولتهُ فانجدتهُ بالاي من العساكر فيهِ اربع اورط بقيادة الجنرال كاتيجر

﴿ خروج محمود الى الاتبرة ﴾ اما محمود فانهُ بعد قتل الجعليين اخرب المتمة ونزل بجيشهِ في شماليها على نحو ٣ اميال منها وتحصن هناك متأهباً للدفاع فحفر خندقاً طويلاً على زاوية قائمة مع النيل جعل فيهِ البنادقة وبنى طوابي على شاطئي النيل شرقاً وغرباً وجعل فيها عشرة مدافع لمقاومة الوابورات · وبث العيون والارصاد بطريق الصحراء وطريق النيل لاستطلاع طلع الجيش · وكان من رأي الخليفة قبل واقعة ابي حمد ان يتقدم محمود بجيشهِ وينزل في بعض المضايق او الشلالات شمالي بربر ويتربص للجيش هناك وفيما هو يستعد لذلك جاءهُ الخبر بسقوط ابي حمد وفرار الزاكي من بربر واحتلال الجيش لها فكتب الى الخليفة في ذلك فاقر الرأي

اخيراً على العبور الى الشرق والزحف على بربر . وفي ٢٠ فبراير سنة ١٨٩٨ تم عبور محمود بالجيش الى الشرق فبقي في اخذ الاهبة الى ١٠ مارس ثم زحف شمالاً فوصل العالياب في ١٥ منـهُ وهناك حصل خلاف بينهُ وبين عثمان دقنة فاراد هو الزحف بطريق النيل ومهاجمة طابية الداخلة واشار عثمان دقنه بالذهاب بطريق الصحراء الى الاتبرة ومنها الى الداخلة لان طريق النيل مكشوفة للوابورات ورفعا الامر الى الخليفة فصدق رأي عثمان فخرج محمود من العالياب في ١٨ مارس فوصل الاتبرة في ٢٠ منهُ ونزل في مكان يدعى النخيلة على ٣٢ ميلاً من الداخلة ومعهُ من الجيوش عدا جيش عثمان ما يأتي :

الامراء	اولاد عرب	جهادية	رمنتون	بنادق	خيل	دروع
علي السنوسي	١٩٤٥	١٥١٣	٨٢٠	٥٤٤	٣٤١	٣٤
صلاح ابوه	١٤٢٢	١١٢١	٤٨١	٣٦٨	٣٢٦	٤٣
محمد علي	١٨٠٤	٢٢٠٦	٨٩٥	٥٩٣	٤٨٦	٤٧
عيسى زكريا	٤٩٠	٦٢٣	٢١٤	٢١٣	٨٢	١٦
البشاري ريده	١٥٨٦	٥٣٨	٣٤٢	٢٠٦	١٤٣	١٩
محمد فضل الله	٤٦١	٤٦٥	١٥٢	٢٥٨	١٤١	١٦
عبد القادر دليل	١٣١٤	٤٢٥	٢٠٨	٣٦١	١٧٩	١٦
الفضلي آدم	٤٤٣	١٤٧	١٠٢	١٥٨	٨١	٧
العطا اصول	١٢٨	٢٤١	٥٨	١٤٢	٤٧	٢
المجموع	٩٥٩٣	٧٢٧٩	٣٢٧٢	٢٨٤٣	١٨٢٦	٢٠٠
فضل الحسنة	٣٨٣	٦٥٧	٦٧٢	٢٢	٩٦	٢
عبد الله حامد	٤٢٦	٣٣٤	٥٤٥	٦	٥٤	٢
محمد الزاكي عثمان	٦٦٢	٩٩٥	٧٦٧	١٢٩	٣٧١	٧
محمد ود بشاره	٢٧	٦٠	٥٨	٢	١٨	
المجموع	١١٠٩١	٩٣٢٥	٥٣١٤	٣٠٠٢	٢٣٦٥	٢١١

وكان عندهم من البنادق غير الرمنتون: ابو صرة و يادة وابو روحين وارشليك وخشخان. وكان مع الجهادية من الجبخانة لكل بندقية رمنتون خمس دستات ولكل بندقية يادة ست دستات ولكل بندقية ابي روحين خمس دستات

﴿ خروج السردار على محمود في الاتبرة ﴾ هذا وكان السردار يراقب حركات محمود ويرسل الوابورات في النيل الى المتمة فتناوش طوابيهُ وتعود اليهِ باخبارهِ وقد جاءت بخبر تحركهِ من المتمة فاستعد لهُ حتى اذا تقدم شمالاً حشد جيوشهُ كلها في كنّبور على ٦ اميال شمالي الداخلة . ثم لما علم بتحولهِ الى الاتبرة زحف الى رأس الهودي على ١٢ ميلاً من الداخلة فكان فيها في ٢٠ مارس اي يوم وصول محمود الى النخيلة ومكث ينتظر قدوم محمود ومعهُ جيش مولف من نحو ١٣٠٠٠ رجلاً

﴿ اخذ شندي في ٢٦ مارس سنة ١٨٩٨ ﴾ هذا وكان محمود قد ترك في شندي عائلات الامراء وعائلات الجعليين التي اسرها من المتمة وبلغ السردار ذلك فأرسل هكمن بك بالاورطة الثالثة و١٥٠ من الجعليين في ٣ وابورات حربية فأتى حوش بان النقا قرب شندي حيث كانت العائلات في ٢٦ مارس سنة ١٨٩٨ فقتل الخفراء وانقذ ٦٥٠ نفساً من النساء والاولاد واعادهن الى المتمة وغنم كميات وافرة من الحبوب والمواشي وهدم طوابي شندي وعاد الى الداخلة

واقعة الاتبرة الجمعة في ٨ ابريل سنة ١٨٩٨

وظن السردار ان محموداً يهاجمهُ فانتظرهُ في رأس الهودي اياماً وظن محمود ايضاً ان السردار لم يخرج من النيل الا بقصد مهاجمتهِ فاتخذ خطة الدفاع وتحصن تحصناً قوياً في النخيله فحفر خندقاً مستديراً في وسط أجمة وبنى من ترابهِ متراساً فتح فيهِ المزاغل واحاطهُ بزريبة متينة من شوك فرسم مدير المخابرات صورة الزريبة للسردار كأنهُ يراها. فزحف السردار بالجيش من رأس الهودي في ٤ ابريل قاصداً النخيلة فنزل في رأس عدار على ٩ اميال من الهودي و١١ ميلاً من النخيلة . وفي صباح ٥ ابريل ارسل هنتر باشا بالسواري والطوبجية و بعض البيادة لاستكشاف زريبة محمود والاحتيال على اخراجهِ منها فسار هنتر حتى اقترب جداً من الزريبة ونصب

المدافع واطلقها عليها فنفر فرسان الدراويش من جانبيها وحاولوا ان يكتنفوا هنتر فتقهقر برجاله رويدًا وهو يطلق المدافع حتى خرج منهم ظافرًا وعاد الى معسكره • ولما رأى السردار ان محمودًا لا يخرج من زريبته أقر على مهاجمته فسار بالجيش في ٦ ابريل الى ام ضبيع على نحو اربعة اميال من خور أبي عدار فترك فيها الاسبيتالية والاثقال تحميها نصف الاورطة الخامسة عشرة في زريبة قوية وسار في مساء ٧ ابريل بالجيش كله قاصدًا محمودًا في زريبته فوقف على ميل ونصف ميل منهُ فاستراح الى الساعة ١ بعد نصف الليل وكان الجيش من قبل يسير قلاعًا فصفَّهُ الآن صفوفًا للهجوم فجعل اللواء الانكليزي عن اليسار ولواء مكسول عن اليمين ولواء مكدونلد في الوسط ولواء لويس مع الماء والحملة في الوراء يحمي ظهور الألوية الثلاثة. وتقدمت المدافع الجيش فكان منها ٢٤ مدفعًا وصاروخ بقيادة الكولونل لونج في الميمنة و١٢ مدفعًا من مدافع مكسيم موزعة على الميمنة والميسرة والقلب • وسارت الجيوش بهذا الترتيب والسردار واركان حربهِ بين اللوائين المهاجمين حتى صارت على ٦٠٠ يرد من الزريبة وبزغت شمس يوم الجمعة الواقع في ٨ ابريل سنة ١٨٩٨ وعلت درجتين فوق الافق فصدر الامر للجيش بالوقوف لاجراء التدبير الاخير قبل الهجوم • فخطب قومندانات الاورط الخطب الحماسية على جنودهم فقال الكولونل مري قومندان اورطة السيفورث هيلندرس لجنوده «لابد ان تبلغ اخبار نصرنا مدينة لندن هذه الليلة» وخطب الجنرال جاتيكر خطبة غراء قال فيها للجنود «اني على يقين انكم لا ترجعون حتى تخترقوا زريبة العدو وتطردوهُ الى الاتبرة» • وفي الساعة السادسة وربع ابتدأ الطوبجية عن اليمين بأطلاق القنابل فخرج فرسان الدراويش حينئذ من طرف الاجمة الاقصى عن اليسار فتلقتهم نيران مدافع مكسيم وردتهم على أعقابهم خاسرين • واطلق الدراويش مدافعهم ولكن اكثرها لم يطلق غير طلقة واحدة واما البنادقة فانهم صبروا على نار المدافع نصف ساعة حتى اقترب الجيش منهم جدًا فصلوهُ نارًا حامية • وما زالت المدافع ترمي بمقذوفاتها على الزريبة والجيش يتقدم رويدًا نحوها حتى كانت الساعة السابعة وربع فصدر

الامر للعساكر بالهجوم فصدحت الموسيقات العسكرية بالنغمات الحماسية امام الجنود وهجموا كلهم من انكليز ومصريين هجمة الاسود وهم يطلقون البنادق غير مبالين بنيران العدو التي كانت تشويهم حتى وصلوا الزريبة فاخترقوها عنوةً بحراب البنادق وقتلوا كل من وجدوهُ فيها واجلوا الباقين ووقع محمود اسيرًا في يد الاورطة العاشرة بقيادة الباسل الميرالاي ناسون بك (اللوا ناسون باشا الآن وسكرتير ملكي السودان) قيل وجدوهُ مختبئًا في حفرة وسط الزريبة . واظهرت الجنود الانكليزية في هذه الواقعة البسالة المشهورة عنهم في مواقع القتال . وكان الكبتن فندلي من ضباط الكمرون هيلندرس اول من اخترق الزريبة فأصابتهُ رصاصة اخترقت صدرهُ فخر صريعًا فقال لرجالهِ « تقدموا يا رجالي وخذوا بثاري » وهو من الضباط البواسل الظرفاء الذين امتازوا في الحملة النيلية وكان قد تزوج قبل الواقعة ببضعة اشهر رحمة الله عليهِ . ولما خرَّ الماجور اركهرت صريعًا قال للذين حولهُ « سيروا ولا تبالوا بي » وكان هذا آخر ما فاه بهِ . ولما وصل الجنرال جاتيكر قائد اللواء الانكليزي الزريبة كان معهُ الجندي كروس من الكمرون هيلندرس فصوب درويش كبير الهامة حربتهُ الى الجنرال وهمَّ ان يرميهُ بها فابتدرهُ كروس المذكور بطعنة من حربة بندقيتهِ اوردتهُ حتفهُ . وقال السردار لقومندان الكمرون هيلندرس « يحق لك الافتخار بهذه الاورطة » فأجابهُ الكولونل « نعم اني لمفتخر بها » . هذا ولم تكن بسالة الجنود المصرية والسودانية في الهجوم بأقل من بسالة الجنود الانكليزية فقد سار امامها قائدها العام هنتر باشا وسيفهُ بيدهِ يلوحهُ في الهواء ويحرضهم على الهجوم فهجموا هجمة الاسود غير مبالين بنيران العدو وقد خسروا خسارة عظيمة في تلك الهجمة . وكان ختام الواقعة الساعة الثامنة ونصفًا . وبعدها جدَّ لواء لويس بك والسواري والمدافع الراكبة في أثر المنهزمين فقتلوا وأسروا . وانقسم المنهزمون قسمين فذهب بعضهم الى القضارف وبعضهم الى ام درمان وفيهم عثمان دقنه (القتلى) وكانت خسارة الجيش في هذه الواقعة : من الجيش الانكليزي ٣ قتلى و ١٠ جرحى من الضباط و ٢٢ قتيلاً و ٨٢ جريحًا من العساكر . ومن الجيش المصري ١١ قتيلاً من الضباط منهم ٥ من الانكليز و ٥٧ قتيلاً و ٣٦٥ جريحًا من العساكر .



﴿ الامير محمود أسيراً ﴾

وقد كان رصاص الدراويش كعادتهِ عالي المرمى حتى انهُ اخترق كثيرًا من خوذ العساكر ولولا ذلك لكان فتكهُ بالجيش أشد واعظم . وأما الدراويش فقد قتل منهم نحو ٣٠٠٠ رجل وفيهم من الامراء : علي السنوسي والبشاري ريده والعطا اصول وعبد القادر دليل وصلاح ابو وعبد الله حامد والشريف النقيب وكيل دقنه

﴿ الغنائم والاسرى ﴾ وأُسر منهم عدا محمودًا نحو ٢٠٠٠ نفس وغنمت مدافعهم العشرة وشيء كثير من الاسلحة والذخائر والرايات والنقاقير . وعاد السردار الى بربر فدخلها في ١٤ ابريل باحتفال شائق . وقد كان هذا الظفر أحسن تمهيد لفتح السودان

الفصل السابع

في

﴿ صفات الخليفة عبد الله واخلاقهِ وحكومتهِ وجيشهِ واجمال حالهِ ﴾

صفات الخليفة واخلاقهُ

﴿ صفاتهُ ﴾ كان التعايشي ربع القامة اسمر اللون اشيب الشعر عربي الملامح خفيف الشاربين خفيف اللحية مستديرها يهذب لحيتهُ وشاربيهِ على وجههِ آثار الجدري اقنى الأنف حسن الفم قصير الشفتين حتى تكاد اسنانهُ تظهر من خلالهما فاذا تكلم برزت لامعة بيضاء كأنهُ يتبسم وبالاجمال فانهُ كان كثير الشبه بالمهدي بالقد والملامح الا انهُ كان أقصر قليلاً من المهدي واقلُّ سمرةً واضيق جبهة واصغر لحية . وكانت ملامحهُ في اول ايامهِ تتخللها طلاقة وبهجة فأمست بعد توليهِ الخلافة وقد كساها انقباض تنقبض منهُ النفس ويدل على ما انطوى عليهِ الرجل من الاستبداد والمكر والدهاء . وكان في أول امرهِ نحيف الجسم شديد العضل فلما تولى الخلافة سمن كثيرًا الا ان سمنهُ لم يضعف نشاطهُ ولا همتهُ

﴿ لباسهُ ﴾ وكان لباسهُ كلباس المهدي اي الجبة المرقعة فوق سراويل من الدمور المعروف بالقنجة والعمة الملجة فوق المكاوية مدلاة منها عذبة على كتفهِ اليسرى ويلقي على كتفيهِ رداء بطرف حرير ازرق ويتمنطق بمرقعة حول خصرهِ

وكتفهِ اليسرى ويتلثم برداء من الشاش الرفيع فوق العمة بحيث لايظهر من تحتهِ الا دائرة وجههِ ويلبس في عنقهِ سبحة كبيرة وفي قدميهِ الخف الاصفر في الحذاء الاصفر فاذا جلس خلع الحذاء وابقى الخف وتربع على عنقريب فوقهُ فروة من جلد الضأن وهي التي يصلي عليها . وكان مولعاً بالتطيب والنظافة فكانت رائحة الطيب تفوح من ثيابهِ على بعد خطوات . واذا مشى حمل بيساره سيفاً وبيمينهِ حربة قصيرة هدندوية ومشى ورآءهُ بعض غلمانهِ الاحباش وغيرهم • وهو يعرج في مشيتهِ عرجاً خفيفاً وسبب عرجهِ انهُ وقع عن حصانهِ بعد فتوح الابيّض فكسرت ساقهُ • وكان يركب جملا أو جواداً أو حماراً أواحدى العربات التي غنمها من الخرطوم • واذا ركب الجمل تقلد السيف على جنبهِ الايمن او وضعهُ امامهُ على السرج واذا ركب الجواد لبس احياناً الدرع والخوذة والبس جوادهُ اللبوس

﴿ نساؤهُ ﴾ وكان يحب النساء كسيدهِ المهدي وقد بالغ مثلهُ في الاكثار منهن فكان اربع منهن شرعيات والباقيات جواري وا كثرهن من اللواتي اسرن في الحرب فهن في اعتبارهِ ما ملكت يمينهُ وهنَّ من كل امة من امم السودان والحبشة • وكان اذا اراد ان يتزوج بنت زواجاً شرعياً تنحى عن احدى زوجاتهِ الشرعيات وتزوج بها

اما نساؤهُ الشرعيات اللواتي كنّ في عصمتهِ عند وفاتهِ فهنَّ : زهرة التعايشية التي تزوجها في بلادهِ قبل التصاقهِ بالمهدي • ونفيسة بنت بابكر القاسمية • وام كلثوم بنت المهدي • والسرة بنت وقيع الله الجملية

واما سراريهُ فاشهرهنَّ : مريم بنت ابرهيم • وموحومة بنت زايد • والسرة بنت عبد الله • وخادم الله بنت عبد الهادي • وسعيدة بنت بيت الامان • وحفصة بنت عبد السلام وكلهنَّ من المولدات • ومدينة بنت علي • وزمزم بنت حسن وهما حبشيتان • ونصره بنت مدني • ورقيقة وكلاهما نوبيّتان • ونخل الجنة بنت المبارك • وامنه بنت كرم الله وهما جعليتان • وفاطمة بنت الكرة تقلاوية • وآمنة بنت السيد حامد الخناقية • والتومة بنت راض الله المحسية • وزينب بنت نقيب المصرية • ومن مطلقاتهِ فاطمة بنت احمد اغاسين دولابية دنقلاوية



اولاد المهدي : الطاهر ونصر الدين وعلي وهم الجلوس
واولاد الخليفة : عبد الصمد ويحيي وعمر وابرهيم واسماعيل
وهم الواقفان والقاعدون القرفصاء



﴿ اولادهُ ﴾ ولهُ من امرأتهِ الاولى زهرة التعايشية ثلاثة اولاد وهم شيخ الدين ويحيى وخديجة اما شيخ الدين فهو بكر اولادهِ وقد رشحهُ للملك بعدهُ وجعلهُ رئيساً للملازمية كما مرَّ وزوجهُ بابنة اخيهِ يعقوب ولهُ من العمر ١٧ سنة واحتفل بزواجهِ احتفالاً عظيماً وبنى لهُ منزلاً واسعاً قرب منزلهِ وعني بتربيتهِ واحضر لهُ الفقهاء فعلموهُ القراءة والكتابة وقد رأيت في منزلهِ كتابي «امثال العوام» وقيل لي انهُ كان يحب مطالعتهُ . ومن نفيسة بنت بابكر ثلاثة اولاد عمر وهو الذي اشار اليهِ بأنهُ عند بلوغهِ سن الرشد يكون اميرًا على اخوالهِ العباسيين وسليمان والفاضل . ومن ام كلثوم بنت المهدي اربعة اولاد محمد الطاهر ومحمد المهدي ومحمد السيد والطاهرة . ومن السرة بنت وقيع الله بنت تسمى زهرة . ومن مريم بنت ابراهيم ثلاثة اولاد داود وحليمة وحوا . ومن مرحومة بنت زايد ولد يسمى ابرهيم . ومن السرة بنت عبد الله ولد يسمى علي . ومن خادم الله بنت عبد الهادي ولدان حسن ونور الشام . ومن سعيدة بنت بيت الامان بنت تدعى نفيسة . ومن حفصة بنت عبد السلام ولد يدعى عبد السلام . ومن مدينة بنت علي ولد يدعى اسماعيل . ومن زمزم بنت حسن بنت تدعى رابحة . ومن نصرة بنت مدني ولد يدعى حمزه . ومن رقيقة النوباوية ولد يدعى عبد الصمد وهو «النجل المكرم» الذي تقدم لنا خبرهُ . ومن نخل الجنة بنت المبارك ولد يدعى عبد الحميد . ومن آمنة بنت كرم الله بنت تدعى مريم . ومن فاطمة بنت الكرة ولد يدعى عبد الرحيم . ومن آمنة بنت السيد حامد ولد يدعى عبد الله . ومن التومة بنت راض الله ولدان محمد الامين وام نعيم . ومن زينب بنت نقيب بنت تدعى صافية . ومن مطلقتهِ فاطمة بنت احمد اغا ولد يدعى عبد الرحمن القرشي الذي اشار اليهِ بأنهُ عند بلوغهِ سن الرشد يكون اميرًا على اخوالهِ الدناقلة

وجملة من ذكرنا ٣٢ ولدًا اي ٢١ ذكرًا و ١١ انثى مات منهم شيخ الدين في سجن رشيد سنة ١٩٠٠ من اثر جراح اصيب بها في واقعة جديد ولهُ من العمر ٢٤ سنة والباقون احياء بين مصر وحلفا وام درمان ويختلفون في السن بين ٥ و ١٩ . وقد مات لهُ عدة اولاد وهم صغار فدفنهم في تربة خاصة داخل حوش منزله

وكان عندهُ كثير من الخصيان لادارة حرمهِ وعليهم رئيس يدعى عبد القيوم

(اخوتهُ) واما اخوتهُ فهم ثلاثة تقدم لنا ذكرهم وهم : يعقوب اخوهُ من ابيهِ الذي جعلهُ وزيرهُ ووكيل رايتهِ ورئيس مجلس شوراهُ وقد كان اطوع لهُ من بنانهِ • وصفتهُ مربوع القامة فاتح اللون خفيف اللحية بوجههِ اثر الجدري يتمهل في الكلام واسع الصدر صبور بعيد الغور اذا صادقتهُ صدقك واذا خاصمتهُ خادعك وألان جانبهُ لك حتى تسنح له الفرصة فيغدر بك • والسنوسي احمد اخوهُ من امهِ وقد جعله اميرًا على الجبارات التعايشة • وهارون محمد اخوهُ من ابيهِ وامهُ جارية

(اقرباؤه) واما اقرباؤهُ الاخصاء فهم الامراء محمود احمد واخوه ابرهيم الخليل • وعبد الباقي عبد الوكيل • واحمد فضيل • ويونس الدكيم واخوه عثمان • والزاكي عثمان • وحامد علي واخوه احمد علي • ومساعد قيدوم • ومحمد بشاره وقد تقدم لنا ذكرهم • ويعقوب ابو زينب من اخصاء مجلس شوراه وصالح حمادو امير الجزيرة • وابسام من امراء الملازمية • وقد كان من امنائه الاخصاء الحاج الزبير الجعلي وهو المولج في تبليغ رسائلهِ الى امرائه في ام درمان وفي كشف اسرار الاهلين والجمعيات السرية

(معيشتهُ اليومية) وقد استقصيت من امنائهِ عن كيفية معيشتهِ البيتية فقالوا : انهُ كان يقوم عند طلوع الفجر ويدخل الجامع فيصلي في الناس صلاة الصبح ثم يمكث في مصلاهُ قليلاً ليسمع شيئًا من الراتب • ويرجع الى منزلهِ فيخلع الجبة والسراويل ويلبس الشقة كما هي عادة اهل السودان في منازلهم • ويطلب الطعام فيأتونهُ بشيء من الزبدة البقرية واللبن البقري الحليب • ثم ينام الى الضحى • وعند استيقاظهِ يطلب الطعام فيأتونهُ بعصيدة من الدخن وعليها ملاح التقليه أو ام دقوقه وهو ملاح مركب من السمن والشرموط البقري والويكة مع الشطه والملح والبصل ثم يأتونهُ باللحم المنصص وهو عضو من خروف الضان مشوي على النار • ثم يخرج الى مجلسهِ فيطلب الكتاب وينظر معهم في تحريراتهِ ومراسلاتهِ الى الضحى الاعلى • فيصرف الكتاب ويدخل الحريم فيستريح الى الظهر • ثم يدخل الجامع وبعد ان يصلي الظهر في محرابهِ يجلس تحت الرواكيب فيجتمع الامراء والاعيان والقضاة حولهُ

حلقة واسعة ومن ورائهم الملازمية وكلهم جاثون على ركبهم منكسو الرؤوس وايديهم مقبوضة على صدورهم او مبسوطة على ركبهم فيتفقد الغائب منهم ثم يشرع في اصدار الاحكام التي دبرها ليلاً . قال لي بعض الادباء الذي اوجدهُ سوء الحظ في زمن التعايشي ان تلك الساعة كانت اشد الساعات علينا فانهُ فيها كان يسكب جامَ غضبهِ على من خرجوا عن حد اشارتهِ او خالفوا رأيهُ او وشي بهم اليهِ فتراهُ يوبخ هذا ويأمر بسجن ذاك ونفي ذلك وقتل الاخر . ثم يدخل الى منزلهِ فيطلب الطعام فيحضرون لهُ الكسرة والطبيخ فيدعو اليهِ بعض التعايشة والقضاة فيأكلون معهُ وينصرفون الى العصر . فيرجع الى الجامع لصلاة العصر ثم يعود الى منزلهِ . وكان في غالب الايام يولم وليمة عامة بعد العصر لجيشهِ كلهِ فيقدم لهم طعام الكسرة وعليها اللحم المشوي من الضان او البقر يضعهُ في قدح كبير يسع اردب غلة وهو قدح ود زايد المشهور الذي غنمهُ منهُ سنة ١٨٨٦؛ كما مر وكان الجيش يأتي الى الطعام افواجاً حتى لقد تدوم الوليمة من صلوة العصر الى ما بعد صلوة الغروب . وبعد صلاة العصر يجلس قليلاً لسماع شيء من الراتب ثم يخرج من الجامع فيذهب في الغالب الى مكان معد لهُ في شرق القبة ليرى الملازميـــة وهم يقرأون الراتب وقد ينتظر الى تمام الراتب فيأمرهم بضرب البوري واجراء التمرينات العسكرية الى قبيل المغرب فيدخل منزلهُ ويجدد وضوءهُ ثم يدخل الجامع فيصلي المغرب ويجلس في مصلاهُ للمذاكرة والامر والنهي كالجلسة التي بعـد الظهر ويرجع الى منزلهِ فيطلب العشاء فيؤتى بالكسرة والطبيخ كالظهر فيتعشى ويستريح الى وقت العشاء . فيصلي العشاء في الجامع ويدخل منزلهُ للنظر في الامور الهامة مع أهل مشورتهِ وكبار دولتهِ كابنهِ عثمان شيخ الدين وأخيهِ يعقوب وقاضي الاسلام وشيخ السوق وأمين بيت المال وأمين بيت مال الخمس فينظر مع كل منهم في شؤون مصلحتهِ ويدبر امور المملكة على ما يقتضيهُ رأيهُ . كل ذلك وملازمو الباب جالسون بباب دارهِ او في الجامع منتظرين اشارتهُ ويمكثون كذلك حتى يغلق باب منزلهِ ويتحققوا انصراف مجلسهِ فينصرفون . ثم يدعو رئيس خصيانهِ عبد القيوم وحدهُ او يدعو محمد بشير وكيل الي معهُ فينظر معهما في نفقات منزلهِ .

ثم يدخل مخدعهُ ويدعو اليهِ من شاء من نسائهِ فينام الى قبيل الفجر اذ يقوم للصلاة وهكذا شأنهُ في كل يوم الا اذا طرأت حوادث مزعجة فانهُ يطيل جلستهُ بعد صلاة العشاء مع اهل مشورتهِ ويمتنع عن النساء

﴿ آداب الدخول عليهِ ﴾ وكان اذا اراد احد الدخول عليهِ في مجلسهِ استأذنهُ اولاً ثم تجرد من سلاحهِ ودخل عليهِ وهو منكس الراس قابض يديهِ على صدره حتى يكون على بضع خطوات منهُ فيقف ويقول السلام عليك يا خليفة المهدي « عم » فيجيبهُ وعليك السلام يا فلان ثم يشير اليهِ بالجلوس فيجلس جاثياً او يمد لهُ يدهُ فيهرول نحوهُ مطرقاً فيأخذ يدهُ ويقبلها ظاهراً و باطناً وهو جاثٍ على ركبتيهِ والخليفة يرحب بهِ ثم ينهض ويرجع القهقرى الى حيث وقف اولاً فاذا امرهُ بالجلوس جلس في الارض جاثياً على ركبتيهِ واضعاً يديهِ عليهما وانتظر حتى يأذن لهُ الخليفة فيحدثهُ بما جاء لاجلهِ وهو لا يرفع طرفهُ اليهِ حتى يتم كلامهُ فيأمرهُ بالانصراف فينصرف راجعاً القهقرى الى ان يتوارى عنهُ فيعود الى سلاحهِ . هذه هي اداب الدخول على الخليفة وهي سواء على الجميع من عامة وخاصة جهلاء وعلماء . واما آداب مخاطبتهِ في الكتب فكما رأيت في كتب امرائهِ اليهِ

﴿ اخلاقهُ ﴾ كان التعايشي قبل اتصاله بمحمد احمد في مصاف الدجالين فتخلق باخلاقهم مع الدهاء والمكر والتشيع للدين . فلما التصق بالمهدي تجلت فيهِ هذه الصفات وامتاز بالقسوة وسفك الدماء كما امتاز بالادارة والتدبير . ثم لما مات المهدي واستأثر بالملك كان اظهر صفاتهِ الغيرة على ملكهِ فكان اذا رأى او توهم عدم الولاء من احد بطش بهِ وقتلهُ او نفاهُ او اذلهُ وغنم مالهُ حتى انهُ ارهب اهل السودان كافة على ما بهم من الجرأة واحتقار الموت . ولم يكن احد منهم يجسر ان يخالف امرهُ او يتعدى اشارتهُ . وكان يصغى الى النميمة ويرتاح الى الاطراء فما كان احد يجسر ان يكلمهُ الاَّ نعتهُ بالحكمة والقوة والعدل . والويل لمن ينطق بكلمة تحط من قدرهُ . وكان على قسوتهِ سريع الغضب شديد النقمة فاذا سخط على احد صبَّ عليهِ جام غضبهِ بقسوة بربرية ولم يرضَ عنهُ الا اذا تذلل لهُ وهيهات

ان يرضى * ثم ان ما اوتيهُ من النصر المتوالي اورثهُ العجب والخيلاء والاعتداد بالنفس حتى كان يثق بنفسهِ وثوقاً عظيماً ويظن انهُ قادر على كل شيء لذلك كان اكره الناس اليهِ من اتاهُ بنصيحة . حكى لي محمد خدام كبير الحمر الذي وقع اسيرًا في واقعة طوشكي قال : لما اراد الخليفة ان يرسل جيشاً لغزو مصر اخذ في جمع اهل الجزيرة الى ام درمان باموالهم وعيالهم وابعدهم عن مزارعهم فذهبت الى محلهِ واستأذنتهُ في الدخول عليهِ فأذن لي فقلت لهُ يا سيدي ان الزراعة لمن اضر الامور للامة وفي اهمالها خطر كبير على سلامة الرعية والجيش فأنت الآن قد جمعت اليك اهل الجزيرة وابعدتهم عن زراعتهم ونحن بشر نحتاج الى الطعام ولسنا بملائكة فغدًا نطلب القوت فلا نجدهُ فنموت جوعاً . قال محمد خدام فانقبض وجه الخليفة وقال يا محمد خدام الم يكن المهدي يطلب الناس للهجرة اليهِ باموالهم وعيالهم ليكونوا من اهل الجنة وانا جار على اثره ومقتفٍ خطواتهِ واخاف اني اذا تركتهم ينسون الخالق فيسألني عنهم . ولم يمضِ الا القليل حتى اصدر لي امرًا بمرافقة النجومي لغزو مصر ليستريح مني * اه

﴿ صلاتهُ ﴾ وكان الخليفة يلازم الصلوات الخمس كل يوم في الجامع ويفرض على أهل أم درمان ولا سيما الامراء حضور الصلوات معهُ وكان اذا تخلف عنها أحد الامراء ولو مرة في اليوم لامهُ وعنفهُ . واذا منعهُ مانع كمرض أو غيرهِ عن الخروج للصلاة أناب عنهُ الخليفة علي ودحلو أو أحد قضاتهِ ولكن لم يكن يجلس في المحراب أحد غيرهُ . ويجلس ورآءهُ في الصف الاول القضاة وعن يمينهم بعض الملازمية ثم يعقوب أخوهُ واخصآؤهُ وامرآؤهُ وعن شمال القضاة بعض الملازمية ثم الخليفة علي ود حلو ثم جماعة الخليفة شريف هذا في الصف الاول ومن ورآئهِ باقي الملازمية صفوفاً وعن يمينهم رجال راية يعقوب صفوفاً وعن يسارهم رجال راية الخليفة ودحلو صفوفاً ومن وراء الجميع الجعليون والدناقلة وأهل البلد وفي آخر الجامع النساء وبينهم وبين الرجال فسحة رحبة * وكان يقف وراء الخليفة تماماً في صف القضاة سعد الدين الكتاني وهو المؤذن والمقيم والمبلغ . ويجلس علي مرحوم قاري الفواتح بين

الملازمية وراء القضاة وعند انتهاء الصلاة يقرأ الفاتحة ثم يقول : اللهم انصر خليفة مهديك كما نصرت نبيك وايدهُ بالظفر على اعدائك اعداء الدين يارب العالمين» . ثم يكبرون وينصرفون ٠ وكان الخليفة على جهله يتولى الخطابة في الجامع اي خطبة الجمعة والخطب المعتادة التي يراد بها الوعظ والقاء الاوامر فاذا اراد هذه الخطب افتتح خطبتهُ بقوله : السلام عليكم يا اصحاب المهدي فيجيبونهُ عليك السلام يا خليفة المهدي ويشرع في الخطبة ثم يدعو لهم بالبركة والخير فيؤمنون على دعائهِ . وكان جهير الصوت قويهُ غزير المادة في الكلام عاميّ النطق بقّاري اللهجة الا انهُ كان يحسّن لهجتهُ بتقليد اهل النيل ٠ وقدكان في بادي امرهِ امياً لا يحسن القراءة ثم تعلم مبادي القراءة والكتابة على اخيهِ يعقوب بعد توليهِ الخلافة ٠ ولكنهُ استخدم امهر كتاب السودان علماً واوفرهم عقلاً واذكاهم فطنة وآخرهم الشيخ مدثر ابرهيم أمين ختمهِ والشيخ ابو القاسم احمد هاشم المار ذكرهما

﴿ حضراتهُ ﴾ وكان يدعي ان الحق سبحانهُ وتعالى يتجلّى لهُ ومعهُ النبي والخضر والمهدي فيوحون اليهِ ما ارادوهُ من الامور العظيمة واول حضراتهِ الحضرة التي رواها لانصارهِ في الجامع بعد فتح سنار وهذه صورتها بعد البسملة : «وبعد فمن ربهِ خليفة المهدي «عم» الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق الى احبابهِ واعوانهِ على اقامة الدين ٠ احبابي ان في هذه الصفوف التي هي صفوف الصلاة اولياء واتقياء وعلماء عاملين وفيها ايضاً من التائبين والمعرضين ٠ واني منذ انتقال المهدي «عم» الى آلان وانا افكر في تقديمي على هولاء الاخبار من المهاجرين والانصار وفي كيفية ايصال التائبين الى الله وارجاع المعرضين عنهُ اليهِ ٠ ففي ضحوة الثلثاء في ٢٨ القعدة سنة ١٣٠٢ (١٨ سبتمبر سنة ١٨٨٥) بينا انا افكر في ذلك اذ حصلت لي حضرة عظيمة بين اليقظة والمنام ٠ وهي : انهُ حضر لي واحد من الجن وطلب البيعة فسألتهُ عن اسمهِ فقال كان اسمي السابق ماشي لاني كنت لا عقل لي واما الآن وقد حضرت الاسلام فاسمي خاشي ٠ ثم سألتهُ عن قبيلتهِ فقال العرضيون ويقال للواحد منا العارض دعينا بذلك لاعراضنا عن الحق . فقلت

لهُ قل آمنا بالله والرسول وامنا بالامام المهدي و بك فقال ثم اعطيته البيعة. وسألتهُ عن اسم ابيهِ فاخبرني فنسيتهُ لصعوبتهِ ومخالفتهِ لاسماء الانس . ثم سألتهُ عن أمهِ فسكت فظننت ان لا أم لهُ. ثم سألتهُ عن بلدهِ فقال بلدي من المحيط ثلاثون سنة وطلب الاذن في الذهاب الى اهلهِ ليدعوهم الى حضور الصلاة هنا وملازمة الصف فاذنت لهُ وذهب ... وبعد انصرافه حضر جن بكثرة طالبين البيعة ورافعين اصواتهم بلا اله الا الله محمد رسول الله على صفة اهل البيعة وقائلين في شأن الله على هيئة الاصحاب وكان بعضهم لابسين الفراوي وبعضهم قمصان بلا رقع فسألتهم عن عددهم فقالوا الذين حضروا هنا ٧٠ الفا فسألتهم عن قبيلتهم فقالوا الشمسيون فظننت انهم من عباد الشمس فلقنتهم البيعة ثم حضر نساؤهم فبايعنني ايضاً. ثم طلبوا الانضمام الى الاصحاب في الرايات فقلت الى اي راية تنضمون قالوا الى الراية الزرقاء مع يعقوب فاذنت لهم في ذلك. ثم طلبوا تعيين محل لهم بين الصفوف لملازمة الصلاة فقلت اي محل تختارون فاختاروا محل الاخوان الذين يتأخرون عن الصلاة فاذنت لهم في ذلك . ثم طلبوا محلاً يسكنونهُ في المدينة فخيرتهم فاختاروا الجبال التي بقرب المدينة ثم قدم لي واحد منهم بتسهُ هدية فلم اقبلها... ثم اضطجعت على العنقريب وادخلت رأسي بهدومي فحضر لي الخضر وصلى على فروتي ركعتين ... وبعد ان سلم قال لي ربك يقرئك السلام والملائكة يقرئونك السلام والنبي (صلعم) يقرئك السلام والمهدي «عم يقرئك السلام ويقول لك بارك الله فيك فيما صنعتهُ في الدين ... ثم قال ان المهدي «عم» اخبرني بان اخبرك لتبشر الاصحاب الذين لازموا الصفوف الثانية من اول نشأتها الى الآن هم مضمونون وكلما امرت بحفر صف ولازم فيه الاخوان يلحق بهذه الصفوف...

ثم سألت الخضر «عم» عن سبب انقطاعهِ عني منذ انتقل المهدي فقال اني كنت خافرًا شعرة من شعر المهدي ءامن احمد سليمان عليها فحفظها ولكنهُ كان يكشفها احيانًا و يبكي عند رؤيتها وقد كشفها مرة في الخرطوم فخشيت ان يخطفها ريح او تقع في محل وسخ تضيع فيهِ فبعد ان بلعتها انت امس استرحت وسُرتي عني.

وكانت هذه الشعرة امانة لك عند احمد سليمان فالان ان رضي بلعك اياها فلهُ ثواب حفظ الامانة وان لم يرضَ فلا ثواب لهُ • ثم قال الخضر « عم » ان القلب الذي تدخلهُ هذه الشعرة يأمن النفاق » • وقد كانت هذه الشعرة ايها الاخوان عند الحبيب احمد سليمان فلفها في ورقة حرصاً عليها وفي يوم الاثنين في ٢٧ القعدة وهو اليوم الذي بنى فيهِ هذا الحبيب التابوت اراد ان يكشف لنا الشعرة للتبرك بها فقبل ان يكشفها شممت رائحة عجيبة واول ما بدا لي رأس الشعرة حصل لي انشراح لا يعلم مقداره الا الله فتناولتها بقصد شمها فاراد الله ادخالها في فمي وابتلعتها • فطلبها الحبيب احمد سليمان مني ففتحت له فمي فلم يجدها والحمد لله على ذلك ... ثم قال لي الخضر « عم » اخبرني المهدي ان اخبرك ان في ساعة الحرب النبي معك والمهدي معك والخضر معك والملائكة معك فقلت من هم الملائكة الذي معي قال جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل ومنكر ونكير ورقيب وعتيد ومالك ورضوان وارواح جميع المؤمنين من ابينا آدم الى الآن • وكذلك جميع المؤمنين من الجن وقد جعل الله روح من يعاديك في رؤوس حراب الانصار وسيوفهم ... ثم قال يقول لك المهدي سنار اصحابي لا يسكنوها كررها ثلاثاً و يقول ان الذي يسمع الانذار ويموت فيها ليس من اصحابنا • وكذلك جبل الضباب وكاجة وجبل مرة ودار التعايشة لا يسكنها اصحابي الا اذا توجهوا لغزو واما سنار فلا يسكنوها ولو كانوا في الغزو • ذلك كلهُ عن لسان الخضر من غير زيادة ولا نقصان اخبرتكم به تحدثاً بنعمة الله وتبشيراً لكم قصد صلاحكم فتلقّوا ذلك بانشراح ارشدكم الله والسلام » اه

ومن تدجيلهِ المضحك ما كتبهُ الى عاملهِ حمدان ابي عنجه في غرة محرم سنة ١٣٠٤ ﻫ قال : ايها الحبيب بعد السلام عليك نعلمك ان امر الدين بعون الله وقوتهِ لا زال في تأييد ومدد من الله المجيد وقد تكاثر ظهور البشائر والخوارق والكرامات بين الاصحاب في مدينة المهدي « عم » حتى تواتر ظهور الانوار على اسلحة الانصار ففي يوم الثلاثاء الموافق ٢٩ الحجة سنة ١٣٠٣ حضر لدينا بالحراب اثنان من الاصحاب من راية الحبيب جلال الدين وهما الحبيب طاها علي والحبيب

محي الدين واخبرانا بانهُ في يوم الاحد الذي نزل فيهِ المطر وظهرت الانوار على الاسلحة سمعا حراب احدهما طاها تنطق بالشهادة أي كل حربة تقول لا اله الا الله محمد رسول الله سمعهُ الحبيب طاه ونادى ابنهُ فسمعهُ ايضاً وكذلك جماعة من الاخوان الصادقين حضروا معهم وسمعوهُ وفي ليلهم المذكور حضروا لدينا في المحراب واخبرونا بهذا الخبر . هذا فضلاً عن بقيـة الخوارق والعجائب التي اظهرها الله في الخارج بين الاصحاب وكل ذلك من عناية الله بانصار الدين وبروز الادلة الظاهرة على اعلاء الحق واخماد الباطل جعلنا الله واياكم من اهل عنايتهِ والسلام »

ومن هذا القبيل ما كتبهُ اليهِ عامله على القلابات احمد علي في ١٠ الحجة سنة ١٣٠٦

« سيدي مما لزم الحال عرضهُ لجنابكم هو انهُ لما قابلنا سيادتكم بالعام الماضي سألتمونا عن زوجتنا زينب بنت الريف هل هي حامل فقلنا لا فلما عدنا الى القلابات وجدناها حاملاً قبل توجهنا لمقابلة سيادتكم بشهر ثم وضعت بنتاً في اوائل ذي القعدة الماضي وليلة امس التي هي ليلة الثلاثاء في ٨ الحجة كانت مضطجعة في حجر والدتها ترضع فجذبت والدتها منها الثدي ظنّاً بانها نامت وولت مدبرة ففي الحال تكلمت البنت المذكورة بلسان فصيح قائلة لا اله الا الله محمد رسول الله فلما سمعت والدتها بذلك فزعت منها وطاش لبها واشهدت عليها من كان حاضرًا معها من النسوة فتعجبنا من تكلم هذه الصبية في المهد مع ان عمرها لا يتجاوز الشهرين فلذا لزم ترقيمهُ لسيادتكم راجين الارشاد في امر هذه الصبية والسلام » اه

اذا كان ربُّ البيت بالطبل ضاربًا فلا تلم الصبيان فيهِ على الرقص

حكومة الخليفة وجيشهُ واجمال حالهِ

(عمالاتهُ) قسم الخليفة السودان الى عمالات كما قسمتهُ الحكومة الى مديريات الا انهُ الغى مديريتي سنار والخرطوم وجعل منهما ٨ عمالات وهي عمالة الجزيرة من المقرن الى جبال ادريس وتشمل حلال شرق البحر الازرق وغربيهُ من العليفون الى سيرو وحلال شرق البحر الابيض . وعمالة جبال ادريس . وعمالة غرب البحر الابيض من ام درمان الى بلدة شبشه تجاه شات . وعمالة شات . وعمالة البادية

الغربية من ام درمان الى شات . وعمالة البادية الشرقية في البطانة . وعمالة شرق النيل الكبير من العيلفون الى حجر العسل . وعمالة غرب النيل الكبير من خور شمبات الى حجر العسل * وسمى مديرية فاشودة عمالة الشلك والدنكا ولكنهُ لم يحتلها بل كان يرسل اليها العمال من وقت الى آخر فيأتون منها بالحبوب والعبيد على سبيل الجزية . وهكذا فعل ببلاد فازوغلي * وهجر بحر الغزال واحتل مديرية خط الاستواء وسماها بعمالة بحر الجبل * وجعل مديريتي دارفور وكردوفان عمالة واحدة سماها عمالة الغرب وذلك بعد تجريد زقل سنة ١٨٨٦ * وجعل ايضاً القلابات والقضارف عمالة واحدة * وكان قد ضم كسله وطوكر الى عمالة واحدة تحت ادارة عثمان دقنه ثم فصلها فجعل كلاً منها عمالة * وكان كل من دنقله وبربر عمالة * وكانت كل عمالة مستقلة عن الاخرى ترجع باحكامها اليهِ * وجعل ام درمان عاصمة حكومته بدل الخرطوم وقد تقدم لنا وصفها في باب الجغرافية * وحكم البلاد حكماً عسكرياً فجعل في كل عمالة جيشاً وكان العامل قائداً للجيش ومديراً للجهة التي هو فيها يجمع زكاتها وعشورها ومعهُ وكيل عامل وامين بيت مال وقاضٍ وكاتب

وقد اوجب على عمالهِ الطاعة العمياء لهُ كما اوجبها على من دونهم لهم * من ذلك ما كتبهُ الى عثمان آدم عامل كردوفان يوصيهِ بالطاعة لحمدان ابي عنجه ايام كان ابو عنجة في جبال النوبة قال : « ... وما زلت فكن للحبيب حمدان ابي عنجة عضداً وساعداً وساعدهُ في جميع أمور الدين وكن معهُ كاليد للفم أو كالميت في يد الغاسل يقلبك كيف شاء واخدمهُ بنفسك ومن معك من الانصار وكل ما يأمركم بهِ تلقوهُ بالقبول وافعلوهُ بالسرعة ... في ٤ رجب سنة ١٣٠٤ هـ » اه

ثم لما أرسل ابا عنجة عاملاً على القلابات ورئيساً على يونس الدكيم خشي ان يثقل الامر على يونس لان ابا عنجه لم يكن في الاصل الا عبداً في بلاده فكتب الى يونس يأمرهُ بالانقياد الى ابي عنجه وكتب الى أبي عنجه يسألهُ الرفق بيونس بقوله : « ... لا يخفى عليك ايها الحبيب ان امر الدين يحتاج الى المعاضدة والمرء كثير بأخيهِ والمؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً وكاليدين تغسل

احداهما الاخرى وان الحبيب يونس الدكيم هو نفسك واخوك وهو لك وانت لهُ قديمًا وحديثًا فينبغي ان تزداد المحبة بينكما وتخاطبهُ قبل وصولك اليهِ بما يشرح صدرهُ وعند مقابلتهِ تلقَّهُ بالمودة والبشاشة حتى يرى ذلك الخاص والعام ويحصل الغيظ للمنافقين الشامتين الذين يتربصون بالمؤمنين الدوائر ويريدون التفرقة وتكدير السرائر . وكن كأنك حضرت تأييدًا لهُ وعضدًا ... ولو انا امرناهُ بالامتثال لك فان الكفرة اعداء الله اذا كان احدهم في جهة وارسلوا اليهِ رجلاً اكبر منهُ لامرٍ حدث في تلك الجهة فيكون هذا الرجل واقفًا في حده كأنهُ تحت الأول الذي هو صاحب المحل فذلك شأنهم وهم على الباطل فاهل الحق والدين أولى بذلك وأحرى لا سيما أمثالك الذين انار الله بصائرهم بمعرفة مكايد الاعداء وكيد الحساد والله المسؤول ان يتولاك وبعين عنايتهِ يرعاك والسلام سنة ١٣٠٥ هـ اه

وقد اوصى عمالهُ بكتم الاسرار وعدم اطلاع افراد الجيش على مفصلات احوالهم ولاسيما احوال الجبخانة . وكان يذكرهم على الدوام بامور أهمها : ملازمة الصلوات الخمس وقراءة الراتب والتشمير للجهاد والوقوف عند الاشارة . ومن وصاياهُ الرفق بالجيش ونهيهُ عن الفساد والعدل في الرعية وعدم الغلول في الغنائم ٥ وكان من شانهِ انهُ كلما اتاهُ خبر النصر من جهة قرأهُ لانصارهِ في الجامع واذاعهُ الى جميع الجهات . وكذلك كان كلما نكل باحد لذنب اتاهُ نشر خبرهُ في الجهات وبالغ في الاسباب التي حملتهُ على التنكيل بهِ . وكان العمال يهابونهُ لاجل بطشهِ حتى لم يكن أحد منهم يجسر ان يباشر عملاً أو يتزوج امرأة او يسمي ولدًا رزق بهِ الا باذنهِ . واذا حصل نزاع بين عامل ووكيله ارسل امناء من عندهِ فرفعوا اليهِ تقريرًا في اسباب الخلاف ففصلهُ ٥ وكان من عادتهِ ان يعقد مجلسًا من عمالهِ واعيان البلاد في كل عيد من الاعياد العمومية اخصها عيد الرجبية (٢٧ رجب) وعيد الضحية (١٠ الحجة) وذلك لاختبار حالهم ومذاكرتهم في مصلحة البلاد

﴿ جيشهُ ﴾ اما جيشهُ في ام درمان فجيش ضخم يزيد على ٥٠ الف مقاتل من جميع اجناس السودان من السود وشبه السود والنوبة والبجة والعرب

والمواليد على اختلاف قبائلهم وقد انقسم الى ستة جيوش كبار وهي : (١) جيش الملازمية القديم .وهم حرس الخليفة الخاص وقد اسكنهم حول منزلهِ داخل السور واكثرهم من السود المسلحين بالبنادق الرمنتون وعليهم قائد نوبي يدعى بخيت جاموس (٢) جيش الملازمية الجديد وهو الذي انشأهُ بعد حادثة الاشراف وسلحهُ بالاسلحة النارية واسكنهُ السور وجعل عليهِ ابنهُ شيخ الدين قائدًا عامًا وهو اقوى جيوشهِ ومؤلف من نخبة شبان السود والعرب ومنقسم الى ١٦ « ربعاً » على كل ربع امير من التعايشة ٠ (٣) جيش الكارة وهم العساكر الذين وقعوا في الاسر من جيش الحكومة فاسكنهم طابية ام درمان القديمة التي عرفت بالكاره وجعل عليهم ابرهيم الخليل اميرًا ٠ (٤) جيش الراية الزرقاء وهو الجيش الذي كان يقودهُ قبل وفاة المهدي فسلمهُ لاخيهِ يعقوب وكان جيشاً قويًّا مؤلفًا من ٤٣ قبيلة من عرب وعجم وهي : التعايشة والهبانية والحمر والرزيقات و بني هلبة والزيادية والمعالية والماهرية والحاميـد والمسيرية والعريقات ودار حامد و بني جرار وحمرَ والتام والغديات والهوارة و بني عمران والفور والكنجارة والمسبَّعات والتامة والبرقي والميمة وجماعة الخبير علي ونوبة الحرازة والميدوب والبزعة والداجو والترجم والبرقو والبرنو والباجرمة والفلاتة وكلهم من اهل الغرب ومعهم نفر من الجعليين والسعداب والدناقلة والشنابلة والركابية واولاد البلد واولاد الريف والاقباط والمسلمانية من اهل الجزيرة والنيل ٠ (٥) جيش الراية الخضراء او جيش الخليفة علي ود حلو وجلّهُ من اهل الجزيرة وهو ثلاث رايات : راية دغيم بامارة عبد الله احمد ابي سوار وتحتها الشانخاب والحسنات والعيساب والحجاجمة ودار محـارب والمسلمية والعقليين والحمدية والعرواب والبجة ٠ وراية اللحويين بامارة عبد الله برجوب وتحتها الشيلاب و بني حسين والعركيين والمعاشرة والبطاحين والاحامدة والعمارنة والكواهلة ٠ وراية كنانة بامارة البشير عجب الفيَّة ٠ (٦) جيش الراية الصفراء وهو شرذمة قليـلة عليها الخليفة شريف ومعهُ عثمان ازرق الذي فرَّ من دنقلة ٠ وانضم الى هذه الجيوش جيش عثمان دقنه ومعظمهُ من سكان الصحراء الشرقية الاشراف والهدندوة

والمجاذيب والبشارين ومعهم نفر من الدناقلة وغيرهم . وهاك بيان عدد كل جيش من هذه الجيوش وما معهم من الاسلحة النارية والخيل نقلاً عن الاوراق التي وجدتها في بيت يعقوب بعد فتح ام درمان :

الجيوش	الامراء	المجاهدون	الاسلحة النارية	الخيل
جيش الملازمية القديم	بخيت جاموس النوبي	١٤٨٦	٩٠٠	١١٢
جيش الملازمية الجديد	عثمان شيخ الدين بن الخليفة	٢٥٢٩٢	١١٢٥٢	٢٦٧٨
جيش الكارة	ابرهيم الخليل اخو محمود	١٦٠٠	٧٣٠	١٣٥
جيش الراية الزرقاء	يعقوب اخو الخليفة	١٤٤٤٨	١٠٥٣	١٥٨٨
جيش الراية الخضراء	الخليفة علي ود حلو	٥٥١١		٧٩٤
جيش الراية الصفراء	الخليفة شريف	٨١		١
جيش الصحراء الشرقية	عثمان دقنه	٣٣٧١	٣٦٥	١٨٧
	المجموع	٥١٧٨٩	١٤٣٠٠	٥٤٩٥

﴿ الاسلحة والذخائر ﴾ اما الاسلحة النارية التي كانت عند الخليفة فغالبها من نوع الرمنتون والباقي من بنادق « الخشخان » الكبيرة التي استخدمها البحارة قديماً لصيد الافيال وتعرف عندهم بربع مدفع . وبنادق « بيادة » وهي بنادق ثقيلة من عهد ابرهيم باشا تطلق بالكبسول وتعرف ايضاً بابلنته . و« ارشليك » وهي البنادق القديمة بزناد وشطفة . وبنادق « ابو روحين » المعروفة . وكان عندهُ من المدافع في ام درمان ٦٣ مدفعاً منها ٣٥ جبلياً و ٨ كروب و ٦ متريليوز و ٥ شرخة و ٢ اوردي و ٢ حبشي و ٣ قبس و ١ رمنتون و ١ فرنساوي . واما السواريخ التي غنموها من الخرطوم فقد تطرقت اليها الرطوبة فاخربوها واخرجوا الرصاص منها

واما « الجبخانة » فقد كان عند الخليفة منها مقادير وافرة الا انهُ كان محاطاً بالاعداء من كل الجهات وكان في حرب دائمة معهم وقد منعوا عنهُ الاسلحة والذخائر منعاً صارماً بل منعوا عنهُ كل ما يساعد على عملها كالرصاص والنحاس والمبارد والكبريت وملح البارود . لذلك كان اعظم ما وجه اليهِ اهتمامهُ عمل الجبخانة . وكان اهم ما لزمهُ الكبريت وملح البارود والرصاص والنحاس والمبارد وعجينة الكبسول (وهي المادة المفرقعة فيها) . اما الرصاص فقد استخرجهُ من جبل الكشم في دارفور

واغرى التجار فهرَّبوهُ لهُ ايضاً مع الكبريت والمبارد من الحجاز ومصر بطرق سواكن ومصوع واسوان . واما عجينة الكبسول فقد استعان على عملها بلبتن بك مدير بحر الغزال الى ان توفي سنة ١٨٨٨ فاستعان بالدكتور حسن افندي زكي من اطباء الخرطوم . وامر نوفل النمساوي وغيرهُ فصنعوا لهُ ملح البارود . وجمع كل ما امكن جمعهُ من آنية النحاس في البلاد فصنع منها الظروف وارسل الى عمالهِ في الجهات فجمعوا لهُ الظروف الفارغة من محال الوقائع . واقام معملاً للبارود في جزيرة توتي وورشة لعمل الخرطوش في ام درمان فقلد جبخانة الحكومة احسن تقليد فكان يصنع كل شهر من البارود ١٠ قناطير ومن الرصاص ١٠٠ صندوق في كل صندوق ١٤٤ خرطوشة . وشيد دارًا واسعة لحفظ الاسلحة والجبخانة والمهمات الحربية والتحف احاطها بسور منيع وسماها « بيت الامانة » . وقد شدد في المحافظة على الجبخانة فجرَّد الاهلين من الاسلحة النارية واصدر امرًا بمنع الصيد بالبنادق وعدم اطلاق الرصاص الا في ساحة الحرب

﴿ اقسام الجيش حسب اسلحتهِ ﴾ وقد انقسم جيش الخليفة بحسب الاسلحة الى ١١ قسماً وهي :

« الجهادية » وهم المسلحون بالاسلحة النارية ويعرفون ايضاً بالبنداقة وهم من السود والعرب الا ان اكثرهم من السود . وقد ادرك الخليفة قدر السود في الحرب فأكرمهم واحسن معاملتهم واوصى عمالهُ في الجهات بمداراتهم . وهاك ما كتبهُ الى عثمان دقنه في ٣ الحجه سنة ١٣٠٣ هـ بشأن جهادية كسلا قال :

« . . . نعلمكم حبيبي ان الجهادية لا بد لهم من التربية التامة و بعد المشقة في مذاكرتهم والتأليف الكلي لهم اولاً حتى يوافقوا على الدين وتنشرح قلوبهم وقد علمنا يقيناً شأنهم مما شاهدناهُ فيهم من ابتداء المهدية الى الآن فمن ذلك اننا في محاربة اعداء الله بجزيرة أبا أسرنا بعضاً من الجهادية وظهر لنا منهم الالفة والانشراح فتوجهنا بهم الى قدير فلما غزونا الفنقر هربوا منا وتوجهوا لاعداء الدين بفشودة . ثم حضر اعداء الله جيش راشد فأسرنا منهم جهادية فهربوا ثانية الى جهة فشودة . ثم حضرت جردة ولد الشلالي فأسرنا منهم جهادية بكثرة فاتحدوا مع الانصار وظننا

انهُ لايحصل منهم مثل ماحصل من السابقين فعند حضورنا للايض هربوا وانضموا الى اهل قفرته حتى فتحها الله . ثم بعد فتوح الايض وجدوا فيها جهادية بكثرة فاهتممنا بأمرهم واكرمناهم وما تركنا لهم من الاكرام شيئاً و بعد ذلك كلهِ هرب بعضهم الى جهة الخرطوم . وعند مجيء جماعة ابي قرجه لحصار الخرطوم هرب بعض من معهُ وانضموا الى القيقر وكذلك بعض من جهادية ولد النجومي انضموا الى اهل الخرطوم فبقوا حتى وقعوا في الأسر ففرَّ بعضهم الى سنار وانضموا الى أهلها حتى فتحت . فمن ذلك اتضح ما ذكرناهُ . فينبغي ان تعتنوا بالمذكورين غاية الاعتناء وتربوهم التربية التامة حتى يرسخ الايمان في قلوبهم فانهم اذا تربوا صلحوا للمساعدة في الدين . ومما يساعد على تأليف المذكورين اعطاؤهم زوجاتهم واذا كان لهم أقارب يضمون اليهم حيث ان مصلحتهم عمومية ولو انضم اليهم غير المستقيم من اخوانهم يجرهُ حالهم الى الايمان والاذعان اذِ الطبائع تسرق الطبائع والاوادم الذكور الذين يطيقون حمل السلاح جميعهم يلحقون بالجهادية في جميع ما ذكر . والدمور الموجود بمخازن كسله اكسوا منهُ الجهادية ونساءهم لاجل تأليفهم ... » اه

وقد وسم الجهادية بحرف ج في ايديهم اليسرى بين الابهام والسبابة وجعل لكل منهم مرتباً شهرياً قدرهُ نصف ريال ور بع اردب ذرة ولم يفعل ذلك لباقي الجيش

« والخيالة » او الفرسان ويقابلهم القرابة او المشاة من جهادية وغيرهم واكثر الخيالة من البقارة . وسلاح الفارس السيف يتقلده على جنبهِ الايسر والبندقية يعلقها في مقدم السرج والتركاش وفيهِ ٧ طبائق يعلقهُ في مؤخر السرج ويحمل بيدهِ الكبس . ويمتاز في لبسهِ بعمامة حمراء وشال احمر يتحزم بهِ حول خصرهِ وكتفهِ اليسرى وهو لا يلبس حذاء في رجليهِ لضيق الركاب وقد يلبس الدرع تحت الجبة ويلبس فرسهُ اللبس

« والهجانة » وهم اصحاب الجمال ولكن لم يكن عندهُ من الهجانة سوى ٧٠ رجلاً استخدمهم في بريدهِ الخاص الى جهات السودان المختلفة . وسلاح هؤلاء السيوف والدرق والبنادق الرمنتون

« والطوبجية » وكلهم من طوبجية الجيش المصري الذين وقعوا في الاسر وقد اجتمع عندهُ منهم في ام درمان ١٥٢ رجلاً

« والحرَّابة » وهم حاملو الحراب والسيوف وجلهم من عرب البادية . ويقال لحاملي الدرق والسيف الدرَّاقة

« والخشخانجية » وهم المسلحون بالبنادق الخشخان المار ذكرها وعددهم نحو الفي رجل وجلّهم من السود . وهم يمتازون بلبس صدرة حمراء فوق جببهم على نحو لبس بازنجر الزبير ولها جيبان للكبسول واحدة عن اليمين واخرى عن الشمال .

« والبلطجية » او « الفرّارة » وهم جند من العرب والسود يحملون بلطات كبيرة مما كان مستعملاً في الجيش القديم وهم يمتازون بلبس قبعة مزينة بريش النعام

« والمتشمّرون » ويبلغ عددهم نحو ٢٠٠ رجل وكلهم من التكارنة وهم طوال القامة غلاظ الاجسام يحملون حراباً طويلة بيضوية الشكل يبلغ طول الواحدة منها نحو ذراع وطول قناتها نحو ٤ امتار ويمتازون بلبس جبة قصيرة مشمرة الى مافوق الركبة ومن ذلك اسمهم . ويحمل الواحد منهم في وسطهِ خنجرين وعلى رأسهِ طاقية ذات قرنين تعرف بام قرينات . وهذا الجند من مبتكرات التعايشي

« وجوق الفروع الحربية » ويحملون آلات موسيقية كالآلات المستعملة في الجيش

« وجوق البيدو والصفّار » مؤلف من نحو ٥٠ عبداً يحملون ابواقاً من قرون الوعل وطبولاً مصنوعة من جذوع الشجر وقرعاً يابساً محشوًّا حصى وهي على نحو موسيقى سلطنة الفور القديمة ولها اصوات تخدش الآذان

« وجوق الامباية » وهم اربعة رجال مع كل منهم امباية يصوّت بها عند ركوب الخليفة . اما الامباية والبيدو والصفّار والفروع الحربية وكذلك المتشمرون والبلطجية والخشخانجية فكلهم تابعون لحرس الخليفة ومنهم جميعاً تتألف قلعة يركب في وسطها اذا خرج لعرضة او لحرب

﴿ موكبهُ في العرضة او الطرّ ﴾ وكان التعايشي في اول امرهِ يستعرض جيشهُ في يوم الجمعة من كل اسبوع ثم عهد بذلك الى اخيه يعقوب واقتصر على استعراض

الجيش في ايام المواسم والاعياد وذلك في موكب حافل جدًّا . قالوا انهُ كان اذا اراد الاستعراض المعروف عندهم بالعرضة او الطرّ امر من الفجر بضرب نحاسهِ « المنصورة » المشهور الذي وضعهُ في محل مرتفع في بيت الامانة . فاذا سمع الناس صوت النحاس هرولوا الى الجامع فصلوا صلاة الصبح وقرأوا الراتب . ثم ذهب البيرقدارية الى بيت الامانة فاتوا بالرايات وانضم كل رجل الى رايتهِ وساروا فرسانًا ومشاة وهم يهللون ويكبرون الى محل العرضة في ساحة فسيحة غربي المدينة تتقدمهم الراية الزرقاء فالراية الخضراء فالراية الصفراء فيقف الكل صفوفًا مستقيمة من الجنوب الى الشمال متجهين نحو الشرق . اما جهادية الكارة فانهم يأتون رأسًا من كارتهم ويقفون في الجنوب والى يسارهم الراية الزرقاء فالراية الخضراء فالراية الصفراء في اقصى الشمال ويقف الامراء على خيلهم كل عند رايتهِ في الصف الاول ويقف يعقوب والخليفة علي ود حلو والخليفة شريف كل على جوادهِ عند رايتهِ العامة بارزين عن الصف الاول . ثم يأمر الخليفة فتضرب الامبايه فيخرج جيش الملازمية ببنادقهم يتقدمهم شيخ الدين على جوادهِ ويتبعهُ الارباع الستة عشر ربعًا ربعًا صفوفًا متوالية في كل صف من ٦ : ١٢ رجلاً وامام كل ربع رايتهُ واميرهُ وفرسانهُ والبوري والطرنبيطة . ثم يأتي وراءهم الخليفة بقلعتهِ فيحيط بهِ ملازموهُ الاخصاء بالبنادق صفوفًا اربعة من الجهات الاربع امامهم البلطجيه ومن ورائهم المتشمرون ثم جوق البيدو والصفاَّر والفروع الحربية . وفي ساقة القلعة وعن جانبيها الخشخانجية وفي وسطها الخليفة على جمل او جواد فاذا ركب الجمل قادهُ محمد بشير كرار العبادي وهو رجل طويل القامة كبير الهامة ومشى عن جانبيهِ جوادان مسرجان وحمار مسرج ومن امامهِ جوق الامباية ومن خلفهِ اصحاب النفير العسكري لتبويق الوقوف او المسير وخلف هولاء خدمهُ الخصوصيون من الاحباش وغيرهم يحملون لهُ ركوة الوضوء وسعن الماء وادوات التزيين وفروة الصلاة والنعال والكبس والطبائق والرمح الذي يتوكأ عليهِ . ويسير الموكب الى ان يصل اول جيش الملازمية عند منزل الخليفة في محل العرضة فيقف صفوفًا متوالية متجهًا نحو

الشمال على زاوية قائمة مع صف الرايات ؛ فيمر الخليفة بقلعتهِ من امامهِ الى ان يأتي المنزل فيحيط بهِ ملازموهُ ثم يخرج من بينهم مع نفر قليل فيمر بالرايات مبتدئاً من جيش الكارة الى ان يأتي على آخر الجيش • وقد يقف في مروره عند امير فيخاطبهُ قائلاً السلام عليك يا فلان طيبين يا الاخوان الله يوديكم البركة يا انصار الدين الله يوديكم العافية يا الاخوان • هذا والامير ورجالهُ يومنون على دعائهِ • ثم يرجع الى منزلهِ فيستريح قليلاً ويامر الامراء فيشيعون الرايات الى بيت الامانة ثم ينصرفون الى اماكنهم ويرجع اصحاب الخيل منهم الى ساحة العرضة لتشييع الخليفة الى منزلهِ • ثم يأمر جيش الملازمية فيرجع الى السور براياتهِ ويعود بقلعتهِ على نحو ما جاء ووراءهُ الفرسان الى ان يصل منزلهُ فيدعو لهم فيؤمنون وينصرفون

﴿ ماليتهُ ﴾ سار الخليفة على خطة سيدهِ المهدي فجمع الزكاة والعشور والغنائم في بيت المال وانفق منها على الجيش • لكنهُ لم يبق بيت المال واحداً كما كان في زمن المهدي بل فرَّع منهُ بيت مال الملازمية وخصص لهُ ريع الجزيرة وبيت مال ورشة الحربية والترسانة وخصص لهُ ريع جنائن الخرطوم والسواقي التي حواليها والسن الوارد من خط الاستواء • وفرز مال الخمس عن بيت المال واضاف اليهِ مال الفيء كايراد المشارع والمراكب واراضي الغنيمة والغابات والسن والريش وثلث الصمغ وعشور البضائع وجعل لها بيت مال خاص سماهُ بيت مال الخمس والفي وعهد بهِ الى محمد بشير كرار العبادي وانفق منهُ على بيتهِ واخصائهِ • وجعل لكل عمالة بيت مال ينفق منهُ على انصار العمالة وما فضل يرسل الى بيت المال العام في أم درمان مع حساب الدخل والخرج بالدقة كل شهر • ولم ينفق من بيت المال العام الا على عمال مصالحهِ المتنوعة والكتاب والخليفة ود حلو ونساء المهدي واما المجاهدون اولاد العرب فقد كانوا يعولون انفسهم الا اذا ارسلوا لغزو أو لحرب فانهُ كان ينفق على ترحيلهم • ثم ان الجباة الذين أرسلهم لجمع الزكاة والعشور لم يكتفوا بما فرضهُ الشرع بل فاقوا الباشبوزق في الظلم فعلت منهم الشكوى وعمت البلوى • وكثيراً ما شكي الخليفة من فراغ خزينة بيت المال واخذ المال من التجار على سبيل السلفة

بحجة اعالة الجيش ولكن المشهور انهُ لم يفعل ذلك الاّ قصد ابتزاز اموال الاغنياء ليضعفهم ويتقوى بمالهم . وقد قيل انهُ كان يخزن المال في اجربة من جلد وصناديق الجبخانة ويطمرها داخل منزلهِ فلما فتحنا أم درمان فتشنا عن المال فلم نجد الا النزر اليسير جدًّا كما سيجيء ٥ اما امناء بيت المال العام فهم :

احمد سليمان سنة ١٣٠٠ : ١٣٠٢هـ ٥ وابرهيم عدلان سنة ٢ : ١٣٠٧هـ ٥ والنور الجريفاوي سنة ٧ : ١٣١٠هـ ٥ والعوض المرضي المرة الاولى سنة ١٠ : ١٣١٤هـ ٥ وابرهيم رمضان الاسواني سنة ١٤ : ١٣١٥ ٥ والعوض المرضي المرة الثانية ثلاثة اشهر والحاج احمد ياسين النيلة سنة ١٣١٥ هـ فبقي الى فتح ام درمان

﴿ الزراعة ﴾ اما الزراعة فقد كان الخليفة يجهل اهميتها حتى كانت مجاعة سنة ١٣٠٦ هـ فتنبه لها وحث العمال على تنشيطها

﴿ الصناعة ﴾ واما الصناعة فقد احيا منها صنع الاسلحة والذخيرة وابقى على الترسانة لاصلاح الوابورات وعلى خط التلغراف بين الترسانة وام درمان وروَّج صناعة المراكب وعمل الحراب وشاد معملاً للصابون في بيت المال للانتفاع بريعهِ واهمل ما سوى ذلك

﴿ التجارة ﴾ واما التجارة فانهُ لم يكن يودّ تنشيطها لكرههِ مواصلة البلاد الاجنبية لكنهُ رأى ان اهم حاصلات بلادهِ كالصمغ والريش والسن اذا بقيت عندهُ ولم ترسل الى الخارج ذهبت سدى . وطمع بأخذ العشور من البضائع الواردة الى السودان ففتح ابواب التجارة الى اسوان وسواكن ومصوع والحبشة ووداي ولكنهُ سد طريق الاربعين وطريق كورسكو . وضرب العشور على البضائع في كوكريب وبربر وكسلا والقلابات والفاشر وام درمان . واحتكر السن والريش كلهُ لنفسهِ واما الصمغ فقد اخذ من التجار ثلثهُ واعطاهم الثلثين

وهاك ما كتبهُ الى ابي عنجه في ٢٥ يوليو سنة ١٨٨٦ بشأن احتكار السن :

« حبيبي نقرئك السلام ونعرفك ان سن الفيل كانت سابقًا للكفرة وآلت بعد ذلك للمهدية وصارت حقًا لعموم المسلمين وحقها ان تحفظ من الضياع لذلك نحن قبلاً لم

تأذن في بيعها لاحد او التصرف فيها بدون اجازة منا • والآن اردنا حصرها في بيت المال لينظر • فيها فالقوا نظركم عليها واينما وجدتموها اضبطوها وارسلوا جميع ما عندكم منها ولا تبيعوا منهُ شيئاً وتحرَّوا ما يحضر منها من جهات شكا وتولوا واضبطوهُ وارسلوهُ الينا والسلام » اه

وقد منع تصدير العبيد الذكور الى الخارج وبيعهم في داخل البلاد الاَّ الى بيت المال وذلك لمنع المدد عن جيش مصر وتنظيمهم في جيشهِ

وبلغت قيمة البضائع الصادرة الى السودان بطريقي اسوان وسواكن في سني ٢ : ١٨٩٨ نحو ٤٧٧٨٩٦ جنيهاً وقيمة البضائع الواردة منها نحو ٣٩٧٤٥١ جنيهاً

﴿ ضرب النقود ﴾ واستمر الخليفة على ضرب النقود كسيده المهدي ولكنهُ لم يضرب شيئاً من الذهب بل ضرب الريال واجزاءه من الفضة والنحاس وأول ريال اصدرهُ في ايام ود عدلان كتب على وجهه الواحد «ضرب في ام درمان سنة ١٣٠٤ هـ » وعلى الوجه الآخر «مقبول» فكان كالريال المجيدي بقطعهِ ووزنهِ وقيمتهِ اي سبع دراهم فضة ودرهم نحاس وهو الريال الوحيد الخالي من الغش • في ايام النور الجريفاوي اصدر ريالاً سمي « ابو صدر » فجعلهُ ٤ دراهم فضة و٤ دراهم نحاس وهكذا اخذ ينقص من قيمتهِ تدريجاً حتى صيّرهُ سنة ١٣١٢ هـ سبعة دراهم كلها نحاس وليس فيه من الفضة الا الطلاء فاطلق عليهِ التجار اسم «بزاجوري» قيل ارادوا بهِ « بداجورهُ » وقد رفعوا اسعار الاشياء بالنسبة الى نقص الريال ليحفظوا قيمتها الحقيقية • وقلد البعض عملة الخليفة فعاقبهم بقطع ايديهم وارجلهم من خلاف • وراج في ايامهِ الريال المجيدي والريال ابو طيره والليرة الانكليزية

﴿ العلم ﴾ واما العلم فقد حاربهُ الخليفة جهدهُ شأن الجاهل الغشوم وجمع العلماء كلهم في ام درمان واذلهم ولم يسمح لهم بتعليم كتاب الا القرآن ومنعهم تعليم تفسيره فساد الجهل في ايامهِ وفسدت الآداب العمومية وساءت الاحوال

﴿ القضاء ﴾ اما القضاء فقد كان في ايامهِ اسماً بلا مسمًّى فانهُ ابطل الامناء والنواب الذين اقامهم المهدي وحصر القضاء كلهُ في قاضي الاسلام واعوانهِ الذين

جعلهم طوع بنانهِ كما مرّ ٭ وفي غرة رمضان سنة ١٣٠٣هـ أصدر منشورًا الى انصاره كافة مفادهُ : «ان القضايا التي قبل وفاة المهدي سواء كانت جنائية او دمائية او مالية او غير ذلك يصير رفعها وعدم سماع شيء منها بالكلية ما عدا المستثنيات الاربعة المعلومة من منشورات المهدي وهي الدَّين والامانة ومال اليتيم والحرية» ٭ وامر قضاتهُ بالحكم في الدعاوي التي حدثت بعد وفاة المهدي بحسب كتاب الله وسنة رسولهِ ومنشورات المهدي هذا اذا وافقت غرضهُ فاذا علم ان الشريعة لا تساعدهُ عليهِ اوعز الى قاضي الاسلام فانتحل مسوغًا وقضى لهُ بما اراد فأصبحت ارادتهُ هي الشريعة

وقد ابقى على قصاص السارق والزاني ومنع الحج وشرب الدخان وقراءة الكتب الا القرآن والمنشورات كما امر المهدي

ولم يكن يقبل شكاوى على ورق لانهُ لم يكن يحسن القراءة كما مرَّ فاذا اراد احد ان يرفع شكواهُ اليهِ ناداهُ وهو داخل الى الجامع «يا خليفة المهدي انا مظلوم» فيقف ويسمع له ويحكم في الامر ولا يجسر احد ان يعارضهُ

اما سجنهُ فهو عبارة عن حوش متسع محاط بسور حصين وفي وسطهِ بعض اكواخ من الحجر والطين كان يحشر الناس فيها بعضهم فوق بعض راسفين بالقيود ٭ اما القيود التي استعملها فالمكيَّة بالرجل والجنزير بالعنق واستخدم للقصاص المشانق والبَربندي (الفلَق) باليدين للنساء وبالرجلين للرجال ؟

﴿ سياستهُ الداخلية ﴾ قضى التعايشي السبع السنين الاولى من حكمهِ في مناوأة المعارضين لهُ في الملك من الاشراف وغيرهم حتى خذلهم واذلهم وايد ملكهُ تأييدًا قويًا. ثم لم يكتفِ بتأييد ملكهِ بل سعى سعيًا حثيثًا لجعل هذا الملك ورائيًا في نسلهِ كما مر ولكن لما كانت المهدية التي هي حجتهُ الوحيدة في الملك تنافي هذه الغاية وتقضي بجعل الملك من بعده للخليفة علي ود حلو ثم للخليفة شريف جعل همهُ تقوية نفسهِ واضعاف كل ذي قوة في السودان من الخليفة علي ود حلو فنازلاً حتى لا يبقى في البلاد من يقوى على معارضتهِ ٭ فسلَّح ابنهُ البكر بجيش قوي من السود وغيرهم وجرَّد الخليفة علي ود حلو من الاسلحة النارية كما مرَّ وفرق عنهُ

ما استطاع من جيشهِ وساس الاهلين بأخسّ مبادىءِ السياسة الداخلية فرفع اسفلهم على اعلاهم وفرق بينهم على حدّ قولهم « فرّق تسُدْ » . وقد اطلعت على كتاب منهُ الى عامله على دارفور عثمان آدم بتاريخ ٢ رجب سنه ١٣٠٢ للتفريق بين الحمر والرزيقات هذا هو بنصهِ :

« واعلم ايها المكرم انا قد الزمنا اخاكم احمد فضيل ان يريحكم من جهة عربان الحمر ويشتغل بضربهم وتشتيتهم والحصول عليهم باي وجه كان فليكن معلومكم ذلك . وانظروا على اي حالة الكيفية التي توقع العداوة والخلاف بين الرزيقات والحمر وافعلوها لان في عداوتهم مساعدة في الحصول عليهم ومتى وصلت الجيوش اليهم وضربتهم فالهارب منهم لا يدخل دار الرزيقات لوقوع العداوة فاسعوا فيما ينفرّهم بعضهم من بعض والله نرجو ان يأخذ يدكم والسلام » اه

وحكى لي من اثق بهِ قال : كان بين محمد عمر البنّا من اهل رفاعه والعباس ابن الشيخ العبيد صداقة قديمة مشهورة ففي ذات يوم تشاحنا في مجلس الخليفة مشاحنة حادة وصدّ كل منهما عن الآخر حتى اشتهر الخصام بينهما كما اشتهر الود . قال الثقة فلما كانت واقعة ام درمان وخرج الخليفة منها منهزماً قابلت محمد البنا فسألتهُ عن سبب المشاحنة بينهُ وبين العباس معما هو مشهور بينهما من الصداقة والود قال: « احمد الله الذي اراحنا من هذا الطاغية فقد ساءهُ الود الذي بيننا فدعاني يوماً الى مجلسه الخاص وقال لي يا ود البنا اي شر فعلت للعباس حتى انهُ كلما جاءني رماك بوشايات لو اصغيت اليها لنفيتك او قتلتك فحاق بي مكر التعايشي وعجبت كيف ان العباس مع ما لهُ عندي من الود يشي بي الى الخليفة فأخذتني الحدة وقلت والله يا سيدي خليفة المهدي ان العباس لكاذب في ما يقولهُ عني فاني خادم جنابك بتمام الولاء والاخلاص فقال لي التعايشي بارك الله فيك وجزاك خيراً . فانصرفت الى منزلي وارسلت صديقاً لي الى العباس اعاتبهُ فلما جنّ الليل واقفلت باب منزلي سمعت الباب يدق ففتحتهُ فاذا بالعباس متنكر وبيدهِ المصحف الشريف فسألني عما كان بيني وبين الخليفة فأخبرتهُ فقال اعلم ايها الاخ ان هذا الماكر ساءهُ الود الذي

بيننا فنوى تفريق كلمتنا ولقد طلبني اليوم قبل ان يطلبك وكلمني عنك بمثل ما كلمك عني ثم حلف لي العباس بذلك على المصحف فصدقته ُ ومن ذلك الحين تعاهدنا فابقينا الود في سرنا وتظاهرنا بالعداء فمكر بنا ومكرنا بهِ والله خير الماكرين »

وكان الخليفة كلما وفرت نعمة شخص او عظمت سطوته ُ ولو انه ُ من اعز انصارهِ الذين خدموه ُ السنين الطوال بدمائهم واموالهم خشي على نفسهِ منه ُ وترقب الفرص للايقاع بهِ كما فعل بابرهيم عدلان والزاكي طمل والقاضي احمد وغيرهم

هذا ولما احس بعدم ميل اهل النيل الى نصرتهِ جردهم من سلاحهم واتى باهله البقارة من الغرب واسكنهم بينهم وسلطهم عليهم فأذلوهم حتى كانوا لا يرون ثياباً نظيفة على احد الا حاولوا نزعها عنه ُ ولا يمرُّون ببلد الا دخلوا منازلها ونهبوها حتى قيل ان ظلمهم تناول محمد الخير المشهور فرفع الامر الى عثمان الدكيم امير بربر فقال له ُ « انكامني في الدنيا الفانية يا محمد الخير الم يقل المهدي « عم » الدنيا جيفة وطلابها كلاب » فانصرف وهو يحرق الارَم على المهدية التي اوصلته ُ الى هذه الحال . ومن اقوال البقارة المشهورة :

« التعايشة اولاد نبي الله عيسى . والجعلي ما اكثر حديثه والشايقية شرابين المريسه . والدناقلة اكالين الفطيسه واولاد الريف عين الكديسه » . وقالوا ود الريف شن جابهُ حربة وكوكاب (رمح مسنن) في جعابه ُ »

ولما كثرت الشكاوى الى الخليفة من ظلم اهلهِ اراد ذرَّ الرماد في اعين الاهلين فاصدر منشور « منع الظلم » المشهور ومما جاء فيه :

« . . . فيلزم ان تكونوا واقفين على قدم الاستقامة بامتثال اوامر الله واجتناب مناكرهِ لا سيما ظلم العباد فان الله تعالى قد نهى عنه ُ في محكم الكتاب وبين شوم عاقبتهِ في دار المآب . قال تعالى الا ان الظالمين في عذاب مقيم . وقال تعالى ومن يظلم منكم نذقهُ عذاباً كبيرًا . وقال انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب اليم . وقال الا لعنة الله على الظالمين . وقال وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا . وقال ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم

ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وافئدتهم هواء ٥ وقال رسولهُ (صلعم) اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة • وقال لا يحل لمسلم ان يأخذ عصا اخيهِ بغير طيب نفس منهُ • وقال ينادي منادي يوم القيامة اين الظلمة واشياع الظلمة حتى من لاق لهم دواة او برى لهم قلماً فيجمعون في تابوت من حديد فيرمى بهم في جهنم ... الى غير ذلك من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الواردة في ذم الظلم والتحذير منهُ فكيف بعد ذلك يليق بالمؤمن وخصوصاً من كان بمثابتكم ممن رحمهُ الله واكرمهُ بصحبة المهدي ان تحدثهُ نفسهُ بالاقدام على ظلم احد من المسلمين واخذ حقهِ بغير وجه جايز عند رب العالمين • فيلزم ان تكونوا واقفين مع حدود الله وتلزموا طريق الاستقامة والاستعداد ليوم القيامة وتتباعدوا عن كل ما يجر سخط رب العالمين ويعطل نصرة الدين كالظلم والغل والحسد والكبر والعجب والرياء والتعدي على حقوق العباد والجور في الاحكام والركون الى حب الدنيا • وغير ذلك من الصفات الذميمة التي نهى الله عنها ... في ٦ ربيع الآخر سنة ١٣٠٦ » اه

فصدق فيهِ قول الآية : « اتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون »

﴿ سياستهُ الخارجية ﴾ هذا كان شأن الخليفة مع رعيتهِ اما شأنهُ مع الدول المحيطة بهِ فالعداء والحرب او يصدقوا المهدية ويخضعوا لسلطانهِ ! وقد سد بلادهُ في وجه جميع الاجانب لا سيما الاوربيين بل سد باب المفاوضة معهم في اي بحث كان • وقد ذكرنا ما كان لهُ من الشأن مع مصر ووداي والتليان في الارثريا ومع الحبشة في ايام الملك يوحنا

﴿ الصلح مع الحبشة ﴾ ولما ارتقى الملك منيلك الى عرش الحبشة كتب اليهِ يدعوهُ الى التسليم ويحذرهُ من تعدي الحدود ولما لم يجبهُ كتب اليهِ ثانية سنة ١٣٠٨هـ بما نصهُ :

« وبعد فمن عبد ربهِ خليفة المهدي عليهِ السلام الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق الى منيلك • نعلمك انا قد كنا قبل هذا كاتبناك للدخول في الملة الاسلامية والانتظام في سلك اتباع المهدية رحمة بك وشفقة عليك وحباً لهدايتك وخوفاً عليك

من الموت على ملة الكفار الذين مصيرهم الى النار وغضب الجبار وحذرناك عاقبة الخلاف والاعراض وقد مضت من عهد ذلك مدة وما اتانا منك رد عن المكاتبة التي حررناها اليك وما علمنا السبب في ذلك أفما وصلت اليك مكاتبتنا ام وصلت واخترت عدم مجاوبتنا كما حصل من الهالك النقس يوحنا عظيم الحبش فانا قد كاتبناهُ مرارًا ودعوناهُ الى الاسلام جهارًا فاستكبر واستنكف حتى أهلكهُ الله تعالى على يد انصار الدين هو ومن معهُ من الوزراء والمشركين وقطعت رؤوسهم وحملت الينا فكانت عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين • وغاية الامر انا قد ضربنا صفحًا عن جميع مامضى منك ومن باب الشفقة عليك حررنا هذا ثانيًا اليك بدعوتك الى الدخول في ملة الاسلام والانتظام في سلك اتباع المهدي والاذعان لحكمنا والعمل باشارتنا فان أجبت داعينا وشهدت ان لا اله الا الله وان محمدًا رسول الله وحسن اسلامك والتزمت العمل باشارتنا وصرت من ضمن اتباع المهدية القائمين بأوامرها المرضية فاعلم انا سنقبلك ونجعلك اميرًا من طرفنا على بلادك وتكون مكرمًا لدينا والاَّ فأن اعرضت عن ذلك فذنبك عليك لكن يلزمك ان تكون واقفًا على حدودك ولا تتعدى حدود الاسلام والا فان تعديت الحدود فلا بد من مناجزتك الحرب ويكون عليك من الهلاك والدمار مثل ما كان على الهالك يوحنا لما طغى وبغى وتعدى الحدود وها قد انذرناكم بهذا وفيهِ الكفاية لك والسلام على من اتبع الهدى في سنة ١٣٠٨ هـ »

فلم يجبهُ منيلك على هذا ايضًا ولكنهُ بعد انتصاره على التليان في عدوة كتب اليهِ بتاريخ ١١ يونيو سنة ١٨٩٦ بما نصهُ :

« غلب الاسد من طائفة يهوذا منيلك الثاني المجعول بارادة المولى ملك ملوك الايثوبية — الى جناب الخليفة عبد الله بن محمد • بعد مزيد السلام كيف حالكم اما انا فاشكر الله بخير وعافية واخبركم اني بعد حصول المحاربة بيننا وبين التليان بناحية مدينة عدوة غلبتهم باحسان الباري وعدت الى مدينتي المحروسة بخير وسلام : واما باقي الكلام الذي اريد ان ابلغكم اياهُ فالرسول الواصل صحبة هذا وهو الحاج احمد يخبركم بهِ شفاهًا ودمتم • كتب بمدينة ادبس أبابا في سنة ١٨٨٨ حبشية ٢٩ ذي

الحجة سنة ١٣١٣هـ ١١ يونيه سنة ١٨٩٦م ٥ وكان جيش الحكومة اذ ذاك قد زحف على دنقلة فكتب اليهِ الخليفة بعد البسملة

«وبعد» فمن عبد ربه خليفة المهدي عليهِ السلام الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق الى عظيم الحبش منيلك . نعلمك ان جوابك المحرر لنا في ٢٩ الحجة سنة ١٣١٣ صحبة رسولك الحاج احمد وصل بطرفنا وجميع ما تضمنهُ ذلك الجواب وحملهُ منك رسولك المذكور من الوصية فهمناهُ ونقول لك أما ما اردتهُ من انعقاد الصلح بيننا وبينك فليكن بعلمك اننا لا نريد دخول احد من الاوربيين في اية جهة من جهاتنا الاسلامية لا بحرفة البيع والشراء ولا بصفة السياحة وليس بيننا وبينهم الا الحرب فان كنت انت كذلك ومنعت جميع الاوربيين من الدخول في بلدك الا بالحرب بحيث لا يكون بينك وبينهم علاقة أو اتصال وعلى هذا الشرط ينعقد الصلح بيننا وبينك . فها نحن قد ارسلنا لك سفيرًا معتمدًا من طرفنا اسمهُ محمد عثمان خالد مع رسولك حسب التماسك فان قبلت الشرط المذكور فاكتب لنا بذلك وابعث لنا مع سفيرنا المذكور مخصوصاً معتمدًا من طرفك لانعقاد الصلح فيما بيننا وبينك على الوجه المرضي وعلى من اتبع الهدى السلام ٦ ربيع آخر سنة ١٣١٤هـ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦م

فحمل محمد عثمان هذا الكتاب واتى الى الملك منيلك في اديس ابابا فقال لهُ منيلك اما الافرنج فلا مداخلة لي معهم الاَّ بالتجارة التي منها النفع لبلادي واعادهُ الى ام درمان مع رسول منهُ الى الخليفة لعقد الصلح فقال الخليفة للرسول بلغ منيلك ان ود تور الجوري في جبال فازوغلي عاص عليَّ فليؤدبهُ فارسل منيلك جيشاً بقيادة راس مكونن الى فازوغلي سنة ١٨٩٧ فاوقع بود تور الجوري في واقعتين وامتلك بلادهُ وما زالت هذه البلاد في يد الحبشة الى اليوم

وبالاجمال فقد كان التعايشي من الدهاة المحنكين الساهرين على حفظ ملكهم وتقويتهِ وجعلهِ وراثياً في نسلهِ ولكن جهلهُ بمبادىء ارتقاء الامم وطبع الاستبداد الذي فطر عليهِ شوَّها ادارتهُ وافسدا تدبيرهُ ونفرا اهل البلاد منهُ ومهدا السبيل للسردار احسن تمهيد

الفصل الثامن

في

﴿ استرجاع الخرطوم وسائر السودان ﴾

استرجاع الخرطوم سنة ١٨٩٨

﴿ استعداد السردار للزحف على الخرطوم ﴾ وشرع السردار بعد واقعة الاتبرة في الاستعداد للزحف على الخرطوم وام درمان فزاد عمال سكة الحديد ومدّها من أبي حمد الى الاتبرة ومدّ الى الاتبرة ايضاً خط التلغراف وشرع في مده من بربر الى سواكن وكان قد استلم كسلة من التليان كما مرّ فمدّ خطاً تلغرافياً منها الى سواكن

﴿ قوّة جيش السردار ﴾ ورأى ان الجيش الذي حضر واقعة الاتبرة لايكفي لفتح ام درمان فاستنصر دولتهُ فأنجدتهُ بآلاي آخر مؤلف من ٤ اورط فأصبح جيشهُ مؤلفاً من القوّات الآتية : ٤ اورط سواري انكليز و٩ اورط سواري مصريين و ٨ بلوكات هجانة و بطاريتين مدافع انكليزية وخمس بطاريات مدافع مصرية والفرقة البيادة الانكليزية وفيها آلايان بثماني اورط والفرقة البيادة المصرية وفيها اربع آلايات بست عشرة اورطة . وجملة الجيش نحو ٢٥ الفاً . ضم اليهِ نحو الفي رجل من العربان المحابة من العبابدة والجعليين والجيعاب والمسلمية والشكرية والشائقية والبطاحين وغيرهم . واحضر من بلاد الانكليز ثلاث مدرعات مثل التي احضرها لحملة دنقلة فبناها في العَبيدية شمالي بربر وسماها باسماء « السلطان والملك والشيخ » فأصبح عندهُ لحملة الخرطوم عشر مدرعات وهي : السلطان والملك والشيخ والفاتح والناصر والظافر وتماي والتيب وابو طليح والمتمة . فغرق وابور الظافر عند شندي في ٢٨ اوغسطوس فبقي ٩ مدرعات . فحشد هذا الجيش كلهُ في الاتبرة ثم في ود حامد شمالي شلال السبلوقه . وفي ١٤ اوغسطوس سنة ١٨٩٨ ألفت ادارة الجيش كما يأتي :

قومندان عموم القوة	الفريق السر هربرت كتشنر باشا . سردار وياورانه الكبتن اللورد ادوارد سسل والبكباشي وتسن
رئيس اركان حرب	اللوا رندل باشا

مدير قلم المخابرات	الميرالاي ونجت بك
مدير مساعد قلم المخابرات	اللوا سلاطين باشا
« «	والماجور الشريف م٠ج تلبوت
مساعد ادجوتانت جنرال	الكبتن السر ﻫ٠س٠ رولنصن
(للجيش الانكليزي)	والكبتن ي٠ي٠ برنارد
حكيمباشي الجيش الانكليزي	الجراح الجنرال و٠ تيلر
حكيمباشي الجيش المصري	الميرالاي جلوي بك
حكيمباشي بيطري الجيش الانكليزي	الكبتن ج٠ل بلنكنسوب
حكيمباشي بيطري الجيش المصري	القائمقام جريفث بك
ادارة التعيينات	الكولونل ل٠ ا٠ هوب
(للجيش الانكليزي)	والماجور ﻫ٠ج٠ مورغن
ادارة التعيينات	الميرالاي روجرس بك
(للجيش المصري)	والقائمقام دراج بك والبكباشي بلنت
مدير حملة النقل	الكولونل كتشنر
قومندان السواري الانكليزي	الكولونل ر٠ﻫ٠ مارتن
قومندان السواري المصري	القائمقام برودود بك
قومندان الهجانة	القائمقام تدوي بك
قومندان الطوبجية	الكولونل س٠ج٠ لونغ
قومندان فرقة البيادة الانكليزية	الماجور جنرال جايكر
قومندان الآلاي الاول	الجنرال ووشب
قومندان الالاي الثاني	الجنرال لتلتون
قومندان فرقة البيادة المصرية	اللوا هنتر باشا
قومندان الالاي الاول (وفيه الاورط الـ ٢و٩و١٠و١١)	الميرالاي مكدونلد بك
قومندان الالاي الثاني (وفيه الاورط الـ ٨و١٢و١٣و١٤)	الميرالاي مكسول بك
قومندان الالاي الثالث (وفيه الاورط الـ ٣ و ٤ و ٧ و ١٥)	الميرالاي لويس بك
قومندان الالاي الرابع (وفيه الاورط الـ ١ و٥و١٧و١٨)	الميرالاي كولنسن بك
قومندان العمارة البحرية	القومندان كولن كيل
قومندان العربان المتحابة	الماجور ستيورت ورتلي

وفي ٢٤ اوغسطوس زحف السردار بالجيش من ود حامد الى جبل الرويان جنوبي شلال السبلوقة . وامر الماجور ستيورت ورتلي قومندان العربان المحابة فسار تجاههُ في شرق النيل . وفي ٢٨ منهُ اتى مستحفظاً من المؤن والذخائر واسبتالية حربية في جبل الرويان وسار بسائر الجيش طالباً ام درمان وكانت الوابورات تتقدمهُ في النيل وجمال الحملة تتعقبهُ في البر والعربان المحابة تسير في حذائهِ في الشرق فبات ليلتهُ عند جبل الشيخ الطيب على نية الزحف بالبر والبحر على الخرطوم وام درمان في الغد . وفي تلك الليلة ارسل الى التعايشي يتهددهُ بكتاب هذا نصهُ :

« من سردار الجيوش المصرية والانكليزية الى عبد الله التعايشي زعيم السودان »

« اعلم ان شرورك في السودان ولا سيما قتلك الجمّ الغفير من نفوس المسلمين الابرياء أوجبت تقدمي بجيوشي الى هذه البلاد لدكّ سلطتك واراحة البلاد من شرّك وبغيك . ولكن بين جيوشك كثير من الاهلين الكارهين لك ولحكومتك ومن العواجز والنساء والاولاد الذين لا نريد ان يلحقهم سوء فاعزل هؤلاء من دبك الى مكان لا تصلهُ القنابل والرصاص لئلا يقتلوا وتكون انت المسئول عن دمائهم امام الله واثبت انت واشياعك فقط في ساحة القتال لتلاقوا النقمة التي أعدَّها الله لكم . واما ان كنتم تودُّون التسليم حقناً للدماء فاعلموا اننا نستقبل رسلكم استقبالاً حسناً ونعاملكم بالعدل والسلام في ١١ ربيع الآخر سنة ١٣١٦ هـ » اه

٣٠ اوغسطوس سنة ١٨٩٨ م . فجعلنا من هذا الكتاب صورتين وعلقنا كل صورة في رأس عود وارسلناهما مع عبدٍ فغرز عوداً منهما قرب كرري والآخر في الطريق بين كرري وام درمان . اما الكتاب الذي وُضعَ قرب كرري فقد بقي الى ان تقدم الجيش ولقيهُ ضابط انكليزي فترجمهُ ونشرهُ في جرائد بلادهِ واما الكتاب الثاني فيُظن انهُ وصلَ للخليفة ولكننا لم نرَ لهُ جواباً

﴿ استعداد الخليفة للدفاع ﴾ اما الخليفة فانهُ بعد واقعة الاتبرة تيقن ان الجيش زاحف عليهِ قريباً فجمع مجلس شوارهُ من التعايشة وغيرهم للنظر في الاستعداد للدفاع . قيل وكان من رأي يعقوب اخي الخليفة وسائر التعايشة الهجرة

الى دار الغرب ولكنهم لم يجسروا ان يبدوا هذا الرأي للخليفة فحملوا الزاكي عثمان الذي حضر واقعة الاتبرة على القول بهِ فلما انتظم المجلس سأل الخليفة كلاً من الحضور عن رأيهِ حتى انتهى الى الزاكي عثمان فقال « اعلم يا مولاي اننا لم ننسَ ما كنا عليهِ قبل ان خصك اللهُ سبحانهُ بالخلافة فقد كان اعظم رجل منا يملك بقرة او بقرتين يرعاهما في البادية في النهار ويأتي بهما في المساء فيحلبهما فيشتري بنصف لبنهما عيشاً يصنعهُ عصيدة ويجعل عليهِ باقي اللبن مُلاحاً فيأكلهُ هو وزوجتهُ واولادهُ ولكن من حين اجتماعنا بك اطعمتنا مما تأكلهُ انت واكل اولادنا مما يأكلهُ اولادك ولبس نساؤنا مما يلبسهُ نساؤك وصار كل من حضر في هذا المجلس كملك في بيتهِ وفي الناس فليس بكثير علينا اذا نصرناك وفديناك بدمائنا ولكن يامولاي اذا هوى قصرك هذا علينا في هذه الساعة فما الذي نفعلهُ بحكم السليقة والطبع أنقف حتى يسقط علينا ويهلكنا أم نفر من وجه الخطر . وانا أؤكد لمولاي ان الجيش الذي حاربنا في الاتبرة لا طاقة لنا على حربهِ هنا فاذا وقفنا لهُ تغلب علينا واهلكنا لامحالة . وام درمان ليست بلادنا حتى نقف فيها وندافع عنها فالاولى بنا ان نأخذ رجالنا واسلحتنا ونرحل الى كردوفان فاذا لحقنا جيش الحكومة اليها وهو لا يفعل ذلك الا بعد استعداد كثير وزمن طويل هجرناها الى شكا وهي دارنا فاذا جاءنا اليها قاتلناهُ ودافعنا عن وطننا حتى انتصرنا أو متنا » . فاحتدم الخليفة غيظاً من هذا الرأي لانهُ لم يكن يطيق الخروج من مركز ملكهِ وعزهِ وقال لمن عن يمين الزاكي « شيّله ام آذان » اي الطمهُ كفاً على وجههِ ففعل ثم قال لمن عن شمالهِ وانت ايضاً شيّله ام آذان ففعل ثم امر فجرُّوهُ الى السجن وكبلوهُ بالحديد . وقال الخليفة ياسبحان الله يستقبح عبد الله ود سعد الفرار ويقاوم جيشاً ضخماً كجيش محمود بثلاثمائة رجل لاجل حلة واحدة ونحن رجال المهدية وانصارها العديدين نجبن عن حرب جيش الكفرة المخذول لاجل السودان كلهِ فانا احارب حتى انتصر او يقتل جيشي كلهُ فأجلس اذ ذاك على فروتي عند قبة المهدي واسلم امري الى الله . فنكس جميع اهل المجلس رؤوسهم ولم يجسر احد ان يجيبهُ بكلمة . ثم تشفع شيخ الدين بالزاكي

فاخرجه من السجن والحقهُ بيعقوب فبقي الى ان مات معهُ في واقعة ام درمان كما سيجي.

﴿ طوابي الخليفة ومدافعهُ وطوبجيتهُ ﴾ وشرع الخليفة في حشد الجيوش في ام درمان والاستعداد للدفاع وكان من اهمّ ما شغلهُ وابورات الجيش وقد اعدّ لمقاومتها ١٧ طابية طابيتين في الخرطوم واحدة عند المقرن واخرى عند السراي وطابيتين في البر الشرقي جنوبي الحلفاية واحدة في الصبابي وواحدة في شمبات واثنتين في جزيرة توتي و١١طابية في ام درمان . وكان قد بنى سبع طوابٍ في مضيق السبلوكة ولكن اضطر الى اخلائها لجمع رجالهِ حولهُ من جهة ولعدم مقدرتهِ على امدادها بالمؤن والذخائر من جهة اخرى . وكان عندهُ من المدافع ٦٣ مرّ تفصيلها فكان منها اثنان في الترسانة بقصد تصليحها وثمانية في بيت الامانة غير قابلة التصليح و١٩ مدفعاً معدة لساحة القتال والباقي وهو ٣٤ مدفعاً موزعة على الطوابي السبع عشرة وكلها بعهدة ١٥٢ رجلاً من الطوبجية المصريين الذين كانوا في الاسر وعليهم رؤساء من التعايشة . وقد كان لكل طابية جناحان مفتوح بهما المزاغل وعليهما نفر من الانصار المسلحين بالبنادق

﴿ الغام الخليفة ﴾ ومما استنبطهُ الخليفة لمقاومة وابورات الجيش الالغام فانهُ أمر رجلاً مغربياً من عمال الترسانة يدعى منوّرًا فصنع لهُ لغماً من البارود في اسطوانة كبيرة من حديد أتي بها من معمل النيلة القديم في الكاملين وجعل للغم ديكاً يرمي على كبسولة متصلة بالبارود وحمل اللغم في مركب جرّهُ وابور الاسماعيلية وأتي بهِ الى وسط النيل تجاه خور شمبات لينصبهُ للوابورات فأفلت الديك من يده سهوًا على الكبسول فانفجر اللغم وحطم المركب والوابور تحطيماً وقتل جماعة من البحارة والعمال وفيهم منوَّر نفسهُ . ثم امر الخليفة عمال الترسانة ان يصنعوا الغاماً أخرى فلم يفلحوا

﴿ وابورات الخليفة ﴾ هذا وكان وابور محمد علي الملقب كاوكاو والفاشر المعروف عندهم بالمنصورة قد غرقا في السد . وشبين والمسلمية قد عتقا وتعطلا . وأرسل الصافية الى فاشوده لمحاربة البيض كما سيجي . فلم يكن في ام درمان سوى بوردين والتوفيقية ومعها ٥١٩ مركباً فخبأها الخليفة في خور لانها لم تكن تصلح للدفاع و بقي كل اعتمادهِ في مقاومة الوابورات على طوابي شرقي النيل وتوتي والخرطوم وام درمان

﴿ العربان المتحابة وفتح شرق الخرطوم ﴾ وفي فجر اول سبتمبر زحف السردار بالجيش والوابورات والعربان المتحابة قاصدًا ام درمان حتى تجاوز جبل كرري عند الظهر فوقف بالجيش في مكان يدعى العجيجة على نحو ٨ اميال من ام درمان • وكان قد أصدر امرهُ الى الوابورات والعربان المتحابة في الشرق لمقاومة طوابي العدوّ في الشرق والغرب والخرطوم • وقد تقدم ان في الشرق بين الحلفاية والخرطوم طابيتين شمبات والصبابي فسار الماجور ستيورت حتى أتى بلدة شمبات فوجدها خالية وعلم ان في طابيتها التي على شاطئ النيل على نحو ميل منها أميرًا من الجعليين يدعى محمد ود فايت ومعهُ عشرون رجلاً من اهلهِ وبعض الطوبجية المصريين ومدفع واحد وان في طابية الصبابي على ربع ساعة منها اميرًا من التعايشة يدعى غالي جوده ومعهُ ٢٠ رجلاً من البقارة والجهادية وبعض الطوبجية المصريين وان في بلدة الصبابي نفسها أميرًا من التعايشة يدعى عيسى زكريا ومعهُ نحو ٣٠٠ رجل من اخلاط العربان ومعهم كثيبة من الفرسان التعايشة ه فأمر الماجور ستيورت الشيخ ابرهيم ود فرح كبير الجعليين بأخذ طابيتي الصبابي وشمبات وامر ميسره ابن الزبير باشا كبير الجيماب والطاهر العبيد (الذي وقع اسيرًا في فركة) كبير المسلمية بمهاجمة بلدة الصبابي من الجنوب وهاجمها هو بالعبابدة وعليهم عبد العظيم بك من الشمال تاركاً العربان المسلحين بالحراب والسيوف في شمبات • فزحف الشيخ ابرهيم على طابية شمبات وارسل الامان الى اميرها فسلم لهُ ثم تقدم الى طابية الصبابي فأخذها عنوة وانقلب على بلدة الصبابي لنجدة الماجور ستيورت • وقبل وصولهِ اليها اغار فرسان الدراويش على الماجور ستيورت فانهزم العبابدة امامهم وكان مع الماجور ستيورت ابن للجنرال ود فثبت للفرسان ورماهم بمسدسهِ فجندل فارسًا منهم وصاح الماجور ستيورت بالعبابدة فثبتوا وصوبوا نيرانهم على الفرسان • ووصل في هذه الاثناء الشيخ ابرهيم لنجدتهم فرأى فرسان العدو انهم أصبحوا بين قوتين فانقلبوا راجعين الى الصبابي • وكان عيسى زكريا قد تحصن برجالهِ في بيت من بيوت البلدة فأطبق عليهِ ميسره الزبير والطاهر العبيد من الجنوب والشيخ ابرهيم من الغرب وعبد العظيم والعبابدة من الشمال فقتلوهُ هو ومعظم رجالهِ وكانت

خسارة العربان المحابة في هذا الهجوم ١١ قتيلاً و ١٨ جريحاً واما خسارة الدراويش فقد قُدرت بنحو ٢٠٠ رجل • وحضر هذه الواقعة طنوس افندي شحاده من موظفي مخابرات الحدود فأظهر فيها من البسالة والدربة ما أطلق لسان الماجور ستيورت بالثناء عليهِ • ولما تمَّ للماجور المذكور فتح الشرق انضم الى الوابورات وكان الوقت الظهر

﴿ الوابورات وفتح توتي والخرطوم ﴾ واما الوابورات فكانت في أثناء القتال في الشرق تساعد العربان المحابة برمي القنابل على طابيتي شمبات والصبابي• ثم اقبلت على طابيتي توتي حتى اسكتتهما وتقدمت الى الخرطوم فأخذتها عند العصر

﴿ رمي ام درمان بالقنابل ﴾ هذا وكان مع الوابورات بطارية من البطاريات الانكليزية المعروفة بالهويتزرس فلما أخذت طابيتا شمبات والصبابي نزلت البطارية الى البر الشرقي وصوبت قنابلها على ام درمان• و بعد أخذ الخرطوم وتوتي انضم اليها الوابورات فخرّبت في ام درمان واسوارها وكانت طوابي ام درمان تجيب نيرانها الا انها لم تحسن الضرب فلم تصبها بأقل ضرر• وكان الهويتزرس قد صوبت بعض القنابل على قبة المهدي ففتحت في قمتها ثغرة كبيرة فذعر الناس من ذلك قيل وصاح الخليفة و يلاهُ من نار الكفرة فقد هشموا قبة المهدي ولم يخافوا الله ٠ وفي المساء جاء ضابط من ضباط البحرية واخبر السردار بما كان من فتح الشرق وتوتي والخرطوم فاطمأن قلبهُ وتفرغ للخليفة وام درمان

واقعة ام درمان الجمعة في ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨

﴿ خروج الخليفة لمقاومة السردار ﴾ وكان الخليفة قد انفذ الامير عبدالباقي من أهله ليراقب حركات الجيش فأقام في وادي بشارة حتى زحف الجيش من الاتبرة فرجع الى شلال السبلوقة وصار كلما تقدم الجيش جنوباً يتقهقر أمامهُ ويرسل بخبرهِ الى الخليفة حتى دخل ام درمان الاربعاء مساء ٠ وكان الخليفة لما علم بخروج الجيش من جبل الرويان الاربعاء صباحاً في ٣١ اوغسطوس سنة ١٨٩٨ خرج بجميع جيوشهِ من المدينة الى ساحة العرضة غربيها ٠ وكان عدد جيوشهِ ٥١٧٨٩ مقاتلاً فيهم ٨٦ اميرًا و ٥٤٩٥ فارساً و ١٤٣٠٠ راجلاً مسلحين بالبنادق الرمنتون وغيرها والباقون

مسلحون بالسيوف والحراب كما بيناهُ قبل ٠ ويوم الخميس في ١ سبتمبر عند الضحى زحف الخليفة من ساحة العرضة لمقابلة جيش السردار على الترتيب الآتي: جيش الملازمية الجديد وجيش الكاره وجيش الخليفة علي ود حلو في صف واحد في المقدمة وجيش يعقوب ومعهُ جيوش الخليفة شريف وعثمان ازرق وعثمان دقنه في الساقة والخليفة في وسط حرسهِ الخصوصي بينهما ٠ وكان السردار عند وصولهِ الظهر الى العجيجة قد صعد هو واركان حربهِ الى اكمة على نحو ٨٠٠ يرد من البلدة في طريق ام درمان تعرف بجبل صرغام فرأى جيوش الخليفة على ثلاثة اميال من الاكمة تموج في عرض ذلك البر كانها بحر عجاج فظن ان الخليفة يهاجمهُ في ذلك اليوم فرجع للحال عن الاكمة وأخذ يستعد لملاقاتهِ فصف العساكر حول البلدة على هيئة نصف دائرة طرفاها يمسان النيل — الجيش المصري الى اليمين والجيش الانكليزي الى اليسار — وجعل الحملة في الوسط والوابورات تحمي ظهرنا في النيل ٠ فأقام الجيش الانكليزي زريبة من شوك للتترس بها واما الجيش المصري فلما لم يجد الشوك في جهتهِ حفر خندقًا وتترس بهِ ٠ وكان بيننا و بين الخليفة سهل فسيح جدًّا في وسطهِ الى اليسار جبل صرغام الذي كان يحجب جيش الخليفة عنا و بين الجبل والنيل الطريق الى ام درمان والى يميننا جبل كرري الذي يمتد من النيل الى مسافة بعيدة في الصحراء ٠ وفي الساعة الثانية بعد الظهر عاد كشافة الجيش واخبروا ان الخليفة وقف بجيشهِ عند خور شمبات ٠ ثم جاءت الانباء انهُ ينوي الهجوم ليلاً ٠ ولما لم يكن الهجوم ليلاً من مصلحة الجيش ارسل قلم المخابرات الجواسيس من اهل العجيجة فنشروا الخبر في معسكر الخليفة ان الجيش يستعد لمهاجمتهم قبل دخول الليل وذلك ليشغلهم بالاستعداد للدفاع عن الهجوم ٠ على ان الخليفة لم يقرَّ على مهاجمة الجيش ليلاً لانهُ كان على يقين ان الجيش مستعدٌّ للقائهِ اي وقت جاءهُ وان عندهُ الانوار الكشافة فيلقي بها على جيشهِ فيحار بهُ وهو يرى ولا يُرى ٠ ثم انهُ لم يكن واثقًا من ولاء جميع رجالهِ وثباتهم معهُ الى النهاية فخاف انهُ اذا امرهم بالهجوم ليلاً ان يتستروا بالظلام ويفرُّوا فيفشلوا فعقد مجلسًا من اخصاء اهل مشورتهِ واقرّوا على تأجيل الهجوم الى الصباح

مدد العدو

هجوم العدو من الوسط

الجيش المصرى فى الجيش الانكليزى

الزريبة

السوارى والهجانة

مدافع

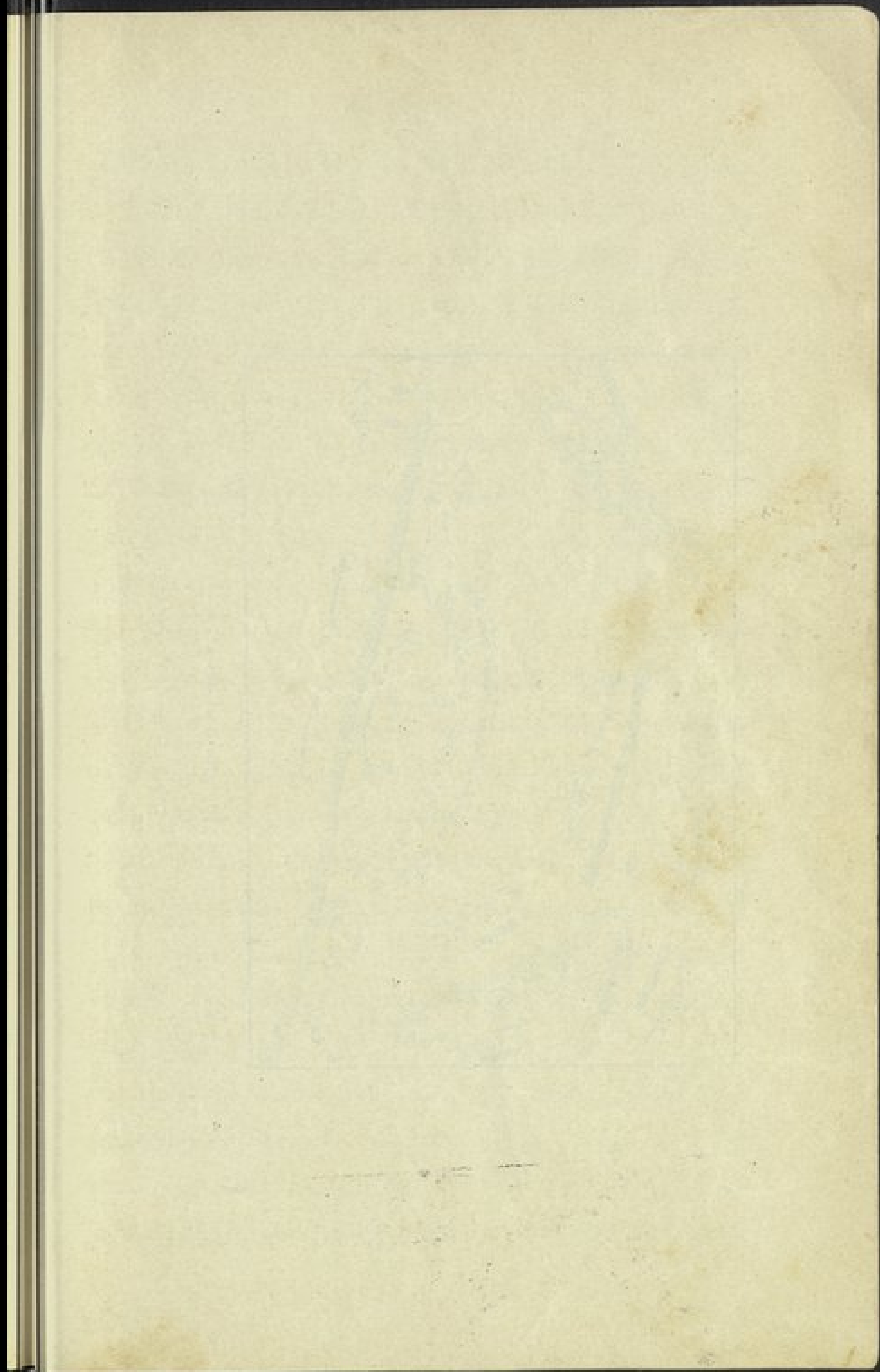
الوابورات

نهر النيل

اوردة الطوبجية

﴿ واقعة ام درمان ﴾

هجوم الدراويش على الزريبة



ولما كان فجر الجمعة في ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ صلى الخليفة الصبح وتقدّم بجيوشهِ مهاجماً الزريبة حتى بلغ جبل صرغام فتوارى بهِ وجعل الجعليين والشايقية والدناقلة شرقي الجبل الى النيل وقال لهم أنتم العباسية نصرة الدين فسدّوا هذا الثغر. وجعل عثمان دقنه وعبد الباقي عبد الوكيل ومساعد قيدوم في صف آخر وراءهم لنجدتهم ومنعهم من الفرار . وجعل جيش الكاره بقيادة ابرهيم الخليل غربي الجبل والى يساره جيش الملازمية بقيادة ابنهِ عثمان شيخ الدين وكان شيخ الدين نفسهُ في وسط قلعة من ملازميهِ تنيف على ٤٠٠٠ مقاتل وراء الصفوف بعيداً عن مرمى القنابل والى يسار جيش الملازمية جيش الخليفة على ود حلو وبقي يعقوب اخو الخليفة بالراية الزرقاء وراء الجميع

﴿ الهجوم الاول ﴾ ولما كانت الساعة ٦ والدقيقة ٤٠ سمعنا اصوات التهليل والتكبير الى الزريبة فعلمنا ان جيوش الخليفة تهاجمنا ولم يمضِ الاّ بضع دقائق حتى رأيناهم مهاجمين في هيئة هلال متسع على نحو ٢٥٠٠ يرد منا * وكان السردار قد أعد جيشهُ منذ الساعة ٤ قبل الفجر وبدأت الوابورات ترمي قنابلها على ام درمان منذ الساعة ٥ والدقيقة ٢٠ فما اطل الدراويش حتى تلقاهم طوبجية الزريبة بالقنابل فلم يبالوا بها وما زالوا مهاجمين حتى صاروا على نحو ١٢٠٠ يرد من الزريبة فبدأ الجيش باطلاق البنادق ومدافع مكسيم * وقد هاجم الدراويش أولاً ميسرة الزريبة ثم قلبها ثم ميمنتها فاشتعلت النيران من كل انحائها وأنجدتها الوابورات في النيل بمدافعها من اليمين والشمال فكان لاصوات البنادق المدافع في البر والبحر من الجيش والعدوّ دويٌّ لا يعبر عنهُ بالقلم . وكنت اذ ذاك على هضبة عالية وسط الزريبة تُشرف ساحة القتال من كل الجهات فكنت أرى الدراويش فرساناً ومشاةً يسقطون صفاً وراء صف أمام نيران الجيش الحاصدة وهم يتلقونها بقلوب لا تهاب الموت حتى رأوا انهُ يستحيل عليهم اختراق هذه النيران الى الزريبة فنكصوا عنها بعد أن فقدوا اعظم أبطالهم وأعزّ رجالهم * * أما الجعليون والشايقية والدناقلة الذين هاجموا ميسرة الزريبة فما لبثوا بعد ما حمي الوطيس ان انقلبوا راجعين الى ام درمان لانهم سيقوا الى ساحة

الوغى بالرغم ٠ وأما جيش الكارة الذين هاجموا قلب الزريبة فانهم كرُّوا مستبسلين حتى صار بعضهم على نحو ٥٠٠ يرد منا فكمنوا في منخفض من الارض تجاه الجيش الانكليزي وصوبوا رصاصهم عليهِ فقتلوا وجرحوا وكان في جملة القتلى ضابط انكليزي وعدة عساكر ومن الجرحى المستر وليمس مكاتب الدالي كرونكل والكولونل رودس (اخو المستر سسل رودس الشهير) مكاتب التيمس فصوب الطوبجية الانكليز قنابل مدافع الميدان عليهم فنكلوا بهم واضطروهم الى الفرار و بقي جيش الكارة يجاهد محاولاً اختراق الزريبة حتى قتل قائدهم ابرهيم الخليل فحملوهُ الى الخليفة فأمرهم ان يذهبوا بهِ الى ام درمان ويدفنوهُ هناك ففعلوا ٠ وأما شيخ الدين فانهُ بقي في وسط حرسهِ الخاص بعيدًا عن مرمى القنابل وقسم جيشهُ قسمين قسماً هاجم قلب الزريبة مع جيش الكارة فخذل معهُ وقسماً انضم الى الراية الخضراء فهاجموا السواري والطوبجية في ميمنة الزريبة على جبل كرري وقتلوا منهم ودحروهم الى النيل وغنموا مدفعاً من مدافعهم ولكن لم يكن الا القليل حتى اسرعت الوابورات الى نجدتهم وأنجدهم أيضاً عساكر الميمنة فاكثروا من القتل في الاعداء وهزموهم شرّ هزيمة واسترجع السواري مدفعهم ٠ وما كانت الساعة ٨ والدقيقة ٣٠ حتى انجلى الدراويش عن ساحة القتال

﴿ هجوم السواري الانكليزي ﴾ وكان الخليفة اذ ذاك لم يزل في مركزهِ وراء جبل صرغام واخوهُ يعقوب وراءهُ وعثمان دقنه عن يمينهِ الى جهة النيل وعثمان شيخ الدين بقلعتهِ في اقصى جبل كرري و بقربهِ جيش الخليفة علي ود حلو وجميعهم متوارون عن نظر الجيش فظن السردار انهم تركوا القتال وانهزموا الى ام درمان فأرسل السواري الانكليز (اورطة اللانسرس الحادية والعشرين) في الطريق التي بين جبل صرغام والنيل لقطع طريق العدو ثم شكل الجيش مربعات جاعلاً كل لواء مربعاً وسار في أثر السواري « بهيئة تدريجيله »

﴿ هجوم السواري الانكليز ﴾ ولكن ما انتهي السواري الى منحدر الجبل الجنوبي حتى هبَّ عثمان دقنه من كمينهِ واشعل فيهم النار وذلك في الساعة ٩ والدقيقة ٣٠ وكانوا اذ ذاك على مقربة منهُ فلم يكن لهم بدّ من اختراق صفوفهِ



واقعة فركة



واقعة ام درمان

« الهجوم الثاني »

فبذلوا في شواكل خيلهم المهاميز واطلقوا لها الاعنة واندفعوا على الصفوف فتلقتهم بالسيوف والحراب فجاهدوا جهاد الابطال المدربين حتى اخترقوا الصفوف واتخذوا لهم مكاناً على ٤٠٠ يرد منهم حيث ترجلوا وأصلوهم ناراً لم يطيقوها فانهزموا غرباً الى الراية الزرقآء وعاد السواري الى الجيش وقد فقدوا ٢١ قتيلاً فيهم اللفتننت غرنفيل و ٤٩ جريحاً وقتل وجرح من خيلهم ١١٩

﴿ الهجوم الثاني ﴾ وفي أثناء ذلك كان السردار يتقدم نحو ام درمان بالألوية الخمسة فما وصل منحدر جبل صرغام الشرقي حتى جآءه الخبر بان الخليفة لا يزال مقيماً بأنصاره غربي الجبل فأصدر أمره في الحال بتغيير السير واتجاه الجيش الى اليمين وكان الخليفة قد أصدر أمره لاخيه يعقوب صاحب الراية الزرقآء (السودآء) لحمل الجيش حملة صادقة وكان هجومه على لوآء مكدونلد فتصدى له هذا القائد الباسل واسعفه قواده المدربين الميرالايات وولتر وناسون وجكسن قومندانات الاورط التاسعة والعاشرة والحادية عشرة السودانية فدربوا جنودهم أحسن تدريب وصدوا هجمات العدو المرة بعد المرة وما زال رجال يعقوب يكرون على اللوآء طالبين اختراق صفوفه أو الموت ونيران اللوآء تنكل بهم تنكيلاً حتى تراكمت جثث القتلى كالربى وقتل يعقوب نفسه وخذل جيشه . وكان الخليفة قد أرسل حرسه الخاص بقيادة بخيت جاموس لنجدة أخيه يعقوب فأصابه ما أصاب يعقوب

﴿ الهجوم الثالث ﴾ ولكن لم ينته اللوآء من هذين الجيشين حتى كان جيش الراية الخضرآء قد اقبل عليه من الغرب وهاجم من عن اليمين فاتجه اللواء نحوه وصب عليه نيرانه وصد هجماته المتتابعة وجندل أبطاله وهزمه أقبح هزيمة . وكان السردار قد أرسل لوآء ووشب الانكليزي لنجدة مكدونلد فلم يكد يصل اليه حتى كان قد أتم عمله . وأمر لوآء مكسول ولوآء لنلتون فأخذا جبل صرغام ثم دارا الى الغرب ووجها نيرانهما على الفارين من رجال الراية الزرقآء ثم من رجال الراية الخضرآء فأوغل هؤلاء في الفرار غرباً فتبعهم السواري والهجانة وقتلوا منهم وأسروا

﴿ فرار الخليفة من ساحة القتال ﴾ أما الخليفة فانه ثبت في مكانه حتى انهزم

جيش الراية الخضرآء وعلم ان أخاهُ يعقوب قد مات فأيقن بالخذلان التام ولم ير بابًا للنجاة سوى الفرار ففرَّ مع بعض أصحابهِ وأخصائهِ وأرسل خبرًا الى ابنهِ عثمان شيخ الدين بترك الحرب وموافاتهِ الى ساحة العرضة غربي ام درمان ففعل .

﴿ احتلال الجيش لام درمان ﴾ وفي الساعة ١١ والدقيقة ٣٠ أمر السردار بايقاف النيران وتقدم الى خور شمبات ومعهُ لوآء مكسول ولوآء لتلتون فاحتلهُ الساعة ١٢ والدقيقة ٤٥ واستراح نحو ساعتين حتى تكامل الجيش في الخور ثم تقدم الى ام درمان ومعهُ اركان حربهِ وفيهم الميرالاي ونجت بك مدير المخابرات وسلاطين باشا مساعدهُ ولوآء مكسول وستة مدافع من الطوبجية الانكليز تخفق فوقهُ راية الجيش والراية الزرقآء التي غنمها من الواقعة ولما وصل ضواحي المدينة خرج أهلها الى جانبي الطريق فاستقبلوهُ بالترحيب والتأهيل وعلت أصوات النسآء بالزراغيت وما زال سائرًا حتى وصل الزاوية الشمالية الغربية من السور فسأل عن الخليفة فقالوا انهُ داخل منزلهِ فأرسل مدفعين وثلاث اورط من لوآء مكسول فوقفوا غربي الجامع لقطع طريق الخليفة وتقدم هو بالاورطة الثالثة عشرة السودانية والاربعة مدافع الباقية للقبض عليهِ فدار حتى دخل من باب السور الشرقي الذي يفتح على النيل وأتى منزل الخليفة وفتش عنهُ فلم يجدهُ

﴿ فرار الخليفة من أم درمان ﴾ وكان الخليفة قد أتى من ساحة العرضة الى منزلهِ ومعهُ ابنهُ وأخصاؤهُ وضرب النحاس والأمبايه بقصد جمع الناس لمقاومة الجيش داخل السور فلم يجتمع عليهِ الاَّ القليل فرأى انهُ اذا بقي وقع في قبضة الجيش فأخذ نسآءهُ ونسآء المهدي وأركن الى الفرار جنوبًا ومعهُ بضعة آلاف من الجهادية والعرب البقارة وفيهم : عثمان شيخ الدين ابنهُ وهارون محمد اخوهُ من أبيهِ والسنوسي أحمد أخوهُ من أمهِ والخليفة علي ود حلو والبشير عجب الفيه أمير كنانه والخليفة شريف الذي تخلف عنهُ في الطريق وأتى مسلمًا كما سيجيء والبشرى ابن المهدي صهرهُ والفاضل ابن المهدي صهر الخليفة شريف والصديق ابن المهدي وعثمان دقنه وعبد القادر ام مريوم الذي تخلف عنهُ وأتى مسلمًا بعد أيام ويونس الدكيم وعبد الباقي عبد

الوكيل وحامد علي الذي كان في كسله ويعقوب أبو زينبه من أخص أقربائهِ وغيرهم .
وبفراره أصبحت أم درمان بل السودان كلهُ بيد السردار والى ذلك أشار نساء
أم درمان بقولهن : الليلة هاي قلبوها تركية ود تورشين شرد رقدوا الملازمية

وكان فرار الخليفة قبل دخول السردار بساعة على انهُ بقي داخل السور بعض
البقارة فرموا السردار واركان حربهِ بالرصاص ولكن كان رصاصهم عالياً فلم يمسنا
بضرر . ثم ان الطوبجية الذين جعلهم السردار عند باب الجامع الغربي ؛ لما سمعوا
اطلاق النار من داخل السور ظنوا ان الخليفة لم يزل محاصرًا فيهِ فرموا بالقنابل الى داخل
السور فوقعت قنبلة عند باب القبة حيث كان السردار وأركان حربهِ فأصابت الشريف
هيوبورت هوَرد مكاتب النيويورك هارولد فقتلتهُ فأسف عليهِ كل من عرفهُ . فأرسل
السردار أمرًا الى الطوبجية بايقاف النار وخرج من السور فأتى الى السجن وكان فيهِ ٨٨
سجيناً بينهم ابراهيم باشا فوزي والمستر نوفل يرسفان بالقيود فأطلق سراحهما ووضع
الخفراء على السجن وبيت الخليفة وبيت يعقوب وبيت شيخ الدين وبيت الامانة
وبيت المال وغيرها من المحلات الشهيرة وبات ليلتهُ بجميع الجيش غربي المدينة

﴿ مطاردة الخليفة ﴾ وكان السردار حالما تحقق فرار الخليفة قد أرسل في أثرهِ
السواري والهجانة ومعهم سلاطين باشا في البر وأرسل مدرعتين في النيل فطاردهُ
السواري والهجانة مسافة ٣٠ ميلاً حتى أعيت ركائبهم ونفد زادهم وطاردهُ الوابورات
تسعين ميلاً جنوباً فلم يدركوهُ فعادوا كلهم الى أم درمان

﴿ رفع الرايتين ﴾ ويوم الاحد في ٤ سبتمبر أي بعد الواقعة بيومين عبر السردار
النيل الى الخرطوم فرفع الرايتين الانكليزية والمصرية معاً على خرائب السراي
وأقام الصلاة عن نفس المرحوم غوردن . ومن هذا اليوم دخل السودان في عصر جديد
فعرف باسم السودان الانكليزي المصري . وعرفت الواقعة بواقعة الخرطوم وواقعة
ام درمان وواقعة كرري وهي اكبر واقعة رآها السودان منذ قام العالم ولقد أظهر السودانيون
فيها من البسالة واحتقار الموت والاستهلاك في سبيل الغرض ما لا مزيد عليهِ

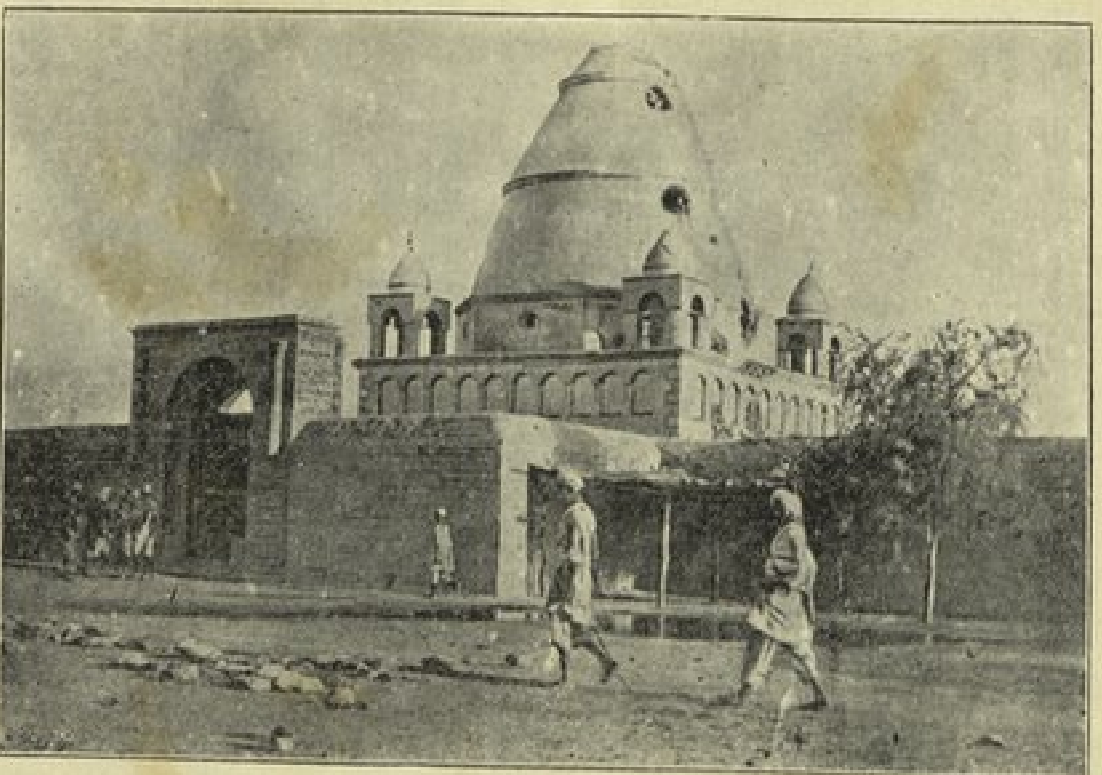
﴿ جهاد الجيش ﴾ أما الجيش المصري الانكليزي فكل رجل فيهِ جاهد حق

الجهاد واستحق أطيب الثناء وان خصَّ بعضهم بالمدح كلواء مكدونلد والسواري الانكليزي . وأما الموظفون الملكية الذين صحبوا هذا الجيش وشاركوهُ في الاتعاب والاخطار فاستحقوا الثناء فأهمهم : شاهين افندي جرجس الذي حضر واقعة الاتبرة وواقعة الجميزة من قبلها وابراهيم افندي ديمتري وجورج افندي مظلوم وكلهم من موظفي المخابرات . وخطار افندي كنعان ومحمود افندي عباسي وحسن افندي حسني من موظفي السردارية

﴿ القتلى والجرحى ﴾ وقد قتل في هذه الواقعة من الدراويش نحو عشرة آلاف رجل وجرح مثل ذلك واكثر . وكان في جملة القتلى من الراية الزرقاء : الامير يعقوب ومحمد ابن المهدي صهر يعقوب واب بسام تعايشي من اخصاء شورى يعقوب وعثمان الدكيم اخو يونس الدكيم ومحمد الزاكي عثمان امير بربر وعثمان ازرق وحسين ود جزو الحمري واحمد حمدان العركي ومحمد بشاره امير دنقله سابقاً وسليمان كشه تاجر الممنوعات * ومن جيش الكاره : ابراهيم الخليل أمير الجيش ومحمد اسحق التعايشي وحامد صابون الرزيقي * ومن الراية الخضراء : عبد الله ود احمد ود ابو سوار وكيل راية دغيم واحمد ود عبد الجليل ابن عم الخليفة علي ود حلو واحمد عبد الله برجوب امير ربع الحمويين واحمد ود المكي الدنقلاوي كاتب الراية

أما خسارة الجيش فكانت ٤٩٠ قتيلاً وجريحاً من انكليز ومصريين . فالقتلى من الجيش الانكليزي ٣ ضباط و٢٤ عسكرياً ومن الجيش المصري ضابطان و٢٧ عسكرياً وأما الجرحى فمن الجيش الانكليزي ٨ ضباط و ١٢٥ عسكرياً ومن الجيش المصري ١٥ ضابطاً و ٢٨٦ عسكرياً

وقد دفن قتلانا بالاكرام اللائق بهم . وسمح السردار لاهل المدينة فذهبوا الى محل الواقعة ودفنوا اقاربهم * وبعد الواقعة بأيام معدودة صعدت على جبل صرغام لمشاهدة محل الواقعة فاذا بالقتلى قد غطّت السهل من حوله على مدى النظر والنسور قد حامت فوقها أسراباً فملأت الجوّ وكان المشهد مما تنقبض لهُ النفس اشد الانقباض ويوجب منتهى السخط على الحروب واسبابها .



قبة المهدي بعد واقعة ام درمان

﴿ أوراق الخليفة ﴾ وفي ثاني يوم الواقعة عند الفجر أتى رسول بكتاب من الشيخ مدثر ابراهيم الى الميرالاي ونجت بك مدير المخابرات يسألهُ الامان فذهب المدير الى بيت الشيخ مدثر وأعطاهُ الأمان وسألهُ عن كتب الخليفة وأوراقهُ فدلهُ عليها وكان بعضها في منزلهِ و بعضها في منزل الخليفة وكنت قد صحبت المدير فشرعت في فرزها وجمعتها في عشرين عدلاً وأتيت بها الى مكتب المخابرات في مصر فاذا هي جامعة لأهم ما دار من الكتب بين الخليفة والمهدي من قبلهِ و بين امرائهما وغيرهم في الجهات وقد تحققت منها بعض الوقائع التاريخية واستشهدت بها كثيرًا في هذا الكتاب . وأعطانا الشيخ مدثر ختم الخليفة وأما ختم المهدي فقد عثر عليهِ بعض رجال الحملة ليلة الواقعة و باعهُ الى المستر كوك الشهير في مصر

﴿ بيت الخليفة ﴾ ثم جلنا في بيت الخليفة فوجدناهُ فارغاً بعد ان كان مفروشاً بأفخر الاثاث والتحف السودانية اذ ان اهل المدينة وغيرهم قد نهبوهُ ليلة الواقعة ولم يبقوا فيهِ سوى كرسي كبير من خشب في القاعة المعدة لجلوسهِ

﴿ قبة المهدي وقبرهُ وجثتهُ ﴾ وخرجنا من بيت الخليفة الى قبة المهدي والجامع فاذا هما كما وصفناهما قبل الآ أن قنابل الجيش قد هشمت قمة القبة وجانباً من جوانبها العليا وفتحت فيها عدة ثغور . واما قبر المهدي فقد كان محاطاً بدرابزون من النحاس الآ ان الرداء الذي كان يغطيهُ مأخوذ عنهُ . وفي ١٨ سبتمبر لغمت القبة فسقطت الى الارض ولم يبقَ قائماً منها الآ اركانها الاربعة . ونبش قبر المهدي واخرجت جثتهُ فحمل رأسهُ الى معرض التحف بلندن وبُعثرت عظامهُ

﴿ بيت يعقوب ومال الخليفة ﴾ ثم ذهبنا الى بيت يعقوب قرب بيت الخليفة حيث كان يظن ان مال الخليفة محفوظ فيهِ فوجدنا عدة مخازن ملأى بالمؤن والذخائر كالذرة والبن والقرب وسروج الجمال والجبب والسيوف والحراب والخوذ ونحوها واتينا المخزن الذي كان يحفظ فيهِ المال فوجدنا بابهُ مخلوعاً والصناديق التي فيهِ فارغة و بينها صندوق صغير قيل كان فيهِ الجوهرات الكريمة التي غنمها الدراويش من الخرطوم والحبشة ولم نجد من المال سوى كيس من « خيش » فيهِ ٤٠٠

ريال مجيدي فسألنا الخفراء عن ذلك فقالوا انهم منذ اتوا مساء الواقعة وجدوا الباب مخلوعاً وصدق قولهم بعض الاهالي فقالوا ان بعض رجال يعقوب لما علموا بقتلهِ اسرعوا الى منزلهِ فخلعوا الباب وحملوا ما استطاعوا حملهُ من المال وفرُّوا هاربين

﴿ بيت الامانة ﴾ ثم ذهبنا الى بيت الامانة قرب بيت يعقوب فوجدنا مخازن كبيرة من البارود تحت الارض واشياء شتى من التحف والمهمات الحربية بينها مدفع وعدة صناديق جبخانة وخمس عربات كانت للحكمدارية والمرسلين الكاثوليك في الخرطوم ونحو ١٠٠ نقارة من نقاقير اهل البلاد جمعها الخليفة بعد استيلائهِ على الملك لكي يحصر السلطة كلها في يدهُ ولا يكون في البلاد رأس يجمع للحرب غيرهُ . وكان بينها نقارة كبيرة مكتوب عليها : «ملك السلطان بادي بن نول سنة ١١٦٧هـ» وهو الملك السادس عشر من ملوك سنار الملقب بابي شلوخ الذي اشتهر في حرب الحبشة وقد مر في تاريخ سنار . ونقارة الخليفة (المنصورة) موضوعة على دكة مرتفعة على شكل نصف دائرة عند مدخل باب البيت يصعد اليها بسلم كانت تضرب عند اجتماع رجالهِ للعرضة . وفي احدى الغرف الكبيرة معرض للتحف والغنائم الحربية وقد جعلوا ما غنموهُ من كل دولة على حدة فترى هناك غنائم من المصريين والاحباش والتليان والبلجيك والشلك وبين هذه الغنائم صندوق صغير عليه ورقة صغيرة مكتوب عليها هكذا : «هذا الصندوق داخلهُ الاصناف الآتية ادناهُ المحضرة من بحر الجبل برفقة سعيد صغير في شهر ربيع آخر سنة ١٣١٤هـ — نيشان . ميزان هواء . ختمان . بوسطة ووقائع » فنحت الصندوق فلم أجد فيهِ غير « البوسطة والوقائع » وهي جرائد افرنسية وتحارير خصوصية لبعض الضباط البلجيك من اقاربهم في اوربا

والي شرق بيت الامانة بيت مال الحربية وفيهِ معمل الخرطوش والاسلحة الصغيرة واما معمل البارود فقد كان في جزيرة توتي . وكان هناك اسدان كبيران نقلا الى حديقة الحيوانات بمصر

﴿ بيت المال ﴾ ثم ذهبنا الى بيت المال فوجدنا فيهِ نحو ٢٠٠ قنطار من العاج أُتي بها من خط الاستواء . ومحل الضربخانة وفيهِ ٨ قوالب «تمغة» العملة و٣ صناديل

و٣ مرزبات و١٥ سندالاً من سناديل الصياغ و١٥ مطرقة حديد و١٥ ماشة حديد و١٥ نفاخ جلد و ٥ مبارد مثلثة لبرد العملة ٥ ومطبعة الحجر التي غنموها من الخرطوم واستعملوها لطبع مناشير المهدي ورواتبهِ ثم لطبع مناشير الخليفة وكتب اخرى واهم ما طبع فيها غير منشورات المهدي ورواتبهِ : رسالة حسن سعد العبادي ورسالة العوّام ورسالة الشيخ الحسين ابراهيم ولد الزهراء ومنشور منع الظلم للخليفة وكتاب الزوجية في الميراث وكتاب النصائح المرسلة الى الجهات البحرية ومنشور ترك الاسلحة النارية ودعوة رمضان والجزء الثاني من تاريخ فتوح الشام ٥ اما منشورات المهدي فقد طبعت في جزئين ووزعت على الجهات

﴿ سجن الخليفة ﴾ وبعد الواقعة بايام ذهبت الى السجن مع قومندان ام درمان لانقاذ باقي المسجونين فاذا هو عبارة عن حوش متسع محاط بسور من الحجر وفي وسطهِ بعض الاكواخ من الطوب والطين وكان الباقي فيهِ من الـ ٨٨ سجيناً نحو ٤٠ رجلاً وكان بعضهم مقيدًا بالمكاكي وبعضهم بالمكاكي والجنازير وبعضهم بلا قيد فأمر القومندان باطلاق سراحهم ففكوا قيودهم بالحجارة والعصيّ وانطلقوا وهم يدعون للحكومة بالنصر والتأييد . وكان اهم من في السجن عدا ابراهيم باشا فوزي والمستر نوفل المار ذكرهما : الشيخ محمد شريف نور الدايم استاذ المهدي وقد سجن لعدم ولائهِ للخليفة والعوض المرضي وابراهيم رمضان لاتهامهما بمحاولة الفرار وابراهيم محمد حمزه لاتهامهِ بالمساعدة على انقاذ سلاطين باشا وحسن سرف ام كدوك كبير البرته لانهُ علم بفرار سلاطين ولم يخبر بهِ وبولص صليب من كتاب الحكومة في الخرطوم لانهُ زوج ابنتهُ لرجل من الاقباط بعد ان أمر بحفظها للخليفة وحمد محمد الملك من دنقله لعدم ولائهِ لحكومة التعايشي

﴿ أسرى الحكومة ﴾ وكان في ام درمان نحو ١٤٠٠ رجل من الموظفين الملكيين والضباط والعساكر النظامية والباشبوزق الذين وقعوا في أسر الدراويش واهمهم عدا ابراهيم باشا فوزي : القائمقام محمد بك اسكندر والملازم يوسف افندي منصور والميرالاي النور بك محمد والقائمقام عثمان بك الدالي والقائمقام السيد بك جمعه

والدكتور احمد افندي زكي من اطباء الخرطوم ٥ ذلك ما عدا ٨٠٠ عائلة من عيال الضباط والملكيين الذين توفوا في أثناء الحصار أو بعد الاسره ٥ وكان فيها ٥٣ رجلاً من التجار الاروام والطليان والشوام والارمن واليهود واكثرهم من الاروام وقد عرفوا بالمسلمانية كما مرّ وسكنوا حياً خاصاً بهم فكان انظف احياء المدينة واجملها وقدغرس البعض في دورهم الليمون البرتقال والحامض والحناء. وأهمهم: الخواجه يوسف الشيخاني اللبناني المشهور بالمروءة والوفاء ولين العريكة وجورجي اسطمبوليه المار ذكرهُ ونعوم عجيي الحلبي ومعهم الراهبة تريزة من راهبات المرسلين النمساويين في الابيض وقد أمرها الخليفة بالزواج فخافت اذا امتنعت عنهُ ان يزوجها رجلاً من اهله فتزوجت بتاجر رومي مسيحي وبنت جورجي بك الحكيم الذي قتل في واقعة هكس وقد تزوّجت برجل رومي آخر فأرسل السردار جميع هؤلاء الاسرى الى مصر ٥ وكان في ام درمان من الاحباش الذين وقعوا في أسر التعايشي ٢٣٣ نفساً فأرسلهم السردار الى الحبشة عن طريق مصر ومصوع

﴿ موظفو السودان « والماهيات » والتعويضات والرُّجع ﴾ وانهالت طلبات الاسرى وغيرهم من سكان السودان على المالية المصرية فمن طالب ماهيتهُ في أثناء الثورة ومدة الاسر ومن طالب ديناً اسلفهُ للجيش مدة الحصار وذلك بموجب رُجع محفوظة في يدهِ او مفقودة منهُ ومن طالب تعويضاً على ما فقدهُ من الاموال بسبب الثورة فانقسمت طلباتهم الى ثلاثة انواع: ماهيات ورُجع وتعويضات أما الماهيات فقد سعى السردار مع المالية فوزعت على الموظفين الملكية والعسكرية من باشبوزق ونظامية وعلى عيال المتوفين منهم ٢٩ الف جنيه وذلك بنسبة ماهياتهم وسني خدمتهم وكفاءتهم ٥ وأما الرُّجع فقد وُزّع على أصحابها ٤٠ الف جنيه ٥ واما التعويضات فقد نظر في كل طلب على حدة وكوفئ المستحق منها

حادثة مارشان واحتلال فاشوده في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٨

﴿ مارشان في فاشوده ﴾ اتصل بنا قبل وصول الحملة الى ام درمان ان جيشاً من البيض جاء من الجنوب فاحتلّ فاشوده وان الخليفة أرسل سرية من

انصاره في وابورين واحد عشر مركبًا ومدفعًا بقيادة سعيد صغيّر الجعلي لطرده منها.
فلما دخلنا ام درمان تأكدنا الخبر . و بعد الواقعة باسبوع أي في ٩ سبتمبر اقبل احد الوابورين «التوفيقية» وهو يظن انهُ يجد الخليفة فوجد السردار وقصّ عليهِ الخبر فقال : «وصلنا تجاه فاشوده صباح ٢٥ اوغسطوس فوجدنا البيض قد تحصنوا في طابيتين فرميناهم بالقنابل والرصاص فأجابونا بالرصاص ودام القتال الى قرب الغروب فقتل منا ٣١ رجلاً وجرح ٦٠ ووجدنا أن لا قدرة لنا على حربهم فانثنينا عنهم الى الرنك وجئت بهذا الوابور لاخذ المدد» . فشرع السردار في الاستعداد للزحف على فاشوده . وفي فجر اليوم التالي ١٠ سبتمبر خرج بخمسة وابورات حاملة بلوكاً من الكامرون هيلندرس واورطتين سودانيتين و بطارية من الطوبجية المصرية ومعهُ اركان حربهِ الباسل الكولونل ونجت مدير المخابرات العام وسار حتى اقبل على الرنك في ١٥ سبتمبر فتلقاهُ الدراويش بقنبلة من مدفعهم ففتح مدافعهُ عليهم فقتل منهم واسر وكان في جملة الاسرى سعيد صغيّر امير السرية وغنم وابور «الصافية» واحدى عشر مركبًا

﴿السردار في فاشودة﴾ ثم استطرد السير جنوبًا نحو فاشوده حتى صار على ١٢ ميلاً منها فأرسل الى رئيس السرية الاوربية في فاشوده كتابًا بتاريخ ١٨ سبتمبر يخبرهُ بما كان في ام درمان والرنك وانهُ واصل قريبًا لاحتلال فاشوده . وفي صباح ١٩ سبتمبر استطرد السير الى فاشوده فالتقاهُ في الطريق زورق عليهِ الراية الفرنساوية فعلم ان هؤلاء البيض هم فرنساويون ثم وصل الزورق وفيهِ بعض العساكر السود ومعهم كتاب من الموسيو مرشان الى السردار يهنئهُ بالنصر على الخليفة ويخبرهُ ان حكومتهُ اوعزت اليهِ فاحتل بحر الغزال الى مشرع الريك ثم جاء الى فاشوده فاحتلها في ١٠ يوليو وعقد معاهدة مع ملكها عبد الفضيل على ان يكون تحت حماية فرانسا ثم ذكر لهُ انتصارهُ على الدراويش وانهُ بعث يطلب المدد من فرنسا بطريق الحبشة وطريق بحر الغزال وكان مع مرشان تسعة ضباط فرنساويون فيهم الكبتن جرمان و ١٢٠ عسكريًا من عبيد النيجر . فلما وصل السردار تجاه فاشوده جاءهُ مرشان الى الوابور ومعهُ

الكبتن جرمان فحياهما وهنأهما بالسلامة. ثم التفت الى الماجور مرشان وقال اني مأذون ان اصرح لك بان وجود الفرنساويين في فاشوده وفي وادي النيل يعد تعدياً صريحاً على حقوق مصر وبريطانيا العظمى واني بحسب الاوامر المعطاة لي اقيم الحجة على احتلالك فاشوده ورفعك الراية الفرنساوية في املاك الحضرة الفخيمة الخديوية. فأجابهُ الماجور مرشان انما انا عسكري وليس لي الا الطاعة. والامر الذي تلقيتهُ من حكومتي باحتلال بحر الغزال وفاشودة صريح لا يقبل التأويل والآن قد اتممت الامر فلست استطيع ان افعل شيئاً حتى تصدر لي اوامر جديدة * فقال السردار وأنا مأمور من حكومتي ان أرفع الراية المصرية في فاشودة فهل أنت مستعد بالنيابة عن الحكومة الفرنساوية ان تقاومني ثم قال والرجاء ان لا تبدي الحكم النهائي قبل النظر ملياً في الامر واذا قررت اخلاء فاشودة والنزول الى مصر عن طريق الخرطوم فاني اعطيك وابوراً من هذه الوابورات تنزل فيهِ. فرفض مرشان بتاتاً اخلاء فاشودة قبل الوقوف على اوامر حكومتهِ بهذا الشأن وقال للسردار اني لا اضادك في رفع الراية المصرية على فاشودة بشرط ان تبقى الراية الفرنساوية في مكانها ثم قال وانا عالم بضعف قوتي بالنسبة الى قوتك ومع ذلك فاذا احرجتني وقررت ازال الراية الفرنساوية بالقوة فاني ادافع عنها الى ان أموت أنا ورفاقي تحتها * فرضي السردار بترك الراية الفرنساوية في مكانها ورفع الراية المصرية على ٥٠٠ يارده منها في الطرف الجنوبي من الطابية القديمة المصرية ثم اطلق ٢٠ مدفعاً تحيةً لها ووضع عندها اورطة من العساكر السودانية و ٤ مدافع ووابور حربي بقياد الماجور جكسن وكان ذلك الساعة الاولى بعد ظهر ذلك اليوم * ثم تقدَّم الى سُبت فبلغها بعد ظهر ٢٠ سبتمبر فأسس فيها طابية على شاطئ النهر الغربي عند التقائهِ بالنيل الابيض ورفع فوقها العلم المصري ووضع فيها نصف اورطة سودانية وارسل بلوكاً من العساكر فاحتل الناصر وانقلب راجعاً الى ام درمان فوصلها في ٢٤ سبتمبر وعسكر بالجيش في خور شمبات

﴿ زيارة الجنرال غرنفل لام درمان ﴾ وقدم في هذا اليوم من مصر الجنرال

غرنفيل السردار السابق وقومندان جيش الاحتلال العام فمكث اياماً فشاهد محل الواقعة وتفقد الاحوال وعاد الى مصر

﴿ اخلاء مارشان لفاشودة ﴾ وعرض السردار امر مرشان تلغرافياً الى مصر فاعترضت الحكومة المصرية رسمياً بلسان بطرس باشا غالي ناظر خارجيتها على احتلال فرنسا لفاشودة وسألت الحكومة الانكليزية ان تساعدها على ذلك . فطلبت الحكومة الانكليزية من الحكومة الفرنساوية اخلاء فاشودة وجاهرت بأنهُ ليس لدولة اوربية حق في أي جهة من جهات النيل . وكان مرشان قد ارسل الكبتن جرمان بتقريرهِ الى فرنسا ثم جاء بنفسهِ الى مصر لتلقي اوامر دولتهِ فرأت دولتهُ بعد النظر ملياً في الامر ان الحكمة والسداد يقضيان باخلاء فاشودة فأصدرت امرها الى مرشان فرجع الى فاشودة واخلاها في ١١ دسمبر سنة ١٨٩٨ وعاد الى فرنسا عن طريق سُبت والحبشة

﴿ رجوع السردار الى مصر ﴾ وقام السردار واركان حربهِ من ام درمان في ٣ اكتوبر سنة ١٨٩٨ فسافر بحراً الى الاتبرة ثم بسكة الحديد الى حلفا فبحراً الى اصوان فبسكة الحديد الى مصر فوصلنا مصر صباح ٦ اوكتوبر بعد سفر ٣ أيام بلياليها وهذه أول مرّة وصل فيها المسافر من ام درمان الى مصر بهذا الوقت القصير منذ قام العالم . ثم بنى جسراً (كوبري) على الاتبرة اقامهُ على ٨ ركائز وفتحهُ في ٢٦ اوغسطوس سنة ١٨٩٩ . وشرع في مد سكة الحديد الى الخرطوم فتمت في آخر يوم من سنة ١٨٩٩ فزادت المسافة قصراً وستقصر ايضاً بعد وصل سكة حديد اصوان بسكة حديد حلفا في المستقبل القريب ان شاء الله

﴿ مكافأة السردار ومدير المخابرات ﴾ وقد دلت اعمال السردار في فتح الخرطوم وجميع الفتوحات التي تقدمتهُ على مقدرة فائقة في الاقتصاد المالي والادارة العسكرية كما دلت على براعة تامة في الفنون الحربية فكافأتهُ حكومتهُ بلقب لورد وخيرتهُ باللقب الاضافي فاختار الخرطوم فسمي اللورد كتشنر اوف خرطوم

وكان الكولونل ونجت مدير المخابرات العام يدهُ اليمنى في هذه الفتوحات كلها فرقتهُ حكومتهُ في جيشها ومنحتهُ نيشان القديسين ميخائيل وجورج مع لقب

«سر» ورقي في الجيش المصري الى رتبة لوا مع لقب باشا وسمي ادجوتانت جنرال للجيش المصري وذلك في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٨

احتلال القضارف في ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨

﴿ خروج احمد فضيل قاصدًا ام درمان ﴾ تقدم ان الخليفة بعد احتلال الجيش لدنقله أتى باحمد فضيل من القضارف للاستعانة به على الجيش فلما أخذت الحكومة المصرية كسله من التليان سنة ١٨٩٧ظن انها ترسل جيشًا منها على القضارف فأخرج من جيش احمد فضيل رايتي فضل الحسنة وعبدالله حامد فضمهما الى جيش محمود كارار وارجعهُ الى القضارف ليقف في وجه جيش كسله ٠ ثم كانت واقعة الاتبرة وزحف السردار على ام درمان ولم يتحرك جيش كسله من مكانهِ فأمر احمد فضيل فأبقى في القضارف حامية مؤلفة من نحو ٣٠٠٠ مقاتل بقيادة سعد الله التعايشي ومعهُ النور عنقرة المشهور للوقوف في صدد جيش كسله وسار هو بمعظم القوة أي بنحو ٤٠٠٠ مقاتل من السود والعرب المسلحين بالبنادق الرمنتون طالبًا ام درمان لانجاد الخليفة ولكنهُ ما وصل رفاعة على النيل الازرق حتى كانت واقعة ام درمان واصبحت البلاد كلها بيد السردار

﴿ واقعة القضارف ﴾ وكان السردار قبل سفره الى فاشودة قد علم بخروج احمد فضيل من القضارف فأرسل امرًا الى بارسونز باشا بالزحف على القضارف وأوعز الى هنتر باشا بالذهاب بالوابورات في النيل الازرق لمراقبة حركات احمد فضيل ورفع الرايتين المصرية والانكليزية على سنار والرصيرص ٠ فخرج بارسونز باشا من كسله في ٧ سبتمبر ومعهُ ١٤٠١ من العساكر النظامية و ٢٨ ضابطًا مصريًا و ٨ ضباط انكليز ونحو ٨٥٠ من العربان المحابة من الشكرية وبني عامر والهدندوه فاعترضهُ نهر الاتبرة في الطريق فصنع اطوافًا من الخشب وعبر بها النهر عند الفاشر وأما الجمال والخيل فقد عبرت النهر سباحة وسار عن يسار الاتبرة الى ان انتهى الى جزيرة المقطع في ١٨ سبتمبر ٠ وكانت «دورية» الدراويش قد جاءت من القضارف لمراقبة حركاتهِ فقتل منها ٣ واسر ٥٧ وسار قاصدًا القضارف حتى أتى تلة مشرفة عليها في صباح ٢٢ سبتمبر

فرأى الدراويش قد خرجوا اليهِ مصطفين للقتال فأشعل فيهم نارهُ ودارت رُحى الحرب بين الفريقين فدامت الى الساعة العاشرة ونصف اذ انهزم الدراويش وتشتت شملهم . وتقدم بارسونز الى القضارف فخرج النور عنقرة بدفعين و١٥٠ رجلاً وسلم لهُ وكان بيده كتاب الامان من ادارة مخابرات الجيش اذا خرج مسلماً عند مجيء الساعة فأراهُ الكتاب فأمَّنهُ ودخل القضارف عند الظهر

﴿ رجوع احمد فضيل الى القضارف ﴾ أما هنتر باشا فانهُ عند صدور أمر السردار اليهِ بمراقبة احمد فضيل لم يكن عندهُ من الوابورات الا وابور واحد فأرسلهُ بقيادة الشريف الماجور تلبوت فالتقى باحمد فضيل قرب ابي حراز فرماهُ بالقنابل وابعدهُ عن النيل ولم يمكنهُ من العبور الى الجزيرة فعسكر في الصحراء على ٨ اميال من ابي حراز وهناك علم باحتلال جيش كسلا للقضارف فانقلب راجعاً الى القضارف وهاجمها في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٩٨ هجمة صادقة من كل الجهات وكان جيش الحكومة قد تحصن في ثلاث طواب من بناء الدراويش فتلقاهُ بنار حامية وصد هجماتهِ المتتابعة العنيفة المرة بعد المرة وردَّهُ خائباً بخسارة ٥٠٠ رجل فقعد لحصار القضارف في جبل عصّار على ٨ اميال جنوبيها وارسل « الدوريات » لقطع طريق الجيش الى كسلا . وفي اواسط اوكتوبر سنة ١٨٩٨ التقت « دورية » من جيشهِ بنفر من العساكر يخفرون خزينة فيها ١٦٠٠ جنيه مرسلة من كسلا فانقضت على الخفراء وقتلت منهم وحملت الخزينة الى عصّار . وكان مع الخفراء أمين افندي حداد مترجم اللواء بارسونز باشا فبذل الجهد في تخليص الخزينة فلم يفلح فنجا بنفسهِ

﴿ احتلال سنار والرصيرص ﴾ وفي ١١ سبتمبر خرج هنتر باشا في النيل الازرق فأسس نقطة في سنار ونقطة في الرصيرص وقفل راجعاً الى ام درمان في ٢ اوكتوبر

﴿ واقعة الرصيرص في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٩٨ ﴾ وكان السردار قد عاد اليها من فاشودة في ٢٤ سبتمبر كما مرَّ فلما علم برجوع احمد فضيل الى القضارف ارسل رندل باشا رئيس اركان حربهِ بجيش من العساكر في النيل الازرق لمطاردتهِ والاتحاد مع جيش القضارف على سحقهِ . فلما وصل رندل الى أبي حراز أرسل سرية من جيشهِ

الى القضارف بقيادة القائمقام كولنسن بك فسار بطريق القلعة أرانج ووصل القضارف في ٢٢ اوكتوبر سنة ١٨٩٨

فأخذ بارسونز اذ ذاك في الاستعداد للخروج على احمد فضيل في عصار اما احمد فضيل فانهُ تيقن بعد وصول المدد الى القضارف انهُ لا يقوى على أخذها فأقرّ على تركها واللحوق بالخليفة فخرج من عصار في ظهر ٢٣ اوكتوبر قاصدًا الرصيرص للعبور منها الى الجزيرة فهجرهُ ابو بكر دود بنقة من امرآء دارفور بنحو الف مقاتل وانضم الى بارسونز باشا فبقي معهُ نحو ٣٠٠٠ مقاتل ما عدا النساء والاولاد فسار بهم الى شلال الرصيرص وشرع في اجتياز النيل الازرق الى الجزيرة فأتاهُ الميرالاي لويس بك قومندان حامية الرصيرص بنحو خمسمائة رجل من الاورطة العاشرة السودانية ومدفعين مكسيم وكان قد عبر بنحو نصف جيشهِ الى الجزيرة فأشعل النار في من بقي في البر الشرقي فرمي البعض بأنفسهم في النيل وثبت البعض فدافعوا مستقتلين حتى قتلوا ووقع الباقون اسرى ٠ وفي اثناء ذلك كان احمد فضيل ورجالهُ الذين اجتازوا النيل معهُ الى البر الغربي قد اصطفوا على الشاطئ وفتحوا نيرانهم على العساكر حماية لاخوانهم في الشرق فقتلوا من العساكر وجرحوا فحول العساكر مدافع المكسيم عليهم فأسكتوهم وهزموهم

﴿ القتلى والاسرى ﴾ وكانت خسارة الجيش ٢٨ قتيلاً و ١١٨ جريحًا وأما خسارة العدوّ فكانت ٥٠٠ قتيل ما عدا الذين غرقوا في النيل ٠ وأسر الجيش نحو ٣٠٠٠ نفس من الرجال والنسآء والاولاد وغنم شيئًا كثيرًا من المواشي والحراب والسيوف ٠ وكانت هذه الواقعة التي عرفت بواقعة الرصيرص في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٩٨ * وفي اليوم التالي عاد الجيش الى الرصيرص واما احمد فضيل فانهُ سار بمن بقي من رجالهِ الى النيل الابيض فالتقوا بوابور المتمة آتيًا من فاشودة وكانوا قد تعبوا وجاعوا وسئموا عيشة القتال والفرار من مكان الى مكان فسلّم اكثرهم الى الوابور في ١٧ يناير سنة ١٨٩٩ واجتاز احمد فضيل النيل بمن بقي فانضم الى الخليفة عبد الله الذي كان لا يزال يتنقّل في جبال النوبة كما سيجيء٠

احتلال القلابات في ٧ دسمبر سنة ١٨٩٨

و بقي بارسونز في القضارف الى ان جاءهُ الامر باحتلال القلاّبات فأرسل اليها الميرالاي كولنسن بك فاحتلها ورفع عليها العلم المصري والعلم البريطاني في ٧ دسمبر سنة ١٨٩٨ ٭ وكان الحبشة قد احتلوها قبلهُ ورفعوا عليها علمهم بحجة ان مصر تركتها لهم سنة ١٨٨٥ فاخبر كولنسن حكومتهُ بذلك فدارت المفاوضات السياسية بين مصر والحبشة بهذا الشأن وانتهت برجوع الحبش عن القلابات وبقائها للسودان كما كانت في الاصل ثم فتحت فيها سوق وضربت العوائد على حاصلات السودان والحبشة فكان نصفها لحكومة السودان والنصف الآخر لحكومة النجاشي

احتلال الجزيرة وسنار وفازوغلي سنة ١٨٩٨

وكان في الجزيرة احمد السني عاملاً في ود مدني ومعهُ نحو ٨٠٠ مقاتل فسلّم للماجور تابوت في ١٥ سبتمبر عند مجيئهِ لمطاردة احمد فضيل كما مرَّ ٭ وكان فيها ايضاً صالح حمادو التعايشي محافظاً بثلاثمائة مقاتل ومعهُ الشيخ عبد الرحيم ابو دقل شيخ عربان الحمر فسلم الشيخ عبد الرحيم للشيخ الطاهر ود العبيد ٭ وأما صالح حمادو فانهُ لم يسلم الاّ بعد ان جال في الجزيرة ورأى عجزهُ عن الفرار فسلمّ في ١٥ ديسمبر سنة ١٨٩٨

﴿ تسليم الخليفة شريف في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٨ ﴾ وتخلف الخليفة شريف واثنان من اولاد المهدي وهما الفاضل والبشرى عن الخليفة عبد الله عند جزيرة ابا فسلموا للبكباشي بليوت الذي ذهب من الدويم لاستقبالهم

﴿ جبال الفونج ﴾ وكان على الفونج محمد سرور وهو من سلالة الهمج الاّ انهُ لم يكن وارث الهمج وانما كان وارثهم ادريس رجب وقد حبسهُ الخليفة في ام درمان فاعطاهُ مدير المخابرات الامان وارسلهُ الى الجبال فحكمها باسم الحكومة

وكان هنتر باشا قد احتل سنار والرصيرص في شهر سبتمبر سنة ٩٨ كما مرَّ فتقدمت عساكر الحكومة الى فازوغلي فاحتلتها وأسست نقطة في فامكه في ٢٢ يناير سنة ١٨٩٩ ٭ وأما بني شنقول فانها بقيت بيد الحبشة كما تقدّم الكلام

احتلال بحر الغزال سنة ١٩٠٠

﴿ الفرنساويون في بحر الغزال ﴾ تقدم ان الدراويش اخلوا بحر الغزال في اوكتوبر سنة ١٨٨٦ فصارت الى اهلها وان فضل النبي اصيل غزاهم في اوائل سنة ١٨٩٣ فقتلوهُ . وفي ١٤ يوليو سنة ١٨٩٤ عقد الفرنساويون اتفاقاً مع حكومة الكونغو على ان تكون بلاد بحر الغزال ضمن دائرة نفوذهم وأسسوا نقطاً حربية في ديم الزبير وبحر العرب واورمبيك واياك ومشرع الريك وغيرها ثم تقدموا الى فاشودة فاحتلوها حتى تقرَّر خروجهم منها ومن بحر الغزال سنة ١٨٩٨ كما مرَّ

وكان السردار لما جاء الى سُبتْ امر الماجور بيك بالذهاب الى مشرع الريك ورفع علم الحكومة عليها فخرج من سبتْ في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٨ وسار حتى صار على بضعة اميال من مشرع الريك فمنعهُ السد عن مواصلة السير فرفع الراية المصرية هناك وعاد ثم فتح السد ولكن لم يتيسر للحكومة احتلال بحر الغزال الاَّ في اواخر سنة ١٩٠٠ فأرسل السردار الحالي اللواء سباركس باشا بسرية من العساكر فوصل مشرع الريك في ١٣ دسمبر سنة ١٩٠٠ واحتل بلاد بحر الغزال فجعل عاصمتها واو

وقائع خط الاستواء سنة ١٨٨٩ : ١٨٩٨

مرَّ بنا ذكر وقائع خط الاستواء الى سنة ١٨٨٩ اذ كان عمر صالح اميرًا على الرجاف من قبل الخليفة وفضل المولى مقيماً في ودلاي مع بقية جيش امين باشا . وفي سنة ١٨٩٢ ارسل الخليفة أبا قرجة عاملاً على الرجاف وجعل المختار من اقاربهِ رقيباً عليهِ وفي ايامهِ حضر البلجيك الى بحر الغزال وخط الاستواء وأسسوا نقطاً حربية فكتب المختار الى الخليفة يخبرهُ بقدومهم الى خط الاستواء وانحراف ابي قرجة عن التعايشة ه فأرسل الخليفة عربي دفع الله عاملاً على بحر الجبل فوصل الرجاف في ١٠ ربيع ثاني سنة ١٣١١ ه ٢١ اوكتوبر سنة ١٨٩٣ بعد سفر شهرين و ١٢ يوماً وما أبطأ أن قبض على أبي قرجة وزجهُ في السجن

وكان البلجيك قد أدخلوا فضل المولى وعساكرهُ في خدمتهم على شروط معلومة بتاريخ ١٩ اوكتوبر سنة ١٨٩٢ فصمم عربي دفع الله على طردهم جميعاً من

البلاد فسار اولاً الى فضل المولى وكان مقيماً قرب ودلاي فقتلهُ وشتت شملهُ وغنم ما كان معهُ من اسلحة وجبخانة وكتب وغيرها وارسلها الى الخليفة ٥ وكان قد طلب مدداً من الخليفة فأرسل اليهِ عمر صالح العامل الاسبق ومحمد حمدنا الله وبعض الانصار في ثلاثة وابورات فخرجوا من ام درمان في اوائل سنة ١٣١٢ هـ فاعترضهم السد في الطريق ففتحوهُ بعد كل جهد ومشقة الى شامبي وبعثوا رسلاً منها الى عربي دفع الله وكان قد استبطأهم وأتى الى بور يتنسَّم اخبارهم فلقيهُ الرسل في بور فاخبروهُ بحبس السرية في شامبي وانها في أشد الضنك مما تقاسيهِ من العري والجوع والمرض فأتاهم بزاد وحاول فتح السد من شامبي فلم يفلح فأعاد الوابورات الى الخليفة وأتي بمن بقي من جماعة عمر صالح ومحمد حمدنا الله الى الرجاف ٥ ثم جمع جيشهُ وهاجم البلجيك في نقطهم الغربية فأوقع فيهم ٣ وقعات كان النصر لهُ فيها جميعها

﴿واقعة الرجاف في ١٤ فبراير سنة ١٨٩٧﴾ فجهز البلجيك سرية من العساكر بقيادة الموسيو شلتن ونزلوا على الرجاف يوم الاثنين في ١٥ فبراير سنة ١٨٩٧ فأوقعوا في عربي دفع الله واقعة عنيفة وطردوهُ من الرجاف واحتلوها مكانهُ وكانت خسارة البلجيك ١٠٠ قتيل و ١٦٠ جريحاً واما خسارة الدراويش فكانت ٩٣ قتيلاً وفيهم عمر صالح ومحمد حمدنا الله ومحمد الطربقي وعلي ودفايت والبدوي ود العريق

وكان محمد عثمان ابو قرجه ومحمد خالد الزقل واسماعيل شجر الخيري قد لجأوا الى البلجيك سنة ١٨٩٦ فلم يبقَ مع عربي سوى ٤٠٠ رجل وكلهم من عامة الانصار وليس معهم سوى اسلحتهم وقليل من الجبخانة فانهزم بهم الى بور وبعث بالخبر الى الخليفة ولكن كتبهُ لم تصل بلاد فاشوده حتى كان السردار قد احتل ام درمان وسار في النيل الابيض فالتقى الرسول في الطريق واخذ منهُ الكتب

﴿عربي دفع الله﴾ اما عربي دفع الله فانهُ لما علم بقدوم الجيش وفرار الخليفة من ام درمان فرَّ بجيشهِ الى شكا فارسل السردار بعضاً من الباشبوزق لمطاردتهِ ففر منهم الى بلاد فرتيت ثم انضمَّ الى علي دينار في الفاشر

﴿ زقل وابو قرجه واسماعيل شجر الخيري ﴾ اما زقل وابو قرجه واسماعيل شجر الخيري فانهم أتوا مع قافلة من التجار الى وداي واستجاروا بسلطانها فمات اسماعيل شجر الخيري هناك ولجأ زقل وابو قرجه الى علي دينار . ثم قيل ان زقل أغرى بعض الامراء بقتل علي دينار فعلم بهِ هذا فقتلهُ وأما ابو قرجه فلا يزال عندهُ الى الآن

﴿ حملة الكولونل مارتر من اوغنده ﴾ وكانت الحكومة الانكليزية عند قيام السردار لفتح ام درمان أمرت الكولونل مارتر والماجور مكدونلد من مقاطعة اوغنده فخرجا بسرية من العساكر لمقابلة حملة السردار ومساعدتهِ على طرد الدراويش من وادي النيل . فلما أتى السردار الى «سبت» في ٣٠ سبتمبر ارسل اليهما كتاباً بما كان فكتب مارتر من الدفلاي بتاريخ ٢٩ سبتمبر سنة ٩٨ يقول انهُ اوصل قطع الوابور الى اللابوره وسيتقدم شمالاً الى ان يلتقي السردار . أما السردار فانهُ أمر الماجور بيك بعد ان عاد من سفرة بحر الغزال ففتح السدّ في بحر الجبل بعد معاناة مشاق جمة واسس نقطة في منجالا شمالي اللادو جُعلت آخر حد السودان المصري الانكليزي . وأما القسم الجنوبي من خط الاستواء فألحق باوغنده وأعطيت اللادو وما حولها لملك البلجيك على ان تعود للانكليز بعد وفاتهِ

الخليفة بعد واقعة ام درمان سنة ٩٨ : ١٨٩٩

لا تقطعن ذنب الافعى وترسلها ان كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا

﴿ حملة الكولونل كتشنر على الخليفة في ٢٢ يناير سنة ١٨٩٩ ﴾ تقدم ان الخليفة فرَّ من واقعة ام درمان وسار جنوباً متخذاً طريق الصحراء . واستمرَّ على الفرار حتى وصل « ابا ركبه » فأقام فيها بأتباعهِ وكتب الى الختيم موسى الذي ابقاهُ محمود حامية في الابيض فانضم اليهِ بانصارهِ و بعض العائلات التي ابقاها محمود في بارة . وكتب الى مشايخ النوبة وكردوفان للانضمام اليهِ ولكن قلَّ من أجابهُ . وكتب الى احمد فضيل كتاباً هذا نصهُ بعد البسملة :

« و بعد فمن عبد ربه خليفة المهدي « عم » الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق الى المكرم احمد فضيل كان الله لهُ وتولاه آمين . بعد السلام عليكم ورحمة

الله وبركاته فنعلمك أيها الحبيب انا عنك سائلون ولك بالخير والبركة داعون وما زلت ملحوظاً منا بعين الرضى ومزيد الاكرام لما انت عليه من القيام بامر الدين وبذل الهمة فيه فجزاك الله عن ذلك خيرًا وهداك سيرًا وشكر مسعاك وحفظك وتولاك . ثم نعلمك ايها الحبيب انا بحمد الله تعالى فيمن معنا من الانصار بخير وقد انحزنا عن الاعداء بعد حصول الحرب بيننا وبينهم الى جهة دار الجوامعة بنواحي المحل المسمى بالغبشه فنحن الآن به في أمن وأمان ومزيد اطمئنان وليس القصد من حضورنا في هذه الجهة المذكورة الاّ التحيز عن الاعداء أخذًا بالحزم والاّ فليس القصد ان شآء الله تعالى الاّ اعادة الكرة على الاعدآء المخذولين ومحاربتهم حتى ينتصر الدين ان شآء الله تعالى ويهلك الكافرون . ثم ليكن بعلمك ايها الحبيب ان ما حصل للاعدآء المخذولين فهو محض استدراج لهم واختبار وتمييز للمؤمنين من الله كما قال تعالى « ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأسآء والضرّاء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين معهُ متى نصر الله ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم تكون الدولة عليهم في الاحيان والنبي (صلعم) بين ظهرانيهم حتى انزل الله تعالى في ذلك « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون ان كنتم مؤمنين ان يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثلهُ وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » فالعاقبة للمتقين بمقتضى وعد الله الذي لا يخلف فثقوا بوعد الله تعالى وأيقنوا بنصره ولا يهمنكم أمر الاعدآء فانهم ان شآء الله تعالى أحقر شأنا من ان تهتموا بهم واضعف كيدًا وبعد هذا ان شآء الله تعالى لا تقوم لهم قائمة بل يكون الدين في نصر وتأييد وقواعد الاسلام في أعز تمهيد وجميع الاصحاب الذين معكم فليكونوا على يقين من هذا الامر وثبات فؤاد في هذا الشأن واعراض عن سماع اقوال المرجفين والاصغاء لما يلقيه الشيطان لاوليائه ليرديهم وليلبس عليهم دينهم فان لنا فيما حصل اسوة باصحاب رسول الله (صلعم) فذكروا جميع الاصحاب الذين معكم بذلك وبلغوهم منا جزيل السلام فردًا فردًا اولاد عرب وجهادية وخصوصاً رؤوس المئات فاقروهم

منا السلام واعلموا الجميع انا على رضاء تام من جهتهم وانشراح صدر باذلين لهم الدعاء بالخير والبركة . ولانبهام احوالكم علينا قد حررنا لكم هذا الكتاب لكي بوصولهِ لديكم تفيدونا عن احوالكم تفصيلاً وتعرفونا بما انتم عليهِ وتعجلوا لنا بذلك لرفع المشغولية . ثم ليكن بعلمك ايها الحبيب انا قد حررنا لك هذا ونحن في غاية الانشراح من جهتك والرضاء التام عليك كيف لا وانت من اجل الايادي واعظم الأعوان المعدودين للقيام بنصرة الدين فاحمد الله علي ذلك واشكرهُ والله يجزيك خيراً ويثيبك اجراً ويهديك سيراً اه »

فاتى احمد فضيل بمن بقي معهُ من الانصار وانضم اليهِ في دار الجوامعة كما مر

﴿ حملة الكولونل كتشنر على الخليفة سنة ١٨٩٩ ﴾ اما السردار فانهُ اقام جنداً في الكوة وجنداً في الدويم لحماية النيل . وفي ٢٢ يناير سنة ١٨٩٩ ارسل اخاهُ الكولونل كتشنر بحملة صغيرة للقبض على الخليفة فوصل ابا ركبة في ٢٦ منهُ فوجد الخليفة قد فرَّ جنوباً ولم يكن هناك الا نفر قليل من اتباعهِ فأسرهم وعاد بهم الى النيل

﴿ حملة السردار على الخليفة سنة ١٨٩٩ ﴾ ثم جاءت الانباء ان الخليفة استقر في جبل قدير وقد اتعب اهل النوبة من عرب وعجم بالغزو والسلب والتعدي فجرَّد عليهِ السردار جيشاً مؤلفاً من ٨٠٠٠ مقاتل وقصدهُ من طريق كاكا فما وصل الجيش جبل فنقر على نحو ٥٠ ميلاً من كاكا و ٣٠ ميلاً من جبل قدير حتى فرَّ الخليفة شمالاً فعاد السردار بجيشه الى ام درمان وترك بعض الجند بقيادة الميرالاي لويس بك يجولون في النيل في جهة الدويم ليرقبوا حركاتهِ

حملة السر رجينلد ونجت باشا على الخليفة سنة ١٨٩٩

وبعد قليل شاع ان الخليفة قادم لغزو ام درمان فجهز لهُ السردار حملة صغيرة وولى عليها وكيلهُ السر رجينلد ونجت باشا فقادها بما اشتهر بهِ من البسالة والدربة والاقتدار وفاز بالغرض المطلوب فقتل الخليفة في جديد في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩ واراح البلاد من شرهِ ورفع بذلك تقريراً وافياً الى السردار بتاريخ ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٩٩ هذه ترجمتهُ :

واقعة ابي عادل واحمد فضيل في ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٩٩

« بناء على امركم لي بالخروج بسرية من الجيش على احمد فضيل والخليفة عبد الله في جهة «جديد» اتشرف بان اعرض لسعادتكم اني خرجت من القشاشوية (غربي ابا) في ٢١ نوفمبر الجاري الساعة ٤ بعد الظهر ومعي ٣٧٠٠ رجل من السواري والهجانة والبيادة والطوبجية فسرنا ٥ اميال الى الجنوب الغربي حتى كانت الساعة ٦ فاسترحنا الى الساعة ١٠ وكانت الليلة مقمرة فاستطردنا السير على ضوء القمر حتى صرنا على ١٥ ميلاً من ابا وكنا نسير والسواري في مقدمتنا على بعد ميلين منا والهجانة في الساقة والجناحين وقد رأى سوارينا عشرة فرسان من الدراويش فطردوهم ودلت الانباء في الطريق ان احمد فضيل غزا العلّوب فغنم منها مقدارًا كبيرًا من الحبوب وانقلب راجعاً الى الخليفة وكان اذ ذاك في نفيسة على مقربة منا . فلما طلع فجر ٢٢ نوفمبر تركت حملة الجمال في محل حصين وسرت بالعساكر سيرًا حربيًا قاصدًا احمد فضيل في نفيسة ولكن لم نسر الاّ القليل حتى عاد السواري واخبرونا ان نفيسة خالية من الدراويش فتقدمنا واحتللناها الساعة ٨ صباحاً فوجدنا فيها كمية كبيرة من الدرة ووجدنا رجلاً مريضاً قد تخلف من جيش احمد فضيل فاخبرنا انهُ خرج من نفيسة الفجر قاصدًا ابا عادل على ٥ اميال منا . فارسلت اليوزباشي محمود افندي حسين مع بعض الفرسان لتحقيق الخبر فعاد بعد قليل مصدقًا لهُ فخفت اني اذا تمهلت يستطرد احمد فضيل السير جنوبًا ويفلت من يدنا فجرّدت عليهِ حملة بقيادة الكولونل ماهون مؤلفة من السواري والهجانة والعساكر السودانية غير النظامية ومعهم اربعة مدافع مكسيم ومدفعا ميدان وامرتهم أن يسرعوا في المسير اليهِ ويناوشوهُ الى ان ادركهم بباقي السرية فاتمّ الكولونل ماهون الامر بمهارة تامة ولما صار على ٣٠٠ يرد من ابي عادل أتى تلة تشرف على معسكر الدراويش فاشعل فيهم ناره . وكنت بعد خروج الكولونل ماهون قد ارسلت باقي الطوبجية والمكسيم في أثرهِ وسرت وراءهم بالبيادة سيرًا حثيثًا فوصلت في الساعة المطلوبة وقد هاجم الدراويش مستقتلين وكانت حزون الارض التي بيننا وبينهم

تحجبهم عنا حتى صاروا على ٦٠ بردًا منا ولكن نيران الطوبجية والمكسيم والهجانة الدائمة حصدتهم حصدًا وردتهم على اعقابهم خاسرين . فتقدمت اذ ذاك بالسرية كلها الى معسكرهم في غابة كثيفة حول بركة ماء فخرجوا منهُ الى سهل يغطيهِ العشب فتعقبهم البيادة ميلاً ونصف ميل والسواري والهجانة ومدافع مكسيم خمسة اميال فقتلوا واسروا وغنموا . وقد قدرت خسارة الدراويش بنحو ٤٠٠ قتيل واما خسارتنا فكانت قتيلاً من العساكر واربعة جرحى فيهم اليوزباشي مصطفى افندي شاهين

واقعة جديد وقتل الخليفة عبدالله يوم الجمعة في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩

«وبعد الواقعة اصبح همنا محصورًا في معرفة مكان الخليفة فكانت اقوال المخبرين فيها مضطربة واقربها الى التصديق انهُ خرج من منهل الحمارة منذ ٣ ايام قاصدًا منهل جديد وانهُ ارسل احمد فضيل ليوافيهُ بالحبوب الى هناك ويسيروا كلهم شمالاً لغزو ام درمان وعليهِ خرجنا من ابي عادل نصف الليل فوصلنا منهل جديد الساعة ١٠ من صباح ٢٣ نوفمبر فوجدناهُ خاليًا ولكن لحسن الحظ وجدنا فيهِ بركة ماء صالحة للشرب ولولا هذه البركة لاضطررنا ان نرجع القهقرى . وكنت قد رجحت من اقوال الخبراء في ابي عادل ان مياه هذا المنهل غير صالحة للشرب فارسلت بعض الجمال للاستقاء من النيل ووجدنا في جديد رجلاً فارًا من الخليفة فاخبرنا انهُ معسكر بجيشهِ على نحو سبعة اميال الى الجنوب الشرقي من جديد فارسلت اليوزباشي محمود افندي حسين بكتيبة من فرسان العرب الهجانة ليكشف لنا خبرهُ ويعين مكانهُ فاتمَّ الامر بالاقدام والبسالة كما في المرة الاولى وعاد فاخبر ان الخليفة معسكر في منهل ام دبريكات على بضعة اميال منا . وقد تبين لنا ان احتلالنا لمنهل جديد اوقع الخليفة في مركز حرج جدًّا لانهُ لم يعد بسببنا قادرًا على المسير شمالاً ولا يستطيع ان يتركنا وراءهُ ويرجع جنوبًا بجموع من النساء والاولاد في قفرٍ وعرٍ لا ماء فيهِ وزد عليهِ انهُ كان في حاجة شديدة الى الحبوب التي اتى بها احمد فضيل واستولينا نحن عليها فلهذه الاسباب ترجح لنا انهُ يثبت حيث هو وكانت طريقنا في ارض شائكة وعرة مشتبكة الشجر حتى كنا في بعض الحال نفتحها بالفؤوس . ولما كانت الساعة ٣ من الصباح

اخبرنا الكشافة ان الدراويش على ثلاثة اميال منا وكان الكولونل ماهون قد استكشف معسكرهم بنفسهِ وعين موقعهُ ووقف بالسواري والمكسيم الراكبة عند هضبة عالية على نحو ميلين منا . فانتظم العساكر انتظام الحرب وسرنا بحذرٍ وهدوءٍ حتى لم يكن يسمع لنا صوت وفيما نحن كذلك سمعنا اصوات النقاقير وبوّقت الامبايه تبويق الحرب ثم سكتت بغتة . وفي الساعة ٣ والدقيقة ٤٠ وصلنا الى الهضبة التي وقف السواري والمكسيم عندها فابدلنا بكشافة السواري كشافة بيادة ومكثنا ننتظر بزوغ الفجر . فلما كانت الساعة ٥ والدقيقة ١٠ من الصباح وذلك عند اول طلوع الفجر رجع الكشافة البيادة الينا ورأينا صفوف الدراويش مقبلة نحونا من بعيد فاستعد العساكر على خط النار للقتال . وفي الساعة ٥ والدقيقة ١٥ بدأت المدافع والمكسيم باطلاق النار وتبعها البيادة فشرعوا كلهم في اطلاق النار دفعة واحدة وكان نور الفجر لا يزال ضعيفاً فلم نتمكَّن من مراقبة حركات الدراويش بالدقة ولكن رأينا من نيرانهم التي كانت تزداد من جهة الشمال انهم كانوا يتحركون نحو تلك الجهة بقصد مهاجمتنا من الوراء . فأخذ عساكر الميمنة يتحركون رويداً الى الامام وعساكر الميسرة يمدون خط النار الى جهة الشمال حتى بقي الدراويش تجاهنا ولم يمكنهم ان يدوروا من خلفنا كما أرادوا . وكان كلما انقشع الظلام وأضاء نور النهار زادت حركات الدراويش وضوحاً حتى رأيناهم يهاجموننا زمراً وهم يضجُّون بالتهليل والتكبير غير مبالين بالموت ولكن نيراننا التي كانت تنصب عليهم بلا انقطاع ردّت هجماتهم واخمدت نيرانهم وهزمتهم الى معسكرهم فأخذنا نتقدم رويداً ونحن نتصيد من نراهُ منهزماً امامنا حتى كانت الساعة ٦ والدقيقة ٢٥ فأمرت بايقاف النار فأتانا كثيرون منهم مستأمنين فأمّناهم . وما زلنا سائرين حتى أتينا معسكرهم فاذا هو في وسط غابة كثيفة على نحو ميل ونصف ميل من محل الواقعة وفيهِ الوف من النساء والاولاد وبعض الرجال فأتوا الينا مسلمين . واقتفى السواري والهجانة اثر الدراويش ولكنهم ما أبعدوا حتى علموا ان جميع الذين سلموا سلّموا الا بعض جهادية الختيم موسى فانهم حاربوا اولاً ثم سلّموا

﴿ القتلى والاسرى والغنائم ﴾ وبعد انجلاء الواقعة وجدنا في ساحة القتال

في طريق الاورطة التاسعة السودانية ثلة من القتلى في بقعة واحدة فسألنا الاسرى عنهم فقالوا انهم الخليفة عبد الله التعايشي والخليفة علي ود حلو واحمد فضيل والسنوسي احمد اخو الخليفة من امهِ وهارون محمد اخوهُ من جارية والصديق ابن المهدي ويعقوب ابو زينبه وحامد ود علي شقيق احمد ود علي وعبد الباقي عبد الوكيل وكلهم من التعايشة وبشير عجب الفيه أمير كنانة. ورأينا وراءهم على مسافة قريبة منهم جثث خيولهم. واخبرنا يونس الدكيم الذي وجد مختبئاً بين القتلى ان الخليفة عبد الله لما عجز عن الوصول الى الجيش أراد ان يدور حولهُ ولما لم يفلح نزل عن جوادهِ وامر امراءهُ فنزلوا عن جيادهم ايضاً ثم افترش فروتهُ وجلس عليها على عادة فرسان العرب في السودان فجلس الخليفة علي ود حلو عن يمينهِ واحمد فضيل عن يسارهِ وجلس باقي الامراء حولهُ حلقة وجعلوا حرسهم الخاص صفاً واحداً امامهم على ٢٠ يرداً منهم ومكثوا ينتظرون الموت بجنان ثابت فلما رأيتهم على تلك الحالة أمرت اهلهم الذين وقعوا في الاسر فحفروا لهم حفرة في المكان الذي قتلوا فيهِ ودفنوهم فيها امامي »

(قلت وكان وتسن بك أول من رأى الخليفة مقتولاً في ساحة القتال فنزع عنهُ جبتهُ وسيفهُ قبل دفنهِ وأتى بهما الى مصر ورأيت الجبة فاذا هي ملطخة بالدم ومخرقة بالرصاص وقد وجد في جيبها كيس صغير فيهِ صور التحارير التي ارسلها الى مشايخ البلاد بعد فراره من ام درمان يحثهم على الانضمام اليهِ . ورأيت السيف فاذا بهِ سيف قديم مكتوب على جانبٍ منهُ اسم صاحب السيف وهو الشيخ ناصر ابن الوزير المرحوم الشيخ محمد السلطان وعلى الوجه الآخر : يا رب بهم وبآلهم عجل بالنصر وبالفرج وهب لي يا وهاب علماً وحكمة وللرزق يا رزاق كن لي مسهلاً

ومهما يكن من ظلم الخليفة واستبدادهِ لا يسع الانسان الا الاعجاب بالشهامة وثبات الجأش اللذين لاقى بهما منيتهُ. وقد حدثني من شهد واقعة احمد فضيل انهُ رأى رجلين ربطا يديهما معاً عند رسغيهما بوثاق وتعاهدا على ان يهجما معاً فينتصرا او يسيرا الى الجنة يداً بيد وهذا ما يعرف عندهم بعقد الطرف والى ذلك يشير شاعرهم بقولهِ:

يا اخوات البنات تعالوا اوصيكم   واودعكم نبياً لا يخون فيكم

اعقدوا الطروف ما تجونا بقفيكم الموت في الخلا وفي الحلة راجيكم

قال السير رجينلد ونجت « ولما شاع خبر موت الخليفة سلم من لم يكن قد سلم بعد فاجتمع عندنا من الاسرى نحو ٣٠٠٠ رجل و٦٠٠٠ من النساء والاولاد بينهم ٢٩ اميرًا من اكبر امراء المهدية واهمهم عثمان شيخ الدين ابن الخليفة و يونس الدكيم والختيم موسى وفضل الحسنه واسماعيل اخو الامير محمود (فأرسل هؤلاء مع الامير محمود ومحمد الزين وغيرهما الى سجن رشيد ثم نقلوا الى سجن دمياط ولا يزالون فيهِ)

« وكانت خسارتنا في هذه الواقعة (التي عرفت بواقعة جديد) ٣ قتلى و ٢٣ جريحًا فيكون مجموع خسارتنا في الواقعتين ٦ قتلى فيهم ضابطان و٢٧ جريحًا من العساكر وأما خسارة الدراويش فقد قدرت بنحو ١٠٠٠ قتيل وجريح و٩٤٠٠ اسير من الرجال والنساء والاولاد » « وغنم الجيش ٣٥ جملاً و٥٠ حمارًا و ١٨٠ بقرة و٣٠٠ راس ماعز ونحو ٣٠٠٠ بندقية و٢٠٠٠ سيف وحربة و٢٠٠ اردب غلة

« وفي الختام أمرّ بان اشهد بالبسالة والاقدام وثبات الجأش التي اظهرها العساكر في الواقعتين فان اهمية الاسراع في ضرب احمد فضيل والاستطراد الى ضرب الخليفة اوجبا متابعة السير آناء الليل واطراف النهار في ارض وعرة بلا راحة او براحة لا تذكر . وقد قام العساكر بهذا الواجب ولم يبالوا بما لقوهُ من المشاق والاخطار فانهم من الساعة ٤ بعد ظهر ٢١ نوفمبر الى الساعة ٧ من صباح ٢٤ من الشهر المذكور اي في مدة ٦٣ ساعة قطعوا مسافة ٥٧ ميلاً وواقعوا العدو في واقعتين وخرجوا ظافرين . وما اظن قائدًا يلقى من ضباطهِ وعساكره مساعدة حقيقية مخلصة كما لقيت من الضباط والعساكر الذين اسعدني الحظ بقيادتهم . وانا اصدق الترقيات التي جاءتني من القومندانات للضباط والصف ضباط والعساكر الذين امتازوا في الخدمة واتشرف بان اعرض اسماء الذين امتازوا في هاتين الواقعتين .... » اه

ثم ذكر اسماء الضباط الانكليز والمصريين الذين امتازوا في الخدمة وكان في جملة الضباط المصريين : البكباشي احمد افندي حافظ من الطوبجية . والصاغ محمود افندي صادق من الهجانة . واليوز باشيون محمود افندي بهجت اركان حرب ومصطفى

افندي شاهين من الهجانة واحمد افندي عوني من الاورطة الثانية ٠ وعبد الله افندي روميه من الاورطه التاسعة وعبد الرحمن افندي رضى من الاورطة الثالثة عشرة ٠ ومحمد افندي طلعت واسماعيل افندي كامل وحسن افندي عطيه من الحملة فكوفئوا جميعاً

وحضر هذه الواقعة من الملكية شاهين افندي جرجس وابرهيم افندي ديمتري وكلاهما من موظفي المخابرات فاظهرا فيها من الهمة والنجدة والاقدام ما اظهراهُ في الوقائع السالفة التي حضراها فسرّ السر رجينلد من سلوكهما واوصى بترقيهما فأنعم على شاهين افندي بالرتبة الثانية مع لقب بك ثم سمي سكرتير السردار العربي ولا يزال في هذه الوظيفة الى الآن ٠ ومنح ابرهيم افندي النيشان المجيدي الرابع ثم سمي سكرتيرًا لمفتش السودان العام ولا يزال

وكان السردار قد وعد بجائزة ١٠ آلاف جنيه لمن يلقي القبض على الخليفة فوزعها على عساكر هذه التجريدة ٠٠ وقد دلت اعمال السر رجينلد ونجت في هذه التجريدة على صفات عسكرية عالية كما دلت على همة بالغة الحد وحزم ودربة واقدام فجاءت اجمل ختام لمآثره الحسان في استرجاع السودان وحملت دولتهُ على ترقيتهِ الى المركز الذي اعد نفسهُ اليهِ فما اشتهر حرب الترنسفال حتى ندب اللورد كتشنر اليها وسمي السر رجينلد ونجت باشا سردارًا على الجيش المصري وحاكماً عاماً على السودان وذلك في ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٩٩ وقد رقي في الجيش المصري الى رتبة فريق وفي الجيش الانكليزي الى رتبة ماجور جنرال محلي ثم رقي حديثاً الى رتبة ماجور جنرال وهو لم يتجاوز الثالثة والاربعين من العمر

ولقد كانت واقعة جديد الضربة الاخيرة القاضية على الخليفة والمهدية وختام الوقائع التي انقذت السودان من بلاء شديد حاق بهِ مدة ١٧ سنة متوالية فأهلك نحو ٣/٤ اهله واراحت مصر من نفقات الحروب الباهظة واعادت اليها بلادًا واسعة الاطراف كثيرة الخيرات جزيلة النفع ٠٠ وقد قدرت نفقات استرجاع السودان بنحو ٢٣٥٤٣٥٤ جنيهاً مصريًا منها ١١٨١٣٧٢ جنيهاً على سكة الحديد من حلفا الى الكرمة والى الخرطوم و٢١٨٢٥ على التلغراف و ١٥٤٩٣٤ جنيهاً على الوابورات الحربية و٩٩٦٢٢٣ جنيهاً

نفقات عسكرية . مع ان نفقة الحملة الانكليزية وحدها كانت ١٥مليون جنيه واكثر

قتل الخليفة شريف وابنى المهدى في شكابة في ٢٧ اوغسطوس سنة ١٨٩٩

تقدم ان الخليفة شريفاً سلم للحكومة قرب جزيرة ابا في اواسط نوفمبر سنة ١٨٩٨ ومعهُ الفاضل والبشرى ابنا المهدي فأمنهم السردار وارسلهم الى حلفا فبقوا فيها مدة ثم استأذنوا السردار فسكنوا في شكابة على ٤٠ ميلاً من سنار وهناك عاد الخليفة شريف الى قراءة راتب المهدي وشرع في جمع الناس بنية اللحوق بالخليفة عبد الله وذاع خبرهُ في الجزيرة حتى وصل فرج افندي شحاده باشكاتب مديرية سنار فأبلغهُ سمث بك مفتشها فسار في ٢٦ اوغسطوس مع بلوك من الاورطة الـ ١٥ السودانية بقيادة البكباشي و ب واليوزباشي محمد افندي شفيق وجماعة من البوليس واحاطوا بشكابة صباح اليوم التالي فقبضوا على الخليفة شريف والفاضل والبشرى ابني المهدي وكانت شكابة مملوءة بالمقاتلة فحاولوا تخليصهم من الجنود عنوةً وجرحوا ٣ منهم فاشعل العساكر فيهم النار فقتلوا منهم ١٧ رجلاً واسروا ٥٥ وحوكم الخليفة شريف والفاضل والبشرى ابنا المهدي في مجلس عسكري وقتي فأعدموا رمياً بالرصاص

اسر عثمان دقنه في ١٨ يناير سنة ١٩٠٠

أما عثمان دقنه فانهُ لما رأى الجيش في جديد متغلباً على الخليفة اسلم نفسهُ للفرار شأنهُ في كل واقعة لم يظفر بها وكان اذا سئل في ذلك يقول «اني ابذل كل ما في طاقتي قبل الحرب لجمع الانصار وحثهم على الجهاد واقاتل العدو بجنان ثابت وعزم وطيد حتى اذا ما ظفر بجيشي لجأت الى الفرار لا حباً بالفرار او خوفاً من الموت ولكن هرباً من الوقوع في أسر الكفرة فاني أريد أن اعيش لاقهرهم واجمع رجالي مرة اخرى وأعود الى حربهم حتى اجد فيهم الفرصة» . أما الآن وقد فلَّ جيش المهدية ولم يبق في السودان من ينصرهُ فقد عوّل على الفرار الى الحجاز والاحتماء بمكة فعبر النيل الابيض عند جزيرة ابا ثم النيل الازرق ثم الاتبرة عند أدارامه وأتى الى جبال ورّيبه فنزل عند الشيخ محمد علي عمر اور شيخ الجميلاب واخبرهُ بعزمهِ على الفرار الى الحجاز وسألهُ أن يساعدهُ على اكتراء قارب لهُ من احدى مين البحر الاحمر البعيدة

عن المدن فرحب شيخ الجميلاب بهِ ووعده باجابة سؤلهِ واضمر لهُ السوء فأرسل سرًّا الى الحكومة بسواكن يخبرها بوجوده عنده فاستأذن حاكم سواكن السردار وأرسل البكباشي برجس مفتش المديرية بنفر من الجيش والبكباشي محمد بك احمد قومندان بوليس سواكن الى الشيخ محمد علي اور فدلهم على مخباء عثمان فوجدوهُ تحت حجر من حجارة الجبل فقبضوا عليهِ ووجدوا معهُ جرابًا فيهِ قليل من الدوم وكان لابسًا جبة وعلى رأسهِ عمامة فوضعوهُ بالحديد وقفلوا راجعين الى سواكن وذلك في ١٨ يناير سنة ١٩٠٠ فوصلوا سواكن في ٢١ من الشهر المذكور بعد الظهر ثم أُتي بهِ الى مصر القاهرة فرأيناه فيها بعد ظهر ٢٧ من الشهر المذكور وفي اليوم نفسهِ ارسل الى سجن رشيد فجعل مع أسرى الدراويش ثم نقل الاسرى الى دمياط فنقل معهم وهو لايزال هناك الى اليوم ٭ وقد حصل لهُ في هذه الاثناء جذب ديني فأغمض عينيهِ ومنع نفسهُ عن الكلام والاكل فلا يأكل الاَّ اذا أمرهُ قومندان السجن فيشرب فنجانًا من اللبن بلقمة من العيش ولكنهُ لا يتكلم مطلقًا ويقضي وقتهُ كلهُ نائمًا

بدعة علي عبد الكريم الدنقلاوي اوائل سنة ١٩٠٠

وفي أوائل سنة ١٩٠٠ ظهر رجل من اقارب محمد احمد المهدي يسمى على عبد الكريم (شقيق محمد عبد الكريم المشهور) فابتدع بدعة غريبة في الاسلام ادّعى فيها انهُ من يوم واقعة ام درمان انتهت اعمال « التكليف » ولم يعد احد مطالبًا بما يفعل فمن كتبت لهُ السعادة فقد سعد ومن كتب لهُ الشقاء فقد شقي سواء فعل خيرًا ام شرًّا وقد نهى انصاره عن الصلاة والصوم فغنى لهُ بعض شعرائهم بقوله : جيت لنا بالخير بطلت لنا الصلاة « ام دنقير » وعلمهم ان يسلموا هكذا: الحمد لله فيجيبهُ الثاني في رضاء الله ٭ ولما بلغ امرهُ الحاكم العام عقد مجلسًا من علماء الخرطوم وفقهائها للنظر في امرهِ وهم السيد ندا قاضي ام درمان والطيب احمد هاشمي قاضي الخرطوم والاستاذ محمد شريف باشا نور الدايم والسيد محجوب المرغني والسيد المكي والشيخ محمد البدوي والشيخ مدثر ابراهيم والسيد اسماعيل الازهري فأصرّ على اعتقادهِ امامهم فظهر لهم ان في عقلهِ خللاً ونصحوا بنفيهِ هو واتباعهُ من الخرطوم

فصدق الحاكم العام الحكم ونفاهم الى حلفا في ٤ مارس سنة ١٩٠٠ ولا يزالون فيها الى الآن

احتلال كردوفان سنة ١٨٩٩ : ١٩٠٣

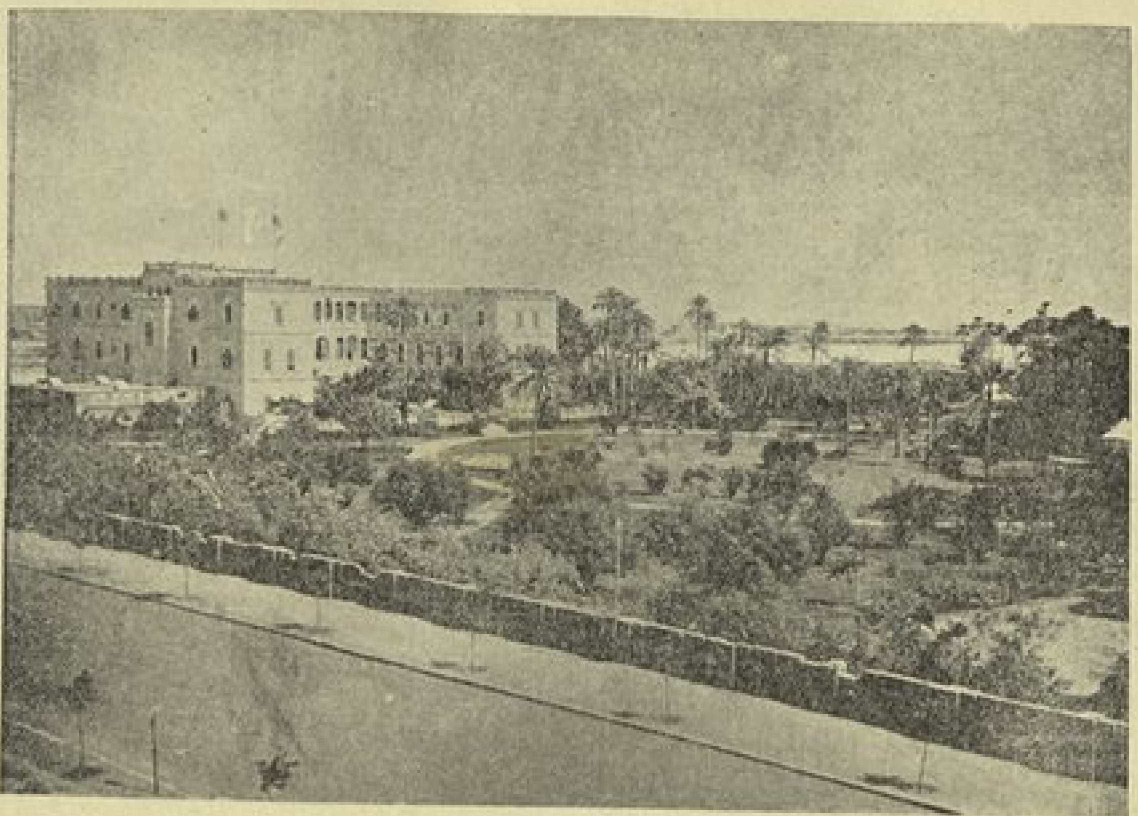
﴿ تعمير البلاد ﴾ وبعد قتل الخليفة عبد الله في جديد تحولت انظار الحاكم العام الى احتلال كردوفان فأرسل اليها الكولونل ماهون بفرقة من الهجانة فاحتلها في ١٧ ديسمبر سنة ١٨٩٩ ونشر الحاكم العام الحالي منشورًا عامًا الى اهالي مديرية كردوفان المنتشرين في الجزيرة وغيرها من بلاد السودان يدعوهم الى الرجوع الى بلادهم وقد ساعدهم على الانتقال اليها وامدّهم التقاوي اللازمة لزرعها فعادوا اليها وشرعوا في تعميرها

﴿ مهدي جبال تقلي وشنقهُ في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٠٣ ﴾ وفي هذه الاثناء ظهر في جبال تقلي رجل ادعى المهدية والكرامات والشرف اسمهُ محمد الامين فصدق بهِ ملك تقلي وجماعة من اخلاط الناس واشتهر امرهُ حتى بلغ الابيض في اول سبتمبر سنة ١٩٠٣ وكان مدير الابيض ماهون باشا في طريقهِ الى الخرطوم ذاهبًا بالاجازة وقد ناب عنهُ اوكنل بك وكان السردار والحاكم العام بالاجازة في بلاد الانكليز ونائبهُ في الخرطوم اللوا ناسون باشا فعند وصول ماهون باشا في ٦ سبتمبر الى الخرطوم حتم ناسون باشا بوجوب القبض على المدعي في الحال وتلافي الخطر في حينهِ فاستأذن السردار تلغرافيًا فخرج الكولونل ماهون من الخرطوم بكوكبة من الفرسان يرأسها البكباشي الباسل شحاته افندي كامل في ٨ سبتمبر وسار بها سيرًا حثيثًا بطريق فششوية وشركيله وأبي ركبه فباغت المدعي واشياعهُ سحرًا وهم يصلون الصبح في ١٢ سبتمبر في حلة على ٣٥ ميلاً من ابي ركبة فأسرعوا الى حرابهم ولكنهم لما رأوا انهم محاطون من الجهات الاربع سلموا فشد ماهون باشا وثاقهم وساقهم الى الابيض وهناك حوكم المدعي بمجلس عسكري وشنق عصارى الاحد في ٢٧ سبتمبره والرجل مربوع القامة اسود اللون غليظ الشفتين ذو عينين نجلاوين ولحية صغيرة وشعر اسود جعد وعمره ٤٥ سنة ولما جيء بهِ الى المشنقة كان مرتديًا فوق اللباس العادي برنسًا من الجوخ الاخضر النفيس بقبعة على الزي التونسي ولكنهُ برناوي الاصل في الارجح وكان رحالة يضرب في الآفاق فزار دمشق الشام وازمير ومراكش وغيرها من

البلاد الشرقية وزار الابيض غير مرة فلقي من اعيانها اكراماً وحفاوة وذهب الى الحجاز لاداء فريضة الحج وعاد متهاقريا بطريق مصوع وكسلة وبقي الى ان ظهر في جبال تقلي

دارفور والامير علي دينار سنة ١٨٩٨ الى الآن

أما علي دينار فقد مرَّ انهُ فرَّ من واقعة ام درمان بنفر من اهلهِ واخصائهِ وفيهم الامير قمر الدين البرتاوي من امراء الارباع والفقيه امين الفلاتي وهو من رجال السلطان ابراهيم الذين اشتهروا بالصلاح والتقوى وسداد الرأي وقد كان عند الخليفة اميناً للجبخانة فسار بهم الى الترعة الخضراء وكان فيها قطيع من ابل الخليفة فأخذهُ وتقدم الى كجمر فاقام فيها ٨ ايام الى ان تكامل الفارون من اهل دارفور من عرب وسود فسار بهم الى الفاشر ٠ وكان محمود قد ترك فيها حامية مؤلفة من ٣٠٠ رجل بقيادة امبدى الرضي التعايشي وحامية في كبكبية مؤلفة من ٥٠ بندقية بقيادة سنين التاماوي فطرد علي دينار امبدى الرضي من الفاشر واحتلها مكانهُ وطرد سنين بعد وقائع جمة الى دار تامة ٭ وكان قد لجأ الى السردار من جيش محمود سنة ١٨٩٧ رجل من سلالة سلاطين الفور يُدعى ابرهيم علي فأذن لهُ السردار قبل الحملة على أم درمان ان يذهب الى دارفور ويجمع كلمة اهلها على طاعة الحكومة ولكنهُ لم يصل أم شنقه حتى كانت واقعة أم درمان وأتى علي دينار الى الفاشر وطرد امبدى الرضي كما مر فانضم الى ابرهيم علي في ام شنقه ٠ وعد علي دينار دخول ابرهيم علي تعدياً على حقوقهِ بحجة انهُ احق منهُ بحكم دارفور فجرَّد عليهِ جيشاً وغلبهُ فبعث ابرهيم علي يطلب المدد من السردار فكتب السردار كتاباً الى كل منهما يوفق بينهما الى ان يتسنى للجيش الذهاب الى دارفور لاحتلال البلاد ٠ ورأى ابرهيم علي ان لا طاقة لهُ على مناواة علي دينار فرجع الى ام درمان وكتب علي دينار الى السردار بالطاعة وانهُ يحكم البلاد على جزية يدفعها لحكومة السودان ولا يزال يرسل الجزية كل سنة الى الآن ٭ وقد اسس حكومتهُ على مثال سلطنة اجدادهِ وصنع ختماً للسلطنة كخاتم اجدادهِ هذه نقشهُ : السلطان علي دينار ابن السلطان زكريا ابن السلطان محمد الفضل ابن السلطان عبد الرحمن الرشيد ابن السلطان بكر سنة ١٣٠٠ هـ



سراي الخرطوم سنة ١٩٠٢

الباب الخامس

خاتمة

في

السودان المصري الانكليزي

ولاية اللورد كتشنر اوف خرطوم على السودان سنة ٨ : ١٨٩٩

عرف السودان الذي فيهِ كلامنا « بالسودان المصري » الى ان كانت واقعة ام درمان ورفعت الرايتان الانكليزية والمصرية على سراي الخرطوم في ٨ سبتمبر سنة ١٨٩٨ فعرف « بالسودان الانكليزي المصري» وعقد وفاق بين الحكومة الانكليزية والحكومة المصرية بتاريخ ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ نشرناهُ في باب الجغرافية مؤدّاهُ جعل البلاد في يد حاكم عام يختارهُ الانكليز ويؤيدهُ الجناب العالي الخديوي فيحكم البلاد بقوانين وشرائع يسنها من وقت الى آخر حسب حاجة البلاد وحالتها ويصدقها معتمد الدولة البريطانية ومجلس النظار في مصر . وفيهِ انهُ ليس للمحاكم المختلطة سلطة في السودان الا في سواكن فانهُ بقي لتلك المحاكم سلطة الى ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ اذ عقد وفاق آخر بين الحكومتين أُلغيت بموجبهِ تلك السلطة واصبحت سواكن كسائر بلاد السودان في جميع الاحكام

وفي تاريخ الوفاق الاول سمي اللورد كتشنر اوف خرطوم سردار الجيش المصري حاكماً عاماً على السودان فشرع في تجديد بناء سراي غوردن وتأسيس مدرسة غوردن التي جمع لها المال من المحسنين الانكليز كما مرّ . وبعد قتل الخليفة عبدالله ارسل ماهون باشا فاحتل كردوفان واعلن افتتاح السودان رسمياً للناس كافة

﴿ ولاية الماجور جنرال الفريق السر رجينولد ونجت باشا سرداراً ﴾
﴿ على الجيش المصري وحاكماً عاماً على السودان ﴾

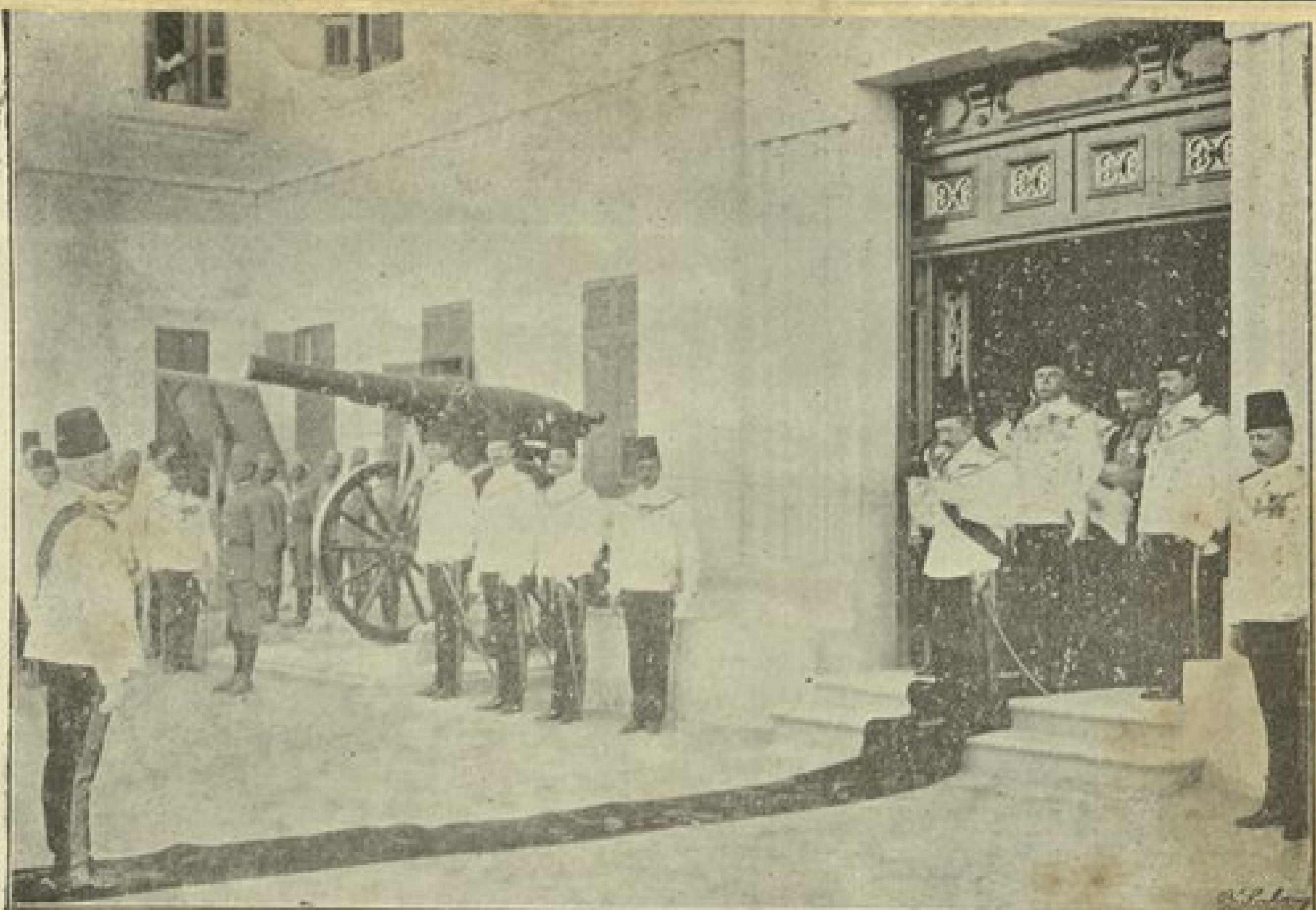
وفي ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٩٩ ندب اللورد كتشنر لحرب الترنسفال وسمي اللوا السر رجينلد ونجت باشا الادجوتانت جنرال سرداراً على الجيش المصري وحاكماً عاماً على السودان ولا يزال الى الآن فكان اهمّ ما جرى في ايامهِ الى هذا العهد: القبض على عثمان دقنه وقمع بدعة علي عبد الكريم وقتل محمد الامين مهدي جبال تقلي واحتلال بحر الغزال كما فصّلناهُ في محلهِ . وهو باذل اقصى الجهد في تنظيم ادارة البلاد واصلاح شؤونها الزراعية والصناعية والتجارية والادبية وسن القوانين الملائمة لاحوالها . وقد عقد الاتفاقات بين السودان والقوات المحيطة بهِ لتبادل المنافع التجارية وانهى لاول مرة تحديد التخوم بين السودان والحبشة في ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ واستعان على اعمالهِ الهامة بالاكفاء من موظفي الانكليز والمصريين كما مرَّ

⇜ تسمية اللورد ادوارد سسل وكيلاً عاماً لحكومة السودان في مصر ⇝

ولما دُعي الكونت كليخن وكيلهُ في مصر ليكون مندوباً عسكريّاً للدولة البريطانية في برلين في ١٥ اوكتوبر سنة ١٩٠٣ أُلقي مقاليد هذا المنصب الهام الى فرع سلالة سسل الشريفة النبيل اللورد ادوارد سسل المشار اليهِ آنفاً وقد رقاهُ في الجيش المصري الى رتبة لواوجعلهُ وكيلاً عاماً للسودان على جميع المهام العسكرية والملكية في مصر

⇜ جريدة «السودان» في الخرطوم ⇝

وفي اوائل سنة ١٩٠٣ منح الدكتور فارس نمر وشركائهِ الاجلاء امتيازاً بنشر جريدة في الخرطوم باسم «السودان» فوكلوا ادارتها وتحريرها الى الكاتب الاديب المتفنن خليل افندي ثابت من متخرجي المدرسة الكلية السورية النابغين فأصدر مثالاً منها في ٢٤ سبتمبر ١٩٠٣ ثم شرع في اصدارها تباعاً مرتين في الاسبوع فصدر منها الى الآن بضعة اعداد دلّت على انها ستكون من أسمى الجرائد العربية شأناً واجملها عبارة واجزلها نفعاً ومن اجل الوسائط التي بُذلت لتقدم السودان وتمدينهِ ان شاء الله



عباس باشا حلمي الثاني الخديوي

والفريق السر رجينلد ونجت باشا سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام يخطبان امام سراي الخرطوم

زيارة الجناب الخديوي السودان سنة ١٩٠١

وفي اواخر سنة ١٩٠١ شرَّف الجناب العالي الخديوي السودان بزيارته فوصل الخرطوم في ٣ ديسمبر سنة ١٩٠١ حيث استقبل استقبالاً باهرًا . وفي اليوم التالي اي في ٤ ديسمبر الساعة ٣ بعد الظهر قدَّم سعادة السردار وحاكم السودان العام خطبة الترحيب بسموهِ وذلك في وسط حفلة حافلة امام سراي الخرطوم حضرها جميع الضباط العظام وكبار الموظفين الملكية ونخبة علماء البلاد واعيانها وهذه هي ترجمة الخطبة :

« مولاي سمو الخديوي المعظم

«نحن سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام وضباط وصف ضباط وعساكر جيش سموكم المعظم مع الموظفين العسكريين والملكيين والعلماء والعمد والمشايخ والاعيان في السودان وعموم سكان السودان نسرّ بأن نقدّم مع شعائر الولاء والاخلاص هذا الخطاب ترحيباً بتشريف سموكم المرة الاولى للسودان :

«لقد نلنا اعظم الشرف بأن سموكم تجشمتم السفر الطويل الشاق من مصر لقضاء بضعة ايام في الخرطوم عاصمة السودان التي خرَّبها الاشقياء الذين شقوا عصا الطاعة لحكومة سموكم بعد ان كانت عامرة زاهرة وهي الآن تتدرج في الحضارة والعمران على مبادئ نؤمل ان ترقى بها رويدًا حتى تصير عاصمة فاخرة ومركزًا مهماً لتجارة السودان . وقد مضى الآن ثلاث سنين على انتشالها من يد ذلك الطاغية عبد الله التعايشي ببسالة جيش سموكم وجنود المملكة البريطانية العظمى

«أما وجود سموكم بيننا فقد ملأ قلوبنا مسرَّة وابتهاجاً فبالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن جميع الحاضرين هنا اليوم والغائبين عنا في جهات السودان البعيدة الذين تمنعهم واجباتهم الهامة عن الحضور لتقديم واجب الترحيب والتعظيم لسموكم نتمنى لسموكم حياة مديدة مقرونة بالسعادة والفخار ونسأل الله تعالى ان يبث في انحاء بلاد سموكم طولاً وعرضاً روح الفلاح والسلام (فليعش افندينا)

فتكرم الجناب العالي وفاه بالخطاب الآتي الذي ضمنهُ خطة حكومة سموهِ في السودان قال :

« يا سعادة السردار وحاكم السودان العام ويا حضرات الضباط والعساكر والموظفين وعلماء ومشايخ واعيان واهالي السودان كافة

« اني اشكر لكم الخطاب الذي حيتموني بهِ وأؤكد لكم باني أعد من اعظم مسرّاتي رؤيتي اياكم في هذه البلاد الشاسعة التي قرَّبتها منا سكة الحديد العجيبة التي ملأتني ارتياحاً وابتهاجاً

« الآن وقد رأيت هذه البلاد عرفت الصعوبات والمشقات التي لاقاها من كانت لهم يد في الحملات التي كانت نتيجتها محو سلطة عبد الله التعايشي واعادة العدل والراحة والسكون في جميع انحاء السودان

« العلمان الانكليزي والمصري اللذان يخفقان الواحد بجانب الآخر هما اشارة الى الحكومة المشتركة التي اخذت على عاتقها حماية الاهالي من الوقوع في شرك اهل الظلم والفساد وابتداء عصر هدوٍ وسعادة في هذه الديار

« ولقد سرَّني ايضاً ما أشاهدهُ من تقدم مدينة الخرطوم في العمران واعتقدوا اني سأحفظ لكم احسن ذكرى لاحتفائكم بي في هذه الزيارة الاولى ٠ واني ليشملني السرور كلما سمعت بتحسين احوالكم وتقدمكم في الرفاهية التي ارى شواهدها بدت في كل الارجاء.

هذا واني أنعم الآن بكل ارتياح ببعض النياشين على بعض كبار علماء الدين وسأنعم بها فيما بعد على الضباط والموظفين والاهالي الذين يعرض لي عنهم سعادة السردار والحاكم العام بناء على التقارير السنوية التي ترد لهُ من المديريات

« ثم اكرر شكري لاحتفائكم بي احتفاء صادرًا عن حسن نية وخلوص طوية اه »

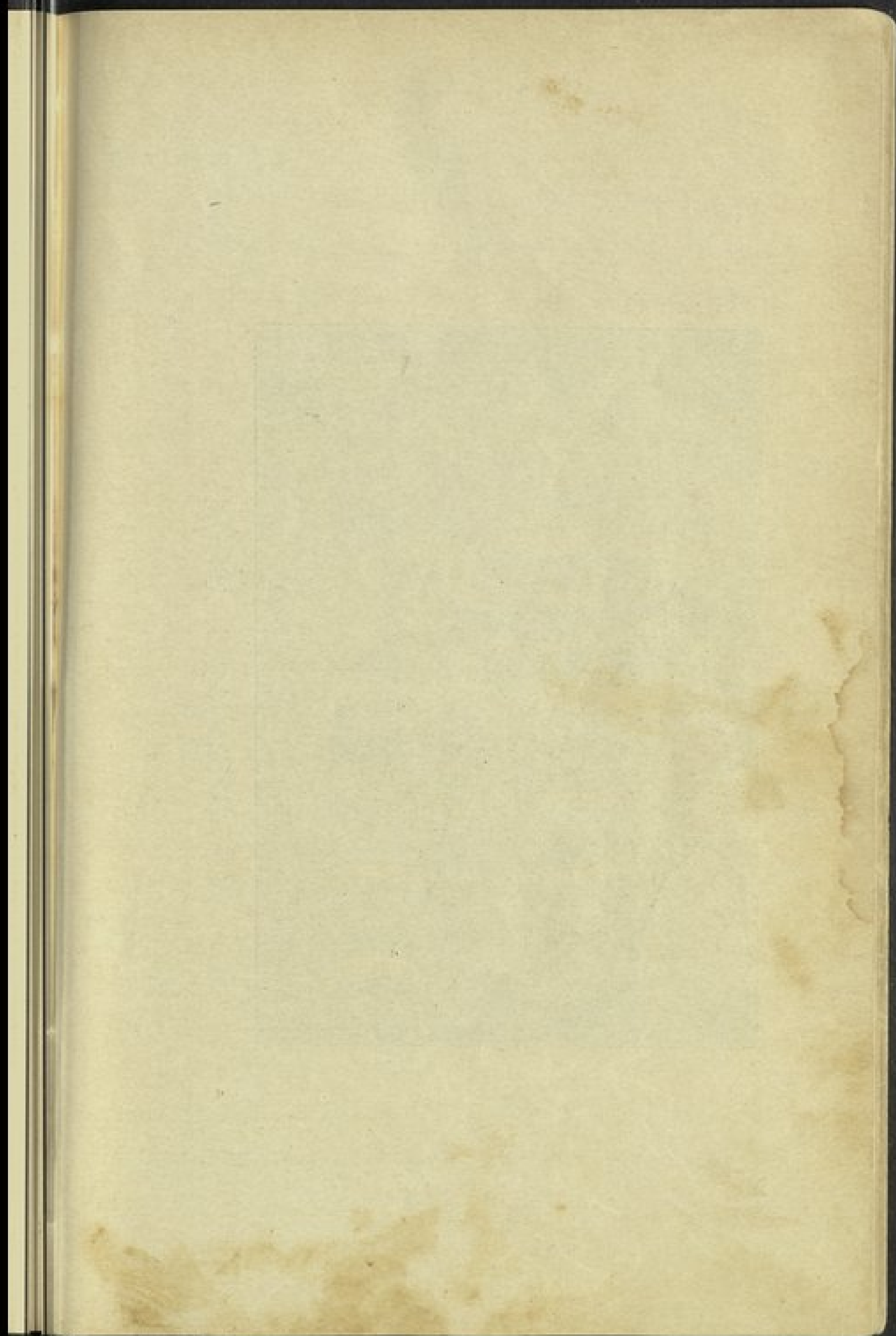
وصعد سموهُ في النيل الابيض مسافة ثم في النيـل الازرق فشاهد خرائب سوبه وعاد الى الخرطوم فبرحها الى مصر باليمن والاقبال في ٧ ديسمبر سنة ١٩٠١

زيارة اللورد كتشنر الخرطوم وافتتاح كلية غوردن في ٨ نوفمبر سنة ١٩٠٢

وخرج اللورد كتشنر اوف خرطوم ظافرًا من حرب الترنسفال فسمي قومندانًا عامًا على الجنود في الهند فعرَّج في طريقهِ الى الخرطوم وافتتح كلية غوردن في ٨ نوفمبر سنة ١٩٠٢ وذلك باحتفال باهر حضرهُ نحو ٥٠٠ تلميذ من ابناء البلاد وجمهور



﴿ اللورد كتشنر اوف خرطوم يفتتح كلية غوردن ﴾





اللورد كرومر

(معتمد الدولة البريطانية السياسي)

وقنصلها الجنرال في مصر

كبير من الموظفين والاعيان وقد رحب بهِ السردار وحاكم السودان العام بخطاب جميل فأجاب عليهِ احسن جواب وأمَّل للمدرسة في عهد حاكمها النبيل وعناية مديرها الهمام المستر كري كل ترقٍ ونجاح

زيارة اللورد كرومر للسودان سنة ١٨٩٩: ١٩٠٣

هذا ولما كان لجناب اللورد كرومر الشأن الاعظم في استرجاع السودان وكان هو النائب عن حكومتهِ فيهِ كما في مصر واليهِ المرجع في جميع شؤون السودان الهامة فقد عوَّل على زيارتهِ في كل سنة أو سنتين فزارهُ لاول مرة سنة ١٨٩٩ ثم زارهُ سنة ١٩٠٢ وزارهُ آخر مرة لهذا العهد في فبراير سنة ١٩٠٣ ٥ وفي المرة الثانية صحبهُ المستر غورست مستشار مالية مصر الشهير فرحب السردار وحاكم السودان العام بهما بخطاب جميل فأجابهُ اللورد كرومر بخطاب مشهور وهذان هما الخطابان :

﴿ خطاب السردار ٢٤ دسمبر سنة ١٩٠٠ ﴾ نحن سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام وضباط وصف ضباط وعساكر الجيش المصري وموظفي ادارتي الحربية والملكية وعلماء وعمد ومشايخ واعيان واهالي السودان كافة • بملء السرور نغتنم فرصة تشريفكم السعيد لهذه البلاد لكي نظهر لفخامتكم احترامنا الزائد لهذه الزيارة التي جدتم علينا بها والشرف الذي حصلنا عليهِ بوجودكم بيننا ممثلين لصاحبة الجلالة ملكة انكلترا وامبراطورة الهند وان العلمين البريطانيَ والمصريَ اللذين يخفقان الواحد بجانب الآخر في جميع انحاء السودان هما العلامة الخارجية الظاهرة الدالة على الاشتراك في حكم سعيد وثيق العرى في شخص جلالة الملكة وسمو الخديوي المعظم المسؤولين عن حماية اهالي السودان من الظلم والفساد • ونؤمل ان التغييرات التي حصلت بعد زيارة فخامتكم لهذه البلاد منذ سنتين تدل دلالة كافية على ان بعض التقدم قد حصل في ترقية هذه البلاد وانهُ قد جعل لها نوع من النظام الاداري كافٍ لان يري الاهالي انهُ منذ قطع دابر المهدية دخلوا في عصر جديد اسعد كثيرًا من العصر الذي كانوا فيهِ • ونثق ان ما حصلتم عليهِ فخامتكم وحضرة المستر غورست من زيادة المعرفة والاختبار في سياحتكم هذه يمكّنكم من ان تعرضوا على الحكومة

ذات الشان - سواء كانت الحكومة الانكليزية أو المصرية - الوسائط التي نتوصل بها الى ترقية حالة البلاد . و بالنيابة عن جمع الحاضرين هنا اليوم الذين بينهم نواب مختارون من كل انحاء السودان نتمنى لفخامتكم عمرًا مديدًا مقرونًا بالصحة والشرف والسعادة والعزم لتستمروا في خدمة مليكتكم ولتساعدونا على ترقية شأن حكومة السودان التي تشترك فيها مصالح بريطانيا العظمى ومصر على السواء

﴿خطاب اللورد كرومر ٢٤ دسمبر سنة ١٩٠٠﴾ فنطق اللورد كرومر بالخطبة الآتية شاكرًا فقال : الى حضرات علماء السودان وعمده ومشايخه واعيانه وسكانه كافة

« اني اشكركم من صميم فؤادي خطابكم والترحيب الذي لقيته منكم عند زيارتي لهذه البلاد منذ سنتين اوضحت لحضراتكم انكم ستكونون في المستقبل تحت حكومة كل من جلالة ملكة انكلترا وسمو الخديوي المعظم . ولقد صدرت لي الآن اوامر خصوصية من صاحبة الجلالة مليكتي العظيمة التي تحكم في غير هذه البلاد على ملايين من المتدينين بدينكم الشريف لاعرب لكم عن مزيد اهتمام جلالتها بكل ما يؤول الى سعادتكم واني الآن باسم جلالتها سأقلد فردًا من اشرف اهالي السودان المسلمين وسامًا انكليزيًا نظرًا الى ما عرضهُ عنهُ سعادة الحاكم العام لجلالتها (وهو السيد علي المرغني ابن السيد محمد عثمان المرغني الشهير)

« ولقد تقدمت هذه البلاد كثيرًا منذ زيارتي الاخيرة لها وترون ان العهد الذي عاهدتكم عليهِ وقتئذٍ من جهة احترام دياناتكم وعوائدكم الدينية قد روعي كل المراعاة ولقد انشئت لكم المحاكم والمدارس وضربت على اطيانكم ضرائب خفيفة جمعت منكم على ما اظن بلا ظلم ولا اكراه وتمَّ وصول سكة الحديد الى الخرطوم ولي امل ان تكونوا قد اصبحتم مقتنعين بان حكامكم - سواء كانوا انكليزًا أو مصريين ولا اميز بينهم لأنهم مشتركون في العمل وعلى وفاق تام - ليسوا فقط ذوي مقدرة تفوق جدًّا مقدرة الحكام السالفين بل ان قلوبهم قد اشربت روح العدالة والرغبة الزائدة في كل ما من شأنهِ النفع العام لجميع الاهالي وهذا كلهُ لم يكن لهُ اثر حين كان ظلم الدراويش محيقًا بكم

«واني عالم حق العلم ان العمل لا يزال لازماً في امور كثيرة ولكن لا ينتظر ان يكون الاصلاح سريعا لداعي احوال السودان الخصوصية الحائلة دون سرعة النجاح وان اهم حاجات البلاد تمهيد طرق المواصلات واخشى ان يكون الامل ضعيفاً جداً في اقناع احدى الشركات ان تتكفل بمد خطوط حديدية الاَّ بشروط ثقيلة يتعذر قبولها بغير اجحاف بمصالح الذين يدفعون الضرائب من مصريين وسودانيين ولا يجب ان يذهب عن البال ان كل مشروع للأصلاح مهما كان مفيداً ومرغوباً في حد ذاته فمن اهم شروط اخراجهِ الى حيز القوة ان لا يزيد في ثقل الحمل المالي الذي تتحملهُ مصر عن السودان وان يبقى بهِ حمل السودانيين خفيفاً» ثم ان الامر الذي يجب تقديمهُ على كل امر آخر هو ان تكون الضرائب خفيفة فاذا كانت الحكومة نفسها تعنى بمد السكة الحديدية وجب ان يراعى فيه دخل الحكومة بالنسبة الى نفقاتها ودخل الحكومة لا يزال قليلاً محدوداً واهم شيء يقتضي مباشرتهُ قبل النظر في أي مشروع كان لمد سكة الحديد هو ان نصلح حالة السكة الحاضرة وذلك على ما بلغني من اعظم الثقات في هذا الفن يقتضي مبلغاً باهظاً من المال

«ولننتقل الآن الى موضوع آخر: بلغني ان اهل البلاد شكوا من قلة المراقبة الاوروبية في السودان . ولكن ليس الغرض استخدام عدد كبير من الاوربيين في هذه البلاد انما الامر الرئيسي ان يكون المنتدبون للخدمة اكفاء. وقد عُني بانتخابهم عناية تامة وفي الوقت نفسهِ اعلم ان الشكوى من قلة عدد الاوروبيين هي على نوع ما في موضعها. نعم ان الضباط الذين في الخدمة الملكية قد قاموا بواجباتهم الشاقة قياماً يستحق جزيل الشكر وذلك في اصعب الاحوال واحرجها مع قلة الوسائط التي لديهم واني أُسرُّ اذ قد سنحت لي الفرصة لأهنئهم على اعمالهم التي كانت مكللة بالنجاح ولكن يعوزهم مساعدون ولذلك انتخب بعض الانكليز الملكيـة وانتدبوا للخدمة تحت أوامر المديرين الحاليين ليكونوا النقطة الاساسية لحكومة السودان الملكية المستقلة . ولقد انتخب ايضاً للخدمة مهندس مائي وأؤمل ان مباحثهُ ستعود بالنفع العظيم ليس فقط على السودان بل على مصر ايضاً وانهُ يستطيع في حينهِ ان يقترح

اقتراحات جديرة بالاعتبار فيما يختص بتحسين نظام الري في بعض انحاء البلاد ولا سيما على النيل الازرق

ولا حاجة الآن ان اطيل الكلام في المواضيع تفصيلاً ولكن اعيد القول ان سروري كان عظيماً جدًا برؤيتكم اليوم هنا وأؤمل انكم تبذلون كل قواكم في عضد المساعي التي يسعاها سعادة السر رجنيلد ونجت النائب المحلي عن جلالة الملكة وسمو الخديوي المعظم هو وجميع الضباط المقتدرين الذين يجرون اوامرهُ في ترقية حال البلاد المادية والادبية

﴿ خطاب اللورد كرومر ٢٧ يناير سنة ١٩٠٣ ﴾ وهذا خطاب اللورد كرومر في زيارتهِ الثالثة للسودان القاهُ في احتفال باهر عدَّ لوداع الكبتن بيلي عند استقالتهِ من الجيش المصري . قال جناب اللورد بعد ان صدق ثناء السر رجنيلد ونجت على الكبتن بيلي :

« ولكني اودُّ ايها السادة ان يتسع لي مجال الكلام فأقول قبل رجوعي الى مصر لكم وللغائبين عنا بواسطتكم ان المساعي التي يبذلها جميع موظفي السودان من ملكيين وعسكريين في سبيل ادخال النظام والتمدن الى هذه البلاد لها عند حكومة جلالة الملكة وسواد مواطنيكم وعندي انا بالاكثر قيمة عظيمة وشأن رفيع

« كثيرًا ما يقال لنا نحن معشر الانكليز في هذه الايام اننا متأخرون عن غيرنا من الامم في امر التعليم وربما كان لهذه التهمة بعض الصحة ولكن للمسألة وجه آخر عسى ان لا يفوت نظر المنتقدين فان نتائج نسقنا الخصوصي في التعليم تظهر بأجلى مظاهرها في بلاد كالسودان . فالشاب الذي يتربى في احدى مدارسنا العمومية أو كلياتنا الحربية وينشأ على الاستقلال الذاتي والمسؤولية الشخصية هو الرجل القوي الحازم الذي لا يعول في الدنيا على احد لانهُ يتلقى في حداثتهِ تحت سماء الحرية مبادئ تضمن له مستقبلاً نيرًا كما هو خليق بفرد من افراد امة مستعمرة مجيدة فلا يكون آلة متحركة بل يكتسب من حيث لا يدري عوائد وطباعاً تؤهلهُ لان يتدبر ويعمل الفكرة ويأخذ على عاتقهِ مسؤولية الامور وبكامة ان يحكم بالعدل والحزم .

وامثال هؤلاء منتشرون الآن في جميع انحاء هذه البلاد من سواكن الى ما وراء الابيض ومن وادي حلفا الى اقاصي كوندكرو . ويمكنني ان اشهد مما شاهدتهُ بنفسي انهُ حيثما وجدوا نظر اليهم الاهالي على اختلاف طبقاتهم من همجييهم الى ارقاهم علماً كممثلي نظام يحول دون الظلم وسوء الادارة اللذين سادا في الماضي

« وهذه ايها السادة زيارتي الثالثة للسوادن بعد واقعة ام درمان التي حدثت كما تذكرون منذ اقل من خمس سنوات . ففي زيارتي الاولى لم يكن امل النجاح قوياً لان البلاد كانت في خراب محيق سواء كان لسبب الامراض او المجاعات أو الحروب الداخلية أو الخارجية حتى ان عدد السكان نقص اكثر من العشر كثيراً ولم يكن لجرثومة التمدن اثر فيها فكان من الضروري اذاً انشاء نظام مالي واداري مستكمل الشروط « وفي زيارتي الثانية لاحت لي تباشير المساعي الاولية التي بذلتها الحكومة الجديدة لمقاومة الصعوبات الهائلة التي كانت تلاقيها ولكن كان التقدم بحكم الضرورة بطيئاً جداً « والان عند زيارتي الثالثة ارى تقدماً عظيماً جداً في جميع الجهات والبرهان على صدق هذا القول يلوح للابصار ويستوقف المسامع في كل جهة فان الدلائل على زيادة الايرادات جليَّة والنفقات الآن تحت المراقبة الشديدة « وقد نمت التجارة بعود الامن . فاليونان الذين هم في مقدمة الامم التجارية — والذين يقال عنهم احياناً اقوال قاسية مع انهم اجمالاً عظيمو النفع — قد انشأوا متاجرهم في كل بلدة كبيرة « وبمساعي الكولونل فرند والكولونل ستانتن قد اصبحت الخرطوم مدينة جميلة منظمة بعد ان كانت تلالاً دارسة . وكذلك انتظمت الملاحة في النيل بهمة المستر بوند والمصلحة الطبية بمساعي الكولونل بنتون . وانتشرت المعارف بعناية المستر كري . ويسعى المستر بونهام كارتر بالحكمة اللازمة في ادخال نظام بسيط للمواد المدنية والجنائية حسبما تقتضيه حالات البلاد

« وقد صعدت هذه المرة في النيل الابيض حتى كوندوكرو مع السردار وزرت عدة مراكز عسكرية من غير موعد سابق فوجدت كل شيء فيها بغاية الترتيب والانتظام كانهُ قد أُعلن لها من قبل اني آتٍ لمشاهدة احوالها « اما اهالي تلك الجهات فانكم

تعلمون ان التكلم بلغة الشلوك او الدنكا او الباري امر شاق ولكني كيف التفت كنت اری دلائل الرضی والاطمئنان بادية على وجوههم وقد علم هؤلاء المساكين ان الاجانب الذين يزورون بلادهم اليوم ليسوا من النخاسين بل من اشد المقاومين للنخاسة

«واسمحوا لي ان اعرب لكم عما شملني من السرور عند زيارتي مركزي المرسلين الاميركان على نهر سبت والمرسلين النمسويين على النيل الابيض فالاول للانجيليين والثاني للروم الكاثوليك ولا فرق عندي بين الفئتين فكلتاهما قد اجادتا في ادارة امورهما كل الاجادة . على اني اوافق جناب السر رجينلد ونجت وكل اصحاب السلطة المسؤولين في هذه البلاد على ان وقت السماح للمرسلين بالتبشير بين مسلمي السودان لم يزل بعيداً . ولكن المساعي التي تبذل بين القبائل الوثنية في المقاطعات الجنوبية تستحق كل ما يمكن من التشجيع والمساعدة

« ولكني اعلم ايها السادة اننا مع كل هذا التقدم لم نزل في بداءة العمل . فالسودان يحتاج الى زيادة عظيمة في السكان والسكك الحديدية والريّ والموظفين الانكليز للامور القضائية والاجرائية والمعلمين والابنية بل السودان محتاج الى كل شيء سوى الرمل والتماسيح والعيسنت فان ما فيه منها فوق الكفاية . وواضح جلياً ان كل هذه الاحتياجات الثمينة لا يمكن سدها في آن واحد . اما بشأن النفقات السنوية فلا يمكن ان ينتظر من الحكومة المصرية او بكلمة اخرى من المصريين الذين يدفعون الضرائب ان يعملوا زيادة عما يعملون الان فانهم يدفعون الى السودان سنوياً اكثر من ثلاثمائة وخمسين الف جنيه . وقد آلوا على انفسهم تقديم هذه الاعانة بلا نقص الى مدة معينة لكي تخصص الزيادة في ايرادات السودان للمشروعات السودانية . وقد دفعوا اكثر من نصف مليون جنيه للكولونل ماكولي لتحسين السكك الحديدية الحالية وسيطلب منهم مبالغ باهظة للانفاق على مهام اخرى كما سيجيء . وعليه أرى من المهم ان نعلم ما هي الاصلاحات التي يجب أن نبدأ بها اولاً

«واظنكم توافقونني على ان امامنا امرين يستوجبان الاصلاح هما في الدرجة الاولى من الاهمية : الاول تحسين البلاد مادياً وثانيهما تحسينها ادبياً وعلمياً

«اما بشأن الاول فقد ايدت لي زيارتي هذه انهُ لا يمكن ان تتقدم البلاد تقدماً مادياً سريعاً ما لم تكن المواصلات بين السودان والبحر المالح سهلة وسريعة . فان المسافة الطويلة من هنا الى الاسكندرية عقبة شاقة في سبيل التجارة وهل يرجى نجاح سريع لتجارة السودان وثمن الطن من الفحم الحجري في الخرطوم من اربعة جنيهات الى ستة ؟ وربما يحسن ان اقول هنا ولو اني لا اقول بملء الامل انهُ يرجى وجود الفحم الحجري جنوبي الخرطوم فان اكتشافاً كهذا لهو اثمن من اكتشاف الذهب لانه يغير مسألة ترقية السودان تغييراً حسياً ؟ واعود الى ما كنت بصدده فاقول انني اعتبر مد خطٍ حديدي الى سواكن ضرورياً جداً لتقدم هذه البلاد وهذا الخط يقتضي نحو مليونين ونصف مليون من الجنيهات . ومن الصعب ايجاد مبلغ عظيم كهذا . ولكني اعدكم انني عند عودتي الى مصر سأبذل جهدي في تنفيذ هذا المشروع باسرع ما يمكن والعمل جار الآن كما تعلمون في تخطيط الطريق . وقد انفق مبلغ من المال لتحسين ميناء سواكن ؟ على انني اسمع احياناً بان هذا الخط الحديدي على ما بهِ من الفائدة للسودان مضرّ بمصلحة مصر لانهُ يحول التجارة عن وادي النيل ولكنني لا أرى هذا الرأي لسببين : الاول لان من المهم جداً لمصر ان يكون السودان قادراً على القيام بنفقاته وذلك لا يتم الا بوجود طريق مناسب قليل النفقة لتصدير تجارتهِ . والثاني لان المسألة الرئيسية ليست تحويل التجارة من مجراها الاصلي بل هي مسألة انشاء تجارة جديدة للبلاد وهذه التجارة لا يرجى لها نجاح يذكر الا بفتح طريق بين النيل والبحر الاحمر

«اما بشأن الامر الثاني وهو امر التعليم فاقول انهُ من الصعب جداً حكم بلاد ما حق الحكم بدون مساعدة ادارية من اهلها . والهيئة الحاكمة في السودان الان هي اجنبية محضة لان المصريين كما لا يخفى هم اجانب كالانكليز وكلا الفريقين قائم بمهام عظيمة . ويحسن بنا ان نذكر هنا ان قد مست الحاجة الى مثل هذه الهيئة في بلاد اوغنده المجاورة للسودان . على ان في توظيف كل من المصريين والانكليز في السودان حالات طبيعية مساعدة وحالات معاكسة : اما المصريون فهم

من وجه مرتبطون مع معظم سكان هذه البلاد بجامعتي اللغة والدين وهاتان الجامعتان هما من اقوى الروابط بين الحاكم والمحكوم ومن وجه آخر فانهم مضطرون الى مقاومة الخرافات المتأصلة في عروق الاهلين منذ اجيال بعيدة ٭ وهنا احذر كل موظف مصري في هذه البلاد ان اقل حياد عن طريق العدالة المثلى لهو مضرٌّ بسلطة سمو الخديوي المعظم المشارك لجلالة الملك ادوارد السابع في حكم هذه البلاد وان عليهِ احترام رغائبهما احتراماً وطنياً خصوصياً ٠ وتلك الرغائب هي رغائب كل حكومة عادلة مستقيمة ٭ واما الانكليز فعليهم تعلم لغة صعبة وهم وان كانوا يحترمون دين السكان الا انهم لا يشاركونهم فيهِ ولكن يساعدهم ما فطروا عليهِ من القدرة على الحكم والرغبة الخالصة في اسعاد البلاد التي يحكمونها

« واری انهُ من الضروري جدا بذل الجهد في اسعاف الموظفين الانكليز والمصريين بضم موظفين سودانيين اليهم كلما سنحت الفرصة ٠ فالسودانيون امة مجيدة وكثيرون ممن يسمعون خطابي قد ساعدتهم الاحوال على تأييد هذه الحقيقة وهي ان في السودانيين صفات هي اسُّ كل الصفات الوطنية فهم اصحاب بأس وشجاعة ولكنهم ايضاً لسوء الحظ اميون جدًّا ولذلك فالعقبات التي تحيط بهم كثيرة شاقة ٠ اقدم لكم على ذلك مثالاً : كلٌّ يعلم ان النظام المتبع في السجون باعطاء علامات حسن السلوك مفيد جدًّا وحدث اني طالعت في هذه الاثناء تقريرًا للكبتن بورتن مفتش سجون السودان قال فيهِ انهُ لم يستطع ادخال هذا النظام في السجون السودانية لان السجانين عموماً مع اتصافهم بصفات حميدة يجهلون القراءة والكتابة

« ولست اشك ان حضرة السر رجينلد ونجت الذي لا يني اللسان بمدح ما يأتيهِ من ضروب الاصلاح والتحسين في السودان سيبذل كل ما في وسعهِ لايجاد فئة من السودانيين يمكنها عما قليل ان تملأ الوظائف الصغرى في دوائر الحكومة٠ واما تعليم العلوم العالية فلم يحن وقتهُ بعد فاذا حصرنا اهتمامنا في تعليم الكتابة والقراءة وعلم الحساب جنينا نتائج مرضية ٠ واني اصدق رأي المستر كري في عدم استصوابهِ الالحاح في تعليم العلوم باللغة الانكليزية

والآن اقول لكم شيئاً يشجعكم على الاستمرار في عملكم المجيد بغيرة لا تنقص: لا تقنطوا اذا لم تحصلوا على كل ما ترومونهُ دفعة واحدة ففي مدة ٤٥ سنة قضيتها في السياسة كنت دائماً اسعى لاتمام اغراض شتى مست الحاجة اليها ولكنني أوكد لكم انني لم اظفر الا بالقليل منها ٭ ومن الاشياء التي اروموها للسودان عدا سكة حديد سواكن مد خط حديدي الى كسله واذا امكن الى حدود الحبشة ليس بقصد الوصول الى مدينة الراس البعيدة بل لفتح سوق تجارية لترويج حاصلات البلاد ٠ ثم اريد ان استثمر الجزيرة وان امد خطاً حديدياً الى الابيض لجلب صمغ كردوفان الى الخرطوم٠ واريد انشاء خزان او خزانين على النيل الازرق ٠ واما السدّ فاني اريد ان اقطعهُ ار باواخرجهُ من تلك المستنقعات الملأى بالبعوض والحشرات وان آتي بآلات تجرف الوحول الراسبة في قعره ٭ وهنا اشكر همم الكولونل بيك والماجور ماتيوس وغيرهما من الضباط الذين عانوا المشاق في فتح طريق للملاحة في السدّ لان ليس احد يستطيع ان يدرك المشاق التي تكبدوها في هذا السبيل الا بزيارة تلك الجهة ٭ واريد عدا ما ذكر اشياء يطول شرحها ولكني اعلم اني لا استطيع الحصول عليها كلها دفعة واحدة وعليهِ فاني اكرر القول الا تقنطوا ٭ واذكر انهُ منذ مدة ليست بعيدة كان الامل بارتقاء مصر اظلم جداً من الامل بارتقاء السودان الآن فكل ما تبغونهُ تنالونهُ في وقتهِ٠ فانتم اهل للنجاح وانا واثق ان امامكم في المستقبل نجاحاً اعظم من نجاحكم في الماضي

«واخيراً اشكر لحضراتكم صبركم على سماع خطابي هذا وانني من صميم فؤادي على سعادة السر رجينلد ونجت واللادي ونجت وغيرهما لترحيبهم بي واكرامهم اياي مدة زيارتي لهذه البلاد وساعود الى مصر حافظاً لهذه الزيارة اطيب ذكرى اه »

﴿ تقرير اللورد كرومر سنة ١٩٠٢ ﴾ وجناب اللورد كرومر يعنى بالسودان الآن عناية خاصة وهو يفسح قسماً مهماً من تقريره السنوي لوصف حال السودان وبيان الوسائل التي تبذل لترقية شؤونهِ وتمدينهِ ويدرج فيهِ تقرير الحاكم العام وجل ما يجيء في تقارير رؤساء المصالح والمديرين السنوية ومما جاء في تقريرهِ لسنة ١٩٠٢ نقلاً عن تقرير السر رودلف فون سلاطين باشا مفتش السودان العام :

«ان احوال البلاد عموماً على احسن مايرام فكنت حيثما ذهبت أجد قرى ومزارع جديدة لم تكن في السنة الماضية وقد ازداد الاهالي عدداً وثروة وزاد عدد مواشيهم وساد الامن في البلاد كافة والجميع راضون عن الحكومة الحاضرة كل الرضى»

(مذكرة الحاكم العام عن سنة ١٩٠٢) وختم اللورد كرومر تقريره بمذكرة رفعها الماجور جنرال السر رجينلد ونجت باشا سردار وحاكم السودان العام في ١٨ يناير سنة ١٩٠٣ عن سير التقدم في السودان في اثناء سنة ١٩٠٢ وجلّ ما فيه :

«ان المفاوضات التي كانت جارية في تعيين حدود السودان تمت على ما يرام سنة ١٩٠٢ واهمها تعيين الحدود بين السودان والحبشة في ١٥ مايو ١٩٠٢ وقد نشرت بنصها واهم ما جاء فيها : اولاً ان الحد الفاصل بين السودان والحبشة خط يرسم من خور ام حجر على نهر ستيت الى القلابات فالنيل الازرق فوق فامكة فنهر بارو فنهر بيبور فنهر اكوبو فمليله الى تقاطع خط الدرجة الـ ٦ من العرض الشمالي بخط الدرجة الـ ٣٥ من الطول شرقي كرينوج * ثانياً ان لا يبنى بناء على النيل الازرق وبحيرة تسانا ونهر سبت من شأنهِ ان يمنع جري الماء الى النيل الا باتفاق الفريقين * ثالثاً ان تؤجر ارض بجوار ايتنج على نهر بارو للحكومة السودانية لتدبر امورها وتحتلها جاعلة اياها محطة تجارية * رابعاً ان تعطى الحكومة السودانية حقاً في انشاء سكة حديد تمر في ارض الاحباش وتصل بين السودان واوغنده

«واما الحد الفاصل بين السودان والاريتريا فقد جرى الاتفاق على استبدال الحد المعين في اتفاق ١٦ ابريل ١٩٠١ بحد يبتدئ من سبدرات ويمتد بطريق ابي جمل حتى يصل الى ملتقى خور ام حجر بنهر ستيت

«وقد عقد اتفاق على البوستة وآخر على التلغراف بين حكومة اريترية وحكومة السودان

«وارسلت الحكومة المصرية رسالةً الى بحيرة تسانا وسافر السر وليم جارستن من ممباسا الى البحيرتين وسيعود منهما الى القاهرة بطريق النيل (وقد عاد اليها الآن)

«واقصى محطة جنوبية تابعة للحكومة السودانية هي منجالا على بعد ٢٠ ميلاً من كوندوكرو التي هي أبعد نقطة شمالية من المديريات النيلية التابعة لاوغندة

امامقاطعة اللادو واشهر نقطها كيرو واللادو والرجاف فلايزال البلجيون محتلين لها ولم يتم الاتفاق بعد على تعيين الحدود هناك . على ان سلطة الحكومة السودانية تمد تدريجاً على مديرية بحر الغزال . وابدى الاهالي رغبتهم في الانحياز الى الحكومة المصرية والخضوع لها . ما عدا دنكة اجار فانهُ بينما كانت حملة سائرة بالزاد من شامبي الى اورمبك في اوائل السنة بقيادة اللفتننت سكوت باربور هجمت عليهِ هذه القبيلة وقتلتهُ وقتلت معظم رجاله مكرًا وغدرًا . فخف القائمقام اللفتننت كولونل هنتر قومندان بحر الغزال الى محل الواقعة وارسلت حملة صغيرة من الخرطوم بقيادة الكبتن ستاك فعاونتهُ على تأديبها وطلب شيوخ القبيلة العفو فعفي عنهم

« ثم ان قطع السد في هذا النهر افضى الى فتح مجرى يصلح للملاحة بين مشرع الريك وواو بعدان قضى اللفتننت فل وضباط آخرون نحو سنة وهم يجاهدون في قطعهِ

« وذهبت رسالة برئاسة المستر براون مدير الاحراش والغابات للنظر في غابات بحر الغزال فاكتشفت مقادير عظيمة من شجر الصمغ الهندي (اللستك) ويؤمل ان يوسع نطاق التجارة بهِ كثيرًا . ومن سوء الحظ ان هواء بحر الغزال مضرٌّ بالاوربيين خصوصاً وقد فقدنا بهِ ضابطاً عظيماً وهو اللفتننت كولونل هنتر بالحمى السوداء

« ويقال في كردوفان بوجه عامٍ انها تقدمت تقدماً ظاهرًا في السنة الماضية وان تجارة الصمغ تحسنت كثيرًا والسكان زادوا زيادة محسوسة والفضل في ذلك كلهِ ناجم عما يبذلهُ المدير الكولونل ماهون من الهمة والغيرة والاقدام بمساعدة جماعة صغيرة من الضباط والموظفين الانكليز لا تقلُّ عنهُ همة واقداماً

« اما علي دينار سلطان دارفور التابع لنا فقد كان سلوكهُ مرضياً من كل وجه . فانهُ دفع الجزية السنوية الصغيرة المفروضة عليهِ باكملها وزالت قلاقل الحدود التي اشرت اليها في تقرير السنة الماضية واتسع نطاق التجارة بين كردوفان ودارفور وجلب عدد وافر من البقر الجيدة الى كردوفان . وقد نجحت مساعي السر رودلف سلاتين نجاحاً خصوصياً في هذه الانحاءِ فان معرفتهُ التامة لها ونفوذهُ الشخصي بين القبائل الغربية المختلفة كان لهما اليد الطولى في العلائق الحسنة التي بين دارفور والحكومة السودانية

«وأما مديرية دنقلة فلا تزال تتقدم بادارة الكولونل جكسون ولكن انفراد مركزها الجغرافي ووقوعها بعيدة عن حركة التجارة على خط سكة الحديد الممتدة الى الخرطوم افضيا الى البحث في مسألة مهمة وهي كيف تعامل سكة حديد الكرمة في الاستقبال

«وقد زادت الحركة التجارية زيادة عظيمة في سواكن بسبب مشروع سكة الحديد التي ستوصلها بالنيل . والمرجح ان الخط يخترق سلسلة الجبال المجاورة سنكات وينتهي الى وادي الاتبره فيلتقي بالخط العمومي قرب جسر (كبري) الاتبره . والمنتظر ان هذه السكة تغير وجه التجارة السودانية تغييرًا عظيماً

«واما مديرية بربر فقد تحسنت تحسنًا عظيماً وزاد ايرادها زيادة كبيرة . وهي بلاد زراعية محضة وسيفيدها مد سكة الحديد بينها و بين سواكن فائدة جزيلة

«ومن الدلائل المهمة على ان اهالي السودان يزيدون رضاء بحالتهم عدد العرائض التي ترفع اليَّ بصفة كوني حاكمًا عامًّا . فقد كانت ترفع اليَّ في الثلاث السنين الاولى عدة آلاف كل سنة ولكنها هبطت سنة ١٩٠٢ الى ست مئة عريضة فقط »

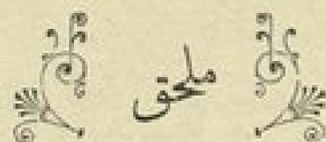
ثم اشار الى تقدم الخرطوم وغيرها من مدن البلاد وامتدح همة الكولونل فرند مدير الاشغال وختم بالثناء الجميل على الكولونل ناسون والمستر بونهام كارتر واللفتننت كولونل برنارد وعلى سائر رؤساء المصالح والمديرين ومعاونيهم من الشبان الانكليز وغيرهم لما ابدوهُ من الغيرة والهمة والاقدام في خدمة البلاد تحت ادارته ... اه »

هذه اشهر الخطب والتقارير التي جاء بها اللورد كرومر والسر رجينلد ونجت بشأن السودان وفيها جلّ ما تمّ فيه وما يرجى لهُ من الاصلاح في المستقبل القريب

﴿ ختام ﴾ ويسرُّني ان اجعل ختام كتابي خطب هذين النابغتين وتقاريرهما واتمنى لكل بلاد منيت بالظلم والفساد ان تنشل منها كما نشل السودان وتسعد بعناية رجل عظيم حكيم كاللورد كرومر وهمة حاكم عدل كريم كالسر رجينلد ونجت باشا

﴿ انتهى ﴾

وكان الفراغ من تأليف هذا الكتاب يوم ٢٧ اكتوبر سنة ١٩٠٣ بعد اختبار نحو ٢٠ سنة في السودان واهله * وقضاء جلّ ساعات الفراغ الثمينة مدة سبع سنين متوالية في جمع مواده وتمحيص حقائقه * وسنة ونصف سنة في تبييضه وطبعه * والحمد لله اولاً وآخراً *



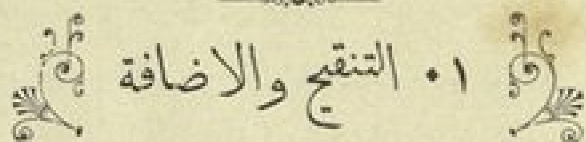
ملحق

تاريخ السودان وجغرافيته

«كتب في ٣١ ديسمبر سنة ١٩٠٣»

يعلم القارئ اللبيب ان كتاباً مثل هذا استغرق تبييضهُ وطبعهُ سنة ونصف سنة وقد وُصف السودان فيهِ وصفاً تناول كل موضوع من مواضيع الجغرافيـة الوصفية والادارية والتاريخ القديم والحديث في نحو ١٢٠٠ صفحة لا بدّ لهُ من ملحق يضم كل اضافة أو تنقيح اوجبهُ مرور الزمن ومتابعة الاستقراء في اثناء الطبع . ويصلح ما وقع في الطبع من الخطاء والسهو ولو قلّ . لذلك اردفتهُ بهذا الملحق حرصاً على زيادة اتقانهِ واستيفاء حوادثهِ الى يوم صدوره (٣١ ديسمبر سنة ١٩٠٣)

وقد ضمَّنت هذا الملحق كل ما يحتاج اليهِ المسافر الى السودان من المعدات والمعلومات واؤمل ان اجدّدهُ كل سنة حتى تنفد الطبعة الاولى واوفق الى طبعة ثانية والله الموفق الى الصواب :



١ . التنقيح والاضافة

في

الجزء الأوَّل : الجغرافية

مديريات السودان الانكليزي المصري

(صفحة ٦٩ : ٧٢) ذلك كان التقسيم الاداري للمديريات في اواخر سنة ١٩٠٢ وقد جرى بعض التغيير في المأموريات وبُدّل لقب محافظة حلفا وفاشودة وسواكن بلقب مديرية وغيّر اسم مديرية فاشودة بمديرية النيل الاعلى واسم المدينة نفسها الى كودوك فأصبح اسماء المديريات ومأمورياتها الآن كما يأتي :

المديريات	ماموريانها
مديرية حلفا	حلفا . المحس وسكوت
مديرية دنقله	ارقو . دنقله الاوردي . الخندق . الدبة . كورتي . مروي
مديرية بربر	الرباطاب . بربر . مدينة بربر . الدامر . شندي
مديرية الخرطوم	مدينة الخرطوم
مديرية الجزيرة	الكاملين . المسلمية . رفاعة . ود رملي . عبود . الكوة . القطينة . قوز ابو جمعه
مديرية سنار	سنار . سنجة . ودمدني . الرصيرص . الدندر . دار الفونج . ابو نعامه
مديرية النيل الاعلى	كودوك
مديرية بحر الغزال	لا مأمورية فيها ومن مدنها الشهيرة الآن : واو . مشرع الريك . ديم الزبير . شك شك . تونج . اورمبيك . شامبي
مديرية كسله	كسله . القضارف . القلابات
مديرية سواكن	سواكن . طوكر
مديرية كردوفان	الابيض . بارة . الدويم . خورسي . النهود . السنوط الطيارة . الدلن . تندك (جنوبي كردوفان) . جديد
دارفور	الفاشر

خزان اصوان

(صفحة ٧٥) وقد تم الاحتفال بفتح خزان اصوان بحضور الجناب العالي الخديوي وسمو الدوق اوف كنوت وقرينته في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٠٢

مدينة الخرطوم

(صفحة ٩١) ووضع الحجر الاساسي لجامعها في ١٧ سبتمبر سنة ١٩٠٠ وسيتم بناؤه في اواسط السنة الآتية

الاستاذ محمد المهدي السنوسي

﴿ صفحة ١٢٨ ﴾ وقد توفي في واحة قرو في ٢٢ صفر سنة ١٣٢٠هـ ٣٠ مايو سنة ١٩٠٢م قبل العصر ودفن هناك في اليوم التالي . وقيل نقلت جثتهُ الى واحة الكفرة وسيدفن هناك ه وخلفهُ ابن اخيهِ السيد احمد الشريف فنقل زاويتهُ الى الكفرة وهو لا يزال فيها

موظفو مصالح الادارة المركزية

﴿ صفحة ١٦٣ ﴾ تلك المصالح والموظفون في سنة ١٩٠٢ واهم تغيير حصل الى الآن في موظفي مصالح الادارة المركزية انهم جعلوا لقب السكرتير الملكي «السكرتير جنرال»

وسمي القائمقام هول بك مساعدًا للسكرتير جنرال بدلاً من الشريف البكباشي جيمس الذي سمي مساعدًا لسكرتير مالي الحربية . وسمي البكباشي اون نائب مساعد السكرتير جنرال . والبكباشي الدرتون نائب مساعد سكرتير مالي السودان . والمستر هيتر قاضياً مدنياً . والمستر كروفوت مساعدًا لمدير المعارف . والمستر نقل مفتش الزراعة

المديرون

﴿ صفحة ١٦٤ ﴾ وسمي الميرالاي السر هل ماورنت بك بدلا من الميرالاي مكرل بك .
والقائمقام دكنسون بك على الجزيرة بدلاً من الميرالاي بلوت بك .
والميرالاي ولكنسون بك على كسله بدلاً من اللوا هنري باشا
واللوا سباركس باشا على سواكن بدلاً من القائمقام بلايفر بك

وسيعود سباركس باشا الى الجيش الانكليزي قريباً ويسمى هوارد بك مديرًا على سواكن مكانهُ وسمي الميرالاي اوكونل بك على كردوفان بدلاً من اللوا ماهون باشا والقائمقام بلنوا بك على بحر الغزال بدلاً من سباركس باشا

رؤساء الاقلام الملكيين في السودان

﴿ صفحة ١٦٥ ﴾ وسمي ابرهيم افندي مرقص باشكاتب المخازن في الخرطوم بدلاً من روفائيل افندي خليل المتوفي ه ونقل فرج افندي شحاده باشكاتب مديرية سنار . وامين افندي حداد باشكاتب مديرية الخرطوم احدهما الى مكان الاخر ه ونقل وليم

افندي زلزل من دنقله باشكاتباً لمديرية كردوفان بدلاً من ناصيف افندي جمل الذي نقل باشكاتباً لمديرية بحر الغزال . وسمي حسيب افندي اسطفان من مكتب السكرتير جنرال باشكاتباً لمديرية دنقله

وكالة حكومة السودان بمصر

(صفحة ١٦٦) لقد ذكرنا في خاتمة الكتاب تسمية النبيل اللورد ادوار سسل وكيلاً عاماً لحكومة السودان بدلاً من الكونت كليخن وذلك منذ ١٦ اوكتوبر سنة ١٩٠٣

وفي ١٦ يونيو سنة ١٩٠٣ ندب الشاعر الناثر اسعد افندي داغر من ادارة تحرير المقطم الاغر ليكون في عداد موظفي هذه الوكالة وعهد اليه برئاسة القسم الفني فاظهر فيهِ من الكفاءة والدربة والاستعداد ما قد عهدنا بهِ من قبل

الجيش المصري

(صفحة ١٦٦) واما الجيش المصري فقد جعل مركز الادجوتانت جنرال في الخرطوم ومساعد الادجوتانت جنرال في مصر ٭ ورقي القائمقام السيد بك ماجد الى رتبة ميرالاي وسمي قومنداناً للحرس الخديوي والموسيقى الخديوية وسمي القائمقام خلف بك خيري ياور خديوي مكانه

وسمي كلاً من القائمقام ش . ا . تشارلتون بك والبكباشي ا . ج . ف . فون ياوران للسردار والميرلاي فپس بك كاتم اسرار حربية وسكرتير سعادة السردار وحاكم السودان العام والقائمقام ستاك بك مساعد كاتم اسرار حربية ٭ وسمي اللواء هنري باشا ادجوتانت جنرال بدلاً من اللواء فرغوسن باشا الذي عاد الى الجيش الانكليزي

وسمي الميرالاي ابراهيم بك فتحي . والميرالاي ك . وطسن بك . والقائمقام بلمر بك . والقائمقام هربرت بك مساعدي ادجوتانت جنرال بدل من ذكرناهم آنفاً والبكباشي لمبرير بدل البكباشي بيلي الذي رقي الى رتبة قائمقام وعاد الى الجيش الانكليزي والبكباشي كليتون بدل البكباشي جاكسون ٭ وسمي القائمقام هوكر بك قومنداناً للهجانة ٭ والقائمقام جاكسون بك . والبكباشي تونسند . والقائمقام ستكول بك والميرالاي رفنسكروفت بك . والقائمقاميون غوردن بك وكونولي بك وماسي بك

وو يشو بك وسذرلند بك ومكلين بك قومندانات الاورط الاولى والثانية والثالثة المصرية والتاسعة والعاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة والخامسة عشرة السودانية والسادسة عشرة المصرية بدل من ذكرنا هناك

وسمي الميرالاي أسمر بك السكرتير المالي للجيش المصري بدلاً من القائمقام الجود بك الذي نقل الى الداخلية ٭ والميرالاي محمد بك توفيق ناظر مدرسة الحربية بدلاً من اللواء اسماعيل باشا سرهنك الذي نقل الى القرعة العسكرية ٭ ورقي عبد الغني باشا فؤاد الى رتبة لواء واحيل على المعاش

قوانين حكومة السودان

﴿ صفحة ١٧٠ ﴾ ذكرنا في هذه الصفحة ما قد تمَّ من القوانين الى حين طبعها في اواخر سنة ١٩٠٢ وجدَّ بعد ذلك الحين الى الآن القوانين الآتية :

قانون نزع الملكية سنة ١٩٠٣ ٭ قانون تقرير عوائد الحيوانات سنة ١٩٠٣ (ويعتبر مع قانون تقرير عوائد الحيوانات لسنة ١٩٠١ كقانون واحد) ٭ قانون حجج ملكية الاراضي سنة ١٩٠٣ (ويعتبر مع قانون حجج ملكية الاراضي سنة ١٨٩٩ كقانون واحد) ٭ قانون عوائد الدخولية على الصمغ وغيره سنة ١٩٠٣ ٭ قانون المشروبات الروحية سنة ١٩٠٣ ٭ قانون اكتشاف غش الصمغ الهندي والقوتابرخا سنة ١٩٠٣ ٭ قانون زيت البترول سنة ١٩٠٣ ٭ قانون حمل الاسلحة النارية سنة ١٩٠٣ ويلغي قانون الاسلحة سنة ١٨٩٩ ٭ قانون وقاية الحيوانات والطيور البرية سنة ١٩٠٣ وهو يلغي قانون سنة ١٩٠١ ٭ قانون السكة الحديدية سنة ١٩٠٣ ٭ قانون اراضي مدُن مديرتي كسلا وكردوفان سنة ١٩٠٣

المدارس الاميرية الجديدة

﴿ صفحة ١٧٢ ﴾ نقلت مدرسة المعلمين التي كانت في أم درمان الى كلية غوردن في الخرطوم في ٢ نوفمبر سنة ١٩٠٣ وفيها الآن ٣٥ تلميذاً

المدارس الخصوصية في السودان

﴿ صفحة ١٧٣ ﴾ عدا ما ذكرنا : مدرسة المرسلين الاميركان الانجيليين على نهر سُبَت

ومدرسة المرسلين النمساويين الكاثوليكيين على نهر النيل الابيض جنوبي كودوك ٥ وقد باشر المرسلون الاميركان انشاء مدرستين أخريين احداهما في الخرطوم والاخرى في حلفا

وابورات السودان

﴿ صفحة ١٧٣ ﴾ وابورات البريد والركاب بين شلال اصوان وحلفا هي : أيبس ٠ تنجور ٠ طوشكي ٠ امبقول ٠ سمنة ٥ وبين الخرطوم وكوندوكرو : عباس باشا ٠ دال ٠ عكمه ٠ خيبر ٠ وكلها لحكومة السودان الملكية

ولقومبانية استعمار السودان ثلاثة وابورات وهي : « غوردن » لنقل البريد والركاب بين الخرطوم وقوز ابي جمعه ٠ « والاتبرة » « وكري » لنقل البضائع في النيلين الابيض والازرق

تلغراف السودان

﴿ صفحة ١٧٦ ﴾ السطر الذي قبل آخر الصفحة من قوله الى الدويم الخ اصبح الآن : الى الدويم فالابيض ٠ وفي سنة ١٩٠٢ مدَّ من الدويم الى الرنك ففاشودة فالتوفيقية ﴿ صفحة ١٧٧ ﴾ نمرة ٣ بربر ٠ سواكن ٠ طوكر ٠ كسلا ٠ القضارف ٠ القلابات ٠ ومدني ٥ نمرة ٦ الخرطوم قوز ابو جمعه ٥ نمرة ٧ الخرطوم ٠ الدويم ٠ الرنك ٠ فاشودة ٠ التوفيقية ٥ ويوجد الآن مكتب لتبادل الاشارات التلغرافية بين حكومتي الارثريا والسودان في سبدرات

وفي سنة ١٩٠٣ مدت خطوط التليفون في الخرطوم فأم درمان فالحلفايا ولكنهُ لم يزل منحصرًا في مكاتب الحكومة والهمة مبذولة في توسيع نطاق هذه المصلحة التي تعهد بادارتها القائمقام لدِل بك

بريد السودان

﴿ صفحة ١٨٧ ﴾ سطر ١ : كاملين بدل رفاعة ٥ سطر ٤ : التوفيقية بدل سُبت ٥ سطر ٥ : القضارف ٠ القلابات بدل قوز رجب على الاتبرة ٥ سطر ٦ : النهود بدل بارة

صفحة ١٨٤ تعريفة وابورات البر والبحر الاعتيادية

الطريق	المسافة بالاميال	درجة اولى غ · ص	درجة ثانية غ · ص	درجه ثالثة غ · ص
من الشلال الى حلفا (بالنيل)	٢٢٦ ٢٠٣	٤٠٠ ذهاب ٣٠٠ اياب	٢٠٠ ذهاب ١٥٠ اياب	٤٠ ذهاب ٣٠ اياب
من حفا الى الكرمة (بسكة الحديد)			٢١٣ $\frac{1}{2}$	٧١
من حلفا الى الخرطوم (بسكة الحديد)	٥٧٥	٥٧٥	٤٠٢ $\frac{1}{2}$	٢٠١ $\frac{1}{2}$
من الخرطوم الى الرصيرص (بالنيل الازرق)	٣٨٠	١٠٢٦	٣٣٢	١١٤
من الخرطوم الى مشرع الرك (ببحر الغزال)	٧٤٠	٢١٣٨	١٠٣٦	٢٤٧
من الخرطوم الى كوندوكرو (ببحر الجبل)	١٠٨١	٢٩١٨ $\frac{1}{2}$	١٥١٣ $\frac{1}{2}$	٣٦٠ $\frac{1}{2}$

﴿ التعريفة في المفتخر ﴾ هذه هي التعريفة الان بالوابورات العادية . وقد اعدت حكومة السودان وابورات مفتخرة للسياح في البر والبحر تقوم من الشلال الى الخرطوم و بالعكس مرتين في الاسبوع وجعلت التعريفة في وابورات النيل من الشلال الى حلفا ٥٠٠ غرش ومن حلفا الى الشلال ٤٠٠ غرش · ثم من حلفا الى الخرطوم بسكة الحديد مع عربة النوم ١٠٠٠ غرش ذهاباً و١٦٠٠ غرش ذهاباً واياباً وذلك كلهُ بلا اكل ه واما تعريفة الاكل في وابورات النيل ٦٠ غرشاً في اليوم درجة اولى و٣٠ درجة ثانية وفي سكة الحديد ٧٥ غرشاً في اليوم درجة اولى

هذا ويقوم من مصر الى الشلال ٣ قطارات مفتخرة في الاسبوع بعربات اكل ونوم الى الاقصر فيرتبط اثنان منها بقطاري الشلال الى الخرطوم · ويدفع المسافر من مصر الى الشلال في الدرجة الاولى ٢٦١ غرشاً عدا اجرة الاكل والنوم الى الاقصر التي تبلغ ١٢٠ غرشاً وفي الدرجة الثانية ١٣٠ $\frac{1}{2}$ غرشاً وفي الدرجة الثالثة ٦٥ غرشاً

اوقات السفر

﴿ من مصر الى الخرطوم ﴾ فالمسافر من مصر الى الخرطوم في المفتخر يخرج من مصر الاحد او الاربعاء الساعة ٦ $\frac{1}{2}$ ب · ظ فان خرج الاحد وصل

الشلال الاثنين مساء ووجد وابور النيل مستعداً فيسير بهِ الى حلفا ولا يقف الا في ابي سمبل للتفرج على هيكلها ويصل حلفا في يوم الاربعاء الساعة ٤ ب ٠ ظ ثم يركب القطار المفتخر من حلفا الى الخرطوم فيصلها في يوم الجمعة الظهر ٭ وهكذا اذا قام من مصر الاربعاء مساء يصل الخرطوم يوم الاثنين الظهر ٭ ووابور المفتخر يحمل البريد من مصر الى حلفا وجنوبيها وذلك في فصل الشتاء. واما في الصيف فلا يسير من الشلال الا عند الاقتضاء

واما المسافر من مصر الى الخرطوم بالاعتيادي فيجد وابوراً من مصر كل مساء الساعة ٨ ب ٠ ظ ٠ ويجد من الشلال الى حلفا وابورين في الاسبوع يقوم كل منهما يوم قيام المفتخر ولكنهُ يقف عند عدة قرى في الطريق اخصها كلابشة والعلاقي وكورسكو والدر وابريم ٠ ويجد من حلفا قطاراً الى الخرطوم كل يوم ولكنهُ لا يجد طعاماً في القطار

﴿ من حلفا الى دنقلة ﴾ ويجد من حلفا الى الكرمة قطاراً كل اسبوع ويجد في الكرمة وابوراً يحملهُ في النيل الى دنقلة بيومين ثم الى مروي بثلاثة ايام

﴿ من بربر الى سواكن او كسلة ﴾ واما المسافر من بربر الى سواكن فيقتضي عشرة ايام على الجمال على معدل ٢٥ ميلاً في اليوم واما هجن البريد فتصل بثمانية ايام

﴿ في النيل الابيض ﴾ ثم ان المسافر من الخرطوم في النيل الابيض يجد وابوراً كل اسبوع الى الدويم يصل اليها بيومين والمسافر الى جنوبيها يجد في الخرطوم وابوراً كل اسبوعين ٭ ويركب الجمال منها الى الابيّض فيصلها بستة ايام

﴿ في النيل الازرق ﴾ واما النيل الازرق فلا يصلح للسفر الا مدة ارتفاع النيل كما مرَّ وفي هذه المدة يجد المسافر وابوراً من الخرطوم الى الرصيرص كل اسبوعين

المعدات اللازمة للمسافر الى السودان

﴿ الكتب والخرط والجرائد ﴾ اما المعدات اللازمة للمسافر الى السودان فمن اهمها: الكتب التي تبحث عن السودان ٠ وهذا الكتاب قد تكفل بتاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيتهِ واجمال حالهِ وفيهِ خارطة عمومية في اهم بلادهِ ومدنهِ والبلاد المجاورة لهُ

ومن اراد التوسع في تاريخ الثورة المهدية وجد في الانكليزية مؤلفات الماجور ونجت (السردار الحالي) الشهيرة وهي : « المهدية والسودان المصري » « واسر عشر سنين في السودان » للاب اوهر ولدر « والسيف والنار في السودان » للسر ردولف سلاطين باشا الشهير ٠ وفي العربية : كتاب تاريخ الثورة المهدية للكاتب النبيل جبرائيل بك حداد ٠ وكتاب السودان بين يدي غوردن وكتشنر لابراهيم باشا فوزي ٠ وتاريخ مصر الحديث للمؤرخ المتفنن جورج افندي زيدان صاحب الهلال ٠ وهي اهم ما كتب في السودان الى الآن

ومما يفيد المسافر الاطلاع عليهِ الغازت السودانية وهي الجريدة الرسمية لحكومة السودان وجريدة « السودان » التي تصدر في الخرطوم وقد تقدم لنا وصفها

﴿ الملبوسات ﴾ ويلزمهُ من الملبوسات ما يناسب البلاد الحارة الكثيرة الغبار ونذكر هنا على سبيل التذكرة : بدلات تيل اسمر ٠ بدلات تيل ركوب ٠ بدلات رسمية ٠ بدلات جوخ للشتاء اذ يشتد البرد في الصباح والمساء ٠ قمصان بيض تكوى او لا تكوى وهذه افضل ٠ وجزم سوداء او صفراء وهذه افضل ٠ وجزم ميدان لبلاد كردوفان وبحر الغزال وكسله وسنار وفاشودة حيث يكثر المطر والشوك ٠ وطرابيش مبطنة بقش او برانيط واسعة وهذه افضل

﴿ المأكولات ﴾ ويجد المسافر اللحم والفراخ والبيض والخضر في اكثر البلاد العامرة ولكنهُ اذا خرج لسفر الى الجهات النائية عن المدن فلا بد لهُ من المأكولات المحفوظة في العلب كعلب المربّى على انواعهِ وعلب اللحم والشوربة والخضر والخل والزيت والشاي والسكر والملح والفلفل والجبن ونحوها

﴿ معدات النوم ﴾ ولا بد للمسافر من سرير سفر وسجادة وحرامات صوف وملايات ومخدات وبانتوفلي عال لتوقي العقارب وناموسية لتوقي البعوض في بعض المحال

﴿ معدات الغسل والتزيين ﴾ ويلزمهُ ادوات الغسل والتزيين من امواس وفرش ومرآة سفر وطشت وابريق وحمام صاج ومناشف وشمعدان وفانوس وشمع

﴿ معدات الطبخ والمائدة ﴾ ويلزمهُ للطبخ والمائدة طاولة صاج سفرية وكراسيّ

سفر وشوك وسكاكين وملاعق وصحون وفناجين وكبايات صفيح ابيض وآنيـة صاج للشاي والطبخ ومصفاة • وسكين كبير بشفرتين متينتين ومفتاح للعلب وبريمة • وشنتة صغيرة يضع فيها اكلهُ وزمزمية يضع فيها ماءَهُ في اثناء السفر وقربة ماء تحمل على الجمال

﴿ معدات الركوب ﴾ ومن احب ركوب الخيل فليأخذ معهُ سرج حصان بجميع معدَّاتهِ • اما المخلوفة لركوب الابل فليشترها من السودان

﴿ الادوية ﴾ ومن اهم لوازم المسافر مجموعة من الادوية المركبة اقراصاً او حبوباً كحبوب روس التي يتجر بها الدكتور نقولا غمر في القاهرة واهمها : الكينا لمعالجة الحمى • ومسحوق دوفر لمعالجة وجع المعدة والحمى • وزيت الخروع او عرق الذهب لمعالجة الديزنتاريا والكلورودن او سليسات البزموت لمعالجة الاسهال وكلورات البوتاس لمعالجة التهاب الحلق • ونفستنين للتعريق ومداواة وجع الرأس • وسليماني لغسل الجروح ومقص ومشمع ونسالة واربطة لضمد الجروح • وثرمومتر طبي • وروح النشادر لمداواة لسع العقرب • وعصير الليمون لمنع الاسكربوط وكونياك في زجاجة بغلاف من قش • ونفتالين لوقاية الثياب من العث • وحزام صوف لتدفئة المعدة والامعاء

﴿ الخدَم ﴾ ولا بد للمسافر من خادم لهُ المام بالطبخ يعتني بأمتعتهِ وطعامهِ وغسيلهِ

﴿ معدات شتى ﴾ ومما يلزمهُ شمسية واسعة متينة • ونظارة كبيرة لتقريب الابعاد • ونظارات ملونة لتوقي الغبار • ومحك لمعرفة جهة السير • وساعة يد سفرية • وسنارة لصيد الاسماك • وبندقية لصيد الطيور • ودفتر مفكرات • وابر وخيطان وازرار ودبابيس تجمل في محفظة من قماش • ودواة واوراق واقلام ومغلفات توضع في محفظة من جلد

﴿ معلومات شتى ﴾ تروج النقود المصريةُ في جميع بلاد السودان الا في بحر الغزال وفاشودة فان اهلها يتعاملون بانواع معلومة من الخرز رخيصة جداً وفي حدود الحبشة حيث يتعاملون بريالات ماريا تاريسا وقيمة الواحد منها نحو ١١ غرشاً • ولا تلزم الكلاب والبيسكلات في السودان لان الهواء لا يناسبها

ومما يجب الانتباه اليهِ : عدم الخروج في الشمس بلا برنيطة او طربوش ولو كانت الشمس محجوبة بالغيوم • وعدم رمي اعقاب السجاير بقرب هيشة او هشيم

وعدم الاستحمام في النيل فان في ذلك خطرًا من التيار والتماسيح فضلاً عن ان الاستحمام في النيل يجلب الحميات . ومن رام الصيد خارج المدن فلا بد له من زاد يوم وماء ومحاك وكبريت وليحذر من فراغ قربته الا اذا تأكد وجود الماء حيث يصيد

﴿ الجزء الثاني : تاريخ السودان القديم ﴾

﴿ صفحة ٣٤ سطر ٢٤ ﴾ منها تمثال اسد نقله خورشيد باشا احد ولاة السودان السابقين الى مصر وتمثال اوسيرس احد آلهة المصريين القدماء مصنوع من الغرانيت الاسود نقله احد الالمانيين الى الكاملين وشاهده لبسيوس هناك سنة ١٨٤٤ م

﴿ الجزء الثالث : تاريخ السودان الحديث ﴾

﴿ صفحة ٩٤ سطر ١٢ ﴾ ان الجناب العالي استدعى اولاد السلطان ابراهيم الذين اتى بهم الى مصر فوجدهم دون البلوغ فندب الامير عبد الشكور ابن الامير عبد الرحمن ابن السلطان حسين وانعم عليه بلقب باشا والنيشان المجيدي الاول وجعل له راتبًا قدره ١٢٠ جنيهًا في الشهر ووجهه الى الفاشر فما وصل دنقلة حتى قامت قيامة المهدي فرجع الى اسيوط وسكن فيها الى اليوم

﴿ ولاية عبد القادر باشا حلمي ﴾

بعد الفراغ من الكلام على ولاية عبد القادر باشا في الخرطوم توفقت الى الاجتماع بهذا القائد الباسل في حلوان فجرى لي معه حديث طويل بشأن ولايته في السودان آتي منه هنا على ما فاتني ذكره في محله :

﴿ صفحة ١٣٢ ﴾ قلت المشهور انك لم تسلّم بحملة الشلالي على المهدي في قدير وان الحكومة أذنت فيها قبل قيامك من مصر على الضد من رأيك ؟ قال لا بل انا سلمت بها ايضًا بناء على الحاح جيكار باشا في وجوب الاسراع بارسالها واعتمادًا على ان الحاضر يرى ما لا يراه الغائب

﴿ صفحة ١٤٣ ﴾ ثم قلت بلغني انك علمت بحركة الشريف احمد طاها في ابي حراز وانت في بربر فدلك الصاغ سرور افندي بهجت على طريقة في الهجوم كفلت له النصر فهل هذا صحيح وما هي تلك الطريقة ؟ قال نعم دعوته الى غرفة

التلغراف وامرتهُ ان يشكل اورطتهُ طابورًا واحدًا في صفين ويجعل بلوكاً من العساكر وراء كل جناح من جناحي الطابور ثم يهاجم العدو بقصد الموت او النصر فاذا حاول العدو ان يأتيهُ من الجانبين صدَّهُ البلوكان اللذان في الجناحين واذا حاول ان يدور من خلفه صدهُ الصف الخلفي من الطابور فتحدَّى الامر وفاز بالنصر

﴿ صفحة ١٤٤ ﴾ ثم قال وعند وصولي الخرطوم وجدت عددًا قليلاً من العساكر مخيمين في ظاهرها بلا متاريس ولا حصون فشرعت في الحال في حفر خندق يصل بين النيلين الابيض والازرق وخفت اذا قلت للاهالين اني احصن المدينة ان يستضعفوني وينصروا المهدي فقلت لهم اني احفر ترعة للوصل بين النيلين وتسهيل الملاحة . ولما تمَّ الخندق شرعت في تجنيد العساكر المتطوعة فجمعت ٩ آلاف رجل وسلحتهم بخمسة آلاف بندقية رمنتون احضرتها معي من مصر وبما وجدت في مخازن الخرطوم . وقد وجدت في الخزينة ١٢٠ الف جنيه فاستعنت بها على تجنيد العساكر وتحصين المدينة ومقاومة الثورة سنة كاملة

قلت اصحيح انك ارسلت سماً الى المهدي في قدير فنجا منهُ ؟ قال نعم ولكن سبق رسولي اليهِ رسول من الزبير ود ضوه فحذَّرهُ منهُ . واوعزت الى محمد شريف باشا والياس باشا ام برير فارسلا اليهِ سماً من الابيض ولكن عاد الياس باشا فارسل اليهِ رسولاً وحذرهُ منهُ

﴿ صفحة ١٤٥ ﴾ قلت المشهور عند اهل السودان انك قتلت الزبير ود ضوه في الخرطوم مع جماعة من الكتاب لمواطأتهم الدراويش في سنار ؛ قال نعم اردت تأديبهُ فطلب العفو وحلف لي يمين الطاعة فعفوت عنهُ وجعلتهُ معاونًا في الخرطوم فصنع لي المعجون الذي ارسلتهُ الى المهدي . ولما دعوت الاهلين لتجنيد خدمهم السود تكفل بجمع اورطتين من سنار وما وصل سنار حتى هاج اهلها من جوره وعلمت انهُ هو الذي حذر المهدي من السمّ فاستدعيتهُ الى الخرطوم وسجنتهُ قصد محاكمته ففرَّ ؟ من السجن الى حيث !

﴿ صفحة ١٥٥ ﴾ قلت وما سبب انحياز الياس باشا ام برير الى المهدي أو لم يكن في الامكان انقاذ الابيض من السقوط ؟ قال اما الياس باشا فقد انحاز الى المهدي

نكاية بمحمد سعيد باشا مدير الايض ومحمد بك دفع الله من كبار تجارها لانهُ وقع بينهُ و بينهما عداء شديد وقد اضطررت الى عزل محمد سعيد باشا تلغرافياً وسميت محمد شريف بك مديراً على الايض ارضاء لالياس باشا فاظهر الرضى وكمن الحقد

اما الايض فاني بذلت جهد المستطاع في انقاذها فلم اوفق الى ذلك : ارسلت اليها اورطة سرور افندي بهجت التي جاءت لنجدة جيكلر في ابي حراز (بناء على طلبي لها وانا في اسيوط) * ثم ارسلت اليها اورطة باشا افندي حماد التي استدعيتها من القضارف عند سماعي بانكسار سرور بهجت في ابي حراز * ثم باورطتين من الخطرية والباشبوزق بقيادة علي بك لطفي فهوجموا اقرب بارة كما علمت * ولما لم يعد في الامكان انجادها من الخرطوم طلبت المدد من مصر بالحاح فابطأ المدد وكان ما قدّره الله

﴿ صفحة ١٤٩ ﴾ قلت وهل كان في وسع مصر اذ ذاك ان ترسل الجند وكم جندياً طلبت ؟ قال طلبت ١٠٠٠٠ جندي ترسل في ستة اشهر في عهد وزارة رياض باشا فاجابني ان الجيش المصري قد الغي وليس في الامكان انجادك بالعساكر فدبّر الامر بحكمتك وكان اول المعارضين في ارسال النجدة اسماعيل باشا ايوب وهو اذ ذاك ناظر الداخلية * فلما مضت الستة اشهر ولم تأتني النجدة رفعت استعفائي فجاءني تلغراف من الجناب العالي كلهُ عتاب ونصيحة وفي الختام يقول فيهِ « اننا الححنا على الحربية في ارسال النجدة » * ولما لم تأتني النجدة استعفيت ثانية فاهتمت الحكومة اذ ذاك بالامر وشرعت في ارسال العساكر تباعاً بطريق سواكن وهم جيش عرابي الملغى

فلما وصلت الاورطة الاولى بقيادة عبدالله الكردي الى الخرطوم كان زعماء الثورة يحشدون الجموع في الجبلين فجردتها عليهم مع جيكلر باشا الذي لم يلبث أن عاد بها الى الكوة ودعاني الى غرفة التلغراف وقال « لما وصلنا الجبلين ارسلت بلوكاً سودانياً كنت اخذتهُ من الكوة لاستكشاف العدو فرآهُ متوارياً عنا بغابة كثيفة فامرت الاورطة بمهاجمتهِ فأبت بحجة انهُ اقوى منها وقالت لم يؤتَ بنا الى هنا الا لاعدائنا لا ناعرابيون » فامرتهُ بحبس القومندان وسلّم الاورطة للصاغ وعاد الى الخرطوم

ثم جاءت الاورطة الثانية والثالثة فارسلتهما مع صالح بك المك و بعض الباشبوزق

لقتال الدراويش على النيل الازرق فما وصلوا المسلمية حتى اتاني تلغراف من صالح الملك يقول فيه « ان العساكر تصرح بأني متفق معكم على قتلهم لانهم عرابيون » .
وكان في الخرطوم اذ ذاك الكولونل ستيورت وقد جاءها من قبل دولته ليقدم لها تقريرًا عن حالة البلاد المالية والعسكرية فعهدت اليه بأعمال الحكمدارية وجئت الى المسلمية فوجدت الضباط من رتبة قائمقام فما دون يعتقدون ان محمد احمد هو المهدي الحقيقي ولا يأمنون جانب الحكومة فبينت لهم فساد اعتقادهم وامنتهم ونشطتهم وقلت ها انا سائر امامكم ودخلت بهم الجزيرة . فما وصلت عبود حتى كان هكس باشا قد سمي رئيسًا لاركان حرب العساكر في السودان وصدر لي الامر بايقاف الحركات العسكرية . وكانت الجزيرة اذ ذاك مشتعلة بنار الثورة وود كريف قد جمع الجموع قرب معتوق واحمد المكاشف يحاصر سنار فقلت في الجواب « عبثًا نحاول ايقاف الحركات العسكرية في مثل هذه الاحوال لاننا ان تركنا الدراويش فهم لا يتركوننا » ثم زحفت على ود كريف في معتوق فمزقت شمله واتيت الى الكوة حيث كانت الاورطة الاولى فضممتها الى عساكري وجعلت سليم بك عوني قائدًا عليها كلها وارسلته بطريق الجزيرة الى ود مدني ليبقى في انتظاري فيها بقصد الزحف على احمد المكاشف ورفع الحصار عن سنار . وكنت قد ارسلت وابور بوردين الى بحر الغزال لجلب المرد منها للعسكر فعاد وانا هناك فجئت به الى الخرطوم لتفقد احوالها ﴿ صفحة ١٥٠ ﴾ وهناك بلغني سرًّا ان علاء الدين باشا قد سمي حاكمًا عامًا للسودان فتجسست الخبر من المعية فلاح لي انهُ صدق فقلت لهم « اني ارسلت الجيش الى النيل الازرق بقصد رفع الحصار عن سنار وهو الآن في انتظاري في ود مدني أاقف عند هذا الحد ام اتقدم لرفع الحصار » فأجبت اولاً بالبقاء في الخرطوم ثم بالتقدم لرفع الحصار فذهبت الى سنار واوقعت في احمد المكاشف « واقعة الداعي » ورفعت الحصار
قلت بلغني انك قبل مباشرة القتال في هذه الواقعة نزلت عن جوادك وقيدتهُ في وسط المربع وقلت للعساكر هنا الموت او النصر فهل الامر كذلك ؟ قال انما قيدت جوادي لانهُ كان جموحًا يجفل من اطلاق الرصاص فاتخذ العساكر ذلك علامة

ية النصر او الموت فحاربوا حرب الابطال وفازوا بالنصر . وقد حارب الدراويش ايضاً مستقتلين وهاجمونا قاصدين اختراق المربع فقتل اكثرهم قريباً جداً من الصفوف وفاز رجل منهم بالدخول الى المربع فقبض عليهِ واتى بهِ اليَّ فلما مثل بين يديَّ قال لي اسلم يا كافر فزجرتهُ وسألتهُ عن احمد المكاشف ومكانهِ فلم يجب بكلمة

ثم تقدمت الى سنار فاتاني الخبر اليها من الخرطوم بسقوط الابيض وبارة وعلمت من التجار ان علاء الدين باشا وصل الخرطوم فلم أبالِ وتقدمت واوقعت واقعة التبنة . وهناك بلغني ان علاء الدين اعلن رسمياً امر تسميتهِ والياً على السودان فرجعت الى سنار فوجدت حسين باشا شكري قد حضر لاستلام العساكر فاخبرتهُ بالذي كنت عازماً عليهِ وجئت الى الخرطوم ثم الى مصر

﴿ صفحة ٢١٣ ﴾ قلت أصحيح انك ندبت لانقاذ الخرطوم فابيت ؟ قال نعم ندبت اولاً في وزارة شريف باشا وكنت اذ ذاك بلا وظيفة فأبيت لاني اعتبرت ان الموظفين هم اولى مني باقتحام مثل هذه المخاطر . ثم دعيت ثانية في وزارة نوبار وكنت اذ ذاك ناظراً للحربية فقلت اذهب بشرط ترك القول باخلاء السودان . وقد نويت لو قبلوا بشرطي ان اجمع العساكر بين الخرطوم ودنقلة واسلم كل مديرية من مديريات شرقي السودان وغربيهِ الى شيخها الاكبر واضع عندهُ رايةً وقليلاً من العساكر لاتقاء شر المذابح فلم يرضوا بهذا الشرط

﴿ صفحة ٣١٩ ﴾ قلت أصحيح ايضا انك دعيت لحماية دنقلة بعد خروج العساكر الانكليزية منها سنة ١٨٨٥ فأبيت ؟ قال نعم لاني دعيت لحمايتها بالعساكر التي كانت فيها قبل الحملة وعشرة آلاف جنيه في السنة فوق ايرادها فبينت لهم فساد هذا الرأي وقلت اذا اريد حفظ دنقلة وقمع الثورة فلا بد من ارسال ١٥ الف جندي الى دنقلة في الحال . و ١٥ الفاً في السنة التالية لفتح بربر و ١٥ الف جندي في السنة الثالثة فوقهم لفتح الخرطوم . وذلك يقتضي ٣ ملايين جنيه تجعل تحت امر الفاتح قبل الشروع في العمل : ولكن لم يكن في وسع الحكومة اذ ذاك اجابة هذا الاقتراح فسلمت البلاد الى اهلها فكان من امرها ما كان » اه

٢٠ اصلاح خطأ

الجزء الاول : الجغرافية

ص	س	خطأ	صواب	ص	س	خطأ	صواب
١٤	١٤	١٦٠٤	٦١٠٤	٩٩	١٨	١٦١	٦١
٣٩	٢٢	حول	حولها	١٠١	٥	١٨٤٠	١٨٤١
٧٧	٧	٢؟	٢٣٠	١٣٥	٥	يوضع	يوقّع
٧٩	٢٢	١٨؟	١٨٦٤	١٣٥	٦	خاصاً	خلماً
٩٢	٢٣	اربعة	سبعة	١٥٥	٢٢	ابنهُ	ابن اخيهِ

الجزء الثاني : تاريخ السودان القديم

ص	س	خطأ	صواب	ص	س	خطأ	صواب
٥٤	١٨	٦٨٠ هـ	٨٦٠ هـ	٩١	١	ويعضِ	ولم يعضِ
٥٨	١	الباب الثاني	الباب الثالث	١٣٨	٣	كما سيجيءُ	كما مرّ

الجزء الثالث : تاريخ السودان الحديث

ص	س	خطأ	صواب	ص	س	خطأ	صواب
٣	٢	خليل	الشيخ خليفة	٢٩٣	١٢	احمدي	فوزي محمود
٦٣	٤	١٨٢٦م	١٨٦٢م	٢٩٣	٢١	١٨٨٤	١٨٨٥
٩٧	١٤	اخيهِ	ابن اخيهِ	٢٩٨	٩	القباني	العتباني
٩٩	٩	١٨٩٥هـ	١٢٩٥هـ	٢٩٨	١٠	القباني	العقاد
١٥٢	١٧	١٨٧٢	١٨٨٢ م	٣١٠	١٦	ابن اخيهِ	الميرفابي
١٥٥	٣	احمد اغا	محمد أغا ياسين	٣١٦	١٣	المشاة	الفرسان
١٦٨		نظيم افندي	لم يقتل	٤٨١	١٧	١٨٨٨	١٨٨٩
١٦٨	١١	بارة	خورسي	٤٨٧	١٥	١٨٩٩	١٨٨٩
١٧٥	٧	سنة ١٨٨٢	سنة ١٨٨٣	٥٦٠	٩	فركب	فأرسل
١٨٠	١٤	صفر	حفر في جهة عالية	٥٦٧	٢٢	٩٨	٨٩
٢٦٠	٩	٣٠ ستمبر	٢٩ ستمبر	٥٦٩	١٠	١٩٠٣	١٨٩٣
٢٦٢	٧	١٨٨٤	١٨٩٨ م	٢٧٢	٢٠	١٨٩١	١٨٩٦

فهرس الكتاب

« مرتبة فيه المواضيع على حروف الهجاء »

« ١ »

«ك»

(تم)

الجزء الثالث

في تاريخ السودان الحديث

الخرط والاختام والرسوم

١ · الرسوم

٢٠ . الاختام

٣٠ . الخرط

